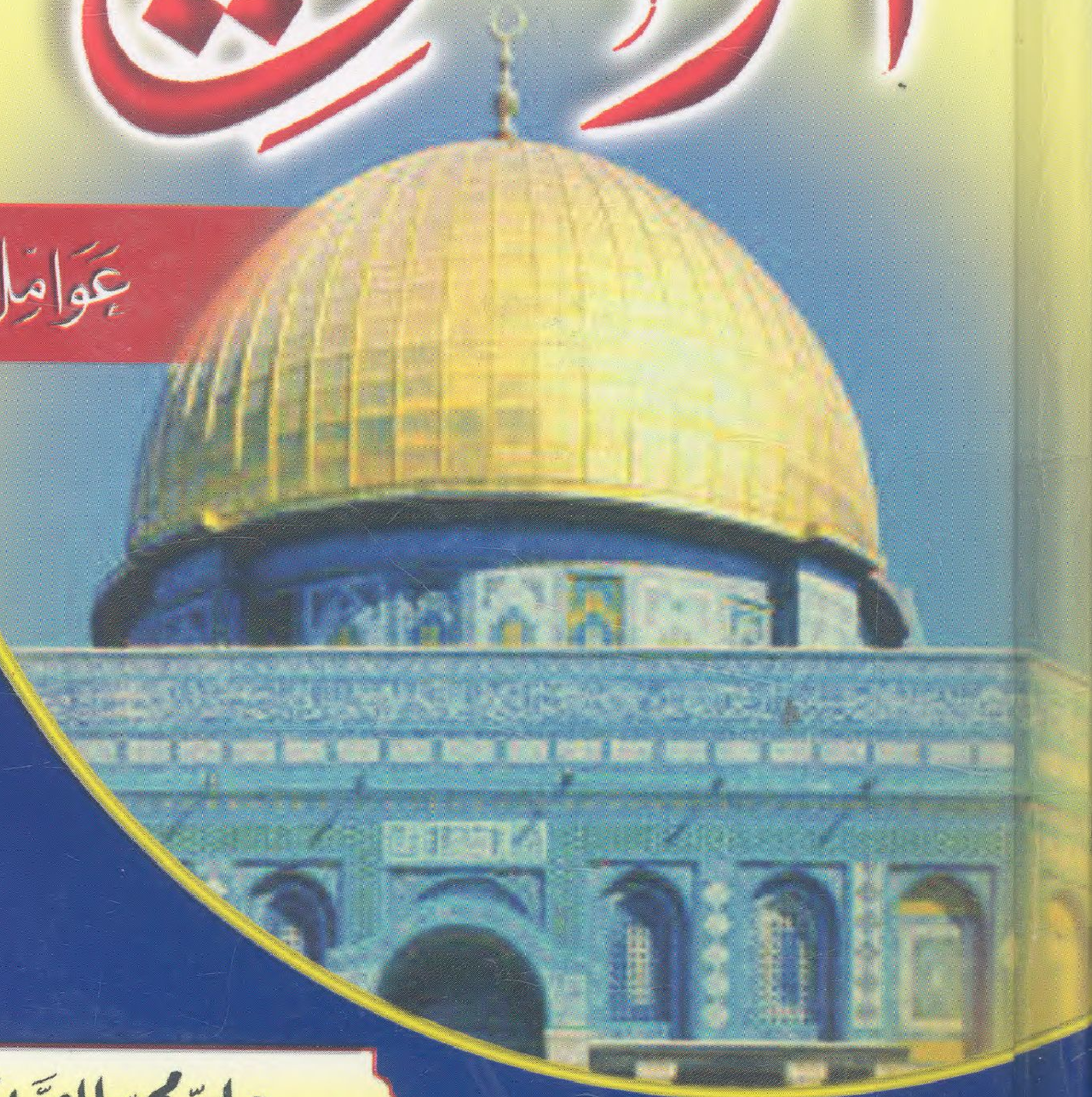
الدولة الأموية

1

معاوية بن أبى سفيان
يزيد بن معاوية
معاوية بن يزيد
مروان بن الحكم
عبد الملك بن مروان
الوليد بن عبد الملك
سليمان بن عبد الملك
عمر بن عبد العزيز

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

يزيد بن عبد الملك
هشام بن عبد الملك
الوليد بن يزيد
يزيد بن الوليد
مروان بن محمد



د. علي محمد الصلابي

الدولة الأموية

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

الجزء الأول

تأليف الدكتور
علي محمد محمد الصلابي

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٣٧١٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N

977-6119-65-4

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ شارع أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط

تليفاكس: ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠/٥٢٢٤٢٠٧

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله تعالى أهدى هذا الكتاب، سائلاً المولى - عز وجل - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف : ١١٠]

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، أما بعد:

فهذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها: «السيرة النبوية -عرض وقائع وتحليل أحداث» ، «أبو بكر الصديق» ، «عمر بن الخطاب» ، «عثمان بن عفان» ، «على بن أبى طالب» ، «الحسن بن على» ، رضى الله عنهم جميعًا، وقد سميت هذا الكتاب: «الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار» . ويتحدث هذا الكتاب عن الجذور التاريخية للأسرة الأموية، وشهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين، وموقف بنى أمية من الدعوة الإسلامية، وعن الأمويين الذين أسلموا منذ بداية الدعوة الإسلامية وعن المصاهرات بين بنى هاشم وبنى أمية، وعن شخصية معاوية بن أبى سفيان وعصره رضى الله عنه، فيتطرق لاسمه ونسبه وكنيته وأسرته، وعن إسلام أبى سفيان والد معاوية رضى الله عنه، وعن هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنها، وعن إخوان وأخوات معاوية، ويتحدث عن زوجات معاوية وأولاده، وعن إسلام معاوية رضى الله عنه وشىء من فضائله، وعن رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ ، وعن الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحًا وذمًا، ويتكلم الكتاب عن دور بنى أمية فى عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلافة الراشدة، ويشير إلى متى بدأ نجم معاوية فى

الظهور؟! وعن ولايته على دمشق وبعلبك والبلقان فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلاقته بعمر رضى الله عنهما، ويبين الكتاب جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام، وعن سنّ نظام الصوائف والشواتى فى عهد عمر، وعن تكوين أسطول إسلامى فى البحر، وعن أعمال معاوية فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنهما، فيوضح فتوحاته فى عهده، وإصراره فى الطلب من عثمان السماح له بالغزو البحرى، وعن غزوه لقبرص واستسلام أهلها وطلب الصلح، ثم نقض القبارصة للصلح، ثم فتحها، ويتعرض الكتاب لحقيقة الخلاف بين أبى ذر ومعاوية وموقف عثمان رضى الله عنه منه.

ويرد الكتاب على الشبهات التى ألصقت بعثمان رضى الله عنه، كاتهامه بإعطاء أقاربه من بيت المال، وتعيينه لأقاربه فى مناصب الدولة على حساب المسلمين، ويتطرق الكتاب لأسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه؛ كالرخاء وأثره فى المجتمع، وطبيعة التحول الاجتماعى فى عهده، وظهور جيل جديد، واستعداد المجتمع لقبول الشائعات، ومجىء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصبية الجاهلية، وتوقف الفتوحات بسبب موانع طبيعية أو بشرية، والمفهوم الخاطىء للورع، وظهور جيل جديد من الطامحين، ووجود طائفة موتورة من الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضى الله عنه، واستخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس، ودور عبد الله ابن سبأ فى تحريك الفتنة، وموقف معاوية بن أبى سفيان فى الفتنة، ويتحدث عن مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأى معاوية فى ذلك، وعن مقتل عثمان وموقف الصحابة منه، وعن معاوية فى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنهما.

ويتطرق الكتاب إلى اختلاف الصَّحابة فى الطريقة التى يؤخذ بها القصاص من قتلة عثمان، وإلى معركة صفين، وإلى تسلسل الأحداث ابتداءً من إرسال أم حبيبة أم المؤمنين بنت أبى سفيان النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام، ودوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم بيعة على رضى الله عنه، ورده على أمير المؤمنين على، وعن تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام، وإرساله جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل لدعوته للبيعة، ومسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام، وخروج معاوية إلى صفين، وبداية المناوشات بين الطرفين، والموادعة بينهما ومحاولات الصلح، ثم نشوب القتال، ثم الدعوة إلى التحكيم.

ويتكلم الكتاب عن مقتل عمّار بن ياسر رضى الله وأثره على المسلمين، وعن المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة، ومعاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وعن عدد القتلى، وعن تفقد أمير المؤمنين على للقتلى وترحمه عليهم، وعن موقف لمعاوية مع ملك الروم فى تلك الأحداث، وعن قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين، وعن إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه على أن تستمر المعركة، وعن نهى أمير المؤمنين على شتم معاوية ولعن أهل الشام، وعن التحكيم، وعن نص وثيقة التحكيم، وعن قصة التحكيم المشهورة وبيان بطلانها، وعن حقيقة قرار التحكيم، ومكان انعقاد المؤتمر..

وأشار الكتاب إلى إمكانية الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض المنازعات بين الدول الإسلامية.

هذا وقد بينت موقف أهل السنة والجماعة من تلك الحروب، وتكلمت عن تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين، وعن المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما، وعن استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله، ثم تحدثت عن المشروع الإصلاحى الكبير فى عهد الحسن بن على والذى توّج بوحدة الأمة وذلك بتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنهما، وأشرت إلى مراحل الصلح وشروطه وأسبابه ومعوقاته، ونتائجه، كما وضحت الفقه الكبير فى مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد، وفقه الخلاف الذى تميز به الحسن بن على والذى بنى عليه مشروعه الإصلاحى العظيم، والذى ترتب عليه دخول الأمة الإسلامية فى مراحل جديدة تمّ فيها بيعة معاوية رضى الله عنه من كل الصحابة الأحياء وأبناء الأمة، ووضحت صفات معاوية رضى عنه والتى من أهمها: العلم والفقه، والحلم والعفو، والدهاء والحيلة، وعقليته الفذة، وقدرته على الاستيعاب، وتواضعه وورعه، وبكاؤه من خشية الله، ونقلت ثناء العلماء على معاوية، وأشرت إلى دخول دولة بنى أمية فى خير القرون التى قال فيها رسول الله ﷺ: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(1)، وتحدثت عن عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول ﷺ فى فضائل أهل الشام، وعن أهل الحل والعقد فى عهد معاوية رضى الله عنه، وعن الشورى، وحرية التعبير، وعن سياسته الداخلية، من الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة، وأبنائهم، وحسن علاقته مع الحسن والحسين وابن الزبير وابن عباس وغيرهم رضى الله عنهم، وبينت بطلان تعميم معاوية سب أمير المؤمنين علىّ على منابر الدولة الأموية، وزعم

(1) البخارى، رقم ٦٦٩٥ .

بعض المؤرخين بأن معاوية سمّ الحسن بن على، فأثبتُّ بالحجج العلمية والبراهين الساطعة بطلان ذلك أيضًا، وتعرضت لموقف معاوية من قتلة عثمان بعد أن أصبح أمير المؤمنين، وكذلك مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، وموقف عائشة أم المؤمنين من مقتله. كما أوضحت حرص معاوية على مباشرة الأمور بنفسه وتوطين الأمن فى خلافته، فتحدثت عن مجلسه فى يومه، وعن الدواوين المركزية التابعة له، كديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وعن نظام الحجابة، والحرس، والشرطة، وعن حسن اختياره للرجال والأعوان، وعن استخدامه للمال فى تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب، واتباعه سياسة الشدة واللين، وسياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيتهم، واتخاذه سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته وجعل الناس يميلون إليهم، وعن اهتمامه بجهاز الاستخبارات، وبناء الجيش الإسلامى وتطويره، وعن فقهه الكبير فى سياسة الموازنات بين القبائل والعشائر وأعيان المجتمع، وعن سياسته مع الأسرة الأموية، وتكلمت عن حياته فى المجتمع وعن اهتماماته العلمية والتاريخية والشعرية واللغوية والعلوم التجريبية، وأفردت مباحث فى علاقته بالخوارج، ووسائله فى تحجيم دورهم وإضعافهم، وبينت النظام المالى فى عهده، ومصادر دخل الدولة، كالزكاة، والجزية، والخراج، والعشور، والصوافى، والغنائم، وعن النفقات العامة، كالنفقات العسكرية، والإدارية، والاجتماعية، واهتمامه بالزراعة والتجارة الداخلية والخارجية، والحرف والصناعات، وأثرت قضية الشبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية وناقشتها بعلم وإنصاف، كالتفرقة فى العطاء وكذبة إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص، وكالتوسع فى إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار، ومظاهر الترف عند الأمويين، وأفردت مبحثًا عن القضاء فى عهد معاوية، والدولة الأموية، وصلته بالعهد الراشدى، وتخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء وفصل السلطات، ومرتبات القضاة، وتسجيل الأحكام والإشهاد عليها، وأعوان القضاة، كالمنادى والحاجب، والترجمان أو المترجم، والمراقبة والمتابعة، وعن مصادر الأحكام القضائية فى العهد الأموى، وعن اختصاص القضاة، وذكرت أسماء أشهر القضاة فى عهد معاوية، كما أشرت إلى ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عمومًا، وإلى خطاب عمر بن الخطاب إلى معاوية رضى الله عنهما فى القضاء، وتكلمت عن مؤسسة الشرطة فى عهد معاوية وواجباتها، كحماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم فى الداخل، ومعاقبة المذنبين والخارجين عن القانون، وتنفيذ العقوبات الشرعية، وعن قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة كالحرس والعرفاء، وصاحب الاستخراج أو العذاب، وجهاز الحسبة، ونظام المراقبة، ومؤسسة الدرك، وتحدثت

عن مؤسسة الولاة والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه، وأهم الأقاليم التابعة لدولته، وأسماء أشهر ولاته وأهم أعمالهم فى تلك الأقاليم.

وعندما تحدثت عن المدينة النبوية ترجمت لشخصية أبى هريرة رضى الله عنه حيث توفى بها عام ٥٨ هـ أو ٥٩ هـ وقد عاش فى عهد معاوية ما يقرب من ثمانى عشرة سنة، وقد تعرض هذا الصحابى الجليل لهجمة ظالمة من قبل أعداء الصحابة فى القديم والحديث وتلقفت تلك الاتهامات الباطلة مجموعة من المستشرقين؛ فرأيت لزامًا علىّ أن أدافع عن هذا الصحابى الجليل الذى يعتبر من أكبر رواة السنة النبوية الشريفة، فعرَّفت به وبشىء من حياته، كعبادته وعفافه وحلمه وعفوه، واهتمامه بالعلم، ورددت على الشبهات التى أثيرت حوله والتى هدفها التشكيك فيما وصل إلينا من سنة رسول الله ﷺ وذلك بالطعن فى هذا الصحابى الجليل رضى الله عنه، وكان لسان حالى فى مجادلة أولئك الكذابين قول الشاعر:

وإذا اضطررت على الجدال ولم تجد ... لك مهربا وتلاقت الصَّفَّان
فاجعل كتاب الله درعًا سابغًا ... والشرع سيفك وابدُ فى الميدان
والسُّنَّة البيضاء دونك جُنةً ... واركب جواد العزم فى الجولان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فالصبر أوثق عدة الإنسان
واطعن برمح الحق كل معاند ... لله درُّ الفارس الطعان
واحمل بسيف الصِّدق حملة مخلص ... متجردًا لله غير جبان

هذا، وقد وصفت حركة الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه، وقدمت بين يدى حركة الفتوحات مقدمه تناقش الشبهات التى ألصقت -كذبًا وزورًا وبهتانًا- بحركة الفتوحات. إن معاوية رضى الله عنه حمى وعزّز منجزات الموجة الأولى فى حركة الفتح التى قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هى التى بدأت فى عهد معاوية نفسه، واستمرت فيما بعد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد بن عبد الملك، لقد وصفت ما قام به معاوية من حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية واهتمامه بفتح القسطنطينية، وتخطيطه الإستراتيجى للاستيلاء عليها، كاهتمامه بدور صناعة السفن فى مصر والشام وتقوية الثغور البحرية بهما، واستيلائه على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط، وتحصينه أطراف الشام الشمالية، وقد قام بحصار القسطنطينية، وقد توفى أبو

أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية، وقد طلب أبو أيوب رضى الله عنه فى وصيته أن يدفن فى أقصى ما يمكن من أرض العدو ، وهذه صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل فى أرض العدو حيًا وميتًا، وكأنما لم يكفه ما حقق فى حياته فتمنى مزيدًا عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

هذا، وقد استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة برًا وبحرًا، وقد أرهق البيزنطيين وأذاقهم ألوان الضنك والخوف، وأنزل بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم يستطع اقتحام القسطنطينية بسبب عوامل عديدة سيراها القارىء فى الكتاب بإذن الله تعالى، وقد دخل معاوية فى علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية، وتم تبادل المراسلات والخبرات والسفراء فيما بين الدولتين الأموية والبيزنطية، وواصل معاوية فتوحاته فى الشمال الإفريقى، وانطلقت حملة معاوية بن حديج رضى الله عنه فى عهده، وبرز اسم عقبة بن نافع فى تلك الفتوحات، وقام ببناء مدينة القيروان بتونس اليوم، وكان ذلك فى عهد معاوية، وقد أصبحت القيروان مركز الإشعاع الحضارى الإسلامى بالمغرب وعاصمتها العلمية، وسيمضى القارىء مع الفتوحات فى الشمال الإفريقى حتى استشهاد عقبة -رحمه الله تعالى.

وتحدثت عن فتوحات معاوية فى الجناح الشرقى للدولة الأموية فى خراسان وسجستان وما وراء النهر، وعن فتوحات السند فى عهده ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات والتى من أهمها، أثر الآيات والأحاديث النبوية فى نفوس المجاهدين، وسنن الله فى الفتوحات، كسنة الله فى الاتحاد والاجتماع، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة الله فى الظلم والظالمين، وسنة الله فى المترفين، وسنة الله فى الطغيان والطغاة، وسنة التدرج، وسنة تغيير النفوس، والتخطيط الإستراتيجى للفتوحات عند معاوية، وسياسته تجاه الروم، وجبهة الشمال الإفريقى، وجبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر، وإدارته للشورى فى حركة الفتوحات، ومركزية القيادة والإمداد فى إدارته، ونظام الألوية والرايات، واهتمامه بالعيون والبريد، والحدود البرية للدولة، واهتمامه بالأسطول والحدود البحرية، وبديوان الجند والعطاء، والأثر العلمى والاقتصادى والاجتماعى فى عهده، وتحدثت عن بعض كرامات المجاهدين فى عهده.

إن من فضائل الدولة الأموية فى عهد معاوية وعبد الملك وابنيه الوليد وسليمان تلك الفتوحات الواسعة التى تمت على أيديهم، والتى امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين فى الشرق وبلاد الأندلس وجنوبى فرنسا فى الغرب، وكان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى الجهاد ويشهدون القتال، وكان الصحابة وكبار التابعين من ضمن تلك الجيوش، فحركة الفتوحات أشرفت عليها الدولة، وتفاعل معها المجتمع الإسلامى بكل ألوانه من العلماء والفقهاء والتجار والزهاد والعبَّاد، وتحركت تلك الجيوش فى المشارق والمغارب، كان الفاتحون لتلك الشعوب المترامية الأطراف قد جاءوها بالعدل والإحسان ومطالب الروح ومطالب البدن، وجاءوا إليهم بدين الإسلام الذى يقرّر الإنسانية بمعناها الصحيح فى هذه الأرض؛ لذلك كان الإسلام سريع المدخل إلى نفوسهم، لطيف التخلل فى الأفكار، قوى التأثير على الألباب والعقول، وجاء الفاتحون لتلك الشعوب بالحقائق التى سعد بها أصحاب محمد وأسعدوا بها تلك الأمم، قال الشاعر:

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى ... وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج فى شريعته التى ... جمعت فروعًا للهدى وأصولا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

لقد كانت الفتوحات الكبرى فى عهد معاوية والدولة الأموية دليلاً ملموسًا على حيوية الأمة وتفاعلها مع دين الله وحرصها على هداية الشعوب.

هذا، وقد تكلمت عن فكرة ولاية العهد والخطوات التى اتبعها معاوية لبيعة يزيد، من مشاورات، وحملات إعلامية، وقبول أهل الشام لبيعة يزيد، وبيعة الوفود، وطلب البيعة من أهل المدينة، واعتراض عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على رضى الله عنهم على تلك البيعة، وعن أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد، كالحفاظ على وحدة الأمة، وقوة العصبية القبلية، ومحبة معاوية لابنه وقناعته به، وعن الانتقادات التى وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد، وعن المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية، وعن الأيام الأخيرة من حياته، وعن دعائه وهو فى سكرات الموت وقوله: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك؛ فإنك واسع المغفرة، ليس لذى خطيئة مهرب إلا إليك. ثم مات.

وتحدث الكتاب عن عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأهم صفاته وبيعته وموقف الحسين بن على وعبد الله بن الزبير منها، والأسباب التى أدت إلى خروج الحسين والفتوى التى بنى عليها خروجه، وعزم الحسين على الذهاب إلى الكوفة ونصائح الصحابة والتابعين ورأيهم فى ذهابه إليها، وعن موقف يزيد من أحداث الكوفة ودور عبيد الله بن زياد فى القضاء على مسلم بن عقيل وأنصاره، وعن أحداث معركة كربلاء واستشهاد الحسين بن على رضى الله عنه، وعن المواقف الرائعة التى كانت بجانب الحسين رضى الله عنه، وموقف يزيد بن معاوية من قتله ومن أبناء الحسين وذريته، وبينت من المسئول عن قتل الحسين، وذكرت أقوال الناس فى يزيد بن معاوية وهل يجوز لعنه؟ وحذرت من الأساطير التى نسجت حول مقتل الحسين، رضى الله عنه ووضعت أهم الدروس والعبر والفوائد من سيرته فى نقاط، والتى كان من أهمها: هدى رسول الله ﷺ فى يوم عاشوراء، وآداب التعامل مع المصائب فى الإسلام، والتحقيق فى مكان رأس الحسين، وحكم الإسلام فى تقديس أضرحة الأئمة وزيارة قبر الحسين وقدسية كربلاء وهدى الإسلام فى زيارة القبور، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وخروج الحسين رضى الله عنه، واستغلال القوى المضادة للإسلام لمقتله وحادثة كربلاء، ثم تحدثت عن وقعة الحرّة، وما قيل حول انتهاك الأعراض فى تلك الوقعة، ودواعى فشل أهل المدينة فى تلك المعركة، وتكلمت عن حركة ابن الزبير فى عهد يزيد، وأسباب اختيار ابن الزبير لمكة فى مقاومته للحكم الأموى، وأسباب خروجه عليهم، والجهود السلمية التى بذلها يزيد لاحتواء ابن الزبير، والجهود الحربية أيضًا، وحصار الكعبة وضربها بالمنجنيق واحتراقها، ووفاة يزيد بن معاوية المفاجىء.

ثم تحدثت عن خلافة معاوية بن يزيد ومدة حكمه وتنازله عن الخلافة وتركه للأمر شورى، ثم ذكرت خلافة عبد الله بن الزبير، وشيئًا من سيرته وصفاته وبيعة الناس له بالخلافة؛ وكون بيعته كانت شرعية، فقد بايعه معظم المسلمين إلا إقليم الأردن، وبعض الشخصيات المهمة بالحجاز كعبد الله بن عمر وابن عباس ومحمد ابن الحنفية ثم تعرضت لخروج مروان بن الحكم على ابن الزبير وأهمية مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط فى حسم الصراع لصالح البيت الأموى، وتحدثت عن ضم مصر للدولة الأموية ومحاولتها لإعادة العراق والحجاز لهيمنتها، وعن تولى عبد الملك الزعامة الأموية بعد وفاة أبيه مروان، وبينت سياسته الداخلية وترتيبه للأولويات فى الصراع حتى استطاع القضاء على الخليفة الشرعى عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، وأشرت إلى أهم أسباب سقوط خلافة ابن الزبير رضى الله عنه، ثم دخلت فى عهد عبد الملك بن مروان، وصراعه مع الخوارج، ودور المهلب بن

أبى صفرة فى القضاء على الخوارج الأزارقة، واهتمام الدولة الأموية بمحاربة الخوارج الصفرية، وترجمت لشخصيات من الخوارج كقطرى بن الفجاءة، وعمران بن حطان، وذكرت شيئًا من أشعارهم، وأشرت إلى أسباب فشل الخوارج فى عهد عبد الملك، وقمت بدراسة لثورة عبد الرحمن بن الأشعث وأسباب خروجه وموقف العلماء منها وأسباب فشلها، وتكلمت عن جهود عبد الملك فى توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية، وعن النظام الإدارى وأهم الدواوين التى كانت فى عهده كديوان الرسائل، والعطاء، والخراج، والخاتم، والبريد، وعن دوره فى تعريب الدواوين وأسباب ذلك والنتائج التى ترتبت عليه، وعن إدارته للإقليم، وألمحت للخطوط العامة لسياسته فى إدارة شئون الدولة، كالمشاورة، واعتماده على أهل الشام، ووضع الشخص المناسب فى المكان المناسب، ومتابعة أخبار الولاة، وتقديم الأقرباء فى المناصب، وحفظ التوازن القبلى، وتسامحه مع أهل الكتاب، واحترام وتقدير الشخصيات البارزة فى المجتمع، وتحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء، . . الخ، وترجمت لأهم ولاته كالحجّاج بن يوسف الثقفى، وذكرت النظام المالى فى عهده، وأشرت إلى القطاع الزراعى والصناعى، ودور عبد الملك فى إحداث دور ضرب العملة، وتعريب النقد، وتطرقت للعمارة والبناء، والنظام القضائى، والشرطة فى عهده، واهتمامه بالعلماء والشعراء، وأفردت فصلاً كاملاً عن الفتوحات فى عهده وعهد ولديه الوليد وسليمان لكى نعطى صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها، ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات، كأسباب دخول الإسلام فى البلاد المفتوحة، كعالمية الدعوة، والمعاملة السمحة الكريمة من المسلمين، وكتفسير حركة التعريب بين الشعوب من هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة، وتعريب الدواوين، وتفوق الحضارة الإسلامية. . الخ وتحدثت عن عقد عبد الملك لولاية العهد ثم لابنه الوليد ثم سليمان وموقف العالم الجليل سعيد بن المسيب من ذلك وما تعرض له من الابتلاء بسبب ذلك، وذكرت وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته ووصيته لبنيه، ثم دخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك وتحدثت عن أهم أعماله الحضارية والإنسانية، من توسيع المسجد النبوى، وبناء المسجد الأموى، والمستشفيات فى عهده، وكفالة الدولة للمحتاجين، وتطوير الطرق، وغير ذلك من الأعمال. وترجمت لزوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فذكرت خشيتها لله، وجودها وكرمها، وبينت بطلان ما ينسب إليها فى كتب الأدب فى قصتها المكذوبة مع وضاح اليمن، وحذرت من الأكاذيب والأباطيل التى تذكر أحيانًا فى كتب التاريخ والأدب فى حق مثل هذه التابعية الجليلة، ثم دخلت فى عهد سليمان بن عبد

الملك وتحدثت عن سياسته العامة، ومفهوم الشورى عنده، وسياسته فى اختيار الولاة، وسياسته تجاه الحركات المعارضة، وعلاقته بالعلماء، وتقريبه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة، ونسفت بعض الشبهات الملصقة بسيرته؛ كوصف بعض المؤرخين له بأنه المصيبة العظمى فى الأكل فبيّنت بطلان ذلك، ثم ذكرت جهود رجاء بن حيوة فى تولية عمر بن عبد العزيز.

ثم دخلت فى عهد الإصلاحى الكبير والمجدد الشهير عمر بن عبد العزيز، فتحدثت عن حياته وسيرته وطلبه للعلم وعن أهم أعماله فى عهد الوليد وسليمان، وعن خلافته وبيعته ومنهجه فى إدارة الدولة، واهتمامه بالشورى والعدل، وسياسته فى رد المظالم، وعزله لجميع الولاة الظالمين، ورفع المظالم عن الموالى وأهل الذمة، وإقامة العدل لأهل سمرقند، وعن الحريات فى دولته، كالحرية الفكرية والعقدية والسياسية والشخصية، وحرية التجارة والكسب، وذكرت أهم صفاته، كشدة خوفه من الله تعالى، وزهده، وتواضعه وورعه، وحلمه وصفحه وعفوه، وصبره، وحزمه، وعدله، وتضرعه ودعائه واستجابة الله له، وتحدثت عن معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز، كالشورى، والأمانة فى الحكم، وتوكيل الأمناء، وإحيائه مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومبدأ العدل، وعن شروط المجدد، كأن يكون معروفًا بصفاء العقيدة، وسلامة المنهج، وأن يكون عالمًا مجتهدًا، وأن يشمل تجديده ميدان الفكر والسلوك، وأن يعم نفعه أهل زمانه، وتكلمت عن اهتمام عمر ابن عبد العزيز بعقائد أهل السنة والجماعة، فى توحيد الألوهية، وفى باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وفى مفهوم الإيمان والإيمان باليوم الآخر والمعتقدات الغيبية، كعذاب القبر ونعيمه، والمعاد، والميزان، والحوض، والصراط، والجنة والنار، ورؤية المؤمنين ربهم فى الجنة، والدعوة للاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين، وموقفه من الصحابة والخلاف بينهم، وموقفه من أهل البيت.. وتحدثت عن معاملته للخوارج والشيعة والقدرية، وعن حياته الاجتماعية، واهتمامه بأولاده وأسرته، ومنهجه فى تربيته لأولاده كاختيار المعلم والمؤدب الصالح، وتحديد المنهج العلمى، وتحديد طريقة التأديب والتعليم، وتحديد أوقات وأولويات التعليم، ومراعاة المؤثرات التعليمية، وعن نتائج ذلك المنهج وتأثر ابنه عبد الملك به، وتكلمت عن حياته مع الناس، واهتمامه بإصلاح المجتمع، وتذكيره الناس بالآخرة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإنكاره العصبية القبلية، وتقديره لأهل الفضل، وقضائه ديون الغارمين، وفك أسرى المسلمين، وإغنائه المحتاجين عن المسألة، ودفع المهور من بيت المال، وجهوده فى التقريب بين طبقات المجتمع، ومعاملته للشعراء،

واهتمامه الكبير بالعلماء، ومشاركتهم الفعّالة معه لإنجاح مشروعه الإصلاحى، فتقربوا منه وشدوا أزره للسير فى منهجه التجديدى، وتعهدوه بالنصح والتذكير بالمسئولية، واستعدادهم لتولى مختلف مناصب الدولة وأعمالها، وتحدثت عن المدارس العلمية فى عهده وعهد الدولة الأموية، كمدرسة الشام والحجاز، والعراق ومصر. .الخ، وعن منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم، وجهودهم فى خدمة السنة، ودور عمر بن عبد العزيز فى تدوينها، وأشرت إلى منهج التزكية والسلوك عند التابعين، وأخذت مدرسة الحسن البصرى مثالاً على ذلك؛ فتحدثت عنها وعن تلاميذها كأيوب السختيانى، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وبينت براءة الحسن البصرى من الاعتزال، وتحدثت عن علاقته بعمر بن عبد العزيز ورسائله إليه، التى يبين فيها صفات الإمام العادل فى نظره، وذكرت موقف عمر بن عبد العزيز وأسباب رفعه لحصار القسطنطينية، واهتمامه بالدعوة الشاملة، ووضعه لقانون التفرغ للدعاة والعلماء، وحضه على نشر العلم وتعليمه وتوجيه الأمة إلى أهميته، وإرسال العلماء الربانيين فى شمال إفريقيا وغيرها لتعليم الناس وتربيتهم على الكتاب والسنة، وإرساله الرسائل الدعوية إلى الملوك بالهند وغيرها، وتشجيعه غير المسلمين على الدخول فى الإسلام، وأفردت مبحثًا لإصلاحاته المالية وسياسته الحكيمة فى ذلك، وحرصه على ترسيخ قيم الحق والعدل ورفع الظلم، فبينت أهداف السياسة الاقتصادية عنده، من إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل، وتحقيق التنمية، الاقتصادية والرفاه الاجتماعى، وأشرت لتحقيق تلك الأهداف كتوفير المناخ المناسب للتنمية ورد الحقوق لأصحابها، وفتح الحرية الاقتصادية بقيود، واتباع سياسة زراعية جديدة تمنع بيع الأرض الخراجية، وتعتنى بالمزارعين، وتخفف الضرائب عنهم، وحث الناس على الإصلاح والإعمار وإحياء أرض الموات، وتوفير مشاريع البنية التحتية، وتحدثت عن سياسته فى الإنفاق العام، كإنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية وترشيد الإنفاق فى مصالح الدولة، كقطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين، وترشيد الإنفاق الإدارى والحربى، وتكلمت عن المؤسسة القضائية فى عهده وبعض اجتهاداته الفقهية؛ كرأيه فى الهدية لولاة الأمر، ونقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية، وغير ذلك من الاجتهادات الفقهية والقضائية، وتحدثت عن سياسته الإدارية وأشهر ولاته، وحرصه على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح، وإشرافه المباشر على إدارة شئون الدولة، وعن قدراته فى التخطيط والتنظيم، وعن أسلوبه فى الوقاية من الفساد الإدارى، كالتوسعة على العمال فى الأرزاق، وحرصه على الوقاية من

الكذب، والامتناع عن أخذ الهدايا والهبات، والنهى عن الإسراف والتبذير، ومنع الولاة والعمال من ممارسة التجارة، وفتح قنوات الاتصال بين الوالى والرعية، ومحاسبته لولاة من قبله عن أموال بيت المال، وتطرقت إلى مفهوم المركزية واللامركزية فى إدارة عمر بن عبد العزيز واهتمامه بمبدأ المرونة، وتوظيفه للوقت فى خدمة الدولة والرعية، وممارسته لمبدأ تقسيم العمل فى الإدارة، وحرصت على بيان بواعث عمر بن عبد العزيز فى إصلاحه وتجديداته المالية والسياسية والإدارية، . .الخ وأشرت إلى حرصه على تنفيذ أحكام الشريعة على الدولة والأمة والمجتمعات والأفراد، وأشرت إلى آثار التمسك بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية وهدى الخلافة الراشدة على دولته، من التمكين والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغده، وعشت مع الأيام الأخيرة من حياة هذا المصلح الكبير حتى وفاته.

إن ظهور عمر بن عبد العزيز فى تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة، ومحاولته العظيمة للعودة بالحياة إلى تحكيم الشريعة وآفاق الخلافة الراشدة الملتزمة بمعطيات القرآن والسنة، ظاهرة فذة تحمل فى دلالتها ليس على بطولة القائد فحسب، وإنما على قدرة الإسلام نفسه على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية فى نهاية الأمر، وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية[1].

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد الكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التى تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات، وعرضة للانهيار فى كل ساعة، وإنها ليست إلا حُلمًا من الأحلام. ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ولقد سار نور الدين زنكى المتوفى عام ٥٦٨هـ على منهج عمر بن عبد العزيز، وأخذه نموذجًا ومثالاً له فى القدوة والتأسى، فآتت محاولته الإصلاحية ثمارها للأمة، وأسهمت فى نهوضها وعودة الوعى لها، وتغلبت على أعدائها الصليبيين، وطهرت بيت المقدس على يدى تلميذه، القائد الأشم، البطل المغوار، صلاح الدين الأيوبى، أكثر الله من أمثاله فى جيلنا.

إن الإصلاح ـ كما يفهمه المسلمون الصادقون لا كما يروّج أعداء الإسلام ـ هو الغاية من إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس؛ قال شعيب عليه السلام لقومه الغارقين فى الضلال

(١) فى التأصيل الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل صـ٦٢ .

والفســاد فى العقــيدة والسلوك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقد اضطلع بمهمة الإصلاح لشئون البشر ـ بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد صلوات الله عليه وسلامه ـ وسار على منهاج النبوة خلفــاؤه الراشدون، وعلماء الأمة الأبرار كعمر ابن عبد العزيز، والأمة الآن فى أشد الحاجــة لمعرفة هدى المصلحين ابتداء من النبى الكريم ﷺ، فقد أصابها التخلف والتيه والتفرق والضعف والاستكانة.

إن فقه حركة الــتاريخ الإسلامى يرشدنا إلى أن عوامل النهوض وأسباب النــصر كثيرة، منها صفاء العــقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله فى الدولة، ووجــود القيادة الربانية التى تنظر بــنور الله، وقــدرتهــا فى التـعــامل مع سنن الله فــى تربيــة الأمم، وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين واليهود والملاحدة والفرق الباطنية، والمبتدعة، وإعطاء كل عامل حقه الطبيعى فى التعامل معه، فقــضايا فقه النهوض، والمشاريع النهضوية البعيــدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وارتبط بالفقه الراشدى المحفوظ عن سلفنا العظيم، فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله، واستفاد من التاريخ الإســلامى وتجارب النهــوض، فأيقن بأن هذه الأمة مــا فقــدت الصدارة -قط- وهى وفية لربهــا ونبيها ﷺ، وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهــزائم الثقافية فجرح مميت، والثقافة الصحيــحة تبنى الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله، وهدى الخلفاء الراشدين، ومن سار على نهجهم، وعبقرية البناء الحضارى الصحيح هى التى أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا -بعد توفيق الله وحفظه -.

إن سيرة عــمر بن عبد العزيز تمدنا بالمفهــوم الصحيح لكلمة الإصلاح؛ المفــهوم القرآنى الأصيل الذى فهــمه علماؤنا المصلحون فــهمًا صحــيحًا وطبّقوه تطبــيقًا سليمًــا، لا المفهوم الغربى الحديث الذى تســرَّب إلى أذهان بعض المفكرين السياسيين المقلدين للغــرب فى حقّه وباطله، حتى أصبح من المسلــم به عند كثير من أبنائنا اليوم أن الثــورة أعمّ وأشمل وأعمق من الإصلاح الذى يرادف فى الغرب مــعنى التغيير الخفــيف الذى يحدث بتدرج ومن دون عنف، بينما الثــورة هى عندهم انقلاب جذرى دون تدرّج، عنيف ومــفاجئ، وما دروا أن

الإصلاح بالمفهوم القرآنى الصحيح له معنى أشمل وأعمّ وأكبر من الثورة، فهو دائمًا نحو الأحسن والأكمل، بينما الثورة قد تكون من الصالح إلى الفاسد أصلاً، ويتم ذلك بتغيير سلطة بسلطة وحاكم بحاكم[1].

إن عمر بن عبد العزيز نموذج إصلاحى لمن يريد السير على منهاج النبوة وعهد الخلافة الراشدة، ولقد أخلص لله تعالى فى مشروعه الإصلاح؛ فتولى الله توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه، قال الشاعر أحمد رفيق المهدوى الليبى:

فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح

وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد عليه بالأرواح

هذا، وقد تحدثت عن عهد يزيد بن عبد الملك وهشام، وعهد الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، وأشرت إلى أهم أعمال يزيد وهشام، واعتبرت وفاة هشام بداية الانحدار والضعف للدولة الأموية. وتعرضت للدعوة العباسية وجذورها التاريخية ومشروعها الذى قدمته لأتباعها فى المرحلة السرية والعلنية، وتكلمت عن قيادتها، وهيكلها التنظيمى، والبعد التخطيطى وقراءة الواقع عند زعمائها، وفقهها الحركى المستمد من ابن عباس، ومتى أعلنت الثورة العباسية؟ وتحدثت عن الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد وجهوده فى القضاء على الثورات التى اندلعت فى عهده؟ وعن انتصار العباسيين على الأمويين فى معركة الزاب، وافردت مبحثًا لأسباب سقوط الدولة الأموية وناقشتها من خلال سنن الله فى حركة المجتمعات وبناء الدول وسقوطها، ومن الأسباب التى ذكرتها، الثورة المضادة على حركة عمر بن عبد العزيز الإصلاحية، والظلم والترف والانغماس فى الشهوات، ونظام ولاية العهد، وتعطيل الخيار الشورىّ، والثورات ضد النظام الأموى كثورة الحسين بن على رضى الله عنه، وثورة زيد بن على بن الحسين، وثورات الخوارج المستمرة، ومن الأسباب التى ذكرتها: العصبية، والموالى، وفشل الأمويين فى إيجاد تيار حضارى، والنزاع الداخلى بين الأسرة الحاكمة، وفشلهم فى آخر عهدهم فى تكوين جيش نظامى مرتبط بالدولة وموالٍ لها ومدافع عن شرعيتها، وأشرت إلى أسباب فشل مروان فى إنقاذ الخلافة الأموية، فذكرت: عدم شرعيته، ونقله لعاصمة الدولة إلى حرّان، وعدم قدرته على تنظيم حكومة مركزية قوية، واحتقاره للخصوم فى خراسان، والاستبداد بالرأى، وإبعاد الأولياء وتقريب الأعداء، ولم يلجأ إلى المال والسياسة فى تفتيت الخصوم،

(١) آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمى (٢/٦).

وشؤم بدعة الجهمية على الدولة، وانحلال الضبط، وتجاوز الاحتياط، وضعف الثقة بينه وبين رجاله، وبغض الناس له، وخذلان أهل الشام له في معركة الزاب، وتكلمت عن الدعوة العباسية وكيف استفادت من تلك الأسباب؟ وفي نهاية الكتاب قمت بدراسة علمية لبعض الكتب التي أسهمت في تشويه تاريخ صدر الإسلام كالإمامة والسياسة المنسوب زورًا لابن قتيبة، وكتاب الأغاني للأصفهاني، وتاريخ اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، وحذرت من بعض المستشرقين الذين عملوا على تشويه التاريخ الإسلامي وطمس حقائقه الناصعة، ثم خاتمة الكتاب.

إن تاريخ الدولة الأموية تعرض لهجمة شرسة من قبل خصومه وأعدائه، وحاولوا طمس كل ما لهم من فضائل وإيجابيات، وتوسعوا في ذكر السلبيات، وافتروا عليهم الكذب فنسبوا لهم ما لم يكن منهم، ويعود ذلك إلى أن كتابة التاريخ إنما كانت في عهد خصومهم السياسيين من بني العباس، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن هذه الكتابة كانت بأيد شيعية حاقدة لا تعرف الإنصاف ولا العدل، ولا تتكلم بعلم ولا معرفة وقد تحدث الدكتور حمدي شاهين في كتابه عن الدولة الأموية المفترى عليها عن أسباب تزوير التاريخ الأموي، ومناهج المؤرخين في كتابتها، فمن أراد التوسع فليرجع إليه. وأما عن منهجي في كتابة تاريخ الدولة الأموية فقد التزمت بمنهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين، والذي من قواعده: الخوف من الله عز وجل عند الكلام في الآخرين، وتقديم حسن الظن بالمسلم، وأن الكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وإنصاف لا بجهل وظلم، كحال أهل البدع، والعدل في وصف الآخرين، والعبرة بكثرة الفضائل، والنظر في حال الجارح، والتثبت من الأخبار، وغير ذلك من القواعد المعروفة عند أهل السنة. وقد تركت الحديث عن الدولة الأموية بالمغرب لقناعتي بأن دولة عبد الرحمن الداخل لها علاقة أصيلة بتاريخ الأندلس، وتعتبر جزءًا من تاريخها لا يمكن فصله.

هذا، وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الثلاثاء الساعة الخامسة وثماني دقائق بعد صلاة العصر بتاريخ ٢ من ربيع الآخر / ١٤٢٦هـ الموافق ١٠/٥/٢٠٠٥م.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصًا ولعباده نافعًا، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أسهموا في إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من

كل مسلم يطلع علـى هذا الكتاب ألا ينسى العبـد الفقيـر إلى عفو ربه ومغـفرته ورحمـته ورضوانه مـن دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشد أن لا إلـه إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصلابي

الإخوة القـرّاء الكرام، يسر المؤلف أن تصله مـلاحظاتكم حول هذا الكتاب وغـيره من كتبه من خـلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء بظهر الغـيب بالإخلاص والصواب، ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا. .

عنوان المؤلف
E_mail : abumohamed2@maktoob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الجذور التاريخية للأسرة الأموية :

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفى عبد مناف يلتقى بنو أمية مع بنى هاشم، وكان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة فى مكة، لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش. . وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهم الرياسة عليها[١].

أولاً : شهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين :

كان بنو عبد مناف بن قصى وحدة واحدة فى محاولتهم اقتسام السلطة فى مكة مع بنى عمهم عبد الدار بن قصى، الذى فضله والده على سائر أبنائه، رغم شرفهم عليه، وجعل له الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، وكان زعيمهم فى هذه المحاولة هو عبد شمس، أبو أمية، إذ كان أسن بنى عبد مناف، وتفرقت قريش على ذلك بين فريقين: عبد مناف وعبد الدار، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار، فولى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف، وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً، قلما يقيم بمكة، وكان مقلاً ذا ولد، وكان هاشم موسراً[٢]. . وهكذا كانت السلطة فى مكة عبارة عن مراكز نفوذ تقررها الأهمية الاقتصادية، دون أن يكون لأسرة ما أو زعيم ما السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصى زعيم قريش الأول[٣] . . وكذلك اشترك بنو عبد مناف معًا فى جهودهم لتنظيم التجارة بين مكة وما حولها[٤]، وهكذا كانوا يدًا واحدة تتحرك فى تفاهم وتآلف، فلما ماتوا رثاهم الشعراء معًا، دون تفريق بينهم تمامًا كما كانوا يمتدحونهم معًا[٥]، وهكذا تقتضى طبيعة الحياة العربية فى الجاهلية أن يتناصر أبناء الأب الواحد، وأن تجتمع كلمتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا[٦]، وأما الروايات التى تزعم وجود عداء مستحكم بين بنى هاشم وبنى عبد شمس وأمية قبل الإسلام، فهى واهية الأسانيد، لا تثبت، فهى تروى أن هاشمًا وعبد شمس ولدا ملتصقين ففصل بينهما بالسيف، فكان بين أبنائهما الدماء لأجل ذلك[٧]، فهذه

(١) النجوم العوالى للعصامى (٣/ ٢) .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١) .
(٣) الحجاز والدولة الإسلامية صـ ٨٧ .
(٤) تاريخ الطبرى (٢/ ٢٥٢) .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٤٤ ـ ١٤٨) .
(٦) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٢٢ .
(٧) النزاع والتخاصم للمقريزى صـ ١٨١ .

رواية لقيطة ليس لها راوٍ، تفوح منها رائحة الأسطورة والخيال، ويكذبها ما رواه ابن إسحاق من أن عبد شمس كان أسن بنى عبد مناف[1]، والروايات التى تروى أن منافرات حدثت بين هاشم وأمية بن عبد شمس، وبين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية[2]، وكلتا الروايتين ترويان عن هشام الكلبى وهو راوية شيعى كذاب يرويهما كلتيهما عن رجال مجهولين لا يعرف أسماءهم[3]، إذ إن هذه الروايات -كما يبدو واضحًا من سندها المعتل ومتنها المصطنع- كانت صدى لما حدث فيما بعد من صراع بين بنى أمية وبنى هاشم حاول الرواة أن يجعلوا له سندًا تاريخيًا ثابتًا، وتظل حقيقة العلاقة الطيبة بين الفريقين لا شك فيها[4] ولذلك يقول ابن خلدون : كان لبنى عبد مناف فى قريش جمل من العدة والشرف لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش، وكان فخذاهم بنو أمية وبنو هاشم هم جميعًا ينتمون لعبد مناف، وينتسبون إليه، وقريش تعرف ذلك وتسلم لهم الرياسة عليهم، إلا أن بنى أمية كانوا أكثر عددًا من بنى هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هى بالكثرة، قال الشاعر: «وإنما العزة للكاثر»[5] . . ولعل ما يشير إليه ابن خلدون من تفوق بنى أمية قد اتضح قبيل مبعث الرسول ﷺ لما مات عبد المطلب بن هاشم الذى ورث شرف أبيه، وبرز نجم أبى سفيان ابن حرب، فذلك ما يبدو من هذا الوصف الدقيق لطبيعة العلاقة بين بنى أمية وبنى هاشم على لسان معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لما سئل: أيكم كان أشرف أنتم أو بنو هاشم؟ فأجاب: كنا أكثر أشرافًا وكانوا هم أشرف، وكان فيهم عبد المطلب ولم يكن فينا مثله، فلما صرنا أكثر عددًا وأكثر أشرافًا، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا: منا نبى، فجاء نبى لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، محمد ﷺ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف؟![6] . إن كل ذلك لا ينفى احتمال وجود نوع من التنافس بين الجانبين قبل الإسلام، فى ضوء ما نعرف من طبيعة الحياة العربية فى مكة قبل الإسلام، ولكنه تنافس يحدث بين الإخوة أحيانًا، وبين أبناء الأب الواحد، غير أنه لم يتطور ليصبح تربصًا وعداء كما يزعم المتزيدون[7]، ولدينا من شواهد التاريخ ما يدل على قوة العلاقة بين بنى هاشم وبنى أمية، فقد كان عبد المطلب بن هاشم ـ زعيم الهاشميين فى عصره ـ صديقًا لحرب بن أمية ـ زعيم الأمويين ـ كما كان العباس بن عبد المطلب بن هاشم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٧) .
(٢) النزاع والتخاصم صـ ١٨١ ، الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ ١٢٢ .
(٣) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٢٢ .
(٤) المصدر نفسه صـ ١٢٣ .
(٥) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢) .
(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٣٨) .
(٧) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٢٣ .

صديقًا حميمًا لأبى سفيان بن حرب بن أمية، وفى قصة إسلام أبى سفيان عند فتح مكة، ودور العباس فيها، أكبر دليل على ذلك، كما سنبينها فى الصفحات القادمة بإذن الله، والغريب أن المقريزى -الذى ألف كتابًا خاصًا عن علاقات الهاشميين والأمويين وجعل محوره النزاع والتخاصم- يعترف بالصداقة الوطيدة التى كانت بين العباس وأبى سفيان(١)، فإذا كانت الصداقة الوطيدة قائمة ووطيدة بين زعماء البيتين ـ الأموى والهاشمى ـ وهما أبناء أب واحد، وهو عبد مناف بن قصى، فإن الحدس بتأصيل النزاع بينهما بعد الإسلام والرجوع به إلى ما قبل الإسلام لا سند له من تاريخ(٢).

إن الكتاب المنسوب للمقريزى «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم»، لا يمكن أن يتصور عاقل أن يد المقريزى قد خطت حرفًا واحدًا من هذا الكتاب. لأن المقريزى لا يمكن أن ينزل إلى هذا الدرك من إلغاء العقل، والجهل بالأحكام، فهذا الكتاب ألفه صاحبه فى عصر الانحدار الطائفى، والتهافت العاطفى، وتخلى فيه عن صفة المؤرخ، وبعد عن سجية العلماء، حيث جعل هذا الكتاب متنفسًا عن بغضاء مكتومة، وحقد دفين، جعلها أساسًا لحكمه وشعارًا لكتابه(٣)، ويرى الدكتور إبراهيم شعوط أن الكتاب منسوب للمقريزى(٤)، والذى يهمنا أن ما قرّره صاحب الكتاب من أن العداوة مستحكمة بين بنى أمية وبنى هاشم وأنها قديمة لا يثبت هذا الادعاء أمام البحث العلمى النزيه، إن الذين ينظرون إلى تاريخ بنى أمية من خلال موقف أبى سفيان من الإسلام فى مكة ومن خلال ما دار بين على ومعاوية رضى الله عنهما من حروب، يبنون على ذلك -كما فعل العقاد- أوهامًا من صراع تاريخى قبل الإسلام وبعده بين بنى هاشم وبنى أمية، وتلك أوهام ليس لها من التاريخ إلا رواية ملفقة أو أحداث عارضة لا تمثل-قط- صراعًا بين هذين الفرعين الكريمين من بنى عبد مناف، وهما ذروة الشرف فى قريش(٥)، والذى يظهره البحث العلمى النزيه، وبعد ترك الروايات والأساطير الساقطة يتضح أن العلاقة بين البطنين كانت طبيعية مثلها مثل العلاقة بين باقى بطون قريش.

ثانيًا :موقف بنى أمية من الدعوة الإسلامية :

لقد كان تعامل الأمويين مع الدعوة الناشئة هو نفس تعامل بقية بطون قريش مع الدعوة الجديدة من أمثال بنى مخزوم وبنى هاشم وغيرهم، ولنأخذ على ذلك مثالاً وهو كيفية

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢ .

(٢) المصدر نفسه صـ ٥ .

(٣) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ صـ ٢٠٩ .

(٤) المصدر نفسه صـ ٢١٣ .

(٥) المناهج الإسلامية لدراسة التاريخ د. محمد رشاد خليل صـ ٢٤ .

تعامل بنى هاشم -رهط النبى ﷺ وأقرب بطون قريش إليه- مع الدعوة، فإن منطق العصبية السائد فى الجاهلية يقتضى أن يتلقف بنو هاشم الدعوة الجديدة التى تحقق لهم العزة والشرف بالإيمان والنصرة، وأن يقفوا خلف النبى الهاشمى بالتأييد والبذل، وقد وقفوا إلى جواره فعلاً فى بعض المواقف، ولعل أشهرها حصار الكافرين لهم فى شعب بنى هاشم، ولكنهم -فى النظرة الشاملة- انقسموا عليه بين مؤيد ومعارض ومؤمن وكافر، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من قبائل مكة، والمثال المشهور لكفار بنى هاشم هو أبو لهب عم النبى ﷺ الذى كان أول من جهر بعداوة الإسلام لما جهر الرسول بدعوته، ولم يكتف بالمعارضة الصريحة بل عضدها بالعمل والكيد، فقد مارس صوراً شتى من تعذيب الرسول ﷺ وصد الناس[١] عنه، وكانت معه زوجته أم جميل بنت حرب الأموية، وابناه عتبة وعتيبة اللذان طلقا بنتى النبى رقية وأم كلثوم ليشغلا محمداً[٢] ببنتيه، وكان ابنه عتبة يشارك فى إيذاء النبى ﷺ حتى دعا عليه رسول الله ﷺ فنهشه أسد فى بعض أسفاره[٣]، بل إن أبا لهب لم يدخل مع قومه شعب بنى هاشم لما حاصرتهم قريش[٤] فيه، ولما لم يستطع الخروج مع قريش لقتال الرسول يوم بدر استأجر بدلاً منه العاص بن هشام بن المغيرة بأربعة آلاف درهم[٥]، وقد كان أبو لهب فى كفره وعناده مثالاً مشهوراً، ولكنه لم يكن الهاشمى الوحيد الذى كفر بالنبى ﷺ وجهد فى إيذائه وحربه، فقد كان فى أسرى المشركين يوم بدر من بنى هاشم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث، وحليفهم عتبة بن عمرو بن جحدم، وقد قبل الرسول ﷺ فداءهم فيمن افتدى من أسرى قريش[٦]، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ممن شهد قتال يوم بدر مع المشركين ونجا من القتل والأسر[٧]، وهو ابن عم النبى ﷺ وأخوه من الرضاعة - أرضعتهما حليمة السعدية أياماً - وكان يألف رسول الله، وكان له ترباً، فلما بعث رسول الله عاداه عداوة لم يعادها أحد قط، ولم يدخل الشعب مع بنى هاشم، وهجا رسول الله وأصحابه، وكان من المجاهرين بالظلم له ﷺ ولكل من آمن به قبل الهجرة[٨].

إن أعظم النصرة والتأييد لقيهما النبى ﷺ من عمه أبى طالب الذى تحمل فى سبيل ذلك ضغوطاً هائلة من قريش، ولكنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته وفياً لدين آبائه،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٤، ٦٥)، والسيرة للصلابى (١/ ٤٠٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢١٩)، الدولة الأموية، شاهين صـ ١٢٥.

(٣) أنساب الأشراف (١/ ١٣٠، ١٣١).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٣٩).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٨٣).

(٦) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).

(٧) المصدر السابق (٢/ ٤٦٢).

(٨) فى اختصار المغازى والسير، لابن عبد البر صـ٤٤.

فمات على ملة الأشياخ من قومه[1]، وظل العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ الآخر في مكة، واشترك مكرهًا ضده في غزوة بدر وأسر بها، ولكنه لم يهاجر إلى المدينة ويعلن إسلامه إلا والرسول ﷺ في طريقه لفتح مكة[2]، وقد أسلم في مكة نفر من بني هاشم وبذلوا في سبيل الدعوة الكثير، مثل علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وجعفر ابن أبي طالب وغيرهم، ولكنهم كانوا يشاركون غيرهم من غير بني هاشم في ذلك كأبي بكر وعمر وعثمان، ولم يكن بذلهم لأنهم هاشميون، بل لأنهم مسلمون، ويظل إيمانهم دليلاً على صدق القول باختلاف استجابة الأفراد للدعوة الإسلامية بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية[3]، وبالنسبة لبني أمية وموقفهم من الإسلام فإن مؤرخينا لا يتحدثون عنهم كبطن مستقل من بطون قريش، وإنما يتحدثون عنهم مع غيرهم من بني عبد شمس والد أمية، فيعدونهم وحدة واحدة[4]، وقد كانوا أبناء أب واحد وتربطهم علاقات التصاهر والترابط الاجتماعي، ولذلك فإنهم عند حديثهم عن عداء بني أمية للرسول يذكرون اسمي عتبة وشيبة ابني ربيعة بن عبد شمس، ورغم أنهما ليسا من بني أمية.. ويذكرون معهما أيضًا أبا سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط، فأما عقبة بن أبي معيط هذا فقد كان من مردة قريش، فقد تفل في وجه رسول الله، ورمى عليه ﷺ سلى جزور وهو يصلي، وخنقه بثوب في عنقه حتى دفعه أبو بكر الصديق[5]، وقد نال جزاءه لما أمر النبي ﷺ بقتله بعد أسره يوم بدر، والغريب أنه كان يذكره بما بينهما من رحم[6]، ومثل هذه النماذج الطائشة لم ينفرد بها بنو أمية أو عبد شمس في مكة آنذاك[7]، وأما معارضة عتبة وشيبة ابني ربيعة فمعلومة ومشهورة، ومع هذا لما هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف وصده عنها أهلها وتبعه الصبيان والغلمان يرمونه ويصيحون به لجأ إلى حائط ابني ربيعة عتبة وشيبة، فلما رأياه على هذا الحال تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا نصرانيًا يقال له عداس، فقالا له: خذ قطعًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه[8].

ثالثًا: أمويون مسلمون منذ بداية الدعوة الإسلامية:

وإذا جارينا نهج المؤرخين في الحديث عن بني أمية وبني عبد شمس معًا، فإننا نرى منهم جماعة كانوا من السابقين إلى الإسلام، فمنذ المرحلة السرية للدعوة وقبل الجهر بها كان قد أسلم كل من عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وكان إسلامه على يد أبي

(1) زاد المعاد (2/46)، السيرة النبوية لابن هشام (1/256).
(2) السيرة النبوية لابن هشام (4/12).
(3) الدولة الأموية المفترى عليها صـ 127.
(4) السيرة النبوية لابن هشام (3/ 70، 71).
(5) البخاري، رقم 3687، 3856.
(6) السيرة النبوية لابن هشام (2/212).
(7) الدولة الأموية المفترى عليها صـ 127.
(8) السيرة النبوية (1/ 292، 293).

بكر الصديق فى أيام الإسلام الأولى[1]، وكذلك كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وقد أسلم فى هذه المرحلة السرية -التى دامت حوالى ثلاث سنين[2]- أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس[3]، كما أسلم فى مرحلة مبكرة حليفان لبنى أمية وهما عبد الله بن جحش بن رئاب وأخوه أبو أحمد بن جحش وهما ابنا عمة النبى ﷺ ؛ فأمهما أميمة بنت عبد المطلب[4]، وفى الهجرة الأولى إلى الحبشة شارك نفر من مسلمى بنى أمية مثل عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو[5]، كما كان لبنى أمية مشاركة فى الهجرة الثانية ومعهم بعض حلفائهم، وقد ذكر الدكتور حمدى شاهين قائمة طويلة بأسمائهم، مما يؤكد استجابة بعض بنى أمية للإسلام منذ بداية الدعوة[6]، وقد أسهمت نساء بنى أمية وعبد شمس فى صنع مسيرة الإسلام وفى إعطاء الأسوة وضرب المثل فى نبل التضحية وعزيز العطاء، فقد أسلمت رملة بنت شيبة بن ربيعة زوجة عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى المدينة وثبتت معه على دينه رغم مقتل أبيها وعمها وابنه فى بدر مما أهاج عليها غضب هند بنت عتبة فقالت تعييها:

لحى الرحمن صابئة بوج ... ومكة أو بأطراف الحجون
تدين لمعشر قتلوا أباها ... أقتل أبيك جاءك باليقين؟![7]

وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط إلى المدينة فى الهدنة التى كانت بين النبى والمشركين فى الحديبية، على أن الصورة الأزهى، والنموذج الأرقى فى ذلك المجال، هو إسلام أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان، فقد أسلمت مبكرًا[8] ، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى .

رابعًا : المصاهرات بين بنى هاشم وبنى أمية :

لم يكن بين بنى هاشم وبنى أمية من المباغضة والعداوة والمنافرة التى اخترعها وابتكرها أعداء الإسلام والمسلمين ونسجوا الأساطير والقصص حولها، فالحقيقة التاريخية تقول: بأن علاقتهم كانت علاقة أبناء العمومة والإخوان والخلان، فهم من أقرب الناس فيما بينهم،

(1) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 260) .
(2) تاريخ الطبرى (2/318) .
(3) السيرة النبوية لابن هشام(1/263) .
(4) المصدر نفسه (1/ 262) .
(5) المصدر نفسه (1/ 315) .
(6) الدولة الأموية المفترى عليها صـ 131 .
(7) نسب قريش صـ 104 ، 105 .
(8) التبيين فى أنساب القرشيين صـ 209 .

يتبادلون الحب والتقدير، والاحترام، ويتقاسمون الهموم والآلام والأحزان، فبنو أمية وبنو هاشم كلهم أبناء أب واحد، وأحفاد جد واحد، وأغصان شجرة واحدة قبل الإسلام وبعد الإسلام، وكلهم استقوا من عين واحدة، ومنبع صاف واحد، وأخذوا الثمار من دين الله الحنيف الذى جاء به رسول الله الصادق الأمين، المعلم، المربى، خاتم الأنبياء والمرسلين، ولقد كان بين أبى سفيان والعباس صداقة يضرب بها الأمثال[1]، كما كانت بينهم المصاهرات قبل الإسلام وبعده، وكان على رأسهم رسول الله ﷺ الذى زوج ثلاثًا من بناته الأربعة، من بنى أمية، وهذه نماذج من المصاهرات بينهم:

أ - عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية، فقد تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ ثم بعد وفاتها تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ.

ب - أبو العاص بن الربيع، وهو من بنى أمية، فقد تزوج زينب بنت رسول الله ﷺ وولدت زينب له ابنة وهى أمامة، وتزوجها على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة الزهراء[2].

ج - خديجة بنت على بن أبى طالب، تزوجها عبد الرحمن بن عامر بن كريز الأموى[3].

د - رملة بنت على بن أبى طالب، تزوجها معاوية بن مروان بن الحكم[4].

هـ - زينب بنت الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب، تزوجها الوليد بن عبد الملك بن مروان[5].

و - فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب، تزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان[6]، وقد اكتفيت ببيان بعض منها، وفيها كفاية لمن أراد الحق والتبصر[7].

****

(١) الشيعة وأهل البيت صـ ١٤١ .
(٢) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة ، أبو معاذ السيد بن أحمد الإسماعيلى صـ ٢٢ .
(٣) المصدر نفسه صـ ٢٣ .
(٤) نسب قريش صـ ٤٥ ، جمهرة أنساب العرب صـ ٨٧ .
(٥) نسب قريش صـ ٥٢ ، الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة صـ ٢٢ .
(٦) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة صـ ٢٥ .
(٧) الشيعة وأهل البيت صـ ٢٢٤ .

الفصل الأول

معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وأسرته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب، أمير المؤمنين، ملك الإسلام، أبو عبد الرحمن، القرشى الأموىُّ المكى[1]، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل: بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر[2]، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيبًا، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته: إن ابنى هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط، ثكلتُه إن لم يسد العرب قاطبة[3]، وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشى مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابى ينظر، فقال: لم تقولين له؟ فوالله إنى لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه[4].

ثانيًا: إسلام أبى سفيان والد معاوية رضى الله عنهما:

كان أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام .. وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية، إلا أن الله تعالى أراد الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ فى فتح مكة، وأعلن: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[5]، وفى هذا الإكرام النبوى الشريف لأبى سفيان لفتة تربوية، ففى تخصيصه ﷺ بيت أبى سفيان شيء يشبع ما تتطلع إليه نفس أبى سفيان، وفى هذا تثبيت له على الإسلام، وتقوية لإيمانه[6]، وكان هذا الأسلوب النبوى الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).
(٢) الإصابة (٦/ ١٥١).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢١).
(٥) البخارى رقم (٤٢٨٠).
(٦) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣).

أبى سفيان، ويرهن له بأنَّ المكانة التى كانت له عند قريش لن تنتقص شيئًا فى الإسلام، إن هو أخلص له، وبذل فى سبيله[1]، وهذا منهج نبوى كريم، على العلماء والدّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به فى تعاملهم مع الناس[2]، وقد حسن إسلام أبى سفيان، وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله ﷺ فى حنين، وشارك فى حصار الطائف، وفقد إحدى عينيه فيها، وفى اليرموك فقد الثانية[3]، وبعد ثقيف أرسله رسول الله مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات[4]- صنم ثقيف-، وقد كانت اللات معظَّمة عند قريش كذلك، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليل على تغلغل الإيمان فى قلب أبى سفيان رضى الله عنه، لقد أسلم أبو سفيان -إذن- بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلاً بينه وبين الإسلام، وقد راعى رسول الله ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبى سفيان ونفوس علية القوم من قريش بعد الفتح، فقد جعل من دخل دار أبى سفيان آمنًا، كما أعطاه من غنائم حنين مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم[5].

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية، وحرص على مضاعفة جهده فى خدمة الإسلام، وقال عنه ابن كثير: من سادات قريش فى الجاهلية، وتفرَّد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وآثار محمودة فى اليرموك وما قبله وما بعده[6].

وروى عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل واحد يقول: يا نصر الله اقترب، والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[7]، وروى أنه كان يوم اليرموك يقف على الكراديس، فيقول للناس: الله الله! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهمَّ هذا يوم من أيامك، اللهمَّ أنزل نصرك على عبادك[8]، وقيل: مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين[9]، وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان، وله ثلاث وثمانون، وقيل: كان له بضع وتسعون سنة[10].

(1) قراءة سياسية للسيرة النبوية، لمحمد رواس صـ ٢٤٥ .
(2) السيرة النبوية للصَّلاَّبى (٢/ ٤٩٧).
(3) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٣ .
(4) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٥) .
(5) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٤٢ .
(6) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٧) .
(7) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٣ .
(8)، (9) المصدر نفسه صـ ٢٠٣ .
(10) المصدر نفسه صـ ٢٠٤ .

ثالثًا: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنهما:

هى أم معاوية، أسلمت يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبى سفيان، فأقاما على نكاحهما، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرِّجال، بايع النساء، وفيهنَّ هند بنت عتبة، - وكانت متنكرة، خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة - على ألاَّ يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن، وأرجلهن، ولا يعصين فى معروف، ولما قال النبىُّ ﷺ: «ولا يسرقن» قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى، ويكفى بنىَّ، فهل علىَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: «خذى من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف»، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزنى الحرّة؟ ولمّا عرفها رسول الله ﷺ قال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك، وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرم منه، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: لا والله! ما مست يد رسول الله يد امرأة قط[1]. وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير أنه لما بايعت هند تكلمت فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتنفعنى رحمك يا محمد، إننى امرأة مؤمنة بالله، مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: «مرحبًا بك»، فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلى أن يُذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباءٍ أحب إلىَّ أن يُعَزّوا من أهل خِبائك، قال: «وأيضًا والذى نفسى بيده». قالت: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل ممسك، فهل علىَّ حرج أن أُطعم من الذى له عِيالنا؟ قال: «لا أراه إلا بالمعروف»[2]. ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى بيتها فجعلت تكسر صنمًا كان عندها حتى فلذته فلذة فلذة وهى تقول: كنت منك فى غرور[3]، ولما رأت المسلمين ببيت الله الحرام قالت: والله ما رأيت الله عُبد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا[4]. وكان لهند فى جاهليتها موقف مع زينب بنت المصطفى ﷺ، فقد كانت بمكة مع زوجها أبى العاص بن الربيع، وأرسل النبى ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد «بدر» ولم تجف دماء قريش بعد، وكانت «هند» قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجالس

(١) البخارى رقم ٥٢٨٨ مسلم، رقم ١٨٦٦.
(٢) الطبقات الكبرى (٨/ ١٧٢)، البخارى رقم ٣٨٢٥.
(٣) الطبقات (٨/ ١٧٢).
(٤) نحو رؤية جديدة للتاريخ صـ ٢٠٠.

قريش وأنديتها تُذكى نار الثـأر، وتؤجج آوار الحرب، وفى الطريق لقيت زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان قد تسرَّب خبـر استعدادها للخروج لأبيها، فقـالت هند: أى بنت محمد، بلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك!!.. أى ابنة عمى، إن كانـت لك حاجة بمتاع مما يعينك فى سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فعندى حاجتك، فلا تستحى منى، فإنه لا يدخل بين النسـاء ما يكون بين الرجـال. تروى زينب رضى الله عنهـا ذلك، وتقول: ووالله ما أراها قالت إلا لتـفعل[1]. ثم يوم خـروج زينب يتعرض لـها رجال من قـريش، يريدون إرجاعهـا، فتسقط من على ناقتـها وكانت حاملاً، فـتنزف، وتسمع هند، فتخرج مـسرعة وترفع عقيرتها فـى وجه قومها: معركة مع أنثى عزلاء؟! أين كـانت شجاعتكم يوم بدر؟! وتحول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمسح عنهـا ما بها، وتصلح شأنها، حتى استأنفت الخروج إلى أبيهـا فى أمن وأمان[2]. وكانت هند امـرأة حازمة شاعـرة ذات نفس وأنفة. ويروى أنها كانت قبل أبى سفيان عند الفاكـه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، له مجلس يأتيه ندماؤه فيدخلون بغـير استئذان، فدخلته هند يومًا وليس فيـه أحد، فنامت فيه، وجاء بعض ندماء الفاكه فـدخل البيت، ورأى هند نائمة فخرج، فلقيه الفـاكه خارجًا، ثم دخل فوجـد هند فى المجلس نائمة، فـقذفـها بالرجل، فـشرى[3] الأمر إلى أن اتفـقوا على أن يتحاكمـوا إلى كاهن فى بعض النواحى، فحملها أبوها عـتبة وخرج معهم الفـاكه حتى إذا دنوا من الكاهن رآها أبوها متـغيرة مصـفراً لونها، فخـلا بها وقال: يا بُنية مـالى أراك قد اصفرّ لونك وتغـيّر جسمك؟! فإن كنت قد ألممت بذنب بأخـبرينى حتى أفل[4] هذا الأمر قبل أن نفتضح على رءوس الناس. فقـالت: يا أبت إنى لبريئة، ولكنى أعلم أنا نأتى بشراً يخطئ ويصيب، فأخـشى أن يخطئ فىّ بقول يكون عاراً علينا إلى آخر الدهر. قال عـتبة: فإنى سأختبره، فخـبأ له حبة بُرّ فى إحليل مهر[5]، ثم ربط عليها، فلما أتى الكاهن قال: قد خبـأت لك خبيئـا فما هو؟ قال: ثمرة فـى كَمَرةٍ، قال: بيِّن، قال: حـبة بُر فى إحليل مهر. فـأجلسوا هنداً بين نساء ثم سألوا الكاهن، فـقام فضرب بيده بين كـتفى هند وقال: قومى حصـاناً غير زانية، ولَتَلِدَنَّ ملكًا يقال له مـعاوية. فوثب الفاكه، فأخـذ بيدها وقال: امرأتى، فنزعت يدها من يـده وقالت: والله لأحرصنَّ أن يكون من غـيرك، فتزوجـها أبو سفيان، وولدت له معاوية[6]. وقد توفيت فى ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه[7].

---

(1) المصدر نفسه صـ ٢٠٨ ،وفرسان من عصر النبوة صـ ٨٥٣ .

(2) المصدر نفسه صـ ٢٠٨ .

(3) فشرى : بمعنى عظم وتفاقم .

(4) أى : حتى أفكّ .

(5) من اختبار الكاهن ، فإن عرف سالوه وإلا تركوه .

(6) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢١٩ .

(7) المصدر نفسه صـ ٢١٩ .

رابعًا: من إخوان وأخوات معاوية رضى الله عنه:

١ ـ يزيد بن أبى سفيان: وكان يقال له يزيد الخير، وهو أفضل بنى أبى سفيان، أسلم يوم الفتح وشهد حنينًا، وأعطاه النبى ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقيّة[١]، واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التى أرسلها إلى الشام، وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها، ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضرورة، وكان جيش يزيد أول الأمر ثلاثة آلاف رجل، وقبل رحيل جيش يزيد أوصاه الخليفة أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى تشتمل على حكم باهرة فى مجالى الحرب والسلم، وشيعه ماشيًا، وأوصاه بما يأتى: (وإنى قد وليتك لأبلوك وأجرِّبك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله؛ فإنه يرى من باطنك مثل الذى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدُّهم تقربًا بعمله، وقد وليتك عمل خالد[٢]، فإياك وعبِّية الجاهلية[٣] فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقْلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينّهم فيروا خَلَلك[٤]، ويعلموا علمك، وأنزلهم فى ثروة عسكرك[٥]، وامنع مَن قِبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزُ عن المشير خبرك فتُؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك، وبدِّدهم فى عسكرك، وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه فى غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النَّوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعًا، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبّاثين، وجالس أهل الصدق

(١) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٤ .

(٢) يعنى خالد بن سعيد بن العاص، وكان قد استعفى أبا بكر فأعفاه .

(٣) يعنى التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية .

(٤) يعنى :لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك .

(٥) ليروا قوة المسلمين .

والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له). قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر(١). ومن فوائد هذه الوصية:

- أن الولايات والمناصب ليست حقًا ثابتًا لأصحابها، وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يَعْزلهم إذا أساءوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا، فيخل بمسئوليته ويعرّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع .

- أن تقوى الله -عز وجل- هي أهم عوامل النجاح في العمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه في باطنهم فَحَرِيٌّ بهم أن يتقوه في ظاهرهم، وبذلك يتجنب الوالي كل مظاهر الفساد والإفساد، التي تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التي لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

- التحذير من التعصب للآباء والأجداد والأقوام، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفًا للاستقامة، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهي الأخوة في الله .

_الإيجاز في الموعظة؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، فيضيع المقصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغًا؛ عن استيعاب ما يقول والاستفادة من مواعظه، وإن لم يكن بليغًا فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعي ما يقول المتكلم.

- إذا أصلح المسئول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجًا صالحًا للقدوة الحسنة فإن ذلك يكون سببًا في صلاح من هم تحت رعايته .

- الاهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهرًا ومخبْرًا؛ مَظْهَرًا من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومَخْبَرًا من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة الكاملة يقام بها ذكر الله في الأرض، وتهذّب السلوك، وتقوِّي القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعتبر ملاذًا للمسلم عند الشدائد.

- إكرام رسل العدو إذا قدموا، مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامي، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٤، ٦٥) .

المسلمــون من مكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكــرام إلى حد إطلاعــهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغى إطلاعهم على قوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم[(١)].

- الاحتــفاظ بالأسرار، وعــدم التهاون بإفــشائها، خــاصة فيمــا يتعلق بأمــور المسلمين العامة، فإن الحكيم يستطيع التعرف فى الأمور وإن تغيرت وجوهها، ما دام سرُّه حبيسًا فى ضميره، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

- إتقان المشورة أهم من النظر فى نتائجها، فــإن المستشار وإن كان حصيف الرأى ثاقب الفكر، فإنه لا يســتطيع أن يفيد من اســتشاره حــتى ينكشف له أمره بغاية الوضــوح، فإذا أخفى المستشير بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

- أن على القائد -وكل مسئول- أن يكون مخالطًا لمن ولى أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمورهم، وفى هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسئول الذى يعيش فى عزلة ولا يخــتلط إلا بأفراد من كبار رعيته، فإنه لا يصل إليــه من المعلومات إلا مــا كان من طــريق هؤلاء، وقد لا يكشــفون له الأمــور بكل تفصيلاتها، فقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين، خاصة من مكامن الخطر، واختبار الحرّاس الأمناء من ذوى النباهة، وعــدم وضع الثقة الكــاملة بهم، بل لا بدَّ من الرقابة عليــهم؛ حتى لا يؤتى المسلمون من قِبلهم.

- أن يسلك المســئول فى عــقاب المخــالف مسلكًا وسطًا، فــلا يتهــاون فيــترك عقــوبة المستحق، فإن ذلك يجــرِّئه على مزيد من المخالفة، ويجرئ غيــره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى وينفلت الأمــر، ولا يشتد فى العقوبة فينفِّر الرعيــة، ويدفعهم إلى التسخط والتحــزب، بل تكون عقوبتــه بحكمة واتزان، بعد النظر والتــروى، بحيث تؤدى غرضــها التربوى دون إثارة ضجة، ولا دفع إلى النقد والتسخط[(٢)].

- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجــرى فى حدود المسئولية المنوطة به حتى يشعر أفراد الرعيــة بأن هناك اهتمامًا بأمورهم؛ فيزيد المحسن إحــسانًا، ويقتصر المسىء عن الإساءة، ولكن دون تجــسس عليهم، فإن ذلك يُعد فــضيحة لهم، وقــد ينقطع بذلك خيط

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٩٤).

(٢) المصدر نفسه (٩/ ١٩٥).

العلاقة الذى يربط المسئول بأفراد رعيته، من المودة والإعجاب والشكر على الجميل، وهذا الخيط ما دام قائمًا فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التى تفسد المجتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التى تحول دون الانطلاق وراء الشهوات يكون قد تحطم، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة، وهذه لها سلبياتها المعروفة.

- أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة، وإن سمع منهم ما يكره أحيانًا من النقد والتوجيه، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع، وألا يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية؛ فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير فى الأمور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولى أمورهم.

- أن يصدق القائد فى لقاء الأعداء وألا يجبن، فإن جُبنه يسرى على جنده فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفى غير الحرب أن يكون المسئول شجاعًا فى مواجهة المواقف، وألا يضعف فيسرى ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

- أن يتجنب القائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، هذا فى مجال الحرب، وفى مجالات السلم أن يتجنب المسئول أية استفادة دنيوية من عمله لا تحل له شرعًا، مثل أخذ الهدايا التى يقصد بها دافعها الاستفادة من المسئول فى مجانبة الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول -كما جاء فى هذه الوصية- يقرب إلى الفقر، ويدفع النصر.

- ومن هذه الفوائد تبين لنا عظمة الوصية التى أوصى بها أبو بكر رضى الله عنه أحد قواده، وأنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين، وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم فى تلافى الوقوع فى المشكلات، وحلها إذا وقعت، وهذه الوصية وأمثالها تسجِّل إضافة جديدة لمواقف أبى بكر المتعددة[(١)]، وجاء فى رواية أن أبا بكر رضى الله عنه لم ينس اللمسات الإنسانية فى وصيته لجيش يزيد، حيث وصاه بدستور المسلمين للحرب المكون من عشر نقاط تجسد إنسانية الحضارة الإسلامية وروحها المفعمة بالرحمة، والشفقة، وقد جاءت هذه الوصية على شكل مقتبس من رسول الله ﷺ فقد قال: أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا

(١) التاريخ الإسلامى (٩/١٩٦) .

تفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بعيرًا إلا لأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. . اندفعوا باسم الله[١]. وقد استفاد منها يزيد بن أبى سفيان غاية الاستفادة، ولما فتح الشام فى عهد عمر، ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبى سفيان، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، وكان موت هؤلاء كلهم فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة، وقيل: مات يزيد سنة تسع عشرة بعد فتح قيسارية، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية[٢].

وقال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله البصرى: جزع عمر على يزيد جزعًا شديدًا، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام[٣].

٢ ـ عتبة بن أبى سفيان: يكنى أبا الوليد، ولد على عهد رسول الله ﷺ، ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وحكى عنه أنه اعترضه أعرابى وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تبعد. قال: فيا أخاه. قال: أَسْمَعْتَ فقل. قال: شيخ من بنى عامر يتقرب إليك بالعمومة، ويختص بالخؤولة[٤]، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدة فقر، وترادف ضُرّ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه، أستغفر الله منك، وأستعينه عليك. قال: قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك[٥]. وكان خطيبًا فصيحًا، يقال: إنه لم يكن فى بنى أمية أخطب منه[٦]، وأقام بمصر واليًا سنة ثم توفى بها، ودفن فى مقبرتها سنة أربع وأربعين، وقيل: سنة ثلاث وأربعين[٧].

٣ ـ عنبسة بن أبى سفيان: يكنّى أبا عثمان، روى عن أبى أمامة قال: لما حضر عنبسة بن أبى سفيان الموت اشتد جزعه، وجاءه الناس يعودونه، فجعل عنبسة يبكى ويجزع، فقال له القوم: يا أبا عثمان، ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة إن شاء الله حسنة؟! فازداد حزنًا وشدة بكاء وقال: ما يمنعنى ألاّ أبكى وألاّ يشتد

(١) صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامه الهرفى صـ٦٢ ، نقلاً عن تاريخ الطبرى (٣/ ٢٢٧)

(٢)، (٣) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٥ .

(٤) المصدر نفسه صـ ٢٠٧ ، قادة فتح الشام ومصر صـ ٩٩ .

(٥)، (٦)، (٧) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٨ . .

حزنى من هول المطلع، وما يدرينى ما أُشرفُ عليه غدًا، وما قدمت من كبير عمل تثق به نفسى[1].

٤ ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها: هى رملة بنت أبى سفيان، زوج النبى ﷺ، تكنى أم حبيبة، وهى بها أشهر من اسمها، وأمها صفية بنت أبى العاص بن أمية، ولدت - رضى الله عنها- قبل البعثة بسبعة عشر عامًا، وكانت قبل النبى ﷺ عند عبيد الله بن جحش بن رياب بن يعمر الأسدى من بنى أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجرا إلى الحبشة فولدت حبيبة، وبها كانت تكنى، وقد ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخل فى النصرانية فهلك وهو على تلك الحالة وتمسكت بدينها، وذلك من فضل الله عليها ليتم لها الإسلام والهجرة، فأبدلها الله عز وجل به خير البشر وأفضلهم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهى أقرب أزواجه نسبًا إليه وأكثرهن صداقًا رضى الله عنها وأرضاها[2]. قال الذهبى عنها: وهى من بنات عم الرسول ﷺ، وليس فى أزواجه من هى أكرم نسبًا إليه منها، ولا فى نسائه من هى أكثر صداقًا منها ولا من تزوج بها وهى نائية الدار أبعد منها، عقد له ﷺ عليها بالحبشة وأصدقها، عنه صاحب الحبشة أربعمائة دينار، وجهزها بأشياء[3].

وقد ورد لها بعض المناقب التى تدل على علو مكانتها وعظيم شأنها رضى الله عنها وأرضاها، ومن تلك المناقب:

أ- أنها كانت ممن هاجر فى الله الهجرة الثانية إلى الحبشة فارة بدينها رضى الله عنها، فقد روى الحاكم بإسناده إلى إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قالت أم حبيبة: رأيت فى النوم عبيد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة وأشوهها ففزعت فقلت: تغيرت والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة إنى نظرت فى الدين فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية وكنت قد دنت بها، ثم دخلت فى دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية. فقلت: والله ما خير لك، وأخبرته بالرؤيا التى رأيت له، فلم يحفل بها وأكب على الخمر حتى مات، فأرى فى النوم كأن آتيًا يقول لى: يا أم المؤمنين. ففزعت وأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجنى، قالت: فما هو إلا أن انقضت عدتى فما شعرت إلا برسول النجاشى على بابى يستأذن، فإذا جارية له يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت علىَّ

(١) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٨ .

(٢) الطبقات لابن سعد (٨/ ٩٦ ـ ١٠٠)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٩) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٩) .

فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوجكه، فقالت: بشرك الله بخير، قالت: يقول لك الملك: وكّلى من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته[1].. ففى هذا الحديث فضيلة ظاهرة ومنقبة عالية لأم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها، وهى أنها كانت ممن شرف بالهجرة إلى أرض الحبشة وثبتت على إسلامها وهجرتها[2].

ب ـ ومن مناقبها أنها أكرمت فراش رسول الله من أن يجلس عليه أبوها، لما قدم المدينة لعقد الهدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش، ومنعته من الجلوس عليه لأنه كان -يومئذ- على الشرك، ولم يكن قد أسلم[3]، فقد روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن مسلم الزهرى قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد فى هدنة الحديبية، فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبى ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية أصابك بعدى شر[4].

ج ـ ومن مناقبها ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة تقول: دعتنى أم حبيبة زوج النبى ﷺ عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك، فقالت: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحللك من ذلك، فقالت: سررتينى سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك، وتوفيت سنة أربع وأربعين فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما[5].

٥ ـ أم الحكم بنت أبى سفيان رضى الله عنهما: هى أم عبد الرحمن بن أم الحكم، كانت من مسلمة الفتح، كانت حين نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] تحت عياض بن غنم الفهرى، ففارقها حينئذ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفى[6].

٦ ـ عزة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما: ذكرها ابن شهاب فى حديث أم حبيبة فى الرضاع، أخرج مسلم حديثها، وهو ما يروى عن أم حبيبة أنها قالت: يا رسول الله، هل

(١) المستدرك ، ك معرفة الصحابة (٤/ ٢٠، ٢١) .
(٢) العقيدة فى أهل البيت صـ ١١٣ .
(٣) المصدر نفسه صـ ١١٣ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣) ، الطبقات الكبرى (٨/ ٩٩، ١٠٠) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣) .
(٦) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٣٠٩.

لك فى أختى؟ قال: «ما أصنع بها» ، قالت: تنكحها، قال: «أتحبين ذلك» ؟ قالت: نعم لست بمخلية لك وأحبّ من شركنى فى خير أختى[1]، وبين لها رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له[2] إذ لا يجوز فى الإسلام الجمع بين الأختين[3]. هذا وقد عقد رسول الله ﷺ على أم حبيبة بنت أبى سفيان سنة ست للهجرة[4] وكان عمرها ٣٣ سنة يوم عقد عليها رسول الله، وقال الذهبى: فكان لها يوم قدم بها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية إلى المدينة بضع وثلاثون سنة[5]، وقد توفيت سنة ٤٤هـ[6] .

٧ـ **أميمة بنت أبى سفيان:** ولدت أبا سفيان بن حويطب بن عبد العُزّى وجويرية، وذكرها ابن قدامة فى التبيين فى أنساب القرشيين باقتضاب[7] .

خامسًا: زوجات معاوية -رضى الله عنه- وأولاده:

١- من نساء معاوية رضى الله عنه ميسون بنت بحدل الكلبى، ولدت له يزيد بن معاوية، وأمة رب المشارق فماتت صغيرة[8]، وكان معاوية رضى الله عنه يجل ميسون بنت بحدل ويحترمها، إلا أنها كانت تحن إلى مرتع طفولتها فى البادية، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة وصوف عيشتهم، وبعدهم عما يكدرهم، وتزهد فى حياة القصور، بما فيها من الخدم والوصيفات، وذات يوم تذكرت باديتها وحنت إلى أترابها وأناسها، وتذكرت مسقط رأسها، فبكت وتنهّدت، فقالت لها بعض حظاياها: ما يبكيك وأنت فى مُلْكٍ يضاهى ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

لَبيتٌ تخفق الأرواح فيه ... أحبّ إلىّ من قصر منيف
وبكر[9] يتبع الأظعان سبقًا ... أحبّ إلىّ من بَغْلٍ زفوف[10]
وكلب ينبح الطّراق عنى ... أحبّ إلىّ منْ قطٍ أليف
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عينى ... أحبّ إلىّ من لبس الشفوف[11]

---

(١)، (٢) مسلم رقم ١٤٤٩ .
(٣) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٤٢ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٠) .
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٢).
(٧) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٩.
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٦، ٢٤٧) .
(٩) البكر : الفتى من الإبل، والشقب : الذكر من ولد الناقة .
(١٠) زفوف : مسرع .
(١١) الشفوف : جمع شف، وهو الثوب الرقيق الذى يشفُّ ما وراءه .

وأكل كُسيرة فى كِسْر بيتى ... أحبّ إلىَّ من أكل الرّغيف[1]
وأصوات الرّياح بكلّ فجٍّ ... أحبّ إلىَّ من نقر الدفوف
وخِرْق من بنى عمى نحيف ... أحبّ إلىَّ من عِلْج كليف[2]
خشونة عيشى فى البدو أشهى ... إلى نفسى من العيش الطّريف
فما أبغى سوى وطنى بديلاً ... فحسبى ذاك من وطن شريف

فلما دخل معاوية عرَّفته الحظيّة بما قالت -وقيل: إنه سمعها وهى تنشد ذلك- فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتنى عِلجًا علوفًا، هى طالق، مُرُوها فلتأخذ جميع ما فى القصر فهو لها، ثمَّ سيَّرها إلى أهلها بالبادية فأخذت معها ابنها يزيد فنشأ فى البريّة فصيحًا[3].

ونقل البغدادى ـ رحمه الله ـ فى خزانة الأدب، أن معاوية لما طلقها قال لها: كنت فبْنت، فأجابته: ما سُررنا إذْ كُنَّا، ولا أسفنا إذْ بِنَّا[4]. ولله درُّ القائل حيث أشار إلى هذا فى قوله:

وحَبّبَ أوطانَ الرّجال إليهمُ ... مآربُ قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا الأوطان ذكّرتهمُ ... عهود الصِّبا فيها فحنّوا لذلكا[5]

٢ـومن زوجاته: فاختة بنت قرَظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، ولدت له عبد الرحمن وعبد الله ابنى معاوية، وكان عبد الله محمّقًا، ضعيفًا وكان يكنى أبا الخير، وأما عبد الرحمن[6] فمات صغيراً.

٣ـومن زوجاته، كنود بنت قَرَظة وهى أخت فاختة، تزوجها منفردة عنها بعدها، وهى التى كانت معه حيث افتتح قبرص[7].

(١) الكسيرة : القطعة من الخبز، الكِسْر : طرف الخباء من الأرض.
(٢) الخِرق : الفتى السّمح الكريم، العلج : الشديد .
(٣) شاعرات العرب صـ ٣٩٦، ٣٩٧ نساء من عصر التابعين، أحمد خليل صـ ٤٣ .
(٤) خزانة الأدب (٣/ ٥٩٣)، نساء من عصر التابعين صـ ٤٣ .
(٥) نساء من عصر التابعين صـ ٤٤ .
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٧) .
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٢).

٤- وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها[١]، ومن بناته: رملة، تزوجها عمرو بن عثمان بن عفان[٢]، وهند بنت معاوية، تزوجها عبد الله بن عامر[٣] وعائشة وعاتكة وصفية[٤].

سادسًا: إسلام معاوية رضى الله عنه، وشيء من فضائله:

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضى الله عنهم يوم الفتح[٥]، هذا على المشهور، ولكن يروى عنه أنه قال: أسلمت يوم القضية ـ أى عمرة القضاء سنة ٧ هـ ـ ولكن كتمت إسلامى من أبى، ثم علم بذلك، فقال لى: هذا أخوك يزيد -وهو خير منك- على دين قومه، فقلت له: لم آل نفسي جهدًا، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء وإنى لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامى، فجئته فرحب بى وكتبت بين يديه[٦]، وشهد معاوية ـ رضى الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ حنينًا، وأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الذهب[٧] **وقد ذكر العلماء لمعاوية رضى الله عنه فضائل كثيرة، من هذه الفضائل:**

١ ـ من القرآن الكريم:

فقد اشترك معاوية رضى الله عنه فى غزة حنين قال تعالى: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾** [التوبة: ٢٦]. ومعاوية رضى الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين، وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبى ﷺ[٨]، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى، قال تعالى: **﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** [الحديد: ١٠]. ومعاوية رضى الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق فى حنين والطائف وقاتل فيهما[٩].

٢ ـ من السنة:

أ ـ دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضى الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ: **«اللهم اجعله هاديًا[١٠]، مهديًا[١١]، واهد به»[١٢]**.

---

(١)، (٢)، (٣) البداية والنهاية (١١/٤٦٣).
(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ ١٢٩.
(٥) الإصابة (٣/٤٣٣)، التبيين فى أنساب القرشيين صـ ١٠٥.
(٦)، (٧) البداية والنهاية (١١/٣٩٦).
(٨) الفتاوى (٤/٤٥٨).
(٩) المصدر نفسه (٤/ ٤٩٥).
(١٠) هادياً: أى للناس أو دالاً على الخير.
(١١) مهدياً: مهتدياً فى نفسه.
(١٢) الشريعة (٥/ ٢٤٣٧)، إسناده صحيح.

وقال ﷺ: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»[١].

ب ـ ما أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف الباب، قال: فجاء فحطأنى حطأةً وقال: «اذهب وادع لى معاوية»، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لى: «اذهب فادع لى معاوية»، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: «لا أشبع الله بطنه»[٢].

قال النووى معلقًا على هذا الحديث: وقد فهم مسلم -رحمه الله- من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقًا للدعاء عليه، فلهذا أدخله فى هذا الباب[٣]، وجعله غيره من مناقب معاوية؛ لأنه فى الحقيقة دعاء له[٤]، ولذلك قال ابن عساكر عن حديث: «لا أشبع الله بطنه»: أصح ما روى فى فضل معاوية.. وبعده حديث: «اللهم علمه الكتاب»، وبعده حديث: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا»[٥]. وعن الحديث نفسه قال الذهبى: قلت: لعل أن يقال: هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ: «اللهم من لعنته أو سببته، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة»[٦]. وقال الألبانى: قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعنًا فى معاوية رضى الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبى ﷺ[٧]، وقيل فى «لا أشبع الله بطنه»: أنها كلمة جرت على عادة العرب نحو: قاتله الله ما أكرمه، ويل أمه وأبيه ما أجوده، مما لا يراد معناه[٨].

جـ ـ ما أخرجه البخارى من طريق أنس بن مالك، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت: نام النبى ﷺ يومًا قريبًا منى، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: «أناس من أمتى عرضوا على، يركبون هذا البحر الأخضر، كالملوك على الأسرة»، قالت: فادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: «أنت من الأولين»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيًا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية[٩]، فلما انصرفوا من غزوتهم

(١) موارد الظمآن للهيثمى ، تحقيق حسين الدارانى (٧/ ٢٤٩) إسناده حسن .
(٢) مسلم رقم ٢٦٠٤ .
(٣) اسم الباب : من لعنه النبى ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً .
(٤) شرح صحيح مسلم للنووى (١٦/ ١٦٥) .
(٥) تاريخ دمشق (٦٢/ ٢٤) .
(٦) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٣٠) .
(٧) السلسلة الصحيحة (١/ ١٦٥) .
(٨) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية صـ٦٩ .
(٩) وذلك فى إمارة معاوية على الشام فى خلافة عثمان سنة ٢٧هـ .

قافلين، قُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت[١]. قال ابن حجر معلقًا على رؤيا رسول اللهﷺ : قوله: «ناس من أمتى عرضوا علىّ غُزاة» . . يشعر بأن ضحكه كان إعجابًا بهم، وفرحًا لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة[٢].

د ـ ما أخرجه البخارى من طريق أم حرام بنت ملحان رضى الله عنها قالت: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا» [٣]، قالت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم» . ثم قال النبىﷺ : «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر [٤]مغفور لهم» فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا» [٥].

قال المهلب[٦] معلقًا على هذا الحديث: فى هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر[٧]. وكان معاوية رضى الله عنه يكتب الوحى لرسول اللهﷺ [٨]، وكذلك رسائل النبىﷺ إلى زعماء القبائل[٩]، وكتابة معاوية للوحى لرسول اللهﷺ أتاحت له لونًا من القرب الطبيعى من رسول اللهﷺ فى تلك الفترة التى أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول اللهﷺ ، مما يستتبع -بالضرورة- التأثر بشخص الرسول الكريمﷺ ، والأخذ المباشر منه[١٠].

سابعًا: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ:

يعد معاوية رضى الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول اللهﷺ ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول اللهﷺ بعد فتح مكة، وكان عمره فى فتح مكة حوالى ثمانى عشرة سنة[١١]، ولكونه صهر رسول اللهﷺ وكاتبه فقد أتيحت له فرصة عظيمة مكنته من الاستفادة من رسول اللهﷺ ، وقد روى معاوية رضى الله عنه مائة وثلاثة وستين

---

(١) فتح البارى على صحيح البخارى (٦/ ٢٢). (٢) المصدر نفسه (١١/ ٧٦) .
(٣) أوجبوا : أى فعلوا فعلاً وجبت لهم الجنة .
(٤) مدينة قيصر : يعنى القسطنطينية، فتح البارى (٦/ ١٢٠).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ٢٢) .
(٦) المهلب بن أحمد بن أبى صفرة الأسدى الأندلسى ، مصنف شرح صحيح البخارى ، توفى سنة ٤٣٥هـ. انظر : سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٨٩)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ ٢٧ .
(٧) فتح البارى (٦/ ١٢٠) . (٨) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦) .
(٩) الإصابة فى تمييز الصحابة (٣/ ٤٣٤) . (١٠) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٤٥ .
(١١) الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٦) ، خلافة معاوية، د.عمر العقيلى صـ ١٤ .

حديثًا[1] عن رسول الله ﷺ واتفق له البخارى ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخارى بأربعة ومسلم بخمسة[2]، ومن هذه الأحاديث التى رواها معاوية رضى الله عنه:

١- دخل معاوية على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، ولم يقم ابن الزبير، فقال معاوية: مَهْ، قال رسول الله ﷺ «من أحب أن يمثل له عباد الله قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[3].

٢- عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه فى الدين»[4].

٣- عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة فى المسجد، فقال: ما أجلسكم[5]، قالوا: جلسنا نذكر الله عزل وجل، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنِّى لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا منى، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ علينا بك، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنَّه أتانى جبريل عليه السلام فأخبرنى أنّ الله عز وجل يباهى بكم الملائكة»[6].

٤- عن معبد الجهنى، قال: كان معاوية قلّما يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ شيئًا، ويقول هؤلاء الكلمات قلَّما يدعهنَّ أو يحدِّثُ بهنَّ فى الجمع، عن النبى ﷺ قال: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإن هذا المال حُلوٌ خضرٌ، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح، فإنَّهُ الذبح»[7].

٥- عن عبد الرحمن بن عبد، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شَرِب الخمر فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه، فإن عاد الرّابعة، فاقتلوه»[8].

(١) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم صـ ٥٥، مرويات خلافة معاوية صـ٢٣.
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/١٦٢).
(٣) الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد (٢٨/ ٤٠)، إسناده صحيح.
(٤) المصدر نفسه (٢٨/٤٨)، إسناده صحيح.
(٥) أى: فى المسجد.
(٦) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/ ٥٠) إسناده صحيح.
(٧) المصدر نفسه (٢٨/ ٥٢)، إسناده صحيح.
(٨) المصدر نفسه (٢٨/٦١)، إسناده صحيح.

٦- عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤذِّنين أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»(١).

٧- عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أن معاوية أخبره أنه رأى رسول الله ﷺ قصَّر من شعره بمشقص، فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية، فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهمًا.

٨- عن الزهرى قال: حدثنى حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنَّه سمع معاوية يخطب بالمدينة يقول: يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء، ولم يفرض علينا صيامه، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم فإنى صائم»، فصام النَّاس(٢).

٩- عن الحكَم بنِ ميناء أن يزيد بن جارية الأنصارى أخبره أنه كان جالسًا فى نفر من الأنصار، فخرج عليهم معاوية، فسألهم عن حديثهم، فقالوا: كُنَّا فى حديث من حديث الأنصار، فقال معاوية: ألا أَزِيدكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبَّ الأنصار أحبَّهُ الله عز وجل، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله عز وجل»(٣).

١٠- عن أبى صالح عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»(٤).

١١- قال محمد بن كعب القُرَظى: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصَّلاة: «اللَّهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»(٥).

١٢- عن أبى بردة، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفَّر الله عنه به من سيِّئاته»(٦).

١٣- وعن معاوية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحقِّ لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس»(٧).

(١) المصدر نفسه (٢٨/ ٧٥)، إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد (٢٨/ ٨١)، إسناده صحيح.
(٣) المصدر نفسه (٢٨/ ٨٥)، إسناده صحيح.
(٤) المصدر نفسه (٢٨/ ٨٩) صحيح لغيره.
(٥) المصدر نفسه (٢٨/ ١٠٠)، إسناده صحيح.
(٦) المصدر نفسه (٢٨/ ١٠٧) إسناده صحيح.
(٧) المصدر نفسه (٢٨/ ١١٦)، إسناده صحيح على شرط مسلم.

١٤- وعن معاوية بن أبى سفيان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من نسى شيئًا من صلاته فليسجد سجدتين وهو جالس»(١).

١٥- وعن معاوية بن أبى سفيان، عن النبى ﷺ قال: «من كذب علىَّ متعمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار»(٢).

١٦- وعن عمير بن هانئ قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاتزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله عز وجل وهم ظاهرون على الناس». فقام مالك بن يخامر السكسكىُّ فقال: يا أمير المؤمنين، سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام، فقال معاوية ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم أهل الشام(٣).

١٧- حدّثنا روح، قال: حدّثنا أبو أميّة عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدِّى يُحَدِّث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبى هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها، واشتكى أبو هريرة، فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ، فقال: «يا معاوية، إن وليت أمرًا فاتق الله عز وجل واعدل»، قال: فما زلت أظن أنى مُبتلىً بعملٍ لقول النبىّ ﷺ حتى ابتُليت(٤).

١٨- وعن أبى عامر عبد الله بن لُحَىٍّ، قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلمَّا قدمنا مكة قام حين صلَّى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأُمَّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة» ـ يعنى الأهواء ـ كلها فى النار إلا واحدة؛ وهى الجماعة، وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»(٥).

(١) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (٢٨/١١٨) صحيح لغيره.
(٢) المصدر نفسه (٢٨/١١٨)، صحيح لغيره. (٣) المصدر نفسه (٢٨/ ١٢٩)، إسناده صحيح.
(٤) المصدر نفسه (٢٨/ ١٣٠)، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير أن جد عمرو بن يحيى - وهو سعيد بن عمرو ابن سعيد بن العاص- لم يتبين لنا سماعه من معاوية، فقد ذكر البخارى فى تاريخه الكبير(٣/ ٣٣١) فقال: ويُروى فى فضائل معاوية أشياء ضعيفة تحتمل، وذكر منها هذا الحديث.
(٥) المصدر نفسه (٢٨/ ١٣٥)، إسناده حسن.

ثامنًا: من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحًا وذمًا:

١ ـ من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى مدح معاوية: ساق ابن عساكر فى ترجمته لمعاوية أحاديث واهية وباطلة طوّل بها جدًا، فمن الأباطيل المختلقة[١]:

أ ـ عن واثلة مرفوعًا: كاد معاوية أن يبعث نبيًا من حلمه وائتمانه على كلام ربى[٢].

ب ـ وعن أبى موسى: نزل عليه الوحى، فلما سُرِّى عنه، طلب معاوية، فلما كتبها ـ يعنى آية الكرسى ـ قال: غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة[٣].

ج ـ وعن أنس: هبط جبريل بقلم من ذهب، فقال: يا محمد، إن العلىَّ الأعلى يقول: قد أهديت هذا القلم من فوق عرشى إلى معاوية، فمره أن يكتب آية الكرسى به ويشكله ويعجمه، فذكر خبرًا طويلاً[٤].

د ـ وعن ابن عباس، قال: لما أنزلت آية الكرسى، دعا معاوية فلم يجد قلمًا، وذلك أن الله أمر جبريل أن يأخذ الأقلام من دواته، فقام ليجىء بقلم، فقال النبى ﷺ: خذ القلم من أذنك، فإذا قلم ذهب مكتوب عليه: لا إله إلا الله، هدية من الله إلى أمينه معاوية.

هـ ـ وعن حذيفة مرفوعًا: يبعث معاوية وعليه رداء من نور الإيمان[٥].

و ـ وعن أنس مرفوعًا: لا أفتقد أحدًا غير معاوية، لا أراه سبعين عامًا، فإذا كان بعد أقبل على ناقة من المسك، فأقول: أين كنت؟ فيقول: فى روضة تحت العرش .

ز ـ وعن ابن عمر مرفوعًا: يا معاوية، أنت منى وأنا منك، لتزاحمنِّى على باب الجنة[٦].

قال الذهبى بعد ذكر هذه الأحاديث وغيرها: فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم[٧]. وقد ذكر أكثر هذه الأحاديث الشوكانى فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة[٨]، وقال ابن كثير بعد أن ذكر حديثًا منها: وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة[٩]، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبِّهُ عليها وعلى نكارتها وضعف حالها[١٠].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٢٨)، موضوع .

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٣/ ١٢٩)، موضوع .

(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٣٠)، موضوع .

(٦) ، (٧) المصد نفسه (٣/ ١٣١) ،موضوع .

(٨) الفوائد المجموعة صـ ٤٠٣ ـ ٤٠٧ .

(٩) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٩) .

(١٠) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣١).

٢ ـ من الأحاديث الباطلة في ذم معاوية: قال ابن الجوزي: قد تعصب قوم ممن يدعى السنة فوضعوا في فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمه أحاديث، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح[(١)]، ومن الأحاديث الواهية في ذمه:

الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي»، فطلع معاوية. وقام النبي ﷺ خطيبًا، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبي ﷺ: «لعن الله القائد والمقود، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة؟»، وهذا الحديث لا يصح، وهو كذب على رسول الله، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث، ولا له إسناد معروف[(٢)]، ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفًا لمن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ، مع أنه أعظم الناس مرتبة في الدين والدنيا، وهو محتاج إليه في كل أموره؟ فكيف لا يصبر على سماع كلامه وهو بعد المُلك يسمع كلام من يسبّه في وجهه، فلماذا لا يسمع كلام النبي ﷺ؟ وكيف يتخذ النبي ﷺ كاتبًا مَن هذه حاله؟![(٣)].

٣ ـ دور بني أمية في عهد رسول الله ﷺ: رغم إسلام الكثير من رجال بني أمية منذ بداية الدعوة، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة، ورغم إسلام جميع بني أمية عند فتح مكة، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم، والاعتماد عليهم في جلائل الأعمال، وقد أفسح لهم مكانًا في دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم، فقد أعطى الرسول ﷺ لأبي سفيان ميزة لم يعطها أحدًا من أهل مكة، حين قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[(٤)]، وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان يدل على تقدير الرسول للزعماء وأصحاب الكلمة في قومهم، واستعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران، واتخذ ابنه معاوية كاتبًا له[(٥)]. روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس، أن أبا سفيان طلب من النبي ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين، وأن يجعل معاوية كاتبًا بين يديه، فاستجاب له النبي ﷺ[(٦)]، وكان أولُ والٍ على مكة ـ وهي أشرف بلاد الله ـ بعد فتحها رجلاً من بني أمية، هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، يروى ابن إسحاق عن زيد بن أسلم أنه قال:

(١) الموضوعات (٢/ ١٥). (٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٨).
(٣) أمير المؤمنين معاوية، لابن تيمية، جمع وتقديم محمد مال الله صـ ٨٨.
(٤) البخاري رقم ٤٢٨٠. (٥) العالم الإسلامي في العصر الأموي صـ ١١.
(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٦٢).

لما استعمل النبى ﷺ عتَّاب بن أسـيد على مكة رزقه كل يوم درهمًا، فـقال: أيها الناس، أجاع الله كبد من جـاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهمًا فليست بى حاجة إلى أحد[(١)]، كما استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيـد بن العاص بن أمية على قرى خـيبر ووادى القرى وتيـماء وتبوك، وقـبض رسول الله ﷺ وعمرو علـيها[(٢)]، كما استعـمل الحكم بن سعيد بن العـاص على سوق مكة[(٣)]، واستـعمل خالد بن سعـيد بن العاص على صنعاء[(٤)]، واستعمل أبان بن سعيـد بن العاص على البحرين، وقبض رسول الله ﷺ وهو عليها[(٥)]، كما كان أبان وخالد ابنا سعيـد بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان -إضافة إلى عثمان بن عفان- رضى الله عنهم من كتَّاب الرسول ﷺ[(٦)]. وخلاصة القول: فقد قـبض رسول الله ﷺ ومُعظم رجـالات بنى أمية علـى مختلف الأعـمال، من الولاية والكتابة، وجبـاية الأموال، ولا نعرف قبيلة من قـبائل قريش فيها عـمال للرسول ﷺ أكثر منهم[(٧)]، واستعمال النبى ﷺ لأكثر رجال بنى أمية، أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم[(٨)]. وأما قوله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[(٩)]، فهذه الكلمات، جـعل بعض الناس منها سبة فى جبين بنى أمـية وحدهم، وجعلوا يعـيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء، ولم يفـهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت لهم مواقف مشهودة فى نصرة الإسلام فى حياة الرسول ﷺ وبعده فى الفتوحات فى عـهد خلفائه الراشدين[(١٠)]، ونحب أن نشير إلى عدة نقاط متعلقة بوصف الطلقاء منها:

١ ـ إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة، لما تفجرت الأحقاد ضد بنى أمية فى أواخر عهـد عثمان رضى الله عنه، وبعـد بروز نجم معاوية بن أبى سفيـان وخلافه مع على بن أبى طالـب رضى الله عنه، حـيث أصبـح ذلك الوصف يعـنى عندهم أنهم قـوم ضـعاف الإيمـان، دخلوا الإسلام رغـبة فى غنائمـه، أو رهبـة من القتل، ليكيـدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٩ ـ ١٤٩) ، تاريخ خليفة بن خياط صـ ٩٧ .
(٢)، (٣) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦) .
(٤) خليفة بن خياط صـ ٩٧ .
(٥) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦) .
(٦) تخريج الدلالات السمعية صـ ١٥٩ ـ ١٦٢ .
(٧) منهاج السنة (٣/ ١٧٥)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ١٢ .
(٨) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ١٢ .
(٩) الطبقات (٢/ ١٤١، ١٤٢) .
(١٠) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٨.

٢- أن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه بمر الظهران خارجها، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح، أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضًا، غير أنه كان يخفى إسلامه ـ شأن بعض الناس آنذاك ـ لمكانته من أبيه الذى كان يقود القتال ضد المسلمين، فقد روى أنه أسلم سرًا يوم عمرة القضاء، أو عام الحديبية[١]، وإنما وضعهم المؤرخون فى زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبى سفيان من الفتح، ولأنه كان زعيم مكة الذى ارتبط إسلامه بإسلامها، كما أن معاوية كان إسلامه سرًا لم يشع، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة.

٣- إن وصف الطلقاء لا يقتضى الذم، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبى ﷺ، وكانوا نحوًا من ألفى رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين، كالحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل، ويزيد بن أبى سفيان، وحكيم بن حزام، وأبى سفيان بن الحارث، ابن عم النبى ﷺ الذى كان يهجوه ثم حسن إسلامه، وعتاب بن أسيد الذى ولاه النبى مكة لما فتحها، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم.

٤- إن النظرة الإسلامية فى هذا الشأن أن الإسلام يجبُّ ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات، ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى، وينزل الناس منازلهم، وأن خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقهوا، ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبى ﷺ، فأرسل عمرًا أميرًا على ذات السلاسل، وسمّى خالدًا سيف الله.. هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظمى للسابقين الصادقين فى الإسلام، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بنى أمية وغيرهم، كما كان من الطلقاء بنى أمية وغيرهم[٢].

(١) البداية والنهاية (١١/٣٩٦).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها ص ١٤٤.

المبحث الثانى

الأمويون ومعاوية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم

أولاً: فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه:

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفًا عصيبة، وأجمع المسلمون على بيعة أبى بكر خليفة لرسول الله ﷺ ، وقام بجهود عظيمة فى مواجهة الأخطار، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة، وبدأ حركة الفتوح فى بلاد الفرس والروم، وكان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموى على مكة عتاب بن أسيد، حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام، فواجههم عتاب فى تهامة حتى ظفر بهم(١)، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمائة رجل، وأمَّر عليهم أخاه خالد بن أسيد، فاشتركوا فى قتال المرتدين باليمن(٢)، وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام(٣)، وفى حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد، الذى جعل على قيادة المهاجرين فى جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطاب(٤)، فقاتل أبو حذيفة قتالاً مجيدًا، ولما انكشف المسلمون فى أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال. وقاتل حتى قتل رضى الله عنه(٥)، وحمل راية المهاجرين -يومذاك- مولاه سالم، وقاتل بها حتى قتل أيضًا(٦)، وشهد حروب اليمامة ضد مسيلمة، معاوية رضى الله عنه(٧)، كما استشهد من حلفاء بنى أمية عكاشة بن محصن الأسدى فى قتال طليحة الأسدى(٨)، وأسهم العلاء الحضرمى حليفهم أيضًا فى إخماد الردة فى البحرين، ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة(٩)، وكان من الطبيعى بعد انتهاء حروب الردة وعودة المرتدين إلى حظيرة الدين

---

(١) تاريخ الطبرى (٣/٣١٩)، الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه (٣/٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠) .

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٣٠ ـ ٣٤٢) . .

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٨١) .

(٥) المصدر نفسه (٣/ ٢٩١) .

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢)، الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٤٨ .

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦) .

(٨) ديوان، الردة للعتوم صـ ٨٦ .

(٩) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٠١ ـ ٣١٣)، سيرة أبى بكر الصديق، للصلابى صـ ٢٢٥.

وانصياعهم للحكومة الراشدة، أن تطمح الأبصار إلى تخليص الشعوب المستعبدة من حكوماتها الظالمة، ودعوتها إلى الإسلام، وبدأ ما عرف فى التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتى فارس والروم. . وقد كان لبنى أمية دور بارز فى هذه الحروب، مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامى، وحيوية دورهم التاريخى فى هذه الفترة، غير أننا نشير فى البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح[(١)]:

الأولى: هى تعاظم دور مسلمة الفتح وطلقاء مكة فى الفتوح - ومنهم بعض بنى أمية - وقد كان ذلك متوقعًا لسببين: الأول هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه فى الفتح[(٢)]. وقد كان هذا يعود إلى حرص أبى بكر الصديق رضى الله عنه على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقة الدين أو شهوات هذه النفوس التى لم تخلص بعد للإسلام، أو لم تبرهن على إخلاصها له. والسبب الثانى يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاتهم من خدمة قضية الإسلام، وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم[(٣)].

والسمة الظاهرة الثانية: هى تركز نشاط الأمويين فى الفتوح على جبهة الشام، يشاركهم فى ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عمومًا، ويبدو أن ذلك كان أمرًا مقصودًا من الخليفة الصديق الذى أدرك وجود صلات عميقة الجذور بين بنى أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطى، تلك الصلات التى تعمقت من خلال النشاط التجارى المتواصل بين مكة والشام فى الجاهلية، والذى كان بنو أمية أبرز قواده ورواده[(٤)]، وأما عن مشاركة الأمويين فى حروب الفتح، فقد جاءت مبكرة، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبى معيط مع خالد بن الوليد فى فتوح العراق الأولى، وشهد معه قتل هرمز، وأرسله خالد إلى أبى بكر بالغنائم وبشارة الفتح، وإخباره عن جمع جديد من الفرس[(٥)]، ثم وجهه الخليفة مددًا إلى عياض بن غنم الذى كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال، وكان يحاصر دومة الجندل فيجد العنت والمشقة فى فتحها، فأشار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد، فاستمده، فأنجده، وفتحوا معًا دومة الجندل[(٦)]، ثم ولاه أبو بكر

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٤٨.
(٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣١٩ - ٣٤٧).
(٣)، (٤) الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ١٤٩.
(٥) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٤).
(٦) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٠)، الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ ١٤٩.

على النصف من صدقات قضاعة مما يلى دومة الجندل[١]، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد فى سبيل الله، ويخيِّره بينه وبين أن يظل على عمله الذى ولاه إياه، فأجابه بإيثار الجهاد، فوجه به إلى الشام[٢]، وكان أول لواء عقده أبو بكر فى حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموى، ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبى سفيان بن حرب الأموى أيضًا[٣]، وأما جيش يزيد بن أبى سفيان، فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشيًا[٤]، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح[٥]، يقول الذهبى عن يزيد بن أبى سفيان: وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه، وكمال دينه[٦]. ثم أتبع الصديق بأناس آخرين يرغبون فى الجهاد وألحقهم بجيش يزيد وجعل عليهم أميرًا معاوية بن أبى سفيان[٧]. . وخرج أبو سفيان بن حرب - وهو يومئذ شيخ كبير[٨]-، كما اشترك فى الجهاد فى الشام أيضًا خالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعًا هناك وقتلوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص شهيدًا[٩]، وقبل معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمرًا للحرب فى الجولان. . ومر بهم أبو سفيان بن حرب فقال: ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم - فى منزلى - ولا يحضرونى فأشترك معهم فى مشورتهم، فأفسحوا له، فأسهم معهم فى رسم خطة القتال[١٠]. ولما أزفت ساعة الحرب فى اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود، فبينما كان الروم يحضهم القسيسون والرهبان، وينعون لهم النصرانية، حتى تشجعوا وخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله[١١]، كان المسلمون يتبادرون إلى إلقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة[١٢]، بل إنهم عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم فى مهمة «القاص»، وكان ذلك

(١) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٠) .
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٧) .
(٤) فتوح الشام للواقدى (١/ ٣، ٤).
(٥) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٤) .
(٦) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٨) .
(٧) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩١) .
(٨) لما توفى كان عمره ثمان وثمانين سنة، ولما حضر اليرموك كان عمره أكثر من سبعين سنة .
(٩) النزاع والتخاصم صـ٤٦ ، الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ ١٥٠ .
(١٠) فتوح الشام للواقدى (١/ ٩٩) .
(١١) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٥) .
(١٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١).

الرجل هو أبو سفيان بن حرب نفسه(١)، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه فى دينه وإسلامه، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه -آنذاك- غير هذا الإخلاص ما جعلوه أمينًا على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله ذلك الأثر العظيم، وقد كان اختياراً موفقًا فعلاً يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذى يضم الكثير من أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم، والذين احتفظوا بثقتهم القديمة فى أبى سفيان، زعيمهم الذى خبروه(٢)، وكان أبو سفيان رضى الله عنه يقف على الكراديس(٣)، فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل النصر على عبادك(٤).

ثانيًا: فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

عندما توفى الصديق عام ١٣هـ بويع الفاروق بالخلافة، وسار على نهج صاحبه فى استعمال بنى أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحدًا، منهم من عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذًا، والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله، وتقصيه أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم، فاستمرارهم فى عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم، فقد بقى يزيد بن أبى سفيان واليًا على دمشق، كما زاد عمر فى عمل معاوية بالشام(٥).

١ ـ بدأ نجم معاوية فى الظهور:

بدأ نجم معاوية رضى الله عنه فى الظهور فى ميدان العمل السياسى والإدارى فى عهد الخليفة عمر رضى الله، عنه فقد ولاه فتح قيسارية(٦) سنة خمس عشرة للهجرة(٧)، وجاء فى كتاب توليته له: أما بعد، فقد وليتك قيسارية، فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير(٨). كانت هذه المهمة الجسيمة اختباراً كبيراً من عمر لمعاوية فى ميدان الواقع، فقد

(١) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٧). (٢) الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ ١٥١.

(٣) الكراديس: جمع كردوس: القطعة العظيمة من الخيل أو الكتيبة من الجند.

(٤) التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢٠٣. (٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ١٥.

(٦) قيسارية: على ساحل الشام، تعد من أعمال فلسطين، معجم البلدان، ياقوت (٤/ ٤٢١).

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ٥٩.

(٨) تاريخ الطبرى (٤/ ٤٣١).

استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعدهم له أخوه يزيد بن أبى سفيان - أحد ولاة الشام لعمر رضى الله عنه- وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد، فحاصرها معاوية طويلاً، وزاحف أهلها مرات عديدة، فلم ييأس معاوية، فصمم على فتحها، واجتهد فى القتال حتى فتح الله على يديه، وكان فتحه كبيرًا، فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائة ألف[١]، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه[٢]، وقد أثبت معاوية - بعد توفيق الله ـ بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، فأسند له أخوه يزيد ـ أمير دمشق ـ مهمة فتح سواحل الشام، وقد أبلى فى ذلك بلاءً حسنًا[٣]، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالاً شديدًا، وربما رمى ففتحها، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما تحتاج إليه من المسلمين، فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد[٤]، ويرى الدكتور عبد الرحمن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان بحيث لا تجعلهم يفكرون فى المقاومة؛ فتساقطت مدن بيروت، وصيدا، ونابلس، واللد، وحلب، وأنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحًا على يد معاوية بن أبى سفيان، وكان ذلك بعد القدس[٥].

وكان عبادة بن الصامت على ميمنة جيش المسلمين فى حصار قيسارية، فقام رضى الله عنه بوعظ جنده ودعاهم إلى تفقد أنفسهم والحيطة من المعاصى، ثم قاد هجومًا قتل فيه كثيرًا من الروم، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، فعاد إلى موقعه الذى انطلق منه، فحرّض أصحابه على القتال، وأبدى لهم استغرابه الشديد لعدم تحقيق أهداف ذلك الهجوم، فقال: يا أهل الإسلام، إنى كنت من أحدث النقباء سنًا، وأبعدهم أجلاً، وقد قضى الله أن أبقانى حتى قاتلت هذا العدو معكم.. والذى نفسى بيده ما حملت -قط- فى جماعة من المؤمنين على جماعة من المشركين، إلا خلوا لنا الساحة وأعطانا الله عليهم الظفر، فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم[٦]؟ ثم بين لهم ما يخشاه منهم، فقال: إنى والله لخائف عليكم خصلتين: أن تكونوا قد غللتم، أو لم تناصحوا الله فى حملتكم[٧]، وحض أصحابه على

(١) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية صـ ٦٣ ، ٦٤
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٥٤) .
(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ٥٩ .
(٤) فتوح البلدان للبلاذرى صـ ١٣٤ .
(٥) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة صـ ٣٥٥ .
(٦) الأنصار فى العصر الراشدى صـ ٢٠٧ .
(٧) المصدر نفسه صـ ٢٠٩.

طلب الشهادة بصدق، وأعلمهم أنه سيكون فى مقدمتهم وأنه لن يعود إلى مكانه، إلا أن يفتح الله عليه أو يرزقه الشهادة(1)، فلما التحم المسلمون والروم، ترجل عبادة عن جواده وأخذ راجلاً، فلما رآه عمير بن سعد الأنصارى نادى المسلمين يعلمهم بما فعل أميرهم ويدعوهم إلى الاقتداء به، فقاتلوا الروم حتى هزموهم وأحجروهم فى حصنهم(2) وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية فى فتح سواحل دمشق ولاه عمر بن الخطاب ولاية الأردن، وكان ذلك عام ١٧هـ(3).

٢ ـ ولايته على دمشق وبعلبك والبلقاء:

فى سنة ثمانى عشرة للهجرة توفى يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما فى طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه على دمشق وبعلبك والبلقاء(4)، وقد كان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسية والد معاوية ووالدته، فحين عزى عمر أبا سفيان فى وفاة ابنه يزيد قال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخاه معاوية. قال: وصلت رحمًا يا أمير المؤمنين. وكتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه فى بداية عمله هذا، فمما قال: يا بنى، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ، وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعًا، وقد ولوك جسيمًا من أمورهم، فلا تخالفهم، فإنك تجرى إلى أمد فنافس، فإن بلغته أورثته عقبك(5)، وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة تقول: والله يا بنى إنه قل أن تلد مثلك، وإن هذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت(6).

وكان بعض الناس ـ لا سيما شيوخهم ـ استغربوا تولية عمر رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه مع حداثة سنه ووجود من هو أكبر منه وأفضل، لذا سوغ عمر رضى الله عنه عمله هذا ـ حيث قالوا: ولى حدث السن ـ بقوله: تلومننى فى ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهد به»(7).

---

(1)، (2) الأنصارى فى العصر الراشدى صـ ٢٠٩.

(3) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٧)، خلافة معاوية للعقيلى صـ ١٧، ١٨.

(4) الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٦)، أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٦١.

(5) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٩)، المقصود أورثته عقبك أى : الحمد .

(6) المصدر نفسه (١١/ ٣٩٩) .

(7) السلسلة الصحيحة (٤/ ٦١٥) رقم ١٩٦٩، وقال الألبانى: حديث صحيح.

٣ ـ معاوية في موكب عظيم، وإنكار عمر عليه:

كان عمر رضي الله عنه ـ وهو الخبير بمعادن الرجال ـ يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية من صفات تؤهله للقيادة، فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم أنكره عليه عمر قائلاً: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغنى عنك من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك. قال: هو ما بلغك من ذلك. قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشى حافيًا إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين، إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن تظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم، فإن أمرتنى فعلت، وإن نهيتنى انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شيء إلا تركتنى في مثل رواجب[(١)] الضرس، لئن كان ما قلت حقًا، إنه لرأى أريب[(٢)]، ولئن كان باطلاً إنه لخديعة أديب[(٣)]. قال: فمرنى يا أمير المؤمنين، قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جَشَّمناه ما جَشَّمناه[(٤)]، وفي رواية أن الرجل الذى قال لعمر: ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، هو عبد الرحمن بن عوف، وكان مع عمر حين استقبلهما معاوية بهذا الموكب العظيم[(٥)]. وهذا الجواب من معاوية ـ رضى الله عنه ـ يدل على خبرة سياسية عالية، ومعرفة واعية بأحوال الأمم، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمنى للدولة التى يحكمها، ومن أجل هذا رضى عمر سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسة عمر فى اهتمامه بأحوال رعيته وبحث شكاواهم، ولعل كلمة عمر ـ رضى الله عنه ـ : من أجل ذلك جشمناه، ما جشمناه، تدل على رضاه عن سياسة معاوية[(٦)]. وكان عمر رضى الله عنه يتعهد معاوية بالتربية والوعظ والنصح، وأحيانًا يشتد ويغلظ عليه، فعن أسلم مولى عمر رضى الله عنه قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض - أو أبضُّ - الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه، فيعجب له، ثم يضع أُصبُعَه على متنه ثم يرفعها عن مثل الشِّراك، فيقول: بخ بخ، نحن إذًا خير الناس، أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنّا بأرض الحمّامات والريف، فقال عمر: سأحدثك، ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام، وتصبُّحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب. قال: فلما جئنا ذا طوى

(١) الرواجب : جمع راجبة : وهى ما بين عقد الأصابع من داخل، أى : أضيق ما يكون .

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) البداية والنهاية (١١/ ٤١٦).

(٦) الأمويون بين الشرق والغرب، لمحمد الوكيل (١/ ٣٠).

أخرج معاوية حُلـة فلبسها، فوجد عمـر منها ريحًا كأنه ريح طيب، فقـال: يعمد أحدكم فيخرج حاجًا تَفِلاً، حتى إذا جاء أعظم بُلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدْخل فيهما على عشيرتى أو قومى، والله لقد بلغنى أذاك ههنا وبالشام، والله يعلم إنى لقد عرفتُ الحياء فيه، ثم نزع معاوية ثوبيه، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[1]، وقال عمرو بن يحى بن سعيد الأموى، عن جَدِّه قال: دخل معاوية على عمر وعليه حُلَّةٌ خضراء، فنظر إليهـا الصّحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدِّرَّة، فجعل يضـربه بها، وجعل معـاوية يقول: يا أمير المؤمنين، الله الله فىَّ، فـرجع عمر إلى مجلسه، فقـال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما فى قومك مـثله؟، فقال: والله ما رأيت إلا خيرًا وما بلغنى إلا خير، ولكنِّى رأيته -وأشار بيده[2]- فأحببت أن أضع منه[3]، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب[4]. وكان معاوية رضى الله عنه فى إمـارته بالشام فى أبهـة الملك وزيه من العدد والعـدة، وكان يرى أنه فى ثغـر تجاه العدو، ويحتاج إلى مبـاهاتهم بزينة الحرب والجهاد[5] وإظهار الملك والسلطان، وكان يرى أن الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فـيه التغلب بالبـاطل وتصريف الآدميـين طوع الأغراض والشهـوات، فلو كان الملك مخلصًا فى غلبـه للناس أنه لله ولحمله على عبادة الله وجـهاد عدوه، لم يكن ذلك مذمومًا[6]، وقد قال الله تعالى على لسـان سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[ص: ٣٣] لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبـوة والملك. وكانت أبهـة معاوية فى الملك لهـا أغراض ومقـاصد شرعـية؛ ولذلك سكت عنها عمـر رضى الله عنه وذات يوم ذكر معاوية عند عمر فـقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها إنه لمن يضـحك فى الغضب ولا يُنال منه إلا على الرِّضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه[7]. ومهما يكن فى هذه الرواية وغيرها من مبالغة، فإن ثقة عمر فى معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك[8]، فقد برهن معاوية لعمر على عمق فهـمه لضرورات السـياسة وتغـير البيئة والمجـتمع، وأثر ذلك كله على التطوير السـياسى لأدوات الحكم، ومهمـا يكن من أمر فقد عظمت مكانة معـاوية عند عمر رضى الله عنه،

(١) البداية والنهاية (١١/٤١٧) .

(٢) يعنى : أشار بيده إلى فوق .

(٣) البداية والنهاية (١١/٤١٨) .

(٤) المصدر نفسه (١١/٤١٧)، الاستيعاب صـ ٦٦٨ .

(٥) ابن خلدون إسلامياً ، عماد الله خليل صـ ٧٨ .

(٦) المصدر نفسه صـ ٧٨ .

(٧) البداية والنهاية (١١/٤١٥) .

(٨) الدولة الأموية ، حمدى شاهين صـ١٥٤ .

فولاه أهم أقاليم دولتـه، وزاد فى ولايته، ولم يعزله، على كثرة من كان يعـزل من عماله وأمرائه، وكان معجبًا بذكائه وإدارته، ولا يكتم ذلك الإعجاب[1] حتى قال يومًا لجلسائه: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية؟![2].

٤ - جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام:

لما تولى معاوية أمر الشام، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مـصر، أصبحت مهمة حماية الحدود الشامية للدولة الإسلاميـة والتوسع منها منوطة به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية فى أمرين هما: سن نظـام الصوائف والشواتى[3]، وتكوين أسطول بحرى إسلامى لأول مرة فى تاريخ الإسلام[4].

أ- سن نظام الصوائف والشواتى فى عهد عمر: أصيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريرة متتالية، فقدوا على أثرها الشام ومصر، بكل مـا تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية، غير أنهم لم يسلموا بهذه الهزائم، بل استمرت هجماتهم على الشام من خلال الدروب الجبلية التى تفصلهم عن باقى أجزاء إمـبراطورية الروم، مما جعل عمر بن الخطاب يقول فى جولته بالشام سنة ١٦هـ: والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم، لنا ما دونه، وللروم ما وراءه[5]، وفى رحلتـه هذه إلى الشام سـمى عمـر الصوائف والشـواتى، وسد فروج الشـام ومسـالكها[6]، ومن المحتـمل أن يكون هدف الروم من هجمـاتهم على المدن الإسلامـية الحدودية منذ البـداية، هو اعتمـاد ذلك كتـدبير وقائى لحـماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن اسـتجابة معـاوية كانت فوق التحـدى، فقد نقل المعركـة إلى بلاد العدو، وابتعد بالحـرب عن بلاد المسلمين، وكان لا بد لمعاوية ـ من أجل تحـقيق ذلك الهدف ـ من تطوير وسائل الدفاع، واعتبار الـعواصم والثغور مجرد قواعد متقدمـة واجبها تلقى الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف، منها صائفة سنة ٢٢هـ، حيث دخل بها بلاد الروم فى عشرة آلاف، وصائفة ٢٣هـ[7]، حيث أوغل حـتى بلغ عمورية، ومـعه من أصحـاب رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصارى، وأبو ذر الغفارى، وشداد بن أوس[8].

(١) الدولة الأموية، حمدى شاهين ص١٥٧. (٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠).
(٣) الصوائف: غزو بلاد الروم فى الصيف، والشواتى فى الشتاء.
(٤) الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ ١٥٤. (٥) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٣٣).
(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٢). (٧) تاريخ الأمم والملوك (٤/ ١٤٤ - ١٦٠).
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٢٤١) الدولة الأموية، حمدى شاهين ص ١٥٥.

ب ـ تكوين أسطول إسلامى فى البحر: ويعود الفضل إلى اللـه ثم إلى معاوية -فى هذه المرحلة المبكرة- فى فتح باب الجهاد فى البحر، الذى أصـبح ضروريًا لحماية الشام ومصر، ومواجـهة النشاط المتـزايد للأسطول البيزنطى، وغـاراته المتكررة على سواحل الإقليـمين، وإمـداداته للثائرين بهـمـا. وقد اسـتطاعت عمليـات الصـوائف والشواتى أن تضع حـدًا للتهديدات البرية، لكن المدن الساحليـة، بداية من أنطاكية ونهاية بالإسكندرية، بقيت تحت رحمـة البحرية البـيزنطية، وأدرك مـعاوية أيضًا أنه من المحـال تطوير عمليات الفـتوح فى إفريقيا ما لم يتم انتزاع السـيطرة البحرية من البيزنطيين[١]، ولم يبدأ معاوية فى غزو البحر فعليًا إلا فى عهد عثمان وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى.

ثالثًا: معاوية فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنهما:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية رضى الله عنه واليًا على معظم الشَّام، فأقرَّه عثمان عليها[٢]، كما أقرَّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايـات، وقد تطورت الأحداث، وضُمَّت إلى معـاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح هو الوالى المطلق لبـلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاة عثمـان، وأشدّهم نفوذًا، وقد كان فى بداية خلافة عثمان ولاة آخرون، منهم: عمير بن سعد الأنصارى، وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبى سفيان فى المكانة لدى عثمان رضى الله عنه، إلا أن عميرًا مرض مرضًا أعـياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليـفة عثمان أن يعفيـه، فأعفاه، وضم ولايته إلى معاوية بن أبى سـفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فـامتد إلى حمص التى ولى عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[٣]، كما توفى علقمة بن محرز، وكان على فلسطين، فـضمّ عـثمـان ولايته إلـى ولاية معـاوية بن أبى سـفيـان رضى الله عنه، فاجتمعت الشَّام لمعاوية بعد سنتـين من خلافة عثمان رضى الله عنه، وأصبح الوالى المطلق فيها طيلة السنوات الباقـية من خلافة عثمان رضى الله عنه، حتَّى توفى عـثمان وهو عليها كما هو معروف[٤]، وقد كانت فترة معاوية على الشَّـام مليئة بالأحداث، وكانت الشَّام من أهم مناطق الجهـاد، ومع أن الشَّام فى داخلها قـد استقـرت أوضاعها، وسـادها الإسلام، وقلَّت مـحاولات الرُّوم إثارة القـلاقل فيـها، إلا أن الشـام كانت مـتاخمـة لأرض الروم، وبالتالى كان المجـال مفتوحًا أمام مـعاوية للجهاد فى تلك النواحى، وسيـأتى الحديث عنها

(١) معاوية بن أبى سفيان، بسام العسلى ص ٤٠. (٢) تاريخ خليفة بن خياط ص ١٥٥.

(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٥/٤٤٢).

بإذن الله، وقد كان لمعاوية ثقله السياسى فى الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم حين بدأت ملامح الفتنة تلوح فى الأفق، كما ظهرت له آراء خاصة فى هذا الاجتماع، وجَّهها إلى عثمان[1] رضى الله عنه. وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى.

١ ـ فتوحات حبيب بن سلمة الفهرى رضى الله عنه:

كان حبيب بن سلمة الفهرى من أبرز أمراء الجهاد فى زمن ولاية معاوية على بلاد الشَّام، فعندما أجلبت الرُّوم على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أوّل خلافة عثمان، كتب معاوية إلى عثمان يستمده، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة والى الكوفة عندما انتهى من مهمته فى أذربيجان وعاد إلى الموصل، جاء فى خطاب الخليفة إلى الوليد بن عقبة: أمَّا بعد، فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلىَّ يخبرنى أن الرُّوم قد أجلبت[2] على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابى هذا، فابعث رجلاً ممَّن ترضى نجدته، وبأسه، وشجاعته، وإسلامه، فى ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذى يأتيك فيه رسولى[3] والسَّلام. فقام الوليد فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاءً حسنًا، وردَّ عليهم بلادهم التى كفرت، وفتح بلادًا لم تكن افتتحت، وردَّهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إلىَّ أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدُّون إخوانكم من أهل الشام، فإنَّهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا – رحمكم الله– مع سليمان بن ربيعة، فانتدب النّاس، فلم يمض ثلاثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا، حتى دخلوا الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرىُّ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلىُّ، فشنُّوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى، وملأوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصونًا كثيرة[4]، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة، وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يبيت قائدهم الموريان ـ أى: يباغته ليلاً ـ فسمعته امرأته أمُّ عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق

(١) الولاية على البلدان (١/١٧٦). (٢) أجلبت: تجمّعت للحرب.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧).

(٤) المصدر نفسه (٥/٢٤٧)، عثمان بن عفان للصَّلاَّبىِّ صـ ١٨١ .

الموريان أو الجنة.. ثم بيتهم، فغلبهم. وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه[١]، وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية فى أراضى أرمينية، وأذربيجان، ففتحها إمّا صلحًا. وإما عنوة[٢]، وقد كان حبيب بن سلمة الفهرى من أبرز القادة الذين حاربوا فى أرمينية البيزنطية، فقد أباد جيوشًا بأكملها للعدوّ،وفتح حصونًا، ومدنًا كثيرة[٣]، كما غزا ما يلى ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط، وملطية، وغيرها[٤].

٢ ـ غزوات معاوية فى عهد عثمان فى البر:

أدرك معاوية رضى الله عنه أن إزالة خطر الروم وتهديدهم للمسلمين لا يتم إلا بمواصلة غزو الروم، وتنشيط حركة الجهاد بشكل مستمر فى الثغور الشامية والجزرية[٥]، وشحنها بالمرابطين وتعهدها على الدوام، وقد أخذ منه ذلك وقتًا طويلاً، وبذل فيه جهدًا كبيرًا خلال ولايته تلك فى عهد عثمان، ففى سنة خمس وعشرين للهجرة قام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشامية، فوجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة، وأمره ففعل مثل ذلك. وكانت الولاة تفعله[٦]، وفى سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحية المصيصة فبلغ درولية[٧]، فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه[٨]، وكذلك الشأن فى الثغور الجزرية فقد أولاها عنايته، فقد وجه فى الأيام الأولى لولايته تلك، كلاً من حبيب بن مسلمة الفهرى وصفوان بن المعطل السلمى

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٨).

(٢) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين صـ ٢٥٢.

(٣) حروب الإسلام فى الشّام فى عهود الخلفاء الراشدين صـ ٥٧٧.

(٤) عثمان بن عفان للصّلاّبى صـ ٢٠٥.

(٥) الثغور الشامية والجزرية هى شريط طويل من القلاع والحصون يمتد على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطية، ويبدأ هذا الشريط من ملطية إلى الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط. وينقسم خط هذه القلاع إلى مجموعتين: إحداهما تسمى بـ(الثغور الجزرية) وهى تمثل الجزء الشمالى الشرقى من هذا الخط ومن أهم ثغور هذا القسم: ملطية، وزبطرة، وحصن منصور، والحدث، ومرعش، وشمشاط. والمجموعة الثانية تسمى بالثغور الشامية وهى تمثل الجزء الجنوبى الغربى من ذلك الخط وأهم ثغور ذلك القسم: عين زربة، وأذنة، وطرطوس، وهرقلة. ويفصل بين المجموعتين فاصل طبيعى وهو جبل اللكام. انظر: أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٦٧.

(٦) فتوح البلدان صـ ١٦٩.

(٧) المصيصة ودرولية من الثغور الشامية.

(٨) فتوح البلدان ص١٦٩

إلى شمشاط ففتحها. كما وجه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت، ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، كما قام معاوية بنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل في أرض الروم، فقد مرَّ على ملطية فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما؛ وذلك لكي تكون طريقًا آمنًا لحملات الصوائف. كما غزا حصن زبطرة من الثغور الجزرية في السنة نفسها[1]، وكان يتعهد حصن الحدث، وبنى مدينة مرعش وأسكنها الجند، وكل هذه المدن والحصون من الثغور الجزرية[2]، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو في عمق الأراضي الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية[3].

٣ ـ معاوية يلتمس من عثمان -رضي الله عنهما- السماح له بالغزو البحري:

كان معاوية رضي الله عنه يلح على عمر في غزو البحر، ويصف له قرب الرُّوم من حمص، ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه؛ فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير، إن ركن خرَّق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو ابن العاص كتب إلى معاوية: أن لا، والذي بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا، وتالله لمسلم أحبُّ إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء منِّي، ولم أتقدم إليه في ذلك[4]. ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى في الرُّوم ما رأى، فطمع في بلادهم وفتحها، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث، وألحَّ به على عثمان، فردَّ عليه عثمان رضي الله عنه قائلاً: أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأذنته في غزو البحر. ثم كتب إليه معاوية مرَّة أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذونًا وإلا فلا[5]. كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه أيضًا بقوله: لا

(١) تاريخ خليفة بن خياط صـ ١٦٧ ، فتوح البلدان صـ ١٨٩ .

(٢) فتوح البلدان صـ ١٨٧ ـ ١٩٦ .

(٣) تاريخ خليفة صـ ١٦٧، تاريخ الطبري (٤/ ٣٠٤)، أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية صـ ٦٩

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٢٥٨) . (٥) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/ ٥٣٨) .

تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعًا، فاحمله وأعنه[1]. فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكًا، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[2].

٤ ـ غزو قبرص:

أعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازى، واتَّخذ ميناء عكَّا مكانًا للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصَّامت امرأته أمَّ حرام بنت ملحان معه فى تلك الغزوة[3]، وأمُّ حرام هذه صاحبة القصَّة المشهورة: عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يومًا، فأطعمته، ثم جلست تفلى من رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتى عُرضوا علىَّ غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرَّة، أو مثل الملوك على الأسرَّة» قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم! فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟!

قال: «ناس من أمتى عرضوا علىَّ فى سبيل الله...» كما قال فى الرواية الأولى ـ. قال: «أنت من الأوّلين» فركبت أمّ حرام بنت ملحان فى البحر فى زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[4]. ورغم أن معاوية رضى الله عنه لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين[5]، مما يدل على أن المسلمين قد هانت فى أعينهم الدُّنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبأون بها بالرَّغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون فى نعيمها. إن المسلمين قد تربّوا على أنّ ما عند الله خير وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه، وإقامة العدل، ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كلِّ ما عداه، وهم يعتقدون أنّ هذه المهمَّة هى رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد فى سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصَّروا فى مهمَّتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم، فسيمسك الله عنهم نصره فى الدُّنيا، ويحرمهم مرضاته فى الآخرة، وذلك هو

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠) .
(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٣٨) .
(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩) .
(٤) البخارى رقم ٢٨٧٧ .
(٥) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين صـ ٣٥٦.

الخسـران المبين، من أجل هذا هُرعوا مع مـعاوية، وتسابقـوا إلى السفن يركبـونها، ولعلّ حديث أمّ حـرام قد ألمّ بخواطـرهم، فدفعـهم إلى الخروج للغزو فى سـبيل الله تصـديقًا لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعـد انتهـاء فصل الشتـاء فى سنة ثمان وعـشرين من الهجرة، ٦٤٩م[١]، وسار المسلمون من الشـام فلما انصرفوا من غزوتهم قـافلين، فقربت الدابة إلى أم حرام لتـركبها، فنفـرت الدّابة، وألقت أمّ حرام على الأرض، فاندق عنقـها، فماتت[٢]، وترك المسلمون أمّ حرام بعد دفنها فى أرض الجزيرة عنوانًا على مدى التضحيات التى قدّمـها المسلمون فى سـبيل نشر ديـنهم، وعرف قبـرها هناك بقبر المرأة الصـالحة[٣]، واجتمع مـعاوية بأصحابه، وكان فيـهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارىُّ، وأبو الدَّرداء، وأبو ذر الغـفـارىُّ، وعـبـادة بـن الصَّـامت، وواثلة بن الأسـقع، وعـبـد الله بن بشـر المازنىُّ، وشدّاد بن أوس بن ثابت، والمقداد ابن الأسـود، وكعب الحبر بن ماتع، وجـبير بن نضـير الضرمـى. وتشاوروا فـيما بـينهم، وأرسلوا إلى أهل قبـرص يخبـرونهم، أنهم لم يغزوهم للاسـتيلاء عـلى جزيرتهم[٤]، ولكن أرادوا دعـوتهم لدين الله، ثمّ تأميـن حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأنّ البيزنطيِّين كـانوا يتخذون من قبرص محطَّة يستريحون فيها إذا غزوا، ويتموَّنون منها إذا قلّ زادهم، وهى بهذه المثابة تهدِّد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مـسالمة هذه الجزيرة لهم، وخضوعها لإرادتهم، فإن وجودها كـذلك سيظلُّ شوكـة فى ظهورهم، وسهـمًا مسـدَّدًا فى صدورهم، ولكنّ سكّان الجزيرة لم يـستسلمـوا للغزاة، ولم يفتـحوا لهم بلادهم، بل تحـصّنوا فى العاصـمة، ولم يخرجـوا لمواجهة المسلـمين، وكان أهل الجـزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدّفـاع عنهم، وصدّ هجوم المسلمين عليها[٥].

٥ ـ الاستسلام وطلب الصلح:

تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص «قـسطنطينا»، وحاصروها، وما هى إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وقدّموا للمـسلمين شروطًا، واشترط عليهم المسـلمون شروطًا، وأما شرط أهل قـبرص، فكان طلبهم ألا يشـترط عليهم المسلمـون شروطًا تورّطهم مع الروم، لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم، وأمّا شروط المسلمين، فهى:

أ ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة، إذا هاجم سكانها محاربون.

(١) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين صـ ٣٥٦.
(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩)
(٣)، (٤)، (٥) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين ص٣٥٧ .

ب ـ أن يدلّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوّهم من الروم.

ج ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتى دينار فى كل عام.

د ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوّهم عليهم.

هـ ـ ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يُطلعوهم على أسرارهم[1].

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول فى معارك من هذا النوع مع العدوّ المتربص بهم، سواء بالهجوم على بلاد الشام، أو على الإسكندرية[2].

٦ ـ عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامى فى الشام:

استعمل معاوية بن أبى سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسىّ حليف بنى فزارة، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة فى البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فى جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتّى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج فى قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سُؤّال يعترّون[3] بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السُّؤّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم فى عبد الله بن قيس ؟ قالوا: وأين هو ؟ قالت: فى المرفأ، قالوا: أى عدوّة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبّختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد، فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه، وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدى، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه، ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: وا عبد الله! ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا. وأصيب فى المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسى[4]، وقيل لتلك المرأة التى استشارت الروم على عبد الله بن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتّاجر، فلمّا سألته، أعطانى كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس[5]. وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمّن بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو فى

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦١) .

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين صـ ٣٥٨، ٣٥٩ .

(٣) يعترّون : يتعرضون للناس دون أن يسألوهم .

(٤)، (٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠).

وضع لا يضرُّ بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التى أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرَّجل يظهر من مظاهره الخارجيَّة بمظهر التُّجار العاديين، ولكنَّه يعطى عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السِّيادة مع بساطة مظهره فعرفت أنه قائد المسلمين، الذى دوّخ المحاربين فى تلك البلاد، وهكذا كانت نسمات ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين فى كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، فيتمَّ بذلك الهجوم عليه، وظفرْه بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم، لتتمَّ الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه، ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفى انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء، والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه، فيتولى هذه المهمة، ثمّ نجده يتخلق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء، وضعفتهم؛ فيمدُّ لهم يد الحنان، والعطف، ويسخو عليهم بالمال الذى هو من أعزِّ ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقًا صبورًا، ولا معنِّفًا، ولا مستكبرًا، وإذا ادلهمَّت الخطوب، تفاءل بانكشاف الغمة، ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذى يفسد العمل، ويعجِّل بالخلل والفوضى، وأمَّا خليفته سفيان الأزدى، فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك، والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن مما يُحفظ له أنَّه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذى كان أميره ينتهجه فى القيادة سارع فى التأسى به فى ذلك، ولم يحمله التكبُّر على عدم سماع كلمة الحقِّ، وإن صدرت من جارية مغمورة. وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذى كان غالبًا فى الجيلِ الأوَّل، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة والقادة فى إدارة أمور الأمة، فلله درُّ أبناء ذلك الجيل؛ ما أبلغ ذكرهم! وما أبعد نحورهم! وما أعظم وطأتهم فى الأرض على الجبارين! وما أعذب لمساتهم فى الأرض على المستضعفين والمساكين![1].

٧ـ القبارصة ينقضون الصلح:

فى سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومى عنيف أجبرهم على إمداد جيش الرُّوم بالسُّفن، ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلُّوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة،

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/٢٠٢) .

ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجومًا عنيفًا، فقتلوا، وأسروا، وسلبوا، وهجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقًا كثيرًا، وسبوا سبيًا كثيرًا، وغنموا مالا جزيلا[1]، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[2]، وخشى معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط فى الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء، ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين، فبعث إليهم اثنى عشر ألفًا من الجنود، ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجدًا، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم، وظلّ الحال على ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أنّ أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخّرونهم لمصالحهم، فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين، وقال إسماعيل بن عيّاش: أهل قبرص أذلاء مقهورون ويغلبهم الروم على أنفسهم، ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم، ونحميهم[3].

٨ ـ ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء فى سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبى الدرداء رضى الله عنه حينما نظر إلى سبى الأعداء فبكى، ثمّ قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه! فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله ـ عز وجلّ ـ وعصوه، صاروا إلى ما ترى[4].

وجاء فى رواية: فقال له جبير بن نفير: أتبكى وهذا يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟! فقال: ويحك! إنّ هذه كانت أمّة قاهرة لهم ملك، فلما ضيّعوا أمر الله، صيّرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبى، وإذا سلط على قوم السّبى، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى، إذا تركوا أمره![5]. إن ما تفوّه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة، والفقه فى أمر الله تعالى، فهذا الصحابى الجليل يبكى حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم، فلم ينقادوا لدعوة الحق، فباءوا بهذا المصير المؤلم، حيث تحولوا من الملك والعزة، إلى الاستسلام والذّلة، لإصرارهم على لزوم الباطل، والتكبر على

(١) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين ص ٣٥٩، ٣٦٠.
(٢) البلاذرى ص ١٥٨.
(٣) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين ص ٣٦١.
(٤) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٦).
(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).

الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا وتدبّروا، لكان فى دخولهم فى الإسلام بقاء ملكهم، وعمران ديارهم، والظفر بحماية دولة الإسلام، وإن هذا التفكير العميق من أبى الدرداء مظهرٌ من مظاهر الرّحمة والعطف، تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك فى الظاهر على هيئة دموع تتحدّر من عينى هذا الرجل العظيم، ليعبّر عمّا يجول فى نفسه من نظرات الحنان، والرّحمة، والأسى على مصير تلك الأمة التى اجتمع عليها البقاء على الضلال، والمآل السيئ بزوال الملك، والوقوع فى الذل والهوان، وإنّه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس فى الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون فى ضلال، مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد فى الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم فى الأسر، والتشرّد، وتعرضهم للقتل فى الحياة الدنيا؟!(١)؟

٩ ـ معاوية يولى عبادة بن الصامت رضى الله عنهما على قسمة غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضى الله عنهما: شهدت رسول الله ﷺ فى غزوة حنين والناس يكلمونه فى الغنائم، فأخذ وبرة من بعير، وقال: «**ما لى مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**»(٢). فاتق الله يا معاوية! واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعط منها أحدًا أكثر من حقه. فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشّام أفضل منك، ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها، واتق الله فيها. فقسمها عبادة بين أهلها، وأعانه أبو الدرداء، وأبو أمامة(٣).

وعبادة بن الصامت رضى الله عنه من مؤسسى المدرسة الشامية، فقد وجهه عمر إلى الشام قاضيًا ومعلمًا، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين فولى قضاءها، واستقر به المقام فيها، فكان أول من تولى قضاء فلسطين، وكان أيضا يعلم أهلها القرآن، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها(٤)، وقد أسهم عبادة رضى الله عنه بنصيب كبير فى تنفيذ سياسة الخلافة الراشدة العلمية والتربوية والجهادية، وكان رضى الله عنه من أهل الزهد والخشونة، فعندما وصل إلى حمص قال لأهلها: ألا إن الدنيا عرض حاضر، وإن الآخرة وعد صادق، ألا إن للدنيا بنين وإن للآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها بنوها(٥).

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٧).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٣) الرياض النضرة ص ٥٦١.
(٤) عبادة بن الصامت، صحابى كبير وفاتح مجاهد ص ٨٤.
(٥) الاكتفاء للكلاعى (٣/ ٣١٠).

١٠ ـ حقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان رضي الله عنهم منه:

إن مبغضي عثمان بن عفان رضي الله عنه كانوا يشنّعون عليه أنه نفى أبا ذر رضي الله عنه إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين أن ابن السوداء عبد الله بن سبأ لقي أبا ذر في الشام، وأوحى إليه بمذهب القناعة، والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذه عبادة بن الصامت إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذي بعث إليك أبا ذر، فأخرج معاوية أبا ذر من الشام(١)، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهًا بين رأي أبي ذر، ورأي مزدك الفارسي، وقال: إن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان في اليمن وطوّف في العراق، وكان الفرس في اليمن والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقّى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذرّ على حسن النية في اعتقادها(٢). وكلُّ ما قيل في قصَّة أبي ذرّ، ممّا يُشنَّع به على عثمان باطل لا يُبنى على رواية صحيحة، وكلُّ ما قيل حول اتصال أبي ذر رضي الله عنه بابن السَّوداء باطل لا محالة(٣). والصحيح أن أبا ذرّ رضي الله عنه نزل في الربذة باختياره، وأنَّ ذلك كان بسبب اجتهاد أبي ذرّ في فهم آية خالف فيها الصَّحابة، وأصرَّ على رأيه، فلم يوافقه أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة(٤)، التي كان يغدو إليها زمن النبي ﷺ، ولم يكن نزوله بها نفيًا قسريًا، أو إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرّجوع عن رأيه، لأن له وجهًا مقبولاً، لكنَّه يجب على المسلمين عدم الأخذ به(٥). وأصحُّ ما روى في قصة أبي ذرّ رضي الله عنه ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب، قال: مررت بالرَّبذة، فإذا أنا بأبي ذرٍّ رضي الله عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشَّام، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتَّى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحَّيت فكنتَ قريبًا فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمّروا عليَّ حبشيًا، لسمعت وأطعت(٦). وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة منها:

(١) المدينة المنوّرة، فجر الإسلام (٢/ ٢١٦ ، ٢١٧) .
(٢) فجر الإسلام صـ ١١٠ .
(٣) المدينة المنورة، فجر الإسلام (٢/٢١٧) .
(٤) كانت منزلاً في الطريق بين العراق ومكة .
(٥) المدينة المنورة، فجر الإسلام (٢/٢١٧) .
(٦) البخاري ، ك الزكاة رقم ١٤٠٦.

أ ـ سأله زيد بن وهب، ليتحقَّق ممَّا أشاعه مبغضـو عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذرّ المكان؟ فجاء سيـاق الكلام أنه خرج بعد أن كثر النّاس عليه يسـألونه عن سبب خروجه من الشَّام، وليس فى نص الحديث أنَّ عثمان أمره بالذهاب إلى الربذَّة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا مـا ذكره ابن حـجر عن عـبد الله بـن الصَّامت قـال: دخلت على أبى ذرٍّ عند عثمان، فـحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم ـ يعنى الخـوارج ـ فقال: إنَّما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لى فى ذلك، ائذن لى بالرَّبذة قال: نعم(١).

ب ـ قوله: كنت بالشَّام بيَّن السَّبب فى سكناه الشَّام، ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد ابن وهب حدَّثنى أبو ذرَّ، قـال: قال لى رسول الله ﷺ: « **إذا بلغ البناء ـ أى المدينة ـ سَلْعًا، فارتحل إلى الشَّام** » . فلمَّا بلغ البناء سلعًا، قدمت الشام فسكنت فيها(٢).

جـ ـ إنَّ قصة أبى ذرٍّ فى المـال جاءت من اجتهاده فى فـهم الآية الكريمة ﴿ **يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاس بالْبَاطل ويصُدُّون عن سبيلِ اللَّه والَّذين يكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفضَّةَ ولا يُنفقُونَهَا في سبيلِ اللَّه فبَشِّرْهُم بعذابٍ أليم (٣٤) يومَ يُحْمَىٰ عليها في نارِ جهنَّم فتُكْوَىٰ بها جباهُهُم وجنوبُهُم وظُهُورُهُمْ هذا ما كنزتُم لأنفُسكُمْ فذُوقُوا ما كُنتُم تكنزُون** ﴾. [التوبة: ٣٤ ، ٣٥]. وروى البخارى عن أبى ذرٍّ ما يـدل على أنَّه فسَّر الوعيد «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا» الآية، وكان يخـوِّف النَّاس به، فعن الأحنف بن قيس، قـال: جلستُ إلى ملأ من قريش فى مسجد المدينة، فـجاء رجل خَشِن الشَّعر، والثِّياب، والهيـئة، حتى قام عليهم، فسلَّم، ثم قال: بشِّر الكانزين بَرضف(٣) يُحمى عليه فى نار جـهنَّم ثم يوضع على حلمة ثَدْى أحدهم، حتَّى يخرج من نُغضى كَتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل(٤). ثمَّ ولَّى فجلس فى سارية، وتبعتـه، وجلست إليه، وأنا لا أدرى من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت، قال: إنَّهم لا يعقلون شـيئًا. واستدلَّ أبو ذرّ رضى الله عنه بقول رسول الله ﷺ: «**ما أحبُّ أنَّ لى مثل أحد ذهبًا، أنفقه كُلَّه إلا ثلاثة دنانير**»(٥).

د ـ وقد خالف جمـهور الصحابة أبا ذرّ، وحملوا الوعيد على مـانعى الزّكاة، واستدلوا على ذلك بالحـديث الذى رواه أبو سعيـد الخدرىُّ، قـال: قال النَّبى ﷺ: «**ليس فيـما دون**

(١) فتح البارى (٣/ ٢٧٤) . (٢) المدينة المنورة، فجر الإسلام (٢/ ٢١٩) .

(٣) الرَّضف: الحجارة المحمَّاة ، واحدتها : رضفة .

(٤) نغض: العظم الدقيق الذى على طرف الكتف ، يتزلزل : يضطرب .

(٥) البخارى: ك الزكاة رقم ١٤٠٧ .

خمس أواق صدقة[1]، وليس دون خمس ذَوْد صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة». وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث: أنَّ ما زاد على الخمس ففيه صدقة، ومقتضاه: أنَّ كلَّ ما أخرجت منه الصَّدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا سمَّى ما يفضل بعد إخراجه الصدقة كنزاً[2]، هذا وقد فصلت فى موضع أبى ذرّ وخلافه مع معاوية رضى الله عنهما فى كتابى «عثمان بن عفان رضى الله عنه» وأثبت بالحجج والأدلة والبراهين أن عثمان رضى الله عنه لم ينف أبا ذر رضى الله عنه، إنما استأذنه، فأذن له، ولكنَّ أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عنه أنَّه نفاه، ولذلك لَمَّا سأل غالب القطان، الحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال الحسن: لا، معاذ الله[3]، وكل ما روى فى إنه أنَّ عثمان نفاه إلى الربَّذة فإنه ضعيف الإسناد، لا يخلو من علة قادحة، مع ما فى متنه من نكارة لمخالفته للمرويَّات الصحيحة والحسنة، التى تبيِّن أن أبا ذر استأذن للخروج إلى الرّبذة، وأنَّ عثمان أذن له[4]، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليجاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة[5]. وقال له أيضا: كن عندى، تغدو عليك وتروح اللقاح[6]. أفمن يقول ذلك ينفيه؟![7]. ولم تنصّ على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمى الذى قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوى، وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضى تتعارض مع الروايات الصحيحة، والحسنة[8]؟ واستغل الرّافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا أن عثمان رضى الله عنه نفى أبا ذر إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه، أو أنّهم سوّغوا الخروج عليه[9]، وعاب عثمان رضى الله عنه بذلك ابن المطهّر الحلِّى الشيعى المتوفى سنة ٧٢٦هـ، بل زاد أن عثمان رضى الله عنه ضرب أبا ذرٌ ضربًا وجيعًا، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردًا جامعًا قويًا[10]، وكان سلف هذه الأمَّة يعلمون هذه الحقيقة، فإنَّه لما قيل للحسن البصرىّ: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا، معاذ الله[11]. وكان ابن سيرين إذا ذُكر له أنَّ عثمان رضى الله عنه سيَّر أبا ذرّ، أخذه أمرٌ عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيِّره

(١) البخارى رقم ١٤٠٥.
(٢) فتح البارى (٣/ ٢٧٢).
(٣) تاريخ المدينة، ابن شبَّة صـ ١٠٣٧، إسناده صحيح.
(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١٠).
(٥) تاريخ المدينة صـ ١٠٣٦، ١٠٣٧. إسناده حسن.
(٦) الطبقات، لابن سعد (٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)
(٧)، (٨)، (٩) فتنة مقتل عثمان (١ / ١١١).
(١٠) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ١٨٣).
(١١) تاريخ المدينة (١٠٣٧). إسناده صحيح.

عثمان[1]، وكما تقدم في الرِّواية الصحيحة الإسناد: أنَّ أبا ذرّ رضى الله عنه لمَّا رأى كثرة النَّاس عليه خشى الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه في الخروج، فقال له عثمان رضى الله: إن شئت تنحيت، فكنت قريبًا[2]. كما أن أبا ذرٍّ رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهوديِّ، وقد أقام بالرَّبذة حتى توفى، ولم يحضر شيئًا مما وقع في الفتن[3]، ثمَّ قد روى حديثًا من أحاديث النَّهى عن الدخول في الفتنة[4]، وبعد وفاة أبي ذر رضى الله عنه ضمَّ أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه عياله إلى عياله[5]، فرضى الله عن جميع الصحابة الأبرار، الطيبين الأطهار.

١١- اتهام عثمان رضى الله عنه بإعطاء أقاربه من بيت المال:

اتُّهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغوغاء والخوارج، بإسرافه في بيت المال، وإعطائه أكثره لأقاربه، وقد ساندت هذا الاتِّهام حملة دعائية باطلة قادها أعداء الإسلام ضدَّه، وتسربَّت في كتب التاريخ، وتعامل معها بعض المفكِّرين والمؤرخين على كونها حقائق، وهي باطلة لم تثبت، لأنها مختلقة، والذى ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد من مناقبه، لا من المثالب[6] فيه. إن عثمان رضى الله عنه كان ذا ثروة عظيمة، وكان وصولاً للرحم[7] يصلهم بصلات كثيرة وفيرة، فنقم عليه أولئك الأشرار، وقالوا إنه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا: إنى أحبُّ أهل بيتى، وأعطيهم.. فأمَّا حبِّي لهم؛ فإنَّه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم.. وأما إعطاؤهم، فإنى إنَّما أعطيهم من مالى، ولا استحلُّ أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرَّغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر، وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى[8]، وفنى عمرى، وودَّعت الذى لى فى أهلى، قال الملحدون ما قالوا؟[9] وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية، وجعل ولده كبعض مَنْ يعطى، فبدأ ببنى أبى العاص، فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك، وقسم فى

(١) تاريخ المدينة (١٠٣٧). (٢) البخارى، ك: الزَّكاة رقم ١٤٠٦.
(٣)، (٤) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة فى ضوء قواعد الجرح والتعديل ص١٧٤
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٤) (٦) عثمان بن عفان للصَّلاَّبى ص١٤٨
(٧) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب ص٨٢
(٨) جاوزت أعمارهم. (٩) تاريخ الطبرى(٥/ ٣٥٦).

بني العاص، وفي بني العيص، وفي بني حرب[1]، فهذه النصوص وغيرها وما اشتهر عنه، وما صحَّ من الأحاديث في فضائله الجمّة تدل على أن ما قيل فيه من إسرافه في بيت المال، وإنفاق أكثره على أقاربه، وقصوره، حكايات بدون زمام ولا خطام[2].

إن سيرة عثمان رضي الله عنه في أقاربه تمثِّل جانبًا من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة، لقوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٦]. كما أنَّها تمثِّل جانبًا عمليًا من سيرة المصطفى ﷺ، فقد رأى عثمان رضي الله عنه من رسول الله وعلم من حاله ما لم ير أو يعلم غيره من منتقديه، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة النَّاس، وكان ممَّا رأى شدَّة حبِّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبرِّه لهم، وإحسانه إليهم، وقد أعطى عمَّه العباس ما لم يعط أحدًا عندما ورد عليه مال البحرين[3]، ولعثمان -وسائر المؤمنين- في رسول الله أعظم القدوة[4]، وقد ردَّ ابن تيمية -رحمه الله- على من اتَّهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتَّى إنَّه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوَّجهم بناته أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار- مليون دينار- فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟. نعم كان يعطي أقاربه، ويعطي غير أقاربه أيضًا، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأمَّا هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانيًا: هذا من الكذب البيِّن، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحدًا ما يقارب هذا المبلغ[5].

١٢ـ هل عين عثمان رضي الله عنه أحدًا من أقربائه على حساب المسلمين؟

لم يكن عثمان رضي الله عنه عين أحدًا من أقاربه على حساب المسلمين، ولو أراد أن يجامل أحدًا من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيبه محمد بن أبي حذيفة أولى النَّاس بهذه المجاملة، ولكنَّ الخليفة أبى أن يوليه شيئًا ليس كفئًا له بقوله: يابنيَّ لو كنت رضًا ثمّ سألتني العمل، لاستعملتك، ولكن لست[6] هناك. ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفورًا منه، وإلا لما جهَّزه من عنده، وحمله، وأعطاه حين استأذن في الخروج إلى مصر[7] وأمّا

(١) تاريخ الطبري (٥/٣٥٦).
(٢) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب صـ٨٣.
(٣) البخاري، ك الجزية.
(٤) البداية والنهاية(٧/ ٢٠١).
(٥) منهاج السنة (٣/ ١٩٠).
(٦) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٢٤٧).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٢٤٧)، تاريخ الطبري (٥/٤١٦).

استعمال الأحداث فكان لعثمان رضى الله عنه فى رسـول الله أسوة حسنة، فقد جهَّز جيشًا لغزو الرُّوم فى آخر حياته واستعمل عليه أسامة بن زيد، رضى الله عنهما[1]، وعندما توفى الرَّسول ﷺ تمسَّك الصديق رضـى الله بإنفاذ هذا الجيش، لكنَّ بعـض الصحابة رغـبوا فى تغيير أسامة بقائد أحسن منه، فكلَّموا عمر فى ذلك ليكلم أبا بكر، فغضب أبو بكر لَمَّا سمع هذه المقالة، وقال لعمر: يا عـمر، استعمله رسول اللهﷺ ،وتأمرنى أن أعزله[2]. ويجيب عثـمان بنفسه على هذه المآخـذ أمام الملأ من الصحـابة بقوله: ولم أستعـمل إلا مجتمـعًا، محتلمًـا، مرضيًا، وهؤلاء أهل عملهم، فـسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم وقد ولى من قبلى أحدث منهم، وقيل لرسول اللهﷺ ممَّا قيل لى فى استعمـاله لأسامة،أكذلك؟ قالوا: نعم يعيبون لـلنَّاس ما لا يفسرون[3]. ويقول علىّ رضى الله عنه: ولا يولِّ -أى: عثمان- إلا رجلاً سويا، عدلا، وقد ولى رسول اللهﷺ عتّاب بن أسيد على مكّة وهو ابن عشرين سنة[4] ولم يكن ولاة الأمصار فى عـهد عثمان رضى الله عنه جـاهلين بأمور الشَّرع، ولم يكونوا من المفرِّطين فى الدِّين، وإذا كانت لهم ذنوب، فلهم حـسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعـود عليهم، ولم يكن لها تأثير فى المجتمع المسـلم، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيَّام ولايتهم، ووجدناها عـظيمة الفائدة للإسلام والمسلمـين، وقد اهتدى على يدى ولاة عثمان مـئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحـاتهم انضمت إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة والدّين ما يحثهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهـاد، وفيه مظنة الهلاك، وفيه تـرك الراحة ومتاع الدنيا، وقد تـتبعت سيرة هؤلاء الولاة، فوجدت لكل واحد منـهم فتحًا -أو فتوحًا- فى الجـهات التى تجاور ولايته، مع مناقب وصفات حسنـة تؤهله للقيادة، وقد فصلت فى كتابى عـن عثمان رضى الله عنه فى مبحث مستقل حقيقة ولاة عثمان[5] رضى الله عنه.

إن الذى يرجع إلى الصحـيح الممحّص من وقائع التـاريخ، ويتتبع سيـرة الرجال الذين استعـان بهم أمير المؤمنين ذو النورين ـ رضوان الله عليـهم ـ وما كان لجهـادهم من جميل الأثر فى تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج فى هناء الأمّة وسعادتـها، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفـسه من الجهر بالإعـجاب، والفخر كلمـا أمعن فى دراسة ذلك من أدوار التاريخ الإسلامى[6].

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦) .

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦) .

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٥) .

(٤) البداية والنهاية(٧/ ١٧٨) .

(٥) عثمان بن عفان للصلّابى صـ ٢٩٤ .

(٦) حاشية المنتقى من منهاج الاعتدال صـ ٣٩٠

إن عثمان رضى الله عنه وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء، وجهادهم، وردّهم، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ومدّ نفوذها فى مناطق جديدة، وقد كان للولاة تأثير مباشر فى أحداث الفتنة، حيث كانت التهمة موجهة إليهم، وأنّهم اعتدوا على الناس، ولكنّنا لم نلمس حوادث معينة يتّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم، والمشاع، كما اتُّهم عثمان بتولية أقاربه، وقد دحضنا تلك الفرية، وهكذا نرى أنّ عثمان لم يألُ جهدًا فى نصح الأمة، وفى تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا لم يسلم عثمان وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة فى حينها، كما أن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين فى كتاباتهم غير المحقّقة عن عهد عثمان، وخصوصًا الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكامًا لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورّط الكثير منهم فى الرّوايات الضّعيفة، والرافضّية، وبنوا أحكامًا باطلة وجائرة فى حق الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان، مثل طه حسين فى كتابه: الفتنة الكبرى، وراضى عبد الرحيم فى كتابه: النظام الإدارى والحربى، وصبحى الصالح فى كتابه: النُّظم الإسلامية، ومولوى حسين فى كتابه: الإدارة العربية، وصبحى محمصانى فى كتابه: تراث الخلفاء الراشدين فى الفقه والقضاء، وتوفيق اليوزبكى فى كتابه: دراسات فى النظم العربية والإسلامية، ومحمد الملحم فى كتابه: تاريخ البحرين فى القرن الأول الهجرى، وبدوى عبد اللطيف فى كتابه: الأحزاب السياسية فى فجر الإسلام، وأنور الرِّفاعى فى كتابه: النظم الإسلامية، ومحمد الرّيِّس فى كتابه: النظريات السياسية، وعلى حسنى الخربوطلى فى كتابه: الإسلام والخلافة، وأبى الأعلى المودودى فى كتابه: الملك والخلافة، وسيد قطب فى كتابه: العدالة الاجتماعية، وغيرهم[(١)].

ولقد أكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمّة الحكم فى عهده، حتّى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوى قرباه فى شئون الدولة[(٢)]، وأقارب عثمان الذين ولاهم رضى الله عنه أوّلهم معاوية بن أبى سفيان، والثانى عبد الله بن أبى السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرّابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان، وهم من أقاربه، وهذا -فى زعمهم- مطعن عليه، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا أن عدد الولاة فى عهد عثمان ستة وعشرون واليًا، ألا يصح أن يكون خمسة من بنى أمية يستحقون الولاية وبخاصة إذا علمنا

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢٢٢ - ٢٣٢).
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٥٩.

أن النبي ﷺ كان يولي بني أمية أكثر من غيرهم؟ علمًا بأن هؤلاء الولاة لم يكونوا كلّهم في وقت واحد، بل كان عثمان رضي الله عنه ولّى الوليد بن عقبة، ثمّ عزله، فولى مكانه سعيد بن العاص، فلم يكونوا خمسة في وقت واحد، ولم يتوفّ عثمان إلا وقد عزل أيضا سعيد بن العاص، فعندما توفى عثمان لم يكن من بني أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن عامر بن كريز فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، ولكنّه عزلهما من أين؟ من الكوفة التي عزل منها عمر سعد بن أبي وقاص، الكوفة التي لم ترض بوالٍ أبدًا؛ إذ عزلُ عثمان رضي الله عنه لأولئك الولاة لا يعد مطعنًا فيهم، بل مطعن في أهل الشغب في المدينة التي ولُّوا عليها[1]. إن بني أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة منهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمّال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس، لأنهم كانوا كثيرين وكان فيهم شرف وسُؤدد، فاستعمل النبي ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة، وأبا سفيان بن حرب على نجران. وخالد بن سعيد على صدقات بني مذحج، وأبان بن سعيد على بعض السّرايا ثمّ على البحرين فعثمان رضي الله عنه، لم يستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ، ومن جنسهم، وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام، وأقرّه عمر، ثمّ ولى عمر بعده أخاه معاوية[2]. والسؤال الذى يطرح نفسه: أأثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ والحقيقة العلمية التي أثبتُّها في كتابي عن عثمان رضي الله عنه أن ولاة عثمان أثبتوا كفاءتهم، فالولاة الذين ولاهم عثمان رضي الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان[3]، فمثلاً معاوية رضي الله عنه كانت سيرته مع الرعية في ولايته من خير سير الولاة؛ ممّا جعل النّاس يحبونه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «خيار أئمتكم - حكامكم - الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم - تدعون لهم - ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[4]، وقد بين القاضي ابن العربي وأثبت أن رسول الله استكتبه، وأن سند ولايته الأعمال في الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده، حيث

(١) حقبة من التاريخ صـ ٧٥ .
(٢) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦) .
(٣) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/ ٤١٧) .
(٤) مسلم، ك الإمارة رقم ٦٥ .

اجتمع على توليته: رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن على بن أبى طالب(١).

١٣ ـ أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه:

قال الزهرى: ولى عثمان اثنتى عشرة سنة أميرًا للمؤمنين، أوّل ستّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئًا، وإنّه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديدًا عليهم، أمّا عثمان، فقد لان لهم، ووَصَلَهم، ثمّ حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمّى المؤرِّخون المسلمون الأحداث فى النِّصف الثانى من ولاية عثمان (٣٠ ـ ٣٥هـ) بالفتنة، التى أدَّت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه(٢)، وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر، وعمر، وصدرًا من خلافة عثمان، متَّفقين، لا تنازع بينهم، ثم حدثت فى أواخر خلافة عثمان أمور، أوجبت نوعًا من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم، فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان(٣)، وكان المجتمع الإسلامى فى خلافة الصديق، والفاروق، والنِّصف الأوَّل من خلافة عثمان يتَّصف بالسِّمات الآتية:

- أنه -فى عمومه ـ مجتمع مسلم بكل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق الإسلام بجدية واضحة، والتزام ظاهر، وبأقلّ قدر من المعاصى وقع فى أى مجتمع فى التَّاريخ.
- أنه المجتمع الذى تحقَّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقىّ للأمَّة بمعناها الرَّبانى، فهى الأمة التى تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة، والجنس، واللَّون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقَّق فى التاريخ كما تحقَّقت فى الأمة الإسلامية.
- أنه مجتمع أخلاقىٌّ يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين، وتوجيهاته.
- أنه مجتمع جادٌّ، مشغول بمعالى الأمور لا بسفاسفها، وليس الجدُّ بالضرورة عبوسًا، وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمّة فى الناس، وتحثُّ على النشاط، والعمل، والحركة.
- أنه مجتمع مجنَّد للعمل، فى كلِّ اتجاه، تلمس فيه روح الجنديَّة واضحة لا فى القتال فى سبيل الله فحسب، ولكن فى جميع الاتجاهات، فهو معبَّأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحنتها الدّافعة لبذل النشاط فى كلِّ اتجاه(٤).

(١) العواصم من القواصم صـ ٨٢ .
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٣٩ ـ ٤٧)، الخلفاء الرّاشدون للخالدى صـ ١١٢ .
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠) .
(٤) كيف نكتب التاريخ الإسلامى صـ ١٠٢.

- أنه مجتمع متعبِّدٌ نلمس فيه روح العبادة واضحة فى تصرفاته، ليس فقط فى أداء الفرائض، والتطوّع بالنَّوافل ابتغاء مرضاة الله، ولكن فى أداء الأعمال جميعًا، والعمل فى حسِّه عبادةٌ، يؤديه بروح العبادة[1].

هذه من أهم صفات عهد الخلفاء الراشدين ـ بصفة عامة ـ إلا أن تلك السِّمات كانت أقوى كلما اقتربنا من عهد النبوة، وتضعف كلَّما ابتعدنا عن عصر النُّبوة، وقد بدأ التغير على عهد الخلافة الراشدة مع ظهور فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، وكان لظهور هذه المحنة العظيمة التى مرت بها الأمة أسباب، منها:

أ - الرخاء وأثره فى المجتمع: وغنىٌّ عن الإشارة أنَّ النِّعم، والخيرات، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرَّخاء وما يترتَّب عليه من انشغال النَّاس بالدُّنيا، والافتتان بها، كما أنَّها مادة للتنافس والبغضاء، خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التَّقوى من أعراب البادية، وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات، وأبناء الأمم المترفة، وقد أدرك عثمان رضى الله عنه هذه الظاهرة وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمّة من التَّبذُّل والتغيُّر فى كتابه الموجه إلى الرّعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النِّعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[2]، وحدث ما توقعه عثمان رضى الله عنه، وبدأ التغير أثره يظهر أولاً على أطراف الدّولة الإسلامية، ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، ممّا دفع عثمان رضى الله عنه إلى تذكير المسلمين فى خُطَبِه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا، وحطامها، فكان مما قاله فى إحدى خطبه: إنَّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها، لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، . . . واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزابًا[3]، ثم قرأ: ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نعمت الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى صـ ١٠٢.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥).
(٣) أحداث وأحاديث الهرج ص٥٦٧.

.وفى مثل هذه الظروف، والخيرات، فاضت الدُّنيـا على المسلمين، وتفرّغ الناس بعد أن فتحوا الأقـاليم، واطمأنُّوا فأخذوا ينقمون على خـليفتهم[١] . ومن هنا يُعلم أثر الرخاء فى تحريك الفتنة، ومن هنا أيضًا يمكن فهم مقالة عـثمان رضى الله عنه لعبد الرَّحمن بن ربيعة -له صحبة- وهو على الباب[٢]: إن الرَّعية قد أبطر كثـيرًا منهم البطنة، فقصِّر بهم، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنِّى خاشٍ أن يبتلوا[٣].

ب - **طبيعـة التحول الاجتـماعيّ فى عهد عثـمان رضى الله عنه:** حدثت تغيرات اجـتماعية عميقة، ظلَّت تعمل فى صمت، وقـوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجِّر بدءًا من النِّصف الثانى من خلافة عـثمان، حيث بلغت قمّة فورانها فى التمرُّد الذى أدَّى إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه[٤]، ولما توسَّعت الدولة الإسلامية عبـر حركة الفتـوح، حصل تغيُّر فى تركـيبة المجتـمع والاختلالات فى نسيـجه، لأنَّ هذه الدَّولة بتوسُّعها المكانى، والبشـرىّ، ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان ولغـات، وثقافات، وعـادات، ونظم، وأفكار، ومـعتـقدات، وفنون أدبيـة، وعمرانـية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النـسيج ألوان مضطربة، وخروقـات غير منتظمة، كـما صيَّرت المجتـمع غير متجانس فى نسـيجه التَّركيبىّ، وبالذات فى الأمـصار الكبرى المؤثِّرة: البصرة، والكوفة، والشّام، ومصر، والمدينة، ومكة، فقـد كانت الأمصار الكبيرة -بموقعها وأهميتها- تدفع بجيوش الفتوح، وتستقبلها وهى عائدة، وقد نقص عددها بالموت والقتل، فتسـتقبل بدلا عنهم أو أكثر منهم أعـدادًا وفيرة من أبناء المناطق المفتـوحة، فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الـفرس، أو النَّصارى العرب، أو غيرهم، أو من اليهود[٥]، وأكثر سكان هذه الأمـصار، وكان أغلب هؤلاء من القبـائل العربيَّة من جنوبها، وشمالها، وشرقها، والذين لم يكونوا ـ عادة ـ من الصَّحابة، وبمعنى أدق: ليسوا ممَّن تلقَّوا التَّربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدى الجيل الأوَّل من الصحابة، إمَّا لانشغالـهم بالفتوح، أو لقلة الصحـابة، وقد حصلت تغيـراتٌ فى نسيج المجتمع الـبشرىِّ المكوَّن من الجـيل السَّابق، وسكّان البـلاد المفتـوحة، والأعـراب، ومن سبـقت لهم ردَّة، واليهود، والنَّصارى، وفى تكوين نسيج المجتـمع الثَّقافى، وفى بسطة عيش المجتمع، وفى ظهور لون جديد منَ الانحرافات، وفى قبول الشائعات[٦].

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٢) .

(٢) المقصود بالباب : منطقة فى جهة أذربيجان، معجم البلدان (١/ ٣٠٣) .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٦٢) .

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها عليها صـ ١٦٦ .

(٥) دراسات فى عهد النبوة ص٣٧٩.

(٦) المصدر نفسه ص٣٨٠.

ج- ظهور جيل جديد: فقد حدث فى المجتمع تغيُّر أكبر، ذلك أن جيلا جديداً من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه فى المجتمع، وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش فى العصر غير الذى كانوا يعيشون فيه، ويتَّصف بما لا يتَّصفون به، فهو جيل[1] يعد -فى مجموعه- أقلَّ من الجيل الأوَّل الذى حمل على كتفه عبء بناء الدّولة وإقامتها، فقد تميز الجيل الأوَّل من المسلمين بقوَّة الإيمان، والفهم السَّليم لجوهر العقيدة الإسلامية، والاستعداد التّام لإخضاع النَّفس لنظام الإسلام المتمثل فى القرآن والسُّنَّة، وكانت هذه الميزات أقل ظهوراً فى الجيل الجديد الذى وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع الفرديَّة، وبُعثت فيه العصبية للأجناس، والأقوام، وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهليَّة التى كانوا عليها، ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السَّليمة مثل ما نال الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة رضى الله عنهم على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم، وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة[2]، فالصَّحابة كانوا أقلَّ فتنًا من سائر مَن بعدهم، فإنَّه كلما تأخَّر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف[3]، ووجد دعاة الفتنة فى المنحرفين من الجيل الجديد بغيتهم.

د- استعداد المجتمع لقبول الشائعات: ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس فى نسيج المجتمع أنه صار مهيَّأ للهزَّات، مستعداً للاضطراب، قابلاً لتلقِّى الإذاعات والأقاويل والشائعات[4]، ولهذا لما كان الناس -فى خلافة أبى بكر وعمر- أقرب عهدًا بالرِّسالة، وأعظم إيمانًا، وصلاحًا، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت فى الطمأنينة، لم تقعَ فتنة، إذ كانوا فى حكم القسط، أى: النفوس المطمئنة[5]، ولما كان فى آخر خلافة عثمان، وخلافة علىٍّ، كثر أهل النفس اللَّوَّامة -التى تخلط عملاً صالحًا، وآخر سيئًا- فصار فيهم شهوة، وشبهة مع الإيمان، والدِّين، وصار ذلك فى بعض الولاة، وبعض الرَّعايا، ثمَّ كثر هذا القسم، الذى خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدَّم من عدم تمحيص التَّقوى والطَّاعة فى الطَّرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية فى الطَّرفين، وكل منهم متأوِّلٌ أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأنَّه مع الحقِّ، والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه من الظنِّ، وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحقِّ من الأخرى[6]، ويوضِّح هذا الواقع -بدقة أكثر- ذلك الحوار الذى دار بين

(١) الدولة الأموية ، يوسف العش ص١٣٢
(٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٣٥٦)
(٣) ذو النورين عثمان بن عفان ، مال الله صـ ٩٩ .
(٤) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة صـ ٣٨٢ .
(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤٨) .
(٦) المصدر نفسه (٢٨/١٤٩).

أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وأحد أتباعه، قال الرَّجل: ما بال المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبى بكر، وعمر؟ قال على: لأنَّ أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى، وأنا اليوم والٍ على مثلك[١]، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركًا لما يدور فى وسط المجتمع، حيث قال فى رسالته إلى الأمراء: أمّا بعد، فإن الرَّعية قد طعنت فى الانتشار، ونزعت إلى الشَّره، وأعْداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مسرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر، فتُغيِّر[٢].

هـ- مجىء عثمان بعد عمر، رضى الله عنهما: كان مجىء عثمان رضى الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، واختلاف الطبع بينهما، مؤدِّيًا إلى تغيُّر أسلوبهما فى معاملة الرَّعية، فبينما كان عمر قوى الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعًا وأرقَّ فى المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه، أو يأخذ النّاس بما يأخذ به عمر حتّى يقول عثمان لنفسه: يرحم الله عمر! ومن يطيق ما كان عمر يطيق؟![٣]. لكن النَّاس، وإن رغبوا فى الشَّوط الأوَّل من خلافته، لأنَّه لان معهم، وكان رضى الله عنه شديدًا عليهم حتَّى أصبحت محبَّته مضرب المثل، فقد أنكروا عليه بعد ذلك، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان فى لطفه، ولين عريكته، ورقة طبعه، ودماثة خلقه، ممّا كان له بعض الأثر فى مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده وعهد سلفه عمر بن الخطّاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرّأكم علىَّ؟ ما جرَّأكم علىَّ إلا حلمى[٤]. وحين بدأت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجَّة فى ردّه على المآخذ التى أخذوها عليه أمام الملأ من الصَّحابة والنّاس، أبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم، لحلمه، ووداعته، قائلاً: بل نعفو، ونقبل، ولنصبرهم بجهدها، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً، أو يبدى كفراً[٥].

و- خروج كبار الصَّحابة من المدينة: كان عمر رضى الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن، وأجلٍ، فشكوه، فبلغه، فقام، فقال: ألا إنِّى قد سننت الإسلام سَنّ البعير، يبدأ فيكون جذعًا، ثم ثَنِيًا، ثمّ رباعيًا، ثم سديسًا، ثمّ بازلاً[٦]، فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإنَّ الإسلام قد نَزَل، ألا وإنَّ قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأمّا وابن الخطاب حىٌّ فلا، إنى قائم دون

(١) مقدمة ابن خلدون صـ١٨٩ .
(٢) التمهيد والبيان صـ ٦٤.
(٣) تاريخ الطبرى (٥/٤١٨) .
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٢٥٠) .
(٥) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٤) .
(٦) البازل : الذى انشق نابه بدخوله فى التّاسعة.

شِعب الحرَّة، آخـذ بحلاقيم[1] قريش، وَحُجَزِها أن يتـهافتوا في النَّار[2]، لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة، وتوسُّعهم في القطاع والضِّياع فكان يأتيه الرَّجل من المهاجرين، وهو ممن حبس في المدينة، فيستـأذنه في الخروج، فيجيبه عمر: لقد كان لك في غزوك مع رسـول الله ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا، ولا تراك[3]، وأمَّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج، ولان معهم.

ز ـ العصبية الجاهلية: يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح، واستكمل للملَّة الملك، ونزل العرب بالأمـصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البـصرة، والكوفة، والشّـام، ومصر، وكان المختصُّون بصحبة الرَّسول ﷺ والاقتداء بهديه، وآدابه؛ المهاجرين والأنصار، وقريشًا، وأهل الحجاز، ومن ظفـر بمثل ذلك من غيرهم، وأمَّا سـائر العرب من بني بكر بن وائل، وعبد الـقيس، وسائر ربيعـة، والأزد، وكندة، وتميم، وقضاعة، وغـيرهم فلم يكونوا في تلك الصـحبة بمكان إلا قليـل منهم. وكانت لهم في الفـتوحات قـدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السَّابقـة، ومعرفة حقِّهم، وما كانوا فيه من الذهول، والدَّهش لأمـر النُّبـوّة، وتردُّد الوحي، وتنـزل الملائكة، فلمَّـا انحصـر ذلك العباب، وتنوسي الحال بعض الشَّيء، وذل العدوُّ، واستـفحل الملك، كانت عروق الجاهليَّة تنبض، ووجـدوا الرِّياسة عليـهم من المهاجـرين، والأنصار، وقـريش، وسواهم، فـأنفت نفوسـهم منه، ووافق ذلك في أيَّام عـثمان، فكانوا يـظهرون الطعن في ولاته بالأمـصار، والمؤاخـذة لهم باللَّحظات، والخطوات، والاسـتبطاء عليـهم بالطاعـات، والتَّجنِّي بسـؤال الاستـبداد منهم، والعزل، ويفيـضون في النَّكير على عـثمان، وفـشت المقالة في ذلك في أتبـاعهم، وتناولوا بالظُّلـم في جهـاتهم، وانتهت الأخـبار بـذلك إلى الصَّحـابة بالمدينة، فارتابوا، وأفاضوا في عزل عثمـان، وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر. . فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئًا، ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامُّهم[4].

ح- توقُّف الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية: حيث توقَّفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حـواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء في جـهات فارس، وشمالي بلاد الشَّام، أو في جـهة إفـريقية، تـوقفت الغنائم على أثرها، فـتساءل الأعـراب: أين ذهبت الغنائم القـديمة؟ أين ذهبت الأراضـي المفتـوحة؟ التي يعـدونها حـقًا من حـقوقـهم[5]،

(1) الحلاقيم : جمع حلقوم .
(2) تاريخ الطبري (5/ 413) .
(3) المصدر نفسه (5/ 414) .
(4) تاريخ ابن خلدون (2/ 477) .
(5) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 344) .

وانتشـرت الشائعات البـاطلة التى اتهمت عـثمان رضى الله عنه بـأنه تصرف فى الأراضى الموقوفـة على المسلمين وفق هواه، وأنه أقطع منهـا لمن شاء من النَّاس، وقد كـان لها أثر، وواقع على الأعراب، خـاصة أنَّ معـظمهم بقى بدون عمل يقـضون شطرًا من وقـتهم فى الطعام والنَّوم، والشطر الآخر بالخـوض فى سياسة الدّولة، والحديث عن تصرُّفـات عثمان التى كانت تهولّها السيئَّة، وقد أدرك أحد عمّال عثمان هذا الأمر، وهو عبد الله بن عامر، فأشـار على الخليفـة حيث طلب من عـماله ـ وهم وزراؤه، ونصحـاؤه ـ أن يجتـهدوا فى آرائهم، ويشيروا علـيه، فأشار عليه أن يأمـر النَّاس بالجهاد ويجمـرهم فى المغازى حتَّى لا يتعدَّى همُّ أحدهم قمل فروة رأسه، ودبر دابته[(١)]، وفى ذلك الجو من الحديث والفكر عند أفراد تعوَّدوا الغزو، ولم يفقهوا من الدِّين شيئًا كثيرًا، يمكن أن يتوقع كلُّ سوء، ويكفى أن يحرّك هؤلاء الأعراب، وأن يُوجَّهوا توجيـهًا، فإذا هم يثورون، ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فـإنَّ الأعراب ـ بسبب توقف الفتوحات ـ أسـهموا فى بوادر الفتنة الأولى، وكان سببًا من أسباب اندلاعها[(٢)].

ط- المفهوم الخاطئ للورع بتحريم الحلال: الورع فى الشريعة طيِّبٌ، وهو أن يُترك ما لا بأس به، ومخافـة ممَّا فيه بأس، وهو فى الأصل ترفُّع عن المبـاحات فى الله، ولله، والورع شىء شخـصى يصحُّ للإنسـان أن يطالب به نفسـه، ولكن لا يصح أن يطالب به الآخـرين، ومن أخطر أنواع الورع: الورع الجاهل الذى يجعل المباح حرامًا، أو مفروضًا، وهذا الذى وقع فيه أصحاب الفتنة[(٣)]، فقد استغلَّ أعداء الإسلام -يومها- مـشاعرهم هذه، ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عـثمان من المباحات، أو المصالح، خروجًا على الإسلام، وتغيـيرًا لسنَّة من سبقه، وعظمت هذه المسائل فى أعين الجهلة، فاستباحـوا -أو أعانوا من استباح- دم الخليفة الراشد عثمان بن عفّان رضى الله عنه، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم[(٤)].

ى- ظهور جيل جـديد من الطامحين: وجد فى الجيل الثانى من أبناء الصحابة رضى الله عنهم من يعتبر نفسه جديرًا بالحـكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أنَّ الطريق أمامهم مغلق، وفى العادة أنه متى وجد الطَّامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفسًا، فإنَّهم يدخلون فى كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء فى غاية الأهمية[(٥)].

(١) تاريخ الطبرى (٢/ ٣٤٠) .
(٢) تحقيق موقف الصّحابة فى الفتنة (١/ ٣٥٣) .
(٣) الأساس فى السنة (٤/ ١٦٧٦) .
(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ ٥١٧ .
(٥) الأساس فى السنة (٤/ ١٦٧٦).

ك- وجود طائفة موتورة من الحاقدين: لقد دخل فى الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد، والذكاء والدَّهاء، ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضَّعف التى يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بآذان مصغية، فكان من آثار ذلك ما كان[1]، فقد عرفنا سابقًا وجود يهود، ونصارى، وفرس، وهؤلاء جميعًا معروف باعث غيظهم، وحقدهم على الإسلام، والدولة الإسلامية، ولكنَّنا هنا نضيف من وقع عليه حدٌّ أو تعزير لأمر ارتكبه فى وسط الدولة، وعاقبه الخليفة، أو ولاته فى بعض الأمصار، وبالذّات البصرة، والكوفة، ومصر، والمدينة، فاستغلَّ أولئك الحاقدون من اليهود، والنصارى، والفرس، وأصحاب الجرائم، مجموعات من الناس كان معظمهم من الأعراب، ممن لا يفقهون هذا الدِّين على حقيقته، فتكوَّنت لهؤلاء جميعًا طائفة، وصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحاب شر، فقد وُصِفُوا بالغوغاء من أهل الأمصار، ونزَّاع القبائل، وأهل المياه، وعبيد المدينة[2]، وبأنهم ذؤبان العرب[3]، وأنَّهم حثالة النَّاس، ومتَّفقون على الشَّرِّ[4]، وسفهاء عديمو الفقه[5]، وأرذال من أوباش القبائل[6]، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل[7]، وأنَّهم آلة الشيطان[8]، وقد تردَّد فى المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصَّنعانى اليهوديِّ ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين، وأنه كان من اليهود، ثمّ أسلم، ولم ينقب أحد عن نواياه، فتنقَّل بين البلدان الإسلاميَّة باعتباره أحد أفراد المسلمين[9]، وسيأتى الحديث عنه بإذن الله.

ل ـ التّدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدّ عثمان رضى الله عنه: كان المجتمع مهيَّأ لقبول الأقاويل والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهيَّأةً، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقى الخروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطّعن فى الأمراء بحجَّة الأمر بالمعروف، والنّهى عن المنكر، حتى استمالوا النَّاس إلى صفوفهم، ووصل الطَّعن إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه عن نفسه باعتباره قائد الدَّولة، وإذا ما حصرنا الدّعاوى التى رُوِّجت ضد الخليفة، وطعنوه بها، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات خمس:

- مواقف شخصيَّة له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات، والمواقع).

(1) الأساس فى السنة (4/1676).
(2) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة صـ 392.
(3) المصدر نفسه صـ 392.
(4) الطبقات (3/ 71)، هذا وصف ابن سعد
(5) دراسات فى عهد النبوة صـ 392.
(6) شذرات الذهب (1/ 40)، هذا وصف ابن العماد.
(7) شرح صحيح مسلم (15/148، 149).
(8) تاريخ الطبرى (5/327).
(9) دراسات فى عهد النبوة صـ 394.

- سياسته الإدارية النَّافذة: (توليته أقاربه، طريقته في التَّولية).

- اجتهادات خاصة به، أو بمصلحة الأمَّة (إتمام الصَّلاة بمنى، جمع القرآن، الزِّيادة في المسجد).

- معاملته لبعض الصَّحابة: عمَّار، أبي ذرّ، ابن مسعود.

وقد بينت موقف عثمان رضي الله عنه في كلِّ ما وجه إليه في كتابي «سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره». وقد حدث تزيُّد في إبراز المطاعن على عثمان رضي الله عنه، سواء في عهده، وما واجهوه بها، وردُّه عليها في حينه، أو ما تُقوِّل عليه فيما بعد عند الرُّواة، والكتَّاب، فإنها لم تصح، ولم تصل إلى حدٍّ أن تكون سببًا في قتله[1].

إن المآخذ السَّابق ذكرها والمدوَّنة في تاريخ الطَّبري وغيره من كتب التاريخ، والمرويّة عن طريق المجاهيل، والإخباريين الضُّعفاء ـ خاصَّة الشيعة ـ كانت وما تزال بليَّة عظمى على الحقائق في سير الخلفاء والأئمَّة، خاصة في مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان -مع الأسف- لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه من ذلك الحظُّ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النَّهج الملتوي بعض ما نال تلك السيرة النيرة، من تحريف المنحرفين، وتشويه الغالين، بغية التأليب عليه، أو التشهير به، وقد أدرك عثمان رضي الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أمّا بعد، فإن الرَّعية طعنت في الانتشار ونزعت إلى الشرِّ، أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرّعة، وضغائن محمولة[2]، وقال ابن العربي على تلك المآخذ: قالوا متعدِّين متعلِّقين برواية كذَّابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم، ومناكير، . . . هذا كله باطل سندًا ومتنًا[3].

م- استخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس: وأهم هذه الأساليب: إشاعة الأراجيف، حيث تردّدت كلمة الإشاعة، والإذاعة كثيرًا، والتَّحريض، والمناظرة، والمجادلة للخليفة أمام النَّاس، والطَّعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب، واختلاقها على لسان الصَّحابة رضي الله عنهم، كعائشة، وعليٍّ، وطلحة، والزبير، والإشاعة بأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأحق بالخلافة، وأنَّه الوصي بعد رسول الله ﷺ، وتنظيم فرق في كل من البصرة، والكوفة، ومصر، أربع فرق من كلِّ مصر ممّا يدل على التَّدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة

(1) دراسات في عهد النبوة، والخلافة الراشدة صـ ٤٠٠ .

(2) التمهيد والبيان صـ٦٤ . .

(3) العواصم من القواصم صـ ٦١ ـ ٦٣ .

بأنهم ما جاءوا إلا بدعـوة الصَّحابة، وصعَّدوا الأحداث، حـتى وصل الأمر إلى القتل[١]، وإلى جوار هذه الوسـائل استخـدموا مجمـوعة من الشعـارات منها: التَّكبيـر، ومنها: أنَّ جهادهم هذا ضدَّ المظالم، ومنها: أنَّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف، والنَّهى عن المنكر، ومنها: المطالـبة باستـبدال الولاة، وعزلهم، ثمَّ تطورت المطالـبة إلى خلع عثـمان، إلى أن تمادوا في جرأتهم وطالبـوا، بل سارعوا إلى قتل الخليفـة، خاصَّة حينمـا وصلهم الخبر بأنَّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والشوق إلى قتله بأيِّ وسيلة[٢].

ن- دور عبـد الله بن سبأ فى تحـريك الفتنة:فى السَّنوات الأخيرة من خلافـة عثمان رضى الله عنه بدت فى الأفق سمات الاضطراب فى المجتمع الإسلامِّى نتيـجة عوامل التَّغيير التى ذكرناها، وأخذ بعض اليـهود يتحيَّنون فرصـة الظهور مستغلِّين عـوامل الفتنة، ومتظاهرين بالإسلام، واستعمال التَّقيَّـة، ومن هؤلاء: عبد الله بن سبأ الملقَّب بابن السَّوداء، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التَّهويل فى شأنه كـما فعل بعض المغالين فى تضخيم دوره فى الفتنة[٣]، فإنه كذلك لا يجوز التَّشكيك فيه، أو الاستهانة بالدَّور الذى لعبه فى أحداث الفتنة، كعامل من عوامـلها، على أنَّه أبرزها، وأخطرها، إذ إنَّ هناك أجـواء للفتـنة مهَّدت لـه، وعوامل أخرى سـاعدته، وغاية ما جـاء به ابن سبأ آراء، ومـعتقدات ادّعـاها، واخترعهـا من قبل نفسه، وافتعلها من يهوديَّته الحاقدة، وجـعل يروِّجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه، وهو الدس فى المجتمع الإسلامى بغية النَّيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشِّقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة العوامل التى أدَّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وتفرُّق الأمة شـيعًا وأحزابًا[٤]. وخلاصة مـا جاء به أن أتى بمقدِّمات صـادقة، وبنى عليها مبادئ فاسدة راحت لدى السُّذَّج، والغلاة، وأصحاب الأهواء من النَّاس، وقد سلك فى ذلك مسالك ملتوية لبَّس فـيها على من حوله، حتى اجتمـعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوّله على زعـمه الفـاسد، حيث قـال: لَعَجبٌ ممَّن يزعم أنَّ عيـسى يرجع، ويكذّب بأن محمَّدًا يرجع، وقـد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[٥]، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادِّعاء إثبات الوصيَّة لعلىٍّ رضى الله عنه بقوله: إنَّه كان ألف نبىٍّ، ولكل نبىٍّ وصىٌّ، وكان علىٌّ وصىَّ

(١) دراسات فى عهد النبوة صـ ٤٠١ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٤٠٢ .
(٣) مثال سعيد الأفغانى فى كتابه: عائشة والسياسة.
(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٢٧) .
(٥) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧).

محمد، ثمّ قال: محمد خاتم الأنبياء، وعليّ خاتم الأوصياء، وحينما استقر الأمر فى نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج النّاس على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، فصادف ذلك هوىً فى نفوس بعض القوم، حيث قال لهم: من أظلم ممّن لم يُجِزْ وصيّة رسول اللهﷺ ووثب على وصيِّ رسول اللهﷺ وتناول أمر الأمّة، ثمّ قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول اللهﷺ فانهضوا فى هذا الأمر، فحرّكوه، وابدأوا بالطّعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنّهى عن المنكر، تستميلوا النّاس، وادعوهم إلى هذا الأمر[1]، وبثَّ دعاته، وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه، ودعوا فى السرِّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنّهى عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كلِّ مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون، فيقرأه أولئك فى أمصارهم، وهؤلاء فى أمصارهم، حتّى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرُّون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنّا لفى عافية ممّا ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنّا لفى عافية ممّا فيه النّاس[2]، ويظهر من هذا النّصِّ الأسلوب الذى تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع فى أعين الناس بين اثنين من الصّحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحقِّ وهو علىٌّ، وجعل الثانى مغتصبًا وهو عثمان، ثمّ حاول بعد ذلك أن يحرِّك النّاس -خاصّة فى الكوفة- على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف، والنّهى عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علمًا بأنّه ركّز فى جملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادّة ملائمة لتنفيذ خطّته، فالقرّاء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيّج أنفسهم، بالشائعات المغرضة المفتراة على عثمان، مثل تحيزه لأقاربه، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنّه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التُّهم والمطاعن التى حرك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان رضى الله عنه، ثمّ إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مصطنعة عن مصرهم إلى بقية الأمصار، وهكذا يتخيل النّاس فى جميع الأمصار أنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية، لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم فى إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامى[3]، هذا، وقد شعر عثمان رضى الله عنه بأن شيئًا ما يحاك فى

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٨) .

(٢) المصدر السّابق نفسه (٥/٣٤٨) .

(٣) الدولة الأموية، يوسف العش صـ ٦٨ ، تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠).

الأمصار، وأنّ الأمّة تمخض بشرٍّ، فقال: والله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها[1]، على أن المكان الذى رتع فيه ابن سبأ هو مصر، وهناك أخذ ينظّم حملته ضدّ عثمان رضى الله عنه، ويحثُّ على التوجّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أنّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقٍّ، ووثب على وصىِّ رسول الله، يقصد عليّاً[2]، وقد غشهم بكتب ادعى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعًا، تبرأوا ممّا نسب إليهم من رسائل تؤلّب النّاس على عثمان[3]، ووجدوا عثمان مقدّرًا للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، وردّ عليهم افتراءهم، وفسر لهم صدق أعماله حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النّخعى: لعله مُكر به وبكم[4]، ويعتبر الذهبى أنّ عبد الله بن سبأ هو المهيِّج للفتنة بمصر، وباذر بذور الشِّقاق والنِّقمة على الولاية ثمَّ الإمام ـ عثمان ـ فيها[5]، ولم يكن ابن سبأ وحده وإنَّما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين، وأخطبوط من أساليب الخداع، والاحتيال، والمكر، وتجنيد الأعراب، والقرّاء وغيرهم، ويروى ابن كثير أنَّ من أسباب تألُّب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين النَّاس كلامًا اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر[6].

إنَّ المشاهير من المؤرِّخين والعلماء من سلف الأمَّة وخلفها يتَّفقون على أنَّ ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد، وأفكار، وخطط سبئيَّة، ليلفت المسلمين عن دينهم، وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة، والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكوَّنت به الطائفة السَّبئيَّة المعروفة التى كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله عنه، والذى يظهر من خطط السَّبئيَّة أنّها كانت أكثر تنظيمًا، إذ كانت بارعة فى توجيه دعاياتها، ونشر أفكارها، لامتلاكها ناصية الدِّعاية، والتَّأثير بين الغوغاء والرُّعاع من النَّاس، كما كانت نشيطة فى تكوين فروع لها سواء فى البصرة، أم الكوفة، أم مصر، مستغلة العصبية القبليَّة ومتمكنة من إثارة مكامن التَّذمر عند الأعراب، والعبيد، والموالى، عارفة بالمواضع الحسَّاسة فى حياتهم، وبما يريدون[7].

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٨).

(٣) المصدران السابقان (١/ ٣٣٠)، (٥/ ٣٦٥) على الترتيب.

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣١).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٣٨).

(٦) البداية والنهاية (٧/ ١٦٧، ١٦٨).

(٧) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٩).

موقف معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى الفتنة:

فى يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس والى الكوفة سعيد بن العاص فى مجلسه العام، وحوله عامَّة النَّاس، وكانوا يتحدَّثون، ويتناقشون فيما بينهم، فتسلَّلَ الخوارج من السَّبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة، وجرى كلام وحوار فى المجلس بين سعيد بن العاص، وأحد الحضور، وهو خنيس بن حُبيش الأسدى، واختلفا على أمر، وكان سبعة من الخوارج، أصحاب الفتنة جالسين، منهم: جندب الأزدىُّ، الذى قتل ابنه السَّارق بسبب تورطه فى قضية قتل، ومنهم الأشتر النَّخعىُّ، وابن الكوَّاء، وصعصعة بن صحوان، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خُنيس الأسدى فى المجلس، ولما قام أبوه يساعده، وينقذه، ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضَّرب، فلم يمتنعوا، وأُغمى على الرَّجل وابنه من شدَّة الضَّرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكنَّ سعيدًا تمكَّن من إصلاح الأمر[1]، ولما علم عثمان بالحادثة، طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع، وذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الشائعات، ويُذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدّ سعيد والى الكوفة، وضدَّ عثمان، وضدَّ أهل الكوفة، ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال له سعيد: إنَّ عثمان قد نهانى عن ذلك، فإذا أردتم ذلك، فأخبروه. وكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النَّفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخرِّبون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية فى الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء، فقال له: إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة. فَرُعْهُم، وأخِفْهم، وأدِّبهم، وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشدًا، فاقبل منهم[2]. ومن الذين تمَّ نفيهم إلى الشام، الأشتر النَّخعىُّ، وجندب الأزدىُّ، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكوَّاء[3]، ولمَّا قدموا على معاوية رحب بهم، وأحسن ضيافتهم، وأجرى عليهم -بأمر عثمان- ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدَّى، ويتعشَّى معهم، فقال لهم يومًا: إنكم قوم من العرب لكم أسنان، وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم، ومواريثهم، وقد بلغنى أنكم

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٣)، (٥/ ٣٢٤) على الترتيب.

(٣) الخلفاء الرّاشدون صـ ١٣١.

نقمتم قريشًا وإنّ قـريشًا، لو لم تكن، لعدتم أذلة كما كنتم[1]. كان عثمان رضى الله عنه يدرك أنَّ معـاوية للمعضلة، فله من فـصاحته وبلاغـته، وله من حلمه، وصـبره، وله من ذكائه، ودهائه ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك مـا إن تقع المعضلة حتّى يرسلها لابن أبى سفيان كى يحلّها، وفعلاً بذل مـعاوية رضى الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النَّفر؛ أكرمهم أوّلاً، وخالطهم، وجالسهم، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليـهم بما نُقل عنهم، وبعـد أن أزال الوحشـة عنهم، وأزال الكلفـة بينه وبينهم، لاحظ أنَّ النَّعرة القبلية هى التى تحرِّكـهم، وأنَّ شهوة الحكم والسُّلطة هى التى تثيرهم، فكان لا بدَّ أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين:

الأولى: أثر الإسلام فى عزَّة العرب.

الثانية: دور قريش فى نشر الإسـلام وتحمُّل أعبائه؛ فإن كـان للإسلام أثرٌ فى تكوينهم، فلا بدَّ أن يرعَـوا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمـامهم صورة لوضع العرب، وقـد انقلبوا بالإسلام أمَّة واحـدة تخضع لإمام واحد وودعوا حـياة الفوضى، وسفك الدِّمـاء، والقبليَّة المنتنة[2]، ويتابع مـعاوية حديثـه معهم، فـيقول: إن أئمَّتكـم لكم إلى اليوم جُنَّة[3]، فلا تشذوا عن جنَّتكم، وإنَّ أئمتكم اليوم يصبـرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتـهنَّ أو ليبـتلينَّكم الله بمن يـسومكم، ثمَّ لا يحـمدكم عـلى الصَّبـر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرَّعيَّة فى حياتكم، وبعد موتكم. فقال رجل من القوم: أمَّا ما ذكرت من قريش، فإنها لـم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها فى الجاهلية، فـتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخـترقت خلص إلينا. فقال معـاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذى أغراكم عـلى هذا قلة العقول، وأنـت خطيب القوم، ولا أرى لك عـقلاً. أُعْظِم عليك أمـر الإسلام، وأذكِّرك بـه، وتذكِّرنى الجـاهليَّة؟ وقـد وعظتك وتزعم لما يُجنُّك أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة، أخـزى الله أقوامًا أعظموا أمـركم، ورفعوا إلى خليفتكم[4]. وعرف معاوية أنَّ الإشارة العابرة لن تقنعهم، ولا بد من شرح مسهب لواقع قريش أوَّلاً، فـقال: افقهـوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أنَّ قـريشًا لم تعزَّ فى جـاهليةٍ ولا فى إسلام إلا بالله -عـزَّ وجلَّ- لم تكن أكثـر العرب، ولا أشـدَّهم، ولكنَّهم كانوا أكـرمهم أحسابًا، وأمحضهم أنسابًا، وأعظمـهم أخطارًا، وأكملهم مروءةً، ولم يمتنعوا فى الجاهلية

---

(1) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٤).

(2) معاوية بن أبى سفيان، لمنير الغضبان صـ ١٠١.

(3) جنة : وقاية.

(4) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٤).

والناس يأكل بعضهم بعضًا، إلا بالله الذى لا يُستَذَل من أعزَّ، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عربًا، أو عجمًا، أو سودًا، أو حمرًا إلا قد أصابه الدّهر فى بلده، وحرمته بدولة، إلا ما كان من قريش، فإنَّه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خدَّه الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم، واتَّبع دينه من هوان الدنيا، وسوء مردِّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثمَّ ارتضى له أصحابًا، فكان خيارهم قريشًا، ثمَّ بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله فى الجاهليَّة من الملوك الذين كانوا يدينونكم.. أفٍّ لك، ولأصحابك! ولو أن متكلمًا غيرك تكلَّم، ولكنَّك ابتدأت، فأمَّا أنت يا صعصعة فإنَّ قريتك شرُّ قرىً عربية، أنتنها نبتًا، وأعمقها واديًا، وأعرفها بالشَّرِّ، وألأمها جيرانًا، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هُجنة، ثمَّ كانوا أقبح العرب ألقابًا، وألأمها أصهارًا، نزّاع[1] الأمم، وأنتم جيران الخطِّ وفعلة فارس، حتَّى أصابتكم دعوة النَّبىِّ ﷺ، ونكبتك دعوته، وأنت نزيع شطير[2] فى عمان، لم تسكن البحرين، فتشركهم فى دعوة النَّبى ﷺ، فأنت شرُّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالنَّاس، وحملك على الأمم التى كانت عليك، أقبلت تبغى دين الله عوجًا، وتنزع إلى اللآمة، والذِّلة، ولا يصنع ذلك قريش، ولن يضرَّهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم إنَّ الشَّيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشَّر من بين أمَّتكم،، فأغرى النَّاس، وهو صارعكم، لقد علم أنَّه لا يستطيع أن يردَّ بكم قضاء الله، ولا أمرًا أراد الله، ولا تدركون بالشَّر أمرًا إلا فتح الله عليكم شرًا منه وأخزى. ثم قام وتركهم فتذامروا، فتقاصرت إليهم أنفسهم[3]، وبذلك بذل معاوية كلَّ طاقاته الفكرية، والثقافية، والسياسية، لإقناعهم:

- عرض لهم أولاً أمر قريش فى الجاهلية والإسلام.
- تناول قبائل هؤلاء النّفر، ووضعها فى الجاهلية، حيث كانت تعانى سوء المناخ، ونتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثمّ الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذلٍّ، وارتقت بعد هوانٍ.
- تناول معاوية رضى الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثمّ عاد وانضم إلى الإسلام، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار.

(١) النزاع : جمع نزيع وهو الغريب .
(٢) الشطير : الغريب .
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٦) .

- كشف معاوية رضى الله عنه مخطّطات صعصعة وأصحابه، وكيف يبغون الفتنة، ويبغون دين الله عوجًا.

- وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرّك هذا الشّر، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله، ثمّ الإسلام، والعقيدة، ثمّ كشف عن زيف هؤلاء النّفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخطّطاتهم، وصلتها بدعوى الجاهلية(١).

٥ ـ جلسة أخرى:

ثمّ أتاهم القابلة فتحدَّث عنهم طويلاً، ثم قال: أيُّها القوم، ردُّوا عليَّ خيرًا، أو اسكتوا، وتفكَّروا، وانظروا فيما ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه، تعيشوا، ونعش بكم. قال. صعصعة: لست بأهل لذلك، ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله. فقال معاوية: أوليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعًا، ولا تفرقوا؟ قالوا: بل أمرت بالفرقة، وخلاف ما جاء به النَّبى ﷺ! قال: إنَّى آمركم الآن، إن كنت فعلت، فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه، وطاعته، وطاعة نبيِّه ﷺ، ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقِّروا أئمتكم، وتدلوهم على كلِّ حسن ما قدرتم، وتعظوهم فى لينٍ ولطف فى شىء إن كان معهم، قال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإنَّ من المسلمين من هو أحقُّ به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قدْمًا من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدْمًا منك فى الإسلام، قال معاوية: والله إن لى فى الإسلام قدْمًا، ولغيرى كان أحسن قدمًا منِّى، ولكنَّه ليس فى زمانى أحدٌ أقوى على ما أنا فيه منّى، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطَّاب، فلو كان غيرى أقوى منِّى، لم يكن لى عند عمر هوادة، ولا لغيرى، ولم أحدث من الحدث ما ينبغى لى أن أعتزل عملى، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، لكتب بخطٍّ يده، فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك، لرجوت أن يعزم له على ذلك إلا هو خير. فمهلاً فإنَّ فى ذلك وأشباهه ما يتمنَّى الشيطان، ويأمر، ولعمرى لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم، وأمانيِّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يومًا ولا ليلة، ولكنَّ الله يقضيها، ويدبِّرها وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير، وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إنَّ لله سطوات، ونقمات، وإنِّى لخائف عليكم أن تتابعوا فى مطاوعة الشَّيطان حتَّى تُحلكم مطاوعة الشَّيطان، ومعصية الرّحمن دار الهوان من

(١) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان ص١١١.

نقم الله فى عاجل الأمر، والخزى الدّائم فى الآجل. فوثبوا عليه، فأخذوا بلحيته، ورأسه، فقال: مه! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشّام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمرى إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا، ثم قام من عندهم، فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت[1]. هذه المحاولة الأخيرة التى بذل فيها معاوية أمير الشّام كلَّ جهده واستعمل حلمه، وثقافته، وأعصابه كى يثنيهم عن الفتنة، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله، وطاعته، والاستمساك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع فى معصية الله[2]. وبحلمه الكبير، وصدره الواسع، عاد فذكَّرهم بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حدِّ زعمهم، فهو يتوب من المعصية، إن وقعت، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطَّاعة، والجماعة، والابتعاد عن تفريق كلمة الأمَّة، ولو كان الوعظ يجدى معهم، لأمكن أن تتأثَّر قلوبهم لهذه المعاملة، وهذا اللُّطف، وهذا يوجِّههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادئ فى العظة، واللين فى النُّصح، فوجدنا المال رحبًا أن يكشفوا فى مكنون قلوبهم. فقالوا: فإنَّا نأمرك أن تعتزل عملك، فإنَّ فى المسلمين من هو أحقُّ به منك، وانتبه معاوية انتباهًا مفاجئًا إلى ما يكنُّون، فأحبَّ أن يتعرف جانبًا غامضًا عليه لعلَّ فى هذا التعرُّف ما يوصله إلى من يحرِّكهم، ويبثُّ فى ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنَّهم أخفوا ما يكنُّون واكتفوا بالإشارة إلى أنَّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلَّم عليهم أكثر فأكثر، رغم الأسلوب الفجِّ الذى سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل. وهنا نجد لمعاوية جوابًا مستفيضًا عن وجهة نظره فى الحكم، والإمارة، والقيادة، وقد لخَّص معاوية إجابته فى ستِّ نقاط أساسيَّة ومهمة:

- هى أنَّ له قدمًا، وسابقة فى الإسلام، فهو حامى ثغر الشَّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما.

- إنَّ هناك فى المسلمين من هو أفضل منه، وأكرم، وأحسن سابقة، وأكثر بلاءً، وهو يرى أنَّه أقوى من يحمى هذا الثَّغر الإسلاميَّ العظيم ـ الشّام ـ فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه، وسياسته، وفهم نفسيَّات أهله حتَّى أحبُّوه.

- إنَّ الميزان الحساس، والمعيار الدَّقيق الذى يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططًا، أو انحرافًا، لما عمل

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٠).

له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتبًا بين يديه، وولاه أبو بكر الصِّدِّيق من بعده، ولم يطعن فى كفاءته أحد.

- إنَّ اعتـزال العمل يجب أن يستند لأسـباب موجـبة للاعتـزال، فما هى الحـجَّة التى يقدِّمها دعاة الفتنة، ليتمَّ الاعتزال على أساسها؟

- إنَّ الذى يقرِّر العزل عن العمل، أو البقاء فى الإمارة، ليس هؤلاء الأدعياء، إنَّ ذلك من حقِّ أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو الذى له الحقُّ فى تعيين الولاة، وعزلهم.

- إنَّ أميـر المؤمنين عثمــان يوم يقرِّر عـزل معاوية، فـهو واثق أنَّ أمره خـير كلَّهُ، ولا غضاضة فى ذلك؛ فهو أمير مأمور، وهو أمر خليفة المسلمين[1]. كان ختام الجلسة مؤسفًا أشدَّ الأسف، مـؤلمًا أشدَّ الألم، لقد حـذَّرهم نقمة الله، وغضـبه، وحذَّرهم الانقـياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه وأخذوا برأسه ولحيته، وعندئذ زجرهم، وقمعهم، ووجَّـه لهم كلامًا قاسيًا مبطَّنًا بالتهـديد، وعرف أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعـوا للحقِّ، فلا بدَّ من إبلاغ أمـرهم لأمير المؤمنين عـثمان رضى الـله عنه، وكشف هويَّاتهم، وخطرهم، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأيًا آخر[2].

- كتاب معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب معـاوية إلى عثمان رضى الله عنهـما قائلاً: بسم الله الرحمن الرحـيم، لعبد الله عثمـان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفـيان، أما بعد يا أميـر المؤمنين، فإنك بعثت إلىَّ أقوامًا يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُملون عليهم، ويأتون النَّاس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل النَّاس يعـلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجـرهم، وتمكنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفســدوا كثيرًا من النَّاس ممن كانوا بين ظهـرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقامـوا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحـرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم فى مـصرهم الذى نجا فيه نفاقهم[3]. فكتب عثمـان إلى سعيد بن العاص بالكوفـة، فردّهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حيـن رجعوا، وكتب سـعيد إلى عثـمان يضجّ منهم، فكتب عثـمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى عبد الرحـمن بن خالد بن الوليد، وكان أميرًا على حمص[4]، فلما

(١) معاوية بن أبى سفيان ، صحابى كبير ، وملك مجاهد صـ ١١٤ - ١١٧ .

(٢) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان صـ ١١٧ ، ١١٨ .

(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٥/٣٣١) .

وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، استدعاهم، وكلَّمهم كلامًا شديدًا، وكان مما قاله لهم: يا آلة الشيطان، لا مرحبًا بكم، ولا أهلاً، لقد رجع الشيطان محسورًا خائبًا، وأنتم ما زلتم نشيطين فى الباطل، خَسَّرَ الله عبد الرحمن إن لم يؤدِّ بكم ويخزِكم! يا معشر من لا أدرى من أنتم: أعرب، أم عجمٌ؟ لن تقولوا لى كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عَجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الرِّدَّة، والله لأذلنَّكم! وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهرًا كاملاً، وعاملهم بمنتهى الحزم، والشِّدَّة، ولم يَلِن معهم كما لان سعيد ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان يقول له: يا بن الخطيئة! هل تعلم أنَّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشَّرُّ، وأن من لم يصلحه اللِّين أصلحته الشدَّة؟ وكان يقول لهم: لماذا لا تردُّون علىَّ، كما كنتم تردُّون على سعيد فى الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوننى، كما كنتم تخاطبونهما؟ ونفع معهم أسلوب عبد الرَّحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه، وشدَّته، وقسوته، وأظهروا له التَّوبة والنَّدم، وقالوا له: نتوب إلى الله، ونستغفره، أقلْنَا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله. بقى القوم فى الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد، وأرسل عبد الرّحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النَّخعى إلى عثمان ليخبره بتوبتهم، وصلاحهم، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة، فقال عثمان للأشتر: احلل أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرَّحمن فى الجزيرة مدَّةً، أظهروا فيها التَّوبة، والاستقامة والصَّلاح(1)، وسكت أصحاب الفتنة فى الكوفة إلى حين، وكان هذا فى شهور سنة ثلاث وثلاثين، بعدما تمَّ نفى رءوس الفتنة إلى معاوية فى الشَّام، ثمَّ إلى عبد الرّحمن بن خالد، فرأى أصحاب الفتنة فى الكوفة أنَّ المصلحة تقتضى أن يسكتوا إلى حين(2). إلا أن بقية دعاة الفتنة كانوا يشتغلون فى البصرة، ومصر، وغيرهما، وفى سنة أربع وثلاثين - السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان - أحكم عبد الله بن سبأ خطته، ورسم مؤامرته، ورتب مع جماعته السَّبئيِّين الخروج على الخليفة، وولاته، فقد اتَّصل ابن سبأ اليهودى من وكر مؤامراته فى مصر بالشَّياطين من حزبه فى البصرة، والكوفة، والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم، وكاتبوه، وراسلهم، وراسلوه، وكان ممَّن كاتبهم، وراسلهم السَّبئيُّون فى الكوفة، وقد كانوا بضعة عشر رجلاً منهم منفيين فى الشَّام، ثمَّ فى الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد،

(1) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٧).

(2) الخلفاء الراشدون، للخالدى صـ١٣٤.

وبعد نفى أولئك الخارجين، كان زعيم السَّبئِّين الحاقدين فى الكوفة يزيد بن قيس[1]. وقد خلت الكوفة فى سنة أربع وثلاثين من وجوهها، وأشرافها، لأنَّهم توجَّهوا للجهاد فى سبيل الله، ولم يبق إلا الرُّعاع، والغوغاء الذين أثر فيهم السَّبئيون والمنحرفون، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيَّجوهم ضدَّ والى عثمان على الكوفة سعيد بن العاص رضى الله عنه[2]، واستطاع القعقاع بن عمرو التميمىُّ أمير الحرب بالكوفة أن يقضى على التحرك الأوّل بقيادة يزيد بن قيس، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته، وبصيرته، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم فى الخروج على الخليفة عثمان وخلعه، وأظهر له كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالى سعيد بن العاص، والمطالبة بوالٍ آخر مكانه، فاستُجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة، لما سمع كلام يزيد، ثمّ قال ليزيد: لا تجلس لهذا الهدف فى المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس فى بيتك واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقِّق لك ذلك بإذن الله[3]، واستمر يزيد بن قيس فى إشعال الفتنة، واضطر إلى تعديل خطّته فى الخروج، وبعد كيد ومكر وتدبير من أتباع السبئِّين، قرّر الغوغاء والرُّعاع بقيادة يزيد بن قيس منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة، وكان سعيد بالمدينة[4].

ولمّا خرج السبئيُّون، والغوغاء طلبًا للفتنة والتمرد، وإحداث القلاقل، بقى فى المسجد وجوه المسلمين، وأشرافهم، وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالى عمرو بن حُريث وطالب المسلمين بالأخوَّة، والوحدة، ونهاهم عن التفرق، والاختلاف، والفتنة، والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والمتمرِّدين[5]، قال القعقاع بن عمرو التميمى: أتردُّ السَّيل عن عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات! لا والله لا تُسكِّن الغوغاء إلا المشرفيَّة[6]، ويوشك أن تُنتضى، ثمَّ يعجُّون عجيج العتدان[7]، ويتمنون ما هم فيه، فلا يردهم عليهم أبدًا، فاصبر. فقال: أصبر، وتحوَّل إلى منزله[8]. واستطاع أهل الفتنة أن يمنعوا سعيد بن العاص من دخول الكوفة ورجع إلى المدينة، وكان من رأيه أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقلِّ، وبعد رجوعه إلى المدينة أخبر سعيد عثمان بما حدث. قال له عثمان: ماذا يريدون؟

(1) ، (2) الخلفاء الراشدون، للخالدى صـ١٣٥. (3) تاريخ الطَّبرى (٥/٣٣٧).

(4) المصدر نفسه (٥/٣٣٨). (5) الخلفاء الرَّاشدون ، للخالدى صـ١٣٩.

(6) نوع من السيوف.

(7) تنتضى: تخرج السيف من غمده. العتدان: قيل الحولى من أولاد الماعز.

(8) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٨).

هل خلعوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا، لقد أظهروا أنَّهم لا يريدونني واليًا عليهم، ويريدون واليًا آخر مكاني. قال له عثمان: من يريدون واليًا؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعريَّ، قال عثمان: قد عينَّا، وأثبتنا أبا موسى واليًا عليهم، ووالله لن نجعل لأحد عُذرًا ولن نترك لأحد حجة، ولنصبرنَّ عليهم كما هو مطلوب منَّا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه واليًا على الكوفة[1]، وكان أبو موسى رضي الله عنه يقوم بتهدئة الأمور، وينهى النَّاس عن العصيان. وقال لهم: أيها الناس، لا تخرجوا في هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، والزموا جماعتكم، والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا، فكأنَّكم بأمير[2]. فقالوا: فصلِّ بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان[3] بن عفان قالوا: على السَّمع والطاعة لعثمان. وما كانوا صادقين في ذلك، لكنَّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقيَّة عن الآخرين وكان أبو موسى يصلي بالنَّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه واليًا على الكوفة، وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة: أما بعد، فقد أمَّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنَّ لكم عرضي، ولأبذُلنَّ لكم صبري، ولأستصلحنَّكم بجهدي، واسألوني كلَّ ما أحببتم، ممَّا لا يعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتَّى لا يكون لكم عليّ حجّة. وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار[4]، رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه وأوسع صدره! وكم ظلمه السَّبئيُّون والخارجون الحاقدون، واختلفوا عليه.

ـ مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأي معاوية في ذلك:

واجه عثمان بن عفان الفتنة بوسائل وأساليب متنوعة، منها: إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات، ومحاولة معرفة أغراض أهل الفتنة واستطاع أن يخترق صفوفهم، وأقام الحجة على الغوغاء والمتمردين بالحوار والنقاش، والاستجابة لبعض مطالبهم.. وقد فصلت الحديث عن سياسة عثمان في التعامل مع الفتنة في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه. ومن الأساليب التي اتخذها عثمان رضي الله عنه مشورته لولاة الأمصار حيث بعث إلى ولاة الأمصار واستدعاهم على عجلٍ، وكانوا: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبي

(١) تاريخ الطبري (٥/٣٣٩).
(٢) أي: يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.
(٣) تاريخ الطبري (٥/٣٣٩).
(٤) المصدر نفسه (٥/٣٤٣).

سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم فى المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص -وهم من الولاة السابقين- وكانت جلسة مغلقة وخطيرة، وقال فيها كل المشاركين رأيهم وكان رأى معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام[1]، وبعد أن سمع عثمان من المشاركين اقتراحاتهم قام، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: كل ما أشرتم به علىَّ قد سمعت، ولكلٍّ أمر باب يؤتى منه، إنَّ هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمَّة كائن، وإن بابه الذى يغلق عليه، فيُكفكف به اللِّين، والمؤاتاة والمتابعة، إلا فى حدود الله تعالى ذكره، التى لا يستطيع أحد أن يبادى بعيب أحدها، فإن سدَّه شيء فرفق، فذاك والله ليُفتحنَّ، وليست لأحد علىَّ حجة حقٍّ، وقد علم الله أنِّى لم آل الناس خيرًا، ولا نفسى، والله إنَّ رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها! كفكفوا النَّاس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله، فلا تُدهنوا فيها[2]، فمنع عثمان رضى الله عنه الولاة من التَّنكيل بمثيرى الشَّغب، وحبْسهم، أو قتْلهم، وقرَّر أن يعاملهم بالحسنى واللِّين[3]، وطالب عماله بأن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التى كان كلُّ بصير يرى أنَّها قادمة[4]، وقبل أن يتوجه معاوية بن أبى سفيان إلى الشَّام أتى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معى إلى الشَّام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبَل لك به. قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشىء، ولو كان فيه قطع خيط عنقى. قال له معاوية: إذن أبعث لك جيشًا من الشَّام، يقيم فى المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة، ليدافع عنك، وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا، حتى لا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق، بجند تساكنهم، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنُّصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين، والله لتُغتلنَّ، أو لتُغزينَّ. قال عثمان: حسبى الله ونعم الوكيل[5]. ولقد حدث كل ما توقعه معاوية، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان رضى الله عنه وتغتاله فى النهاية. وحين جاء هؤلاء الثوار من مختلف الأقاليم لم نجد من بينهم جماعة من أهل الشام[6]. من كل ما سبق نجد أننا أمام وال كبير يشق طريقه بجدارة من بين الولاة إلى ما هو أبعد من الولاية؛ فقد استطاع أن يجعل من إقليم الشام الإقليم المهيأ لقيادة بقية الأقاليم

(1) الكامل (2/278)، تاريخ الطبرى (5/351).
(2) تاريخ الطبرى (5/351).
(3) خلافة عثمان، د. السلمى صـ 77.
(4) الخلفاء الراشدون، للخالدى صـ 151.
(5) تاريخ الطبرى (5/353).
(6) عبد الله بن سبأ، للعودة صـ 152.

في الدولة الإسلامية، بما عمق فيه من حسن الطاعة للقيادة، وبما ثبت فيه من دعائم الاستقرار، وقطعه لأسباب الفتنة وعوامل الفرقة فيه. وهذا ما لا نجده في غيره من الأقاليم[(١)].

- مقتل عثمان رضى الله عنه وموقف الصحابة من ذلك:

اشتد الحصار على عثمان رضى الله عنه، حتى منع من أن يحضر للصلاة في المسجد، وكان صابرًا على هذه البلوى التى أصابته كما أمره رسول الله ﷺ بذلك، وكان مع إيمانه القوى بالقضاء والقدر، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة، فنراه تارة يخطب الناس عن حرمة دم المسلم، وأنه لا يحل سفكه إلا بحقه، وتارة يتحدث في الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة في الإسلام، ويستشهد على ذلك ببقية العشرة رضوان الله عليهم[(٢)]، وكأنه يقول: من هذا عمله وفضله هل من الممكن أن يطمع بالدنيا ويقدمها على الآخرة؟! وهل يعقل أن يخون الأمانة ويعبث بأموال الأمة ودمائها وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله وهو الذى تربى على عين النبى ﷺ والذى شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة؟! ومتى؟ بعد ما تجاوز السبعين وقارب الثمانين من عمره.. أهكذا تكون معاملته؟ واشتدت سيطرة المتمردين على المدينة حتى إنهم ليصلون بالناس في أغلب الأوقات[(٣)]، وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا، وخشوا من حدوث ما لا تحمد عقباه، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة، إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه[(٤)]، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان رضى الله عنه، ومن هؤلاء الحسن بن على رضى الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، فقد كان عثمان يحب الحسن ويكرمه، فعندما وقعت الفتنة وحوصر عثمان رضى الله عنه أقسم على الحسن رضى الله عنه بالرجوع إلى منزله؛ وذلك خشية عليه أن يصاب بمكروه[(٥)]، وقد قال عثمان للحسن رضى الله عنهما: ارجع يا ابن أخى حتى يأتى الله بأمره[(٦)]، وقد صحت روايات أن الحسن حمل جريحًا من الدار يوم الدار[(٧)]، كما جرح غير الحسن، عبد الله بن الزبير،

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية صـ ٧٦ .

(٢) خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد على صـ ٨٥.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥١٥) ..

(٤) فتنة مقتل عثمان (١/ ١٦٧)، صحيح الإسناد .

(٥) تاريخ المدينة لابن شبه (٤/ ١٢٠٨) .

(٦) الرياض النضرة ،نقلاً عن الحسن بن على ودوره السياسى صـ ٤٦ .

(٧) الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢٨)، بسند صحيح.

ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، كما كان معهم الحسين بن علي، وابن عمر رضى الله عنهما[١]، وقد كان علي رضى الله عنه من أدفع الناس عن عثمان رضى الله عنه، وشهد له بذلك مروان بن الحكم[٢]، كما أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أن عليًا أرسل إلى عثمان فقال: إن معي خمسمائة دارع، فأذن لي فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئًا يستحل به دمك، فقال: جزيت خيرًا، ما أحب أن يهراق دم في سببي[٣]، وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان رضى الله عنهما، أثناء الحصار، فمن ذلك: أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله يموتون عطشًا، فأرسل علي رضى الله عنه إليه بثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت، ولقد تسارعت الأحداث فوثب الغوغاء على عثمان فقتلوه رضى الله عنه وأرضاه، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم في المسجد، فذهبت عقولهم، وقال علي لأبنائه وأبناء أخيه: كيف قتل عثمان وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن، وكان قد جرح[٤]، وضرب صدر الحسين وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله وهو يقول: تبًا لكم سائر الدهر، اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلته أو مالأت على قتله[٥]، وهكذا كان موقف علي رضى الله عنه، نصح وشورى وسمع وطاعة، ووقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة، ومن أدفع الناس عنه، ولم يذكره بسوء قط، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه، لكن الأمر فوق طاقته، وخارج إرادته، إنها إرادة الله عز وجل أن يفوز أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه بالشهادة[٦].... ويبوء المفسدون بالإثم. إن أمير المؤمنين عليًا رضى الله عنه أنكر قتل عثمان، وتبرأ من دمه، وكان يقسم على ذلك في خطبه، وغيرها بأنه لم يقتله ولا أمر بقتله، ولا مالأ عليه، ولا رضي، وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع[٧]، خلافًا لما تزعمه الشيعة الرافضة من أنه كان راضيًا بقتل عثمان رضى الله عنهما[٨]، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتله رضى الله عنه: فأما الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فإنه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار

(١) تاريخ خليفة صـ ١٧٤ .

(٢) تاريخ الإسلام صـ ٤٦٠، ٤٦١ إسناده قوي .

(٣) تاريخ دمشق صـ ٤٠٣ .

(٤) ابن أبي عاصم: الآحاد والمثاني (١/١٢٥)، نقلاً عن خلافة علي صـ ٨٧ .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/٢٠٩)، إسناده صحيح .

(٦) المصدر نفسه (١٥/٢٠٩) إسناده صحيح .

(٧) البداية والنهاية (٧/٢٠٢) .

(٨) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط صـ ١٢٩ .

بخلافه[1]. وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على عليّ رضى الله عنه، وافتراء عليه، فعليٌّ رضى الله عنه لم يشارك فى دم عثمان رضى الله عنه، ولا أمر ولا رضى، وقد روى عنه ذلك وهو الصادق البار[2]، وقد قال على رضى الله عنه: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان[3]. وقد شوهت بعض كتب التاريخ مواقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وذلك بسبب الروايات الضعيفة والموضوعة التى ذكرها كثير من المؤرخين، والمتتبع لأحداث الفتنة فى تاريخ الإمام الطبرى، وكتب التاريخ الأخرى من خلال روايات أبى مخنف، والواقدى، وابن أعثم، وغيرها من الأخبار حبكت بطريقة ذات ميول عدائية للتاريخ الصحيح، ويشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة، ويثيرون الفتنة، فأبو مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع فى اتهام عثمان بأنه الخليفة الذى كثرت سقطاته، فاستحق ما استحق، ويظهر طلحة فى مروياته كواحد من الثائرين على عثمان، والمؤلبين ضده، ولا تختلف روايات الواقدى عن روايات أبى مخنف، وقد كثرت الروايات الشيعية التى تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان رضى الله عنه، وأنهم هم الذين حركوا الفتنة، وأثاروا الناس، وهذا كله كذب وزور[4]، وخلافًا للروايات الموضوعة والضعيفة فقد حفظت لنا كتب المحدثين -بحمد الله- الروايات الصحيحة التى يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه والمتبرئين من قتله[5] والمطالبين بدمه بعد مقتله، وبذلك يستبعد أى اشتراك لهم فى تحريك الفتنة، أو إثارتها[6].

إن الصحابة جميعًا رضى الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضى الله عنه، ومن قال خلاف ذلك، فكلامه باطل، ولا يستطيع أن يقيم عليه أى دليل ينهض إلى مرتبة الصحة، ولذلك أخرج خليفة في تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم، عن أبيه، قال: قلت للحسن: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين، والأنصار؟ قال: لا، كانوا أعلاجًا[7] من أهل مصر. وقال الإمام النَّووى: ولم يشارك فى قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج، ورعاع من غوغاء القبائل سفلة الأطراف والأراذل، تحزَّبوا، وقصدوه من مصر، فعجز

(1) المستدرك (٣/١٠٣) . (2) منهاج السنة (٤/٤٠٦) .
(3) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط صـ ٢٢٩، الطبقات (٣/٣)، إسناده حسن .
(4) تحقيق مواقف الصحابة (٢/١٤- ١٨) .
(5) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، للصَّلاَّبىِّ صـ ١٢٢ .
(6) تحقيق مواقف الصحابة (٢/١٤ - ١٨) .
(7) العلج : كل جاف شديد من الرِّجال ، عثمان بن عفان للصَّلاَّبىِّ صـ ٤٥٠ .

الصحابة الحاضرون عن دفعهم، فحصروه حتَّى قتل، رضى الله عنه[١]، وقد وصفهم الزبير رضى الله عنه بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنَّهم نزّاع القبائل[٢]، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون ضالون، باغون معتدون[٣]، ووصفهم الذهبيُّ بأنهم رءوس شرٍّ، وجفاء[٤]، ووصفهم ابن العماد الحنبلى فى الشذرات بأنَّهم أراذل من أوباش القبائل[٥]، ويشهد على هذا الوصف تصرُّف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة رضى الله عنه ظلمًا وعدوانًا، فكيف يمنع الماء عنه والطعام، وهو الذى طالما دفع من ماله الخاص ما يروى ظمأ المسلمين بالمجّان[٦]، والذى يسهم بأموال كثيرة عندما تلمُّ بالنَّاس مجاعة، أو مكرو، وهو الدائم العطاء عندما تصيب النَّاس ضائقة، أو شدَّة من الشدائد[٧]، حتى إن عليًا رضى الله عنه يصف هذا الحال، وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيها الناس، إن الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرّجل الماء، ولا المادة ـ الطعام ـ فإنّ الروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى[٨]. لقد صحَّت الأخبار، وأكّدت حوادث التاريخ على براءة الصَّحابة من التَّحريض على عثمان أو المشاركة فى الفتنة ضدّه[٩]، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابى «أمير المؤمنين سيرة عثمان بن عفان»[١٠].

---

(١) شهيد الدار عثمان بن عفان صـ ١٤٨ .
(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/١٤٨) .
(٣) منهاج السنة (٢/١٨٩ ـ ٢٠٦) .
(٤) دول الإسلام، للذهبى (١/١٢) .
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/٤٨٢)، شذرات الذهب (١/٤٠) .
(٦) تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان بن عفان صـ ٤٥٠ .
(٧) التمهيد والبيان صـ ٤٢٤ .
(٨) تاريخ الطبرى (٥/٤٠٠) .
(٩) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٨) .
(١٠) عثمان بن عفان للصَّلاَّبىُّ صـ ٤٥١ - ٤٦٦ .

المبحث الثالث

معاوية بن أبى سفيان

فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما

كان معاوية رضى الله عنه واليًا على الشام في عهدى عمر وعثمان رضى الله عنهما، ولما تولى على رضى الله عنه الخلافة أراد عزله، ويبدو أن هناك ضغوطًا على علىّ رضى الله عنه من قبل الغوغاء لكى يعزل معاوية، خصوصًا أن الغوغاء يعرفون معاوية جيدًا؛ والذى جعلنى أقول ذلك أن العلاقة بين على ومعاوية قبل خلافة على، لا يوجد ما يشوبها، بل كانت جيدة، كما أن الغوغاء فيما بعد ضغطوا على أمير المؤمنين على فى عزل قيس بن سعد من مصر، ونجحوا فى ذلك، وترتب على ذلك ضياع مصر، وقد فصلت ذلك فى كتابى «سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب»، وقد اختار أمير المؤمنين على بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر، فأبى عليه عبد الله قبول ولاية الشام واعتذر فى ذلك، وذكر له القرابة والمصاهرة التى بينهما[(١)]، ولم يلزمه أمير المؤمنين على وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وأما الروايات التى تزعم أن عليًا قام بالتهجم على عبد الله بن عمر رضى الله عنه، لاعتزاله وعدم وقوفه إلى جانبه، ففى ذلك الخبر تحريف وكذب[(٢)]، وأقصى ما وصل إليه الأمر فى قضية عبد الله بن عمر وولاية الشام ما رواه الذهبى من طريق سفيان بن عيينة: عن ابن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: بعث إلىَّ على قال: يا أبا عبد الرحمن، إنك رجل مطاع فى أهل الشام، فسر فقد أمَّرتك عليهم، فقلت: أذكرك الله وقرابتى من رسول الله ﷺ وصحبتى إياه، إلا ما أعفيتنى، فأبى على، فاستعنت بحفصة فأبى، فخرجت ليلاً إلى مكة[(٣)]. وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمر، ودخوله فى الطاعة، إذ كيف يوليه على وهو لم يبايع، وفى الاستيعاب، لابن عبد البر من طريق أبى بكر بن أبى الجهم عن ابن عمر أنه قال حين احتضر: ما آسى على شيء إلا تركى قتال الفئة الباغية مع على رضى الله عنه[(٤)]، وهذا مما يدل أيضًا على مبايعته لعلى، وأنه إنما ندم على عدم خروجه مع على للقتال، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة، فلم يقاتل مع أحد، ولو

(١) المصنف لابن أبى شيبة (٧/ ٤٧٢)، إسناده صحيح.
(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل صـ ١٦٠.
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٤)، رجاله ثقات.
(٤) الاستيعاب (٦/ ٣٢٦) بحاشية كتاب الإصابة.

كان قد ترك البيعة، لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم، ولصرح به، فإن لزوم البيعة والدخول فيما دخل الناس فيه واجب، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه أن النبى ﷺ قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»[(١)]. وهذا بخلاف الخروج للقتال مع على، فإنه مختلف فيه بين الصحابة، وقد اعتزله بعض الصحابة، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركًا لها، مع ما فيه من الوعيد الشديد، وبهذا يظهر بطلان قول بعض المؤرخين فى زعمهم ترك ابن عمر البيعة لعلى رضى الله عنه، حيث ثبت أنه كان من المبايعين له، بل من المقربين منه، الذين كان يحرص على توليتهم، والاستعانة بهم، لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له[(٢)]، وبعد اعتذار ابن عمر عن عدم قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين علىٌّ سهيل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيّهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع[(٣)]، وكانت بلاد الشام تغلى غضبًا على مقتل عثمان ظلمًا وعدوانًا.

أولاً: اختلاف الصحابة فى الطريقة التى يؤخذ بها القصاص من قتلة عثمان:

إن الخلاف الذى نشأ بين أمير المؤمنين على من جهة، وطلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين على ومعاوية رضى الله عنهما، لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقدحون فى خلافة أمير المؤمنين على وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماع بينهم، قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل علىّ، واستحقاقه الخلافة، ولكنّ اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضى الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان[(٤)].

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدّع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل عليًا، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقرٌّ بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا عليًا وأصحابه بالقتال، ولا فعلوا[(٥)]، وقال أيضًا: وكل فرقة من المتشيعين مقرّة مع ذلك بأنه ليس معاوية كفئًا لعلى بالخلافة، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف على، فإن فضل على وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته،

(١) مسلم، ك الإمارة رقم ١٨٥١ (٢) الانتصار للصحب والآل صـ ٥٠٧.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٩)، خلافة على، لعبد الحميد صـ ١١٠.

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٦٠). (٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٢).

وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة، كفضل إخوانه أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم[(١)].

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحًا فى خلافة أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وإنما اختلافهم فى قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خلافهم فى أصل المسألة، وإنما فى الطريقة التى تعالج بها هذه القضية، إذ كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه موافقًا -من حيث المبدأ- على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يرجئ الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجتماع الكلمة، وهذا هو الصواب[(٢)]، قال النووى: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته، وقتال الباغى عليه فيما اعتقدوه، ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل فى قتال البغاة فى اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغى عليه، وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب فى حقهم، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته فى قتال البغاة عليه[(٣)].

ثانيًا معركة صفين: (٣٧هـ):

- تسلسل الأحداث التى قبل المعركة:

١ ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام:
لما قُتل عثمان رضى الله عنه أرسلت أمَ المؤمنين، أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى أهل عثمان: أرسلوا إلىّ بثياب عثمان التى قُتل فيها، فبعثوا إليها بقميصه مضرَّجًا بالدم، وبخصلة الشعر التى نتفت من لحيته، ثم دعت النعمان بن بشير، فبعثته إلى معاوية، فمضى بذلك وبكتابها[(٤)]، وجاء فى رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء، ومعه أصابع نائلة التى أصيبت حين دافعت عنه بيدها[(٥)]، وكانت نائلة بنت الفرافصة

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٢).
(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ ١٥٨.
(٣) شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ١٤٩).
(٤) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين صـ ٥٣٩.
(٥) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩).

الكلبية زوج عـثمان كلبية شـامية[1]، فورد النعمـان على معاوية بالشام، فـوضع معاوية القميص علـى المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع فى كم القـميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله، وحث بعضهم بعضًا على الأخذ بثأره[2]، وجاء شرحبيل بن السمط الكندى وقال لمعاوية: كـان عثمان خليفـتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فـاعتزلنا[3] وآلى رجال الشام ألا يمـسوا النساء ولا يناموا على الفـرش، حتى يقتلوا قتلة عـثمان ومن عرض دونهم بشىء أو تفنى أرواحهم[4]، وكان ذلك ما يريده معاويـة، فقد كانت الصورة التى نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام بشعة: مقـتل الخليفة، سيوفًا مصلتة من الغوغاء على رقـاب الناس بالمدينة، بيت المال منتـهكًا مسلوبًا، وأصـابع نائلة مقطـوعة، فهـاجت النفوس والعواطف، واهتزت المشاعـر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها العيون. ولذلك كـان إصرار مـعاوية ومن مـعه من أهل الشـام على المطالبـة بدم عثـمان، وتسليم القـتلة للقصاص قبل البيـعة. وهل تتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسـيد المسلمين من حاقدين محتالين متآمرين، ولا يتماوج العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة؟![5]

٢ ـ دوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم البيعة: كان معاوية رضى الله عنه واليًا على الشام فى عهد عـمر وعثمـان رضى الله عنهما، ولما تولى الخلافـة علىّ رضى الله عنه أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر رضى الله عنهمـا، فاعتذر ابن عمر، فأرسل علىّ سهل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مـشارف الشام ـ وادى القرى ـ حتى عـاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهرى، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهًلا، بك وإن كان بعثك غيره فارجع[6]. لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتصّ على رضى الله عنه من قتلة عثمـان رضى الله عنه ثم يدخلون البيعة[7]، وقالوا: لا نبايع من يؤوى القتلة[8]. وتخوّفوا على أنفـسهم من قتلة عثمـان رضى الله عنه الذين كانوا فى جيش على، فرأوا أن البيعة لعلى لا تجب عليهم قبل القصاص، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل صـ ٣٩٨ .
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩)، سنده ضعيف .
(٣) الأنساب (٤/ ٤١٨) ، تاريخ الدعوة الإسلامية صـ ٣٩٨ .
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠٠).
(٥) معاوية بن أبى سفيان ، للغضبان صـ ١٧٨ ، ١٨٣ .
(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٦٦) .
(٧) البداية والنهاية (٧/ ١٢٩) .
(٨) العواصم من القواصم صـ ١٦٢ .

كانوا مظلومين، قالوا: لأن عـثمان قتل مظلومًا باتفاق المسلمـين، وقتلته في عسكر علي، وهـم غالبون لهـم شوكـة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثـمان، وكان معاوية رضي الله عنه يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولي دمه والله يقول: ﴿ومن قُتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا﴾ [الإسراء: ٣٣]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قتل مظلومًا على يد سفهـاء منافقين لم يقدروا الدم الحـرام، ، إذ سفكوه في الشهر الحـرام في البلد الحرام، فثار الناس، واستنكروا، وعلت الأصوات، وكـان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت: . . وذكر الفتن وقربها، فمر رجل متقنع في ثـوب، فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقمت إليه، فإذا هو عـثمان بن عفان، فـأقبلت عليه بوجهـه فقلت: هذا؟ قال: نعم[1]. وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قـتلة عثمان، ومنشط ودافع قوي للتصميم على تحقيق الهدف، وهو : عن النعمان بن بشير عن عائشة رضي الله عنهما قالت: أرسل رسول الله ﷺ . . فكان من آخر كلمة أن ضـرب منكبه، فقال: «يا عثمـان، إن الله عسى أن يلبسك قميـصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلـعه حتى تلقاني - ثلاثًا» فقلت لها: يا أم المؤمنين، فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله مـا ذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيـان لم يرض بالذي أخبرته، حـتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به، فكتـبت إليه كتابًا[2]. لقد كان الحرص الشديد في تنفـيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة مـعاوية بن أبي سفيان بيعـة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مـقدم على البيعة، وليست لأطماع معـاوية في ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة، إذ كان يدرك إدراكًا تامًا أن هـذا الأمر في بقية الستة من أهل الشوري، وأن عليًا أفـضل منه وأولى بالأمر منه[3]، فعن أبي مـسلم الخولاني أنه قـال لمعاوية: أنت تنازع عليًا أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمـون أن عثمان قتل مظلومًـا، وأنا ابن عمه، والطالب بدمه، فـأتُوه، فقولوا له، فليدفع إليّ قتلة عـثمان وأسلم له، فأتوا عليًا فكلموه، فلم يـدفعهم إليه[4]. وأما ما شاع بين الناس قديمًـا وحديثًا أن الخـلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهـما كان سببـه طمع

(١) صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٤٠) . (٢) مسند أحمد رقم ٢٤٠٤٥، حديث صحيح .

(٣) خلافة علي بن أبي طالب ، لعبد الحميد صـ ١١٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠) .رجاله ثقات وإسناده جيد.

معاوية فى الخلافـة، وأن خروج هذا الأخير على علىّ وامتناعه عن بيعتـه كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فهـذه روايات لا تصح ولا ثبتت، فقد جـاء فى كتاب الإمامة والسـياسة المنسوب لابن قتيبة الدينورى، وهو لا يثبت له وإنما صاحبه ذو أنـفاس شيعية رافضية، فقد ذكر أنَّ معاوية ادّعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التى ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه: اعلم أن مـعاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة، فإن صدقك فقد حلّ خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه[1]، وهذا كلام لا يـثبت عن أميـر المؤمنين على وإنما من كـلام الشيعـة الروافض، وسيأتـى الحديث عن كتاب الإمـامة والسياسـة وبيان كذبه وزوره ودوره فى تشويه حـقائق التاريخ فـى موضعـه بإذن الله، وقد امـتلأت كتـب التاريخ والأدب بالروايات الموضـوعة والضعـيفـة التى تزعم أن معـاوية اختلف مع علىّ مـن أجل الملك والزعامـة والإمارة[2].

والصحـيح أن الخلاف بين على ومـعاوية رضى الله عنهـما كان حـول مدى وجوب بيـعة معاوية وأصحـابه لعلى قبل توقيع القصاص على قتلة عثـمان أو بعده، وليس هذا فى أمر الخلافة فى شيء، فقد كان رأى مـعاوية رضى الله عنه ومن حوله من أهل الشام أن يقتص علىّ رضى الله عنه من قتلة عثمان، ثم يدخلون بعد ذلك فى البيعة[3]، يقول القاضى ابن العربى إن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما؛ فهؤلاء - أى أهل العراق - يدعون إلى علىّ بالبيـعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء - أى أهل الشام - يدعون إلى التمكين من قتلة عـثمان ويقولون: لا نبايع من يؤوى القتلة[4]، ويقول إمام الحرمـين فى «لمع الأدلة»: إن معاوية وإن قاتل عليًـا، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدّعـيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظانّاً منه أنه مصيب، وكان مخطئًا[5]. ويقول الهيثمى: ومن اعـتقـاد أهل السنة والجمـاعة أنَّ مـا جرى بين مـعـاوية وعلى رضى الله عنهمـا من الحروب، لم يكن لمنازعة معـاوية لعلى فى الخلافة للإجماع على أحقـيتها لعلىّ، فلم تهج الفتنة بـسببـها، وإنما هاجت بسـبب أن معاوية ابن عـمّه فامـتنع على[6]، لقد تضـافرت الروايات وأشارت إلى أنّ مـعاوية رضى الله عنه اتخـذ موقفـه للمطالبة بدم عثـمان، وأنه صرح بدخوله فى طاعـة على رضى الله عنه إذا أقيم الحد على قتلة عثمـان ولو افترض أنه

(1) الإمامة والسياسة (1/113).
(2) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (2/145).
(3) البداية والنهاية (8/129)، فتح البارى (13/92).
(4) العواصم من القواصم صـ 162.
(5) لمع الأدلة فى عقائد أهل السنة والجماعة صـ 115.
(6) الصواعق المحرقة (2/622). هذا هو اجتهاد معاوية، وإن كان الصواب هو أن يسلم معاوية ويطالب بالدعوة للقصاص.

اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال على وطمعًا فى السلطة، فماذا سيحدث لو تمكن على من إقامة الحد على قتلة عثمان؟ حتمًا ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلى ومبايعته له، لأنه التزم بذلك فى موقفه من تلك الفتنة، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان، على أن معاوية إذا كان يخفى فى نفسه شيئًا آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالى مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع(١).

إن معاوية رضى الله عنه كان من كتّاب الوحى، ومن قادة الصحابة، وأكثرهم حلمًا، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعى ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل: والله لا أخير بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه(٢)، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: «**اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهد به**»(٣)، وقال: «**اللهم علمه الكتاب وقه العذاب**»(٤). وأما وجه الخطأ فى موقفه من مقتل عثمان رضى الله عنه، فيظهر فى رفضه أن يبايع لعلى رضى الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء، وحرصهم على قتله، بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، إن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل فى الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم، ويطلب الحق عنده(٥)، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضى إلى الفتنة وإشاعة الفوضى(٦). ويمكن القول: إن معاوية رضى الله عنه كان مجتهدًا، متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيبًا فى أهل الشام بعد أن جمعهم وذكّرهم أنه ولى عثمان ـ ابن عمه ـ وقد قتل مظلومًا، وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿**ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورًا**﴾ [الإسراء: ٣٣]. ثم قال: أنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفنى الله أرواحهم(٧). وإذا قارنّا بين طلحة والزبير رضى الله عنهما، ومعاوية لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية رضى الله عنه ومن

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥١).
(٣) صحيح سنن الترمذى للألبانى رقم ٣٠١٨ (٣/ ٢٣٦).
(٤) فضائل الصحابة (٢/ ٣١٩)، إسناده حسن.
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥١).
(٦) تفسير القرطبى (٢/ ٢٥٦).
(٧) صفين، لابن مزاحم صـ ٣٢، تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٢).

معــه من أربعة أوجه كــان أولها: مبــايعتهمــا لعليّ رضى الله عنه طائعين مع اعــترافهــما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفًا بفضله[١]. والثانى: منزلتهما فى الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معــاوية، ولاشك أن معاوية دونهما فيها[٢]. الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط ولم يتعمــدا محاربة على ومن معه فى وقعة الجمل[٣]، بينما أصر معاوية على حرب علــيّ ومن معه فى صفين[٤]، والرابع: لم يتهما عليًا بالهوادة فى أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك[٥]. ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعــا بصواب موقف على ودخلا فى الطاعة عندما اتفقــا مع القعقاع بن عمرو، وإنما الحرب سببها إثارة الغوغاء والسبئية لها .

٣ ـ معاوية يرد على أمير المؤمنين على رضى الله عنهما: بعث على رضى الله عنه كتبًا كثيرة إلى معــاوية فلم يرد عليه جوابها، وتــكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثــالث من مقتل عثــمان رضى الله عنه فى صفر، ثم بعث مــعاوية طُوماراً[٦] مع رجل، فدخل به على عليٍّ رضى الله عنه فقال له على: ما وراءك؟ قال: جــئتك من عند قوم لا يريدون إلا القوَدَ[٧]، كلهم موتور[٨]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال على: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خــرج رسول معاوية من بين يدى عليٍّ، فهمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد[٩].

٤ ـ تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام: بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين على رضى الله عنهما عزم الخليفة على قتال أهل الشــام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبى موسى الأشعرى بالكوفــة، وبعث إلى عثمان بن حنيف بالبصرة بذلك، وخطب الناس فحثهــم على ذلك، وعزم على التجَهّز وخرج من المدينة، واســتخلف عليها قثم بن العباس، وهــو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج عن أمــره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحســين رضى الله عنهما فقال: يا أبتِ دع هذا فإن فــيه سفك دماء المسلمــين، ووقع الاختــلاف بينهم، فلم يقــبل منه ذلك، بل صــمم على القتــال، ورتّب

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٢٩)، وفتح البارى (١٣/ ٩٢). (٢) حيث طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١١٣)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤٧٥) .
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٢ ـ ٦١٥) .
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٣٩) ، البداية والنهاية (٧/ ٢٥٩) .
(٦) الطومار : الصحيفة . (٧) القود : القتل بالقتيل .
(٨) الموتور : صاحب الثأر . (٩) البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠).

الجيش، فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية، وجعل ابن عباس على الميمنة، وعمر بن أبى سلمة على الميسرة وقيل: جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخ أبى عبيدة، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، ولم يبق شىء إلا أن يخرج من المدينة قاصدًا الشام، فجاءه ما يشغله عن ذلك[1]، وقد تمَّ تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم إلى البصرة إلى معركة الجمل، فليرجع إليه فى كتاب «سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب»[2].

٥ ـ إرسال أمير المؤمنين على جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل: ذُكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين علىّ إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يسمى البصرة، أو معركة الجمل، خمسة أشهر وواحدو عشرون يومًا، وبين دخوله الكوفة شهر، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر[3]، وروى: شهران أو ثلاثة[4]، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: انزل بالقصر الأبيض، فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكرهه لذلك، فنزل فى الرحبة وصلَّى بالجامع الأعظم ركعتين ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر ومدح أهل الكوفة فى خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همدان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هنالك ثم يُقبلا إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد علىٌّ أن يبعث إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلى: أنا ذاهب إليه يا أمير المؤمنين، فإنَّ بينى وبينه ودًا، فآخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين، فإنى أخشى أن يكون هواه معه. فقال على: دعه، فبعثه وكتب معه كتابًا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان فى وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلمَّا انتهى إليه جرير بن عبد الله، أعطاه الكتاب، وطلب معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص ورءوس أهل الشام، فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم. فرجع جرير إلى على فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: ألم أنْهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريرًا؟ فلو كنت بعثتنى لما فتح معاوية بابًا إلا أغلقته. فقال له جرير: لو

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠ ، ٢٤١) .
(٢) على بن أبى طالب للصلاَّبىِّ (١/ ٤٩٨ - ٦٢٤) .
(٣) مروج الذهب (٢/ ٣٦٠) .
(٤) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ١٠٢).

كنت لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: والله لو بعثتنى لم يعننى جواب معاوية ولأعجلنّه عن الفكرة، ولو أطاعنى فيك أمير المؤمنين لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمّة. فقام جرير مغضبًا فأقام بقرقيسياء وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه[1]. وهكذا كان الأشتر سببًا فى إبعاد الصحابى جرير بن عبد الله، الذى كان واليًا على قرقيسياء وعلى غيرها ورأسًا فى قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين على، وهذا الصحابى جرير بن عبد الله البجلى قال: ما رآنى رسول الله ﷺ إلا تبسم فى وجهى، وقال ﷺ: **«يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذى يمن، على وجهه مسحة ملَك»**[2].

٦ - مسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام: استعد أمير المؤمنين على لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس، وجهز جيشًا ضخمًا اختلفت الروايات فى تقديره، وكلها روايات ضعيفة[3]، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار فى خمسين ألفًا[4]، وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخلة[5]، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك فتوافدت عليه القبائل من شتى أقاليم العراق[6]، واستعمل أمير المؤمنين على رضى الله عنه أبا مسعود الأنصارى، وبعث من النخيلة زياد بن النضر الحارثى طليعة فى ثمانية آلاف مقاتل، وبعث شريح بن هانى فى أربعة آلاف، ثم خرج على رضى الله عنه بجيشه إلى المدائن (بغداد) فانضم إليه من فيها من المقاتلة، وولى عليها سعد بن مسعود الثقفى، ووجه منها طليعة فى ثلاثة آلاف إلى الموصل[7]، وسلك على رضى الله عنه طريق الجزيرة الرئيسى على شط الفرات الشرقى حتى بلغ قرب قرقيسياء[8]، فأتته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم على رضى الله عنه إلى الرقة[9]، وعبر منها الفرات غربًا ونزل على صفين[10].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٥). (٢) مسلم رقم ٢٤٧٥.

(٣) سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/ ٦٣٠).

(٤) تاريخ خليفة صـ ١٩٣ بسند حسن.

(٥) النخلة: موقع قرب الكوفة من جهة الشام، معجم البلدان (٥/ ٢٧٨).

(٦) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد صـ ١٨٨. (٧) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠٣) بسند منقطع.

(٨) قرقيسياء: بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه فى الفرات، معجم البلدان (٤/ ٣٢٨).

(٩) الرقة: مدينة مشهورة - فى سوريا اليوم - على نهر الفرات الشرقى. معجم البلدان (٣/ ١٥٣).

(١٠) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠٤).

٧ ـ خروج معاوية إلى صفين: كان معاوية جادًا فى مطاردة قتلة عثمان رضى الله عنه، فقد استطاع أن يترصد بجماعة ممن غزا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم، ومنهم أبو عمرو بن بديل الخزاعى[١]، ثم كانت له أيد فى مصر، وشيعة فى أهل «خربتا» تطالب بدم عثمان رضى الله عنه، وقد استطاعت هذه الفرقة إيقاع الهزيمة بمحمد بن أبى حذيفة فى عدة مواجهات عام ٣٦هـ، كما استطاع أيضًا أن يوقع برءوس مدبرى ومخططى غزو المدينة من المصريين مثل عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر، ومحمد بن حذيفة، فحبسهم فى فلسطين، وذلك فى الفترة التى سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم فى شهر ذى الحجة عام ٣٦هـ[٢]، وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق نحو صفين جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن عليًا نهد إليكم فى أهل العراق، . . فقال ذو الكلاع الحميرى: عليك أم رأى وعلينا أم فعال[٣]. وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان رضى الله عنه والقتال[٤]، وقد قام عمرو بن العاص رضى الله عنه بتجهيز الجيش وقاد الألوية، وقام فى الجيش خطيبًا يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصرة المخالفين لعلى قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار فى شرذمة قليلة ومنهم من قد قتل خليفتكم، فالله الله فى حقكم أن تضيعوه، وفى دمكم أن تبطلوه[٥]. وسار معاوية فى جيش ضخم، اختلفت الروايات فى تقديره، وكلها روايات منقطعة أسانيدها، وهى عين الروايات التى قدرت جيش على رضى الله عنه، فقدر بمائة وعشرين ألفًا[٦]، وقدر بسبعين ألف مقاتل، وقدر بأكثر من ذلك بكثير، إلا أن الأقرب للصواب أنهم ستون ألف مقاتل، فهى وإن كانت منقطعة الإسناد إلا أن راويها صفوان بن عمرو السكسكى، حمصى من أهل الشام ولد عام «٧٢هـ» وهو ثبت ثقة، وقد أدرك خلقًا ممن شهد صفين، كما تبين من دراسة ترجمته[٧]، والإسناد إليه صحيح[٨]، وكان قادة جيش معاوية على النحو التالى: عمرو بن العاص على خيول أهل

(١) المحن لأبى العرب التميمى صـ ١٢٤ ، خلافة على، لعبد الحميد صـ ١٩١ .
(٢) خلافة على ، لعبد الحميد صـ ١٩١ .
(٣) الإصابة (١/ ٤٨٠)، خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد صـ ١٩٢ .
(٤) أنساب الأشراف (٢/ ٥٢) بسند منقطع ، وخلافة على صـ ١٩٢..
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠١) بسند منقطع .
(٦) خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد صـ ١٩٤ ، المعرفة والتاريخ (٣/ ٣١٣) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٨٠) .
(٨) خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد ص١٩٤.

الشام كلها، والضحاك بن قيس على رجـالة الناس كلهم، وذو الكلاع الحميرى على ميمنة الجيش، وحبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش، وأبو الأعور السلمى على المقدمة، هؤلاء هم القـادة الكبار وتحت كل قـائد من هؤلاء قادة وزعـوا على حسب القـبائل، وكـان هذا الترتيب عند مسيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغير بعض القادة وظهر قادة آخرون مما اقتضتـه الظروف، ولعل هذا يكون السبب فى اختلاف أسمـاء القادة فى بعض المصادر(١).

ويعث معاوية أبا الأعور السلمى مقدمة للجيش، وكان خط سيرهم إلى الشمال الشرقى من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عسكر فى مكان سهل فسيح، إلى جانب شريعة ماء فى الفرات، ليس فى ذلك المكان شريعة غيرها، وجعلها فى حيزه(٢).

٨ ـ **القتال على الماء:** وصل جيش على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى صـفين، حيث عسكر معاوية، ولم يجد موضعًا فسيـحًا سهلاً يكفى الجيش، فعسكر فى موضع وعر نوعًا ما إذ أغلب الأرض صخور ذات كدى وأكمات(٣)، ففوجئ جيش العراق بمنع معاوية عنهم الماء، فـهـرع البعض إلـى على رضى الله عنه يشكون إليـه هذا الأمـر، فـأرسل على إلى الأشعث بن قيس فخرج فـى ألفين ودارت أول معركة بين الفريقين، انتصـر فيها الأشعث واستولى على الماء(٤)، إلا أنه قد وردت رواية تنفى وقـوع القتال من أصله، مـفادها: أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقـال: الله الله يا معاوية فى أمة محمد ﷺ! هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذرارى؟ إن الله يقول: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [الحجرات:٩] قـال معاوية: فمـا تريد؟ قالوا: خلوا بيننا وبين الماء(٥)، فـقال لأبى الأعـور: خل بين إخواننا وبيـن الماء، وقد كـان القتـال على الماء فى أول يوم تواجها فيه فى بداية شهر ذى الحجة فاتحـة شر على الطرفين من المسلمين، إذا استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة، فكان على رضى الله عنه يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمـر عليها أميرًا، فيقتتلان مرة واحدة فى اليوم فى الغداة أو العشى، وفى بعض الأحيان يقتـتلان مرتين فى اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتـائب فى جيش على، الأشتر، وحـجر بن عدى، وشـبث بن ربعى، وخالد بن المعتـمر، ومـعقل بن يسـار الرياحى، ومن جيش مـعاوية أغلب مـن يخرج، حبـيب بن

(١) امتداد العرب فى صدر الإسلام ، صالح العلى ، خلافة على صـ ١٩٤ .

(٢) صفين، لنصر بن مزاحم صـ ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) خلافة على بن أبى طالب ، لعبد الحميد صـ ١٩٦ .

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٤) بسند حسن .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١)، مرويات أبى مخنف صـ٢٩٦ .

مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو الأعور السلمى، وشرحبيل بن السمط، وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً فى وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء[1].

٩ ـ الموادعة بينهما ومحاولات الصلح: ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة، طمعًا فى صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر فى المراسلات بينهم، ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة ـ شهر المحرم ـ وردت من طرق ضعيفة[2] مشهورة، إلا أن ضعفها لا ينفى وجودها. كان البادئ بالمراسلة، أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فأرسل بشير بن عمرو الأنصارى، وسعيد بن قيس الهمدانى، وشبث بن ربعى التميمى إلى معاوية رضى الله عنه يدعوه -كما دعاه من قبل- إلى الدخول فى الجماعة والمبايعة، فرد معاوية عليه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل فى البيعة، وقد تبين لنا موقف على من هذه القضية[3]، كما أن قُرَّاء الفريقين قد عسكروا فى ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنجح تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه[4]، وقد حاول اثنان من الصحابة وهما أبو الدرداء، وأبو أمامة رضى الله عنهما الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مهمتهما، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما[5]، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين، وخطب الناس فى محاولة منه لرأب الصدع بينهم فقال: أيها الناس، أنصتوا. ثم قال: أرأيتم لو أن مناديًا ناداكم من السماء فسمعتم كلامه ورأيتموه فقال: إن الله ينهاكم عما أنتم فيه، أكنتم مطيعيه؟ قالوا: نعم، قال: فوالله لقد نزل بذلك جبرائيل على محمد. . فما زال يأتى من هذا. ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ثم انساب فى الناس فذهب[6]. وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التى جاءت فى روايات أبى مخنف ونصر بن مزاحم، بخصوص

(١) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد صـ١٩٧، ١٩٨، تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٤)، البداية والنهاية (٧/ ٢٦٦).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٢، ٦١٣)، خلافة على بن أبى طالب صـ١١٩.

(٣) المصدران السابقان (٥/ ٦١٣)، صـ ١٩٩ على الترتيب.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٤).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٠).

(٦) الطبقات (٦/ ٧٨)، القرّاء - دورهم فى الحياة العامة فى صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادى حسين حمود.

المراسلات بين الطرفين فقال: . . . ثم ذكر أهل السير كلامًا طويلاً جرى بينهم وبين على، وفى صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن فى مطاوى ذلك الكلام من على ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وأنهما إنما دخلا فى الإسلام ولم يزالا فى تردد فيه، وغير ذلك، وأنه قال فى غضون ذلك؟ لا أقول إن عثمان قُتل مظلومًا ولا ظالمًا. وهذا عندى لا يصح من على رضى الله عنه[(١)]. وموقف على رضى الله عنه من قتل عثمان رضى الله عنه واضح، وقد بينته فى كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه وفى هذا الكتاب.

ثالثًا : نشوب القتال:

عادت الحرب على ما كانت عليه فى شهر ذى الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية، خشية الالتحام الكلى، إلى أن مضى الأسبوع الأول منه، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة، وذكر أنها تسعون[(٢)]، إلا أن عليًا أعلن فى جيشه أن غدًا الأربعاء سيكون الالتحام الكلى لجميع الجيش، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك[(٣)]، فثار الناس فى تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه، وهو يحرض الناس على الاستبسال فى القتال[(٤)]، وبات جميع الجيش فى مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية[(٥)].

١ ـ اليوم الأول :

أصبح الجيشان فى يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم ووزعوا حسب التوزيع المتبع فى المعارك الكبرى، قلب، وميمنة، وميسرة، فكان جيش على رضى الله عنه على النحو التالى[(٦)]: على بن أبى طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمّار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية حامل الراية، وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة. وأما جيش الشام، فمعاوية فى كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع وهو أمير الجيش، وعمرو بن العاص قائد خيل

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٩) .
(٢) الأنباء بتواريخ الخلفاء صـ٥٩ ، شذرات الذهب (١/ ٤٥) .
(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣) .
(٤) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٤٠)، ضعيف .
(٥) على بن أبى طالب للصلاّبى (٢/ ٦٣٥) .
(٦) تاريخ خليفة بن خياط صـ١٩٣، بسند حسن إلى شاهد عيان .

الشام كلها، وذو الكلاع الحميرى على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهرى على الميسرة على مضر، والمخارق بن الصباح الكلاعي حامل اللواء(١)، وتقابلت الجيوش الإسلامية، ومن كثرتها قد سدت الأفق، ويقول كعب بن جعيل التغلبى أحد شعراء العرب(٢)، وذلك عندما رأى الناس فى ليلة الأربعاء وقد ثبتوا إلى نبالهم وسيوفهم يصلحونها استعداداً لهذا اليوم:

أصبحت الأمة فى أمر عجب ... والملك مجموع غداً لمن غلب

فقلت قولاً صادقاً غير كذب: ... إن غداً تهلك أعلام العرب(٣)

وتذكر بعض الروايات الضعيفة أن عليًا خطب فى جيشه، وحرضهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله(٤)، وتذكر أيضًا أن عمرو بن العاص، قد استعرض جيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها(٥)، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يحرض جيشه ويحمسه، ويهتم بكل ما يؤدى به إلى النصر. والتحم الجيشان فى قتال عنيف، استمر محتدمًا إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصلاة، يصل كل فريق فى معسكره وجثث القتلى فى الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش على رضى الله عنه حين انصرافه من الصلاة، فقال: ما تقول فى قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة(٦). وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحدًا، ولم ير موليًا حتى انتهى ذلك اليوم. وفى المساء خرج على رضى الله عنه إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام، فدعا ربه قائلاً: اللهم اغفر لى ولهم(٧).

٢ ـ اليوم الثانى:

فى يوم الخميس تذكر الروايات أن عليًا رضى الله عنه قد غلس بصلاة الفجر واستعد للهجوم، وغيَّر بعض القيادات، فوضع عبد الله بن بديل الخزاعى على الميمنة بدلاً من الأشعث بن قيس الكندى الذى تحول إلى الميسرة(٨)، وزحف الفريقان نحو بعضهما، واشتبكوا فى قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق فى التقدم وأظهروا تفوقًا على

(١) تاريخ خليفة بن خياط صـ١٩٣ .
(٢) الأعلام للزركلى (٦/ ١٨٠) .
(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣) ، تاريخ الطبرى (٥/ ٦٢٦) .
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٢٢)، من طريق أبى مخنف .
(٥) الطبقات (٤/ ٢٥٥)، من طريق الواقدى .
(٦) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤٤، ٣٤٥). بسند ضعيف .
(٧) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٧)، بسند صحيح .
(٨) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٣٠) .

أهل الشام، واستطاع عبد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) وأظهر شجاعة وحماسًا منقطع النظير، وصاحب هذا التقدم الجزئي، تقدم عام لجيش العراق، حتى إن معاوية، قد حدثته نفسه بترك ميدان القتال، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإكراهي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت: مكانك تحمدي أو تستريحي[1]

واستحث كتيبته الشهباء واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل، فأخذ مكانه في قيادة الميمنة الأشتر، وتماسك أهل الشام وبايع بعضهم على الموت، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة، وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع، وحوشب وعبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وانقلب الأمر لجيش الشام، وأظهر تقدمًا، وبدأ جيش العراق في التراجع، واستحر القتل في أهل العراق، وكثرت الجراحات، ولما رأى علي جيشه في تراجع، أخذ يناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالاً شديدًا واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فيهم الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال[2].

وكان عمّار بن ياسر رضي الله عنه قد جاوز الرابعة والتسعين عامًا، وكان يحارب بحماس، يحرض الناس، ويستنهض الهمم، ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام، فنهاه عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة[3].

ولما رأى عمار رضي الله عنه تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم ويبين لهم أنهم على الحق، ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول رضي الله عنه: من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفين محتسبًا، فإني لأرى صفًا يضربكم ضربًا يرتاب منه المبطلون، والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل، ولعلمنا أن مصلحينا على الحق وأنهم على الباطل[4]، ثم أخذ

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٦٣٦).
(٢) الإصابة (١/ ٤٥٤)، أنساب الأشراف (٢/ ٥٦)، بسند حسن إلى قتادة .
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٩٠)، الإسناد حسن لغيره .
(٤) مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٣)، خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد صـ ٢١٩، إسناده حسن.

فى التقدم، وفى يده الحربة ترعد ـ لكبر سنه ـ ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ويستحثه فى التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم، ويطمع أصحابه أيضًا فيقول: أزفت الجنة وازينت الحور العين، من سره أن تكتنفه الحور العين، فليتقدم بين الصفين محتسبًا. وكان منظرًا مؤثرًا؛ فهو صحابى جليل مهاجرى بدرى جاوز الرابعة والتسعين، يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً مهمًا من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية، مما زادهم عنفًا وضراوة وتضحية فى القتال حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم، وتقدم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وهو يرتجز بقوله:

أعور يبغى أهله مَحَلاَّ ... قد عالج الحياة حتى ملاَّ

لا بد أن يَفُلَّ أو يُفَلاَّ[1]

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت فى أطراف الأسل[2]، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين:

اليوم ألقى الأحبة ... محمّدًا وحزبه[3]

وعند غروب الشمس ذلك اليوم الخميس، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لى: إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن[4]. ثمّ تقدم واستحث معه حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الزهرى، فلم يرجعا وقتلا[5] رحمهما الله ورضى عنهما.

٣ ـ ليلة الهرير ويوم الجمعة:

عادت الحرب فى الليلة نفسها بشدة واندفاع لم تشهدهما الأيام السابقة، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل أمير المؤمنين على قتالاً شديدًا وبايع على الموت[6]، وذكر أن عليًا رضى الله عنه صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف[7]، وقال الشافعى: وحفظ عن على أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير[8]، يقول

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢) .

(٢) الأسل : الرماح .

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢) .

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٣٠٢ ، ٣٠٣). بسند منقطع .

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢) .

(٦) المستدرك (٣/ ٤٠٢)، قال الذهبى: ضعيف ، خلافة على صـ ٢٢٦ .

(٧) السنن الكبرى للبيهقى (٣/ ٢٥٢). قال الألبانى: رواه البيهقى بصيغة التمريض، إرواء الغليل (٣/ ٤٢).

(٨) تلخيص الحبير (٢/ ٧٨) ، خلافة على بن أبى طالب صـ ٢٢٧ .

شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نعانق بعضنا بعضًا ولما صارت السيوف كالمناجل تضاربنا بعمد الحديد فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم، ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب وتعاضضنا بالأسنان وتكادمنا بالأفواه إلى أن أصبحوا في يوم الجمعة وارتفعت الشمس، وإن كانت لا ترى من غبار المعركة، وسقطت الألوية والرايات، وأنهك الجيش التعب، وكلت الأيدى، وجفت الحلوق[1].

ويقول ابن كثير فى وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة: وتعاضوا بالأسنان يقتتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر، ويهمر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا، فإنا لله وإنا إليه لراجعون، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك، وصلى الناس الصبح إيماءً وهم فى القتال حتى تضاحى النهار وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام[2].

٤ ـ الدعوة إلى التحكيم:

إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة فى أصحابه ليلة الهرير فقال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى، وما قد فنى فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غدًا إنه لفناء العرب، وضيعة الحرمان، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعًا من الحرب، ولكنى رجل مسن، وأخاف على النساء والذرارى غدًا إذا نحن فنينا، اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم آلُ[3].

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غدًا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا[4]، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال، وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرًا بشيء أن تأتى أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك وينقذ ما تبقى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزعج ذلك أعداء الأمة الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة،

(١) شذرات الذهب (١/ ٤٥)، وقعة صفين صـ ٣٦٩ . (٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٨٣) .
(٣) وقعة صفين للمنقرى صـ ٤٧٩ . (٤) المصدر نفسه صـ (٤٨١ ـ ٨٨٤) .

وتركوا لنا ركامًا من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل -كالمناداة بتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة- جريمة ومؤامرة(١) وحيلة، ونسبوا لأمير المؤمنين على أقوالاً مكذوبة تعارض ما فى الصحيح على أنه قال: (إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهنًا ومكيدة)(٢)، ومن الشتائم قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة(٣)، ووسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو ابن العاص رضى الله عنه حتى لم تعد تجد كتابًا من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمرو بن العاص وأنه مخادع وماكر، بسبب الروايات الموضوعة التى لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبرى، وابن الأثير وغيرهما، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن فى: تاريخ الإسلام، ومحمد الخضرى بك فى: تاريخ الدولة الأموية، وعبد الوهاب النجار فى: تاريخ الخلفاء الراشدون، وغيرهم كثير، مما أسهم فى تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

إن رواية أبى مخنف تفترض أن عليًا رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء، الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد(٤)، وهذه الرواية تحمل سبًا من على لمعاوية وصحبه يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك، فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين على؟! ويكفى للرواية سقوطًا أن فيها أبا مخنف الرافضى المحترق، فهى رواية لا تصمد للبحث النزيه ولا ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبى ثابت قال: أتيت أبا وائل ـ أحد رجال على بن أبى طالب ـ فقال: كنا بصفين، فلما استحرّ القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى على المصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٣]. فقال على: نعم، أنا أولى بذلك، فقام القُراء -الذين صاروا بعد ذلك خوارج- بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين، ألا نمشى إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصارى رضى الله عنه فقال: أيها الناس، اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ فى الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، ثم حدثهم عن معارضة عمر رضى الله عنه

(١) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين صـ ٣١٦ .

(٢) الكامل (٢/ ٣٨٦) . (٣)، (٤) المصدر نفسه (٥/ ٦٦٢ ، ٦٦٣) .

للصلح يوم الحديبية ونـزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ، فقال على: أيها الناس، إن هذا فتح، فقبل القـضية ورجع، ورجع الناس[١]. وأظهر سهل بن حنيف رضى الله عنه اشمئـزازًا ممن يدعون إلى استمـرار الحرب بين الإخوة، وقال: أيها النـاس، اتهموا رأيكم على دينكم[٢]، وبين لهم أنه لا خـيـار عن الحـوار والصلح لأن مـا سواه فـتنة لا تعـرف عواقبها، فقد قال: ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهل بنا إلى ما نعرفه قبل هذا الأمر ما سد منها خُصمًا إلا تفجر علينا خُصم ما ندرى كيف نأتى له[٣]، وفى هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة، ومبغضى الصحابة، الذين يضعون الأخبار المكذوبة، ويضعون الأشعار وينسبونهـا إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا فى صـفين، ليظهروهم بمظهر المتحمس لـتلك الحرب ليزرعوا البـغضاء فى النفوس ويعـملوا ما فى وسعهم على اسـتمرار الفتنة[٤]، إن الدعوة إلى تحكيم كـتاب الله دون التأكيد علـى تسليم قتلة عثمـان إلى معاوية وقبـول التحكيم دون التأكـيد على دخول معـاوية فى طاعة على والبيـعة له، تطور فرضـته أحداث حـرب صفين، إذ إن الحـرب التى أودت بحياة الكثـير من المسلمـين، أبرزت اتجاهًا جماعيًا رأى أن وقف القتـال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكـة الأمة وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها فى اتخاذ القرارات[٥].

إن أمير المؤمنين عليّـاً رضى الله عنه قبل وقف القتال فى صفـين ورضى التحكيم وعدَّ ذلك فـتحًـا ورجع[٦] إلى الكوفـة، وعلق على التـحكيم آمـالاً فى إزالة الخلاف وجـمع الكلمـة، ووحدة الصف، وتقـوية الدولة، وإعادة حـركة الفـتوح من جـديد. إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم أسهمت فيه عدة عوامل، منها:

أ ـ أنه كان آخـر محاولة من المحاولات التى بـذلت لإيقاف الصدام وحقن الدمـاء سواء تلك المحاولات الجماعية، أم المحاولات الفردية التى بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح، أما الرسائل التى تبودلت بين الطرفين لتنفيذ وجهات نظر كل منهما، ولم تُجْد -هى الأخرى- شيئًا فكان آخر تلك المحاولات ما قام به مـعاوية فى أيام اشتداد القتال حيث كتب إلى على رضى الله عنه يطالبه بتوقف الـقتال، فقال: فإنى أحـسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٨/ ٣٣٦)، مسند أحمد مع الفتح الربانى (٨/ ٤٨٣).

(٢)، (٣) البخارى رقم ٤١٨٩.

(٤) الإنصاف فيما وقع فى تاريخ العصر الراشدى من الخلاف صـ٥٣٠.

(٥)، (٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٨.

تبلغ بك ما بلغت لم نجنها على أنفسنا، فإنا إن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منا ما ينبغى أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقى(١).

ب ـ تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلبًا يرنو إليه الجميع.

جـ ـ الملل الذى أصاب الناس من طول القتال، حتى وكأنهم على موعد لهذا الصوت الذى نادى بالهدنة والصلح، وكانت أغلبية جيش على فى اتجاه الموادعة، وكانوا يرددون: قد أكلتنا الحرب، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة(٢)، وهذا ينقض ذلك الرأى المتهافت الذى رُوِّج بأن رفع المصاحف كان خدعة من عمرو بن العاص. والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جديدة وليست من ابتكار عمرو بن العاص، بل رفع المصحف فى الجمل ورشق حامله كعب بن سور قاضى البصرة بسهم وقتل.

د ـ الاستجابة لصوت الوحى الداعى للإصلاح قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ويؤيد هذا ما قاله على بن أبى طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله، قال: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله(٣).

٥ ـ مقتل عمّار بن ياسر رضى الله عنه وأثره على المسلمين:

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمّار رضى الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»(٤) من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن النبى ﷺ. وقد كان لمقتل عمّار رضى الله عنه أثر فى معركة صفين، فقد كان علمًا لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار، وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافًا سلاحه، فلما رأى مقتل عمّار سل سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله ﷺ فى عمّار: «تقتله الفئة الباغية»(٥)، واستمر فى القتال حتى قتل(٦)، وكان لمقتل عمّار أثر فى معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحمن السلمى دخل فى معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وأبا الأعور السلمى، عند شرعة الماء يسقون، وكانت هى شربة الماء الوحيدة التى يستقى منها الفريقان، وكان حديثهم عن مقتل عمّار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده: لقد قتلنا هذا الرجل

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى صـ١٨٧ ، دراسات فى عهد النبوة صـ٤٣٢.

(٢) صفين صـ٤٨٢ ـ ٤٨٥ ، دراسات فى عهد النبوة صـ٤٣٣ .

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٨/ ٣٣٦). (٤)، (٥) مسلم رقم ٢٩١٦ .

(٦) خلافة على صـ٢١١ .

وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وأى رجل؟ قال: عمّار بن ياسر. قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقال عمرو لمعاوية: لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال! فقال معاوية: اسكت! فوالله ما تزال تدحض[1] فى بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به[2]، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار فى الهشيم، وجاء فى رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «**تقتله الفئة الباغية**». فقام عمرو بن العاص فزعًا يرجع حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قتل عمار، فقال معاوية: قتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «**تقتلك الفئة الباغية**»، فقال له معاوية: دحضت فى بولك، أو نحن قتلناه؟ إنما قتله على وأصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال بين سيوفنا[3]. وفى رواية صحيحة أيضًا: جاء رجلان عند معاوية يختصمان فى رأس عمار يقول كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطب به أحدكما نفسًا لصاحبه، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « **تقتله الفئة الباغية**. قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبى شكانى إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أطع أباك ما دام حيًا ولا تعصه**». «فأنا معكم ولست أقاتل»[4]. من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابى الفقيه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما حريص على قول الحق، والنصح، فقد رأى أن معاوية وجنده، هم الفرقة الباغية لقتلهم عمارًا، فقد تكرر منه هذا الاستنكار فى مناسبات مختلفة، ولا شك أن مقتل عمار رضى الله عنه قد أثر فى أهل الشام بسبب هذا الحديث، إلا أن معاوية رضى الله عنه أول الحديث تأويلاً غير مستساغ ولا يصح، فى أن الذين قتلوا عمارًا، هم الذين جاءوا به إلى القتال[5]، وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص، بل كان استشهاد عمار دافعًا لعمرو بن العاص للسعى لإنهاء الحرب[6]، وقد قال رضى الله عنه: وددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[7]، وقد جاء فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبى ﷺ، فراح ينفض التراب عنه ويقول: «**ويح عمّار! تقتله الفئة الباغية**،

(١) الدحض: الزلق ، والداحض من لا ثبات له ولا عزيمة فى الأمور .

(٢) مسند أحمد (٢/٢٠٦)، إسناده حسن . (٣) مصنف عبد الرزاق (١١/ ٢٤٠) بسند صحيح .

(٤) مسند أحمد (١١/١٣٨ ، ١٣٩). قال أحمد شاكر : سنده صحيح .

(٥) خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد صـ٣٢٥ . (٦) معاوية بن أبى سفيان ، الغضبان صـ٢١٥ .

(٧) أنساب الأشراف (١/ ١٧٠) ، عمرو بن العاص للغضبان صـ٦٠٣ .

يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». قال عمّار: أعوذ بالله من الفتن[(١)]، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبى ﷺ أنه قال: **«تقتل عماراً الفئة الباغية»**، وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ، وهو من أصح الأحاديث[(٢)]، وقال الذهبى بعد ما ذكر الحديث: وفى الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر[(٣)].

- فهم العلماء للحديث:

أ- قال ابن حجر: وفى هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لعلى وعمار، وردٌّ على النواصب الزاعمين أن عليًا لم يكن مصيبًا فى حروبه[(٤)]، وقال أيضًا: دل الحديث: **«تقتل عماراً الفئة الباغية»**، على أن عليًا كان المصيب فى تلك الحروب، لأن أصحاب معاوية قتلوه[(٥)].

ب - يقول النووى: وكان الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة؛ لهذا الحديث[(٦)].

ج- قال ابن كثير: كان علىّ وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى، قال: حدثنى من هو خير منى ـ يعنى أبا قتادة- أن رسول الله ﷺ قال لعمار: **«تقتلك الفئة الباغية»**[(٧)]. وقال أيضًا: وهذا مقتل عمار بن ياسر رضى الله عنهما مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن عليًا محق، وأن معاوية باغ، وما فى ذلك من دلائل النبوة[(٨)].

د- وقال الذهبى: هم طائفة من المؤمنين، بغت على الإمام على، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار: **«تقتلك الفئة الباغية»**[(٩)].

هـ- قال القاضى أبو بكر بن العربى فى قوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ...**﴾ [الحجرات: ٩]، هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، والعمدة فى حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من هذه الملة، وإياها عنى النبى ﷺ بقوله: تقل **«عماراً الفئة الباغية»**[(١٠)].

(١) البخارى رقم ٤٤٧.
(٢) الاستيعاب (٣/ ١١٤٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢١).
(٤) فتح البارى (١/ ٦٤٦).
(٥) فتح البارى (١٣/ ٩٢).
(٦) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٨).
(٧) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠).
(٨) المصدر نفسه (٧/ ٢٧٧).
(٩) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٠٩).
(١٠) أحكام القرآن (٤/ ١٧١٧).

و- وقال ابن تيمية: وهذا يدل على صحة إمامة عليّ ووجوب طاعته، وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة، والداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار ـ وإن كان متأولاً ـ وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال علي، وعلى هذا فمقاتله مخطئ ـ وإن كان متأولاً ـ أو باغ ـ بلا تأويل ـ وهو أصح القولين لأصحابنا، وهو الحكم بتخطئة من قاتل عليًا، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين[1]. وقال أيضًا: مع أن عليًا أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمارًا قتلته الفئة الباغية ـ كما جاءت به النصوص ـ فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف[2].

ز- وقال عبد العزيز بن باز: وقال ﷺ في حديث عمار: «تقتل عمارًا الفئة الباغية»، فقتله معاوية وأصحابه في وقعة صفين، فمعاوية وأصحابه بغاة، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون في المطالبة بدم عثمان[3].

ح- وقال سعيد حوى: بعد أن قتل عمار الذي وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية، تبين للمترددين أن عليًا كان على حق، وأن القتال معه كان واجبًا، ولذا عبّر ابن عمر عن تخلُّفه بأنه يئس بسبب هذا التخلف، وما ذلك إلا أنه ترك واجبًا وهو نصرة الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق، كما أفتى بذلك الفقهاء[4].

- الرد على قول معاوية رضي الله عنه: إنما قتله من جاء به[5]:

إن جلّ الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[6]، أن المقصود جيش معاوية رضي الله عنه، مع أنهم معذورون في اجتهادهم، فهم يقصدون الحق ويريدونه، ولكنهم لم يصيبوه، وفئة علي أولى بالحق منهم كما قال ﷺ[7]، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية ـ كما سأنقل ـ إلا أنهم عذروه في اجتهاده، فها هو ابن حجر يقول في قوله ﷺ: «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[8]: فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي، والذين قتلوه مع معاوية، وكان معه جماعة من

(1) مجموع الفتاوى (٤/٤٣٧).
(2) المصدر نفسه (٤/٤٤٩، ٤٥٠).
(3) فتاوى ومقالات متنوعة (٦/٨٧).
(4) الأساس في السنة (٤/١٧١٠).
(5) مسند أحمد (٢/٢٠٦)، إسناده حسن.
(6) مسلم رقم ٢٩١٦.
(7) معاوية بن أبي سفيان صـ٢١٠ ـ ٢١٤.
(8) البخاري رقم ٤٤٧.

الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم فى اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها، وهو طاعة الإمام، وكذلك معذورون للتأويل الذى ظهر لهم(١).

وقال القرطبى: وقال الإمام أبو المعالى فى كتاب الإرشاد، فصل: على رضى الله عنه، كان إمامًا حقًا فى توليته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضى أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه(٢)، وقال أيضًا: وقد أجاب على رضى الله عنه عن قول معاوية بأن قال: فرسول الله ﷺ إذن قتل حمزة حين أخرجه، وهذا من على رضى الله عنه إلزام، لا جواب عنه، وحجة لا اعتراض عليها، قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب بن دحية(٣)، وقال ابن كثير: فقول معاوية: إنما قتله من قدمه إلى سيوفنا، تأويل بعيد جدًا، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون فى سبيل الله، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء(٤)، وقال ابن تيمية: وهذا القول لا أعلم له قائلاً من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة، ولكن هو قول كثير من المروانية ومن وافقهم(٥)، وقال ابن القيم معلقًا على هذا التأويل: نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»(٦)، فقالوا: نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذى قتله هو الذى قتله، لا من استنصر به(٧).

٦- من هو قاتل عمّار بن ياسر؟

قال أبو الغادية الجهنى وهو يحدث عن قتله لعمار: فلما كان يوم صفين، أقبل يستن أول الكتيبة رَجِلاً، حتى إذا كان بين الصفين فأبصر رجلٌ عورة، فطعنه فى ركبته بالرمح فعثر، فانكشف المغفر عنه، فضربته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عمارًا، واستسقى أبو غادية، فأتى بماء فى زجاج، فأبى أن يشرب فيها، فأتى بماء فى قدح فشرب، فقال رجل: . . . يتورع عن الشرب فى الزجاج ولم يتورع عن قتل عمار(٨)، ويخبر عمرو بن العاص رضى الله عنه الخبر فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قاتل عمار وسالبه فى النار**»(٩). قال ابن كثير: ومعلوم أن عمارًا كان فى جيش على يوم صفين، وقتله أصحاب

(١) فتح البارى (١/ ٦٤٥).
(٢) التذكرة (٢/ ٢٢٢).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٣).
(٤) البداية والنهاية (٦/ ٢٢١).
(٥) منهاج السنة (٤/ ٤٠٦).
(٦) مسلم رقم ٢٩١٦.
(٧) الصواعق المرسلة (١/ ١٨٤، ١٨٥).
(٨) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٦٠، ٢٦١).
(٩) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٨، ١٩).

معاوية من أهـل الشام، وكان الذى تولى قتله يقـال له أبو الغادية، رجل من أفناد الناس، وقيل إنه صـحابى[1]، وقال ابـن حجـر: والظن بالصحـابة فى تلك الحروب أنهم كـانوا متأولين للمجتهد المخطئ أجرًا، وإذا ثبت هذا فى حق آحاد الناس فثبوته للصحابة بالطريق الأولى[2]، وقال الذهبـى: وابن ملجم عند الروافض أشقى الخلق فى الآخـرة، وهو عندنا أهل السنة ممن نرجو له النار، ونجوّز أن الله يتجاوز عنه، لا كما يقول الخوارج والروافض، وحكمه حكم قـاتل عثمان، وقاتل الزبيـر، وقاتل طلحة، وقاتل سـعيد بن جبـير، وقاتل عمار، وقـاتل خارجة، وقاتل الحـسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغـضهم فى الله، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل[3]، وقد وفق الألبانى فى تعليقه على قول ابن حجر: هذا حق، لكن تطبـيقـه على كل فرد من أفـرادهم مشكل، لأنه يلزم تناقض الـقاعدة المذكـورة بمثل حديث التـرجمة، أى (قـاتل عمار وسـالبه فى النار)[4]، إذ لا يمكن القول بأن أبا غادية القاتل لعمار مأجور، لأنه قـتله مجتهدًا، ورسول الله ﷺ يقول: **«قاتل عمار فى النار»**[5]، فالصواب أن يقال: إن القاعـدة صحيحة، إلا ما دل الدليل القاطع على خلافهـا، فيستثنى ذلك منها كمـا هو الشأن هنا، وهذا خير من ضرب الحديث الصـحيح بها[6]. وقد ترجم لأبى الغادية الجهنى ابن عبـد البر فقال: اختلف فى اسمه، فقـيل: يسار بن سبُع، وقيل: يسار بن أزهر، وقـيل: إن اسمه مسلم. سكن الـشام ونزل فى واسط، يعدُّ فى الشامـيين أدرك النبى ﷺ وهو غلام، رُوى عنه أنّه قـال: أدركت النبى ﷺ وأنا أيفع، أرد على أهلى الغنم، وله سماع من النبى ﷺ قوله ﷺ: **«لا ترجـعوا بعدى كـفارًا يضـرب بعضكـم رقاب بعض»**[7]، وكان محبًا لعثمان، وهو قاتل عمار بن ياسر، وكان يصف قتله إذا سئل عنه لا يباليه، وفى قصته عجبٌ عند أهل العلم[8].

٧ ـ المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة:

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين.. كانت هذه الوقعات من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصـدق ما يقرأ، ويقف مشـدوهًا أمام طبيعة النفـوس عند الطرفين، فكل منهما كـان يقف وسط المعركة شاهرًا سيفـه وهو يؤمن بقضيته إيمانًا كـاملاً، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها، بل كانت معركة

(١) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠).
(٢) الإصابة (٧/ ٢٦٠).
(٣) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين صـ٦٥٤.
(٤) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٨، ١٩).
(٥) المصدر نفسه (٥/ ١٨، ١٩).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ١٩).
(٧) مسند أحمد (٤/ ٧٦)، وسنده حسن.
(٨) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب رقم٣٠٨٩.

فريدة في بواعثها وفي طريقة أدائها وفيما خلفته من آثار، فبواعثها في نفوس المشاركين تعبر عنها بعض المواقف التي وصلت إلينا في المصادر التاريخية، فهم إخوة يذهبون معًا إلى مكان الماء فيستقون جميعًا ويزدحمون وهم يغرفون الماء، وما يؤذي إنسان إنسانًا[1]، وهم إخوة يعيشون معًا عندما يتوقف القتال، فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء في معسكر هؤلاء وهؤلاء في معسكر هؤلاء.. وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم[2]، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده، فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل في طرف[3] قتالاً مريرًا، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يُقتَل من أجله، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثْخنا (وهنًا وضعفًا) ثم يجلسان يستريحان، ويدور بينهما الكلام الكثير، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا[4]، وهما أبناء دين واحد يجمعهما، وهو أحب إليهما من أنفسهما، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها[5]، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان[6]، ويذكر شاهد عيان اشترك في صفين: تنازلنا بصفين، فاقتتلنا أيامًا فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل، فبعث علي إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم فأجابهم، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا -وشبك بين أصابعه- وكان الرجل من أصحاب علي يشد فيقتل في عسكر معاوية، فيستخرج منه، وقد مر أصحاب علي بقتيل لهم أمام عمرو، فلما رآه بكى وقال: لقد كان مجتهدًا أخشن في أمر الله[7]. وكانوا يسارعون إلى التناهي عن المنكر حتى في مثل هذه المواقع، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل العراق ومن أهل الشام معًا، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين علي، ولا إلى معاوية بن أبي سفيان، وقالوا لأمير المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغي كنا عليه، فقال علي: مرحبًا وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنة، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن[8]. والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها في قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها[9].

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 610) ، سير أعلام النبلاء (2/ 41) ، مرويات أبي مخنف صـ296

(2) البداية والنهاية (7/ 270) ، دراسات في عهد النبوة صـ423.

(3) تاريخ الطبري ، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة صـ424 .

(4) البداية والنهاية (1/ 272) .

(5) تاريخ الطبري ، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة صـ424 .

(6) تاريخ دمشق (8/ 233)، دراسات في عهد النبوة صـ424 .

(7) أنساب الأشراف (6/ 56) بسند حسن .

(8) صفين صـ115، دراسات في عهد النبوة صـ424 .

(9) دراسات في عهد النبرة صـ424.

٨ - معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه:

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه فى صفين من الأمور البدهية، بعد ما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى، فقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الأسرى، وإطعامهم أفضل الأطعمة الموجودة، هذا مع غير المسلمين، فكيف إذا كان الأسير مسلمًا، لا شك أن إكرامه والإحسان إليه أولى، ولكن الأسير فى هذه المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقته[١]، لذلك كان على رضى الله عنه يأمر بحبسه، فإن بايع أخلى سبيله، وإن أبى أخذ سلاحه ودابته أو يهبها لمن أسره ويحلف ألا يقاتل، وفى رواية يعطيه أربعة دراهم[٢]. وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح، وهو إضعاف جانب البغاة، وقد أتى بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلنى صبرًا. فقال على رضى الله عنه: لا أقتلك صبرًا إنى أخاف الله رب العالمين. فخلى سبيله ثمّ قال: أفيك خير تبايع؟[٣]. ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كما يلى:

- إكرام الأسير والإحسان إليه.
- يعرض عليه البيعة والدخول فى الطاعة، فإن بايع أخلى سبيله.
- إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه ألا يعود للقتال ويطلقه.

- إن أبى إلا القتال تحفظ عليه فى الأسر ولا يقتله صبرا[٤]. وقد أتى رضى الله عنه مرة بخمسة عشر أسيرًا ويبدو أنهم جرحى، فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه[٥]. ويقول محب الدين الخطيب معلقًا على هذه الحرب: ومع ذلك، فإن هذه الحرب المثالية هى الحرب الإنسانية الأولى فى التاريخ التى جرى فيها المتحاربان معًا على مبادئ الفضائل التى يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها فى حروبهم ولو فى القرن الحادى والعشرين، وإن كثيرًا من قواعد الحرب فى الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله فى كل أمر حكمة[٦]، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغى، ولهذا قال أبو حنيفة: لولا ما سار على فيهم، ما علم أحد كيف السيرة فى المسلمين[٧].

(١) كتاب قتال أهل البغى من الحاوى الكبير صـ ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد صـ ٢٤٣ .
(٣) الأم للشافعى (٤/ ٢٢٤) (٨/ ٢٥٦) .
(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد صـ ٢٤٣ .
(٥) تاريخ دمشق، تحقيق المنجد (١/ ٣٣١) ، خلافة على بن أبى طالب صـ ٢٤٣ .
(٦) العواصم من القواصم صـ ١٦٨ - ١٦٩ من تعليق الخطيب فى الحاشية .
(٧) بغية الطلب فى تاريخ حلب (١/ ٣٠٩) ، خلافة على صـ ٢٤٥ .

٩ - عدد القتلى:

تضاربت أقوال العلماء فى عدد القتلى فذكر ابن أبى خيثمة أن القتلى فى صفين بلغ عددهم سبعين ألفًا، من أهل العراق خمسة وعشرون ألفًا، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل(١)، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى فى صفين بلغ سبعين ألفًا أو أكثر(٢)، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقه، بل أرقام خيالية، فالقتال الحقيقى والصدام الجماعى استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة، فيكون مجموع القتال حوالى ثلاثين ساعة(٣)، ومهما كان القتال عنيفًا، فلن يفوق شدة القادسية التى كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة(٤)، وبالتالى يصعب -عقلاً- أن نقبل تلك الروايات التى ذكرت الأرقام الكبيرة.

١٠ - تفقد أمير المؤمنين على القتلى وترحمه عليهم:

كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى، فيقول شاهد عيان: رأيت عليًا على بغلة النبى ﷺ الشهباء، يطوف بين القتلى(٥)، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشتر، مر برجل مقتول - وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام - فقال الأشتر - وفى رواية أخرى عدى بن حاتم -: يا أمير المؤمنين، أحابس(٦) معهم؟ عهدى والله به مؤمن! فقال على: فهو اليوم مؤمن. ولعل هذا الرجل المقتول هو القاضى الذى أتى عمر بن الخطاب وقال: يا أمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفضعتنى، قال: ما هى؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين، قال: فمع أيهما كنت؟ قال:؟ مع القمر على الشمس، فقال عمر: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] فانطلق فوالله لا تعمل لى عملاً أبدًا، قال الرواى: فبلغنى أنه قتل مع معاوية بصفين(٧)، وقد وقف علىٌ على قتلاه وقتلى معاوية فقال: غفر الله لكم، غفر الله لكم، للفريقين جميعًا(٨)، وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين على ومعاوية، خرج على فمشى فى قتلاه فقال: هؤلاء فى الجنة ثم خرج

(١) الأنباء للقضاعى صـ ٥٩ نقلا عن خلافة على صـ ٢٤٥.

(٢) الصواعق المرسلة (١/٣٧٧) بدون سند، تحقيق محمد دخيل الله.

(٣) الدولة الأموية صـ٣٦٠ - ٣٦٢ .

(٤) تاريخ الطبرى (٤/٣٨٨).

(٥) مصنف ابن أبى شيبة ١١/ ٧٤.

(٦) حابس بن سعد الطائى، مخضرم ، قتل بصفين.

(٧) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ٧٤) بسند منقطع .

(٨) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد صـ ٢٥٠ .

إلى قتلي معاوية فقال: هؤلاء فى الجنة، ويصير الأمر إليَّ معاوية[1]، وكان يقول عنهم: هم المؤمنون[2]، وقوله رضى الله عنه فى صفين لا يكاد يختلف عن قوله فى أهل الجمل[3].

١١ - موقف لمعاوية مع ملك الروم:

استغل ملك الروم الخلاف الذى وقع بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما: وطمع فى ضم بعض الأراضى التى تحت هيمنة معاوية إليه، قال ابن كثير: .. وطمع فى معاوية ملك الروم بعد أن كان أخشاه وأذله، وقهر جندهم ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب عليٍّ تدانىً إلى بعض البلاد فى جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمى عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة[4]. وهذا الأثر يدل على أن الخلاف الذى بينه وبين على رضى الله عنه لن يبقى لحظة واحدة فيما لو تعرض أمن الدولة الإسلامية فى الشام للخطر، ولولا أن الروم يعلمون أن هذه الخلافات قابلة للنسيان المطلق ما أخذوا تحذير معاوية مأخذ الجد وكفوا أيديهم[5].

١٢ - قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين:

قال نصر بن مزاحم الكوفى: وحمل أهل العراق وتلقَّاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص.... فاعترضه على وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل　　　والخصر والأنامل الطَّفول[6]

إلى أن يقول: ثم طعنه فصرعه واتقاه عمرو برجله، فبدت عورته، فصرف عليٌّ وجهه عنه وارتُثَّ. فقال القوم: أفلتَ الرجل يا أمير المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا. قال فإنه عمرو بن العاص تلقانى بعورته فصرفت وجهى[7]، وذكر القصة - أيضًا - ابن الكلبى، كما ذكر ذلك السهيلى فى الروض الأنف: وقول على: إنه اتقانى بعورته

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/٣٠٣) بسند حسن .

(٢) تاريخ دمشق (١/٣٣١، ٣٢٩)، خلافه على صـ ٢٥١ .

(٣) خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد صـ ٢٥١ ، تنزيه خال المؤمنين صـ ١٦٩ .

(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٢٢) .

(٥) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام صـ ٢١١ .

(٦) الطفول : جمع طفل ، بالفتح ، وهو الرخص الناعم .

(٧) وقعة صفين صـ ٤٠٦ - ٤٠٨) ، قصص لا تثبت ، سليمان الخراشى (٦/ ١٦) .

فأذكرنى الرَحِمَ إلى أن قال: . . ويروى مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع على رضى الله عنه، يوم صفين، وفى ذلك يقول الحارث بن النضر الشهمى رواه ابن الكلبى وغيره:

أفى كل يوم فارس غير منته ... وعورته وسط العجاجة بادية

يكف لها عنه على سنانه ... ويضحك منه فى الخلاء معاوية[١]

والرد على هذا الافتراء والإفك المبين كالآتى: فراوى الرواية الأولى، نصر بن مزاحم الكوفى صاحب وقعة صفين شيعى جلد لا يستغرب عنه كذبه وافتراؤه على الصحابة، قال عنه الذهبى فى الميزان: نصر بن مزاحم الكوفى: رافضى جَلد، تركوه، قال عنه العقيلى: شيعى فى حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمة: كان كذابًا[٢]، وقال عنه ابن حجر: قال العجلى: كان رافضيًا غاليًا. . . ليس بثقة ولا مأمون[٣]. وأما الكلبى، هشام بن محمد بن السائب الكلبى، فقد اتفقوا على غلوه فى التشيع. قال الإمام أحمد: من يحدث عنه؟ ما ظننت أن أحدًا يحدث عنه. وقال الدارقطنى: متروك[٤]، وعن طريق هذين الرافضيين سارت هذه القصة فى الآفاق، وتلقفها من جاء بعدهم من مؤرخى الشيعة، وبعض أهل السنة ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة[٥]، وتعد هذه القصة أنموذجًا لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله، فقد اختلق أعداء الصحابة من مؤرخى الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ، وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكى يسهل انتشارها بين المسلمين، هادفين إلى الغض من جناب الصحابة الأبرار - رضى الله عنهم - فى غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق فى روايات التاريخ الإسلامى بعد أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصّاص وأصبح كثير منها من المسلَّمات، حتى عند مؤرخى أهل السنة للأسف[٦].

١٣ - مرور أمير المؤمنين على بالمقابر بعد رجوعه من صفين:

لما انصرف على أمير المؤمنين رضى الله عنه من صفين مرّ بمقابر، فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحالّ المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمّا قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز

(١) الروض الأنف (٥/ ٤٦٢) ، قصص لا تثبت (٦/ ١٩) .

(٢) ميزان الاعتدال (٤/ ٢٥٣ ، ٢٥٤) .

(٣) لسان الميزان (٦/ ١٥٧) .

(٤) المجروحون لابن حبان (٣/ ٩١) ، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٤٣)، معجم الأدباء (١٩/ ٢٨٧) ، قصص لا تثبت (١/ ١٨) .

(٥) قصص لا تثبت (١/ ٢٠) .

(٦) المصدر نفسه (١/ ١٠) .

بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذى جعل الأرض كفاتًا، أحياءً وأمواتًا، الحمد لله الذى خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعدّ للحساب، وقنع بالكفاف(١).

١٤ - إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه على أن تستمر المعركة:

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين، حتى يتفانى الناس، وتضعف قوة الطرفين، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف، وعلى رضى الله عنه يجيبهم إلى طلبهم فيأمر بوقف القتال وحقن الدماء فسعوا إلى محاولة ثنى أمير المؤمنين فى عزمه، لكن القتال توقف، فسقط فى أيديهم، فلم يجدوا بدًا من الخروج على علىّ رضى الله عنه، فاخترعوا مقولة (الحكم لله) وتحصنوا بعيدًا عن الطرفين، والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء فى هذه المرحلة، كما فعلوا فى معركة الجمل، رغم أنهم كانوا موجودين فى جيش على، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التى دامت أشهرًا عديدة، وعن الدور الذى يمكن أن يكون قتلة عثمان قد قاموا به فى معركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين، لأن اصطلاح على مع معاوية هو أيضًا اصطلاح على دمائهم، فلا يعقل أن يجتهدوا فى الفتنة فى وقعة الجمل، ويتركوا ذلك فى صفين(٢).

١٥ - نهى أمير المؤمنين على عن شتم معاوية ولعن أهل الشام:

روى أن عليًا - رضى الله عنه - لمّا بلغه أن اثنين من أصحابه يظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام، أرسل إليهما أن كفّا عمّا يبلغنى عنكما، فأتيا فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى وربّ الكعبة المسدّنة، قالا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأبعدهم عن ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى من لجج به(٣). وأما ما قيل من أن عليًا كان يلعن فى قنوته معاوية وأصحابه، وأن معاوية إذا قنت لعن عليًا وابن عباس والحسن والحسين، فهو غير صحيح، لأنّ الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أكثر حرصًا من غيرهم على التقيد بأوامر الشارع الذى نهى عن

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ١٤٨)، فرائد الكلام للخلفاء الكرام صـ ٣٢٧ .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ ١٤٧ .

(٣) الأخبار الطوال صـ ١٦٥، نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ٢٣٢).

سباب المسلم ولعنه[1]، فقد روى عن رسول الله ﷺ قوله: «من لعن مؤمنًا فهو كقتله»[2]، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بطعان ولا بلعّان»[3]، وقوله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[4]، كما أن الرواية التى جاء فيها لعن أمير المؤمنين فى قنوته لمعاوية وأصحابه ولعن معاوية لأمير المؤمنين وابن عباس والحسن والحسين لا تثبت من ناحية السند حيث فيها أبو مخنف لوط بن يحيى الرافضى المحترق الذى لا يوثق فى رواياته. كما أن فى أصح كتب الشيعة عندهم النهى عن سب الصحابة، فقد أنكر علىٌّ على من يسب معاوية ومن معه فقال: إنى أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب فى القول، وأبلغ فى العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم[5]، فهذا السب والتكفير لم يكن من هدى على باعتراف أصح كتاب فى نظر الشيعة[6].

رابعًا: التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين، وهو أن يحكّم كل واحد منهما رجلاً من جهته، ثم يتّفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص، ووكل على أبا موسى الأشعرى رضى الله عنهم جميعًا، وكتب بين الفريقين وثيقة فى ذلك، وكان مقر اجتماع الحكمين فى دومة الجندل فى شهر رمضان سنة ٣٧هـ، وقد رأى قسم من جيش على رضى الله عنه أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل على رضى الله عنه إليهم ابن عباس (رضى الله عنهما) فناظرهم وجادلهم، ثم ناظرهم على رضى الله عنه بنفسه، فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين على رضى الله عنه حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة.

تعد قضية التحكيم من أخطر الموضوعات فى تاريخ الخلافة الراشدة، وقد تاه فيها كثير من الكتاب، وتخبط فيها آخرون وسطروها فى كتبهم ومؤلفاتهم، وقد اعتمدوا على

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٣٢).
(٢) البخارى، ك الأدب (٧/ ٨٤).
(٣) السلسلة الصحيحة للألبانى رقم ٣٢٠، صحيح سنن الترمذى (٢/ ١٨٩) رقم ١١١٠.
(٤) مسلم (٤/ ٢٠٠٦) رقم ٢٥٩٨.
(٥) نهج البلاغة صـ ٣٢٣.
(٦) أصول مذهب الشيعة (٢/ ٩٣٤).

الروايات الضعيفة والموضوعة التى شوهت الصحابة الكرام وخصوصًا أبا موسى الأشعرى الذى وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأى مخدوعًا فى القول، وبأنه كان على جانب كبير من الغفلة ولذلك خدعه عمرو بن العاص فى قضيّة التحكيم، ووصفوا عمرو بن العاص رضى الله عنه بأنه كان صاحب مكر وخداع، فكل هذه الصفات الذميمة حاول المغرضون والحاقدون على الإسلام إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين اللذين اختارهما المسلمون ليفصلا فى خلاف كبير أدّى إلى قتل الكثير من المسلمين، وقد تعامل الكثير من المؤرخين والأدباء والباحثين مع الروايات التى وضعها خصوم الصحابة الكرام على أنها حقائق تاريخية، وقد تلقاها الناس منهم بالقبول دون تمحيص لها وكأنها صحيحة لا مرية فيها، وقد يكون لصياغتها القصصية المثيرة وما زعم فيها من خداع ومكر أثر فى اهتمام الناس بها وعناية المؤرخين بتدوينها، وليعلم أن كلامنا هذا ينصب على التفصيلات لا على أصل التحكيم، حيث إن أصله حق لا شك فيه(1).

خامسًا : نص وثيقة التحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذا ما تقاضى عليه علىُّ بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

٢- قضية علىّ على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، قضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

٣- إنّا تراضينا أن نقف عند حُكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نُحيى ما أحْيا ونُميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

٤- وإن عليًا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظرًا وحاكمًا، ورضى معاوية بعمرو بن العاص ناظرًا وحاكمًا.

٥- على أن عليًا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله، أن يتخذا القرآن إمامًا، ولا يعدوا به إلى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورًا، وما لم يجدا فى الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمّدان لها خلافًا، ولا يبقيان فيها بشبهة.

(١) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى صـ ٣٧٨ ، تنزيه خال أمير المؤمنين معاوية صـ ٣٨ .

٦- وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه، وليس لهما أن ينقُضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

٧- وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما، لم يعدوا الحق، رضي به راض أو سخط ساخط، وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

٨- فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

٩- وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية، فلشيعته أن يُولوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

١٠- وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح .

١١- وقد وجبت القضية على ما سمّيناه في هذا الكتاب، من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيد وكفى به شهيداً، فإن خالفا وتعدّيا، فالأمّة بريئة من حُكمهما، ولا عهد لهما ولا ذمّة.

١٢- والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل، والسلاح موضوع، والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر.

١٣- وللحكمين أن ينزلا منزلاً متوسطًا عدلاً بين أهل العراق والشام.

١٤- ولا يحضرهما فيه إلا من أحبّا عن تراضٍ بينهما .

١٥- والأجل إلى انقضاء شهر رمضان، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عجّلاها، وإن رأيا تأخيرها إلى آخر الأجل أخّراها.

١٦- فإن هما لم يحكُما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهما الأول في الحرب.

١٧- وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر، وهم جميعًا يد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحادًا أو ظلمًا أو خلافًا، وشهد على ما في هذا الكتاب الحسن والحسين، ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والأشعث بن قيس

الكندى، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن القيس الهمدانى، والحصين والطفيل ابنا الحارث ابن عبد المطلب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصارى، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وسهل ابن حنيف، وأبو بشر بن عمر الأنصارى، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمى، وعقبة بن عامر الجهنى، ورافع بن خديج الأنصارى، وعمر بن الحمق الخزاعى، والنعمان بن عجلان الأنصارى، وحجر بن عدى الكندى، ويزيد بن حجية النكرى، ومالك بن كعب الهمدانى، وربيعة بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية، ومن أهل الشام،حبيب بن مسلمة الفهرى، وأبو الأعور السلمى، وبشر بن أرطأة القرشى، ومعاوية بن خديج الكندى، والمخارق بن الحارث الزبيدى، ومسلم بن عمرو السكسكى، وعبد الله بن خالد بن الوليد، وحمزة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمى، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الحضرمى، ويزيد بن أبجر العبسى، ومسروق بن حبلة العكى، وبسر بن يزيد الحميرى، وعبد الله بن عامر القرشى، وعتبة بن أبى سفيان، ومحمد بن أبى سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمّار بن الأحوص الكلبى، ومسعدة بن عمرو العتبى، والصباح بن جلهمة الحميرى، وعبد الرحمن بن ذى الكلاع، وثمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم.

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقين من صفر سنة سبع وثلاثين[1].

سادسًا : قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه:

لقد كثر الكلام حول قصة التحكيم، وتداولها المؤرخون والكتاب على أنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها، فهم بين مطيل فى سياقها، ومختصر وشارح ومستنبط للدروس وبانٍ للأحكام على مضامينها، وقلما تجد أحدًا وقف عندها فاحصًا محققًا، وقد أحسن ابن العربى فى ردها إجمالاً وإن كان غير مفصل، وفى هذا دلالة على قوة حاسته النقدية للنصوص، إذ إن جميع متون قصة التحكيم لا يمكن أن تقوم أمام معيار النقد العلمى، بل هى باطلة من عدة وجوه[2]:

١ - أن جميع طرقها ضعيفة، وأقوى طريق وردت فيه هو ما أخرجه عبد الرزاق والطبرى بسند رجاله ثقات عن الزهرى مرسلاً قال: قال الزهرى: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم، ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراق، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار

(١) انظر : الوثائق السياسية صـ ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، الأخبار الطوال للدينورى صـ ١٩٦ - ١٩٩ ، أنساب الأشراف (١/ ٣٨٢) ، تاريخ الطبرى (٥/ ٦٦٥ ، ٦٦٦) ، البداية والنهاية (٧/ ٢٧٦ ، ٢٧٧).

(٢) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى صـ ٤٠٤٢ .

أهل العراق أبا موسى الأشعرى، واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فتعرق أهل صفين حين حكم الحكمان، فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن، وأن يختارا لأمّة محمد ﷺ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح، فلما انصرف علىّ خالفت الحرورية وخرجت - وكان ذلك أول ما ظهرت - فآذنوه بالحرب، وردوا عليه: أن حكم ابن آدم فى حكم الله عز وجل، وقالوا: لا حكم إلا لله سبحانه، فلما اجتمع الحكمان بأذرح، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير فى إقبالهم فى رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشّام، وأبى على وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوى الرأى من قريش: أترون أحدًا من الناس برأى يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يفترقان؟ قالوا: لا نرى أحدًا يعلم ذلك، قال: فوالله إنى لا أظن أنى سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأرجعهما، فدخل عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبد الله، أخبرنى عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنا قد شككنا فى الأمر الذى تبين لكم من هذا القتال، ورأينا أن نستأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمّة، قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبى موسى فقال له مثل ما قال لعمرو، وقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأيًا، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، فلقى الذين قال لهم ما قال من ذوى الرأى من قريش، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد، فلما اجتمع الحكمان وتكلما قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، رأيت أول ما تقضى به من الحق أن تقضى لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم، قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشّام قد وفوا، وقدموا للموعد الذى واعدناهم إياه؟ قال: بلى، قال عمرو: اكتبها، فكتبها أبو موسى، قال عمرو: يا أبا موسى، أأنت على أن تسمى رجلاً يلى أمر هذه الأمّة؟ فسمه لى، فإن أقدر على أن أتابعك فلك علىّ أن أتابعك وإلا فلى عليك أن تتابعنى، قال أبو موسى: أسمى لك معاوية بن أبى سفيان، فلم يبرحا مجلسهما حتى استبّا، ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى: إنى وجدت مثل عمرو كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس، وجدت مثل أبى موسى كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ

يحمل أسفاراً﴾ [الجمعة: ٥]. وكتب كل واحد منهما مثله الذى ضرب لصاحبه إلى الأمصار[١]. والزهرى لم يدرك الحادثة فهى مرسلة، ومراسيله كأدراج الرياح لا تقوم بها حجة[٢]، كما قرّر العلماء، وهناك طريق أخرى أخرجها ابن عساكر بسنده إلى الزهرى وهي مرسلة، وفيها أبو بكر بن أبى سبرة قال عنه الإمام أحمد: كان يضع الحديث[٣]. وفى سنده أيضًا الواقدى، وهو متروك[٤]، وهذا نصها: ... رفع أهل الشّام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله والحكم بما فيه، وكان ذلك مكيدة من عمرو بن العاص، فاصطلحوا وكتبوا بينهم كتابًا على أن يوافوا رأس الحول أذرح، وحكموا حكمين ينظران فى أمور الناس فيرضوا بحكمهما، فحكّم عليٌّ أبا موسى الأشعرى، وحكم معاوية عمرو ابن العاص، وتفرق الناس فرجع على إلى الكوفة بالاختلاف والدغل، واختلف عليه أصحابه فخرج عليه، الخوارج من أصحابه ممن كان معه، وأنكروا تحكيمه، وقالوا: لا حكمَ إلا لله، ورجع معاوية إلى الشام بالإلفة واجتماع الكلمة عليه ووافى الحكمان بعد الحول بأذرح فى شعبان سنة ثمان وثلاثين، واجتمع الناس إليهما، وكان بينهما كلام اجتمعا عليه فى السر خالفه عمرو بن العاص فى العلانية، فقدم أبا موسى فتكلم وخلع عليا ومعاوية، ثم تكلم عمرو بن العاص فخلع عليًا وأقر معاوية، فتفرق الحكمان ومن كان اجتمع إليهما، وبايع أهل الشام ومعاوية فى ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين[٥]، وأما طرق أبى مخنف فهى معلولة به، وبأبى جناب الكلبى، فالأول: وهو أبو مخنف لوط بن يحيى، ضعيف ليس بثقة[٦]، وأخبارى تالف غالي من الرفض، وأما الثانى فقال فيه ابن سعد: كان ضعيفًا[٧]، وقال البخارى وأبو حاتم: كان يحيى القطان يضعفه[٨] وقال عثمان الدارمى: ضعيف[٩]، وقال النسائى: ضعيف[١٠]. هذه طرق قصة التحكيم المشهورة، والمناظرة بين أبى موسى وعمرو بن العاص المزعومة، أفمثل هذا تقوم به حجة، أو يعول على مثل ذلك فى تاريخ الصحابة الكرام وعهد الخلفاء الراشدين، عصر القدوة والأسوة؟!

(١) المصنف (٥/٤٦٣) ، مرويات تاريخ الطبرى صـ ٤٠٦ .
(٢) المراسيل لأبى حاتم صـ ٣ ، الجرح والتعديل (١/٢٤٦) .
(٣) تهذيب التهذيب (١٢/٢٧) ، مرويات تاريخ الطبرى صـ ٤٠٦ .
(٤) مرويات تاريخ الطبرى صـ ٤٠٦ .
(٥) تاريخ دمشق (١٦/٥٣) .
(٦) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٢٣) .
(٧) مرويات أبى مخنف صـ ٤٠٧ .
(٨) التاريخ الكبير (٤/٢/٢٦٧) ، الجرح والتعديل (٩/١٣٨) .
(٩) التاريخ للدارمى صـ ٢٣٨، تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٢٣).
(١٠) الضعفاء والمتروكون صـ ٢٥٣.

ولو لم يكن في هذه الروايات إلا الاضطراب في متـونها لكفاها ضعـفًا، فكيف إذا أضيف إلى ذلك ضعف أسانيدها؟![1].

٢- أهمية هذه القضية في جانب الاعتقاد والتشريع، ومع ذلك لم تنقل لنا بسند صحيح، ومن المحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع أهميتها وشدة الحاجة إليها[2].

٣- وردت رواية تناقض تلك الروايات تمامًا، وذلك فـيما أخـرجه البـخاري في تاريـخه مختصراً بسند رجاله ثقات، وأخرجـه ابن عساكر مطولاً، عن الحصين بن المنذر أن معاوية أرسله إلى عمرو بن العـاص فقال له: إنه بلغني عن عمرو كذا وكـذا، فاذهب فانظروا ما هذا الذي بلغني عنه. فأتيـته فقلت: أخبرني عن الأمـر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس وقـالوا، ولا والله ما كان ما قالوا، ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قال: فقلت: أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية؟ قال: إن يستعن بكما ففـيكما معونة، وإن يسـتغن عنكما فطالما استغنى أمـر الله عنكما[3]. وقد روى أبو موسى عن تـورّع عمرو ومـحاسبـته لنفـسه، وتذكُّـره سيرة أبي بكر وعـمر، وخـوفه من الإحداث بعدهما، قال أبو موسى: قال لي عمرو بن العاص: والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحلُّ لهـما، غُبِنا وأخطآ أو نقص رأيهمـا، ووالله ما كانا مغـبونين ولا مخطئين ولا ناقصي الرأي. ووالله ما جاءنا الوهم والضعف إلا من قبلنا[4].

٤- إن معاوية كان يقر بفضل عليّ عليه وأنه أحق بالخلافة منه فلم ينازعه الخلافة ولا طلبها لنفسه في حـياة عليّ فقد أخرج يحـيى بن سليمان الجعـفي بسند جيد[5]، عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع عليًـا في الخلافة أو أنت مثله؟ قال: لا وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألسـتم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًـا وأنا ابن عمه ووليه أطلب دمه؟ فـأتوا عليا فقـولوا له يدفع لنا قتلة عثـمان وأسلم له، فأتوا عليًـا فكلموه فلم يدفعهم إليه[6]، فهذا هو أصل النزاع بـين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فـالتحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها لا لاخـتيار خليفة أو عزله[7]، ويقول ابن حزم في هذا الصدد: إن عليًا قاتل معاوية لامتناعه مـن تنفيذ أوامره في جميع أرض الشام، وهو الإمام

(١) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري صـ ٤٠٨ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٤٠٨ .
(٣) التاريخ الكبير (٥/٣٩٨) .
(٤) العواصم من القواصم صـ ١٧٨ - ١٨٠ .
(٥) فتح الباري (١٣/٨٦).
(٦) سير أعلام النبلاء(٣/ ١٤٠)
(٧) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري صـ ٤٠٩ .

الواجب طاعته، ولم ينكر معاوية قط فضل عليّ واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من أولاد عثمان وأولاد الحكم بن أبي العاص لسنّه وقوته على الطلب بذلك، وأصاب في هذا، وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط[1]، وفهم الخلاف على هذه الصورة - وهي صورته الحقيقية - يبين إلى أيّ مدى تخطئ الروايات السابقة عن التحكيم في تصوير قرار الحكمين، إن الحكمين كانا مفوضين للحكم في الخلاف بين علي ومعاوية، ولم يكن الخلاف بينهما حول الخلافة ومن أحق بها منهما، وإنما كان حول توقيع القصاص على قتلة عثمان، وليس هذا من أمر الخلافة في شيء، فإذا ترك الحكمان هذه القضية الأساسية، وهي ما طلب إليهما الحكم فيه - واتخذا قراراً في شأن الخلافة - كما تزعم الرواية الشائعة - فمعنى ذلك أنهما لم يفقها موضوع النزاع، ولم يحيطا بموضوع الدعوى، وهو مستبعد جداً[2].

٥ - أن الشروط التي يجب توافرها في الخليفة هي العدالة والعلم، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، وأن يكون[3] قرشيًا، وقد توافرت هذه الشروط في علي(رضي الله عنه)فهل بيعته منعقدة أم لا؟ فإن كانت منعقدة - ولا شك وقد بايعه المهاجرون والأنصار أهل الحل والعقد، وخصومه يقرون له بذلك - فقول معاوية السابق يدل عليه بأن «الإمام إذا لم يَخْلُ عن صفات الأئمة، فرام العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً باتفاق الأئمة، فإن عقد الإمام لازم، لا اختيار في حله من غير سبب يقتضيه، ولا تنتظم الإمامة ولا تفيد الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها، ولو تخير الرعايا في خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختبار لما استتب للإمام طاعة، ولما استمرت له قدرة واستطاعة، ولما صح لمنصب الإمام معنى»[4]. وإذاً فليس الأمر بهذه الصورة التي تحكيها الروايات: كل من لم يرض بإمامه خلعه، فعقد الإمامة لا يحله إلا من عقده، وهم أهل الحل والعقد، وبشرط إخلال الإمام بشروط الإمامة، وهل فعل علي رضي الله عنه ذلك واتفق أهل الحل والعقد على عزله عن الخلافة وهو الخليفة؟! الراشد حتى يقال إن الحكمين اتفقا على ذلك؟! فما ظهر منه قط إلى أن مات رضي الله عنه، شيء يوجب نقض بيعته، وما ظهرَ منه قط إلا العدل، والجد والبر والتقوى والخير[5].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٦٠) (٢) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/ ٢٢٥).

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي ص-٦ ، الأحكام السلطانية لأبي يعلى صـ٢٠ ، غياث الأمم صـ٧٩ وما بعدها.

(٤) غياث الأمم صـ١٢٨ ، مرويات أبي مخنف صـ٤١٠ .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٢٣٨).

٦ - أن الزمان الذى قام فيه التحكيم زمان فتنة، وحالة المسلمين مضطربة مع وجود خليفة له، فكيف تنتظم حالتهم مع عزل الخليفة؟! لا شك أن الأحوال ستزداد سوءًا، والصحابة الكرام أحذق وأعقل من أن يقدموا على هذا، وبهذا يتضح بطلان هذا، الرأى عقلاً ونقلاً.

٧ - إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حصر الخلافة فى أهل الشورى وهم الستة وقد رضى المهاجرون والأنصار بذلك، فكان ذلك إذنًا فى أن الخلافة لا تعدو هؤلاء إلى غيرهم ما بقى منهم واحد، ولم يبق منهم فى زمان التحكيم إلا سعد بن أبى وقاص وقد اعتزل الأمر ورغب عن الولاية والإمارة، وعلى بن أبى طالب القائم بأمر الخلافة وهو أفضل الستة بعد عثمان، فكيف يتخطى بالأمر إلى غيره؟![١].

٨ - أوضحت الروايات أن أهل الشام بايعوا معاوية بعد التحكيم. والسؤال: ما المسوغ الذى جعل أهل الشام يبايعون معاوية؟ إن كان من أجل التحكيم فالحكمان لم يتفقا ولم يكن ثمة مبرر آخر حتى ينسب لهم ذلك، مع أن ابن عساكر نقل بسند رجاله ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى[٢]، أعلم الناس بأمر الشام[٣] أنه قال: كان على بالعراق يدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية بالشام يدعى الأمير، فلما مات على دعىٰ معاوية بالشام أمير المؤمنين[٤]. فهذا النص يبين أن معاوية لم يبايع بالخلافة إلا بعد وفاة على، وإلى هذا ذهب الطبرى، فقد قال فى آخر حوادث سنة أربعين: وفى هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء[٥]، وعلق على هذا ابن كثير بقوله: يعنى لما مات على قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع[٦]، وكان أهل الشام يعلمون بأن معاوية ليس كفئًا لعلى بالخلافة، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف على رضى الله عنه، فإن فضل على وسابقته وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله؛ كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه أبى بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم رضى الله عنهم[٧]، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول، فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[٨]، والنصوص فى هذا المعنى كثيرة[٩] ومن المحال أن يطبق الصحابة على مخالفة ذلك[١٠].

---

(١) مرويات تاريخ أبى مخنف صـ ٤١١ .

(٢) سعيد بن عبد العزيز التنوخى ثقة إمام (التقريب) .

(٣) تهذيب التهذيب (٤/ ٦٠) .

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٦) .

(٥) المصدر نفسه (٦/ ٧٦) .

(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٦) .

(٧) الفتاوى (٣٥/ ٧٣) .

(٨) صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠) .

(٩) سنن البيهقى (٨/ ١٤٤) .

(١٠) مرويات أبى مخنف صـ ٤١٢ .

٩- أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة ونوساتها -أى ضفائرها- تنطف -أى تقطر- قلت قد كان من أمر الناس ما ترين فلم يجعل لى من الأمر شيء فقالت: إلحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون فى احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم فى هذا الأمر فليطلع لنا قرنه فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد الله: فحللت حبوتى وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عنى غير ذلك، فذكرت ما أعد الله فى الجنان. قال حبيب: حفظت وعصمت[١]، هذا الحديث قد يفهم منه مبايعة معاوية بالخلافة، وليس فيه تصريح بذلك، وقد قال بعض العلماء إن هذا الحديث كان فى الاجتماع الذى صالح فيه الحسن بن على معاوية رضى الله عنهما، وقال ابن الجوزى: إن هذه الخطبة كانت فى زمن معاوية لما أراد أن يجعل ابنه يزيد ولى عهده، ويرى ابن حجر فى التحكيم[٢]، ودلالة النص على القولين الأولين أقوى. فقوله: فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم، دليل على اجتماع الكلمة على معاوية، وأيام التحكيم أيام فرقة واختلاف لا أيام جمع وإئتلاف[٣].

١٠- حقيقة قرار التحكيم: ليس من شك فى أن أمر الخلاف الذى رأى الحكمان رده إلى الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين على ومعاوية حول قتلة عثمان، ولم يكن معاوية مدعيا للخلافة ولا منكرًا حق علىّ فيها كما تقرر سابقًا، وإنما كان ممتنعًا عن بيعته وعن تنفيذ أوامره فى الشام حيث كان متغلبًا عليها بحكم الواقع لا بحكم القانون، مستفيدًا من طاعة الناس له بعد أن بقى واليا فيها زهاء عشرين سنة[٤]، وقد قال ابن دحية الكلبى فى كتابه «أعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين»: قال أبو بكر محمد بن الطيب الأشعرى - الباقلانى - فى مناقب الأئمة: فما اتفق الحكمان قط على خلعه - على ابن أبى طالب - . . . وعلى أنهما لو اتفقا على خلعه لم ينخلع حتى يكون الكتاب والسنة المجتمع عليهما يوجبان خلعه أو أحد منهما على ما شرطا فى الموافقة بينهما أو إلى أن يبيّنا ما يوجب خلعه من الكتاب والسنة، ونصّ كتاب علىّ - عليه السلام - اشترط على الحكمين أن يحكما بما فى كتاب الله عزّ وجلّ من فاتحته إلى خاتمته لا يجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه، ولا يميلان إلى هوى ولا إدهان، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق، وإن

(١) البخارى (٥/٤٨) .
(٢) فتح البارى (٧/٤٦٦) .
(٣) مرويات أبى مخنف صـ ٤١٢
(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/٢٣٤) .

هما جاوزا بالحكم كتاب الله فلا حكم لهما . . . والكتاب والسنة يثبتان إمامته، ويعظمانه ويثنيان عليه، يشهدان بصدقه وعدالته، وإمامته، وسابقته في الدين، وعظيم جهاده في جهاد المشركين، وقرابته من سيد المرسلين، وما خص به من القدم في الحلم والمعرفة بالحكم، ووفور الحلم، وأنه حقيق بالإمامة، وأهل لحمل أعباء الخلافة[1].

١١ - **مكان انعقاد المؤتمر**: كان الموعد المحدد لاجتماع الحكمين - كما جاء في الوثيقة - في رمضان في عام ٣٧هـ، إذا لم تحدث عوائق، في موضع وسط بين العراق والشام، وهذا الموضع المختار هو دومة الجندل[2]، في روايات موثقة، وأذرح[3] في روايات أخرى دونها في الإتقان، ولعل لقرب المكانين من بعضهما أثرًا في اختلاف الروايات، إذ يقول خليفة بن خياط[4]: . . . ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب، وقد تم الاجتماع في الموعد المحدد بدون عوائق[5].

إن المكان الذي اجتمع فيه الحكمان هو دومة الجندل، وهذا بخلاف ما جزم به ياقوت الحموي من أن التحكيم حدث في أذرح، واستدل على ذلك ببعض روايات لم يبينها، وبالأشعار وبخاصة بشعري ذي الرمة[6]، في مدح بلال بن أبي بردة[7] وهو قوله:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما ... تشاءوا وبيت الدين منقلع الكسر

فشد إصار الدين أيام أذرح ... ورد حروبًا قد لقحن إلى عقر[8]

١٢ - **هل حضر سعد بن أبي وقاص اجتماع الحكمين؟**: اجتمع الحكمان في موعدهما المحدد، ومع كل واحد منهما بضع مئات يمثلون وفدين، وفد عن أهل العراق، وآخر يمثل أهل الشام، وطلب الحكمان من عدد من أعيان قريش وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته، وأفضل هؤلاء: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فإنه لم يحضر التحكيم ولا

(١) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين صـ ١٧٧ .

(٢) دومة الجندل : غرب مدينة الجوف في شمال الجزيرة العربية .

(٣) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البقاء .

(٤) تاريخ خليفة صـ ١٩١ ، ١٩٢ . (٥) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد صـ ٢٦٧.

(٦) ذي الرمة ، غيلان بن عقبة توفي ١١٧هـ، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٧) .

(٧) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري ، تهذيب تاريخ دمشق (٣/ ٣٢١) .

(٨) ديوان ذي الرمّة صـ٣٦١، ٣٦٢ ، نقلاً عن خلافة علي صـ٢٧٢ .

أراد ذلك ولا همَّ به(١)، فعن عامر بن سعد أن أخاه عُمرَ انطلق إلى سعد فى غنم له خارجًا من المدينة، فلمّا أتاه رآه سعد قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الركب، فلمّا أتاه قال: يا أبة، أرضيت أن تكون أعرابيًا فى غنمك والناس يتنازعون فى الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت فإنّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى»(٢).

سابعًا: هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟

يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض النزاعات بين الدول الإسلامية وذلك بتحمل قادة البلاد الإسلامية جميعًا مسئولياتهم ومن ورائهم الأمّة الإسلامية التى يحكمونها فى الضغط الجادِّ الصادق، على الطرفين المتنازعين، لكى يوقفا ما بينهما من قتال، ويلجآ إلى التحكيم الشرعى فى الإسلام، فيرسل هذا الطرف حكمًا من قبله، وذلك حكمًا آخر من قبله أيضًا، للفصل فى النزاع القائم وذلك على ضوء ما يلى:

١- تحديد صلاحيات الحكمين فى إصدار الأحكام التى لا بُدّ منها لحل المشكلات التى هى سبب النزاع.

٢- جعل مصادر التشريع الإسلامى هى المرجع الوحيد لإصدار تلك الأحكام والحلول، التى تفصل فى مسائل النزاع.

٣- أخذ العهد على كل طرف من طرفى النزاع، وأخذ العهد على جميع قادة البلاد الإسلامية بقبول ما يصدره الحكمان من أحكام، وحلول مشروعة لإنهاء النزاع الرّاهن، على أنها واجبة التنفيذ بحكم الإسلام، وأن الخروج عليها، أو الرضا بذلك الخروج يترتب عليه الإثم شرعًا.

٤- إذا أصدر الحكمان ما اتّفقا عليه من أحكام، وحلول، وانقاد لهما الطرفان المتنازعان، قُضى الأمر، وكفى الله المؤمنين القتال.

٥- إذا رفض أحد الطّرفين، أو كلاهما، الانقياد لقضاء الحكمين اعتبر الطرف الرافض هو الطرف الباغى، سواء صدر الرفض من أحدهما، أو من كليهما، ووجب شرْعًا على القوات الإسلامية فى الأقطار الأخرى أن تضع نفسها تحت تصرُّف ما يصدره الحكمان من

(١) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد صـ٢٧٢ .

(٢) المسند (١/١٦٨)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٣/٢٦)، خلافة على بن أبى طالب، للسُّلمى صـ١٠٧.

قرارات عسكرية، من أجل التدخل لحسم النزاع بالقوة على وجه لا تترتب عليه أضرار ومخاطر هى أكبر من ضرر النزاع القائم.

٦- ويكون من صلاحيّات الحكمين - بالاتفاق - إصدار القرارات التى تخص كيفية تحريك القوات المسلحة فى الأقطار الإسلامية الأخرى، من أجل حل النزاع القائم على ضوء ما سلف بيانه[١]، ولعلّ اللجوء إلى مثل هذه الطريقة فى حل المنازعات بين الأقطار الإسلامية، كفيل بسد الطريق على أيّة قوة خارجية تتدخل فى نزاعات المسلمين بحجة أنّ بعض أطراف النِّزاع دعاها إلى هذا التدخل.. ومن ثم تستغل هذه الفرصة، لكى تتآمر على المسلمين، فتعمل على تصعيد تلك النزاعات، وفرض الحلِّ الذى يَحْلو لها، ويكون فيه مصلحتها فقط، وليعانِ المسلمون، بعدئذ، من آثار ذلك الحلِّ أسوأ ممّا كانوا يُعَانُون من فتنة النِّزَاع نفسها، فهذه المعاناة لا تهمها فى شىء، لا، بل إنَّ هذه المعاناة هى من جملة الاهتمامات التى فرضت من أجل تفجيرها ذلك الحَلّ المشئوم، قلنا: لعل اللُّجُوء إلى التحكيم، على نحو ما سلف بيانه، يسد الطريق فى وجه تلك القوى الخارجيّة التى تبغى فى صفوف المسلمين الفساد، هذا، وإن الصفة الإلزاميَّة شرعًا للحل عن طريق التحكيم - الذى عرضناه - تستند إلى إجماع الصحابة، فقد أجمع الصحابة كلهم فى عهد النِّزاع الذى نشب بين على ومعاوية على اللجُوء إلى التحكيم، والقبول به.. سواء فى ذلك الصحابة الذين كانوا مع على، والصحابة الذين كانوا مع معاوية، والصحابة الذين اعتزلوا الطرفين، كسعد بن أبى وقاص، وابن عمر، وغيرهما، رضى الله عنهم أجمعين[٢].

ثامنًا: موقف أهل السنة من تلك الحروب:

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التى وقعت بين الصحابة الكرام رضى الله عنهم، هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم رضى الله عنهم، لما يسببه الخوض فى ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم ويترحم عليهم ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم، وأن الذى وقع بينهم إنما كان عن اجتهاد والجميع مثابون فى حالتى الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ فى اجتهاده، وأن القاتل والمقتول من الصحابة فى الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم، وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التى تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة

(١)، (٢) الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية (٣/ ١٦٦٥).

أذكر بعض النصوص التى فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هى[1]:

١ – قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ففى هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال؛ لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان، حيث سماهم الله – عز وجل – مؤمنين، وأمر بالإصلاح بينهم، وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان،فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا فى موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل فى اسم الإيمان الذى ذكر فى هذه الآية، فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيمانًا حقيقيًا، ولم يؤثر ما حدث بينهم من شجار فى إيمانهم بحال، لأنه كان عن اجتهاد[2].

٢ – عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»[3]. والفرقة المشار إليها فى الحديث هى ما كان من الاختلاق بين على ومعاوية رضى الله عنهما، وقد وصف ﷺ الطائفتين معًا بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة؛ إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما تزعمه فرقة الرافضة والجهلة من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ أن عليًا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهدًا وهو مأجور إن شاء الله، ولكن على هو الإمام فله أجران كما ثبت فى صحيح البخارى: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجره»[4].

٣ – وعن أبى بكرة قال: بينما النبى ﷺ يخطب، جاء الحسن فقال النبى: «ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[5] ففى هذا الحديث شهادة من النبى ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام، والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام (٢/٧٢٧)، تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان من الظلم والضيق فى مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان صـ٤١.

(٢) العواصم من القواصم صـ ١٦٩، ١٧٠ ، أحكام القرآن (٤/١٧١٧) .

(٣) مسلم (٢/ ٧٤٥) .

(٤) البخارى مع شرحه فى فتح البارى (١٣/ ٣١٨).

(٥) البخارى ، ك الفتن رقم ٧١٠٩ .

كفَّروا عليًا ومن معه، ومعاوية ومن معـه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام، ولذا كان يقول سفيان بن عيينة: قوله: «فئتين من المسلمين يعجبنا جداً. قال البيهقى: وإنما أعجبهم لأن النبى ﷺ سماهم جميعًـا مسلمين، وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن على بعد وفاة على فى تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان[1].

فهذه الأحاديث المتقدم ذكرها فـيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع على، وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبى سفيان، وقد وصفهم النبى ﷺ بأنهم من أمته[2]. كمـا وصفـهم بأنهم جميـعًا مـتعلقون بالحق لـم يخرجوا عنه، كـما شـهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجـوا عنه بسبب القتال الذى حصل بينهم، وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم رضى الله عنهم أجمعـين، فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم، بل هم مجتهدون متـأولون، وقد بين الحكم فى قتالهم ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه كمـا مر معنا. فالواجب على المسلـم أن يسلك فى اعتقاده فـيما حصل بين الصـحابة الكرام رضى الله عنهم مسلك الفرقـة الناجية من أهل السنة والجماعة، وهو الإمـساك عما حصل بينهم رضى الله عنهم ولا يخـوض فيه إلا بما هو لائق بمقامـهم، وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية فى حق أولئك الصفوة المختارة، وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التى وقعت بينهم فى أقوالهم الحسنة التى منها[3]:

١- سئل عمر بن عبـد العزيز رحمه الله تعالى عن القتال الذى حصل بين الصـحابة فقال: تلك دماء طهـر الله يدى منها، أفلا أطهر بهـا لسانى؟! مثل أصحـاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها[4]. قال البيهقى معلقًا على قـول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب[5].

٢- سئل الحسن البصرى رحمه الله تعالى عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنـا، واجتمعوا فاتبعنا، واخـتلفوا فوقفنا[6]. ومعنى قول الحسن هذا: أن الصـحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيـه منا وما علينا إلا أن نتبعهم فـيما

(١) الاعتقاد للبيهقى صـ ١٩٨ ، فتح البارى (١٣/ ٦٦).

(٢) فى صحيح مسلم (٢/ ٧٤٦): «تكون فى أمتى فرقتان». (٣) عقيدة أهل السنة فى الصحابة (٢/ ٧٣٢).

(٤) الإنصاف للباقلانى ص١٦ ، الطبقات (٥/ ٣٩٤).

(٥) مناقب الشافعى ص ١٣٦ . (٦) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢).

اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه، ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله - عز وجل - إذ كانوا غير متهمين فى الدين(١).

٣- سئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة فأجاب بقوله : أقول ما قال الله: ﴿ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾(٢)[طه: ٥٢].

٤- قال الإمام أحمد رحمه الله بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين على ومعاوية؟ قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى(٣)، وعن إبراهيم بن آزر الفقيه قال: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين على ومعاوية، فأعرض عنه، فقيل له : يا أبا عبد الله، هو رجل من بنى هاشم فأقبل عليه، فقال: اقرأ ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ [البقرة: ١٤١].

٥- وقال ابن أبى زيد القيروانى فى صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم فى أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغى أن يذكروا به: وألا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب(٤).

٦- وقال أبو عبد الله بن بطه أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمر بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان نبيه، وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم، وكل ما شجر بينهم مغفور لهم(٥).

٧- قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني: ويجب أن يعلم أن ماجرى بين أصحاب النبى ﷺ ورضى عنهم من المشاجرة نكف عنه ونترحم على الجميع، ونثنى عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان، ونعتقد أن عليًا عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة رضى الله عنهم إن ما صدر منهم كان باجتهاد فلهم الأجر، ولا يفسقون ولايبدَّعون، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢) . (٢) الإنصاف للباقلانى ص ١٦٤ .
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص ١٦٤ .
(٤) رسالته المشهورة مع شرحها الثمر الدانى ص٢٣ .
(٥) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ص٢٦٨.

الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ [الفتح: ١٨] وقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فإذا كان الحاكم فى وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضى الله عنهم ورضوا عنه، ويدل على صحة هذا القول: قوله ﷺ للحسن رضى الله عنه: «إن ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(١)، فأثبت العظمة لكل واحدة من الطائفتين، وحكم لهما بصحة الإسلام، وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ [الحجر: ٤٧]... إلى أن قال: ويجب الكف عمّا شجر بينهم والسكوت عنه(٢).

٨- وقال ابن تيمية فى صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية فى مساوئهم منها ما هو كذب ومنها ما هو زيد فيه ونقص وغيّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون(٣).

٩- وقال ابن كثير: أما ما شجر بينهم بعده عليه الصلاة والسلام فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل، ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطئ ويصيب، ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضًا. وأما المصيب فله أجران(٤).

١٠- وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا فى تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب يؤجر أجرين(٥).

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض فى الفتن التى جرت بين الصحابة رضى الله عنهم بعد قتل عثمان، والترحم عليهم وحفظ فضائل الصحابة، والاعتراف لهم بسوابقهم، ونشر محاسنهم رضى الله عنهم و أرضاهم(٦).

(١) البخارى . ك الفتن رقم ٧١٠٩ .

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به ص ٦٧- ٦٩ .

(٣) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ص ١٧٣ .

(٤) الباعث الحثيث ص ١٨٢ .

(٥) فتح البارى (١٣/ ٦٣٤)، عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠).

(٦) عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠).

تاسعًا: تغير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين:

بعد معركة صفين بدأت الموازين تتبدل لصالح معاوية رضى الله عنه فقد خرج الخوارج من جيش على رضى الله عنه، وانشغل بقتالهم، بينما ازداد أمر معاوية قوة، لا سيما بعد انتهاء أمر التحكيم، وعدم الوصول إلى حل جذرى، وكان معاوية رضى الله عنه يعمل بشتى الوسائل سرًا وعلانية على إضعاف جانب أمير المؤمنين على رضى الله عنه، واستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشًا إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص رضى الله عنه، سيطر عليها وضمها إليه، وقد ساعده على ذلك عدة أمور منها :

١- انشغال أمير المؤمنين على بالخوارج.

٢- عامل أمير المؤمنين على رضى الله عنه على مصر - محمد بن أبى بكر- لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سعد الساعدى الأنصارى، فدخل فى حرب مع المطالبين بدم عثمان، ولم يسايسهم كما كان يصنع الوالى السابق، فهزموه.

٣- اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان رضى الله عنه فى مصر فى الرأى، ساعده فى السيطرة عليها[١].

٤- بعد مصر عن مركز أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقربها من الشام.

٥- طبيعتها الجغرافية، فهى متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء وتمثل امتدادًا طبيعيًا، وقد أضافت مصر قوة كبيرة لمعاوية رضى الله عنه، قوة بشرية واقتصادية كبيرة، وكذلك أرسل معاوية بعوثه إلى شمال الجزيرة العربية، ومكة والمدينة، وإلى اليمن، ولكن لم تلبث هذه البعوث أن ردت على أعقابها عندما أرسل أمير المؤمنين علىٌّ من يصدها[٢]، وعمل معاوية رضى الله عنه على استمالة كبار أعيان القبائل وعمال على رضى الله عنه، فقد حاول سحب قيس بن سعد رضى الله عنه - عامل علىٍّ على مصر - إليه فلم يستطع، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية على رضى الله عنه ومستشاريه فيه فعزله[٣]، وكان عزل سعد عن ولاية مصر مكسبًا كبيرًا لمعاوية، كما حاول سحب زياد بن أبيه عامل على رضى الله عنه على فارس ففشل فى ذلك[٤]، وقد استطاع معاوية رضى الله

(١) الطبقات (٣/ ٨٣)، خلافة على، لعبد الحميد ص ٣٥١ ، بسند صحيح.

(٢) تاريخ خليفة ص ١٩٨ بدون سند . (٣) ولاة مصر صـ ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) الاستيعاب (٢ / ٥٢٥ ، ٥٢٦).

عنه أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمنيهم ويعدهم به، ولما يرونه من علو أمر معاوية وتفرق أمر على رضى الله عنه؛ إذ يقول عليّ فى إحدى خطبه: ألا إن بسراً قد أطلع من قبل معاوية، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم، وبأدائهم الأمانة وبخيانتكم، استعملت فلانًا فغلّ وغدر وحمل المال إلى معاوية، واستعملت فلانًا فخان وغدر وحمل المال إلى معاوية، حتى لو ائتمنت أحدهم على قدح خشيت على عِلاَقَتِه، اللهم إنى أبغضتهم، وأبغضونى فأرحهم منى وأرحنى منهم[1]. ولم يستسلم أمير المؤمنين على رضى الله عنه لهذه المصائب، وهذا التقاعس، والتخاذل، فقد بذل جهده فى استنهاض همة جيشه بكل ما أوتى من علم وفصاحة وبيان، فخطبه الحماسية المشهورة التى اشتهرت عنه - وتعتبر من عيون التراث - لم يقلها من فراغ أوخيال، بل مرّ تجرعه، وواقع أليم عاصره، ولقد ذكرت بعضًا منها فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه[2].

عاشراً: المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما:

بالرغم من كل هذه المحاولات والجهود المضنية لم يستطع أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن يحقق مايريد؛ إذ لم يستطع أن يغزو الشام بسبب التفكك والتصدع الذى حدث فى داخل جيشه، وتفرق كلمتهم وظهور الأهواء، فاضطر أمير المؤمنين على رضى الله عنه فى سنة أربعين للهجرة أن يوافق لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه على أن يكون العراق له، والشام لمعاوية، ولا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[3]، قال الطبرى فى تاريخه : وفى هذه السنة -٤٠هـ - جرت بين على ومعاوية رضى الله عنهما المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما يطول بذكرها الكتاب على وضع الحرب بينهما، ويكون لعلى العراق، ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[4]، ويبدو أن هذه الهدنة لم تستمر، فمعاوية أرسل بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن فى العام الذى استشهد فيه على رضى الله عنه[5].

(١) التاريخ الصغير (١/ ١٢٥)، بسند منقطع وله شواهد .
(٢) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/ ١٠٢٠) .
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٦) ، خلافة على ، عبد الحميد ص ٣٥٦ .
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٦) .
(٥) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ٤١) ، وخلافة على أبى طالب ص ٤٣١ .

الحادي عشر: استشهاد أمير المؤمنين علي واستقبال معاوية خبر مقتله:

ولما لم يتمكن علـى رضى الله عنه من تجهيـز الجيش بما يصبـو ويريد، ورأى خذلانهم كره الحـياة وتمنى المـوت، وكان يتـوجه إلى الله بالدعـاء ويطلب منه عز وجل أن يعـجل منيته، فـمما روى عنه أنه خطب يومًا فـقال: اللهم إنى قد سئـمتهم وسئمـونى، ومللتهم وملونى. فأرحنى منهم وأرحهم منى، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم - ووضع يده على لحيته -[(١)]، وقد ألح على رضى الله عنه فى الدعـاء فى أيامه الأخيرة، فـعن جندب قال: ازدحمـوا على على رضى الله عنه حتى وطئـوا على رحاله فـقال: اللهم إنى قد مـللتهم وملونى وأبغضتهم وأبغـضونى، فأرحنى منهم وأرحهم[(٢)]، وفى رواية أخرى عن أبى صالح قال: شهدت عليًا وضع المصحف على رأسه حـتى سمعت تقعقع الورق، فقال: اللهم إنى سألتهم ما فيه فمنعونى، اللهم إنى قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، وحملونى على غير أخـلاقى، فأبدلهم بى شرًا منى، وأبدلنى بهـم خيرًا منهم، ومث قلوبهم ميـثة الملح فى الماء[(٣)]، وفى رواية فلم يلبث إلا ثلاثًا أو نحـو ذلك، حتى قتل رحـمه الله[(٤)]، وقال الحسن ابن على: قـال لى على رضى الله عنـه: إن رسـول الله ﷺ سنح لى الليـلة فى منامى، فقلت: يا رسول الله مـاذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟[(٥)]، قال: ادع عليهم قلت: اللهم أبدلنى بهم من هو خـير منهم، وأبدلهم بى من هو شر منى لهم. قـال الحسن رضى الله عنه: فخـرج فضربه الرجل[(٦)]. ولما جاء خبـر قتل على إلى معاوية رضى اللـه عنهما جعل يبكى، فقـالت له امرأته: أتبكيه وقد قـاتلته؟ فقال: ويحك! إنك لا تدرين مـا فقد الناس من الفضل والفـقه والعلم[(٧)]، وكان معـاوية يكتب فيمـا ينزل به يسأل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن ذلك، فلمـا بلغه قـتله، قال: ذهب الفقـه والعلم بموت ابن أبى طالب، فقال له أخوه عتبة : لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له : دعنى عنك[(٨)]، وقد طلب معاوية رضى الله عنه فى خلافته من ضرار الصُّدائى أن يصف له عليًا رضى الله عنه فقال: أعفنى يا أمير المؤمنين، قال : لتصفنَّه، قال : أما إذا لابد من وصفه فكان - والله -

(١) مصنف عبدالرزاق (١٠/ ١٥٤) بإسناد صحيح، الطبقات(٣/ ٤).

(٢) الأحاد والمثانى لابن أبى عاصم (١/ ٣٧) بإسناد حسن خلافة على ص٤٣٢

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٤)

(٤) المحن ص ٩٩ لأبى العرب، وخلافة على لعبد الحميد ص٤٣٢

(٥) الأود : العوج، اللدد : الخصومة

(٦) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين ص ٦٤٩

(٧) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣)

(٨) الاستيعاب (٣/ ١١٠٨).

بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلا[1]، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحَدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن - والله - مع تقريبه إيانا وقربه منا، لانكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين ويُقرِّب المساكين، لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد أنه لقد رأيته في بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سُدولَه[2]، وغارت نجومه- قابضًا على لحيته، يتململ تململ السقيم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول : يادنيا غُرِّي غيري، إلى تعرضت أم إليَّ تشوَّفتِ: هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كثير، آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان -والله- كذلك، فكيف حزنك عليه ياضرار؟ قال حزن من ذبح ولدها وهو في حجرها[3]، وعن عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - : قال : رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت عليه وجلست، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيتًا وأجيف الباب[4] وأنا أنظر، فما كان بأسرع من خرج علي وهو يقول : قضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة[5].

(١) الاستيعاب (٣/١١٠٧) .
(٢) سدوله : سدلته .
(٣) الاستيعاب (٣/١١٠٨) .
(٤) أجيف الباب : رُدَّ وأغلق .
(٥) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣) .

المبحث الرابع

معاوية رضى الله عنه فى عهد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما

كانت بيعة الحسن بن على رضى الله عنهما فى شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم المرادى[١]، وقد اختار الناس الحسن بعد والد، ولم يعين أمير المؤمنين أحدًا من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليًا يقول: لتُخضبن هذه من هذا[٢] فما ينتظر بى الأشقى[٣]. قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته[٤]، قال: إذن -والله- تقتلون بى غير قاتلى. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ -قال وكيع[٥] مرة: إذا لقيته- قال: أقول: اللهم تركتنى فيهم ما بدا لك، ثم قبضتنى إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم[٦]، وفى رواية: أقول: اللهم استخلفتنى فيهم ما بدا لك ثم قبضتنى وتركتك فيهم[٧]، وبعد مقتل على صلى عليه الحسن بن على وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن رضى الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه؛ فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط. فبايعه وسكت، وبايعه الناس[٨]، وقد اشترط الحسن بن علىّ على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[٩]، وفى رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم. قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[١٠]، وفى رواية ابن سعد: إن الحسن بن على بن أبى طالب بايع أهل العراق بعد علىّ على بيعتين، بايعهم

(١) الطبقات (٣/٣٥٣٨) تحقيق د. إحسان عباس.
(٢) أى: لتخضبن لحيته من دم رأسه.
(٣) مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩)، مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره.
(٤) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (٤/ ٥) (٤/ ٥٣٨).
(٥) وكيع بن الجراح: ثقة حافظ عابد، التقريب ص ٥٨١.
(٦) مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره، الموسوعة الحديثية.
(٧) كشف الأستار عن زوائد البزار (٣/ ٢٠٤).
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٧).
(٩) المصدر نفسه (٦/ ٧٧).
(١٠) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمى (١/ ٢٨٦، ٢٨٧).

على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضى به[1]. ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء الحسن رضى الله عنه فى التمهيد للصلح فور استخلافه، وقد باشر الحسن بن على سلطته كخليفة، فرتب العمال، وأمّر الأمراء، وجند الجنود، وفرق العطايا، وزاد المقاتلة فى العطاء مائة مائة فاكتسب بذلك رضاءهم[2]، وكان فى وسعه أن يخوض حربًا لا هوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية العسكرية، والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عبادة، وحاتم بن عدى الطائى وغيرهما فى صفه من الذين لهم من القدرات القيادية الشىء الكثير، إلا أن الحسن بن على، مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيما عند الله، وزهده فى الملك، وغير ذلك من الأسباب، وقد قاد الحسن بن على مشروع الإصلاح الذى توّج بوحدة الأمة، وقد تنازل الحسن بن على من موقف قوة، وهناك دلائل تشيرُ إلى ذلك، منها:

١ - **الشرعية التى كان يملكها الحسن:** لقد اختير الحسن بن على بعد والده اختيارًا شوريًا، وأصبح الخليفة الشرعى على الحجاز واليمن والعراق، وكل الأماكن التى كانت خاضعة لوالده، وقد استمر فى خلافته ستة أشهر، وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا، فقد روى الترمذى بإسناده إلى رسول الله ﷺ حيث قال: «**الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك**»[3]، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن على، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه[4]، وبذلك يكون الحسن بن على خامس الخلفاء الراشدين[5]، وقد تحدث عن شرعية الحسن بن على بالخلافة كثير من علماء أهل السنة، منهم أبو بكر بن العربى[6]، والقاضى عياض[7]، وابن كثير[8]،

(١) الطبقات، تحقيق محمد السلمى (١/٣١٦، ٣١٧)
(٢) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ص ٦٧، مقاتل الطالبيين ص ٥٥.
(٣) سنن الترمذى مع شرحها تحفة الأحوذى (٦/ ٣٩٥-٣٩٧)، حديث حسن.
(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).
(٥) مآثر الإنافة (١/ ١٠٥)، مرويات خلافة معاوية ص ١٥٥
(٦) أحكام القران لابن العربى (٤/ ١٧٢٠).
(٧) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٠١).
(٨) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).

وشارح الطحاوية[(١)]، والمناوى[(٢)]، وابن حجر الهيثمى[(٣)]، ولو أراد الحسن أن يتعب معاوية -بحكم أن الشرعية معه- لأمكنه ذلك، ولقام بترتيب حملة إعلامية منظمة فى أوساط أهل الشام، لكسب ثقتهم، أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم، فقد كان يملك قوة معنوية ونفوذًا روحيًا لا يستهان به بحكم الشرعية التى يستند إليها، ولكونه حفيد الرسول ﷺ.

٢- تقييم الحسن بن على للموقف وقدراته القيادية: فعندما قال له نفير بن الحضرمى: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله[(٤)]، فهذه شهادة الحسن رضى الله عنه، بأنه كان فى وضع قوى، وبأن أتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، كما كان رضى الله عنه يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية، وصدق العاطفة، وقوة التأثير، والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكًا، ودليلنا على ذلك، ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده، وكان أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قد ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة وأسمعهم ما سمعه من رسول الله من التحذير من الاشتراك فى الفتنة[(٥)]، فقد أرسل على رضى الله عنه قبل الحسن محمد بن أبى بكر، ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا فى مهمتهما، وأرسل على بعد ذلك هشام بن عقبة ابن أبى وقاص، ففشل فى مهمته لتأثير أبى موسى عليهم[(٦)]، وأتبعه علىّ بعبد الله بن عباس، فأبطأوا عليه، فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن[(٧)] وكان للحسن أثر واضح، فقد قام فى الناس خطيبًا وقال: أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولوا النهى[(٨)]، أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به[(٩)] وابتليتم. ولبى كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى على ما بين الستة إلى سبعة آلاف رجل[(١٠)]، ولا ننسى أن أبا موسى الأشعرى كان واليًا على الكوفة ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر، وهو من هو فى علمه وزهده ومكانته عند الناس، ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه وخرجوا معه.

(١) شرح الطحاوية ص ٥٤٥.
(٢) فيض القدير (٢/ ٤٠٩)
(٣) الصواعق المحرقة (٢/ ٣٩٧).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦).
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٤)، مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ١٢) إسناده حسن.
(٦) خلافة على بن أبى طالب صـ ١٤٤، لعبد الحميد، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٦).
(٧) فتح البارى (١٣/ ٥٣)، على بن أبى طالب للصلاّبى (٢/ ٦٠).
(٨) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٦)، أولو النهى: أصحاب العقول.
(٩) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٦).
(١٠) مصنف عبد الرزاق (٥/ ٤٥٦، ٤٥٧)، بسند صحيح، للزهرى.

٣- وجود بعض القيادات الكبيرة في صفه: كان معسكر الحسن بن علي فيه من القيادات الكبيرة، كأخيه الحسين، وابن عمه عبد الله بن جعفر، وقيس بن سعد بن عبادة -وهو من دهاة العرب- وعدى بن حاتم وغيرهم، فلو أراد الخلافة لأعطى المجال لقياداته للتحرك نحو تعبئة الناس والدخول في الحرب مع معاوية، وعلى الأقل يكون خليفة على دولته إلى حين.

٤- معرفته لنفسية أهل العراق: كانت له قدرات خاصة في التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم، ولذلك زاد لهم في العطاء منذ بداية خلافته، كما أن مهمته التي قادها في نجاح مشروعه الإصلاحي كانت أصعب من حربه لمعاوية، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التي واجهته، فقد حاولوا قتله، ورفض بعض الناس الصلح، وغير ذلك من العوائق، إلا أنه تغلب عليها كلها وحقق الأهداف التي رسمها من حقن الدماء، ووحدة الأمة، وأمن السبيل، وعودة حركة الفتوح.. إلخ مما يدل على قدراته القيادية الفذّة.

٥- تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضي الله عنهم: فقد جاء في البخاري: استقبل -والله- الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني أرى كتائب لا تُولي حتى تقتل أقرانها. فقال معاوية- وكان خير الرجلين- أي عمرو، إن قتل هؤلاء من لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس- عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز- فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه قولا له، واطلبا إليه[1].

أ- فعمرو بن العاص رضي الله عنه، القائد العسكري الشهير والسياسي المحنك والذي عركته الحروب يقول: إني أرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها.

ب- وأما معاوية رضي الله عنه، فتقييمه للموقف العسكري بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حسمًا عسكريًا إلا بعد خسائر فادحة للطرفين، ولا يستطيع معاوية -حتى لو كان هو المنتصر- أن يتحمل ما تخلفه الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية للأمة الإسلامية، ولذلك اختار معاوية شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أصحاب النفوذ في المجتمع الإسلامي ولهما حضور احترام عند الحسن، وهما من قريش، فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية رضي الله عنه تدلان على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأي ثمن

(١) البخاري، ك الصلح رقم ٢٧٠٤.

ممكن، وقد ظل زمام الموقف بيد الحسن بن على رضى الله عنه ويد أنصاره، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، ولكان عرف ضعف جانب الحسن، وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد، أو ينزل على شروطه ومطالبه[1]، كان الحسن ابن على رضى الله عنه ذا خلق يجنح إلى السلم، وكان رضى الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل وبواعث وتغلب على العوائق، وكتب شروطه، وترتب على صلحه نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن على مر العصور وتوالى الأزمان، فكان فى صلحه مع معاوية وحقنه لدماء المسلمين، كعثمان فى جمعه للقرآن، وكأبى بكر فى حربه للمرتدين[2]، ولا أدل على ذلك من كون هذا الفعل من الحسن يعد علمًا من أعلام النبوة، والحجة فى ذلك ما أخرجه البخارى من طريق أبى بكرة رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ على المنبر، والحسن بن على على جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[3].

أولاً: أهم مراحل الصلح

مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى: دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن رضى الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم[4].

المرحلة الثانية: شرط البيعة الذى وضعه الحسن رضى الله عنه أساسًا لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذى نص على أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب[5].

المرحلة الثالثة: وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن رضى الله عنه بعد أن كشف عن نيته فى الصلح مع معاوية رضى الله عنه، وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل[6].

المرحلة الرابعة: خروج الحسن بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش وهى الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة[7].

(١) دراسة فى تاريخ خلفاء الدولة الأموية صـ ٦١.
(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ ١٣٤.
(٣) البخارى رقم ٧١٠٩.
(٤) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ ٣١٧.
(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ ١٥٦.
(٦) المصدر نفسه صـ ١٢٦.
(٧) المصدر نفسه صـ ١٢٨.

المرحلة الخامسة: خروج معاوية رضى الله عنه من الشام وتوجهه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه.

المرحلة السادسة: تبادل الرسل بين الحسن و معاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

المرحلة السابعة: محاولة اغتيال الحسن رضى الله عنه، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما، شرع الحسن رضى الله عنه فى تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذى تم، فقام فيهم خطيبًا ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض معسكره محاولين قتله، لكن الله سبحانه وتعالى أنجاه كما أنجاه من قبل(1).

المرحلة الثامنة: تنازل الحسن بن على عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهما، بعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى الحسن بن على من الفتنة التى وقعت فى معسكره، ترك المدائن وسار إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال: أما بعد، فإن أكيس الكيس(2) التُّقى، وإن أحمق الُحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقًا لى تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقًا كان لامرئ كان أحق به منى ففعلت ذلك ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (3) [الأنبياء: 111].

ثانيًا: أهم أسباب ودوافع الصلح:

وأما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذى تمَّ بين الحسن ومعاوية فهى:

1- الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة: قال الحسن بن على رضى الله عنه ردًا على نفير بن الحضرمى عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدى، يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت؛ فتركتها ابتغاء وجه الله(4).

(1) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ 139 .

(2) أكيس : أعقل ، والكيس: العقل. لسان العرب (16/201)، ومن أراد التوسع فليراجع مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ 126 - 149 .

(3) المعجم الكبير (3/26)، إسناده حسن .

(4) البداية والنهاية (11/206).

٢- دعوة الرسول ﷺ له: إن دعوة الرسول ﷺ بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين(١) دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسى للصلح والتغلب على العوائق التى فى الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن فى اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، فقد حلت فى قرارة نفسه واستولت على مشاعره وأحاسيسه، واختلطت بلحمه ودمه، ومن خلال هذا التوجيه واستيعابه وفهمه له بنى مشروعه الإصلاحى وقسم مراحله، وكان متيقنًا من نتائجه، فالحديث النبوى كان دافعًا أساسيًا وسببًا مركزيًا فى اندفاع الحسن للإصلاح.

٣- حقن دماء المسلمين: قال الحسن رضى الله عنه: . . . خشيت أن يجىء يوم القيامة سبعون ألفًا -أو أكثر أو أقلُّ- كلهم تنضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدى الله فيما هُرِيقَ دمه(٢)؟ وقال رضى الله عنه: ألا إن أمر الله واقع إذ لا له دافع وإن كره الناس، إنى ما أحببت أن لى من أمة محمد مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعنى مما يضرنى ألحقوا بطِيَّتكم(٣).

٤- حرصه على وحدة الأمة: قام الحسن بن على خطيبًا رضى الله عنه فى إحدى مراحل الصلح فقال: أيها الناس، إنى قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة(٤)، وإنى ناظر لكم كنظرى لنفسى، وأرى رأيًا فلا تردوا على رأيى، إن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة(٥)، وقد تحقق -بفضل الله ثم حرص الحسن على وحدة الأمة- ذلك المقصد العظيم، فقد ارتأى رضى الله عنه أن يتنازل عن الخلافة حقنًا لدماء المسلمين، وتجنبًا للمفاسد العظيمة التى ستلحق الأمة كلها فى المآل إذا بقى مصرًا على موقفه، من استمرار الفتنة، وسفك الدماء، وقطع الأرحام، واضطراب السبل، وتعطيل الثغور وغيرها وقد تحققت -بحمد الله- وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعراض الدنيا حتى سمّى ذلك العام عام الجماعة(٦)، وهذا يدل على فقه الحسن فى معرفته لاعتبار المآلات ومراعاته التصرفات.

٥- مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه: ومن الأسباب التى دعت أمير المؤمنين الحسن ابن على إلى الصلح ما روّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغًا كبيرًا فى جبهة العراق،

---

(١) البخارى رقم ٧١٠٩ .

(٢) البداية والنهاية (٢٠٦/١١) .

(٣) تاريخ دمشق (٨٩/١٤). طيتكم : جهتكم ونواحيكم .

(٤) الضغينة . الحقد .

(٥) الأخبار الطوال صـ ٢٠٠ .

(٦) اعتبارات المآلات ومراعاة نتائج التصرفات صـ ١٦٧ .

وأثر اغتياله على نفسية الحسن رضى الله عنه، فترك فيها حزنًا وأسى شديدًا، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق، ولم يرع الخوارج سابقته فى الإسلام ولأفضاله العظيمة، وخدماته الجليلة التى قدمها للإسلام، فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب، لقد كان علىّ رضى الله عنه معلمًا من معالم الهدى، وفارقًا بين الحق والباطل، فكان من الطبيعى أن يتأثر المسلمون لفقده، ويشعروا بالفراغ الكبير الذى تركه، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيمًا، فجلّلهم الحزن، وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحم عليه، وكان مقتله سببًا فى تزهيد الحسن فى أهل العراق، أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته، فأضلتهم الفتن والأطماع، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ونستثنى من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الرّاحل العظيم رضى الله عنه وأرضاه، فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة وكانت من أسباب زوالها فيما بعد.

٦- **شخصية معاوية:** إن تسليم الحسن بن على الخلافة إلى معاوية مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفًا بايعوه على الموت، فلو لم يكن معاوية أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه[1]، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمالاً جليلة يأتى ذكرها بإذن الله تعالى فى هذا الكتاب.

٧- **اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة:** كان لخروج الخوارج أثر فى إضعاف أمير المؤمنين على رضى الله عنه، كما أن الحروب فى الجمل وصفين والنهروان، تسببت فى ملل أهل العراق للحرب ونفورهم منها، خاصة أهل الشام فى صفين، فإن حربهم ليست كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم، فكم يتمت من الأطفال ورملت من النساء! دون أن يتحقق مقصودهم، ولولا الصلح أو التحكيم الذى رحب به أمير المؤمنين على وكثير من أصحابه لكانت مصيبة على العالم الإسلامى لا تتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع على رضى الله عنه إلى الشام مرة أخرى قد تسلل إلى فريق منهم وتميل إليه نفوسهم وإن كانوا يعلمون أن عليًا على حق[2]، فقد تسلمّ الحسن رضى الله عنه الخلافة، وجيش العراق مضطرب وأهل الكوفة متبرددون فى

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية صـ ٥٧.

(٢) خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد على صـ ٣٤٥ .

(٣) الشيعة وأهل البيت صـ ٣٧٩ نقلاً، عن الاحتجاج للطبرسى صـ ١٤٨.

أمرهم[٣]، وهذا ليس على إطلاقه، فجيش الحسن يمكن تقـويته، كما أن هناك فصائل منه على استعداد للقتال على رأسهم قيس بن سعد الخزرجي وغيره من القادة[١].

٨- قوة جيش معاوية: وفي الجانب الآخر كان معاوية رضي الله عنه يعمل بشتى الوسائل سرًا أو علانية على إضـعاف جانب أهل العراق منذ عهد علي رضي الله عنه، فـاستغل ما أصاب جيشـه من تفكك وخلاف، واجتمعت لمعاوية رضي الله عنـه عوامل ساعدت على قوة جبهته، منها: طاعة الجيش له، واتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، وخبرته الإدارية في ولاية الشام، وثبات مـصادره المالية، وعدم تحرجه من دفع الأموال من أجـل تحقيق أهدافه التي يراها مصلحة للأمة.

ثالثًا: شروط الصلح:

تحدثت الكـتب التاريخيـة والمصادر الحـديثة وأشـارت إلى حصول الصـلح وفق شروط وضعـها، الطرفان، وقـد تناثرت تلك الشروط بين كـتَّاب التاريخ، وحـاول بعض العلماء جمعها وترتيبها، واستئناسًا إلى ما وصلوا إليه نذكر أهم شروط الصلح منها:

١- العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء: وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء منهم ابن حجر الهـيثمي حيث ذكر صورة الصلح بين الحـسن ومعاوية وجاء فيـها: صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمـين وأن يعمل فيهم بكتـاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشـدين المهديين[٢]، وحتى بعض كـتب الشيعة ذكـرت هذا الشرط، وهذا دليل على توقير الحسن بن علي لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلى حد جعل أحد الشروط على معاوية بن أبي سفيـان رضي الله عنه أن يعمل ويحكم في الناس بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخلفاء الراشدين[٣]، وفي النسخة الأخرى: الخلفاء الصالحين[٤]، ففي هذا الشرط ضبط لدولة معاوية مرجعيتها ومنهجها في الحياة.

٢- الأموال: ذكر البـخاري في صحيـحه أن الحسن قال لوفـد معاوية عبـد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا -بني عبد المطلب- قد أصبنا من هذا المال.. فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك[٥] به.

---

(١) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي صـ ٣٥٨ للصَّلاَّبيُّ.
(٢) الصواعق المرسلة (٢/٣٩٩).
(٣) الشيعة وأهل البيت صـ ٥٤.
(٤) منتهى الآمال (٢/٢١٢)، نقلاً عن الشيعة وأهل البيت صـ ٥٤.
(٥) البخاري، ك الصلح رقم ٢٧٠٤.

فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بنى عبد المطلب، يريد الحسن ألا يطالبهم معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم[1]، وأما الروايات التى تشير بأن يجرى معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليونى درهم فى كل عام ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصلات على بنى عبد شمس، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات، وما قيل حولها من تحليل وتفسير، لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور أن إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفًا أمام مصالحه الخاصة[2]. أما حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات[3].

٣- **الدماء:** ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ أحد منهم بهفوة أو إحنة، ومما جاء فى رواية البخارى أن الحسن قال لوفد معاوية.. وأن هذه الأمة عاثت فى دمائها. فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما أصابوا من الدماء[4]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشىء كان فى أيام على، وهى قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفات إلى الماضى وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[5]، وقد تمّ التوافق المبنى على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق من كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحدًا بذنب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وتأليف القلوب،

٤- **ولاية العهد، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين؟:** قيل: ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن، وإن معاوية وعد إن حدث به حدث والحسن[6] حى ليُسمينَّه وليجعلن الأمر إليه[7]، ولكن ابن أكثم روى فى هذا الخصوص عن الحسن أنه قال: أما ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب فى ذلك، ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه[8]، وجاء فى نص الصلح الذى ذكره ابن حجر الهيثمى:.. بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[9]، وعند التدقيق فى روايات طلب الحسن الخلافة بعد

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ ٦٤ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٦٣ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) البخارى، ك الصلح (٢/٩٦٣) .
(٥) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام صـ ٣٤١ .
(٦) فتح البارى (١٣/ ٧٠) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٤) .
(٨) الفتوح (٣ ، ٤/ ٢٩٣).
(٩) الصواعق المرسلة (٢/ ٢٩٩)

معاوية، نجد أنهـا تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخـلافة حقنًا لدماء المسلمين وابتـغاء مرضاة الله ثم يوافق علـى أن يكون تابعًا يطلب أسباب الدنيـا، ويشرئب عنقه للخلافة مرة أخرى، والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكر جبير بن نفير قال: قلت للحسن بن على: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فـقال: كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركـتها ابتغاء مرضاة الله[1]، ومن الملاحظ أن أحدًا من أبناء الصـحابة أو الصحـابة لم يذكروا خلال بيعـة يزيد شيئًـا من ذلك، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن بن معاوية، لاتخذها الحسين بن على رضى الله عنه حجـة، ولكن لم نسمع شيئًـا من ذلك على الإطلاق؛ مما يؤكد أن مسـألة خلافة الحسن لمعاوية لا أسـاس لها من الصحة، ولو كان الحـسن رضى الله عنه أسند إليه منصب ولاية العهد فى الشـروط لكان قريبًا فى عهد معـاوية من إدارة الدولة أو تولى أحد الأقاليم الكبرى، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شئـون الحكم، كما أن روح ذلك العصر تشير إلى أن مبدأ اختيار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل.

رابعًا: نتائج الصلح:

إن أهم نتائج الصلح هى:

١- توحد الأمة تحت قيادة واحدة.

٢- عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه.

٣- تفرغ الدولة للخوارج.

٤- انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام

(١) البداية والنهاية (١١/٢٠٦).

الفصل الثانى

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

المبحث الأول

بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه

أولاً: بيعة معاوية رضى الله عنه:

وبتنازل الحسن بن على رضى الله عنه اكتملت عوامل تولى معاوية الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة[(١)]، وسجل فى ذاكرة الأمه عام الجماعة وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التى تزهو به على مر العصور، وتوالى الدهور، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية، ورضيت به أميراً عليها، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتتة، وكان الفضل فى ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحى العظيم الحسن بن على بن أبى طالب، ويعد عام الجماعة من علامة نبوة المصطفى ﷺ وفضيلة باهرة من فضائل الحسن ولا يلتفت إلى ما قاله العقاد من فهم غير صحيح عن عام الجماعة فى هجومه الخاطىء على المؤرخين الذين سموا سنة إحدى واربعين هجرية بعام الجماعة، فقد قال: فليس أضل ضلالاً، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التى استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت فى تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها[(٢)]، والعقاد رحمه الله لم يأت بجديد فى حكمه الخاطىء بل سبقه إليه كثير من مؤرخى الشيعة، ويكفى معاوية فخراً أن كل الصحابة الأحياء فى عهده بايعوه، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين وعدوا خلافته شرعية ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلى أمر المسلمين ويقوم به خير قيام فى تلك المرحلة، فروى عن الأوزاعى أنه قال: أدركت خلافة معاوية عدة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبوسعيد الخدرى، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر مما سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٧)، تاريخ خليفة صـ٢٠٣.

(٢) معاوية بن أبى سفيان للعقاد صـ ٢٥.

حضـروا من الكتـاب تنزيله، وأخذوا عن رسـول الله ﷺ تأويله، ومن التـابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: المسور بن مخرمـة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيريز، وفي أشباه لهم لم ينزعوا يدًا من جماعة في أمة محمد ﷺ[1]. وقال ابن حزم: فبويع الحسن ثم سلّم الأمر إلى معاوية، وفي بقايا الصـحابة من هو أفـضل منهما بلا خـلاف ممن أنفق قبل الفـتح وقاتل، وكلهم أولهم عن آخرهم بايع معـاوية ، ورأى إمامته[2]. فالصحابة لم يبـايعوا معاوية رضى الله عنه إلا وقد رأوا فيه شروط الإمامة متـوافرة، ومنها العدالة ، فمن يطعن في عدالة معاوية وإمامته فقد طعن في عدالة هؤلاء الصحابة جميعهم وخونهم وتنقصهم. فمن رضيه هؤلاء لدينهم ودنياهم ألا نقبله ونرضى به نحن؟ ومن قال لعلهم بايعوا خـوفا فقد اتهمهم بالجبن وعدم الصدع بالحق، وهم القوم المعـلوم من سيرتهم الشجاعة والشهـامة وعدم الخوف في الله لومة لائم[3]. وفي مبايعة سبط رسول الله ﷺ الحسن بن على لمعاوية درس بليغ وفهم عميق لآيات النهي عن الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فـالصراط المستقـيم هو: القرآن، والإسلام، والفطرة التي فطر الناس عليـها، والسبل هي: الأهواء، والفرق، والبدع، والمحـدثات، قال مجاهد: ولا تتبـعوا السبل: يعني: البدع، والشـبهات والضلالات[4]. ونهى الله سبـحانه وتعالى هذه الأمـة عما وقـعت فيه الأمم السـابقة من الاختلاف والتفرق مـن بعد ما جاءتهم البيانات، وأنزل الله إليهم الكتب، فـقال سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] لقـد تحقق بفضل الله تعالى ثم بـنجاح الحسن بن على في صلحه مع معاوية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم وهذا المقصـد من أهم أسبـاب التمكين لدين الله تعـالى ونحن مأمورون بالـتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، فلا بدّ من تضافر الجهـود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصـلاح ذات البين إصلاحًا حقيقيًا لا تلفـيقيًا، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر ممّا تصلح، وقد تحدث الشيخ السعدى على الجهاد المتعلّق بالمسلمين بقيام

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤ ، ٤٣٥).

(٢) الفصل في الملل والنحل (٥/ ٦) .

(٣) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية صـ ١٢٠ .

(٤) تفسير مجاهد صـ ٢٢٧ ، دراسات في الأهواء والفرق والبدع صـ ٤٩ .

الالفة، واتفاق الكلمة وبعد أن ذكر الآيات، والأحاديث الدالَّة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم، قال: فإن من أعظم الجهاد السَّعى فى تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية(١). ولا ينظر للحديث الضعيف الذى رواه ابن عدى من طريق علىٍّ بن زيد، وهو ضعيف، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد ومن حديث مجالد(٢)، وهو ضعيف أيضًا، عن أبى الودَّاك عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه(٣). أسنده أيضًا من طريق الحكم بن ظهيره(٤)، وهو متروك. وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحًا لبادر الصحابة إلى فعل ذلك، لأنَّهم كانوا لا تأخذهم فى الله لومة لائم(٥).

١ ـ انتهاء عهد الخلافة الراشدة:

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن على لمعاوية رضى الله عنه، فقد قال رسول الله ﷺ: **تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء، أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء أن تكون، يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت**(٦). وقد بين رسول الله ﷺ: **خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله الملك، أو ملكه من يشاء**(٧)، وقوله ﷺ: **الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك**(٨). وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا(٩)، وبذلك تكون مرحلة خلافة النبوة قد انتهت بتنازل الحسن رضى الله عنه عن الخلافة لمعاوية فى شهر ربيع الأول من سنة ٤١هـ(١٠)، فالحديث النبوى الكريم أشار إلى مراحل تاريخية وهى:

(١) وجوب التعاون بين المسلمين صـ ٥ .
(٢) الكامل فى الضعفاء (٦/ ٢٤١٦) .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤)، الكامل فى الضعفاء (٢/ ٦٢٦) .
(٤) الكامل (٢/ ٦٢٦/ ٦٢٧) .
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤) .
(٦) مسند أحمد (٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة .
(٧) سنن أبى داود شرح عون المعبود (١٢/ ٢٥٩)، صحيح سنن الألبانى (٣/ ٨٧٩) .
(٨) سنن الترمذى شرح تحفة الأحوذى (٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧) حديث حسن .
(٩) البداية والنهاية (٨/ ١٦) .
(١٠) مرويات خلافة معاوية صـ ١٦٥ .

أ - عهد النبوة.

ب- عهد الخلافة الراشدة.

جـ- عهد الملك العضوض[1].

د- عهد الملك الجبرى.

هـ- ثم تكون خلافة على منهاج النبوة..

وقد بين رسول الله ﷺ بأنه ستكون خلافة نبوة ورحمة ثم يكون ملك ورحمة[2]. ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكًا، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء بدليل ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى وإنه لا نبى بعدى، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: وفوا بيعة الأول، فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»**[3]. فقوله: **«فتكثر»** دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيرًا، وأيضًا قوله: **«وفوا بيعة الأول فالأول»** دل على أنهم يختلفون، والراشدون لم يختلفوا، وقوله: **«فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»** دليل على مذهب أهل السنة، فى إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم[4]، فمعاوية رضى الله عنه أفضل ملوك هذه الأمة، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة، وأما هو فكانت خلافته ملكًا، وكان ملكه ملكًا ورحمة، وكان فى ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين، ما يعلم أنه كان خيرًا من ملك غيره[5]، ومعاوية رضى الله عنه كان عالمًا ورعًا عدلاً دون الخلفاء الراشدين فى العلم والورع والعدل، كما ترى من التفاوت بين الأولياء، بل الملائكة والأنبياء، فإمارته وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن - رضى الله عنه - إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله، فإنه توسع فى المباحات، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة، وأما رجحان الخلفاء الأربعة فى العبادات والمعاملات فظاهر مما لا سترة فيه[6]، وقد حدد ابن خلدون مدى التغير الذى حدث، فقدر أن خلافته وإن كانت تحولت إلى ملك، فإن معانى الخلافة بقيت بعضها، وإنما كان التغير فى الوازع، فبعد أن كان دينًا انقلب عصبية وسيفًا؛ يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار

(١) العضوض : الشديد فيه عسف وعنف وظلم . (٢) سنن الدرامى (٢/ ١١٤) الأشربة ، الفتاوى (٣٥/ ١٤) .

(٣) البخارى رقم ٣٤٥٥ . (٤) الفتاوى (٣٥/ ١٥) .

(٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٩٢) . (٦) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية صـ ٧٨ .

الحكم مستندًا إلى العصبية والقوة، ولكن معـانى الخلافة أى مقاصدها وأهدافها بقيت، أى أن غايات هذا الملك كان لاتزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل وتنفيذ الواجبات التى يأمر بها الإسلام؛ أى أن الحكم أو الملك استـمر إسلاميًا وشرعيًا،[1] ولخص الأدوار التى مرت بهـا الخلافة فـقال: فقـد بين أن الخلافة قـد وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبست مـعانيها واختلطت بالملك، ثم انفرد الملـك حيث افترقت عصبـية الخلافة والله مقدر الليل والنهار[2]. فالدور الأول الذى يشير إليه هو عـصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة، والدور الثانى هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين - ولا يمنع كذلك العثمانيين- وهذا عصـر الخلافة المختلطة بالملك أو الملك المختلط بالخلافة؛ أى الذى يحقق فى الوقت مقاصد الخلافة، أما الدوز الثالث فهو عصر الملك المحض الذى صار يقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية، فهذا وصف أو تفـسيـر ابن خلدون المؤرخ الفقـيه للتطور الذى حـدث والأدوار التى مرت بـها الخلافة[3].

إن الخلافة الحقيـقية أو الكاملة أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عـامًا، هو عصر الخلفاء الراشدين ثم تحولت إلى ملك، ولكن لكى نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغيير حصل فى الأساس الذى قامت عليه، أما حقـيقتهـا فقد بقـيت، فالتغيـر إذن لم يكن كليا ولكن جزئيًا؛ أى أن الخـلافة فى العصر الأول كانت هى الخلافـة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصرها بقيت، فهى خلافة أقل فى الرتبة أو خلافة مـختلطة بالملك[4]، والرأى العام فى الإسـلام يتمسك بالمثال، أو خـلافة النبوة، أو الخلافة الكاملة، وهى تلك التى تقوم على الشورى والاختـيار التام من الأمة وأنه إذا كانت الظروف الواقعية والعوامل الاجتمـاعية قد حتمت أو أدت إلى هذا التطور، فإن تحمل ذلك أو قوله لا يكون إلا مؤقتًا أو من باب الضرورة، ولكن لايلزم أن يكون المثال الكامل حاضرًا دائمًا فى فكر الرأى العام، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العـودة إلى تحقيق المثل الكامل، ولذا فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشبتة بالمثال الكامل ولا تستخلص مـبادئها إلا منه. وتفرق بين الخـلافة وهى الخلافة الحـقيقية الشـرعية، والخلافة الواقعية التى بعدت قليلاً أو كـثيرًا عن الحقيقة[5]، وقد ذكر ابن تيميـة: أن مصير الأمر -

(١) النظريات السياسية للريس ص ١٩٤ نقلاً عن المقدمة-لابن خلدون . (٢) المصدر نفسه ص ١٩٥ .

(٣) المصدر نفسه ص١٩٥ . (٤) المصدر نفسه ص ١٩٦

(٥) المصدرَ نفسه ص ١٩٧ .

أى الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة الأمراء ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص فى الراعى والرعية جميعًا، فإنه كما تكونوا يولَّ عليكم وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]. لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكًا. ظهر النقص فى الأمراء، وكذلك فى أهل العلم والدين وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا فى أواخر عصر أصاغر الصحابة فى إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعى التابعين انقرضوا فى أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية[١].

٢- هل يعتبر معاوية رضى الله عنه أحد الخلفاء الاثنى عشر؟

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه: دخلت مع أبى على النبى ﷺ، فسمعته يقول: **إن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة**، قال: ثم تكلم بكلام خفى علىَّ، قال: فقلت لأبى: ما قال، قال: **كلهم من قريش**[٢]، وفى رواية أخرى عن جابر: **لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة.. كلهم من قريش**[٣] وفى رواية أخرى عنه: لا يزال هذا الدين عزيزًا منيعًا إلى اثنى عشر خليفة.. كلهم من قريش[٤]، زاد أبو داود فى سننه، بإسناده عن جابر رضى الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقال: **ثم يكون الهرج**[٥]. وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحًا يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بنى العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدى المُبَشَّر به فى الأحاديث الواردة بذكره.... وليس هذا بالمنتظر الذى تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء[٦]، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثنى عشر الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية[٧]. وبالتأمل فى النص بكل حيدة وموضوعية نجد أن هؤلاء الاثنى عشر وصفوا

(١) الفتاوى (١٠/٢٠٧).
(٢) صحيح مسلم على شرح النووى (١٢/٥٠٢).
(٣) صحيح مسلم على شرح النووى (١٢/٥٠٣).
(٤) المصدر نفسه (١٢/٢٠٣).
(٥) صحيح سنن الألبانى (٣/٨٠٧)، هرج الناس وقعوا فى فتنة واختلاط وقتل.
(٦) سامراء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقى دجلة.
(٧) تفسير ابن كثير (٢/٣٤).

بأنهم يتولون الخلافة، وأن الإسلام فى عهدهم يكون فى عزة ومنعة وأن الناس تجتمع عليهم، ولا يزال أمر الناس ماضيًا وصالحًا فى عهدهم وكل هذه الأوصاف لا تنطبق على من تدعى الاثنا عشرية فيهم الإمامة. فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين على والحسن[1] . . . ثم إنه ليس فى الحديث حصر لأئمة بهذا العدد، بل نبوة منه بأن الإسلام لا يزال عزيزًا فى عصور هؤلاء، وكان عصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية عصر عزة ومنعة[2]، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسلام وشرائعه فى بنى أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم[3]، وعدّ معاوية من الأئمة المقصودين بالحديث[4].

ثانيًا: أهم صفات معاوية رضى الله عنه:

اشتهر معاوية رضى الله عنه بصفات كثيرة من أهمها:

١ - العلم والفقه:

استفاد معاوية رضى الله عنه من ملازمته لرسول الله ﷺ علمًا وتربية، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثير قد ذكرت بعضها، وقد روى له البخارى ومسلم مع شرطهما أن لا يرويا إلا عن ثقة ضابط صدوق[5]. وشهد له ابن عباس بالفقه، فعن ابن أبى مليكة قال: قيل لابن عباس رضى الله عنه: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية فإنّه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: أصاب إنه فقيه. رواه البخارى[6]. قال الشرّاح: أى مجتهد، وفى رواية أُخرى للبخارى عن أبى مليكة قال: أوتر معاوية -رضى الله عنه - بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فأتى ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال: دَعْهُ فإنه صحب رسول الله ﷺ، وكان ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ من فضلاء الصحابة، ويُلقّب: البحر، لسعة علمه، وحبر الأمة، وترجمان القرآن، وقد دعا له الرسول ﷺ بالعلم والحكمة والتأويل، فاستجيب، وكان من خواص أصحاب على رضى الله عنه وشديد الإنكار على أعدائه، وأرسله على رضى الله عنه ليحاج الخوارج فحاجهم حتى لم يبق لهم حجة، فإذا شهد مثله لمعاوية بأنه مجتهد، وكف مولاه عن الإنكار مستدلاً بأنه من الصحابة[7]، كما أنه كان كاتب رسول الله ﷺ وذكره مفتى الحرمين أحمد بن عبد الله بن

(١) منهاج السنة (٤/ ٢١٠)، المنتقى صـ٥٣٣ .

(٢) أصول الشيعة (٢/٨١٦) .

(٣) منهاج السنة (٤/ ٢٠٦) .

(٤) المصدر نفسه (٤/٢٠٦) .

(٥) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية صـ٤١ .

(٦) البخارى رقم ٣٧٦٤ رقم ٣٧٦٥ .

(٧) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية صـ ٤١ .

محمد الطبرى فى خلاصة السير إن كتَّابه ﷺ ثلاثة عشر: الخلفاء الأربعة وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وأبى بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسلمى، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبى سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، وكان معاوية وزيد ألزمهم لذلك وأخصهم به[1]، كما أن الفقهاء يعتمدون على اجتهاده ويذكرون مذهبه كسائر الصحابة، كقولهم: ذهب معاذ بن جبل، ومعاوية وسعيد بن المسيب إلى أن المسلم يرث الكافر، وقولهم: روى[2] استلام الركنين اليمانيين عن الحسن أو الحسين وصح عن معاوية. وقال أبو الدراء الصحابى لأهل الشام: ما رأيت أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ، من إمامكم هذا ـ يعنى معاوية ـ[3] وكان رضى الله عنه حريصًا على تعليم الناس العلم، فعن أبى أمامة سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان وهو جالس على المنبر أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا، فقال: أشهد أن محمدًا رسول الله، فقال معاوية: وأنا. فلما قضى التأذين قال: يا أيها الناس، إنى سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس ـ حين أذن المؤذن ـ يقول ما سمعتم منى من مقالتى[4]، وكان رضى الله عنه يحث الناس على الفقه فى الدين ويروى لهم الأحاديث الدالة على أهمية التفقه فى الدين، فعن الزهرى قال: أخبرنى حميد قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطب قال: سمعت النبى ﷺ يقول: **من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة. أو حتى يأتى أمر الله**[5]، وكان رضى الله عنه يكاتب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، فعن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلىَّ ما سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى على المغيرة، قال: سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**. وقال ابن جريج: أخبرنى عدة أن ورادًا أخبره بهذا. ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعته يأمر الناس بذلك القول[6]، وكان رضى الله عنه حريصًا على اتباع السنة النبوية، فعن سعيد بن المسيب، وعن حمد بن عبد الرحمن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة فى آخر مقدمة قدمها، قال على منبر رسول الله ﷺ: أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية صـ ٤١ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٥٧ .
(٣) منهاج السّنة (٣/ ١٨٥) .
(٤) فتح البارى (٢/ ٤٦٢) .
(٥) المصدر نفسه (١٣/ ٣٠٦) .
(٦) المصدر نفسه (١١/ ٥٢١) .

رسول الله ﷺ فى هذا اليوم - يوم عاشوراء - يقول: «من شاء منكم أن يصومه فليصمه» وفى رواية: «وإنى صائم»، فصام الناس[١]، قال: وسمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا. وأخرج قصة من شعر من كمه، فقال: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم،[٢] يعنى وصل المرأة شعرها بشعر آخر، وقد صح فى عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة. وفي رواية أخرى أنــه قال لهم: إنكم أحـدثتم -أى حدث سوء- نهـى رسول الله ﷺ عن (الزور)[٣]. سماه الرسـول زورًا لما فيه من التزوير والتغـيير، فهنا نراه حريصًـا على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذى رأى أن الناس أهملوه، كمـا نراه حريصًا على إماتة بدعة ظهرت في الناس، وهى تقليـد اليـهوديـات بوصل الشعـر[٤]. وروى عبـد الرحمن بن هـرمز الأعرج: أن العباس بن عـبد الله بن عباس أنكح عبد الرحـمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحـمن ابنته، وقد جعلا - أى العـقدين - صداقًا (أى كل منهمـا صداق الأخرى، فكتب معاوية بن أبى سفيان - وهو خليفة - إلـى مروان، يأمره بالتفريق بينهما، وقال فى كتـابه: هذا الشغار الذى نهـى عنه رسول الله ﷺ[٥]، فهـو يراعى إقامة السنة فى حـياة الناس فى الأمور كلها، أمور الفرد، وأمـور الأسرة، وأمور الجماعة[٦]، وكان رضى الله عنه لا يروى الحديث عن رسول الله إلا بمناسبة اقتـضته، فقد ورد أنه دخل على عبد الله ابن الزبير وابن عـامر، فقام ابن عـامر له، ولم يقم ابن الزبير، فـقال معاوية: مَـهْ. قال رسول الله ﷺ: من أحب أن يَمثُل له عباد الله قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار[٧]. وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسـول الله قصر من شعره - أى فى العمرة - بِمشْقَص، فـقلنا لابن عباس: مـا بلغنا هذا إلا عن معاوية. فـقال: ما كان مـعاوية على رسول الله متّهمًا[٨]، وكان رضى الله عنه يهتم بمذاكرة العلم ويحـرص عليه، فعن عبد الله بن الحارث قال: دخلت مع ابن عباس على مـعاوية فأجلسه على السرير، وفى تلك القصـة سأله معـاوية عن مسألة فـقهيـة، وكان رضى الله عنه يعلم الناس ويحـثهم على سؤاله والاستفادة من علمه، فقد خطب يوم جـمعة وقال: أيها الناس اعقلوا قولى، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة منى، أقيموا وجـوهكم وصفوفكم فى الصلاة، فلتقيمن وجوهكم وصفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم، خذوا على أيدى سفهائكم أو ليسلطنهم

(١) فتح البارى (٤/ ٢٨٧).
(٢) الفتح (٦/ ٥٩١).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٥٩٥).
(٤) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى صـ ٧١.
(٥) مسند أحمد رقم ١٦٨٥٦ إسناده حسن.
(٦) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى صـ ٧١.
(٧) البخارى رقم ٣٤٨٨.
(٨) مسند أحمد رقم ١٦٨١٣ إسناده صحيح.

الله عليكم، فليسومنكم سوء العذاب، تصدقوا لا يقولنَّ الرجل: إنى مقلٌّ. فإن صدقة المقلِّ أفضل من صدقة الغنى، إياكم وقذف المحصنات، وأن يقول الرجل: سمعت: وبلغنى فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسُئل عنها يوم القيامة[1]. وكان رضى الله عنه حريصًا على متابعة رسول الله ﷺ، فعندما دخل مكة سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة.[2] وله اجتهاد فى تعيين ليلة القدر، فقد روى ابن أبى شيبة بإسناد صحيح عن معاوية قال: ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين[3]، وكان يعترف بالحجة والبرهان لغيره، فعن ابن عباس أنه طاف مع معاوية وكان معاوية يستلم الأركان بالبيت، فقال له ابن عباس رضى الله عنهما: إنه لا يستلم هذان الركنان. فقال: ليس شىء من البيت مهجوراً.[4] وجاء فى رواية: فقال له ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فقال معاوية: صدقت[5]، ومن الأحكام التى قضاها معاوية، رضى الله عنه، ما أخرجه ابن أبى شيبة من طريق عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضاء أحسن من قضاء قضى به معاوية: نرث أهل الكتاب ولا يرثوننا، كما يحل النكاح فيهم ولا يحل لهم.[6] ومن المسائل الفقهية التى أثرت عن معاوية رضى الله عنه:

أ- أثر عنه رضى الله عنه أنه أوتر بركعة[7].

ب- أثر عنه رضى الله عنه الاستقاء بمن ظهر صلاحه[8].

جـ- أنه يجزىء إخراج نصف صاع من البر فى زكاة الفطر[9].

د- استحباب تطييب البدن لمن أراد الإحرام[10].

هـ- جواز بيع وشراء دور مكة[11].

و- التفريق بين الزوجين بسبب العنَّة[12].

ز- وقوع طلاق السكران[13].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٧) .
(٢) الفتح (٣/ ٥٤٤) .
(٣) الفتح (٤/ ٣١١) .
(٤) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى صـ ٥٨٥ .
(٥) المصدر نفسه صـ ٥٨٦ .
(٦) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ٣٧٤)، سنن سعيد (١/ ٤٥) .
(٧) فتح البارى (٧/ ١٣٠) .
(٨) المغنى (٣/ ٣٤٦) .
(٩) زاد المعاد (٢/ ١٩) .
(١٠) المغنى (٥/ ٧٧) .
(١١) المصدر السابق (٦/ ٣٦٦) .
(١٢) العنَّةُ : هى عجز الرجل عن إتيان زوجته. القاموس المحيط ص ١٥٧٠، زاد المعاد (٥/ ١٨١) .
(١٣) المصدر السابق (٥/ ٢١١) .

ح- عدم قتل المسلم بالكافر قصاصًا[1].

ط- حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتيل[2].

وأما علومه فى الفقه السياسى والسياسة الشرعية، ومقاصد الشريعة، وفقه الجهاد، فالكتاب سوف يحدثنا عن الكثير من فقه فى إدارة الدولة وتحقيق أهدافها .

٢- الحلم والعفو:

اشتهر أمير المؤمنين معاوية بصفة الحلم وكان يضرب به المثل فى حلمه رضى الله عنه، وكظم غيظه وعفوه عن الناس، وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية من الحلم حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلامًا سيئًا شديدًا، فقيل له: لو سطوت عليه: فقال: إنى لأستحى من الله أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى، وفى رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إنى لأستحى أن يكون جرم أحد أعظم من حلمى. وقال الأصمعى عن الثورى قال: قال معاوية: إنى لأستحى أن يكون ذنب أعظم من عفوى، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أواريها بسترى. وقال معاوية: يابنى أمية فارقوا قريشًا بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتما وأوسعه حلما، وأرجع وهو لى صديق، إن استنجدته أنجدنى، وأثور به فيثور معى، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرمًا، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم[3] وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفسًا حين يسأل، وأحسنهم فى المجالس خلقا، وأحلمهم حين يستجهل[4]، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم

فلا تسفه وإن ملئتَ غيظاً ... على أحد فإن الفحش لوم

ولا تقطع أخاً لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[5]

وكتب معاوية إلى نائبه زياد: إنه لا ينبغى أن يُساسَ الناس سياسة واحدة باللين

(١) المغنى (١١/ ٤٦٦) .

(٢) المصدر السابق (١١/ ٥٧٧) ، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى ص ٢٨، ٢٩.

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٤١) . (٤)، (٥) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٢) .

فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَل الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد بابا يدخل منه[1].

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه تبين لنا شيئًا مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته، أو يصارحونه بقوة بما يرونه حقًا وهو يخالفهم فى ذلك، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذى لم يخالطه ضعف أثر فى نجاحه فى تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضا والقناعة بسياسته، وهكذا تأتى مكارم الأخلاق التى من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد أبان فى هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل كما أن النصر يخالطه شيء من العز، ولكن أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التى منها اكتساب الأصدقاء والأنصار[2]. وفى كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التى تخيف المتهورين المائلين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ولكنها فى الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة[3]، ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة الحلم، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوما وذكر معاوية فقال-: ما رأيت مثله فى حلمه واحتماله وكرمه[4]، وقال قبيصة بن جابر: مارأيت أحدًا أعظم حلمًا، ولا أكثر سؤددًا، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجًا، ولا أرحب بالمعروف من معاوية[5]. وقال عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما: لله در ابن هند، إن كنا لنُفرْقه[6]، وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتِّعنا به مادام فى هذا الجبل حجر- وأشار إلى أبى قبيس[7]. وفى قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جرىء شجاع ولكن يظهر عمدًا ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدى لديهم، وهو أدهى أهل الأرض فى زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، وهو فى ذلك كله يخدم هدفًا ساميًا وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية، ولقد تمنى ابن

---

(1) البداية والنهاية (11/443) .

(2)، (3) التاريخ الإسلامى (17/26) .

(4)، (5) البداية والنهاية (11/439) .

(6) نفرقه : نخوّفه .

(7) البداية والنهاية (11/442) .

الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده[1]، ويصف حبر الأمة عبدالله بن عباس رضى الله عنهما سياسة معاوية بكلام موجز، لكنه يعنى خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس، وكانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا[2]. وهذا يعنى أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوى الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها، ومن مواقفه فى الحلم أنه: جرى بين رجل يقال له أبو جهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو جهم بكلام فيه غمزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبى الجهم بمال، فقال أبو الجهم فى ذلك يمدح معاوية:

نميل على جوانبه كأنا ... نميل إذا نميل على أبينا
نُقلِّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرماً ولينا[3]

وهكذا كان لحلم معاوية رضى الله عنه وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير فى نفس أبى الجهم، فقال هذين البيتين فى الثناء على معاوية، ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقًا لقوله الله تعالى: ﴿ولا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

ونظرًا لحلم معاوية الكبير وما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أثنى عليه[4] بقوله: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه[5]. فهذا قول دقيق من عمر فى وصف معاوية، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم، والعزة التى تجعله منيعا لا ينال ما عنده على قهر منه، وهذه الصفة من صفاته التى جعلة أمير المؤمنين عمر يبقيه أميرًا على الشام لخطورة ذلك الثغر[6].

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٧/٢٧) .
(٢) البداية والنهاية (١١/٤٤٣) .
(٣) التاريخ الإسلامى (١٧/٢٨)، البداية والنهاية (١١/ ٤٤٠) .
(٤) التاريخ الإسلامى (١٧/٢٩، ٣٠) .
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤١٥) .
(٦) التاريخ الإسلامى (١١/ ٣٠)

وقال معاوية رضى الله عنه: العقل والحلم أفضل ما أعطى العبد، فإذا ذُكِّر ذكر، وإذا أُعطى شكر، وإذا ابتلى صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز.[١] ففى هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه دررًا من الحكم، وهى الشكر عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء، والتحكم فى السلوك عند الغضب، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة، فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه فى صفحات، وهذا من جوامع الكلم، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة، وذلك فى جمع المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة، وقد اشتهر فى هذا البيان عدد من الصحابة رضى الله عنهم تتلمذوا فى ذلك على رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم[٢].

٣- الدهاء والحيلة:

ومن الصفات التى تميز بها معاوية رضى الله عنه صفة الدهاء والحيلة، ومما يروى من دهائه وحسن إدارته وتدبيره، أن المسلمين غزوا فى أيامه فأسر جماعة منهم، فوقفوا بين يدى ملك الروم بقسطنطينية، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة[٣] ممن كان واقفًا بين يدى الملك فلطم حرّ وجهه[٤]، وكان رجلاً من قريش فصاح: وا إسلاماه أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وأضعت ثغورنا وحكَّمت العدو فى دمائنا وأعراضنا، فنمى ذلك الخبر إلى معاوية، فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه، وامتنع عن الناس ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أعمل الحيلة فى إقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فدى ذلك الرجل، ومن أسر معه من المسلمين، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ثم قال له: لم نهملك، ولم نضيعك، ولا أبحنا دمك وعرضك، ومعاوية أثناء ذلك يدبر الرأى ويعمل الحيلة ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان عارفًا كثير الغزوات فى البحر صُمك[٥] من الرجال مرطان بالرومية، فأحضره وخلابه، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله إعمال الحيلة فيه، والتأنى له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالا عظيمًا، ليبتاع به أنواعًا من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك، وأنشأ له مركبا لا يلحق فى جريه سرعة، ولا يدرك فى سيره، إنشاءً عجيبًا، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها وأخبره أن معه حاجة للملك، وأنه يريد

(١) أنساب الأشراف (٥/٣٣٦).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٩/ ٢٠, ٣٥٥).
(٣) البطارقة: جمع بطريق وهو رئيس الأساقف والأسقف رجل الكنيسة.
(٤) لطم حرّ وجه: ما ظهر منه.
(٥) الصمك والصموك: القوى الشديد، والغليظ الجافى.

التجارة إلى القسطنطينية، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك فراسل[1] الملك بشأنه، فأذن له، فدخل خليج القسطنطينية، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقته، وبايعهم وشاراهم، وقصدهم، إلا ذلك البطريق الذى لطم القرشى، وتأنى الصورى من الأمور على حسب مارسمها له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها، وأنواعًا من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سرًا، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه وتقدم إليه معاوية فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت فى كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره، واستعانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا، واجعله القيم بأمرك، والمتفقد لأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما أمرتك به، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذى يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه، فلما رجع الصورى إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة مما لم يطلب زادت منزلته، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان فى بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك، قبض عليه ذلك البطريق فى دار الملك، وقال له: ما ذنبى إليك؟ وبم استحق غيرى أن تقصده، وتقضى حوائجه وتعرض عنى، قال الصورى: أكثر من ذكرت ابتدأنى وأنا رجل غريب، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين، وجواسيسهم لئلا يَنِمُّوا خبرى ويوشوا بأمرى إلى المسلمين فيكون فى ذلك بوارى، والآن فإذا قد علمت ميلك إلىَّ فلست أحب أن يعتنى بأمرى سواك، ولا يقوم بحالى عند الملك وغيره غيرك، فمرنى بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب، ولم يزل هذا فعله، يتردد من الروم إلى معاوية ومن معاوية إلى الروم ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج الجليلة والحيلة لا تتوجه إلى معاوية، حتى مضى على ذلك سنين فلما كان فى بعضها قال البطريق للصورى، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام قد اشتهيت أن تعمدنى بقضاء حاجة، وتمن بها علىَّ، وهى أن تبتاع لى بساط سوسنجرد بمخاده ووسائده، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمرة والزرقة وغيرها، ويكون من صفة كذا وكذا، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصورى أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق وكان للبطريق ضيعة سرية، وفيها قصر مشيد، ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية راكبه على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته فى ذلك المنتزه، وكانت الضيعة

(١) الشهب اللامعة ص ٤٨٧ .

فيما بين قسم الخليج من يلى بحر الروم والقسطنطينية فانصرف الصورى إلى معاوية سراً، فأخبره بالحال، فأحضر معاوية بساطا بوسائد ومخاد ومجلس حسن[1]، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام، وقد تقدم إليه معاوية بالحيلة، وكيفية إيقاعها، وكان الصورى فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم فى المؤانسة والعشرة، وفى الروم طمع وشره فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية، وقد طابت له الريح، وقرب من ضيعة البطريق، أخذ الصورى أخبار البطريق من أصحاب القوارب والمراكب، فأخبر أن البطريق فى ضيعته، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة وخمسين ميلاً، والضياع والعمائر على حافتيه، والمراكب تختلف، والقوارب بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمائر لا تحصى كثرة، فلما علم الصورى أن البطريق فى ضيعته فرش البساط، ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد فى صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكله قائمة غير قاذفين بها، ولا يعلم بهم أنهم فى بطن المركب إلا من ظهر منهم فى عمله والريح فى القلع، والمركب مار فى الخليج كأنه سهم خرج عن كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيره واستقامته فى جريه، فأشرفه على قصر البطريق، وهو جالس فى مستشرفه مع حرمه، وقد أخذت منه الخمر، وعلاه الطرب، وذهب به الفرح والسرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مركب الصورى زعق طربا، وصاح فرحًا وسروراً وابتهاجًا بقدومه، فدنا من أسفل القصر فحط القلع، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط، ونظم تلك الفرش، كأنه رياض يزهر، فلم يستطع اللبث فى موضعه، حتى نزل قبل أن يخرج الصورى من مركبه إليه، فطلع إلى المركب فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس، وضرب الصورى بعقبه على من تحت البساط وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين فى بطن المركب، فما استقر دقه فى المركب بقدمه، حتى اختطف المركب، بالمقاذيف، وإذا هو وسط الخليج يطلب البحر لا يلوى على شىء، وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافًا، وطابت له الريح، وأسعده الجد، وحمله المقدار فى ذلك اللج، فتعلق فى اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر وحمل الرجل فكان فى اليوم الثالث عشر مأسوراً بين يدى معاوية، فسر بذلك معاوية[2] وقال: علىّ بالرجل القرشى، فأتى به وقد حضره خواص الناس، فأخذوا

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة صـ٤٨٩ .

(٢) المصدر نفسه صـ ٤٩٠ .

مجالسهم، وغص المجلس بأهله، فقال معاوية لـلقرشى: قم فاقتص من هذا البطريق الذى لطم وجهك على بساط معظمٍ الروم، فإنا لم نضيعك ولا أبـحنا دمك ولا عرضك. فقام القرشى فدنا من البطريق، فقال معاوية: انظر لا تـتعدى ما جرى عليك، واقتص منه على حسب مـا صنع بك ولا تعـتد، وارع ما أوجب الله عليـك من المماثلة، فلطمـه القرشى لطمات ووكزه فى حلقه، ثم أكب القرشى على يدى معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما ضاع من سوَّدك، ولا خاب فـيك من رأسك، أنت ملك لا يستـضام[1] تمنع حـماك، وتصون رعيتك، وأرق فى وصـفه ودعائه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبرّه، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك المسلمين[2] يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته فى دار مملكتك وسلطانك وعزك، وقال للصورى: سر مـعه حتى تأتى الخليج فتطرحه فيـه ومن أسر معه، ممن كان بادر فصـعد إلى المركب من غلمان البطريق وخاصته فـحملوا إلى صور مكرمين، وحمل الجميع فى المركب، وطابت لهم الريح، فكانوا فى اليوم الحادى عشر متعلقين بأرض الروم فقـربوا من الخليج، فإذا قـد أحكم فمـه بالسلاسل والمنعة من المـوكولين به، فطرح البطريق، وحمل من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة، وتباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهنئين له بخـلاصه من الأسر، فكافأ الملك مـعاوية على ما كان من فـعله فى أمر البطريق والهدايا، فلم يكن يستـضام أسير من المسلمـين فى أيامه، وقال الملك: هذا أدهى العرب وأمكر الملوك، ولهذا قدمته العرب عليها، فأساس أمورها، ولو هَمَّ بأخذى لتمت له الحيلة على[3]. وهذه القصة دليل على دهاء معاوية رضى الله عنه وحسن سياسته واهتمامه بأمور رعيته والمحافظة على حقوق كل فرد فيها وصيانة[4] كرامته .

٤- عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب:

امتـاز معـاوية رضى الله عنه بالعـقلية الـفذة، فـإنه كان يتـمتع بالقـدرة الفائقـة على الاستيعاب، فكان يستفيـد من كل مايمر به من الأحداث، ويعرف كيف يتوقاها، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها، وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة، منذ ولاه عمـر رضى الله عنه الشام، فكانت ولايته على الشـام عشرين سنة أمـيراً،

(١) الضيم: الإذلال والقهر – أى ملك لا يقهر ولا يذل .
(٢) الكلمة فى الأصل: العرب .
(٣) الشهب الامعة فى السياسة النافعة ص ٤٩١ .
(٤) المصدر نفسه ص ٤٩١ تعليق محقق الكتاب السيد سليمان معتوق الرفاعى رحمه الله .

وعشرين سنة خليفة[1]، هذه الفترة الطويلة التى تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة فى سياسة البلاد، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التى تمر بها، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع[2]، يقول الشيخ الخضرى: أما معاوية نفسه، فلم يكن أحد أوفر منه يدًا فى السياسة، صانع رؤوس العرب، وكانت غايته فى الحلم لا تدرك، وعصابته فيه لا تنزع، ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام[3]، ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب، واحتواء الشدائد حتى تنجلى، ولمعاوية فى ذلك نصيب وافر -رضى الله عنه- وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة، وهذه طريقه مع الملوك والسوقة، وهذه أمثلة من سياسته فى معاملة الناس.

أ- المسور بن مخرمة رضى الله عنه واعتراضه على معاوية:

عن عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافدًا على معاوية بن أبى سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال: المسور دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنَّ بذات نفسك، والذى تعيب علىّ. قال المسور. فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلا بينته له. قال معاوية: لا برىء من الذنب، فهل تعد يامسور مالى من الإصلاح فى أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات. قال المسور: لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه فهل لك يامسور ذنب فى خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور: نعم! قال معاوية: فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة منى؟ فو الله لما ألى من الإصلاح أكثر مما تَلِي، ولكن والله لا أُخير بين أمرين، وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء، فأنا احتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوازى أمورًا عظامًا لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله فى إقامة صلوات المسلمين، والجهاد فى سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التى ليست تحصيها وإن عددتها لك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمنى حين ذكر لى ما ذكر. قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكرمعاوية إلا استغفر له[4]، وفى هذا الخبر مثل جيد

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٦) .
(٢) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٨٢) .
(٣) الدولة الأموية للخضرى ص ٣٧٧ .
(٤) تاريخ بغداد (١ /٢٠٨، ٢٠٩)، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥١) .

فى فن الإقناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضى الله عنه بتقبل سياسته التى يسير عليها، وعاد مادحًا داعيًا له بعدما كان منتقدًا مهاجمًا له. وفى هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان من العدل فى الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه مع أن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذى برزت أخطاؤه فى ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئًا مذكورًا[1].

ب ـ ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصارى رضى الله عنه:

كان ثابت بن قيس بن الخطيم شديد النفس، وكان له بلاء مع على بن أبى طالب، واستعمله على بن طالب على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقى مكانه. انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فوجد الأنصار مجتمعة فى مسجد بنى ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية فى حقوقهم أول ما استخلف، فقال: ما هذا؟، فقالوا: نريد أن نكتب إلى معاوية. فقال: ما تصنعون أن يكتب إليه جماعة؟! يكتب إليه رجل منا فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعًا وتقع أسماؤكم عنده، فقالوا: فمن ذلك الذى يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرة النبى ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا، ومالنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبى ﷺ، فلما قدم كتابه إلى معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأى، فقال: تبعث فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به ههنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، وما ذكرت النبى ﷺ وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلى وما كنت فيه من الفتنة التى شهرت فيها نفسك فأنظرنى ثلاثًا، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه، وصبّحهم العطاء فى اليوم الرابع[2]. فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه فى الحكمة والسياسة، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضى الله عنهم، ولم يؤاخذ ثابت بن قيس رضى الله عنه على شدة اللهجة فى كتابه إليه،

(١) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٥٣٩) .

(٢) تاريخ بغداد (١/ ١٧٦) .

وبهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئًا بل كسب رضا الأنصار عنه ورضا غيرهم ممن يطلع على خبره معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم فى الإسلام(١).

جـ - الأحنف بن قيس - رحمه الله -:

ذكر ابن خلكان فى ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعنى ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم علىَّ أولاً فأولاً على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ فى إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إلىَّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة. قال: ثم إن أهل العراق أخذوا فى الشكر فى عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية: اشهدوا على أننى قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا فى أمير أوليه عليكم وترجعون إلىَّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيَّن غيره، وسعوا فى السر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم فى المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصًا، وطال حديثهم فى ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن فى الأيام الثلاثة تحدث مع أحد فى شىء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن ولَّيت أحدًا من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدَّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن فى الحاضرين الذين بالغوا فى المجلس الأول فى الثناء على عبيد الله، من ذكره فى هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا على أنى قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة فى حق

(١) التاريخ الإسلامى (١٧/٥٣٧).

المتولى. قال: فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل -يعنى الأحنف- فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عونًا وذخرًا، قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره[1]. وفى هذا الخبر موقف لمعاوية رضى الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس رحمه الله وأدرك رفعة منزلته، فرفعه وأدناه منه، وأظهر له كثيراً من الاهتمام والاحترام. وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسية الجيدة فى احتواء أهل القوة والتأثير على الناس[2] واستيعابهم. ومن القصص التى حدثت بين معاوية والأحنف والتى تدل على سعة صدر معاوية ومعرفته بعواقب الأمور، فعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوما، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى إلى يوم القيامة؟ فقال له الاحنف: والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى أغمادها، وإن تدن من الحرب فِتْرًا ندن منها شبرًا، وإن تمش إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذى يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب[3].

د- أبو قتادة الأنصارى رضى الله عنه:

ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب وجاء بالسند فقال: من جامع معمر رواية عبد الرزاق[4]، قال: حدّثنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصارى ، فقال له معاوية: يا أبا قتادة، لم يكن معنا دواب، قال معاوية: فأين النَّواضح؟ قال أبو قتادة: عقرناها فى طلبك، وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتادة، قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: إنَّا سنرى بعده أثرة، قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتّى تلقوه[5].

(١) وفيات الأعيان (٢ /٥٠٣ ,٥٠٤) .
(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٤) .
(٣) وفيات الاعيان (٢/ ١٨٦) .
(٤) مصنف عبد الرزاق رقم ١٩٩٠٩ وهو مرسل فإن عبد الله بن محمد بن عقيل لم يدرك معاوية وأبا قتادة. وابن عقيل ليس بذاك. وإما إخبار النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار بأنهم سيرون بعده أثرةً وأمره لهم بالصبر حتى يأتوه فثابت من حديث أسيد بن حضير عند البخارى رقم ٣٧٩٢ ومسلم رقم ١٨٤٥ الاستيعاب ص ٦٧٠ .
(٥) الاستيعاب ص ٦٧٠ رقم الترجمة ٢٣٤٦ .

٥- تواضعه وورعه:

ومن صفات معاوية رضى الله عنه التى اشتهر بها صفة التواضع، فقد كان فى خطبه العامة يعترف بأن فى الناس من هو خير منه وأفضل، وكان ذلك بعد أن تولى أمر المسلمين، واجتمع عليه الناس، فأصبح الأمير الذى لا ينازع، خطب مرة فقال: أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير منى، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم فى عدوكم، وأدرككم حلبًا(١)، وروى الإمام أحمد بسنده إلى على بن أبى حملة عن أبيه قال: رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه قميص مرقوع(٢)، وعن يونس بن ميسر الحميرى قال: رأيت معاوية فى سوق دمشق، وهو مردف وراءه وصيفًا، وعليه قميص الجيب، يسير فى أسواق دمشق(٣)، وبلغ من ورعه أنه لما رأى إحدى جواريه، ونظر إليها بشهوة، ولكنه شعر بعجزه عن وطئها، قال لمن أحضرها إليه: اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: ادع لى ربيعة بن عمرو الجرشى ـ وكان ربيعة فقيهًا ـ فلما دخل عليه قال: إن هذه أتى بها مجردة، وقد رأيت منها ذلك وذلك، وإنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال ربيعة: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنها لا تصلح له، فقال معاوية: نعم ما رأيت، ثم وهب معاوية الجارية لعبد الله بن مسعدة الفزارى، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكان أسود، فقال له: بيض بها ولدك(٤). ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله: وهذا من فقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكن استعفف نفسه عنها، فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢] وقد وافقه على ذلك ربيعة بن عمرو الجرشى الدمشقى(٥).

٦- بكاؤه من خشية الله:

روى فى مجلس معاوية رضى الله عنه حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ، فى أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة من أمة محمد، القارى المرائى، والمنفق المرائى، والمجاهد المرائى، وبين رسول الله ﷺ ذلك حيث قال: **إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل فى**

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٦). (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢)، الزهد ص١٧٢.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢)، من سب الصحابة ومعاوية فأمة هاوية ص ١٢٩.

(٤)، (٥) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦)

سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسلي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما عملت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلانًا قارىء فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذى قُتل فى سبيل الله، فيقول الله له:فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جرىء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة. فعندما سمع معاوية هذا الحديث قال: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقى من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظن من حوله أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] [هود: ١٥، ١٦] هذه أهم صفات معاوية التى خرجت لى عند البحث فى سيرته.

ثالثًا: ثناء العلماء على معاوية ودخول دولة بنى أمية فى خير القرون:

١- عمر بن الخطاب رضى الله عنه: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية[2]، وقال أبو محمد الأموى: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية فى موكب يتلقاه، وراح إليه فى موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح فى موكب وتغدو فى مثله، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك وذوو الحاجات ببابك، : قال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزًا، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أوخدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرنى بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك، ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه إلا تركتنى ما أدرى آمرك أم أنهاك[3].

(١) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريره وصححه الألبانى ١٧١٣ .

(٢) المعجم الكبير (٥/ ٣٣٠)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى ص ٨٣ .

(٣) أنساب الأشراف (١٤٧/٤)، الاستيعاب رقم الترجمة ٢٣٤٦، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى ص ٨٤ .

٢- علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية، فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوسًا تندر عن كواهلها كأنها الحنظل[١]. فهذا توجيه من أمير المؤمنين علي لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

٣- عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا أسود من معاوية قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه وكان معاوية أسود[٢] منه، وفي رواية: مارأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية. قيل: ولا أبابكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه، وهو أسود منهم[٣].

٤- عبد الله بن عباس رضي الله عنه: قال رضي الله عنه: ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية[٤]، وفي صحيح البخاري أنه قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: إنه فقيه[٥]، وذكر ابن عباس معاوية فقال: لله درُّ ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضنّاً منه بأحسابنا وحسبه[٦]، وحين عزى معاوية عبدالله بن عباس في الحسن بن علي بقوله: لا يخزيك الله ولا يسوؤك في الحسن فقال: له ابن عباس: أما ما أبقى الله لي أمير المؤمنين، فلن يسوءني الله ولن يخزيني[٧].

٥- سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: قال رضي الله عنه: ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب، يعني: معاوية[٨].

٦- أبو هريرة رضي الله عنه: كان يمشي في سوق المدينة وهو يقول: ويحكم تمسكوا بصدغي معاوية، اللهم لا تدركني إمارة الصبيان[٩].

٧- أبو الدرداء رضي الله عنه: ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من أميركم هذا- يعني معاوية[١٠]- قال ابن تيمية بعد أن أورد أثر ابن عباس السابق، وأثر أبي الدرداء هذا: فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشهاد بالفقه ابن عباس، وبحسن الصلاة أبو الدرداء وهما هما، والآثار الموافقة لهذا كثيرة[١١].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٠).
(٢) المصدر السابق (١١/٤٣٨).
(٣) المصدر السابق (١١/٤٣٨)
(٤) المصدر السابق (١١/٤٣٩).
(٥) البخاري رقم ٣٧٦٥.
(٦) تاريخ دمشق (٦٢/١٢٨, ١٢٩).
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/٦٧، ٦٨).
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠).
(٩) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/٧٩)، أثر العلماء ص٨٤.
(١٠) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/٣٥٧) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحرث المدحجي.
(١١) منهاج السنة (٦/ ٢٣٥).

٨- سعيد بن المسيب رحمه الله: قال ابن وهب عن مالك عن الزهرى قال: سألت سعيد بن المسيِّب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لى: اسمع يا زهرى، من مات محبًا لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقًا على الله أن لا يناقشه الحساب(١).

٩- عبدالله بن المبارك- رحمه الله -: قال: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزرًا، اتهمناه على القوم، يعنى الصحابة(٢). وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول فى رجل قال رسول الله ﷺ : سمع الله لمن حمده. فقال خلفه: ربَّنا ولك الحمد؟ فقيل: أيهما أفضل؟ هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب فى منخرى معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمَر بن عبدالعزيز(٣).

١٠- عمر بن عبد العزيز رحمه الله: قال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنسانًا قط إلا إنسانًا شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطا(٤).

١١- وقال محمد بن عبدالله بن عمار الموصلي وغيره: سئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين، معاوية صاحبه وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحى الله(٥).

١٢- أحمد بن حنبل -رحمه الله-: سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحى، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصبًا؟ قال أبو عبدالله: هذا قول سوء ردىء، يجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس(٦).

١٣- الربيع بن نافع الحلبى - رحمه الله-: قال: معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل الستر، اجترأ على ماوراء(٧).

١٤- قال ابن أبي العز الحنفى: وأول ملوك المسلمين معاوية وهو خير ملوك المسلمين(٨).

(١) البداية والنهاية (١١/٤٤٩).
(٢) المصدر نفسه (١١/٤٤٩).
(٣) المصدر نفسه (١١/٤٤٩).
(٤) المصدر نفسه (١١/٤٥١).
(٥) المصدر نفسه (١١/ ٤٥٠).
(٦) الخلال : السنة (٢/ ٤٣٤) إسناده صحيح.
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٠).
(٨) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٢٢.

١٥- **القاضى بن العربى المالكى** رحمه الله: تحدث ابن العربىّ عن الخصال التى اجتمعت فى معاوية رضى الله عنه، فذكر منها: . . . قيامه بحماية البيضة، وسدّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدوّ، وسياسة الخلق[١]، وقال فى موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم: فعمر ولاه، وجمع له الشّامات كلّها، وأقرّه عثمان، بل إنّما ولاه أبو بكر الصّدّيق، لأنّه ولى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقرّه عمر، فتعلّق عثمان بعمر وأقرّه، فانظر إلى هذه السّلسلة ما أوثق عُراها[٢]. وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه . . . ثمّ صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن علىّ سبط رسول الله ﷺ[٣].

١٦- **يقول ابن تيمية - رحمه الله -:** واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكًا ورحمة[٤] وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيرًا منهم فى زمان معاوية[٥]، إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل، وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن العزيز فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: فى حلمه، قال لا والله فى عدله.

١٧- **وقال الذهبى - رحمه الله -:** أمير المؤمنين، ملك الإسلام[٦] وقال: معاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببرىء من الهنَات، والله يعفو عنه،[٧] وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - هو ثغر- فيضبطه ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بسخائه وحلمه . . . فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه[٨].

١٨- **وقال ابن كثير رحمه الله -:** وأجمعت الرعايا على بيعته فى سنة إحدى وأربعين . . . فلم يزل مستقلا بالأمر فى هذه السنة التى كانت فيها وفاته، والجهاد فى بلاد العدو قائم، وكلمة الله عاليه، والغنائم تَرِد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه فى راحة وعدل، وصفح وعفو[٩] وقال: كان حليمًا وقورًا، رئيسًا، سيدًا فى الناس، كريمًا، عادلا،

(١) العواصم من القواصم ص ٢١٠، ٢١١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ .
(٣) عثمان بن عفان للصّلاّبى ص ٣٠٠، المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٦) .
(٤) الفتاوى (٤/٤٧٨) .
(٥) منهاج السنة (٦/ ٢٣٢) (٣/ ١٨٥) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠) .
(٧) المصدر نفسه (٣/ ١٥٩) .
(٨) المصدر نفسه (٣/ ١٣٢-١٣٣) .
(٩) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٠) .

شهمًا[1]. وقال عنه أيضًا: كـان جيـد السيرة، حســن التجاوز، جميل العفو، كثير الستر، رحمه الله تعالى[2].

١٩- **قال ابن خلدون رحـمه الله:** وقد كـان ينبغى أن تلحق دولة معاوية وأخـباره بدول الخلفاء وأخبـارهم، فهو تاليهم فى الفـضل والعدالة والصحبـة. . . . والحق إن معاوية فى عداد الخلفاء وإنَّما أخَّره المؤرخون فى التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدّمناه من العصبية التى حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكـانت اختيارًا واجتـماعًا، فميـزوا بين الحالتين. فكان معـاوية أوّل خلفاء المغالبة والعصبـية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبِّهون بعضهم ببعض، وحاشا لله أن يشبَّـه معاوية بأحـد ممَّن بعده. فهـو من الخلفاء الراشدين ومـن كان تلوه فى الدين والفضل من الخلفـاء المروانيَّة ممن تلاه فى المرتبـة كذلك وكذلك من بعـدهم من خلفاء بنى العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبـة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكًا، واعلم أن الملك الذى يخالف بل ينافى الخلافـة هى الجبروتية المعبَّر عنها بالكسـروية التى أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذى هو الغلبة والقهر بالعصـبية والشوكة فلا ينافى الخلافة ولا النبوَّة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيَّين وملَكين كانا على غاية الاستـقامة فى دنياهما وعلى طاعة ربِّهمـا عز وجل. ومعاوية لم يطالب ولا أبهَّته للاستكثار فى الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبيـة بطابعها لما استولى المسلمون على الدولة كلّها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيـعة الملك، وكـذلك شأن الخلفاء أهل الـدين من بعده، إذا دعتـهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه، والقانون فى ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهى، فمن جرت أفعاله عليهـا فهو خليفة النبىﷺ فى المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا، وإن سمى خليفة بالمجاز.

الأمر الثانى: فى ذكر معاوية مع خلفاء بنى أمية دون الخلفاء الأربعة إنهم كانوا أهل نسب واحد، وعظيمهم معـاوية فجعل مع أهل نسبه والخلفاء الأولون مـختلفو الأنساب، فجعلوا فى نمط واحد، وألحق بهم عـثمـان وإن كان من أهل هذا النـسب للحوقـه بهم قريبًـا فى الفضل[3]. وكلام ابن خلدون ليس على إطـلاقه وفيه نوع من المبـالغة فهـذه بعض أقوال

(١) البداية والنهاية (١١/٣٩٧). (٢) المصدر نفسه (١١/٤١٩).

(٣) تاريخ ابن خلدون ص ٥٢٨، ٥٢٩.

علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم فى الثناء على معاوية رضى الله عنه من ملوك المسلمين ومن خيارهم الذين غلب عدلهم ظلمهم وما هو ببرىء من الهنات والله يعفو عنه، وهو على دين كما قال عن نفسه: يقبل الله فيه العمل ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء. ولقد تعرّض معاوية رضى الله عنه ودولته ودولة بني أميه عمومًا لسهام بعض الكتاب، وزعم بعضهم أنها دولة مدنية، وقال بعضهم: أنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية؛ بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لاصلة لها بالدين، ولا بالأخلاق، وهذه فرية تكذبها حقائق الدين وشواهد التاريخ، أما حقائق الدين، فقد بدأت دولة بنى أمية سنة ٤٠ من الهجرة، واستمرت إلى سنة ١٣٢ هـ. فقد شملت القرون الثلاثة التى هى خير قرون الأمة: قرن الصحابة، وقرن التابعبن، وقرن أتباع التابعين.[١] وهى التى جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة عن رسول الله ﷺ: مثل حديث ابن مسعود: «**خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[٢]، ومثله حديث عمران بن حصين: «**خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» قال عمران: لا أدرى أذكر النبى بعده قرنين أو ثلاثة[٣]. وكذلك حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعًا: **قال يأتى زمان يغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبى ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح. ثم يأتى زمان، فيقال: فيكم من صحب من صحب أصحاب النبى ﷺ؟ فيقال: نعم فيفتح**[٤].

ومعنى قوله: «قرْنى» أى أهل عصرى. وهم الصحابة ثم قرن التابعين، ثم قرن الأتباع، وبعض الشرّاح حددوا القرن بزمن، فقال بعضهم: القرن أربعون سنة، وبعضهم قال: ثمانون سنة. وبعضهم جعله مائة سنة، وهو الذى اشتهر فى الاستعمال الآن، وأمسى حقيقة عرفية. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هذا: ثلاثمائة سنة. وهذا غير منسجم مع منطق الواقع التاريخى، فالراجح تفسيره بِما ذكرنا من عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الأتباع[٥]. ومن الأحاديث الصحيحة التى يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام مارواه البخارى فى صحيحه عن خالد بن مهران: أن عمير بن الأسود العنْسى حدثه أنه أتى عبادة بن الصامت، وهو نازل فى ساحة حمص، وهو فى بناء له، ومعه أم حَرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام: أنها سمعت النبى ﷺ يقول: **أول**

(١) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى ص ٦٢ .

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٦٤٥ .

(٣) المصدر نفسه رقم ١٦٤٦ .

(٤) المصدر نفسه رقم ١٦٤٧ .

(٥) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى ص ٦٣ .

جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا. (أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة) قالت أم حرام قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبى ﷺ: أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر: مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا[1]، ومدينة قيصر هى القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية[2]. قال الشراح: فى هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وذلك فى خلافه عثمان مازال معاوية يغريه بالغزو فى البحر، حتى استجاب له، وبدأ الأسطول الإسلامى منذ عهد عثمان، ثم اتسع وازداد فى عهد معاوية[3]، وفى هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصارى، وكان فى هذا الجيش رضى الله عنه، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية، والذى يهمنا هو أن هذا الجيش المغفور له بالجملة، كان فى عهد بنى أمية. إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنين وخمسين من الهجرة النبوية، أى فى عهد معاوية، ومن نظر فى سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة، وبعد تنازل الحسن السبط رضى الله عنه له، وتأمل هذه السيرة بإنصاف: وجد الرجل حريصًا على إقامة الإسلام فى شعائره وشرائعه، وعلى اتباع السنة النبوية فى مجالات الحياة المختلفة.

****

(١) البخارى رقم٢٩٢٤ .

(٢) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٣ .

المبحث الثانى

العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس الدولة الإسلامية

للخليفة كما للأمة حقوق، كما أن على كل منهما واجبات مطالبًا بها محاسبًا عليها وإليك شىء من الإيضاح:

أولا: واجبات الخليفة:

بيَّن الفقهاء الواجبات الملقاة على عاتق رئيس الدولة، وحدودها التحديد الذى يوضح مدى ما هو موكول إليه من المهام، ومهما اختلفت أساليب العلماء فى التعبير عن هذه الواجبات وتعدادها، فإنه يمكن القول بأن هذه الواجبات فى حقيقتها لاتتعدى المحافظة التامة على المصالح الدينية والدنيوية، وإليك هذه الواجبات:

١ـ العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصونًا عن كل ما يسىء إليه، سواء فى هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، أو ما يتعلق بغيرها، وهذا الواجب ما عبر عنه الماوردى قائلاً: .حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة، وبيَّن له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل[١].

٢ـ نصب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله، حتى لا يكون هناك معتدٍ لا يخاف جزاء، ولا مظلوم لا يستطيع وصولا إلى حق كفله الشارع له[٢]، وسوف نتعرف على مؤسسة القضاء فى عهد الدولة الأموية فى هذا الكتاب.

٣ـ توفير الأمن لكل آحاد الأمة، حتى يستطيع كل فرد أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمنًا على نفسه وأهله وماله.

٤ـ إقامة الحدود التى بينها الله سبحانه على مقترفى كل جريمة تستأهل حدًا، لا يفرق فى ذلك بين شريف وحقير حتى تصان محارم الله من الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف واستهلاك كما هو تعبير الماوردى[٣].

(١) الأحكام السلطانية صـ ١٥ .
(٢) رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى صـ ٣٥٦ .
(٣) الأحكام السلطانية صـ ١٦، رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى صـ ٣٥٧ .

٥- إحاطة ثغور البلاد بسياج منيع من القوة، حتى لا يجد أعداء الإسلام ثغرة يتسللون منها إلى ضرب الأمة على حين غفلة، فيجب على رئيس الدولة أن يعمل على استكمال كل الوسائل التى تكفل للأمة الحماية التامة من شرور الأعداء.

٦- جهاد أعداء الإسلام الذين عاندوا دعوتهم إليه، حتى يدخلوا فى الإسلام أو يدخلوا فى الذمة.

٧- جباية الأموال المستحقة، سواء أكانت هذه الأموال صدقات أم فيئًا، وإخضاع ذلك إلى القواعد التى أوجبها الشارع نصًا واجتهادًا من غير زيادة أو نقصان فى الجباية، إذ أن الزيادة تقضى إلى خسران من تجب عليهم الزكوات، والنقصان مفضٍ إلى تضييق مجال الصرف على الفقراء والمساكين والعاملين ونحوهم.

٨- تقدير الحقوق والرواتب المستحقة فى بيت مال المسلمين، كالإعانات الاجتماعية للأسر المحتاجة، ورواتب الجند والموظفين، والعمل على إرساء قواعد تكون ضابطة لكل ما يتصل بهذا الواجب.

٩- اختيار الأكفاء الذين يثق فى مقدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية التى توكل إليهم، حتى يسير دولاب الأعمال بيد الأمناء الذين يخافون الله ولا يثبون على حقوق الناس.

١٠- الإشراف بنفسه على ما هو متصل بما يجب عليه نحو الأمة، ولا يترك الأمور تسير بدون إشراف مباشر منه، إذ إن كل تقصير من أى من عماله الذين وكل إليهم بعض الأمور، منسوب إليه متحمل خطأه، محاسب عليه أمام الله إن قصر فى المتابعة، فإن الإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته كما بين ذلك رسول الله ﷺ.

١١- الشورى، لأنها من سمات الحكم الإسلامى(١).

وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف تعامل معاوية رضى الله عنه والخلفاء الأمويون من بعده مع هذه الواجبات، ولا نريد أن نستعجل الأحداث، وسنقف مع كل واجب من هذه الواجبات فى موقفه ونرى قرب الخلفاء الأمويين وبعدهم من تطبيق هذه الواجبات.

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى ص٣٥٨ .

ثانيًا: حقوق الخليفة:

إن الخليفة له حقوق على الأمة من شأنها أن تعينه على القيام بما هو موكول إليه من المهام وقد بين علماء الإسلام هذه الحقوق وأهمها:

١- طاعته والانقياد له فى كل ما أمر به ونهى عنه ما دامت هذه الأوامر والنواهى فى المعروف ولم تتعارض مع الأحكام التى بينتها شريعة الإسلام، فما دام الخليفة أو رئيس الدولة قد التزم فى أوامره ونواهيه جانب الشرع فلم يحد فى ذلك عن الحدود التى رسمتها له الشريعة، فله حق ولاء المواطنين جميعًا، سواء فى ذلك أهل الحل والعقد الذين بايعوه رئيسًا للأمه، أو سائر المواطنين الذين يلزمهم الانقياد له بمجرد تمام هذه البيعة.

٢- القيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك، فما دام يسير فى حكمه على طريق الحق فقد وجب على سائر الأمة نصرته على البغاة وكل من رفع عليه السلاح، لأن نصرة الإمام الحق فى الواقع ما هى إلا نصرة للمسلمين وتأييد له فى العمل على أن يكون الدين قائمًا وكفًا للمعتدين عن كل ما يمكن أن يصدر عنهم من جرائم.

٣- جَعْل راتب له مع مخصصات له، تكفيه ومن يعوله، فإن رئيس الدولة سيشغل نفسه بواجبات الرياسة التى ستستحوذ على وقته، مما لا يترك له فرصة السعى فى اكتساب رزقه، فيجب أن يُجعل له راتب يغنيه ويليق بهذا المنصب بحيث لا يكون فيه تقتير ولا إسراف؛ لأن رواتب الولاة والقضاة من أموال المسلمين التى يحتاط فى وجوه صرفها.

٤- إخباره بأحوال من ولاهم المناصب العامة كالولاة والقضاة إذا انحرفوا عن الطريق الذين كلفوا بسلوكه، وذلك لأن الإمام مكلف شرعًا بمتابعة أعمال هؤلاء لإصلاح ما اعوج من أفعالهم، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من وجوه المصلحة، وهو محاسب أمام الله على ما ارتكبه هؤلاء من أخطاء فى حق الله، والأمة إذا هو قصر فى منع ذلك، ولا طاقة له على متابعة أعمالهم ومراقبة سيرهم إلا إذا عاونته الأمة فى ذلك.

٥- تقديم كافة المساعدات إليه إن احتاج إلى ذلك فى أداء ماتحمله من أعباء مصالح الأمه.. لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وولاة الأمور أحق من أعين على ذلك[1]. والأمه فى عمومها لم تبخل على أمير المؤمنين معاوية بحقوقه وعلى الخلفاء الذين جاءوا من بعده ولم يخلُ الأمر من ثورات ضد الخلفاء سنبينها فى موضعها بإذن الله تعالى.

---

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى صـ ٣٧٠ إلى ٣٧٤ .

ثالثًا: عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول فى فضائل الشام:

كانت الشام إحدى الولايات الهامة فى الامبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم، أحد المراكز الحضارية فى هذه الامبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة، لما تحتويه من حضارة، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعتبر مدينة دمشق المدينة الأولى فى بلاد الشام، فهى قاعدتها ومدينتها العظمى، ولعبت دورًا كبيرًا فى تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الرومانى قاعدة حكمه، ولما دخل الإسلام الشام ودمشق خاصة، حافظ عليها، واحتفظ الولاة لها بميزاتها، وظل معاوية الوالى يعتنى بها طوال فترة ولايته عليها، وأقام علاقات وطيدة مع سكانها[1]، وعرف أهمية القبائل اليمنية فى دمشق والشام، فتزوج من إحداها وهى بنى كلب وأنجب من زوجته الكلبية ابنه يزيد، فضمن ولاءهم له ولأبنائه من بعده، لأن الخؤولة من أبرز ما تتحزب له القبائل العربية، هذا فضلا عن أن التصاهر عند العرب بمثابة التحالف السياسى[2]، وقد كان معاوية ذكيًا فى اعتماده على القبائل اليمنية بدمشق والشام[3]، ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقًا وغربًا، فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية وذلك لأنها تقع بين جزءى العالم الإسلامى؛ الجزء الشرقى الذى يشمل العراق وفارس، والجزء الغربى الذى يشمل مصر والمغرب، فضلا عن أن القبائل التى ارتبطت به أيدته ودعمت موقفه وصارت يده الطولى فى تدعيم حكمه، أى أنها كانت القوة العسكرية والسياسية التى استند عليها الحكم والدولة الأموية، كما قدم له سكان البلد ما يمكن أن يقدموه من خبرة وعمل إدارى[4]، فقد وجد معاوية فى دمشق تقاليد عريقة فى الحكم والادارة، كما وجد جهازًا إداريًا متمرسًا ساعده على تأسيس مهمته فى فترة التأسيس هذه التى لا تحتاج الارادة الطيبة، فحسب، بل الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون فى ظل الادارة البيزنطية فى الميدانين الإدارى والمالى، كما أنه لابد لنا أن نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى، فالقبائل العربية التى هاجرت إليها واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزى وفكرة الدولة عمومًا، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة، وينطبق هذا على من سكن

(١) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية العربية صـ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) الدولة الإسلامية فى العصر العباسى ص٤٢.

(٣) المصدر نفسه صـ ٤٢ .

(٤) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية العربية صـ ١٣٦ .

العراق منهم قبل الفتح وبعده، فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا فى خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسى[(١)]، وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا الخضوع والتعايش مع البيزنطيين، كما أن العرب الذين هاجروا إلى الشام بعد الفتح لم يعيشوا فى معسكرات مستقلة، كما كانت الحال فى العراق (البصرة والكوفة)، بل عاشوا جنبًا إلى جنب مع السكان المحليين والقبائل التى كانت تقطن الشام قبلاً، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد القبلى[(٢)]. وقد ساعد على تحقيق انتصارات معاوية فى الخارج الجيش الشامى الذى جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان واليًا، والذى أغدق عليه العطاء، ولم يبخل عليه بكل مايوفر له سبل الرضا والاخلاص بعد أن غدا خليفة، وتعددت لقاءاته فى البر والبحر مع الامبراطورية البيزنطية، وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على إعطاء جيش الشام فرصًا كثيرة للتدريب العملى وقدمت له الخبرة اللازمة[(٣)]، كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها فى هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام وحرصهم على زعامة العالم الإسلامى، فالنبى ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائمًا إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة[(٤)]، وقد كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: **«لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة»**[(٥)]، فقام مالك ابن يخامر يذكر أنه سمع معاذًا يقول: وهم[(٦)] بالشام، فقال معاوية: وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذا يقول: وهم بالشام. ومارواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: **«لايزال أهل الغرب ظاهرين»**[(٧)]، قال الإمام أحمد: وأهل الغرب هم أهل الشام[(٨)]. وذلك أن النبى ﷺ كان مقيمًا بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه، وما يشرق عنها فهو شرقه[(٩)]... فقد أخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهو الشام وما يغرب عنها ... وكان أهل المدينة يسمون أهل الشام، أهل المغرب، ويقولون عن الأوزاعى: إنه إمام أهل المغرب[(١٠)]، فإذا دلت النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من

(١) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل صـ ٦٢ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٦٢، الجذور التاريخية للأسرة الأموية، د. إحسان صدقى العمد صـ ٩٤ .
(٣) رجال الادارة فى الدولة الإسلامية العربية صـ ١٣٦ .
(٤) الفتاوى (٤/ ٢٧٥) .
(٥) البخارى رقم ٧٣١١ مسلم رقم ١٩٢٠، ١٩٢١ .
(٦) الفتاوى (٤/ ٢٧٣) مالك بن يخامر ذكره ابن حبان فى الثقات، تهذيب التهذيب (١/ ٢٥، ٢٣) .
(٧) مسلم فى الإمارة .
(٨) الفتاوى (٤/ ٢٧٣) .
(٩) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٣) .
(١٠) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٣) .

أمته التى لا يضرها خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل هى بالشام، فهذا لا يعارض قوله ﷺ: **«تقتل عمارًا الفئة الباغية»**(١)، وقوله فى الخوارج ﷺ: **«تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»**(٢)، ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها، فيقال أما قول ﷺ: **«لا يزال أهل الغرب ظاهرين»**(٣) ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم، فهذا وقع وهذا هو الأمر فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين(٤)، وأما قوله عليه السلام: **«لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله»**(٥)، والذى هو ظاهر، فلا يقتضى ألا يكون فيهم من فيه بغى ومن غيره أولى بالحق منهم، بل فيهم هذا وهذا(٦)، وأما قوله: **«تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»** فهذا دليل على أن عليًا ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحًا فى بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائمًا بأمر الله، وأن يكون ظاهرًا بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه وأما كون بعضهم باغيًا فى بعض الأوقات، مع كون بغيه خطأ مغفورًا له، أو ذنبًا مغفورًا، فهذا -أيضًا- لا يمنع ما شهدت به النصوص؛ وذلك أن النبى ﷺ أخبر عن جملة أهل الشام وعظمتهم، ولا ريب أن جملتهم كانوا أرجح فى عموم الأحوال(٧)، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفضلهم فى مدة خلافته على أهل العراق، حتى قدم الشام غير مرة وامتنع من الذهاب إلى العراق، واستشار فأشاروا عليه أنه لا يذهب إليها، وكذلك حين وفاته أدخل عليه أهل المدينة أولاً وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة، ثم أدخل عليه أهل الشام، ثم أدخل عليه أهل العراق، وكانوا آخر من دخل عليه(٨). وكذلك الصديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال: لَكَفر الشام أحب إلىَّ من فتح مدينة العراق(٩)، والنصوص التى فى كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه فى فضل الشام، وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق، أكثر من أن تذكر هنا، بل روى عن النبى ﷺ من النصوص الصحيحة فى ذم المشرق وإخباره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ماليس هذا موضعه، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين على، وذلك كان أمرًا عارضًا ولهذا لما مات على رضى الله عنه ظهر منهم من الفتن، والنفاق، والردة، والبدع، مايعلم به أن أولئك كان أرجح(١٠). وكذلك - أيضًا - لاريب أن فى أعيانهم من

(١) البخارى رقم ٤٤٧ .
(٢) مسلم فى الزكاة .
(٣) مسلم فى الإمارة .
(٤) الفتاوى (٤/ ٢٧٤) .
(٥) البخارى رقم ٧٣١١ .
(٦) الفتاوى (٤/ ٢٧٤) .
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٤) .
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٥) .
(٩) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٥) .
(١٠) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٥) .

العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام، كما كان على وابن مسعود، وعمار وحذيفة ونحوهم، أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح، وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه مع أن عليًا رضى الله عنه كان أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمارًا قتلته الفئه الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولانتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف(١).

رابعًا: أهل الحل والعقد فى عهد معاوية رضى الله عنه:

كان المجتمع الإسلامى فى عصر الراشدين يتطور تطورًا سريعًا وخطيرًا بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم، والتى تظهر فى ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية وخوف الله فى معاملة بعضهم للبعض، وقد تمثل ذلك التطور فى تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين فى المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم فى الأمصار، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز مقر الخلافة نتيجة نمو دور القبائل العربية التى أسلمت متأخرًا ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى، التى أدت إلى إثراء المجتمع الإسلامى بصورة لم يعرفها من قبل، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق(٢)، وبدأت تدريجيًا تتغير بعض المفاهيم، كمفهوم أهل الحل والعقد، فلم يعودوا هم أهل بدر، أو جماعة السابقين إلى الإسلام فى المدينة، التى تقلصت أعدادها بمضى الزمن، وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار، وزعماء الشام من بينهم، فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجدها تؤكد قدرة أهل الأمصار آنذاك على الحسم السياسى، وعجز أهل المدينة عن ذلك ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعى والتعود على الخضوع لنظم الدولة، وأساليب الإدارة وأنماط الحضارة، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت معاوية، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عامًا هى عمر الدولة الأموية. . مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسى جل أهل الحل والعقد فى المجتمع الإسلامى والقادرين على اختيار الخليفة، وإقناع بقية الأمصار

(١) الفتاوى (٤/ ٢٧٥) .

(٢) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى صـ ١٢٧ .

بذلك الاختيار ـ إن سلمًا أو عنفًا ـ فى ذلك المجتمع الذى أصبحت تحكمه عصبيات مختلفة الرغبات والأهواء والمطامع(1).

١ ـ رأى الفقهاء فى معنى أهل الحل والعقد:

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا فى معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال(2)، ويذكرون مصطلحات متعددة منها:

أ ـ أولو الأمر: وهو مصطلح شرعى جاء بنص القرآن الكريم وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقد اختلف فى المراد بهم على أقوال من اشهرها:

- أنهم الأمراء، ورجحه الإمام الطبرى(3)، وقال النووى: هو قول جمهور السلف والخلف(4).
- أنهم العلماء ويه قال بعض السلف منهم: جابر بن عبد الله والحسن البصرى، والنخعى وغيرهم.
- أنهم أصحاب محمد ﷺ.
- أنهم أبو بكر وعمر .
- أنها عامة فى كل أولى الأمر والعلماء، ومال إليه الإمام ابن كثير(5)، وابن القيم(6)، والشوكانى(7) وغيرهم.
- أنهم العلماء والأمراء والزعماء وكل من كان متبوعًا وهو رأى ابن تيمية(8)، ومحمد عبده(9)، وقال: إنهم هم أهل الحل والعقد(10)، ولعل القولين الخامس والسادس هما الأقرب إلى الصواب، وليس بينهما فرق كبير(11).

---

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى صـ ١٢٨ .
(٢) المصدر نفسه صـ ١٢٨ .
(٣) تفسير الطبرى (٨/ ٥٠٢) تحقيق محمود شاكر .
(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٢٣) .
(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠) .
(٦) الرسالة التبوكية صـ ٤١ .
(٧) فتح القدير للشوكانى (١/ ٤٨١) .
(٨) الحسبة صـ ١٨٥ .
(٩) تفسير المنار (٥/ ١٨١) .
(١٠) أهل العقد والحل ، عبد الله الطريقى صـ١٢ .
(١١) المصدر نفسه صـ ١٢ .

ب ـ **العلماء**: والمراد بهم علماء الشريعة: وهو لفظ قرآني: قال سبحانه ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]، وربما جاء بلفظ ﴿**وَأُولُوا الْعِلْمِ**﴾ كما في قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨]. وفي السنة النبوية جاء هذا المصطلح في أحاديث لا تكاد تحصر ومن ذلك الحديث المشهور: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن بموت العلماء**»[١].

جـ ـ **أهل الاختيار**: وهم الذين يوكل إليهم اختيار الإمام ومبايعته، وهم أهل الحل والعقد[٢]، وهو مصطلح اجتهادي اصطلح عليه بعض أهل العلم[٣].

د ـ **أهل الاجتهاد وهم**: العلماء الذين بلغوا درجة الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ويكونون مؤهلين للأعمال المهمة: كالإمامة الكبرى، والقضاء، والفتوى ونحو ذلك، وممن أطلق هذا المصطلح البغدادي[٤]، والقرطبي[٥].

هـ ـ **أهل الشورى وهم**: الذين يستشارون في أمر المسلمين وفق الآية الكريمة ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى: ٣٨].

و ـ **أهل الشوكة وهم**: أصحاب القدرة والسلطان، لتوافر القدرة والبأس لديهم، وممن استعمل هذا المصطلح ابن تيمية[٦].

ز ـ **أهل الرأي والتدبير وهم**: من يتسمون بالعقل والفكر الناضج مع القدرة على تصريف الأمور وتسييرها، وممن استعمل هذا المصطلح ابن عابدين[٧].

فأهل الحل والعقد هم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين في شؤونهم العامة، والسياسية، والإدارية، والتشريعية، والقضائية، ونحوها، ثم حل هذا النظام لأسباب معينة ليعاد ترتيب هذا النظام وعقده من جديد[٨].

والذي تحقق في عهد معاوية رضي الله عنه أن أهل الحل والعقد في دولته كانوا هم الولاة، وزعماء القبائل، وقادة الجيوش ونحوهم، وتركزت الشوكة والقوة الفعلية في أهل

---

(١) مسلم رقم ١٣ .

(٢) الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت (٧/ ١١٥) .

(٣) أهل الحل والعقد ، عبد الله الطريقي : صـ١٣ وهذا الكتاب فريد في بابه .

(٤) أهل الحل والعقد صـ١٣، أصول الدين ٢٧٩ .

(٥) تفسير القرطبي (١/ ٢٦٥) .

(٦) منهاج السنة (١/ ٥٥٠) .

(٧) حاشية ابن عابدين (٤/ ٢٦٣) .

(٨) أهل الحل والعقد صـ١٥ .

الشام، حيث كانوا قادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم، وهذا ما تحقق فى ذلك الظرف التاريخى فى أهل الشام. وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافًا، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية فى العراق والحجاز، ومصر وغيرهم، وأن تضم بجوار أصحاب العصبيات القوية، أصحاب الرأى من علماء الأمة وأهل الديانة فيهم، وأن يوكل إلى هذه الطائفة منهم اختيار الخليفة أو عزله، علاوة على الفصل فى المسائل المهمة فى حياة الأمة.. ولو حدث ذلك فى مسيرة الدولة الأموية لتجنبت الأمة كثيرًا من الاختلاف وإراقة الدماء.. ولكن الذى حدث فعلاً هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء فى العصر الأموى من الأسرة الأموية ذاتها، وكانت بداية ذلك هى البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد من أبيه، وبعد خطوب شتى أصبح تسلسل الخلفاء من البيت الأموى أمرًا واقعًا، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت[1]. وسيأتى الحديث عن ولاية العهد فى حينه بإذن الله تعالى.

خامسًا: الشورى فى عهد معاوية رضى الله عنه:

عندما آلت الخلافة إلى بنى أمية، لم يكن معاوية بن أبى سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها ، وما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة، فقد كان يشاور ذوى الرأى من الولاة ووجوه الناس وأشراف القوم وأهل العلم، وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بنى أمية، وكان من كبار مستشارى معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان يستشير الوفود التى كانت تأتيه[2]، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم، ويهتم الخليفة بها كل الاهتمام، ويناقشهم فيها ويحقق ما يمكن تحقيقه منها، والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتّاب قادرين، أطلقت يدهم فى العمل، ومنحهم الخليفة ثقته، وشدّهم بسلطانه، والحكم لم يكن متمركزًا فى شخص الخليفة ، فمملكته واسعة ولا يستطيع أن يضطلع بكل أمر، وهو يرسل ولاته على الأقطار ويطلق لهم اليد فى شؤونها، وهو لا يولى إلا من يثق به، ولا يعطى السلطان إلا لمن لا يخشاه[3]، وولاته يستشيرهم فى حدود معينة. وأما أمر الخلافة فحصر فى بنى أمية، وأصبح أمرها خاصًا بالبيت الأموى، يفتى فيها بالمجامع الأموية خاصة من دون الناس، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فى شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى صـ١٢٨ . (٢) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية صـ ٥٥ .
(٣) الدولة الأموية ، يوسف العش صـ١٣٩ .

الجماعة الأمـوية غالبًا[(١)]. ومن هنا يمكن القول بوجود نوعـين من الشورى فى عهد بنى أمية أولهما شورى تتعلق بالأمور والمصالح العامـة، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فيها إلى ذوى الرأى من أشراف القوم والولاة وغيرهم، وثانيهـا شورى تتعلق بالسلطان خاصة، وكان الخلفاء من بنى أمية يفزعون فيهـا إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم[(٢)]. وقيادة معاوية للدولة لم تكن فـردية خالصـة، فاللامـركزية فى الحكم والإدارة فى الأغـلب، ومشـاركة الرجال من أهل الرأى والخـبرة فى حمل المسئوليـة والقيام بأعبـاء الدولة فى السلم والحرب وفى المركز والولايات، ووجود الإسلام فى حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكًا ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها، وتعزز مظهر الشـورى وغلبة الاتجاه العـام الثابت فى السيـاسة والقيادة والإدارة وتصـريف الأمور ورعاية المصالح[(٣)]، كما أن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثى لم يكن يعنى تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين أو ارتدادًا عن أوامـر الإسلام ومنهجه فى الحكم، وقـد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعى وسياسى. ولقد بقيت فى عهد معاوية والعصر الأموى ـ كما يقرر ابن خلدون ـ معـانى الخلافة من تحـرى الدين ومذاهبه، والجـرى على مذاهب الحق، ولم يظهر التغير إلا فـى الوازع الذى كان دينًا ثم انقلب عصبية وسيفًـا، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومـروان وابنه عبد الملك والصـدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشـيد وبعض ولده، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها[(٤)]. وما ذهب إليه ابن خلدون ليس على إطلاقه ففى عـهد الدولة العثمانيـة فى زمن محمد الفـاتح انتعشت بعض معانى ومـقاصد الخلافة، من الفتـوحات، والدعوة، وإعزاز الإسلام، والعدل، ولم يذم الشرع العـصبية أو الملك لما كان القصد منهـما إقامة الدين، وإظهار الحق، وقد سأل سليـمان عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن البـاطل فى النبوة والملك[(٥)]، وعلى ذلك فإن الملك الذى يـخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية[(٦)]، التى يقصد بها قهر الناس بـغير حق، ولم يكن ذلك شأن معاوية فى خلافتـه، وقد استرعى انتبـاه بعض فقهائنا ومـؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مـقاصد خلافة معـاوية ومقاصد خلافة الراشـدين، لذلك فقد رأى ابن تيمية: . . فـهذا يقتضى أن

(١) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية صـ٥٦ .

(٢) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية صـ ٥٧ .

(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ١٠٢ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٧٥ .

(٥)، (٦) المصدر نفسه صـ٢٧٥ .

شوب الخلافة بالملك جائز فى شريعتنا، وأن ذلك لا ينافى العدل، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل[1]، ولن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن معاوية وبعض خلفاء بنى أمية كان يود لو سار سيرة الراشدين كاملة، ولكنهم كانوا غير قادرين على ذلك فى تفاعلهم مع أحوال رعيتهم وظروف عصرهم، وإن ذلك الأفق العالى والمثل الرفيع الذى قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء، ولكنه كان أيضًا يستعلى على قدراتهم، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة[2]، ولقد سأل معاوية يومًا ولده وولى عهده يزيد كيف سيعمل بعد استخلافه؟ فقال: أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب، فتبسم معاوية وقال: والله لقد جهدت أن أعمل فيها عمل عثمان فلم أقدر، أتعمل أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب؟[3]، ولا يعنى ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة فى عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل، ولكن لا يأتى به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعى والرعية حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على كمال الإيمان، ويعطون القدوة فى ذلك والمثل، ويستفرغون فى ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[4]، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء الحكم فى مجتمع ما كان ذلك لنقص فى الراعى والرعية[5] معًا. إن الشورى فى عهد معاوية والدولة الأموية تقلصت عمّا كانت عليه فى عهد الخلافة الراشدة وبقيت فى عهد معاوية بعض جوانبها ولم تتقدم كليًا كما يطرح البعض.

سادسًا: حرية التعبير فى عهد معاوية رضى الله عنه المعارضة السلمية:

كان معاوية رضى الله عنه يفرق بين المعارضة السلمية والمسلحة، فهو يطلق حرية الكلام والتعبير عن الرأى ما دام ذلك فى حدود التعبير عن الرأى، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلّ السيوف، فإنه لا يجد مفرًا من مواجهة هذه الثورات كما فعل مع الخوارج -وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى- فقد روى عن معاوية أنه قال: إنى لا أحول

(١) الفتاوى (٣٥/ ١٨).
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٧٦.
(٣) البداية والنهاية نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها صـ ٢٧٦.
(٤) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٧٧.
(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٠)، الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٧٧.

بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا(١). وقال عامله على العراق زياد بن أبيه فى خطبته لأهل البصرة: إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلُّ من بغضى لم أكشف له قناعًا ولم أهتك له سترًا، حتى يبدى لى صفحته، فإذا فعل لم أناظره(٢)، ويقول عن أحد معارضيه: لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضى ما هجته حتى يخرج علىّ(٣). وإليك الكثير من المواقف التى تدل على حرية التعبير، وحق المعارضة السلمية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمعاوية وكيف كان يستقبل تلك الانتقادات.

١ ـ **أبو مسلم الخولانى**: فقد كان -رحمه الله- من العلماء الربانيين وكان ممن لا يجامل ولا يداهن، فقد قام أمام معاوية فوعظه وقال: إياك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك(٤). وكان يذكر معاوية بمسئولياته تجاه رعيته ويحثه على أداء حقوقه، فقد دخل ذات يوم على معاوية فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال الناس: الأمير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول. قال أبو مسلم: إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيرًا فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية، ويوفر جزازها وألبانها، فإن أحسن رعيتها ووفر جزازها حتى تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يحسن رعيتها وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينة ولم يوفر جزازها وألبانها غضب عليه صاحب الأجر. فقال معاوية: ماشاء الله(٥). فانظر كيف حث أبو مسلم الخولانى معاوية رضى الله عنه على الاهتمام بأمر الرعية وحذره من التهاون أو التفريط فى إصلاح شؤونهم، وذلك عن طريق ضرب المثل تقريبًا للصورة وتشبيهًا للحال(٦)، وهناك موقف عملى آخر لأبى مسلم الخولانى مع معاوية أيضًا، وذلك عندما صعد معاوية المنبر ـ وكان قد حبس العطاء ـ فقام أبو مسلم وقال له: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك، ولا كد أمك حتى تحبس العطاء، فغضب

(١) ذكر الدكتور خالد الغيث فى كتابه القيم مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ ٢٨١ ، ٢٨٢ : أن فى إسناد هذه الرواية اجتمعت فيه علتان، الأولى: أن عبد الله بن صالح الجهنى لم يدرك عبد الملك بن عمير، وذلك أن مولد عبد الله بن صالح كان بعد وفاة عبد الملك بن عمير بسنة ، والعلة الثانية: تشيع هشام بن سعد، وكراهية الشيعة لبنى أمية أمر معلوم، لذا لا يؤخذ منه فى هذا المقام لأنه يروى ما يوافق هواه .

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها صـ ٣٠٣ . (٣) المصدر نفسه صـ ٣٠٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء (١٣/٤)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ٢٧٤ .

(٥) فضيلة العادلين من الولاة للأصفهانى صـ ٣٠٦ .

(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ٣٠٦ .

معاوية غضبًا شديدًا، ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل**[1] وإنى دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم؛ إنه ليس من كدى ولا كد أبى، فهلموا إلى أعطياتكم[2].

٢ ـ الفرزدق يهجو معاوية: هجا الفرزدق معاوية وافتخر عليه بنسبه وآبائه، وذلك لغرض شخصى، حيث أعطى معاوية عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعى، وكان ضمن (وفد أتى معاوية) جائزة أقل من الآخرين، ولما مات الحتات بن يزيد المجاشعى فى الطريق أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال، فقال الفرزدق يخاطب معاوية:

فلو كان هذا الأمر فى جاهلية ... علمت من المرء قليل جلائبه

ولو كان هذا الأمر فى غير ملككم ... لأبديته أو غص بالماء شاربه

وكم من أب لى يا معاوى لم يكن ... أبوك الذى من عبد شمس يقاربه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته[3].

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له، وكان كثيرًا ما يقول: إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفوى، أو جهل أكثر من حلمى، أو عورة لا أواريها بسترى، أو إساءة أكثر من إحسانى[4]، وكان أحيانًا يتمثل بهذه الأبيات:

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها

ولقد تعاقب فى اليسير وليس ذاك لجهلها

إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها[5]

٣ ـ أم سنان بنت خيثمة فى مجلس معاوية: كانت أم سنان بنت خيثمة المذحجية من أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه وفى عهد معاوية قدمت على دمشق واستأذنت عليه فأذن

(١) سنن أبى داود (٤/٢٤٩) .

(٢) مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والأمراء صـ ٣٠٧، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية ص٣٠٧.

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٣٠٤، تاريخ الطبرى (٦/١٥٩) .

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٣٠٤ .

(٥) تاريخ الطبرى (٦/٢٥٣) .

لها، فانتسبت له فعرفها، وأمرها بالجلوس، فلما جلست قال لها: مرحبًا يا ابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومى، وتحضين علىَّ عدوى؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنّ لبنى عبد مناف أخلاقًا طاهرة، وأعلامًا ظاهرة، وأحلامًا وافرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإنَّ أولى النَّاس باتباع سنن آبائه لأنْتَ. قال معاوية ـ رضى الله عنه ـ: صدقتِ يا أم سنان، نحن كذلك ثم سادت فترة صَمْتٍ، قطعها بسؤال لأمّ سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه، فقال لها: كيف قولك:

عَزبَ الرقاد فمقلتى ما ترقد ... والليل يُصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مُقام فشمّروا ... إن العدوَ لا أحمد يقصد
هذا علىٌّ كالهلال تحفُّهُ ... وسْطَ السماء من الكواكب أسعد
ما زال مُذْ شهد الحروب مظفرًا ... والنّصرُ فوق لوائه ما يُفقد

وكانت أمّ سنان ـ رحمها الله ـ تصغى لما ينشده معاوية من شعرها، ولما انتهى قالت له: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، وإنَّا لنطمع أن تكون لنا خلفًا بعده، فمثلك جدير بذلك، وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة، قال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أحفظ من شعرها خلاف ما تقول لك الآن، فهى القائلة:

إما هلكت أبا الحُسين فلم تزل ... بالحق تُعرف هاديًا مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت ... فوق الغُصون حمامة قمريا
فاليوم لا خلف يؤمّل بعده ... هيهات نمدح بعده إنْسِيا(١)

عندئذ قالت أمُّ سنان وعلائم الحزم والصِّدقِ ترتسم على وجهها وهى تعرضُ بجلسائه: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقّق فيك، ما ظننّا فحظُّك الأوفر، والله ما ورّثك الشَّناءة ـ البغض ـ فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء ـ وأشارت إلى بعض جلسائه، فادحض مقالتهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك ازدت من الله عز وجل قربًا ومن المسلمين حبًا. وتعجب معاوية مما تقول، فقطع عليها مقالتها قائلاً: وإنّك لتقولين ذلك يا أم سنان؟

(١) العقد الفريد (٢/١٠٨)، نساء من عصر التابعين صـ ٢٧٥، ٢٧٨.

قالت: سبحان الله يا أمير المؤمنين، والله ما مثلك مدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا، كان والله عليٌّ - رضى الله عنه - أحب إلينا منك إذ كان حيًّا، وأنت أحبّ إلينا من غيره إذ أنت باق. فسألها معاوية: وممن أنا أحب إليكم ما دمت باقيًا؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، أنت أحبّ إلينا من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. قال: وبم استحققت بذلك عليهما؟. قالت: بحسن حلمك، وكرم عفوك[1]. وبعد حديث انتهى الحوار، سألها: ما حاجتك الآن يا أم سنان؟ فسألته حاجتها فى حفيدها بالمدينة أن يفك أسره، فلبى معاوية طلبها، وأكرمها ووصلها وردّها إلى المدينة، وقد قضيت حاجتها، وكان لسانها يلهج بالدعاء لمعاوية[2].

هذه أمُّ سنان المذحجيّة، إحدى نساء عصر التابعين وممن فُطرت نفسها على الصَّفاء والصَّراحة، وأوتيت شطراً من البلاغة والحكمة ما جعلها فى سجل ناصع يحكى خلودها وخلود أمثالها[3]، ولم تكن أم سنان المذحجية وحدها التى كانت تعبر عن رأيها، وتتكلَّم بوضوح عن معتقداتها، بل كانت مثيلاتها كثير مثل: الزرقاء بنت عدى[4]، وأم الخير بنت الحريش[5]، لقد كان معاوية رضى الله عنه، يجرّىء الناس على الصدع بمعتقداتهم وآرائهم، ويشجعهم على حرية الرأى والتعبير وحق النقد والمعارضة السلمية.

****

(١) العقد الفريد (٢/١٠٨) ، تاريخ دمشق نقلاً عن نساء من عصر التابعين ، أحمد جمعة صـ٢٧٨ ، شاعرات العرب صـ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) نساء من عصر التابعين صـ٢٨٠ ، شاعرات العرب صـ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٣) نساء من عصر التابعين صـ٢٨٠ .

(٤) المصدر نفسه صـ ٢٩٦ .

(٥) المصدر نفسه صـ١٤٨ .

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١هـ، فأخذ يعمل بكل ما أوتى من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار فى ربوع العالم الإسلامى، فانتهج سياسة داخلية، تقوم على عدة أمور.

المبحث الأول

الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم

فقد خطب مرة فى أهل الحجاز بعد توليه الخلافة فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله، فقال: وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم؟ رحمة الله ورضوان الله عليهم، غير أنى سلكت بها طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة؛ فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى بعضه.. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، أستغفر الله لى ولكم[1]. وبمثل هذه السيرة صار خليفة المسلمين وانقاد له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة، كان، رضى الله عنه، يهتم بغزو القلوب والإحسان إليها، مع الوعى والحذر الشديدين أن لا تنتفض الأمة عليه، لقد كان يبذل المال بلا حساب لكبار الشخصيات القيادية فى المجتمع ويعتبر أن عليها مسؤوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة، فلا بد أن تكون مليئة لسد الخلّة، وتلبى الحاجة، وتحلّ المعضلة، ولعل أشراف بنى هاشم كانوا فى هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداقًا عليهم بالمال، ولا بدع فهم لايزالون فى عرف الناس القيادات الشعبية التى تمثل جماهير الأمة، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمراء، وهذه القيادات لم تشارك فى الحكم ولم تكن لها رغبة فى ذلك[2].

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٢).
(٢) معاوية بن أبى سفيان للغضبان صـ٣١٤.

أولاً : العلاقة بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما بعد الصلح :

كان الحسن بن على يقدم على معاوية فى خلافته، فقدم عليه ذات مرة فقال له معاوية: لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ولا أجيز بها أحداً بعدك، فأعطاه أربع مائة ألف فقبله[١]، وجاء فى رواية: . . . أن الحسن بن على كان يفد كل سنة إلى معاوية فيصله بمائة ألف درهم، فقعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشىء، فدعا بدواة ليكتب إليه فأغفى قبل أن يكتب فرأى النبى ﷺ فى منامه كأنه يقول: يا حسن أتكتب لمخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟ قال: فما أصنع يا رسول الله وقد كثر دينى؟ قال: قل اللهم إنى أسألك من كل أمر ضعفت عنه قوتى وحيلتى، ولم تنته إليه رغبتى، ولم يخطر ببالى ولم يبلغه أملى، ولم يجر على لسانى من اليقين الذى أعطيته أحداً من المخلوقين الأولين والمهاجرين والآخرين إلا أخصصتنى يا أرحم الراحمين. قال الحسن: فانتبهت وقد حفظت الدعاء، فكنت أدعو به فلم يلبث معاوية أن ذكرنى فقيل له: لم يقدم السنة، فأمر له بمائتى ألف درهم[٢]. وجاء فى رواية: بأن الدعاء الذى علمه رسول الله للحسن فى المنام هو: اللهم اقذف فى قلبى رجاك، واقطع رجائى عمّن سواك، لا أرجو أحداً غيرك، اللهم وما ضعفت عنه قوتى وقصر عنه عملى ولم تنته إليه رغبتى، ولم تبلغه مسألتى ولم يجر على لسانى مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصّنى به يا رب العالمين. قال: فوالله ما ألححت به أسبوعًا حتى بعث إلىّ معاوية بألف ألف وخمس مائة ألف، فقلت: الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، ولا يخيّب من دعاه، فرأيت النبى ﷺ فى المنام فقال: يا حسن كيف أنت؟ فقلت: بخير يا رسول الله وحدثته حديثى فقال: يا بُنى هكذا من رجا الخالق ولم يرجُ المخلوق[٣]. وروى الزهرى: . . . لما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه وجاء الحسن بن على رضى الله عنهما إلى معاوية فقال له معاوية: لو لم يكن لك فضل على يزيد إلا أن أمك امرأة من قريش وأمه إمرأة من كلب لكان لك عليه فضل، فكيف وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ[٤].

ثانيًا : صلات معاوية للحسن وابن الزبير رضى الله عنهم :

عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسن والحسين رضى الله عنهما كانا يقبلان جوائز معاوية رضى الله عنه[٥]، وكان يرسل للحسن والحسين، فقد أمر معاوية مرّة للحسن بن

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٩) .
(٢) تاريخ دمشق (١٤/ ٨) .
(٣) المصدر نفسه (١٤/ ٨) .
(٤) الشريعة للآجرى (٥/ ٢٤٧٠) إسناده حسن .
(٥) المصدر نفسه صـ ٢٤٧٠ إسناده حسن .

على بمائة ألف فذهب بها إليه، فقال لمن حوله: من أخذ شيئًا فهو له، وأمر للحسين بن على بمائة ألف فذهب بها إليه وعنده عشرة فقسمها عليهم عشرة آلاف، عشرة آلاف، وأمر لعبد الله بمائة ألف[(١)]، وكان معاوية رضى الله عنه إذا لقى الحسن بن على رضى الله عنهما قال: مرحبًا بابن رسول الله وأهلاً، ويأمر له بثلاثمائة ألف، ويلقى ابن الزبير رضى الله عنه فيقول: مرحبًا بابن عمة رسول الله وابن حواريه، ويأمر له بمائة ألف[(٢)]، وقد أشاد ابن الزبير بذكر معاوية بعد وفاته، فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: صلى يومًا عبد الله بن الزبير، فوجم بعد الصلاة ساعة، فقال الناس: لقد حدث نفسه ثم التفت إلينا فقال: لا يبعدن ابن هند، إن كانت فيه لمخارج لا نجدها فى أحد بعده أبدًا، والله إن كنا لنفرقه ـ أى نخوفه ـ وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا وإنا كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متعنا به ما دام فى هذا حجر ـ وأشار إلى أبى قبيس ـ[(٣)]. وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر فى عهد عبد الملك بن مروان[(٤)].

ثالثًا: عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مع معاوية:

وكان معاوية يحترمه ويقدره وكان يفد على معاوية، فأكرمه وقرّبه واحترمه وعظّمه، وكان يلقى عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعًا، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحدًا أحضر جوابًا منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن على اتفق كون ابن عباس عند معاوية فعزّاه فيه بأحسن تعزية، وردّ عليه ابن عباس ردًا حسنًا[(٥)]، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدى ابن عباس وعزّاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس[(٦)]، أما تعزية معاوية رضى الله عنه وإجازته لابن عباس فكما رواها قتادة، ثم قال لابن عباس: لا يسوؤك الله ولا يحزنك فى الحسن بن على، فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزننى الله ولا يسوؤنى ما أبقى الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم وعروضًا وأشياء وقال: خذها فاقسمها فى أهلك[(٧)]. وكان ابن عباس رضى الله عنه من سادات المجتمع الإسلامى وقائد من قاداتها الكبار وكان معاوية رضى الله عنه يعرف مكانته الاجتماعية والعلمية، فابن عباس كان بمثابة المستشار للشئون العلمية للخليفة، وقد كان معاوية رضى الله عنه

---

(١) تاريخ دمشق (٦٢/ ١٣٣) .
(٢) المصدر نفسه (٦٢/ ١٣٣) .
(٣) عيون الأخبار (١/ ١١ ، ١٢) .
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١١٥ .
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٢) .
(٦) المصدر نفسه (١١/ ٦٤٢) .
(٧) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٦) .

يعترف بفضل بنى هاشم على بنى أمية، فقد قيل له: أيكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرافًا، وكانوا هم أشرف، فيهم واحد لم يكن فى عبد مناف مثل هاشم، فلما هلك كنا أكثر عددًا، وأكثر أشرافًا، وكان فيهم عبد المطلب، لم يكن فينا مثله، فلما مات صرنا أكثر عددًا وأكثر أشرافًا ولم يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا: منا نبى فجاء نبى لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، محمد ﷺ فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف؟[1]، وكان معاوية رضى الله عنه يحذر بنى أمية من الإساءة إلى آل على بن أبى طالب قائلاً: إن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى، وكان يطلب من خلصاء على رضى الله عنه، وصفه وسرد روائع خصاله وأعماله[2].

رابعًا: هل عمّم معاوية سب أمير المؤمنين عليٍّ على منابر الدولة الأموية؟

تذكر كتب التاريخ أن الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون عليًا، وهذا الأثر الذى ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا على بن محمد، عن لوط ابن يحيى، قال: كان الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون رجلاً رضى الله عنه، فلما ولى هو ـ عمر بن عبد العزيز ـ أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعى:

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخف ... بريًا ولم تتبع مقالة مجرم

تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم

فصدَّقت معروف الذى قلت ... بالذى فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم[3]

فهذا الأثر واهٍ، فعلى بن محمد هو المدائنى فيه ضعف وشيخه لوط بن يحيى، واهٍ بمرة، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطنى: أخبارى ضعيف ووصفه فى الميزان: أخبارى تالف لا يوثق به[4]، وعامة روايته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل[5]، وقد اتهم الشيعة معاوية رضى الله عنه بحمل الناس على سب على ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذى يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التى لا مجال لمناقشتها، ولم يثبت قط فى رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء فى كتب الدميرى، واليعقوبى وأبى الفرج الأصفهانى،

(١) البداية والنهاية (١١/٤٤٦).
(٢) الدور السياسى للصفوة صـ١٧٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٧).
(٤) الميزان (٣/٤١٩).
(٥) دفاعاً عن السلفية صـ١٨٧.

علمًا بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[1]، من احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين على وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن على على منابر بنى أمية لا تتفق مع منطق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبنى أمية، فإننا لا نجد فيها ذكرًا لشيء من ذلك أبدًا، وإنما نجده فى كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم فى عصر بنى العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بنى أمية فى نظر الجمهور الإسلامى، وقد كتب ذلك المسعودى فى مروج الذهب وغيره من كتَّاب الشيعة وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيحة صريحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية رضى الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله فى الدين، وكان محمود السيرة فى الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[2]. وقد ثبت هذا فى حق معاوية ـ رضى الله عنه ـ كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن على رضى الله عنه على المنابر، وهو من هو فى الفضل، ومن علم سيرة معاوية ـ رضى الله عنه فى الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية ـ رضى الله عنه – فى الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[3]، وقد فصلّنا فى صفة الحلم فى شخصية معاوية فيما مضى. وأما ما استدل به الشيعة على تلك الفرية من صحيح مسلم فليس ما يدل على زعمهم، فعن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبى سفيان سعدًا فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثًا قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه، لأن تكون لى واحدة منهنّ أحب إلىّ من حمر النعم[4]، قال النووى: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعدًا بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب. كأنه يقول: هل امتنعت تورعًا أو خوفًا، أو غير ذلك، فإن كان تورعًا وإجلالاً له عن السب، فأنت مصيب محسن، ولعل سعد رضى الله عنه وقد كان فى طائفة يسبون فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار إن أنكر عليهم، فسأله هذا السؤال: قالوا: ويحتمل تأويلاً آخر

(١) الحسن والحسين ، محمد رضا صـ ١٨ كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب .

(٢) الانتصار للصحب والآل صـ ٣٦٧ للرحيلى .

(٣) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب صـ٣٥٣ .

(٤) مسلم ، ك : فضائل الصحابة (١٨٧١/٤) .

أن معناه: مـا منعك أن تخطئه في رأيه واجتهـاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتـهادنا وأنه أخطأ[1]، وقال أبو العباس القرطبي صاحب المفهم معلقًا على وصف ضرار الصُّدائي لعلي رضي الله عنه وثنائه عليه بحـضور معاوية، وبكاء معـاوية من ذلك وتصديقه لضرار فـيما قال: وهذا الحـديث يدل على معرفة مـعاوية بفضل علي رضي اللـه عنه ومنزلته، وعظيم حقه ومكانته، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبّه، لما كان معاوية موصوفًا به من العقل والدين، والحلم وكرم الأخلاق، وما يـروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح، وأصح مـا فيـها قـوله لسـعد بن أبي وقـاص: ما يمنـعك أن تسب أبا تراب؟ وهذا ليس بالتصريح بالسب، وإنما هو سـؤال عن سبب امتناعه ليسـتخرج من عنده من ذلك، أو من نقيـضه، كـما قد ظهـر من جوابه، ولما سـمع ذلك معاوية، سـكن وأذعن، وعرف الحق لمستحقه[2]، قال الدكتور الرحيلي في كتابه الصحب والآل: والذي يظهر لي في هذا والله أعلم: أن معـاوية إنما قال ذلك على سبيل المداعـبة لسعد، وأراد من ذلك اسـتظهار بعض فضائل علي ـ رضي الله عنـه ـ فإن معاوية ـ رضي الله عنه ـ كان رجـلاً فطنًا ذكيًا، يحب مطارحة الرجال واسـتخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف مـا عند سعد في علي ـ رضي الله عنه ـ فألقى سـؤاله بهذا الأسلوب المثيـر. وهذا مثل قوله ـ رضي الله عنه ـ لابن عـباس: أنت على ملة علي؟ فـقال له ابن عـباس: ولا على ملة عـثمان، أنا على ملـة رسول الله ﷺ[3]. فظاهر أن قول مـعاوية هنا لابن عـباس: جاء على سـبيل المداعبـة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأمـا ما ادّعى الشيعة من الأمر بالسب فحـاشا معاوية رضي الله عنه أن يصدر منه مثل ذلك[4]، والمانع من هذا عدة أمور:

١- أن معاوية رضي الله عنه مـا كان يسب عليًا ـ رضي الله عنه ـ كما تقـدم حتى يأمر غيره بسـبه، بل كان معظمًـا له، معترفًـا له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كـما دلت على ذلك أقواله الثابته عنه، فـقد قال ابن كثير: وقد ورد من غيـر وجه: أن أبا مسلم الخولاني وجماعة مـعه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع عليًـا أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني[5]، وعن جرير بن عبد الحـميد عن المغيرة قال: لما جاء خبر قـتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيـه وقد قاتلته؟

(١) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٧٥).
(٢) المفهم للقرطبي (٦/ ٢٧٨).
(٣) الإبانة (١/ ٣٥٥) شرح أصول اعتقاد اللالكائي (١/ ٩٤).
(٤) الانتصار للصحب والآل صـ٣٧٥.
(٥) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم[1]، فهل يسوغ فى عقل ودين أن يسب معاوية عليًا بل ويحمل الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا[2].

٢ ـ أنه لا يعرف بنقل صحيح عن معاوية ـ رضى الله عنه ـ أنه تعرض لعلى رضى الله عنه ـ بسب أو شتم أثناء حربه له فى حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد انتهاء حربه معه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

٣ ـ أن معاوية رضى الله عنه كان رجلاً ذكيًا مشهورًا بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب على ـ حاشاه ذلك ـ أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وهو من هو فى الشجاعة والفضل والورع، مع عدم دخوله فى الفتنة أصلاً، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتدبيرًا، فكيف بمعاوية.

٤ ـ أن معاوية ـ رضى الله عنه ـ انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما له واجتمعت عليه الكلمة ودانت له الأمصار بالملك، فأى نفع له فى سب على؟ بل الحكمة وحسن السياسة تقتضى عدم ذلك، لما فيه من تهدئة النفوس، وتسكين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية.

٥ ـ أنه كان بين معاوية ـ رضى الله عنه ـ بعد استقلاله بالخلافة وأبناء على من الألفة والتقارب، ما هو مشهور فى كتب السير والتاريخ[3]، ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بمائتى ألف. وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلى فقال له الحسين رضى الله عنه: ولم تعط أحدا أفضل منا[4]، ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحبًا وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، وأمر له بثلاثمائة ألف[5]. وهذا مما يقطع الكذب مما يدَّعى فى حق معاوية من حمله الناس على سب على، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، وبهذا يظهر الحق فى هذه المسألة، وتتجلى الحقيقة[6]، كما أن المجتمع فى عمومه مقيد بأحكام الشرع حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذىء[7]، وقد نهى رسول

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).
(٢) الانتصار للصحب والآل صـ٣٧٦.
(٣) المصدر نفسه صـ٣٧٦.
(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٣٩).
(٥) المصدر نفسه (٨/ ١٤٠).
(٦) الانتصار للصحب والآل صـ٣٧٧.
(٧) صحيح ابن حبان رقم ٤٧، صححه الألبانى فى الصحيحة رقم ٣٢٠.

الله ﷺ عن سب الأموات المشركين فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة رضى الله عنها ـ مرفوعًا: لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا[١].

خامسًا : معاوية وسُمّ الحسن بن علي؟

ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن على توفى متأثرًا بالسم الذى وضع له، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس أمير كندة، فهذه أم موسى سرية على تتهم جعدة بأنها دست السم للحسن، فاشتكى منه شكاة، فكان يوضع تحته طست[٢]، وترفع أخرى نحوًا من أربعين يومًا[٣]، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهى ضعيفة[٤]، وحاول البعض من الإخباريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليزيد ووفاة الحسن، وزعموا أن يزيد بن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس أن سُمى حسنًا فإنى سأتزوجك، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء، فقال: إنا والله لم نرضك له أفنرضاك لأنفسنا؟[٥]، وفى سندها يزيد بن عياض بن جعدية، كذبه مالك وغيره[٦]، وقد وردت هذه الروايات فى كتب أهل السنة بدون تمحيص، مع العلم أن تلك الروايات أسانيدها ضعيفة[٧].

١ ـ قال ابن العربى: فإن قيل: دس على الحسن من سمّه، قلنا: هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليتقى من الحسن بأسًا وقد سلّم الأمر، الثانى: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بيِّنة على أحد من خلقه فى زمن متباعد ولم نثق فيه بنقل ناقل، بين أيدى قوم ذوى أهواء، وفى حال فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغى، فلا يقبل منها إلا الصافى، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم[٨].

٢ ـ وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمّ الحسن، فهذا مما ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك ببينة شرعية، أو إقرار معتبر، ولا نقل يجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم[٩]. وقد جاء عن ابن تيمية فى رده عن اتهام معاوية بسمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة وكانت ابنته تحت الحسن، حيث قال: وإذا قيل إن معاوية أمر أباها كان هذا ظنًا محضًا، والنبى ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن

(١) البخارى رقم ٦٥١٦ .
(٢) طست : إناء معلوم .
(٣) الطبقات، تحقيق السُلمى (١/٣٣٨) إسناده ضعيف .
(٤) المصدر نفسه (١/٣٣٨) .
(٥) تهذيب الكمال (٦/٤٥٣) .
(٦) تقريب التهذيب صـ٦٠٤ .
(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٩٣ .
(٨) العواصم من القواصم صـ٢٢٠ ـ ٢٢١ .
(٩) منهاج السنة النبوية (٤/٤٦٩) .

أكذب الحديث» ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين، ولهذا لم يذكر فى الصلح الذى كان بين معاوية والحسن بن على، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر فى ذلك، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين، فكيف يكون هو الذى أمر بنته[١]. وهذا يدل على قدرة ابن تيمية للنقد العلمى القوى للروايات التاريخية.

٣ ـ وقال الذهبي: هذا شئ لا يصح فمن الذى أطلع عليه[٢].

٤ ـ وقال ابن كثير: روى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمِّي الحسن وأنا أتزوجك بعده ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندى أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى[٣].

٥ ـ وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، حاشا لمعاوية من ذلك[٤].

٦ ـ د. جميل المصرى: وقد علق على هذه القضية بقوله: . . . ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد. . ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعًا آنذاك، لأننا لا نلمس[٥] لها أثراً فى قضية قيام الحسن، أو حتى عتابًا من الحسين لمعاوية. وبالنسبة لسم الحسن رضى الله عنه، فنحن لا ننكر هذا، فإذا ثبت أنه مات مسمومًا فهذه شهادة له وكرامة فى حقه[٦]، وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند، كما مر معنا، ومن حيث المتن، وهل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال ـ كما تذكر الروايات - حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالى تكون زوجة له، أليست جعدة ابنة أمير قبيلة كندة كافة وهو الأشعث بن قيس، ثم أليس زوجها وهو الحسن بن على أفضل الناس شرفًا ورفعة بلا منازعة، إن أمه فاطمة رضى الله عنها، وجده رسول الله ﷺ وكفى به فخراً، وأبوه على بن أبى طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذًا ما هو الشئ الذى تسعى إليه جعدة وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير[٧]، إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة الإسلامية، وزادهم غيظًا وحنقًا ما قام،

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال صـ٢٦٦ .

(٢) تاريخ الإسلام ، عهد معاوية صـ ٤٠ ، اتهامات لا تثبت سليمان بن صالح الخراشى صـ١٧٤ .

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٤٣) . (٤) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٢٧) .

(٥) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية صـ٤٨٢ ، مرويات خلافة معاوية صـ٣٩٥ .

(٦) منهاج السنة (٤/ ٤٢) . (٧) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية صـ١٢٣ .

به الحسن بن على، كما أن قناعتهم قوية بأن وجوده حيًا صمام أمان للأمة الإسلامية، فهو إمام ألفتها وزعيم وحدتها بدون منافس، وبالتالى حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتن إلى ما كانت عليه، فلا بد من تصفيته وإزالته، فالمتهم الأول فى نظرى هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين وجه لهم الحسن صفعة قوية عندما تنازل لمعاوية وجعل حدًا للصراع، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وهم الذين طعنوه فى فخذه، فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم فى النهروان وغيرها[1].

سادسًا : موقف معاوية من قتلة عثمان رضى الله عنهما :

كان من ضمن شروط الحسن فى صلحه مع معاوية ألا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشئ[2]، والذى يلاحظه المؤرخ أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان[3]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشئ كان فى أيام على وهى قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفاف إلى الماضى وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[4]، وقد تمّ التوافق المبنى على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحدًا بذنب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء فى عهد معاوية إلى حد كبير[5]، وجاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية بن أبى سفيان لما قدم بعد عام الجماعة ـ المدينة ـ دخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان، وبكت ونادت أباها، فقال معاوية: يا ابنة أخى، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا، لأن تكونى إبنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس[6]. والذى يعتد به من كلام ابن قتيبة ما جاء عن العهود والمواثيق التى أبرمت بين معاوية والحسن وقضت بالصلح بين الناس، ووضع الحرب وحقن الدماء، وعدم تهييج النفوس، وإضافة إلى ذلك فإن السنوات الخمس التى احتضنت المعارك فى الجمل وصفين

(١) موقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية صـ١٢٤ .
(٢) التبيين فى أنساب القرشيين صـ١٢٧ .
(٣) الخلفاء الراشدين للنجار صـ٤٨٢ .
(٤) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام صـ٣٤١ .
(٥) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على صـ٣٤٩ .
(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٦٩ ، السلطان لابن قتيبة صـ٥٨ .

والنهروان ومصــر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسمــاؤهم بتهمة قتل عــثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة فى ذهن الخلفاء من بنى أمية ونوابهم فى الأغلب وأما انتصار بنى أمية لعثمان كان حقيقة لا شبهة فيها[1].

سابعًا : مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

تحدثت مــعظم المصادر فى مقــتل حجر بن عدى رضى الــله عنه، ومن هذه المصادر: ابن سعــد[2]، وخليــفــة بن خيــاط[3]، باختــصار شــديد والبــلاذرى[4]، واليــعقــوبى[5]، والمسعودى[6]، وأبو الفرج الأصفهانى[7] مطولاً، وابن الجوزى[8]، وابن الأثير[9] مطولاً، والذهبى[10]، وابن كثير[11]، وقد اعتمد الطبرى فى خبر حجر بن عدى وأصحابه على أبى مخنف المؤرخ الشيعى المشهور والذى ليس بثقــة ولا يعتمد عليه عند علماء المسلمين من أهل السنة، فقد نقل الطبرى عنه ست عــشرة رواية، وعمومًا فإن خبر مــقتل حجر بن عدى ورد فى مصادر متعددة، ولم تنفرد الروايات الشيعية بسوق خبره، ولكن رواية أبى مخنف الساقط الاعتبار عند علماء أهل الجرح والتعديل أشارت إلــى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة بشتم على وذمه، لذلك كــان المغيرة لا يترك ذمّ على فى خطبــته طوال فترة ولايتــه على الكوفة، ونص خطبته التــى أغضبت حجر بن عــدى كما أوردها أبو مخنف: اللهم ارحم عــثمان بن عفــان وتجاوز عنه، واجزه بأحسن عــمله، فإنه عمل بكتــابك، واتبع سنة نبيك ﷺ، وجمع كلمتنا وحقن دماءنا، وقُــتل مظلومًا، اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبــيه والطالبين بدمه: ويدعو على قتلته[12]، وكما نلاحظ من نص الخطبة أنه لم يرد فــيها ذمٌّ على ومع ذلك فإن الرواية تشير أنّ هذه الخطبة تضمنت ذلك إلا إذا تأولــت لعنه لقتلة عثمان بأنه ذم لعلى[13]، وبراءة على من دم عثــمان يعرفــها القاصى والدانى وقــد اثبتها فى كــتبى عن عثــمان وعلى والحسن رضى الله عنهم جميــعًا. ومهما يكن من أمر فإن الباحث فى مــقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، يلاحظ أن موقف حجر من أمير المؤمنين معاوية قد مرّ بمرحلتين:

---

(1) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٧٠ .

(2) الطبقات (٦/ ٢١٧) تحقيق إحسان عباس .

(3) التاريخ صـ٢١٣ .

(4) أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٢) .

(5) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٣٠) .

(6) مروج الذهب (٣/ ١٢) .

(7) الأغانى (١٧/ ١٣٣) .

(8) المنتظم (٥/ ٢٤١) .

(9) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٨) .

(10) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢) .

(11) البداية والنهاية (١١/ ٢٢٧) .

(12) تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٨ إلى ١٦٩) .

(13) أثر التشيع على الروايات صـ ٣٦٨ إلى ٣٧٠ .

- المرحلة الأولى: مرحلة المعارضة القولية: (٤١هـ - ٥٠هـ):

كان حجر بن عدى الكندى، أبو عبد الرحمن الشهيد، له صحبة ووفادة، وفد مع أخيه هانئ بن الأدبر، ولا رواية له عن النبى ﷺ وسمع من على وعمار[١]، وكان شريفًا، أميرًا مطاعًا، أمّارًا بالمعروف، مقدامًا على الإنكار من شيعة على رضى الله عنهما، شهد صفين أميرًا، وكان ذا صلاح وتعبد[٢]، وكان رضى الله عنه من المعارضين للصلح الذى قام بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها فى هذه المرحلة أى فعل، بل اقتصرت على الأقوال فقط[٣]، وفى ذلك يقول البلاذرى: . . . لم يزل حجر بن عدى منكرًا على الحسن بن على بن أبى طالب صلحه لمعاوية، فكان يعذله على ذلك ويقول: تركت القتال ومعك أربعون ألفًا ذوو نيات، وبصائر فى قتال عدوك، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعيبه، ويُظلِّمه[٤]، فكان هذا هجيراه، وعادته[٥].

- المرحلة الثانية : مرحلة المعارضة الفعلية:

هذه المرحلة بدأت فى سنة ٥١هـ حيث حصل فى هذه السنة تدهور مفاجئ فى علاقة حجر بن عدى مع زياد بن أبيه والى العراق، وقد ذكرت المصادر سببين فى سبب تدهور هذه العلاقة:

أ - ما ذكر من إقدام المغيرة بن شعبة على الثناء على عثمان والترحم عليه، وذم على بن أبى طالب، وإقدام حجر بن عدى على مدح على بن أبى طالب، وذم عثمان بن عفان، وسكوت المغيرة عن حجر بن عدى، فلما مات المغيرة بن شعبة وتولى زياد بن أبيه، قال زياد فى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب مثلما كان يقول المغيرة، فقام حجر بن عدى وقال فيهما مثلما كان يقول زمن المغيرة، فكان ذلك سبب ابتداء المواجهة بين حجر وزياد[٦].

ب - ما ذُكر من إطالة زياد الخطبة، وتأخير الصلاة، وقيام حجر بإنكار ذلك على زياد، فكان هذا سبب ابتداء المواجهة بينهما[٧] وهذان السببان يكدرهما ما يلى:

جـ - أن سياسة المغيرة رضى الله عنه مع أهل الكوفة اتسمت بالعفو والصفح، وليس بإثارة الأحقاد والإحن، والحجة فى ذلك ما أخرجه البخارى من طريق زياد بن علاقة قال:

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢) .
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٦٣) .
(٣) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٤٢٢ .
(٤) أى : ينسبه للظلم .
(٥) هجيراه : دأبه وشأنه القاموس المحيط صـ٦٣٧ .
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٩) .
(٧) المصدر نفسه (٥/ ١٦٩) .

سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن ثم قال: استغفروا لأميركم، فإنه كان يحب العفو[1]. ثم قال: أما بعد فإنى أتيت النبى ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علىّ: النصح لكل مسلم. فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إنى لناصح لكم[2]، ثم استغفر ونزل[3].

ـ أن ضم الكوفة إلى زياد كان فى سنة ٤٩هـ، وهو ما صرح به فيل مولى زياد حيث قال: ملك زياد العراق خمس سنين، ثم مات سنة ثلاث وخمسين وهذه الرواية التى تحدد تاريخ ضم الكوفة إلى زياد بن أبيه تعد أصح ما فى الباب، وحيث إن ولاية زياد على الكوفة كانت سنة ٤٩هـ، ولم يحدث الصدام بين حجر وأنصاره وزياد والى الكوفة لأن الحسن بن على رضى الله عنه لازال حيًا ووجوده كان كفيلاً بردع تحركات المعارضين للصلح من أنصاره لأنه رضى الله عنه اشترط عليهم أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم.

ولكن بعد وفاة الحسن رضى الله عنه عام ٥١هـ[4]. تغير موقف بعض قيادات أهل العراق ومنهم حجر بن عدى من المعارضة القولية إلى الفعلية، فقد روى البلاذرى بإسناده إلى الشعبى، وغيره، قالوا: لما قدم زياد الكوفة ـ عام ٤٩هـ ـ بعث إلى حجر فقال: يا هذا، كنا على ما علمت، وقد جاء أمر غير ذلك، أمسك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريرى فهو مجلسك، فإياك أن تستنزلك السفلة أو تستفزك، إنى لو استخففت بحقك هان على أمرك، ولم أكلمك من كلامى هذا بحرف، فلما صار إلى منزله اجتمعت إليه الشيعة فقالوا: أنت شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر[5]، فلما شخص زياد إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الصلاة والحرب، ومهران مولاه على الخراج، وأمر العمال بمكاتبة عمرو.. فكتب عمرو إلى زياد: إن كانت لك بالكوفة حاجة فالعجل، فإنى كتبت إليك وليس فى يدى منها مع حجر إلا القصر، فأخذ السير حتى قدم الكوفة ـ فبعث إلى عدى بن حاتم الطائى، وجرير بن عبد الله البجلى.. فقال: ائتوا هذا الشيخ المفتون، فإنى خائف أن يحملنا من أمره على ما ليس من شأننا فأتوه... وكلمه القوم، فلم يكلم منهم أحدًا، فأتوا زيادًا فقال: مهيم؟[6] فقال عدى: أيها الأمير،

(١) مرويات خلافة معاوية صـ٤٢٤ .

(٢) إشارة إلى أنه وفى بما بايع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صدق فى نصحه .

(٣) البخارى، صحيح البخارى مع الفتح (١/١٦٨) .

(٤) مرويات خلافة معاوية صـ٤٢٥ .

(٥) مرويات خلافة معاوية صـ ٤٢٨ ؛ أنساب الأشراف (٤/٢٤٦) .

(٦) مهيم: كلمة استفهام ، أى ما وراءك؟

استذمه[١]، فإن له سنًا فقال: لست لأبى سفيان إذًا، ثم أرسل إليه الشُّرَط فقوتلوا[٢]، وجاء فى رواية أخرى: لما قدم زياد الكوفة أميرًا[٣] أكرم حجر بن الأدبر[٤]، وأدناه، وشفَّعَه، فلما أراد الانحدار إلى البصرة[٥] دعاه فقال له: يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك، وإنى أريد البصرة، فأحب أن تشخص معى، فإنى أكره أن تتخلف بعدى، فعسى أن أبلَّغ عنك شيئًا فيقع فى نفسى، وإذا كنت معى لم يقع فى نفسى منك شىء، فقد علمت رأيك فى على بن أبى طالب، وقد كان رأى فيه قبلك على مثل ذلك، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية،لم اتهم قضاء الله ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر على وأصحابه، وإنى أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها[٦]، والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص على رضى الله عنه، ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل فى الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن، فقال له حجر: إنى مريض ولا استطيع الشخوص. قال: صدقت، والله إنك لمريض الدين والقلب، مريض العقل، وأيم الله لئن بلغنى عنك شىء أكرهه بأحرص على قتلك فانظر أو دع، فخرج زياد فلحق بالبصرة، واجتمع إلى حجر قُرّاء أهل الكوفة، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر، ولا يريد شيئًا إلا منعوه إياه، فكتب إلى زياد: إنى والله ما أنا فى شىء مع حجر وأصحابه، وأنت أعلم فركب زياد بغاله حتى اقتحم الكوفة، فلما قدمها تغيب حجر، فجعل يطلبه فلا يقدر عليه[٧]. أما تفاصيل المواجهة بين شرطة زياد وحجر بن عدى وأنصاره، فقد انفرد أبو مخنف من بين المصادر التى وقفت عليها بإيراد تفاصيلها[٨]، كذلك انفرد أبو مخنف بإيراد تفاصيل مهمة عن شهادة أهل الكوفة على حجر وأصحابه[٩].

١ ـ قضاء معاوية رضى الله عنه فى حجر رضى الله عنه وأصحابه:

نظرًا لخطورة قضية حجر بن عدى وحساسيتها، فقد وافق زياد بن أبيه على شرط حجر بن عدى عند استسلامه، وهذا الشرط هو إحالة قضية حجر ومن معه إلى معاوية ليحكم

---

(١) استذمه : لا تخفر ذمته .

(٢) أنساب الأشراف (٤/٢٤٦ ، ٢٤٧) .

(٣) وذلك سنة ٤٩هـ .

(٤) الأدبر : لقب عدى والد حجر .

(٥) وذلك سنة ٥١هـ .

(٦) هذا تحذير من زياد لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة، ولذلك حرص على اصطحابه معه إلى البصرة.

(٧) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧١) .

(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ١٧٧ ، ١٨٣) .

(٩) المصدر نفسه (٦/ ١٨٤ ، ١٨٦) .

فيها[1]، وقبل الحديث عن حكم معاوية في حجر وأصحابه، ينبغي التذكير بالتهم الموجهة إليهم، وهذه التهم كما وردت عن أبي مخنف هي: . . . إن حجرًا جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب[2]، والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه، وعلى مثل رأيه وأمره[3]، أما قضاء معاوية رضي الله عنه في حجر رضي الله عنه، وأصحابه فإنه لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من علي رضي الله عنه كما تزعم بعض الروايات[4]، بل استخار الله سبحانه وتعالى فيهم، واستشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم، واستحيا بعضهم، والحجة في ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل[5]، بإسناد حسن قال حدثني أبي[6]، قال حدثنا أبو المغيرة[7]، قال: حدثنا ابن عياش[8]، قال: حدثني شرحبيل بن مسلم[9]، قال: لما بُعث بحجر بن عدي بن الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية بن أبي سفيان، استشار الناس في قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت، فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادي، فنادى: أين عمرو بن الأسود العنسي[10]، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا أنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعي ونحن الرعية، ألا وأنت أعلمنا بدائهم وأقدرنا على دوائهم، وإنما علينا أن نقول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥] فقال معاوية: أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم ورمى بها ما بين عيني معاوية. ثم قام المنادي فنادى: أين أبو المسلم الخولاني، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ

(١) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٧ ، ١٨٨) .
(٢) المقصود به علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي كنيته.
(٣) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٨) .
(٤) مرويات خلافة معاوية صـ٤٣٠ .
(٥) قال عنه الذهبي صدوق ثقة السير (١٢/ ٥٢٩).
(٦) أحمد بن محمد بن حنبل: ثقة حافظ فقيه حجة .
(٧) عبد القدوس بن الحجاج الخولاني: أمير المغيرة .
(٨) إسماعيل بن عياش العنسي الحمصي: صدوق .
(٩) شرحبيل بن مسلم الخولاني الشامي: من شيوخ الشام .
(١٠) مخضرم ، ثقة عابد ، من كبار التابعين مات في خلافة معاوية .

أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا بيعتنا منذ بايعناك، على عواتقنا إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك، وإن سبقناك نظرناك، ثم جلس. ثم قام المنادى فقال: أين عبد الله بن مِخْمَر الشرعبى[1]، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين فى هذه العصابة من أهل العراق، إن تعفُ فقد أصبت، وإن تعف فقد أحسنت، فقام المنادى فنادى: أين عبد الله بن أسد القسرى فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك، ووليتك، وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا أنفسهم العقوبة، وإن تعف فإن العفو أقرب للتقوى يا أمير المؤمنين ولا تطع فينا من كان غشومًا ظلومًا، بالليل نؤومًا، عن عمل الآخرة سؤومًا[2].

يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انقشعت أوتادها، ومالت بها عمادها، وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها، ثم جلس فقلت[3] لشرحبيل: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضًا واستحيا بعضًا وكان فيمن قتل حجر بن عدى بن الأدبر[4]، وكان حجر رضى الله عنه قبل قتله قال: يا قوم دعونى أصلى ركعتين، فتركوه فتوضأ، وصلَّى ركعتين، فطوَّل، فقيل له: طوَّلت، أجزعت؟ فقال: ما صليت صلاة أخفّ منها، ولئن جزعت لقد رأيت سيفًا مشهورًا، وكفنًا منشورًا، وقبرًا محفورًا، وكانت عشائرهم قد جاؤوهم بالأكفان، وحفروا لهم القبور.

ويقال: بل معاوية الذى فعل ذلك. وقال حجر: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل العراق شهدوا علينا وإن أهل الشام قتلونا. فقيل له: مُدَّ عنقك. فقال: إنَّ ذاك لدم ما كنت لأُعين عليه[5]، وجاء فى رواية: لما أتى معاوية بحجر، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين: قال: أو أمير المؤمنين أنا؟ اضربوا عنقه فصلَّى ركعتين، وقال لأهله: لا تطلقوا عنى حديدًا، ولا تغسلوا عنى دمًا، فإنى ملاقٍ معاوية على الجادَّة[6]. وقد علق ابن العربى على مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه فقال: . . وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى فى الأرض فسادًا[7]، وقد اعتمد معاوية رضى الله عنه فى قضائه على قوله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يَشُقَّ عصاكم(8)، أو يفرق

(١) شامى مخضرم ، يروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه

(٢) مرويات خلافة معاوية صـ٤٣٤ ، نقلاً عن تاريخ دمشق (٤/ ٢٧١) .

(٣) القائل هو إسماعيل بن عياش .

(٤) أحمد بن حنبل : المسائل رواية ابنه صالح (٢/ ٣٢٨ ، ٣٣١) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٥) .

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٤٦٦) .

(٧) العواصم من القواصم صـ ٢٢٠ .

(٨) يشق عصاكم : يفرق جماعتكم .

جماعتكم فاقتلوه»[١]، وقوله ﷺ: «إنه ستكون هنات»[٢]، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»[٣]. ومما يجدر التذكير به فى هذا المقام أن معاوية رضى الله عنه لم يكن ليقضى بقتل حجر بن عدى رضى الله عنه لو أن حجراً اقتصر فى معارضته إلى الأقوال فقط ولم ينتقل على الأفعال، ولنا فى خبر المسور بن مخرمه وغيره مما مرّ معنا دلالة على ذلك[٤].

٢ ـ موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

بالغت الروايات فى ذكر موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى، حيث ذهبت بعض الروايات إلى زعم بتهديد عائشة لمعاوية بالقتل حين زارها ٥١هـ، وكذلك التهديد بمحاربة معاوية[٥]، وهذه الروايات لم يصح منها شىء فى حق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وأما حقيقة موقفها فعن ابن أبى مليكة: إن معاوية جاء يستأذن على عائشة، فأبت أن تأذن له، فخرج غلام لها يقال له: ذكوان[٦]، قال: ويحك أدخلنى على عائشة فإنها قد غضبت على، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له، وكان أطوع منى عندها، فلما دخل عليها قال: أمتاه فيما وجدت علىّ يرحمك الله؟ قالت: وجدت عليك فى شأن حجر وأصحابه أنك قتلتهم فقال لها: وأما حجر وأصحابه فإنى تخوفت أمرًا، وخشيت فتنة تكون، تهراق فيها الدماء، تستحل فيها المحارم، وأنت تخافينى، دعينى والله يفعل ما يشاء، قالت: تركتك والله، تركتك والله، تركتك والله[٧]، وجاء فى رواية أخرى: لما قدم معاوية دخل على عائشة، فقالت: أقتلت حجراً؟ قال: يا أم المؤمنين، إنى وجدت قتل رجلٍ فى صلاح الناس، خير من استحيائه فى فسادهم[٨].

٣ ـ ندم معاوية على قتل حجر بن عدى:

جاء فى رواية: . . أن عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية فى حجر وأصحابه فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبى

---

(١) مسلم صحيح مسلم بشرح النووى (١٢/ ٢٤٢) .

(٢) هنات : جمع هَنَة ، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة شرح صحيح مسلم (١٢/ ٢٤١) .

(٣) مسلم ، صحيح شرح النووى (١٢/ ٢٤١) .

(٤) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٤٣٥ .

(٥) المصدر نفسه صـ ٤٣٨ مثل ما ورد فى تاريخ الطبرى .

(٦) أبو عمرو مولى عائشة ثقة توفى فى المدينة سنة ٦٣هـ .

(٧) تاريخ دمشق (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤) نقلا عن مرويات معاوية صـ ٤٤٠ .

(٨) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٣) نقلا عن مرويات معاوية صـ ٤٤٠ .

سفيان؟ قال: غاب حين غاب عنى مثلك من حلماء[1] قومى، قال الذهبى: يعنى أنه ندم[2]. ومع أن قتل حجر رضى الله عنه وأن ذكر له من الأعذار والمبررات ما ذكر، ففى الحقيقة كانت غلطة من معاوية، وكان ينبغى أن يتسع حلمه لصحابى من صحابة رسول الله ﷺ وقد ندم معاوية ندمًا كبيرًا على قتل حجر، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته[3]، وقد روى أنه قال عند موته: يوم لى من ابن الأدبر طويل: ثلاث مرات ـ يعنى حجرًا ـ[4].

٤ ـ موقف لمالك بن هبيرة السكونى رضى الله عنه:

لم يقبل معاوية رضى الله عنه شفاعة مالك بن هبيرة السكونى فى حجر بن عدى، فجمع مالك قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقى القتلة وسألهم، فقالوا: مات القوم. وسار إلى عَدِىّ فتيقن قتلهم فأرسل فى أثر القتلة فلم يدركهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها فى نفسه وكأنى بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حربًا فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه[5]، وكان مالك بن هبيرة السكونى صحابيًا جليلاً وكان معاوية رضى الله عنه ولاّه حمص وكان يقول فيه: ما أصبح عندى من العرب أوثق فى نفسى نصحا بجماعة المسلمين وعامتهم من مالك بن هبيرة[6]. وقد كان يسع معاوية غير القتل من العقوبات، كالسجن، أو تفريق حجر وجماعته، أويمن بهم على عشائرهم[7].

٥ ـ ما قيل فى حجر بن عدى من رثاء:

قالت هند ابنة زيد بن مخرمة الأنصارية فى رثاء حجر:

ترفع أيها القمر المنير ... تَبَصَّرْ هل ترى حجرًا يسير

يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كم زعم الأمير

تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير

وأصبحت البلاد بها محولا ... كأن لم يحيها مزن مطير

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٥).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١١٦.
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٦).
(٥) تاريخ بن خلدون (٣/ ١٧).
(٦) أثر الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٦٧١، الطبقات الكبرى (٧/ ٤٢٠).
(٧) القرّاء ودورهم فى الحياة العامة صـ١٩٥.

ألا يا حجر حجر بن عدى ... تلقاك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أدرى عديا ... وشيخًا فى دمشق له زئير

إلى أن قالت:

ألا ياليت حجراً مات موتًا ... ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل زعيم قوم ... من الدنيا إلى هُلكٍ يصير[(١)]

وفيما عدا قضية حجر وأصحابه فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته والتى لخصها هو نفسه فى جمل يسيرة حين قال: لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت كانوا إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها[(٢)]، وهى سياسة حكيمة تفسح المجال أمام القول إذا ما ظل فى حدود لا يتعداها، فحيث يكفى المال عن اللسان يعتمده، ولا يضع السوط حيث يكفى اللسان، ولا يضع السيف حيث يكفى السوط[(٣)]، وقد قيل: بأن سليم مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية: اسكت ما أدرك صاحبك شيئًا قط بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلسانى[(٤)].

****

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٦).
(٢) السلطان لابن قتيبة صـ٥١ .
(٣) السلطة والمعارضة فى الإسلام، زهير هوّارى صـ٢٦٢ .
(٤) السلطان لابن قتيبة صـ٥٣ .

المبحث الثانى

مباشرة معاوية للأمور بنفسه وحرصه على توطين الأمن فى خلافته

أولاً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

ومن القواعد التى قامت عليها سياسة معاوية الداخلية مباشرة الأمور بنفسه، وكان رضى الله عنه يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة فى دولته، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره، إلا أنه لم يكن يكتفى بذلك بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين(١).

١ ـ مجلس معاوية فى يومه:

كان معاوية رضى الله عنه، يظهر فى اليوم والليلة خمس مرات، فكان إذا صلى الصبح جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزءه. ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ثم يصلى أربع ركعات، ويخرج إلى مجلسه، فينادى بخاصته، فيحدثهم ويحدثونه، ويُدخل عليه وزراءه، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم، ثم يؤتى بالغداء الأصغر، وهو فضل عشاء الليل، . . . ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله لما أراد، ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسى، ويسند ظهره إلى المقصورة، ويقوم الحراس، فيقدم إليه الضعيف والإعرابى والصبى والمرأة فيقول: ظُلمت، فيقول: أعزّوه، ويقول: عُدى علىّ فيقول: ابعثوا معه، ويقول: صُنع بى، فيقول: انظروا له، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلنى أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله عمره؟ فيقول: بنعمة من الله، فإذا استووا جلوسًا قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافًا، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول: غاب فلان عن أهله فيقول: تعاهدوهم وأعطوهم، واقضوا حوائجهم واخدموهم. ويؤتى بالغداء ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقال له: اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثًا، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١١٧ .

فيه بأمره، فيقال: يا عبد الله أعقب، فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، وينصرف الناس، ويدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلى[(١)]، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزاد الحاج، من الأخبصة اليابسة والخشكبالج[(٢)]، والأقراص المعجونة بالسكر واللبّن من دقيق السميد، والكعك المسمن والفواكه اليابسة، وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة ويُدخل عليه وزراءه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلى العصر ثم يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى إذا كان فى آخر وقت العصر، خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منها مقدار ما ينادى بالمغرب فيصليها، ثم يصلى أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة خمسين آية، يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة، وخاصة الخاصة، والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويسمر ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياساتها وسير الأمم وحروبها، ومكائدها وسياساتها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه: من الحلواء وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم: فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكّلوا بحفظها وقراءتها، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار، فيخرج ثم يصلى الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا كل يوم وليلة. وقد تبعه فى ذلك عبد الملك بن مروان وغيره، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه السياسة، ولا التأنى للأمور ولا مداراة الناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم[(٣)].

٢ - الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ - ديوان الرسائل: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه، ومواثيقه إلى موظفيه فى الأقاليم الإسلامية إلى البلدان الخارجية التى لها علاقة بالدولة الإسلامية[(٤)]، ومن أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة فى هذا الديوان فى عهد معاوية.. عبد الله بن أوس الغسانى، وزمل بن عمرو العذرى، واستمر

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة صـ٣٠٩ .

(٢) الخشكبالج: نوع من الحلوى .

(٣) الشهب اللامعة صـ٣١٠، ٣١١ ، مروج الذهب (٣/ ٢٢٠، ٢٢٢) .

(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ١٢٤ .

هذان الكاتبان فى خلافة يزيد الأول(١)، وكانت وسيلة الرسائل فى الاتصال بالولاة وقادة الجند، والقضاة، وزعماء القبائل تابعة لمعاوية وتحت إشرافه المباشر.

ب ـ ديوان الخاتم: أنشأ معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة، فلا تطلع عليها عين جاسوس ولا تصل إليها يد خائن(٢)، وكان من أغراض هذا الديوان تحاشى التزوير، ومنع حدوث التلاعب فى الكتب التى يصدرها الخليفة، ثم أصبح الديوان بمثابة سجل للكتب الصادرة، وصارت الدولة تعتمد عليه فى تدقيق الأوامر، والمراسلات التى تتعلق بالصرف والحسابات، بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى(٣)، كما أنه كان يقوم بالإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى، وبيان الأخطاء التى تقع فيها، وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول ﷺ، وختم الخلفاء الراشدين، فختم الرسول ﷺ يعنى التوقيع بالختم، بينما نراه فى عهد معاوية، وعصر الدولة الأموية بمثابة جهاز للفحص والتدقيق فى الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية، عبد الله بن محصن الحميرى، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير فى معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد بن أبيه وهو على العراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، فأخذ عمراً بردها وحبسه، فأداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وخزم الكتب(٤)، ولم تكن تخزم(٥)، وفى الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أملته ظروف اتساع الدولة الإسلامية فى عهد معاوية رضى الله عنه، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسرى لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته(٦).

جـ ـ ديوان البريد: يذكر المؤرخون: أن معاوية بن أبى سفيان أول من أدخل نظام البريد فى الدولة الإسلامية، وأصدر أوامره بوضع الخيول فى عدة أماكن، وقام بتنظيمه(٧)، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم(٨)، وكانت أعماله فى العصر الأموى واسعة ومتشعبة، نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية، وقد قام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق

(١) إدارة بلاد الشام صـ١٥٦ .
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٣٣ .
(٣) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ١٧٠ .
(٤) تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر ثم يوضع خاتم الخلافة.
(٥) الإدارة فى العصر الأموى صـ٢٨٧، مرويات خلافة معاوية صـ ٧٥.
(٦) مرويات خلافة معاوية صـ٧٦ .
(٧) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ١٧٤ .
(٨) المصدر نفسه صـ١٧٤ .

المواصلات التى سير عليها صاحب البريد، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة، والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالشام[1]، ولم تكن خدمات البريد مقصورة على ما يتعلق بالدولة، بل كان فى بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر[2]، وكانت الدولة فى عهد معاوية لا تستغنى عن البريد فى حالات السلم، وحالات الحرب، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة. وقد ذكرت بعض المصادر أسماء بعض من اشتغل مع معاوية فى ديوان البريد وهما: نصر بن ذبيان، والكميت، كانا على البريد فى أيام معاوية واستخدمهما فى نقل الأخبار بين الشام والحجاز[3]، وكانت أهم وسائل النقل: البغال[4]، والخيل[5]، ويعتبر معاوية مؤسس نظام البريد فى الإسلام، حيث كانت الرسائل ترسل قبل ذلك من قبل الخليفة إلى الجهة التى يراد إرسالها إليها، عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده، حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة، فكانت بذلك الرسائل تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها، أما نظام البريد الذى استخدمه معاوية اقتباساً من البيزنطيين فقد كان يقتضى أن تقسم الطرق إلى مسافات، يوضع فى نهاية كل مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد، وينطلق بها مسرعًا حتى إذا بلغ نهاية المسافة سلمها لمن بعده، وتظل الرسالة تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسلة إليها فى أقصر مدة، وأما مقدار المسافة الواحدة، فكان أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، وبذلك يكون طول المسافة اثنى عشر ميلاً، أى عشرين كيلو مترًا تقريبًا، وهذه المسافة تسمى بريدًا، وبهذه الطريقة تصل الرسالة بأكبر سرعة، دون إجهاد لصاحب البريد، حيث إن المسافة يمكن قطعها بسهولة، وتناوب أصحاب البريد إذا كان سيقطع المسافة وحده، وهكذا يوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد، واختصار الوقت[6]، يقول أبو هلال العسكرى: أول من وضع البريد فى توصيلها ليوفر الزمن الذى يستريحه صاحب البريد فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان، وأحكم أمره عبد الملك[7].

د ـ **نظام الكتبة:** كان هناك كاتب لديوان الرسائل، وآخر لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان الشرطة، وخامس لديوان القضاء، وكان فى عهد الأمويين أكبر

(1) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ١٧٥ .
(2) المصدر نفسه صـ١٧٥ .
(3) المصدر نفسه صـ١٧٦ .
(4) المصدر نفسه صـ١٧٦ .
(5) العيون والحدائق (٣/ ٨٢) ، إدارة بلاد الشام فى العهدين صـ١٧٦ .
(6) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٠) .
(7) الأوائل صـ٢٣٧ .

دواوين الدولة، ويقوم الموظفون فيه بنسخ أوامر الخليفة، وإيداعها ديوان الخاتم، بعد أن تخزم وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب الديوان[1]، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة، منذ أنشأه معاوية، وحتى أواسط العهد العباسي[2]، وكانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية(ديوان الخراج) ووزارة الدفاع (ديوان الجند) ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة) ووزارة العدل (ديوان القضاء)، كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يكتب فى العراق باللغة الفارسية، وفى الشام ومصر باللغة الرومية، وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان[3].

ثانيًا : حرصه على توطين الأمن فى خلافته:

ومن القواعد التى بنى عليها معاوية سياسته الداخلية توطيد الأمن فى ربوع العالم الإسلامى، وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف.

١- الحاجب: كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الحاجب فى الإسلام، لكى يتجنب محاولات الاعتداء عليه[4]، وكان بعض المظاهر الملكية له ما يبرره فى هذه الحقبة التاريخية؛ فقد عبر ابن خلدون على احتجاب الخلفاء عن الناس، على النحو التالى: كان أول شيء بدأ به فى الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كان يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب[5]. ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود العامل الأمنى وراء اتخاذ معاوية الحاجب بعد محاولة اغتياله التى دبرها الخوارج: أمر عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد[6]، وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون فى الشام قريبًا من أعدائهم الموتورين من الروم، فضلاً عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقين فى البلاد، وكانوا يرون أنه لابد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية التى قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز[7]، وقد ذكر المؤرخون أسماء أربعة من

(١) تاريخ الإسلام (١/ ٤٥٨) .
(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٥٩) .
(٣) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٢) .
(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ١٠٢ .
(٥) تاريخ ابن خلدون (٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠) .
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٦٥) .
(٧) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٧١ .

مواليه شغلوا له وظيفة الحاجب، منهم سعد، وأبو أيوب، وصفوان[١]، وكان يشترط فى الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكى يتمكن أن يعرف من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم، فقد رويت أخبار كثيرة تؤكد ذلك، فمعاوية بن أبى سفيان قال لحصين بن المنذر، وكان يدخل عليه فى أخريات الناس:

يا أبا ساسان كأنه لا يحسن إذنك؟ فأنشأ يقول:

وكل خفيف الساق يسعى مشمرًا إذا فتح البواب بابك أصبعًا

ونحن الجلوس الماكثون رزانة وحلمًا إلى أن يفتح الباب أجمعا[٢]

وعندما دخل شريك الحارثى على معاوية قال له: من أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين مارأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك ينكر مثلى من رعيته، فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة أعرف وجهك إذا حضرت الوجوه، وأعرف اسمك فى الأسماء إذا ذكرت، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجه ما ذكر لى اسمك تجتمع معرفتك[٣]، فالحاجب يخبر الخليفة والخليفة هو الذى يأذن أو لا يأذن. وذات يوم وقف الأحنف بن قيس، ومحمد بن الأشعث بباب معاوية الأول، فإذن للأحنف، ثم إذن لابن الأشعث، فأسرع فى مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله، فلما رآه معاوية غمه ذلك، وأحنقه فالتفت إليه فقال: والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم، ولا يزيد متزيد فى خطوة إلا لنقص يجده فى نفسه[٤].

٢ - الحرس: كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الحرس فى الدولة الإسلامية، خوفًا من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات فى الجوامع، وكان لا يدخلها إلا ثقاة وحراسه[٥]، وكما يبدو أن معاوية لم يكتف باتخاذ الحرس، بل اتخذ المقصورات زيادة فى التشدد وذلك لحماية نفسه من أى اعتداء قد يقع عليه[٦]. وقد ذكرت كتب التاريخ أسماء رؤساء الحرس فى عهد معاوية وهم: المختار، أبو المخارق[٧]، ويزيد بن الحارث العبسى[٨].

(١) إدارة بلاد الشام فى العهدين صـ١٠٣، البداية والنهاية (١١/ ٤٦٥).

(٢) البيان والتبيين (٢/ ٩٠) إدارة بلادة الشام صـ١٠٧.

(٣) عيون الأخبار (١/ ٩٠). (٤) العقد الفريد (١/ ٦٨)، إدارة بلاد الشام ص ـ١٠٨.

(٥)، (٦) إدارة بلاد الشام فى العهدين صـ١١١. (٧) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٥).

(٨) إدارة بلاد الشام فى العهدين صـ١١٧، العقد الفريد (٤/ ٣٦٢).

٣ ـ الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهي غير مسؤولة عن صد أي هجوم خارجي عن الدولة[١]، وقد قام معاوية بتنظيمها وتطويرها في الشام، وقد ذكر المؤرخون أربعة أسماء من الذين عينهم على رئاسة الشرطة وهم: قيس بن حمزة الهمذاني، ثم زميل بن عمرو العذري، ثم الضحاك بن قيس الفهري ويزيد بن الحر العنسي[٢]. والشرطة لا يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة فقط بل في الولايات الإسلامية الأخرى وهم يتبعون الولاة، فهم الذين يختارونهم ويعينونهم، وكان وجودها مهمًا للدولة والمجتمع، فالدولة تعتمد عليها في قمع المتمردين، وفي القضاء على الثورات، والاضطرابات، وربما كانت تحل محل الجند في حالة غيابهم واشتراكهم في الغزوات، وهي للمجتمع، لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهي الجهة الوحيدة المسؤولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض. وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها: فالضحاك بن قيس كلفه معاوية بإبلاغ وصيته لابنه يزيد، وأخذ البيعة له[٣].

٤ ـ حسن اختيار الرجال والأعوان: فقد وفق معاوية رضي الله عنه في اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولايتهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عمرو بن العاص السهمي، والمغيرة بن شعبة الثقفي، وزياد بن أبيه الثقفي، ويزيد بن الحر العبسي، والضحاك بن قيس الفهري، وعبد الله بن عامر بن كريز، وغيرهم من القادة المقاتلين أمثال المهلب بن أبي صفرة، وعقبة بن نافع الفهري، ومالك بن هبيرة، وجنادة بن أمية الأزدي وآخرون، وكان عمرو بن العاص يقول: أنا للبديهة، ومعاوية للأناة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لصغار الأمور وكبارها[٤]. وقد ساهم هؤلاء في إدارة الدولة وفتوحها والتصدي لأعدائها، فكان لهم دور كبير ومتميز في ترسيخ وتوطيد وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية[٥].

٥ ـ استخدام المال في تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب: فقد اعتبر معاوية من أجواد العرب لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء وجاد بالمال مع المداراة، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال[٦].

(١) إدارة الشام في العهدين صـ١١٥.
(٢) المصدر نفسه صـ١١٧.
(٣) المصدر نفسه صـ١٢٣، الأخبار الطوال صـ٢٠٥، ٢٠٦.
(٤) أنساب الأشراف (٤/ ١/ ١٣١).
(٥) الجذور التاريخية للأسرة الأموية صـ١٠٠.
(٦) المصدر نفسه صـ١٠٠.

٦ ـ **اتباع سياسة الشدة واللين في الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال:** وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية، وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه في ذلك وقال: إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس بسياسة واحدة، إنا إن نشتد جميعًا نهلك الناس ونحرجهم، وإن نلن جميعًا نبطرهم، ولكن تلين وأشتد وتشتد وألين[(١)]، وتمثل هذه السياسة ما نسب إلى معاوية رضى الله عنه من أقوال مثل: لا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، فإذا لم أجد من السيف بدًا ركبته، أى استعملته[(٢)]، وقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إن جبذوها أرسلتها، وإن خلوها جبذتها[(٣)].

٧ ـ **اتباع سياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيتهم:** لم يستطع معاوية رضى الله عنه اتباع سياسة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم الراشدة، ولا شك فى أن كثرة الأموال بعد اتساع الدولة الإسلامية جعلت كثيرًا من المسلمين يتطلعون إلى التمتع بالخيرات التى أخذت تتدفق عليهم، وقد أعرب معاوية عن ذلك بشكل واضح وقال للمسلمين: . . غير أنى سلكت طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم[(٤)].

٨ ـ **اتخاذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته وجعل الناس يميلون إليهم:** وكان معاوية بن أبى سفيان يقول: أحب الناس إلى أشدهم تحبيبًا لى إلى الناس[(٥)]، وأتبعه بعد ذلك الخلفاء الأمويون باستمالة عشرات الشعراء، وأغدقوا عليهم الأموال، فأشادوا بهم وبحقهم فى الخلافة وصلاحهم لها، ووجوب طاعتهم ونصرتهم نظرًا لأن الشعر كان أهم وسيلة إعلامية فى ذلك العصر[(٦)]، ومن الأشعار التى قيلت فى هذا الاتجاه ما قاله الأخطل:

تَمَّت جدودهم والله فضلهم ... وجدُّ قوم سواهم خامل نكد

وأنتم أهل بيت لا يُوازنُهم ... بيت إذا عُدّتِ الأحساب والعدد[(٧)]

وقد اهتمّ معاوية بفن الدعاية والإعلام، وأوكله إلى عدد من الرجال يهمهم أمره ويؤيدونه، فكان يكثر أعطيات الشعراء وكذلك شيوخ القبائل، لكسبهم فى صفه، ويعطى

(١) أنساب الأشراف (٤/ ١/ ٨٤) .

(٢) الجذور التاريخية للأسرة الأموية صـ١٠١ .

(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١/ ٢١)

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٨) .

(٥) الجذور التاريخية للأسرة الأموية صـ١٠٢ .

(٦) المصدر نفسه صـ١٠٢ ، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٥) .

(٧) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، شوقى ضيف صـ١٣٤ .

مجالاً واسعًا لولاته لكى يحققوا بعض المكاسب السياسية والإعلامية والأمنية، فقد كتب زياد والى البصرة فى عهد معاوية خمسمائة من مشايخها، وأعيانها فى صحابته، ورزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة[1]، فقال فيه حارثة بن بدر الغُدانىّ:

ألا من مبلغ عنى زيادًا ... فنعم أخو الخليفة والأمير

فأنت إمام معدلة وقصد ... وحزم حين تحضرك الأمور

أخوك خليفة الله بن حرب ... وأنت وزيره نعم الوزير[2]

وكان معاوية رضى الله عنه يحرص على امتصاص غضب الشعراء بحلمه وعفوه، فعندها هجا يزيد بن مفرِّغ الحميرى بنى زياد، عندما كان مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب الترك، فاستبطأه، فأصاب الجند مع عباد ضيق فى أعلاف دوابهم فقال ابن مفرغ:

ألا ليت اللحى عادت حشيشًا ... فنعلفها خيول المسلمين

وكان عبّاد بن زياد عظيم اللحية، فأُنهِىَ شعره إلى عبّاد وقيل: ما أراد غيرك، فطلبه عباد، فهرب منه، وهجاه بقصائد كثيرة، فكان مما هجاه به قوله:

إذا أودى معاوية بن حرب ... فبشِّر شعْبَ قعبك بانصداع

فأشهد أن أمك لم تباشر ... أبا سفيان واضعه القناع

ولكن أمرًا فيه لبس ... على وجل شديد وارتياع

وقوله:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة من الرجل اليمانى

أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زان

فأشهد أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان[3]

ولما هجا ابن المفرِّغ عبَّادًا فارقه مقبلاً إلى البصرة، وعبيد الله يومئذ وافد على معاوية، فكتب عباد إلى عبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية، فأنشده إياه، واستأذنه فى قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدِّبه ولا تبلغ به

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٣٩) .
(٢) المصدر نفسه (٦/١٣٩) .
(٣) المصدر نفسه (٦/٢٣٦).

القتل[1] . . . ووقع ابن مفرِّغ بين يدى عبيد الله. . فأمر به فسقى دواء، ثم حمل على حمار عليه إكاف فجعل يطاف به وهو يسلح فى ثيابه[2].

وقال ابن مفرِّغ لعبيد الله:

يُغسل الماء ما صنعت وقولى ‏ ‏ ‏ ‏ راسخ منك فى العظام البوالى

ثم حمله عبيد الله إلى عباد بسجستان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عباد، فحمل ابن مفرغ من عنده حتى قدم على معاوية فقال فى طريقه:

عَدَسْ ما لعبّاد عليك إمارة ‏ ‏ ‏ ‏ نجوتِ وهذا تحملين طليق

لعمرى لقد نجاك من هوّة الرّدى ‏ ‏ ‏ ‏ إمام وحبل للأنام وَثِيق

سأشكر ما أوتيت من حسن نعمة ‏ ‏ ‏ ‏ ومثلى بشكر المنعمين حقيق

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: ركب منى ما لم يركب من مسلم على غير حدث ولا جريرة. . . وبعد حوار مع معاوية قال له معاوية: اذهب فقد عفونا لك عن جرمك، أما لو إيانا تُعامل لم يكن مما كان شيء، فانطلق وفى أى أرض شئت فانزل. فأُنزل الموصل، ثم إنه ارتاح إلى البصرة، فقدمها، ودخل على عبيد الله فأمنه[3]. فقد كان معاوية رضى الله عنه يحرص على كسب الشعراء لصفه، والتحبب إليهم وإكرامهم وعدم محاولة الإساءة إليهم، فقد كانوا أقرب الشبه بالفضائيات فى الوقت الحاضر.

٩ ـ جهاز المخابرات: كانت الأجهزة الأمنية الداخلية والخارجية فى عهد معاوية قوية جدًا، وكانت قدرتها على جمع المعلومات فائقة، وكان معاوية رضى الله عنه يشرف على جهاز المخابرات بنفسه، وكان له جهاز سرى مربوط به لمراقبة الولاة والرعية، فلم يكن فى قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحى عامل أو أمير جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، بل وصلت عيونه حتى فى البلاط البيزنطى وإليك ما يدل على ذلك:

أ ـ إطلاعه على المراسلات التى بين الحسين وأهل العراق: لما توفى الحسن بن على اجتمعت الشيعة فى دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين كتابًا بالتعزية فى وفاة الحسن، وقالوا فى كتابهم: إن الله قد جعل فيك أعظم الخلق ممن مضى ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، والمسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك. فرد الحسين على كتابهم: إنى

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٦).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٣٨).

لأرجو أن يكون رأى أخى فى الموادعة، ورأيى فى جهاد الظلمة رشدًا أو سدادًا، فالصقوا بالأرض وأخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا فى الاضناء ما دام ابن هند حيًا، فإن يحدث به حدث وأنا حى يأتكم رأيى إن شاء الله[1]، ولقد أشارت تلك الرسائل المتبادلة بين الحسين وأهل الكوفة مخاوف بنى أمية فى المدينة، فكتبوا إلى معاوية يستشيرونه بشأن الحسين: فكتب إليهم بأن لا يتعرضوا له مطلقًا[2]، وكان معاوية على معرفة بتلك الرسائل والعلاقات الوثيقة التى تربط بين الحسين وبين الكوفيين، ولهذا فقد طلب معاوية من الحسين: أن يتقى الله عز وجل وأن لا يشق عصا المسلمين ويذكره بالله فى أمر المسلمين[3]، ولقد كان موقف الحسين واضحًا وإعلانه صراحة بقوله: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا[4]، وظل الحسين رضى الله عنه ملتزمًا ببيعته وطاعته طوال عهد معاوية[5]، رضى الله عنه.

ب ـ قصة معاوية مع المسور بن مخرّمة: فقد صارح معاوية المسور وقال له: يا مسور ما فعل طعنك على الأئمة[6]، ففيه معرفة معاوية لما يقول كبار الشخصيات فى المجتمع الإسلامى فيه.

جـ ـ قصة الأسير المسلم عند البيزنطيين، الذى لطم وجهه بين يدى ملك الروم وقول الأسير: وا إسلاماه أين أنت يا معاوية، فوصل ذلك الخبر إلى معاوية[7]، هذه بعض الشواهد التى تدل على قوة جهاز المخابرات التابع للدولة الأموية.

د ـ وضع بعض أتباع على رضى الله عنه بالكوفة تحت المراقبة: لم يدخل زياد فى طاعة معاوية بسهولة، وامتنع فى بداية أمره على طاعته وتحصن ببلاد فارس، واستطاع معاوية بعد أخذ ورد إقناع زياد فى دخوله طاعته، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله. وسأل زياد معاوية أن يسمح له فى نزول الكوفة، فأذن له، فشخص إلى الكوفة، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه، فكتب معاوية إلى المغيرة: خذ زيادًا وسليمان بن صرد، وحجر بن عدى، وشبّث بن ربعى، وابن الكواء، وعمر بن الحمق بالصلاة فى الجماعة، فكانوا يحضرون معه فى الصلاة[8]، فقد كان هذا إجراء احتياطيًا من معاوية حتى يكون هؤلاء القوم تحت ناظرى

(١)، (٢) أنساب الأشراف (٣/ ١٥٢)، مواقف المعارضة صـ١٧٩ .

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٥٢)، المصدر نفسه صـ١٨٠ .
(٤) الأخبار الطوال صـ٢٢٠ .

(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٤٦٩ .

(٦) سير اعلام النبلاء (٣/ ١٥١) إسنادها صحيح .
(٧) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ٤٨٩ .

(٨) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٥٨) .

والى الكوفة باستمرار، وذلك أن صلح الحسن ومعاوية يوجد له معارضون، ولا يستبعد التفافهم حول بعض رجالات علي - رضي الله عنه - حسمًا منه لمادة الفتنة(١).

١٠ - **الاهتمام ببناء الجيش الإسلامي:** كان لمعاوية بعد نظر سياسي تمثل في بناء جيش قوي منذ أن كان واليًا على الشام، وتمحور دور هذا الجيش في استتباب الأمن داخل الولاية ومن ثم القيام بعمليات توسع خارجية قبل وبعد نيله الخلافة(٢)، تمثلت في حركة الفتوحات في عصره، وهذا سيأتي تفصيلها في محله بإذن الله تعالى.

١١ - **سياسة الموازنات:** على الرغم من نفوذ الكلبيين في الدولة الأموية، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموي - الكلبي، ولكنها اتخذت في عهد معاوية رضي الله عنه منحًى توازنيًا ما بين كلب وفهر بصورة خاصة، وقحطان وقيس بصورة عامة، فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة، مؤثرين الإقامة في جنوب الشام (جند الأردن)، فإن الفهريين كان لهم الدور السياسي والإداري البارز فضلاً عن الدور العسكري، حيث شارك زعيمهم الضحاك بن قيس في صفين، وكان بالإضافة إلى ذلك في طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية في حضّ الناس على البيعة ليزيد(٣)، وقد ارتفع الضحاك في السياسة الأموية، وفي أعقاب الدور الأمني الذي شغله في عهد معاوية كقائد على شرطته(٤)، والدور السياسي في عهد يزيد، كعامل له على دمشق، مما هيأه من خلال الموقع الهام، لدور أكثر خطورة بعد وفاة معاوية الثاني الذي أوصى بأن: يصلي الضحاك بالناس بدمشق(٥)، وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية في الإمساك بزمام الأمور من خلال الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى، فكان لا يدع لأي منها مجالاً بأن تتجاوز حدودها المرسومة لها في الدولة، بما في ذلك القبيلة الكلبية الأثيرة. وقد اتسعت دائرة هذه السياسة، لتصبح ظاهرة من ظواهر عهد معاوية رضي الله عنه، حيث نجح معاوية في تحقيق التوازن المنشود داخل قريش (المهاجرة، وغير المهاجرة)، فضلاً عن التوازن داخل الأسرة الأموية (بنو حرب، وبنو العاص) واحتواء الثقفيين بعد منحهم إدارة العراق الذي ارتبط تاريخه أو كاد بهذه الأسرة، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التي ضبطها معاوية رضي الله عنه(٦).

---

(١) مرويات خلافة معاوية صـ١٧٥ . (٢) الدولة الأموية، د. فرست مرعي الدهوكي صـ٦٤ .
(٣) الطبقات (٦/ ٢٢) .
(٤) مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، جمهرة النسب، ابن الكلبي (١/ ٤٧١) .
(٥) الطبقات (٦/ ٣٩)، مؤتمر الجابية صـ٣٥ . (٦) مؤتمر الجابية صـ٣٦.

١٢- سياسته مع الأسرة الأموية: لم يأت معاوية رضى الله عنه للخلافة بدعم مادى أو معنوى من الأسرة الأموية، وإنما أتاه من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز فى إدارة الدولة فى عهده من الناحية الإدارية أو من الناحية العسكرية، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاة وقادة معاوية الذين استعان بهم[١]، إلا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاءً تامًا، بل استعان بأفراد منها واضعًا نصب عينيه هدفين:

أ- الاستعانة بالأكفاء منهم.

ب- الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية[٢]، وقد استطاع معاوية تحقيق وحدة الصف الأموى بما كان يملك من صفات ومؤهلات قيادية فذة[٣].

هذه هى أهم الوسائل التى اتخذها معاوية لتوطيد الأمن فى دولته رضى الله عنه.

****

(١) سيأتى الحديث عن أسمائهم بإذن الله عند التحدث عن الولاة.

(٢) الدولة الأموية، فرست مرعى صـ١٧٩. (٣) المصدر نفسه صـ١٨٠.

المبحث الثالث

حياة معاوية فى المجتمع واهتماماته العلمية

أولاً: حياة معاوية فى المجتمع:

١ ـ **بين معاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهما:** قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين، ألست أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلت[(١)].

٢ ـ **مشاجرة فى مجلس معاوية:** عن جويرية بن أسماء، أن بسر بن أبى أرطاة نال من على عند معاوية وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاه بعصا فشجه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربته، وأقبل على بسر فقال: تشتم عليًا وهو جده وابن الفاروق على رؤوس الناس، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك ثم أرضاهما جميعًا[(٢)].

٣ ـ **أنا أحق بهذا منك:** قال معاوية: ما من شىء أحب إلى من عين خرارة فى أرض خوّارة، فقال عمرو بن العاص: ما من شىء أحب إلىَّ من أن أبيت عروسًا بعقيلة من عقائل العرب، فقال وردان مولى عمرو بن العاص: ما من شىء أحب إلىّ من الإفضال على الإخوان، فقال معاوية: أنا أحق بهذا منك، قال: ما تحب فافعل[(٣)].

٤ ـ **نعى إلىَّ نفسى:** كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدًا إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب زِرّ بن حبيش ـ أو أيمن بن خُرَيم ـ كتابًا لطيفًا ورمى به إلى الكتب وفيه:

إذا الرجال ولدت أولادها ... واضطربت من كبر أعْضادُها
وجعلت أسقامها تعتادها ... فهى زروع قد دنا حصادها

فلما وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب، قال: نعى إلىَّ نفسى[(٤)].

٥ ـ **نصيحة معاوية لشاعر من بنى أمية:** قال معاوية رضى الله عنه، لعبد الرحمن بن الحكم ابن أبى العاص: يا ابن أخى، إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء فتعرُّ

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٣).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٥٤).

الشريفة[١]، والهجاء فتعر كريمًا، وتستثير لئيمًا، والمدح، فإنه طعمة الوّقاح، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك[٢].

٦ ـ لا تقل داري في البصرة، ولكن قل: البصرة في داري: ذكر أن رجلاً سأل معاوية أن يساعده في بناء دار باثنى عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية: أين دارك؟ قال بالبصرة. قال: وكم اتساعها؟ قال: فرسخان في فرسخين: قال: لا تقل دارى بالبصرة، ولكن قل: البصرة في دارى[٣].

٧ ـ علمت أن أكله سيُورثه داءً: ذكر أن رجلاً دخل بابن معه، فجلسا على سماط معاوية فجعل ولده يأكل أكلاً ذريعًا، فجعل معاوية يلاحظه، وجعل أبوه يريد أن ينهاه عن ذلك فلا يفطن، فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدُّخول، فقال له معاوية: أين ابنك التِّلقامة[٤]؟ قال: اشتكى. قال: قد عملت أن أكله سيورثه داء[٥].

٨ ـ وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى: روى أن معاوية قال للأعرابى: ارفع الشعرة من لقمتك فقال: وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى، والله لا أكلت معك طعامًا[٦].

٩ ـ إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها: نظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة، فجعل يزدريه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها[٧].

١٠ ـ يا بنية، إنه زوجك الذى أحله الله لك: تزوج عبد الله بن عامر هند بنت معاوية، فلمّا أدخلت عليه بالخضراء، أرادها عن نفسه فتمنّعت عليه، وأبت أشد الإباء فضربها فصرخت، فلمّا سمع الجوارى صوتها صرخن وعلت أصواتهنّ، فسمع معاوية فنهض إليهنّ، فاستعلمهن ما الخبر، فقلن: سمعنا صوت سيدتنا فصحنا. فدخل فإذا هى تبكى من ضربه، فقال لابن عامر: ويحك مثل هذه تضرب فى مثل هذه الليلة؟ ثم قال له: اخرج من ههنا، فخرج وخلا بها معاوية فقال لها: يا بُنَيَّةُ، إنه زوجك الذى أحله الله لك، أو ما سمعت قول الشاعر:

من الخَفِرات[٨] البيض أمّا حرامها فصعب وأمّا حِلُّها فذلول

(١) عرّه: أساء إليه وساءه.
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٣).
(٤) التلقام، والتلقامة: كبير اللُّقم.
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٣).
(٦) المنتخب والمختار صـ٥٥٩.
(٧) المصدر نفسه (١١/ ٤٥٣).
(٨) الخَفِرات: جمع خَفِرة من الخفر وهو شدة الحياء.

ثم خرج معاوية من عندها، وقال لزوجها: أدخل فقد مهدت لك خُلُقها ووطَّأته، فدخل ابن عامر، فوجدها قد طابت أخلاقها، فقضى حاجته منها[1]. رحمهم الله تعالى.

١١ ـ هل يصح قول معاوية: إن الكريم طروب: عن محمد بن عامر قال: لام معاوية عبد الله بن جعفر على الغناء، فدخل يومًا على معاوية ومعه بُديح[2]، ومعاوية واضع رجلاً على رجل، فقال: عبد الله لبديح: أيها[3] يا بديح، فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبد الله: مه يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: إن الكريم طروب[4]، هذا الخبر أورده البلاذرى[5] بنحوه، وأورده ابن عبد ربه[6]، مع بعض الزيادات المنكرة[7]، وهذه الرواية الضعيفة يردها ما أخرجه الطبرانى بإسناد حسن، من طريق كيسان مولى معاوية قال: خطب معاوية الناس فقال: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ نهى عن تسع، وأنا أنهاكم عنهن: النوح، والشِّعر، والتبرُّج، والتصاوير، وجلود السباع، والغناء، والذهب، والخز والحرير[8]، وكان -رضى الله عنه ـ ينهى عن الاستماع إلى الغناء وينكر ذلك على من يعرف به، وكان عامله على المدينة ابن الحكم شديدًا على أهل الدعارة والفسوق، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولايته[9].

١٢ ـ قضاء ديون السيدة عائشة رضى الله عنها: كان معاوية رضى الله عنه يهتم بالسيدة عائشة ويقضى عنها ديونها، فعن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشرة ألف دينار[10]. وقال عروة: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمْست حتى فرَّقتها[11].

١٣ ـ الاهتمام بحوائج الناس: كان معاوية رضى الله عنه يشفق على نفسه أن يكون احتجابه أحيانًا عن المسلمين ذنبًا يحاسب عليه، فلما سمع حديث النبى ﷺ: **«من ولاه الله شيئًا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته» وخلته وفقره»** جعل معاوية على حوائج الناس رجلاً يبلغه بها، كى لا يغيب عنه شىء منها[12]،

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٤).
(٢) بديح المليح، من موالى عبد الله بن جعفر.
(٣) إيه: كلمة استزادة واستلطاف، الفيروز أبادى القاموس ١٦٠٤.
(٤) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٨٢.
(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧)، مرويات خلافة معاوية صـ٨٣.
(٦) العقد الفريد (٦/ ٢١، ٢٢)، مرويات خلافة معاوية صـ٨٣.
(٧) مرويات خلافة معاوية صـ٨٣.
(٨) المعجم الكبير (١٩/ ٣٧٣) إسناده حسن.
(٩) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى صـ٩٤.
(١٠)، (١١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).
(١٢) الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ٢٧٣، نقلاً عن البداية والنهاية.

وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدًا إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة، يكتب إلى أمير المؤمنين(١).

١٤ ـ تأثر معاوية رضى الله عنه بموت الصالحين: حين توفى ابن لعتبة بن أبى سفيان وجاء ناس إلى معاوية يعزونه فيه قال: إن موت غلام من آل أبى سفيان قبضه الله، ليس بمصيبة، إنما المصيبة كل المصيبة لموت أبى مسلم الخولانى وكريب بن سيف الأنصارى(٢).

١٥ ـ اهتمام معاوية بالمساجد والعيون: اهتم معاوية بن أبى سفيان بالمسجد الحرام وأمر بتوسعته، وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتم بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة فى المسجد الجامع بالفُسطاط عام ٥٣هـ، وطلى جدرانه بالجص وزخرف بنيانه وبنى له أربع منارات شامخة وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببنيان المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم فى الليل فى وقت واحد(٣)، ووسع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة، ثم قام زياد بن أبيه فبناه وزاد فيه وأحكمه وفرشه بالحصى، وكان يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانى عشرة مئة درهم، واتخذ فيه مقصورة جدّدها خالد بن عبد الله القسرى فى أثناء ولايته على العراق، ثم قام عبيد الله بن زياد وزاد فى المسجد الجامع وفرشه بالحصى(٤)، وزاد زياد بن أبيه فى المسجد بالبصرة زيادة كبيرة، وبناه، بالآجر والجص، واستعمل الأساطين فى البناء، وسقفه بالساج وبنى منارته بالحجارة، وبنى فى البصرة المساجد الكثيرة، ثم قام عبيد الله بن زياد فزاد فى المسجد الجامع(٥)، واهتم معاوية بالمرافق العامة فى الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب فى المدينة، وأجرى فى الحرم المكى عيونًا(٦)، وأنشأ آبار المياه على الطرقات، فربط بين أجزاء مملكته ربطًا محكمًا(٧).

١٦ ـ سباق الخيل فى عهد معاوية رضى الله عنه: ويعد معاوية رضى الله عنه من أوائل الخلفاء الذين أرسوا تقاليد سباقات الخيل فى تاريخنا الإسلامى، حيث كان يقيم سباق

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤).
(٢) تاريخ دمشق (١/ ٢٢٧) نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٥٣.
(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٤٧. (٤) المصدر نفسه صـ٣٤٧، فتوح البلدان صـ ٣٩٩ ـ ٣٤٠.
(٥) فتوح البلدان صـ ٤٢٦، ٤٢٧، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٤٨.
(٦) أخبار مكة (٢/ ٢٢٧) الأزرقى، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٤١.
(٧) الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمى صـ٢٥.

الخيل فى دمشق، حيث يشترك فيه فرسان من جميع أطراف الدولة، وكان هؤلاء يدخلون الحلبة وهم يقولون الشعر فى الفخر بأنفسهم وخيلهم، وعند انتهاء السباق كان الخليفة يقدم جوائز ثمينة للفائزين(١).

١٧ ـ إطعام الحجاج والصائمين: جعل أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه دار المراجل بمكة، والتى كان يطبخ فيها طعام الحجاج وطعام الصائمين من الفقراء فى شهر رمضان المبارك(٢) وقفًا فى سبيل الله.

١٨ ـ الله أقدر عليك منك عليه: رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلامًا له فقال له: أعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتنى القدرة من الانتقام من ذوى الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر(٣). فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه لابنه يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم؛ العفو عند المقدرة، هذا الخلق الذى يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة، ولقد ذكَّره بقدرة الله جل وعلا عليه ليحطَّ من تعاظمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده(٤).

ثانيًا: اهتماماته العلمية:

كان معاوية رضى الله عنه يشجع الولاة والعلماء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حضارية، وشهد عصره نهضة فى التفسير وعلوم القرآن والفقه والعقيدة، وتألق فيه نجم عديد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم، كابن عباس، وأبى هريرة، وابن عمر، وغيرهم. وكانت العلوم الرئيسية هى القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه واللغة العربية، واهتم معاوية رضى الله عنه بغيرها من العلوم أيضًا منها:

١ ـ اهتمام معاوية بالتاريخ:

كان معاوية رضى الله عنه الراعى الذى عمل على أول تدوين باللغة العربية للتاريخ بمعناه العام لا على أنه المغازى النبوية وقصص الأنبياء، ولا على أنه الأنساب، وأيام

(١) التربية والثقافة العربية الإسلامية فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر صـ٩٤، الرفق بالحيوان د. سلامة الهرفى صـ٤٩ .

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٦ .

(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٣) .

(٤) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٤) .

العرب، ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة، وسير الملوك والحروب وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على الملوك[1]، فقد كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر التى فيهـا سير الملوك وأخبـارها والحروب والمكائد، فيـقرأ ذلك غلمان له مرتبـون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والآثار وأنواع السياسات[2]، وقد استدعى معاوية عبيدة بن شـرية وهو أحد علماء التاريخ البارزين فى بلاد اليمن إلى دمشق وسأله عن أخبار القدماء وملوك العرب والعجم، وأمر معاوية كتّابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد الله بن شرية فى كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين[3]، ولم يكن عبيدة هذا هو العالم الوحيد الذى استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات وصيرها كتبًا، بل أن كثـيرًا من الأخباريين أهل الدراية بأخـبار الماضين وسـير الغابرين من العرب وغـيرهم من المتقـدمين وفدوا على معـاوية أيضًا[4]، والدرس البالغ الأهمـية يظهر فى أهميـة التاريخ للساسـة والحكام والملوك والزعماء، فـالسياسى المسـتوعب لحركة التـاريخ وسننه ينجح فى ميدان عمله أكثر من غيره، فهناك علاقة متينة بين التاريخ والسياسة.

٢ ـ اهتمام معاوية بالشعر واللغة:

كان معاوية رضى الله عنه يـدرك أهمية الشعر تواقًا له، ولم يغب عن حسـه أهميته فى الدعاية السـياسيـة للدولة، وكان يهتم بتـربية أبنائه وأبناء أخـيه على تعلم ومعـرفة وتذوق الشعر، فقـد كتب إلى زياد: أن أوفد إلىَّ ابنك، فلما قدم عليه لم يـسأله معاوية عن شىء إلا نفذ منه، حـتى سأله عن الشـعر فلم يعرف مـنه شيئًـا، فقال له: مـا منعك من تعلم الشعـر، فقال: يا أمـير المؤمنين إنى كرهت أن أجـمع فى صدرى مع كلام الرحـمن كلام الشيطان، فقال معاوية: اغرب؟ فوالله ما منعنى فى الفرار يوم صفين إلا ابن الاطنابة حيث قال:

أبت لـى عـفـتـى وأبى بـلائى ... وأخـذى الحـمـد بالـثمن الـربيح
وإعطـائى عـلى الإعـدام مـالي ... وإقـدامـي على البـطل المشـيح
وقـولـي كـلـمـا جـشـأت وجـاشت ... مكانك تحـمـدى أو تسـتـريحى[5]

(١) الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ٤٥٤، التاريخ العربى (١/ ٩٥).

(٢) مروج الذهب (٢/ ٤١)، الدولة الأموية حمدى صـ٤٥٥.

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٨٥)، المصدر نفسه صـ٤٥٥، التعليم فى العصر الأموى صـ١١٧ انتصار السبتى.

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون (١/ ٩٥)، الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ٤٥٥.

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٢٦).

ثم كتب إلى أبيه أن روه الشعر، فرواه حتى كان لا يسقط عنه شيء منه[1]، وكان معاوية رضى الله عنه يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن مُلِّئت غيظًا ... على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخًا لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[2]

ومن اهتمام معاوية بالشعر حفظه له، فقد دخل ذات يوم على معاوية فى مجلسه ابن أبى محجن الثقفى، فقال له معاوية: أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنى إلى جنب كَرْمة ... تُرَوِّى عظامى بعد موتى عُرُوقُها
ولا تدفننِّى بالفلاة فإنَّنى ... أخاف إذا ما مت أن لا أذُوقها

فقال ابن أبى محجن: لو شئت ذكرتُ أحسن من هذا من شعره، قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسأل الناسَ: مالى وكثرته ... وسائل القوم ما حزمى وما خلقى
القوم أعلم أنى من سراتهم ... إذا تَطيش يد الرِّعديدة الفَرِق
قد أركب الهوْل مسدولاً عساكره ... وأكتُم السرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ

وهو القائل:

إن يكن ولىَّ الأمير فقد ... طاب منه النَّجْلُ والأثرُ
فيكم مستيقظ فَهِمٌ ... قُلْقُلانٌ حَيَّةٌ ذكرُ
أحمد الله إليك فما ... وصلة إلا ستنبتر[3]

وكان الشاعر مسكين الدارمى من المقربين من معاوية وابنه، فقد سأل معاوية عنه عطارد ابن حاجب، وقال له: ما فعل الدارمى الصبيح الوجه الفصيح اللسان ـ يعنى مسكينًا؟ فقال: صالح يا أمير المؤمنين، قال: أعلمه أنى قد فرضت له فله شرف بالعطاء وهو فى بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليفعل، فإنّ عطاءه سيأتيه، وبشرّه بأن قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خِنْدِف[4]، وهذا الشاعر هو القائل فى معاوية رضى الله عنه:

(١) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٥٧ .
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٤٢) .
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٢٤) .
(٤) تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٩، ٤٠) .

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تُثير القطا ليلاً وهن هُجُود

على الطائر الميمون والجدّ صاعد ... لكل أناس طائر وجدود

إذا المنبر الغربى خلّى مكانه ... فإن أمير المؤمنين يزيد(1)

ويقال إن معاوية أمر مسكين الدارمى أن ينظم قصيدة فى البيعة ليزيد، وبعد أن أنشد قصيدته وكان بنو أمية وأشراف الناس حاضرين لم يتكلم أحد من بنى أمية فى ذلك إلا بالإقرار والموافقة... ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته(2)، ويعتبر مسكين الدارمى من شعراء عهد معاوية وممن ترك أبياتًا جميلة منها قوله:

وإذا الفاحش لاقى فاحشًا ... فهناكم وافق الشن الطبق

إنما الفُحْش ومن يعتاده ... كغراب السَّوءِ ما شاء نعق

أو حمار السوءِ إن أشبعته ... رمح الناس وإن جاع نهق

أو غلام السوءِ إن جوعته ... سرق الجار وإن يُشبع فسق

أو كَغَيْرى رَفَعَتْ من ذَيْلِها ... ثم أرخته ضِرارًا فامَّزَق

أيها السائلُ عن منّ قد مضى ... هل جديد مثل ملبوس خَلَق(3)

وهو القائل:

نارى ونارُ الجار واحدة ... وإليه قبلى تُنزَل القِدْرُ

ما ضرّ جارًا لى أُجاوره ... ألاّ يكون لبابه سترُ

أعمى إذا ما جارتى برزت ... حتى يغيب جارتى الخدر(4)

وكان معاوية رضى الله عنه يستنكر اللحن؛ فحين أرسل زياد بن أبيه والى العراق ابنه عبيد الله إلى معاوية بن أبى سفيان لحن فى كلامه، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكن قوِّم من لسانه(5)، ولما ارتفع إلى زياد رجل وأخوه فى ميراث، فقال: إنّ أبونا لما مات، وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فأفف زياد فقال: الذى أضعت من

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/544).

(2) الأغانى للأصفهانى نقلاً عن الحياة العلمية فى العراق صـ110.

(3) الشعر والشعراء (1/544). (4) المصدر نفسه (1/545).

(5) البيان والتبيين (2/210) الحياة العلمية فى العراق.

لسانك أضرُّ عليك مما أضعت من مالك[1]. وقد برز في البصرة في عهد معاوية كثير من النحويين فكان أبو الأسود الدؤلي أول من وضع أساس النحو في البصرة وكان أول من استَنَّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحرف الجر والرفع والنصب والجزم[2]، وألف كتابًا في النحو[3]، وكان شاعرًا، ومن أشهر أبياته قوله:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام ... وذي الظنا كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه، فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويهتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم[4]

وله في الزهد المبرأ من الكسل كقوله:

وإذا طلبت من الحوائج حاجة ... فادع الإله وأحسن الأعمال
فليعطينك ما أراد بقدرة ... فهو اللطيف لما أراد فعالا
ودع العباد وشأنهم وأمورهم ... بيد الإله يقلّب الأحوال[5]

٣ـ اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية:

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لابد ـ للإفادة من ذلك التراث ـ من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا تراثًا تقليديًا تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية[6]، وقد كان بعض هذه الترجمات حافزًا على الاهتمام بالعلوم التجريبية، وربما العكس صحيحًا أحيانًا.. ومعلوم

(١) البيان والتبيين (٢/٢٢٢).
(٢) طبقات النحويين صـ٢١ الزبيدي، الحياة العلمية في العراق صـ١٠٤.
(٣) الشعر والشعراء (٢/٧٢٩).
(٤) الأدب الإسلامي وتاريخه (٢/١٧) عابد الهاشمي.
(٥) المصدر نفسه (٢/١٧)، ديوان أبي الأسود الدؤلي.
(٦) تاريخ سوريا، فيليب حتى (١/١٣٢)، الدولة الأموية، شاهين صـ ٤٥٩.

أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين، ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة على نحو ما سنرى -بإذن الله- كانت بداياتها من عهد معاوية، فقد كان سباقًا إلى رعاية العلوم وأهلها؛ فأنشأ بيتًا للحكمة، أى مركزًا للبحث ومكتبة، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى فى أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به[1]، ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصرانى طبيب معاوية فى نقل بعض معارف الطب إلى العربية، على أن بداية الجهود الحقيقية فى الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى العربية[2]، فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الإسكندرية فى مصر وتفصحوا بالعربية كذلك، فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى، وكان هذا أول نقل فى الإسلام[3]، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس فى الطب، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية، وهو أول من أعطى الترجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، وترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها فى خزانة الإسلام، ففى دمشق -إذن- أنشئت أول دار للكتب فى العالم الإسلامى[4]. وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين فى الطب فى عهد معاوية بحيث أصبحت النسبة، طبيبًا لكل (٥٣٤) خمسمائة وأربعة وثلاثين فردًا، وهذه النسبة تمّ أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والى البصرة حينما طعن فى يده جمع مائة وخمسين طبيبًا ليداووه[5]، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفًا تقريبًا[6].

****

(١) الدولة الأموية، يوسف العش صـ ٣٤٨ .

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء صـ١٧١٧ ابن أبى أصيبعة .

(٣) الدولة الأموية، حمدى شاهين صـ٤٦٠ .

(٤) خطط الشام (٤/ ٢٣ ـ ٢٤)، الدولة الأموية حمدى شاهين صـ٤٦٠ .

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٢٦١) .

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٥٥ ..

المبحث الرابع

الخوارج فى عهد معاوية

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم فى معركـة صفين، وكانوا قبلها من أشد أنصار على بن أبى طالب رضى الله عنه، وحضروا معه موقعة الجمل وصفين، ولكنهم انشقوا عليه بعدها، ورفضوا التحكيم، وحاول على إقناعهم وردهم إلى الجماعة ولكنهم تشبثوا بموقفهم، وبالغوا فى شقاقهم وتطرفوا، حتى عاثوا فى الأرض فسادًا، مما جعل عليًا يقاتلهم ويقضى على معظمهم فى معركة النهروان، وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام، وعلى جماعة المسلمين، أما هم فيسمون أنفسهم الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، على أن لهم الجنة يشيرون بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ [التوبة: ١١١]. ويسمون المحكمة، لأنهم قالوا: لا حكم إلا لله، وكان يطلق عليهم أيضًا الحرورية، نسبة إلى قرية حروراء التى انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على على[١]، ولما كان سبب خروجهم هو قبول على التحكيم بينه وبين معاوية رضى الله عنهما، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية فى الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة[٢]، المبدأ الأول أن الخلافة ليست وقفًا على قريش كما يذهب أهل السنة[٣]، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلاً لها حتى ولو كان عبدًا حبشيًا، ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها، أو يقبل التحكيم، وفى ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبى بكر وعمر، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته فى شطرها الأول، ثم تبرؤوا منه وكفروه فى بقية عهده، وأما على فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته بل كفروه[٤]، وكذلك لم يعترفوا بخلافة معاوية وبنى أمية[٥]، وكفروهم، كما كفروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعرى. وعلى الجملة كفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين، واعتبروا دارهم دار كفر، وأباحوا أموالهم ودماءهم، حتى قتل أطفالهم[٦]. المبدأ

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٥٤ . (٢) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء صـ٥٧ .
(٣) الدولة الأموية فى المشرق، محمد النجار صـ٨٧ . (٤) مقالات الإسلاميين (١/ ١٥٦، ١٨٩) .
(٥) الدولة الأموية فى المشرق صـ٨٧ . (٦) مقالات الإسلاميين (١/ ١٥٩، ١٨٩) .

الثانى الذى قامت عليه نظرية الخوارج، هو وجوب الخروج على الإمام الجائر(١)، وهنا وجه الخطورة فى حركتهم كلها، فلو اقتصروا على الخلاف النظرى فى الرأى، أو الجدال بالحجة والبرهان، لكان الأمر أهون، ولكنهم شهروا السلاح فى وجه مخالفيهم، بدءًا من على بن أبى طالب رضى الله عنه، وحاولوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة، وكما تطرفوا إلى أبعد حد فى الرأى والمذهب، فقد تطرفوا فى اللجوء إلى القوة والعنف، وكبدوا الأمة وأنفسهم خسائر فادحة، وعكروا صفو الدولة الأموية، وكانوا من أشد مناوئيها(٢)، وقد تحدثت عن الخوارج بنوع من التفصيل فى كتابى «أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب شخصيته وعصره»(٣)، ذكرنا قبل قليل أن خطورة حركة الخوارج تكمن فى لجوئهم إلى الثورة والعنف، ولشدة إيمانهم بمبادئهم فقد ضحوا فى سبيلها بأرواحهم وأبدوا كثيرًا من ضروب الشجاعة والإقدام فى حروبهم مع الدولة الأموية، وكانوا أشبه بالفرق الانتحارية، فكثيرًا ما كانت أعداد قليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، ولو أن هذه الشجاعة والإقدام والتضحية اتجهت اتجاهًا سليمًا، ووحد الخوارج جهودهم مع جهود الدولة فى محاربة أعداء الإسلام لربما تغير وجه التاريخ الإنسانى كله بشكل جذرى، والحقيقة أنهم لم يكونوا طلاب دنيا، ولم يجروا وراء المادة، وإنما أخلصوا للفكرة التى آمنوا بها وملكت عليهم جوانب حياتهم(٤)، وأفنوا أنفسهم، وكلفوا الأمة الكثير من الجهد والوقت والمال والأرواح، وإذا كان الخوارج قد خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وكفروه وحاربوه، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف وبغضهم لها أشد، فقد شهروا السلاح فى وجهها من أول لحظة فثاروا على معاوية رضى الله عنه قبل أن يغادر الكوفة عام ٤١هـ(٥).

أولاً: حركات الخوارج فى الكوفة:

١ ـ حركة فروة بن نوفل الأشجعى: قال الطبرى فى حوادث عام ٤١هـ: وفيها خرجت الخوارج التى اعتزلت أيام على عليه السلام بشهرزور(٦) على معاوية(٧)، وقال: حدثت عن زياد، عن عوانه، قال: قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة،

(١) النظريات السياسية الإسلامية صـ٥٧ . (٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٥٥ .

(٣) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على صـ٦٣٣ . (٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٥٨ .

(٥) المصدر نفسه صـ٤٥٨، تاريخ خليفة صـ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٦) شهرزور: كورة واسعة تقع بين إربل وهمذان، أهلها أكراد، وهى فى العراق اليوم: معجم أماكن الفتوح ص٧٤١.

(٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٨١) .

فقالت الحرورية[1]، الخمسمائة التى كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعى: قد جاء الآن مالا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهر[2]، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع صاحبهم فروة بن نوفل ـ وكان سيد القوم ـ واستعملوا عليهم عبد الله بن أبى الحر[3] ـ رجلاً من طيء ـ فقاتلوهم فقتلوا[4]. وفروة بن نوفل الأشجعى هو القائل قبيل معركة النهروان: والله ما أدرى على أى شيء نقاتل عليًا، لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لى بصيرتى فى قتاله أو اتباعه، وانصرف فى خمسمائة فارس[5]. وذكر ابن حجر رواية هامة تبين موقف معاوية رضى الله عنه من الخوارج بعد توليه الخلافة، وفيما يلى نص رواية ابن حجر: ... فرجع الناس فبايعوا معاوية ولم يكن لمعاوية هَمٌّ إلا الذين بالنهروان[6]، فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه، حتى بقى منهم ثلاثمائة أو نيف[7]، وهم أصحاب النخيلة[8].

٢- حركة المستورد بن عُلَّفة التميمى:[9] تحدث الطبرى فى تاريخه عن حركة المستورد بن عُلَّفة التّميمى بإسهاب وتفصيل بعكس أكثر المصادر التى تناولت هذا الحدث، حيث تحدث خليفة[10] بن خياط عن هذه الحركة باختصار شديد، وقد أطال الطبرى الحديث عن حركة المستورد بن عُلَّفة التميمى، ولعل ذلك إشارة منه لأهميتها وأهمية هذه الحركة تعود إلى كون أصحابها يمثلون الامتداد الطبيعى لفكر خوارج النهروان الذين قاتلهم على رضى الله عنه، إذ أن معظم المنتسبين إلى هذه الحركة كانوا فى خندق واحد فى معركة النهروان،

(١) الحرورية: هم الخوارج، وحروراء قرية بظاهر الكوفة نزل فيها الخوارج الذين خالفوا عليًا رضى الله عنه، فنسبوا إليها معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

(٢) تاريخ الطبرى: (٦/٨٢).

(٣) كان ممن اعتزل قتل على يوم النهروان، أنساب الأشراف (٤/ ١٦٤).

(٤) تاريخ الطبرى(٤/ ١٦٤).

(٥) مرويات خلافة معاوية صـ١٨٢ نقلاً عن تاريخ الطبرى.

(٦) أى الخوارج.

(٧) النيف: من واحد إلى ثلاثة، القاموس المحيط صـ١١١.

(٨) سموا بذلك لأنهم قتلوا فى النخيلة، معجم البلدان (٢/ ١٨٥).

(٩) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧ إلى ٩٢).

(١٠) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ١٨٩.

وهذا الأمر هو الذى دفع المغيرة بن شعبة والى الكوفة إلى اللجوء إلى أنصار على رضى الله عنه، وخاصة الذين شاركوا فى معركة النهروان من أمثال معقل بن قيس الرياحى الذى كان أحد قادة على يوم النهروان[1]، وتكليفه قيادة الحملة المتوجهة لقتال الخوارج، لأن أنصار على رضى الله عنه هم أخبر الناس بالخوارج وأشدهم عليهم، وما جاء من مرويات فى تاريخ الطبرى قدمت لنا تفاصيل هامة عن الحدث، منها:

أ ـ موقف الخوارج من استشهاد على رضى الله عنه : ويستفاد هذا من قول الخوارج: . . لا يقطع الله يمينًا علت قذاله[2] بالسيف، قال: فأخذ القوم يحمدون الله على قتله[3].

ب ـ أسباب خروجهم على جماعة المسلمين: ويستفاد هذا من قول الخوارج: فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا فى القعود، وولاتنا ظلمة، وسُنَّة الهدى متروكة، والذين قتلوا إخواننا فى المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التى هى أهدى وأرضى وأقوم، ويشفى الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن فى مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة[4].

جـ ـ سياسة المغيرة بن شعبة رضى الله عنه مع الخوارج: ويستفاد هذا مما يلى: وأحسن فى الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى ويقال له: إن فلانًا يرى رأى الشيعة، وإن فلانًا يرى رأى الخوارج، وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون[5]. وقال المغيرة لقبيصة بن الدمون: الصق لى بشيعة على، فأخرجهم مع معقل بن قيس، فإنه كان من رؤوس أصحابه، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعًا، استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجرئ عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبل هذه المرة[6]. قال المغيرة: يا معقل بن قيس، إنى قد بعثت معك فرسان أهل مصر، أمرت بهم فانتخبوا انتخابًا، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا عليها بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول فى الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم[7].

(١) مرويات خلافة معاوية صـ١٩٠ . (٢) القذال: مؤخرة الرأس: القاموس المحيط ٧٧٤ .
(٣) تاريخ الطبرى (٦/٨٨) .
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٦/٨٩) .
(٦) نقلاً عن مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ١٩٢، تاريخ الطبرى (٦/١٠٥) .
(٧) تاريخ الطبرى (٦/١٠٦) .

د ـ حركة حيان بن ظبيان السلمي: كانت هذه الحركة عام ٥٨هـ وكانت في ولاية عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، ففي أثناء ولايته خرجت الطائفة الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم في السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن عُلفة، فظفر بهم فاستودعهم السجن[(١)]، فلما مات خرجوا من السجن، وقام بحركة مضادة للخلافة وكان رئيسهم حيان بن ظبيان السُّلَمِّي، فبعث إليهم والي الكوفة جيشًا فقتلوا الخوارج جميعًا[(٢)].

ثانيًا: حركات الخوارج في البصرة:

١ ـ حركة يزيد الباهلي وسهم الهجيمي: في عام ٤١هـ خرج في ولاية عبد الله بن عامر لمعاوية، يزيد بن مالك الباهلي، وخرج معه سهم بن غالب الهجيمي، فأصبحوا عند الجسر، فوجدوا عبادة بن قرص الليثي أحد بني بجر ـ وكانت له صحبة ـ يصلي عند الجسر، فأنكروه فقتلوه ثم سألوا ابن عامر الأمن فأمنهم وكتب إلى معاوية، قد جعلت لهم ذمتك، فكتب إليه معاوية: تلك ذمة لو أخفرتها لا سُئلت عنها، فلم يزالوا آمنين حتى عزل ابن عامر[(٣)]. وفي عام ٤٦هـ خرج سهم الهجيمي والخطيم وهو يزيد بن مالك الباهلي لما تولى زياد، فأما سهم فخرج إلى الأهواز فأحدث وحكّم ثم رجع فاختفى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه، وأما الخطيم فإن زيادًا سيره إلى البحرين، ثم أذن له فتقدم، فقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو الباهلي[(٤)]: أضمنه، فأبى وقال: إن بات عن بيته أعلمتك، ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة في بيته فأمر به فقتل، وألقي في باهلة[(٥)].

٢ ـ حركة قريب الأزدي وزحاف الطائي: في عام ٥٠هـ خرج قريب الأزدي وزحّاف الطائي بالبصرة وهما ابنا خالة، وزياد بالكوفة وسمرة[(٦)] على البصرة، فأتيا بني ضُبيعة، وهم سبعون رجلاً، وقتلوا منهم شيخًا، وخرج على قريب وزحّاف شباب من بني علي وبني راسب فرموهم بالنَّبل، وقتل عبد الله بن أوس الطاحيّ قريبًا، وجاء برأسه واشتد زياد على المنبر فقال: يا أهل البصرة والله لتكفُنّني هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهمًا، فثار الناس بهم فقتلوهم[(٧)].

(١) تاريخ الطبري (٦/٣٢٦). (٢) البداية والنهاية (١١/٣١٣).
(٣) الكامل (٢/٤٥٤). (٤) عمرو الباهلي والد قتيبة الفاتح الكبير.
(٥) الكامل (٢/٤٧٧).
(٦) سمرة بن جندب الفزاري صحابي مات بالبصرة سنة ٥٨هـ، الاستيعاب (٢/٦٥٣).
(٧) الكامل في التاريخ (٢/٤٨٢).

٣ ـ خبر عـروة بن أُدية الخارجي: في سنة ٥٨هـ اشتـد عبيـد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبراً جـماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخـرى، وممن قتل، منهم صبراً عروة بن أديَّة وأبو بلال مرداس بن أدية[١]، وكان سبب قـتله أن ابن زياد قد خرج في رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عروة، فأقبل على ابن زياد يعظه، وكان مما قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠]. فلمّا قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعـة، فقام وركب وترك رهانه. فقيل لعروة: ليقتلنّك، فـاختفى، فطلبه ابن زياد فهرب وأتى الكوفة، فأُخذ وقدم به على ابن زياد فقطع يديه ورجليه[٢]. . ثم دعا به فقال: كـيف ترى؟ قال: أرى أنك أفـسدت دنـياي وأفـسدت آخـرتك، فقـتله وأرسل إلى ابنتـه فقتلها[٣]، بسبب اعتناقها مذهب والدها[٤]. وذكر المبرد في كتابه الكامل في اللغة سببين هامين كان لهما أثر كبير في مقتل عروة بن أدية، الأول: تكفير هذا الخارجي لعثمان وعلى رضى الله عنهما، والثاني: إقدامه على مساعدة أخيه مرداس بن أدية على الخروج[٥].

٤ ـ حركة مرداس بن أدية: وفي عام ٥٨هـ خرج مرداس بن أُديَّة بالأهواز، وكان ابن زياد قبل ذلك حبسه فيمن حبس من الخوارج، فكان السجان يرى عبادته، واجتهاده، وكان يأذن له في الليل، فـينصرف، فإذا طلع الفـجر أتاه حـتى يدخل السجن، وكـان صديق لمرداس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج فعزم على قتلهم إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبـرهم، وقال: أرسلوا إلى أبي بلال في السجن فليعهد فـإنه مقتول، فسمع ذلك مرداس، وبلغ الخبر صاحب السجن، فبات بليلة سوء إشفاقًا من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذى كان يرجع فـيه إذا به قد طلع، فقال له السجان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قـال: نعم، قال: ثم غدوت! قال: نعم، ولم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسـببي، وأصبح عبيد الله فجعل يقـتل الخوارج، ثم دعا مرداس، فلما حضر وثب السـجان ـ وكان ظئراً[٦] لعبيـد الله- فأخذ بقدمـه، ثم قال: هب هذا، وقص عليه قصته، فوهبه له وأطلقه[٧]. وقد أشار البلاذرى إلى أن عزم عبيد الله بن زياد

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٠). (٢) الكامل في التاريخ (٢/ ٥١٧).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٠).
(٤) مرويات خلافة معاوية صـ٢٠٤
(٥) الكامل في اللغة (٣/ ١٠٩٨) نقلاً عن مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبرى صـ٢٠٥.
(٦) أى زوج مرضعته، لسان العرب (٤/ ٥١٥). (٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣١).

على قتل من فى السجن من الخوارج كان بسبب إقـدام بعضهم على قتل أحد الحرّاس[1]. ثم أن مرداس خاف ابن زياد فـخرج فى أربعين رجلاً إلى الأهواز، فكان إذا اجـتاز به مال لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يرد البـاقى، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشًا عليهم أسلم بن زرعة الكلابى سنة ستـين، وقيل أبو حصين التمـيمى، وكان الجيش ألفىْ رجل، فلمّا وصلوا إلى أبى بلال ناشدهم الله أن يقاتلوه فلم يفعلوا، ودعاهم أسلم إلى معـاودة الجماعـة، فقالوا: أتردّونا إلى ابـن زياد الفاسق؟ فرمى أصـحاب أسلم رجلاً من أصحـاب أبى بلال فقتلوه، فقـال أبو بلال: قد بدؤوكم بالقتال. فـشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدّة رجل واحد فهزموهم فقدموا البصرة، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت فى ألفين، لا خيرَ فيك. فقال: لأن تلومنى وأنا حى خير من أن تثنى علىّ وأنا ميت، فكان الصـبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أمـا أبو بلال وراءك! فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم فانتهوا[2]. فهذه أهم حركات الخوارج فى عهد معاوية.

ثالثًا: أهم الدروس والعبر والفوائد:

أهم الدروس والعبر والفوائد فى محاربة معاوية للخوارج:

١- إن الناظر فى سلوك الخـوارج زمن معاوية يـجد أن خروجـهم فى ذلك العهـد كان يستهدف إزعاج نظام حكم بنى أمية وإضعافه، دون أن يكون لهم أمل فى القضاء عليه[3].

٢- كانت بعض هذه الحركـات مقتصرة على المجـموعات المنسحـبة من النهروان والتى ظلت مشتـتة فى الأرياف، وعدم وجود ما يشيـر إلى مشاركة الخوارج المقيـمين فى الكوفة فيـها، وهو مـا يؤكد عدم حـصول تحـوّل فى موقف هؤلاء رغم التـغييـر الذى طرأ على السلطة[4].

٣- ومن الملاحظات ما يخصّ الكوفـيين الذين أبدى العديد مـنهم حماسًا فى مـحاربة الخوارج، وإذا كنا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من على قد لعبت دورًا فى دفع هؤلاء إلى المشـاركة فى قمع الثائرين، فإننا لا نسـتبعد أن تكون الرغبة الملحة فى إنهاء الحروب والانقـسامات والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها فى دفع الكوفيين إلى مساعدة معـاوية فى القضاء على هؤلاء المعارضين، رغم يقينهم أنَّهم

(١) أنساب الأشراف (٤/ ١٨١). (٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥١٨).
(٣) الخوارج فى العصر الأموى، نايف معروف صـ١٣٠. (٤) حركة الخوارج، لطيفة البكاى صـ٦٠.

سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم وسيفقد مصرهم المكانة التى كان يتمتع بها فى خلافة على[1].

٤- كان معاوية رضى الله عنه على وعى تام بحقيقة المعارضة الخارجيّة وموقفها من السلطة ومن شخصه بالذّات، ولذلك لم يعمل على جذب الخوارج إلى صفّه، وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدى لهم بالقوة[2].

٥-لم يتردد المغيرة بن شعبة فى محاربة الخارجين على السلطة بالشرطة والجيش، ولم يقتصر استعمال القوة على الثائرين، بل شمل حتى الذين بلغه أنهم ينوون الخروج مثل معين بن عبد الرحمن المحاربى وحيان بن ظبيان السّلمى وغيرهما، وهو ما يدل على أن المغ ة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل المصر، ويتجسس عليهم وينزل عقوباته بهم تبعًا لما يصله عنهم من أخبار[3].

٦ - أهم وأخطر ما قام به المغيرة رضى الله عنه هو استعماله أنصار على رضى الله عنه ضد الخوارج مستفيدًا من العداوة التى كانت بينهم، وهو عمل استفادت منه الدولة الأموية على المدى القريب والبعيد، فعلى المدى القريب، حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجى فى الكوفة، وأسكت المعارضين الموجودين فيها دون أن يكلف الدولة خسارة تُذكر. . فضلاً عن أنه شغل الكوفيين عن معارضة الدولة الأموية وأعطاها بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها[4]. أما عن المدى البعيد فقد عمَّق المغيرة الهوّة بين الخوارج والشيعة وأبعد إمكانية التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة، مجنبًا بذلك الدولة الأموية خطر مواجهة معارضة موحدة وقوية، غير أن ما قام به المغيرة تجاه المعارضة فى الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه مع بعض الاجتهادات التى رأى أنّها تخدم الدولة أكثر[5]. . . وأما أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه وخاصة الزعماء منهم، فقد عملت الدولة الأموية على تقريبهم وكسبهم، ولذلك سلك المغيرة سياسة اللين معهم وهو ما ضمن الهدوء فى الكوفة طيلة ولايته عليها[6].

٧- مع تُولى زياد البصرة تصاعدت عمليات القمع ضد الخوارج، فبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثل بالمقتولين فيصلبهم فى الأماكن العامة، أو فى دُورهم، وقد شمل التمثيل

(١) حركة الخوارج ص ٦٠ .
(٢) المصدر نفسه ص٦٦ .
(٣)، (٤) المصدر نفسه صـ ٦٥ .
(٥)، (٦) المصدر نفسه صـ٦٦ .

الخارجين من الرجال والنساء، ورغم أن التمثيل يعد من الأعمال البشعة التى نهى رسول الله ﷺ عن القيام بها حتى مع الكفّار، فإن زيادًا استعمله مع المسلمين رجالاً ونساءً ليروّع بقية السكان ويلزمهم الهدوء، ولم تكن العقوبات المسلطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتمثيل والتسيير والإقامة الجبرية، بل شملت كذلك العطاء، وقد تجاوز زياد فى هذا المجال من سبقه من الحكّام، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلات الديوان[(1)].

٨ ـ أقحم زياد بأعماله العنف فى سياسة الدولة وجعله إحدى ركائزها، واعتبر أن مصلحتها تقتضى استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها[(2)].

٩ ـ أدّت سياسة زياد ـ العنيفة ـ إلى إخماد تحرّكات الخوارج، وفرضت هيبة الدولة على الجميع، وحوّلت القبائل إلى طرف له دور فى سياستها ومنحتها مهمة توفير الأمن داخل المصر بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الدّية والتأطير العسكرى، إلا أنّها أضعفت التضامن القبلى، وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجين على السُّلطة، وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقبتهم أحيانًا، ولئن نجح زياد فى إخماد تحرّكات المعارضين، وزرع الرّعب فى نفوس بقية سكان العراق وتحويلهم من مقاتلة يتمتعون بقدر كبير من الحرية إلى رعية خاضعة كليًا لأجهزة الدّولة، فقد فشل فى خنق إرادة الخروج لدى قسم كبير من الخوارج، وهو ما يفسر عودة الانتفاضات في ولاية ابنه عبيد الله[(3)].

١٠ ـ تجاوز عبيد الله بن زياد والده فى قمع الخوارج بفرضه العقوبات على الجميع المعلن والمسر على حدّ السواء، وإذا كان القتل هو عقوبته المفضلة فقد كان يعمد أحيانًا إلى سجن البعض منهم، كما كان يسمح أحيانًا أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر مع فرض الإقامة الجبرية عليهم وتكليف من يقوم بعملية المراقبة التى كانت غالبًا ما تنتهى بقتلهم لمخالفتهم الأوامر.. ولم يكن ابن زياد ينتظر خروج الحروريّة عليه بل كان يبحث عنهم مستعملاً كل الوسائل بما فى ذلك تشجيع السكان بالمال لتتبّع تحرّكات أبناء قبائلهم ونقلها إليه أو إلى أعوانه، وقد أدّت هذه الطريقة إلى إلقاء القبض على العديد ممن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف معه أو يُشتبه فيه ذلك، ولكنها فسحت فى الوقت نفسه المجال أمام الوشاية وتلفيق التهم بالباطل[(4)]، فأججت بذلك الحزازات القبلية القديمة، وخلقت خلافات جديدة بين القبائل[(5)].

(١) صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحى شعبان صـ ٩٩، حركة الخوارج، لطيفة البكّائى صـ٧٠ .
(٢)، (٣) حركة الخوارج لطيفة البكّائى صـ٧١ .   (٤)، (٥) المصدر نفسه صـ٧٤.

١١ - السمات العامة لحركات الخوارج فى خلافة معاوية رضى الله عنه كالتالى:

أ - اتسمت بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم.

ب - كانت أشبه ما تكون بعمليات انتحار جماعى، لأنهم يخرجون بفئات قليلة لا تلبث أن تستأصل.

جـ - افتقارهم إلى قيادة واعية ومحنكة تستطيع استثمار شجاعتهم وفروسيتهم لتحقيق أهدافهم.

د - تكرارهم لأخطاء بعضهم وعدم استفادة كل حركة من تجربة سابقتها.

هـ - استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة فى عودتهم، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة.

و - اختلاط الدوافع الدينية التى دعتهم للخروج - بزعمهم - مع دوافع العصبية الجاهلية فى حركاتهم، والمتمثلة بخروج بعضهم ثأرًا لمن قتل من أصحابهم.

ز - شعورهم بالغربة داخل المجتمع المسلم، ونفورهم منه، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار.

حـ - عدم بحثهم عن أرض جديدة لنشر دعوتهم، واقتصارهم على بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة والبصرة.

ط - سلوكهم طريقة منكرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى طريقة الاستعراض، ومرد ذلك إلى الجهل بالدين وقلة العلم، لأن كثرة العبادة ليست دليلاً على فقه الرجل، وإلا لكان الخوارج أفقه أهل زمانهم(١)، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: **«يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»** (٢).

ى - وافتقارهم لطول النفس والصبر فى مشروعهم التغييرى.

١٢ - شفاعة أبى بكرة الثقفى لبعض الخوارج عند معاوية ونصيحته له: فى عام ٤١هـ وثب حمران بن أبان على البصرة، فأخذها وتغلب عليها، فبعث معاوية إليه جيشًا ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكرة الثقفى إلى معاوية، فسأله فى الصفح عنهم والعفو، فعفا عنهم

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٢١٠ .
(٢) البخارى مع الفتح (١٢/ ٢٠٣) .

وأطلقهم وولّى على البصرة بسر بن أبي أرطأة[1].. وقد قال معاوية لأبي بكرة: هل من عهد تعهده إلينا؟ قال: نعم، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيّتك وتعمل صالحًا، فإنك قد تقلَّدت عظيمًا، خلافة الله في خلقه، فاتق الله، فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشك أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عمّا كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنما هي محاسبة وتوقيف، فلا تُوثرن على رضا الله شيئًا[2].

١٣ ـ استخدام العواطف في حرب الخوارج: خرج حوثرة بن وداع بن مسعود الأسدي على الدولة الأموية، فدعا معاوية أبا حوثرة فقال له: اخرج إلى ابنك فلعله يرق إذا رآك، فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بابنك فلعلّك إذا رأيته كرهت فراقه؟ فقال: أنا إلى طعنة بيد كافر برمح أتقلّب فيه ساعة أشوق مني إلى ابني. فرجع أبوه فأخبر معاوية بقوله، فسير معاوية إليهم عبد الله بن عوف الأحمر في ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج فدعا ابنه إلى البراز، فقال: يا أبة لك في غيري سعة. وقاتلهم ابن عوف وصبروا، وبارز حوثرة عبد الله بن عوف فطعنه ابن عوف فقتله وقتل أصحابه إلا خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك في جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين، ورأى ابن عوف بوجه حوثرة أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم على قتله، وقال:

قتلت أخا بني أسدٍ سفاهًا ... لعمرُ أبي فما لُقّيتُ رُشدي
قتلت مصليًّا محياءَ لَيْلٍ ... طويل الحزن ذابرٍ وقصد
قتلت أخا تُقًى لأنال دنيا ... وذاك لشِقوَتي وعِثارِ جَدّي
فهب لي توبة يا رب واغفر ... لما قارفت من خطإٍ وعمد[3]

رابعًا: من قصائد الخوارج في عهد معاوية رضي الله عنه:

١ ـ ما قاله معاذ بن جوين بن الحصين في سجن المغيرة بن شعبة:

ألا أيها الشارون قد حان لأمرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرىء منكم يُصادُ لُيقَلاَ
فشدوا على القوم العُداة فإنما ... أقامتكم للذبح رأيًا مضَلَّلا

(١) البداية والنهاية (١١/١٤٩) .
(٢) المصدر نفسه (١١/ ١٥٠) .
(٣) الكامل في التاريخ (٣/ ٤٥٠) .

ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى إذا ذكرت كانت أبرّ وأعدلا

فيا ياليتنى فيكم على ظهر سابح شديد القصيرى دارعًا غير أعزلا

ويا ليتنى فيكم أُعادى عدوّكم فيسقينى كأس المنية أوّلا

يعزّ علىّ أن تخافوا وتُطردوا ولما أُجرِّد فى المُحِلِّين مُنصلا

ولما يفرق جمعهم كلُّ ماجد إذا قلت ولىَّ وأدبر أقبَلا

مُشيحًا بنصل السيف فى حمس الوغى يرى العبر فى بعض المواطن أمثلا

وعز علىّ أن تصابوا وتُنقصوا وأُصبح ذا بثٍّ أسيرًا مكبلاً

ولو أننى فيكم وقصدوا لكم أثرت إذا بين الفريقين قَسطَلا

فيا رُبّ جمعٍ قد فَللتُ وغارة شهدت وقرنٍ قد تركت مُجدَّلا[1]

٢ـ ماقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة عندما انتصر مرداس أبو بلال بن أدية من بنى ربيعة وكان فى أربعين رجلاً على جيش لعبيد الله بن زياد حيث قال:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك[2] أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنونا

هى الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنصرونا[3]

وفى رواية أخرى نسبت قصيدة إلى عيسى بن فاتك قال فيها:

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجُرْد العِتاق مسوّمينا[4]

فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجعائل يقتلونا[5]

بقية يومهم حتى أتاهم سوادُ الليل فيه يراوغونا

يقول بصيرهم لما أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا[6]

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٥٠) .

(٢) آسك: بلد فى نواحى الأهواز: معجم البلدان (١/ ٥٣) .

(٣) تاريخ الطبرى (/٣٢١٦، ٢٣٢) .

(٤) الجرد العتاق: الخيل الجياد الكريمة، مسومين: معلمين .

(٥) ذوو الجعائل: جنود بنى أمية المأجورون.

(٦) أدب السياسة فى العصر الأموى ص ٢٢٠ نقلاً عن تهذيب الكامل (١/ ١٠٥) .

المبحث الخامس

النظام المالى فى عهد معاوية رضى الله عنه

أولاً : مصادر دخل الدولة :

١ـ الزكاة: وهي أهم مكونات النظام المالى الإسلامى، وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة، إذ يقول عنها سبحانه: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة: ٥]، كما أجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة، ومن ذلك اتفاق صحابة رسول الله ﷺ على قتال مانعيها فى عهد أبى بكر الصديق[(١)]، وقد أسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها، فقد كان رسول الله يجمعها ويقوم على تفريقها، وكذلك فعل أبو بكر وعمر، أما فى عهد عثمان لما كثرت الأموال فقد رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام[(٢)]، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشى ونحوها، فقد استمرت الدولة فى جبايتها وإنفاقها، وقد ورد عن أبى بكر وعثمان بن عفان أنهما كانا يأخذان زكاة المال من عطاء الرجل[(٣)]. ثم اختلف بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا[(٤)]، وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة، أما الأموال الظاهرة فظلت تحصلها الدولة، وهذا يدل على سبب نقص حصيلة الزكاة بشكل عام فى العصر الأموى، لامتناع جماعة من الناس عن دفعها للولاة، وتفريقها بمعرفتهم، عدا عهد عمر بن عبد العزيز الذى ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة[(٥)]. كما أعاد كذلك أخذ الزكاة من العطاء[(٦)]، أى بالخصم عند المنبع، وهكذا يعكس تعاظم دور الزكاة كأحد المكونات الإيرادات العامة إبان عهد عمر بن عبد العزيز، ولا يعنى هذا إغفال دورها الهام طيلة العصر الأموى، فبالرغم من عدم توافر أرقام عنها إلا أن الدلائل تشير إلى كبر أهميتها، وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموى، هما الزراعة وقطاع التجارة خاصة فى ظل نظام العشور[(٧)]، ومنها أيضًا وجود ديوان خاص

---

(١) المغنى والشرح الكبير (٢/ ٤٣٤)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ ٦٤ .

(٢) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع للكسانى، ك الزكاة (٢/ ٨٢٠) .

(٣) الأموال، لأبى عبيد القاسم بن سلام صـ٣٧٢، ٣٧٣ . (٤) المصدر نفسه صـ٥٠٤ إلى ٥١١ .

(٥) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١٠٤، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٦٥، عصام الجفرى .

(٦) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى صـ٤٢٦ . (٧) الخراج صـ٢٧١، ٢٧٢ .

يسمى ديوان الصدقات[١]، وهو الديوان الذى يتولى النظر فى أمور الزكاة والصدقات التى تجبى من القادرين والمتمكنين ماليًا ليتم توزيعها على مستحقيها فى الوجوه الشرعية التى ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[٢]، وأشار إليه الجهشيارى أول مرة فى خلافة هشام بن عبد الملك، ويذكر أن إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة هشام بن عبد الملك.

وقد يعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة لعدم تسجيل مقادير تلك الصدقات، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها فى الحال إلى مستحقيها[٣]، وبصفة عامة يمكن القول إن نظام الزكاة كان مطبقًا فى العهد الأموى وفقًا للأسس الشرعية الخاصة به، وأن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان فى عهد عمر بن عبد العزيز حيث وثق الشعب فى الدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام كواقع عملى، فسارع إلى دفع الزكاة إليها، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة، فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نموًا ملحوظًا فى حصيلة الزكاة[٤].

٢ ـ الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة، وهى ضريبة على الذمى المستوفى لشروطها مقابل الدفاع عنه، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية، عملاً بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩]. وهى ثابتة فى السنة لما قاله المغيرة بن شعبة لترجمان عامل كسرى: .. فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤتوا الجزية[٥]. وهى ثابتة أيضًا بالإجماع[٦]. ولم يضف الأمويون شيئًا يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية، ويمكن القول بأن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فمن حيث ضوابطها تمثلت فى: تحديد الشريحة التى تؤخذ منها الجزية متمثلة فى الذكور العقلاء البالغين[٧]، ثم تحديد الفئات المعفاة منها: وهم: الصبيان والنساء، المرضى المزمنون، العبيد، المجانين، العميان، الشيوخ، الرهبان الذين لا مورد لهم[٨]، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يسارًا وإعسارًا، حيث كانت تفرض على الفرد الغنى (٤٨) درهمًا سنويًا، وعلى المتوسط (٢٤)

(١) النظم الإسلامية، أنور الرفاعى صـ٨٢، ٨٣
(٢) الدواوين فى العصر الأموى، نجم المسعودى صـ٦١ .
(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٦٦ .
(٤) المصدر نفسه صـ٦٦ .
(٥) فتح البارى (٦/ ٣١٧) .
(٦) المغنى، ك الجزية (١٠/ ٥٦٧) .
(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٦٦ .
(٨) الأحكام السلطانية صـ١٤٤ .

درهمًا سنويًا، وعلى مـا دون ذلك (١٢) درهمًا سنويًا بشرط أن يكون ذا حـرفة[1]، وأما عن تصنيفها فيمكن تقسيم الجزية وفق المعيارين التاليين:

أ ـ معيار المسئولية: وطبقًا له تنقسم الجزية إلى فردية وجـماعية، فالجزية الفردية هى التى تفرض على كل ذمى مستوف لشروطها فى صورة مبلغ محدد يسقط عنه حالة إسلامه، أما الجماعيـة أو المشتركة فكانت تتم بوضع مبلغ إجمالى مـعين على أهل القرية أو المدينة، ثم يتولون هم توزيعه بين أفرادهم، ومثالها من عهد النبى ﷺ صلحه ﷺ لأهل أذرح على مائة دينار فى كل رجب[2]، وكان غالب الجزية فى العصر الأموى من هذا النوع[3].

ب ـ معيار النقدية والعينية: وطبقًا له انقسمت الجزية إلى ثلاثة أقسام: جزية نقدية، جزية عينية، جزيـة مشتركة، وكانت جمـيع أصناف الجزية معمولاً بها فى الـعصر الأموى، ولم يوجد ما يشير إلى الخروج عن ذلك، وخاصة أن الشريعة الإسلامية تقتضى بالالتزام بعقود الصلح، والوفـاء بهـا، لكن هذا لم يمنع من خـروج بعض الولاة أحـيانًا عن الضـوابط الشرعية[4]، وبالنسبة لحجم غلة الجزية ونسبتـها إلى إجمالى الإيراد الكلى للدولة فهذا مما يصعب تحـديده، لكن هناك مؤثرات تدل على عظم حـجم إيراد الجزية وهو مـا يتضح من الدور الكبير الذى قامت به الدولة الأموية فى نشر الإسلام فى بلدان كثيرة تم فتحها وفرض الجزية على من لم يسلم من أهلها[5].

٣ ـ الخراج: كبقية المصادر المالية للدولة التى كـان لعمر بن الخطاب الريادة فى تنظيمها، فقد استفادت الدولة الأموية من تنظيم عمـر له، إذ سارت فى أغلب أقاليمها عليه، إلا ما طرأ من تعديلات سوف يتم التـعرض لها[6]، وللخراج معنى خاص: وهو إيراد الأراضى التى افتتـحها المسلمون عنوة وأوقفهـا الإمام لمصالح المسلمين على الدوام، كمـا فعل عمر بأرض السواد من العراق والشام[7]، والخراج كما قال ابن رجب الحنبلى: لا يقاس بإجارة ولا ثمن، بل هو أصل ثابت بنفسه لا يقاس بغيره[8]، وكان للخراج أهمية كـبرى بالنسبة للدولة الأموية، وكانـت غلة الخراج فى منطقة السواد على سبـيل المثال فى عهد ابنه عـبيد

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٦٧ . (٢) فتوح البلدان للبلاذرى صـ٧١ .

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه صـ٦٨ ومن أراد التوسع فلينظر: تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٩٤ .

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧١ . (٦) المصدر نفسه صـ٧٣ .

(٧) الخراج لأبى يوسف صـ٢٤، ٢٥ اقتصاديات الحرب صـ٢١٥ .

(٨) الاستخراج لأحكام الخراج صـ٤٠، اقتصاديات الحرب صـ٢١٥ .

الله سنة ٥٤هـ - ٦٦هـ بلغت ١٣٥ مليـون درهم[١]، وأما مـنطقة الجـزيرة والشام: فـقد استمـر الخراج فى هذه المنطقة وفقًا لما وضـعه معاوية بن أبى سفيـان، الذى فرض ضرائب على أهل المدن ذات شقين، شق منه جزية والآخر خراج وهو كما يلى:

أ- على أهل قنسرين حوالى مليون وخمسمائة ألف درهم.

ب - على الأردن ستمائة ألف درهم.

جـ- على فلسطين حوالى ستمائة ألف درهم[٢].

وقد حدثت بعض الانحرافات فى تحصيل الخراج فى عدة صور أهمها:

- فرض الخراج على أرض مستثناة منه بنص عقود الصلح[٣]، فقد حدث ذلك فى عهد يزيد بن معاوية(٦٠ - ٦٤) حيث فرض الخراج على أرض السامرة[٤]، بالأردن وفلسطين.

- استخـدام العنف فى تحصيل الخراج، فى بعض الأقاليم - باسـتثناء عهد عمـر بن عبد العزيز- حيث استخدمت الشدة فى تحصيل الإيرادات بأنواعها[٥].

- تحميل نفقـات جباية الخراج على الممول، ومن تلك النفقـات قيمة الورق الذى يكتب عليه مقادير الخراج، قيـمة إيجار المستودعات التى يتم تخزين حصيلة الخـراج العينية فيها، أجرة الجابى الذى يقوم بالجباية وبقية نفقات تحصيل الخراج[٦]، وقد حدث ذلك خاصة فى إقليم العراق وكان قـبل عهد عمر بن عبـد العزيز، فلما ولى الخلافة أبطلهـا ثم عادت بعد موته[٧]، وكان للخراج فى عهد الدولة الأموية ديوان خاص به، يسمى ديوان الخراج: وهو الذى يتولى النظر فى جبـاية ضريبة الخراج، ويقوم بجـمعها وتسجـيلها، ووضع تقديرات لها، لأنها أعظم واردات الدولة[٨]، وكان الأمويون قد فـصلوا بين الولاية والجباية وعينوا مسئولين عنها لكى يحصروا المسئولية، وقد ذكرت المصادر قائمة بأسماء الذين أسندت إليهم مهـمة الجبـاية والإشراف على أعـمال الديوان، فمـعاوية رضى الله عنه عـين على خراج

(١) الأحكام السلطانية صـ١٧٥، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧٤ .

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧٦ . (٣) فتوح البلدان صـ١٦٢، ١٦٣ .

(٤) السامرة: قوم من اليهود وهم صنفان: الدستان والكوشان، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧٨ .

(٥) الخراج لأبى يوسف صـ٢٦٩، ٢٧٠ .

(٦) المصدر نفسه صـ١٨٦، ١٨٧، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧٨ .

(٧) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى صـ٤٥٦ .

(٨) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ١٧٧ .

دمشق: سرجون بن منصور[١]، وعلى خراج فلسطين: سليمان المشجعى[٢]، وعلى خراج حمص: ابن أثال النصرانى[٣]، وفى خلافة يزيد بن معاوية استمر على الديوان: سرجون بن منصور، كما بقى عليه طوال حكم معاوية الثانى، ومروان بن الحكم، وعبد الملك، حتى عزله[٤]. وقد أولى معاوية رضى الله عنه ولاته فى الأقاليم؛ الأرض ومن عليها عناية متزايدة، فاستصلح البطائح وهى أرض واسعة مغمورة بالمياه، بقطع القصب وعلب الماء بالمسنيات مما أدّى إلى عمارة البلاد وزيادة الوارد العام بمقدار خمسة آلاف ألف درهم، وراعى معاوية حالة السكان وسعى لتطمينهم والتخفيف عن كاهلهم بمجموعة من الإجراءات يتعلق بعضها بضريبة الخراج ذاتها، وبعضها الآخر يتعلق بالقائمين على الضريبة[٥]. ومن ناحية أخرى، فقد عمل معاوية على إنصاف دافعى الضريبة باختيار عماله ومتابعته لهم، وإن كانوا من المقربين، فقد عزل ابن أم الحكم وهو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى ـ وهو ابن أخته ـ لأنه اشتد فى أمر الخراج ولم يقبل من عامل خراجه جباية الخراج قبل موعده الموجود[٦]. وفى الفترة الأموية تكثر الإشارة إلى استعمال الأعاجم فى الخراج، وصلاحهم لذلك لأسباب عبر عنها زياد بن أبيه بوضوح منها: معرفتهم بأمور الخراج ودورهم فى إعمار الأرض[٧]، حيث يقول: وينبغى أن يكون كُتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج[٨]، ودعا زياد إلى مراعاة الدهاقين والإحسان إليهم: أحسنوا إلى الدهاقين[٩]، فإنكم لن تزالوا سمانًا ما سمنوا[١٠].

٤ ـ العشور: هى الأموال التى يتم تحصيلها على التجارة التى تمر عبر حدود الدولة الإسلامية سواء داخلة أو خارجة من أرض الدولة، وهى أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية فى العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له العاشر أى الذى يأخذ العشور[١١]، وأول من وضعها فى الإسلام هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد فرضها على الحربى بنسبة العشر، وعلى الذمى نصف العشر، وعلى المسلم ربع العشر[١٢]، وقد استمر هذا النظام فى العهد الأموى وفق القواعد التالية:

(١) الجهشيارى صـ٢٤ .
(٢) الجهشيارى صـ ٢٦، إدارة بلاد الشام صـ١٧٨ .
(٣) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٢٣) .
(٤) إدارة بلاد الشام فى العهد الراشدى والأموى صـ١٧٨ .
(٥) الخراج د. غيداء خزانة كاتبى صـ٢٣٩ .
(٦) المصدر نفسه صـ٢٣٩ .
(٧) المصدر نفسه صـ٢٦٢ .
(٨) المصدر نفسه صـ٢٦٢ .
(٩) الدهاقين: جمع دهقان والدهقان: شيخ القرية العالم بالزراعة، وما يصلح للأرض من شجر .
(١٠) الضرائب فى السواد فى العصر الأموى للدورى صـ٤٨، الخراج صـ٢٦٣ .
(١١) الخراج لأبى يوسف صـ٢٧١، اقتصاديات الحرب صـ٢٢٣ .
(١٢) الأموال لأبى عبيد صـ٤٧٥، ٤٧٦ .

أ- إعفاء الحد الأدنى لرأس المال، والذى قدر بالنسبة للمسلم بمائتى درهم[1]، أما بالنسبة للحربى والذمى فقد اختلف فيه[2].

ب- لا تحصل العشور إلا مرة واحدة فى السنة.

جـ- يشترط لتحصيل العشر من النعم التى للمسلم أن تكون سائمة.

د- لا تؤخذ العشور من عبد ولا مكاتب ولا مضارب ولا بضاعة، وإنما من رب المال نفسه[3].

هـ- أن يكتب للتاجر سند بالمبلغ الذى دفعه، وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا فى السنة التالية[4].

و- أن لا يتم تفتيش التاجر ولا تعنيفه[5].

ز- أن من ادعى دينًا يستغرق ما معه من التجارة، صدق إن كان مسلمًا، وإن ارتاب فى أمره استحلفه (على خلاف ذلك)[6]، وأما الذمى فأقرب الأقوال فيه أن يشهد له شاهدان من المسلمين حتى يعفى[7].

ح- أن العشور التى تأخذ من المسلمين هى الزكاة فلا يجمع على المال زكاة وعشور[8].

ط- أن غير المسلم إذا مر بما يوصف بالمالية عندهم وليس بمال عند المسلمين كالخمر والخنزير ونحوهما، يقومه أناس من غير المسلمين، ويضاف إلى قيمة ما معه من تجارة ويؤخذ منه العشور[9]. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن العشور كانت تشكل جزءًا مهمًا فى إيرادات الدولة، من ذلك ما لمسه ابن الزبير من نقص فى مواد الدولة حينما منع تحصيل العشور لمدة عام واحد مما حمله على التراجع على ذلك القرار[10].

٥ ـ **الصوافي**: هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفيء كما فعل رسول الله ﷺ، أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس، أو باستطابة نفوس الغانمين، كما فعل عمر بن

(١) الخراج لأبى يوسف صـ٢٧٦.
(٢) الأموال لأبى عبيد صـ٤٧٧.
(٣) الخراج لأبى يوسف صـ٢٧٤.
(٤) الأموال لأبى عبيد صـ٤٧٥، التطور الاقتصادى صـ٨٠.
(٥) الخراج لأبى يوسف صـ٢٧٥، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٨٠.
(٦) الأموال لأبى عبيد صـ٤٨٠، ٤٨١.
(٧) المرجع السابق صـ٤٧٩، التطور الاقتصادى صـ٨٠.
(٨) الخراج لأبى يوسف صـ٢٧٣.
(٩) المصدر نفسه صـ٢٧٣.
(١٠) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٨٠.

الخطاب رضى الله عنه[1] . . ثم أقطعت أجزاء منهـا إلى بعض من كان يتولى استـثمارها، على أن يؤدى لبيت المال ما عليهـا، وأول من أقطع عثـمان بن عفـان رضى الله عنه[2]، وذلك بدافع زيادة غلتهـا، وقد اشترط علـى من يقطعه إياها حق الفىء[3]، فبلغت غلتها آنذاك خمسـين مليون درهم[4]، وانتبـه معاوية بن أبى سـفيان للصـوافى فى وقت مبكر، وكتب إلى الخليفة عثمان سأله أن يقطعـه إياها، ليقوى بها على ما وصف فى كتابه؛ يقول ابن عساكـر: حتى كتب معاوية فى إمـرته على الشام إلى عثمـان أن الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها. ووصف فى كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له، وسأله أن يقطعه إياها ليـقوى بها على مـا وصف له، وأنها ليست من قرى أهل الذمـة ولا الخراج، فكتب إليه عثمان بذلك كتابًا[5]، يضاف إلى تلك المزارع، مزارع وأراضى بنى فوقا الذين لا وارث لهم، فـأخذ معـاوية ما يليـهم[6]. ولما أفضـى الأمر إليه، جـعل هذه الأراضى حبسًا[7] على فقراء أهل بيته والمسلمين[8].

وأشار المؤرخ الشيـعى اليعقوبى إلى أن معاوية جـعل هذه الأراضى، وضياع الملوك فى الشام والجزيرة واليمـن والعراق خالصة لنفسه عندمـا أفضى الأمر إليه[9] فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، واعتبـر بذلك: أول من كانت له الصوافى فى جميع أرجاء الدنيا[10]، وهذه الإشارة من اليـعقوبى تلفـت الانتباه إلى الالتـباس الواضح فى لغتـها، فقـد ذكرت صوافى فى الجزيرة واليمن علمًا بأن عمر بن الخطاب كان قـد أصفى مجموعات خاصة فى أراضى السـواد وأراضى الشام لم يدخل فـيـها صـوافى الجزيرة واليـمن[11]. كمـا أشار اليعقـوبى إلى أن معاوية جعل هذه الأراضـى خالصة لنفسه، فـأقطع منها فقراء أهـل بيته وخاصته. وبمقارنة هذا النص، بنص ابن عساكر عن الموضوع نفسه، يظهر مدى المبالغة فى تلك الرواية، يقول ابن عـساكر عن تلك الأراضى: فلم تزل بيد مـعاوية حتى قتل عـثمان

(١) الأحكام السلطانية صـ١٩٢ .
(٢) فتوح البلدان صـ٢٧٣ .
(٣) الأحكام السلطانية صـ١٩٣ .
(٤) المصدر نفسه صـ١٩٣ .
(٥) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٨٤)، الخراج د. غيداء صـ٣٠٧ .
(٦) الخراج، د. غيداء صـ٣٠٧ .
(٧) الحبس: الوقف .
(٨) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٨٤)، الخراج، غيداء صـ٣٠٧ .
(٩) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤) .
(١٠) المصدر نفسه (٢/ ٢٣٤) .
(١١) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٣٤)، الخراج، غيداء صـ٣٠٧ .

وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرّها على حالها ثم جعل من بعده حبسًا على فقراء أهل بيته والمسلمين؛ أى أن معاوية لم يتصرف فيها ابتداء بل تركها على حالها[1]. ولكن يبدو أن هناك ضرورات سياسية نشأت فى الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد من التنظيم والسعى لخدمة مصالح الدولة، ومن هذه الضرورات محاولة إقامة توازن قبلى فى بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية، ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة فى هذا المجال[2]، ولقد أسىء فهم هذا الإجراء، وفَسر بعض المؤرخين، كاليعقوبى، موضوع مصالح الدولة بأنه يعنى مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية[3]، ولا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال فى تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحدة الأمة، فكان يتصرف وفق ما يراه مناسبًا للصالح العام[4]، ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف، وقد أمر معاوية بإعادة مسح للصوافى فى أمصار الدولة الأموية، وأضاف أراضى واسعة بعد العثور على سجل الضياع الساسانية[5] التى أصبحت تحت تصرف معاوية المباشر فكان يسد منها بعض حالات العجز فى النفقات العامة، فقد بلغ غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهم[6]، وكذلك فعل بصوافى أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فدك اصطفاها لنفسه ثم أقطعها لمروان بن الحكم[7]، وظلت كذلك طيلة العهد الأموى، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذى أعادها للملكية العامة وشجع القطاع الخاص على استثمارها[8]، كما رد فدك لبيت المال ووضع ما يأتى منها فى أبناء السبيل، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده[9]، كما أمر باستثمار أراضى الصوافى حين كتب إلى واليه على العراق: انظر ما قبلكم من أرض الصافية، فأعطوه حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين، ولا تبتزن قبلك أرضًا[10]، ونلاحظ من هذا النص اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر الصوافى مما يدل على أهميته فى موارد الدولة.. لكن أمر الصوافى عاد إلى ما كان عليه الأمر بعد عهد عمر بن عبد العزيز[11].

---

(١) الخراج، غيداء صـ٣٠٨ . (٢) المصدر نفسه صـ٣٠٨ .

(٣) المصدر نفسه صـ٣٠٩، دراسات فى حضارات الإسلام صـ٤٦ .

(٤) الخراج صـ٣١١ غيداء خزنة كاتبى . (٥) المصدر نفسه صـ ٣١١.

(٦) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة خماش صـ١٩٧ . (٧) فتوح البلدان صـ٤٦ .

(٨) المصدر نفسه صـ٤٦، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٨٢

(٩) فتوح البلدان صـ٢٤ ـ ٤٨ . (١٠) واسط فى العصر الأموى صـ٤٠٦ .

(١١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٨٢ .

٦ ـ خمس الغنائم : تعرّف الغنيمة : ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة[١]، وقد نص عليها القرآن الكريم، وفى العصر الأموى ازدادت حركة الفتوحات وبالتالى زادت الغنائم كأحد موارد بيت المال، وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمرى بالنسبة للغنائم والأراضى المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيئًا لمجموع المسلمين مع ضرب الخراج عليها[٢]، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مصادر أخرى كنظام خمس الركاز، ومال من لا وارث له، إذ ظل فى العصر الأموى على ما كان عليه عهد رسول الله والخلفاء الراشدين، إضافة إلى أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جدًا بالنسبة لغيرهما من المصادر[٣].

ثانيًا: النفقات العامة:

١ ـ النفقات العسكرية:

حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام فى أرجاء المعمورة، ولذلك اتسعت الدولة الإسلامية فى العصر الأموى اتساعًا كبيرًا، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلاقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها، وتتضح معالم النفقات العسكرية فى العصر الأموى من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية[٤].

أ ـ رواتب الجند: ويشرف عليها ديوان الجند، وتجمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ[٥]، وقد بقى هذا الديوان على الأساس نفسه حيث تحفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم، وأنسابهم ومقدار أعطياتهم[٦]، وقد عمل معاوية بن أبى سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد فى أعطياتهم، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة، وكان أمير المؤمنين معاوية. يتفقد أحوال القبائل، كجزء من سياسته في حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية، وكان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيقال: سموهم فيكتب، ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه

(١) الخراج، يحيى القرشى صـ٥٨ .
(٢) الإدارة فى العصر الأموى صـ٢١ .
(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٨٦ .
(٤) المصدر نفسه صـ٩٧ .
(٥) طبقات ابن سعد (١/ ٢١٣)، تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٤٣).
(٦) التراتيب الإدارية للكتانى (١/ ٢٢٥)، الدواوين فى العصر الأموى صـ٣٧ .

وعياله، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان(١)، وكان للجند ديوان مركزى فى دمشق فى حين وجدت دواوين فرعية فى مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط(٢)، وكان سلم رواتب الجند فى عهد معاوية كالآتى:

على درجات: شرف العطاء والمرتب ٢٠٠٠ درهم، عطاء العرب فئة(أ) ٣٠٠ درهم، فئة (ب) ١٠٠٠ درهم، فئة (جـ) ١٥٠٠ درهم، وأدخل الموالى فى العطاء(٣)، وكانت نفقات رواتب الجند فى عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه كالآتى:

- فى منطقة مصر : كان عدد المسجلين فى الديوان ٤٠٠٠٠ جندى منهم أربعة آلاف مسجلين بشرف العطاء(٤)، وبالتالى يكون مجمل عطائهم ٨٠٠٠٠٠٠ درهم، أما بقية المسجلين فى الديوان فكان عددهم ٣٦٠٠٠ جندى وعلى فرض أن عطاء الجندى سنويًا هو ٣٠٠ درهم يصبح إجمالى عطائهم ١٠٨٠٠٠٠٠ درهم(٥).

- فى منطقة الشام: كان عدد الجند المسجلين فى ديوان الشام ستين ألف جندى، كان الدخل السنوى لكل جندى ألف درهم، أما إجمالى نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهم(٦).

- فى العراق نأخذ مثالاً ديوان البصرة: حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل(٧)، وبلغت مرتباتهم فى عهد زياد ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا أخرجنا منهم نسبة ١٠٪ مسجلين فى شرف العطاء، (قياسًا على ديوان مصر) يكون المتبقى ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم، وعليه يكون متوسط الدخل للجندى فى ديوان البصرة حوالى ٢٧٨ درهمًا ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا(٨).

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند، وهو الجهة المسئولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلى:

(١) حسن المحاضرة للسيوطى (١/ ٦٥م)، الدواوين فى العصر الأموى صـ٣٧ .
(٢) الجيش والأسطول الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥٣٥ .
(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٩٨ .
(٤) ديوان الجند للسلومى صـ١٤٩، التطور الاقتصادى صـ٩٩ .
(٥) الخطط للمقريزى (١/ ١٢٨) .
(٦) الخراج والنظم المالية للريس صـ٩٤ .
(٧) الحياة الاقتصادية فى صدر الإسلام، بطاينة نقلاً عن التطور الاقتصادى صـ٩٩
(٨) المصدر نفسه صـ١٠٠ .

* قام مندوب معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل فى يده مباشرة، وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء. لكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائبًا ولا يميتون ميتًا[١].

* وفى عهد معاوية قام واليه على العراق زياد بن أبيه، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند، حيث اختصر عدد العرفاء المسئولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد[٢].

ب- **نفقات الصناعات الحربية:** على الرغم من عدم وجود أرقام محددة فى نفقات الدولة على الصناعات الحربية، إلا أن هناك ما يدل على اتجاه هذه النفقة نحو التزايد، فقد كان اهتمام الدولة الأموية منصبًا على تطوير سلاح البحرية، وقد بلغ عدد قطع الأسطول البحرى الإسلامى فى بداية تكوينه مائتى مركب[٣]، ثم تطور على يد الدولة الأموية ليبلغ فى عهد سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمائة سفينة كبيرة[٤].

٢- النفقات الإدارية :

تقسم هذه النفقات إلى قسمين: رواتب الموظفين ونفقات المستلزمات الإدارية، وكانت هذه الأخيرة ضئيلة للغاية، ومتمثلة فى الشموع وأوراق الكتابة، وغيرهما من الأدوات البسيطة التى لا تشكل شيئًا يذكر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم، ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن عبد العزيز بالحساسية للمال العام، فكانت هذه النفقات فى عهده أقل من غيره من العهود[٥]، وسنركز الحديث عن رواتب الموظفين، ويبدو أن رواتب الموظفين كانت متروكة إلى والى الإقليم، يحدد لنفسه ولعماله رواتبهم حسب ما يرى، وقد ساعدت هذه اللامركزية على ظهور مرتبات كبيرة نسبيًا، إذا ما قورنت بالمرتبات فى عهد عمر بن الخطاب وبمتوسط مستوى المعيشة المتواضع نسبيًا فى الدولة الأموية؛ حيث بلغ مرتب والى العراق زياد بن أبيه خمسة وعشرين ألف درهم شهريًا[٦]، وظهرت أيضًا إلى جانب المرتبات الكبيرة مخصصات إضافية، فهذا زياد بن أبيه يجعل لأحد الولاة التابعين لإدارته مائة ألف درهم سنويًا عدا مرتبه[٧]. وهذه بعض النماذج من رواتب الموظفين خلال فترات

(١) ديوان الجند للسلومى صـ١٦٩، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٠٢ .
(٢) الإدارة فى العصر الأموى صـ٣٢٠ .
(٣) تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى صـ١١٥، ١١٦ .
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٠٦ . (٥) المصدر نفسه صـ١٠٦
(٦) الإدارة فى العصر الأموى صـ٣١٠ . (٧) المصدر نفسه صـ٣١٠ .

من العصر الأموى، يمكن اعتبارها مؤشرًا على مستوى رواتب ومكافآت موظفى الدولة، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها.

أ- كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العصر الأموى وطرفًا من العباسى حتى عهد المأمون هو ٣٦٠٠ درهم سنويًا، وكان حدها الأدنى ٧٢٠ درهمًا سنويًا[١].

ب- يرجح أن أكبر مرتب لصاحب الشرطة فى العصر الأموى بلغ مائة ألف درهم سنويًا[٢].

جـ- مرتبات القضاة كانت عبارة عن رزق يجرى عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاء[٣]، وكان حده الأدنى ألفا ومائتى درهم سنويًا[٤]، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة آلاف درهم سنويًا[٥].

٣ ـ مصارف الزكاة:

حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٦٠].

٤ ـ مصارف الفيء:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...** ﴾ [الحشر: ٧].

٥ ـ معظم مصارف العشور:

التى تأخذ من المسلمين هى نفقات تحويلية لأنها تعتبر فى حقهم زكاة فتصرف فى مصارف الزكاة.

٦ ـ نفقات الضمان الاجتماعى:

تطورت نفقات الضمان الاجتماعى فى الدولة الأموية فكانت فى صورة عينية، وكمثال على ذلك ما ورد من أن الفقراء فى إقليمى الحجاز والعراق خلال الفترة (٤٥هـ ـ ٥٣هـ)

(١) الإدارة فى العصر الأموى صـ٣١٠ .
(٢) المصدر نفسه صـ٣١٨ .
(٣) المصدر نفسه صـ٣٣١ .
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٠٧ .
(٥) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٣٦.

كانـوا يحملون بطاقـات محـددًا لهم فيـها الكمـية المخـصصـة لكل فرد منهم من المعـونة العينية،[1] ثم أصبحت فى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ ـ ١٠١هـ) مزيجًا من النفقات النقدية والعـينية، وكمـثال على المعـونات النقدية قضـاء دين من أدان فى غير سـفه، ولا سرف، وتزويج الرجل الذى ليس له مال وله رغبة فى الزواج[2]، ومثال النفقات العينية، أنه أمر لكل أعمى بقـائد، ولكل خمسة من اليـتامى بخادم[3]، وشملت فى عهـده نفقات الضمـان الاجتمـاعى إلى غيـر المسلمين[4]، ثم تطور الأمر حـتى مثلت نفقات الضـمان الاجتـماعى بندًا محددًا من بنـود النفقات العامـة للدولة، ومثال ذلك: يوجـد ضمن بنود النفقـات العامة السنوية فى إقليم العراق خـلال الفترة (١٢٠ ـ ١٢٦هـ) مبلـغ عشرة آلاف درهم[5]، مخصصًا لبيوت رعاية الأحداث[6]، والعواتق[7].

ثالثًا: اهتمام الدولة بالزراعة :

مع بداية الدولة الأموية ظهرت الملكيـات الزراعية الكبيرة، وذلك نتيـجة لدخول الولاة والخلفاء فى هذا الميدان، ولذلك اهتموا بإحياء الأرض الموات من أراضى الصوافى وغيرها، من الأراضى المفتوحة الخـصبة، وبالذات إقليم العراق وما شابهـه، وقد ساعدهم فى ذلك حجم السـيولة التى يملكونها، فـقد أحيـا والى معاوية رضى الله عنه على خـراج العراق أرضين من البطائح لمعاوية، حيث قام بقطع الماء عنها وتجفيـفها وزراعتها، وقد بلغت غلتها خمسة ملايين درهم[8]، وهذا مما يدل على عظم مساحتها، ولم يكن معاوية رضى الله عنه يجعل ريـعها كله داخـلاً فى نفقـاته الخاصة، وإنما كـان يُتدارك منهـا شىء من النقص فى النفقات العامة[9]، ولم يدخل تلك الأرضين فى ملكه يتوارثها من بعده، بدلالة أن الأرض التى أحياها الحـجاج فيما بعـد لعبد الملك هى نفس الأرض التى أحيـاها معاوية رضى الله عنه، إلا أنها عادت مواتًا لغـلبة الماء عليها[10]. ومن الناحية الشرعـية فإن إحياء الأرض

(١) الإدارة فى العصر الأموى صـ٣٣٥ .

(٢) الأموال لأبى عبيد صـ٢٣٤، ٢٣٥ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١٨٣ .

(٤) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى صـ٤٣٣ .

(٥) الأحكام السلطانية للماوردى صـ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٦) حداثة السن: كناية عن الشباب وأول العمر، لسان العرب مادة حدث (٢/ ٧٩٦) .

(٧) العواتق: جمع عاتق وقيل: هى البكر التى لم تبن عن أهلها وقيل: هى التى بين التى أدركت وبين التى عنست.

(٨) فتوح البلدان صـ٢٩١، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية صـ١٨٧ .

(٩) الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بطاينة صـ١٣٥ .

(١٠) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس صـ٢١٤

بصفة عامة مباح، بل هو سبب من أسباب الملك لها، وذلك استنادًا إلى الأحاديث الواردة فى ذلك، وهى إباحة عامة يستوى فيها الحاكم، والمحكوم، إلا أنه فى حق الحاكم ينبغى أن تكون هناك قيود إضافية لعل من أبرزها:

- عدم استغلال الحاكم لسلطته ومكانته، وإنما يدخل فى عملية الإحياء كأى فرد من أفراد الشعب.

- عدم استخدام أموال المسلمين فى عملية الإحياء، بل يقوم بإحيائها من ماله الخاص.

- ألا يترتب على تملكه للأرض بطريق الإحياء ضرر على المسلمين، الأفراد أو جماعة المسلمين، وكذا من له ذمة[(١)]، وقد ساهم الإقطاع - أى الإقطاع بقصد الإحياء والإعمار - فى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة، فقد أقطع معاوية رضى الله عنه بعض إخوته الجزيرة التى بين النهرين، فأرسل زياد بن أبيه الماء، فلما نظر إلى المقطوعة له ظن أنها بطيحة، فاشتراها منه زياد بمائتى درهم، وقد أقطع زياد بعد ذلك من تلك الأرض غيره، مما يدل على عظم حجمها، حتى أنه أيضًا حفر لها أنهارًا وليس نهرًا واحدًا[(٢)]، وأقطع زياد بن أبيه مرّة مائة جريب[(٣)] على نهر الأبلة فحفر لها نهرًا فسمى باسمه، كما أقطع أيضًا كل بنت من بناته - أى بنات زياد - ستين جريبًا[(٤)]. واستمرت الملكيات الزراعية بالتوسع مع مجىء الخلفاء الأمويين بعد معاوية رضى الله عنه، ولم ينحصر الإقطاع للأراضى على الأسرة الأموية وبعض وجهاء قريش، وإن كان هو الغالب[(٥)]، إذ كانت هناك إقطاعات لعامة الشعب، ومثال ذلك أن زيادًا كان يقطع الرجل القطيعة ويتركه سنتين فإن لم يعمرها أخذها منه[(٦)]، وقد كانت تقدر مساحات تلك الاقطاعات بين (٦٠ - ١٠٠) جريب[(٧)]، وقد كانت إقطاعات الدولة الأموية من الصوافى أو من الأراضى الموات. ولكن بصفة عامة يؤخذ على الإقطاع فى العصر الأموى عنصر المحاباة، إذ أن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا إما من الأسرة الأموية أو من أشراف قريش، وبحثت الدولة عن أصحاب السيولة النقدية القادرين على استثمار تلك الأراضى، وترتب على ذلك السلوك تركز الثروة الكبيرة فى أيدى قلة من أفراد المجتمع[(٨)].

(١)، (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٧٨ .

(٣) المقصود به هنا: وحدة المساحة . (٤) معجم البلدان (١/ ٤٣٥)، التطور الاقتصادى صـ١٨٠ .

(٥) أرض الصوافى للمصرى صـ١٢٢ . (٦) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على صـ ١٩٠، ١٩١ .

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٨٨ .

(٨) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على صـ١٩٠ - ١٩١ .

كانت الزراعة فى العصر الأموى تعتمد بصفة رئيسية على مياه الأنهار، ولذا نجد أن مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية كانت هى العراق ومصر والشام، وبالذات حول الأنهار[(١)]، وكان للقطاع الخاص دوره فى تطوير الزراعة فى العهد الأموى، وقد قام القطاع الخاص باستصلاح أراض زراعية جديدة بمساحات واسعة، ومثال ذلك أراضى البطائح التى كانت منذ عهد الفرس وحتى عهد الدولة الأموية أراض مغمورة بالمياه، فبدأت من بداية الدولة الأموية حركة استصلاحها بحجز المياه عنها وتجفيفها، وقد خرجت منها أراض واسعة وخصبة وفيرة الإنتاج[(٢)]، وقد توسعت الملكيات الزراعية الخاصة، وترتب عليها زيادة فى الإنتاج الزراعى، مما أدى إلى وجود أراض بعيدة عن مصدر الرى وهو النهر الأساسى، فحدث تطور فى تقنية الرى حيث ظهرت حركة حفر الأنهار والقنوات الفرعية وفق طرق هندسية تسمح لتلك الأراضى بالاستفادة من ماء النهر دون أن يؤدى ذلك إلى إغراقها، وقد توسع القطاع الخاص فى حفر هذه الأنهار والقنوات، فحدثت تنمية زراعية نتيجة استفادة الأراضى التى كانت تمر بجوارها تلك الأنهار والقنوات الفرعية[(٣)]، وقد تمّ نقل التقنية الزراعية من البلاد المفتوحة حديثًا إلى مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية فى الدولة الأموية[(٤)] إلا أن القطاع الزراعى تعرض للتدهور فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية بسبب عوامل متعددة منها:

١-الاضطراب السياسى، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية، ويبدأ هذا الاضطراب مع مجئ يزيد بن معاوية، ومعاوية الثانى، ومروان بن الحكم.. إلخ.

٢-تركز الثروة فى يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالى[(٥)]، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أى حدوث كساد اقتصادى بالمنطقة.

٣-إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التى روى أنها بدأت مع عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه[(٦)]، وكان السبب فى إعادتها أن الناس اعتادوا دفعها على الرغم من منع الإسلام لها[(٧)]، فأراد معاوية رضى الله عنه سحب مبالغها من غير المسلمين من الدهاقنة

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٨٨ .
(٢) المصدر نفسه صـ١٩٠ .
(٣) الإدارة فى العصر الأموى صـ١٥١ .
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٩١ .
(٥) المصدر نفسه صـ١٩٦ .
(٦) تاريخ اليعقوبى (٢/٢١٨) .
(٧) مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى صـ٣١ .

المسئولين عن الجباية، حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقوون بها ضد الدولة الإسلامية، وكان ينفقها رضى اللـه عنه فى مصالح الأمة الإسلامية، لكن الدهاقنة والأمراء المحليين أخذوا فيما بعد فى ابتكار ضرائب إضافية عديدة[١]، أرهقت كاهل المزارعين، بالإضافة إلى ما صاحب تلك الضرائب من عنف فى الجباية[٢].

٤- إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث فى عهد الحجاج من أن بثوقًا انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح فلم يعمل الحجاج ـ بوصفه والى المنطقة ـ على سد تلك البثوق مضارة لأهلها (لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث فى الخروج عليه). فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[٣].

٥- معاناة الدولة الأموية فى بداية نشأتها من مجموعة من المهاجرين الذين قدموا إلى إقليم العراق، وكانوا يعانون من البطالة، حيث لم يكونوا مسجلين بالعطاء، وليس لديهم أراض يقومون بزراعتها، فبدلاً من أن يقوموا بالعمل فى مجال من المجالات الأخرى قامت فئة منهم بإحداث بثوق فى نظام الرى، فأدى ذلك إلى تخريب المزارع وإغراقها، فلما ولى زياد العراق قام بالقضاء على مثل تلك الأعمال[٤].

٦- حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالى والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والى العراق ـ الحجاج بن يوسف ـ إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزيرة عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[٥]. ونتيجة لتلك العوامل وغيرها، فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعى العام فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية[٦]. ومع ذلك فقد كانت هناك مجموعة من الإجراءات والمشاريع التى خففت من حدة التدهور الزراعى بالمنطقة خلال هذه الفترة، وكان من أبرزها ما يلى:

(١) الخراج لأبى يوسف صـ١٨٦، ١٨٧ .
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى صـ١٧٥ .
(٣) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية خيرو صـ٨٦ .
(٤) المصدر نفسه، رمزية خيرو صـ٨٦ .
(٥) الخراج والنظم للريس صـ٢١٩، الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الأموية صـ٧١ .
(٦) التطور الاقتصادى فى العضر الأموى صـ١٩٨ .

أ- إنشاء زياد بن أبيه جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة[1] مما وفر الفرصة لاستغلال أراضي كانت تعطل فترة من السنة نتيجة فيضان الماء عليها، وينتظر حتى تنتهى فترة الفيضان، وتجف الأرض حتى يمكن إعادة زراعتها مرة أخرى، كما أعطى هذا المشروع فرصة إدخال زراعة النباتات المعمرة إلى تلك الأراضى بدلاً من افتقار الزراعة فيها إلى المحاصيل الموسمية، وبلغ من أهمية هذا الجسر أن الولاة ظلوا يتعاهدونه طيلة فترة العصر الأموى[2].

ب- عملية نقل الأيدى العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية فى الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

- نقل زياد خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوى الخبرة الزراعية المشهورة إلى خراسان لتعميرها[3].

هذا وقد كانت الدولة الأموية تتولى مسئولية إقامة منشآت الرى الكبرى والعمل على صيانتها وتطهيرها، كحفر الآبار ومجارى الأنهار، وسد البثوق (التصدع)، وفتح البريدات (مفاتيح الماء)، وإقامة المسنيات (السدود)، أما أصحاب الأراضى فكانوا يشاركون أحيانًا فى تطهير الأقنية الكبيرة، وكذلك الأمر فإنه كان يقع على عاتقهم، بطبيعة الحال، مسئولية إقامة الأقنية ووسائل الرى داخل ممتلكاتهم الخاصة[4]. وقد حاول الحكام الأمويون استغلال ما أمكنهم من الأراضى، فعملوا على توسيع نطاق الأراضى الزراعية، وبخاصة تجاه بداية الشام، عن طريق استصلاحها وتأمين المياه، ووسائل الرى لها[5]، حتى إن قصور الأمويين في الصحراء كانت مراكز مهمة للاستثمار الزراعى حيث أقيمت حولها منشآت الرى، من قنوات وصهاريج، ومجارى وتوسعوا بذلك فى استصلاح الأراضى بواسطة توفير الرى لها[6]، وكان الخليفة معاوية بن أبى سفيان يبدى اهتمامًا كبيرًا بتنمية الزراعة ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولى عنايته لتطوير وسائل الرى، وإخصاب الأراضى عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين[7]، كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب

(١) الإدارة فى العصر الأموى صـ٢٤٧ .

(٢) المصدر نفسه صـ٢٤٧ .

(٣) مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى للدورى صـ٢٧ .

(٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، عاطف رجال صـ١٣٥ .

(٥) التنظيم الاقتصادى فى صدر الإسلام صـ٨٢ .

(٦) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٣٦ .

(٧) النزعات المادية، حسين مروة (١/٤٧٦)، تاريخ بلاد الشام الاقتصادى صـ١٣٦ .

بالمهندس نظرًا لخبرته الهامة فى الشئون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الرى والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه بنهر يزيد، وكانت هذه القناة فى الأساس رافدًا صغيرًا بالكاد يروى ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبار كذلك، الأمر الذى أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفى لرى أراض واسعة فى الغوطة[1]، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها[2]، وكانت غالبية الأراضى فى بلاد الشام تعتمد فى ريها على مياه الأمطار التى تتساقط عليها خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان، إلا أن أراضى واسعة[3] كانت تروى سيحًا، أى من المياه الجارية على سطح الأرض حيث تأتى من مياه بعض الأنهار ومن مياه العيون فى الجداول والقنوات، وكذلك فإن قسمًا آخر من الأراضى كانت تروى بواسطة الآلات التى ترفع المياه من منخفضات بعض الأنهار إلى سواقى أعلى لرى الأراضى التى يعلو مستواها عن مجارى الأنهار، أو التى ترفع المياه من الآبار والخزانات[4]، وتعتبر مياه العيون مهمة فى رى المزروعات، حيث كانت تروى قسمًا كبيرًا من الأراضى فى أنحاء الشام[5]، وكانت الغلات والمزروعات المتوافرة: القمح والشعير والرز والزيتون، والنخيل والعنب والتين والفواكه والقطن، وقصب السكر، والبقول، والسمسم، والرياحين، وغير ذلك[6].

رابعًا : اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية:

يتوسط موقع الدولة الأموية بين دول الشرق الأقصى من ناحية مثل الصين والهند ونحوهما وبين الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومعنى ذلك - بالضرورة وطبقًا لمعايير ذلك العصر ـ أن أهم علاقاتها التجارية ارتبطت بهاتين الدولتين[7]، وبعد تولى معاوية الخلافة استقرت الأمور وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك، واهتم معاوية بمصالح التجار وعمل على توسيع نطاق التجارة، وتميز أهل الشام فى حرفة التجارة، وفتحوا علاقات تجارية مع غربى أوربا واستفادوا من الأسطول الإسلامى، ومن

(١) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) .
(٢) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٤١ .
(٣) مفاتيح العلوم للخوارزمى صـ٤٦، تاريخ بلاد الشام الاقتصادى صـ١٤١ .
(٤) تاريخ بلاد الشام فى العصر الأموى صـ١٤١ . (٥) المصدر نفسه صـ١٤٣ .
(٦) المصدر نفسه صـ١٤٧ إلى ١٥٦ .
(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٠٥ .

بين العوامل التى ساعدت على نشاط حركة التجارة الثراء العريض الذى نعمت به طبقة الحكام وحاشيتهم، حيث نما فى نفوسهم حب البذخ والرفاهية، وبالتالى توفر عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المنتجات الكمالية، فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن، مما زاد فى فعالية التجار وازدهار التجارة[١]، وكان الأمويون يقومون بدور كبير فى عالم التجارة وخصوصًا أن الخليفة معاوية - رضى الله عنه - والده كان من كبار تجار قريش، كما أن معاوية نفسه لما كان واليًا فى عهد عثمان بن عفان على بلاد الشام كان يرسل بقوافله التجارية من الشام إلى حاضرة الجزيرة العربية[٢].

وكان التجار يحتلون مكانة اجتماعية عالية فى العصر الأموى، وكانوا يقومون بتأسيس الشركات فى سبيل زيادة فعالية التجارة، حيث كانوا يساهمون فى الشركة بتقديم المال وممارسة العمل كذلك، أو بواحد منهما، فإذا أقدم صاحب المال على تقديم ماله لآخر ليتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها، فيسمى ذلك الاتفاق بالمضاربة[٣]. وقد ازدهرت شركات المضاربة وأصبحت وسيلة مهمة فى مجال العمل التجارى[٤]، وكانت تجارة الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد أصبحت عاصمة الدولة دمشق مركزًا تجاريًا مهمًا يعود إلى الظروف السياسية الجديدة التى نشأت، فغيرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عما كانت عليه سابقًا فى العصر البيزنطى، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحطًا للتجارة الشرقية[٥]، وبالتالى مركزًا لتوزيع البضائع إلى الجهات المختلفة، بعد أن كانت القوافل المحملة بالبضائع الشرقية تتجه مباشرة إلى إنطاكية على ساحل الشام الشمالى، وهكذا كان لأهمية تجارة دمشق التى تتكدّس فى أسواقها البضائع المتنوعة المنتجة محليًا والمستوردة أن قال ياقوت: إنه يستحيل أن يطلب شىء فى أسواق دمشق غير موجود، حتى إن السلع الغالية الثمن التى تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدن موجودة فيها[٦]. ثم إن دمشق كانت بحكم موقعها الجغرافى المتاخم للبادية المركز التجارى الهام الذى يقصده البدو والمقيمون فى الصحراء[٧]، وقد اشتهرت مدن الشام كحلب والرصافة، وحمص، والرملة والقدس وإنطاكية بأهميتها التجارية، ونشاط أسواقها[٨]، وكانت عاصمة الشام، محط رحال القوافل التجارية الآتية من الشرق، ولا شك أن الكوفة والبصرة والموصل، ومدن الحجاز، ونجد وغيرها قد ازدهرت حركة التجارة فيها أيضًا إلا أن مدن

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٦٨ . (٢) المصدر نفسه صـ١٧٢ .
(٣)، (٤) المصدر نفسه صـ١٧٤ . (٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى صـ١٨٣ .
(٦) معجم البلدان (٢/ ٤٦٥). (٧)، (٨) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى صـ١٨٣ .

الشام كانت تزدهر فيها التجارة أكثر من غيرها، حيث إنها تعتبر مراكز تجارية كبرى وأسواقًا هامة، كما أن الأسواق الموسمية التى كانت تقام فى بعض المدن، تعرض فيها البضائع المتنوعة بكثرة، كانت توفر مجالاً أوسع لتأمين جميع متطلبات واحتياجات سكان المدن والقرى كذلك، بالإضافة إلى أن هذه الأسواق كانت مناسبة هامة للتجار الذين يأتون إليها من أماكن مختلفة تستفيد من كل ذلك. وقد كان من هذه الأسواق التى كانت قائمة فى العصر البيزنطى واستمر قيامها فى العصر الأموى سوق بصرى الذى كانت تطول مدة إقامته، حيث كان يستمر من ثلاثين إلى أربعين يومًا، وكذلك فقد كان هناك سوق أذرعات الذى استمر قيامه حتى ما بعد العصر الأموى[1].

وأما بالنسبة للتجارة الخارجية فى عهد معاوية رضى الله عنه وابنه، فقد ازدهرت التجارة مع الدولة البيزنطية، وازدادت نموًا وقوة، وقد ساهمت عدة عوامل فى هذا الازدهار منها :

١- كثرة الاضطرابات والحروب فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئى، وبالتالى زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب.

٢- الاستقرار الأمنى فى الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر فى الشرق إلى إقليم الشام، بحثًا عن فرص استثمار تجارية آمنة.

٣- الاعتماد الكلى لكل من الدولتين على الأخرى فى مجال هام وحيوى بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كليًا على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كليًا فى حجم النقد الذهبى داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية.

ومن العلامات التى تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين فى عهد معاوية ومن بعده ما يلى:

أ- كمية الدنانير الذهبية البيزنطية التى كانت موجودة فى داخل الدولة الأموية وتتم بها عمليات التداول الداخلية .

ب- استمرار مصانع إنتاج البردى فى مصر فى إنتاجه على النهج البيزنطى للتصدير حتى عهد عبد الملك بن مروان[2].

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٨٧ .

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٠٩ .

خامسًا : الحرف والصناعات :

تأثرت الحرف والصناعات فى العصر الأموى بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما تأثرت الصناعات والحرف بطبيعة الاقتصاد الأموى، حيث كان النشاط الزراعى هو النشاط الرئيسى فيه، فظهرت وتطورت صناعات تعتمد فى موادها الخام على القطاع الزراعى، مثل صناعة النسيج وصناعة المعاصر والمطاحن، كما واكبت الصناعة حركة التطور العمرانى بالدولة الأموية، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء، إضافة إلى تأثر الصناعة بالجو العسكرى السائد فى معظم فترات العصر الأموى، حيث تطورت صناعة السفن التجارية[1]، وقد اهتمت الدولة الأموية ببناء أسطول حربى، ليقف فى وجه الأسطول الحربى البحرى البيزنطى، والذى كان يهدد سلامة الشواطئ الغربية للدولة الإسلامية، فتطورت صناعة السفن الحربية فى العصر الأموى بشكل كبير ومتلاحق، فقد كان الإنتاج فى بداية العصر الأموى مقتصرًا على السفن، التى كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام ٤٩هـ، حيث أمر معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم فى دار الصناعة الجديدة، والتى تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان[2]. ثم تطورت هذه الصناعة، فأنشئت فى مصر منطقة صناعية جديدة، خاصة بصناعة السفن الحربية، وذلك عام (٥٤هـ)[3]، واستمرت الدولة الأموية فى تطوير صناعة السفن فيما بعد عهد معاوية رضى الله عنه وقد أصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكانى، كما أصبحت مناطق جذب وتوطن صناعى، فأصبحت أماكن استثمار خصبة، حيث أنشئت فيها الفنادق، والمطاحن، ونحوها من الأنشطة الأخرى، وساعد على نمو وتطور هذه الصناعة، ما اتسمت به منذ بداية نشأتها، من دقة التنظيم.

ومن صور هذه الدقة ابتكار وظيفة المشرف العام على دار الصناعة ويسمى متولى الصناعة، ومن أبرز مهامه جمع الطاقات البشرية الفنية العاملة فى هذا المجال من نجارين وحدادين وعمال ونحوهم، سواء من الأقاليم المجاورة للصناعة، أو من مختلف أقاليم الدولة، ومن مهامه أيضًا توفير الأدوات الخام، مثل الأخشاب والمسامير وغيره من مستلزمات دار الصناعة، وعليه يمكن القول إن التنظيم كعنصر من عناصر الإنتاج فى

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٣٥ .

(٢) خطط الشام (٥/ ٣٧)، النظم الإسلامية، إبراهيم العدوى صـ٣٥٥، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٣٩ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى صـ١٦٦ .

العصر الحديث ترجع جذوره إلى القطاع العام الصناعى فى العصر الأموى، أو (متولى الصناعة). ومن صور دقة تنظيم هذه الصناعة، الاهتمام بتحديد أجور العمال، وتوفير الكميات الغذائية اللازمة لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين فى هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل، وتوفير وحدات سكنية للعمال، والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذا وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة[1]، ونتج عن ذلك كله تطور هائل فى حجم الأسطول البحرى إبان العهد الأموى[2].

لقد كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية الأموية فى ميادين البحر، فاتخذ معاوية الوسائل المناسبة لإضعافها ثم القضاء عليها فيما بعد. وفى هذا الأمر درس عظيم لقادة الأمة فى معرفة عوامل قوة العدو، وجوانب تفوقه ثم السعى للوصول لنقطة تساوٍ ثم تفوق على الخصوم، سواء فى الميادين العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو الإعلامية، ومما نلاحظه الآن القوى العسكرية الهائلة التى تميز بها عدونا سواء على مستوى السلاح الجوى أو النووى والذرى، فواجب على الأمة أن تسعى لإيجاد حلول حتى تستطيع أن تقاوم أعداءها، وعلى علماء الأمة ومفكريها ألا يخضعوا للضغوط النفسية والسياسية والإعلامية التى يمارسها الأعداء علينا، وعليهم أن يبينوا أحكام الله فى امتلاك ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. إن استمرار الأعداء فى امتلاك الأسلحة الرادعة والتى لها قدرة بإذن الله على حسم المعارك العسكرية، جعلهم يتجبرون ويتغطرسون ويعملون على إفساد عقائدنا وثقافتنا وديننا، ويستولون على خيراتنا وثرواتنا مما يوجب علينا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، فلذلك وجب علينا أن نسعى لامتلاك الأسلحة الرادعة لكى نحمى بها أمننا وديننا ونقيم العدل وندفع الظلم عن البشرية.

ومن الصناعات التى اشتهرت فى العهد الأموى، صناعة السفن التجارية، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيرًا عن السفن التجارية، ومع ذلك كانت مناطق تصنيعها مختلفة، فقد اختصت منطقة البحرين أكثر من غيرها بإنتاج السفن التجارية، فى حين كانت مصر، وعكا، وتونس مواطن تصنيع السفن الحربية، وساعد البحرين على ذلك وقوعها على الخليج العربى، والذى كان يعد من أهم طرق المواصلات التجارية البحرية بين الشرق والغرب، وكذا ما اكتسبه أهلها من خبرة ملاحية نتيجة احتكاكهم بشعوب لديها خبرات ملاحية كشعوب الهند، والصين[3]. ولم تقتصر صناعة السفن على البحرين، بل امتدت إلى مدينة واسط

(١) النظم الإسلامية للعذوى صـ٣٥٤، ٣٥٥ . (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٤١ .
(٣) البحرين فى صدر الإسلام، عبد الرحمن نجم صـ٨٤ .

بالعراق وقد تطورت هذه الصناعة فى عهد ولاية الحجاج بصفة خاصة[1]، فقد أدخل تحسينات على صناعة السفن التجارية لتستطيع السير فى عرض البحر، فأمر بتكبير حجمها، واستخدام المسامير لتقويتها، والاهتمام بهيكلها العظمى[2]، وكانت السفن التى تصنع فى واسط تسمى الواسطية، وكانت تنتج مدينة واسط القوارب الصغيرة، والتى كانت تستخدم للنزهة والسفر ونقل السلع التجارية بين واسط والبصرة لضحالة الطريق النهرى بينهما وعدم قدرة السفن على السير فيه[3]، ولم تكن مراكز إنتاج السفن الشرقية بالدولة الأموية متخصصة فى إنتاج السفن التجارية فقط، وإن كان هو الغالب عليها، بل كان لديها القدرة المزدوجة، فقد قام الحجاج أيضًا ببناء قوة عسكرية بحرية بالخليج العربى وبحر الهند[4].

سادسًا : شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية :

أثار بعض المؤرخين شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية رضى الله عنه، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية منها:

١ - التفريط فى خراج بعض الأقاليم والتفرقة فى العطاء:

أ- إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص: تتعدد الروايات التى تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص لقاء تأييد الأخير له فى حربه ضد على بن أبى طالب رضى الله عنه، وجل هذه الأخبار تحوى روحًا عدائية لعمرو ومعاوية وتصور اتفاقهما على حرب على، كما لو كانت مؤامرة دَنيئة أو صفقة مريبة، خان فيها الرجلان ربهما، ودينهما، وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر سريع، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصرة لقضية اجتمع حولها آلاف الرجال فى الشام وغيرها ـ وهى الطلب بدم عثمان ـ إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه، وبعض هذه الروايات تحوى سبابًا لهذين الصحابيين، كأن تزعم أن عمرو فضل ولاية مصر على حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال: إنما أردنا هذه الدنيا[5]، أو أنه قال لمعاوية: لا أعطيك من دينى حتى آخذ من دنياك[6]، أو قوله: إنما أبايعك بها دينى (أى بمصر)[7]، أو قوله لمعاوية: ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها.

---

(١) العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى صـ١٠١ .

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٤٢ .

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفى صـ٥٩ هزاع الشمرى .

(٤) واسط فى العصر الأموى صـ٢٤٣ .

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها نقلاً عن الكامل فى التاريخ .

(٦) الإمامة والسياسة (٩٨/١) .

(٧) العقد الفريد (٣٤٥/٤) .

فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده[1]، إلى غير ذلك من الروايات[2]، وهكذا روايات باطلة وموضوعة عند المسعودي، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة وغيرها، تمسخ عمرًا بن العاص إلى رجل مصالح، وصاحب مطامع وراغب دنيا، وقد تأثر بالروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة مجموعة من الكتّاب والمؤرخين، فأهووا بعمرو إلى الحضيض، كالذي كتبه محمود شيت خطاب[3] وعبد الخالق سيِّد أبو رابية[4]، وعباس محمود العقّاد الذي يتعالى عن النَّظر في الإسناد، ويستخفُّ بقارئه، ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضي الله عنهما بأنَّهما: انتهازيَّان، صاحبا مصالح، ولو أجمع النَّاقدون التاريخيون على بطلان الرِّوايات التي استند إليها في تحليله، فهذا لا يعني للعقَّاد شيئًا، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة، واهية، لا تقوم بها حجة: . . . وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وصحَّة هذه الكلمات، وما ثبت نقله، ولم يثبت منه سنده، ولا نصُّه فالذي لا ريب فيه، ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه: أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة، ومعاونة على الملك، والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذي آل إلى كلٍّ منهما، ولولاه لما كان بينهما اتفاق[5].

وهناك عدة دلائل ترد على الروايات الضعيفة، والموضوعة، والسقيمة التي لاقت رواجًا واستقرار في تشويه عمرو بن العاص ومعاوية بالظلم والبهتان، منها ما عرف من صحة إسلام وتقوى معاوية وعمرو، وتاريخهما المضيء في خدمة دين الله منذ أسلما[6]، ففي معاوية يكفي دعاء رسول الله ﷺ عندما قال: **اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به**[7]، وقوله ﷺ: **اللَّهمّ علِّم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب**[8]، وأما عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان حيث قال: **أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص**[9] وفي حديث آخر قال: **ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام**[10]، وقول رسول الله ﷺ: . . **وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله لخيراً كثيراً**[11].

(١) مروج الذهب (٣/ ٢٩) .

(٢) وقعة صفين صـ٢٣٧ سلسلة هذه الروايات كلهم من الشيعة الروافض . (٣) سفراء النبي ﷺ صـ ٥٠٨ .

(٤) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية صـ٣١٦ .

(٥) عمرو بن العاص للعقاد صـ٢٣١ ـ ٢٣٢ . (٦) الدولة الأموية، حمدي شاهين صـ ٤١٦ .

(٧) صحيح سنن الترمذي للألباني (٣/ ٢٣٦) . (٨) موارد الظمآن (٧/ ٢٤٩)، إسناده حسن .

(٩) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٣٨) رقم ١٥٥ .

(١٠) الطبقات (٤/ ١٩١)، السلسلة الصحيحة (١/ ٢٤٠) رقم ١٥٦ .

(١١) المستدرك (٣/ ٤٥٥) صححه الحاكم وقال الذهبي: صحيح إسناده حسن .

– كانت بيعة عمرو لمعاوية في عهد على عـلىّ الطلب بدم عثمان، فقد كان تأثر عمرو بمقتل عثمـان عظيمًا، فعندما سمع خـبر مقتل عثمـان. . . ارتحل راجلاً يبكى، ويقول: يا عثـماناه: أنعى الحيـاء والدين. . . حتّى قـدم دمشق[1]، فقـد كان من أقرب أصـحابه، وخلانه، ومستشاريه، وكان يدخل في الشُّورى ـ في عـهد عثمان ـ من غير ولاية، ومضى إلى معاوية رضى الله عنهما ليـتعاونا معًا على الاقتصاص من قتلة عثـمان، والثأر للخليفة الشهـيد[2]، لقد كـان مقتل عـثمـان كافيًـا لأن يحرِّك كلَّ غضـبه على أولئك المجـرمين السَّفَّاكين، وكـان لابدَّ من اختيار مكان غير المدينة للثـأر من هؤلاء الذين تجرَّؤوا على حرم رسول الله ﷺ، وقتلوا خليفته على أعين النَّاس، وأيُّ غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشك في هذا الموضوع، فمداره على الرِّوايات المكذوبة التى تصوِّر عمرًا: كلُّ همه السُّلطة والحكم[3].

– **ومن الدلائل على بطلان فرية إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص**، ما ذكره أبو مخنف أحد رواة الفرية السابقة، أن دفع معاوية لجيشه إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار على بن أبى طالب سنة ٣٨هـ ـ وكـان عمرو قـائده في هذه الحملة ـ أنه كـان: يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر علـى حرب على لعظم خراجها[4] . . . فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمرو وهو في مسيس الحاجة إليه؟

– **ومن الدلائل أيضًا**: أن معاوية كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر ـ وردان ـ أن زد على كل امـرئ من القـبط قيـراطًا، فـرد عليـه: كيف وفـى عهـدهم أن لا يزاد عليهم؟[5] ولم يل وردان خراج مصر لمعاوية إلا في ولاية عمرو بن العاص، لأن من ولوا مصر بعد موت عمـرو ـ وهم: عتبة بن أبى سفيان، وعقبة بن عـامر، ومسلمة بن خالد ـ كانوا يتولون صلاتها وخراجها، وهذه الرواية صريحة قاطعة في الدلالة على إهتمام معاوية بزيادة حصيلة الخراج في مصر، وفي ولاية عمرو بن العاص عليها، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كان فائض الخراج في مصر يحمل إلى مـعاوية في دمشق ليواجه به وجوه الإنفاق المتنوعة[6]. كمـا أن معاوية لم يكن يسـتحل أن يتنازل عن خراج مـصر ـ وهى من أغنى أقاليم الدولة الإسـلامية آنذاك ـ لفـرد واحد وهو يعلم أنه حق الأمـة كلها، وأنه لا يملك

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان صـ٤٨١ .
(٢) عمرو بن العاص، للغضبان صـ٤٨٩، ٤٩٠ . (٣) المصدر السابق صـ٤٩٢
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٩) . (٥) فتوح البلدان صـ٢١٩
(٦) الأمويون والفيء صـ ٦٧، ٦٨، فهمى عبد الجليل.

التنازل عنه، وقد روى ابن تيـمية عن عطية بن قيس قـال: سمعت معاوية بن أبى سـفيان يخطبنا يقول: إن فى بيت مالكم فـضلاً بعد أعطياتكم وإنى قاسمـه بينكم، فإن كان يأتينا فضل عام قابل قسمناه عليكم، وإلا فـلا عتبة عليَّ، فإنه ليس بمالى وإنما هو مال الله الذى أفاءه عليكم[1]، وإذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من تنافس الأمصـار الإسلامية مع بعضها، ووجود معارضة للأمويين فى مصر كانت حـديثة العهد منذ تبعية مصر لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه حتى دخلها عمـرو بن العاص سنة ٣٨هـ، لازددنا يقينًا أن أهلها لم يكونوا يقبلون ما يزعمه الرواة حول إعطائها طعمة لابن العاص.

وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجـال مصر من بذل فى سبيل نصرة مـعاوية مثلما بذل عمرو بـن العاص، إن لم يفقه، كـمعاوية بن حديج وأصـحابه من العثمـانية، وهؤلاء لا يقبلون بحال أن يمتاز عـمرو عليهم كل هذا الامتياز، وقد مر بنا فيـما مضى أن معاوية بن حديج هذا قـد أرجع ابن أخت معـاوية ـ عبـد الرحمن بن أم الحكم ـ الذى ولاه مـعاوية مصر، من قبل أن يدخلها، ورفض أن يتولى إمارتهم ورده إلى الشام على نحو غير كريم، فما استطاع معاوية أن يغضب ابن حديج[2].

ب- **التنازل عن خراج (دارابجـرد) للحسن بن على:** زعم بعض المؤرخين أن معاوية تنازل للحسن بن على رضى الله عنهما عن خـراج (دارابجرد) وأن يعطيه مما فى بيت مال الكوفة مبلغ خمسة آلاف ألف درهم مقابل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وأن الحسن قد أخذ ما فى بيت مال الكوفة ولكـنه لم يستطع الحصول على خراج (دارابجـرد): إذ إن أهل البصرة قد منعوه منه، ويزعـمون أن ذلك كان بتحريض معاوية أو بمبـادرة من البصريين. على أن هذه الرواية تغض من شأن الحسن ومعاوية معًا وتجعلهما فى موقف التواطؤ على أكل أموال المسلمين بالباطل[3]، وهذا باطل ولا يصح. والصحيح مثـبت فى البخارى بأن الحسن قال لوفد معاوية؛ عبد الرحمن بن سمرة، وعـبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لـى بهذا؟ قالا: نحن لك به[4]، فالحسن يتـحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بنى عبد المطلب، يريد الحسن أن لا يطالبهم بها معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفـعها إليه قادم[5]، وذكر ابن أعثم أن الحسن قال: أما المال فليس لمعـاوية أن يشترط لى فىء المـسلمين[6]. والمعلوم أن جبـاية الخراج من مـهام

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ١٨٥).
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤١٧.
(٣) المصدر نفسه صـ٤١٧، تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٥).
(٤) البخارى، ك: الصلح رقم ٢٧٠٤.
(٥) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٦٤.
(٦) الفتوح (٣/ ٢٩٣).

الدولة، ولا علاقة مباشرة بين الحسن وأهل البصرة في هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج دارا بجرد لم يكن في الأموال التي صُيرت إلى الحسن[1]، ورُوى أن الحسن قال لمعاوية: إن عليَّ عدات ودُيونًا، فأطلق له من بيت المال نحو أربعمائة ألف أو أكثر[2]، وذكر ابن عساكر: يُسلِّم له بيت المال فيقضى منه ديونه ومواعيده التى عليه، ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته[3]، وذهب بعض المؤرخين إلى أن إبقاءه ما في بيت المال معه (خمسة ملايين درهم)، استبقاه لأولئك المحاربين الذين كانوا معه، يوزِّعه بينهم، ويبقى لمعيشته له ولأهل بيته ولأصحابه[4]. ولا شك أن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد في تخفيف شدة التوتر .

إن الذى جاء في رواية البخارى هو الذى أميل إليه، فالأمر لا يكون تَجَاوز طلب العفو عن الأموال التى أصابها الحسن وآله في الأيام الخالية. وأما الروايات التى تشير بأن يجرى معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليونى درهم في كل عام، ويفضل بنى هاشم في العطاء والصلات على بنى عبد شمس[5]، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور أن إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفًا أمام مصالحه الخاصة[6]. وأما حقه في العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات[7].

جـ ـ التفرقة في العطاء: أول من سن ديوان العطاء في الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أما قبل ذلك في عهد رسول الله ﷺ، فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك[8]، وقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين، وكان شيئًا كثيرًا[9]، فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس في توزيع الغنائم أمر مباح، وقد يكون مستحبًا إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك[10]، وإن كان ذلك يزيد في غنائمهم عن بقية المسلمين، ثم كثرت بعد ذلك الغنائم المجلوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ64 .
(2) تاريخ الإسلام، عهد معاوية صـ7 .
(3) تاريخ دمشق (14/ 90) .
(4) التاريخ الإسلامى، شوقى أبو خليل صـ268 .
(5) الأخبار الطوال صـ218 .
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ63 .
(7) المصدر نفسه صـ 63 .
(8) الدولة الأموية المفترى عليها صـ418 .
(9) الاستخراج لأحكام الخراج صـ26 ابن رجب الحنبلى .(10) الدولة الأموية المفترى عليها صـ418 .

على نحو معروف، وفضل أصحاب السابقة والقرابة من النبى ﷺ على من عداهم[١]. . ولما جاء الأمويون فضلوا أهل الشام على من عداهم، فقد كانوا أنصارهم المخلصين، وهم عماد الجيوش المجاهدة سواء فى الشمال فى جهاد الروم أو فى الغرب فى فتوح إفريقية والأندلس، وهم المحافظون على سلامة الدولة وقمع مخالفيها، وكم استنجد بهم ولاة الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند المصر فى الدفاع عن أنفسهم ونظامهم، كما حدث فى قتال ابن الأشعث[٢]، ومواجهة ثورة يزيد بن المهلب زمن يزيد بن عبد الملك[٣]، وكما حدث فى انتقاض البربر الخوارج بإفريقية فى عهد هشام[٤].

٢- التوسع فى إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار:

أنفق معاوية رضى الله عنه أموالاً كبيرة ليتألف بها قلوب الزعماء والأشراف ويوطد أركان الدولة الإسلامية التى قامت بعد فترات من الصراع والتطاحن، فقد رأى معاوية رضى الله عنه أن إراقة بعض المال خير من إراقة كثير من دماء المسلمين. . فأعطى هؤلاء الرجال المال يستميل به قلوبهم، وقلوب أتباعهم وأنصارهم، ويعلى به مكانتهم ويسد خلة من وراءهم، ولعله قد فهم من إعطاء الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويسيل سخائم نفوسهم، أنه يجوز أن يعطى أمثال هؤلاء الرجال ليتألف قلوبهم ويضمن ولاءهم، والولاء للدين والدولة يختلطان فى فهم معاوية وبنى أمية حيث قامت دولتهم – فيما اعتقدوا – لنصرة الدين وجمع شمل أهله[٥]، وأخيراً فإن كان معاوية مخطئًا فى ذلك فما القول فى هؤلاء السادة الذين قبلوا عطاياه وجوائزه وفيهم من اشتهر بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى؟ إن من الحق أن نقول: إن المجتمع الإسلامى فى ذلك العهد كان يشهد تغيراً كبيراً عن زمن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعالياته السياسية ترى أن من حقها التميز فى العطاء[٦].

٣ ـ مظاهر الترف عند الأمويين:

هذا ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا، والحق أنه كان عندهم لون من ألوان البذخ فى سكناهم وفى لباسهم وفى عطائهم ونفقاتهم، وقد

(١) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ٤١٨ .

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٢٠ .

(٣) المصدر السابق صـ٤٢٠ . (٤) المصدر نفسه صـ٤٢٠ .

(٥) الأمويون والفىء صـ٧٢ ـ ٧٣ فضلاً عن الدولة الأموية شاهين صـ٤٢٢ .

(٦) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٢٢ .

لفت معاوية نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنهم إليه وهو بعدُ أحد ولاة الشام، يغدو فى موكب ويروح فى آخر، ولكن من الحق أيضًا ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربى والإسلامى آنذاك، فهى جزء منه، تتأثر به، كما تؤثر فيه، وفى ذلك العصر كان التطور الاجتماعى يتلاحق، ومظاهر الغنى وانثيال الأموال والرغبة فى التمتع الحلال به تصبح أمرًا ظاهرًا يدفع الذوق العام والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع.. وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة فى زهد معاوية ورقة ثيابه[1]، أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع[2]، فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك، بل هى دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصًا ولا ترى التنعم حرامًا[3]، وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة في وجوه الإنفاق المالى في ذلك العصر لا نجد مظاهر الترف والبذخ قصرًا على بنى أمية؛ خلفائهم وولاتهم، فبعض بنى هاشم وبنى الزبير وغيرهم من معارضى الأمويين لم يكونوا أقل سماحة بالمال من بنى أمية ولا أكثر حرصًا عليه[4]، وإذا كان بنو أمية قد ابتنوا القصور فقد بنى رجال من أشراف العرب قصورًا كان لها ذكر وبهاء، وكان العرب يعدون ذلك كرمًا، ويتفاخرون به، ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرافهم وإن لم يكن حاكمًا[5].

والترف فى المجتمعات الإسلامية ظاهرة سلبية لها ما بعدها، إن بحبحة الأمويين فى الإنفاقات المالية أدت إلى ظهور الترف ثم تعمق وتجذر فى الأمة حتى أصبح ترفًا مدمرًا، ظهرت معالمه وآثاره فى سقوط بلاد الشام فى يد الصليبيين ثم سقوط بغداد فى يد المغول، وزوال الدولة العباسية، لذلك يكره الإسلام الترف ويحذر منه أشد التحذير: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. إنه كالحمض الأكال الذى ينخر فى جسم المادة فيذهب بصلابتها، فتصبح هشة سهلة القصف، أو تصبح لينة لا قوام لها فى الصدام، وقد كانت وفرة المال فى أيدى الناس هى الباب المؤدى إلى الترف بطبيعة الحال، ولكن هذا يفسر ولا يبرر، فإنه لا يوجد تبرير لمعصية الله، وقد جاء المال بوفرة نسبية على أيام عمر رضى الله عنه ولكنه تصرف بشأنه بمنع الفساد، فمنع الصحابة - رضوان الله عليهم - من الخروج من المدينة للضياع والتجارة، حتى لا

(١) العواصم من القواصم صـ٢١٧ تعليق محب الدين الخطيب.
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٢٤.
(٣) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٢٤. (٤) المصدر نفسه صـ٤٢٤.
(٥) المصدر نفسه صـ٤٢٥.

تتكون منهم طبقة تملك المال فى أيديها وتملك السلطان (الأدبى) على الناس، فيحدث التميز وتفسد الأحوال، فضلاً عن احتمال إصابتهم هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد مشورتهم حين تترهل نفوسهم، وإلى جانب ذلك ـ وقبل ذلك - أخذ عمر رضى الله عنه نفسه وأهل بيته بالشدة الحازمة، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس، فيفسد الناس، أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولى الأمر، يسمح بالنفع ويمنع الضرر، فإنه لا بد أن يؤدى إلى نتائجه المحتومة حسب السنة الإلهية، لا لأن المال فى ذاته هكذا يفعل، ولكن لأن الجهد البشرى المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل فتنفرد الآفة وحدها بالسلطان، وآفة المال الترف، وعلاجها فى يد ولى الأمر. . . بنشر روح الجد فى المجتمع وبإعطاء القدوة من نفسه لبقية الناس. أما حين يترك فى أيدى الناس بلا ضابط ـ مع وجود فئة تعمل جاهدة فى إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس، فالنتيجة هى ما قررته السنة الربانية التى جاء بيانها فى كتاب الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. والترف مُعْدٍ ككل آفة. . فحين لا يعالج، ولا يوقف فإنه ينتشر ولا بد. . وحين يكون مبتدؤه فى قصور الخلافة فأمره أسوأ، لأن الحكام دائمًا قدوة، وقد كان الأمويون ـ برغم وجود الترف بينهم - أقل فسادًا بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالاً بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد فى سبيل الله من ناحية أخرى، فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسرى بينهم سريعًا، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد. ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم فى التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير، وشيئًا فشيئًا غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلامية الأخرى[1].

****

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟ محمد قطب صـ١٢٦، ١٢٧ .

المبحث السادس

القضاء في عهد معاوية رضي الله عنه والدولة الأموية

يعتبر القضاء فى العهد الأموى من الدرجة الثـالثة بعد القضاء فى العهد النبوى والقضاء فى العهـد الراشدى، لأن العصـر الأموى كان زاهيًـا وفيه كثـير من آثار العهـد الراشدى، وكانت كثير من الأعمال امتدادًا للعهد الراشدى، وخاصة فى جانب الفتوحات الإسلامية، وانتشار الدعوة فى المشارق والمغارب، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا، وازدهار الحضارة الإسلامية[(١)].

أولاً: صلة العهد الأموى بالعهد الراشدى :

كان العهد الأموى وخصوصًا عهد معاوية امتدادًا للعهد الراشدى فى عدة جوانب، فبقى كثيـر من الصحابة إلى العهـد الأموى، وشاركهم فى العلم والفـقه والقضاء وغيـرها كبار التابعين، ثم صـغار التابعين، كما بقى بعض قـضاة العهد الراشدى يمارسـون القضاء فى العهد الأموى، وبعـضهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث رحمـه الله، وبقيت فى العهد الأموى آثار التربية الدينية وسمو العقـيدة، وآثار الإيمان، والالتزام بأهداب الدين، والتقيد بالأحكام الشرعـية، وظهر فى العهـد الأموى عدد كبيـر من المجتهدين الذين كـانوا همزة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلمـاء والمجتهدون فى العهد الأموى أساتذة لأئمة المذاهب التى ظهـرت فى العهد العـباسى، وكان لهذه الصـورة الفقهيـة الزاهية أثرها الكبـير والمحمـود على حسن سـير القـضاء والعـدالة فى العهـد الأموى، وظهر الـتوسع بالاجتهاد، كما بدأت حركة تدوين العلوم الإسـلامية، والانفتاح على الحضارات الأخرى، ونقل الثقافات والعلوم من الأمم المجاورة[(٢)].

ثانيًا : تخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء، وفصل السلطات:

كـان الخلفاء الراشـدون يتولون القضاء بأنفـسـهم، ويفصلون فى القـضايا والدعـاوى والمنازعات، وصدرت عنهم أقضية كثيرة، وكان الولاة فى الأمصار يتمتعون بنفس السلطات والصلاحيات الممنوحة للخليفة لأنهم نواب عنه، إلا إذا قيدت سلطتهم ومنعوا من القضاء، وعين معهم القضاة للفـصل بين الناس، ومن هؤلاء الولاة معاوية بن أبى سفيان الذى بقى

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ١٦٥ .

(٢) المصدر نفسه صـ١٦٥ .

واليًا على الشام عشرين سنة، وكان يتولى القضاء والحكم بنفسه[1]، ولما تولى معاوية الخلافة تخلى عن ممارسة القضاء، وعين القضاة فى حاضرة الدولة الإسلامية بدمشق وفوَّض إليهم السلطة القضائية، وخولهم الصلاحيات الكاملة فى الدعاوى، وسار ولاته فى الأمصار على هذا النهج، وابتعد الولاة عن أعمال القضاء، وسار خلفاء بنى أمية على هذه الخطة طوال العهد الأموى، سواء فى عاصمة الدولة الأموية، وفى سائر الأمصار والمدن والولايات، وانقطعت صلة خلفاء بنى أمية عن القضاء الإسلامى إلا فى ثلاثة أمور:

١ - تعيين القضاة مباشرة بالعاصمة دمشق.

٢ - الإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم، ومتابعة شئونهم الخاصة فى التعيين والعزل، والرزق، وحسن السيرة، ومراقبة الأحكام القضائية التى تصدر عنهم، للتأكد من مطابقتها للحق والعدل، والشرع والدين، والالتزام بالسلوك القضائى القويم.

٣ - ممارسة قضاء المظالم، وقضاء الحسبة، وقد أولى خلفاء بنى أمية أهمية خاصة ورعاية كاملة لقضاء المظالم حتى وقف على قدميه، وأصبح له جهاز كامل مستقل. ومن ذلك نرى أن القضاء فى العهد الأموى كان مستقلاً عن أى سلطة أخرى حتى سلطة الخليفة، أو الوالى الذى كانت سلطته تنتهى عند تولية القاضى أو عزله، دون أن يكون لهم تدخل فى أعمال القاضى واجتهاده وحكمه، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التى يصدرها القضاة[2]. قال النُباهى: ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدّمه من ملاحظة القضاة، وبقى الرسم على حذو ترتُّبه زمانًا[3]. فقد كان معاوية رضى الله عنه أول خليفة امتنع من القضاء تمامًا، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة فى قاعدة ملكه، فضلاً عن قضاته فى الأمصار[4].

ثالثًا: رزق القضاة:

من المعلوم أن عمر بن الخطاب هو الذى فصل القضاء عن الولاية، وهو أوّل من رتب أرزاق القضاة، وأمَّا أمير المؤمنين على وهو المعروف بالزهد والقناعة فقد قال لعامله على مصر فى شأن القضاة: . . . وافسح له فى البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس[5]، واستمر الحال على ذلك فى العهد الأموى، فكانت تجرى على القضاة أرزاقهم من

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ١٦٦ .
(٢) المصدر نفسه صـ١٦٧ .
(٣) تاريخ قضاة الأندلس صـ٢٤ .
(٤) عبقرية الإسلام فى أصول الحكم صـ٣٤٢ .
(٥) القضاء ونظامه فى الكتاب والسنة صـ٢٦٧ .

بيت المال[١]، مع التوسيع عليهم، واختلاف المقدار بحسب البلدان والظروف[٢]، وروى الشعبى عن شريح أنه كان يأخذ على القضاء خمسمائة درهم كل شهر ويقول: أستوفى لهم، وأوفيهم، ويقول أيضًا: أجلس لهم على القضاء وأحبس نفسى ولا أرزق. ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢هـ، وسأل عن شريح، فعلم أنه امتنع عن القضاء -فى عهده- ابن الزبير، فاستدعاه وقال له: وفقك الله، عُدْ إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذهما وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[٣]، وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجرًا ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى فى إقامة شرعه، منهم مسروق بن الأجدع القاضى والمفتى ت ٦٣هـ، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه فى القضاء، وقالت امرأة مسروق: كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقًا، وقال القاسم: كان مسروق يقول: لأن أقضى يومًا فأقول فيه الحق أحب إلى من أن أرابط سنة فى سبيل الله[٤].

رابعًا: تسجيل الأحكام والإشهاد عليها:

ظهر فى العهد الأموى لأول مرة تسجيل الأحكام القضائية التى يصدرها القاضى فى سجله، وديوان المحكمة ليرجع إليه القاضى عند الحاجة، وأول من سجل الأحكام سُلَيم بن عنز التجيبى قاضى مصر فى عهد معاوية، لما تخاصم إليه أشخاص فى توزيع ميراث، فحكم بينهم، فغابوا مدة، واختلفوا وتناكروا وتجاحدوا الحكم، وعادوا يطلبون فصل الخلاف ثانية، فتذكر القاضى قصتهم، وكاشفهم بها، فاعترفوا، فأعادوا الحكم بينهم، وطلب من كاتبه أن يُسجل الأحكام القضائية وكتب لهم كتابًا بقضائه، وأشهد عليه[٥]. وقال الكندى: فكان سليم أول القضاة بمصر سجّل سجلاً بقضائه[٦]، وكان سُليم ـ فيما وصل إلينا ـ أول من أشهد على الأحكام القضائية لتوثيقها، ومنع جحودها أو إنكارها، ثم توسع الأمر فى العهد العباسى[٧].

خامسًا: أعوان القضاة:

يحتاج القضاة عادة إلى أعوان يساعدونهم فى حسن التقاضى وسير القضاء، منهم كاتب القاضى أو كاتب المحكمة، أو كاتب الضبط، وأول ما ظهر فى العهد الراشدى[٨]، ثم شاع

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ١٦٧ . (٢) المصدر نفسه، ١٧٦، ١٧٧ .

(٣) أخبار القضاة (٢/ ٢٢٧، ٣٩٧) .

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٢)، تاريخ القضاء فى الإسلام ص١٧٨ .

(٥)، (٦) تاريخ القضاء فى الإسلام ص١٨٠ . (٧) المصدر نفسه صـ١٨٠ .

(٨) نظام الحكم فى الشريعة صـ٢٥٩، تاريخ القضاء صـ١٨٠

استعمـاله فيما بعد، وظهر أعـوان جدد في العهد الأموى بحسب الحـاجة، وتطور الحياة، واتساع أعمال القاضى، وكثرة الدعاوى، ونذكر أهمهم:

١ ـ المنادى: وهو الذى يجلس عند القـاضى، لبيان مكانة القـاضى، ومعرفـته، والمناداة على الخصوم، وكان يطلق عليـه (الذى على رأس القاضى) أو (صاحب المجلس) وأول ما ظهر ذلك فى عهد شريح، قال وكيع: عـن عمرو بن قيس الماضى، قال: رأيت رجلاً كان يقوم على رأس شريح، وكان إذا تقدم إليه خصمان، فيقول: أيكما المدعى فليتكلم، وروى وكيع أيضًا: كان شريح إذا جلس للقضاء لم يـقم حتى يُنادى: هل من خصم أو مستثبت؟ أو مستفت؟[1]

٢ ـ الحاجب: وهو الذى يقف على باب القـاضى، ليـحجب عنـه الناس أثناء النظر فى الدعاوى، ويرتب دخول المتـداعين عليه عند تزاحمهم وتعـددهم، وقد يكون الحاجب هو المنادى الذى يقف على رأس القـاضى، ويقوم بالعملين مـعًا، وقد يكون هو نفـسه الجلواز (التابع للشرطى، أو أحد الشرطة القضائية)، وقـد يكلفه القاضى القيام ببعض الأعمال فى المحكمة، أو أداء بعض المهمـات خارجها[2]، وذكر وكيع أن إبراهيم الـنخعى كان جلوازًا للقاضى شريح[3]، وكان على رأس شريح شرطى بيده سوط[4].

٣ ـ الترجمان أو المترجم: اتخذ القضاة الترجمان لكثـرة الشعوب غير العربية التى دخلت فى الإســلام، وتعارفت هذه الشـعـوب واختلطت مع بـعضـها، تحـقيـقًـا لقوله تعـالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجـرات: ١٣] فإذا حصل نزاع أو اخـتلاف، أو دعوى، استعان القاضى بالترجمان الثقة المقبول لينقل أقوال الخصوم له[5].

سادسًا: المراقبة والمتابعة:

إن تخلى الخلفاء والولاة عن ممارسة القـضاء، والاقتصار على التعـيين والعزل لم يمنع الخلفاء من مراقبة أعمال القضاة ومراجعة أحكامهم، ومتابعة الدعاوى والأقضية التى تصدر عنهم، لأن الخليفة هـو المسئول عن القضاء، وجـميع ما يخص الأمة والأفراد فى سـياسة الدين والدنيا، وتفويض القضـاء للقضاة لا ينجى الخليفة من المسئـولية فى الدنيا والآخرة، لذلك كان الخلفاء يراقبـون أعمال القضاة، ويتابعون ما يصدر عنـهم، فإن وجدوا فيه خللاً

(١) تاريخ القضاء، عرنوس صـ ١٢٨، تاريخ القضاء صـ١٨١ . (٢) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ١٨١ .
(٣) المصدر نفسه صـ١٨١، أخبار القضاة (٢/ ٢١٥) . (٤) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ١٨١ .
(٥) المصدر نفسه صـ٤٢٣ .

أو انحرافًا، أو تقصيرًا، تصدوا للتقويم والتصحيح[1]، وهذا ما نقلناه سابقًا عن النباهى قال: (ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدّمه من ملاحظة القضاة، وبقى الرسم حذو ترتبه زمانًا)[2].

سابعًا: مصادر الأحكام القضائية فى العهد الأموى:

اعتمد القضاة على المصادر نفسها التى جرى عليها القضاة فى العهد الراشدى، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، والإجماع، والسوابق القضائية والاجتهاد مع الاستشارة، وكان الالتزام بالقرآن والسنة هو الأساس، وهو ما تلتزم به الخلافة، وتتم عليه البيعة، وتطور الأمر فى السوابق القضائية على الإشادة بقول الصحابة رضوان الله عليهم والتقيد غالبًا بما صدر عنهم، لأنهم أقرب عهدًا وصلة بمدرسة النبوة، ونزول الوحى، وخصوصًا أقضية الخلفاء الراشدين، كما بدأ يظهر فى هذا العهد أثر العرف والعادة على أقضية الحكام، نظرًا لاختلاف الأعراف والعادات فى أصقاع الخلافة الأموية المترامية الأطراف، فكان القضاة ينظرون فى الأقوال والدعاوى والأيمان والتهم بحسب الأعراف التى تظلهم وتحدد المراد من الألفاظ والمصطلحات[3]، وكان الفقهاء والقضاة والخلفاء يحرصون على التثبت من نقل النصوص، وصحة الأحاديث للاعتماد عليها، وحذر معاوية رضى الله عنه من الاعتماد على الأحاديث المكذوبة، فخطب فى وفد من قريش، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغنى أن رجالاً فيكم يتحدثون بأحاديث ليست فى كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، فأولئكم جهالكم[4]، وكان القضاة يعينون من الخلفاء والولاة، وتطلق يد القضاة لا يتقيدون برأى اجتهادى معين من أحكامهم، إلا ما ورد فى النصوص والإجماع، وإلى حد ما إلى السوابق القضائية وقول الصحابة، ولم تكن المذاهب الفقهية قد ظهرت، ولم تُدون الأحكام، فكان الأمر راجعًا إلى القضاة أنفسهم، وبما يصلون إليه مع استشارة الفقهاء والعلماء والمجتهدين فى كل مصر على حدة[5].

ثامنًا: اختصاص القضاة، وتخصيص القضاء:

كان لاتساع الدولة الإسلامية فى العهد الأموى، وكثرة الناس، وانشغال الخلفاء بالفتوحات، وإدارة الدولة، وإخماد الفتن الداخلية أن انصرفوا عن القضاء، وفوضوا جميع اختصاصاته إلى القضاة، وتنازلوا عن النظر فى الجنايات والحدود، وكلفوا القضاة النظر فيها، وكان معاوية بن أبى سفيان أول من تنازل عن النظر فى الجراح والقتل والقصاص إلى

---

(1)، (2) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ١٨٦ .
(3) المدخل الفقهى (١/ ١٥٠) .
(4) أعلام الموقعين(١/ ٦٣) .
(5) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ١٩٠ .

القضاة، فكتب إلى القاضي سُلَيم بن عِتر (قاضيه على مصر) يأمره بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، وكان سُليم أول قاض نظر في الجراح، وحكم بها، فكان الرجل إذا أصيب فجرح أتى إلى القاضي، وأحضر بينته على الذى جرحه، فيكتب القاضي بذلك الجُرح قضاءه على عاقلة الجارح ويرفعها إلى صاحب الديوان، فإذا حضر العطاء اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجّم (يقسّط) ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك[1]، وكان القاضي في العهد الأموى عام النظر في الحقوق والأموال، وأحكام الأسرة، والمواريث والقصاص والحدود، ويظهر ذلك جليًا في من سيرة القضاة وأقضيتهم التى ذكرها وكيع في كتابه (أخبار القضاة) والكندى في كتابه (الولاة والقضاة)[2]. وفي العهد الأموى ضُم إلى القاضي أعمال أخرى بعضها شبه قضائية، وبعضها إدارية، فمن أهم هذه الأعمال في ذلك العصر، النظر في أموال الأيتام، الإشراف على الأوقاف، الإفتاء[3].

تاسعًا: القضاة والأعمال المختلفة:

نظرًا لما يتمتع به القضاة من الثقة، وما يتصفون به من العدل والنزاهة، والورع والتقوى، فقد أسند لهم الخلفاء في العهد الأموى عدة أعمال هي:

١ـ **الشرطة:** تولى القضاة رئاسة الشرطة بالإضافة إلى أعمالهم القضائية، فجمعوا بين ولاية القضاء وولاية الشرطة، وذلك في عدة مدن إسلامية، فقد روى وكيع أن معاوية عزل سعيد بن العاص عن المدينة سنة ثلاث وخمسين، ويقال سنة أربع وخمسين في شهر ربيع، وأعاده مروان بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء وأخذ الناس بالشدة[4]، وقال الكندى عن مسلمة ابن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء، وكان شديدًا صلبًا في ولايته، ولما ولى الشُرَط أخذ الناس بالشدة[5]، قال الكندى عن مسلمة بن مخلَّد أنه: قدم مسلمة الفُسطاط، فعزل السائب بن هشام بن كنانة العامرى عن شُرَطه، وولّى عليها عابس بن سعيد، وعزل سُليمان بن عتر عن القضاء وجعله إلى عابس، فجمع له القضاء والشّرط، وهو أول من جمع له سنة

(١) نظام الحكم في الشريعة صـ٢٥٦، تاريخ القضاء في الإسلام صـ١٩٢ .
(٢) تاريخ القضاء في الإسلام صـ١٩٣ . (٣) المصدر نفسه صـ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥ .
(٤)، (٥) أخبار القضاة (١/١١٨) .

ستين[1]، ولما تولى مسلمة سنة ٦٢هـ، بعد أن مكث واليًا على مصر أكثر من ١٥ سنة وليها سعيد بن يزيد الأزدي في رمضان سنة ٦٢هـ، فأقر عابس بن سعيد على القضاء والشُرط جميعًا، ولما جاء عبد الرحمن بن عتبة بن جَحْدم الفهري أميرًا على مصر أقر عابسًا على الشُرط والقضاء، وذكر الكندى أن مسلمة بن مخلد والى مصر عين عابس بن سعيد على شُرطته، ثم جمع له الشُرط والقضاء[2]، وذلك في أول سنة إحدى وستين[3].

٢ ـ الإمارة: استعمل بعض القضاة ولاة في بعض الأحيان، كما كان الخليفة أحيانًا ينيب القاضى مكانه في الإمارة إذا خرج عن دمشق، وكان كثير من الولاة يستخلفون القاضى على إدارة الأمور، وتصريف شئون المصر أثناء غيابهم، أو خروجهم لمهمة، قال أبو زرعة: لما خرج معاوية إلى صفين استخلف القاضى فضالة بن عُبيد على دمشق[4].

عاشراً : أسماء القضاة في عهد معاوية :

١ ـ أشهر قضاة دمشق:

أ ـ فضالة بن عُبيد: الذى ولاه معاوية القضاء في الشام بترشيح أبى الدرداء رضى الله عنه، وبقى فضالة على القضاء حتى مات في خلافة معاوية سنة ٥٣هـ، وحضر معاوية جنازته وحمل بجانب السرير، وكان معاوية يستخلفه على دمشق عندما يخرج منها[5]، وقضى فضالة بدرء الحد عندما أتاه رجل بسارق يحمل سرقته، فقال له فضالة: لعلك وجدتها، لعلك التقطتها، فقال له الرجل: إنّا لله وإنا إليه راجعون، إنه ليلقنه، قال: إى والله، أصلحك الله، وجدتها، فخلا سبيله، وأجاز الفقهاء تلقين المتهم في الحدود، كما فعل رسول الله ﷺ مع ماعز[6].

ب ـ النعمان بن بشير بن سعد، أبو إدريس الأنصارى الخزرجي: الصحابى الذى ولى القضاء بالشام بعد فضالة، وتوفى سنة ٦٤هـ قتلاً بقرب حمص[7].

٢ ـ قضاة المدينة :

أ ـ أبو هريرة الصحابى المشهور رضى الله عنه: قضى بالمدينة، لما رواه وكيع عن نعيم قال: شهدت أبا هريرة يقضى، وأمر بالتسوية بين الخصوم، ورفض حبس مدين معسر، وحكم

(١) تاريخ القضاء عرنوس صـ٢٦، الولاء والقضاء صـ٣١١ـ ٣١٣ .

(٢)، (٣) تاريخ القضاء في الإسلام صـ١٩٦ .

(٤) قضاة دمشق لابن طولون صـ٤١٣ .

(٥) أخبار القضاة (٣/ ١٩٩ـ ٢٠١)، تاريخ القضاء في الإسلام صـ١٩٨ .

(٦) تاريخ القضاء في الإسلام صـ١٩٩ .

(٧) المصدر نفسه صـ ١٩٩ .

على قاذف بثمانين جلدة، وكان أبو هريرة يسكن المدينة حتى توفى فيها سنة ٥٩هـ[١]، ولعله استقضى قبل عبد الله بن الحارث.

ب ـ **عبد الله بن الحارث بن نوفل** ، أبو عبد الله بن نوفل بن الحارث وهو أول قاض فى المدينة لواليها مروان بن الحكم فى خلافة معاوية، وكان أول ما قضى حقًا على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان بن الحكم خيرًا، وكان يقضى باليمين مع الشاهد، وتوفى سنة ٨٤هـ، وكان من صلحاء المسلمين وفقهائهم[٢].

جـ ـ **أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٩٤هـ)**: وهو من كبار التابعين، وكان يزعم عن نفسه أنه أفقه الناس، واستعمله سعيد بن العاص والى معاوية على قضاء المدينة، وكان يستحلف صاحب الحق مع الشاهد الواحد[٣].

د ـ **مصعب بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٦٤)**: استقضاه مروان بن الحكم سنة ٥٣هـ أو ٥٤هـ وضمَّ إليه الشُرط مع القضاء، وكان شديدًا صلبًا فى ولايته، ولما ولى الشُرط أخذ الناس بالشدة فى جرائم القتل التى انتشرت فى المدينة[٤]، ولما مات معاوية واستخلف يزيد استعمل على المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان، فاستقضى طلحة بن عبد الله ابن عوف، وهو أحد الأجواد، ويقال له طلحة الجواد[٥].

٣ ـ **قضاة البصرة**: تولى القضاة فى البصرة كثيرون، نذكر منهم: عُميرة بن يثربى الضَّبى الذى استقضاه عبد الله بن عامر بن كُريز عامل معاوية على البصرة، وكان عميرة يحكم بضمان العارية، وبقى فى القضاء حتى سنة ٤٥هـ، فعزله زياد الذى ولى إمارة البصرة، وولى القضاء عمران بن حصين فاستعفاه بطلبه، وولى عبد الله بن فضالة ثم أخاه عاصم ابن فضالة، ثم زرارة بن أوفى[٦].

٤ ـ **قضاة الكوفة**: كانت الكوفة من أنشط المدن العلمية وكانت مركز النشاط والحركة والعلم منذ أسست فى عهد عمر رضى الله عنه واتخذها على رضى الله عنه عاصمة، وكان من أشهر قضاة الكوفة شريح القاضى، فقد كان من عهد عمر واستمر فى القضاء

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢٠٠، أخبار القضاة (١/ ١١٠، ١١٤) .
(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢٠١ .
(٣) أخبار القضاء (١/ ١١٦)، تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢٠١ .
(٤) أخبار القضاء (١/ ١١٨)، تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢٠١ .
(٥) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢٠١ .
(٦) أخبار القضاة (٢/ ٣)، تاريخ القضاء فى الإسلام ص٢٠٤.

طوال العهد الراشدى، ومدة طويلة فى العهد الأموى تزيد على خمس وثلاثين سنة، وتوقف (فى عهد بن الزبير) ثم عاد إلى القضاء حتى استعفى من الحجاج فأعفاه سنة ٧٨هـ[١]. ومن قضاة الكوفة فى عهد معاوية رضى الله عنه، مسروق بن الأجدع الهمدانى، ولى لمعاوية فى إمرة زياد القضاء، وكان من الفضلاء[٢].

٥ - **قضاة مصر:** ومن أشهر قضاة مصر فى عهد معاوية سُلَيْم بن عتر التجيبى وهو أول من ولى القضاء بمصر فى أيام معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سنة أربعين هجرية[٣]، وعابس بن سعيد المرادى الذى عينه مسلمة بن مخلد على الشرطة، ثم عزل سُليم بن عتر عن القضاء، وجعله إلى عابس فجمع له القضاء والشُّرط[٤]. هؤلاء هم أشهر القضاة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

الحادي عشر : ميزات القضاء في عهد معاوية والأموى عمومًا :

من أهم ميزات وخصائص القضاء فى العهد الأموى الآتى:

١ - بقى القضاء فى العهد الأموى، كما كان فى العهد النبوى والعهد الراشدى، فى معالمه الأساسية، وتنظيمه الجوهرى، ووسائله وأهدافه، وكان استمرارًا لما سبق فى إقامة الحق والعدل، والنزاهة والموضوعية، مع مراعاة التطور والتوسع فى الخلافة الأموية.

٢ - استعمل القضاة فى العهد الأموى وسائل الإثبات الشرعية نفسها المعمول بها فى العهد الراشدى، مع التوسع فى الفراسة، واستعمال الحيل على المتهم، لكشف الحق، والوصول إلى الصواب والعدل[٥].

٣ - ظهرت فى العهد الأموى مصادر جديدة للأحكام القضائية وهى العرف، وقول الصحابى، وإجماع أهل المدينة إحيانًا، بالإضافة إلى المصادر الأصلية فى العهد النبوى وهى القرآن الكريم والسنة الشريفة، والمصادر الاجتهادية فى العهد الراشدى وهى: الإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأى[٦].

٤ - كان الخلفاء يعينون القضاة فى الشام، وقد يرشحون بعض القضاة للأقاليم، وكان الولاة فى الأمصار يعينون القضاة، ويعزلونهم.

(١) أخبار القضاة (٢/ ١٨٤)، تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢٠٧ .
(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢٠٧ . (٣) ، (٤) المصدر نفسه صـ٢٠٩ .
(٥) المصدر نفسه صـ٢١٣ (٦) المصدر نفسه صـ٢١٤ .

٥ ـ حرص الخلفاء والولاة على اختيار أحسن الناس لولاية القضاء، من العلماء والفقهاء والشرفاء وخيرة القوم، الذين تتوافر فيهم صفات القاضى الشرعية ، ويخشون الله تعالى، ويلتزمون بالحق والشرع، ويقيمون العدل بين الناس.

٦ ـ طرأت تغييرات بارزة على القضاء فى العهد الأموى، وأضيفت لأول مرة، وهى:

أ ـ تسجيل الأحكام خوفًا من النسيان، ومنعًا للتجاحد،ووضعها فى ديوان خاص.

ب ـ الإشراف على الأوقاف من أجل حسن تطبيقها .

جـ ـ النظر فى أموال اليتامى ومراقبة الأوصياء .

د ـ ترتيب الدعاوى، واستعمال الرقعة لإدخال الخصوم والمناداة على الناس بالترتيب.

هـ ـ وجود المساعدين للقضاة، وهم الأعوان، والحاجب والشرطى فى مجلس القضاة .

و ـ الاستعانة بالشرطة لتنفيذ الأحكام القضائية، وإجراءات الخصومة.

٧ ـ كان القضاة مجتهدين فى إصدار الأحكام القضائية، ولهم الحرية المطلقة فى استنباط الأحكام من القرآن والسنة ومقاصد الشريعة، وبقية المصادر، ولم يتقيدوا برأى الخلفاء، ولم يلتزموا بمذهب فقهى، ولكن هذا لم يمنعهم من مشاورة العلماء والفقهاء، ومشاركتهم فى المجالس القضائية(١) .

٨ ـ لم يتأثر القضاة بسياسة الحكام والخلفاء، وكان القضاة مستقلين فى عملهم، ولم تؤثر عليهم الميول السياسية، والحركات الثورية، والخلافات الفكرية، والفتن الداخلية(٢) .
هذا هى أهم ميزات القضاء فى العهد الأموى.

الثانى عشر : خطاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية فى القضاء:

كتب عمر إلى معاوية رضى الله عنهما: أما بعد، فإننى كتبت فى القضاء كتابًا لم آلك ونفسى فيه خيرًا، . . ثم إن عمر قال:

١ ـ الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك، إذا تقدم إليك الخصمان، فعليك بالبينة العادلة، واليمين القاطعة فهو الطريق للقاضى الذى لا يعلم

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام صـ٢١٣ إلى ٢١٥ .
(٢) المصدر نفسه صـ٢١٥ .

الغيب. فمن تمسك به سلم له دينه، ونال أفضل الحظ والثواب فى الآخرة(١). فمعنى اليمين القاطعة: القاطعة للخصومة والمنازعة(٢).

٢ - وأدنِ الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه(٣)، ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوى، وإنما أراد الأمر بالمساواة، لأن القوى يدنو بنفسه لقوته، والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوى يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك. فعلى القاضى أن يدنى الضعيف ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه، وينبسط لسانه، فيتكلم بحجته(٤).

٣ - وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، فربما ضيع حقه من لم يرفع به رأسه(٥). قيل: هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام فى مجلس القضاء، فإن الغريب قلبه مع أهله، فينبغى للقاضى أن يقدمه فى سماع الخصومة، ليرجع إلى أهله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهد الغرباء. وقيل مراده: إن الغريب منكسر القلب، فإذا لم يخصه القاضى بالتعاهد عجز عن إظهار حجته، فيترك حقه، ويرجع إلى أهله، والقاضى هو السبب، لتضييع حقه، حين لم يرفع به رأسه.

٤ - وعليك بالصلح بين الناس، ما لم يستبن لك فصل القضاء(٦). وفيه دليل أن القاضى مندوب إليه أن يدعو الخصم إلى الصلح، خصوصًا فى موضع اشتباه الأمر(٧).

****

(١) المبسوط للسرخسى (١٦/ ٦٦)، تهذيب ابن عساكر (٦/ ٣٠٦).
(٢) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/ ٤٦٥).
(٣) المبسوط للسرخسى (١٦/ ٦٦).
(٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/ ٤٦٥).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٤٦٥).
(٦)، (٧) المصدر نفسه (٢/ ٤٦٥).

المبحث السابع

الشرطة في عهد معاوية

شهد عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه تطورًا كبيرًا فى نظام الشرطة من جهة نموها وترسخها كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة، وبصورة لم تُعرف من قبل، لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسئولة مسئولية كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام فى جميع الأمصار الإسلامية، لقد أصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصى من جهة، وحفظ الأمن والنظام فى الداخل من جهة أخرى، يضاف إلى هذا كله، أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموى وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له كالخوارج والشيعة وغيرهما التى كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل، وقد استعمل معاوية رضى الله عنه الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصيًا، ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التى قام بها الخوارج لاغتيال معاوية كان لها دور كبير فى دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة، وخصوصًا أن عليًا وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها، قُتل على أثرها أمير المؤمنين علىّ، وكان ذلك عام ٤٠هـ، ومنذ ذلك ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة، وحتى أوقات الصلوات، كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من مناوئيه[(١)].

أولاً: الشرطة فى العراق:

يعتبر المغيرة أول والٍ يعينه معاوية فى الكوفة، وقد استعان برجال الشرطة لغرض بسط الأمن، وعين صاحب شرطة عُرِف بشراسته وقسوته وكان يُدعى قبيصة بن دمّون[(٢)]، ومن الحوادث التى تبين مدى فعالية الشرطة فى حفظ الأمن والنظام ما أورده الطبرى حول صراع المغيرة مع الخوارج، وذلك حين أخبره صاحب الشرطة باجتماعهم فى الكوفة لإثارة القلاقل والاضطرابات، فأصدر المغيرة أوامره إلى صاحب الشرطة بمحاصرة مكان الاجتماع، وبعد أن ألقى القبض عليهم أودعهم السجن. وفى البصرة، عين معاوية عبد الله بن عامر واليًا عليها ثم عزله فى عام ٤٥هـ، وعين زياد بن أبيه واليًا على البصرة. وقد

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٦٥)، الشرطة فى العصر الأموى صـ٣٦ .

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى صـ٣٧ .

تبين لزياد عند وصوله البصرة مدى التدهور الحاصل في الأمن، فذكره وشدّد عليه فى خطبه التى افتتح بها ولايته، جريًا على العادة فى ذلك الوقت فألقى خطبة طويلة سيأتى الحديث عنها بإذن الله، بيَّن فيها أسلوبه الذى سوف يتبعه فى معالجة التدهور الأمنى.

ومن قراءة تلك الخطبة تبين أن زياد كان مصممًا على إقامة الأمن والنظام بغض النظر عن الوسيلة التى تحقق ذلك الهدف[1]، ولو كانت بالعسف وخصوصًا حين يقول: وإنى أقسم بالله لآخذنّ الولى بالولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لى قناتكم[2]، ويروى البلاذرى كيف استتب الأمن فى البصرة فى عهد زياد، وذلك فى حادثة مفادها أن زيادًا سمع جلبّة وأصواتًا بين العامة، فسأل عن السبب فقيل له إنه قد استأجر من يحمى له بيته، وذلك نظرًا لعدم وجود الشرطة، وانتشار السُّراق[3]، وفى اليوم التالى أمر زياد صاحب الشرطة بأن يقوم الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء[4]، ويضيف البلاذرى أنّ الشرطة قد قتلت ما يقارب الخمسمائة نفر من لص ومنتهب للبيوت[5].

ويعتبر زياد أول من منع التجول وذلك بمنع العامة من الخروج من منزلهم ليلاً[6]، وكان يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ولا يرى إنسانًا إلا قتله. فأخذ ليلة أعرابيًا، فأتى به زيادًا فقال: هل سمعت النداء؟ - يقصد نداء منع التجول ليلاً - قال: لا والله، قدمت بحلوبة[7] لى وغشينى الليل فاضطررتها إلى موضع، فأقمت لأصبح، ولا علم لى بما كان من الأمير، قال: أظنك والله صادقًا، ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه[8]. ومثل هذا الفعل الظالم لا تقرّه الشريعة مهما كانت التبريرات[9]. وعلى ما يبدو أن قتل البدو لم يكن لمجرد الرغبة فى القتل ذاته، بل تمّ لإقناع أهل البصرة بجدية الوالى فى تنفيذ أوامره، وأن لا لأحد منجى من العقوبة إذا خرق القانون، حتى لو كان بريئًا لا ذنب له، كما سبق وهدّد فى خطبته البتراء، لقد كان الهدف النهائى عند زياد إقرار هيبة الدولة والحصول على طاعة العامة، ولو عن طريق الإرهاب، وبذلك تستقيم الأمور فى البصرة حيث ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان فى تطبيق العقاب[10]، ولم

(1) الشرطة فى العصر الأموى صـ38.
(2) تاريخ الطبرى (6/ 135).
(3) أنساب الأشراف (4/ 171).
(4) المصدر نفسه (4/ 171).
(5) المصدر نفسه (4/ 171).
(6) الشرطة فى العصر الأموى صـ39.
(7) الحلوب: ذات الحليب.
(8) تاريخ الطبرى (6/ 138).
(9) ولاية الشرطة فى الإسلام صـ123 نمر بن محمد الحميدانى.
(10) الشرطة فى العصر الأموى صـ40.

يكن خافيًا على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية، لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التى تسمح له بفرض هيمنته، منها زيادة عدد الأفراد العاملين فى الشرطة فصعّد عددهم(١) حتى وصل أربعة آلاف فرد، وعين اثنين فى منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد(٢).

إن ارتفاع عدد رجال الشرطة إلى أربعة آلاف يدل على أمرين: أولهما: شدة الاضطراب الداخلى. الثانى: أن الشرطة كانت ترفد الجيش فى كثير من الأحيان(٣). وبلغ من دقته فى عهده أنه قال: لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه(٤)، وترتب على ذلك ما قاله الطبرى: وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم فى العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظِّنَّة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفًا شديدًا، حتى أمن الناس بعضهم بعضًا، حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدًا قبله، وأدرّ العطاء، وبنى مدينة الرزق(٥)، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد، استطاع أن يفرض النظام الأمنى حيث حقق للأمويين رغبتهم فى استقرار النظام والأمن فى كل من البصرة والكوفة، وحيث أصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية(٦).

ثانيًا: الشرطة فى الأقاليم الأخرى:

عند مقارنة مصر مثلاً بغيرها من الأمصار الإسلامية كالبصرة مثلاً، نجد أن الشرطة لم تلعب الدور نفسه وذلك لبعد مصر عن الاضطرابات التى كان يحدثها عادة الخوارج وكذلك تذكر المصادر فى العادة حرص الولاة عند اختيار صاحب الشرطة، وقد عين مروان بن الحكم والى المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف فى منصبى صاحب الشرطة والقضاء فى آن واحد -كما مرّ معنا- وكان ذلك فى عهد معاوية(٧). ويروى ابن سعد أن مصعبًا كان شديدًا على المذنبين والخارجين على القانون(٨)، وقد طلب مصعب من الوالى مروان بن الحكم أن يزوده بعدد كبير من أفراد الشرطة، إذا كان يريد الحفاظ على الأمن فى

(١) الشرطة فى العصر الأموى صـ٤٠ .
(٢) تاريخ الطبرى (٦/١٣٨) .
(٣) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/٦٣٦) .
(٤) المصدر نفسه (٦/١٣٩) .
(٥) المصدر نفسه (٦/١٣٨) .
(٦) الشرطة فى العصر الأموى صـ٤١ .
(٧) المصدر نفسه صـ٤٣، الطبقات (٥/١٥٨) .
(٨) الطبقات لابن سعد (٥/١٥٨) .

المدينة، حيث لم يكن عدد الشـرطة المتوافر كافيًا لهـذه المهمة[1]، وأجابه مروان إلى طلبه وأرسل إليه مائتى شرطى، وظل مصعب فى منصب صاحب الشرطة حتى وفاة معاوية[2].

ثالثًا: واجبات الشرطة:

كان للشرطة فى الدولة الأمـوية مكانة مميزة بسبب الواجبات المهمة الـتى كانت تقوم بها هذه المؤسسة تجاه السلطة والمجتمع، ومن هذه الواجبات:

١ ـ حـماية الخليـفة وولاة الأمـصار ضد مناوئيـهم فى الداخل: أول من استخـدم الشرطة لحمايته الشخصية من الاغتيال، الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية، الذى خاض صراعًا سياسيًا ـ عسكريًا عنيفًا مع معارضيـه من الخوارج وغيرهم، وكان الشرطة يحرسون معاوية بشكل دائم فى حله وترحاله، بل حتى وقت الصلاة كان هناك حارس يقف عند رأسه وهو يصلى فى المحراب، وعلى مـا يبدو أن الخليفة كان يـسير بين يديه صاحب الشـرطة متقلدًا كامل سلاحه، وكذلك تقـوم الشرطة بتوفير الحماية للولاة فى الأمصـار المختلفة، بالطريقة السابقة نفـسها، وكمـا ذُكر سابقًا أن زياد بن أبيه كـان يستخدم الشرطـة لأمنه الشخصى، وكان صاحب الشرطة هو المسـئول الأول عن سلامة الوالى[3]. إن ظهور صاحب الشرطة فى مقدمـة موكب الخليفة أو الوالى فى الأمـاكن العامة ليس دليلاً فقـط على الحماية، بل لإشعـار العامة أيضًـا بالهيمـنة والسلطة، إلى جانب ذلك كانت الـشرطة أداة بيد الخليـفة والولاة لفرض سلطة الدولة على الذين يـحاولون التمرد عليـها أو معارضـتها[4]، وكانت تعين الخليفة على جمع المعلومات، فقد كـان معاوية رضى الله عنه قد بلغ من أهتمامه فى الحصـول على أخبار عمـاله ورعيتـه أن بثَّ عيونه فى كل قطر وكل ناحـية، فكانت تصله الأخبـار أولاً بأول فانتظم له أمره، وطـالت فى الملك مدته[5]، وحذا زياد بن أبيـه حذو معاوية، ومما يحكى عنه: أن رجـلاً كلمه فى حاجة له فتعرف عليـه وهو يظنّ أنه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير أنا فلان بن فلان. فـتبسم زياد وقال: أتتعرّف إلىّ وأنا أعرف منك بنفسك، والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البُرد[6] الذى عليك وهو لفلان.. فبُهت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه[7].

(١) الشرطة فى العصر الأموى صـ٤٣، الأغانى (٥/ ٧٤). (٢) المصدر نفسه صـ٤٣.
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٨)، الدولة الأموية فى العصر الأموى صـ٧٩.
(٤) الشرطة فى العصر الأموى صـ٧٩. (٥) المحاسن والمساوىء صـ١٤٣ ـ ١٤٤ للبيهقى.
(٦) البرد: كساء مخطط يلتحف به. (٧) المحاسن والمساوىء صـ١٤٤.

٢ ـ **معاقبة المذنبين والخارجين عن القانون:** الشرطة بحكم كونها القوة الرئيسية المسئولة عن حفظ الأمن، والنظام داخل المدن، إضافة إلى واجبها فرض القانون، ولكن الأحوال الاجتماعية فى المدن الكبرى كانت تدفع الشرطة إلى اتخاذ إجراءات مشددة تجاه العامة، وقد بين زياد بن أبيه فى خطبته البتراء خطورة التجاوزات التى حدثت من الناس فقال: . . . من بُيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، . . . وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قومًا، غرقناه، ومن حرّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًا نقبت عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفنته فيه حيًا[١] . . . من هذه الخطبة يتبين مدى التدهور الحاصل فى البصرة، من خلال طبيعة الجرائم التى كان يرتكبها بعض المنحرفين من أهلها قبل قدوم زياد، وحين انتهى من خطبته أمر صاحب الشرطة بحراسة الطرقات وقتل كل من يوجد خارج منزله ليلاً[٢]، ويروى البلاذرى أن زيادًا لم يتردد فى تنفيذ ما توعّد به[٣] حرفيًا.

٣ ـ **تنفيذ العقوبات الشرعية:** من الواجبات التى كانت الشرطة تقوم بها، تنفيذ الحدود الشرعية، التى يأمر بها القضاة، ضد كل من يظهر منه فساد فى المجتمع الإسلامى، والحدود الشرعية -كما هو معروف- مذكورة فى القرآن الكريم، والسنة النبوية بينت ذلك. وكان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم لديهم غيرة وحرص على أوامر الدين وتنفيذها، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك أنّ عبدًا سرق وديًا[٤] فوجدوه، فاستعدى على العبد مروان ابن الحكم[٥]، فسجن مروان العبد، وأراد قطع يده، فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج رضى الله عنه، فسأله عن ذلك، فأخبره أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«لا قطع فى ثمر ولا كثر»**[٦]، فقال الرجل: فإنّ مروان بن الحكم أخذ غلامًا لى وهو يريد قطع يده، وأنا أحبّ أن تمشى معى إليه فتخبره بالذى سمعت من رسول الله ﷺ، فمشى معه رافع إلى مروان بن الحكم، فقال: أخذت غلامًا لهذا، فقال: نعم، فقال: ماأنت صانع به؟ قال: أردت قطع يده، فقال له رافع: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا قطع فى ثمر ولا كثر»**، فأمر مروان

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٦) .

(٢) الشرطة فى العصر الأموى صـ٨٣، أنساب الأشراف (٤/ ١٧٢) .

(٣) الشرطة فى العصر الأموى صـ٨٣.

(٤) الودى: الواحدة وديّة، وهى صغار النخل، الفائق فى غريب الحديث (٤/ ٥١) .

(٥) ولاية الشرطة فى الإسلام صـ١٢٠ .

(٦) الكثر: بفتح الكاف والمثلثة هو جمّار النخل أى وعاء الطلع.

بالعبد فأُرسل، ويستفاد من هذه اللمحة كذلك احترام الولاة والعمال للصحابة الكرام، وعدم التعرّض لتصرّفاتهم ما دامت منبثقة من الحرص على تنفيذ أمر الله ورسوله حتى وإن كانت داخلة ضمن مهام الوالى[(١)]، ومن مظاهر الغيرة على أوامر الدين وتغليب أمر الله على ما سواه، امتناع والى شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما من هدم دور بنى هاشم، ومن كان فى حيّزهم، ودور بنى أسد بن العزّى، والشدّة عليهم، وذلك لموالاتهم الحسين بن على وابن الزبير، وامتناعهم عن بيعة يزيد، إذ قال مصعب لأمير المدينة عمرو بن سعيد[(٢)]: أيها الأمير إنّه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل، فقال له الأمير: انتفخ سحرك يا ابن أم حريث، إلىّ سيفنا، فرمى إليه بالسيف وخرج عنه[(٣)]. وهذا الفعل يدل على قوة إيمان مصعب، وأنّه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق[(٤)]، ومن واجبات الشرطة، مساعدة الجيش ضد أعداء الدولة[(٥)]، وتنفيذ أحكام الإعدام، والتعذيب للمناوئين السياسيين وكل ما يتصل بالسجناء عند صاحب السجن[(٦)]، وإن كانت الواجبات الأخيرة تتضح ملامحها فى عهد الخلفاء الذين بعد معاوية أكثر.

رابعًا: قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة :

تعتبر الشرطة العمود الفقرى للجهاز الأمنى فى الدولة الأموية، وكانت المهمة الرئيسية لهم حفظ الأمن الداخلى بالدرجة الأولى، ومع ذلك عرف العصر الأموى مؤسسات أخرى لعبت دورًا مشابهًا ومكملاً للشرطة وهذه المؤسسات هى:

١ ـ الحرس: استخدمت كلمة حرس فى بدايات العصر الأموى لوصف كل من يقوم بمهمة الحراسة بغض النظر عن المكان أو الشخص الذى يحرسه، وفى العصر الأموى كان الحرس يمثلون تلك الفئة التى تقوم بمهمة حماية الخلفاء والولاة، وعلى ما يظهر أن معاوية كان أول خلفاء بنى أمية يتخذ الحرس لحمايته الشخصية من احتمال الاعتداء عليه من قبل الخوارج وغيرهم، وفى خلافة معاوية استخدم الولاة الحرس، كقوة أمنية داخلية إلى جانب الشرطة، وقد استخدم زياد بن أبيه، خمسمائة رجل فى قوات الحرس الخاصة به، وعين عليهم رجلاً من بنى سعد أطلق عليه صاحب الحرس[(٧)]، ومنذ ذلك الحين وخلفاء بنى أمية

(١) ولاية الشرطة فى الإسلام صـ١٢١.
(٢)، (٣) نسب قريش صـ٢٦٨، ولاية الشرطة فى الإسلام صـ١٢٢ .
(٤) الشرطة فى العصر الأموى صـ١٢٢ .　　(٥) المصدر نفسه صـ٩٧ .
(٦) المصدر نفسه صـ٩٧ إلى ١٠٩ .
(٧) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى صـ١٢٨ .

يعينون من يثقون به[١]، وخلاصة القول: أن مفـهوم الشرطة يتسع إلى الدرجة التى يضم فيها نشاط الحرس تحت سلطتـه، فى حين أن الحرس لا يدخلون ضمن الشرطة[٢]، ويورد الجـاحظ شطر بيت من الشعـر: كـأنه شرطى بات فى حـرس، للدلالة على التـفرقـة بين المؤسستين[٣].

٢ ـ الحرس من غير العرب: عـرف العرب، قـبل قيـام الدولة الأموية، بعض الألفـاظ الأجنبـية التى تطلق على الحـرس الذين كـانوا يحرسـون بيت المال فى البصـرة[٤]. وهذه الألفاظ هى الأساورة والسيابجة والزطّ، ويشرح البلاذرى هذه الألفاظ فيقول: إنّ الأساورة من الفرس، أما السيابجـة والزطّ فينحدرون على ما يظهر من الهند[٥]، ويتضح من تاريخ الخلافة الأموية أن الولاة كـانوا يستخدمونهم لضرب الثورات التى تقـوم بها المعارضة، بين حين وآخر، وكـان يُطلق على هذه العناصر لفظ البخارية تبعًـا لرواية البلاذرى، أيضًا، أن والى خراسان عبيد الله بن زياد، أسر فى إحدى المعارك عددًا كبيرًا من أهل بخارى وجعل من البصرة مسـتقرًا لهم، وأجرى لهم من الأعطيات مـا كان يدفعه نفسه للقبـائل العربية، وذلك حين أصبح واليًا على العراق[٦]، وقد استخدم عبـيد الله هذه القوة الجديدة لمساندة قوة الشرطة للقضاء على ثورة الخوارج فى العراق[٧]، وأما ابن سعد فيذكر أن البخارية قد استـعملوا أول الأمـر كقوة أمنيـة، على يد والد عبـيد الله حـين كان واليًا عـلى العراق، ويضيف ابن سعـد أن زيادًا استخدم البخـارية لمساعدة الشرطة فى محـاولتهم للقبض على حجر بن عدى[٨] رضى الله عنه. ويشيد البلاذرى بمهـارة البخارية فى الرمى بالقوس[٩]، ويظهر من مراجعة المصادر التـاريخية أن استعمال هذه الفرقة كقـوة بشرية لم يكن مقتصرًا على الولاة، بل وجد أنهم كانوا يقومـون بخدمة الأشراف، ففى مدينة البصـرة مثلاً، كان أبناء عـبد الله بن عـامر والى العراق فى الـسابق، يستـخدمـون البخـارية كحـرس خاص لحمايتهم الشخصية[١٠].

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى صـ١٢٨ . (٢) المصدر نفسه صـ١٣٠ .

(٣) الحيوان (٣/ ١٥٨)، الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣ . (٤) الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣٠ .

(٥)، (٦) المصدر نفسه صـ١٣٠ .

(٧) طبقات ابن سعد (٦/ ٢١٩)، الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣١ .

(٨) طبقات ابن سعد نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣١ .

(٩) الأنساب البلاذرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣١ .

(١٠) المصدر نفسه صـ١٣١ .

٣ ـ **العرفاء**: ونظرًا لما يتمتع به العرفاء من مكانة لدى الولاة فإن بعضهم يستطيع من الأمور ما لا يقدر عليه غيره، نظرًا لكون العريف مسئولاً عن مراقبة العامة وتبليغ السلطات عن الحركات المشبوهة أو عن الأفراد الذين يُشك فى ولائهم للسلطة . ولذلك لم يكن لهذا المنصب شعبية، إلاّ أن ذلك لم يمنع كبار القوم من توليه، إذ يورد ابن سعد فى طبقاته أسماء كثيرة تولت مهام هذا المنصب(١).

٤ ـ **صاحب الاستخراج أو العذاب** : شهد العهد الأموى قيام جهة خاصة مهمتها استخراج الأموال من الذين يختلسونها بحكم مناصبهم الرسمية، وكان يطلق على الشخص المكلف بمهمة تعذيب المختلسين لكى يقروا بمكان وجودها، لقب «صاحب الاستخراج». ويروى ابن قتيبة أن هذه المهنة ظهرت فى عهد زياد بن أبيه، الذى كان دائم التحذير لمن يعينهم لمساعدته فى الإدارة، وكان لا يتردد فى إعفائهم من مناصبهم إذا ظهرت منهم خيانة، ويكون العزل بعد إيقاع العقوبة بهم(٢)، ويورد كثير من المؤرخين حوادث تتصل بالولاة الذين استخدموا صاحب الاستخراج لاسترداد الأموال المختلسة من المختلسين، أو ممن ظهرت عليهم إمارات الخيانة أو ما شابه ذلك من أمور. من ذلك أن والى العراق عبيد الله بن زياد عزل من مساعديه رجلاً يدعى عبد الرحمن واستخلص منه مائتى ألف درهم(٣)، كما استخلص مبلغ مائة ألف درهم اختلسها أحد العاملين فى إدارته(٤).

٥ ـ **جهاز الحسبة**: والمقصود هنا بالحسبة: المعنى الضيق، أى عملية الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها، وقد كان من مهام المحتسب فى الدولة الأموية جباية ضرائب المبيعات وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة(٥)، إضافة إلى مسئوليات السوق والتى من أبرزها(٦):

أ- التأكد من دقة الأوزان، والمكاييل، والمقاييس المستعملة فى عمليات السوق، منعًا لحدوث غبن فى التعامل.

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣٣ .

(٢) عيون الأخبار (١/٥٥)، الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣٤ .

(٣) الشرطة فى العصر الأموى صـ١٣٤ . (٤) المصدر نفسه صـ١٣٤ نقلاً عن الأنساب للبلاذرى .

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٢٣ . (٦) الإدارة فى العصر الأموى صـ٢٢٣ .

ب- التفقد المفاجئ لعيار الحبات، والمثاقيل لضمان عدم الإخلال بها.

جـ- منع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية .

د- منع حالات الاحتكـار إن وجدت، وإجبار المحتكر على بيع مـا احتكره. ووفق هذا المفهوم نجد أن الحياة الاقتصادية فـي بداية الدولة الأموية كانت بسيطة، وعليه فقد سار ولاة الأقاليم على نهج الخلافة الراشدة، فكان الولاة ـ كل فى إقليمـه ـ يباشر الحسبة بنفسه[1]. لكن هذا لم يمنع من ظهور وظيفة العامل على السوق فى مدينة البصرة فى عهد ولاية زياد ابن أبيه (٤٥ ـ ٥٣هـ)[2]. ويمكن القول ـ من خلال التتبع ـ بأن نظام الحسبة كان موجودًا منذ بداية العصـر الأموى، وإن لم يكن يحمل لفظ الحـسبة، إنما دور المحـتسب فى تنظيم السـوق كان متـواجدًا طوال العـصر الأمـوى، وقد نما النـظام وتطور بما يوافق تطور قطاع التجارة، والأسواق، فـيلاحظ أنه فى بداية الأمر كان الوالى يتولى بنفسه أعمـال الحسبة ثم تطور الأمر لأن يكون هناك شـخص معين وظيـفته الإشراف على السـوق، ثم تطور الأمر ليكون لهذا المعين أعوان يعينونه فى عمله[3].

٦- نظام المراقبة: ظهر هذا النظام فى دمشق فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما، فى عدة صور:

أ- إلزام بعض مناوئيه السياسيين بأداء الصلاة فى الجـماعة فى مساجد معينة[4]. ويشبه هذا الإجراء مـا هو معمول به فى بعض الدول المعـاصرة من إلزام المشبـوهين بالتردد على مراكز الشرطة فى أوقات محددة[5].

ب ـ إسكان بعض مناوئيه فى مساكن خاصة أعدّهـا لهم فى دمشق وغيرها لتسهل عليه مراقبتهم.

جـ ـ إحكام المراقبة الشخصية على الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام[6].

٧ ـ مؤسسة الدرك: والدرك فى الاصطلاح: مؤسسة تضم قـوى الدولة العاملة فى سبيل الأمن خارج حدود المدن الـكبيرة[7]، وفى الطبرى نص يفيـد اهتمام زياد عام ٤٥هـ، أى أيام معاوية بالسُّبُلُ ـ أى الطرق ـ جـاء فيه: قيل لزياد: إن السبل مخوفـة. فقال: لا أعانى

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٢٣ .
(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ٢٢٤.
(٤) ولاية الشرطة فى الإسلام صـ١٢٥ .
(٥)، (٦) المصدر نفسه صـ١٢٥ .
(٧) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/٦٤٣) .

شيئًا سوى المصـر، حتى أغلب على المصر وأصلحه، فإن غلبنى المصر، فغـيره أشد غلبة، فلما ضبط المصر تكفل ما سوى ذلك، فأحكمه[1]. وكان يقول: لو ضاع حبل بينى وبين خـراسان علمت من أخـذه[2]. وهذا لا يكون إلا إذا كـان رجـاله مـتمـكنين من الطرق والسبل[3]. وقد طرح زياد نظرية أمنية مفادها التمكن أولاً من داخل الأمصار، ثم التوسع لما حولها من طرق وسبل.

هذه بعض الملامح والمعالم الكبيرة عن نظام الشرطة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

****

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٩)

(٣) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ (٢/ ٦٤٤).

المبحث الثامن

الولاة والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه

حاول معاوية رضى الله عنه طيلة فترة خلافته أن يجعل أسلوب حكمه فى وضع بين المركزية واللامركزية. فقد اتخذ من دمشق عاصمة للدولة، وغدت المركز الرئيسى الذى تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة، أما ترتيب أمور الولايات داخليًا فقد تركه معاوية رضى الله عنه للولاة ليقوموا به كل حسب خبرته وجدارته على أن يكونوا جميعًا مسئولين أمام معاوية رضى الله عنه مسئولية مباشرة، ومحاسبين على كل عمل يقومون به، ولعل من ضمن الأسباب التى حدت بمعاوية لأن يتخذ من دمشق عاصمة للدولة الأموية هو معرفته الجيدة بأهل الشام وثقته التامة فيهم وفى ولائهم له، فقد أمضى معاوية رضى الله عنه هناك قرابة عشرين عامًا أميرًا على بلاد الشام، كان خلالها يتمتع خلالها بشعبية كبيرة بينهم، ولعلّ معاوية رضى الله عنه كان يشعر أن استمرار دولة الأمويين يعتمد فى درجة كبيرة على مدى المساعدة التى يقدمها إليه أهل الشام خاصة. كان معاوية رضى الله عنه يعى هذه المسائل جيدًا ويعيرها جلّ انتباهه، لذلك حاول جهده منذ البداية أن يعمل على حفظ التوازن بين رجالات القبائل العربية المختلفة فى بلاد الشام وعلى درجة الخصوص القبائل اليمانية والقبائل القيسية[1]، وقد عمل معاوية رضى الله عنه كل ما فى استطاعته لإيجاد التوازن بين مصالح الطرفين فى بلاد الشام، فقد كان فى خدمة معاوية رضى الله عنه رجالات من القيسية أمثال الضحاك بين قيس الفهرى وحبيب بن مسلمة الفهرى، مثلما كان هناك رجالات من اليمانية أمثال مالك بن هبيرة السكونى، وشرحبيل بن سمط الكندى، وحسان بن بحدل الكلبى وغيرهم، كما أن معاوية رضى الله عنه حصل على مساعدات من كلا الطرفين إبان فترتى ولايته وخلافته، وكانوا يحاربون إلى جانبه فى جيش واحد وتحت إمرة واحدة[2]، وكانت سياسة معاوية تقوم على الاستعانة بأفراد من أقاربه أبناء البيت الأموى مثل: عنبسة بن أبى سفيان، وعتبة بن أبى سفيان، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك[3]، وعمرو بن سعيد بن العاص[4]، وغيرهم. كما حرص معاوية رضى الله عنه على اختيار أعوانه وولاته من ذوى التجارب الواسعة من المسلمين، كعبد الله بن عامر بن كريز،

(١) خلافة معاوية بن أبى سفيان، العقيلى صـ٧٠ . (٢) المصدر نفسه صـ٧٣ .

(٣) البلاذرى أنساب الأشراف نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى صـ٧٣ .

(٤) خلافة معاوية صـ٧٣ نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ١٦٠).

والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير الأنصارى، ومسلمة بن مخلد الأنصارى[1]، وغيرهم. ولم تكن المحاباة هى الأساس الأهم والأوحد فى انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم، وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم ولاسيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام[2]. ونلاحظ أن معاوية استعان بأهل الصحبة والكفاية والولاء ولاة على الأمصار، ومع أن معاوية رضى الله عنه اختار بعض أعوانه من أهل بيته، يوليهم الولايات إلا أنه كان يعاملهم بحذر شديد إلى أن يطمئن لهم، ويقتنع بمقدرتهم الإدارية، فقد كان يختارهم أول الأمر لولاية مدن صغيرة كالطائف[3] مثلاً، فإذا ما أظهر أحدهم مقدرة إدارية، فإن معاوية -رضى الله عنه- يضم إليه مكة لتكون تحت إشرافه ثم يتبعها بالمدينة وعند ذلك يقال: هو قد حذق[4]. وغني عن البيان أن الطائف كانت مدينة مهمة فى ذلك الوقت حيث تتمركز فيها قبيلة ثقيف[5] القوية، وأن من يستطيع من الولاة أن يسيطر على الطائف - سياسيًا واقتصاديًا - فإن بقية المدن تسهل السيطرة عليها بعد ذلك. وتشير نجدة خماش إلى أن معاوية رضى الله عنه جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرب فيها أبناء البيت الأموى على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرج فى تلك الإدارة وفق خطوات مقررة[6]. وقد اتبع معاوية رضى الله عنه أسلوبًا مميزًا فى معاملته لبنى أهله ممن يستعين بهم. فقد كان يحاول أن يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض، وذلك كى يتجنب أى تحالف ضده[7].

وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه تمتع رعايا الدولة من غير المسلمين بمنتهى التسامح والرفق، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر. فقد كانوا يعملون فى مختلف الوظائف الحكومية، ذلك أن معاوية رضى الله عنه أبقى على النظم البيزنطية والقبطية التى كان معمولاً بها فى الشام ومصر والمغرب. كما أبقى على النظم الفارسية فى العراق وخراسان. وكان ترك معاوية رضى الله عنه هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين فى أوائل العهد الأموى، وعلاوة على ذلك فقد كان طبيب معاوية رضى الله عنه الخاص، ويدعى ابن أثال[8]، غير

(١) خلافة معاوية، العقيلى صـ٧٤ .
(٢) الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم العدوى صـ٧٤ .
(٣) خلافة معاوية للعقيلى صـ٧٤ .
(٤) خلافة معاوية للعقيلى صـ٧٥ .
(٥) خلافة معاوية للعقيلى صـ٧٥ .
(٦) الإدارة فى العصر الأموى صـ١٠٨ ، ١٠٩ .
(٧) أنساب الأشراف (٤/ ٦٥، ٦٧)، خلافة معاوية صـ٧٥ .
(٨) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٢٣).

مسلم، وكذلك سريج(سرجون) بن منصور الرومي مستشاره المالي[١]، وابن مينا[٢]، وابن النضير[٣] مولاه من عماله على الصوافي، كانوا أيضًا من سلالة غير المسلمين، وأسلم بعضهم فيما بعد. وفضلاً عن ذلك ترك معاوية لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضًا حرية تامة في ممارسة طقوسهم الدينية، فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا في مسجد دمشق[٤]. كما رممّ لهم كنيسة الرُّها (أُديسَّا) والتي كانت قد تهدمت من جراء الزلازل[٥]. كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري على مصر ما بين عامي٤٧هـ- ٦٨هـ[٦]. كما استعان معاوية رضي الله عنه بمهندسين وفنّيين من غير المسلمين في بناء قصر الخضراء بدمشق الذي اتخذه معاوية مقرًا لإقامته في فترة إمارته على بلاد الشام ثم في فترة خلافته بعد ذلك. ويروي البلاذري أنهم بنوه لمعاوية رضي الله عنه من الحجارة بعد أن كان قبل مبنيًا باللبن والطين[٧].

وكما كانت سياسة التسامح مع الرعايا غير المسلمين هي الطابع المميز لفترة خلافة معاوية رضي الله عنه كذلك نرى سياسة التعاطف والاهتمام المتزايد وحسن المعاملة تجاه الموالي من المميزات الأخرى في عصر معاوية. فنجد معاوية رضي الله عنه استعان بكثير من الموالي في إدارة بعض شئون الدولة؛ فعين مولاه عبد الله بن درّاج على خراج الكوفة ومعونتها في ولاية المغيرة بن شعبة[٨]. وكان وردان مولاه على خراج مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان[٩]، وكان على حرسه رجل من الموالي يقال له المختار، وقيل رجل يقال له مالك ويكنى أبا المخارق مولى لحمير، وكان على حجابه سعد مولاه[١٠]. وكان يلي أمواله بالحجاز أيضًا. وهو الذي قال فيه معاوية: أغبط الناس عيشًا مولاي سعد، كان يتربع جدَّة، ويتقيَّظ الطائف، ويشتو بمكة[١١]. واتخذ زياد بن أبي سفيان من مهران مولاه، حاجبًا له وكاتبه على الخراج في العراق[١٢]. وكان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد

(١) تاريخ خليفة صـ٢٢٨.
(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٩٧)، المحن صـ١٧١ لأبي العرب .
(٣) أنساب الأشراف (٤ / ١٢٣) .
(٤) خلافة معاوية للعقيلي صـ٨٠ .
(٥) الأمويون والبيزنطيون صـ٢٩١ .
(٦) فتوح مصر صـ١٣٢ ؛ غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للقرضاوي صـ٢٠، ٢١ .
(٧) أنساب الأشراف (٤ / ١٤٧).
(٨) خلافة معاوية للعقيلي صـ٨١ .
(٩) الإدارة في العصر الأموي، خماش صـ٣٤٧ .
(١٠) أنساب الأشراف (٤/ ٥٤، ٦٣) خلافة معاوية صـ ٨٢ .
(١١) معجم البلدان (٤/ ١٢) خلافة معاوية صـ٨٢ .
(١٢) تاريخ خليفة صـ ٢١٢.

الأنصارى فتولى لـه إدارة شئون المغرب[1] فى سنة ٥٥هـ. وبالرغم من هذه الأمثلة نجد أن عباس محمود العقاد يشير إلى أن معاوية كان لا يلتفت إلى الموالى، وردّد ما سبقه إليه المستشرقون فى طعنهم فى تسامح معاوية رضى الله عنه مع الموالى، رغم ما تزخر به المؤلفات العربية القديمة من أمثلة على هذا التسامح[2]. ومن ناحية أخرى، فقد ترك معاوية رضى الله عنه الإصلاحات الضرورية لعماله على الأقاليم ليقوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الإقليم الذى يرى شئونه[3]، وقد أصبح التقسيم الإدارى للدولة فى عهده كالآتى: دمشق عاصمة للدولة، وقسم البلاد إلى ولايات يحكم كل ولاية منها والٍ من قبل الخليفة، وكان لكلٍّ سلطة غير محدودة فى الولاية التى يحكمها، وفى بعض الأحيان أطلقت الدولة للوالى سلطة التصرف كما يشاء، حتى كان بعضهم يقتل وينفى، ويسجن، ويشرد... وقد لاحظنا أن هذا الحكم المطلق لم يتكرر، بل كان دائمًا محصوراً فى ولاية العراق، وذلك لما كان يحدث فيها من اضطرابات وفتن أكثر من غيرها، وكان الخليفة يختار لهذه الولاية ولاة مشهورين بالحزم والشدة، فكان زياد بن أبيه من أشهر ولاة معاوية، أما بقية الولايات فكانت تحكم بطابع الدولة المألوف، فالوالى مقيد بأوامر الخليفة، لا يقضى إلا بعد رأيه، ولا يفصل إلا بعد مشاورته، وكانت الوالى يرجع إلى الخليفة فى كل ما يتصل بالمصالح العامة، فإذا كان الأمر خاصًا بولايته له أن يتصرف فيه بحسب ما يحقق المصلحة العامة، وإلا فهو مسئول أمام الخليفة عن كل تصرفاته. وكانت ولايات الدولة الكبرى فى عهد معاوية[4]، دمشق العاصمة، والبصرة، والكوفة، والمدينة ومكة، ومصر وغيرها، أما ولاة الأمصار فى عهد معاوية فسوف نتحدث عنهم فى حديثنا عن كل إقليم بإذن الله تعالى.

أولاً: البصرة:

ومن أشهر ولاتها فى عهد معاوية :

١- **بسر بن أرطأة رضى الله عنه:** تولى الولاية عام ٤١هـ وجاءت روايات لم تصل إلى درجة الصحة تشير إلى تعرض بسر لابنى زياد بن أبيه[5]، ثم عزل وعين بدله عبد الله بن عامر.

٢- **عبد الله بن عامر رضى الله عنه (٤١ - ٤٤هـ):** ففى هذه السنة أى ٤١هـ ولى معاوية عبد الله بن عامر البصرة، وحرب سجستان[6]، وخراسان[7]. ولم يكن تعيين عبد الله بن

(١) خلافة معاوية للعقيلى صـ٨٢ .
(٢)، (٣) خلافة معاوية صـ٨٢ .
(٤) الدولة الأموية (١/٩٧) محمد سيد الوكيل.
(٥) تاريخ الطبرى (٦/٨٢) .
(٦) سجستان: تقع حاليًا جنوب غرب أفغانستان .
(٧) تشمل حاليًا: شمال شرق إيران، وشمال غرب أفغانستان.

عامر على البصرة لأسباب شخصيــة، لأنه لم ترد رواية صحيحة تؤكد ذلك، ولكن اختيار معــاوية رضى الله عنه له كان نتيجة خـبرته السابقـة فى ولاية البصرة وحــرب سجستان وخراســان أيام عثمــان، فمــا كان من معــاوية إلا أن أسند الأمن إلى أهله، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب[1]، وبعد أن أمضى ابن عامر ثلاث سنوات تمكن فيها من تثبيت الفتح فى سجستان وخراسان واستــفاد المسلمون من خبرته العسكرية، ثم دعت الحاجة إلى تغـيــيــره، فعــزله معــاوية وولى الحارث بن عـبد الله الأزدى البـصرة فى أول سنة خـمس وأربعين، فأقام بالبصرة أربعة أشهر، ثم عزله وولاها زيادًا[2].

٣ - زياد بن أبيه (٤٥هـ إلى ٥٣هـ):

أ - نسبه: يعتبر نسب زياد المكنى بأبى المغيرة، من أكثر القـضايا غموضًا فى حياته، فقد كانت أمه أمة اسمها سمية[3]، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه، وبالتالى هم مختلفون فى ذكر نسبـه، فقد ذُكر اســمه فى المصادر، تارة زياد بن ســمية[4]، وتارة زياد بن عبيد[5]، ومرة زياد الأمــير[6]، وأخرى زيــاد بن أبى سفـيان[7]، وفى أغلب الأحيــان عرف بابن أبيه[8]، وذلك لما وقع فى أبيه من الشك[9].

ب - صلح زياد مع معاوية: كان زياد بن أبيه واليًا على خراسان لأمير المؤمنين على رضى الله عنه وكان مخلصًا له غاية الإخلاص، وحــاول معاوية أن يكسب زياد ويضمه إلى صفه فى عهد على رضى الله عنه إلا أنه فشل فى ذلك. وبعد مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه وجد مــعاوية فــرصة طيبــة لإعادة النظر فى مــساعيــه الهادفـة إلى استمــالة زياد بأقل التكاليف، واستخدم معاوية لغة التهــديد والترغيب مع زياد عن تحصنه بقلعة عرفت باسمه فخافـه معاوية وهو من أكثر الناس معـرفة بصلابته، ولا شك أن اعتــصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذى لم ينزل على حكم معــاوية، ويدخل فيما دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً، وبإمكانيات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانيًا، إلا أن هذه الأمور وحدها ليس كافية لمواجهة معــاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذى دفع زيادًا فى

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ ٢٣٤ . (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٣) .
(٣) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة للرواضية صـ٣١ . (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١) .
(٥) العواصم من القواصم صـ٣١ .
(٦) الطبقات (٧/ ٩٩)، زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة صـ٣١ .
(٧) طبقات خليفة بن خياط صـ١٩١ . (٨) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة صـ٣٢ .
(٩) المصدر نفسه صـ٣٢، الوافى بالوفيات (١٥/ ٣٢).

المرحلة التالية فى علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر إيجابية، وبعد صلح الحسن حاول معاوية الاتصال بزياد وسمح للمغيرة بن شعبة أن يتدخل لحل هذا المشكل، واستطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح فى إقناع زياد ببيعة معاوية والدخول فى طاعته. وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما قدمه لمعاوية من خدمات، فقد كان من الصعب على معاوية أن يصل إلى زياد أو يوفق فى إخضاعه إلا بعد قتال عنيف، لا يدرى أحد من سيكون الرابح فى مثل ذلك الموقف الخطير(١)، وقد تمّ لمعاوية احتواء حركة اعتصام زياد بفارس، ولم يستعجل فى الأمر، وابتعد عن استخدام القوة، وأعطى للزمن فرصته، واستعان بداهية من دهاة العرب فى إقناع زياد وهذا من حكمته(٢) رضى الله عنه.

جـ- **حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه**:قال الطبرى فى عام ٤٤هـ: فى هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبى سفيان فيما قيل(٣)، وقال الطبرى: . . . زعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية فقال لزياد: إن لابن عامر عندى يدًا، فإن أذنت لى أتيته، قال: على أن تحدثنى ما يجرى بينك وبينه، قال: نعم، فإذن له فأتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه أو ابن سمية يقبح آثارى، ويعرض بعمالى، لقد هممت أن آتى بقسامة(٤) من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية، قال: فلما رجع سأله زياد، فأبى أن يخبره، فلم يدعه حتى أخبره فأخبر زياد معاوية، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب، ففعل ذلك به، فأتى ابن عامر يزيدًا، فشكا إليه ذلك، فقال له: هل ذكرت زيادًا؟ قال: نعم، فركب معه يزيد حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: اجلس فكم عسى أن تقعد فى البيت عن مجلسه، فلما أطال خرج معاوية، وفى يده قضيب يضرب به الأبواب، ويتمثل:

لنا سياق(٥) ولكم سياق ... قد علمت ذلكم الرفاق(٦)

ثم قعد فقال: يا ابن عامر، أنت القائل فى زياد ما قلت، أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية، وإن الإسلام لم يزدنى إلا عزًا، وإنى لم أتكثر بزياد من قلة،

(١) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة صـ ٧٥ إلى ٨١ .

(٢) مرويات خلافة معاوية صـ١٧٣، تاريخ الطبرى (٦/ ٩٤، ٩٥) .

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١) .

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١) القسامة: هم القومَ الذين يحلفون .

(٥) السياق: المهر، القاموس المحيط ١١٥٦ .

(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٢) .

ولم أتعزز به من ذلة، ولكن عرفت حقًا له فوضعته موضعه[1]، وقد اتهم معاوية رضى الله عنه عندما استلحق زياد بن أبيه إلى أبيه بأنه خالف أحكام الإسلام؛ لأن الرسول ﷺ قال: «لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش[2]، وللعاهر الحجر»[3]. وقد ردّ على هذا الاتهام الدكتور خالد الغيث في رسالته مرويات خلافة معاوية بقوله: .. أما اتهام معاوية رضى الله عنه باستلحاق نسب زياد، فإنى لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك، هذا فضلاً عن أن صحبة معاوية رضى الله عنه، وعدالته ودينه وفقهه تمنعه من أن يرد قضاء رسول الله ﷺ لاسيما أن معاوية أحد رواة حديث: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[4]. ووجه التهمة إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذى ألحق نسبه بنسب أبى سفيان واستدل برواية أخرجها مسلم فى صحيحه من طريق أبى عثمان[5] قال: لما ادعى زياد لقيت أبا بكرة فقلت له: ما هذا الذى صنعتم؟ إنى سمعت سعد بن أبى وقاص يقول: سمع أذناى من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من ادعى أبًا فى الإسلام غير أبيه، يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام». فقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ[6]. قال النووى رحمه الله معلقًا على هذا الخبر: ... فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبى بكرة، وذلك أن زيادًا هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبى سفيان، ويقال فيه: زياد بن أبيه، ويقال: زياد بن أمه، وهو أخو أبى بكرة لأمه... فلهذا قال أبو عثمان لأبى بكرة: ما هذا الذى صنعتم؟ وكان أبو بكرة رضى الله عنه ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زيادًا وحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبى بكرة حيث قال هذا الكلام، أو يكون مراده بقوله ما هذا الذى صنعتم؟ أى هذا الذى جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته، فإن النبى ﷺ حرم على فاعله الجنة[7]. وبذلك يكون زياد هو المدعى.

وفى حقيقة الأمر فإن مسألة استلحاق معاوية زياد هى مسألة اجتهادية ويذهب الكثير من المؤرخين بأن هناك دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية - جارية الحارث بن كلدة

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٢).

(٢) الفراش: لفظة يعبر بها عن المرأة غالباً وقد يعبر بها عن حالة الافتراش، والمراد لحوق حالة نسب الولد بمن له الاختصاص بالوطء كالزوج والسيد، فتح البارى (١٢/ ٣٦).

(٣) صحيح سنن أبى داود (٢/ ٤٣٠) للعاهر الحجر: أى للزانى الخيبة وحرمان الولد الذى يدعيه، وقد جرت عادة العرب أن تقول لمن خاب: له الحجر وبقية الحجر والتراب، فتح البارى (١٢/ ٣٧).

(٤) فتح البارى (١٢/ ٣٩).

(٥) أبو عثمان النهدى، معروف بكنيته، مخضرم من كبار الطبقة الثانية ٩٥ هـ ت.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووى (٢/ ٥١، ٥٢). (٧) شرح صحيح مسلم (٢/ ٥٢، ٥٣).

الثقفى - وكانت من البغايا ذوات الرايات - فى الجاهلية- فعلقت منه بزياد، وذكروا بأن أبا سفيان اعترف بنفسه بذلك أمام على بن طالب رضى الله عنه وآخرين بعدما شب ونبغ فى عهد عمر بن الخطاب(١)، وقال ابن تيمية بأن أبا سفيان كان يقول زياد من نطفته(٢)، فلما كانت خلافة معاوية شهد لزياد بذلك النسب أبو مريم السلولى وهو صحابى كان يعمل فى الجاهلية خمارًا بالطائف، وهو الذى جمع بين أبى سفيان وسمية، وكان ذلك أمرًا مألوفًا آنذاك(٣). ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهد بذلك أحد رجال البصرة لزياد قبل استلحاق معاوية إياه(٤)، فهى دعوة قديمة إذن ولم تكن - كما يزعم الرواة - نتيجة مشورة المغيرة بن شعبة على معاوية كجزء من صفقة متبادلة بين معاوية وزياد أو غير ذلك من التفاصيل التى اخترعها الرواة(٥).

وبعد عقود من السنين نجد الإمام مالك بن أنس - إمام أهل المدينة - يذكر زيادًا فى كتابه الموطأ بأنه زياد بن أبى سفيان، ولم يقل زياد بن أبيه، وذلك فى عصر بنى العباس(٦)، والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غيروا عليه، ولا أنكروا ذلك منه، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلف الناس فيها، فمنهم من جوَّزها، ومنهم من منعها، فلم يكن لاعتراضهم عليها سبيل(٧). وفى نسبة الإمام مالك لزياد إلى أبى سفيان فقه بديع لم يفطن له أحد، وهو أنها لما كانت مسألة خلاف ونُفِّذ الحكم فيها بأحد الوجهين لم يكن لها رجوع، فإن حكم القاضى فى مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها ويرفع الخلاف فيها والله أعلم(٨). وأما تعارض هذا الاستلحاق مع نص الحديث الشريف، فمن اعتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زيادًا لأن أنكحة الجاهلية كانت أنواعًا، وكان منها أن الجماعة يجامعون البغى، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقه، فلمّا جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنّه أقر كل ولد كان يُنسب إلى أب من أى نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرّق بين شىء منها، فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرّق بين استلحاق فى الجاهلية، والإسلام(٩). وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخًا له

(١) مروج الذهب (٣/ ١٤ ـ ١٥)، الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٩٥ .
(٢) الفتاوى (٢٠/ ١٤٨) .
(٣) الكامل فى التاريخ (٢ / ٤٧٠) .
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١، ١٣٢) .
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها صـ١٩٦ .
(٦) المصدر نفسه صـ١٩٦ .
(٧) العواصم من القواصم صـ ٢٥٤ .
(٨) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب صـ١٤١ نقلاً عن العواصم صـ٢٤٢ .
(٩) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٧١) .

ويقول: هو ابن أبى، ما دام ليس له منازع فى ذلك النسب. فالحارث بن كلدة (الذى كانت سمية جارية له) لم ينازع زيادًا، ولا كان إليه منسوبًا، وإنما كان ابن أمة بغى ولد على فراشه - أى فى داره - فكل من ادعاه فهو له، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية فى ذلك مغمز، بل فعل الحق على مذهب مالك، فإن قيل: فلم أنكر عليه الصحابة؟ قلنا: لأنها مسألة اجتهاد[1]. والحوادث تثبت أن معاوية كان مقتنعًا بحق زياد فى ذلك، ولابد أنه كان قد سمع من أبيه، ولهذا فإن معاوية كان مؤمنًا بأن عمله لم يكن إلا عملاً موضوعيًا وواجبًا ضروريًا من باب وضع الشىء فى محله، ولا ريب أن هذا كان معروفًا عند الناس غير أن معاوية أراد أن يثبته[2].

د- **خطبة زياد المعروفة بالبتراء بالبصرة:** لما تولى زياد ولاية البصرة، عام ٤٥هـ، خطب خطبة بتراء[3]، لم يحمد الله فيها وقيل: بل حمد الله فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، اللهم كما رزقتنا نعمًا، فألهمنا شكرًا على نعمتك علينا. أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفَجر[4] الموقد لأهله النار، الباقى عليهم سعيرها، ما يأتى سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش منها الكبير، كأن لم تسمعوا بآى الله، ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمد[5] الذى لا يزول. أتكونون كمن طرفت[6] عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكروا أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا به، من ترككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، فى النهار المبصر، والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج[7] الليل وغارة النهار، قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغطون على المختلس[8]، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عقابًا، ولا يرجو معادًا، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم

(١) العواصم من القواصم صـ٢٥٣ .

(٢) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب صـ٦١ .

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٤) .

(٤) الفَجر: الانبعاث فى المعاصى والزنى، القاموس المحيط صـ٥٨٤ .

(٥) السرمد: الدائم، القاموس المحيط صـ٣٦٧ .

(٦) الطرفة: نقطة حمراء من الدم تحدث فى العين من ضربة وغيرها .

(٧) الدَّلج: السير من أول الليل، القاموس المحيط صـ٣٤٢ .

(٨) الخلس: الأخذ فى نُهزة ومخاتلة، لسان العرب (٦/ ٦٥).

أطرقوا وراءكم كنوسًا فى مكانس الريب[1]، حُرِّم علىّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدمًا وإحراقًا، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، لين فى غير ضعف، وشدة فى غير جبرية وعنف، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى[2]، والمقيم بالظاعن[3]، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد[4]، أو تستقيم لى قناتكم، إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى[5]، من بُيِّت[6] منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إلىَّ، وإياى ودعوى الجاهلية[7]، فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قومًا غرقته، ومن حرّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًا نقبت عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفنته[8] حيًا، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف يدى وأذاى، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بينى وبين أقوام إحن[9]، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا، ومن كان مسيئًا فلينزع عن إساءته، إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعًا، ولم أهتك له سترًا، حتى يبدى لى صفحته، فإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس[10]. أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة[11]، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفىء[12] الله الذى خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُلينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا[13] بمناصحتكم، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فإنى لا أقصر عن ثلاث:

---

(١) كنوساً فى مكانس الريب: استتروا فى موضع الريبة، لسان العرب (٦/ ١٩٨) .

(٢) بمعنى واحد وهو: الصاحب والقريب والجار والحليف والشريك .

(٣) الظاعن: المسافر ،لسان العرب (١٣/ ٢٧٠، ٢٧١) .

(٤) المثل يضرب فى الاستخبار عن الأمرين الخير والشر أيهما وقع .

(٥) مرويات خلافة معاوية صـ ٢٤٠ .

(٦) بُيِّت: أُوقع به ليلاً، لسان العرب (٢/ ١٦) .

(٧) دعوى الجاهلية: المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر .

(٨) عند الجاحظ: دفناه فيه حياً، البيان والتبيين (٢/ ٢٣٠) .

(٩) الإحن: الأحقاد .

(١٠) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٦) .

(١١) ذادة: حماة ومدافعون .

(١٢) الفىء: الغنيمة .

(١٣) فيئنا: عطفنا وبرنا، لسان العرب (١/ ١٢٦).

لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقًا بليل، ولا حابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبَّانه[١]، ولا مُجمرًا[٢] لكم بعثًا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذى إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم كان شرًا لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى. فقام عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، فقال: كذبت، ذاك نبى الله داود عليه السلام[٣]. قال الأحنف: قد قلت فأحسنت أيها الأمير، والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نُثنى حتى نُبتلى، فقال زياد: صدقت[٤]. وهذه الخطبة تعتبر من الخطب المشهورة فى التاريخ وعلى الرغم من كثرتها وكثرة المصادر التى أوردتها إلا أنها لم تأت بإسناد صحيح يجعل القارىء يطمئن إلى صحة ما ورد فيها، لاسيما أنها تحتوى على مآخذ عديدة، وتناقضات واضحة تقلل من صحة نسبة جميع ما جاء فيها إلى زياد، وقد نبه إلى هذه المآخذ والتناقضات الدكتور خالد الغيث[٥] - حفظه الله - منها:

- تحدثت الخطبة عن انتشار الفجور فى البصرة وكثرة بيوت الدعارة فيها، ويستفاد ذلك من قول زياد: . . من تركِكم هذه المواخير المنصوبة، قوله: حُرِّم علىّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدمًا وإحراقًا[٦]. وهذا الكلام المنكر عن حال البصرة عند قدوم زياد، يرده حقيقة ما كانت عليه البصرة منذ تأسيسها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث بنيت لتكون قاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لمواصلة الفتح ونشر الإسلام فى ربوع البلاد المفتوحة، ومن أجل هذه الغاية استوطن البصرة أكثر من خمسين ومائة صحابى، حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم، فأنَّى لهذه المنكرات أن تنبت وتنتشر فى مجتمع عماده الصحابة والتابعون دون أن ينكروه، كذلك فإن وجود الخوارج فى البصرة وما عرف عنهم من الاستعجال والاندفاع فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دليل آخر على انتفاء وجود هذه المنكرات فى مجتمع البصرة وبالحجم الذى ورد فى خطبة زياد[٧].

(١) إبَّانه: حينه، القاموس المحيط ١٥١٥ .

(٢) تجمير الجيش: هو حبس الأمير للجيش فى الثغر وعدم السماح بالعودة.

(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٧) .

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٢٤٤ .

(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥) .

(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٢٤٤.

- ومن التناقضات الواردة فى الخطبة: قول زياد: وإياى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه[1]. مع أنه ذكر فى موضع آخر من الخطبة نقيض ذلك وهو قوله: وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم[2]. وورد فى الخطبة قول زياد: إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه[3]. لكنه عاد فى موضع آخر من الخطبة لينقض ما ذكره آنفًا فقال: لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقًا بليل[4]. وهذه التناقضات الواردة فى الخطبة يستغرب صدورها من زياد مع ما عرف عنه من البلاغة والفصاحة، وهذا يقودنا إلى قضية أخرى وهى احتمال كون النص الذى بين أيدينا عن خطبة زياد عند مجيئه إلى البصرة عبارة عن أكثر من خطبة تم دمجها فى سياق واحد، ويؤيد ذلك ثناء عبد الله بن الأهتم والأحنف بن قيس على زياد بعد انتهاء الخطبة مع أن الخطبة تستوجب النقد وليس الثناء، لما فيها من تقديم حكم الجاهلية على حكم الله[5]. وعن الشعبى قال: ما سمعت متكلمًا قد تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يسيء إلا زيادًا، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلامًا[6]. وهذا الثناء من الشعبى على زياد يقوى الشك حول خطبة زياد البتراء التى سبق الحديث عنها فى الرواية السابقة[7].

هـ - استعانة زياد بصحابة رسول الله: استعان زياد بعدة من أصحاب النبى ﷺ، منهم عمران بن الحصين الخزاعى[8]، ولاه قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفارى[9]، ولاه خراسان، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سمرة، فاستعفاه عمران فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثى[10]، ثم أخاه عاصم بن فضالة[11]، ثم زرارة بن أوفى الحرشى[12]، وكانت أخته لبابة عند زياد[13].

و- من سياسة زياد فى العراق: يعتبر زياد بن أبى سفيان عامل معاوية على البصرة والكوفة بعد عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة، هو الذى قام بمعظم الإصلاحات الضرورية فى

(١) ، (٢)، (٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥) .
(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٣٦) .
(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٢٤٦ .
(٦) المنتظم لابن الجوزى (٥/ ٢١٢) .
(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٢٤٧ .
(٨) مات بالبصرة عام سنة ٥٢هـ بالبصرة، أخرج له الستة، التقريب ٤٢٩ .
(٩) مات بمرو عام ٥٠هـ، أخرج له البخارى والأربعة، ابن حجر التقريب ١٧٥ .
(١٠) ابن حجر، التقريب ٣١٧ .
(١١) الإصابة (٣/ ٥٧٤) .
(١٢) توفى وهو يصلى سنة ٩٣هـ، التقريب لابن حجر ٢١٥ .
(١٣) أنساب الأشراف (٤/ ٣٧٠).

ذلك الجناح الشرقى من الدولة الأموية، وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة إدارية فائقة[١]. وقد استن زياد عدة قوانين وتنظيمات، وقام بكثير من الإصلاحات فى البصرة أولاً (٤٥ - ٥٠هـ) ثم فى الكوفة بعد أن جُمعت المدينتان تحت إمرته في ولاية واحدة وذلك منذ سنة ٥٠هـ وحتى سنة ٥٣هـ. فبنى دار الرزق فى البصرة[٢]، وهى شبيهة بمخزن المؤن فى أيامنا هذه، فكان الأهالى يتموّنون منها، وعين أشخاصًا يشرفون عليها منهم: عبد الله بن الحارث بن نوفل، وروّاد بن أبى بكرة. كما عين الجَعْد بن قيس النّمرى مشرفًا على السوق ومراقبًا على أسعار المواد الغذائية فيه[٣]. وكان يعطى قروضًا للتجار إذا ما ارتفعت الأسعار كى يحثهم على المحافظة على سعر السلعة أو بزيادة بسيطة. وإذا ما تحقق ذلك وتوفرت الحاجات: ارتجع ماله[٤].

وترك زياد الناس فى البصرة أخماسًا، أما الكوفة فقد قسمهم إلى أرباع[٥]، بدل الأسباع. واختار عريفًا لكل قسم يقوم بمهمة توزيع الأعطيات على أفراد عشيرته، كما أنه كان مسئولاً أمام زياد عما يحدث فى ناحيته، فيقوم بإرسال التقارير بما حصل فيها أولاً بأول إلى زياد. واستطاع أن يضبط الأمور فى المدينتين برجال من أهلها، وأصدر زياد أوامره بألاّ يدخل أو يخرج أحد من الكوفة أو البصرة بعد صلاة العشاء، وأوقع القصاص بالسارق وقاطع الطريق، فعمّ الأمن والطمأنينة بحيث إن المرأة كانت تنام وباب بيتها مفتوح، وإن الشيء ليسقط على الأرض فيظل ملقى دون أن يحركه أحد[٦]. ونظم العطاء من الديوان فحذف منه أسماء الذين توفوا ومن كان غائبًا عن قطره ومن كان عابثًا بالأمن، فكان إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فملأوا بيوتهم من كل حُلْو وحامض واستقبلوا رمضان بذلك، وإذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية[٧]. ويشير البلاذرى إلى أنه: كان لكل عيِّل جريبان ومائة درهم، ومعونة الفطر خمسون، ومعونة الأضحى خمسون[٨]، واختار زياد حوالى خمسمائة رجل من أهل البصرة ليعملوا كحرس خاص له وكذلك حماية الأماكن الهامة، وأعطى لكل واحد منهم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة درهم، وأسند قيادتهم إلى شيبان بن عبد الله السعدى[٩]، وبنى زياد مساجد عديدة، منها: مسجد

(١) خلافة معاوية بن أبى سفيان للعقيلى صـ٨٦. (٢) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٤)، خلافة معاوية ص٨٧.
(٣) خلافة معاوية صـ٨٧ نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ٢١٢، ٢١٧) .
(٤) أنساب الأشراف (٤/ ٢٣٧) . (٥) تقسيم يتعلق بالقبائل .
(٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى صـ٨٨ .
(٧) أنساب الأشراف (٤/ ٢١٩) .
(٨) خلافة معاوية صـ ٨٨ نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ٢٢١) .
(٩) خلافة معاوية صـ ٨٩، أنساب الأشراف (٤/ ٢٢١).

بنى عدى، ومسجد بنى مجاشع، ومسجد الأساورة. وكان لا يدع أحدًا يبنى بقرب مسجد الجماعة مسجدًا، فكان مسجد بنى عدى أقربها منه[1]. ويذكر ابن الفقيه: إن زيادًا بنى سبعة مساجد فلم يُنسب إليه شىء منها، وأن كل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد[2]. وزاد زياد فى مسجد البصرة زيادة كثيرة، وبناه بالآجر والجص، وسقفه بالساج، وبنى منارته بالحجارة[3].

وكان يهتم بنظافة المدينة ويعتبر الأفراد مسئولين على نظافة بيوتهم ويعاقب من يهمل ذلك، فقد كان يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أضحت برفع ما بين يدى فنائه من الطين، فمن لم يفعل أمر ذلك الطين فألقى فى مجلسه، وكان يأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات، ثم أنه اشترى عبيدًا ووكلهم فكانوا يلمونه[4]. فهذه الرواية تشير إلى وجود موظفين مهمتهم مراقبة النظافة من ناحية، كما تشير إلى أن زيادًا تنبه إلى أن نظافة الطرق أمر يجب أن يتولاه أشخاص معينون فاشترى عبيدًا وكل إليهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات[5]. واهتم زياد بتقدم الزراعة وتنظيم طرق الرى: فبنى السدود[6]، وحفر القنوات[7]، كما أنه كان يمنح المزارع قطعة من الأرض الزراعية، مساحتها ٦٠ جريبًا ثم يدعه عامين فإن عمّرها أصبحت له، وإلا استردها منه، وأعطاها آخرين ينتظرونها[8]. ولكى يسهل الاتصال بين ضفتى نهر الفرات، فقد أصلح زياد قنطرة الكوفة وأعاد بناءها باللبن والطوب المقوّى، بعد أن كانت من أخشاب القوارب المتهالكة. وأصبحت تعرف بعد ذلك بجسر الكوفة[9]. وأما عن كيفية تصرف زياد فى موارد بيت مال الولاية فيشير البلاذرى إلى أن زيادًا كان يجبى من كُوَر البصرة ستين ألف ألف، فيعطى المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ألف، ويعطى الذرية ستة عشرة ألف ألف درهم، وينفق من نفقات السلطان ألفى ألف، ويجعل فى بيت المال للبوائق والنوائب ألفى ألف درهم، ويحمل إلى معاوية أربع آلاف (ألف) درهم، وكان يجبى من الكوفة أربعين ألف ألف، ويحمل إلى معاوية ثُلثى الأربعة الآلاف ألف لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة. كما أن عبيد الله بن زياد، والذى خلف أباه على ولاية العراق حمل إلى معاوية ستة آلاف ألف درهم فقال معاوية: اللهم ارض عن ابن أخى[10].

(١) مختصر كتاب البلدان صـ١٩١.
(٢) الإدارة فى العصر الأموى صـ١٦٠.
(٣) فتوح البلدان صـ٣٤٦ ـ ٣٤٧، خلافة معاوية صـ٨٩.
(٤) أنساب الأشراف (٤/٢٠٦)، الإدارة فى العصر الأموى صـ٢١٤ .
(٥) الإدارة فى العصر الأموى صـ٢١٤ .
(٦) خلافة معاوية للعقيلى صـ٨٩ .
(٧) فتوح البلدان ص/٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٩ .
(٨) خلافة معاوية صـ٩٠ .
(٩) فتوح البلدان صـ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .
(١٠) أنساب الأشراف (٤/٢١٨ ـ ٢١٩) .

٤ - ولاية سمرة بن جندب رضى الله عنه: عن جعفر بن سليمان الضبعى، قال: أقر معاوية سمرة بعد زياد ستة أشهر، ثم عزله، فكذبوا على سمرة وزعموا أنه قال: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبنى أبدًا[(١)]. هذا الخبر المنسوب إلى سمرة بأنه شتم معاوية خبر مكذوب على هذا الصحابى الكريم، وفى ذلك يقول ابن كثير: وهذا لا يصح عنه[(٢)]، كما أن معرفة ميول مصدر الخبر جعفر بن سليمان الضبعى، والذى قال عنه ابن حجر: صدوق زاهد لكنه يتشيع[(٣)]، تبين أثر التشيع فى تشويه التاريخ الإسلامى[(٤)].

٥- ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى:

قال الطبرى: وفى هذه السنة - ٥٤هـ- كان عزل معاوية بن أبى سفيان لسمرة بن جندب عن البصرة، واستعمل عبد الله بن غيلان[(٥)].

٦- ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة:

قال الطبرى: وفى هذه السنة ولى معاوية عبد الله بن زياد خراسان[(٦)]، وفى عام ٥٥هـ عزل معاوية ابن عمرو بن غيلان عن البصرة وولاها عبد الله بن زياد[(٧)]، وأوصى معاوية عبد الله بن زياد بهذه الوصية: إنى قد عهدت إليك مثل عهدى إلى عمالى، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندى، لا تبيعن كثيرًا بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للناس تكن فى العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبونك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفسك فآسيهم[(٨)]. وفى رواية قال له: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئًا، فإن فى تقواه عوضًا، وقِ عرضك من أن تدنسه، وإذا أعطيت عهدًا فوف به، ولا تبيعنّ كثيرًا بقليل، ولا تخرجن منك أمرًا حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحدًا فى غير حقه، ولا تؤيسن أحدًا من حق له. ثم ودعه[(٩)].

(١) مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٢٦١ .

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٢٦٢.

(٣) تقريب التهذيب صـ١٤٠ .

(٤) مرويات خلافة معاوية صـ٢٦٢ .

(٥)، (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٢) .

(٧) المصدر نفسه (٦/ ٢١٧) .

(٨) المصدر نفسه (٦/ ٢١٣) .

(٩) المصدر نفسه (٦/ ٢١٤).

ثانيًا: الكوفة:

١- المغيرة بن شعبة رضي الله عنه(٤١ هـ): الأمير أبو عيسى، ويقال: أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، من كبار الصحابة أولى الشجاعة والمكيدة. شهد بيعة الرضوان، كان رجلاً طوالاً مهيبًا، ذهبت عينه يوم اليرموك وقيل يوم القادسية(١). وكان يقول: أنا آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ، لما دفن رسول الله ﷺ فى القبر، فألقيت خاتمى، فقلت: يا أبا الحسن، خاتمى، قال: انزل فخذه، قال: فمسحت يدى على الكفن ثم خرجت(٢). وله مواقف فى الدهاء والمكر والكيد منها: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه، فقال دهقانهم(٣): إن فعلتم ما آمركم لم يردَّه علينا. قالوا: مُرْنا. قال: تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إلىَّ. قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك، فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب، أصلحك الله، إنما كانت مائتى ألف، قال: ما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للعِلْج: ما تقول؟ قال: لا والله لأصَدُقَنَّك ما دفع إلىَّ قليلاً ولا كثيرًا، فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب علىَّ، فأحببت أن أخزيه(٤).

وعن الشعبى: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يخرج من باب إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلها(٥)، وقال الشعبى: والدهاة أربعة: معاوية وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد(٦). وكان المغيرة بن شعبة من أنصار التعدد فكان يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان(٧). فهو يدعو للزواج من ثلاث أو أربع.

وقد استعمل معاوية المغيرة على الكوفة عام ٤١هـ(٨)، وقام بجهود عظيمة فى قتال الخوارج، ووجد وقتًا كافيًا قام فيه بتوسيع مسجد الكوفة فجعله يتسع لأربعين ألفًا من المصلين(٩). وبقى فى الولاية إلى عام ٤٩هـ وقيل ٥٠هـ، وهو الراجح وعندما مات ضم معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة(١٠).

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١) .
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٦).
(٣) الدِّهقان: القوى على التصرف، رئيس الإقليم .
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦) .
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٣٠) .
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢٢) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣١) .
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٢) .
(٩) خلافة معاوية للعقيلى صـ٨٥ .
(١٠) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٠).

٢- ولاية زياد بن أبيه علي الكوفة: كان زياد على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين، فمات المغيرة بن شعبة بالكوفة وهو أميرها، فكتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة والبصرة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، فاستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة[١]. وقد تحدثنا عن سياسة زياد فيما سبق بالعراق وقد وصفه الذهبى فقال فيه: .. كان من نُبلاء الرجال، رأيًا، وعقلاً، وحزمًا، ودهاءً، وفطنة، وكان يضرب به المثل فى النُّبل والسؤدد، وكان كاتبًا بليغًا كتب للمغيرة، ولابن عباس وناب عنه بالبصرة[٢]. وقال الشعبى: ما رأيت أحدًا أخطب من زياد[٣]. وقال فيه ابن حزم: لقد امتنع زياد وهو فقَعَةُ القاع[٤]، لا نسب له ولا سابقة، فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة، ثم استرضاه وولاّه[٥]. وقال أبو الشعثاء: كان زياد أفتك من الحجَّاج لمن يخاف هواه[٦]. وعندما استقر أمره بالعراق وتمكن منها، كتب زياد إلى معاوية: قد ضبطت لك العراق بشمالى ويمينى فارغة، فاشغلها بالحجاز... فلما بلغ ذلك أهل الحجاز أتى نفر منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله عليه فيكفيكموه، فاستقبل القبلة، واستقبلوها فدعوا ودعا، فخرجت طاعونة[٧] على أصبعيه، فأرسل إلى شريح[٨]- وكان قاضيه - فقال: حدث بى ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشر عليَّ، فقال له شريح: إنى أخشى أن يكون الجراح على يدك، والألم على قلبك، وأن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله عز وجل أجذم[٩] وقد قطعت يدك كراهية للقائه، أو أن يكون فى الأجل تأخير، وقد قطعت يدك فتعيش أجذم وتعير ولدك، فتركها. وخرج شريح فسألوه، فأخبرهم بما أشار به، فلاموه وقالوا: هل أشرت عليه بقطعها، فقال: قال رسول الله ﷺ: المستشار مؤتمن[١٠]. وقد مات زياد سنة ثلاث وخمسين[١١].

٣- ولاية عبد الله بن خالد بن أسيد: عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص، ولى فارس لزياد، ثم[١٢] استخلفه زياد على الكوفة عند مماته، وهو الذى صلى على زياد.

٤- ولاية الضحاك بن قيس الفهرى: وفى سنة ٥٥هـ عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة، وولاها الضحاك بن قيس الفهرى[١٣].

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦ / ١٥٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٤٩٥).
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (٣/٤٩٦).
(٧) الطاعون: الوباء.
(٨) شريح الكندى: مختلف فى صحبته، ولى القضاء فى عهد عمر حتى عصر عبد الملك، توفى سنة ٧٨هـ.
(٩) الأجذم: المقطوع اليد، أو الذاهب الأنامل.
(١٠) صحيح الأدب المفرد للألبانى ١١٣.
(١١) تاريخ الطبرى (٦/٢٠٦).
(١٢) نسب قريش للزبيرى صـ١٨٧.
(١٣) تاريخ الطبرى (٦/٢١٨).

٥ - ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي(٥٨هـ):وفي سنة ٥٨هـ ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، وعزل عنها الضحاك بن قيس(١).

هذا وقد قام معاوية رضي الله عنه بعزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة، ودليل ذلك ما أخرجه أحمد بن حنبل، بإسناد صحيح، قال: حدثني هارون بن معروف قال: حدثنا سفيان، عن مطرف، قال: أخبرني ابن سعيد قال: . . ثم إن ابن الحكم عزل حين قتل ابن صلوبا(٢).

٦ - ولاية النعمان بن بشير رضي الله عنه (٥٩ - ٦٠هـ): وفي سنة ٥٩هـ عزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة، واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصاري(٣). فهؤلاء هم ولاة الكوفة في عهد معاوية رضي الله عنه.

ثالثًا: المدينة النبوية:

تعتبر المدينة من أهم الولايات للنفوذ الروحي والديني على الدولة الأموية بسبب وجود الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار، ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة، إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعهم الناس ويسيرون برأيهم(٤)، وقد دخلت المدينة في سلطان معاوية رضي الله عنه بعد عام الجماعة سنة ٤١هـ، وقد حرص معاوية على زيارتها منذ بيعته فقدم المدينة وتلقته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعزّ نصرك وأعلى أمرك، فما ردّ عليهم جوابًا حتى دخل المدينة، فقصد المسجد، وعلا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه فقال: . . . ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفورًا وأعظم هربًا من ذلك، وحاولتها على مثل سنيّات عثمان، فأبت علي، وأين مثل هؤلاء ومن يقدر على أعمالهم، هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. . غير أني سلكت بها طريقًا لي منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف

(١) تاريخ الطبري (٦/٢٢٦).

(٢) التاريخ الكبير للبخاري (٦/٥٣٣)، العلل ومعرفة الرجال (٢/٢٤، ٢٥)، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري صـ٢٢٧ .

(٣) تاريخ الطبري (٦/٢٢٣) .

(٤) التاريخ الإسلامي، العهد الأموي، محمود شاكر صـ٩٠.

على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه قد جعلته دُبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله، فارضوا منى ببعضه، وإياكم والفتنة، فلا تهـموا بها، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعـمة[١]. ونلاحظ فى هذه الخطبـة حـرص معـاوية رضى الله عـنه على أن يكسب ودهم ويحافظ على عهده لهم، ما حـافظوا على بيعتهم له[٢]. وقد هدأت المدينة بعد بيـعة معاوية وأخلدت إلى السكينة، وانصرف أهلها إلى أعمـالهم، وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ، وأغدق معـاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتـهم وكان كرم هؤلاء يسع الكثير من أجل المدينة[٣]. وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفيًا بالسياسة التى رسمها فى خطبته عند زيارة المدينة، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من الترهيب، وكان إكرامه لرجالات المدينة إكرامًا يفوق كل وصف، وما قصده أحد فى طلب إلا أعطاه. لقد كان يخص وجهاء القوم، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية، كلما كثرت عطايا معاوية كثر إنفاقهم على أهل المدينة[٤]، فقد روى أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كـان عليها من الدَّين الذى كـانت تعطيه الناس[٥]، وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف، ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحمًا؟ فقالت: ألا ذكّرتنى[٦]. وأما ولاة المدينة فهم:

١- مروان بن الحكم (٤٢ - ٤٩هـ): فى عام ٤٢هـ ولى معـاوية مروان بن الحكم المدينة، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل[٧].

٢- ولاية سعيد بن العاص رضى الله عنه (٤٩ - ٥٤هـ): فى سنة ٤٩هـ عزل معاوية مروان ابن الحكم عن المدينة فى شهر ربيع الأول، وأمَّر فيها سعيد بن العاص على المدينة فى شهر ربيع الآخر وقيل فى شهر ربيع الأول[٨].

٣- ولاية مروان بن الحكم الثانية (٥٤ - ٥٧هـ): فى عام ٥٤هـ عـزل معـاوية سعـيد بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم[٩].

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٢). (٢) المدينة فى العصر الأموى محمد شرّاب صـ٧٠.
(٣) المصدر نفسه صـ٧١. (٤) المصدر نفسه صـ٧٣.
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).
(٦) تذكرة الحفاظ ترجمة ١٣، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).
(٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧). (٨) المصدر نفسه (٦/ ١٤٨).
(٩) المصدر نفسه (٦/ ٢١٠).

٤- **ولاية الوليد بن عتبة بن أبي سفيان:** استعمل معاوية على المدينة حين صرف عنها مروان، الوليد بن عتيبة بن أبى سفيان[١] ، وكان ذلك عام ٥٧هـ[٢].

*** وفاة أبي هريرة رضى الله عنه بالمدينة ٥٨هـ وقيل: ٥٩هـ:**

توفى أبو هريرة رضى الله عنه فى عهد معاوية وقد تعرّض للهجوم الشرس من قبل أعداء السنة النبوية بسبب خدمته لها، فرأيت من المناسب أن أترجم لأبى هريرة وأتعرض للشبهات المثارة حوله وبيان بطلانها وزيفها.

أ - **التعريف به:** هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، واشتهر أبو هريرة بكنيته، حتى غلبت على اسمه فكاد ينسى، وسئل أبو هريرة: لم كنيت بذلك؟ قال: كنيت أبا هريرة لأنى وجدت هرة فحملتها فى كمى، فقيل لى. أبو هريرة. وكان يرعى غنم أهله فى صغره، ويداعب هرته وكان يقول: لا تكنونى أبا هريرة، فإن نبى الله ﷺ كنانى أبا هر، والذكر خير من الأنثى[٣].

ب- **إسلامه:** هاجر أبو هريرة من اليمن إلى المدينة ليالى فتح خيبر، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وكان قد أسلم على يد الطفيل بن عمرو فى اليمن، ووصل المدينة وصلى الصبح خلف سباع بن عرفطة الذى كان قد استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة أثناء غزوة خيبر[٤]. وقد لازم أبو هريرة النبى ﷺ إلى آخر حياته، وقصر نفسه على خدمته، وتلقى العلم الشريف منه، فكان يدور معه ويدخل بيته، ويصاحبه فى حجه وغزوه، ويرافقه فى حله وترحاله، فى ليله ونهاره، حتى حمل عنه العلم الغزير الطيب، فكانت صحبته أربع سنوات، وقد اتخذ الصُّفَّة مقامًا له، وخدم الرسول ﷺ على ملء بطنه، وجعله رسول الله ﷺ عريف أهل الصفة، فقد كان أعرف الناس بهم وبمراتبهم[٥].

جـ- **دعوته أمه للإسلام:** قال أبو هريرة رضى الله عنه: كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكى، قلت: يا رسول الله إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى على، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره، فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة، قال رسول الله ﷺ

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٤).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٥).
(٥) حلية الأولياء (١/ ٣٧٦)، السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب صـ٤١٢.

«اللَّهم اهد أم أبى هريرة»، فخرجت مستبشرًا بدعوة رسول الله ﷺ، فلما جئت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمى خشف قدمى فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب، ثم قالت: أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكى من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا. قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: **اللَّهم حبب عُبيدك هذا** - يعنى أبا هريرة - **وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين.** فما خلق مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى[(١)].

د- عبادة أبى هريرة رضى الله عنه وأسرته: كان أبو هريرة رضى الله عنه ورعًا، ملتزمًا سنة الرسول ﷺ، يحذر الناس فى الانغماس فى ملذات الدنيا، وشهواتها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يفرق فى ذلك بين غنى ولا فقير، أو بين أمير وحقير، وأخباره فى هذا الصدد كثيرة، وكان يخشى الله كثيرًا فى السر والعلن، ويذكر الناس به، ويحثهم على طاعته[(٢)]، وكان عابدًا، يصوم النهار ويقوم الليل، ويتناوب قيامه هو وزوجته، وابنته[(٣)]، وكان يهتم بعمران بيته بعبادة الله تعالى، فعن أبى عثمان النهدى قال: تضيَّفت ابا هريرة سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثًا: يصلى هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلى هذا ثم يوقظ هذا[(٤)]. فبيت أبى هريرة إشراقة مضيئة تبين لنا بيوت المسلمين فى ذلك العهد، فهو بيت عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكانًا فى هذا البيت؟ إنها تربية عالية على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبير والعالم الربانى أبى هريرة رضى الله عنه، واستجابة كريمة من امرأة طاهرة زكية، وخادم صالح مطيع. إن أبناء الدنيا حينما يكلفون خدمهم بعمل كبير، فإنما يكلفونهم بأعمال الدنيا، ويرون أنه لا مصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون فى أعمال الآخرة، لأنهم يكسبون بذلك أجرًا على حسن توجيههم[(٥)].

هـ- فقره وعفافه: كان أبو هريرة أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد حتى أنه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع، يطوى نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم

(١) مسلم رقم ٢٤٩١، بر الوالدين، أم حفص الشويحى صـ٣٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٤٣٨) .
(٣) البداية والنهاية (١١/٣٧٨) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٦٠٩) .
(٥) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٩/ ٢١٥).

صلبه(1)، قال سعيد بن المسيب - رحمه الله -: رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق، ثم يأتى أهله فيقول: هل عندكم من شىء؟ فإن قالوا: لا قال: فإنى صائم(2)، وكان قنوعًا راضيًا بنعم الله، فإذا أصبح لديه خمس عشرة تمرة أفطر على خمس، وتسحر على خمس، وأبقى خمس لفطره(3)، وكان كثير الشكر لله، كثير الحمد والتسبيح والتكبيرعلى ما أتاه الله من فضل وخير(4).

و- حلمه وعفوه: كانت عند أبى هريرة زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع يومًا السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به، ولكن سأبيعك ممن يوفينى ثمنك أحوج ما أكون إليه، اذهبى فأنت حرة لله عز وجل(5)، وهكذا يوازن أبو هريرة رضى الله عنه بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل اتقاء سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلاً من إساءتها؛ بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة: خشية الله تعالى، والعفو عن المسىء، والإحسان إليه، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضى الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه(6).

ز- ولايته على البحرين فى عهد عمر رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ قد أرسل أبا هريرة مع العلاء الحضرمى إلى البحرين، لينشر الإسلام، ويفقه المسلمين، ويعلمهم أمور دينهم، فحدث عن رسول الله ﷺ وأفتى الناس، وفى عهد عمر رضى الله عنه استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله وعدو كتابه، ولكنى عدو من عاداهما، قال: فمن أين هى لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة رقيق لى، وأعطية تتابعت علىّ. فنظروا فوجدوا كما قال(7)، وقد قاسمه عمر رضى الله عنه مع جملة من قاسمهم من العمال، وكان أبو هريرة يقول: اللّهم اغفر لأمير المؤمنين(8)، وبعد ذلك دعاه عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل وقد طلب العمل من كان خير منك، يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبى ابن

(1) السنة قبل التدوين صـ413 . (2) حلية الأولياء (3/ 3381).
(3) البداية والنهاية (11/ 385) .
(4) تاريخ الإسلام (2/ 335)، سير أعلام النبلاء (2/ 439، 440) .
(5) البداية والنهاية (11/ 385) . (6) التاريخ الإسلامى للحميدى (17/ 23) .
(7) البداية والنهاية (11/ 387) . (8) طبقات ابن سعد (4/ 60)، السنة قبل التدوين صـ416 .

نبى، وأنا أبو هريرة ابن أميمة وأخشى عملكم ثلاثًا واثنتين، فقال: فهل قلت خمسًا، قال: لا. أخاف أن أقول بغير علم وأقضى بغير حلم، وأن يضرب ظهرى، وينزع مالى، ويشتم عرضى(١).

ح- **اعتزاله الفتن:** كان أبو هريرة يوم حصار عثمان رضى الله عنه عنده فى الدار مع بعض الصحابة وأبنائهم، الذين جاءوا ليدفعوا الغوغاء عنه، وقد حفظ ولد عثمان له يده واحترموه حتى أنه لما مات أبو هريرة كانوا يحملون سريره حتى بلغوا البقيع(٢)، وقد اعتزل أبو هريرة رضى الله عنه الفتن بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه(٣).

ط- **مرحه ومزاحه:** كان أبو هريرة رضى الله عنه حسن المعشر، طيب النفس، صافى السريرة، كان يحب الفكاهة والمزاح، ومع هذا كان يعطى كل شيء حقه، فقد نظر إلى الدنيا بعين الراحل عنها، فلم تدفعه الإمارة إلى الكبرياء، بل أظهرت تواضعه، وحسن خلقه، فربما استخلفه مروان على المدينة، فيركب حمارًا قد شدَّ عليه بَرْذعة وفى رأسه خلبة من ليف، يسير فيلقى الرجل، فيقول: الطريق قد جاء الأمير(٤). ويمر أبو هريرة فى السوق، يحمل الحطب على ظهره - وهو يومئذ أمير لمروان - فيقول لثعلبة بن أبى مالك القرظى: أوسع الطريق للأمير يا ابن مالك، فيقول: يرحمك الله يكفى هذا!! فيقول أبو هريرة: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه(٥). وكان يحب إدخال السرور إلى نفوس الأطفال، فقد يراهم يلعبون بالليل لعبة الأعراب، فلا يشعرون به حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجليه كأنه مجنون فيفزع الصبيان منه ويفرون(٦)، هاهنا وهاهنا يتضاحكون(٧). قال أبو رافع: وربما دعانى أبو هريرة إلى عشائه فى الليل، فيقول: دع العُراق للأمير - يعنى قطع اللحم - فأنظر فإذا ثريد بزيت(٨).

ى- **حياته العلمية:** صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات، وسمع منه كثيراً، وشاهد دقائق السنة، ووعى تطبيق الشريعة، وكان همه طلب العلم، وأمله التفقه فى الدين(٩)، وكان حفظ أبى هريرة الخارق من معجزات النبوة(١٠)، فعن أبى هريرة: أن

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤١)، السنة قبل التدوين صـ٤١٦.
(٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٢٣).
(٣) السنة قبل التدوين صـ ٤١٧.
(٤) طبقات ابن سعد نقلاً عن السنة قبل التدوين صـ٤١٨.
(٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٦).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٨) فى الحاشية.
(٨) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٨).
(٩) السنة قبل التدوين صـ٤٢٠.
(١٠) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٤).

رسول الله ﷺ قال: **ألا تسألنى من الغنائم التى يسألنى أصحابك؟** قلت: أسألك أن تعلمنى مما علمك الله، فنزع نمرة كانت على ظهرى، فبسطها بينى وبينه، حتى كأنى أنظر إلى النمل يدب عليها، فحدثنى حتى إذا استوعبت حديثه، قال: **اجمعها فصُرْها إليك**. فأصبحت لا أسقط حرفًا مما حدثنى[(١)].

وكان يقول رضى الله عنه: إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثله، وإن إخوانى من المهاجرين يشغلهم الصَّفق فى الأسواق، وكان إخوانى من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأ مسكينًا من مساكين الصفة، ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى فأحضر حين يغيبون، وأعى حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث يحدثه يومًا: **إنَّه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى جميع مقالتى، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول.** فبسطت نمرة علىَّ، حتى إذا قضى مقالته، جمعتها إلى صدرى. فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ من تلك شيئًا[(٢)]، وفى رواية: إنه حدثنا يومًا فقال: **من يبسط ثوبه حتى أقضى مقالتى، ثم قبضه إليه، لم ينس شيئًا سمع متى أبدًا.** ففعلت فوالذى بعثه بالحق، ما نسيت شيئًا سمعته منه[(٣)]. وعن أبى هريرة، قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: **لقد ظننت يا أبا هريرة لا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من نفسه**[(٤)]. وكان أبو هريرة حافظًا متقنًا، ضابطًا لما يروى، دقيقًا فى أخباره، فقد اجتمعت فيه صفتان عظيمتان تكمل إحداهما الأخرى، الأولى: سعة علمه وكثرة مروياته، والثانية: قوة ذاكرته وحسن ضبطه. وهذا غاية ما يتمناه أولو العلم[(٥)]. ويذكر لنا أبو الزعيزعة كاتب مروان ما يثبت إتقانه وحفظه فيقول: دعا مروان أبا هريرة فجعل يسأله، وأجلسنى خلف السرير، وجعلت أكتب عنه، حتى إذا كان رأس الحول، دعا به، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر[(٦)]. ولم يكن أبو هريرة راوية للحديث فقط، بل كان من رؤوس العلم فى زمانه، فى القرآن والسنة والاجتهاد، فإن صحبته وملازمته لرسول الله ﷺ أتاحت له أن يتفقه فى الدين، ويشاهد السنة العملية، عظيمها ودقيقها، فتكونت عنده حصيلة كثيرة من الحديث الشريف، كل ذلك هيأ أبا هريرة لأن يفتى المسلمين فى دينهم نيفًا وعشرين سنة والصحابة كثيرون آنذاك[(٧)].

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٤) رجاله ثقات.
(٢) مسلم رقم ٢٤٩٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٥)، مسلم رقم ٢٢٩٤.
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٦) إسناده صحيح.
(٥) السنة قبل التدوين صـ٤٢٧.
(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٨).
(٧) السنة قبل التدوين صـ٤٢٨.

ك- أصح الطرق عن أبى هريرة فى الحديث عن رسول الله: حُكى عن ابن المدينى أن من أصح الأسانيد إطلاقًا حماد بن يزيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة[1]، وأصح ما روى من الحديث عن أبى هريرة ما جاء عن:

- الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة.
- أبو الزناد عن الأعرج - عبد الرحمن بن هرمز - عن أبى هريرة.
- مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة[2].

*** الرد على الشبه التى أثيرت حول أبى هريرة رضى الله عنه:**

كتب بعض أهل الأهواء قديمًا فى الطعن فى أبى هريرة، وتابعهم فى هذا العصر بعض المستشرقين أمثال (جولد تسهير) و(شبرنجر) فى الطعن فى أبى هريرة رضى الله عنه بالظلم والبهتان، وكتب عبد الحسين شرف الدين العاملى الشيعى كتابًا تحت عنوان (أبو هريرة) وافترى فيه على أبى هريرة افتراءات يندى لها جبين العلم وتخز ضمير العلماء، وتجرح الحق، ولا تلتقى معه، حتى انتهى إلى تكفير أبى هريرة[3]، وقد استقى من هذا الكتاب أبو رية صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية. فكان أشد على أبى هريرة من أستاذه وأكثر ضلالاً وزيفًا، وأهم هذه الشبهات التى ألصقت بأبى هريرة رضى الله عنه:

أ - عمر وأبو هريرة رضى الله عنهما: اتهم عبد الحسين شرف الدين وأبو رية[4] أبا هريرة بأنه سرق عشرة آلاف دينار حينما ولى البحرين لعمر، فعزله وضربه بالدرة حتى أدماه، لقد ذكرت جميع الروايات المعتمدة أن عمر رضى الله عنه قاسمه ماله، كما قاسم غيره من الولاة[5]، وليس فيها أنه ضربه حتى أدماه، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين فلم يحقد على عمر رضى الله عنه مع أنه يعلم أن ما قاسمه إياه إنما هو عطاياه

(١) السنة قبل التدوين صـ٤٣٤ . (٢) المصدر نفسه صـ٤٣٥ .
(٣) المصدر نفسه صـ٤٣٧ .
(٤) أبو هريرة لعبد الحسين صـ١٤ ـ ١٥، أضواء السنة المحمدية صـ١٩٢ .
(٥) تاريخ الإسلام (٢/٣٣٨)، حلية الأولياء (١/ ٣٨٠)، البداية والنهاية (١١/٣٨٧).

وأسهمه وغلة رقيقه، ولو أن عمر شك فى أمانة أبى هريرة بعض الشك لحاكمه وعاقبه العقوبة الشرعية، ولكنه عرف فيه الأمانة والإخلاص فعاد إليه بعد حين يطلبه للولاية فأبى أبو هريرة قبولها كما أسلفنا. هذا وجه الحق الذى أخفاه عبد الحسين وأبو رية، فعبد الحسين نقل رواية واحدة عن العقد الفريد لابن عبد ربه[1]، حيث وجد فيها ما يوافق هواه واكتفى أبو رية بالنقل عن عبد الحسين من غير أن يشير إلى المصدر ومن غير بحث أو مقارنة وتمحيص[2]. وهذا يدل على حرصهم على التزوير والإخلال بالأمانة العلمية.

ب - هل تشيع أبو هريرة للأمويين؟ ووضع أحاديث فى ذم على وأبنائه؟ وقد اتهمه عبد الحسين بأنه دعاية الأمويين فى سياستهم، فتارة يفتئت الأحاديث فى فضائلهم.. وتارة يلفق أحاديث فى فضائل الخليفتين نزولاً على رغائب معاوية وفئته الباغية[3]. وجمع أبو رية فى هذا الموضوع كل شتائم كتب الشيعة فى أبى هريرة ونبش الأكاذيب والافتراءات على صحابة رسول الله واعتمد الكتب التى لم يعرف مؤلفوها بالصدق ولا بالتمحيص فى الرواية أو التى عرف مؤلفوها بالبغض القاتل لأبى هريرة، والعقيدة التى ندين بها أن أبا هريرة رضى الله عنه كان محبًا لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، روى فى فضائل الحسن والحسين أكثر من حديث[4]، ولم يناصب أهل البيت العداء قط، ومشهور عنه أنه تمسك بسنة رسول الله ﷺ فكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ ومن العجيب أن يدعى إنسان نهل عن العلم بعضه أن أبا هريرة يكره عليًا وأهله رضى الله عنهم[5]، وقد كتب الأستاذ عبد المنعم صالح العزى كتابه القيم فى الدفاع عن أبى هريرة، وبين حبه لعلى وفاطمة رضى الله عنهما وبين بأنه يروى منقبة على يوم خيبر، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال يوم خيبر: **لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه**- ثم روى إعطاءه إياها[6]، أفهذه رواية كاره لأمير المؤمنين على رضى الله عنه[7] وفى مناقب فاطمة رضى الله عنها يروى أبو هريرة قول النبى ﷺ **إن فاطمة سيدة نساء أمتى**[8]، وروى أبو هريرة أحاديث فى حب الحسن بن على، وله معه وقائع وأخبار تدل

---

(١) السنة قبل التدوين صـ٤٣٨ . (٢) المصدر نفسه صـ٤٣٩ .
(٣) أبو هريرة لعبد الحسين صـ٣٥ .
(٤) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى صـ٣٥٣، ٣٥٤ .
(٥) البرهان فى تبرئة أبى هريرة من البهتان صـ١٢٧ . (٦) مسلم
(٧) الأدلة الباهرة على نفى البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة صـ١٣٣ .
(٨) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٢٣٢) بسند موصول.

على حب عظيم كان يكنه للحسن[1]. ويروى لنا أبو هريرة صورة لحبه للحسن رضى الله عنه مع النبى ﷺ فيقول: لا أزال أحب هذا الرجل بعد ما رأيت رسول الله ﷺ، وهو يدخل أصابعه فى لحية النبى ﷺ، والنبى يدخل لسانه فى فمه، ثم قال: **اللّهم إنى أحبه فأحبه**[2]. فلا غرابة بعد هذا الحب أن رأينا أبا هريرة يبكى يوم يموت الحسن ويدعو الناس إلى البكاء[3]، يقول من حضر ذاك اليوم: رأيت أبا هريرة قائمًا على المسجد يوم مات الحسن يبكى وينادى بأعلى صوته: يا أيها الناس، مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا[4]، ولم يكن حب الحسين بن على أقل ظهوراً عند أبى هريرة من حب الحسن، إذ ينقل لنا حادثة أخرى للنبى ﷺ فيقول: ما رأيت الحسين بن على إلا فاضت عينى دموعًا، وذاك أن رسول الله ﷺ خرج يومًا فوجدنى فى المسجد، فأخذ بيدى واتكأ على، فانطلقت معه حتى جاء سوق بنى قينقاع، قال: وما كلمنى فطاف ونظر، ثم رجع ورجعت معه فجلس فى المسجد واحتبى، وقال لى: **ادع لى لكاع**، فأتى حسينٌ يشتد حتى وقع فى حجره ثم أدخل يده فى لحية رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يفتح فم الحسين فيدخل فاه فيه ويقول: **اللّهم إنى أحبه فأحبه**[5]. والقصة هذه رواها البخارى وفيها أنه الحسن لا الحسين، لكن الحاكم أشار إلى أن كلا الروايتين محفوظة واردة، وذلك محتمل، لأن فيها ذكر الرجوع إلى المسجد[6]، ولقد أثبت عبد المنعم العزى فى كتابه أقباس من مناقب أبى هريرة بالدلائل القطعية الكافية اعتداد أبناء على رضى الله عنهم بحديث أبى هريرة، وروايتهم عنه، ورواية كبار فرسان على وأمراء جنده، الذين قاتلوا معه فى معارك الجمل وصفين والنهروان عن أبى هريرة، ورواية جمهرة من التابعين عنه ممن لاقوا عليًا رضى الله عنه ورووا عنه، ورواية عدد كبير آخر من جماهير الشيعة والكوفيين ومحبى ذرية على من طبقة أتباع التابعين والطبقة التى تليهم لحديث أبى هريرة، واستعماله له، واستدلالهم به، وتدوينه فى كتبهم[7].

إن الحقيقة العلمية التاريخية تقول: لا يوجد أى دليل يعتمد عليه فى تشيع أبى هريرة للأمويين، أو محاربته وعداوته لعلى وأبنائه، وإنما ظلم وافتراء واختلاق على الحقيقة، وإنما

(1) الأدلة الباهرة صـ134 .
(2) المستدرك (3/169) بسند صحيح .
(3) الأدلة الباهرة صـ135 .
(4) التهذيب (2/301) .
(5) المستدرك (3/178) .
(6) الأدلة الباهرة على نفى البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة صـ135 .
(7) أقباس من مناقب أبى هريرة، عبد المنعم العزى صـ127 إلى 149 .

ما نسب إليه من أحاديث فى مدح الأمويين، إنما هى ضعيفة وموضوعة عليه وأهل الخبرة فى هذا الشأن بينوا الكذابين والواضعين لها[1].

وأما دعوى كون الدولة الأموية وضعت أحاديث لتعمم بها رأيًا من آرائها، فهذه دعوى لا وجود لها إلا فى خيال الكذّابين، فما روى لنا التاريخ أن الحكومة الأموية وضعت أحاديث، ونحن نسأل من زعم ذلك أين هى تلك الأحاديث التى وضعتها الحكومة؟ إن علماءنا اعتادوا ألا ينقلوا حديثًا إلا بسنده، وها هى أسانيد الأحاديث الصحيحة محفوظة فى كتب السنة، ولا نجد حديثًا واحدًا من آلافها الكثيرة فى سنده عبد الملك أو يزيد أو الوليد أو أحد عمالهم كالحجاج وخالد القسرى وأمثالهم، فأين ضاع ذلك فى زوايا التاريخ لو كان له وجود؟ وإذا كانت الحكومة الأموية لم تضع بل دعت إلى الوضع، فما الدليل على ذلك؟[2]، وأما ما زعمه عبد الحسين وأبو رية بأن أبا هريرة كذب على رسول الله إرضاء للأمويين ونكاية بالعلويين[3]، فأبو هريرة من كل هذا براء، ولكنهما أوردا أخبارًا ضعيفة وموضوعة لا أصل لها[4]، وكل ما كان فى هذا الشأن وما جاءنا من هذه الأخبار الباطلة إنما كان عن طريق أهل الأهواء الداعين إلى أهوائهم، المتعصبين لمذاهبهم، فتجرؤوا على الحق، ولم يعرفوا للصحبة حرمتها، فتكلموا فى خيار الصحابة واتهموا بعضهم بالضلال والفسق، وقذفوا بعضهم بالكفر وافتروا على أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم[5]. ولقد كشف أهل الحديث عن هؤلاء الكذبة، وكشف الله بهم أمر هذه الفرق وأماط اللثام عن وجوه المتسترين وراءها فكان أصحاب الحديث هم جنود الله عز وجل، بينوا حقيقة هؤلاء، وأظهروا نواياهم وميولهم، فما من حديث أو خبر يطعن فى صحابى أو يشكك فى عقيدة، أو يخالف مبادئ الدين الحنيف إلا بيّن جهابذة هذا الفن يد صانعه، وكشفوا عن علته، فادعاء هؤلاء مردود حتى يثبت زعمهم بحجة صحيحة مقبولة، وكيف نتصور معاوية يحرض الصحابة على وضع الحديث كذبًا وبهتانًا وزورًا، ليطعنوا فى أمير المؤمنين على رضى الله عنه[6]، وقد شهد علماء الأمة من الصحابة والتابعين على عدالة معاوية، وقد بين مواقفه من أمير المؤمنين على رضى الله عنه

(١) البرهان فى تبرئة أبى هريرة من البهتان صـ ١٢٨

(٢) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى صـ٢٠٣ .

(٣) أبو هريرة، عبد الحسين صـ٣٥، أضواء على السنة صـ١٩٠ .

(٤) السنة قبل التدوين صـ٤٤١ .

(٥) العواصم من القواصم صـ ١٨٢ ـ ١٨٣، السنة قبل التدوين صـ ٤٤٣ .

(٦) السنة قبل التدوين صـ ٤٤٤.

ولم يذكر فى مصدر موثوق به ما يدل على أن عليًا رضى الله عنه كذّب أبا هريرة أو نهاه عن الحديث، ولكن بعض أعداء أبى هريرة يستشهدون برواية مكذوبة عن أبى جعفر الإسكافى، وهى أن عليًا لما بلغه أبو هريرة قال: ألا إن أكذب الناس - أو قال أكذب الأحياء على رسول الله - أبو هريرة الدوسى[1]. فهذه رواية مردودة لا نقبلها عن الأسكافى، لأنه شيعى محترف، ومعتزلى ناصب أهل الحديث العداء[2]، وقد رد ابن قتيبة على جميع ما ألصقوه بالإمام على طعنًا فى أبى هريرة[3].

جـ- كثرة حديثه: أخذ النظام المعتزلى على أبى هريرة كثرة حديثه وتابعه بعض المعتزلة قديمًا ومنهم بشر المريسى، وأبو القاسم البلخى، وقد ردّ ابن قتيبة على النظّام فى كتابه (تأويل مختلف الحديث)، ولقيت هذه الشبهة صدى فى نفوس بعض المتأخرين كعبد الحسين شرف الدين الشيعى الذى سود صفحات كثيرة من كتابه (أبو هريرة)[4]، يشكك فى مروياته ويستكثرها، ويوهم القارىء أن ما رواه أبو هريرة أكثر مما رواه الصحابة الذين اشتغلوا بأمور الدولة وسياستها، ويثير هذه الشبهة نفسها أبو رية فى كتابه أضواء على السنة المحمدية[5]، ويستشهد هؤلاء جميعًا بأخبار ضعيفة أو موضوعة أحيانًا، وبتأويلات وموازنات باطلة أحيانًا أخرى، وتلتقى أهواء هؤلاء بأهواء بعض المستشرقين أمثال «جولد تسيهر» الذى استكثر أيضًا مرويات أبى هريرة[6]، وخلاصة أقوالهم، أن أبا هريرة تأخر إسلامه، وروى عن رسول الله ﷺ (٥٣٧٤) حديثًا، وهى أكثر كثيراً مما رواه الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة الذين سبقوه إلى الإسلام[7]، ومن الخطأ الفاحش أن يقارن الخلفاء الراشدون وأبو هريرة فى مجال الحفظ وكثرة الرواية لأسباب عديدة منها:

- صحيح أن الخلفاء الراشدين الأربعة رضى الله عنهم سبقوا أبا هريرة فى صحبتهم وإسلامهم، ولم يرو عنهم مثل ما روى عنه، إلا أن هؤلاء اهتموا بأمور الدولة، وسياسة الحكم، وأنفذوا العلماء والقراء والقضاة إلى البلدان؛ فأدوا الأمانة التى حملوها، كما أدى

(١) شرح نهج البلاغة (١/٤٦٨). (٢) السنة قبل التدوين صـ ٤٤٣ .
(٣) تأويل مختلف الحديث صـ ٢٧، ٥١ وما بعدها، السنة قبل التدوين صـ ٤٦٠ .
(٤) أبو هريرة صـ٤٥ وما بعدها، السنة قبل التدوين صـ٤٤٦ .
(٥) أضواء على السنة المحمدية صـ١٦٠ وما بعدها .
(٦) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة حديث نقلاً عن السنة قبل التدوين صـ٤٤٧ .
(٧) السنة قبل التدوين صـ٤٤٧.

هؤلاء الأمانة فى توجيه شئون الأمة، فكما لا نلوم خالد بن الوليد على قلة حديثه عن الرسول ﷺ لانشغاله بالفتوحات، لا نلوم أبا هريرة على كثرة حديثه لانشغاله بالعلم[1].

- انصراف أبى هريرة إلى العلم والتعليم،واحتياج الناس إليه لامتداد عمره، يجعل الموازنة بينه وبين غيره من الصحابة السابقين أو الخلفاء الراشدين غير صحيحة، بل هى خطأ كبير[2]، وكون أبى هريرة رضى الله عنه أكثر رواية من السيدة عائشة رضى الله عنها لأنها كانت تفتى الناس فى دارها، وأما أبو هريرة، فقد اتخذ حلقة له فى المسجد النبوى، كما كان أكثر احتكاكًا بالناس من السيدة أم المؤمنين عائشة بصفته رجلاً، كثير الغدو والرواح، وأضيف إلى هذا أن السيدة عائشة كان جل همها موجهًا نحو نساء المؤمنين، وكان يتعذر دخول كل إنسان عليها[3]. إن نظرة مجردة عن الهوى تدرك أن ما روى عن أبى هريرة من الأحاديث لا يثير العجب والدهشة، ولا يحتاج إلى هذا الشغب الذى اصطنعه أهل الأهواء وأعداء السنن، وإن ما رواه عن رسول الله ﷺ، سواء أسمعه منه أم من الصحابة لا يشك فيه لقصر صحبته، بل إن صحبته تحتمل أكثر من هذا، لأنها كانت فى أعظم سنوات دولة الإسلام دعوة ونشاطًا، وتعليمًا وتوجيهًا في عهد رسول الله ﷺ[4].

- كثرة ملازمته للنبى ﷺ: فقد صحب النبى ﷺ أربع سنين، فعن أبى هريرة قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان فى كتاب الله، ما حدثت حديث ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]. إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون[5].

- دعاء النبى ﷺ له فى الحفظ: فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله إنى أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه، قال: ابسط رداءك. فبسطه، قال: فغرف بيديه ثم قال: ضمه. فضممته فما نسيت شيئًا بعده[6].

- كثرة تلامذته والناقلين عنه: فكان عدد تلامذته قريبًا من ثمانمائة[7].

(١) السنة قبل التدوين صـ٤٥٠ . (٢) المصدر نفسه صـ٤٥١ .
(٣) المصدر نفسه صـ٤٥١ . (٤) المصدر نفسه صـ٤٥٢ .
(٥) البخارى رقم ١١٨، مسلم رقم ١٥٩ . (٦) البخارى رقم ١١٩، مسلم رقم ١٦٠ .
(٧) حقبة من التاريخ صـ٢٢٣، سير أعلام النبلاء (٢ / ٥٧٩).

- تأخر وفاته: فقد قيل: ٥٨هـ وقيـل: ٥٩هـ. ثم إن هذه الأحاديث المنقولة عنه تنقسم إلى ما يلى:

* ما كان ضعيف السند لا يصح عن أبى هريرة .

* ما كان مكررًا.

* ما كان له أكثر من إسناد.

* ما رواه عن أكابر الصحابة كالعشرة وأمهات المؤمنين وغيرهم.

* ما كان موقوفًا عليه من كلامه[١]. وقد اتفق البخارى ومسلم على إخراج ثلاثمائة وستة وعشرين حديثًا، وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين، وانفرد مسلم بثمانية وتسعين، ثم إن جُلَّ الأحاديث التى رواها أبو هريرة لم ينفرد بها عن رسول الله ﷺ بل شاركه فى روايتها غيره من الصحابة[٢]، وأما اعتراض الشيعة على مروياته، فإن جابر بن يزيد الجعفى روى عن محمد الباقر رضى الله عنه سبعين ألف حديث وعن باقين مائة وأربعين ألف حديث[٣]، وروى أبان بن تغلب عن جعفر الصادق رضى الله عنه ثلاثين ألف حديث[٤]، وروى محمد بن مسلم عن الباقر ثلاثين ألف حديث، وعن الصادق ستة عشرة ألف حديث[٥]. وهذا يبين تناقضهم.

وقد شهد لأبى هريرة الصحابة والتابعون وجهابذة العلم بقوة الحفظ وحضور الذاكرة[٦]. فقد قال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه[٧]، وقال الشافعى: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره[٨]. وقال الذهبى: . . سيد الحفاظ الأثبات[٩]، وقال أيضًا: وأبو هريرة إليه المنتهى فى حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ وأدائه بحروفه[١٠].

---

(١) حقبة من التاريخ صـ٢٢٣ .
(٢) المصدر نفسه صـ٢٢٣ .
(٣) خاتمة وسائل الشيعة صـ١٥١ .
(٤) رجال الكشى صـ٩ .
(٥) مشيخة الصدوق صـ٦ .
(٦) موقف المدرسة العقلية من السيرة النبوية، الأمين الصادق (٢/ ٧٤) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤) رجاله ثقات إسناده صحيح .
(٨) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٩) .
(٩) المصدر نفسه (٢/ ٥٧٨) .
(١٠) المصدر نفسه (٢/ ٦١٩).

وقد دافع الكثير من العلماء عن أبى هريرة وردوا الشبهات التى ألصقت به، ومن الكتب المعاصرة التى نسفت الأباطيل التى اتهم بها أبو هريرة، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب[1]، وموقف المدرسة العقلية من السنة النبوية[2].

ل- بكاء أبي هريرة في مرض موته ووصية معاوية بورثته: لما حضر أبو هريرة الموت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكى دنياكم هذه، ولكن أبكى على بعد سفرى وقلَّة زادى، وإنى أصبحت فى صعود مهبط على جنة ونار، لا أدرى إلى أيِّهما يُؤخذ بى[3]. وجاء فى رواية: وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان والى المدينة وفى القوم ابن عمر وأبو سعيد الخدرى وخلق، وكانت وفاته فى داره بالعقيق، فُحمل إلى المدينة، فصُلِّيَ عليه ثم دفن بالبقيع - رحمه الله ورضى الله عنه - وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبى هريرة، وكتب إليه معاوية أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، وأعمل إليهم معروفًا، فإنه كان ممن نصر عثمان، وكان معه فى الدار[4].

* هل أراد معاوية أن ينقل منبر رسول الله من المدينة إلى الشام؟

ذكر الطبرى فى تاريخه فى أحاديث عام ٥٠هـ بأن معاوية أمر بمنبر رسول الله ﷺ، أن يحمل إلى الشام فحُرِّك فكسفت الشمس حتى رُئيت النجوم بادية يومئذ، فأعظم الناس ذلك، فقال: لم أرد حمله، إنما خفت أن يكون قد أُرِضَ[5]، فنظرت إليه، ثم كساه يومئذ[6]، وجاء فى رواية أخرى: قال معاوية: أنى رأيت أن منبر رسول الله وعصاه[7]، لا يتركان بالمدينة، وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلما قدم طلب العصا وهى عند سعد القرظى، فجاء أبو هريرة وجابر بن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عز وجل ألا تفعل هذا، فإن هذا لا يصح، تُخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتخرج عصاه من المدينة. فترك ذلك معاوية، ولكن زاد فى المنبر ستَّ درجات، واعتذر إلى الناس[8]. وقد تحدثت الروايات السابقة عن القضايا التالية:

(١) العصرانيون، محمد حامد الناصر صـ١١٥ .
(٢) موقف المدرسة العقلية (٢/ ٧٤) الأمين الصادق الأمين.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٤) . (٤) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٩) .
(٥) أى: أصابته الأرضة وهى دويبة تأكل الخشب القاموس المحيط صـ٨٢٠ .
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٥) . (٧) كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخطب توكأ على عصا .
(٨) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤)، تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٥).

١ - **عزم معاوية رضى الله عنه على نقل منبر رسول الله، وعصاه إلى الشام**: فقد ذكره الزبير بن بكار(١)، واليعقوبى وابن الجوزى(٢)، دون أن يشيروا إلى خبر العصا، أما ابن الأثير(٣)، وابن كثير(٤)، فقد أورد خبر المنبر والعصا، هذا وقال الدكتور خالد الغيث: ولم أقف على رواية صحيحة تؤكد مزاعم الواقدى هذا فضلاً عن أن دين معاوية، وعدالته، وصحبته لرسول الله ﷺ تمنعه من حمل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام وهو يعلم قوله ﷺ: **«ما بين بيتي ومنبرى روضة من رياض الجنة»**(٥). هذا وقد أورد عبد الرزاق(٦) خبر قدوم معاوية رضى الله عنه المدينة وزيادته درجات المنبر دون الإشارة إلى إرادة معاوية نقل المنبر إلى الشام، أو أخذ العصا، وزيادة معاوية رضى الله عنه للمنبر وكسوته تعد من مناقب معاوية التى حاول بعض الأخباريين طمسها وتشويهها(٧).

٢- **خبر ربط كسوف الشمس بتحريك المنبر**: فقد ذكره عبد الرزاق والزبير بن بكار(٨)، وابن الجوزى(٩)، وابن الأثير(١٠)، وابن كثير(١١)، بينما ذهب اليعقوبى(١٢) الشيعى إلى حدوث زلزلة عند تحريك المنبر، وهذا الخبر لم يرد بإسناد صحيح، هذا فضلاً عن أن كسوف الشمس على افتراض حدوثه، فإنه لم يكن نتيجة لتحريك المنبر ليس إلا، وقد حصل ما يشبه ذلك فى عهد الرسول ﷺ، حيث أخرج البخارى من طريق المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله»** وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده»**(١٣).

٣- **اتهام معاوية رضى الله عنه ببغض أهل المدينة (الأنصار)**: لكونهم قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه، هذا الخبر أورده ابن الأثير(١٤)، وهو خبر ضعيف الإسناد(١٥). وقد بينت

(١) فتح البارى (٢/ ٤٦٣)، مرويات خلافة معاوية صـ٣٨٨ .
(٢) المنتظم (٥/ ٢٢٧) .
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٢) .
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤).
(٥) البخارى، صحيح البخارى مع الفتح (٤/ ١١٩) .
(٦) المصنف (٣/ ١٨٣) .
(٧) مرويات خلافات معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٨٩ .
(٨) فتح البارى (٢/ ٤٦٤) .
(٩) المنتظم (٥/ ٢٢٨) .
(١٠) الكامل (٢/ ٤٨٢) .
(١١) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤) .
(١٢)، (١٣) البخارى: صحيح البخارى مع الفتح(٢/ ٦١٢).
(١٤) الكامل (٢/ ٤٨٢).
(١٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٩٠.

موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وكيف أن كعب بن مالك الانصارى حث الأنصار على نصرة عثمان رضى الله عنه، وقال لهم: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنّا أنصار الله مرتين[1]. فرفض القتال، وقال: لا حاجة لى فى ذلك، كفّوا[2]. وأما زعمهم أن معاوية يبغض الأنصار رضى الله عنهم لكونهم قتلة عثمان رضى الله عنه، فمردود بما ورد من حقيقة موقف الأنصار من عثمان رضى الله عنه، كما أن تقريب معاوية للأنصار وتوليته إياهم فى مناصب هامة وحساسة يرد هذه الفرية، ومن الشواهد على ذلك:

١- توليته فضالة بن عبيد الأنصارى رضى الله عنه قضاء دمشق[3]، وتوليته إياه منصب أمير البحرية الإسلامية فى مصر[4].

٢- تعيينه النعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على الكوفة[5].

٣- تعيينه مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على مصر والمغرب معًا[6].

٤- تعيينه رويفع بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على طرابلس[7].

رابعًا: مكة:

- **ولاية خالد بن العاص بن هشام رضى الله عنه:** ولى معاوية - فى سنة ٤٢هـ - مكة خالد ابن العاص بن هشام[8]، وبعد أن سمى الطبرى من ولى مكة فى سنة ٤٢هـ وسنة ٤٣هـ نجده بعد ذلك يسكت عن تسمية عمال مكة[9]، ويكتفى بعبارة: وكانت الولاة والعمال على الأمصار فى هذه السنة من تقدم ذكره قبل[10]، أو عبارة نحوها، وقد تابعه كل من ابن الجوزى[11]، وابن الأثير[12].

---

(١) فتنة مقتل عثمان للغبان الملحق صـ ٢٠٠ إسناده حسن لغيره .

(٢) مرويات خلافة معاوية صـ٣٩١، فتنة مقتل عثمان (١/ ١٦٢) .

(٣) الاستيعاب (٣/ ١٢٦٢)، الإصابة (٥/ ٣٧١) .

(٤) رياض النفوس للمالكى (١/ ٨٠) .

(٥) مرويات خلافة معاوية صـ٣٩١ نقلا عن تاريخ الطبرى .

(٦) المصدر نفسه صـ٣٩٢ .

(٧) الاستيعاب (٢/ ٥٠٤) .

(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧) .

(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ ٢٧٨ .

(١٠) المصدر نفسه صـ٢٧٨ نقلا عن تاريخ الطبرى .

(١١) المنتظم (٥/ ١٩٣ـ ٢٠٦) .

(١٢) الكامل فى التاريخ نقلاً عن مرويات خلافة معاوية صـ ٢٧٨.

خامسًا: ولاة الطائف:

لم يذكر الطبرى أسماء ولاة الطائف، لكن وردت عنده رواية تفيد تولى بعض بنى حرب الطائف، وفيما يلى نص هذه الرواية: وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاه الطائف فإن رأى منه خيرًا وما يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قيامًا حسنًا جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل: هو أبى جاد[1]، فإذا ولاه مكة قيل: هو فى القران، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق[2]. أما بالنسبة لمن ولى الطائف من بنى حرب فإن رواية الطبرى تسكت عن تسميتهم، لكن ورد عند البلاذرى ما يفيد تولية عنبسة بن أبى سفيان بن حرب وعتبة بن أبى سفيان بن حرب على الطائف[3].

سادسًا: مصر:

١- ولاية عمرو بن العاص رضى الله عنه: ولى معاوية عمرو بن العاص على مصر عام ٤١هـ[4]. وهذا من باب وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، فعمرو فاتح مصر وواليها على عهد عمر وعثمان رضوان الله عليهم، وهو أقرب الناس لتولى هذه الولاية الهامة.[5] وقد تكاثرت الروايات الموضوعة والضعيفة فى العلاقة بين عمرو ومعاوية رضى الله عنهما، واشتمل على مغامز خفية ومعلنة على الرجلين، وتشير بعضها إلى أن معاوية قد أعطى ولاية مصر لعمرو بن العاص مكافأة له نظير وقوفه إلى جانبه أثناء الفتنة التى أعقبت استشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وهذا الأمر قد بينته فى كتابى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه؛ بأن وقوف عمرو بن العاص مع معاوية فى المطالبة بالتعجيل بتطبيق القصاص على قتلة عثمان لم يكن تضامنًا من عمرو مع شخص معاوية بل كان نابعًا من اجتهاد عمرو الشخصى فى هذه المسألة، حيث رأى رضى الله عنه الأخذ بالقَوَد من قتلة عثمان على الفور، فكان هذا الاجتهاد من عمرو بن العاص متطابقًا مع اجتهاد معاوية فى القضية نفسها[6]. وقد كانت ولاية عمرو بن العاص على مصر ذات صلاحيات واسعة بسبب ما كان يتمتع به من مقدرة إدارية فائقة، وقابليات سياسية وعسكرية متميزة، فقد

(١) هو أبى جاد: فى أول الأمر. (٢) تاريخ الطبرى، مرويات خلافة معاوية صـ٢٧٩ .
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٣٩)، مرويات خلافة معاوية صـ٢٧٩ .
(٤) مرويات خلافة معاوية ٢٨١، ٢٨٢ . (٥) المصدر نفسه صـ٢٨٢ .
(٦) المصدر نفسه صـ٢٨٢ .

واصل فتـوحات الشمال الأفريـقي ونظم أمر العطاء والإعمار والبناء والزراعـة والرى بمصر وقد بقي عمرو فى ولاية مصر(١) حتى وفاته عام٤٣هـ.

- وصيته عند موته: يروى ابن شمـاسة المهرى وصية عـمرو بن العاص لحظة احـتضاره فيقول: حضرنا عـمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت(٢)، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أمَا بَشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بَشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فـأقبل بوجهـه فقال: إن أفـضل ما نعد شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محـمداً رسول الله، إنى كنت على أطباق ثلاث(٣)، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منى، ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فـقتلته، لو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يـمينه، قال: فقبـضت يدى، قال: ما لك يا عـمرو؟ قال: قلت: أردت أن اشترط، قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يُغفر لى، قال: أما علمت أن الإسـلام يهدم ما كـان قبله؟(٤)، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحب إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطـقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة(٥).

وجاء فى رواية: ثم تلبـست بعد ذلك بالسلطان وأشياء، فـلا أدرى علىّ أم لى، فإذا مت فلا تبكينَّ علىّ باكية، ولا يتبعنـى مادح ولا نار وشُدُّوا علىّ إزارى فإنى مخاصم وشُنُّوا علىّ التراب شَـنّاً، فإن جنبى الأيمن ليس بأحق بالتـراب من جنبى الأيسـر، ولا تجعلُنَّ فى قـبرى خشبة ولا حجرًا، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جذور وتقطيعها، أستأنس بكم(٦). وقد روى مسلم هذا الحـديث فى صحيحه: كى أستـأنس بكم لأنظر ماذا أراجع به رسل ربى عز وجل(٧)، وفى رواية: أنه بعـد هذا حوّل وجـهه إلى الجدار وجـعل يقول: اللهم أمـرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك. وفى رواية: أنه وضع يده على موضع الغُلِّ

(١) مصر فى العصر الأموى، عدنان أحمد الجنالبى صـ ٤٩ , ٥٠ .
(٢) فى سياقة الموت: أى: حال حضوره . (٣) أى: على ثلاث أحوال .
(٤) أى يسقطه ويمحو أثره، وصايا وعظات قيلت آخر الحياة للحموى صـ٧٠ .
(٥) مسلم رقم ١٢١ . (٦) البداية والنهاية (١١/ ١٦١) .
(٧) مسلم ١٢١ .

من عنقه، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم لا قويّ فأنتصر، ولا برىء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت، فلم يزل يُردّدها حتى مات رضى الله عنه[1].

٢ - ولاية عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه: كانت وفاة عمرو ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين، واستخلف ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها[2]، وبعد وصول خبر وفاة عمرو بن العاص إلى معاوية قام بتعيين أخيه عتبة على مصر وذلك فى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وأربعين. أى أن ولاية عبد الله بن عمرو على مصر لم تزد على شهرين وهى الفترة التى استغرقها وصول خبر وفاة عمرو إلى معاوية، واتخاذه لقرار تعيين الوالى الجديد[3]. وقد وصف الذهبى عبد الله بن عمرو بقوله: الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله وابن صاحبه أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن... وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة أو نحوها، وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا، ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبى ﷺ بعبد الله[4]، وقد ورث عبد الله من أبيه قناطير مقنطرة من الذهب فكان من ملوك الصحابة[5].

٣ - ولاية عتبة بن أبى سفيان: ولد على عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الطائف وصدقاتها، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وكان فصيحًا خطيبًا، يقال: إنه لم يكن فى بنى أمية أخطب منه. خطب أهل مصر يومًا وهو والٍ عليها فقال: يا أهل مصر خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تأتونه، وذم الباطل وأنتم تفعلونه، كالحمار يحمل أسفارًا يثقُله حملها، ولا ينفعه علمها، وإنى لا أُداوى داءكم إلاّ بالسيف، ولا أُبلغ السيف ما كفانى السوط، ولا أبلغ السوط ما صلحتم بالدّرة، وأبطىء عن الأولى إن لم تسرعوا إلى الآخرة، فألزموا ما ألزمكم الله لنا تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وهذا يوم ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب[6]. وجاء فى رواية:... لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، فناداه المصريون من جنبات المسجد: سمعًا، سمعًا، فناداهم عدلاً عدلاً[7]، وقد قام عتبة ببناء دار الإمارة بعد أن خرج مرابطًا فى الاسكندرية[8]، وكان عتبة قد اتخذ لأولاده مؤدبًا، يعلمهم ويربيهم، فقد عهد

---

(١) ولاة مصر للكندى صـ٥٧.
(٢) المصدر نفسه صـ٥٧.
(٣) مرويات خلافة معاوية صـ٢٨٦.
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٩١).
(٦) الاستيعاب رقم ١٩٢٣.
(٧) النجوم الزاهرة (١/ ١٢٤)، مصر فى العصر الأموى ٨٢.
(٨) مصر فى العصر الأموى صـ٨٢، النجوم الزاهرة (١/ ٣٤).

لعبد الصمد بن عبد الأعلى ليكون مؤدبًا لولده(١)، ووجه مؤدب أولاده بتتبع أساليب التشويق وتحبيب دراسة كتاب الله إلى نفوسهم فقال له: علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه(٢)، وجاء في رواية: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وجنبهم محادثة النساء، وتهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكل على عذري، فإني قد اتكلت على كفايتك، وزد في تأديبهم أزدك في بري إن شاء الله(٣). يتضح من هذه الوصية حرص الولاة الأمويين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم والحديث والشعر وغيرها إضافة إلى التأكيد على الجانب التربوي وتزويدهم بالآداب والأخلاق الحسنة، كما أنهم يمنحون المؤدبين صلاحيات واسعة، ويكرمونهم(٤).

٤ - ولاية عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه(٤٥هـ - ٤٧هـ): أغفل الطبري ذكر ولاية عقبة بن عامر الجهني على مصر، وتابعه ابن الجوزي، وابن الأثير وابن كثير، مع أن ولايته على مصر قد أثبتتها المصادر التاريخية المختصة بالديار المصرية(٥)، وهي مقدمة على غيرها في هذا المقام(٦)، كما أثبتها له ابن عبد البر(٧)، وابن حجر(٨)، وكان عالمًا مقرئًا، فصيحًا فقيهًا فرضيًا، شاعرًا كبير الشأن، وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، فقال له عمر بن الخطاب: اعرض عليّ، فقرأ. فبكى عمر وكانت له صحبة، وبايع رسول الله على الهجرة وأقام معه وكان من أهل الصفة وكان من الرماة المذكورين، مات سنة ٥٨هـ(٩).

---

(١) مكانة المعلم في التراث العربي للزبيدي صـ١٠٦ . (٢) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٧٣).

(٣) عيون الأخبار (٢/ ٥) (٢/ ٦٦) . التبيان والتبيين (٢/ ٧٣، ٧٤) .

(٤) التعليم في العصر الأموي صـ٦٦ السبتي .

(٥) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري صـ٢٨٧ .

(٦) المصدر نفسه صـ٢٨٧ ولاة مصر، والنجوم الزاهرة .

(٧) الاستيعاب رقم الترجمة ١٨٩٨ . (٨) الإصابة (٤/ ٥٢١) .

(٩) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٨) .

٥ - ولاية مسلمة بن مُخلد الأنصارى (٤٧هـ -٦٢هـ): هو مسلمة بن مُخلد الأنصارى الخزرجى، الأمير، نائب مصر لمعاوية يكنى أبا معن، وقيل أبو سعيد، وقيل أبو معاوية له صحبة ولا صحبة لأبيه[١]. قال مجاهد: صليت خلف مسلمة بن مُخلد، فقرأ سورة البقرة، فما ترك واوًا ولا ألفًا[٢]. قال الليث: عزل عقبة بن عامر عن مصر فى سنة سبع وأربعين فوليها مسلمة حتى مات زمن يزيد[٣]، وقد توفى سنة ٦٢هـ فى ذى القعدة بالأسكندرية[٤]، وكانت له جهود فى الفتوحات بالشمال الأفريقى يأتى ذكرها بإذن الله تعالى، وكان المغرب كله تابعًا له[٥].

هذه هى أهم الولايات والولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه، ويمكن تلخيص صلاحيات الولاة بالولايات على الإجمال، كتعيين الموظفين، وتشكيل مجالس شورى، إنشاء الجيوش وتجهيزها بالنسبة للولايات القريبة من حركة الفتح الإسلامى، كمصر والبصرة، والحفاظ على الأمن الداخلى، والإشراف على الجهاز القضائى بالولاية، والنفقات المالية، ومراقبة الأوضاع بالولاية وغير ذلك من الصلاحيات.

****

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٢٤).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٥).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٦).
(٥) مصر فى العصر الأموى صـ٨٣.

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه

نريد أن نسجل حركة الانسياح الإسلامى فى الأرض، التى تمت فى عهد بنى أمية منذ عهد معاوية رضى الله عنه، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين، فحركة الفتح الإسلامى التى قامت فى عهد الخلافة الراشدة وبنى أمية ليست مجرد توسع فى الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار، إنما هى أكبر حركة (هداية) للناس فى التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور، وقد يبدو هذا الكلام فى حس المثقفين لأول وهلة مجرد تشابه مع دعوى كل (دولة عظمى) أنها نشرت الحضارة فى الأرض، وأن حركتها التوسعية كانت من أجل نشر تلك الحضارة، فلننظر إذن فى تاريخ (الإمبراطوريات) فى القديم والحديث: الإمبراطورية الفرعونية، والإمبراطورية الأشورية، الإمبراطورية الفينيقية، والرومانية، والفارسية، والهندية، والصينية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية، والروسية، . . . إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التى يعج بها تاريخ الأرض، كيف قامت أولاً؟ وما نشرت فى الأرض؟، فأما قيامها على التسلط بالقوة، وقهر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعهم لسيطرة الدولة الأم، وتحويلهم خدمًا لتلك الدولة الأم، يمدونهم بالرجال المقاتلين، ويمدونهم بمختلف الخيرات، لتنتفش هى وتشبع وتتخم على حساب الجائعين المقهورين الأذلاء، فهذا أمر لا يحتمل المراء[1]، وأما الذى نشرته فى الأرض فلا شك أنها نشرت بعض الخير، إلى جانبه كثيرًا من الفساد، لأن حياتها هى ذاتها - وهى لا تهتدى بمنهج ربانى - لا تشتمل إلا على بعض الخير والكثير من الفساد، وكل إناء ينضح بما فيه، وفاقد الشىء لا يعطيه، وأما الحضارة الغربية اليوم، ففظائع الاستعمار الذى صاحب تلك الحضارة من احتلال أراضى الشعوب ونهب خيراتها وإذلال أهلها خير شاهد على فسادها، كما أن آخر إفرازات هذه الحضارة الذى يسمى النظام العالمى الجديد، إن هو إلا نوع جديد من الطغيان تمارسه الدول القوية على الدول الضعيفة، ومن أبرز مآثره التخطيط للتحكم فى الدول المنتجة للبترول لحساب الدول الغربية القوية المتحكمة، وذلك باستنزاف هذا البترول فى مدة أقصر، وطرحه فى الأسواق بسعر أقل، لكى تزداد الدول الطاغية غنى ويزداد الفقراء فقرًا وذلاً وضياعًا باسم (النظام العالمى الجديد). ومن مآثره كذلك

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ صـ١١٨، ١١٩ .

إمداد إسرائيل بكل وسائل العدوان وحرمان الدول العربية من إمكانية صد العدوان. وأما أصحاب الرسالات السماوية السابقة من اليهود والنصارى فماذا نشروا فى الأرض؟ فأما اليهود فقد حولوا دينهم إلى عصبية خاصة ببنى إسرائيل، لا يحبون نشره فى الأرض لكى يبقى الإله خالصًا لهم لا يشاركهم فيه أحد من الناس، وأما النصارى فمنذ بولس وهم يسعون إلى نشر دينهم على نطاق واسع فأى شىء نشروه؟، لقد نشروا بادىء ذى بدء دينًا وثنيًا بدلاً من الدين الربانى الذى أنزله الله على عيسى ابن مريم. دينًا يعبد فيه عيسى وروح القدس جبريل عليه السلام مع الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. ونشروا دينًا يدعو إلى الرهبانية، وإهمال الحياة الدنيا واحتقار الجسد ودوافعه فنشأ عنه تعطيل دفعة الحياة وإهمال عمارة الأرض، ثم نشأ عنه رد فعل أسوأ وهو انكباب على لذائذ الجسد وماديات الحياة[(١)]، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، ونشأ مع ذلك الدين نظام كهنوتى يتمثل فى الكنسية ورجالها على رأسهم البابا يمارس ألوانًا من الطغيان البشع فى جميع نواحى الحياة، ويعادى الفكر ويحجر على العقل، ويضطهد العلماء ويمنعهم من البحث العلمى التجريبى أو النظرى، فتأخرت الحياة فى كل جانب، ثم حدث رد فعلٍ أسوأ، تمثل فى الإلحاد وإقامة الحياة على مبعدة من الدين، بل فى عداء مع الدين، وهكذا تحولت رسالة السماء على يد الكنيسة إلى غير ما نزلت من أجله، ونشرت الفساد بدلاً من الإصلاح، سواء فى الفترة التى كانت تمارس سلطانها على الناس، أو فى الفترة التى انقلب فيها الناس على سلطانهم ورفضوا الخضوع للدين[(٢)]، وفى مقابل ذلك كان الانسياح الإسلامى فى الأرض فريدًا فى التاريخ، شيئًا غير التوسع (الإمبراطورى) الذى مارسته الجاهليات القديمة والحديثة، وغير الطغيان المفسد الذى مارسته النصرانية المحرفة وهى تتوسع فى الأرض، فى تلك الحركة الفريدة فى التاريخ كان المسلمون ينشرون الهدى فى مكان الضلال، والنور فى مكان الظلام، والعبودية الصحيحة فى مكان العبوديات الزائفة للحكام والكهنة والأوثان، ويحررون المستعبدين فى

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ صـ١١٩ .
(٢) المصدر نفسه صـ١٢٠

الأرض، ويردون إليهم إنسانيتهم الضائعة، ويرفعونهم إلى المكان اللائق بالإنسان وكانوا ينشرون قيمًا من العدل والأخوة والتسامح والتكافل لا عهد للبشرية بها من قبل، ولا رأتها من بعد فى غير الإسلام، وينشرون حضارة حقيقية شاملة شامخة، لا يستأثرون بها لأنفسهم، بل يفتحون أبوابها لكل مسلم فى الأرض، بل يستظل بظلها النصارى فى الأندلس وشرق أوربا، واليهود فى مختلف بلاد العالم الإسلامى، والوثنيون عباد البقر فى الهند، وكل من أراد أن يتعلم أو يمارس الحياة دون عدوان[1]. لم ينهب المسلمون خيرات البلاد المفتوحة، ولم يستذلوها ليتمتعوا بالسلطان، ولم يحافظوا عليها متأخرة متدنية ليبرروا استمرار سيادتهم عليها واستعلاءهم على أهلها.. إنما دعوهم أولاً إلى الخير -وهو الإسلام- فإن استجابوا فهم إخوة فى الدين.. وإن أبوا طلبوا منهم جزية تدل على عدم مقاومتهم للخير المنزل من السماء أن يصل إلى قلوب الناس صافيًا بلا غش، فإن أبوا هذا وذاك فعندئذ يقع القتال، لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما لإزالة مراكز القوى التى تمنع الحق أن يصل إلى الناس على حقيقته.. فإذا أزيلت مراكز الطغيان، وزال تأثيرها على النفوس، ترك الناس أحرارًا فى ظل الإسلام، يعتنقون ما يشاءون[2].

إن حركة الفتح الإسلامى؛ دوافعها وخصائصها، وآثارها الواقعة لهى فصل أساسى فى كتابة التاريخ الإسلامى، لابد أن يعالج باستفاضة لدحض مزاعم المستشرقين ومن يتتلمذ عليهم من بعض المؤرخين العرب وغيرهم.. وإن كنا نورده هنا من زاوية معينة: هى دلالتها على مدى عمق الوجود الإسلامى فى نفوس الأمة التى تتحرك به، ولن تتحرك به أمة هذه الحركة الواسعة السريعة الفعالة المؤثرة وهى نفسها خاوية منه أو غير ممتلئة به حتى أعماقها[3]. وأول ما يسقط من دعاوى المغرضين فى هذا الشأن ـ لفرط هشاشته ـ قول من قال إن الدوافع الاقتصادية هى التى دفعت حركة الفتح الإسلامى! إن الذى تحركه الدوافع الاقتصادية لا يخرج ليدعو الناس ـ أول ما يدعوهم ـ إلى الإسلام، فإن أسلموا ألقى سلاحه وعانقهم كما يعانق الأخ أخاه، وأخذ يعلمهم تعاليم الإسلام ليشاركوه فى الخير الربانى الذى هداه الله إليه، فأصحاب هؤلاء الفرية يفترون الكذب على التاريخ[4]، وتسقط الدعاوى الأخرى تباعًا وتبقى حقيقة مهمة هى أن هذه الحركة لا يمكن أن تأخذ صورتها التى أخذتها بالفعل، إلا أن تكون صادرة عن أمة ممتلئة بهذا الدين حتى أعماقها، حريصة عليه، مؤمنة به، راغبة فيه، راغبة فى نشره فى آفاق الأرض، فالقوة وحدها لا تفسر ما حدث فى هذه الحركة من العجائب، فكم

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ صـ١٢٠ .

(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه صـ١٢١ .

استخدمت القوى الطاغية فى الأرض قوتها للتوسع فى الأرض، فلم تصنع ما صنعته الحركة الإسلامية. إن السيف، يمكن أن يفتح الأرض،ولكنه لا يفتح القلوب، والذى حدث فى حركة الفتح الإسلامى لم يكن مجرد التوسع فى الأرض، إنما كان فتح القلوب لتعتنق الإسلام، وكان ـ فى كثير من الأقطار ـ اتخاذ لغة الدين لغة رسمية، ونسيان الشعوب المفتوحة ما كانت تستعمله من قبل من اللغات، حتى الذين بقوا على دينهم بغير إكراه لو لم يكن الفاتحون مسلمين حقًا، بمعنى الإيمان بهذا، وممارسته فى عالم الواقع والتمكن منه عقيدة وسلكًا وحركة، ما حدثت هذه العجائب فى الفتح الإسلامى.

وأمر آخر يتعلق بهذه القوة ذاتها إنها فى غالب الأحيان لم تكن هى الأكبر عددًا وعدة وخبرة حربية... إنما كان العدد والعدة والخبرة فى الجانب الآخر، جانب الذين انهزموا أمام قوة المسلمين، فلو لم يكن هناك عنصر آخر غير مادى ـ فى جانب الفاتحين ـ ما تمكنوا من التغلب على أعدائهم الذين يفوقونهم فى فنون الحرب، كما يفوقونهم فى العدد والعدة سواء، ذلك العنصر هو العقيدة الحية التى تملأ القلوب، وهذه هى الدلالة التى نركز عليها هنا فى وجه الدعاوى التى تقول: إن انحرافات بنى أمية قضت على هذا الدين وهو بعد فى المهد. وتلك نقطة ينبغى أن نقف عندها طويلاً حتى نقومها فى نفوس الدارسين، ينبغى أن نلغى من حسهم ذلك الإيحاء الخبيث بأن الإسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود، ويكون ذلك بعرض الواقع الإسلامى بأمانة كاملة ودقة كذلك.. وسيتبين لنا بالحساب، حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات أن الحصيلة المتبقية ضخمة جدًا رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالى فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته، وأصالة جذوره فى التربة وتعمقها، بحيث تبقى هذه الحصيلة الضخمة، وتبقى تلك الحيوية، التى تسعى لنشر الدين فى الأرض بكل الإصرار والتدفق والحماسة التى قام بها المسلمون فى العهد الأموى بالذات(١).

وأما ما حدث من الهبوط عن مستوى الذروة فقد حدث ولا شك على درجات متفاوتة فى بعض أفراد المجتمع، أو قل إن شئت فى كثير منهم، وهذا لا يعتبر فى ذاته انحرافًا إنما هو الأمر المتوقع بعد غياب شخص الرسول ﷺ عن ذلك المجتمع، وبعد زوال أثر النشأة الجديدة من نفوس الناس، فنحن الآن لسنا فى العهد الذى شهد التحول العظيم من الجاهلية إلى الإسلام، إنما العصر الذى يليه، ولكن فلنذكر جيدًا تزكية رسول الله ﷺ لذلك الجيل من الناس: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٢). فنحن إذن ما زلنا مع

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ صـ١٢٢.

(٢) البخارى..

القرون المفضلة، وليس بعد شهادة رسول الله ﷺ شهادة بشر[1]، صحيح أننا الآن مع المستوى العادى للإسلام، ولكن ذلك المستوى رفيع فى ذاته، وإن لم يكن على مستوى الذروة التى وصل إليها الجيل الفريد، وأنه يحقق للناس من الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه نظام آخر[2]، والحق أنه قد بقى فى مجتمع بنى أمية أفراد على المستوى الرائع، بل لم يخل جيل من أجيال المسلمين كلها ـ حتى فى عصور الانحطاط ـ من نماذج متفرقة على ذلك المستوى الرفيع، إنما الملاحظ أن كثافة تلك النماذج فى مجتمع الذروة كانت فذة بصورة غير عادية، ثم ظلت تخف تدريجيًا مع مرور الزمان[3].

إن استئناف حركة الجهاد فى عهد معاوية لم يكن بدعة على سياسته، فقد استمد كثيراً من الشهرة العريضة والمكانة العريضة من كفايته كوالٍ على بلاد الشام وهى جبهة واسعة من جبهات الجهاد، ومن شهرته كمجاهد موفق فى البر والبحر منذ عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، وكان له فتوحاته الكبرى فى الساحل الشمالى للشام، كما أن له الفضل ـ بعد الله ـ فى تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم فى البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة فى تاريخ المسلمين[4]، فالجهاد فى سبيل الله أصل فى حياة المسلمين فى عهد الدولة الأموية، ولم تكن الغنائم هى الدافع الرئيسى للقيادة الإسلامية نحو الفتح والجهاد، وإن وجد لدى بعض الأفراد، وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد رسول الله ﷺ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا..﴾ [آل عمران: ١٥٢] وغيرها ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين فى فتوحاتهم، ولا يمثل القيادة الفكرية التى كان يتبناها الخليفة والقادة وينفذها الجند، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام[5]، ومما يدل على ذلك مشاركة كبار الصحابة فى ذلك الوقت فيها وحثهم المسلمين على الجهاد فى سبيل الله. وحوادث الجهاد وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك: فجبهة الروم مثلاً وهى التى كانت مثار الشجاعة ومرتع البطولة ما كانت تدر الربح الكثير بل كان بيت المال يئن منها، لأن حملاتها ما كانت تنتهى إلى تقدم[6]، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاث الكبرى التى توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة[7]. لقد أعطى المجاهدون المسلمون فى العهد الأموى صوراً رائعة للتضحية والبطولة والتجرد وإخلاص النية لله فى جهادهم، سواء كانوا من

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ صـ١٢٣ .
(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ١٢٣ .
(٤) الدولة الأموية حمدى شاهين صـ٢٣٩ .
(٥) الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين صـ٧٨ .
(٦)، (٧) الدولة الأموية، يوسف العشى صـ٣٤٦ .

القادة أو الأمـراء أو من عامة الجند، أو من جـماعات العلماء والزاهـدين والربانيين الذين فهـموا عبادة الجـهاد، ومارسـوا ذلك على نحو مثيـر للإعجاب ودافع إلى التـأسى، وقد توزعت صور الإخـلاص والتضحية هذه عـلى جميع جبـهات القتال، وفى جمـيع مراحل الجهاد، مما يدل دلالة واضحـة على عمق التوجه الإسلامى للفتوحـات فى العهد الأموى، وينفى الغـبش الذى يثيره المنحـرفون عن بنى أمـية على أنصع منجـزاتهم وأحراها بالفـخر والإعزاز، ومما لاشك فيه إسلامية الفتوح فى العهد الأموى(١)، وقد كانت الحصيلة النهائية والحصيلة التاريخية لحركة الفتوح لذلك العصر، امتداد عالم الإسلام إلى آفاق بعيدة وكسب ـ عبر امتداده هذا ـ الأرض والإنسان، كما أنه حمى وعزّز فى الوقت نفسه منجزات الموجة الأولى فى حركـة الفتح التى قـادها وخطط لها الخلفاء الراشـدون، فالموجـة الثانية لحـركة الفتوح هى التى بدأت فى عهد مـعاوية نفسه واستمرت فيما بعـد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد(٢).

****

(١) الدولة الأموية المفترى عليها.

(٢) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ صـ٩٢، ٩٣ عماد الدين خليل.

المبحث الأول

حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية

كان معـاوية رضى الله عنه يرى أن الخطر الأكبر من وجهة نظره الدولة البـيزنطية، وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها فى الشرق - الشام ومصر - إلا أن جسم الدولة ما زال سليمًا لم يمس، فعاصـمتها باقيـة، وممتلكاتها فى آسيا الصـغرى وأوربا وشمال إفريقـيا ما زالت شاسـعة وإمكانياتهـا كبيـرة، وقدرتهـا على المقاومة هائلة، وهى لم تكـف بعد عن مناوأة المسلمين، وباختصار فهى العدو الرئيسـى والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين، وكان معاوية رجل المرحلة وقادرًا على فهم وتقدير هذا الخطر، وعلى مواجهته، أيضًا، فقد كان موجودًا بالشام منذ مطلع الفتوحات فى عهد أبى بكر الصديق، وأصبح واليًا عليه ولمدة عشرين سنة تقريبًا، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسى مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية رضى الله عنه بالشام، أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معـهم، لكل ذلك فليس غريبًا أن نرى معاوية يولى حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه، ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمـويين إلى نهاية دولتهم، وقد كان من أهدافه الرئيسـية الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية[1].

أولاً: معاوية والقسطنطينية:

بعد أن أستـقر الأمر لمعاوية بن أبى سفـيان سنة ٤١هـ خليفة للمـسلمين بدأ فى تطوير الأسطول البحرى ليكون قادرًا علـى دك معاقل القسطنطينية عاصمـة الروم ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، فبعد أن قضى مـعاوية على حركات المردة أو الجراجمة الذين استخدمهم الروم وسـيلة لرصد حركات الدولة الإسلامية ونقاط ضـعفها وإبلاغ الروم عنها متـخذين من مرتفـعات طوروس وجبل اللكام مـقرًا لهم[2]، بدأ الخليفة نشـاطه البحرى بإرسال حملات بحرية استطلاعية منهـا حملة فضالة بن عبيد الأنصارى[3]، للوقوف على

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤١ .

(٢) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى صـ٥١ .

(٣) المصدر نفسه صـ٥١ نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين.

تحركات الروم وجلب المعلومات الدقيقة عنهم لمنعهم من استخدام جزر قبرص، وأرواد[1]، ورودس ذوات الخدمة التعبوية والعسكرية فى عملياتهم ضد الأسطول الإسلامى وقد باشر أعماله الاستطلاعية بإحدى الشواتى وهى شاتية بسر بن أبى أرطأة فى البحر عام ٤٣هـ،[2]

وأعقبها بشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم سنة ٤٦هـ وصائفة عبد الله بن قيس الفزارى بحرًا، وحملة عقبة بن عامر الجهنى بأهل مصر فى البحر سنة ٤٨هـ، وصائفة بن عبد الله بن كرز البجلى، وحملة بن عبد الله بن يزيد بن شجر الرهاوى، وشاتيته بأهل الشام فى سنة ٤٩هـ[3]، وكان نظام الشواتى والصوائف مستمرًا. فقد وضع معاوية أمامه هدفًا واضحًا وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيدًا للاستيلاء عليها، ولعل معاوية رضى الله عنه كان يرمى إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها بالاستيلاء على عاصمتها، فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هى مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت فى يده فإن هذا سيؤدى إلى شلل كامل فى الدولة كلها، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم فى أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم، فإذا استطاع إسقاط عاصمة البيزنطيين فسيكون ذلك نذيرًا بإسقاط الدولة، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيسى، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه، وليس من المبالغة القول إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون، وهى مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها، حال دون ذلك، وبالتالى حال دون سقوط الدولة والدليل على هذا أنه عندما استطاع السلطان العثمانى محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها فى سنة ٨٥٧هـ ـ التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م كان إيذانًا بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود[4].

ثانيًا: التخطيط الاستراتيجي عند معاوية للاستيلاء على القسطنطينية:

حرص معاوية رضى الله عنه أن يكون زمام المبادرة دائمًا فى يده، لأنها هى التى تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام، وقد سار فى تحقيق هذا الهدف فى عدة اتجاهات:

(١) أرواد: جزيرة قرب القسطنطينية، ياقوت الحموى، معجم البلدان (١/ ٢٠٧).

(٢) مواقف حاسمة صـ٣١، محمد عبد الله عنان.

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ١٣٤)، العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى صـ٥١ .

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤٤ .

١ ـ الاهتمام بدور صناعة السفن فى مصر والشام، واختيار أمهر الصناع للعمل فيها والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم بالعمل[١]، فقد أدرك معاوية ـ رضى الله عنه ـ بحسه العسكرى وفكره العبقرى أن معارك المسلمين مع الروم، ستعتمد أساسًا على الأسطول البحرى، وزاد هذا الإحساس عمقًا فى قلب معاوية ونفسه تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة فى معركة ذات الصوارى لقهر الأسطول الإسلامى، ومع أن الروم باءوا بفشل ذريع فى هذه المعركة، إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد ولم ينتهوا عن تجميع قواتهم لمواجهة قوة المسلمين في البحر، لقد كانوا يظنون أن قوة المسلمين البحرية يمكن القضاء عليها لأنها ما زالت فى دور التكوين، ولكنهم فوجئوا بهزيمتهم المنكرة فى ذات الصوارى، فتوقعوا بعد ذلك أن تكون المعركة القادمة على أسوار العاصمة القسطنطينية فراحوا يستعدون لذلك[٢]، وقد أدى التعاون بين مصر والشام فى صناعات السفن إلى الوصول إلى نتائج ممتازة، ففى الشام كانت تتوافر أخشاب الصنوبر القوى والبلوط والعرعر التى تصلح لبناء السفن، وفى مصر كانت توجد الأخشاب التى تصلح لعمل الصوارى، وضلوع جوانب السفن. وخشب الجميز واللبخ والدوم التى تصلح لصناعة المجاديف[٣]، وكذلك استغل معاوية معدن الحديد الذى كان متوافرًا فى مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسى والخطاطيف والفئوس، كما كان يتوافر فى مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن، ونبات الدقس الذى كانت تصنع منه الحبال، وباختصار فقد أدى التعاون المصرى الشامى إلى ازدهار البحرية الإسلامية التى ازدادت أهميتها بعد أن أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى ببناء دار لصناعة السفن فى جزيرة الروضة عام ٥٤هـ[٤]. وذلك على أثر غارة شنها البيزنطيون على مصر[٥].

٢ـ تقوية الثغور البحرية فى مصر والشام: فقد آثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المجاهدة بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحرًا إلى أى مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظامًا عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعدادًا للقيام بحملة على أرض العدو، واعتنى بهذا النظام حتى أصبح جزءًا مرتبطًا أشد الارتباط بالجهاد، إذ اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين على إعزاز الإسلام ونصرته[٦]، وتدرج معاوية رضى الله عنه فى تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه فى كل

(١) العالم الإسلامى فى الأموى صـ٢٤٥ .
(٢) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ١٥٤).
(٣) تاريخ الدولة العربية صـ٣١٢ .
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢٤٦ .
(٥) كتاب الولاة والقضاة للكندى صـ٣٨ .
(٦) الأمويون والبيزنطيون صـ ٦٨ .

أعماله التي اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع، فأعد الرباط لتكون حصونًا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل البيزنطية، ولتكون ملجأ يحتمى به الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى المياه الإقليمية، فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم، ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرجًا للمراقبة، ثم لم يلبث أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات[1]، وتعتبر سياسة منح الإقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة فى سلم السياسة البحرية الدفاعية التى رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر فى عهد عثمان، إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التى أخذ ينشىء فيها أساطيله، وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالى بعلبك وحمص وأنطاكية عام ٤٢هـ إلى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن، كذلك أصلح معاوية رضى الله عنه حصون هاتين المدينتين ولاسيما عكا التى خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص، وبسط معاوية رضى الله عنه اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية[2].

٣ـ **الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط:** وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرص ـ كما سبق ذكره ـ ثم استولى على جزيرة أخرى هامة وهى رودس وأمر ببناء حصن بها، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها، وجعلها رباطًا يدفعون منه عن الشام، وآثر معاوية أن يحيط المسلمين فى رودس بالجو الإسلامى الدينى، ويعلى راية الإسلام بين أهاليها، فأرسل إليها فقيهًا يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن،[3] وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية فى وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك فى الاستيلاء على جزيرة (كريت) إذ تسيطر هذه الجزيرة تمامًا على بحر إيجة، الذى يشبه طرفه الجنوبى فوهة قربة تمتد جزيرة (كريت) عبرها، بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلاً وتقسم الجزيرة هذه فتحة إلى مدخلين يتحكم فى كل منهما، وأرسل معاوية جنده الذى استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام على أن جنادة بن أمية الأزدى لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها، وهكذا وجه معاوية رضى الله عنه أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط، وأوقفهم على أهمية جزره،

(١) الأمويون والبيزنطيون صـ٦٩ .
(٢) المصدر نفسه صـ٧٠ .
(٣) المصدر نفسه صـ٨١ .

فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها، وطرق باب غيرها ومهد الطريق لمن يأتى بعده من الخلفاء الأمويين، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين أنفسهم سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل فى تاريخها، وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها، ولكن تريث معاوية فى تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحرى على البيزنطيين(١).

٤ ـ كان من الضرورى لكى تؤتى هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية، التى تشكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، ضد غارات البيزنطيين من ناحية ولتكون سندًا للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية، ذلك لأن المسلمين فى فتوحاتهم الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين، وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وإنطاكيا لئلا يستفيد منها المسلمون، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الأسكندرونة وطرسوس(٢)، فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها، فاهتم أولاً بمدينة أنطاكيا التى كانت معرضة دائمًا للإغارات البيزنطية المفاجئة، واتبع فى تعميرها السياسة التى سار عليها إزاء المدن الساحلية للشام، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكيا، بأن منحهم إقطاعات من الأرض، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم وأخذ معاوية يوالى تدريجيًا تعمير المدن الواقعة بين الأسكندرونة وطرسوس أثناء غاراته على أراضى البيزنطيين حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى. ولإحكام سيطرته على المعاقل الهامة الواقعة فى مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية، استولى على سميساط وملطية، كما جدد حصونًا أخرى مثل مرعش والحدث، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطى الهام وأعاد تحصينه(٣)، ولكى تكون الحركة مستمرة وتكون مناطق الحدود ميدانًا عمليًا لتدريب جند المسلمين، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة دأب معاوية على الغزو المستمر، وأصبح هذا النشاط العسكرى يعرف بغزوات الصوائف والشواتى(٤)، فلا تكاد تمر

(١) الأمويون والبيزنطيون صـ٨٢ .

(٢) فتوح البلدان صـ١٩٤ البلاذرى، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤٧ .

(٣) الأمويون والبيزنطيون صـ١١٠، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤٧ .

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤٨ .

سنة وإلا ونجد ذكرًا عند الطبرى وغيره لغزو فى البر أو البحر كأن يقول: وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم[١]، وكانت هذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرب تحصيناتهم وتغنم وتعود، وكان تكرار هذه الغزوات يشكل ضغطًا على الدولة البيزنطية ويرهق أعصابها وينهك قواها[٢]، وقد برز فى هذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم فى ميدانها وأتقنوا فن الحرب، مثل عبد الله بن كرز البجلى، ويزيد بن شجرة الرهاوى، ومالك بن هبيرة السكونى، وجنادة بن أمية الأزدى، وسفيان بن عوف، وفضالة بن عبيد[٣]، ومالك بن عبد الله الخثعمى، الذين أطلقوا عليه مالك الصوائف لعلو كعبه فى الميدان الحربى فى آسيا الصغرى[٤]، وهؤلاء القادة أبلوا بلاءً حسنًا فى الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله[٥].

ثالثًا: الحصار الأول للقسطنطينية:

بعث معاوية رضى الله عنه سنتى ٤٧ ـ ٤٨هـ سرايا من قواته لتغير على الأراضى البيزنطية لتمهد الطريق فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية فتمكن مالك بن هبيرة السكونى من قضاء الشتاء فى الأراضى البيزنطية[٦]، ولقد شهدت سنة ٤٩هـ/٦٦٩م أول حصار إسلامى لمدينة القسطنطينية، ذلك أن نجاح قوات المسلمين فى توغلهم فى الأراضى البيزنطية بالإضافة إلى الصراعات الداخلية التى واجهها الإمبراطور قُسطانز الثانى نتيجة تمرد اثنين من قادته هما سيليوس وميزيريوس[٧]، كل ذلك ساعد معاوية رضى الله عنه على أن يبعث قواته فى البر والبحر بقيادة كل من فضالة بن عبيد الليثى وسفيان بن عوف العامرى يساعدهما يزيد بن شجرة الرهاوى، تجاه القسطنطينية[٨]، ووصل الأسطول الإسلامى إلى خلقيدونية ـ ضاحية من ضواحى القسطنطينية على البر الآسيوى ـ وحاصرها توطئة لاقتحامها فى محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتشار مرض الجدرى وفتكه بكثير من جند المسلمين علاوة على حلول الشتاء القارص جعل ظروف الجيش المحاصر

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٥) .

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤٨ .

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤٨ .

(٤) الأمويون والبيزنطيون نقلاً عن العالم الإسلامى صـ٢٤٨ .

(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٤٨ .

(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٥) خلافة معاوية للعقيلى صـ١٠٨ .

(٧) يشير إبراهيم العدوى إلى أن الإمبراطور قتل وجيء بابنه قسطنطين الرابع .

(٨) تاريخ الطبرى (٦/١٤٨) .

صعبة للغاية، فما كان من فضالة بن عبيد الليثى، قائد الجيش البرى إلا أن استنجد بمعاوية طالبًا منه أن يمده بقوات إضافية، فأرسل معاوية رضى الله عنه مددًا من الجيش يضم بين أفراده مجموعة من الصحابة، أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو أيوب خالد بن يزيد الأنصارى، رضى الله عنهم[1]، وكان القائد العام لهذه الفرقة هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وعندما وصل يزيد بقواته إلى خلقيدونية انضم إلى الجيش المرابط هناك، وزحفوا جميعهم نحو القسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها ضاربين عليها الحصار حوالى ستة أشهر (من الربيع إلى الصيف) وكان يتخلل هذا الحصار اشتباكات بين قوات الفريقين، وأبلى يزيد فى هذا الحصار بلاءً حسنًا وأظهر من دروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه بـ(فتى العرب)[2]. وكادت القوات الإسلامية أن تحرز انتصارًا لولا أنها واجهت صعوبات جمة منها: الشتاء الغزير المطر والبرد القارص مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية، وتفشى الأمراض بينهم، كما كان لمناعة أسوار القسطنطينية أثرها فى تراجع المسلمين وإجبارهم مرة أخرى على العودة إلى بلاد الشام[3]، كما كانت النار التى فتحها المتحصنون بها على جيش المسلمين من أهم الأسباب التى عوقت قدرتهم على فتحها، فقد أحرقت النار كثيرًا من سفن المسلمين[4]، ويعد غزو القسطنطينية من دلائل النبوة حيث أخبر به نبينا محمد ﷺ حيث قال: **«أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»**[5]، وقد اشترك فى غزو القسطنطينية عدد من كبراء الصحابة رضوان الله عليهم، طلبًا للمغفرة التى بشر بها رسول الله ﷺ[6].

رابعًا: وفاة أبى أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية:

هو خالد بن زيد بن كليب، أبو أيوب الأنصارى الخزرجى، شهد بدرًا والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع على رضى الله عنه قتال الخوارج، وفى داره كان نزول رسول الله ﷺ، حين قدم المدينة مهاجرًا من مكة فأقام عنده شهرًا حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٨).

(٢) الأمويون والبيزنطيون صـ١٦٤، خلافة معاوية صـ١٠٩.

(٣) الكامل فى التاريخ (٦/ ٤٨٠)، خلافة معاوية للعقيلى صـ١١٠.

(٤) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ٥٩).

(٥) البخارى، صحيح البخارى مع فتح البرى (٦/ ١٢٠).

(٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٢٠.

تحوّل إليها[1]، وقد وفد أبو أيوب على عبد الله بن عباس لما كان واليًا على البصرة فى عهد على، فبالغ فى إكرامه، وقال: لأجزينّك على إنزالك النبى ﷺ عندك، فوصله بكل ما فى المنزل فبلغ ذلك أربعين ألفًا[2]، وجاء فى رواية لما أراد الانصراف خرج له عن كل شىء بها، وزاده تحفًا وخدمًا كثيرًا وأعطاه أربعين ألفًا وأربعين عبدًا، إكرامًا له لما كان أنزل رسول الله ﷺ فى داره، وقد كان من أكبر الشرف له[3]. وهو القائل لزوجته أم أيوب حين قالت له: أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ - أى فى حديث الافك - فقال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله. فقال: والله لهى خير منك فأنزل الله[4] ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. وقد آخى رسول الله ﷺ بين أبى أيوب ومصعب بن عمير[5] -رضى الله عنهما- صاحب الفتح السلمى الكبير بالمدينة المنورة.

وكانت وفاته ببلاد الروم قريبًا من سور قسطنطينية، وكان فى جيش يزيد بن معاوية وإليه أوصى وهو الذى صلى عليه[6]. وقد جاء فى رواية: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا متُّ فاحملونى، فإذا صافقتم العدوَّ، فارمونى تحت أقدامكم. أما إنى سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[7]، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية، وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نُبش، لاضرِبَ بناقوس فى بلاد العرب[8]. وبعد مجىء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانة أبى أيوب الأنصارى عظيمة فى الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينيًا فى مسجد أبى أيوب، حيث يتقلدون سيفًا للرمز إلى السلطة، التى أفضت إليهم. وكان لأبى أيوب رضى الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولى الله الذى تهوى إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله، فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أن له مكانة مرموقة بين المجاهدين واعتبروا ضيافته لرسول الله وجهاده فى سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره[9].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٥١) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٤) .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢) .
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٢)، البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٥) .
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٢) إسناده قوى .
(٨) المصدر نفسه (٢/ ٤١٢) .
(٩) الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى، حسين المصرى صـ١٢ .

وقد ترك أبو أيوب رضى الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل فى أرض العدو حيًا وميتًا، وكأنما لم يكفه ما حقق فى حياته فتمنى مزيدًا عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق(١). ومن الغريب ما نراه في حياتنا من حرص بعض المسلمين إذا مات خارج بلده أن يوصى أهله بإرجاعه ودفنه فى أرضه والأرض أرض الله والبلاد بلاد الله. وقد مدحه شعراء الأتراك فى أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندى يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهدًا ومجاهدًا ... ومكابدًا بحروبه ما كابدا
حتى أتى بصلابة ومهابة ... فى آخر الغزوات هذا المشهدا
قد مات مبطونًا غريبًا غازيًا ... فغدا شهيدًا قبل أن يستشهدا

كان أبو أيوب رضى الله عنه عندما خرج فى غزوة القسطنطينية قد تقدمت به السن وأصبح شيخًا كبيرًا وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً...﴾ [التوبة: ٤١] لا أجدنى إلا خفيفًا أو ثقيلاً(٢)، وكان أبو أيوب رضى الله عنه يعلم الناس الفهم الصحيح لآيات الله ومفاهيم الإسلام، فعن أبى عمران التجيبى قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ـ يعنى الجماعة الذين غزوا من المدينة ـ والروم ملصقو ظهورهم بحائط القسطنطينية، فحمل رجل على العدو فقال الناس :مه، مه لا إله إلا الله، يلقى بيديه إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلمَّ نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد. قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية.(٣) فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، وإن الهلاك الحقيقى هو هلاك الآخرة بسبب التهاون فى واجبات الإسلام(٤).

(١) الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى صـ٦٨ .
(٢) سكب العبرات للموت والقبر والسكرات (١/ ١٧٥) .
(٣) سنن أبى أيوب رقم ٢٥١٢، سنن الترمذى رقم ٢٩٧٢ .
(٤) التاريخ الإسلامى (١٣/ ١٥) .

خامسًا: الحصار الثاني للقسطنطينية :

استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة والاستيلاء على جزر رودس وأرواد اللتين سبقت الإشارة إليهما، وقد كان لجزيرة أرواد والتى تسميها المصادر الأوربية كزيكوس أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامى فى حصاره الثانى للمدينة أو حرب السنين السبع ٥٤ ـ ٦٠هـ قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية أعد أسطولاً ضخمًا، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطًا أمام أسوارها من سنة ٥٤هـ إلى سنة ٦٠هـ[١]، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام، استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات[٢]، حتى أرهقت البيزنطيين، وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف وأنزلت بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم تستطع اقتحام المدينة أو التغلب على حراسها المدافعين عن أسوارها[٣].

وكانت العوامل التى ساعدت القسطنطينية على الصمود عديدة منها:

١ ـ استعمال البيزنطيين فى هذه المعارك نارًا سموها النار البحرية أو النار الأغريقية وهى عبارة عن مركب كيمائى مكون من النفط والكبريت، القار، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيها النار، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالاً إذا لامس الماء. ومخترع هذا المركب الكيميائى الفتاك، الذى فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم هو مهندس سورى الأصل اسمه كالينكوس، كان فى أوائل الأمر فى خدمة المسلمين ثم هرب إلى القسطنطينية، ووضع خبرته فى خدمة البيزنطيين[٤]. وكان هذا السلاح الجديد من أهم العوامل التى ساعدت البيزنطيين على الصمود والاستمرار فى الدفاع عن العاصمة، وظل هذا السلاح سرًا خفيًا، لا يعرفه إلا المتخصصون فى صناعته، وكان الأباطرة يمدون حلفاءهم بهذا السلاح دون أن يطلعوهم على سره، ، ومرت أربعة قرون، وهو سلاح غامض لم يعرف كنهه سوى مخترعه، وفى القرن العاشر المسيحى، الرابع الهجرى، عرف

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٠ إلى ٢٤٠) . (٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٥١، ٢٥٢ .

(٣)، (٤) الأمويون والبيزنطيون صـ١٧٦، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٥٢ .

الباحثون سر هذه النار، وبينوا العناصر التى تكونت منها، والوسائل التى يمكن إخمادها بها، وتطور هذا السلاح حتى كان منه ما يشبه المفرقعات، وكانت تلقى على الأعداء بواسطة المجانيق، أو أنابيب نحاسية تقذف من السفن، وكان لها صوت مدو يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف، وشغل هذا الاختراع عقول العلماء المسلمين، فراحوا يبحثون ويفكرون، حتى عرفوا سره فى مطلع القرن الحادى عشر المسيحى، الخامس الهجرى، وأدخلوا عليه تعديلات جعلته أشد فتكًا، وأقوى أثرًا من النار الإغريقية. واستخدم المسلمون هذا السلاح الفتاك فى حروبهم مع الصليبيين بأرض الشام، وكان وقعه شديدًا على الصليبيين، ونشر فيهم الرعب والفزع، ومن ذلك الحين عرفت هذه النار (بالنار الإسلامية[١])، يقول الدكتور إبراهيم العدوى: إن الأعداء عجزوا عن معرفة هذا السلاح الجديد الذى احتضنه المسلمون، وظل استخدام النار الإسلامية سائدًا حتى القرن الرابع عشر المسيحى، الثامن الهجرى، حيث دخلت عليها تطويرات وتعديلات كثيرة، أدت أخيرًا إلى صناعة البارود. ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير فى أساليب الحرب التى عرفها العالم الحديث، وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفى الأيدى أمام أى سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم[٢]. ونسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين لإيجاد حل للتفوق العسكرى الأمريكى والغربى عليهم.

٢ - السلسلة الحديدية الضخمة، الحاجزة ما بين القرن الذهبى ميناء القسطنطينية وبين الشاطئ الآسيوى، حيث كان يتم إقفالها فى حالات الحرب أو التهديد بالحصار[٣].

٣ - الموقع الجغرافى الفريد الذى وصفه المؤرخ بينز بأنه (استقر على شبه الجزيرة البارز من أوروبا، والذى يكاد يلاقى الشاطئ الآسيوى، وفى وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية فى بقعة يحميها مدّ مرمرة العنيف من الهجمات البحرية.

٤ - الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة والمزوّدة بعدد كبير من أبراج المراقبة التى كان لها دور فى كشف التحركات المعادية وإبطال عنصر المفاجأة فيها .

٥ - ضعف التجربة الأموية فى حرب الحصار للمدن المتداخلة مع مياه البحر، مثل القسطنطينية، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة بأساليب جديدة فى القتال، لم تكن فى متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين[٤].

(١) الأمويون (١/ ٦٥) محمد سيد الوكيل .
(٢) الأمويون والبيزنطيون صـ١٧٨ .
(٣) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك صـ١٦٧
(٤) المصدر نفسه صـ١٦٨ .

٦ - دبلوماسية الدولة البيزنطية والإسلامية: لقد تظاهرت عدة عوامل ساهمت فى منع سقوط القسطنطينية منها: مناعة المدينة الطبيعية وقوة تحصيناتها، والنار الإغريقية، وشدة الطقس وقسوته، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود لتحول دون استيلاء المسلمين على المدينة، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق. وفى النهاية دعت الظروف الداخلية فى كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار، فدخلوا فى مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما، عاد بمقتضاه الجيش الإسلامى والأسطول إلى الشام.. ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ولما كانت سنّه قد كبرت، وأحس بدنو أجله، رأى من المصلحة أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسبًا لأى مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته، فيكون وجود هذا الجيش عنده ضروريًا لضبط الأمور داخليًا، كذلك كانت الدولة البيزنطية تواقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها، فقد أرهقها وأنهك قواها، ولذلك يقال: إنها أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين، وأكثرهم ذكاء وفطنة، وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموى وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، ونجحت مفاوضاته فى عقد صلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة برًا وبحرًا أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة(١).

سادسًا: العلاقات السلمية بين الدولتين:

رغم أن الطابع العام الذى ميز العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية فى عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموى كان عسكريًا نتيجة لحركة الجهاد واستمرارها فى العهد الأموى من حملات الصوائف والشواتى طوال السنة تقريبًا، وكذلك الدور الجهادى الذى كانت تؤديه مدن الثغور، إلا أن هذا لا يعنى أن الطابع السلمى المتمثل فيما جرى من مفاوضات ومداولات كان مفقودًا فقد اتخذت العلاقات السلمية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية فى العهد الأموى أشكالاً مختلفة منها المراسلات، وتبادل الخبرات، والمناظرات فى المجالات الثقافية، وتبادل الأسرى والسفراء(٢).

---

(١) الأمويون والبيزنطيون صـ١٧٥، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٥٣ .

(٢) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى صـ١٢٢، ١٢٣ .

١ـ المراسلات: فقد تم مراسلة قيصر الروم من قبل معاوية فى فترة الفتنة وتوصل معه إلى عقد صلح على أن يؤدى معاوية له مالاً وأن يأخذ كل طرف رهنًا من الطرف الآخر(١)، وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم، وخلوا سبيلهم وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر(٢)، والمهم أن مثل هذه الحوادث يجب أن تُقدَّر بقدرها فلا يجوز للدولة الإسلامية -فى الأصل- أن تتهاون وتتكاسل عن الأخذ بأسباب القوة حتى تصل إلى مرحلة من الضعف تمكّن الأعداء منها أو يطمع فيها الطامعون، بل الأصل فى دولة الإسلام أن تكون دولة قوية يهابها الأعداء، فإذا مرت بها فترة ضعف أو احتاجت إلى دفع ضرر عليها بمال أو نحوه فذلك يدخل من باب (الضرورات) وليس حكمًا عامًا (وما أبيح للضرورة يُقدّر بقدرها) كما قرر الفقهاء(٣)، فلا ينبغى عقد صلح دائم مع العدو بدفع المال إليه، بل يجب أن يكون الصلح والدفع لفترة ضعف المسلمين أو حالة الضرورة، مع العمل الجاد على رفع حالة الضعف وبناء قوة الأمة وقدراتها المطلوبة بكل جدية وعزم، فإذا زالت يجب على المسلمين أن يمتنعوا من عقد أى معاهدة فيها ذلة أو مفسدة لهم، والخلاصة: إنه يجوز للدولة الإسلامية عقد معاهدة اضطرارية تُقدّر بقدرها وتنتهى بانتهاء حالة الضرورة التى عُقدت من أجلها(٤).

لم تقتصر المراسلات على الجانب العسكرى فقط، ولكن رويت بعض المراسلات التى تتناول المناظرة فى الجوانب العلمية والأمور العامة، فقد كتب قيصر الروم إلى معاوية: سلام عليك أما بعد: فأنبئنى بأحب كلمة إلى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وعن أربعة أشياء، فيهن روح ولم يرتكضن فى رحم، وعن قبر يسير بصاحبه، ومكان فى الأرض لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة وغير ذلك من الأسئلة، فكتب إليه معاوية: أما أحب كلمة إلى الله، فلا إله إلا الله لا يقبل عملاً إلا بها، وهى المنجية، والثانية سبحان الله صلاة الخلق، والثالثة الحمد لله كلمة الشكر والرابعة الله أكبر، فواتح الصلوات والركوع والسجود، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله. والأربعة فيهن روح ولم يرتكضن فى رحم فآدم وحواء وعصا موسى والكبش، والموضع الذى لم تصله شمس إلا مرة واحدة، فالبحر حين انفلق لموسى وبنى إسرائيل، والقبر الذى سار بصاحبه، فبطن الحوت الذى كان فيه يونس(٥).

(١) العلاقات العربية البيزنطية صـ١٢٣ .

(٢) فتوح البلدان صـ١٦٣ للبلاذرى، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية صـ٢٣٩ .

(٣) الأشباه والنظائر ابن نجيم صـ٨٦ . (٤) العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية صـ٢٤٠ .

(٥) عيون الأخبار (١/١٩٨، ١٩٩)، الحدود العربية البيزنطية (٢/٣٨٧)، العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى صـ١٢٦ .

٢ـ تبادل الخبرات: وفى مجال تبادل الخبرات حـاول كل من العرب والروم الاستفادة من خبرات الطرف الثانى فى مجالات الحياة كافـة، معتمدين على الاقتباس تارة، والإبداع تارة أخرى، على أن ما أخذه المسلمون من الروم فى هذا المجال لم يكن مجرد اقتباس، بل طُور كثيرًا بأن أضيف إليه أحيانًا وشـذب فى أحيان أخرى، حتى أصبح يتماشى مع روح الدين الإسلامى، ويتمثل ذلك فى معـالم النهضة العمرانية المتمثلة فى اهتـمام الأمويين بالمساجد والتوسع فى إقامتها(١)، وقد استخدم معاوية عددًا من الروم، ممن كانوا فى الإدارة البيزنطية فى بلاد الشام قبل فتحها، كتّابًا فى الأمور الإدارية، حيث عين سرجون بن منصور الرومى كاتبًا له، كما استخدم بن أثال النصرانى طبيبًا له(٢)، وكان معاوية رضى الله عنه متسامحًا مع النصارى حتى شهد له بروكلمان بهذا التسامح: «واختلطوا بالمسيحية اختلاطًا بعيدًا». . وفى بلاط معـاوية لعب سرجون بن منصور النصـرانى دور المستشار المالى المتنـفذ، وحفظ النصارى للخليفة معاوية هذا التسامح وأخلصوا له، وأعظموه إعظامًا، لاتزال تقع عليه فى الروايات النصرانية، وحتى فى كتب التاريخ الإسبانية(٣).

٣ ـ تأثر الدولة البيـزنطية بالتسـامح الإسلامى: يذكر العدوى: إن انعكاس الـتسامح الدينى مع النصارى ظهر تأثيره على الدولة البيزنطيـة، إذ من المعروف، أنها كانت تضطهد رعاياها من أصحـاب المذاهب الأخرى وتعاملهم معـاملة قاسيـة وتعتبرهم هراطقـة، وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين فى التبعية لها، اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها، وجعلت من نفسها صاحبة الحق فى رعاية المسيحيين فى بلاد الشام(٤)، وكان معاوية رضى الله عنه يجلس إلـى جماعات المسيحيين من المذاهب المخـتلفة ويستمع إلى جدلهم الدينى ومناقشـاتهم المختلفة(٥)، وبهذا ضربـت الدولة الإسلامية الأمـوية مثلاً سامـيًا، يدل على عظمة الرسـالة الإسلاميـة ومدى التسـامح الدينى تجاه رعاياها من غـير المسلمين وابتعادها عن التعنت والتعصب الدينى الذى يتهمهم به قسم من المستشرقين(٦).

٤ ـ آداب السفراء: لم يكن نظام الموفدين والسـفراء مقـتصرًا على العهـد الأموى بل له امتداداته من عـهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فكان السـفير يختار وفق مـواصفات خاصة تتمثل فى قوة شخصيته ونباهته ورجاحة عقله، وكان السفير من كلتا الدولتين، يزود

(١) التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية صـ١٣٢ .
(٢) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى صـ١٣٢ .
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن العلاقات العربية ـ البيزنطية صـ ١٤٠ .
(٤) العلاقات العربية ـ البيزنطية فى العصر الأموى صـ١٤٢ .
(٥) المصدر نفسه صـ١٤٢ نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين :
(٦) المصدر نفسه صـ١٤٢ .

بخطاب يحمل تعريفًا بشخصية الرسول والغـرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسميًا باسم دولته[١]. ولم يكن الموفدون والسفراء مدار اهتمام الدولة الإسلامية الأموية فقط، بل اهتم الروم كذلك بسفرائهم أيضًا، فكانوا يختارونهم من رجال الدين الدهاة العارفين بأمور دينهم، وأصحاب القدرة على النقاش والجدال، وفصيحى اللسان، وعارفين بالعربية إضافة إلى لغتهم الأصلية[٢]، وكان الخلفاء والملوك يهـتمون بالسفراء والمبعوثين، ويـستقبلون فى قصور الخلفاء وتسمع آراؤهم فـيها، فحين سأل معاوية رسول البـيزنطيين، بعد أن فرغ من بناء قصـره المعروف بالخضراء، أبدى عليـه ملاحظاته قائلاً: أما أعـلاه فللعصافـير، وأما أسفله فللفار، وعندما أدرك معاوية صحة انتقـاد السفير وصواب رأيه جعل يعيد بناء قصره بالحجارة[٣]. وأما البيزنطيون فكانوا يستقبلون السـفراء العرب فى كنيسة أيا صوفيا وقناطير المياه والأديرة حول القسطنطينية[٤]، وعند رجوع السفير كانت تقدم له الهدايا والمجوهرات الثمينة إكرامًا له ولمن بعثه[٥]، ويبدو أن الهدف من وراء ذلك عند كلتا الدولتين، هو إظهار صيغ الاحترام المتبادل والنيات الحسنة فى إقامة الصلح وإنابة السلام وكذلك إظهار كل دولة للأخرى مدى قـوتها ورخائها، كى تكون محط أنـظار السفير ومهـابته من أجل وصف ما يشاهده إلى من بعـثه عند رجوعـه إليه[٦]، ورغم ما أشـير إليه من الصـفات التى يجب توافرها فى السـفير إلا أنه يبقى محط أنظـار الخليفة أو الملك، وتراقب تصرفـاته وحركاته خشية الوشاية والكيـد وإشعال نار الحرب وهذا ما حدث مع سفير مـعاوية إلى القسطنطينية الذى أرسل لعقد هدنة مع الروم وكان السفير مزودًا بتعليمات مشددة تقتضى ألا يخفف من شروط الهدنة مع البـيزنطيين ولكن لم يستطع هذا السفـير تنفيذ وصية مـعاوية وتهاون فى عقد الهدنة حتى جاءت فى صالح البيزنطيين[٧]، فلما عاد عزله من منصبه[٨].

سابعًا: الجراجمة فى عهد معاوية رضى الله عنه:

فى أثناء الحروب والغـارات بين المسلمين والبيـزنطيين، فى عهـد معاوية بن أبى سفـيان رضى الله عنه، كان هناك طرف ثالث يشارك فى النزاع القائم بينهـما، يطلقون على أنفسهم اسم (الجُرَاجمة) نسبـة إلى مدينة (الجُرَجُومة)[٩]، وأصولهم غير معـروفة، ويشير البلاذرى إلى أنهم كانوا يدينون بالنصرانيـة وأنهم كانوا لذلك يتبعون (بطريق أنطاكـية وواليها)[١٠].

(١) العلاقات العربية ـ البيزنطية فى العصر الأموى صـ١٤٧ . (٢) الأمويون والبيزنطيون صـ٢١٥ إلى٢٢٢ .
(٣)، (٤) المصدر نفسه صـ٢٢٠ . (٥) العلاقات العربية ـ البيزنطية صـ ١٤٨ .
(٦) المصدر نفسه صـ ١٤٨ . (٧)، (٨) المصدر نفسه صـ١٤٩ .
(٩) الجرجومة: مدينة على جبل اللكام بالثغر الشامى فيما ما بين بياس وبوقا قرب أنطاكية، معجم البلدان (٢/ ١٢٣).
(١٠) فتوح البلدان للبلاذرى صـ ٥٨ .

وعندما فتح المسلمون بلاد الشام أرسل أبو عبيدة عامر بن الجراح حبيب بن مسلمة الفهرى، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح فى جبل اللكام، وأن لا يُؤخَذوا بالجزية، وأن يُنَفَّلوا أسلاب من يقتلون من عدوّ المسلمين إذا حضروا حربًا معهم فى مغازيهم[(١)]. ولكن الجراجمة لم يلبثوا أن نقضوا اتفاقهم هذا، وصنعوا حاجزًا بين المسلمين والبيزنطيين واستطاعوا عرقلة سير الفتوحات الإسلامية فى آسيا الصغرى، فكانوا متذبذبين مرّة مع المسلمين وأخرى مع الروم، وقد بقيت شوكة فى ظهر الجيوش الإسلامية ليس فى عهد معاوية لكن حتى عهد عبد الملك، ثم ما لبثت أن تفرقت فى بلاد الشام وآسيا الصغرى، فخفّ خطرها[(٢)]. وعلى أية حال، فلابد من القول بأن الإنشاءات والمجهودات التى قام بها معاوية رضى الله عنه فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية وإن كانت لم تثمر خلال حياته إلا أنها لعبت دورًا أساسيًا فى حفز من جاؤوا بعده من الخلفاء لأن يكملوا المسيرة التى بدأها[(٣)].

ثامنًا: أبو مسلم الخولانى من الغزاة فى أرض الروم:

وهذا مثال من عظماء الرجال فى ذلك العصر الذين ساهموا فى صياغة نموذج إسلامى فى السلوك والتعامل مع الحكام والمشاركة الإيجابية فى المجتمع وحركة الفتوحات.

قال عنه الذهبى: سيد التابعين وزاهد العصر واسمه عبد الله بن ثوب على الأصح[(٤)] قدم المدينة وقد قُبض النبى ﷺ، واستخلف أبو بكر[(٥)]، وكانت له مواقف محمودة ضد الأسود العنسى الذى تنبأ باليمن، وثبت أبو مسلم على الإسلام فبعث إليه الأسود، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنَّه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضرَّه، فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتَّبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة فأناخ راحلته ودخل المسجد يُصلى، فبصُر به عمر رضى الله عنه، فقام إليه، فقال: ممَّن الرجل؟ قال: من اليمن. قال: ما فعل الذى حَرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهمَّ نعم، فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصِّدِّيق. فقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتَّى أرانى فى أمة محمد من صنع به كما صنع بإبراهيم الخليل[(٧)]. وهذا التابعى الكبير كان من أهل الشام فى عهد معاوية وقد تأثر به خلق كثير بها، وكان رحمه الله كثير العبادة، فعن أبى العاتكة: قال: علَّق أبو مسلم سوطًا فى

(١) فتوح البلدان صـ٥٨ .
(٢) خلافة معاوية للعقيلى صـ١١٦ .
(٣) المصدر نفسه صـ١١٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٧، ٨) .
(٥) المصدر نفسه (٤/ ٨) .
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٩)

المسجد[1]، فكان يقول: أنا أولى بالسَّـوط من البهائم، فإذا فـتر مَشْقَ[2] ساقيه سوطًا أو سوطين. وروى أنه كان يقول: لو رأيت الجنة عيانًا أو النَّار عيانًا ما كان عندى مستزاد[3]، وعن شرحبيل: أن رجلين أتيا أبا مسلم، فلم يجداه فى منزله، فأتيا المسجد، فوجداه يركع فـانتظراه فأحـصى أحدهمـا أنه ركع ثلاث مئـة ركعـة[4]، وكان أبو مـسلم إذا استـسقى سُقى[5]، وكان مستجاب الدعوة؛ فعن مـحمد بن زياد عن أبى مسلم، أن امرأة خَبَّبت[6] عليه امرأته، فدعا عليـها، فعميت، فأتته فأعرضت وتابت، فـقال: اللهُمَّ إن كانت صادقة، فاردُد بصرهـا، فأبصرت[7]. وشارك رحـمه الله بالجهاد فى أرض الروم، فـعن أبى مسلم الخولانـى أنَّه كان إذا غـزا أرض الروم، فمـروا بنهر فـقال: أجـيزوا بسم الله، ويمـر بين أيديهم، فيمرون بالنهر الغَمرْ، فربما لم يبلغ الدَّواب إلا الرُّكب، فإذا جازوا قال: هل ذهب لكم شىء؟ فمن ذهب له شىء فأنا ضـامن له، فألقى بعضهم مخْلاته عـمدًا. فلما جازوا قال الرجل: مخْـلاتى وقعت، قال: اتبعنى فاتّبـعه، فإذا بها معلَّقةٌ بعـود فى النهر، قال: خذها[8]، وكان الولاة يتيَّمنون بأبى مسلم، ويؤمِّرونه على المقدِّمات[9].

وقد توفى رحمه الله بأرض الروم، وكان شتا مع بُسر بن أبى أرطأة فأدركه أجله، فعاده بُسر فى مـرضه فقـال له أبو مسلم: يا بُسر، اعـقد لى على من مات فى هذه الغـزاة فإنى أرجو أن آتى بهـم يوم القيامـة على لوائهم[10]، وعندما سـمع معـاوية رضى الله عنه بموته قال: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبى مسلم الخولانى وكريب بن سيف الأنصارى[11]، وكان رحمه الله من أهل الحكمة، فـقد روى عن أبى مسلم الخولانى فى مجال الرضـا التام بقضاء الله وقدره، قوله: لأن يولد لى مولود يحسن الله عز وجل نبـاته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يـكون إلىّ قبضه منىّ أحب إلىّ من أن يكون لى الدنيا ومـا فيها[12]. وهذا دليل على كمال توحيد أبى مسلم عبد الله بن ثوب الخولانى، حيث جاوز مرحلة الصبر على أقدار الله المؤلمة إلى مرحلة الرضـا بقضاء الله، فاعتبـر المصيبة بفقد ولد قـد أحسن الله نباته وكان على خير ما يتمناه المؤمن شبابًا وصلاحًا أحبّ إليه من الدنيا وما فيها[13].

هذه بعض الملامح العريضة على الجـبهة الشاميـة المتعلقة بالجهاد فى عهـد معاوية رضى الله عنه.

(1) سير أعلام النبلاء (4/9).
(2) مَشَقَ: ضرب بسرعة.
(3) سير أعلام النبلاء (4/9).
(4)، (5) المصدر نفسه (4/10).
(6) خبَّب فلان على فلان صديقه: إذا أفسده عليه.
(7) سير أعلام النبلاء (4/11).
(8) المصدر نفسه (4/11).
(9)، (10) المصدر نفسه (4/13).
(11) المصدر نفسه (4/14).
(12) صفة الصفوة (4/213) حلية الأولياء (2/127).
(13) التاريخ الإسلامى (19/356).

المبحث الثاني

فتوحات الشمال الأفريقي في عهد معاوية رضي الله عنه

أولاً: حملة معاوية بن حديج رضي الله عنه:

معاوية بن حديج الكندي له صحبة ورواية قليلة عن النبي ﷺ، فقد روى حديث رسول الله ﷺ: «إن كان في شيء شفاء فشربة عسل أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي»(1)، وكان رضي الله عنه ملكًا مطاعًا من أشراف كندة(2)، وكان من خيرة الأمراء، فعن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر، قالت: كيف وجدتم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منا فرس ولا بعير إلا أبدل مكانه بعيرًا، ولا غلامًا إلا أبدل مكانه غلامًا. قالت: إنه لا يمنعني قتله أخي أن أُحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أُمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه»(3)، وبعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كانت جبهة شمال أفريقيا، من أولى الجبهات التي وجه إليها اهتمامه، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية، ومن ناحية أخرى فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، العدو اللدود للمسلمين، والتي صمم أمير المؤمنين معاوية على تضييق الخناق عليها، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أنفاسها، ففي الوقت الذي واصل فيه ضغطه عليها من الشرق، وزحفه على جزرها في البحر المتوسط تمهيدًا للوصول إلى عاصمتها القسطنطينية - كما سبق ذكره -، نراه قد قرر أن يطوقها من الجنوب، من شواطئ شمال إفريقية التي كانت تعتبرها من أملاكها، ففي أول سنة من حكمه ٤١هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقية ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقية وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش، فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقًا يقال له: نقفور في ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج (عبد الله بن الزبير) في خيل كثيفة، فسار حتى نزل

---

(1) سير أعلام النبلاء (٣/٣٧) إسناده صحيح.

(2) المصدر نفسه (٣/٤٠).

(3) مسلم رقم ١٨٢٨.

على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة[1]، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفورًا أقلع من فى البحر منهزمًا من غير قتال، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان فى ألف فارس إلى مدينة جلولاء[2] فحاصرها وقتل من أهلها عددًا كثيرًا حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشًا فى البحر إلى صقلية فى مائتى مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهرًا، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة[3]، وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائدًا أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومى من هذه الناحية[4]. وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصارى واليًا عليها سنة ٤٦هـ فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها سنة ٤٧هـ، وفتح جزيرة جربة التى كان يسكنها البربر[5]، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا فى هذه الغزوة، وقام رويفع بن ثابت الأنصارى بتذكير المسلمين فى هذه الغزوة بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما أنى لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره[6]، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع[7] على امراة من السبى حتى يستبرئها[8]، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنمًا[9] حتى يُقسم**»[10].

(١) سوسة مدينة صغيرة بنواحى إفريقية، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق، معجم البلدان (٣/ ٢٨٢) .

(٢) هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهى على طريق خراسان، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة ١٦هـ، وهذه التى بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً. ياقوت الحموى معجم البلدان (٢/ ١٥٦) .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (١/ ١٦-١٧)، الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى صـ٢٠٩، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، شكرى فيصل صـ١٦١ .

(٤) تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (١/ ٨٥) .

(٥) صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقى للصلابى صـ٣٣٢ .

(٦) زرع غيره: أى محل زرع لغيره، يعنى إتيان الحبالى .

(٧) يقع على امراة: يجامعها .

(٨) يستبرئها: بحيضة أو بشهر .

(٩) مغنماً: أى شيئاً من الغنيمة .

(١٠) يُقسم: أى من الغانمين ويخرج منه الخمس .

وقد بقى فى ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقى عليها أميرًا ومات بها سنة ٥٦هـ وقبره معروف فى الجبل الأخضر ببرقة فى مدينة البيضاء، وهو آخر من توفى من الصحابة هناك، وروى عن النبى ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهًا من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيبًا مفوهًا(١).

ثانيًا: عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

هو عقبة بن نافع القرشى الفهرى، نائب إفريقية لمعاوية وليزيد، وهو الذى أنشأ القيروان وأسكنها الناس(٢)، وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر، واختطّ بها(٣)، فقد أسند معاوية بن أبى سفيان قيادة حركة الفتح فى إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذى خلد التاريخ اسمه فى ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك فى غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب فى هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة فى طريق فتح شمال إفريقية كله، ذلك أنه لطول إقامته فى برقة وزويلة وما حولهما، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها فى غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبى سفيان قيادة الفتوحات فى إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه(٤)، وسار فى جموعه حتى نزل بمغمداش من سرت(٥)، فبلغه أن أهل ودان(٦) قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبى أرطأة الذى كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص، ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسمًا من الجيش عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان(٧)، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا(٨)، ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار(٩)، وخاور(١٠)، وغدامس(١١)،

(١) مدرسة الحديث فى القيروان (٤٨٦/١)، صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقى صـ٣٣٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥٣٢/٣) .

(٣) المصدر نفسه (٥٣٣/٣) .

(٤) الكامل فى التاريخ (٤٨٣/٢) .

(٥) سرت مدينة بين برقة وطرابلس، معجم البلدان (٢٠٦/٣) .

(٦) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، معجم البلدان (٣٦٥/٥، ٣٦٦) .

(٧) فزان: جنوب ليبيا، ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة .

(٨) فتوح مصر صـ١٣٢ .

(٩) إقليم ببلاد السودان الغربى جنوب فزان. معجم البلدان (٤٨٦/٤) .

(١٠) خاور: مدينة جنوب فزان .

(١١) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية .

وغيرها[1]، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيره المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي[2].

ثالثًا: بناء مدينة القيروان:

في سنة ٥٠هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشئون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها[3]، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون[4]، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم[5]، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها[6]، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي، إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات، فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله[7]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة[8]، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار، وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وتم أمرها سنة ٥٥هـ وسكنها الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر الإسلام،

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي صـ٢٩٦ .
(٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٢٨٠ .
(٣) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٣٨) .
(٤) البيان المغرب (١/ ١٩) .
(٥) العالم الإسلامي في العصر الأموي صـ٢٧٠ .
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٣) .
(٧) رياض النفوس (١/ ٩)، معالم الإيمان (١/ ٩)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٣) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٣) وخروج الدواب بسبب دعاء عقبة وتأمين من معه رواية صحيحة الإسناد .

واتسعت خطة المسلمين وقوى جناب من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[1]، وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامى، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائمًا إلى جوار بعضهما، ويكونان دائمًا فى قلب المدينة التى يختطها المسلمون ويرتكزان فى وسطها[2]، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسى للقيروان، الذى يسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغًا حول المسجد ودار الإمارة فى هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسى فى الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحى إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها، وكان الكثير منهم دخل فى الإسلام، وشرعوا فى تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم، وهكذا نشاهد فيما بين سنتى ٥٠ و٥٥هـ حركة قوية بدأت فى تعريب الشمال الإفريقى[3].

١ ـ الخصائص المتوافرة فى موضع القيروان :

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية فى قرار عقبة فى اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتى :

أ ـ بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية فى الفسطاط أى بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البرى الذى يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب فى بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب ـ موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع فى أن يكون الموضع قريبًا من السبخة، فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها فى مراعيها[4]. . وكذلك فى الكلمات التى عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم فى الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر[5].

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٤) .

(٢) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ٧٢) .

(٣) تاريخ المغرب وحضارته (١/ ٨٩) .

(٤) الروض المعطار صـ٤٨٦، دراسات فى تاريخ المدن العربية الإسلامية د. عبد الجبار ناجى صـ٢٥٢ .

(٥) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ٧٨) .

جـ- بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التى كان فيها موضع القيروان عبارة عن غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهًا لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن فإنه كان فى بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التى تكفل للمجاهدين المسلمين موردًا غذائيًا مهمًا[١].

د- صحيح أن المشكلة الرئيسية التى جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هى الحال فى مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما: الأمطار حيث كانت تخزن فى صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيهما: مياه وادى السراويل فى قبلة المدينة، لكنه كان مالحًا. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان قائلاً: وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المواجل).. ولهم وادٍ يسمى وادى السراويل فى قبلة المدينة يأتى فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه[٢]، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجيًا إلى حد ما[٣].

٢ ـ القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية :

لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق، ومما رشح القيروان فى هذه المكانة ما يلى:

أ- إن إنشاء مدينة القيروان يعنى أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامى الكبير، وبالتالى سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام فى المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها[٤].

ب- لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى فى الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا فى جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود فى مدن المشرق آنذاك،

(١)، (٢) القيروان، للحبيب الجنحانى صـ٥٩ .　(٣) دراسات فى المدن العربية الإسلامية صـ٢٥٢ .
(٤) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٠) .

فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابيًا[1]، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها، ولا شك، نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة فى جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غيابًا طويلاً عن القيروان، أما فى غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابيًا[2]، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوى الشريف فى هذه الفترة مما دعا عقبة أن يوصى أولاده، ومن ورائهم جميع المسلمين بتحرى حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن[3].

جـ ـ لقد استقطبت القيروان أعدادًا هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر فى الإسلام ورسخ الدين[4]، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة[5]. ومن القيروان انتشر الإسلام فى سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكرًا فى بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام[6]، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا فى دين الله أفواجًا ودعّم حسان بن النعمان -فيما بعد- جهود عقبة فى نشر الإسلام بين البربر حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهًا من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام[7]، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقّهوهم فى الدِّين[8]، وترك فى المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهًا لتعليم أهله[9].

د ـ كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السرارى وأمهات الأولاد، قال أبو العرب[10]: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر ابن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها فى مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك

(١) البيان المغرب (١/ ٢٠) . (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٣) .
(٣) شجرة النور (٢/ ١٠٠)، مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥١) . (٤) تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٨٦) .
(٥) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥١) .
(٦) البيان المغرب (١/ ٢٧)، مدرسة الحديث فى القيرون (١/ ٥١) . (٧) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢).
(٨) البيان المغرب (١/ ٤٢). (٩) المصدر نفسه (١/ ٤٢) .
(١٠) الرياض (١/ ٩١)، مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢) .

الصبية[1]. ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان فى وقت مبكر جدًا، فقد روى عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن فى الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه[2]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين: أولاهما سنة ٦٠هـ أى بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة ٧٨هـ[3].

هـ ـ إن الموقع الجغرافى لمدينة القيروان كان له دور كبير فى إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت فى موقع متوسط بين الشرق والغرب، يمرّ بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس فى ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها[4]، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق[5].

و ـ لقد كانت التجارة فى القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهمًا فى ازدهار الحياة العلمية بالقيروان[6].

ز ـ وممّا أسهم فى ثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هى العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتى استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثانى، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب[7].

ح ـ كما أن القيروان اكتسبت نوعًا من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذى أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهى آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب[8]، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية فى إفريقية والمغرب حتى وصفها أبو إسحاق الجبنيانى بقوله: القيروان

(١) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢).
(٢) أسد الغابة نقلاً عن مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢).
(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٣).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٣).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٥٣).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٥٣).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (١/ ٥٤).

رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل ولا قتل على إحياء السنة إلا أئمتها[١]، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب فى المجال العلمى، من ذلك ما وصفها به ماقديشى بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهى لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع فى جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا؟ ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب، ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها فى هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام[٢]، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب[٣]، لقد قامت القيروان بدور كبير فى فتح شمال إفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام فى المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية[٤].

رابعًا: عزل عقبة وتولى أبى المهاجر دينار سنة ٥٥هـ:

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى يعزله ويولى مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال: . . . إن أبا المهاجر صبر علينا فى غير ولاية، ولا كبير نيل، فنحن نحب أن نكافئه[٥]، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية فى دمشق معاتبًا، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لى، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلى. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته[٦]، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخى كما يقول ابن عذارى حتى توفى معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة واليًا على إفريقية[٧]. وهناك نقطة فى هذا الموضوع، وهى الإساءة التى تعرض لها عقبة من أبى المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديدًا[٨]، ولا ندرى ما الذى حمل أبا المهاجر على هذا؟

(١) مناقب أبى إسحاق الجبنيانى صـ٦٠، ٦١ .
(٢) حسن البيان للشيخ محمد النيفر صـ١٨٩ .
(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٥) .
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٧٠ .
(٥) فتوح مصر صـ١٣٤، البيان المغرب (١/ ٢٢) .
(٦) فتوح مصر صـ١٣٤ .
(٧) البيان المغرب (١/ ٢٢)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٧١.
(٨) فتوح مصر صـ١٣٣ ـ ١٣٤، البيان المغرب (١/ ٢٢).

قال الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف فى كتابه القيم: ولا ندرى ما الذى حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذى أوعز إلى أبى المهاجر أن يسىء إلى عقبة[1]. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصًا، وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولى أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديدًا، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[2]. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة[3]. ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصيًا كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال: هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذى لا نملك عليه جوابًا شافيًا . . اللهم إلا الاستنتاج الذى أخذ به محمد على دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطرارًا إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبى المهاجر، ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين[4]. إن كان هذا الاستنتاج صحيحًا وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذى يوجهه إلى أبى المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد، وأن يكون السابق منهم حريصًا كذلك على أن يعطى خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح فى مهمته لأن هدفهم واحد وهو الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه[5].

خامسًا: فتوحات أبى المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٢هـ):

على الرغم من الخطأ الكبير الذى ارتكبه أبو المهاجر فى حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة ابن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول إنه قام بدور عظيم فى فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام دينًا ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى ـ بثاقب نظره ـ أن سياسة الشدة التى كان يسير عليها عقبة بن

(١) فتح العرب للمغرب صـ١٥١ .
(٢) فتوح مصر صـ١٣٣، ١٣٤ .
(٣) فتوح مصر صـ١٣٤ .
(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٢-٣٣) .
(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٧٤ .

نافع لا بد أن تتغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم، فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر فى سياسته تلك نجاحًا كبيرًا، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر فى شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم[1]، الذين أخذوا يتحببون إلى البربر، ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد ليستعمروهم ويستعبدوهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذى فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التى حلت بهم فى وسط إقليم إفريقية وجنوبه، لازالوا قوة فى الشمال، ولازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم مازالوا قوة فى ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبى المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم فى تلك النواحى، ويكسر الحلف الذى عقدوه مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها[2]، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامى، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك[3]، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعانى ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد[4]. رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعًا، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة[5]، على خمسين ميلاً من بجاية فى جنوبها الشرقى[6]، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهى أحسن مكان

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٣) .
(٢) النجوم الزاهرة (١/ ١٥٢) .
(٣) سميت شريك نسبة إلى شريك العبسى وهى تقع شرق قرطاجنة. تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٤) .
(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٤)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٧٦ .
(٥) النجوم الزاهرة (١/ ١٥٢)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٧٧ .
(٦) بجاية على ساحل البحر بين تونس والمغرب. معجم البلدان (١/ ٣٣٩) .

يراقب منه أمور البربر والروم فى هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين. وقد استثمر هذه المدة فى الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح فى سياسته نجاحًا كبيراً فأقبل البربر على الإسلام، وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له فى هذه النواحى من المغرب، قسنطينة الآن، ونواحيها إلى بجاية[1]. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح فى اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحى، سكون البحر بعد العاصفة[2]، وترامت الأخبار إلى أبى المهاجر أن جمعًا من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة[3]، وهى قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوى الشخصية، زكى الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانيًا متمسكًا بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا فى الإسلام والمسلمين فرآهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر فى ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم[4].

١ ـ معركة تلمسان[5]: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر فى تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبى المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار.

٢ ـ إسلام كسيلة: أسر كسيلة فى معركة تلمسان وحمل إلى أبى المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك[6]، وطمع فى إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته،

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٥) .

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣٥)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٧٧ .

(٣) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٤٦)، تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٨) .

(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٨) .

(٥) هما مدينتان إحداهما قديمة والأخرى جديدة اختطها المرابطون فهى كالقسطاط والقاهرة من أرض مصر. معجم البلدان (٢/ ٤٤) .

(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٨) .

وأنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئًا، بل العكس سوف يكسب الكثير روحيًا وماديًا، وكان كسيلة ذكيًا طموحًا مخلصًا لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فآمن كسيلة، وأصبح من المسلمين، وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبى المهاجر وشمّر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين. وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريبًا من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقى، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد توفى مولاه مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر سنة ٦٢هـ، وكان مسلمة سندًا قويًا لأبى المهاجر فلما زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ) عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر[(١)]، وفى تولية أبى المهاجر على إفريقية دليل على ثقة مسلمة بن مخلد الأنصارى فيه وحسن معاملة الموالى فى الإسلام، وبيان أن الناس كلهم سواسية فى الإيمان سواء أكانوا عربًا مسلمين أو أجناسًا أخرى من غير العرب، ونستدل من هذا الاختيار على أن الموالى قد تمتعوا بمكانة مرموقة فى العصر الأموى بعكس ما تصوره بعض الأقوال، وقيل إن أبا المهاجر من موالى النوبة فى مصر وقيل بأنه يرجع إلى أصول بربرية[(٢)].

سادسًا: حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ ـ ٦٣هـ):

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه فى وثاق شديد[(٣)]، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصًا وفيًا شهمًا غيورًا، فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة. ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يومًا أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضبًا وجعل كلما دس يده فى الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبّار فى قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثّق من الرجل فإنى أخاف فتكه[(٤)]. فتهاون به عقبة، وسيأتى الحديث عن غدر

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٧٩ .
(٢) خلافة معاوية للعقيلى صـ١٣٠، ١٣١ .
(٣) فتوح مصر صـ١٣٤ .
(٤) قادة فتح المغرب (١/١٣٧ ـ ١٤٢)، رياض النفوس (١/٢٦) .

كسيلة بالمسلمين، وكيف اغتنم فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي بيانه، وكيف قال عقبة لأبي المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا اغتنم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا اغتنم الشهادة مثلك، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا[1]. قد لاحظنا أن أبا المهاجر خاض معركة واحدة كبرى دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومه في الإسلام ووفر أبو المهاجر بذلك جهودًا كبيرة كان لابد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقى أولئك البربر على كفرهم، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم[2]، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأى أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهدًا في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته، وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية[3].

١ ـ جهاده من القيروان إلى المحيط:

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوى ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علمًا وفقهًا واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزًا لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض[4]، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم

(١) رياض النفوس (١/ ٢٦ ـ ٢٧)، قادة فتح المغرب (١/ ١٣٧ ـ ١٤٢) .
(٢) التاريخ الإسلامي (١٣/ ٢٥٤) . (٣) المصدر نفسه (١٣/ ٢٥٤) .
(٤) البيان المغرب (١/ ٢٣)، الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٢٦) .

إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله، ثم قال: يا بنى أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذُلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة فى الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا. ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا تروننى بعد يومكم هذا. ثم قال: اللهم تقبّل نفسى فى رضاك واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتي عندك[1]. وهكذا ما إن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله فى وصيته لأولاده: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالى **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** [التوبة: ١١١]. فجعل عمله الذى نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامى، وهو إعلاء كلمة الله فى الأرض[2]، وفى وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ ـ الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذى يدل على الله عز وجل، وما أبلغه من وصف يهدى إلى بلوغ الهدف السامى الذى يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل فى مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** [الحشر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذى يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

(١) البيان المغرب (١/ ٢٣)، صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقى صـ٢٤٨ .
(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٧) .

ب ـ **الوصية الثانية:** البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ ـ **الوصية الثالثة:** التحرى فى تلقى العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهى تقوى الله عز وجل(١). ونجد عقبة فى نهاية وصيته لأولاده يسلمّ عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته فى سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك(٢). وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله فى فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى فى هذه الحياة(٣). سار عقبة فى جيش عظيم متجهًا إلى مدينة باغية(٤)، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهى من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه فى جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن فى تلك المعركة فناءهم، ولكن الله منَّ عليهم بالصبر فكانوا فى ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم، فهاجموا الروم هجومًا عنيفًا حتى ألجأوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة(٥)، ثم استمر غربًا قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له (أَربَة) وهى دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم. ورحل عقبة إلى(تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبة بن نافع فى الناس خطيبًا فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم فى دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه

(١) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى صـ٢٥٩ .

(٢) البيان المغرب (١/ ٢٣) .

(٣) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٨) .

(٤) مصر فى العصر الأموى صـ١٢٣، الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٩) .

(٥) البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٧)، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦١) .

البلاد إلا طلبا لرضاه وإعزازًا لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين[1].

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضى الله عنه قد اعتمد فى حروبه على السلاح الأعظم الذى فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة . . ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالى بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذى يهتم به أن يتأكد جيدًا من أن هذا السلاح المعنوى الفعال قد توافر فى جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع فى هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين، وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد رضى الله عنه، الذى كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم ـ من غير غرور ولا استهانة ـ كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذه قدوة فى القيادة والإقدام الذى لا يعرف التردد والسآمة، وهو فى إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به[2].

هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم فى مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديدًا، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيرًا، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم[3]، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريقًا من الروم اسمه (جوليان) الذى أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه[4]. ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام[5]، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلنى على رجال البربر والروم، فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم فى عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: فى السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين[6] . . استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى

(١) البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٧)، قادة الفتح المغرب العربى (١/ ١٠٨ـ١٢٠) .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٠) . (٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠) .

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٠) .

(٥) ، (٦) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٠)، مصر فى العصر الأموى صـ١٢٥ .

الجنوب الغربى، قاصدًا بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادى درعا، حيث بنى مسجدًا فى مدينة درعا ثم غادر صحارى مراكش باتجاه الشمال الغربى إلى منطقة (تافللت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كى يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة فى مدينة (أغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس[1]، حيث حاصر بها جموعًا من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصرًا وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى، ودخل عاصمتها (ايجلى) التى بنى فيها مسجدًا، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (ايفران) على البحر المحيط[2]. وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسى يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب.

وتشير مصادرنا التاريخية إلى أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسى قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدًا فى سبيلك. ثم قال: اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك، ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطرًا ولا أشرًا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شىء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعًا[3]. وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التى حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته، والقضاء على دول الكفر التى حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذى تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذى يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائمًا فإن الجهاد لا بد أن يكون موجودًا، فالجهاد إذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشرى وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكى يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسرًا لكل الناس[4]. ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء

(١) مصر فى العصر الأموى صـ١٢٦، البيان المغرب (١/ ٢٦ـ٢٧) . (٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠) .
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠)، البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٧)، قادة الفتح المغرب العربى (١/ ١٠٨ـ١٢٠) .
(٤) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٢) .

المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى[1]، كما كان يترك نفرًا من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاكر الذى بنى رباطًا ما بين بلدتى مراكش وموجادور وما زال موقعه باقيًا إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدى شاكر[2]، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعًا مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة[3]، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام[4]، وكى يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولى عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة، فقد ترك عليها أبا مدرك زرعة بن أبى مدرك، أحد رؤسائها، الذى شارك فى فتح الأندلس فيما بعد[5]، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساء لم ير الناس مثلهن فقيل إن الجارية كانت تساوى بالمشرق ألف مثقال وأكثر[6]، وكان السبى أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب والبربر أوجد صلات وروابط تجلت فى الحلف والولاء فى هذا الوقت المبكر[7]. يذكر السلاوى أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة[8]. وهذا يشعر بأن بعض زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتين للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين[9].

٢ ـ استشهاد عقبة بن نافع وأبى المهاجر رحمهما الله تعالى:

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص، كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيدًا فى هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان فى بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل . . . إلى أن قال: ولست أدرى أترونني بعد يومى هذا أم لا، لأن أملى الموت فى سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله . . اللهم تقبل نفسى فى رضاك[10]. نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله فى الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كمينًا عند تهوذة[11]، وأوقعوا به

(١) رياض النفوس (١/ ٢٦)، الإسلام والتعريب (١/ ١٣٣) .
(٢) البيان المغرب (١/ ٢٧) .
(٣) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٣) .
(٤) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٠٨) .
(٥) فتوح مصر صـ٢٠٧، الإسلام والتعريب (١/ ١٣٤) .
(٦) رياض النفوس (١/ ٢٤) .
(٧) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٤) .
(٨)، (٩) المصدر نفسه (١/ ١٣٥) .
(١٠) البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٤) .
(١١) تهوذة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم .

وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التى تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسى وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة، ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة فى قومه، والذى كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذى وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه ـ رغم أنه كان فى حكم المعتقل ـ ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذى لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره[1]، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة، أيضًا، وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر فى غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصدًا القيروان، ولما صار قريبًا من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقى هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون فى مقدمة الجيش عند الغزو ويكون فى الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائمًا. وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوبًا لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمرًا ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد فى أى عمل يتوجه إليه، ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوى يعتبر أهم العوامل فى تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربرى، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعًا لا قِبَلَ لهم[2] به، وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة فى جمع عدته خمسون ألفًا[3]. وكان أبو المهاجر موثقًا فى الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبى محجن الثقفى:

كفى حزنًا أن تمرغ الخيل بالقنا ... وأُترك مشدودًا علىّ وثاقيا

إذ قمتُ عنّانى الحديد وأُغلقت ... مصارع من دونى تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضًا أريد الشهادة[4]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجًا من تلك

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩١) .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٣) .

(٣) البيان المغرب (١/ ٢٥) .

(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩١) .

النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعًا فى بلاد (تهوذة) من أرض الزاب. ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة فى ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها[1]. وهكذا تحقق أمل عقبة وأبى المهاجر ونالا الشهادة فى سبيل الله بعد ما قاما بالواجب الذى عليهما، واستقبلا الشهادة فى سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه فى هذا الجزء من العالم الذى سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوى، وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد فى سبيل الله[2]، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه فى عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره. آنذاك فى حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التى كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عامًا قضاها فى فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب الأقصى[3].

٣ ـ أثر معركة تهوذة على المسلمين ٦٣هـ :

كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه، وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع، فمع أن العدد الذى استشهد مع عقبة كان قليلاً ـ قيل حوالى ثلاثمائة جندى ـ وأن معظم الجيش كان قد سار متقدمًا ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده فى القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ فى الجنود روح المقاومة والتصدى لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك[4]، ولكن صيحة زهير هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتثبيطًا، حيث تصدى له حنش الصنعانى وقال له: لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية، ولا

(١) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٤)، البيان المغرب (١/ ٢٨) .
(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٨٤، ٢٨٥ .
(٣) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٥) .
(٤) البيان المغرب (١/ ٣١) .

عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره، ولحق بقصره ببرقة، وأقام بها مرابطًا إلى دولة عبد الملك بن مروان[1]، وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد القيروان، وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع إلى أن قوى أمر عبد الملك بن مروان[2]. ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فقد أسلمت قبائل من البربر وثبتت على إسلامها وكان تعيش بالقيروان، وكان كسيلة يحسب حسابها ويتفاداها لشدة بأسها فقد اعترف كسيلة بذلك حين اقترح على جيشه الخروج من القيروان واختيار موضع آخر لمواجهة جيش زهير الذى أمده به عبد الملك بن مروان، قال كسيلة: إنى أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلها، فإن هذه المدينة (يعنى القيروان) فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبوا علينا[3]. هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة مدة تقارب خمس سنوات من عام ٦٤هـ ـ ٦٩هـ حتى خلصها زهير البلوى من قبضته بعد أن أمده عبد الملك بن مروان بجيش كبير عندما يأتى الحديث عن زهير بإذن الله فى عهد عبد الملك بن مروان.

وفى مقتل عقبة رحمه الله درس بليغ وهو أهمية الحذر من العدو فقد أرسل جنوده وبقى فى مجموعة قليلة من المقاتلين رغبة فى الشهادة وهذا مطلب سامى وكبير إلا أن استشهاده كان له آثار سيئة على الفتوحات فى شمال إفريقيا، وضاعت القيروان من أيدى المسلمين لمدة خمس سنوات، وتأخرت الدعوة الإسلامية، لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

****

(١) البيان المغرب (١/ ٣١)، النجوم الزاهرة (١/ ١٥٩) .

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ١٦٠)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٨٦ .

(٣) رياض النفوس (١/ ٣٠)، الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٦) .

المبحث الثالث

فتوحات معاوية فى الجناح الشرقى للدولة الأموية

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد أتموا فتح البلاد التى تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجستان، فلما قتل عثمان تعثرت حركة الفتح، وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا جاء عهد معاوية رضى الله عنه أخذت دولته تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح(١).

أولاً: فتوحات خراسان(٢) وسجستان وما وراء النهر:

لما استقامت الأمور لمعاوية بن أبى سفيان ولّى عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان(٣)، ولقد جاء تعيين عبد الله بن عامر فى هذا المنصب نظراً لخبرته السابقة فى هذه المنطقة. وفى سنة ٤٢هـ - ٤٣هـ عين ابن عامر، عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس واليًا على سجستان فأتاها وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطى ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى، وعبد الله بن خازم السُّلمى، وقطرى بن الفجاءة، والمهلب بن أبى صفرة الأزدى ففتحوا فى هذه الحملة مدينة زرنج(٤) صلحًا ووافق مرزبانها على دفع ألفى ألف (مليونى) درهم، وألفى وصيف. ثم تقدموا نحو مدن خواش(٥)، وبست(٦)، وخُشَّك(٧)، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصاراً استمر لعدة أشهر(٨). وما لبث أن جعل معاوية رضى الله عنه إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمّر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقه مثل تلك الفتوحات(٩). وظل عبد الرحمن واليًا عليها حتى قدم زياد بن أبى سفيان البصرة معينًا عليها بدل عبد الله بن عامر، والذى عزله معاوية سنة

---

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ ٢١٩ .
(٢) خراسان: أى مطلع الشمس.
(٣) تاريخ الطبرى (٦/١٣٣) .
(٤) زرنج: مدينة كبيرة هى قصبة سجستان معجم البلدان (٣/١٣٨) .
(٥) خواش: مدينة بسجستان. معجم البلدان (٢/٣٩٨) .
(٦) معجم البلدان (١/٤١٤).
(٧) خشك: بلدة من نواحى كابل. معجم البلدان (٢/٣٧٣) .
(٨) فتوح البلدان صـ٣٩٥ .
(٩) المصدر نفسه صـ ٣٩٦ .

٤٥هـ كما مر معنا، وعادت ولاية خراسان وسجستان مرة أخرى تحت إشراف والى البصرة. وعند وصول زياد البصرة سنة ٤٥هـ قسم خراسان أربعة أقسام هى: مرو وعليها أُمَير أحمد اليشكرى والذى كان أول من أسكن العرب فى مرو[١]، ونيسابور وعليها خُلَيد بن عبد الله الحنفى، ومرو الرُّود والطالقان والفارياب وعليها قيس بن الهيثم السُّلمى، وهَراة وباذغيس وبوشنج وقاديس وعين عليها نافع بن خالد الطاحى الأزدى[٢]، وفى سنة ٤٧هـ عمل زياد على جعل السلطة المركزية فى خراسان فى مدينة مرو (القاعدة الأساسية فيها).

ثانيًا: تعيين الحكم بن عمرو الغفارى:

وكان عفيفًا وله صحبة[٣]، وفي سنة ٤٧هـ غزا الحكم (طخارستان)[٤]، فغنم غنائم كثيرة ثم سار إلى جبال الغور[٥]، وغزا أهلها الذين ارتدوا عن الإسلام فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة[٦]، وكان المهلب بن أبى صفرة مع الحكم بخراسان، فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل (الأشل)[٧] من جبال الترك، إلا أن الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق واحتار الحكم بالأمر، فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيمًا من عظماء الترك، فقال له: إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، وسير الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه، وفعل ذلك المهلب، فسلم الناس بما معهم من الغنائم[٨]، وقطع الحكم نهر جيحون وعبر إلى ما وراء النهر[٩] فى ولايته ولم يفتح، وكان أول من شرب من مائه من المسلمين هو أحد موالى الحكم، فقد اغترف بترسه بماء النهر، فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك[١٠]. وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل (الصغانيات): (من فتح بلادك؟) فقال الرجل: لا أدرى!! فقال ابن المبارك: فتحها الحكم

(١) فتوح البلدان صـ ٤٠٨ .
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى صـ١٣٥ .
(٣) فتوح البلدان صـ٤٠٩ .
(٤) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد.
(٥) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزة.
(٦) الكامل فى التاريخ (٢/٤٧٨).
(٧) الأشل: جبل فى ثغور خراسان.
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١١٨ .
(٩) ما وراء النهر: جيحون بخراسان، فما كان فى شرقه يقال له: ما وراء النهر، وما كان غربه فهو خراسان، وولاية خوارزم. معجم البلدان (٧/ ٣٧٠).
(١٠) الكامل فى التاريخ (٢/٤٧٨).

ابن عمرو الغفارى[1]. وقد مات الحكم سنة ٥٠هـ[2]، فخلفه الصحابى الجليل غالب بن فضالة الليثى والذى واصل سياسة سلفه فى إرسال حملات منظمة فى فتح طخارستان[3] ولكنه رغم كل الجهود التى بذلها لم يحرز أى تقدم يذكر فى ولايات طخارستان. لذلك عزله زياد وولى مكانه الربيع بن زياد الحارثى (٥٠ ـ ٥٣هـ)[4]، وقد استطاع الربيع بن زياد إبان فترة ولايته على خراسان أن يغزو بلخ فصالحه أهلها، ثم غزا قوهستان ففتحها عنوة، ثم أن ابنه عبد الله، خلفه لبضعة أشهر من عام ٥٣هـ وخلفه خليد بن عبد الله الحنفى فى إدارة الإقليم، وظل خليد فى منصبه هذا حتى وصل عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان عامل معاوية رضى الله عنه المعين على خراسان فى سنة ٥٤ ـ ٥٥هـ وكان عبيد الله ابن ٢٥ عامًا[5].

ثالثًا: عبيد الله بن زياد:

ما إن وصل عبيد الله إلى مرو حتى قاد حملة مكونة من ٢٤ ألف رجل وقطعوا نهر جيحون على الإبل، وفتحوا راميثين[6] ونسف[7] وبيكندة[8]. فأرسلت (خاتون) ملكة (بخارى) إلى الترك تستمدهم فجاءهم منهم عدد كبير، فلقيهم المسلمون وهزموهم، وعند القتال انتصروا عليهم[9]، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان وصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح بيكندة[10]، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف (خراسان) التى تذكر، وقد ظهر منه بأس شديد[11]، فقد ذكر شاهد عيان، فقال: ما رأيت أشجع بأسًا من عبيد الله بن زياد، لقينا زحف الترك بـ(خراسان)، فرأيته يقاتل فيحمل عليهم، فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رايته تقطر دمًا، وبقى عبيد الله بخراسان سنتين[12]، إذ ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥هـ[13]، فقدم معه البصرة بخلق من

(١) فتوح البلدان للبلاذرى صـ٤٠٠، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١١٨.
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٩).
(٣) خلافة معاوية للعقيلى صـ١٣٦.
(٤) فتوح البلدان صـ٤٠٩، خلافة معاوية للعقيلى صـ١٣٦
(٥) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية صـ١٣٨.
(٦) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٠٦).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٢/ ٥٠٦).
(٩) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢١١) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٢٥.
(١٠) فتوح البلدان صـ٤٠١، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٢٥.
(١١) الكامل فى التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٢٥.
(١٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٠٦).
(١٣) المصدر نفسه (٢/ ٥٠٧).

أهل بخارى[1]، وهم ألفان كلهم جيد الرمى بالنشاب[2]، وتولى ابن زياد أرفع المناصب فى أيام معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، وكان موضع ثقة بنى أمية وكان يعتمد فى حكمه على القسوة لفرض سيطرته على الناس، وكان لا يبالى من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كل أنواع الإجراءات الرادعة قتلاً وتعذيبًا وحجزًا للممتلكات والأموال[3]، فقد كان ذا شخصية طاغية يحب الإمارة ويحب السيطرة. ولقد أساء ابن زياد، فترك تصرفه الأهوج فى قتل الحسين رضى الله عنه أثرًا بالغًا فى أيامه، ولا نزال نعانى من نتائج قتله حتى اليوم[4]، وسيأتى بيان تفصيل ذلك بإذن الله عند الحديث عن مقتل الحسين رضى الله عنه. وفى سنة ٥٥ هـ قدم أسلم بن زرعة الكلابى خراسان واليًا عليها من قبل معاوية بن أبى سفيان بدلاً من عبيد الله بن زياد والذى ندبه معاوية لولاية البصرة وظل أسلم فى ولايته مدة تقارب السنة[5].

رابعًا : سعيد بن عثمان بن عفان (٥٦هـ):

تروى المصادر التاريخية أن سعيد بن عثمان بن عفان قد اصطحب معه إلى خراسان حوالى أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية فى البصرة والكوفة، كما كان من ضمنهم حوالى خمسين عابثًا وقاطعًا للطريق من أمثال مالك بن الرِّيب المازنى التميمى، وهؤلاء تابوا ورجعوا إلى رشدهم وفضلوا الجهاد فى سبيل الله[6]، ومالك بن الريب هو القائل:

ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا[7]

وقدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى (سمرقند) وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذى صالحت عليه عبيد الله بن زياد، وأقبل أهل الصُّغد وكِش ونسف إلى سعيد فى مائة ألف وعشرين ألفًا، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد، ولكن قسمًا من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثّر انصرافهم فى معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحًا[8]، وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٠٦)، الفتوح صـ ٤٠١ .
(٢) الفتوح صـ ٤٠١ .
(٣) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ ١٣٥ .
(٤) المصدر نفسه صـ ١٣٧ .
(٥) خلافة معاوية للعقيلى صـ ١٣٩ .
(٦) المصدر نفسه صـ ١٤٠ .
(٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٥٤) .
(٨) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ ٨٢، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٤).

بثمانين مـن أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخـارجين عليها، وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لـعرشهـا، وتخلّصت بذلك من أشدّ أعـدائها خطراً على عـرشها وحـاضرها، ومستقبلها، وحين تمّ الصلح بين خاتون وسـعيد، زارت خاتون سعيدًا بمقرّه، فطلعت عليه في زينتها الملكيـة، وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فـادّعى أهل بخارى أن القائد المسلم أعجب بجمالهـا أيّما إعجاب، وجرى ذكر إعجـاب سعيد بها في الأغاني الشـعبية التي لا يزال أهل بخارى يـردّدونها ويتغنون بهـا حتى اليـوم، ولكن هذا الإعجـاب لا ذكر له في المصادر العربية الإسـلامية المعتمدة، ومن الواضح أنه أقـرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين. وغـزا سعيد سمرقند، فأعانتـه خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألا يبرح أو يفتحهـا، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم في اليـوم الثالث حيث فُقئت عين سـعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سـعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه، فطلبوا الصلح، فـصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهنًا مـن أبناء عظمـائهم، وعلى أن يدخل المـدينة ومن شـاء، ويخـرج من البـاب الآخر، فـأعطوه خمسة وعـشرين من أبناء ملوكهم، ويقـال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين[1]. وكان معه من الأمراء المهلـب بن أبي صُفرة الأزدي وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، وكان يُشبَّه بالنبي ﷺ[2]، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف وأخوه معبد استشهد بإفريقية وعبيد الله بالمدينة وكلهم من أب واحد وأم واحدة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذا وانصرف سعيـد بن عثمان إلى (ترِمذ) ففتـحها صلحًا[3]، وقد كان سعـيد شاعراً ومن شعره في معاوية قوله:

ذكـرت أمـــيـــر المؤمـنين وفـــضله ... فـقلـت جـزاه الله خـيــراً بما وصل
وقـد ســـبـــقت منـي إليـه بوادر ... من القـول فـيـه آفـة الـعـقل والزلل
فـــعـــاد أمـيـر المؤمـنين بفـضــله ... وقـد كـان فـيـه قـبـل عـودته مـيل
وقـال: خـراسـان لك اليـوم طعـمـة ... فـجُـوزي أمـيـر المؤمنين بمـا فـعل

(١) فتوح البلدان صـ٤٠١ ـ ٤٠٢، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر صـ١٤١ .
(٢) شذرات الذهب (١/ ٦١)، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر صـ ١٤٢ .
(٣) فتوح البلدان صـ ٤٠٢، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر صـ١٤٢ .

فلو كـــان عــشــمـــان الغـداة مـكانه | لما نالنى مـن ملكه فـوق مـا بذل[١]

وعزل معاوية سعيد عام ٥٧هـ، فأخذ سعيد مالاً من خراج خُراسان، فوجّه معاوية من لقيه بـ(حلوان)[٢] وأخذ المال منه. ومضـى سعيد بالرهـن الذين أخـذهم من أبناء عظمـاء (سمرقند) حتى ورد بهم المدينة النبوية، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبسهم جباب الصوف، وألزمهم السقى والعمل[٣]، وألقاهم فى أرض يعملون له فيها بالمساحى، فأغلقوا يومًا باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم[٤]، فقال خالد بن عقبة بن أبى معيط الأموى[٥]:

ألا إنّ خـيـر الناس نـفـسًـا ووالدًا | سـعـيد بن عـثـمـان قتـيل الأعـاجم

فـإن تكن الأيام أردت صـروفـهـا | سـعيـدًا فـهل حىٌ من الناس سـالم؟

وقال أيضًا يرثيه:

يا عـين جـودى بدمع منك تهـتـانًا | وأبكى سـعيـد بن عـثمـان بن عفـانا

لم يف سعـيد لأهل (سمـرقند) بإعادة الرهن لهم، بل جـاء بالغلمان مـعه إلى المدينة النبوية وجعل يستعملهم فى النخيل والطين وهم أولاد الدهاقين وأرباب النِّعم، فلم يطيقوا ذلك العمل وسـئموا عـيشهم فـوثبوا عليه فى حـائط له، وبذلك غدر بهم[٦]، فكان هذا الغدر وبالاً عليه، إذ قدم حياته ثمنًا لغدره[٧]، لقد كان سعيد شهمًا غيورًا يعتد بشخصيته، طموحًا، مُتْرَفًا، سخيًا، وكان من شخصيات قريش البارزة[٨].

خامسًا: فتح سلم بن زياد أخى عبيد الله بن زياد (٥٧ هـ):

عزل معـاوية بن أبى سفيان سـعيد بن عثـمان بن عفان سنة سـبع وخمسين الـهجرية، وأُضيفت إلى ولاية عـبيد الله بن زياد فى رواية[٩]، وفى رواية أخرى، أن معاوية بن أبى سفيان ولّى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفًا، فلم يصنع شيئًا فى مجال الفتح،

(١) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٤٤ .
(٢) المصدر نفسه صـ١٤٣، ١٤٤ .
(٣) فتوح البلدان صـ٤٠٢ ـ ٤٠٣ .
(٤)، (٥) المصدر نفسه صـ٤٠٣، قادة الفتح الإسلامى صـ١٤٢ .
(٦) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٤٣ .
(٧) المصدر نفسه صـ١٤٣ .
(٨) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥١٤).
(٩) النجوم الزاهرة (١/ ١٤٩)، قادة الفتح الإسلامى صـ ١٤٨ .

وكان ذلك فى سنة ٥٩هـ[١]، ومات معاوية وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد، ولما سار سلم إلى خراسان، كتب معه يزيد إلى أخيه عبيد الله بن زياد فى العراق ينتخب له ستة آلاف فارس، وقيل: ألفى فارس، وكان سلم ينتخب الوجوه، فخرج معه عمران بن الفضيل البُرجُمىّ، والمهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن خازم السُّلمى، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى وخلق كثير من رؤساء البصرة وأشرافهم، فأخذ سلم هؤلاء الفرسان معه من البصرة، وتجهز ثم سار إلى خراسان[٢]، وبدأ سلم بغزو خوارزم، فصالحوه على أربعمائة درهم وحملوها إليه. وقطع سلم النهر (جيحون) ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكانت أوّل امرأة عربية عُبر بها النهر، فأتى (سمرقند) فصالحه أهلها[٣]. ووجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصُّغد، وأتراك الشمال، فجاء طرخون على جيش الصُّغد، كما جاء ملك الترك فى عسكر كثيف، ولم تؤثر تلك الحشود الضخمة من القوات المعادية فى معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون أن يهجموا عليها، ليقفوا أولاً على تفاصيل قوات أعدائهم ومواضعها، وهى متربصة بهم فى مواضع ليست بعيدة عن بخارى. وأمر سلم المهلب بن أبى صفرة الأزدى أن يستطلع أحوال العدو فاقترح المهلب أن يكلف غيره بهذه المهمة، وحجته أنه معروف المكانة بين قومه والمسلمين وقد يفشى تغيبه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذى أُلقى على عاتقه، وهذا الواجب ينبغى أن يبقى سراً مكتومًا حتى يتم إنجازه بسرية تامة وكتمان شديد وحذر بالغ، لأن إفشاءه يعرّض المسلمين لخطر جسيم.

ولكنّ سلم بن زياد أصرّ على إيفاد المهلب دون غيره فى هذا الواجب الحيوى الذى قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغى، وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كل لواء من ألوية المسلمين، واشترط المهلب على سلم ألا يبوح لأحد من الناس كائنًا من كان بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلاً مع جماعته الاستطلاعية، فكمن فى موضع مستور، واستطلع قوات العدو دون أن يشعر العدو بموضعه المخفىّ المستور، ويبدو أن قوم المهلب والمسلمين افتقدوا المهلب فى صلاة الفجر من تلك الليلة التى تسلل بها المهلب إلى موضع قريب من العدو، فما كان تغيب مثله أن يخفى على أحد وهو ليس مجهول المكان والمكانة، يملأ الأعين قدراً وجلالاً، فألحّوا على سلم بالسؤال عن المهلب وألحفوا عليه، فلم يستطع أن يكتم أمره

(١) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٤٨ .

(٢) الكامل فى التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى صـ١٤٩ .

(٣) قادة الفتح الإسلامى صـ١٤٩، فتوح البلدان صـ١٤٩ .

وأخبـرهم أنه أرسله فى مهمة اسـتطلاعية ليـلاً، وفشا الخبـر بسرعة خاطفـة فى العسكر، فأسرع جمع من المسلمين بالركوب وتوجّهوا صوب موضع المهلب المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجـاله للعدو، وأبصرهــم المهلب مقبلين نحـوه يتسابقـون بدون نظام ولا تنظيم، فلامهم أشد اللوم على ما أقـدموا عليه، لأنهم كشفوا موضع جماعتـه الاستطلاعية للعدو دون مسوِّغ، فعرّضهم لخطر محدق أكيد، وأصبح موقف المهلب ومن معه من المسلمين فى خطر داهم فبذل المهلـب قصارى جهده لمعالجـة موقفه الخطيـر، وتدارك ما يمكن تداركه، وأحـصى المهلب المسلمـين الذين التحـقوا به مـتطوّعـين، فكانوا تسـعمـائة من الفرسـان المجاهدين، فـقال لهم: والله لتندمُن على ما فـعلتم، وحدث ما توقـعه المهلب، فمـا كاد ينظِّم المسلمين صـفوفًا، حتى هاجمـهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة فـارس مجاهد، ولاذ البـاقون منهـم على قيـد الحـياة بالفـرار، وأحـيط بالمهلب ومن بقى مـعه من جـمـاعتـه الاستطلاعية ذات العـدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتًا راسخًا لا يتزعزع عن مـوضعه، فالموت بالنسبـة لأمثاله أهون عليـهم من الفرار، وصاح المهلب بصـوته الجهورىّ القوى مـستغيـثًا بالمسلمين، فـسُمع صوته من معـسكر المسلمين القريب، الذى كـان على نصف فرسخ من موضعـه المواجه للعدو، وبادر فورًا إلي نجدته من قـومه الأزد، فشاغلوا الترك ريثـما أقبل المسلمون خفافًا لنجدته على عجل بقيادة سَلْم، ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة نكراء حيث هربوا من ساحة المعركة مخلِّفين أموالهم وأثقالهم، فغنمـها المسلمون حـتى أصاب كلّ فارس ألفـين وأربعمائة درهم فى رواية، وعـشرة آلاف درهم فى رواية أخرى، وطارد المسلمون الترك المنهـزمين، فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُّغدى ملك الصُّغد وأعادت خاتون الصُّلح من جديد مع سلْم ، فاستعاد فـتح بخارى[1]، وبعث سَلْم وهو بالصّغـد جيشًـا من المسلمين إلى (خُجَنْدة) وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهُزم المسلمون فقال الأعشى:

ليت خـيلى يوم الخُـجَنْدة لـم يهـزم   وغـــودرت فى المكرّ سَلِـيـــبَـــا
تحـضُـر الطيـرُ مـصـرعى وتروحت   إلى الله فـى الدمـاء خـصـيـبـا[2]

وكان عمّال خراسان قبل سَلْم يغزون، فـإذا دخل الشّتاء رجعوا إلى (مزوا الشّاهجان)، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمـدينة مما يلى خُوارزم، فيتعاقدون أن لا يغزو

(١) تاريخ بخارى للنرشخى صـ٦٥ ـ ٦٧ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٥٢ .
(٢) فتوح البلدان صـ٥٨١، الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٤).

بعضهم بعضًا، ويتشاورون فى أمورهم. فلما قدم سَلْم غزا فشتا فى تلك السنة، فألحّ عليه المهلّب بن أبى صفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فوجّهه فى ستة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيِّف وعشرين ألف درهم، وكان فى صلحهم أن يأخذ منهم عروضًا، فكان يأخذ الرأس والدّابة بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف درهم[1]، وعاد سلم إلى(مَرْو) بعد جهاد هذه السنة الذى استمرّ سنتى إحدى وستين الهجرية واثنتين وستين الهجرية، ويبدو أنه قطع النهر ثانية فى سنة ثلاث وستين الهجرية[2]، لأنه علم بأنّ الصُّغد قد جمعت له، فقاتلهم وقتل ملكهم[3]، ولكنه عاد مسرعًا إلى (مرو) ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم[4]، فقد مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، فبويع بعده معاوية بن يزيد بن معاوية فلم يمكث إلا ثلاثة اشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يومًا ثم مات[5]، وقيل غير ذلك، ولما بلغ سلم موت يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكنّ الخبر انتشر بين الناس فى خُراسان انتشار النار فى الهشيم، فمثل هذا الخبر يستحيل كتمانه مدة طويلة، ولما علم سلم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثمّ نكثوا بعد شهرين، وكان سلم محسنًا إليهم محبوبًا فيهم، ولكن قسمًا من القبائل العربية خلعوه عصبية وتعصبًا وفتنة، فلم يجد أهل خُراسان أميرًا قد أحبهم مثل سَلْم بن زياد[6]، ولكن قائلهم قال: بئس ما ظنّ سَلْم، إن ظنّ أنه يتأمر علينا فى الجماعة والفتنة[7]، ووثب أهل خُراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب[8]، ونشب الاقتتال بين القبائل العربية ، وأصبحت خراسان مناطق، فى كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى بين المسلمين بالسيوف، وتوقف الفتح وتوجه سَلْم إلى عبد الله بن الزبير فى مكة المكرمة[9].

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٤) .
(٢) قادة الفتح الإسلامى صـ١٥٢ .
(٣) فتوح البلدان صـ٥٨٢ .
(٤) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٥٢ .
(٥) الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٠٥).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٢).
(٧) فتوح البلدان صـ٥٨٢ .
(٨) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ١٥٣ .
(٩) فتوح البلدان صـ٥٨٢، قادة الفتح الإسلامى صـ١٥٤ .

سادسًا : فتوحات السند فى عهد معاوية :

تمكن المسلمون فى عهد معاوية رضى الله عنه من بسط نفوذهم إلى ما وراء نهر السند، ففى سنة ٤٤هـ غزا المهلب بن أبى صفرة ثغر السند فأتى بَنَّة[١]، ولاهور، وهما بين المُلتان[٢]، وكابل، وأما فى مستهل سنة ٤٥هـ فقد أرسل والى البصرة عبد الله بن عامر (عبد الله بن سوّار العبيدى) إلى ثغر السند على رأس حملة قوامها أربعة آلاف رجل، ولما وصل ابن سوّار إلى مدينة مكران، بقى هناك أربعة أشهر يعدّ نفسه وجنده للحملة المرتقبة. ثم تقدم وجماعته نحو بلاد القيقان[٣]، وفتحها، وكانت هديته إلى معاوية رضى الله عنه خيلاً قيقانية[٤] سلّمها بنفسه إليه فى الشام، فأصل البرازين القيقانية من نسل تلك الخيول[٥]. وعلى أية حال، فلم يدم المقام لابن سوّار طويلاً فى ثغر السند فقد قتلته جماعة من الترك هناك فى سنة ٤٧هـ[٦]، وفى سنة ٤٨هـ اختار زياد بن أبى سفيان سنان بن سلمة بن المُحَبَّق الهذلى ليكون واليًا على الأقاليم المفتوحة من ثغر السند وما أن وصل سنان إلى هناك حتى تمكن من فتح مدينة مكران (عنوة) ومصّرها وأقام بها وضبط البلاد[٧]. ولكن سنان لم يمكث هناك سوى سنة أو سنتين ثم عزله زياد. وولى مكانه راشد بن عمرو الأزدى، فأتى مكران ثم تقدم فى بلاد القيقان، فظفر، ثم اتجه نحو الميد، فقتل هناك[٨]، وبعد ذلك تولّى عباد بن زياد بن أبى سفيان أمر سجستان فقاد حملة توغل فيها فى منطقة حوض نهر السند فنزل كِشْ، ثم سار إلى قُنْدُهار[٩]، فقاتل أهلها فهزمهم، وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين[١٠]، وكان آخر الولاة الذين تولوا أمر الفتوحات فى هذا الجزء هو المنذر بن الجارود العبدى أبو الأشعث والذى وصل ثغر السند معينًا عليه من قبل عبد الله بن زياد بن أبى سفيان والى البصرة سنة ٦٢هـ، فقاد المنذر حملة ضد مدينة قُصدار[١١]، وتمكن من فتحها[١٢].

---

(١) بَنَّة: مدينة بكابل. ياقوت، معجم البلدان (٢/ ٥٠٠) .
(٢) المُلتان: مدينة من نواحى الهند قرب غزنة، أهلها مسلمون.
(٣) القيقان: بلاد قرب طبرستان، معجم البلدان (٤/ ٤٢٣).
(٤) فتوح البلدان صـ٤٣٢ .
(٥)، (٦) تاريخ خليفة صـ٢٠٧، خلافة معاوية بن أبى سفيان للعقيلى صـ١٤٢ .
(٧) فتوح البلدان صـ٤٣٢ .
(٨) المصدر نفسه صـ٤٣٢ .
(٩) معجم البلدان (٤/ ٤٠٢) .
(١٠) فتوح البلدان صـ٤٣٣ .
(١١) معجم البلدان (٤/ ٣٥٣) .
(١٢) فتوح البلدان صـ٤٣٣، خلافة معاوية للعقيلى صـ١٤٣ .

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد في فتوحات معاوية رضي الله عنه

أولاً: أثر الآيات والأحاديث في نفوس المجاهدين:

كان للآيات والأحاديث التي تتحدث عن فضل الجهاد أثرها في نفوس المجاهدين، فقد بين المولى عز وجل أن حركات المجاهدين كلها يثاب عليها، قال تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين (١٢٠) ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

وقد تعلموا أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه، قال تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين (١٩) الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون (٢٠) يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (٢١) خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم﴾ [التوبة: ١٩-٢٢].

واعتقدوا أن الجهاد فوز على كل حال، قال تعالى: ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ [التوبة: ٥٢]، وأن الشهيد لا تنقطع حياته بل هو حي، قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠) يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].
وكانوا يشعرون بسمو هدفهم الذي يقاتلون من أجله، قال تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل الله

الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٦].

وقد بيَّن الرسول ﷺ للمسلمين فضل الجهاد فألهبت أحاديثه مشاعرهم وعواطفهم وفجرت طاقاتهم، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مؤمن يجاهد بنفسه وماله»**[(١)]، وقد بيَّن رسول الله ﷺ درجات المجاهدين فقال: **«إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»**[(٢)]. وقد وضح ﷺ فضل الشهداء وكرامتهم فقال: **«انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يُخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرّية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم اقتل ثم أحيا ثم أقتل»**[(٣)] وقال ﷺ: **«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»**[(٤)]. وغير ذلك من الأحاديث.

وقد تأثر المسلمون الأوائل ومن سار على نهجهم بهذه الآيات والأحاديث، فكان كبار الصحابة رضى الله عنهم يغزون وقد تقدم بهم العمر فيشفق عليهم الناس وينصحونهم بالقعود عن الغزو، لأنهم معذورون فيجيبونهم أن سورة التوبة تأبى عليهم القعود ويخافون على أنفسهم من النفاق إذا ما تخلفوا عن الغزو[(٥)]. كما كان للعلماء والفقهاء والزهاد دور كبير فى تربية الناس على هذه الآيات والأحاديث، ومن هؤلاء العلماء كبار الصحابة كأبى أيوب الأنصارى، وابن عمر، وغيرهما ومن التابعين كأبى مسلم الخولانى، يرون أن الجهاد فى سبيل الله ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية، فقاموا بهذه الفريضة فى فتوحات بلاد الشام والشمال الأفريقى وخراسان وسجستان والسند، وترتب على قيامهم بهذه

(١) البخارى رقم ٢٧٨٦.
(٢) البخارى رقم ٢٧٩٠.
(٣) مسلم (٣/١٤٩٧).
(٤) البخارى رقم ٢٨١٧.
(٥) الجهاد فى سبيل الله للقادرى (١/ ١٤٥).

الفريضة ثمرات كثيرة منها: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية، القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم، ظهور صدق الدعوة للناس الأمر الذى جعلهم يدخلون في دين الله أفواجًا، فيزداد المسلمون بذلك عزاً والكفار ذُلاً وتوحدت صفوف المسلمين ضد أعدائهم وأسعدوا الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته(١).

ثانيًا: من سنن الله فى فتوحات معاوية:

يلاحظ الباحث في دراسته للفتوحات في عهد معاوية بعض سنن الله في المجتمعات والشعوب والدول، ومن هذه السنن:

١ ـ **سنة الله فى الاتحاد والاجتماع:** كانت الفتنة التى أدت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه أكبر معوق أصاب حركة الفتوحات بعد الردة أيام أبى بكر رضى الله عنه، حيث أدى استشهاد عثمان إلى توقف الجهاد، واتجاه سيوف المسلمين إلى بعضهم فى فتنة كادت تعصف بالأمة الإسلامية، لولا أن تداركتها رحمة الله -سبحانه وتعالى- بصلح الحسن بن على مع معاوية رضى الله عنهما، وقد امتلأت المصادر بالنصوص التى تبين أثر الفتنة فى انحسار حركة الجهاد.(٢) ومن هذه الآثار:

ـ عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء وقطعت فيها الأرحام وقطعت السبل، وعُطلت الفروج -يعنى الثغور-(٣).

ـ ما أخرجه أبو زرعة الدمشقي بإسناده قال: لما قتل عثمان، واختلف الناس، لم تكن للناس غازية، ولا صائفة حتى اجتمعت الأمة على معاوية(٤).

ـ قول أبى بكر المالكى: فوقعت الفتنة .. واستشهد عثمان رضى الله عنه، وولى بعده على رضى الله عنه، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية رضى الله عنه(٥)، ولكن بعد الصلح وما ترتب عليه من الاتحاد والاجتماع عادت حركة الفتوحات إلى ما كانت عليه، وأصبحت فى عهد معاوية على ثلاث جبهات كما مر معنا . إن الاتحاد والاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله مقصد من مقاصد الشريعة، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله واستمرار حركة الفتوحات، فالأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب

(١) الجهاد فى سبيل الله (٢/ ٤١١ ـ ٤٨٢).
(٢)، (٤) مرويات خلافة معاوية صـ٣١٠ .
(٣) الطبقات، تحقيق السُّلمى (١/ ٣٣١).
(٥) رياض النفوس (١/ ٢٧).

المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جدًا فى إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم[(١)]. فحركة الفتوحات بين الانطلاق والتوقف مرهون بتحقيق سنة الاتفاق والاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف والشقاق، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا..﴾[آل عمران: ١٠٣].

٢ ـ سنة الأخذ بالأسباب: قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد قام معاوية رضى الله عنه بالعمل بهذه الآية وحث ولاته على العمل بها. ويظهر أخذ معاوية رضى الله عنه بسنة الأخذ بالأسباب، فى اهتمامه ببناء الأسطول البحرى وتطويره، وتقوية الجيش، والقضاء على الفتن الداخلية، ودعم الثغور، وأماكن الرباط والتخطيط الاستراتيجى للدولة فى سياستها الداخلية والخارجية، والتكتيك العسكرى، فى نظام المعسكرات، ونظام الرباط والثغور، والصوائف والشواتى، وبناء الحصون، ونظام التعبئة، وتوطين القبائل، لنشر الإسلام وتثبيت الفتوحات والتصدى لحركات التمرد، فبعدما زال خطر الهجوم العسكرى من الفرس قام بتوطين عشرات الألوف من الأسر العربية فى الجناح الشرقى من الدولة خاصة خراسان، وقد نجحت هذه السياسة وآتت ثمارها فى هذا الجناح[(٢)].

٣ ـ سنة التدافع: قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[البقرة: ٢٥١] وقد تحققت هذه السنة فى حركة الفتوحات عمومًا، وسنة التدافع من أهم سنن الله تعالى فى كونه وخلقه، وهى من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية، وقد استوعب المسلمون الأوائل هذه السنة وعملوا بها، وعلموا أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضى به، وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به. إنه يحتاج إلى جهد بشرى، لأن هذه سنة الله فى الحياة الدنيا وهى ماضية[(٣)].

٤ ـ سنة الابتلاء: قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن

(١) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على صـ٣٥٩ .

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١١٩ .

(٣) لقاء المؤمنين، عدنان النحوى (١١٧/٢).

نصر الله قريب﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقد وقع البلاء في حصار القسطنطينية وتعرض الكثير من المسلمين للقتل، وفي فتوحات الشمال الإفريقي، واستشهاد القادة كعقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار، وغيرهما، فهذه سنة الله في العقائد والدعوات فلا بد من الأذى في الأموال والأنفس ولا بد من صبر، واعتزام[1].

٥ ـ سنة الله في الظلم والظالمين: قال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد (١٠٠) وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب (١٠١) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ [هود: ١٠٠ـ ١٠٢]. وسنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، وقد مارست الدولة الفارسية الظلم على رعاياها، وتمردت على منهج الله فمضت فيها سنة الله وسلط الله عليها المسلمين فأزالوها من الوجود[2]، وكذلك نفوذ الدولة البيزنطية من الشام ومصر، وتزعزع وجودها في الشمال الإفريقي، وما جاء عهد الوليد بن عبد الملك حتى زال نفوذها من الشمال الإفريقي كليًا.

٦ ـ سنة الله في المترفين: قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ [الإسراء: ١٦]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أي: متنعميها وجبّاريها وملوكها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكها، وإنما خص الله المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[3]، وقد مضت هذه السنة في زعماء الفرس وأئمتهم في بلاد فارس وزعماء الروم في الشام ومصر والشمال الأفريقي.

٧ـ سنة الله في الطغيان والطغاة: قال تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤] والآية وعيد للعصاة مطلقًا، وقيل: وعيد للعصاة ووعيد لغيرهم[4]. وفي تفسير القرطبي: أي يرصد كل إنسان حتى يجازيه به[5]، وواضح من أقوال المفسرين في الآيات التي ذكرناها في الفقرة السابقة أن سنة الله في الطغاة إنزال العقاب بهم في الدنيا، فهي سنة ماضية لا

(١) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين للصلابي صـ٤٥٦ .
(٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد صـ ١١٩ـ١٢١ .
(٣) تفسير الآلوسي (١٥/ ٤٢).
(٤) السنن الإلهية صـ١٩٣ .
(٥) تفسير القرطبي نقلاً عن السنن الإلهية صـ١٩٣ .

تتخلف، جرت على الطغاة السابقين وستجرى على الحاضرين والقادمين، فلن يفلت منهم أحد من عقاب الله[1]. وسنة الله فى الطغاة وما ينزله الله بهم من عقاب فى الدنيا، إنما يعتبر بها من يخشى الله جلّ جلاله ويخاف عقابه، ويعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابى أحدًا، قال تعالى فى بيان المعتبرين بسنته فى الطغاة ـ بعد أن ذكر ما حلّ بفرعون من سوء عقاب ـ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات، :٢٥ ، ٢٦]، فهؤلاء الطغاة من زعماء الفرس، وزعماء الروم فى مصر والشام مضت فيهم سنة الله.

٨ ـ **سنة التدرج:** خضعت الفتوحات الإسلامية لسنة التدرج، ويعتبر الحصار الأول والثانى للقسطنطينية مرحلة مبكرة لفتح القسطنطينية على عهد السلطان العثمانى محمد الفاتح، فالأعمال التى قام بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية قبل محمد الفاتح ساهمت فى عمل تراكمى توّج بفتح القسطنطينية فى عهد العثمانيين.

٩ـ **سنة الله فى الذنوب والسيئات:** قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقد أهلك الله تعالى أمة الفرس بسبب ذنوبهم التى اقترفوها، وأزال ملك الروم من مصر والشام وليبيا بسببها، وفى هذه الآية حقيقة ثابتة وسنة مطردة؛ أن الذنوب والمعاصى تهلك أصحابها، وأن الله تعالى هو الذى يهلك المذنبين بذنوبهم[2]، وقد سلط الله أمة الإسلام على الفرس والروم عندما حققت شروط التمكين وعملت بسننه وأخذت بأسبابه وحققت أهدافه

١٠ـ **سنة تغيير النفوس:** قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقد قام الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون بإحسان فى فتوحات الشام ومصر والشمال الأفريقى وبلاد المشرق بالعمل بهذه السنة الربانية مع الشعوب التى أرادت أن تدخل فى دين الله. فشرعوا فى تربية الناس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فغرسوا فى نفوسهم العقائد الصحيحة والأفكار السليمة والأخلاق الرفيعة.

(١) السنن الإلهية صـ١٩٤ .
(٢) المصدر نفسه صـ٢١٠ .

ثالثًا: التخطيط الاستراتيجي للفتوحات عند معاوية رضي الله عنه:

خضعت الفتوحات فى عهد معاوية للتخطيط الدقيق والمحكم، فقد كانت سياسته فى الفتوحات كالآتى:

١ـ سياسته تجاه الروم:

فقد سلك الخطوات التالية:

أـ التركيز على عمليات الصوائف والشواتى، من أجل تحقيق عدة أهداف منها:

ـ استنزاف قوة الروم.

ـ انتزاع زمام المبادرة من الروم، وجعلهم فى حالة دفاع مستمر[١].

ـ إرغام الروم على توزيع قواتهم بحيث لا يستطيعون القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية[٢].

ب ـ مهاجمة الروم فى عقر دارهم ومحاصرة عاصمتهم، وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم، وقذف الرعب فى قلوبهم.

جـ ـ تقليص النفوذ البحرى للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة فى بحر الشام[٣]، وما يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية الهامة.

٢ ـ سياسته فى جبهة الشمال الإفريقى:

أـ أولى معاوية رضى الله عنه جبهة المغرب اهتمامًا خاصًا تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصيًا، حيث كان معاوية رضى الله عنه المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى سنة ٤٧هـ، وهى السنة التى ضُمت فيها جبهة المغرب إلى والى مصر[٤].

ب ـ عمل معاوية رضى الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة فى قلب بلاد المغرب، وقد قام عقبة بن نافع ببناء القيروان لكى تكون عزًا للإسلام والمسلمين.

٣ ـ سياسته فى جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر:

أـ استعانة معاوية رضى الله عنه بفاتح سجستان وخراسان أيام عثمان رضى الله عنه، وهو عبد الله بن عامر -رضى الله عنه- وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

---

(١) فن الحرب الإسلامى، بسام العسلى (١/ ٢٣٣).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٣٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٢١١).
(٤) ولاة مصر صـ٦١، النجوم الزاهرة (١/ ١٧٥).

ب- العمل على تثبيت الحكم الإسلامى، ونشر دعوة الإسلام فى هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألفًا من العرب بعيالهم فى خراسان(١).

رابعًا: الشورى فى إدارة حركة الفتوحات:

عند انتقال الخلافة إلى معاوية رضى الله عنه كان مجلس الشورى لديه يتألف من كبار أعيان عصره وولاته ومعاونيه الذين يتصفون بالبلاغة والسياسة وحسن التدبير فى أمور الإدارة العسكرية، وكان من هؤلاء عمرو بن العاص رضى الله عنه الذى كان مشهوراً بالصفات " سابقة، مما جعل الخليفة معاوية يعتمد عليه كالوزير المدبر لدولته والمشير، ومنهم أيضًا زياد بن أبيه، ولم تكن الوزارة فى عهد بنى أمية مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، وكان ذوو الآراء من مستشارى الخليفة يقومون مقام الوزراء، وكان الواحد منهم يسمى كاتبًا أو مشيرًا،(٢) إضافة إلى ذلك كان الخليفة معاوية يعتمد فى إدارته العسكرية على مشورة قادة وأمراء القبائل وخصوصًا التى بالشام، فقد كان يقربهم ويدنى مجلسهم ويستشيرهم، وسار قادة معاوية بن أبى سفيان سيرته بمبدأ المشورة فى إدارتهم العسكرية للمعارك الحربية(٣).

خامسًا: مركزية القيادة والإمداد فى إدارة معاوية:

عندما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية أصبحت دمشق مقر الخلافة ومركز القيادة العليا للإدارة العسكرية، فكان الخليفة بها هو الذى يقرر السياسة الحربية كما كان مسئولاً عن الحرب والسلم، فكان التنظيم الإدارى العام للجيش أمرًا من الأمور المركزية التى يشرف الخليفة مباشرة عليها(٤)، وذلك بالرغم من وجود عمال الولايات والأقاليم الذين كان لهم مطلق السلطات والتى منها قيادة الجيوش بأنفسهم، أو تعيين القادة المناسبين من قبلهم، ووضع الخطط لهم وإمدادهم وتموينهم. ومن أمثلة هؤلاء زياد بن أبيه وابنه عبيد الله(٥)، فمن مركزية القيادة لإدارة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى تعيين القادة أنه كتب إلى واليه بالبصرة زياد بن أبيه يأمره أن يوجه إلى خراسان رجلاً يقوم بأمرها فولى زياد الحكم ابن عمرو الغفارى رضى الله عنه، وكتب له عهده على خراسان وولاه حربها، وخراجها وسار إليها بمن يريد الجهاد فى سبيل الله، من المتطوعة من أهل البصرة، إضافة إلى الجند

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٦٤، ٣٦٥ .
(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٨٠).
(٣) الفتوح، ابن أعثم (١/ ٣٤٠)، الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٠).
(٤) لإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٣١٤).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣١٤) .

النظامى أصحاب الديوان، فوضع لهم الأرزاق، وأعطاهم وقواهم وسار لما أمر به(١). ومن مركزية القيادة العليا فى إدارة معاوية العسكرية تسيير الجيوش والإمدادات العسكرية لها، فنرى القائد علقمة بن يزيد الغطيفى كتب إليه قائلاً: إنك خلفتنى بالإسكندرية وليس معى إلا اثنا عشر ألفًا ما يكاد بعضنا يرى بعض من القلة، فكتب إليه الخليفة معاوية: إنى قد أمددتك بعبد الله بن مطيع فى أربعة الآف من أهل المدينة، وأمرت معن بن يزيد السلمى أن يكون بالرملة فى أربعة الآف ممسكين بأعنَّة خيولهم متى يبلغهم عنك فزع يعبروا إليك(٢).

سادسًا: الألوية والرايات:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية تعددت الألوية والرايات فى إدارتهم العسكرية، كما تعددت ألوانها كاللون الأخضر والأحمر والأبيض، بالرغم من اتخاذهم اللون الأبيض شعارًا ورمزًا لخلافتهم(٣)، فمنذ عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لا نرى جيشًا يخرج ويسير نحو العدو إلا ويعقد للقائه لواء أو راية تكون لهم شعارًا ورمزًا يسيرون خلفها ويذودون عنها، فنرى الواحد يصرع تلو الآخر وكل همه بقاءها منصوبة(٤)، وكان القادة من الشجاعة والإقدام ما جعلهم يكونون أكفاء لحمل هذه الراية مثل عقبة بن نافع، والحكم بن عمرو الغفارى وفضالة بن عبيد الله، وقد جعل والى العراق من قبل الخليفة معاوية زياد بن أبيه خروج القبائل على الرايات، ويبدو أن الغاية من ذلك معرفة مدى جدية كل منها فى القتال والتزامها بالأوامر(٥).

سابعًا: اهتمامه بالعيون والبريد:

كان اهتمام معاوية رضى الله عنه بأمر المخابرات وجمع المعلومات على الأعداء قديمًا منذ كان أميرًا على بلاد الشام وتطور جهاز المخابرات لما تولى الخلافة، وزاد اهتمامه به، ففى عهده أسر رجل من المسلمين بالقسطنطينية وأهين ببلاطهم فاستغاث وامعاوياه: لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا. فوصل الخبر إليه عن طريق جواسيسه المتواجدين بأرض الروم،

(١) الفتوح لابن أعثم (٢/ ٣١٨).
(٢) فتوح مصر صـ١٩٢، الخطط للمقريزى (١/ ٢٦٨).
(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٣٦٨).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٦٨).
(٥) تنظيمات الجيش للجنابى صـ٢٢٧، الإدارة العسكرية (١/ ٣٦٩).

فقام بفدائه وبأسر من أهانه، وجعل المسلم يقتص منه بمثل ما أهانه وأن لا يزيد. وهذا دليل على مدى دقة نظام المخابرات فى إدارته[١]. ولقد ذكرت القصة فيما مضى بالتفصيل، كما قام الخليفة رضى الله عنه بفرض رقابة دقيقة ومحكمة على أفراد الحاميات وأسرهم، وعين موظفًا فى كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين حتى لا يتسلل عين للعدو إلى أرض المسلمين فيتعرفوا على مواقع معسكراتهم ونقاط الضعف بها إن وجدت[٢]. وفى إدارته أنشأ ديوان البريد واعتنى به عناية فائقة وذلك لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها بما فى ذلك أخبار الثغور، ولم يكن للبريد ديوان قبل ذلك[٣]،وأما علاقة صاحب البريد بالإدارة العسكرية فقد كان عبارة عن عين الخليفة الباصرة وأذنه السامعة؛ ينقل إليه أخبار عماله وقادته وسائر رجال دولته، فكان له عيون يوافونه بكل جديد كما كان البريد واسطة بين الولاة والخلفاء والقادة لنقل الأوامر العسكرية. وكان أصحاب البريد رقباء ومفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند فى مختلف حالات القتال وفى كل الظروف والأوقات، ويخبرونه بحال المال والعطاء وذلك أنه يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجرى فيه ويكتب بما يقف عليه من الحال فى وقته، إضافة إلى ذلك كان من واجبات صاحب البريد مساعدة الإدارة العسكرية فى التموين والإمداد وحفظ الطرق وصيانتها من الأعداء وانسلال الجواسيس فى البر والبحر، وإليه كانت ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف فيقوم بتوصيلها بوجه السرعة من اختصار للطرق واختيار المراكب لمعرفته بالطرق والمسالك إلى جميع النواحى. وكان الخليفة يجد عنده ما يحتاج إليه من المعرفة عند إنفاذ جيش وغيره وقت الحاجة إلى ما هنالك من مهام قام البريد بتأديتها فى الإدارة العسكرية[٤]، على الجملة كان يقال للبريد جناح المسلمين لما كان يطير به من الأخبار[٥].

ثامنًا: اهتمام معاوية بالحدود البرية للدولة:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية زاد الاهتمام والاعتناء بهذه التحصينات لحماية الحدود الإسلامية، وبخاصة إذا علمنا أن المؤسس الأول للدولة الأموية معاوية رضى الله عنه قد قام بتولى حملات الصوائف والشواتى بنفسه حين كان قائدًا وواليًا للخليفتين عمر وعثمان

(١) نهاية الأرب (٦/١٥٨)، الإدارة العسكرية (١/٤٠٥) .

(٢) الجندية للدقدوقى صـ١٧٧ . (٣) خطط الشام، محمد كرد (٥/١٩) .

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/٤٠٦).

(٥) ثمار القلوب للثعالبى صـ٢٤١، الإدارة العسكرية (١/٤٠٧).

رضى الله عنهما، كما أسند إليه فى خلافتيهما إنشاء وترميم بعض الحصون الدفاعية على الحدود الإسلامية كما سبق وأشرنا مما جعله ملمًا بهذه الثغور والتحصينات، فاستكمل ما بدأه حين استقرت بيده الخلافة، فقام ببناء وتحصين مرعش والحدث من ثغور الجزيرة وأسكنها الجند وكان يتعهدهما باستمرار[١]، واتخذ معاوية رضى الله عنه لتحصين المدن الساحلية سياسة التهجير أو النواقل؛ بنقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها، ونقل من الزط وأساورة البصرة والكوفة وفرس وبعلبك وحمص إلى ثغر أنطاكية[٢]، وولى القائد عبد العزيز بن حاتم الباهلى أرمينية وأذربيجان فبنى مدينة دبيل[٣]، وعمل عدة تحصينات دفاعية كما بنى مدينة النشوى[٤] ورم مدينة برذعة[٥]، وجدد بناء البيلقان[٦]، إلى ما هنالك من تحصينات دفاعية قام بإنشائها[٧]، كما قلد الوالى زياد بن أبيه القائد الربيع بن زياد الحارثى[٨] ثغر خراسان وأرسل معه من المصرين (الكوفة ـ البصرة) زهاء خمسين ألفًا من الجند بعيالاتهم، وأسكنهم ما دون النهر لحماية حدود الدولة الإسلامية هنالك[٩]. ويظهر لنا اهتمام زياد بأمر الشغور فى قوله لحاجبه: وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع وذكر منها: ورسول صاحب ثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علىَّ وإن كنت فى لحافى[١٠]، وسأل زياد جلساءه عن أنعم الناس عيشًا؟ فأجابوه قائلين: أنت أيها الأمير، فقال: فأين ما يرد على من الثغور والخراج[١١]. وهذا يبين مدى ما كان يلقاه زياد من عناء الثغور فى إدارتها والإشراف على أمرها لحفظها وسدها. ومما أثر عن زياد أيضًا قوله: أربعة أعمال لا يليها إلا المسن الذى عض على ناجذه: الثغر والصائفة والشرط والقضاء[١٢]، وكان عمرو ابن العاص رضى الله عنه فى إدارته لثغر مصر من قبل معاوية لا يحمل له من الخراج إلا

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٣).

(٢) كان ذلك فى عام ٤٢هـ، فتوح البلدان (١/ ١٣٩).

(٣) مدينة بأرمينية تتاخم إيران كانت ثغراً.

(٤) النشوى: مدينة بأذربيجان، معجم البلدان (٥/ ٢٨٦).

(٥) برذعة: فى أقصى أذربيجان، معجم البلدان (١/ ٣٧٩).

(٦) بيلقان: فى أرمينية الكبرى قرية من شروان، معجم البلدان (١/ ٥٣٣).

(٧) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٧٤).

(٨) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٤).

(٩) كان ذلك سنة ٥١هـ، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٤).

(١٠) الأوائل للعسكرى نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٥).

(١١) المحاسن والمساوىء صـ٢٦٩.

(١٢) تاريخ اليعقوبى، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٥).

الشيء اليسير وينفق جل الأموال على التحصينات وعطاء الجند المرابطين بالثغر[١]، واهتم معاوية بأمر الصوائف والشواتي حيث كانت تخرج في كل عام في وقتها المحدد لها لأداء مهمتها المنوطة بها، وكان يختار لها كبار القواد والأمراء، وكانوا يتمنون إدارتها ويعدون ذلك شرفًا وفخرًا لهم، فمن ذلك قول الخليفة معاوية لابنه يزيد: يا بنى إن أمير المؤمنين قد بسط أملك فاذكر حاجتك فطلب منه مطالب كان أولها قوله: يجعل أمير المؤمنين غزو الصائفة العام إلىّ لأفتح أمرى بتجهيز الجيوش فى سبيل الله[٢]، ومن أبرز الولاة والقادة الذين تولوا إدارة حملات الصوائف والشواتي في عهد معاوية لعدة مرات هم سفيان بن عوف الغامدى الأزدى، ومالك بن هبيرة السكونى[٣]، وكان أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه قبل أن يعين القادة على هذه الحملات يجرى لهم اختبارًا لمعرفة مدى حصافة القائد الإدارية ومن الذين كان يعتمد عليهم من قادته سفيان بن عوف الغامدى لخبرته الإدارية، وقد توفى وهو بالصائفة يدير أعمالها، وحين بلغ الخبر معاوية تأثر وكتب إلى أمصار وأجناد المسلمين ينعاه، وكان معاوية إذا رأى خللاً فى الصوائف قال: واسفياناه ولا سفيان لى[٤]، وكان معاوية رضى الله عنه لا يقصر فى اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية حدود وأراضى الدولة الإسلامية والدفاع عنها[٥].

تاسعًا: اهتمام معاوية بالأسطول والحدود البحرية:

عندما قامت الدولة الأموية استكمل معاوية رضى الله عنه ما بدأه فى بناء القوة البحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية بإقامة المراكب للغزو إلى جانب ترتيب الحفظة فى السواحل مما استولى عليه المسلمون من قواعد ومنشآت بحرية، وعندما خرجت الروم فى عهده إلى السواحل الشامية أمر بجمع الصناع من النجارين فجُمعوا، ورتبهم فى السواحل الشامية وجعل مقر دار صناعة السفن فى جند الأردن بعكا. وكما هو معلوم أن بلاد الشام غنية بالأخشاب التى تعتبر من أجزاء السفن الأساسية يومئذ[٦]، كما أنشأ الخليفة معاوية أول دار صناعة للأساطيل لإنتاج السفن الحربية المختلفة بمصر سنة ٥٤هـ فى عهد واليها مسلمة بن

(١) فتوح مصر صـ١٠٢ .
(٢) أنباء نجباء الأبناء صـ١٠٦ لابن ظفر المالكى، الإدارة العسكرية (٢/٤٧٦) .
(٣) الإدارة العسكرية (٢/٤٧٧)، الإصابة (٣/٢٣٧) .
(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٨٥)، الإدارة العسكرية (٢/٤٧٧) .
(٥) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٤٧٨) .
(٦) المصدر نفسه (٢/٤٧٨) .

مخلد الأنصارى، وكان مقرها بجزيرة الروضة، لذا عرفت باسم صناعة الروضة[١]، وكان قادة بحرية الخليفة معاوية ذوى خبرة وفن ببناء السفن الحربية، فقد كلف أحدهم بمهمة عسكرية نحو الروم وطلب منه قائلاً: أنشىء مركبًا يكون له مجاديف في جوفه واستعمله للسفر إلى بلاد الروم[٢]، أى بعمل فتحات جانبية للمجاديف[٣]، وبلغت السفن الحربية فى عهد معاوية رضى الله عنه نحواً من ألف وسبعمائة سفينة شراعية مشحونة بالرجال والسلاح وجميع العتاد، والمستلزمات القتالية البحرية[٤]، وبذلك نجد أن معاوية رضى الله عنه قد أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام ومصر لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد هذا الأسطول الإسلامى الذى يحافظ على الحدود البحرية ويغزو سواحل الروم الحين بعد الحين حتى يرتدع العدو ويحسب لهم ألف حساب[٥]، وأخذ الأسطول الإسلامى فى عهد معاوية فى فتح الجزر الواقعة بالبحر المتوسط الواحدة تلو الأخرى والتى منها جزيرة رودس[٦]، بقيادة القائد جنادة بن أمية الزهرانى الأزدى[٧]، حيث فتحها ـ كما مر معنا ـ عنوة وكانت غيضة فى البحر وهى من أخصب الجزائر بالمنطقة وأنزلها قومًا من المسلمين بأمر الإدارة العليا المركزية، واتخذ بها حصنًا وناطوراً يحذرهم ما فى البحر ممن يريدهم بكيد، وكان المسلمون بها على حذرٍ من الروم، وكان الخليفة معاوية يعاقب بين الجند فيها ولم يجمرهم وأدر عليهم الأرزاق والعطاء وكان الجند المقيمون بها أشد شيء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم وقد خافهم العدو.[٨] واستمر فى فتح الجزر وشحنها بالجند المرابطين وأصبحت قواعد بحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية[٩]، وأخذت حملات الصوائف والشواتى البحرية تجوب البحر وتمخر فى عبابه فى عهد معاوية رضى الله عنه وتسير جنبًا إلى جنب مع شقيقتها الحملات البرية حيث كانت تخرج من مصر والشام لتحمى سواحل المنطقة البحرية وتولى قيادتها كبار القادة المشهورين كالقائد يزيد بن شجرة الرهاوى، وموسى بن نصير، وبسر بن أبى أرطأة العامرى، وجنادة بن أمية

(١) حسن المحاضرة (٢/ ٣٧٨) للسيوطى، الإدارة العسكرية (٢/ ٥٤٣) .

(٢) نهاية الأرب (٦/ ١٨٦) .

(٣) الإدارة العسكرية (٢/ ٥٤٤) .

(٤) خطط الشام (٥/ ٣٧) محمد كرد على.

(٥) الحدود الإسلامية لبيزنطة (١/ ٢٣٧) فتحى عثمان.

(٦) رودس: جزيرة ببلاد الروم مقابل الإسكندرية .

(٧) الاستيعاب (١/ ٢٤٣)، الأعلام للزركلى (٢/ ١٤٠) .

(٨) النجوم الزاهرة (١/ ١٤٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٥٤٥) .

(٩) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٤٥).

الزهرانى، وعقبة بن عامر وغيرهم من القادة، وسار خلفاء بنى أمية من بعد الخليفة معاوية على سنته وأصبح الأسطول الإسلامى فى نمو مطرد وأكثروا من إنشاء سفنه وتفننوا فى إتقانه وجهزوه بالأدوات والمعدات الملاحية والقتالية، ورتبوا عليه الجند والقواد وزودوه بالتموين اللازم والأرزاق، وظلت صوائفه وشواتيه تقلق الروم فى كل عام وتهدد سواحلهم وحدودهم البحرية[١].

عاشراً : الاهتمام بديوان الجند والعطاء:

استمر ديوان الجند فى أداء مهامه المناطة به، وحدث به تطور بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية فقد أصبح ديوان الجند مؤسسة كبيرة حظيت باهتمام الخلفاء وولاتهم ومر بعدة مراحل تطويرية خلال هذه الفترة، فعندما تولى معاوية رضى الله عنه الخلافة تقاعس بعض الجند عن الحرب فى بداية إدارته العسكرية إثر الفتن والصراعات الداخلية، فتمكن بحسن إدارته ودهائه بالإغلاق عليهم فى العطاء حتى تمكن مرة أخرى من إلزامهم مرة أخرى بالجندية وتأليف القلوب[٢]، وقرب إليه زعماء القبائل وقد بلغ عدد الجند النظامى الذين يتسلمون العطاء فى بداية العصر الأموى نحواً من ثمانين ألف جندى بالبصرة، وستين ألفًا بالكوفة وأربعين ألفًا بمصر، وبالشام نحواً من ذلك، هذا سوى من فى باقى الأقاليم الأخرى من جند كفارس وما وراء النهر وغيرهما من الأقاليم وأمصار الدولة الإسلامية[٣]، كما كان بالكوفة من أبناء العجم زهاء عشرين ألف رجل فرض لهم وكانوا يسمون الحمراء[٤]، وبالبصرة ألفا رجل من سبى بخارى كلهم جيد الرمى بالنشاب، فقد ألحقهم الخليفة معاوية بالخدمة العسكرية وفرض لهم العطاء، وقد ولى كتابة الجند فى إدارة الخليفة معاوية المركزية بدمشق عمرو بن سعيد بن العاص، هذا بالإضافة إلى دواوين الجند المحلية بالأقاليم الإسلامية المحلية الأخرى التى تتحمل مهام الإدارة العسكرية المحلية[٥]، وظل دور أمر العرفاء والنقباء سائراً ومستمراً كما كان فى السابق، وذلك لاعتماد الإدارة عليهم فى الشئون العسكرية والمالية وبخاصة فى توزيع العطاء على الجند، فقد كان الخليفة معاوية يدفع إلى العرفاء العطاء، وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم[٦]، هذا مع ما يقومون به من التعرف على أحوال الجند وأخبارهم ورفع

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٥٤٦) .
(٢) المصدر نفسه (٢/٦٤٣) .
(٣) فتوح البلدان صـ١٠٢، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٤) .
(٤) الأخبار الطوال صـ٢٢٨ نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٦٤٤) .
(٥) التراتيب الإدارية (١/٢٢٩)، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٤)
(٦) نسب قريش صـ١٥٤، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٥) .

التقارير عنهم للإدارة العليا(١)، وقد طور زياد الهيكل التنظيمي العسكري للعرفاء، فجعل الناس في البصرة أخماسًا وجعل على كل خمسة رجلاً كما جعل في الكوفة أرباعًا على قيادة عشرة جنود في القتال، بل أصبحوا مسئولين عن النواحي الأمنية ومثيري الشغب والفتن والقلاقل داخل قبائلهم ومعسكراتهم، فكانوا حلقة الاتصال في الإدارة العسكرية بين القبائل العربية في الأمصار الإسلامية وبين السلطات الإدارية للدولة فيما يختص بتثبيت أسماء الجند في الدواوين وتوزيع العطاء عليهم واستدعائهم عند الحاجة، وقد حل أولئك العرفاء في القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر، وكان اختيارهم يتم من بين ذوي النفوذ ليستطيعوا أداء واجباتهم تجاه الإدارة العسكرية.(٢) ومثال على ذلك ما قام به زياد حيث خطب في أهل البصرة وهددهم بقطع العطاء إذا لم يكفوه الخوارج حيث قال: يا أهل البصرة والله لتكفنني هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهمًا، فثار الناس بهم فقتلوهم(٣). كما استخدمت الزيادة في العطاء للقادة والجند المتجاوبين والمنفذين للأوامر تشجيعًا وحثًا لهم على المضى قدمًا في مهامهم ومناصبهم العسكرية المسئولين عنها(٤)، كما فعل معاوية مع أشراف أهل الشام.

الحادي عشر: الأثر العلمي والاقتصادي والاجتماعي للفتوحات في عهد معاوية رضي الله عنه:

ومن الظواهر العلمية التي زادت ازدهارًا في عهد معاوية طائفة القصاص، وقد كانوا ينتشرون بين الجند كالقراء يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسي، فتجيش له همم العسكر فيسارعون للقتال، وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة كما يقوم بها القراء والقصاص والشعراء لينشروا في الجند روح الفداء ويرفعوا من روحهم المعنوية القتالية(٥)، وسلك الخليفة معاوية في وصاياه وتوجيهاته العلمية للأمراء والقادة والجند على منوال من سبقه من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فعندما عين عبيد الله بن زياد على ثغر خراسان كان من نماذج وصاياه قوله: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله

(١) خطط الشام (٥/٧).
(٢) تنظيمات الجيش صـ٢٢٣، الإدارة العسكرية (٢/٦٤٦).
(٣) تاريخ الطبري، نقلا عن الإدارة العسكرية (٢/٦٤٦).
(٤) المحاسن والمساوئ صـ٤٦٤، الإدارة العسكرية (٢/٤٦٧).
(٥) الفن الحربي صـ١١٧، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/٧١٨).

شيئًا[١]. . . وقد سبق الحديث عن وصيته لعبيد الله، ومن الآثار العلمية للحضارة الإسلامية فى عهد معاوية أنه حينما فتح جزيرة رودس كان ممن اشترك فى فتحها مجاهد بن جبر المقرىء، فكان مقيمًا بها يقرىء الناس القرآن ويفقههم فى الدين فى المسجد الذى بنى فيها أثناء الفتح، وهذا أنموذج ومثال من ألوف النماذج والأمثلة حيث إن هذا الأثر العلمى لا يقتصر على جزيرة رودس بل شمل جميع الأمصار والشعوب الإسلامية[٢].

ومن الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات أن والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه وغيره من الولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه كانوا يبعثون إليه بأموال الخراج بعد أن يستقطعوا منها ما ينفق على الأراضى الزراعية بمصر لاستصلاحها من الخلجان والقناطر والجسور، وحملا القمح إلى الحجاز لتفريقه وتوزيعه على سكان الحرمين الشريفين، كمعونة لهم[٣]، وكان بالجزيرة مكان الروضة قبل أن تبنى بها دار صناعة السفن فى عهد معاوية خمسمائة عامل مستعد لأى حريق يكون فى البلاد أو هدم للإعانة فى الكوارث وتقديم الخدمات الاجتماعية لأهل المنطقة[٤]. ومن التكافل الاجتماعى فى عهد معاوية مراعاته لأبناء الشهداء فى إدارته ورعاية شئونهم والفرض لهم[٥]، فقد كان يقول لجلسائه: يا هؤلاء، إنما سميتم أشرافًا لأنكم شرفتم على من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده[٦]، وعندما أذن معاوية رضى الله عنه لعبد الله بن صفوان بن أمية بالدخول عليه والمثول بين يديه طلب من معاوية أن يفرض للمنقطعين من ديوان العطاء، كما ذكّره بأن لا يغفل عن قواعد قريش والبر إليهم، وأن يقدم لهم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية التى تكفل لهم الحياة الرغدة[٧]. ومن الآثار الحضارية للفتوحات فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية استمرارية معاوية فى توطين الجند بالثغور وإقطاعهم القطائع والأراضى والمساكن بها وشقه للأنهار وجلبه للمياه. فقد أمر عسكره المقيم بجزيرة رودس بأن يزرعوا ويتخذوا بها أموالاً ومواشى يرعونها حولها[٨].

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٣).
(٢) الإدارة العسكرية (٢/ ٧١٩).
(٣) فتوح مصر صـ١٠٢، حسن المحاضرة (١/ ١٥١).
(٤) حسن المحاضرة (٢/ ٣٧٨)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٣).
(٥)، (٦) مروج الذهب (٣/ ٣٩، ٤٠)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٤)
(٧) نسب قريش صـ٣٨٩، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٤).
(٨) الفتوح لابن أعثم (١/ ٣٥٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٥).

الثاني عشر: كرامات للمجاهدين في عهد معاوية رضي الله عنه:

حدثت كرامات للمجاهدين في عهد معاوية رضي الله عنه منها ما كان لأبي مسلم الخولاني والتي مرّ ذكرها، وما حدث لعقبة رحمهما الله، حينما نادى الوحوش والدواب وطلب منها الرحيل، فرحلت بإذن الله تعالى حيث قال: فارحلوا عنّا فإنّا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب ، من أن السباع تخرج من الشَّعْراء[1] وهي تحمل أشبالها سمعًا وطاعة، والذئب جروَه، والحية تحمل أولادها. ونادى في الناس: كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحش والسباع والهوامّ والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمَّا لم يروا منها شيئًا، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل إفريقية ـ بالقيروان ـ بعد ذلك أربعين عامًا لا يرون بها حيَّة، ولا عقربًا، ولا سبُعًا. فاختط عقبة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطّه، ولم يُحدث فيه بناء. وكان يصلي فيه وهو كذلك، فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قِبلتهم على قبلة هذا المسجد، فأجهد نفسك في تقويمها، فأقاموا أيّامًا ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلمَّا رأى أمرهم قد اختلف بات مغمومًا، فدعا الله ـ عز وجل ـ أن يُفرج عنه، فأتاه آت في منامه فقال له: إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عُنُقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به، فاستيقظ من منامه وهو جزع، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف الناس، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أنَّ الأمر من عند الله، فأخذ اللواء فوضعه على عُنُقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة، ثم أخذ الناس إليها المطايا من كل أُفق وعظم قدرها.. وكان عقبة خير والٍ وخير أمير، مستجاب الدعوة[2].

(١) أي من الشجر .

(٢) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (١/١٩ ـ ٢١)، الكامل في التاريخ (٢/٤٨٤)، فتوح مصر صـ١٣٣. والقصة صحيحة الإسناد.

وفى هذه القصة عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يريد بهم نصر الإسلام ونشره فى الأرض، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع فى قلوبها الخوف منه، وقدَّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك، وقد رأى ذلك قبيل كبير من البربر فأسلموا، كما ذكر ابن الأثير فى روايته[1].

هذا وقد حمل بعض الباحثين هذا الخبر على أنه من الأساطير التى نسجها الرواة حول عقبة، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج الجيش الإسلامى فحملت أولادها وولَّت هاربة، وهذا التأويل من عجائب بعض الباحثين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردِّ مالا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة فى حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذى اعتمدوه لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوى إلى جحورها الآمنة لتستخفى بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادى وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذى حملهم على الدخول فى الإسلام من أجل ذلك، ولم يكن فى ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة. وقد جاء فى إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثنى زياد بن العجلان: إن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت[2]، وعبرة أخرى فى تلك الرؤيا التى رآها عقبة بن نافع فى أمر تحديد القبلة وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذى لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولى الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التى تظهر فيها الكرامات على أيدى أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله تعالى دعاءه فى تفريج همه وهموم المسلمين فى هذا الأمر[3].

وأهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات للصالحين، فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ[4]، فيفعلون ما أمر الله به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التى

(١)، (٢) فتوح مصر صـ١٣٣، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩).

(٣) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٤).

يكرم الله بها أولياءه المتقين، لحاجة فى الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوى إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة[1]. ومن عقيدة أهل السُّنّة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء[2].

الثالث عشر : قسمة الحكم بن عمرو الغفارى للغنائم فى غزو جبل الأسل بخراسان:

عن عبد الرحمن بن صبح، قال: كنت مع الحكم بن عمرو بخراسان، فكتب زياد إلى عمرو، إن أهل جبل الأشل سلاحهم اللبود[3]، وآنيتهم الذهب[4]، فغزاهم حتى تواسطوا، فأخذوا بالشعاب والطرق، فأحدقوا به ، فعيّ[5] بالأمر فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيمًا من عظمائهم، فقال له: اختر بين أن أُقتلك، وبين أن تخرجنا من هذا المضيق، قال له: أوقد النار حيال الطريق لتسلكوه فإنهم يستجمعون لكم، ويعرون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى غيره، فإنهم لا يدركونك حتى تخرج منه، ففعلوا ذلك، فنجا وغنموا غنيمة عظيمة[6]، وعن عبد الرحمن بن صبح قال: كتب إليه زياد: والله لئن بقيت لك لأقطعن منك طابقًا سحتًا[7]، وذلك أن زيادًا كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم: إن أمير المؤمنين كتب إليَّ أن أصطفى له صفراء وبيضاء[8]، والروائع[9]، فلا تحركن شيئًا حتى تخرج ذلك، فكتب إليه الحكم: أما بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلى أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئًا، فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقًا[10] على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له

---

(1) مجموع الفتاوى (11/283) .

(2) الانحرافات العقدية والعلمية (1/508) .

(3) اللبود: هو الالتصاق بالأرض: أى يكمنون لعدوهم.

(4) وهذا دلالة على غناهم وثراهم.

(5) عيَّ، وعيى: عجز، القاموس المحيط 1697 .

(6) الكامل فى التاريخ (2/476) .

(7) لأقطعن منك طابقاً سحتاً: أى لأستأصلن ما خبث من كسبك .

(8) الصفراء والبيضاء: هما الذهب والفضة .

(9) الروائع: المقصود بها فى هذا المقام، ما أعجبك وسرك من الغنائم .

(10) الرتق: ضد الفتق، وهو الالتحام، لسان العرب (10/114).

مخرجًا، وقال للناس: اغدوا على غنائمكم، فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، قال: فقال الحكم: اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضنى، فمات بخراسان بمرو[1]. إن خبر قسمة الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه الغنائم بين أفراد جيشه ذكره ابن عبد البر[2]، وابن الجوزى[3]، وابن الأثير[4]، وابن كثير[5]، وتتفق هذه المصادر حول طلب معاوية رضى الله عنه اصطفاء الذهب والفضة وعدم قسمتها بين الجيش ـ لكنها لم تورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة ـ وزاد ابن كثير أن معاوية رضى الله عنه طلب أن يرسل الذهب والفضة إلى بيت المال[6]، وهنا يجدر التذكير بأن مصارف الغنيمة فى الإسلام قد بيَّنها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وهذا يعنى أن أربعة*أخماس الغنيمة يقسم بين الجيش، ويبقى خمس الغنيمة فيقسم كما ورد فى الآية السابقة، وهذا الحكم لا يخفى على معاوية رضى الله عنه، كما أن دين معاوية وعدالته تمنعه من رد حكم الله سبحانه وتعالى[7]، وبالرجوع إلى رواية الطبرى نلاحظ أن الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه لم يبادر إلى قسمة الغنائم بين الجيش على الفور ـ مع وضوح حكم الشرع فى ذلك ـ بل دارت بينه وبين زياد مراسلات فى شأن الغنائم، وهذا التأخير فى قسمة الغنائم يقودنا إلى عدة احتمالات يمكن من خلالها إزالة الغموض الوارد فى الرواية وهذه الاحتمالات هى:

١ ـ رغبة معاوية رضى الله عنه فى أن يكون خمس الغنيمة ـ الذى يتولى إمام المسلمين قسمته من الذهب والفضة.

٢ ـ رغبة معاوية رضى الله عنه فى حمل ما غنم المسلمون من ذهب وفضة ـ قبل تخميسه وقسمته ـ إلى الهند وبيعه هناك[8] بقيمة مرتفعة، ثم يخمس ثمنه بعد ذلك، وفى ذلك خير للجميع[9].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٧) .
(٢) الاستيعاب (١/ ٣٥٧) .
(٣) المنتظم (٥/ ٢٣٠) .
(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٧٦) .
(٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/ ٢١٧) .
(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٥١، ٣٥٢ هذه الفقرة كلها من هذا الكتاب القيم .
(٨) ذكر الدكتور خالد الغيث –حفظه الله– مبحثًا مهمًا فى مسألة الغنائم والحكم بن عمرو الغفارى فنقلته منه، انظر: مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٥٢ .
(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٥٢ .

٣ـ وجود نقص طارئ فى بيت مال المسلمين، فأراد معاوية رضى الله عنه أن يقترض ما غنمه جيش الحكم رضى الله عنه إلى أجل معلوم، وتأخير قسمة الغنائم بين الجيش إلى وقت لاحق(١).

ومن الدروس المهمة إن ثبتت الرواية التزام الحكم بن عمرو الغفارى بمبدأ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وتمسكه بأداء الأمانة فى قسمة الغنائم، ولم يغل منها شيئًا ووزعها على العسكر بعد أن عزل الخمس(٢).

هذه أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات فى عهد معاوية.

الرابع عشر: استشهاد صلة بن أشيم وابنه بسجستان عام ٦٢هـ:

صلة بن أشيم هو الزاهد، العابد، القدوة، أبو الصهباء العدوىُّ البصرى، زوج العالمة معاذة العدوية، وكانت لصلة مواقف فى المجتمع الإسلامى مؤثرة، ومن هذه المواقف: عن ثابت قال: جاء رجل إلى صلة بنعى أخيه، فقال له: ادن فكل، فقد نُعى إلىَّ أخى منذ حين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وكان صلة له كرامات منها، عن حمّاد بن جعفر بن زُيَاد أنّ أباه أخبره، قال: خرجنا فى غزاة إلى كابل، وفى الجيش صلة، فنزلوا فقلت: لأَرمُقَنَّ عمله، فصلَّى ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، ثم وثب، فدخل غَيْضَةً، فدخلتُ، فتوضأ وصلّى، ثم جاء أسد حتى دنا منه، فصعدت شجرة، أفتراه التفت إليه!! حتى سجد فقلت: الآن يفترسه فلا شىء، فجلس ثم سلَّم، فقال: يا سبع اطلب الرِّزق بمكان آخر، فولى وإن له زئيرًا أقول: تصدّع منه الجبل فلمّا كان الصبح فجلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللَّهم إنى أسألك أن تُجيرنى من النار، أو مثلى يَجتَرِئُ أن يسألك الجنَّة(٣)، وعن العلاء بن هلال، أن رجلاً قال لصلة: يا أبا الصهباء رأيت أنى أعطيت شهادة، وأعطيت شهادتين فقال: تستشهد وأنا وابنى، فلما كان يوم يزيد بن زياد، لقيتهم الترك بسجستان، فانهزموا. وقال صلة: يا بُنىَّ ارجع إلى أمك. قال: يا أَبَة، تريد الخير لنفسك، وتأمرنى بالرجوع! قال: فتقدَّمْ، فتقدَّم، فقاتل حتى أصيب، فرمى صلة عن جسده، وكان راميًا، حتى تفرَّقوا عنه، وأقبل حتى قام عليه،

(١) مرويات خلافة معاوية صـ٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه صـ٣٥٢.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٩).

فدعــا له، ثم قاتل حــتى قُتل[1]، وعن حمّــاد بن سلمة: أخـبرنا ثابت أنّ صلــة كان فى الغزو، ومعه ابنه، فقال: أى بنى، تقدم فقاتل حتى احتسبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتل، ثم تقدَّم صلة فـقُتل، فـاجتمع النســاء عند امرأته معــاذة، فقالـت: مرحبًـا إن كنتنّ جئتنَّ لتُهنِّئننى، وإن كنتنَّ جئتُنَّ لغـير ذلك فارجعنَّ[2]. وكانت الملحمـة التى استشهد فـيها سنة ٦٢هـ[3].

****

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠٠) رجالة ثقات.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٣٧)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠٠) .

المبحث الخامس

ولاية العهد ووفاة معاوية رضى الله عنه

أولاً : بداية التفكير فى بيعة يزيد:

يُحمِّل كثير من الباحثين، المغيرة بن شعبة، المسئولية عن بيعة يزيد بن معاوية، وذلك باعتباره العقل المدبر، وصاحب الفكرة الأولى، حين عرض على معاوية أن يتولى يزيد الخلافة من بعده، وتكفل بالدعوة ليزيد وتهيئة أهل الكوفة لتقبل خبر اختياره لولاية العهد، وكل من اتهم المغيرة بن شعبة كانت حجته فى ذلك تلك الرواية التى أوردتها بعض المصادر القديمة ومفادها: أن المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ دخل على معاوية واستعفاه من ولاية الكوفة فأعفاه، وأراد معاوية أن يولى بدلاً منه سعيد بن العاص، فبلغ ذلك أحد الموالين للمغيرة، وتأثر المغيرة عند ذلك، وتمنى العودة للإمارة، فقام فدخل على يزيد وعرّض له بالبيعة، فأخبر يزيد والده بما قال له المغيرة، فاستدعى معاوية المغيرة بن شعبة، وأمره بالرجوع واليًا مرة أخرى على الكوفة وأن يعمل فى بيعة يزيد[1]، وأسانيد هذه الرواية ضعيفة، فسند هذه الرواية لا يشجع على قبولها أو الاستئناس بها بأى حال من الأحوال، كما أن المغيرة رضى الله عنه صحابى جليل تمّ التعريف به فى موضعه من هذا الكتاب، وقد توفى عام ٥٠هـ[2] قبل ظهور فكرة ولاية العهد عند معاوية، حيث بدأت هذه الفكرة فى الظهور فى عهد زياد بن أبيه على العراق، وقد صرّح الطبرى بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة ٥٦هـ[3]، فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع فى التمهيد لهذه الفكرة قبل موته؟![4].

ثانيًا : الخطوات التى اتبعها معاوية لبيعة يزيد:

١ ـ المشاورات:

لم نعثر فى المصادر التاريخية على تحديد دقيق لتلك الفترة التى بدأ فيها معاوية رضى الله عنه يفكر تفكيراً جديًا فى تولية ولده يزيد من بعده خليفة للمسلمين. ولكنه بالتأكيد

(١) الإشراف فى منازل الأشراف لابن أبى الدنيا صـ١٢١، إسناده ضعيف، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٠)، إسناده ضعيف جداً، تاريخ الذهبى حوادث (٦١ ـ ٨٠هـ) صـ٢٧٢، إسناده ضعيف جداً .

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٠) .

(٣) المصدر السابق (٦/ ٢١٩)، انظر: مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية صـ٨٤ – ٨٧ .

(٤) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية صـ٨٧ .

لم يفكر إلا بعد سنة خمسين من الهجرة، وذلك بعد أن خلت الساحة من وجود الصحابة الكبار المبشرين بالجنة من أمثال سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن يزيد بن عمرو، وبعد وفاة الحسن بن علي رضي الله عنهم جميعًا، وبعد أن عُرف يزيد عند قيادته لجيش المسلمين الذي حاصر القسطنطينية، وبعدها أصبح معاوية يهيئ الأمور لترشيح يزيد للخلافة، وكان من الطبيعي أن يستشير زياد بن أبيه بعدما أصبح أخًا له، وصار يقال له: زياد بن أبي سفيان، وولاه العراق، ولنسمع إلى رواية الطبري لهذه الاستشارة، وماذا صنع زياد[1]،

قال الطبري: لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد، كتب إلى زياد يستشيره، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النميري، فقال: إن لكل مستشير ثقة، ولكل سر مستودع، وإن الناس قد أبدعت[2] بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل آخرة يرجو ثوابًا، ورجل دنيا له شرف في نفسه، وعقل يصون حسبه، وقد عجمتهما[3] منك، فأحمدت الذي قبلك. وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الكتب؛[4] إن أمير المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوّف نفرة الناس، ويرجو مطابقتهم، ويستشيرني. وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة[5] وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالْق أمير المؤمنين مؤديًا عني، فأخبره عن فعلات يزيد. فقال له: رويدك بالأمر؛ فأقمن أن يتم لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركًا في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفَوْت. فقال عبيد له: أفلا غير هذا؟ قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقِّت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سرًا من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته، وأنك تخوَّفُ خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه، فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس، ويسهل لك ما تريد، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغَشّ، وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ. قال: أتقول بما ترى، ويقضي الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذاكره ذلك. وكتب زياد إلى معاوية يأمره[6] بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع[7].

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (١/ ١٨٩).
(٢) أي: أضرتهم.
(٣) أي: خبرتهما.
(٤) أي خائف من ذيوعه إذا هو كتبه.
(٥) سلة: الكسل.
(٦) تاريخ الطبري (٦/ ٢٢١). يأمره هنا: يشير إليه.
(٧) المصدر نفسه (٦/ ٢٢١).

إن تحليل هذا النص يكشف لنا عن الحقائق التالية:

أ ـ إن بداية الفكرة كانت من معاوية، وأنه كان يدرك أنه كان يقدم على أمر خطير، بل على حدث لم يسبق إليه، ولهذا اصطفى زيادًا للاستشارة، وزياد هو الذى قال عنه الأصمعى: الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيرة. وقد أشار عليه زياد بالتؤدة فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد[1]. قال الطبرى: لما مات زياد، دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد: إن حدث به حدث الموت، فيزيد ولى عهد، فاستوثق[2] له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر[3].

ب ـ إن معاوية لم يكن يريد حين الاستشارة الاكتفاء بالعهد، وإنما أراد أن يبايع الناس يزيد وهو حى، وهو حدث جديد أيضا لم يعهد من قبل، لأن الناس لم يبايعوا عمر إلا بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه.

جـ ـ إن زيادًا قد أحس خطورة الأمر، فلم يشأ - بادئ الأمر - أن يكتب لمعاوية بنصيحته، بل أراد أن يحمّلها لرسول خاص وهو (عبيد الله بن كعب النميرى) ليؤديها عنه إلى معاوية شفهيًا، وفى ذلك من الحيطة الشىء الكثير، لئلا يشيع خبر الكتاب، فيحدث ما لا يحمد. ولهذا قال لعبيد: ولهذا دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف.

د ـ إن معاوية كان يتخوف نفرة الناس، فليس العهد لولد الخليفة والخليفة حى بالأمر اليسير.

هـ ـ إن زيادًا كان يخشى على الأمة من يزيد، ولذلك يقول: وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد. ولهذا أيضا نرى فى جواب عبيد له أن سيلقى يزيد وينقل إليه أن زيادًا يرى ترك ما ينقم عليه، وبذلك يسلم ما تخاف من علاقة أمر الأمة.

و ـ إن زيادًا كتب أخيرًا إلى معاوية، ولكن لينصحه بالتؤدة وألا يعجل؛ فقبل ذلك معاوية[4].

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ١٩١) . (٢) استوثق له الناس: اجتمعوا على رأيه .

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢١) .

(٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ١٩٢) .

ز- وممن شاورهم معاوية رضى الله عنه الأحنف بن قيس، فقد روى أن معاوية لما نصّب ولده يزيد لولاية العهد، أقعده فى قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس. فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيرًا، وأمر له بألوف، فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر، إنى لأعلم أن شر من خلق الله سبحانه وتعالى هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فليس نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيهًا[1].

٢ ـ الحملات الإعلامية:

ومن التمهيدات الإعلامية الناجحة التى قدمها معاوية رضى الله عنه لابنه توليته أميرًا على الجيش الذى وجهه إلى غزو القسطنطينية، وبعد أن رجع من الغزو ولاه إمارة الحج، ولكنه كان يتخوف نفرة الناس، ويتهيب من بعض المعارضين[2]، ولذلك كان يواصل إعداد العدة للأمر، ويستشير ولاته ورجال دولته، ويستعين بهم فى تذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة ليزيد، ومما يذكر فى هذا الجانب، أن الشاعر ربيعة بن عامر الدارمى المعروف بـ(مسكين الدارمى)، وكان ممن يؤثره يزيد ويصله، أنشد فى مجلس معاوية، وكان المجلس حافلاً ويحضره وجوه بنى أمية فقال:

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد؟

بنى خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوِّئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاّه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

قال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين، ونستخير الله. ولم يتكلم أحد من بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة[3].

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة صـ ٤٥٨ .

(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ ١٠٤ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٥٥)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ١٠٤ .

٣ ـ قبول أهل الشام لبيعة يزيد:

أدرك معاوية رضى الله عنه حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم، فقد حسم أهل الشام أمرهم، وأصبح خيارهم فى ولاية العهد ليزيد، ووجدوا فيه ضالتهم لاستمرار صدارتهم فى الدولة الإسلامية، ولم يكن أهل الشام يستغربون فكرة توريث الخلافة كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم، بل إن بعض أهل العراق أيضا كانوا فيما يبدو مهيئين لتقبل فكرة توريث الخلافة، ولكن من منظور خاص، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم، وقد تأثروا فى ذلك بنظام الحكم الساسانى للفرس قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد[(١)]، إن أهل الشام استجابوا لرغبة معاوية في تولية يزيد وليًا لعهده من بعده، وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، ولم يكن هناك أى معارض[(٢)]، وقد أسهم أهل الشام فيما بعد فى أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز[(٣)].

٤ ـ بيعة الوفود:

عقد معاوية رضى الله عنه اجتماعًا موسعًا فى دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم، وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية، فمثلاً من بلاد الشام: الضحاك ابن قيس الفهرى، وثور بن معن السلمى[(٤)]، وعبد الله بن عضاة الأشعرى، وعبد الله بن مسعدة الفزارى، وعبد الرحمن بن عثمان الثقفى، وحسان بن مالك بن بحدل الكلبى[(٥)] وغيرهم، كما حضر عن أهل المدينة عمرو بن حزم الأنصارى ـ وذلك فى وقت متأخر ـ وحضر عن أهل البصرة الأحنف بن قيس التميمى، ثم تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها، وأكدوا أن هذه هى الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفاظ الألفة والجماعة[(٦)]، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد. على أن الشىء المؤكد أن عمرو بن حزم الأنصارى لم يحضر هذا الاجتماع وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: هو أن أهل المدينة لم يوافقوا -فى الأصل- على البيعة وعارضوها بشدة، فلم يرسلوا فى موعد الوفود أحدًا .

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) الموسوعة الحديثية، حسن لغيره .

(٢) تاريخ خليفة صـ٢١١، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ٨٩ .

(٣) تاريخ فلسطين، هانى أبو الرب صـ ٣١٩، ٣٢٠، البيان والتبيين (١/ ٣٩٢) .

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٣/ ٣٨٦) .

(٥) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ ٨٩ .

(٦) المصدر نفسه صـ٩٠ .

الأمر الثانى: هو أن معاوية قد رفض الالتقاء بعمرو بن حزم، وما ذلك إلا لأنه بلغه معارضة أهل المدينة، وعرف أن عمرو بن حزم مندوب عن أولئك المعارضين، فخشى إن حضر الاجتماع أن يشتت الآراء، ويحدث بلبلة من خلال معارضته، ولهذا استجاب له أخيراً؛ فالتقى به على انفراد، وحصل بالفعل ما كان يظن معاوية، ولكن معاوية، تقبل الانتقاد وأجزل له العطاء[1] وكان ذلك بعدما عزل رأى ابن حزم عن الوفود.

٥ ـ طلب البيعة من أهل المدينة:

مثلما أرسل معاوية رضى الله عنه إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد، أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها أخذ البيعة ليزيد[2] فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيبًا فحض الناس على الطاعة، وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال مروان إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد، سنة أبى بكر الراشدة المهدية، واستدل على ذلك بولاية العهد من أبى بكر لعمر، فرد عليه عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما[3]، ونفى أن تكون هناك مشابهة بين هذه البيعة وبيعة أبى بكر، وقال: فقد ترك أبو بكر الأهل والعشيرة وعمد إلى رجل من بنى عدى بن كعب، إذ رأى أنه لذلك أهل فبايعه. ثم قال: هذه البيعة شبيهة ببيعة هرقل وكسرى. ثم حدث بينه وبين مروان نزاع[4]، وجاء فى رواية عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه: يا معشر بنى أمية، اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبى بكر، أو سنة عمر.. ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر كان قيصر[5]، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه[6]، فقال: إن هذا الذى أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ [الأحقاف: ١٧] فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى[7].

وقد سبق طلبَ مروان بن الحكم من أهل المدينة البيعة ليزيد تمهيدٌ من معاوية رضى الله عنه، حيث أرسل رسالة لم يذكر فيها يزيد، وإنما جاء فيها: إنى قد كبرت سنى، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدى، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدى، وكرهت أن

(١) مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩)، صحيح الإسناد.
(٢) العقد الفريد (٤/ ٣٧٠ - ٣٧٢)، مواقف المعارضة صـ٩٨.
(٣) مواقف المعارضة صـ ٩٩، مجمع الفوائد (٥/ ٢٤١) إسناده حسن.
(٤) مجمع الفوائد (٥/ ٢٤١) إسناده حسن.
(٥) البخارى رقم ٤٨٢٧.
(٦) المصدر نفسه رقم ٤٨٢٧، وفى البخارى رواية أخرى.
(٧) المصدر نفسه رقم ٤٨٢٧.

اقطع أمرًا دون مشورة من عندك فاعرض عليهم ذلك، وأعلمني بالذى يردون عليك. فقام مروان فى الناس فأخبرهم بما أراد معاوية، فقال الناس: أصاب معاوية ووفق، وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو(١)، ولكن عندما ذكر فى المرة التالية اسم يزيد امتنع أهل المدينة فى بداية الأمر، وعبَّر عبد الرحمن بن أبى بكر عمّا فى نفوسهم(٢).

ومما سبق نلاحظ أن مروان بن الحكم لم يوفق فى المهمة التى كلفه بها معاوية رضى الله عنه، وعند ذلك قرر معاوية المجىء بنفسه إلى الحجاز ومعرفة موقف الصحابة من هذه القضية المهمة، فجاء رضى الله عنه معتمراً فى شهر رجب من سنة ٥٦هـ(٣)، فلما علم عبد الرحمن بن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير بقدوم معاوية خرجوا من المدينة، واتجهوا إلى مكة(٤)، فلما قدم معاوية المدينة خطب الناس وحثهم على البيعة وبيّن أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة(٥)، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه(٦)، ويبدو أن معاوية قد ذكر أنه يخشى على ابن عمر وغيره من القتل إن مانعوا، ويقصد بخوفه عليهم من أهل الشام، الذين لا يمكن أن يتصوروا أن أحداً يخالف أمير المؤمنين فى أمر اتفق عليه كثير من الناس، فقد ذكر أن معاوية قال: والله ليبايعنَّ ابن عمر أو لأقتلنّه، فلما بلغ الخبر عبد الله بن صفوان(٧)، غضب وعزم على مقاتلة معاوية إن ثبت هذا. فلما سأل معاوية أنكر ذلك وقال: أنا أقتل ابن عمر؟! إنى والله لا أقتله(٨).

أ ـ عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى مجلس معاوية رضى الله عنه: فلما قدم معاوية مكة، وقضى نسكه، بعث إلى ابن عمر، فقدم عليه فتشهد معاوية وقال: أما بعد يا ابن عمر، فإنك قد كنت تحدثنى أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء وليس عليك أمير، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى على فساد ذات بينهم، فرد ابن عمر على معاوية، وبيَّن له كيف كانت طريقة بيعة الخلفاء الراشدين، وذكر له كيف أن لهم أبناء خيراً من يزيد، فلم يروا فى أبنائهم ما يرى معاوية فى يزيد، ثم بين له أيضًا أنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين، وأنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ﷺ، فأثلج هذا القول صدر معاوية رضى الله عنه

(١) المدينة فى العصر الأموى صـ ٨٨، نقلاً عن الكامل فى التاريخ .
(٢) مواقف المعارضة صـ ٩٩ .
(٣) البداية والنهاية (١١/٣٠٥) .
(٤) التاريخ الصغير للبخارى (١/١٠٣)، إسناده حسن .
(٥) تاريخ خليفة صـ٢١٣، ٢١٤، إسناده حسن.
(٦) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (١/٢٦٢)، حسن مشهور .
(٧) التقريب صـ ٣٠٨، قتل عام ٧٣هـ بالكعبة مع ابن الزبير .
(٨) الطبقات (٤/٨٣) بسند صحيح، تاريخ خليفة صـ٢١٤، ٢١٥ بسند صحيح، مواقف المعارضة صـ١٠١، ١٠٢ .

وقال: يرحمك الله[١]. فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة[٢]، وكان معاوية رضي الله عنه قد أرسل بمائة ألف درهم لابن عمر، فلما دعاه معاوية لبيعة يزيد قال: أترون هذا أراد، إن ديني إذًا عندي لرخيص[٣]، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يرى أنه لا يجوز أن يؤخذ على البيعة الدراهم، لأنها من باب الرشوة، فإن كانت البيعة حقًا فلا يجوز له أن يأخذ على الحق أجرًا، وإن كانت باطلاً، فلا يجوز له أن يبذل البيعة لمن لا يستحقها من أجل المال[٤]. موقف ابن عمر رضي الله عنه هو عدم الرضا بالأسلوب الوراثي للحكم أو أخذ البيعة عن طريق المال[٥].

ب ـ عبد الرحمن بن أبي بكر في مجلس معاوية رضي الله عنهم: وخرج ابن عمر ـ من مجلس معاوية ـ واستدعى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، فأخذ معاوية في الكلام، فقاطعه عبد الرحمن ورد عليه بلهجة شديدة، وذكر أنه يمانع بيعة يزيد، وطلب أن يكون الأمر شورى، وتوعد معاوية بالحرب[٦]. ثم قام فقال معاوية: اللهم اكفنيه بما شئت، وطلب منه أن يتمهل وألا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه، فإذا جاء العشي وبايع الناس ثم يكون بعد ذلك على ما عنده من رأي[٧]. وكان الأولى لمعاوية رضي الله عنه أن يطلب من أهل الشام ألا يتعرضوا لمن خالفه.

جـ ـ عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: ثم استدعى ابن الزبير، واتهمه معاوية بأنه السبب في منع البيعة، وأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبي بكر، فردّ عليه ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها، ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلاً منه فيبايعه. ثم استدل على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول ﷺ بأنه لا يجوز مبايعة اثنين في آن واحد[٨]، ثم قال: وأنت يا معاوية أخبرتني أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما»**[٩].

د ـ الحسين بن علي رضي الله عنه: ومن الملاحظ أن الرواية السابقة لم تذكر الحسين بن علي ضمن من استشارهم معاوية في بيعة يزيد، ولعل السبب يعود إلى أن معاوية أدرك

(١) تاريخ خليفة صـ٢١٤، ٢١٥ بسند صحيح .
(٢) الفقهاء والخلفاء، د. سلطان خالد صـ ٥٨ .
(٣) الطبقات (٤/ ١٨٢)، بسند صحيح .
(٤) موسوعة فقه ابن عمر صـ١٥٣، قلعجي .
(٥) الفقهاء والخلفاء صـ ٥٩ .
(٦) تاريخ خليفة صـ٢١٣، ٢١٤ بسند صحيح، مواقف المعارضة صـ١٠٣ .
(٧) تاريخ خليفة صـ٢١٤، تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٢٩)، بإسناد صحيح .
(٨) تاريخ خليفة صـ٢١٤ بإسناد حسن، حلية الأولياء (١/ ٣٣٠، ٣٣١) .
(٩) المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٣١٤)، مجمع الزوائد (٥/ ١٩٨)، قال الهيثمي: ورجاله ثقات .

العلاقة بين أهل العراق والحسين وأنهم كانوا يكتبون له ويمنونه بالخلافة من بعد معاوية، ثم إن الحسين قد قابل معاوية بمكة فكلمه طويلاً -كما يبدو- فى أمر الخلافة؛ الأمر الذى أغضب يزيد فقال لأبيه: لا يزال رجل قد عرض لك، فأناخ بك، قال: دعه لعله يطلبها من غيرى فلا يسوغه فيقتله[1].

ويتبين لنا من خلال الحوار الذى دار بين معاوية وكل من عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهم أنهم يمانعون البيعة لسببين:

- اعتراضهم على تولية يزيد للعلاقة بين الأب والابن، وأن هذه لم تكن طريقة الخلفاء الراشدين .

- الاستدلال على بطلان هذه البيعة ورفضها لمخالفتها النص الصريح الذى ورد فى الحديث النبوى، والذى لا يجيز البيعة لشخصين فى آن واحد. والملاحظ هنا أن المعارضين لم يذكروا قدحًا فى يزيد، وإلا كيف يمكن أن يتجاهلوا صفات يزيد التى اتهم بها فيما بعد، خاصة فى ذلك الموقف الذى يتطلب حشد أى دليل فى مقابل الخصم[2]. والحقيقة أنه كان هناك شعور قوى بين بعض الناس -خاصة بين أبناء المهاجرين- هو كيف أن معاوية الذى أسلم فى فتح مكة يتولى خلافة المسلمين، وهناك من هو أقدم إسلامًا وأحق منه؟![3]، وكان البعض معترضًا على تقديم يزيد خوفًا من القيصرية والهرقلية -على حد تعبير عبد الرحمن بن أبى بكر- ولما رأى معاوية أوجه الانتقادات التى انتقد فيها أبناء الصحابة بيعة يزيد، ورأى أنها لا تمس يزيد شخصيًا، بل أنها وجهات نظر ارتأوها ورأى معاوية خلافها، فهؤلاء مدفوعون بحرصهم على جعل منصب الخلافة لا تتطرق إليه العلاقات الأسرية والرغبات الشخصية، ومن ثم تكون قيمة الخليفة واختياره مبنية على علاقته بالخليفة الذى قبله[4]. قام معاوية بعد اجتماعه مع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار زعموا أن ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر الصديق لم يبايعوا يزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم، فانتهرهم معاوية وقال: مه! سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش

(١) الطبقات، الطبقة الخامسة صـ٣٥٧، إسناد حسن نقلاً عن مواقف المعارضة صـ١٠٦ .

(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ١٠٤ . (٣) مصنف ابن أبى شيبة (١١١/ ٩٠) بسند صحيح .

(٤) مقدمه فى تاريخ صدر الإسلام، د. الدورى صـ٦٤ .

بالسوء! لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر ويقولون: لا والله ما بايعنا، ويقول الناس: بلى لقد بايعتم، وارتحل معاوية ولحق بالشام(١). وبهذه الرواية الصحيحة يتبين لنا كذب تلك الرواية التى تتهم معاوية رضى الله عنه بأنه أقام على رأس كل رجل من الصحابة الأربعة -وهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير،عبد الرحمن بن أبى بكر، والحسين بن على رضوان الله عليهم- رجلين، وأعطى الإشارة لكل حارس بقتل من يمانع البيعة، فبايع الناس وبايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر تحت تهديد السلاح، فبالإضافة إلى ضعف الرواية سندًا، فإن متنها لا يقل عن سندها من حيث الضعف ولا يقف أمام النقد الدقيق(٢)، فمثلاً فى بداية الرواية: أن معاوية لما كان قريبًا من مكة قال لمرقال صاحب حرسه: لا تدع أحدًا يسير معى إلا من حملته أنا، فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك لقيه الحسين بن على، فوقف وقال: مرحبًا وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، سيد شباب المسلمين، دابة لأبى عبد الله يركبها، ثم طلع عبد الرحمن بن أبى بكر فقال: مرحبًا وأهلاً بصاحب رسول الله ﷺ وابن الصديق وسيد المسلمين، ودعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير فقال: مرحبًا وأهلاً بابن حوارى رسول الله ﷺ وابن بنت الصديق وابن عمة رسول الله ﷺ، ثم دعا له بدابة فركبها، ولم يعرض لهم بشىء حتى قضى نسكه(٣). وأما ما يتعلق بباقى الرواية التى تذكر أن معاوية أوقف على رأس كل رجل حارسين وأمرهما بقتل من يحاول الاعتراض على البيعة إذا بويع يزيد، فهذا مستبعد لأمرين، أحدهما: أليس من الغريب جدًا على معاوية أن يستخدم العنف بهذه الصفة مع أبناء الصحابة، والصحابة أنفسهم ومن ثم يتسبب فى توسيع الخلاف ويباعد الشقة بينه وبين يزيد من جهة، وبين الصحابة وأبنائهم من جهة أخرى؟

والأمر الآخر: عندما يقف الحراس على رءوس الأربعة، ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر، والحسين، أليس هذا المنظر أمام الناس يجعل الشك عند الناس يتضاعف حول مكانة يزيد، ويعرف الناس أن أولئك الحراس الذين يقفون على رأس كل شخص إنما يتربصون به ويبغونه شرًا، ثم يصبح لدى الناس اقتناع كامل بأن هذه البيعة بيعة إكراه وخديعة فيمانعوا؟!(٤).

(١) تاريخ خليفة بسند حسن صـ٢١٤ .

(٢)مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ ١٠٦ ، تاريخ خليفة صـ٢١٥ بسند جويرية بن أسماء، قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون، والرواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها .

(٣) تاريخ خليفة صـ٢١٥، رواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

(٤) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ١١٠.

ثالثا: تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد:

اختلفت المصادر حول تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد على النحو التالى:

١ -ذكر خليفة بن خياط[١]، والذهبى[٢]، أنه كان فى سنة ٥١هـ .

٢ -ذكر ابن عبد ربه[٣]، أن ذلك كان فى سنة ٥٥هـ .

٣ -ذكر الطبرى[٤]، وابن الجوزى[٥]، وابن الأثير[٦]، وابن كثير[٧]، أن ذلك كان فى سنة ٥٦هـ.

هذا، وبعد دراسة التواريخ السابقة اتضح عدم صحة ترشيح يزيد بن معاوية سنة ٥١هـ[٨] للأسباب التالية:

أ-أن وفاة الحسن بن على رضى الله عنه كانت فى السنة نفسها -أى فى سنة ٥١هـ- واتخاذ قرار الترشيح يحتاج لوقت من طرف معاوية لكى يدرسه ويستشير فيه، كما أنه ليس من الحكمة إعلان قرار الترشيح بعد وفاة الحسن رضى الله عنه مباشرة.

ب-قتل حجر بن عدى رضى الله عنه فى السنة نفسها -أى فى سنة ٥١هـ-، لذا فإنه أيضًا ليس من الحكمة إعلان ترشيح يزيد بن معاوية فى هذه السنة، لأن الأنفس لم تكن مهيأة لمثل هذه القرارات الجريئة، التى يعد توقيت إعلانها على الناس من أهم عوامل نجاحها.

جـ-إن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد كان أثناء ولاية مروان بن الحكم على الحجاز[٩]، وهى- بلا شك- الفترة الثانية من ولاية مروان بن الحكم والتى امتدت من سنة ٥٤هـ - ٥٧هـ وذلك أن الفترة الأولى من ولاية مروان بن الحكم كانت من سنة ٤٢-٤٩هـ.

بعد ذلك يتبقى تاريخان لإعلان ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد، وهما ٥٥هـ وسنة ٥٦هـ، وهذان التاريخان يكمل أحدهما الآخر - كما سيتضح لاحقًا - ولكن يرد فى هذا

(١) تاريخ خليفة صـ٢١٣ .

(٢) تاريخ الإسلام (عهد معاوية) صـ١٤٧ .

(٣) العقد الفريد (٤/ ٣٣٨) .

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٩) .

(٥) المنتظم (٥/ ٢٨٥) .

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٣٠٥) .

(٧) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٠٨) .

(٨) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٤٥٠ .

(٩) صحيح البخارى مع فتح البارى (٨/ ٤٣٩) .

المقام سؤال حول السبب الذى جعل معاوية رضى الله عنه يؤخر ترشيح ابنه يزيد وليًا للعهد إلى سنة ٥٥هـ أو سنة ٥٦هـ مع أن الحسن بن على رضى الله عنه توفى سنة ٥١هـ، وجواب هذا السؤال يكمن فى معرفة أهم حدث وقع فى سنة ٥٥هـ حيث توفى فى هذه السنة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، آخر الستة الذين رضيهم ورشحهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه للخلافة من بعده[1].

رابعًا: وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

حاول بعض الإخباريين أن يوجدوا علاقة بين وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وبيعة يزيد بن معاوية، فذكر البعض أن معاوية رضى الله عنه لما رأى مكانة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند أهل الشام ـ بسبب مآثر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ولغنائه عن المسلمين فى أرض الروم وبأسه ـ خافه معاوية، فأمر ابن أثال الطبيب النصرانى فدس إليه السم[2]، فى حين يُرجع ابن الكلبى سبب القتل إلى أمر آخر وهو: أن معاوية لما أراد أن يولى الأمور رجلاً من بعده قال لأهل الشام: إن أمير المؤمنين يريد أن يستخلف عليكم فماذا ترون؟ فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن خالد -وكان فاضلاً- فسكت معاوية وأضمرها فى نفسه، ثم إن عبد الرحمن اشتكى، فدعا معاوية طبيبه بن أثال وأمره بدس السم لعبد الرحمن[3]. فهذه الروايات بالإضافة إلى ضعف سندها يوجد اختلاف فى متنها مع الواقع الملموس، فمعاوية رضى الله عنه بيده عزل الأمراء أو توليتهم كما هو معروف، وليس بالصعوبة على معاوية أن يطلب من عبد الرحمن بن خالد أن يتنحى عن قيادة الصوائف على الثغر الرومى، ويهمل عبد الرحمن بن خالد، ثم لا يكون له أى مكانة يُخشى منها، وقد ورد أن معاوية عزله وولى بدلاً منه سفيان بن عوف الغامدى[4] على إحدى الصوائف[5]، وليس هذا يشكل صعوبة على معاوية، بل إن معاوية كان يعزل عن الإمارة من هو أعظم وأقوى من عبد الرحمن بن خالد، ثم كيف يقوم معاوية بقتله وقد أورد الطبرى ذكر غزوة البحر سنة ٤٨هـ وكان قائد أهل مصر عقبة بن عامر الجهنى، وعلى أهل المدينة المنذر بن زهير، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[6]، فكيف يرضى معاوية أن يكون ولده قائدًا كبيرًا من بعد أبيه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يرضى أن يقوم ولده بقيادة الجيش لمعاوية إن كان معاوية قاتل أبيه، وهل يمكن أن

(١) مرويات خلافة معاوية صـ٤٥٢، سير أعلام النبلاء (١/١٢٣) .
(٢) تاريخ الطبرى (٦/١٤٣)، رواية ضعيفة .
(٣) كتاب الأمثال صـ١٩٢ للقاسم بن سلام. ضعيف الإسناد . (٤) تهذيب تاريخ دمشق (٦/١٨٥).
(٥) أنساب الأشراف (٤/١٠٤)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ٩٢ . (٦) تاريخ الطبرى (٦/١٤٧).

يخفى على ولده هذا الأمر وهو أقرب الناس إليه؟[1] فهذه أكاذيب واضحة حاولت أن توجد علاقة بين موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والبيعة ليزيد، ومثلها مثل الأكاذيب التى حاولت أن تربط بين موت الحسن بن على والبيعة ليزيد -كما مرّ ذكره-.

إن خبر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسم أورده القاسم بن سلام، وابن حبيب البغدادى[2]، وذكر أن الدافع هو الخوف من منافسة عبد الرحمن ليزيد فى ولاية العهد[3]، كذلك أورد الخبر البلاذرى[4]، وأبو الفرج الأصفهانى[5]، وأبو هلال العسكرى[6]، وخبر اتهام معاوية رضى الله عنه بحادثة سم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لم ترد بإسناد صحيح، بل هى من الأخبار المكذوبة على هذا الصحابى الكريم[7]، وفى ذلك يقول ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير وغيره، أن رجلاً يقال له: ابن أثال ـ وكان رئيس الذمة بأرض حمص ـ سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له فى ذلك، ولا يصح[8].

خامسًا: أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

١ ـ الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية رضى الله عنه إلى ابنه يزيد على أنه المرشح الذى سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى فى استقرار الدولة، وقد أبرز معاوية رضى الله عنه السبب الذى دعاه لاختيار ابنه يزيد، وذلك أثناء جمع التأييد له من كبار أبناء الصحابة أثناء رحلته الأخيرة للحج، إذ كان الدافع لمعاوية ـ رضى الله عنه ـ عندما سارع فى أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف[9]، الذى قد يطرأ على الأمة بعد موته، وربما تنخرط فى قتال جديد لا يعلم سعته ومداه إلا الله عز وجل[10]. كان معاوية يرهب أن يدع أمة محمد ﷺ كالضأن لا راعى لها[11]، ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، وكان الأولى بمعاوية رضى الله عنه أن يعين من أفاضل المجتمع الإسلامى رجالاً يجعلهم موضع شورى يختارون من

(١) مواقف المعارضة في خلافة يزيد صـ٩٣ .
(٢) المنمق فى أخبار قريش صـ٣٦٠ .
(٣) هذا تعليل فاسد، لأن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد ظهر فى عام ٥٦هـ بعد وفاة الحسن بن على، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد رضى الله عنهم .
(٤) أنساب الأشراف (٤/١٠٩) .
(٥) الأغانى (١٦/١٩٧) .
(٦) جمهرة الأمثال (٢/٣٨٥) .
(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٣٨٤ .
(٨) البداية والنهاية (١١/١٧٤) .
(٩) دراسات فى النظم صـ٤١، د. توفيق اليوزكى .
(١٠) مواقف المعارضة من خلافة يزيد صـ١٣١ .
(١١) تاريخ الطبرى (٦/٢٢٢) .

كان أهلاً للخلافة ويبتعد عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أمانًا من الاختلاف والقتال وسفك الدماء، ولقد وقع المحظور بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء، ولم يزح اختيار معاوية يزيد ما تعلل به من المخاوف، ويبدو أنه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، واتباع الوراثة بديلاً من الشورى فى اختيار الخليفة، ولأسباب أخرى، وعلى كل حال فمعاوية رضى الله عنه اجتهد ولم يكن مصيبًا فى تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسية الفائقة أن يطمئن فى حياته على اجتماع كلمة المسلمين فى أمر الخلافة من بعده باختيار واحد من قريش يشهد له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه، ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامى فى الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

٢ ـ قوة العصبية القبلية:

خاض معاوية رضى الله عنه الحرب وتولى الخلافة بنصرة من أهل الشام، وكانوا من أشد الناس طاعة لمعاوية رضى الله عنه ومحبة لبنى أمية، ومن الدلائل على تلك الطاعة والمحبة أن معاوية رضى الله عنه لما عرض خلافة يزيد بن معاوية على أهل الشام وافقوا موافقة جماعية ولم يتخلف منهم أحد، وبايعوا ليزيد بولاية العهد من بعد أبيه(١)، ومن الدلائل على قوة العصبية فى بلاد الشام لبنى أمية أن مروان بن الحكم تمكن من الانتصار بأهل الشام على عمال عبد الله بن الزبير، ثم تبعه بعد ذلك ابنه عبد الملك بن مروان، حتى تمكن من الانتصار بأهل الشام على ابن الزبير وقتله سنة٧٣هـ رضى الله عنه، ومع ذلك لم نجد أهل الشام انقادوا لابن الزبير، بل إن أهل العراق غدروا بأخيه مصعب بن الزبير ومالوا مع عبد الملك بن مروان، فلماذا لم تجتمع الأمة على ابن الزبير وهو فى ذلك الحين لا يشاركه أحد فى فضائله ومكانته؟ بل نجد العكس؛ أن عبد الملك بن مروان -الذى يعد فى السن كأحد أبناء عبد الله بن الزبير- تمكن من تولى زعامة المسلمين(٢)، فعصبية أهل الشام كانت سببًا مهمًا فى تولية يزيد وليست عصبية بنى أمية؛ فإن أسرة بنى أمية لم تكن ذات تأثير كبير على الأحداث فى مجىء معاوية رضى الله عنه إلى منصب الخلافة، وقد بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية فى ولاية العهد على أن المصلحة تقتضى ذلك حيث قال: والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فآثره

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه صـ١٣٢ .

بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم فى الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق، فإنهم كلهم أجلّ من ذلك[١]، وقال أيضًا: عهد معاوية إلى يزيد خوفًا من افتراق الكلمة، بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره لاختلفوا عليه[٢]. أى أن قوة عصبية بنى أمية وسطوتهم، ونفورهم من الانقياد لغيرهم، جعلت معاوية رضى الله عنه يختار مرشحًا من بنى أمية، فكان ابنه يزيد؛ خوفًا منه على الأمة من الفرقة والاختلاف[٣]، ومما لا شك فيه أنه لو جاء معاوية برجل من ذوى الكفاءة من قريش غير ابنه يزيد واستفتى ذوى الرأى والنهى بشأنه، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح، وطلب من أهل الحل والعقد فى الأمة مبايعته بولاية العهد، فهل كان يعترض أحد؟ طبعًا لا، ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعى، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه ومبايعته مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة، ألا ترى معى أن ذلك كان ممكنًا وأنه كان محققًا للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، وتجنيب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد؟ ولكن معاوية رضى الله عنه -على كل حال- اجتهد، فإن كان مصيبًا فله أجران، وإن كان مخطئًا فله أجر[٤].

٣ ـ محبة معاوية لابنه وقناعته به:

قال ابن كثير: وقد كان معاوية لما صالح الحسن، عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك والقيام بأبهته، وكان ظن ألا يقوم أحد من أبناء الصحابة فى هذا المعنى[٥]. وقال معاوية رضى الله عنه لعمرو بن حزم الأنصارى -الذى كان معارضًا للبيعة- فذكّر معاوية بالله، وطلب منه أن ينظر فى عاقبة الأمور، فشكره معاوية وقال: إنك امرؤ ناصح. ثم أخذ معاوية يُبيّن له بصراحة أنه لم يبق إلا ابنه وأبناؤهم، وابنه أحق من أبنائهم[٦]، وكانت

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٦٢، ٢٦٣) . (٢) المصدر نفسه (١/٢٥٧، ٢٥٨).
(٣) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٤٦٢ . (٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٢٦ .
(٥) البداية والنهاية، نقلاً عن مرويات خلافة معاوية صـ ٤٥٩، ٤٦٠ .
(٦) مجمع الفوائد (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩)، رجاله رجال الصحيح، الإصابة (٤/ ٦٢١)، رجاله ثقات .

ليزيد بعض الصفات التى شجعت معاوية على جعله وليًا للعهد، قال الذهبى فى ترجمة يزيد: كان قويًا شجاعًا، ذا رأى وحزم، وفطنة وفصاحة[1]، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأى فى الملك[2]. ربما كانت هذه الصفات دافعة لمعاوية وكافية ليزيد ليكون صالحًا للخلافة[3]، ولا شك أن الصحابة وأبناءهم أفضل من يزيد وأصلح، ولكن مع ذلك فإن معاوية ربما رأى فى ولده مقدرة لم تكن لغيره فى قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه، ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثم اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة فى عصره، وقد أنس معاوية رضى الله عنه من ولده يزيد حرصًا على العدل وتأسيًا بالخلفاء الراشدين، فقد كان يسأله عن الكيفية التى سيسير بها فى الأمة، فيرد عليه يزيد بقوله: كنت والله يا أبت عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب[4]. وغير ذلك من الأسباب. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم فى إمارة الحرب، الرجل القوى الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف، وإن كان أمينًا[5]. فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها، وسئل الأمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو أحدهما قوى فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزو؟ فقال: أما الفاجر القوى، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوى الفاجر[6]. ومعظم المقصود من نصب الأئمة حياطة المسلمين، ودفع عدوهم، والأخذ على يد ظالمهم، وإنصاف مظلومهم، وتأمين سبلهم، وتفريق بيت مالهم فيهم، على ما أوجبه الشرع، فمن كان ناهضًا بهذه الأمور ونحوها فبه يحصل مقصود الإمامة، ويطيب عيشهم، ويأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وحرمهم، وإن كان غيره أكثر علمًا منه، أو أوسع عبادة، أو أعظم ورعًا فإنه إذا كان غير ناهض بالقيام بهذه الأمور، فلا يعود على المسلمين من علمه أو ورعه وعبادته فائدة، ولا ينفعهم كونه مريداً للصلاح وإجراء الأمور مجاريها الشرعية مع عجزه عن ذلك وعدم قدرته على إنفاذه[7]. فقد كان معاوية رضى الله عنه يرى بولاية المفضول مع وجود الفاضل.. هذه أهم أسباب ترشيح معاوية رضى الله عنه لابنه.

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٧) .
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٦) .
(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ٢٠٤ .
(٤) الأشراف لابن أبى الدنيا صـ١٢٧، سنده ضعيف .
(٥) السياسة الشرعية لابن تيمية صـ٢٢ .
(٦) المصدر نفسه صـ٢٢ .
(٧) العبرة مما جاء فى الغزو والشهادة صـ٣٥، صديق حسن خان .

سادسًا: الانتقادات التى وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد:

لقد حمّل كثير من المؤرخين السابقين والمعاصرين معاوية رضى الله عنه مسئولية البيعة الكاملة، وبالتالى حملوه جميع الأخطاء التى يقع فيها الحكام من زمان معاوية حتى عصرنا الحاضر، فمنهم من اتهمه بالخروج على نظام الشورى فى الإسلام فكان أول محطم لنظام الإسلام[(١)]. ومنهم من اتهم معاوية بأنه أقر النظام الذى يعتمد على السياسة أولاً وإلى الدين ثانيًا[(٢)]، والبعض شبه معاوية بالملوك الأقدمين من الفرس والروم[(٣)]، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة هو رائد المدرسة (المكيافيلية) فى السياسة، القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية[(٤)]، والبعض حكم على معاوية بارتكابه كبيرة أضافها إلى كبائره السابقة[(٥)]، والبعض اعتبر معاوية خارجًا على إجماع المسلمين بهذه البيعة[(٦)]. ولمعرفة صحة هذه الاتهامات من عدمها يجدر بنا أن نعرف ماهية الشورى وكيفية تطبيقها، فالشورى دعامة من دعائم الحكم فى الإسلام، وقاعدة صلبة من قواعده، كما أن اختيار الحاكم فى الإسلام وتولى أمر الأمة المسلمة لا يعطيه صفة مقدسة، أو سلطة مطلقة[(٧)]، بل إنه مسئول عن كل عمل يقوم به وينفذ فيه ما ينفذ فى شعبه، وأما طريقة الشورى فلم يحدد لها نظام خاصا، فتطبيقها -إذن- متروك للظروف والمقتضيات الجارية[(٨)]، فقد كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحى، ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شئون دنياهم، وكذلك سار الخلفاء الراشدون فى استشارة المسلمين. . وإليك استعراضًا موجزًا لكيفية انعقاد إمامة الخلفاء الراشدين:

١ ـ طريقة انعقاد بيعة أبى بكر رضى الله عنه:

قام أهل الحل والعقد فى سقيفة بنى ساعدة ببيعة الصديق بيعة خاصة، ثم رشحوه للناس فى اليوم التالى، وبايعته الأمة فى المسجد البيعة العامة[(٩)]، وقد أفرز ما دار فى سقيفة بنى ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة

(١) إسلام بلا مذاهب، مصطفى الشكعة، صـ ٥٨.
(٢) نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، على إبراهيم حسن صـ ٥٨ .
(٣) عائشة والسياسة صـ ٢٧٨، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد ص١٤١ .
(٤) ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون صـ١٤٧ .
(٥) الأعمال العربية الكاملة (٣٦/٦)، أمين الريحانى .
(٦) زعماء الإسلام صـ ٢١٩، حسن إبراهيم حسن.
(٧) مواقف المعارضة (صـ١٤٢)، النظرية الإسلامية، للصعيدى صـ ٤٦٨ .
(٨) مواقف المعارضة صـ١٤٣ .
(٩) الخلافة والخلفاء الراشدون صـ٦٦، ٦٧ .

هى أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب دينًا والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية، وشخصية، وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسبية أو القبلية، وأن إثارة (قريش) فى سقيفة بنى ساعدة باعتبارها واقعًا يجب أخذه فى الحسبان، ويجب اعتبار أى شىء مشابه ما لم يكن متعارضًا مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسى السائد بين المسلمين حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم للنصوص التى تحكمهم، حيث المرجعية فى الحوار إلى النصوص الشرعية[(١)].

أ ـ وأول ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أن (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرر بالشورى الحرة، تطبيقًا لمبدأ الشورى الذى نص عليه القرآن الكريم، ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وسند هذا الإجماع هو النصوص القرآنية التى فرضت الشورى، أى أن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعى لنظام الحكم فى السلام وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستورى تقرر بالإجماع بعد وفاة رسولنا ﷺ ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأييدًا وتطبيقًا لنصوص الكتاب والسنّة التى أوجبت الشورى.

ب ـ تقرر يوم السقيفة أيضًا أن اختيار رئيس الدولة -أو الحكومة الإسلامية- وتحديد سلطاته يجب أن يتم بالشورى، أى البيعة الحرة التى تمنحه تفويضًا ليتولى الولاية بالشروط والقيود التى يتضمنها عقد البيعة الاختيارية الحرة ـ الدستور فى النظم المعاصرة ـ وكان هذا ثانى المبادئ الدستورية التى أقرها الاجتماع، وكان قرارًا إجماعيًا كالقرار السابق.

جـ ـ تطبيقًا للمبدأين السابقين قرر اجتماع السقيفة اختيار أبى بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية[(٢)]، ثم إن الترشيح لم يصح نهائيًا إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أى موافقة جمهور المسلمين فى اليوم التالى بمسجد الرسول ﷺ ثم قبوله لها بالشروط التى ذكرها فى خطابه[(٣)] المشهور الذى جاء فيه: أما بعد أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله

(١) دراسات فى عهد النبوة، للشجاع صـ٢٥٦ . (٢) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوى صـ ١٤٠.
(٣) المصدر نفسه صـ١٤٢ .

ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[1]. وقال عمر لأبى بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة[2]، وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، وقد قرر الصديق فيها قواعد العدل والرحمة فى التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد فى سبيل الله لأهميته فى إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك فى حماية المجتمع من الانهيار والفساد[3].

٢ ـ طريقة انعقاد بيعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

لما اشتد المرض بالصديق رضى الله عنه جمع الناس إليه، فقال: إنه قد نزل بى ما قد ترون، ولا أظننى إلا ميتًا لما بى، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحل عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم فى حياة منى كان أجدر ألاّ تختلفوا بعدى[4]. وقد قام أبو بكر رضى الله عنه بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم.

أ ـ استشارة أبى بكر كبار الصحابة: تشاور الصحابة رضى الله عنهم وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرنى عن عمر بن الخطاب، فقال له: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمن: هو -والله- أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدتك. ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى الرضا، ويسخط للسخط، والذى يسر خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. وكذلك استشار سعيد بن زيد وعددًا من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريبًا كانوا برأى واحد فى عمر إلا طلحة بن عبيد الله، خاف من شدته، فقد قال لأبى بكر: ما أنت قائل لربّك إذا سألك استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسونى.. أبالله تخوفونى؟

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).
(٢) البخارى، الأحكام، رقم ٧٢١٩.
(٣) التاريخ الإسلامى (٩/ ٢٨).
(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٢٣٨)، التاريخ الإسلامى (٩/ ٢٥٨).

خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك[1]. وبين لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يراني رقيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما عليه[2].

ب ـ نص العهد الذى كتبه أبو بكر لكى يقرأ على الناس: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى أستخلف عليكم بعدى عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى، وإياكم خيرًا، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمي به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، الخير أردت ولا أعلم الغيب ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

جـ ـ إبلاغ الناس بنفسه: إنه أراد إبلاغ الناس بلسانه واعيًا مدركًا حتى لا يحصل أى لبس، فأشرف أبو بكر على الناس وقال لهم: أترضون بما أستخلف عليكم، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قربة، وإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا[3].

د ـ التوجه بالدعاء لله: إنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويبثه كوامن نفسه، وهو يقول: اللهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأيى، فولَّيت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر، فاخلفنى فيهم فهم عبادك[4].

هـ ـ تكليف عثمان بقراءة العهد على الناس: كلف أبو بكر رضى الله عنه عثمان بن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس، وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبى بكر بعد أن ختمه لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر، دون أى آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به[5].

و ـ وصية الصديق لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما: اختلى الصديق بالفاروق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإخلاء ذمته من أى شيء، حتى يمضى إلى ربه خاليًا من أى تبعة بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده[6]، وقد جاء فى الوصية: اتق الله يا عمر، واعلم أن

(١) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩)، التاريخ الإسلامى، شاكر صـ١٠١ .
(٢) الكامل لابن الأثر (٢/٧٩) .
(٣) تاريخ الطبرى (٤/٢٤٨) .
(٤) طبقات ابن سعد (٣/١٩٩)، تاريخ المدينة (٢/ ٦٦٥ ـ ٦٦٩) .
(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٠) .
(٦) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى صـ٢٣٧ .

لله عمــلاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعمــلاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقــبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليــهم، وحق لميزان يوضع فيــه الحق غدًا أن يكون ثقــيلاً، وإنما خــفَّت موازين من خفت موازينه يوم القــيامة باتباعهم البــاطل غدًا أن يكون خفيفًــا، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهــم بأحسن أعمالهم وتجاوز عــن سيئه،فإذا ذكــرتهم قلت: إنى أخاف ألا ألحق بهم، وإن الله تعــالى ذكر أهل النار، فذكــرهم بأسوأ أعمــالهم، ورد عليهم أحــسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إنى لأرجو ألا أكــون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبًــا راهبًا، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحــمة الله، فــإن أنت حفظت وصيــتى فلا يك غــائب أبغض إليك من الموت، وليس تعجزه[1].

ونلاحظ أن عمــر رضى الله عنه ولى الخلافة باتفــاق أصحاب الحل والعــقد وإرادتهم؛ فهم الذين فوضوا لأبى بكر انتخاب الخليفــة، وجعلوه نائبًا عنهم فى ذلك، فشاور ثم عين الخليفة، ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقــروه وأمضوه، ووافقوا عليه، وأصحاب الحل والعقد فى الأمــة هم النواب (الطبيعيــون) عن هذه الأمة، وإذن فلم يكن استخــلاف عمر رضى الله عنه إلا على أصح أساليب الشورى وأعدلها[2]. إن الخطوات التى سار عليها أبو بكر الصديق فى اختيارخليفته من بعده لاتتجاوز الشورى بأى حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبــعة فيها غيــر الإجراءات المتبعة فى توليــة أبى بكر نفسه[3]. وهكذا تم عقد الخلافــة لعمر رضى الله عنه بالشــورى والاتفاق، ولم يورد التاريخ أى خــلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحدًا نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته فى أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة[4].

٣ ـ طريقة انعقاد بيعة عثمان رضي الله عنه:

استطاع الفــاروق رضى الله عنه فى اللحظات الأخيرة وهو على فــراش الموت -رغم ما يعانيه من آلام جــراحاته البالغة- أن يبتكر طريقة جــديدة لم يسبق إليها فى اختيــار الخليفة الجديد، وكانت دليلاً ملموسًا، ومعلمًا واضحًا على فقهه فى سياسة الدولة الإسلامية، لقد مضى قبله الرسولﷺ ولم يستخلف بعده أحدًا بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق واستخلف الفــاروق بعد مشاورة كــبار الصحابة، ولما طلب من الفــاروق أن يستخلف وهو

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٦٤، ٢٦٥). (٢) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى صـ٢٣٧.

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة ص٢٣٧. (٤) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس ص١٨١

على فـراش الموت، فكر فى الأمر مليًا وقـرر أن يسلك مسلكًـا آخر يتناسب مع المقـام، فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقر بأفضلية أبى بكر وأسبقيـته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادرًا، وخصـوصًا أن النبى ﷺ وجه الأمة قولاً وفـعلاً إلى أن أبا بكر أولى بالأمر من بعده، والصـديق لما رشح عمر كان يعلم أن عـند الصحابة أجمـعين قناعة بأن عمـر أقوى وأقدر وأفضل من يحمل المسئولية بعده، فاستـخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة، ولم يخالف رأيه أحد منهم وحـصل الإجماع على بيعـة عمر(١)، وأما طريقـة انتخاب الخليفـة الجديد فتعـتمد على جعل الشورى فى عـدد محصور، فقـد حصر ستة من صـحابة رسول الله، كلهم بدريون، وكـلهم توفى رسـول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وكلـهم يصلحـون لتـولى الأمر، ولو أنهـم يتفاوتون، وحـدد لهم طريقة الانتـخاب ومـدته وعدد الأصـوات، وأمر مجـموعـة من جنود الله لمراقبـة سيـر الانتخـابات فى المجلس ومنع الفوضى، بـحيث لا يسمحون لأحد أن يدخل أو يسـمع ما يدور فى مجلس أهل الحل والعقد(٢). وبهذا يكون أمير المؤمنون أرسى نظامًـا صالحًا للشورى لم يسبقه إليـه أحد، ولا يشك أن أصل الشورى مقرر فى القرآن والسنة القولية والفـعلية، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر، ولم يكن عمـر مبتدعًـا بالنسبة للأصل، ولكن الذى عـمله عمر هو تعيـين الطريقة التى يختـار بها الخليفة، وحصر عدد معـين جعلها فيهم، وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصديق ـ رضى الله عنه ـ بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل! فـقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة فى ذلك الوقت(٣).

وبهذا جعل أمـير المؤمنين هيئة سـياسية عليا، وهم أهل الـشورى، وأناط بهم وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهـم أن نشير إلى أن أحدًا من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذى اتخذه عمر، كما أن أحدًا من الصحابة الآخرين لم يثر أى اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصـوص التى بين أيدينا، فنحن لا نعلم أن اقتراحًا آخـر صدر عن أحد من الناس فى ذلك، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر خلال السَّاعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته، وإنما رضى الناس كافـة هذا التدبير، ورأوا فيه مصلحة لجـماعة المسلمين، وفى وسعنا أن نقـول: إنَّ عمر قد أحدث هـيئة سياسـية عليا مهـمَّتها انتـخاب رئيس الدولة أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستورى الجديد، الذى أبدعته عبقرية عمر، لا يتعارض مع المبادئ الأساسية التى أقرها الإسلام، ولاسيما فيـما يتعلق بالشورى، لأن العبرة من حيث النتيجة العامة التى تجرى فى المسجد الجـامع. وعلى هذا لا يتوجّه السؤال الذى قد يرد على بعض

(١)، (٢) أوليات الفاروق صـ١٢٢ .
(٣) المصدر نفسه صـ ١٢٧

الأذهان، وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ مـا مستند عمر فى التـدبير؟ ويكفى أن نعلم أن جمـاعة من المسلمين قد أقـرت هذا التدبير، ورضـيت به ولم يُسمع صوت اعتـراض عليه حتى نتأكَّد أنَّ الإجماع ـ وهو مصدر من مصادر التشريع ـ قد انعقد على صحته ونفاذه[1]، ولا ننسى أن عمر خليفة راشد، كما ينبغى أن نؤكِّـد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرّها نظام الحكم فى الإسلام فى العهد الراشدى، كما أنَّ الهـيئة التى سمّاها عمر، تمتَّعت بمزايا لم يتمـتع بها غـيرها من جمـاعة المسلمـين، وهذه المزايا منحت لها من الله وبلغـها الرسول، فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة من التقوى، والأمانة[2].

ومن الأمور المهـمة حرص الفاروق على إبعـاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فـيهم من هو أهل لها، فهو يبعـد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشـحين للخلافة[3]، وقد أوصى بأن يحضر عـبد الله بن عمر مع أهل الشورى وألا يكون لـه من الأمر شىء، ولكن قال لهم: فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكِّموا عبد الله بن عمر، فأى الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فيكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فوصف عـبد الرحمن بن عوف بأنه مسدد رشيد، له من الله حافظ فاسمعوا له.[4] وقد أشرف على العـملية الانتخابية عبد الـرحمن بن عوف وشاور الناس فى أمر على وعثمان رضى الله عنهما، وكان يشاور كل من يلقاه فى المدينة من كبار الصحابة وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتى لـلمدينة، وشملت مشاوراته النساء فى خدورهنَّ، وقـد أبدين رأيهنّ، كما شملت الصـبيان، والعبـيد فى المدينة، وكانت نتـيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف أن معظم المسلمـين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان، ومنهم من كان يشـير بعلى بن أبى طالب رضى الله عنهمـا. . . ثم بعد ذلك أعلن عبـد الرحمن بعد صلاة الصبح من اليوم الأخير من شهر ذى الحـجة عام ٢٣ والنتيجة التى وصل إليها، فبعد أن تشهَّد عبد الرحـمن قال: أما بعد، يا على إنى قد نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلـون بعثمـان، فلا تجـعل على نفسك سـبيـلا ثم بايع عثـمان على سنة اللـه ورسوله والخليفتين من بعده. فبايعـه الناس: المهاجرون ، والأنصار، وأمراء الأجناد والمسلمون[5]، وجاء فى رواية صاحب التـمهيد والبيان: أن على بن أبى طالب أوّل من بايع عـبد الرحمن

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ٢٢٧، ٢٢٨) . (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٢٩) .
(٣) الخلفاء الرّاشدون للخالدى صـ ٩٨ . (٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٥) .
(٥) البخارى، ك الأحكام رقم ٧٢٠٧ .

ابن عوف[١]، وقد اعتبر الذهبي ما قام به عبد الرحمن بن عوف من أفضل أعماله، حيث قال: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحلِّ والعقد، فنهض في ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمَّة على عثمان، ولو كان محابيًا فيها، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص[٢]، وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى في أحد الخلفاء الراشدين؛ وهي الاستخلاف عن طريق مجلس الشورى، ليعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامّة، ثم البيعة العامّة[٣].

٤ ـ طريقة انعقاد بيعة على بن أبي طالب رضي الله عنه:

تمت بيعة على رضي الله عنه بالخلافة بطريقة الاختيار، وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه على أيدي الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاءوا من الآفاق ومن أمصار مختلفة وقبائل متباينة، لا سابقة لهم، ولا أثر خير في الدين، فبعد أن قتلوه رضي الله عنه ظلمًا وزورًا وعدوانًا، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين[٤]، قام كل من بقي بالمدينة من أصحاب رسول الله بمبايعة على رضي الله عنه بالخلافة؛ وذلك لأنه لم يكن أحد أفضل منه على الإطلاق في ذلك الوقت، فلم يدع الإمامة لنفسه أحد بعد عثمان، ولم يكن أبو السبطين رضي الله عنه حريصًا عليها، ولذلك لم يقبلها إلا بعد إلحاح شديد ممن بقي من الصحابة بالمدينة، وخوفًا من ازدياد الفتن وانتشارها، ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتن، كموقعة الجمل وصفين، التي أوقد نارها وأنشبها الحاقدون على الإسلام، كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه لفسقهم ولزيغ قلوبهم عن الحق والهدى، وقد روى الكيفية التي تم بها اختيار على رضي الله عنه للخلافة بعض أهل العلم[٥]، فقد روى أبو بكر الخلال بإسناده إلى محمد ابن الحنفية قال: كنت مع على رحمه الله وعثمان محصور قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام على رحمه الله، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفًا عليه، فقال: خل لا أم لك، قال: فأتى على الدار وقد قتل الرجل رحمه الله، فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه فقالوا: إن

(١) التمهيد والبيان صـ٢٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٨٦) .
(٣) دراسة في عهد النبوة والخلافة الراشدة صـ ٢٧٨ .
(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣١) .
(٥) عقيدة أهل السنة في الصحابة الكرام (٢/ ٦٧٧) .

هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة ولا نعلم أحدًا أحق بها منك، فقال لهم علي: لا تريدوني فإني لكم وزير خير مني لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحدًا أحق بها منك، قال: فإن أبيتم عليَّ فإن بيعتي لا تكون سرًا، ولكن أخرج إلى المسجد، فبايعه الناس[1].

٥ ـ طريقة انعقاد بيعة الحسن بن علي رضي الله عنه:

كانت بيعة الحسن بن علي رضي الله عنه في شهر رمضان من سنة ٤٠هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد اختار الناس الحسن بعد والده، ولم يعين أمير المؤمنين أحدًا من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليًا يقول: لتخضبن هذه من هذا[2]، فما ينتظر بي الأشقى[3] قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته[4]، قال: إذن تالله تقتلون بي غير قاتلي. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ماترككم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم. وفي رواية: أقول: اللهمّ استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم. وبعد مقتل علي صلى عليه الحسن بن علي وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه، وقتال المُحلين، فقال له الحسن رضي الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط. فبايعه وسكت، وبايعه الناس[5]. وقد اشترط الحسن بن عليّ على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[6]، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[7]، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد عليّ على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ويرضوا بما رضي به[8].

---

(١) كتاب السنة لأبي بكر الخلاّل صـ٤١٥ .
(٢) أي لتخضبن لحيته من دم رأسه .
(٣) مجمع الزوائد (٩/ ٩٢١)، مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره.
(٤) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب(٤/ ٥، ٥٣٨) .
(٥) تاريخ الطبري (٦/ ٧٣) .
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٧٧) .
(٧) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمي (١/ ٢٨٦، ٢٨٧) .
(٨) المصدر نفسه (١/ ٣١٦، ٣١٧) .

٦ ـ طريقة انعقاد بيعة معاوية رضى الله عنه:

تمت بيعة معاوية بتنازل الحسن بن على رضى الله عنه عن الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميرًا للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة[١]، وقد بايع معاوية رضى الله عنه كل الصحابة الأحياء، وأجمعت الأمة عليه، وعدوا خلافته شرعية، ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلى أمر المسلمين ويقوم به خير قيام.

٧ ـ المآخذ على فكرة ولاية العهد في عهد معاوية:

صحيح أن النظام الإسلامى للحكم لم ينص على طريقة معينة لاختيار ولى الأمر، ولكنه وضع الأساس التى لا تجوز الحيدة عنه، إلا فى حالات الضرورة والاضطرار، وهو الشورى، وليس للشورى أسلوب خاص، وطريقة واحدة، لا تتحقق إلا بها، ولكن تتحقق بأساليب شتى كما مرّ معنا فى اختيار الأمة للخلفاء الراشدين، ولئن قصد معاوية رضى الله عنه بإحداث ولاية العهد فى نظام الحكم الإسلامى جمع كلمة المسلمين، وحقن دمائهم، فهو -إن شاء الله تعالى- مأجور على أنه كان قادرًا على أن يجعل العهد بعده لغير ولده من كبار الصحابة الموجودين فى تلك الفترة، وكان فيهم كفاءات لو أسند إليهم الأمر، فقد كان الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمر وغيرهم موجودين في هذا الوقت، ولكن معاوية رضى الله عنه عدل عن هؤلاء وقصد لولده ليكون خليفة بعده، وبذلك حصل التغير الحقيقى فى نظام الحكم الإسلامى، فليس التغيير فى إيجاد نظام ولاية العهد. . . ولكن التغيير فى أن يكون ولى العهد ولد الخليفة أو أحد أقاربه، حتى أصبحت الحكومة ملكية بعد أن كانت خلافة راشدة[٢]، وإذا كنا مأمورين باتباع سنة الرسول وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإن التزام نظام الوراثة ليس من سنة النبى ولا من سنة خلفائه الراشدين، كما أن ترشيح يزيد لم يكن موفقًا لأسباب، منها: أن المجتمع الإسلامى يومئذ كان فيه من أحق وأولى بالخلافة من يزيد فى سابقته وعلمه وعمله ومكانه وصحبته، كعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهما، فأين الثرى من الثريا؟![٣] ومنها بدأ توريث الحكم من الأب لابنه.

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٧)، تاريخ خليفة صـ ٢٠٣.
(٢) الأمويون بين الشرق والغرب، للوكيل (١/ ١٨٠)
(٣) تاريخنا المفترى عليه، للقرضاوى صـ ٢٥٠ .

وعلى كل تقدير فهـذا لا يقدح فيما عليه أهل السنة، فـإنهم لا ينزهون معاوية ولا من هو أفضل مـنه من الذنوب، فضلاً عـن تنزيههم عن الخطأ فى الاجـتهاد، بـل يقولون إن للذنوب أسبابًا تدفع عقوبتها، من التوبة والاسـتغفار والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك، وهذا أمر يعم الصـحابة وغيرهم[١]، ومعاوية رضى الله عـنه من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمـهم، وما هو ببرىء من الهنات، والله يعـفو عنه[٢]، والذى يجب أن نعتقده فـى معاوية أن قلوبنا لا تنضوى على غل لأحد من أصحـاب محمد ﷺ، بل نقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ونقول إن معاوية اجتهد للأمـة خوفًـا عليهـا من الانقســام والفتن، ولا يمكن أن يحـمل تبعـات كل أخطاء الملوك والأمراء الذين جـاءوا من بعده، كما قـرره عبد القـادر عودة ـ رحمه الله ـ حـيث يقول: وأقام مـعاوية أمر الأمـة الإسلامـية على المحجـات والظلم وإهدار الحقـوق، وقضى على الشورى وعطل قـول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وحوّل الحكم العادل النظيف إلى حكم قذر قائم على الأهواء والشهوات، ووجه الناس إلى النفاق والذلة والصغـار، ولا شك فى أن كل من جاءوا بعـده إلى عصرنـا هذا قد عمل بسنتـه وتثبـتوا ببدعته- حاشا عمر بن عبد العزيز- فعلى معاوية -وقد استن هذه السنة- السيئة إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة[٣]. وإذا كان معاوية أو الخلفاء الأمويون قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فـإن حفيده مـعاوية بن يزيد بن معـاوية بن أبى سفيـان، ثالث خلفاء الأمويين، قد أعـاد الخلافة من الملك العضـوض إلى الشورى الكاملة.. وإنه لما يستـوجبه الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط ولم تستطع الأمة التى أعطيت حقهـا فى اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق فى عـصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليـمية والقبلية وحسم فى النهاية الصـراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البـيت الأموى، واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التـاريخى بعمق الالتحام بين بنائها القـبلى والوجود الأموى بها[٤]، وسيأتى -بإذن الله- التفصيل عند حديثنا عن معاوية الثانى، والحقيقة أن بيعة يزيد قد قبلها الكثير حتى الصحابة رضوان الله عليهم، فقـد بايعه ستون من أصحاب محمد ﷺ فيهم ابن عمر[٥] خوفًا من الفـتنة وحرصًا على وحدة الصف، فقد توفى عـبد الرحمن بن أبى بكر

(١) منهاج السنة (٤/ ٣٨٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٦).
(٣) الإسلام وأوضاعنا السياسية صـ ١٥٩.
(٤) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٩٣ - ٢٩٥.
(٥) القيد الشريد، ورقة ١٧، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ١٥٣.

بعيـد خروج معاوية من المدينة، ولم يبق مـن المعارضين إلا ثلاثة هم ابن عمـر وابن الزبير والحسين بن على، أما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعة على يزيد بايعه، وأرسل بيعته بعد وفـاة معـاوية رضى الله عنه وقـال: إن كـان خيـرًا رضـينا به وإن كـان بلاءً صبـرنا[١]، وانحصرت المعارضة فى شخص ابن الزبير والحـسين بن على رضى الله عنهما، وقد حاول بعض الناس أن يلفقوا على معاوية رضى الله عنه تحسره من بيعة يزيد فنقلوا عنه أنه قال: لولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى[٢]. والسند من طريق الواقدى وهو متروك[٣]، ونسبوا إليه أيضًا أنه قال ليزيد: ما ألقى الله بشىء أعظم فى نفسى من استخلافك[٤]. والسند من طريق الهيثم بن عدى وهو كذاب[٥]، ولقد اعتمـد محمد رشيد رضـا -رحمه الله- على هذه الرواية وتحامل عـلى معاوية تحـاملاً قاسـيًا[٦]، ولقد تورط الكثـير من الباحـثين فى الروايات الضعيفة والموضوعة فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام وبنوا عليها تصورات وأفكارًا وأحكامًا تحتاج إلى إعادة نظر من جديد.

ومع ما وقع من انحرف فى تغييـر النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامى، الذى تتمثل فيـه روح الإسلام كاملة -وهو الخـلافة- واستـبدال الملك العـضوض به[٧]، إلا أن الطابع الإسلامى هـو الصفة الغـالبة على مظـهر الدولة، وتصـرفات الحكام، فالصـلاة تؤدى فى أوقاتها، والزكاة تحـصَّل من أربابها، والصوم فريضة لا يُعارض فى أدائهـا، وإقامة الحدود دون هوادة لم يقف شىء دون تنفيذها، والجهاد فى سبيل الله فـريضة ماضية بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها[٨].

سابعًا : الأيام الأخيرة فى حياة معاوية:

١ ـ وصية معاوية رضى الله عنه ليزيد:

لما حضـر معـاوية الموت وذلك سنة ٦٠هـ وكان يزيد غـائبًا، دعـا بالضحـاك بن قيس الفهرى ـ وكـان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقـبة المرى، فأوصى إليهما فـقال: بلغا يزيد وصيـتى: انظر أهل الحجاز فـإنهم أصلك، فأكرم من قـدم عليك منهم وتعهـد من غاب،

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ١٠٠)، بسند صحيح .
(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٢٨) .
(٣) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ١٥٢ .
(٤) أنساب الأشراف (٤/ ٦٠) .
(٥) مواقف المعارضة صـ١٥٢ .
(٦) مواقف الصحابة فى خلافة يزيد صـ١٥٢، الخلافة، محمد رشيد صـ٥٢ .
(٧) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، صـ١١٢ .
(٨) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٩٤، ٩٥) .

وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمسًا قِبَلك، وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسّة، وحقًا عظيمًا، وقرابة محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإذا شخص لك فالبد له، إلا أن يلتمس منك صلحًا، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[1]. تظهر فى هذه الوصية كفاية معاوية ودهاؤه السياسى من خلال تشخيصه لأهمية الأمصار ومدى تأثيرها المستقبلى على أوضاع الدولة الأموية، فذكر فى وصيته ثلاثة أقاليم فقط هى الحجاز والعراق والشام، ذلك أن الأوضاع السياسية خارج دائرة هذه الأقاليم، لم تكن تثير أى هموم جدية لدى معاوية[2].

أ- الحجاز: فبالنسبة للحجاز يوصى معاوية ابنه قائلاً: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب[3]، ويأتى اهتمام معاوية بالحجاز فضلاً عن كونه محل أهله وعشيرته فهو من الناحية السياسية كان -ولوقت قريب- مركز الثقل السياسى للدولة الإسلامية (مقر الخلافة)، ومن الناحية الدينية لم يزل يحتل مركز الصدارة لاحتضانه جل ما تبقى من صحابة الرسول ﷺ، وبإمكانه تقويض حكم بنى أمية فيما لو اجتمعت كلمته وأتيحت الفرصة له، وهو بعد ذلك لايزال المكان الحقيقى للبيعة[4]، والأهم من ذلك كله فإنه يضم عددًا من الشخصيات المعارضة للحكم الأموى، أمثال الحسين بن على رضى الله عنه، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم جميعًا، كما سنرى ذلك فى الفقرات اللاحقة من الوصية، ولذلك نرى معاوية يحث يزيد على استخدام مختلف الوسائل لاستقطاب الحجاز بما فى ذلك إغداق الأموال[5]، ولهذه الأسباب أيضًا وضع معاوية السلطة فى هذا الإقليم تحت مراقبته

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٢) الوصية السياسية فى العصر العباسى، حقى إسماعيل صـ٤٦.
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى صـ٤٦.
(٥) المصدر نفسه صـ٤٦.

المباشرة، حيث قام بتنفيذ سياسته فى البيت الأموى، وقام بتشجيع مختلف النشاطات غير السياسية المناهضة له فيه[1]، واهتم بأهله اهتمامًا خاصًا.

ب ـ العراق: أما الإقليم الثانى الذى يثير اهتمام معاوية فهو العراق، لذا يوصى ولى عهده أن يعامل أهل العراق معاملة خاصة، فيقول: انظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلىّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف[2]. ومن الجدير بالذكر أن شكاية أهل العراق من ولاتهم كانت منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

جـ ـ الشام: أما الإقليم الثالث فهو الشام، فإن وصية معاوية به تأتى من باب رد الجميل لأهل الشام لدورهم الكبير فى مساندته بالوصول إلى الحكم وتأييدهم المستمر لسياسته؛ لذا يوصى ابنه أن يجعلهم محل ثقته وعنايته وأن يدخرهم للمهمات الجسام فى قوله: وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم[3].. وتظهر الفقرة الأخيرة من هذا النص بعد نظر معاوية السياسى، فهو يسدى مخاوفه من اختلاط أهل الشام[4]، ببقية سكان الأقاليم الأخرى فتتبدل أخلاقهم نتيجة مكوثهم مدة طويلة، ولربما استطاع المعارضون للحكم الأموى التأثير على جند الشام، على الرغم من التقاء مصالحهم مع مصالح البيت الأموى، فتسقط من يد الخلافة الأموية الورقة الرابحة التى طالما استخدمها معاوية وقطف ثمارها، ولهذا يوصى معاوية ابنه بأن يسرع فى إعادة جند الشام إلى بلادهم حال انتهاء مهمتهم[5]، ومن أهم ما فى وصية معاوية خطته التى رسمها لولى عهده فى مواجهة الأحداث المقبلة، وأوكل إليه تنفيذها بعد أن عجز هو عن إقناع نفر من قريش بالبيعة ليزيد، على الرغم من أن الروايات تذكر أن معاوية ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض، والتقى بالشخصيات التى رفضت البيعة ليزيد، كل على انفراد، فى محاولة للحصول منهم على وعود بالبيعة[6]، إلا أن هذه الجهود لم تثمر فى تذليل المصاعب قبل ظهورها[7]، والوصية تظهر أن الحجاز، وتحديدًا المدينة، هى أكثر البلدان معارضة لحكم بنى أمية؛ ولهذا يوصى معاوية ابنه أن يكون حذرًا ودقيقًا فى تعامله معها،

(1) الوصية السياسية فى العصر العباسى صـ46 .

(2) تاريخ الطبرى (6/241) .

(3) المصدر نفسه (6/241) .

(4) الوصية السياسية فى العصر العباسى صـ4 .

(5) المصدر نفسه صـ48 .

(6) المصدر نفسه صـ 48 .

(7) المصدر نفسه صـ48 .

وأن يكون حازمًا شديدا حين يتطلب الأمر ذلك، ومرنًا لينًا مع من لا يشكلون خطرًا حقيقيًا عليه، لما للحجاز من أهمية بالغة فى تقرير وتثبيت الحكم[(١)].

وكان معاوية رضى الله عنه مصيبًا فى رأيه بعبد الله بن عمر من أنه رجل قد وقذه الدين، ولا خطر على يزيد منه، وذلك أن الوليد بن عتبة حين طلبه للبيعة قال: إذا بايعَت الناس بايعتُ، فتركوه لثقتهم بزهادته فى الأمر وشغله بالعبادة[(٢)]، وكان مصيبًا فى حدسه من أن أهل العراق لن يتركوا الحسين بن على رضى الله عنه حتى يخرجوه، ويبدو أنه كان متأكدًا من وقوع الاصطدام بينهما، لذلك طلب من يزيد أن يعفو عنه إذا تمكن منه، أما الخطر الحقيقى والذى يتطلب الحزم والشدة فإنه يأتى من عبد الله بن الزبير الذى كان يتمتع -على ما يبدو- بتأييد واسع النطاق بين معظم المعارضين للحكم الأموى، ولأنه كان رجل سياسة وحرب من الطراز الأول، وعلى الجملة فإن وصية معاوية تعكس سياسته ودهاءه فى تصريف الأمور، فنراه من خلال الوصية يتعامل مع الأحداث التى تتطلب الشدة حزمًا، وفيما عدا ذلك فهو يستخدم خبرته وتجربته السياسية الطويلة فى مواجهة الأحداث، وقد وصف معاوية نفسه مشيرًا إلى هذه السياسة بقوله: إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت أبدًا. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها[(٣)]، وكان على الدوام يوصى يزيد بهذه السياسة فيقول له: عليك بالحلم، والاحتمال، حتى تمكنك الفرصة، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح؛ فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور[(٤)]. وفى هذه الوصية يلخص معاوية رضى الله عنه منهجه وخبرته فى السياسة والإدارة لابنه يزيد فى كلمات قليلة جامعة، تنم عما يتمتع به هذا الصحابى الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية[(٥)].

٢ ـ آخر خطبة لمعاوية رضى الله عنه واشتداد مرضه ووفاته:

كانت آخر خطبة خطبها معاوية رضى الله عنه قوله: أيُّها الناس، إن من زرع قد استحصد، وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى إلا من هو شر منى، كما كان من وليكم قبلى خيرًا منى، ويا يزيد، إذا وفى أجلى فولِّ غسلى رجلاً لبيبًا، فإن اللبيب من الله بمكان

(١) الوصية السياسية فى العصر العباسى صـ٤٩ .
(٢) أنساب الأشراف (٤/ ١٤) .
(٣) نهاية الأرب (٦/ ٤٤)، العقد الفريد (١/ ٢٥) .
(٤) نهاية الأرب (١/ ٢٥٦) .
(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى صـ٩٥ .

فليُنعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ، وقُراضة من شعره وأظفاره، فاستودع القراضة أنفى وفمى وأُذُنىَّ وعيْنىَّ، واجعل الثوب يلى جلدى دون أكفانى، ويا يزيد، احفظ وصية الله فى الوالدين، فإذا أدرجتمونى فى جريدتى، ووضعتمونى فى حفرتى، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين[1].

ولما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمرى لقد عُمِّرتُ فى الدهر بُرهة ... ودانت لى الدنيا بوقع البواتر

وأعطيت حُمْرَ المال والحكم والنّهى ... وسلِّمَ قماقيم[2] الملوك الجبابر

فأضحى الذى قد كان مما يَسُرُّنى ... كحلم مضى فى المزمنات الغوابر

فيا ليتنى لم أعن فى الملك ساعة ... ولم أُعْنَ فى لذات عيشٍ نواضر

وكنت كَذى طمرين عاش ببُلْغةٍ ... من العيش حتى زار ضيق المقابر[3]

وقد أوصى معاوية بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يُطيَّب له، لأن عمر ابن الخطاب قاسم عمّاله[4]. وذكروا أنه فى آخر عمره اشتد به البَرْدُ، فكان إذا لبس أو تغطّى بشىء ثقيل يَغُمُّه، فاتُّخذ له ثوب من حواصل الطير[5]، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تبًا لك من دار ملكتك أربعين سنة؛ عشرين أميرًا، وعشرين خليفةً، ثم هذا حالى فيك، ومصيرى منك، تبًا للدنيا ومُحبِّيها[6]، ولما اشتد المرض وتحدث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشوا عيْنىّ إثمدًا، وأوسعوا رأسى دُهنًا. ففعلوا وبرّقوا[7] وجهه بالدهن، ثم مُهِّد له فجلس، وقال: أسندونى. ثم قال: ائذنوا للناس فليُسلموا علىَّ قيامًا ولا يحبس أحد. فجعل الرجل يدخل فيُسلم قائمًا فيراه متكحِّلاً مُتدهِّنًا، فيقول متقوِّل الناس: هو لما به[8]، وهو أصح الناس، فلما خرجوا من عنده[9] تمثل معاوية بقول أبى ذؤيب الهذلى الشاعر:

وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كلَّ تميمة لا تنفع

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٤).

(٢) القماقم والقُماقِم من الرجال: السيد الكثير الخير الواسع الفضل، ويجمع قياساً على قماقيم.

(٣)، (٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٥).

(٥) الحواصل: جمع حوصلة، وحوصلة الطائر بمنزلة المعدة للإنسان.

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٥).

(٧) برَّقوا: لَمَّعوا.

(٨) لما به: اقترب أجله.

(٩) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٦).

وكان به النقابة(١)، فمات من يومه ذلك(٢)، وكان يقول لما نزل به الموت: يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذى طوى ولم أَلِ من هذا الأمر شيئًا(٣)، ومن الشعر الذى تمثل به أيضًا قول الشاعر:

إن تناقش يكن نقاشك يا ربِّ   عذابًا لا طوق لى بالعذاب

أو تجاوز تجاوز العفو فاصفح   عن مسيءٍ ذنوبه كالتُّراب(٤)

وقال رضى الله عنه وهو يُقَلَب فى مرضه، وقد صار كأنه سعفة محترقة: أى شيخ تقلّبون إن نجاه الله من النار غدًا؟(٥)، وقال الحسن البصرى: دُخل على معاوية وهو بالموت، فبكى، فقيل: ما يبكيك؟

قال: ما أبكى على الموت أن حل بى، ولا على دنيا أخلفها، ولكن هما قبضتان: قبضة فى الجنة، وقبضة فى النار، فلا أدرى فى أى القبضتين أنا(٦).

وأغمى على معاوية رضى الله عنه فى سكرات الموت ثم أفاق فقال لأهله: اتّقوا الله، فإن الله يَقى من اتَّقاه ولا يَقى من لا يَتَّقى(٧)، وجعل معاوية رضى الله عنه لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقلِّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكى ويقول: اللهم إنك قلت فى كتابك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] اللهم اجعلنى ممَّن تشاء أن تغفر له(٨)، ومن دعائه فى ذلك اليوم: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك، فإنك واسع المغفرة، ليس لذى خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك. ثم مات(٩). وجاء فى رواية: اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى(١٠). رحم الله معاوية رضى الله عنه.

٣ ـ سنة وفاة معاوية، ومن صلى عليه:

قال الطبرى: فى هذه السنة هلك معاوية، بن أبى سفيان بدمشق، فاختلف فى وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أن هلاكه كان فى سنة ستين من الهجرة وفى شهر رجب(١١)، وقال ابن حجر: مات معاوية فى رجب سنة ستين على الصحيح(١٢) وصلى على معاوية الضحاك

(١) النقابة: قرحة تخرج فى الجنب وتهجم الجوف (٢)، (٣)، (٤) البداية والنهاية (١١/٤٥٦).
(٥) المصدر السابق (١١/٤٥٧).
(٦) كتاب المحتضرين صـ ١٩٩، سكب العبرات (١/ ١٩٠).
(٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٥).
(٨) البداية والنهاية (١١/٤٥٧).
(٩) المصدر نفسه (١١/ ٤٥٧).
(١٠) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢١).
(١١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(١٢) الإصابة (٦/ ١٥٥).

ابن قيس الفهرى، وكان يزيد غائبًا حين مات معاوية[1]، فقد خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان عود العرب[2]، وحدّ العرب[3]، قطع الله عز وجل به الفتنة وملَّكهُ على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُخَلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى[4]. وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية، وقد اختلف المؤرخون هل حضر يزيد وفاة أبيه أم لا؟ والصحيح أن يزيد لم يدرك والده حيًا وإنما جاء بعد موته[5]. ولما وصل يزيد الخبر قال:

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا فى كتابكم؟ ... قالوا: الخليفة أمسى مثبتًا وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لا تزال نفسه توفى على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة[6] رِيعَ القلب فانصدعا[7]

٤ ـ عمر معاوية رضى الله عنه عند وفاته:

على القول الراجح: توفى معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة[8]، بدليل قول ابن حجر: إن مولده كان قبل البعثة بخمس سنوات على الأشهر[9]، وكما هو معروف فإن بعثة الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، وبذلك يكون مولد معاوية قبل الهجرة بثمانى عشرة سنة، ولما كانت وفاته سنة ستين، فهذا يعنى أن عمره عند وفاته كان ثمانى وسبعين سنة[10].

٥ ـ مدة خلافته:

تنازل الحسن بن على لمعاوية بالنخيلة، وتمت بيعته فى شهر ربيع الأول من عام ٤١هـ، ومات بدمشق سنة ٦٠هـ يوم الخميس لثمان بقين من رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا[11].

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٥).
(٢) العود: الرجل المسن، لسان العرب (٣/ ٣٢١).
(٣) حد كل شيء: منتهاه.
(٤) أى عند صلاة الظهر كما ورد فى بقية المصادر.
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٦).
(٦) رملة بنت معاوية بن أبى سفيان، زوجة عمرو بن عثمان بن عفان.
(٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٦).
(٨) المصدر نفسه (٦/ ٢٤٣).
(٩) الإصابة (٦/ ١٥١).
(١٠) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٣).
(١١) المصدر نفسه (٦/ ٢٤٣).

٦ ـ ما قيل فيه من رثاء:

قال أبو الورد العنبرى يرثى معاوية رضى الله عنه:

ألا أنعى معاوية بن حرب نعاه الحل للشهر الحرام
نعاه الناعجات[١] بكل فجٍّ خواضع فى الأزمَّة كالسِّهام
فهاتيك النجوم وهنَّ خُرْسٌ ينخن على معاوية الشآم

وقال أيمن بن خزيم يرثيه أيضًا:

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سُمودا
فردَّ شعورهنَّ السُّود بيضًا ورد وجوههن البيض سُودا
فإنك لو شهدت بكاء هند ورملة إذ يُصَفِّقْن الخُدودا
بكيت بكاء مُعْوِلةٍ قريح[٢] أصاب الدهر واحدها الفريدا[٣]

٧ ـ ما قاله ابن عباس فى موت معاوية رضى الله عنهم:

قال عامر بن مسعود الجهنى: مرّ بنا نعيُ معاوية ونحن فى المسجد، فأتينا ابن عباس، فوجدناه جالسًا وقد وضع خوانه[٤]، وعنده نفر، ولم يوضع الطعام، فقلنا: يا ابن عباس: أما علمت بهذا الخبر؟ فقال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع خوانك يا غلام، وسكت ساعة هاجما[٥]، ثم قال: جبل تزعزع ثم زال بجمعه فى البحر[٦]. قال القاضى أبو يعلى بعدما ذكر القصة: اللهم أنت أوسع لمعاوية كنفًا، وأحسن من تجاوز عنه وعنّا[٧].

٨ ـ نقش خاتمه:

كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب[٨]، وقيل: لا قوة إلا بالله[٩].

٩ ـ التبرك بآثار الرسول ﷺ:

عن عبد الأعلى بن ميمون، عن أبيه، أن معاوية قال فى مرضه الذى مات فيه: إن رسول الله ﷺ كسانى قميصًا فرفعته، وقلَّم أظفاره يومًا، فأخذت قلامته فجعلتها فى

(١) الناعجات: جمع ناعجة وهى المرأة الحسنة اللون . (٢) المعولة: الرافعة صوتها بالبكاء، القريح: الجريح .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٢) . (٤) الخوان: ما يوضع عليه الطعام عند الأكل.
(٥) هاجماً: ساكتًا مطرقًا . (٦) تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان صـ١١٣ .
(٧) المصدر نفسه صـ ١١٣ . (٨) تاريخ القضاعى صـ ٣٢٦ .
(٩) المصدر نفسه صـ ٣٢٦ .

قارورة، فإذا مت فألبسوني ذلك القميص، وقطعوا تلك القلامة واسحقوها وذُرّوها في عيني ،وفي فيّ[1]، فعسى الله أن يرحمني ببركتها[2].

ويعد تبرك الصحابة رضوان الله عليهم بآثار النبي ﷺ الحسية المنفصلة عنه، من أنواع التبرك المشروع، حيث فعله الصحابة رضوان الله عليهم أثناء حياته ﷺ وبعد مماته[3]، كما فعله السلف الصالح رحمهم الله تعالى. . ومن الأدلة على ذلك:

أ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب عليّ من وضوئه فعقلت[4].

ب ـ عن عثمان بن عبد الله بن وهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء. . فيها شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة[5]. قال ابن حجر: بعث إليها مخضبة ـ وهو من جملة الآنية ـ والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل بعده استشفاءً بها فتحصل له[6].

جـ ـ وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت في جبة رسول الله ﷺ: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[7].

وقد فرّع العلماء على مسألة التبرك بآثار الرسول ﷺ مسألة التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم، ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده. . . وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه[8]، وقد علق الشاطبي على هذا الحديث، وأحاديث أخرى تماثله، فقال: فالظاهر في مثل هذا النّوع أن يكون مشروعًا في حق من ثبتت ولايته، واتّباعه لسنة رسول الله ﷺ،وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويُتدلّك بنخامته، ويُستشفى بآثاره كلّها، إلا أنّه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل

(1) فيّ: الفم .
(2) تاريخ الطبري (٦/ ٢٤٥) .
(3) مرويات معاوية في تاريخ الطبري صـ ٩٣ .
(4) صحيح البخاري مع فتح الباري (١/ ٣٦٠) .
(5) المصدر نفسه (١٠/ ٣٦٤) .
(6) فتح الباري (١٠/ ٣٦٥) .
(7) صحيح مسلم بشرح النووي(١٤/ ٤٣).
(8) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ـ٤٨٨ .

فى تنزيله، وهو أن الصحابة رضى الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع أحد منهم فى شىء من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خَلَفه، إذ لم يترك النبى ﷺ بعد موته، أفضل من أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فهو خليفته، ولم يفعل به شىء من ذلك، ولا عمر رضى الله عنه وهو كان أفضل الأمة بعده، ثمّ كذلك عثمان بن عفان، ثمّ على، ثمّ سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم فى الأمَّة، ثمَّ لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبرِّكًا تبرَّك به على أحد تلك الوجوه، أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال، والأقوال، والسِّير التى اتَّبعوا فيها النبى ﷺ، فهو -إذًا- إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[1].

****

(١) غزوة الحديبية للحكمى، صـ٣٠٥.

الفصل الخامس

عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وحياته وتوليه الخلافة

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشى، يكنى «أبا خالد»(١)، وجدته من جهة أبيه: هند بنت عتبة بن ربيعة، أسلمت يوم الفتح، وكانت من أعقل النساء، حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة(٢)، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية، شاعرة من شاعرات العرب، وكانت امرأة لبيبة، وأبوها من أشراف قبيلة كلب(٣).

ثانيًا: ولادته ونشأته:

كانت ولادة يزيد بن معاوية فى خلافة عثمان رضى الله عنه(٤) فى سنة ست وعشرين(٥)، وقيل إن ولادته وولادة عبد الملك بن مروان فى سنة واحدة سنة ست وعشرين من الهجرة(٦)، نشأت والدته فى البادية، حيث طلقها أبوه، فعاش مع أمه وأخواله وهم زعماء قبيلة كلب، فأثرت فى طباعه تلك النشأة، فتراه يتميز بالفصاحة والخطابة، والكرم، والشجاعة(٧)، واستمر متعلقًا بالبادية، حتى إنها أثرت فى لباسه وعدم التكلف فى حياته، فقد تلقاه أهل الشام بعد موت أبيه عائدًا من عند أخواله ليس له عمامة ولا سيف، فقال الناس: هذا الأعرابى الذى ولى أمر هذه الأمة(٨)، واهتم به والده وعين له مؤدبًا ليعلمه وهو دغفل بن حنظلة السدوسى الشيبانى(٩)، وجعل معاوية ابنه يحضر فى مجالسه ويستفيد من سياسته وتدبيره للملك(١٠)، واستفاد يزيد من عبيد بن شرية الجهرمى

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١٤١٦)، تاريخ خليفة صـ١٠ .

(٢) الطبقات (٨/ ١٧٠)، التبيين فى أنساب القرشيين صـ ٢١٨ .

(٣) مواقف المعارضة صـ٤٠، نسب قريش صـ١٢٧ .

(٤) تهذيب التهذيب (١١/ ٣١٦ ، ٣١٧) .

(٥) فوات الوفيات (٤/ ٣٢٨).

(٦) تاريخ أبو زرعة (١/ ١٩١)، مواقف المعارضة صـ٣٩ .

(٧) مواقف المعارضة صـ٤٣، مآثر الإنافة (١/ ١١٥ ، ١١٦) .

(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦ ، ٣٧) .

(٩) المعجم الكبير (٤/ ٢٢٦)، مواقف المعارضة صـ ٤٣ .

(١٠) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ٤٣ .

الذى استقدمه معاوية من صنعاء اليمن، وكان عالمًا بأيام العرب وأحاديثها، وله كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين(١)، وقد تأثر يزيد بهذا الشيخ الحكيم الذى حنكته التجارب والسنون، وقد توفى عبيد بن شرية سنة ٧٠هـ(٢)، وأصبح يزيد يتحدث عن الأنساب تحدث الخبير(٣)، قال الذهبى فى ترجمة عبد الصمد بن على الهاشمى: وكان فى تعدُّد النسب نظير يزيد الخليفة(٤)، وقد توافر ليزيد ما لم يتوافر لغيره إضافة إلى أن أباه هو أحد الصحابة الأجلاء رضى الله عنهم وكاتب الوحى لرسول الله ﷺ، وقد روى عن أبيه أحاديث منها: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين» (٥)، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقى فى الطبقة التى تلى الصحابة، وقال: له أحاديث(٦)، وقد كان معاوية رضى الله عنه يحاول دومًا أن يوجه يزيد نحو الاستفادة من مجالس الوفود التى تفد عليه، فقد ذكر ابن المبارك أن معاوية قال لبعض رجالات الوفود: ما تعدون المروءة فيكم؟ قالوا: العفاف فى الدين، والإصلاح فى المعيشة، فقال معاوية: اسمع يا يزيد(٧)، فقد كان معاوية رضى الله عنه منذ أن استقر له الأمر فى الشام شديد الاهتمام بتربية ولده، فأشركه منذ وقت مبكر فى الصوائف وتحمل المسئوليات(٨)، وكان معاوية دائم الاتصال بمؤدبى ولده، كى يتعرف على ما أحرزه ابنه من تقدم، كما كان يسأل ابنه عن أحواله مع المؤدبين، فتشير إحدى الروايات إلى أن معاوية سأله فى أحد الأيام قائلاً: أيضربك معلمك يا يزيد؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: ولم؟ قال: لأنه استن بسنة أمير المؤمنين بالعدل(٩)، وعلاوة على ذلك فإننا نجد روايات أخرى تشير إلى أن بعض المناظرات الثقافية كانت تقع بين معاوية وولده، على الرغم من صغر سنه، مما يدل على مدى اهتمام أبيه به، فيروى ابن ظفر الصِّقلّى أن معاوية ابن أبى سفيان قال لابنه يزيد، وقد أتت عليه سبع سنين: يا بنى، فى أى سورة أنت؟ فقال: فى السورة التى تلى يا أمير المؤمنين. فقال: يا بنى إن هذه السورة تليها سورتان وهى بينهما، ففى أيهما أنت؟ قال: فى السورة التى فى أولها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]. فتمثل معاوية بقول حذافة بن غانم العدوى حيث يقول:

---

(١) الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى صـ١٩٧، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ٤٥.
(٢) إرشاد الأريب (١٢/ ٧٠ ـ ٧٨)، مواقف المعارضة صـ٤٤ .
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٣٠) .
(٥) صحيح مسلم (٢/ ٧١٨) رقم ١٠٣٧ .
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٦٣٨) .
(٧) تاريخ دمشق، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٤٥.
(٨) تاريخ الدولة العربية، سهيل زكار صـ٤٥ .
(٩) أنباء نجباء الأبناء صـ٦٩، يزيد بن معاوية: حياته وعصره، للعقيلى صـ١٢.

ملوك وأبناء الملوك وسادة | تفلّق عنهم بيضة الطائر الصّقر
متى تلقَ منهم ناشئًا فى شبابه | تجده على أعراق والده يجرى
فهم يغفرون الذّنب ينقم مثله | وهم تركوا رأى السَّفاهة والهجر[(١)]

وكان معاوية يوجه ابنه ويرشده وينصحه ويدله على الصواب، فقد رأى ابنه يضرب غلامًا له، فقال له: سوأة لك، أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتنى القدرة من الانتقام من ذوى الإحن، وإنَّ أحسن من عفا لمن قدر[(٢)]، وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ رأى أبا مسعود يضرب غلامًا له، فقال له: «**اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه**»[(٣)]، وذات يوم غضب معاوية على ابنه يزيد فهجره، فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، ، إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم، ولا تكن عليهم ثقلاً فيملّوا حياتك ويتمنَّوا موتك، فقال معاوية: لله درُّك يا أبا بحر، يا غلام: ائت يزيد فأَقْرِئه منى السلام، وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائه ألف درهم ومائة ثوب. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف. فقال: لا جرم لأُقاسمنه، فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفًا وخمسين ثوبًا[(٤)].

وكان يزيد حاضر البديهة، قال العتبى: وقدم زياد بأموال عظيمة، وبسفط مملوءة جواهر على معاوية، فسرَّ بذلك معاوية، فقام زياد فصعد المنبر، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية، فقام يزيد فقال: إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنابر، ومن زياد بن عُبيد إلى حرب بن أميه. فقال له معاوية: اجلس فداك أبى وأمى. وكان معاوية يربى يزيد على القيام بالواجبات الاجتماعية مع أعيان المجتمع، فعندما وفد عبد الله بن عباس إلى معاوية، أمر ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه فى الحسن بن على، فلمّا دخل على ابن عباس رحّب به وأكرمه وجلس بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المُعزِّى لا المُهَنِّى، ثم ذكر الحسن فقال: رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وعوّضك عن مُصابك ما خير لك ثوابًا وخيرٌ عقبى. فلمّا نهض يزيد من عنده قال ابنُ عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس. ثم أنشد متمثلاً:

---

(١) أنباء نجباء الأبناء صـ١٣، يزيد بن معاوية، للعقيلى صـ١٣ .
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٠). (٣) مسلم رقم ١٦٥٩ .
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٤١).

مَـغَـاضٍ عن العـوراءِ لا ينطقـوا بهـا　　وأصـل وِراثـات الحلـوم الأوائـل[1]

وكان معاوية رضى الله عنه يختبر ابنه بين الفينة والأخرى، فذات يوم سأله: كيف تُراك فاعـلاً إن وُلّيت؟ قال: يُمتعُ الله بـك. قال: لتُخبـرنى، قال: كنت -والله يا أبة- عـاملاً فيهم عـمل عمر بن الخطاب. فقـال معاوية: سبـحان الله! سبحـان الله! والله يا بُنىَّ لقد جهدت على سيرة عثمان فما أطقتها[2].

ثالثًا: زوجاته وأولاده:

تزوج يزيد أم هاشم بنت أبى سفيان بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأنجبت له:

١- معاوية بن يزيد: ويكنى أبا عبد الرحـمن، كما يعرف باسم أبى ليلى، وهو الذى يقول فيه الشاعر:

إنى أرى فِـتنـة قـد حـان أوّلُهـا　　والملك بـعـد أبى ليلى لمـن غلب[3]

٢- خالد بن يزيد: ويكنى أبا هاشم، وقد انصرف إلى عمل الكيمياء.

٣- أبو سفيان بن يزيد: وبعد وفاة يزيد تزوج أم هاشم مروان بن الحكم[4].

وتزوج أيضًـا يزيد أم كلثوم بنت عـبد اللـه بن عامـر، فأنجبت له عبـد الله بن يزيد، ويعرف بلقب «الأسوار»[5]. وكان من أرمى العرب، وهو الذى يقول فيه الشاعر:

زعم الـناسُ أن خـيـرَ قـريش　　كلّـهم حـيـن يُذكـرُ الأُسـوار[6]

وكان له عدد من الأولاد من أمهات أولاد كثيرة، ومن أبنائه هؤلاء: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعمر، وعتبة، وعبد الرحمن، وحرب، والربيع، ومحمد[7]، ويبدو أن لمحمد هذا الأخير عقبًا لا يزال موجودًا حـتى الآن فى شبه جزيرة العرب فى المنطقة المعروفة باسم عسيـر، إذ فرّ أحد أحفاده إلى هذه البـقعة عند قيام الدولة العـباسية وملاحـقة الأمويين، واستطاع بعد مدة تأسيس إمارة بسطت نفوذها على المنطقة واستمرت فى أمرها حتى العصر الحديث، وكـان منها آل عـائض بن مرعى الذين كـان لهم حكم المنطقة قـبل سيطرة عـبد العزيز آل سعود على أكثر الجزيرة[8].

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٢).
(٢) المصدر نفسه (١١/ ٦٤٤).
(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٤).
(٥) الأسوار، بالضم والكسر: وهو الجيد الرمى بالسهام.
(٦) ، (٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٤)، البداية والنهاية (١١/ ٦٦١).
(٨) التاريخ الإسلامى، العهد الأموى، (٤/ ١٢٧).

رابعًا: أهم أعمال يزيد في عهد والده.. غزو القسطنطينية:

تكمن أهمية هذه الغزوة بذكرها فى الحديث الشريف، وفضيلتها وفضيلة أهلها المجاهدين، فقد ثبت فى الصحيح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان رسول ﷺ إذا ذهب إلى قباء يدخل إلى أم حرام بنت ملحان فتطعمه ـ وكانت تحت عبادة ابن الصامت ـ فدخل يومًا، فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: «ناس من أمتى عُرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة» أو قال: «مثل الملوك على الأسرة» قلت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: «ناس من أمتى عُرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج البحر ملوكًا على الأسرة» ـ أو «مثل الملوك على الأسرة»، فقلت: ادع الله أن يجعلنى منهم، قال: «أنت من الأولين»، فركبت البحر زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[(١)]. وفى رواية: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»[(٢)].

قال ابن كثير فى تعليقه على هذا الحديث: وقد كان ذلك فى سنة سبع وعشرين مع معاوية حين استأذن عثمان فى غزو قبرص، فأذن له، فركب المسلمون فى المركب حين دخلها وفتحها قسرًا، وتوفيت أم حرام فى هذه الغزوة فى البحر، وكانت مع معاوية فاختة بنت قرظة، وأما الثانية فكانت فى سنة اثنين وخمسين فى أيام ملك معاوية، بعث ابنه يزيد ومعه الجنود إلى غزو القسطنطينية ومعه فى الجيش جماعة من سادات الصحابة منهم أبو أيوب الأنصارى خالد بن زيد رضى الله عنه، فمات هناك وأوصى إلى يزيد بن معاوية، وأمره أن يدفنه تحت سنابك الخيل، وأن يوغل إلى أقصى ما يمكن أن تنتهى به إلى نحو جهة العدو، ففعل ذلك[(٣)]، وفضيلة غزو القسطنطينية ليزيد، جعلت الذهبى -مع شدة حمله على يزيد- يقول: يزيد بن معاوية أبو خالد الأموى له هنات حسنة، وهى غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش وفيهم مثل أبى أيوب الأنصارى[(٤)]، وما أجمل قول ابن تيمية: ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم[(٥)]، ويبدو أن يزيد قد قام ببعض الحملات حتى وصل إلى

(١) مسلم، الصحيح مع شرح النووى (١٣/ ٥٨ ، ٥٩) .
(٢) فتح البارى (٦/ ١٢٠) .
(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٦٢ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦) .
(٥) منهاج السنة (٤/ ٥٤٤).

خليج القسطنطينية ومعـه زوجته أم كلثوم[١]، ويبدو أن معرفة يزيد بحرب الروم، وإدراكه بخطرهم الداهم، وأخذه بنصيحة والده رضـى الله عنه، فكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شد خناق الروم[٢]، كل هذه الأمور جعلته بعد أن تولى الخلافة يسير على خطته فى جهاد الروم، ولم تمنعه أحداث ابن الزبير وشيعة العراق من قتالهم[٣]، وقد كانت وفاة يزيد فيما بعد متنفسًا للروم، ليس فقط فى وقف الهجمات الحربية عليهم من قبل المسلمين، بل بلغت بهم الجرأة إلى الإكـثار من الغارات على بلاد الشام ومنطقـة الثغور[٤]،ولما عاد يزيد من غزوة القسطنطينية فى نفس السنة حج بالناس[٥]، وهذه الأعمال التى قام بها يزيد فى غاية الأهمية فى ذلك العصر، فكان يزيد يقود جـيشًا من أعظم الجيوش فى عصره، ويضم نخبـة من الصحابة وأكـابرهم وساداتهم وأبنائهم، ويتـجه هذا الجيش بقـيادة يزيد إلى أهم جبهـة فى الدولة الإسلامية، وغـير هذه الاعتبارات تدل على أن يزيد الذى بـلغ من العمر حين قيادة هذا الجـيش ما بين (٢١ ـ ٢٣ عامًا) يملك روحًا قيادية وكـفاءة حربية[٦]، ولم يعترض أحد من الصحابة أو غيرهم على قيادة يزيد فى تلك المرحلة، كما أن هذا التصرف من معاوية رضى الله عنه فى تولية يزيد هذا الجـيش ـ والذى يضم أكابر الصحابة وأبنائهم وفقهائهم وسادات المسلميـن- فيه دلالة على أن معاوية رضى الله عنه، يرى فى ولده يزيد ملامح النجابة والكفاءة التى تؤهله لقيادة هذا الجيش[٧].

خامسًا: أهم صفات يزيد بن معاوية:

إن المصادر التاريخية والأدبية على حد سواء تزودنا بأخبار قليلة عن صفات يزيد المكتسبة والموروثة، إلا أنها تحدد لنا بعض الملامح من شخصية يزيد بن معاوية[٨] فمنها:

١ ـ القـوة والشـجـاعـة: قـال عنه الذهبى: كـان قـويًا شجـاعًـا، ذا رأى وحـزم وفطنة وفصاحة[٩]، وكان يتمنى أن يوليـه أبوه فى الغزو على الصائفة بالمسلمـين. وكان يحرص على إقامة السباقات بين الخيل، ويجعل الجوائز، لرفع مستوى الفروسية عند المسلمين[١٠]، علاوة على تمـكنه من قيادة الجـيش الإسلامى الذى حـاصر القـسطنطينية، وسـيطرته على

(١) أنساب الأشراف (٤/٢٨٩).
(٢) تاريخ خليفة صـ٢٣٠.
(٣) خطط الشام (١/١١٢).
(٤) فتوح البلدان للبلاذرى صـ٢٢٤، مواقف المعارضة صـ٦٣.
(٥) تاريخ خليفة صـ٢١١، مواقف المعارضة صـ٦٣.
(٦) مواقف المعارضة صـ٦٣.
(٧) المصدر نفسه صـ٦٤.
(٨) المصدر نفسه صـ ٤٦.
(٩) سير أعلام النبلاء (٤/٧).
(١٠) الأقوال الكافية فى الفصول الشافية فى الخيل ص٣١٢.

مجريات القتال[1]، وذكر صفوان بن عمرو أن المسلمين لما جاوزوا بالأسارى من الروم، ضرب أعناقهم يزيد بن معاوية والروم تنظر إليهم[2]، كما أن من حزمه ما حكاه العتبى بإسناد أن أبا أيوب الأنصارى مرض فى غزوة القسطنطينية، فأتاه يزيد عائدًا فقال: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ قال: ادفنى عند أسوار القسطنطينية. . . فلما مات أمر يزيد بتكفينه وحُمل على سريره، ثم أخرج الكتائب فجعل قيصر يرى سريرًا والناس يقتتلون، فأرسل إلى يزيد: من هذا الذى أرى؟ قال: صاحب نبينا، وقد سألنا أن ندفنه فى بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله. قال: العجب كيف ينسب أبوك للدهاء ويرسلك فتأتى بصاحب نبيك، وتدفنه فى بلادنا، فإن وليت أخرجناه إلى الكلاب، فقال يزيد: إنى والله ما أردت إيداعه بلادكم حتى أودع كلامى آذانكم، فإنك كافر بالذى أكرمت هذا له، لئن بلغنى أنه نبش من قبره أو مثل به، لا تركت بأرض العرب نصرانيًا إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها، فبعث إليه قيصر: أبوك أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدى[3].

٢ ـ الفصاحة والشعر: ذكر الذهبى أنه صاحب فصاحة[4]. ولما تكلم الخطباء عند معاوية قال: والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق، قم يا يزيد تكلم[5]، وقد ذكر المدائنى بإسناده أن رجلاً قال لسعيد بن المسيب: أخبرنى عن خطباء قريش، قال: معاوية، وابنه يزيد، ومروان ابن الحكم، وابنه عبد الملك، وسعيد بن العاص وابنه، وما ابن الزبير بدونهم[6]، وأما شعره، فقد كان شاعرًا مجيدًا[7]، جعل الناس يقولون: بدئ الشعر بملك، وختم بملك، إشارة إلى امرئ القيس وإلى يزيد[8]، ومن شعره ما كان ينشده هارون الرشيد ليزيد بن معاوية:

إنها بين عامر بن لؤىٍّ ... حين تَنْمِى وبين عبد مناف
ولها فى المُطَيَّبِين جدودٌ ... ثم نالت مكارم الأخلاف
بنتُ عمِّ النبى أكرمُ من ... يمشى بنعل على التُّراب وحافى
لن تراها على التَّبَذُّل والـ ... ـغلظة إلا كدرة الأصداف[9]

(١) مواقف المعارضة صـ٤٧ .
(٢) تاريخ مدينة دمشق، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٤٧ .
(٣) الاستبصار بنسب الصحابة من الأنصار صـ٧٠، ٧١ للمقدسى.
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٧) .
(٥) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٢٢).
(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٢٨٩).
(٧) مواقف المعارضة صـ٤٩ .
(٨) الفخرى فى الآداب السلطانية. ابن طباطبا صـ١١٣ .
(٩) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٥).

٣ ـ الكرم: اشتهر عن يزيد الكرم فكان يجزل العطاء لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب[١]، وليس غريبًا عنه وهو الذي يقول: حفظ النديم والجليس وإكرامهما من كرم الخليفة، وقضاء حق النعمة[٢]، ولقد حازت هذه الأعطيات إعجاب عبد الله بن جعفر وقال له: فداك أبي وأمي، فوالله ما قلتها لأحد قبلك[٣]،وكان يقول: أتلومونى على حسن الرأى فى يزيد؟![٤]. ومن كرمه أيضًا أن عبد الله بن حنظلة عندما قدم عليه من المدينة هو وبنوه أعطاه مائة ألف وأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم[٥]، وقصته مع الأحنف فى مقاسمته الجائزة التى أمر بها معاوية قد مرت معنا.

وأما صفاته الخَلْقية: فقد كان ضخم الجسم سمينا طويلاً، غليظ الأصابع، كثيف الشعر جعده، أسمر البشرة، فى وجهه أثر الجدرى، أحور العينين، حسن اللحية خفيفها، وبالجملة كان جميلاً[٦].

سادسًا: بيعة يزيد:

كان يزيد غائبًا حين حضر معاوية الموت، فلما حضر يزيد كان قد دفن، فقصد يزيد باب الصغير حيث دفن أبوه، وهناك صلى على أبيه ومن خلفه المسلمون، فكبر أربعًا[٧]، ولما خرج من المقبرة أُتى بمراكب الخلافة فركب، ثم دخل البلد، وأمر فنودى فى الناس أن الصلاة جامعة، ودخل الخضراء ـ وهو قصر بناه معاوية ـ فاغتسل ولبس ثيابًا حسنة، ثم خرج فخطب الناس أول خطبة خطبها وهو أمير المؤمنين، فقال -بعد أن حمد الله وأثنى عليه-: أيها الناس، إن معاوية عبد من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قبضه إليه، وهو خير ممن بعده، ودون من قبله، ولا أزكيه على الله ـ عز وجل ـ فإنه أعلم به، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه، وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسى على طلب، ولا أعتذر من تفريط، وإذا أراد الله شيئًا كان. . وقال لهم فى خطبته هذه: إن معاوية كان يغزيكم فى البحر، وإني لست حاملاً أحدًا من المسلمين فى البحر، وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم، ولست مشتيًا أحدًا بأرض الروم، وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء أثلاثًا، وأنا أجمعه لكم كله. . فافترق الناس، وهم لا يفضلون عليه أحدًا[٨].

(١) البداية والنهاية (١١/٦٤٦) .
(٢) أنساب الأشراف (٤/٢٩٧) .
(٣) المصدر نفسه(٤/٢٩٧)، القيد الشريد، ابن طولون ورقة ٣ .
(٤) البداية والنهاية (١١/٦٤٦) .
(٥) تاريخ خليفة صـ٢٣٧، البداية والنهاية (١١/٥٣).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/٣٧)، البداية والنهاية (١١/٦٣٨).
(٧) البداية والنهاية (١١/٤٥٩) .
(٨) المصدر نفسه (١١/٤٦٠).

وفى هذه الخطبة شرح يزيد سياسته فى قيادة الأمة، ووضح خطته التى سيلتزمها أثناء خلافته، وهى سياسة استطاع أن يكسب بها قلوب أهل الشام. وقد أجمعت غالبية الأمة على بيعة يزيد، أو بمعنى آخر جددت له البيعة بعد وفاة أبيه، ولم يعارض إلا الحسين بن على وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما[١]. وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن ـ كما سنرى بإذن الله تعالى ـ، أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد جمعًا للكلمة وحفظًا لوحدة الأمة وخوف الفتنة، مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ومحمد ابن الحنفية[٢]، أما أهل الشام والعراق وغيرهما من الأقاليم فقد بايعوا، وكانت المعارضة ليزيد فى أهل الحجاز يتزعمها الحسين بن على وابن الزبير، ومما قيل من الشعر فى بيعة يزيد ما قاله عبد الله بن همَّام يعزِّيه فى أبيه:

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة[٣] ... واشكر حُباء الذى بالملك حاباكا
لا رُزءَ أعظم فى الأقوام نعلمه ... كما رُزِئت ولا عُقبى كعُقباكا
أصبحت راعى أهل الدِّين كلهم ... فأنت ترعاهم والله يَرْعاكا
وفى معاوية الباقى لنا خلف ... إذا نعيت و لا نسمع بمنعاكا

يعنى معاوية بن يزيد[٤]

تولى يزيد الأمر بعد أبيه فى رجب سنة ٦٠هـ ـ ٦٨٠م فأقر عمال أبيه على ولاياتهم، فكان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وأمير الكوفة النعمان بن بشير، وأمير البصرة عبد الله بن زياد[٥]، وركز يزيد فى أخذ البيعة من النفر الذين لم يبايعوه فى حياة أبيه، وكان أهمهم عنده الحسين بن على، فكتب إلى أميرها الوليد بن عتبة كتابًا يخبره فيه بوفاة معاوية، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد، فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه، وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محمودًا، ومات برًا تقيًا، والسلام[٦]. ونظرًا لتساهل الوليد بن عتبة بن أبى سفيان

(١) البداية والنهاية (٤٦٧/١١)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٣٠ .
(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٣٠ .
(٣) المقة: المحبة، الحباء بكسر الحاء وضمها: العطاء بلا مَنٍّ ولا جزاء .
(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٦٥٢/٢) . (٥) البداية والنهاية (٤٦٧/١١) .
(٦) المصدر نفسه (٤٦٧/١١).

في أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير لأنه كان رجلاً يحب العافية[1]، وأنه كان رجلاً رفيقًا سريًا كريمًا[2]، كما أنه كان يخشى عذاب الله وعقابه، فقد امتنع عن سجن الحسين أو قتله وقال: . . . والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وإنى قتلت حسينًا. . سبحان الله! أقتل حسينًا أن قال: لا أبايع؟ والله إنى لا أظن أمرًا يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. فقال مروان: فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت[3].

كان إصرار يزيد على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير - رضى الله عنهما - هو الشرارة الأولى فى الفتنة التى اندلعت بين المسلمين، فقد شعر كل منهما بأنه مطلوب، وأنه إذا لم يبايع فسيكون ضحية طيش يزيد، وأن سيوف أعوان الخليفة الجديد أصبحت مسلولة عليهما، فعادا إلى البيت الحرام، ولجآ إلى مكة المكرمة يطلبان فيها الأمان، ويحتميان بحمى الله فيها، ولئن أصاب يزيد حين أبقى عمال أبيه على الولايات، ليضمن استقرار الأمور فيها، فقد خانته عبقريته فى إصراره على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير، حيث كان إصراره هذا موحيًا بعدم تأمين الحياة لهما، وبأن بقاءهما فى عهد يزيد محفوف بالمخاطر، وذلك أدى بهما إلى أن يبحثا عن الأمان، ولم يجداه إلا فى تجييش أنصارهما، وحشدهم فى مكان يصعب على يزيد وأعوانه أن يقتحموه، وكان ذلك فى مكة المكرمة، فى جوار بيت الله الذى قال فيه: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. ولم يكن لهذا التجمع وذلك الحشد نتيجة سوى المواجهة التى أودت بحياة الآلاف من المسلمين، وكان على رأس هؤلاء جميعًا الحسين بن على - رضى الله عنهما - حيث قتل فى كربلاء - شهيدًا - على يد فئة ظالمة من جيوش يزيد[4].

لقد كانت غلطة من يزيد، بدأ بها حياته، وظلت تلاحقه حتى مماته، ولم يستطع التخلص منها، وبدأت سلسلة الأخطاء تتوالى فى حياة الخليفة، وكلما ادلهمت الأمور من حوله، عظمت الأخطاء، وتضخمت المشكلات، وكلما أراد حل مشكلة، عرض لها بمشكلة أخطر منها وأفظع، فمن الإصرار على عدم البيعة إلى تكوين جبهة معارضة تستعد للقتال، ومنها إلى معركة كربلاء، ثم تتمخض هذه المعركة عن قتل ابن بنت رسول الله ﷺ وتؤدى إلى غضب المسلمين، وإعلان ابن الزبير الخروج على الخليفة، وتستمر العداوة

(١) الأخبار الطوال صـ ٢٢٨، يزيد بن معاوية للعقيلى صـ ٢٨ .

(٢) تاريخ خليفة صـ٢٣٣، يزيد بن معاوية صـ ٢٨.

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٩).

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٩٨).

والبغضاء حتى تكون وقعة الحرة، وتتشوه صورة الخليفة فى أعين المسلمين، ثم يتوفى بعد ذلك بقليل، أين غاب حلم معاوية عن ولى عهده؟ أغلب الظن أن الذى ورط يزيد فى هذه الأخطاء الشنيعة هو غياب المستشارين الحكماء عن مجلسه، وحداثة سنه، وقلة خبرته. كما أن يزيد كان يفتقد حلم أبيه، وتنقصه قوة إرادته فى الحلول السلمية، لقد كانت الكوارث الكبرى فى عهد يزيد: مقتل الحسين رضى الله عنه، ووقعة الحرّة بالمدينة، وحصار مكة لابن الزبير، لقد وصم يزيد عهده بوصمة لن يمحوها ماء البحار، ولن تزيل مرارتها عذوبة الأنهار[(١)].

إن أهل السنة والجماعة يعتبرون بيعة يزيد صحيحة ولكنهم عابوا عليها أمرين:

١ - قالوا إن هذه بدعة جديدة وهى أنه جعل الخلافة فى ولده، فكأنها صارت وراثة بعد أن كانت شورى وتنصيصًا على غير القريب، فكيف بقريب وابن مباشر؟!، فمن هذا المنطلق رُفض المبدأ بغض النظر عن الشخص، فهم رفضوا مبدأ أن يكون الأمر وراثة.

٢ - أنه كان هناك من هم أولى من يزيد بالخلافة كابن عمر وابن الزبير والحسين وغيرهم هذا من وجهة نظر أهل السنة[(٢)].

أما من وجهة نظر الشيعة فإنهم يرون الإمامة والخلافة فى على وأبنائه فقط، فهم لا يعيبون بيعة يزيد بذاتها وإنما يعيبون كل بيعة لا تكون لعلىّ وأولاده، فهم يعيبون بيعة أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية كلها بغض النظر عن المبايع له، لأنهم يرون أنها نص لعلىّ وأبنائه إلى أن تقوم الساعة[(٣)]، وقد ناقشت معتقد الشيعة فى الإمامة فى كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، وبينت بطلانه.

****

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/١٩٩)، بتصرف كبير .

(٢)، (٣) حقبة من التاريخ صـ١٢٤ .

المبحث الثانى

خروج الحسين بن على رضى الله عنه

أولاً : اسمه ونسبه وشيء من فضائله:

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، سبط رسول الله ﷺ، وريحانته ومحبوبه، ابن بنت رسول الله ﷺ، فاطمة رضى الله عنها، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات رضى الله عنه قتيلاً شهيداً، فى يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء من أرض العراق، فرضى الله عنه وأرضاه(١).

وقد وردت فى مناقبه وفضائله أحاديث كثيرة منها:

١- ما رواه أحمد بإسناده إلى يعلى العامرى رضى الله عنه أنه خرج مع رسول الله -يعنى إلى طعام دعوا له- قال: فاستمثل رسول الله ﷺ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه، فطفق الصبى يفر هنا مرة وهاهنا مرة، فجعل النبى ﷺ يضاحكه حتى أخذه قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه، ووضع فاه وقبله وقال: **«حسين منى وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط»**(٢).

٢- ما رواه البخارى بإسناده إلى ابن عمر أنه قد سأله رجل من العراق عن المحرم يقتل الذباب، فقال رضى الله عنه: أهل العراق يسألون عن المحرم يقتل الذباب وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، وقال النبى ﷺ: **«هما ريحانتاى من الدنيا»**(٣).

٣- وروى أحمد بإسناده إلى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **« الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**(٤).

وغير ذلك من الأحاديث.. وفى النية إفراد كتاب مستقل عن أبى عبد الله الشهيد الحسين بن على رضى الله عنهما، بإذن الله تعالى.

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٠)، الإصابة (١/ ٣٣١ - ٣٣٤).

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٧٧٢)، إسناده حسن.

(٣) البخارى رقم ٣٧٥٣.

(٤) سنن الترمذى (٥/ ٦٥٦) حديث رقم ٣٧٦٨، صححه الألبانى فى الأحاديث الصحيحة (٢/ ٤٤٨).

ثانيًا : الأسباب التى أدت إلى خروج الحسين، والفتوى التى بنى عليها خروجه رضى الله عنه:

كان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه فى المعارضة عبد الله بن الزبير، والسبب فى ذلك حرصهما على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها، وتلك الممانعة الشديدة من قبل الحسين وابن الزبير، قد عبرت عن نفسها بشكل عملى فيما بعد، فالحسين رضى الله عنه -كما مر معنا- كان معارضًا للصلح، والذى حمله على قبوله هو متابعة أخيه الحسن بن على، ثم إن الحسين بن على استمر على صلاته بأهل الكوفة، وقد كان يعدهم بالمعارضة ولكن بعد وفاة معاوية، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة معاوية سارع زعماء الكوفة بالكتابة إلى الحسين، وطلبوا منه المسير إليهم على وجه السرعة[(١)]، ومن الأسباب التى أدت إلى خروج الحسين رضى الله عنه:

١ ـ **إرادة الله عز وجل** وأن ما قدره سيكون وإن أجمع الناس كلهم على رده فسينفذه الله، لا راد لحكمه ولا لقضائه سبحانه وتعالى[(٢)].

٢ ـ **قلب الحكم من الشورى إلى الملك الوراثى:** ومن الأسباب ما كان من عدم التزام معاوية بشروط الحسن فى الصلح، والتى من ضمنها ما ذكره ابن حجر الهيثمى: . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[(٣)].

ورأى الحسين فى محاولة معاوية توريث الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفة واضحة لمنهج الإسلام فى الحكم، ومع ذلك فإنه لم يهتم بالخروج على معاوية، نظرًا لمبايعته له بالخلافة، فظل على عهده والتزامه[(٤)]. ولكن بعد وفاة معاوية تغير الموقف، فالحسين لم يعد فى عنقه بيعة توجب عليه السمع والطاعة، ويدل على ذلك محاولة والى المدينة الوليد بن عتبة أخذ البيعة من الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وخروجهما بعد ذلك إلى مكة دون أن يأخذ بيعتهما[(٥)].

إن موقف الحسين وفتواه ضد الحكم الأموى مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة عدم البيعة ليزيد، وذهابه إلى مكة، وهذه المرحلة أسس فيها الحسين موقفه السياسى من حكم يزيد، بناء على نظرته الشرعية لحكم بنى أمية، فهو يرى

(١) مواقف المعارضة صـ١٨٠ .
(٢) المصدر نفسه صـ٢٤٠ .
(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٢٩٩) .
(٤) أنساب الأشراف (٣/ ١٥٢)، مواقف المعارضة صـ١٨٠ .
(٥) مواقف المعارضة صـ ١٨٠ .

عدم جواز البيعة ليزيد، وذلك لسببين: فعلى الصعيد الشخصى فإن يزيد لا يصلح خليفة للمسلمين، نظرًا لانعدام توافر شرط العدالة فيه[1]، كما أن الحسين أفضل وأحق منه بمنصب الخلافة، فهو أكثر منه علمًا، وصلاحًا، وكفاءة، وأكثر قبولاً لدى الناس من يزيد، أما الصعيد السياسى فلانعدام شرط الشورى، والاستئثار بالسلطة للحكم الأموى، والذى يخالف المنهج الإسلامى فى الحكم. ولم يغب عن الحسين رضى الله عنه قول النبى ﷺ: **«من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»**[2]، ولكن فهمه لهذا الحديث أنه فى حق من كان صالحًا للخلافة وأهلاً لها وكان عن شورى المسلمين[3]. وعدم مبايعة الحسين ليزيد كانت تعنى عدم إعطاء الشرعية للحكم الأموى، وهو أمر كان الأمويون يحرصون عليه أشد الحرص، وقد كتب يزيد إلى واليه فى المدينة بأخذ البيعة من الحسين وابن عمر وابن الزبير، وأن يأخذهم بالشدة حتى يبايعوا[4]، وفى نفس الوقت فإن عدم البيعة يسهل له حرية العمل السياسى واتخاذ القرار الذى يراه مناسبًا لمقاومة الحكم الأموى.

المرحلة الثانية: وهى مرحلة العمل على مقاومة الحكم الأموى وطرح نفسه بديلاً للسلطة الأموية فى دمشق، وهو ما يعبر عنها الفقهاء بالخروج على الإمام. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الحسين قد مكث فى مكة بضعة أشهر قبل خروجه إلى العراق، فقد قدم إلى مكة فى الثالث من شعبان سنة ٦٠هـ، وخرج إلى العراق فى الثامن من ذى الحجة من نفس السنة[5]. وفى هذه الفترة كان رضى الله عنه يراسل أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لابد من مقاومة الظلم وإزالة المنكر، وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به، وتمت بينهم مراسلات[6]، وقد وصل الحسين بن على إلى قناعة راسخة وبنى قراره السياسى على فتوى اقتنع بها فى مقاومته للحكم الأموى، فهو يرى أن بنى أمية لم يلتزموا حدود الله فى الحكم، وخالفوا منهج رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، وبنى الحسين رضى الله عنه فتواه بتسلسل منطقى شرعى، فاستبداد بنى أمية، والشك فى كفاءة وعدالة يزيد، توجب عدم البيعة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على علماء الأمة، ومن أكبر المنكر حكم بنى أمية واستبدادهم، وبما أن الحسين ليس فى عنقه بيعة، وهو أحد علماء الأمة وسادتها، فهو أحق الناس بتغيير هذا المنكر، وعلى

---

(١) الفقهاء والخلفاء، سلطان حثيلين صـ٢١ .
(٢) مسلم رقم ١٨٥١ .
(٣) الفقهاء والخلفاء صـ٢٢ .
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٩) .
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٠٤)، البداية والنهاية (١١/ ٤٩٤).
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٣، ٢٧٤).

ذلك فليس موقفه خروجًا على الإمام، بل هو تغيير للمنكر، ومقاومة للباطل، وإعادة الحكم إلى مساره الإسلامى الصحيح[1]، ومما يدل على حرص الحسين رضى الله عنه على أن تكون فتواه وتحركاته السياسية فى مقاومته للحكم الأموى متماشية مع تعاليم الإسلام وقواعده، امتناعه عن البقاء فى مكة عندما عزم على مقاومة يزيد؛ حتى لا تستحل حرمتها وتكون مسرحًا للقتال وسفك الدماء، فيقول لابن عباس: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن أقتل بمكة وتستحل بى[2].

ثالثًا: عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة ونصائح الصحابة والتابعين ورأيهم فى خروجه إليها:

١ ـ عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة:

بعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين رضى الله عنه، والتى تطلب منه المسارعة فى القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعًا أراد أن يطلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليستجلى له حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون حقًا قدم عليهم[3]، خرج مسلم بن عقيل بصحبة عبد الرحمن ابن عبد الله الأرحبى، وقيس بن مسهر الصيداوى، وعمارة بن عبيد السلولى، فلما وصل مسلم المدينة أخذ معه دليلين، وفى الطريق إلى الكوفة تاهوا فى البرية ومات أحد الدليلين عطشًا، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه، وذلك بسبب إحساسه النفسى بمدى الصعوبات التى تنتظره فى الكوفة، ولكن الحسين رفض طلبه، وأمره بمواصلة المسير نحو الكوفة[4]، ولما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة نزل عند المختار بن أبى عبيد[5] فى أول قدومه، فلما جاء ابن زياد وتولى إمارة الكوفة، وأخذ يشدد على الناس، انتقل مسلم عند هانئ بن عروة، وذلك خشية انكشاف أمره ثم لمكانة هانئ وأهميته كأحد أعيان الكوفة، ولما بدأ الشك يساور ابن زياد من هانئ بن عروة خشى مسلم بن عقيل على نفسه، وانتقل أخيرًا ولفترة قصيرة جدًا عند مسلم بن عوسجة الأسدى أحد دعاة الشيعة[6]، ولما بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه فبايعه اثنا عشر ألفًا[7]، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية مع تحرص شديد، ولما تأكد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة فى الحسين وقدومه

(١) الفقهاء والخلفاء صـ٢٣ .

(٢) تاريخ الطبرى، نقلا عن الخلفاء صـ٢٥ .

(٣)، (٤)، (٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٦٧).

(٦) المصدر نفسه (٦/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٧) تهذيب الكمال (٢/ ٣٠١)، مواقف المعارضة صـ٢٣٢ .

إليهم كتب إلى الحسين: أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، إن جميع أهل الكوفة معك فأقبل حين تنظر في كتابي[1]، وهنا تأكد للحسين صدق نوايا أهل الكوفة، وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل[2]، فلا بد في هذه الحالة أن يفي لهم بما وعدهم به، حين كتب إلى أهل الكوفة: وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإذا كتب إليَّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأته في كتبكم، أقدم عليكم إن شاء الله[3]. فلما وصل إلى الحسن بن علي كتاب مسلم بن عقيل والذي طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهيأ لقدومه، تجهز الحسين وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته[4].

٢ ـ مواقف الصحابة والتابعين من خروج الحسين:

أ ـ محمد ابن الحنفية: لما بلغ محمد ابن الحنفية عزم أخيه الحسين على الخروج إلى الكوفة قدم عليه وقال: يا أخي، أنت أحب الناس إلي، وأعزهم علي، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تنح ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خير هذه الأمة كلها نفسًا، وأبًا، وأمًا، أضيعها دمًا، وأذلها أهلاً فقال الحسين: فإني ذاهب يا أخي، قال: فانزل مكة، فإذا أطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنتظر إلامَ يصير أمر الناس وتعرف عند ذلك الرأي فإنك أصوب ما تكون رأيًا وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبدًا أشكل منها حين تستدبرها استدباراً. قال: يا أخي قد نصحت فأشفقت وأرجو أن يكون رأيك سديداً.[5] وجاء في رواية:.. فإن الحسين حين عزم على الخروج بعث إلى بني عبد المطلب في المدينة يدعوهم للخروج معه، فقدم عليه من خف منهم، وتبعهم محمد بن الحنفية فأدرك الحسين بمكة، فأعلمه أن الخروج ليس له برأي يومه

(١) أنساب الأشراف (٣/١٦٧).
(٢) تاريخ الطبري (٦/٢٧٢).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٧٤).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٣٠٥).
(٥) أنساب الأشراف (٤/ ١٥، ١٦).

هذا، فأبى الحسين أن يقبل فى نفسه على أخيه محمد وقال: ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه؟ فقال محمد: وما حاجتى أن تصاب ويصابوا معك، وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم(١).

ب ـ عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: ولما بلغ خبر عزمه على الخروج إلى ابن عمه عبد الله بن عباس أتاه وقال: يا ابن عم، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيّن لى ما أنت صانع. قال: قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: أخبرنى إن كانوا دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حيًا وهو مقيم عليهم، قاهر لهم، وعماله تجبى بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذى دعوك أشد الناس عليك. فقال الحسين: إنى أستخير الله وأنظر ما يكون. ولكن ابن عباس أدرك من كلام الحسين واستعداده أنه عازم على الخروج ولكنه يحاول إخفاء الأمر عنه لعلمه بعدم رضاه عن ذلك، لذا جاء ابن عباس إلى الحسين من الغد فقال: يا ابن عم، إنى أتصبر ولا أصبر، وإنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم، أقم فى هذا البلد حتى ينفى أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصونًا وشعابًا، ولأبيك به شيعة، وكن عن الناس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم، فإنى أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب. فقال الحسين: يا ابن عم، والله إنى لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكنى قد أزمعت المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائرًا فلا تسر بأولادك ونسائك، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، إلى أن قال: فوالله الذى لا إله إلا هو، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعتنى وأقمت لفعلت ذلك(٢). وهكذا نجد أن محاولات ابن عباس لم تجد فى إقناع الحسين على الرغم من أنه أظهر له ـ لما علم تصميمه على عدم رضاه بيزيد وضرورة العمل على تغييره ـ أنه لا يقف عند فكرة الحسين تمامًا، ولكنه يوضح له عوامل فشل ما هو سائر لتحقيقه، ويطرح له البدائل التى ربما تكون أقرب لتحقيق ما يصبو إليه، وذلك بالانتظار حتى يقوم أهل العراق بالسيطرة التامة على إقليمهم ويحرروه من سلطان بنى أمية، وهو يدرك أنهم عاجزون عن ذلك؛ فبالتالى هم عاجزون عن حماية الحسين، أو أن يذهب إلى اليمن ويعمل بما أرشده

(١) الطبقات (١/ ٤٥١)، تحقيق السُّلمى.
(٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٤٦) .

إليه، فإن عوامل النجاح فيه أكثر وعوامل الفشل فيه أقل من رحيله إلى العراق، ولعل ابن عباس قد لا يريد للحسين لا هذا ولا ذاك، ولكن أراد تأخير الحسين عن اتخاذ تلك الخطوة السريعة بخروجه إلى العراق والتى لا ينفع معها تدارك الأمر، أما لو اقتنع برأى ابن عباس من الانتظار حتى يتهيأ له الأمر فى العراق، أو يعدل عنه إلى اليمن، وهذا سيأخذ وقتًا طويلاً لترتيب الأمور هناك، وبهذا أو ذاك فإنه يمكن أن يكون لعامل الوقت أثر فى حل الوضع وإطفاء الفتنة[1]. ويفهم من كلام ابن عباس أنه لا يخالف الحسين فى خروجه على يزيد من الناحية الشرعية، ولكن كان يخالفه من الناحية الاستراتيجية، فكان يرى ألا يخرج الحسين للعراق حتى يتأكد من قوة شيعته وأنصاره هناك، وأن الأمويين لم يعد لهم نفوذ، وإلا فإن اليمن بعيد عن النفوذ الأموى وله فيه أنصار، وبه أماكن كثيرة للتخفى، حتى يتمكن من جمع القوى الكافية لمقاومة الأمويين[2].

ج ـ **عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:** فقد نصح الحسين رضى الله عنه فى أكثر من موقف، فحين بلغه خروج ابن الزبير والحسين إلى مكة رافضين بيعة يزيد لقيهما وقال: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما فى صالح ما يدخل فيه الناس وتنظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشذا، وإن افترق عليه كان الذى تريدان[3]، ولما قدم المدينة وبلغه خروج الحسين لأهل الكوفة لحقه ابن عمر على مسيرة ليلتين فقال: أين تريد؟ قال: العراق، ومعه طوامير وكتب، فقال: لا تأتهم، قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خيَّر نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعة منه، لا يليها أحد منكم أبدًا، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم، فارجعوا. فأبى، فاعتنقه ابن عمر، وقال: أستودعك الله من قتيل[4]. وكان ابن عمر يقول بعد ذلك: غلبنا الحسين بن على بالخروج، ولعمرى لقد رأى فى أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغى له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل فى صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير[5].

د ـ **عبد الله بن الزبير رضى الله عنه:** اتهمته بعض الروايات الضعيفة أنه أحد المتسببين فى إقناع الحسين بالخروج إلى الكوفة، وهو نفسه ثبت عنه أنه قد أسدى النصائح للحسين، وحذره من مغبة مغادرة مكة والذهاب إلى الكوفة، وقد نصح الحسين قائلاً: أين تذهب؟ إلى

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٤٧٥ .

(٢) الفقهاء والخلفاء صـ٢٥ .

(٣) الطبقات الكبرى، تحقيق السلمى (١/ ٤٤٤) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٢) .

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٨).

قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟! فقال له الحسين: لئن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن تستحل بى - يعنى مكة[1]. . .

وقد نظر بعض الصحابة إلى العمل الذى سيقدم عليه الحسين بأنه فى حقيقته خروج على الإمام صاحب البيعة، كما نظروا إلى خروج الحسين وما يحمله خروجه على أنه نذير شر وبلاء على الأمة مهما كانت النتائج لأى من الطرفين[2] منهم:

هـ - أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: حيث قال: غلبنى الحسين على الخروج وقد قلت له: اتق الله فى نفسك والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك[3].

و - وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه: كلمت حسينًا فقلت له: اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فوالله ما حمدتم ما صنعتم، فعصانى[4]. ولم تتوقف المحاولات الهادفة للحيلولة بين الحسين وبين خروجه إلى الكوفة فكتب إليه ابن جعفر:

ز - عبد الله بن جعفر رضى الله عنه: كتب إلى الحسين وأرسل كتابه مع ابنيه محمد وعون: أما بعد، فإنى أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر فى كتابى، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك[5]، ولكن الحسين رفض الرجوع، وهنا ظن عبد الله بن جعفر أن سبب خروج الحسين هو خوفه من الوالى عمرو بن سعيد بن العاص، فذهب إلى عمرو بن سعيد بن العاص وطلب منه أن يكتب كتابًا إلى الحسين يؤمنه فيه ويعده بالخير، وكان رد عمرو بن سعيد أن قال لعبد الله بن جعفر: اكتب ما شئت وائت به أختمه[6] فكتب ابن جعفر بسم الله الرحمن الرحيم، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن على، أما بعد، فإنى أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغنى أنك قد توجهت إلى العراق، وإنى أعيذك بالله من الشقاق، فإنى أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إلىّ معهما، فإن لك عندى الأمان والبر والصلة وحسن الجوار لك، والله بذلك شهيد وكفيل، ومراع ووكيل، والسلام عليك[7]. ولكن الحسين رضى الله عنه رفض هذا الرجاء أيضًا وواصل مسيره.

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٩٥) بسند حسن.

(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ٢٣٦ .

(٣) تهذيب الكمال (٦/ ٤٦١)، الطبقات (١/ ٤٤٥) تحقيق السلمى.

(٤) الطبقات الكبرى (١/ ٤٤٥) تحقيق السُّلمى .

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٣١١) .

(٦) المصدر نفسه (٦/ ٣١١) .

(٧) المصدر نفسه (٦/ ٣١٢) .

ح - **أبو واقد الليثى** رضى الله عنه: فقد روى عنه أنّه قال: بلغنى خروج الحسين، فأدركته بملل، فناشدته الله ألا يخرج، فإنّه يخرج فى غير وجه خروج، إنما يقتل نفسه، فقال: لا أرجع(١).

ط - **عمرة بنت عبد الرحمن**: فقد كتبت إليه تعظّم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره أنّه إنّما يساق إلى مصرعه(٢).

ى - **أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث**: قال له: يا ابن عَمٍّ، إن الرحم تظأرُنى(٣) عليك، وما أدرى كيف أنا عندك فى النصيحة لك؟ قال: يا أبا بكر ما أنت ممن يُستغشُّ ولا يُتَّهمُ، فقل. قال: قد رأيت ما صنع أهل العراق بأبيك وأخيك، وأنت تريد أن تسير إليهم وهم عبيد الدنيا، فيُقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره، فأُذكِّرك الله فى نفسك. فقال: جزاك الله يا ابن عمٍّ خيرًا، ومهما يقضى الله من أمر يكن. فقال أبو بكر: إنا لله، عند الله نحتسب أبا عبد الله(٤).

ك - **عبد الله بن مطيع** فقد قال: فداك أبى وأمى! متعنا بنفسك، ولا تسر إلى العراق، فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذنا خولا وعبيداً(٥).

ل - **سعيد بن المسيب**: فقد نقل عنه الذهبى أنه قال: لو أن الحسين لم يخرج لكان خيراً له(٦).

م - **عمرو بن سعيد بن العاص**: فقد كتب إليه يقول: إنى أسأل الله أن يلهمك رشدك وأن يصرفك عمّا يرديك، بلغنى أنك قد اعتزمت على الشخوص إلى العراق، فإنى أعيذك بالله من الشّقاق(٧).

س - **الفرزدق**: فقد لقيه بالصّفاح(٨)، فسأله الحسين عمّا وراءه فقال: **أنت أحب النّاس إلى النّاس، والقضاء فى السماء، والسيوف مع بنى أمية**(٩). وفى خبر آخر أنّه قال: قلت له: **يخذلونك، لا تذهب إليهم، فلم يطعنى**(١٠).

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٩).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ١٤٠).
(٣) تظأرنى: تعطفنى عليك.
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٥٠٤).
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٩).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٦).
(٧) تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٩)، أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ٢١٢.
(٨) موضع بين حنين وأنصاب الحرم، على يسرة الدّاخل إلى مكة من مشاش.
(٩) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٤٤).
(١٠) تاريخ دمشق (١٤/ ٢١٤).

هذه أقوال الصّحابة والتّابعين فى موقفهم من خروج الحسين، وهذه فلسفتهم فى هذه القضية المهمة، فهم لم يبايعوا يزيد لأنّهم يرونه أفضل من غيره من الصّحابة والتّابعين، ولكنهم فعلوا ذلك درءًا لمفسدة التّفرق والاختلاف بين المسلمين، ودليل ذلك ما رواه خليفة بن خياط وابن سعد، عن داود بن عبد الله الأودى، عن حميد بن عبد الرحمن قال: دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، حين استُخلف يزيد بن معاوية، فقال: أتقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد، ولا أفقه فيها فقهًا، ولا أعظمها فيها شرفًا؟ قلنا: نعم. قال: وأنا أقول ذلك، ولكن ـ والله ـ لأن تجتمع أمة محمد أحب إلىَّ من أن تفترق، أرأيتم بابًا لو دخلت فيه أمة محمد وسعهم، أكان يعجز عن رجل واحد لو دخل فيه؟ قلنا: لا. قال: أرأيتم لو أن أمّة محمد قال كل رجل منهم: لا أهريق دم أخى، ولا آخذ ماله، أكان هذا يسعهم؟ قلنا: نعم. قال: فذلك ما أقول لكم(١)، ومن الملاحظ إجماع كل من نصح الحسين ـ حتى من لم ير بأسًا برفضه البيعة ـ على ألا يخرج للعراق ولا يثق فى أهل الكوفة، فقد كتب إليه المسور بن مخرمة رضى الله عنه بألا يغتر بكتب أهل العراق، ونصحه بألا يبرح الحرم فإن كانت لهم حاجة فسيضربون إليه آباط الإبل حتى يوافوه فيخرج فى قوة وعدة(٢). ومما يلفت الانتباه ـ زيادة على إجماع الناصحين للحسين على خيانة أهل الكوفة ووجوب عدم الثقة بوعودهم وإجماعهم فى توقعهم لمقتل الحسين كما يبدو ذلك من أسفهم عليه وكلمات التوديع له. وما ذلك إلا دليل على معرفة أولئك الناصحين من العلماء بالأوضاع، ووعيهم لما سبق من أحداث جرت إبان الفتنة بين على ومعاوية عرفوا من خلالها الدوافع والأهواء التى تدفع ببعض الأقوام للاستفادة من إثارة الإحن ودوام الفتن(٣).

رابعًا: موقف يزيد من أحداث الكوفة:

لما تأكد ليزيد تصميم الحسين على الاستجابة لدعوة أهل الكوفة، كتب لابن عباس – لأنه شيخ بنى هاشم فى عصره وعالم المسلمين – قائلاً:، ونحسب أن رجالاً أتوه من المشرق فمنّوه الخلافة، فإنهم عندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان فعل فقد قطع وشائج القرابة، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه، فاكففه عن السعى فى الفرقة(٤). ثم كتب بهذه الأبيات إليه وإلى مكة والمدينة من قريش:

(١) الطبقات (٧/ ١٤٧)، تاريخ خليفة صـ١٦٤ .

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٤٠).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٤٨١ .

(٤) تهذيب الكمال (٦/ ٤١٩)، مواقف المعارضة صـ٢٤٣.

يا أيهـا الراكـب الغـادى لطيتـه على عُـذَاقرةٍ فى سيرها قحم
أبلغ قـريشًا علـى نأى المزار بها بينى وبين حسين الله والرحم

إلى آن قال:

يا قـومنا لا تشبـوا الحرب إذ خـمدت وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغى إن البغى مصرعه وإن شارب كأس البغى يتخم
فقد غرّت الحرب من كان قبلكم من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخًا قرب ذى بذخ زلت به القدم[١]

فكتب إليه ابن عباس: إنى لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه، ولست أدع النصيحة له فى كل ما يجمع الله به الألفة وتطفى بها الثائرة[٢].

وفى تلك الأثناء كانت الأحداث تتسارع، وذلك بعدما أخذ الشيعة يختلفون على مسلم ابن عقيل ويبايعونه، وعندما أحس النعمان بن بشير الأنصارى والى الكوفة بخطورة الوضع قام فخطب فى الناس وقال: اتقوا الله عباد الله ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيها يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال، وقال: إنى لم أقتل من لم يقاتلنى، ولا أثب على من لا يثب على، لا أشاتمكم ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة والتهمة، ولكن إن أبديتم صفحتكم لى، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذى لا إله غيره لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى، ولو لم يكن لى منكم ناصر، أما إنى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل[٣].

وأشارت سياسة النعمان بن بشير رضى الله عنه مع أنصار الحسين حفيظة الناصحين للأمويين، وأحد الموالين لهم فى الكوفة وهو عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمى، حليف بنى أمية، فقام إلى النعمان بن بشير وبين له أن طريقته هذه إنما هى طريقة المستضعفين، وأنه يجب عليه أن ينهج سياسة البطش والقوة حيال المتربصين بأمن الكوفة، ولكن رد النعمان بن بشير رضى الله عنه كان واضحًا بأنه يراقب الله فى سياسته[٤].

(١) البداية والنهاية (١١/ ٥٠٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٠٤)، مواقف المعارضة صـ٣٤٤ .
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٧) .
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٧٧).

ولم تعجب يزيد سياسة النعمان فعزله من ولاية الكوفة وعيَّن بدله عبيد الله بن زياد وكتب إليه: إن شيعتى من أهل الكوفة كتبوا إلىّ يخبروننى أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابى هذا حتى تأتى أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة، حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه، والسلام[1]، وغادر ابن زياد البصرة بعد أن اتخذ عدة احتياطات خوفًا من حدوث اضطرابات، وأناب عنه أخاه عثمان ابن زياد على البصرة[2] ثم خرج من البصرة ومعه وجوه أهل البصرة أمثال مسلم بن عمرو الباهلى، وشريك بن الأعور الحارثى وحشمه وأهل بيته[3]. وأقبل ابن زياد إلى الكوفة ودخلها متلثمًا والناس قد بلغهم إقبال الحسين إليهم، فهم ينظرون قدومه، فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين بن على، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبًا بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم، فلما أكثروا عليه صاح فيهم مسلم بن عمرو وقال: تأخروا، هذا الأمير عبيد الله بن زياد، فلما نزل فى القصر نودى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخرج إليهم ثم خطبهم ووعد من أطاع منهم خيرًا وتوعد من خالف وحاول الفتنة منهم شرًا[4].

خامسًا: عبيد الله بن زياد وخطواته للقضاء على مسلم بن عقيل وأنصاره:

١ ـ اختراق تنظيم مسلم بن عقيل:

حرص عبيد الله بن زياد على جمع المعلومات بواسطة جواسيسه على الفئات المعارضة واستطاع أن يخترق أتباع مسلم بن عقيل، وقد كلّف أحد رجاله بهذه المهمة فأعطاه مبلغًا من المال، وكان الرجل من أهل الشام يقال له معقلاً وكان مقدار المبلغ ثلاثة آلاف درهم، وقال: خذ هذا المال، وانطلق فالتمس مسلم بن عقيل، وتأتّ له بغاية التأتى[5]، فانطلق الرجل حتى دخل المسجد الأعظم، ثم نظر إلى رجل يكثر الصلاة إلى سارية من سوارى المسجد، فجلس الرجل حتى إذا انفتل[6] من صلاته، فدنا منه وجلس، فقال: جعلت فداك! إنى رجل من أهل الشام مولى لذى الكلاع، وقد أنعم الله على بحب أهل بيت رسول الله ﷺ وحب من أحبهم، ومعى هذه الثلاثة الآلاف درهم، أحب إيصالها إلى رجل منهم، بلغنى أنه قدم هذا المصر داعية للحسين بن على، فهل تدلنى عليه لأُوصل هذا المال إليه ليستعين

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٨).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٧٩).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٨٠).
(٥) التأتى: التهيّؤ والتسهل.
(٦) انفتل من الصلاة: لوى وجهه، أى ختم صلاته.

به على بعض أموره ويضعه حيث أحب من شيعته؟ قال له الرجل: وكيف قصدتنى بالسؤال عن ذلك دون غيرى ممن هو فى المسجد؟! قال: لأنى رأيت عليك سيما[1] الخير فرجوت أن تكون ممن يتولى أهل بيت رسول الله ﷺ. قال له الرجل: ويحك! قد وقعت علىّ بعينك، أنا رجل من إخوانك، واسمى مسلم بن عوسجة، وقد سُرِرت بك وساءنى ما كان من حسى قبلك، فإنى رجل من شيعة أهل هذا البيت، خوفًا من هذا الطاغية ابن زياد، فأعطنى ذمة الله وعهده أن تكتم هذا عن جميع الناس، فأعطاه من ذلك ما أراد، واستطاع الشامى فى نهاية المطاف الوصول إلى مسلم بن عقيل، فكان يغدو إلى مسلم بن عقيل فلا يحجب[2] عنه، فيكون نهاره كله عنده فيتعرّف جميع أخبارهم، فإذا أمسى وأظلم عليه الليل دخل على عبيد الله بن زياد، فأخبره بجميع قصصهم، وما قالوا وما فعلوا فى ذلك، وأعلمه نزول مسلم بن عقيل فى دار هانئ بن عروة[3]. وهكذا استطاع ابن زياد أن يعرف أخبار مسلم بن عقيل وتحركاته[4].

٢ ـ سجن هانئ بن عروة:

كان محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة يدخلان على ابن زياد مُسَلّمين، فقال لهما: ما فعل هانئ بن عروة؟ فقالا أيها الأمير، إنه عليل[5] منذ أيام، فقال ابن زياد: وكيف؟ بلغنى أنه يجلس على باب داره عامّة نهاره، فما يمنعه من إتيانا وما يجب عليه فى حق التسليم؟ قالا: سنعلمه ذلك، ونخبره باستبطائك إياه. فخرجا من عنده، وأقبلا حتى دخلا على هانئ بن عُروة، فأخبراه بما قال لهما ابن زياد، وما قالا له، ثم قالا له: أقسمنا عليك إلاّ قمت معنا إليه الساعة لتُسلُ سخيمة[6] قلبه. فدعا ببغلته فركبها ومضى معهما، حتى إذا دنا من قصر الإمارة خبُثت[7] نفسه، فقال لهما: إن قلبى قد أوجس[8] من هذا الرجل خيفة. قالا: ولم تحدث نفسك بالخوف وأنت برىء الساحة؟

فمضى معهما حتى دخلوا على ابن زياد، فأنشأ ابن زياد يقول متمثلاً:

أريد حياته ويريد قتلى عَذيرَك من خليلك من مراد

(١) سيما الخير: سمته وعلامته.

(٢) حجب عنه: منع من رؤيته.

(٣) الأخبار الطوال صـ ٢١٨، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٤).

(٥) عليل: مريض.

(٦) سخيمة القلب: حقده الدفين.

(٧) خبثت: صارت خبيثة، أى رديئة ماكرة.

(٨) أوجس خيفة: أحس بالخوف، فزع.

قال: هانئ وما ذاك أيها الأمير؟

قـال ابن زياد: وما يكون أعظم من مـجيـئك بمسلم بن عـقيل وإدخـالك إياه منزلك، وجمعك له الرجال ليبايعوه؟ فقال هانئ: ما فعلت وما أعرف من هذا شيئًا، فدعا ابن زياد بالشامى، وقال: يا غـلام، ادع لى معقلاً. فدخل عليهم. فقـال ابن زياد لهانئ بن عروة: أتعرف هذا؟ فلما رآه علم أنه إنما كان عينًا عليهم. فـقال هانئ: أصدُقُك والله أيها الأمير، وإنى والله ما دعوت مسلم بن عقيل وما شعـرت به، ثم قصّ عليه قصته على وجهها. ثم قال: فأمّـا الآن فأنا مخرجه من دارى لـينطلق حيث يشاء، وأعطيك عهـدًا وثيقًا أن أرجع إليك. قال ابن زياد: لا والله لا تفارقنى حتى تأتينى به. فقال هانئ: أويجمل بى أن أسلم ضيـفى وجارى للقتل؟! والله لا أفـعل ذلك أبدًا. فاعترضـه ابن زياد بالخيزرانة، فـضرب وجهه، وهشم[(١)] أنفه، وكسر حاجبه، وأمر به فأدخل بيتًا[(٢)]. فبلغ الخبر عمرو بن الحجاج الزبيدى أن هانئًـا قد قتل، فأقبل فى قـبيلة مذحج، وأحاط بالقـصر، ونادى بأنه لم يخلع الطاعة، وإنما أراد الاطمئنان إلى سلامة هانئ، فأمر ابن زياد القاضى شريح بأن يدخل على هانئ، وينظر إليه ويخبرهم أنه حى. ففعل[(٣)]. فقال لهم سيدهم عـمرو بن الحجّاج: أما إذا كان صاحبكم حيًا فما يعجلكم الفتنة؟ انصرفوا، فانصرف.

٣ ـ استخدام ابن زياد للأشراف للقضاء على تمرد الكوفة:

لما بلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب وجه هانئ بن عروة، أمر أن ينادى فى أصحابه الذين بايعوه، واستـخدم كلمة السر وهى: يا منصور أمت، فـتنادى أهل الكوفة فاجتمـعوا إليه، وكان عدد الذين حضروا أربعة آلاف رجل[(٤)]، فعقد مسلم لعبـيد الله بن عمرو بن عزيز الكندى على ربع كندة وربيعـة، وأمره أن يسير أمامـه بالخيل، ثم عقد لمسلم بن عـوسجة الأسدى على ربع مذحج وأسد وأمّره على الرجّالـة، وعقد لأبى ثمامة الصائدى على ربع تميم وهمدان، وعقد لعـباس بن جعدة الجدلى على ربع المدينة، ثم قـدم نحو القصر، ولما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز وتمنّع بالقصر[(٥)]، وكان ابن زياد يملك قدرًا كبيرًا من الدهاء والمكر والخداع، حيث أنه بمجرد دخوله القصر جـمع وجوه الكوفة واحتفظ بهم عنده حتى يكونوا وسيلة ضغط مهـمة عنده ستثمر عن نتائج إيجـابية جدًا لصالح ابن زياد[(٦)]. وتقدم مسلم

(١) هشم أنفه: حطّمه.

(٢) الأخبار الطوال صـ٢١٩، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٨).

(٣) الأخبار الطوال صـ ٢١٩ .

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٩).

(٥) المصدر نفسه (٦/ ٢٩١).

(٦) مواقف المعارضة صـ٢٥٥ .

بهذه الجموع، صوب قصر الإمارة التي يتحصن بها ابن زياد، وهنا طلب ابن زياد من أشراف الناس وزعماء الكوفة الذين معه أن يعظوا الناس ويخذلوهم ويخوفوهم بقرب أهل الشام، وصار هؤلاء الأمراء والزعماء يثبطون الناس، ويذكرونهم بالسلامة والأمن، وأنهم إن لم ينصرفوا سيحرمون من العطاء، وسيساقون إلى الثغور وسينالهم العقاب الشديد(١)، ولم يكن التثبيط مقصورًا على الأمراء فقط، بل إن النساء كان لهن دور كبير في إضعاف عزيمة المناصرين لمسلم، إضافة إلى الآباء وكبار السن فقد كان لهم نفس الدور. وكانت المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول: غدًا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف(٢). وأخذت هذه الحرب النفسية التي جوبه بها المؤيدون لمسلم بن عقيل من التهويل والتخويف تعمل عملها بين صفوف الناس، فبدأوا ينصرفون عن مسلم بن عقيل وأخذ العدد يتضاءل سريعًا حتى إنه لما قرب المساء لم يبق مع مسلم بن عقيل إلا عدد قليل يتراوح بين الثلاثمائة والخمسمائة رجل(٣)، وكان غالبية الذين بقوا مع مسلم بن عقيل من مذحج فأمر ابن زياد، عبيد الله ابن كثير بن شهاب الحارثي أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويسير بالكوفة ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم بالحرب وعقوبة السلطان(٤)، ثم أمر ابن زياد محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت ويرفع راية الأمان لمن يأتيه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي، وشبث بن ربعي التميمي، وحجار بن أبجر العجلي، وشمر بن ذي الجوشن العامري، وأبقى سائر وجوه الناس معه(٥)، وأمام هذه الإجراءات السريعة من ابن زياد، وأمام الشد النفسي الذي نازع غالبية من انضموا إلى مسلم بن عقيل، أخذ هذا العدد يتضاءل حتى وصل إلى ستين رجلاً(٦)، ثم حدثت معركة بين مسلم وأتباعه وبين ابن الأشعث، والقعقاع بن شور، وثبت بن ربعي عند الرحبة، ويبدو أن هذه المعركة لم تدم طويلاً عندما تنبه القعقاع بن شور إلى أن المقاتلين إنما يقاتلون لأجل النجاة، عند ذلك أمر بإفساح الطريق لهم، فهربوا نحو المسجد، ولما أمسى المساء تفرق الناس، وبقي مسلم بن عقيل وحيدًا في طرقات الكوفة(٧).

٤ ـ القبض على مسلم بن عقيل وقتله:

أصبح مسلم بن عقيل وحيدًا يتردد في طرق الكوفة، فأتى بيتًا فخرجت إليه امرأة، فقال: اسقيني، فسقته، ثم دخلت، ومكثت ما شاء الله، ثم خرجت، فإذا به على الباب،

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٢٩٣).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٩٣).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٩١).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ٢٩١).
(٦) مواقف المعارضة صـ٢٥٧، الطبقات (٥/ ٣٧٤).
(٧) تاريخ الطبري (٦/ ٢٩٣).

فقالت: ياهذا، إن مـجلسك مجلس ريبة، فقـم، فقال: أنا مسلم بن عقـيل، فهل عندك مأوىً؟ قـالت: نعم، فأدخلته، وكـان ابنها مولى لمحـمد بن الأشعث، فـانطلق إلى مولاه فأعلمـه، فبعث عـبيـد الله الشُّرَط إلى مسلم، فـخرج وسل سيـفه، وقـاتل، فأعطاه ابن الأشعث أمانًا فسلم نفسه[1]، وفى الطريق نحو ابن زياد بكى مسلم فقيل له: إن من يطلب مثل مـا تطلب لا يبكى إذا نزل به مثل الـذى نزل بك. قال: إنى والله ما لنـفسى أبكى، ومالها من القتل أرثى، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفًا، ولكنى أبكى لأهلى المقبلين إلى الكوفة، أبكى حسينًا وآل الحسين. وأقبل مسلم على مـحمد بن الأشعث فقال: يا عبد الله، إنى -والله- أراك ستعـجز عن أمانى، فهل عندك خير تسـتطيع أن تبعث رجلاً على لسانى يبلغ حسينًا عنى رسالة؟ فإنى لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم أو غدًا هو وأهل بيته، وإن ما تراه من جزعى لذلك، فتقول: إن ابن عـقيل بعثنى إليك وهو فى أيدى القوم أسير لا يدرى أيصـبح أم يمـسى حتى يقـتل، وهو يقـول لك: ارجع بأهلك ولا يغـرنك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتـمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى وليس لكاذب رأى. فقال محمد بن الأشعث: والله لأفعلن ولأعلمن ابن زياد أنى قـد أمنتك، ودعا ابن الأشـعث إياس بن العبـاس الطائى، وقال له: اذهب فـالْقَ حسينًا فأبلغه هذا الكتاب، ثم أعطاه راحلة وتكفل له بالقيام بأهله وداره[2]، وأدخل محمد بن الأشعث مسلم بن عقيل على ابن زياد، وأخبره بما أعطاه من الأمان، فقال ابن زياد: ما بعثناك لتؤمنه، ولم يقبل أمانه[3]، واستسقى مسلم وهو بباب القصر، فجاءه عمار بن عقبة بماء بارد، ولكنه لم يستطع أن يشرب لما كان يختلط به من دمه، فتركه ودخل على ابن زياد فقـال له: إنى قاتلك. قـال: كذلك؟ قال: نـعم. قال: فدعنى أوصى إلى بـعض قومى، قال: أوص، فنظر مسلم فى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص، فقال: عمر، إن بينى وبينك قرابة، ولى إليك حـاجة، وهى سر، فقم معى إلى نـاحية القصر حـتى أقولها لك، فأبى أن يقـوم معه حـتى أذن له ابن زياد، فقام فـتنحى قريبًا من ابن زياد، فـقال له مسلم: إن علىَّ دينًا فى الكوفة سبعمائة درهم، فاقضها عنى، واستوهب جثتى من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين، فإنى كنت قد كتـبت إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلاً، فقام عـمر، فعرض على ابن زياد ما قـال له، فأجاز ذلك كله، وقال: أما حـسين فإنه لم

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٣٠٨).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٨٨)، تاريخ الطبرى (٦/٢٩٧). (٣) تاريخ الطبرى (٦/٢٩٨).

يردنا ولا نرده، وإن أرادنا لم نكف عنه، ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل، فأصعد إلى أعلى القصر، وهو يكبر ويهلل ويسبح ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ويقول: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا، ثم ضرب عنقه رجل يقال له بكير بن حمران، ثم ألقى رأسه إلى أسفل القصر، وأتبع رأسه بجسده[1].

٥ ـ قتل هانئ بن عروة:

واتخذ ابن زياد إجراءً يدل على قسوته وجبروته وظلمه، فقد أمر بهانئ فأخرج إلى السوق وقتل وظل هانئ يصيح لقبيلته مذحج، ولكن لم ينصره أحد، ثم صلب هانئ ومسلم في سوق أمام الناس[2]، ثم أمر بضرب أعناق اثنين من الذين كانوا يخططون لنصر مسلم بن عقيل وصلبهما في السوق أيضًا[3]. وكان في وسع ابن زياد أن يرسل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة إلى الخليفة بدمشق، وربما يسجنان أو يعفى عنهما فيما بعد بدلاً من إراقة الدماء وإيجاد الإحن والعداوات بين المسلمين. وقد برهن ابن زياد على بطش الدولة وعسفها وأنها لا تبالي إلا بالحفاظ على سلطانها مهما كلفها ذلك من سفك الدماء، ويبدو أن مسلمًا ـ رحمه الله ـ لم يكن بالسياسي المحنك الذي ينظر للمستقبل بحذر، ويزن الأمور بميزان الوقائع السابقة، ويقيس الأحداث القائمة على نظيراتها الماضية، لهذا غرّه تكاثر المبايعين، وبكاؤهم بين يديه، ووعودهم الموثقة بنصرة الحسين، فأسرع وكتب إلى الحسين يستقدمه، ويحثه على سرعة الحضور، فقد تمهدت له البيعة والحضور[4]. فالعواطف وحدها لا تكفي في قلب الأنظمة وإزالة الدول، فلا بد من القيادة الراشدة، والتنظيم المحكم، والتخطيط البعيد، وتوثيق الأفراد، والإعداد المعنوي والمادي معًا جنبًا إلى جنب، ونستطيع أن نقول بأن ما اعتمد عليه مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة من حسابات كانت خاطئة وغير صحيحة، فقد ظن مسلم بن عقيل أن العاطفة المحركة لكثير من العامة هي السبيل الوحيد للنصر، ولم يأخذ في الاعتبار تأييد زعماء الكوفة أو الاتصال بهم، ولم يحاول مسلم بن عقيل أن ينظم تلك الجموع، وفق اختصاصات معينة تسيطر عليها منظمة سرية تستطيع أن تتحرك في الخفاء وبدون قيود، كما أنه أخفق في توظيف الإمكانات التي توافرت له، حيث إن العاطفة المسيطرة على المجتمع الكوفي كفيلة بأن تقلب الأمور

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٩٠).

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٤٩٠)، تاريخ الطبري (٦/ ٣٠٢).

(٣) تاريخ الطبري (٦/ ٣٠٢). (٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٠٥).

لصالحه، وذلك بعد إرادة الله، فيما لو استخـدمت وأرشدت تلك العاطفة إرشادًا صحيحًا مميزًا، ونجد الطرف الآخر النصير -وهو هانئ بن عروة الذى يعد من أبرز الناس الذين أيدوا مسلمًا وناصروه- اعتمد على قوة وكثرة قبيلته، وظن أنه بمنأى عن العقاب، وذلك باعتباره زعيمًا لمراد التى ذكر المؤرخون أنه كان يركب فى أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، وإذا انضاف لهذه القبيلة أحلافها من كندة بلغ العدد ثلاثين ألف دارع، سوى الرجالة[(١)]، ولكن حسابات هانئ بن عروة كانت خاسرة، فالناس قد ضعفت بينهم الروابط القديمة التى تعتبر فيها القـبيلة محور الارتكاز، وزعيم القـبيلة هو القائد المهيمن الذى ينصـاع لأوامره الجميع بدون تردد، وكان لتـقسيمـات الأرباع فى ولاية زياد بن أبيه أثر فى هذا الضعف، كـما أن نظام العطاء ربط مصـالح القبائل بالسلطة الأموية، لقـد كانت الحسابات التى ارتكـز عليها هانئ والتى اعتمد فـيها على القبيلة قد أثبـتت خسارتها[(٢)]، وممّا قيل من الشعر فى مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة:

فـإن كنتِ لا تدرين ما الموت فـانظرى ... إلى هانئ فـى السُّوقِ وابن عـقـيل
أصـابهـمـا أمـر الإمـام فـأصبـحـا ... أحـاديـث من يسـعـى بكل سـبـيل
إلى بطل قـد هَشَّم السيف وجـهـه ... وآخـر يَهـوِى من طمـار[(٣)] قـتـيل
ترى جـسـدًا قـد غـيَّـر المـوت لـونه ... ونضح دمٍ قـد سـال كلَّ مَـسـيل
فـإن أنتم لـم تثـأروا بأخـيـكم ... فكونـوا بغـيـا أُرضـيـت بقـليل[(٤)]

سادسًا : وصول خبر مقتل مسلم بن عقيل للحسين ، وملاقاته طلائع جيش ابن زياد :

خرج الحسين رضى الله عنه من مكة يوم التروية الموافق لثمان من ذى الحجة سنة ستين، أدرك والى مكة عمرو بن سعيد بن العـاص خطورة الموقف؛ فأرسل وفدًا إلى الحسين وعلى رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص، فحاولوا أن يثنوه عن عزمه ولكنه رفض فنادوه: يا حسين، ألا تـتـقى الله؟! تخرج عن جماعـة المسلمين وتفرق بين هذه الأمة؟! فـردَّ الحسين بقول الله تعالى: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. فخرج الحـسين متوجهًا إلى العـراق فى أهل بيته وستين شـيخًا من أهل

(١) مروج الذهب (٣/٦) .
(٢) مواقف المعارضة صـ٢٥٩ - ٢٦١.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٩٠، ٤٩١) . المكان المرتفع .
(٤) المصدر نفسه (١١/٤٩١).

الكوفة[1]. وكتب مروان بن الحكم إلى ابن زياد: أما بعد، فإن الحسين بن على قد توجه إليك، وهو الحسين ابن فاطمة، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وتالله ما أحد يسلمه الله أحب إلينا من الحسين، وإياك أن تهيج على نفسك ما لا يسده شيء ولا ينساه العامة، ولا يدع ذكره، والسلام عليك[2]، وكتب إليه عمرو بن سعيد بن العاص ينهاه عن التعرض للحسين، ويأمره بأن يكون حذرًا فى تعامله مع الحسين، قائلاً له: أما بعد، فقد توجه إليك الحسين وفى مثلها تعتق أو تعود عبدًا تسترق كما يسترق العبيد[3]. وفى الطريق إلى الكوفة قابل الحسين الفرزدق الشاعر المشهور بذات عرق[4]. فسأله الحسين بن على عن تصوره لما يقوم به أهل الكوفة حياله، ثم أراد أن يعطى الفرزدق إيضاحًا أكثر وقال: هذه كتبهم معى، فرد عليه الفرزدق: يخذلونك فلا تذهب فإنك تأتى قومًا قلوبهم معك وأيديهم عليك[5]. وعندما علم يزيد بن معاوية بخروج الحسين من مكة واتجاهه للكوفة، كتب إلى ابن زياد يحذره ويقول: بلغنى أن حسينًا قد سار إلى الكوفة، وقد ابتلى به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلاد، وابتليت به من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبدًا كما تعتبد العبيد[6].

١ ـ ابن زياد يتخذ التدابير الأمنية: اتخذ ابن زياد بعض التدابير لكى يحول بين أهل الكوفة وبين الحسين، ويحكم سيطرته على الكوفة، فقام بجمع المقاتلة وفرق عليهم العطاء حتى يضمن ولاءهم[7]. ثم بعث الحصين بن تميم الطهوى صاحب شرطته حتى نزل بالقادسية، وقام بتنظيم الخيل ما بين القادسية إلى خفضان[8]، وما بين القادسية إلى القطقطان[9]، وإلى لعلع[10]. ثم أصدر أوامره إلى الحسين بن تيم بأن يقبض على كل من ينكره[11]،

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٠٩)، مواقف المعارضة صـ٢٦٢ .
(٢) الطبقات (٥/ ١٦٧)، تهذيب الكمال (٦/ ٤٢٢)، مواقف المعارضة صـ٢٦٣ .
(٣) تهذيب الكمال (٦/ ٤٢٢)، مواقف المعارضة صـ٢٦٣ .
(٤) ذات عرق على مرحلتين من مكة .
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٥١٠).
(٦) مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩)، المعجم الكبير (٣/ ١١٥).
(٧) الطبقات (٥/ ٣٧٦)، مواقف المعارضة صـ٢٦٤.
(٨) خفضان: لعلها خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحياناً .
(٩) القطقطان: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالقرب من القادسية .
(١٠) لعلع: منزل بين البصرة والكوفة، بينها وبين البصرة عشرون ميلاً.
(١١) أنساب الأشراف (٣/ ١٦٦)، الطبقات (٥/ ٣٧٦) .

ثم أمر ابن زياد بأخذ كل من يجتاز بين واقصة[(١)] إلى طريق الشام ، إلى طريق البصرة، فلا يترك أحد يلج ولا يخرج[(٢)]، وأراد ابن زياد من الإجراء الأخير قطع الاتصال بين أهل الكوفة وبين الحسين بن على، ومضى الحسين بن على فى طريقه إلى الكوفة ولم يكن يعلم بتلك التغيرات التى حدثت فى الكوفة بعد خروجه من مكة، ولما بلغ الحاجز من بطن الرمة بعث قيس بن مسهر الصيداوى إلى الكوفة وكتب معه إليهم برسالة يخبرهم فيها بقدومه[(٣)]

ولكن الحصين بن تميم قبض على قيس بن مسهر مبعوث الحسين حين وصوله إلى القادسية[(٤)]. ثم بعث به إلى ابن زياد فقتله مباشرة[(٥)]. ثم بعث الحسين مبعوثًا إلى مسلم فوقع فى يد الحصين بن تميم وبعث به إلى ابن زياد فقتله[(٦)]، وكان لتلك الإجراءات الصارمة التى اتخذها ابن زياد أثر كبير على نفوس أتباع الحسين، فهم يرون أن من كان له علاقة بالحسين فإن مصيره القتل وعلى أبشع صوره، فأصبح من يفكر فى نصرة الحسين فإن عليه أن يتصور نهايته على ذلك النحو المؤلم[(٧)]، وكان الحسين رضى الله عنه يحس أن الأمور تسير سيرًا غير طبيعى فى الكوفة، خاصة عندما أخبره الأعراب أن أحدًا لا يلج ولا يخرج من الكوفة مطلقًا[(٨)] . واستمر التحذير من بعض رجال القبائل العربية الذين مرّ بهم، وبينوا له ذلك الخطر الذى يقدم عليه، ولكن الحسين كان يدلل على نجاح مهمته بالإشارة إلى ذلك العدد الهائل من أسماء المبايعين التى كانت بحوزته[(٩)]، ولما بلغ الحسين زبالة[(١٠)] - وقيل شراف[(١١)] - جاءه خبر مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبد الله بن بقطر، إضافة إلى تخاذل أهل الكوفة عن نصرته[(١٢)]. وكان لهذا الخبر المفجع المؤلم وقعه الشديد على الحسين رضى الله عنه، فهؤلاء أقرب الناس إليه قد قتلوا، والشيعة فى الكوفة تخاذلوا فى نصرته[(١٣)].

(١) واقصة: منزل بطريق مكة لبنى شهاب من طيء وهو دون زبالة بمرحلتين.
(٢) أنساب الأشراف (٣/٥٧٣)، مواقف المعارضة صـ٢٦٥.
(٣) البداية والنهاية (١١/٥١٢) .
(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٢٦٦ .
(٥) الطبقات (٥/٣٧٦)، أنساب الأشراف (٣/١٦٧) .
(٦) أنساب الأشراف (٣/١٦٨)، مواقف المعارضة صـ٢٦٦ .
(٧) مواقف المعارضة صـ٢٦٦ .
(٨) أنساب الأشراف (٣/١٦٨)، مواقف المعارضة صـ٢٦٦.
(٩) الطبقات (٥/٣٧١) .
(١٠) زبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة .
(١١) شراف: بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الإحساء .
(١٢) تاريخ الطبرى (٦/٣٢٢).
(١٣) مواقف المعارضة ص ٢٦٧.

٢ ـ الحسين يعطى الإذن لأصحابه بالانصراف: لما بلغ الحسين مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل وتخاذل الناس عنه أعلم الحسين من معه بذلك، وقال: من أحب أن ينصرف. فلينصرف. فتفرق الناس عنه يمينًا وشمالاً[١]، وقال: له بعض من ثبتوا معه: ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل -إخوة مسلم ـ وقالوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم[٢].

٣ ـ ملاقاة الحر بن يزيد التميمى ومعه طلائع جيش الكوفة: انصرف الناس عن الحسين -رضى الله عنه ـ فلم يبق معه إلا الذين خرجوا معه من مكة، واستمر فى سيره حتى بلغ شراف، وهناك أمر فتيانه أن يستقوا ويكثروا، ثم سار حتى إذا كان منتصف النهار كبّر رجل من أصحابه، فقال الحسين: الله أكبر ما كبّرت! قال الرجل: رأيت النخل، فقال رجلان: إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط، فقال الحسين: فما تريانه رأى؟ قالا: نراه رأى هوادى الخيل، فقال الرجل: وأنا -والله- أرى ذلك[٣]... وبالفعل كانت طلائع خيل ابن زياد عليها الحر بن يزيد وكان عددها ألف فارس، وقد أدرك الحر بن يزيد الحسين ومن معه قريبًا من شراف. ولما طلب منه الحسين الرجوع منعه وذكر له أنه مأمور بملازمته حتى الكوفة، وقام الحسين وأخرج خرجين مملوءين بالكتب التى تطلب منه القدوم إلى الكوفة، فأنكر الحر والذين معه أى علاقة لهم بهذه الكتب[٤]، وهنا رفض الحسين الذهاب مع الحر إلى الكوفة وأصر على ذلك، فاقترح عليه الحر أن يسلك طريقًا يجنبه الكوفة ولا يرجعه إلى المدينة، وذلك من أجل أن يكتب الحر إلى ابن زياد بأمره، وأن يكتب الحسين إلى يزيد بأمره[٥]. وبالفعل تياسر الحسين عن طريق العذيب والقادسية واتجه شمالاً على طريق الشام[٦]. وأخذ الحر يساير الحسين وينصحه بعدم المقاتلة ويذكّره بالله، وبيّن له أنه إذا قاتل فسوف يقتل[٧]، وكان الحسين يصلى بالفريقين إذا حضرت الصلاة[٨].

٤ ـ ملاقاة عمر بن سعد بن أبى وقاص والمفاوضات: ولما وصل الحسين إلى كربلاء أدركته خيل عمر بن سعد ومعه شمر بن ذى الجوشن، والحصين بن تميم[٩]، وكان هذا الجيش الذى يقوده عمر بن سعد مكونًا من أربعة آلاف مقاتل، وكانت وجهة هذا الجيش فى الأصل إلى الرى لجهاد الديلم، فلما طلب منه ابن زياد أن يذهب لمقاتلة الحسين رفض عمر

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٢٣).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٢).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٥).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٧).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٨).
(٧) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٩).
(٨) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٦)
(٩) أنساب الأشراف (٣/ ١٦٦).

ابن سعد فى البداية هذا الطلب، ولكن ابن زياد هدده إن لم ينفذ أمره بالعزل وهدم داره وقتله، وأمام هذا الخيار رضى بالموافقة[1].

ولما وصل الحسين كربلاء أحاطت به الخيل، ويطلق على المنطقة كلها اسم الطف[2]. وبدأ الحسين بن على بالتفاوض مع عمر بن سعد، وبيّن الحسين أنه لم يأت إلى الكوفة إلا بطلب من أهلها. وأبرز لعمر بن سعد الدليل على ذلك، وأشار إلى حقيبتين كبيرتين تضمان أسماء المبايعين والداعين للحسين، وكتب عمر بن سعد لابن زياد بما سمعه من الحسين وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإنى حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولى، فسألته عما أقدمه وماذا يطلب، فقال: كتب إلىَّ أهل هذه البلاد وأتتنى رسلهم، فسألونى القدوم ففعلت، فأما إذا كرهونى، فبدا لهم غير ما أتتنى به رسلهم فأنا منصرف عنهم. فلما قرئ على ابن زياد تمثل قول الشاعر:

الآن إذ علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب ابن زياد لعمر بن سعد: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغنى كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا. والسلام. ولما اطلع عمر بن سعد على جواب ابن زياد ساءه ما يحمله الجواب من تعنت وصلف، وعرف أن ابن زياد لا يريد السلامة[3]. رفض الحسين هذا العرض، ثم لما رأى جهامة الموقف وخطورته طلب من عمر بن سعد مقابلته[4]، وعرض عليه عرضًا آخر يتمثل فى إجابته واحدة من ثلاث نقاط[5]:

أ- إما أن يتركوه فيرجع من حيث أتى.

ب- وإما أن يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده فى يد يزيد بن معاوية.

جـ- وإما أن يسيّروه إلى أى ثغر من ثغور المسلمين فيكون واحدًا منهم، له ما لهم وعليه ما عليهم[6]. وقد أكد الحسين رضى الله عنه موافقته على الذهاب إلى يزيد[7]. وكتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بكتاب أظهر فيه أن هذا الموقف المتأزم قد حُلّ، وأن

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٣٥).

(٢) الطف: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، وهى بناحية الكوفة.

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٣٧).

(٤) المحن لأبى العرب صـ١٥٤.

(٥) المصدر نفسه صـ١٥٤.

(٦) المصدر نفسه صـ ١٥٤

(٧) أنساب الأشراف (٣/ ١٧٣، ٢٢٤)، بإسناد صحيح وتوبع عند الطبرى بإسناد صحيح.

السلام قد أوشك، وما على ابن زياد إلا الموافقة[1]. وبالفعل فقد أوشك ابن زياد أن يوافق ويرسله إلى يزيد، لولا تدخل شمر بن ذى الجوشن -الذى كان جالسًا فى المجلس حين وصول الرسالة- فقد اعترض على رأى ابن زياد فى أن يرسله إلى يزيد، وبيّن لابن زياد أن الأمر الصائب هو أن يطلب من الحسين أن ينزل على حكمه ـ أى ابن زياد ـ حتى يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه[2]. فلما وصل الخبر إلى الحسين رضى الله عنه رفض الطلب وقال: لا -والله- لا أنزل على حكم عبيد الله بن زياد أبدًا[3]، وقال لأصحابه الذين معه: أنتم فى حل من طاعتى، ولكنهم أصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه حتى الشهادة[4]، واتخذ ابن زياد إجراءً احترازيًا حين خرج إلى النخيلة[5]، واستعمل عمرو بن حريث، وضبط الجسر، ولم يترك أحدًا يجوزه، خاصة أنه علم أن بعض الأشخاص من الكوفة بدأوا يتسللون من الكوفة إلى الحسين[6].

سابعًا: المعركة الفاصلة؛ استشهاد الحسين رضى الله عنه ومن معه:

فى صباح يوم جمعة من عام ٦١هـ نظم الحسين رضى الله عنه أصحابه وعزم على القتال، وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا، وأربعون راجلاً، فجعل زهير بن القين فى ميمنته، وحبيب بن مظاهر فى الميسرة، وأعطى رايته العباس بن على، وجعل البيوت وراء ظهورهم، وأمر الحسن بحطب وقصب فجعله من وراء البيوت، وأشعل فيه النار مخافة أن يأتوهم من خلفهم[7]. وأما عمر بن سعد فقد نظم جيشه، وجعل على الميمنة عمرو بن الحجاج الزبيدى ـ بدلاً من الحر بن يزيد الذى انضم إلى الحسين- وجعل على الميسرة شمر ابن ذى الجوشن ـ وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسى، وعلى الرجال شبث بن ربعى الرياحى، وأعطي الراية ذويدًا مولاه[8]. وبدأت المعركة سريعة، وكانت مبارزة فى بداية الأمر، وجوبه جيش عمر بن سعد بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين، حيث إن مقاتلتهم اتسمت بالفدائية، فلم يعد لهم أمل فى الحياة[9]، وكان الحسين رضى الله عنه فى البداية لم يشترك فى القتال، وكان أصحابه يدافعون عنه، ولما قتل أصحابه لم يجرؤ أحد على قتله، وكان جيش عمر بن سعد يتدافعون ويخشى كل فرد أن يبوء بقتله، وتمنوا أن

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٠).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٣٤٠، ٣٤١).
(٣) حقبة من التاريخ صـ١٣٢، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٢).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٦).
(٥) النخيلة: تصغير نخلة ـ موضع قرب الكوفة.
(٦) الطبقات (٥/ ٣٧٨).
(٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٩).
(٨) المصدر نفسه (٦/ ٢٤٩).
(٩) المصدر نفسه (٦/ ٣٥٠).

يستسلم، ولكن الحسين رضي الله عنه لم يبد شيئًا من الليونة، بل كان رضي الله عنه يقاتلهم بشجاعة نادرة، عندئذ خشي شمر بن ذي الجوشن من انفلات زمام الأمور، فصاح بالجند وأمرهم بقتله، فحملوا عليه، وضربه زرعة بن شريك التميمي، ثم طعنه سنان بن أنس النخعي واحتز رأسه[(١)]، ويقال إن الذي قتله عمرو بن بطار التغلبي، وزيد بن رقادة الحيني[(٢)]، ويقال إن المتولي الإجهاز عليه شمر بن ذي الجوشن الضبي، وحمل رأسه إلى ابن زياد خولي بن يزيد الأصبحي[(٣)]، وكان قتله رضي الله عنه في المحرم في العاشر منه سنة إحدى وستين[(٤)]. وقتل مع الحسين رضي الله عنه اثنان وسبعون رجلاً، وقتل من أصحاب عمر ثمانية وثمانون رجلاً[(٥)]، وبعد انتهاء المعركة أمر عمر بن سعد بألا يدخل أحد على نساء الحسين وصبيانه، وألا يتعرض لهم أحد بسوء[(٦)]، وأرسل عمر بن سعد برأس الحسين ونسائه ومن كان معه من الصبيان إلى ابن زياد[(٧)].

وكان الذين قتلوا مع الحسين رضي الله عنه من آل أبي طالب، فمن أولاد علي بن أبي طالب: الحسين نفسه، وجعفر والعباس وأبو بكر ومحمد وعثمان، ومن أولاد الحسين: علي -الأكبر غير عليّ زين العابدين لأنه كان عنده علي الأصغر وعلي الأكبر وعبد الله-. ومن أبناء الحسن قتل عبد الله والقاسم وأبو بكر. ومن أولاد عقيل قتل جعفر وعبد الله وعبد الرحمن ومسلم بن عقيل -قتل بالكوفة- وعبد الله بن مسلم. ومن أولاد عبد الله بن جعفر: قتل عون ومحمد[(٨)]، ثمانية عشر رجلاً كلهم من بيت رسول الله قد قتلوا في هذه المعركة غير المتكافئة، والعجيب أن ممن قتل بين يدي الحسين بن علي رضي الله عنهما: أبو بكر بن علي وعثمان بن علي وأبو بكر بن الحسن، ولا تجد لهم ذكرًا عندما تسمع أشرطة الشيعة وتقرأ كتبهم التي أُلفت في مقتل الحسين حتى لا يقال إن علي بن أبي طالب سمى أولاده بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان، أو أن الحسن سمى باسم أبي بكر، وهذا أمر عجيب جدًا منهم[(٩)]. وعن أنس قال: ولما أُتي عبيد الله بن زياد برأس الحسين جعل ينكت بالقضيب ثناياه يقول: لقد كان ـ أحسبه- جميلاً. فقلت: والله لأسوءنّك؛

(١)، (٢) تاريخ الطبري نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٢٧٦.

(٣) تاريخ الطبري (٣٨٥).

(٤) المصدر نفسه (٣٢٥).

(٥) الطبقات (٥/ ٣٨٦)، إسناد جمع، ي تاريخ الطبري (٦/ ٣٨٥).

(٦) الطبقات (٥/ ٣٨٥)، مواقف المعارضة صـ٢٧٧.

(٧) تاريخ الطبري، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٢٧٦.

(٨) تاريخ خليفة بن خياط صـ٢٣٤.

(٩) حقبة من التاريخ صـ١٣٥، ١٣٦.

إنى رأيت رسول الله ﷺ يلثم[1] حيث يقع قضيبك. قال: فانقبض[2]. وفى رواية البخارى عن أنس قال: أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين فجعله فى طست، فجعل ينكت عليه وقال فى حسنه شيئًا فقال أنس: إنه كان أشبههم برسول الله ﷺ، وكان مخضوبًا بالوسمة[3]. ولما وصل نساء الحسين وصبيانه صنع بهم ابن زياد أن أمر لهم بمنزل فى مكان معتزل فأجرى عليهم الرزق، وأمر لهن بالكسوة والنفقة[4]. وتذكر بعض الروايات التى لها ميول شيعية أن ابن زياد أمر بقتل كل من أنبت، ولعل مما يظهر كذب هذه الروايات -حينما تذكر- أن على بن الحسين كشفوا عنه فوجدوه قد أنبت، فأمر ابن زياد بقتله، ولكن شفاعة أخته زينب وتعلقها به حالت دون قتله[5]، وليس صحيحًا كذلك أن ابن زياد قد أساء معاملة نساء الحسين بعد قتله، أو فى ترحيله لهن إلى الشام، فالروايات التاريخية تخبرنا أن أحسن شىء صنعه ابن زياد أنه أمر لهن بمنزل فى مكان معتزل، وأجرى عليهن رزقًا، وأمر لهن بنفقة وكسوة[6]، ويقول ابن تيمية فى رده على بعض كذابى الشيعة: وأما ما ذكره من سبى نسائه والدوران بهن على البلدان، وحملهن على الجمال بغير أقتاب، فهذا كذب، وباطل، وما سبى المسلمون ـ ولله الحمد ـ هاشمية قط، ولا استحلت أمة محمد ﷺ هاشمية قط، ولكن أهل الهوى والجهل يكذبون كثيرًا[7]. بل المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهبت عنه نشوة النصر، أحس فداحة خطئه، وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرته القريبين منه، فقد كانت أمه تقول له: ويلك! ماذا صنعت، أو ماذا ركبت؟![8]. وكان أخوه عثمان بن زياد يقول: لوددت -والله- أنه ليس من بنى زياد رجل إلا وفى أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسينًا لم يقتل. فلا ينكر عليه عبيد الله قوله[9].

ثامنًا: مواقف رائعة بجانب الحسين رضى الله عنه:

كانت هناك مواقف رائعة هزت مشاعرنا، وقد سطر التاريخ هذه المواقف لأصحابها لكى يتبين للناس أن فى كل زمان شخصيات تقف إلى جوار الرجال تقديرًا لمقامهم، ورعاية

(1) مسند أبى يعلى رقم ٣٩٨١، يلثم: يقبل.

(2) المصدر نفسه رقم ٣٩٨١.

(3) البخارى رقم ٣٧٤٨.

(4) أنساب الأشراف (٣/٢٢٦)، إسناد صحيح.

(5) أبو العرب صـ١٥٧، تاريخ الطبرى (٦/٣٨٨).

(6) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٣٢٢.

(7) منهاج السنة (٢/٢٤٩).

(8) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها ص٣٢٢.

(9) الكامل فى التاريخ (٢/٥٨٢).

لحرمتهم، وإظهاراً للحق فى مقارنة الرجال إذا واجه بعضهم بعضًا، فهم يقدرون الرجال لمكانتهم الاجتماعية ويفضلونهم على غيرهم، لما يتصفون به من العلم والشجاعة والتقوى، ولو كان غيرهم هم الحكام والأمراء، فلا الخوف من الحاكم ينسيهم قدر الرجال، ولا ظلم الحكام ينحرف بهم إلى النفاق والمجاملة، ولا المناصب التى يشغلونها تلهيهم عما يجب أن يكونوا عليه من الصراحة والشجاعة الأدبية(١)، ومن هذه المواقف:

١ - موقف الوليد بن عتبة بن أبى سفيان رحمه الله: فقد امتنع عن استخدام الشدة والقسوة مع الحسين وإلزامه بالقوة أو قتله، وقال: . . . والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأنى قتلت حسينًا، سبحان الله! أقتل حسينًا أن قال: لا أبايع؟! والله إنى لأظن أمرأ يحاسب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة(٢). وهكذا يقف الوليد هذا الموقف الرائع، وهو أمير المدينة يومئذ، وهو يعلم تمامًا أن ذلك الموقف سيؤدى -لا محالة- إلى عزله عن إمارة المدينة، بل قد يزيد على ذلك، فيؤدى إلى قتله وهلاكه، وهو مع هذا يفضل هلاك الدنيا وزوال الملك والسلطان، على أن يلقى الله بدم الحسين(٣)ـ رضى الله عنه ـ:

٢- موقف النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ: وكان أمير الكوفة؛ فإنه بلغه خروج الحسين ابن على رضى الله عنهما، ووصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة يأخذ البيعة للحسين، قام فخطب فى الناس وحذرهم الخروج على الإمام وأرهبهم من السعى فى الفتنة، وذكرهم بما يجره على العامة والخاصة من الخراب والدمار، ومع ذلك كان لينًا مع الناس، وأخبرهم أنه لن يأخذ أحدًا بظنه، ولن يقاتل أحدًا لم يقاتله، ولكن شدد فى نهاية الخطبة، وقال للناس: ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لى، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذى لا إله غيره، لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى، ولو لم يكن لى منكم ناصر. ومع هذا فقد عاب عليه محبو الأمويين هذا الموقف ووسموه بالضعف، وقالوا: إن هذا الذى أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المستضعفين. فقال رضى الله عنه: أن أكون من المستضعفين فى طاعة الله، أحب إلىَّ من أن أكون من الأعزِّين فى معصية الله(٤).

إن رضا الله ـ تبارك وتعالى ـ غاية يضحى المسلم فى سبيلها بكل غاية، ويبذل فى سبيل الحصول عليها كل غالٍ ونفيس، فرضوان الله هو النعمة العظمى التى سيتجلى الله

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٤٩).
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٩).
(٣) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٤٩).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٧).

بها على عباده المؤمنين فى الجنة[1]، يقول الحق - عز وجل-: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة: ٧٢].

٣ - موقف الحر بن يزيد رحمه الله: وهو أول من لقى الحسين فى جيش الكوفة، وهو الذى حال بينه وبين الرجوع إلى المكان الذى أتى منه، ولكنه مع ذلك كان نبيلاً فى معاملته للحسين - رضى الله عنه -؛ فقد قال له: أنا لم أؤمر بقتالك، ولكنى أمرت أن أخرج بك إلى الكوفة إن وجدتك، ولكنى أقول لك: اختر مكانًا لا يؤدى بك إلى الكوفة ولا يعود بك إلى المدينة، ثم اكتب بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية أو إلى ابن زياد إن شئت. ولم يكد يصل الجيش وعلى رأسه عمر بن سعد بن أبى وقاص، وتواجه كلا الفريقين، وتأكد الحُرّ أن الحرب دائرة بينهما لا محالة، قال الحر لعمر بن سعد: أصلحك الله! أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال عمر: إى والله قتالاً أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى. عندئذ ضرب الحر فرسه، وانطلق به نحو الحسين، وانضم إلى جماعته، ثم قال: يا أهل الكوفة، لأمكم الهَبل، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة الوسيعة التى لا يمنع فيها الكلب والخنزير وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجارى الذى يشرب منه الكلب والخنزير، وقد صرعهم العطش؟! بئس ما خلفتم محمدًا فى ذريته، لا أسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وتتراجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه. واعتذر الحر عن موقفه الأول من الحسين وقبل الحسين عذره، فلما لامه بعض أصحابه على الذهاب إلى الحسين قال: والله إنى لأخير نفسى بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة غيرها ولو قطعت وحرّقت[2].

إن الحر بن يزيد - رحمه الله - غيَّر موقفه من الحسين - رضى الله عنه - بعد أن جنح الحسين إلى السلم، ورأى أن موقفه ضده ليس فيه إنصاف ولا عدل، إذ كيف يقاتل رجلاً يدعو إلى السلم، ويطلبه، ويمد يده إلى عدوه ليصالحه، إن الرجولة تقتضى أن يكون الموقف مع هذا المسالم موقف العون وشد الأزر، وإن العقل يحكم بأن الحق مع من يطلب السلم وينشده، والحر يعلم أن الوقوف مع الحسين والميل إليه ليس له معنى إلا الموت،

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٥٠).
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٥٥، ٣٥٦).

ولكنه اختار الموت الذى يوصل إلى الجنة[1]، ومما قيل فى الحر بن يزيد التميمى من شعر ما قاله جعفر بن عفان الطائى:

ولم يك فيهم رجل رشيد ... سوى الحر التميمى الرشيد
فواحزناه إن بنى علىّ ... وفاطم قد أبيدوا بالحديد[2]

٤ ـ موقف النّوار بنت مالك الحضرمية: وهى امرأة خولىّ بن يزيد الذى بعثه عمر بن سعد برأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد، فلما بلغ خولى الكوفة قصد القصر، فوجد بابه مغلقًا، فتوجه بالرأس الشريف إلى بيته، فوضعه هناك تحت إجانة ـ والإجانة إناء تغسل فيه الثياب ـ ثم دخل على زوجته، وأوى إلى فراشه فقالت له زوجته: ما الخبر عندك؟

قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك فى الدار، فقالت: ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ لا والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت[3] أبدًا. هذه امرأة انتظرت زوجها طويلاً، ولكن زوجها جاءها بما عكر عليها صفوها، وكدر عليها حياتها، وأفسد عليها انتظارها الطويل، لقد كانت ترجو أن يعود إليها زوجها بأخبار سارة تشرح صدرها، وتملأ عليها نفسها سرورًا، نعم إن عودة زوجها إليها سالمًا هى أحسن خبر يحمله لها، ولكنه لم يعد إليها خالى الوفاض من الذهب والفضة اللذين يعود بهما المحاربون عادة فقط، ولو كان الأمر كذلك لسُرّت بعودته، وسلامته، ولكنه حمل إليها رأس الحسين ابن رسول الله ﷺ ثم إنه يبلغها الخبر بفرحة تدل على رضاه وسروره، أفتفرح هى بذلك؟ إنه لو جاءها بالخبر دون أن يكون مصحوبًا بالرأس كان ذلك كفيلاً بزيادة حزنها وأسفها، فكيف وهو يحدثها بالخبر مقرونًا برأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ إن كل مؤمن يحزنه الخبر، ويهدّ نفسه سماعه، لهذا غادرت النوار فراش زوجها، وأقسمت ألا تجتمع معه فى بيت أبدًا[4].

تاسعًا: موقف يزيد من قتل الحسين، ومن أبناء الحسين وذريته:

كتب عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية يخبره بما حدث، ويستشيره فى شأن أبناء الحسين ونسائه، فلما بلغ الخبر يزيد بن معاوية بكى وقال: كنت أرضى من طاعتكم ـ أى أهل العراق ـ بدون قتل الحسين، كذلك عاقبة البغى والعقوق، لعن الله ابن مرجانة؛ لقد

(١) الأمويون، للوكيل (١/ ٢٥٢).
(٢) كتاب المحن صـ١٥٧.
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٨٥).
(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٥٣).

وجده بعيد الرحم منه، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين[(١)]، وفى رواية أنه قال: . . . أما والله لو كنت صاحبه، ثم لم أقدر على دفع القتل عنه إلا ببعض عمرى لأحببت أن أدفعه عنه[(٢)]، فجاء رد يزيد على ابن زياد يأمره بإرسال الأسارى إليه، وبادر ذكوان أبو خالد فأعطاهم عشرة آلاف درهم فتجهزوا بها[(٣)]، ومن هنا يعلم أن ابن زياد لم يحمل آل الحسين بشكل مؤلم أو أنه حملهم مغللين، كما ورد فى بعض الروايات[(٤)]، وقد مر معنا كيف أن ابن زياد قد أمر للأسارى بمنزل منعزل وأجرى عليهم الرزق والنفقة وكساهم[(٥)].

وتذكر رواية عوانة أن محفز بن ثعلبة هو الذى قدم بأبناء الحسين على يزيد[(٦)]، ولما دخل أبناء الحسين على يزيد قالت فاطمة بنت الحسين: يا يزيد، أبنات رسول الله ﷺ سبايا؟! قال: بل حرائر كرام، ادخلى على بنات عمك تجديهن قد فعلن ما فعلت. قالت فاطمة: فدخلت إليهن فما وجدت فيهن سفيانية إلا ملتزمة تبكى[(٧)]. وعندما دخل على بن الحسين قال يزيد: إن أباك قطع رحمى وظلمنى فصنع الله به ما رأيت ـ وكان على بن الحسين لم يشترك فى معركة كربلاء بسبب المرض الذى كان ملازمه، وكان أثناء احتدام المعركة طريح الفراش فحمل إلى ابن زياد مع بقية الصبيان والنساء[(٨)]ـ فرد على بن الحسين على يزيد: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢]. ثم طلب يزيد من ابنه خالد أن يجيبه، فلم يدر خالد ما يقول، فقال يزيد: قل له: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠].

وتحاول بعض الروايات – ذات النزعات والميول الشيعية – أن تصور أبناء الحسين وبناته وكأنهن فى مزاد علنى، جعل أحد أهل الشام يطلب من يزيد أن يعطيه إحدى بنات الحسين[(٩)]. فهذا من الكذب البين الذى لم يدعمه سند صحيح، ثم إنها مغايرة لما ثبت من إكرام يزيد لآل الحسين، ثم إن يزيد لم يستعرض النساء ويجعلهن عرضة للجمهور من أراد

(١) أنساب الأشراف بسند حسن (٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، مواقف المعارضة صـ٢٨٢.

(٢) الأباطيل والمناكير (١/ ٢٦٥)، للجوزجانى بسند كل رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا بين الشعبى والمدائنى.

(٣) الطبقات (٥/ ٣٩٣)، مواقف المعارضة صـ٢٨٢.

(٤) المحن صـ١٥٥، مواقف المعارضة صـ٢٨٢.

(٥) مواقف المعارضة صـ٢٨٣.

(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٩٤).

(٧) المصدر نفسه (٦/ ٣٩٥).

(٨) الطبقات (٥/ ٢١١)، مواقف المعارضة صـ ٢٧٨.

(٩) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٩٢) رواية أبى مخنف.

فليختـر من يشاء[1]. وأرسل يزيد إلى كل امرأة مـن الهاشميات يسأل عن كل مـا أخذ منهن، وكل امرأة تدعى شيئًا- بالغًا ما بلغ ضَاعفه لها فى العطية[2]، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعـا علىَّ بن الحسين[3]. وذُكر أن رأس الحسـين أرسل إلى يزيد، فهذا لم يثبت، بل إن رأس الحسين بقى عند عبيد الله فى الكوفة[4].

عاشرًا: رجوع أهل الحسين وأبنائه إلى المدينة:

بعث يزيد إلى المـدينة فـقـدم عليـه ذوو السن من مـوالى بنى هـاشم ومن مـوالى بنى على[5]، وبعد أن وصل الموالى أمر يزيد بنساء الحسين وبناته أن يتجهزن، وأعطاهن كل ما طلبن، حتى لم يدع لهم حاجـة بالمدينة إلا أمر بها[6]، ثم أمر النعمان بـن بشير أن يقوم بتجهيزهم[7]،وقبل أن يغادروا قال يزيد لعلى بن الحسين: إن أحببت أن تقيم عندنا فتصل رحمك وتعرف لك حقك فعلت[8]. ولكن على بن الحسين قد اختار الرجوع إلى المدينة، وأكرم أبنـاء الحسين وخـيّرهم بين المقـام عنده والذهاب إلى المدينة فـاختاروا الـرجوع إلى المدينة[9]، وعند مغادرتهم دمـشق كرّر يزيد الاعتذار إلى على بن الحـسين وقال: لعن الله ابن مرجـانة، أما والله لو أنى صاحـبه - أى الحسين - ما سـألنى خصلة أبدًا إلا أعطيتـها إياه، ولدفعت الحـتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى، ولكن الـله قضى ما رأيت، كاتبنى بكل حاجة تكون لك[10].

وأمر يزيد بأن يرافق ذرية الحسين وفـد من موالى بنى سفيان[11]، وكان عددهم ثلاثين فارسًا، وأمر المصاحبين لهم أن ينزلوا حيث شـاءوا ومتى شاءوا، وبعث معهم أيضًا محرز ابن حريث الكلبى ورجلاً من بهرا، وكانا من أفاضل أهل الشام[12] وخرج آل الحسين من دمشق محفوفين بأسبـاب الاحترام والتقدير حتى وصلوا إلى المدينة[13]. قال ابن كثير فى

(1) البدء والتاريخ (٦/ ١٢)، وقال المؤلف: أن للروافض فى هذه القصة من الزيادات والتهاويل شيئًا غير قليل.
(2) الطبقات (٥/ ٣٩٧)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٩٥).
(3) الطبقات (٥/ ٣٩٧).
(4) حقبة من التاريخ صـ١٤١.
(5) الطبقات (٥/ ٣٩٧).
(6) المصدر السابق (٥/ ٣٩٧)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٩٣).
(7) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٩٢).
(8) المصدر نفسه (٦/ ٣٩٣)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٦).
(9) منهاج السنة (٤/ ٥٥٩).
(10) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٩٣).
(11) الطبقات (٥/ ٣٩٧)، مواقف المعارضة صـ٢٨٦.
(12) الحجة فى بيان المحجة (٢/ ٥٢٥، ٥٢٦)، مواقف المعارضة صـ٢٨٦.
(13) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ٢٨٦.

يزيد: وأكرم آل بيت الحسين ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعفه، وردهم إلى المدينة فى محامل وأبهة عظيمة، وقد ناح أهله على الحسين(١).

الحادى عشر: من المسئول عن قتل الحسين رضى الله عنه؟

إن المسئول عن قتل الحسين أطراف متعددة منها:

١ ـ **أهل الكوفة:** إن أهل الكوفة هم الذين كاتبوا الحسين بن على وهو فى المدينة ومنّوه بالخروج حتى خرج إليهم بالرغم من تحذيرات الصحابة له بعدم الخروج، ولما عين ابن زياد أميرًا على الكوفة تأخر الناس عن نصرة الحسين وعن تأييده، بل وانخرطوا فى الجيش الذى حاربه وقتله، ولذا عبّر الحافظ ابن حجر عن موقف أهل الكوفة من الحسين بقوله: فخُذِل غالب الناس عنه فتأخروا رغبة ورهبة، ولما تقابل الحسين ومن معه مع جند الكوفة نادى الحسين زعماء أهل الكوفة قائلاً لهم: يا شبث بن ربعى، وياحجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلى أنه قد أينعت الثمار، واخضر الجناب، وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند، فأقبل؟ قالوا: لم نفعل، فقال: سبحان الله! بلى - والله - لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس، إذا كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى(٢). وبالنظر إلى أقوال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فإن الاتهام موجه إلى أهل العراق، وذلك فى المسئولية المتعلقة بقتل الحسين رضى الله عنه، فهذه أم سلمة رضى الله عنها لما جاء نعى الحسين بن على لعنت أهل العراق وقالت: قتلوه قتلهم الله عز وجل، غروه ودلوه لعنهم الله(٣). وابن عمر رضى الله عنهما يقول لوفد من أهل العراق حينما سألوه عن دم البعوض فى الإحرام: عجبًا لكم يا أهل العراق، تقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ وتسألون عن دم البعوض(٤). ويقول البغدادى فى كتابه «الفرق بين الفرق»: روافض الكوفة موصوفون بالغدر والبخل، وقد سار المثل بهم فيها، حتى قيل: أبخل من كوفى، وأغدر من كوفى، والمشهور من غدرهم ثلاثة أمور هى:

أ- بعد مقتل على رضى الله عنه، بايعوا الحسن، وغدروا به فى ساباط المدائن، فطعنه سنان الجعفى.

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن مواقف المعارضة (٢/ ٢٨٧).

(٢) أنساب الأشراف (٣/ ٢٢٧) مواقف المعارضة صـ ٢٨٨.

(٣) فضائل الصحابة (٢/ ٧٨٢) بإسناد حسن.

(٤) مسند أحمد رقم ٥٥٦٨، إسناده صحيح.

ب- كاتبوا الحسين رضى الله عنه، ودعوه إلى الكوفة لينصروه على يزيد، فاغتر بهم، وخرج إليهم، فلما بلغ كربلاء غدروا به وصاروا مع عبيد الله يدًا واحدة عليه. حتى قتل الحسين وأكثر عشيرته بكربلاء.

جـ- غدرهم بزيد بن على بن الحسين، نكثوا بيعته، وأسلموه عند اشتداد القتال[1].

إن جزءًا كبيرًا من المسئولية يقع على أهل الكوفة، الذين جبنوا ونقضوا عهودهم.

٢- **عبيد الله بن زياد:** استمد عبيد الله جبروته وبطشه بالمعارضين من موافقة الخليفة يزيد ابن معاوية، فعندما أقدم على قتل مسلم بن عقيل النائب الأول عن الحسين بالكوفة، وداعيته هانىء بن عروة الزعيم لقبيلة مراد المشهورة، استحسن يزيد هذا الفعل ولم يعترض عليه، بل إنه لم يخف إعجابه به وببطشه وعسفه، فقد قال فى ردّه على رسالته: أما بعد، فإنك لم تعد أن كنت كما أحببت، عملت عمل الحازم، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت، وصدقت ظنى بك، ورأيى فيك[2].. فهذا التشيع دفع ابن زياد للشر أكثر، خصوصًا أن نفسه كانت ميالة للشر بطبيعتها، متطلعة إلى الغلو فى مسيرتها، متعطشة إلى الدماء فى سلطانها، وإلا فماذا كان عليه لو أنه نهر شمر وعنفه وردعه على قوله، واستمر فى قبول خطة السلم التى عرضها الحسين رضى الله عنه. إن النفوس الدنية التى ارتفعت بعد انحطاط، وعزت بعد ذل، وتمكنت بعد حرمان، يعزّ عليها أن ترى الشرفاء الأمجاد، يتمتعون باحترام الناس وتقديرهم؛ فتحاول أن تضع من مكانتهم، وتحط من منزلتهم إشباعًا لعقدة النقص التى تطاردهم فى حياتهم، ولم يكن ابن زياد إلا واحدًا من أصحاب هذه النفوس الدنية، فمن ابن زياد هذا ـ مهما كانت منزلته ـ إذا قورن بالحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ؟! لهذا رفض الحسين أن يضع يده فى يد ابن زياد، وقال: لا أعطيهم بيدى إعطاء العبد الذليل، وقال عمر بن سعد لما وصله كتاب ابن زياد: لا يستسلم - والله - الحسين، إن نفسًا أبية لبين جنبيه[3]، لقد كان عبيد الله بن زياد واليًا ظالمًا قبيح السريرة، وهو الذى دخل عليه عائذ بن عمرو المزنى، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لعبيد الله: أى بنى، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن شر الرعاء الحطمة**»، فإياك أن تكون منهم، فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ، فقال: هل كانت لهم نخالة[4]؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفى غيرهم[5].

(١) الفرق بين الفرق صـ٣٧.
(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٢٩٣.
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٢).
(٤) نخالة: ما بقى فى المنخل مما ينخل.
(٥) البخارى رقم ٧١٥٠.

لقد كان يتوجب على ابن زياد أن يلبى مطالب الحسين، وأن يتركه يذهب إلى يزيد، أو أى مكان آخر، خاصة أنه لن يدخل الكوفة[1]، وقد قال ابن الصلاح فى فتاويه: والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضى إلى قتله إنما هو ابن زياد[2]،وقال يوسف العشى: وينبغى لنا أن نقول إن المسئول عن قتل الحسين هو أولاً شمر، وثانيًا عبيد الله بن زياد[3]. والصحيح أن المسئولية الأولى والإثم الأكبر فى هذه المذبحة تقع على عاتق ابن زياد؛ لأنه مدبر هذا الأمر كله، وهو الذى رفض عروض الحسين، والتاريخ يستنكر كل ما فعله، ويذمه أشد الذم، ويدمغه بالبغى والطغيان[4]. ويقول الذهبى فى نهاية ترجمة عبيد الله: الشيعى لا يطيب عيشه حتى يلعن هذا ودونه، ونحن نبغضهم فى الله، ونبرأ منهم، ولا نلعنهم، وأمرهم إلى الله[5].

٣ ـ عمر بن سعد بن أبى وقاص قائد الجيش: ومن المسئولين عن قتل الحسين رضى الله عنه قائد جيشه عمر بن سعد بن أبى وقاص، وبئس الخلف للسلف أو الابن لأبيه! ثم الجنود الذين نفذوا أوامرهم فى غير رحمة، وكان لهم مندوحة أن ينأوا عن ذلك، أو ينضموا إلى جانب الحسين، كما فعل الحر بن يزيد التميمى القائد الأول الذى أرسله ابن زياد، ثم رأى أن ابن زياد وصحبه اعتدوا وطغوا حين رفضوا عروض الحسين المنصفة، فتحول إلى معسكر الحسين وقاتل معه حتى قتل شهيدًا[6].

إن عمر بن سعد لم يخرج ابتداءً لقتال الحسين، ولكنه كان خارجًا لقتال الديلم فى أربعة آلاف مقاتل، فلما بلغ ابن زياد أمر الحسين سيَّره إليه، وقال له: قاتل حسينًا فإذا انتهيت فانصرف إلى الديلم، وكان قد ولاه إمارة الرَّىّ، واستعفى عمر ابن زياد من قتال الحسين، ولكن ابن زياد هدده بخلعه عن إمارة الرّى فتراجع عمر، وقال له: حتى أنظر، وأخذ يستشير الناس، وكلهم نصحوه بعدم الخروج إلى الحسين، وقال له ابن أخته ـ حمزة ابن المغيرة بن شعبة ـ: أنشدك الله يا خال ألا تسير إلى الحسين فتأثم بربك، وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين[7]. فقال عمر بن سعد: فإنى أفعل إن شاء الله. وبرغم نصح الناصحين، وترهيب المرهبين، فإن نفس ابن سعد كانت متعلقة بالدنيا وحب الإمارة،

(١) مواقف المعارضة صـ٢٩٧.
(٢) القيد الشريد ورقة ١٣، مواقف المعارضة صـ٢٩٥.
(٣) الدولة الأموية صـ١٧٢.
(٤)، (٥)، (٦) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية صـ١٠٥.
(٧) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٣٥).

ومشغولة بالمنصب وتقلد الإدارة.. والحق يقال: إنه اجتهد فى محاولة إيجاد مخرج يبتعد منه عن قتال الحسين ومن معه، ولكنه لم يوفق فى شىء.

إن النفوس المتطلعة إلى الدنيا، تنسى فى سبيلها شهامة الرجال، ومروءة الكرام، بل تنسى ما هو أعظم من ذلك: موقفها بين يدى الله عز وجل، وأنها ستحاسب على كل عمل تعمله، بل تنسى بديهيات الأمور، حيث تنسى فناء الدنيا، وزوال المنصب، وضياع الجاه والسلطان، لقد كان عمر بن سعد فى غنى عن أن يقرن اسمه بأسماء الخونة الغادرين، وأن يسجل فى سجل المعتدين الآثمين، لو أنه ضحى بالمنصب، وقبل طاعة الله ورسوله، ولو أنه فعل ما فاته شىء مما كتب له من متاع الدنيا، ولكان عند الله من الأبرار الصالحين(١).

٤ ـ **يزيد بن معاوية:** وأما يزيد، فظاهر الأمر أنه كره قتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ وحاول أن يمنعه من الخروج، فكتب إلى ابن عباس، يسأله أن يكف الحسين عن الخروج، وحين وضع الرأس الشريف بين يديه قال: لعن الله ابن مرجانة، كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه(٢). وهذا البكاء على الحسين، وسب ابن مرجانة، لا يرفع اللوم عن يزيد، ولا يخليه من تبعة قتل الحسين وأصحابه، ذلك لأنه كان قادرًا على أن يوجه أوامر صريحة لابن زياد بعدم قتل الحسين رضى الله عنه، والتصرف معه بكل حكمة وتعقل، حفظًا لرحمه وقرابته من رسول الله ﷺ ومكانته فى قلوب المسلمين(٣).

إن تحمل يزيد لمسئولية قتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ قائمة، كيف وقد قتل فى خلافته وعلى أرض تسيطر عليها جيوشه، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحمّل نفسه مسئولية بغلة عثرت فى العراق أو فى الشام، لم يسو لها الطريق، فكيف إذا كان القتلة هم جند أمير المؤمنين(٤)؟ إن مقتل الحسين رضى الله عنه سيظل وصمة عار ونقطة سوداء فى عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

الثانى عشر: أقوال الناس فى يزيد، وهل يجوز لعنه؟

افترق الناس فى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ثلاث فرق: طرفان ووسط، فأحد الطرفين قالوا: إنه كان كافرًا منافقًا، وأنه سعى فى قتل سبط رسول الله ﷺ تشفيًا من رسول الله ﷺ، وانتقامًا منه، وأخذًا بثأر جده عتبة وأخى جده شيبة، وخاله الوليد بن

(١) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٢٤٤).
(٢) أنساب الأشراف (٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، سند حسن.
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٤٧٨.
(٤) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٢٤٥).

عتبة، وغيرهم ممن قتلهم أصحاب النبيﷺ بيد على بن أبى طالب وغيره يوم بدر، وقالوا: تلك أحقاد بدرية، وآثار جاهلية، وأنشدوا عنه:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت ... تلك الرءوس على ربى جيرونى

نعق الغراب، فقلت: نُحْ أو لا تنح ... فلقد قضيت من النبى ديونى

وقالوا: إنه تمثل بشعر ابن الزِّبعرى الذى أنشده يوم أحد:

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا الكثير من أشياخهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل[1]

وأشياء من هذا النمط، وهذا القول سهل على الرافضة الذين يكفِّرون أبا بكر، وعمر، وعثمان، فتكفير يزيد أسهل.

والطرف الثانى: يظنون أنه كان رجلاً صالحًا وإمام عدل، وأنه كان من الصحابة الذين ولدوا على عهد النبىﷺ، وحمله على يديه وبرّك عليه، وربما فضله بعضهم على أبى بكر وعمر، وربما جعله بعضهم نبيًا، ويقولون عن الشيخ عدى أو حسن المقتول ـ كذبًا عليه ـ إن سبعين وليًا صرفت وجوههم عن القبلة لتوقفهم فى يزيد، وهذا قول غالية العدوية ونحوهم من الضلاَّل، فإن الشيخ عديًا كان من بنى أمية، وكان رجلاً صالحًا عابدًا فاضلاً، ولم يحفظ عنه أنه دعاهم إلا إلى السنة التى يقولها غيره كالشيخ أبى الفرج المقدسى، فإن عقيدته موافقة لعقيدته، لكن زادوا فى السنة أشياء كذب وضلال، من الأحاديث الموضوعة، والتشبيه الباطل، والغلو فى الشيخ عدى وفى يزيد، والغلو فى ذم الرافضة، بأنه لا تقبل لهم توبة وأشياء أخر. وكلا القولين ظاهر البطلان عند من له أدنى عقل وعلم بالأمور وسير المتقدمين، ولهذا لا ينسب إلى أحد من أهل العلم المعروفين بالسنة، ولا إلى ذى عقل من العقلاء الذين لهم رأى وخبرة[2].

والقول الثالث: أنه كان ملكًا من ملوك المسلمين، له حسنات وسيئات، ولم يكن كافرًا، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع الحسين، وفعل ما فعل بأهل الحرة، ولم يكن صاحبًا ولا من أولياء الله الصالحين، وهذا قول عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة. ثم افترقوا ثلاث فرق: فرقة لعنته، وفرقة أحبته، وفرقة لا تسبه ولا تحبه، وهذا هو المنصوص عن الإمام أحمد وعليه المقتصدون من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين. قال صالح بن

(١) الفتاوى (٤/ ٢٩٤).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٩٥).

أحمـد: قلت لأبى: إن قومًا يقولـون إنهم يحبون يزيد، فقـال: يا بنى، وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟ فقال: يا بنى، ومتى رأيت أباك يلعن أحدًا؟ وقال: سألت أحمد عن يزيد بن مـعاوية بن أبى سفيان. فقال: هو الذى فعل بالمدينة ما فعل. قلت: وما فعل؟ قال: قتل من أصحاب رسول الله ﷺ وفعل. قلت: وما فـعل؟ قال: نهـبهـا. قلت: فيـذكر عنه الحديث؟ لا يـذكر عنه حديث. وهـكذا ذكر القاضى أبو يعلى وغـيره[1]، وقال أبو مـحمد المقـدسى لما سئل عن يزيد: فيـما بلغنى لا يُسَبّ ولا يُحَبّ. وقال ابن تيمية: وبلغنى - أيضًا - أن جدنا أبا عبد الله بن تيمية سئل عن يزيد فقال: لا تنقص ولا تزيد. وهذا أعدل الأقوال فيه وفى أمثاله وأحسنها، وأما ترك سبه ولعنته فـبناء على أنه لم يثبت فسقـه الذى يقتضى لعنه، أو بناء على أن الفـاسق المعين لا يلعن بخصوصه، إما تحريمًا، وإما تنزيهًا. فقد ثبت فى صحيح البخارى عن عمر فى قصة «حمار» الذى تكرر منه شرب الخمر وجلده لما لعنه بعض الصحابة قال النبى ﷺ **«ولا تلعنه، فإنه يحب الـله ورسوله»**[2]. وقال: **«لعنُ المؤمن كـقتله»**[3] هذا مع أنه قد ثبت عن النبى ﷺ لعنه عمومًا شارب الخمر ونهى فى الحـديث الصحيح عن لعن هذا المعين، كما أن نصوص الوعيد عامة فى آكل أمـوال اليتامى، والزانى والسارق، فلا نشهد بها عـامة على معين بأنه من أصحـاب النار، لجواز تخـلف المقتضَـى عن المقتضِـى لعارض راجع: إما تـوبة، وإما حسنات ماحية، وإما مصائب مكفرة، وإما شفاعة مقبولة وإما غير ذلك[4]. ومن اللاعنين من يرى أن ترك لعنته مثل ترك سائر المباحات من فضول القول، لا لكراهة فى اللعن، وأما ترك محبته، فلأن المحبة الخاصة إنما تكـون للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس واحدًا منهم، وقد قال النبى ﷺ **«المرء مع من أحب»**[5]، ومن آمن بالله واليوم والآخر، لا يختـار أن يكون مع يزيد ولا مع أمـثاله من الملوك، الذين ليـسوا بعـادلين. ولترك المحـبة مأخذان: أحدهما: أنه لم يصـدر عنه من الأعمال الصالحة ما يوجب محبـته، فبقى واحدًا من الملوك المسلطين، ومحبة أشخاص هذا النوع ليست مشروعة، وهذا المأخذ مأخذ من لم يثبت عنده فسقه أعتقد تأويلاً. والثانى: أنه صدر عنه ما يقتضى ظلمه وفسقه فى سيرته من أمر الحسين وأمر أهل الحرة[6].

(١) الفتاوى (٤/ ٢٩٥)

(٢) البخارى رقم ٦٧٨٠.

(٣) المصدر نفسه ٦٦٥٢.

(٤) الفتاوى (٤/ ٢٩٦).

(٥) البخارى رقم ٦١٦٩.

(٦) الفتاوى (٤/ ٢٩٦).

وأما الذين لعنوه من العلماء كأبى الفرج الجوزى، والكيا الهراس[1] وغيرهما، فلما صدر عنه من الأفعال التى تبيح لعنته، ثم قد يقولون: هو فاسق، وكل فاسق يلعن، وقد يقولون بلعن صاحب المعصية وإن لم يحكم بفسقه، . . . وقد يلعن لخصوص ذنوبه الكبار، وإن كان لا يلعن سائر الفساق، كما لعن رسول الله ﷺ أنواعًا من أهل المعاصى، وأشخاصًا من العصاة وإن لم يلعن جميعهم، فهذه ثلاثة مآخذ للعنته[2].

وأما الذين سوغوا محبته أو أحبوه، كالغزالى، والدستى فلهم مأخذان: أحدهما: أنه مسلم ولى أمر الأمة على عهد الصحابة وتابعه بقاياهم، وكانت فيه خصال محمودة وكان متأولاً فيما ينكر عليه من أمر الحرة وغيره، فيقولون: هو مجتهد مخطئ، ويقولون: إن أهل الحرة هم الذين نقضوا بيعته أولاً، وأنكر ذلك عليهم ابن عمر وغيره، وأما قتل الحسين فلم يأمر به ولم يرض به، بل ظهر منه التألم لقتله، وذم من قتله، ولم يحمل الرأس إليه، وإنما حمل إلى ابن زياد. والمأخذ الثانى: أنه قد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عمر، إن رسول الله ﷺ قال: **«أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له»**[3]. وأول جيش غزاها كان أميره يزيد. والتحقيق أن هذين القولين يسوغ فيهما الاجتهاد، وكذلك محبة من يعمل حسنات وسيئات، بل لا يتنافى عندنا[4] أن يجتمع فى الرجل الحمد والذم، والثواب والعقاب، كذلك لا يتنافى أن يصلى عليه ويدعى له وأن يلعن ويشتم أيضًا باعتبار وجهين؛ فإن أهل السنة متفقون على أن فساق أهل الملة ـ وإن دخلوا النار، أو استحقوا دخولها - فإنهم لا بد أن يدخلوا الجنة، فيجتمع فيهم الثواب والعقاب، ولكن الخوارج والمعتزلة تنكر ذلك، وترى أن من استحق الثواب لا يستحق العقاب ومن استحق العقاب لا يستحق الثواب[5]. وأما جواز الدعاء للرجل وعليه . . . فإن موتى المسلمين يُصلى عليهم، برهم وفاجرهم، وإن لعن الفاجر مع ذلك بعينه أو بنوعه، لكن الحال الأول أوسط وأعدل، وبذلك أجاب ابن تيمية - رحمه الله - مقدم المغول بولاى، لما قدموا دمشق فى الفتنة الكبيرة وجرت بينهما، وبينهم وبين غيره مخاطبات، فسأل ابن تيمية: ما تقولون فى يزيد؟ فقال: لا نسبه ولا نحبه، فإنه لم يكن رجلاً صالحًا فنحبه، ونحن لا نسب أحدًا من المسلمين بعينه. فقال: أفلا تلعنونه؟ أما كان ظالمًا؟ أما قتل الحسين؟ فقلت له: نحن إذا ذكر الظالمون ـ كالحجاج بن يوسف وأمثاله ـ نقول كما قال الله فى القرآن: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ

(١) هو على بن محمد الطبرى الملقب بعماد الدين توفى ٥٠٤هـ.

(٢) الفتاوى (٤/ ٢٩٧).

(٣) البخارى رقم ٢٩٢٤.

(٤) الفتاوى (٤/ ٢٩٧).

(٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٩٧).

على الظَّالمين﴾ [هود: ١٨] ولا نحب أن نلعن أحدًا بعينه، وقد لعنه قوم من العلماء، وهذا مذهب يسوغ فيه الاجتهاد، لكن هذا القول أحب إلينا وأحسن. وأما من قتل الحسين أو أعان على قتله، أو رضى بذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً. قال: فما تحبون أهل البيت؟ قلت: محبتهم عندنا فرض واجب يؤجر عليه، فإنه قد ثبت عندنا فى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: خطبنا رسول الله ﷺ بغدير يدعى خمًا، بين مكة والمدينة فقال: **«أيها الناس، إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله- فذكر كتاب الله** وحض عليه، ثم قال: **- وعترتى أهل بيتى»**[1] قال ابن تيمية لمقدم المغول: ونحن نقول فى صلاتنا كل يوم: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد. قال مقدم المغول: فمن يبغض أهل البيت؟ قال: من أبغضهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً. ثم قال ابن تيمية للوزير المغولى: لأى شىء قال عن يزيد وهذا تترىٌّ؟ قال: قد قالوا له: إن أهل دمشق نواصب، قال ابن تيمية بصوت عال: يكذب الذى قال هذا، ومن قال هذا فعليه لعنة الله، والله ما فى أهل دمشق نواصب، وما علمت فيهم ناصبيًا ولو تنقص أحد عليًا بدمشق لقام المسلمون[2] عليه، وعلينا أن نعرف أن لعن يزيد لم ينتشر إلا بعد أن قامت الدولة العباسية وأفسحت المجال للنيل من بنى أمية[3]، وأما الحديث الذى ورد مرفوعًا: «لا يزال أمر أمتى قائمًا، حتى يثلمه رجل من بنى أمية يقال له: يزيد»، فهو حديث غير صحيح، لأن فيه أكثر من علة[4]، فقد رواه أبو يعلى فى مسنده من طريق صدقة السمين، عن هشام، عن مكحول عن أبى عبيدة مرفوعًا وفيه علتان:

أ- ضعف صدقة السمين، وهو أبو معاوية، صدقة بن عبد الله السمين، الدمشقى، ضعفه ابن معين والبخارى وأبو زرعة والنسائى، وقال أحمد: ما كان من حديثه مرفوعًا فهو منكر، وما كان من حديثه مرسلاً عن مكحول فهو أسهل وهو ضعيف جدًا. وقال أيضًا: ليس يسوى شيئًا، أحاديثه مناكير. وقال الدّارقطنى: متروك[5].

ب- أن هناك انقطاعًا بين مكحول وأبى عبيدة لأنه لم يدركه[6].

(١) مسند أحمد (٤/ ٣٦٧). (٢) الفتاوى (٤/ ٢٩٧، ٢٩٨).
(٣) مواقف المعارضة صـ٥٠١.
(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ٢٠٤، مسند أبى يعلى رقم ٨٧٠.
(٥) تهذيب التهذيب (٤/ ٣٨١). (٦) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ ٢٠٤.

وقد تحدث ابن كثير عن الأحاديث فى ذم يزيد فقال: وقد أورد ابن عساكر أحاديث فى ذمّ يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصح منها شيء، وأجود ما ورد ما ذكرناه على ضعف أسانيده وانقطاع بعضه، والله أعلم[1].

الثالث عشر: التحذير من أساطير حول مقتل الحسين رضى الله عنه:

إن الشيعة بالغوا فى نقل أخبار تلك الحادثة، وامتلأت كتب التاريخ بحوادث عجيبة قيل إنها وقعت إثر مقتل الحسين، من احمرار الأفق، وتدفق الدماء من تحت الحجارة، وبكاء الجنّ، إلى غير ذلك من الخيال الذى نسجته عقول الشيعة يومئذ، وما زالوا يردّدونه إلى اليوم تضخيمًا لهذا الحادث على حساب غيره من الأحداث الأخرى[2]، وإن الذى يدرس أسانيد تلك الأخبار والرّوايات لا يرى إلا ضعفًا هالكًا، أو مجهولاً لا يعرف أصله، أو مدلّسًا يريد تعمية الأبصار عن الحقائق[3]، ومن أكاذيب مؤرخي الشيعة على سبيل المثال فى هذه الموقعة أن السبايا حملن على نجائب الإبل عرايا حتى إن الإبل البخاتى[4] إنما نبتت لها الأسنمة من ذلك اليوم لتستر عوراتهن من قبلهن ودبرهن[5]. وقال ابن كثير: ولقد بالغ الشّيعة فى يوم عاشوراء، فوضعوا أحاديث كثيرة وكذبًا فاحشًا، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم، وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم، وأن أرجاء السماء احمرّت، وأن الشمس كانت تطلع وشُعاعُها كأنه الدم وصارت السماء كأنها علقة، وأن الكواكب صار يضرب بعضها بعضًا، وأمطرت السماء دمًا أحمر، وأن الحمرة لم تكن فى السماء قبل يومئذ. وأن رأس الحسين لما دخلوا به قصر الإمارة جعلت الحيطان تسيل دمًا، وأن الأرض أظلمت ثلاثة أيام، ولم يُمسَّ زعفران ولا ورس مما كان معه يومئذ إلا احترق مسّه، ولم يرفع حجر من حجارة بيت المقدس إلا ظهر تحته دم عبيط، وأن الإبل التى غنموها من إبل الحسين حين طبخوها صار لحمها مثل العلقم. إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التى لا يصح منها شيء[6].

* **انتقام الله من قتلة الحسين:** وأما ما رُوِىَ من الأمور والفتن التى أصابت من قتله فأكثرها صحيح؛ فإنّه قَلَّ من نجا منهم فى الدنيا إلا أُصيب بمرض، وأكثرهم أصابه الجنون، وللشيعة والرافضة فى صفة مصرع الحسين رضى الله عنه، كذب كثير وأخبار طويلة، وفيما

---

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن أحداث وأحاديث صـ٢٠٤.
(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ٢٠٤.
(٣) المصدر نفسه صـ٢١٣.
(٤) البخت: الإبل الخراسانية.
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٥٦٤، ٥٦٥).
(٦) المصدر نفسه (١١/ ٥٧٦).

ذكرناه كفاية وفى بعض ما أوردنا نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ الأئمة ذكروه ما سُقته، وأكثره من رواية أبى مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعيًا وهو ضعيف الحديث عند الأئمة ولكنه إخبارى حافظ عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنِّفين ممَّن بعده والله أعلم[1]. ويقول ابن تيمية رحمه الله: وأما السؤال عن سَبْى أهل البيت وإركابهم حتى نبت لها سنامان وهى البخاتى ليستتروا بذلك، فهذا من أقبح الكذب وأبينه وهو مما افتراه الزنادقة والمنافقون، الذين مقصودهم الطعن فى الإسلام وأهله من أهل البيت، وغيرهم، فإن من سمع مثل هذا وشهرته وما فيه من الكذب قد يظن أو يقول إن المنقول إلينا من معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء هو من الجنس، ثم إذا تبين أن الأمة سَبَّتْ أهل بيت نبيها، كان فيها من الطعن فى خير أمة أخرجت للناس ما لا يعلمه إلا الله، إذ كل عاقل يعلم أن الإبل البَخَاتى كانت مخلوقة موجودة قبل أن يبعث الله النبى ﷺ، وقبل وجود أهل البيت، كوجود غيرها من الإبل والغنم، والبقر والخيل والبغال[2]، وللأسف الشديد، فقد شحنت المصادر التاريخية الإسلامية، مثل تاريخ الطبرى، وتاريخ ابن عساكر وغيرهما بمثل هذه الأباطيل والأكاذيب، ممّا يتطلب تحقيقًا علميًا لهذين الكتابين خاصة، ولغيرهما من كتب التاريخ[3].

الرابع عشر: ما قيل من رثاء فى الحسين رضى الله عنه:

قال سليمان بن قَتّة التيمى:

وإن قتيل الطَّف من آل هاشم ... أذل رقابًا من قريش فذلّتِ
مررت على أبيات آل محمد ... فألفيتها أمثالها حين حُلّت
وكانوا لنا غُنْمًا فعادوا رزيَّة ... لقد عظمت تلك الرزايا وجَلّت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمى تخلت
إذا افتقرت قيسٌ جبرنا فقيرَها ... وتقتلنا قيس إذا النّعلُ زلّت
وعند غنىٍّ قطرة من دمائنا ... سنجزيهم يومًا بها حيث حَلّت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرتِ[4]

(١) البداية والنهاية (١١/ ٥٧٧).
(٢) الفتاوى (٤/ ٣٠٦).
(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ٢١٣.
(٤) الطبقات (١/ ٥١٢)، تحقيق السُّلمى.

وقال أبو الأسود الدِّيلي في قتل الحسين رضي الله عنه:

أقـــول وذاك من جـــزع ووجـــد: أزال الـلـه مـلـك بـنـي زيـاد
وأبعـــدهـم بما غـــدروا وخـــانوا كـمـا بعـدت ثَمـود وقـوم عـاد
همـو خَشَمُـوا الأنوف وكُنَّ شُمّـا لقتـل ابن القُعَـاسِ أخي مـراد[1]
قـتيل السـوق يا لك مـن قـتـيل به نضحٌ مـن احـمـرَ كـالجِسـاد
وأهل نـبـينا من قـبـل كـانوا ذوى كـرم دعـائم لـلبـلاد
حـسـين ذو الفـضـول وذو المعالى يزيـن الحـاضـرين وكـلٍّ باد
أصـاب العِـزَّ مَـهْلِكُـهُ فـأضـحى عـمـيدًا بعـد مصـرعـه فـؤادى[2]

وقال عبيد الله بن الحر أيضًا:

يا لكِ حـسـرة مـا دمـت حـيا تـردّد بيـن حـلقـى والتّـراقـى
حـسـينًا حـين يطلب بذل نـصـرى على أهـل العـداوة والشّـقـاق
ولو أنـى أواسـيـه بنفـسـى لنـلـت كـرامـة يـوم التّـلاق
مع ابـن المصـطفى نـفـسـى فـداه فـولّى ثـم ودّعَ بالـفـراق
غـداة يقـول لـى بالقـصـر[3] قولا: أتـتـركـنا وتُـزمـع بالـظـلاق؟
فـلو فـلـق الـتَّلـهّـفُ قـلـب حَـىّ لـهـمَّ الـيـومَ قلـبـى بانـطـلاق
فـقـد فـاز الأُلى نصـروا حـسـينًا وخـاب الآخـرون أولو النفـاق[4]

وقال شاعر الإسلام محمد إقبال:

وحـسـين فـى الأبرار والأحـرار مـا أزكـى شـمـائله ومـا أنداها
فـتعلمـوا رىّ اليـقـين من الحـسين إذا الحـسـين وقـد أجـاب نداها
الأمـهـات يـلدن للشـمس الضـيـاء وللجـواهـر حـسنهـا وصـفـاها [5]

(١) ابن القُعَاس: وصف لهانئ بن عروة، يقال: رجل أقعس: ثابت عزيز منيع. لسان العرب (١٧٧/٦).
(٢) الطبقات، تحقيق السُلمى (٥١٢/١).
(٣) القصر: هو قصر بنى مقاتل، وهو المكان الذى اَلتقى فيه مع الحسين.
(٤) الطبقات (٥١٦/١). (٥) الدوحة النبوية صـ١٣٠.

المبحث الثالث

أهم الدروس والعبر والفوائد

أولاً: يوم عاشوراء:

وهو اليوم العاشر من محرم الحرام، وقد ابتدع فيه بدع منكرة، وهلك فيه طائفتان بين إفراط؛ وتفريط طائفة تجعله يوم فرح وسرور، وأخرى تجعله يوم حزن ونياحة[(١)].

لقد غلت الشيعة فى مقتل الحسين رضى الله عنه غلواً مفرطًا؛ فجعلوا يوم استشهاده رضى الله عنه العاشر من محرم مأتمًا وحزنًا ونياحة يكررونه فى كل عام إلى يومنا هذا، ورتبوا على هذا الفعل الأجر والثواب، فهو جالب للمغفرة والرحمة، مكفر للذنوب والخطايا فى زعمهم[(٢)]. فقد روى الطوسى فى أماليه بسنده عن الرضا عليه السَّلام أنه قال: من ترك السعى فى حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره وقرت بنا فى الجنان عينه[(٣)]، وبسنده أيضًا عن أبى عمارة الكوفى قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: من دمعت عينه دمعة لدم سفك لنا أو حق لنا أُنقصناه أو عرض انتهك لنا أو لأحد من شيعتنا بوأه الله تعالى بها فى الجنة أحقابًا[(٤)]. وروى البرقى بسنده عن جعفر الصادق أنه قال: من ذكر عنده الحسين فخرج من عينه دمع مثل جناح بعوضة غفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر[(٥)]. وقد بوب المجلسى بابًا قال فيه: «باب ثواب البكاء على مصيبته ومصائب سائر الأئمة»، وفيه أدب المأتم يوم عاشوراء، وساق فيه أكثر من ثمان وثلاثين رواية[(٦)] منها ما رواه بسنده عن أبى عبد الله عليه السلام قال: كل الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين عليه السلام[(٧)]. بل زعموا أن السماء والأرض بكت لقتله فأمطرت السماء دمًا وترابًا أحمر، كما بكت الملائكة والجن وسائر المخلوقات[(٨)]، ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا بتحريم يوم عاشوراء، وأن من صامه

(١) الأعياد وأثرها على المسلمين، سليمان السجمى صـ٢٦١ .

(٢) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط صـ٤٩٠ .

(٣) أمالى الطوسى صـ١٩٤، بحار الأنوار (٤٤/ ٢٨٤) .

(٤) البحار (٤٤/ ٢٧٩)، أمالى المفيد صـ١١٢ .

(٥) المحاسن صـ٣٦، البحار (٤٤/ ٢٨٩) .

(٦) البحار (٤٤/ ٢٧٨ ـ ٢٩٦) .

(٧) المصدر نفسه (٤٤/ ٢٨٠) .

(٨) المصدر نفسه (٤٤/ ٢٨٥، ٢٨٦) .

فهـو عدو للحسين وأهل بيتـه رضى الله عنهم أجمـعين[١]، فقد روى الكليني بسنده عن جعفـر بن عيسى قال: سألت الرضـا عليه السلام عن صوم يوم عاشـوراء وما يقول الناس فيه، فقال: عن صوم ابن مرجانة تسألني؟ ذلك يوم صامه الأدعياء من آل زياد لقتل الحسين عليه السـلام، وهو يوم يتشاءم به آل محـمد ﷺ ويتشاءم به أهـل الإسلام، لا يصام ولا يتبرك به، ويوم الاثنين يوم نحس قـبض الله عز وجل فيه نبيه، وما أصـيب آل محمد إلا في يوم الاثنين فتشاءمنا به وتبرك به ابن مـرجانة، وتشاءم به آل محمد ﷺ، فمن صامهما أو تبرك بهمـا لقى الله تبارك وتعالى ممسوخ القلب وكـان حشره مع الذين سنوا صومـهما والتبرك بهما[٢]. والأكاذيب فى هذا الباب كثيرة. وهذه المآتم تظهر علنًا كلما قويت شوكة الشيعة أو ظهـرت لهم دولة، ففى دولة بنى بويه الشيعية فى سنة اثنين وخـمسين وثلاثمائة ألزم معـز الدولة ابن بابويه يوم عاشـوراء أهل بغداد بالنواح على الحسـين رضى الله عنه، وأمر بإغلاق الأسواق ومنع الطبـاخين من عمل الأطعمة، وخرجت نساء الشـيعة منشرات الشعور مـضحمات الوجوه يلطمن ويفتن الـناس، وهذا أول ما نيح عليه[٣]، كما اتخذت الدولة العبيـدية الفاطمية -على كـثرة أعيادها ومناسبـاتها- يوم عاشوراء يوم حـزن ونياحة فكانت تتعطل فـيه الأسواق ويخرج فيـه المنشدون فى الطرقات، وكان الخليـفة يجلس فى ذلك اليوم متلثمًا يرى به الحزن، كمـا كان القضاة، والدعاة، والأشراف، والأمراء يظهرون وهم ملثمون حفاة، فيأخذ الشعراء بالإنشاد ورثاء أهل البيت وسرد الروايات والقصص التى اختلقوها فى مقتل الحسين رضى الله عنه[٤]. ومن مظاهرهم فى هذه الأيام خروج المواكب العزائيـة فى الطرقات والشوارع مظهـرين اللطم بالأيدى على الخدود والصـدور، والضرب بالسلاسل والحديد على الأكتاف حتى تسيل الدماء[٥]. وقد وصف ابن كثير ما يفعل الشيعة من تعد لحـدود الكتاب والسنة فى دولة بنى بويه فى حـدود الأربعمائة ومـا حولها فـقال: فكانت الدَّبادب[٦] تضرب ببغداد ونحوها من البـلاد فى يوم عاشوراء، ويُذَرُّ الرماد والتبن فى الطرقات والأسواق، وتعلق المسوح على الدكاكين، ويظهر الناس الحزن والبكاء، وكثير منهم لا يشرب الماء لَيْلَتَئذٍ مـوافقة للحسين، لأنه قتل عطشان. ثم تخـرج النساء حاسرات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن حافـيات فى الأسواق إلى غير ذلك من

(١) العقيدة فى أهل البيت صـ٤٩٢ .
(٢) الكافى (٤/ ١٤٦)، الاستبصار (٢/ ٣٥)، البحار (٤٥/ ٥٩) .
(٣) العبر للذهبى (٢/ ٨٩) البداية والنهاية (١١/ ٥٧٧) .
(٤) الخطط للمقريزى (١/ ٤٣١) .
(٥) العقيدة فى أهل البيت صـ٤٩٤ .
(٦) الدبادب: جمع الدّبداب وهو الطبل .

... البدعة والأهواء الفظيعة والهتائك المخترعة، وإنما يريدون بهذا وأشباهه أن يُشنّعوا على دولة بنى أمية، لأنه قتل فى أيامهم[(1)].

وقد جوّز علماء الشيعة ما يسمونه بالمواكب العزائية، فقد أجاب محمد حسين الغروى النائينى عندما وجهت إليه أسئلة حول المواكب العزائية إذ قال:

١ ـ خروج المواكب العزائية فى عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرقات والشوارع مما لا شبهة فى جوازه ورجحانه وكونه من أظهر مصاديق ما يقوم به عزاء المظلوم، وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد.

٢ ـ لا إشكال فى جواز اللطم بالأيدى على الخدود والصدور إلى حد الاحمرار والاسوداد، بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضًا على الأكتاف والظهور، إلى الحد المذكور، بل وإن تأدى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى، وأما إخراج الدم من الناحية بالسيوف والقامات فالأقوى جوازه ما كان ضرره مأمونًا.

٣ ـ الظاهر عدم الإشكال فى جواز التشبيهات والتمثيلات التى جرت عادة الشيعة الإمامية باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون وإن تضمنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى، فهذه الفتوى المعمول بها اليوم لدى الشيعة وعليها الإجماع وقد فرضها أكثر من اثنى عشر من علمائهم[(2)]، وفى وصف هذه المظاهر يقول ناصر الدين شاه: وفى الهند وباكستان وإيران والعراق تكتسى هذه المآتم حللاً مركبة إذ يخرج الرجال فى الطرقات وهم يسيرون وراء هودج قد يبالغون فى ارتفاعه حتى يبلغ بضعة أمتار وهم عراة وفى أيديهم جنازير من حديد وفى رءوسها شفرات صغيرة حادة يضربون بها صدورهم وظهورهم حتى تسيل الدماء منهم، وفى كثير من الأحيان يموت بعضهم، أما النساء فإنهن يجلسن فى دورهن ينحن ويبكين ويلطمن صدورهن بأيديهن كل هذا تكريمًا للحسين الذى قتل مظلومًا بزعمهم[(3)]، ويقول السيد محسن الأمين الحسينى العاملى معللاً إقامة المآتم: ونريد بإقامة المآتم البكاء لقتله (عليه السلام) بإخراج الدمع بصوت وبدونه، والتعرض لما يسبب ذلك وإظهار شعار الحزن والتأسف والتألم لما صدر عليه، وتذكر مصابه ونظم الأشعار فى رثائه، وتلاوتها واستماعها وتهييج النفوس بها للحزن والبكاء[(4)]. ولم يكتفوا بذلك، يقول الخمينى: إن البكاء على سيد الشهداء

(١) البداية والنهاية (١١/ ٥٧٧).

(٢) مقتل الحسين وفتاوى العلماء الأعلام فى تشجيع الشعائر للشيخ مرتضى عياد صـ١٢ ـ ٤٠ وممن فرضها وأقرّها، العقيدة فى أهل البيت صـ٤٩٥.

(٣) العقائد الشيعية صـ١٣٥.

(٤) إقناع اللائم على إقامة المآتم صـ٢.

عليه السلام وإقامة المجالس الحسينيـة هى التى حفظت الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا[١]. فمتى كان البكاء دعوة؟! ومتى كـان العويل جهادًا؟! فهذا معتـقد الشيعة الإمامية فى مـقتل الحسين وفى يوم عاشوراء فهل هذا الفعل من الإسلام فى شىء؟!

إن الحسيـن رضى الله عنه برىء من تلك الأفعال المذكورة، لأن الإسـلام الذى جاء به جده عليه الصـلاة والسلام لا يجوّز تلك الأفعال، فـقد قال ﷺ: **«ليس منا من لطم الخدود وشق الجيـوب ودعا بدعوى الجـاهلية»**[٢]، وقال ﷺ: **«النائحة إذا لم تتـب قبل موتهـا تقام يوم القيامة وعليها سربال[٣] من قطران[٤]، ودرع من جرب»**[٥]، وقال ﷺ: **«أنا برىء من الصالقة والحالقة والـشاقة»**[٦]، كما أن مـا يفعله الشيعة فى الحـسينيات والمآتم تحت مسـمى الشعائر الحسـينية مـثل: اللطم والنيـاحة ولبس السـواد، والتطبيـر وغيـرها والتى أفتى علمـاؤهم وعظماؤهم بجوازها فإنها محرمة عل لسان الرسول ﷺ وعلى ألسنة أئمة أهل البيت الكرام فى المصادر الشيعية القديمة والحديثة، واعـترف بهذا التحريم شيوخ وأعلام المذهب الشيعى الاثنى عشرى[٧]، فهذا محمـد بـن علـى بـن الحسين بـن بابويه القمى الملقـب عنـد الشيعة بالصـدوق قـال: من ألفـاظ رسـول الله ﷺ التى لم يسـبق إليـهـا: **«النيـاحـة من عـمل الجاهلية»**[٨]. ورواه محمـد باقر المجلسى بلفظ: **«النياحة عـمل الجاهلية»**[٩]، فالنوح الذى استـمرت عليه الشـيعة جـيلاً بعد جـيل بعد جيل من عـمل الجاهليـة كما أخـبر به النبى ﷺ[١٠]. ومن هذه الروايات التى تنهى عـما يقتـرفه الشـيعة فى الحـسينيـات ما قاله أمـير المؤمنيـن على رضى الله عنـه: وإياك والنواح على الميـت ببلد يكون لك بـه سلطان[١١]، وقوله: ثلاث مـن أعمال الجـاهلية لا يزال فـيهـا الناس حتى تقـوم الساعة: الاستـسـقاء بالنجوم، والطعن فى الأنسـاب، والنياحة على الموتى[١٢]، ومن الأدلة قول الإمام الباقر: أشد الجزع الصراخ بالويل والعويل، ولطم الوجه والصدر، وجز الشعر من النواصى، ومن أقام النواحـة فقد ترك الصـبر وأخذ فى غيـر طريقه[١٣]، وقد أنكر ما يـحدث من ضرب

(١) عقيدة أهل اللنة فى أهل البيت صـ٤٩٦، نقلاً عن كشف الأسرار.

(٢) البخارى رقم ١٢٩٤.

(٣) اللربال: القميص.

(٤) القطران: هو النحاس المذاب شديد الحرارة.

(٥) مللم رقم ٩٣٤.

(٦) الصالقة التى تصيح، والحالقة التى تحلق شعرها، والشاقة التى تشق جيبها، مللم، ك الإيمان رقم ١٦٧.

(٧) من قتل الحلين؟ صـ٧٣.

(٨) من لا يحضره الفقيه (٤/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٩) بحار الأنوار (٨٢/ ١٠٣).

(١٠) من قتل الحلين؟ صـ٧٣.

(١١) ملتدرك الوسائل للنورى (١/ ٤٤).

(١٢) بحار الأنوار (٨٢/ ١٠١).

(١٣) الكافى للكلينى (٣/ ٢٢٢، ٢٢٣).

الرؤوس بالخناجر والسيوف وإسالة الدماء الشيخ حسن مغنية فقال: والواقع أن ضرب الرءوس بالخناجر والسيوف وإسالة الدماء ليست من الإسلام فى شىء ولم يرد فيها نص صريح، ولكنها عاطفة نبيلة تجيش فى نفوس المؤمنين لما أريق من الدماء الزكية على مذابح فاجعة كربلاء[1]، ولا شك إن هذه الأمور من المنكرات والبدع الشنيعة[2]. إن الإسلام علمنا آداب المصائب، ومقتل الحسين رضى الله عنه مصيبة عظيمة، فمن آداب الإسلام فى المصائب:

١ ـ الصبر عليها: وهذا أعظم آدابها، أن يصبر المؤمن على المصيبة التى تنزل به، ومن هذا الصبر حبس القلب عن التسخط، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عمّا يغضب الله تعالى من لطم الخدود، وشق الجيوب وخمش الوجوه، ونتف الشعر والدعاء بدعوة الجاهلية وينبغى أن يكون هذا الصبر عند سماع الإنسان خبر المصيبة لأول مرة وذلك لقوله ﷺ: إنما الصبر عند الصدمة الأولى[3].

٢ ـ إحتساب المصيبة والصبر عليها: فينبغى أن يلتمس الأجر من الله تعالى فى هذا الصبر، فيصبر ابتغاء موعود الله من الأجر والثواب، ويصبر لأن الله أمره بالصبر، فقال عز وجل: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾[لقمان: ١٧]، ويتذكر إن فقد عزيزًا لديه، قول النبى ﷺ: «**يقول الله تعالى: ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**»[4]، وصفيُّه: أى حبيبه من ولد أو والد أو نحوه. وهكذا فإن الله تعالى وعد بالأجر العظيم على الصبر على المصائب، ولكن بشرط أن يكون الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ [الرعد: ٢٢]، فينبغى أن يكون الصبر لله تعالى، ولا صبر المغلوب. بل صبر الراضى بقضاء الله، المسلِّم به[5].

٣ ـ الاسترجاع ودعاء المصيبة: فيقول المرء عند نزول المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيرًا منها. فقد قال الله عز وجل: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. وقال ﷺ: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها إلا**

(١) آداب المنابر صـ١٨٢ .
(٢) من قتل الحسين؟ صـ٨٣ .
(٣) البخارى رقم ١٢٨٣ .
(٤) المصدر نفسه رقم ٦٤٢٤ .
(٥) موسوعة الآداب الإسلامية، عبد العزيز فتحى (٢/ ٧٨٦) .

أخلف الله له خيرًا منها»[1]، قالت أم سلمة: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. ثم إنى قلتها، فأخلف الله لى رسول الله[2].

ويقول كذلك: الله ربى لا شريك له: فإن ذلك يكشف عنه المصائب والبلاء بإذن الله، وقد قال ﷺ: **«من أصابه هم أو غم، أو سقم، أو شدة فقال: الله ربى لا شريك له. كشف ذلك عنه»**[3]، ويدعو كذلك بدعاء المكروب الذى ذكره النبى ﷺ حيث قال: **«دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت»**[4]، ويقول كذلك كما كان النبى ﷺ يقول: فإنه ﷺ كان إذا كربه أمر قال: **«يا حى يا قيوم، برحمتك استغيث»**[5].

٤ ـ **اجتناب كل ما يغضب الله:** وذلك من جنس الجهر بالسوء من القول، واللطم، وشق الجيوب، وحلق الشعور، والنياحة والشكوى إلى الناس والدعاء بالموت، والويل والثبور، وغير ذلك، فهذا كله يغضب الله تعالى، وينافى الصبر على المصائب والرضا بها[6].

٥ ـ **تهوين المصيبة على النفس بتذكر وفاة النبى ﷺ:** فإن وفاته وانقطاع وحى السماء من أعظم المصائب التى نزلت بالأمة، وبكل مسلم، وإذا تذكر المصاب بمصيبة ما، تلك المصيبة العظيمة بوفاة النبى ﷺ، هوّن ذلك عليه مصيبته التى نزلت به، فإن المصيبة العظيمة لا تهون إلا بالنظر إلى ما هو أعظم منها، وقد قال ﷺ: **«إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بى فإنها من أعظم المصائب»**[7].

٦ ـ **مشاهدة النعمة فى المصيبة:** فمن أدب المسلم مع المصيبة أن يشاهد فيها نعمة الله تعالى، ولئن كان قتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ عظيمًا وشرًا كبيرًا، فإنه بالنسبة له خير وإكرام، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: فلما قتل الحسين بن على رضى الله عنهما يوم عاشوراء قتلته الطائفة الظالمة الباغية وأكرم الله تعالى الحسين بالشهادة كما أكرم بها من أكرم من أهل بيته. أكرم بها حمزة وجعفر وأباه عليًا وغيرهم، وكانت شهادته مما رفع الله بها منزلته وأعلى درجته، فإنه هو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة، والمنازل العالية لا تنال

(١)، (٢) مسلم رقم ٩١٨ . (٣) صحيح الجامع رقم ٦٠٤٠ .

(٤) سنن أبى داود رقم ٥٠٩٠، صحيح الجامع رقم ٣٣٨٨ .

(٥) سنن الترمذى رقم ٣٥٢٤، صحيح الجامع . (٦) موسوعة الآداب الإسلامية (٢/ ٧٨٨) .

(٧) البيهقى فى شعب الإيمان رقم ١٠١٥٢، صحيح الجامع ٣٤٧ .

إلا بالبلاء كما قال ﷺ لما سئل: أى الناس أشد بلاء؟ فقال: «الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه، وإن كان فى دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة»[1]. فكان الحسن والحسين قد سبق لهما من الله تعالى ما سبق من المنزلة العالية، ولم يكن حصل لهما من البلاء ما حصل لسلفهما الطيب، فإنهما وُلدا فى عز الإسلام، وتربيا فى عز وكرامة، والمسلمون يعظمونهما، ويكرمونهما، ومات النبى ﷺ ولم يستكملا سن التمييز، فكانت نعمة الله عليهما أن ابتلاهما بما يُلحقهما بأهل بيتهما، كما ابتلى من كان أفضل منهما، فإن على بن أبى طالب أفضل منهما، وقد قُتل شهيدًا[2].

٧ ـ **تذكر القضاء السابق:** فإن المسلم متى ما أيقن أن هذه المصائب مكتوبة، ومقدرة، ومتى ما استحضر فى ذهنه أن كل ما قدره الله فهو لابد كائن واقع لا محيد عنه، وأن لله تعالى حكمة فى تقدير هذه المصائب، كلما تذكر هذه الأمور هانت عليه المصائب[3]، قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

٨ ـ رأى ابن تيمية وابن كثير فيما يحدثه الشيعة يوم عاشوراء:

أ ـ قال ابن تيمية: وصار الشيطان بسبب قتل الحسين رضى الله عنه يحدث للناس بدعتين: بدعة الحزن والنوح يوم عاشوراء من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثى وما يفضى إلى ذلك من سب السلف الصالح ولعنهم، وإدخال من لا ذنب له من ذوى الذنوب حتى يسب السابقون الأولون وتقرأ أخبار مصرعه التى كثير منها كذب، وقصد من سن ذلك فتح باب الفتنة والفرقة بين الأمة، فإن هذا ليس واجبًا ولا مستحبًا باتفاق المسلمين، بل إحداث الجزع والنياحة للمصائب القديمة من أعظم ما حرم الله ورسوله[4]. والذى أمر الله به ورسوله ﷺ فى المصيبة إذا كانت جديدة إنما هو الصبر والاحتساب والاسترجاع... وإذا كان الله قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان؟ فكان ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغى من اتخاذ يوم عاشور مأتمًا وما يصنعون فيه من الندب والنياحة، وإنشاد

---

(١) الترمذى رقم ٢٣٩٨، حسن صحيح.
(٢) الفتاوى (٢٥/ ١٦٢).
(٣) موسوعة الآداب الإسلامية (٢/ ٧٩٠).
(٤) منهاج السنة (٤/ ٥٥٤).

قصائد الحزن ورواية الأخبار التى فيها كذب كثير، والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلى سب السابقين الأولين، وكثرة الكذب والفتن فى الدنيا[1].

ب ـ **وأما ابن كثير فيقول:** فكل مسلم ينبغى له أن يحزنه هذا الذى وقع من قتله رضى الله عنه، فإنه من سادات المسلمين وعُلماء الصحابة، وابن بنت رسول الله ﷺ التى هى أفضل بناته، وقد كان عابدًا وشجاعًا وسخيًا، ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذى لعل أكثره تصنع ورياء، وقد كان أبوه أفضل منه وهم لا يتخذون مقتله مأتمًا كيوم مقتل الحسين، فإن أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج إلى صلاة الفجر فى السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وكذلك عثمان كان أفضل من على عند أهل السنة والجماعة، وقد قُتل وهو محصور فى داره فى أيام التشريق من شهر ذى الحجة سنة ست وثلاثين، وقد ذبح من الوريد إلى الوريد، ولم يتخذ الناس يوم مقتله مأتمًا، وكذلك عمر بن الخطاب، وهو أفضل من عثمان وعلى، قُتل وهو قائم يُصلى فى المحراب صلاة الفجر وهو يقرأ القرآن، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتمًا، وكذلك الصديق كان أفضل منه، ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتمًا، ورسول الله ﷺ سيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة، وقد قبضه الله إليه كما مات الأنبياء قبله ولم يتخذ أحد يوم موته مأتمًا يفعلون فيه ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين، ولا ذكر أحد يوم موتهم وقبلهم شىء مما ادّعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين من الأمور المتقدمة مثل كسوف الشمس والحمرة التى تطلع فى السماء وغير ذلك، وأحسن ما يقال عند ذكر هذه المصائب[2] وأمثالها ما رواه الحسين بن على عن جدّه ﷺ أنه قال: **«ما من مسلم يصاب بمصيبة فيتذكرها وإن تقادم عهدها، فيُحدثُ بها استرجاعًا إلا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أصيب بها»**[3]. يقول ابن تيمية تعليقًا على هذا الحديث: هذا حديث رواه عن الحسين ابنته فاطمة التى شهدت مصرعه، وقد علم أن المصيبة بالحسين تذكر مع تقادم العهد، فكان من محاسن الإسلام أن بلغ هو هذه السنة عن النبى ﷺ وهو أنه كلما ذكرت هذه المصيبة يسترجع لها، فيكون للإنسان من الأجر يوم أصيب بها المسلمون، وأما من فعل مع تقادم العهد بها ما نهى عنه النبى ﷺ عند حدثان العهد بالمصيبة فعقوبته أشد مثل لطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية[4].

(١) الفتاوى (٢٥/ ١٦٥، ١٦٦).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٥٧٩).
(٣) سنن ابن ماجه رقم ١٦٠٠، فى إسناده ضعف، ضعيف سنن ابن ماجه رقم ٣٤٩.
(٤) الفتاوى (٤/ ٣١٢).

٩ ـ **من يتخذ عاشوراء عيدًا** : هم من النواصب، والنواصب إحدى طوائف أهل البدع التى أصيبت فى معتقدها بعدم التوفيق للاعتقاد الصحيح فى الصحابة الكرام رضى الله عنهم، فقد زين لهم الشيطان عدم محبة أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وحملهم على التدين ببغضه وعداوته والقول فيه بما هو برىء منه، كما تعدى بغضهم إلى غيره من أهل البيت كابنه الحسين بن على رضى الله عنهما وغيره، فالنصب هو بغض على رضى الله عنه والنيل منه والانحراف عنه، وسمى من كانت هذه صفته ناصبيًا، فالنصب كالرفض لأن الرفض هو بغض أصحاب رسول الله ﷺ والنيل منهم بالشتم والسب، وكلاهما ضلال وابتعاد عن منهج الله، فى وجوب حب أصحاب رسول الله ﷺ ومعرفة سابقتهم فى الإسلام وجهادهم بأنفسهم وأموالهم مع رسول الله ﷺ[1]، فإذا كانت الشيعة اتخذت يوم عاشوراء مأتمًا وحزنًا، اتخذته طائفة أخرى عيدًا وموسمًا للفرح والسرور، وهم إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته رضى الله عنه، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار فى شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب، وتوسيع النفقات على العيال، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة ونحو ذلك مما يفعل فى الأعياد والمواسم، فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسمًا كمواسم الأعياد والأفراح مقابلة لأولئك، وهى بدعة ثانية، ومما ورد فى ذلك من أحاديث موضوعة ومكذوبة ما يلى.

أ- حديث: من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه سنته[2].

ب- ابتداع صلاة مخصوصة فى يومه وليلته: روى عن أبى هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ : من صلى لله يوم عاشوراء ما بين الظهر والعصر أربعين ركعة يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى عشر مرات وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة والمعوذتين خمس مرات فإذا سلم استغفر سبعين مرة أعطاه الله فى الفردوس قبة بيضاء[3]. وغير ذلك من البدع التى أحدثت فى ذلك اليوم والتى لا أصل لها فى دين الله عز وجل[4]. وقد سئل ابن تيمية عما يفعله الناس فى عاشوراء من الكحل والاغتسال والحناء والمصافحة وطبخ الحبوب وإظهار السرور وعزوا ذلك إلى الشارع فهل ورد عن النبى ﷺ فى

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام (٣/١١٩٣، ١١٩٤) .

(٢) الموضوعات لابن الجوزى (٢/٢٠٣) . (٣) المصدر نفسه (٢/ ١٢٢، ١٢٣) .

(٤) المدخل لابن الحاج (١/ ٢٩٠ ، ٢٩١)، الأعياد صـ٢٧٤ .

ذلك حديث صحيح أم لا؟ وإذا لم يرد حديث صحيح فى شىء من ذلك فهل يكون فعل ذلك بدعة أم لا؟ فأجاب: الحمد لله رب العالمين. . لم يرد فى شىء من ذلك حديث صحيح عن النبى ﷺ ولا عن أصحابه، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا روى أهل الكتب المعتمدة فى ذلك شيئًا لا عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين لا صحيحًا ولا ضعيفًا. ولا فى كتب الصحيح ولا فى السنن ولا فى المسانيد، ولا يعرف شىء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة، وإنما حصلت هذه البدع فى يوم عاشوراء، لأن الكوفة كان فيها طائفتان: طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت وهم فى الباطن إما ملاحدة زنادقة وإما جهال وأصحاب هوى، وطائفة ناصبة تبغض عليًا وأصحابه لما جرى من القتال فى الفتنة ما جرى[1]. فوضعت الآثار فى الاحتفال بعاشوراء لما ظهرت العصبية بين الناصبة والرافضة، فإن هؤلاء اتخذوا يوم عاشوراء مأتمًا، فوضع أولئك آثارًا تقتضى التوسع فيه واتخاذه عيدًا، وكلاهما باطل. فهؤلاء فيهم بدع وضلال وأولئك فيهم بدع وضلال[2]. فمن جعل يوم عاشوراء مأتمًا وحزنًا ونياحة، أو جعله يوم عيد وفرح وسرور فقد ابتدع فى الدين وخالف سنة سيد المرسلين[3].

١٠ ـ **هدى الرسول ﷺ فى يوم عاشوراء:** يوم عاشوراء من الأيام الفاضلة التى حث النبى ﷺ على صيامها، فجاء فى الحديث الصحيح عن أبى قتادة رضى الله عنه أنه قال: **«ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان فهذا الدهر كله، وصيام عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والتى بعده، وصيام عاشوراء احتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله»**[4]، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ما رأيت النبى ﷺ يتحرى صيام يوم فضله على غيره إلا هذا اليوم -يوم عاشوراء- وهذا الشهر -يعنى شهر رمضان-[5]، فالسنة - إذًا - فى هذا اليوم الصيام فحسب وقد صامه ﷺ وأخبر بفضل صيامه كما فى الحديث السابق وأمر بقيامه، فقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة:

أ ـ فعن ابن عمر رضى الله عنهما: أن أهل الجاهلية كانوا يصومون عاشوراء، وأن رسول الله ﷺ صامه والمسلمون قبل أن يفترض رمضان، فلما افترض رمضان. قال ﷺ: إن **«عاشوراء من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه»**[6].

---

(١) الفتاوى (٢٥/ ١٦١).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٢٢، ٦٢٣).
(٣) الأعياد وأثرها على المسلمين صـ٢٧٦.
(٤) مسلم رقم ١١٦٢.
(٥) البخارى رقم ٢٠٠٦.
(٦) مسلم رقم ١١٢٦.

ب ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «**ما هذا**»؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: «**فأنا أحق بموسى منكم**»، فصامه وأمر بصيامه. وعنه أيضًا قال: أمر رسول الله ﷺ بصوم يوم عاشوراء العاشر[1].

جـ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا يوم التاسع**». قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله ﷺ. وفى رواية: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومنّ التاسع**»[2]. وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود صوموا قبله يومًا وبعده يومًا**»[3].

ولقد ذكر العلماء أن صوم يوم عاشوراء على ثلاث مراتب:

أ ـ صوم التاسع والعاشر والحادى عشر لحديث: «**صوموا قبله يومًا وبعده يومًا**».

ب ـ صوم التاسع والعاشر لحديث: «**إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا التاسع**».

جـ ـ إفراده بالصوم -أى صوم يوم عاشوراء وحده- للأحاديث الدالة على تأكيد صومه[4].

فهذا هدى رسول الله ﷺ فى يوم عاشوراء، ومن هنا تتجلى وسطية أهل السنة والجماعة، فلا إفراط ولا تفريط، إنما هو تمسك بهدى الرسول ﷺ وامتثال لأمره رجاء لثواب الله تعالى.

ثانيًا: التحقيق فى مكان رأس الحسين رضى الله عنه:

إن سبب الاختلاف فى موضع رأس الحسين رضى الله عنه عند عامة الناس إنما هو ناتج عن تلك المشاهد المنتشرة فى ديار المسلمين، والتى أقيمت فى عصور التخلف الفكرى والعقدى، وكلها تدعى وجود رأس الحسين، ثم إن الجهل بموضع رأس الحسين جعل كل طائفة تنتصر لرأيها فى ادعاء وجود الرأس عندها، وإذا أردنا التحقيق فى مكان الرأس فإنه يلزمنا تتبع وجود الرأس منذ انتهاء معركة كربلاء[5]. لقد ثبت أن رأس الحسين حمل إلى ابن زياد فجعل الرأس فى طست وأخذ يضربه بقضيب كان فى يده، فقام إليه أنس بن

(١)، (٢) مسلم رقم ١١٣٤.
(٣) السنن الكبرى للبيهقى، ك الصيام (٤/٢٨٧).
(٤) زاد المعاد (٢/٧٦)، فتح البارى (٤/٢٤٦).
(٥) مواقف المعارضة صـ٣٠٦.

مالك رضى الله عنه وقال: لقد كان أشبههم برسول الله ﷺ[١]. ثم بعد ذلك تختلف الروايات والآراء اختلافًا بينًا بشأن رأس الحسين رضى الله عنه، ولكن بعد دراسة الروايات التى ذكرت أن ابن زياد أرسل الرأس إلى يزيد بن معاوية وجدت أن الروايات على النحو التالى: هناك روايات ذكرت أن الرأس أرسل إلى يزيد بن معاوية، وأخذ يزيد ينكت بالقضيب فى فم الحسين، الأمر الذى حدا بأبى برزة الأسلمى رضى الله عنه أن ينكر على يزيد فعلته، ولكن هذه الرواية التى ذكرت وصول الرأس وتعامل يزيد معه بهذا النحو ضعيفة[٢]. وقد استدل ابن تيمية على ضعف هذه الرواية بأن الذين حضروا نكته بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام، وإنما كانوا بالعراق[٣]، ومما يدل على فساد متن هذه الرواية أنه مخالف لتلك الروايات الصحيحة، والتى بينت حسن معاملة يزيد لآل الحسين وتألمه وبكاءه على قتل الحسين رضى الله عنه[٤]، وقد قال ابن تيمية: ورأس الحسين إنما حمل إلى ابن زياد وهو الذى ضربه بالقضيب كما ثبت فى الصحيح[٥]، وأما حمله إلى يزيد فباطل، وإسناده منقطع[٦]، وقد ذهب ابن كثير إلى ذهاب الرأس إلى يزيد فقد قال: وقد اختلف العلماء فى رأس الحسين هل سيّره ابن زياد إلى الشام أم لا؟ على قولين: الأظهر منهما أنه سيّره إليه،، فقد ورد فى ذلك آثار كثيرة والله أعلم[٧]، وهو ما ذهب إليه الذهبى[٨].

وقد ذُكر أن رأس الحسين مقبور فى ست مدن وهى:

١ ـ دمشق: ذكر البيهقى فى المحاسن والمساوئ أن يزيد أمر بغسل الرأس وجعله فى حرير وضرب عليه خيمة ووكل به خمسين رجلاً[٩]، وساق ابن عساكر بإسناده عن ريا حاضنة يزيد بن معاوية أن الرأس مكث فى خزائن السلاح حتى ولى سليمان، فبعث فجيء به فبقى عظمًا فطيبه وكفّنه، فلما وصلت المسودّة[١٠]، سألوا عن موضع الرأس ونبشوه، فالله أعلم ما صنع به[١١]، وراوية القصة (ريا) هذه ذكرها ابن عساكر ولم يذكر فيها جرحًا،

---

(١) سنن الترمذى (٥/٦٥٩)، حسن صحيح غريب .
(٢) المجمع (٩/١٩٥) فيه انقطاع .
(٣) منهاج السنة (٤/٥٥٧) .
(٤) موقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ ٣٠٨ .
(٥) منهاج السنة (٨/ ١٤١) .
(٦) المصدر نفسه (٨/١٤٢) .
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٥٨٠) .
(٨) تاريخ الإسلام صـ١٠٦ .
(٩) المحاسن والمساوئ صـ٨٤ بدون إسناد .
(١٠) المسودّة: جنود العباسيين وهو الشعار الذى رفعه العباسيون .
(١١) تاريخ ابن عساكر، تراجم النساء، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٣١١ .

ولا تعديلاً وتكون بذلك مجهولة[١]، وبذلك تكون رواية ساقطة لا يعتمد عليها بأى حال من الأحوال[٢]، وقد أورد الذهبى بإسناده عن أبى كريب قال: كنت فيمن توثب على الوليد بن يزيد بدمشق، فأخذت سفطًا وقلت: فيه غنائى، فركبت فرسى، وخرجت من باب توما، قال: ففتحته، فإذا فيه رأس مكتوب عليه: هذا رأس الحسين بن على، فحفرت فيه بسيفى فدفنته[٣]. وهى رواية ضعيفة جدًا[٤]. ومن ناحية أخرى ما الفائدة ليزيد فى احتفاظه برأس الحسين وجعله فى خزائن سلاحه؟![٥].

٢ ـ كربلاء: لم يقل أحد بأن الرأس فى كربلاء إلا الشيعة الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرأس أعيد إلى كربلاء بعد أربعين يومًا من القتل، ودفن بجانب جسد الحسين[٦] رضى الله عنه، وهو يوم معروف عندهم يسمون فيه زيارة الأربعين، ويكفى أن هذا القول إنما تفرد به الشيعة الإمامية وهم ليس عندهم فى ذلك أى دليل ولكن أقاويل عارية من الحجة والبرهان، وقد أنكر أبو نعيم الفضل بن دكين على من زعم أنه يعرف قبر الحسين رضى الله عنه[٧]، وقد ذكر ابن جرير وغيره أن موضع قتله عفى أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه[٨].

٣ ـ الرقة: لقد انفرد سبط بن الجوزى بإيراد خبر يذكر أن الرأس قبر بالرقة وقال: إن الرأس بمسجد الرقة على الفرات، وأنه جىء به بين يدى يزيد بن معاوية فقال: لأبعثن إلى آل أبى معيط رأس عثمان وكانوا بالرقة، فدفنوه فى بعض دورهم، ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع، وهو إلى جانب سور هناك[٩]. وهذا خبر مستبعد؛ فالرواية ليست مسندة ثم إن الخبر فيه نكارة واضحة لمخالفته النصوص الصحيحة، والتى ثبت فيها حسن معاملة يزيد لأسرة الحسين وتحسّره وندمه على قتله[١٠]، ثم إن سبط بن الجوزى هذا قال عنه الذهبى: ورأيت له مصنفًا يدل على تشيعه[١١].

٤ ـ عسقلان: لقد أنكر جمع من المحققين الخبر القائل بأن رأس الحسين دفن فى عسقلان؛ قال القرطبى: وما ذكر أنه فى عسقلان فشىء باطل[١٢]، وأنكر ابن تيمية وجود الرأس بعسقلان[١٣]، وتابعه على ذلك ابن كثير[١٤].

(١)، (٢) مواقف المعارضة صـ٣١٣ .
(٣) السير (٣/٣١٦)، سمط النجوم العوالى (٣/٨٦) .
(٤)، (٥) مواقف المعارضة صـ٣١٣ .
(٦) المصدر نفسه صـ٣١٣، نور الأبصار صـ١٢١ .
(٧) تاريخ بغداد (١/١٤٣،١٤٤) ترجمة الحسين ٢٧٦ .
(٨) البداية والنهاية (١١/ ٥٨٠) .
(٩) شخصيات إسلامية (٣/٢٩٨) للعقاد، مواقف المعارضة صـ٣١٤ .
(١٠) مواقف المعارضة صـ٣١٤ .
(١١) السير (٢٣/٢٩٧) .
(١٢) التذكرة (٢/ ٢٩٥) .
(١٣) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية صـ٢٦٤ .
(١٤) البداية والنهاية (١١/ ٥٨٢) .

٥ ـ **القاهرة:** يبدو أن اللعبة التى قام بها العبيديون (الفاطميون) قد انطلت على الكثير من الناس، فبعد أن عزم الصليبيون الاستيلاء على عسقلان سنة تسع وأربعين وخمسمائة خرج الوزير الفاطمى صالح طلائع بن رزيك هو وعسكره حفاة إلى الصالحية، فتلقى الرأس ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب، ودفن فى المشهد الحسينى قريبًا من خان الخليلى فى القبر المعروف. وكان ذلك فى يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[١]، وقد ذكر الفارقى أن الخليفة الفاطمى نفسه قد خرج وحمل الرأس[٢]، وذكر الشبلنجى أن الوزير الصالح طلائع افتدى الرأس من الإفرنج ونجح فى ذلك بعد تغلبهم عسقلان وافتداه بمال جزيل[٣]، ولقد حاول بعض المؤرخين أن يؤكدوا أن الرأس قد نقل فعلاً من عسقلان إلى مصر، وأن المشهد الحسينى فى مصر إنما هو حقيقة مبنى على رأس الحسين رضى الله عنه[٤]، وقد أثبت أحد المتأخرين - وهو حسين محمد يوسف -بأن الرأس الموجود فى المشهد الحسينى هو حقيقة رأس الحسين وخطأً من يقول بغير ذلك، وكان الاستدلال الذى جاء به هى تلك المنامات والكشوفات التى تجلت لبعض الصوفية والتى جاء فيها أن الرأس هو فى الحقيقة رأس الحسين ثم أورد تأييدًا لهذا القول، باستحداث قاعدة قال فيها: إن الرأس يوجد فى القاهرة وذلك بسبب الشك الذى تعارض مع اليقين، واليقين هم أصحاب الكشف[٥]. وهذا الاستدلال لا يخضع لعقل أو منطق أو حجة علمية، أو برهان علمى ـ فضلاً عن قواعد المنهج الإسلامى فى الاستدلال - إن الاستدلال على وجود رأس الحسين فى القاهرة كان مبنيًا على استناده بأن الرأس كان فى عسقلان، وقد أثبتنا قبل قليل بطلان وجود الرأس بعسقلان، وبالتالى يكون الرأس الذى حمل إلى القاهرة، والمشهد المعروف اليوم والمقام عليه والمسمى بالمشهد الحسينى هو كذب، وليس له علاقة برأس الحسين رضى الله عنه، وإذا ثبت أن الرأس الذى كان مدفونًا بعسقلان ليس فى الحقيقة برأس الحسين، فإذًا متى ادّعى أن رأس الحسين بعسقلان وإلى من يعود ذلك الرأس؟ يقول النويرى: إن رجلاً رأى فى منامه وهو بعسقلان أن رأس الحسين فى مكان بها، عيّن له فى منامه، فنبش ذلك الموضع، وذلك فى أيام المستنصر بالله العبيدى صاحب مصر، ووزارة بدر الجمالى، فابتنى له بدر الجمالى مشهدًا بعسقلان[٦]، وقام الأفضل بعد ذلك

(١) المقريزى (١/٤٢٧)، بدائع الزهور (١/٢٢٧) . (٢) تاريخ ميارفين صـ٧٠ .
(٣) نور البصائر صـ١٢١، مشاهد الصفا صـ٣١٦، مواقف المعارضة صـ٣١٦ .
(٤) مواقف المعارضة صـ٣١٧ (٥) الحسين سيد شباب أهل الجنة صـ ١٤٩ - ١٥٣ .
(٦) نهاية الأرب (٢٠/٤٧٨) .

بإخراجه وعطّره ووضعه فى مكان آخر من عسقلان وابتنى عليه مشهدًا كبيرًا[١]، ولعلك تعجب من إسراع العبيديين لإقامة المشهد على هذا الرأس، لمجرد رؤيا رجل فقط؟ ولكن إذا عرفت تاريخ العبيديين فإن الأمر لا يستغرب لهذا الحد، فإحساسهم بأن الناس لا يصدقون نسبتهم إلى الحسين، جعلهم يلجأون إلى تغطية هذا الجانب، باستحداث وجود رأس الحسين بعسقلان، ويظهرون من الاهتمام به وبناء المشهد عليه والإنفاق على ترميمه وتحسينه من الأموال الشىء الكثير حتى يصدقهم الناس، ويقولوا: إنه لو لم يكن لهم نسب فيه لما اهتموا به إلى هذا الحد؟ ثم إن هناك بعدًا سياسيًا آخر باستحداث وادعاء وجود رأس الحسين بعسقلان دون غيرها من المناطق التى تقع تحت سيطرتهم وهو محاولة مجابهة الدويلات السنية التى قامت فى بلاد الشام، ومن المعروف أن حكومة المنتصر بالله العبيدى قد صادفت قيام دولة السلاجقة السنية التى تمكن قائدها طغرلبك السلجوقى من دخول بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة[٢]. ومما يدل على أن استحداث وجود رأس الحسين بعسقلان ونقله إلى مصر ما هو إلا خطة عبيدية، أنه لم يرد أن رأس الحسين وجد فى عسقلان فى أى كتاب قبل ولاية المنتصر الفاطمى. وهذا مما يعزز كذب العبيديين وتحقيق أغراض خاصة لهم بذلك[٣]، وقد ذكر ابن تيمية أن هذا الرأس المزعوم بأنه رأس الحسين ليس فى الأصل سوى رأس راهب[٤]. وقد نقل ابن دحية فى كتابه (العلم المشهور) الإجماع على كذب وجود الرأس بعسقلان أو بمصر، ونقل الإجماع أيضًا على كذب المشهد الحسينى الموجود فى القاهرة، وذكر أنه من وضع العبيديين، ولأنه لأغراض فاسدة وضعوا ذلك المشهد، وقد أزال الله تلك الدولة وعاقبها بنقيض قصدها[٥]. وقد أنكر وجود الرأس فى مصر كل من: ابن دقيق العيد، وأبو محمد بن خلف الدمياطى، وأبو محمد بن القسطلانى، وأبو عبد الله القرطبى وغيرهم[٦]. وقال ابن كثير: وادعت الطائفة المسماة بالفاطميين الذين ملكوا مصر قبل سنة أربعمائة إلى سنة ستين وخمسمائة أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور بمصر، الذى يقال له تاج الحسين، بعد سنة خمسمائة، وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على أنه لا أصل لذلك وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما ادعوه من النسب الشريف، وهم فى ذلك كذبة خونة، وقد نص على ذلك القاضى الباقلانى وغير واحد من أئمة العلماء فى دولتهم،

(١) اتعاظ الحنفا (٣/ ٢٢) للمقريزى .

(٢) النجوم الزاهرة (٥/ ٥٧)

(٣) مواقف المعارضة صـ٣١٩ .

(٤) رأس الحسين صـ١٨٧ ، نقلاً عن مواقف المعارضة ص٣٢٠.

(٥) رأس الحسين صـ١٨٦ ، مواقف المعارضة صـ٣٢٠ .

(٦) رأس الحسين صـ١٨٦، ١٨٧ .

قلت: والناس أكثرهم يروّج عليهم مثل هذا، فإنهم جاءوا برأس فوضعوه فى مكان هذا المسجد المذكور، وقالوا: هذا رأس الحسين، فراج ذلك عليهم واعتقدوا ذلك، والله أعلم[1].

٦ ـ المدينة النبوية: إن المدن التى مرّ ذكرها لم يثبت لدينا أدنى دليل على وجود الرأس بها، ولم يبق أمامنا سوى المدينة، فقد ذكر ابن سعد بإسناد جمعى: أن يزيد بعث بالرأس إلى عمرو بن سعيد والى المدينة، فكفنه ودفنه بالبقيع حيث قبر أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ[2]، وقال ابن تيمية: ثم إن دفنه بالبقيع هو الذى تشهد له عادة القوم، فإنهم كانوا فى الفتن، إذا قتل الرجل منهم ـ لم يكن منهم ـ سلموا رأسه وبدنه إلى أهله، كما فعل الحجاج بابن الزبير لما قتله وصلبه، ثم سلموه إلى أهله، وقد علم أن سعى الحجاج فى قتل ابن الزبير، وأن ما كان بينهما من الحروب أعظم بكثير مما كان بين الحسين وخصومه[3].

كما أننا لا نجد انتقادًا واحدًا انتقد فيه يزيد سواءً من آل البيت أو من الصحابة أو من التابعين فيما يتعلق بتعامله مع الرأس، فظنى أن يزيد لو أنه تعامل مع الرأس كما تزعم بعض الروايات من الطوفان به بين المدن والتشهير برأسه، لتصرف الصحابة والتابعون تصرفًا آخر على أثر هذا الفعل، ولما رفض كبارهم الخروج عليه يوم الحرة ولرأيناهم ينضمون مع ابن الزبير المعارض الرئيسى ليزيد[4]، ويؤيد هذا الرأى قول الحافظ أبى يعلى الهمدانى: إن الرأس قبر عند أمه فاطمة رضى الله عنهما وهو أصح ما قيل فى ذلك[5]، وهو ما ذهب إليه علماء النسب مثل الزبير بن بكار ومحمد بن الحسن المخزومى[6]، وذكر ابن أبى المعالى أسعد بن عمار فى كتابه (الفاصل بين الصدق والمَيْن، فى مقر رأس الحسين) أن جمعًا من العلماء الثقات كابن أبى الدنيا وأبى المؤيد الخوارزمى، وأبى الفرج بن الجوزى قد أكدوا أن الرأس مقبور فى البقيع بالمدينة[7]، وتابعهم على ذلك القرطبى[8]، وقال الزرقانى: قال ابن دحية: ولا يصح غيره[9]، وابن تيمية يميل إلى أن الرأس قد بعث به يزيد إلى واليه على المدينة عمر بن سعيد وطلب منه أن يقبره بجانب أمه فاطمة رضى الله

(١) البداية والنهاية (١١/ ٥٨٢) .

(٢) الطبقات (٥/ ٢٣٨)، تاريخ الإسلام صـ٢٠ حوادث (٦٠ ـ ٨١هـ) .

(٣) رأس الحسين صـ١٨٣ .

(٤) مواقف المعارضة صـ٣٢٣ .

(٥) التذكرة (٢/ ٢٩٥) .

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٢٩٥) .

(٧) الرد على المتعصب العنيد، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٣٢٣ .

(٨) التذكرة (٢/ ٢٩٥)، مواقف المعارضة صـ٣٢٤ .

(٩) مشاهد الصفا -ورقة ١٠، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٣٢٤ .

عنها والذى جعل ابن تيمية يرى ذلك هو أن الذى ذكر أن الرأس نقل إلى المدينة هم من العلماء والمؤرخين الذين يعتمد عليهم مثل الزبير بن بكار، صاحب كتاب الأنساب، ومحمد بن سعد كاتب الواقدى صاحب الطبقات ونحوهما من المعروفين بالعلم والثقة والاطلاع، وهم أعلم بهذا الباب، وأصدق -فيما ينقلونه- من المجاهيل والكذابين، وبعض أهل التاريخ، الذين لا يوثق بعلمهم، وقد يكون الرجل صادقًا، ولكن لا خبرة له بالأسانيد، حتى يميز بين المقبول والمردود أو يكون سيئ الحفظ أو متهمًا بالكذب أو بالتزوير في الرواية، كحال كثير من الأخباريين والمؤرخين[١].

وقال أبو عمر عبد الله بن محمد الحمادى: وهكذا اختلفوا فى موقع رأس الحسين على ثلاثة أماكن وكل واحد منهم يريد أن يكون الرأس عنده حتى تكثر الزيارات فيكثر رمى الأموال على القبر ليتقاسمه السدنة، وحرّاس القبور، وبهذا الاختلاف جعلوا للحسين ثلاثة رءوس، ومعلوم يقينًا أنه كان رضى الله عنه له رأس واحد[٢]. ومن خلال البحث، فإنه يتضح أن جسد الحسين رضى الله عنه بكربلاء وأما رأسه فبالبقيع فى المدينة، والله أعلم.

ثالثًا : تقديس أضرحة الأئمة وزيارة قبر الحسين رضى الله عنه عند الشيعة:

بالغ الشيعة فى تعظيم مراقد الأئمة ومنحوها من القداسة والشرف ما لم تحظ به الكعبة المشرفة والمدينة المنورة، فقد نسبوا زورًا وبهتانًا إلى على بن الحسين أنه قال: اتخذ الله أرض كربلاء حرمًا آمنًا مباركًا قبل أن يخلق الله أرض الكعبة ويتخذها حرمًا بأربعة وعشرين ألف عام، وقدسها وبارك عليها، فما زالت قبل خلق الله الخلق مقدسة مباركة ولاتزال كذلك حتى يجعلها الله أفضل أرض الجنة وأفضل منزل ومسكن يسكن فيه أولياؤه فى الجنة[٣].
كما نسبوا إلى جعفر الصادق -وهو برىء مما نسبوا إليه-: أن أرض الكعبة قالت: من مثلى وقد بُنى بيت الله على ظهرى يأتينى الناس من كل فج عميق وجعلت حرم الله وأمنه؟ فأوحى الله إليها: أن كفّى وقرّى ما فضل ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غرست فى البحر فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك، ولولا ما تضمنه أرض كربلاء ما خلقتك ولا خلقت البيت الذى به افتخرت، فقرى واستقرى وكونى ذنبًا متواضعًا ذليلاً مهينًا غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلا سخت بك وهويت بك فى نار جهنم[٤]. وهذه البقعة بالطبع لم تنل ما نالت إلا بكونها -فى معتقدهم- مدفن

(١) رأس الحسين صـ١٧٠ .
(٢) شرح الصدور ببيان بدع الجنائز والقبور صـ١٢٧ .
(٣) بحار الأنوار (١٠١/١٠٧).
(٤) كامل الزيارات صـ(٢٧٠)، بحار الأنوار (١٠١/١٠٩)، أصول مذهب الشيعة (٢/ ٤٦٤) .

الحسين رضى الله عنه. وقد جرت على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب من بعد الواقعة وإلى يومنا هذا المقارنة بينها وبين الكعبة، وتفننوا بمختلف أساليب النثر والنظم فى كقولهم: «إثبات فضلها وقداستها وشرفها واستطالة أرضها على جميع الأقطار بالفضل والشرف، وهذه الأرض المباركة لم تنل هذا الشرف العظيم فى الإسلام إلا بالحسين رضى الله عنه كما نص عليه الحديث: وزادها فى تواضعها وشكرها لله بالحسين (ع) وأصحابه»[1]، وبناء على غلوهم واعتقادهم فى الأئمة - وقد مرّ بيان معتقدهم فى ذلك فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه - ولأجل ربط الناس بأضرحتهم ومشاهدهم، وضعوا الفضائل الكبيرة والأجور الكثيرة لمن زار تلك المشاهد، ومع الكثرة الكاثرة من النصوص فى هذا الجانب والتى تتفاوت فيها الأجور والمقارنة بين زيارة كربلاء والحج والعمرة لبيت الله الحرام، فإننى[2] سأقتصر على نصين فقط لاحتوائهما على معظم تلك النصوص وتصوير مدى الكذب والافتراء عند القوم واستخفافهم بعقول أتباعهم وجرأتهم على الله عز وجل فيما نسبوه إلى أبى عبد الله جعفر الصادق أنه قال: لو يعلم الناس ما فى زيارة الحسين عليه السلام من الفضل لماتوا شوقًا وانقطعت أنفسهم عليه حسرات، قلت: وما فيه؟ قال: من زاره تشوقًا إليه كتب الله له ألف حجة متقبلة وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة، وثواب ألف نسخة أريد بها وجه الله، ولم يزل محفوظًا سنته من كل آفة أهونها الشيطان، ووكل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وفوق رأسه وتحت قدمه، فإن مات من سنته حضرته ملائكة الرحمن يحضرون غسله وأكفانه والاستغفار له، ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار، ويفسح له فى قبره مد بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر ومن منكر ونكير يروعانه، ويفتح له باب إلى الجنة ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى له يوم القيامة نور يضيء لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادى مناد: هذا من زوار الحسين شوقًا إليه، فلا يبقى أحد يوم القيامة إلا تمنى يومئذ أنه كان من زوار الحسين عليه السلام[3]. وقد سوّغ هذه المبالغات أحد أئمتهم بذكر فضائلهم وما أعطوا من صفات فوق مستوى البشر فقال: إن هذا ليس بكثير على من جعله الله إمامًا للمؤمنين، وله خلق السماوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيله وعينه ودليله وبابه الذى يؤتى منه، وجعله المتصل بينه وبين عباده من رسل وأنبياء وحجج وأولياء، هذا مع أن مقابرهم رضى الله عنهم فيها أيضًا إنفاق أموال، ورجاء آمال، وأشخاص أبدان،

(١) أصول مذهب الشيعة (٢/ ٤٦٤). (٢) تاريخ كربلاء صـ١٠٢، القبورية فى اليمن صـ١٥٥.

(٣) وسائل الشيعة (١/ ٣٥٣)، بواسطة أصول مذهب الشيعة (٢/ ٤٥٦).

وهجران أوطان، وتحمل مشاق، وتجديد ميثاق، وشهود شعائر وحضور مشاعر[١]. ومبالغة في تقديس تلك القبور جعلوا لها مناسك خاصة بها، وهذه المناسك ليست خاصة بقبر الحسين فقط، بل إنها عامة بجميع مشاهد أئمتهم[٢]، وقد قال آغا بزرك الطهراني أحد شيوخ الشيعة: إن ما صنفه شيوخهم في المزار، ومناسكه قد بلغ ستين كتابًا[٣]، وإليك منسكًا من تلك المناسك التي يؤدونها عند المشاهد باختصار: قال الصادق عليه السلام: إذا أردت المسير إلى قبر الحسين عليه السلام فصُم يوم الأربعاء والخميس والجمعة، فإذا أردت الخروج فاجمع أهلك وولدك وادع بدعاء السفر، واغتسل قبل خروجك، وقل حين تغتسل كذا، وكذا، فإذا خرجت فقل كذا وكذا، ولا تدّهن ولا تكتحل حتى تأتي الفرات، وأقلّ من الكلام والمزاح، وأكثر من ذكر الله تعالى، وإياك والمزاح والخصومة، فإذا كنت راكبًا أو ماشيًا.. فإذا خفت شيئًا فقل.. فإذا أتيت الفرات فقل قبل أن تعبره... ثم اعبر الفرات.. ثم تفصيل إلى أن يقول: واصنع هذه المناسك:.. ثم ضع خدك على القبر (قبر علي بن الحسين) وقل:.. ثم تدور من خلف الحسين عليه السلام إلى عند رأسه وصلّ عند رأسه ركعتين.. ثم تنكب على القبر وتقول.. ثم تخرج من السقيفة وتقف بحذاء قبور الشهداء وتومئ إليهم أجمعين[٤]، إلى غير ذلك من تفاصيل لبعض ما يفعلون عند المشاهد من طواف بها واستقبال لها حال الصلاة وغير ذلك آثرت تركها اختصارًا[٥]، وانظر بعضها في أصول مذهب الشيعة[٦]، كما أن الشيعة تعتقد أن بناء الأضرحة والقباب على مراقد الأنبياء والأئمة والشخصيات الإسلامية من أفضل المقربات لله سبحانه وتعالى، وإليك الرد على كل من:

١ ـ قدسية كربلاء: لا يوجد نص في كتاب الله ولا صح شيء عن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين أو علماء الأمة في خير القرون يدل على قدسية كربلاء أو الفضائل المزعومة لها وغيرها كالنجف وما يسمى بالعتبات المقدسة، وأما الذي جاء في كتاب الله وسنة رسوله من قدسية وفضائل فهي: المسجد الحرام، والمشاعر المقدسة داخل المسجد الحرام وخارجه، كالكعبة، ومقام إبراهيم، وبئر زمزم، والصفا والمروة، ومنى، ورحاب

(١) قائل ذلك الفيض الكاشاني (٢/ ٢٥٤)، القبورية في اليمن صـ١٥٦ . (٢) القبورية في اليمن صـ١٥٧ .
(٣) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، نقلاً عن أصول الشيعة (٢/ ٤٦٧) .
(٤) تاريخ كربلاء صـ١٢٩ ـ ١٣١، القبورية في اليمن صـ ١٥٨ .
(٥) القبورية في اليمن صـ ١٥٨ .
(٦) أصول مذهب الشيعة (٢/ ٤٦٧-٤٧٧).

عرفات، ورحاب مزدلفة والمسجد النبوى وفضل الصلاة فيه، وفضل ما بين بيت الرسول ومنبره، وجواز شد الرحال إليه، وإلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وفضائل المدينة، وفضائل مسجد قباء، ودعاء النبى ﷺ بالبركة للمدينة، ووجود البركة فى صاع أهل المدينة والبقاء بها، وتحريم الرسول ﷺ المدينة وتحريم صيدها وشجرها، وفضل وادى العقيق وبركته وفضائل المسجد الأقصى وبركاته، وفضل الصلاة فيه، وجواز شد الرحال إليه، ووجود البركة حوله، وأنه ثانى مسجد وضع فى الأرض بعد المسجد الحرام، والإسراء بالرسول ﷺ إليه.. وجاءت الآيات والأحاديث فى فضل سائر المساجد وبيوت الله عز وجل، فبين رسول الله ﷺ كون المساجد بيوت الله فى الأرض، وفضل السعى إلى المساجد وملازمتها وفضل بنائها[1].. إلخ.. أما ما نسب إلى رسول الله ﷺ فى قدسية كربلاء وفضائلها فإنه لا يصح فى ذلك، وهذا يجرى حكمه على البلاد والمقابر والقبور والأضرحة مما يزعم الشيعة أو جهّال السنة.

٢ ـ هدى الإسلام فى زيارة القبور: كما هو فى سائر شرائع الإسلام أنها تكون فى غاية من الاعتدال والسماحة، وصادرة عن حكمة بالغة تضمن لمن عمل بها على بصيرة الفوز، والنجاح، والسعادة، دون أن يتعرض بسببها لأى نوع من أنواع الضلال والشقاء فى الدنيا والآخرة، كذلك كانت شرعية زيارة القبور فى الإسلام حينما كان الناس حدثاء عهد بالكفر والشرك وعبادة غير الله فنهاهم الرسول ﷺ عن الزيارة حتى يكون هناك برزخ فاصل بين العهدين: عهد الشرك وعهد التوحيد؛ وعهد الجاهلية، وعهد الإسلام حتى يذهب ما فى النفوس من الالتفات إلى الأرض وما عليها مما يقدِّسه الناس، وعهد السموّ الروحى والصفاء القلبى والذهنى الذى لا يبقى معه التفات إلى غير الله عز وجل[2]، وفعلاً، حينما حصل ذلك، خاطب النبى ﷺ أمته قائلاً: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[3] فإنها تذكر الموت»**. وفى رواية: **«فإن فى زيارتها تذكرة»**، وفى أخرى: **«فإنها تذكر الآخرة»**[4]، وفى ثالثة: **«فزوروها ولتزدكم زيارتها خيراً»**[5]، وفى رواية رابعة: **«فإن فيها عبرة»**[6]، ومن حديث أنس رضى الله عنه: ثم بدا لى أنها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكر الموت، والدار الآخرة، وتزهِّد فى الدنيا، وينبغى أن يحرص الزائر أن تزيده زيارته للمقابر خيراً، وهذا

(١) من قتل الحسين؟ صـ١١٣ .
(٢) القبورية فى اليمن صـ٧٣ .
(٣) مسلم، ك الجنائز، شرح النووى على صحيح مسلم (٤٦/٧) .
(٤) المصدر نفسه (٤٦/٧) .
(٥) سنن الترمذى (٣٦١/٣)، صححه الألبانى فى صحيحه (٣٠٧/١) .
(٦) مسند أحمد (٢٤٩/١٧)، حديث صحيح . مؤسسة الرسالة .

كله فيما يخص الزائر[1]، وأما الأموات فإن لهم فيها نصيبًا أيضًا فعن عائشة رضى الله عنها أنه كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غدًا مؤجَّلون وإنا إن شاء الله بكم للاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد**»[2]. ففى هذه الأحاديث بيان أن من مقاصد الزيارة وعللها السلام على الأموات والدعاء والاستغفار لهم، قال الإمام الصنعانى - فى سبل السلام - بعد ما شرح أحاديث الإذن بالزيارة: والكل دالّ على مشروعية زيارة القبور وبيان الحكمة فيها وأنها للاعتبار.. فإذا خلت من هذه لم تكن مرادة شرعًا[3]. فهذه هى زيارة القبور فى هدى الإسلام كما علمهم إيّاها رسول الله ﷺ، فمن أتى بها على هذا الوجه ولهذه الغاية ظفر بالأجر والفائدة المترتبة عليها، ومن زارها لغير ذلك فهى ردٌّ عليه. ثم إنها إما أن تكون بدعية وإما أن تكون شركية، بحسب ما يحصل فيها من أعمال ويقارنها من اعتقاد، وقصد ذلك هو هدى الإسلام فى زيارة القبور، وتلك هى أهداف وغايات الزيارة واضحة ناصعة بعيدة عن كل ذريعة تؤدى إلى الشرك بأربابها والغلوّ فى أصحابها، وقد جاءت بعض القيود التى تسد الثغرات الموصلة إلى ذلك[4]:

القيد الأول: ألا تتخذ أعيادًا، قال ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبرى عيدًا، وصلوا علىّ، فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم**»[5]. فليس من هدى الإسلام تعيين يوم معين من سنة أو شهر، أو أسبوع يخصص لزيارة القبور كما هو شأن بعض الناس[6].

القيد الثانى: ألا تُشَدّ إليها الرحال، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجدى**»[7]. فهذا النهى عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة مقصود به أن يشد رحله مسافرًا إلى مكان بعينه لعبادة الله تعالى فيه[8]، ولم يثبت أن أحدًا من الصحابة أو التابعين، أو علماء أتباع التابعين سافر إلى قبر، أو مشهد لمجرد الزيارة، ولم يصرح أحد منهم باستحباب ذلك العمل[9]، وقال العلامة صديق حسن خان فى كتابه «السراج الوهاج

(١) القبورية فى اليمن صـ٧٤.
(٢) مسلم مع شرح النووى (٧/ ٤٠، ٤١) ك الجنائز.
(٣) سبل السلام شرح بلوغ المرام (٢/ ٢٣٠، ٢٣١).
(٤) القبورية فى اليمن صـ٧٥.
(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٣٦١) رقم ٤٦٩، صحيح بشواهده وطرقه حسنة.
(٦) القبورية فى اليمن صـ٧٥.
(٧) مسلم مع شرح النووى (٩/ ١٠٤ - ١٠٦).
(٨) القبورية فى اليمن صـ٧٦.
(٩) المصدر نفسه صـ٧٧.

من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج» وبعد إيراد مختلف الأقوال ومناقشتها قال: وأما السفر لغير زيارة القبور كما تقدم نظائره، فقد ثبت بأدلة صحيحة، ووقع في عصره ﷺ وقرره النبي ﷺ، فلا سبيل إلى المنع منه والنهي عنه، بخلاف السفر إلى زيارة القبور، فإنه لم يقع في زمنه ولم يقر أحدًا من أصحابه، ولم يشر في حديث واحد إلى فعله واختياره، ولم يشرعه لأحد من أمته لا قولا ولا فعلاً[1].

٣ ـ **البناء على القبور واتخاذها مساجد:** نهى رسول الله ﷺ أمته عن البناء على القبور وتعظيمها بأي نوع من أنواع التعظيم، وأخبر ﷺ أنه لا يفعل ذلك إلا شرار الخلق عند الله تعالى، فعن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول: . . . **«ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»**[2]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه ويبنى عليه[3]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ **يقول: «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد»**[4]. ففي هذه الأحاديث التي مرت النهي الصريح عن أي نوع من أنواع التعظيم للقبور، ومن ذلك النهي عن اتخاذها مساجد، والنهي عن مجرد البناء عليها، وعن تجصيصها، والكتابة عليها، وقد توجه النهي أول ما توجه إلى قبور الأنبياء والصالحين، لماذا؟ لأنها هي التي يخشى الغلو في أربابها عكس قبور سائر الناس، والفتنة لها أعظم من غيرها. وهذا هو الواقع المشاهد، فإنه ما من مشهد إلا ويزعم أنه بني علي ولي صالح، ذي مناقب وكرامات عظيمة يرجى نفعه ويخاف انتقامه، أو يزعم أنه على نبي من أنبياء الله كما ظهر ذلك تخمينًا في أماكن كثيرة من بلاد الله، ولكثير من الأنبياء، مع تصريح العلماء أنه لا يُعلم على التحقيق واليقين إلا قبر نبينا محمد ﷺ، وزاد بعضهم قبر الخليل عليه السلام في الموضع المشهور باسمه في فلسطين[5]. وقد قال النووي في تعليقه على حديث رسول الله السابق: قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره مسجدًا خوفًا من المبالغة في تعظيمه، والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت

(١) السراج الوهاج (٥/ ١١٦) القبورية في اليمن صـ٧٧ .
(٢) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٣) .
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٣٧) .
(٤) المصدر نفسه (٧/ ٣٧) .
(٥) الفتاوى (٢٧/ ١٤٠) .

أمهات المؤمنين فيه ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها، مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، بنوا على القبر حيطانًا مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد، فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قال فى الحديث. ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجدًا. والله أعلم بالصواب[1]، وقد أمر رسول الله ﷺ بتسوية القبور المشرفة مع قرن ذلك بطمس التماثيل، فعن أبى الهيّاج الأسدى ـ رحمه الله ـ قال: قال لى على بن أبى طالب: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سوّيته[2]. فهذا أمير المؤمنين على رضى الله عنه يبعث رئيس شرطته أبا الهياج الأسدى لطمس القبور كما بعثه رسول الله ﷺ، أى أنه يطبق ما عرفه وفهمه من أمر رسول الله ﷺ بذلك[3]. وقد صرّح العلماء بخلوّ القرون المفضلة من وجود المشاهد، قال ابن تيمية وهو يتكلم عن مشهد رأس الحسين رضى الله عنه: . . . دع خلافة بنى العباس فى أوائلها وفى حال استقامتها فإنهم حينئذ فى قوتهم وعنفوانهم، ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء فى بلاد الإسلام لا فى الحجاز ولا اليمن ولا الشام والعراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب، ولم يكن قد أحدث مشهد لا على قبر نبى ولا صاحب ولا من أهل البيت وصالح أصلاً، بل عامة هذه المشاهد محدثة بعد ذلك، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بنى العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة والملبسون على المسلمين، وفشت فيهم كلمة أهل البدع وذلك فى دولة المقتدر فى أواخر المائة الثالثة، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر، وقريبًا من ذلك ظهر بنو بويه فى كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفى دولتهم قوى بنو القداح بأرض مصر، وفى دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى على رضى الله عنه بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول إن قبر على هناك، وإنما دفن على رضى الله عنه بقصر الإمارة بالكوفة، وإنما ذكروا أن بعضهم حكى عن الرشيد أنه جاء إلى بقعة هناك وجعل يعتذر إلى المدفون فيها، فقالوا إنه على وإنه اعتذر إليه مما فعل بولده، فقالوا: هذا قبر على، وقد قال قوم: إنه قبر المغيرة بن شعبة[4]. . ويقول الذهبى فى ترجمة عضد الدولة البويهى: وكان شيعيًا جلدًا أظهر بالنجف قبرًا زعم أنه قبر الإمام على وبنى عليه المشهد، وأقام شعار الرفض ومأتم عاشوراء

(١) شرح النووى على مسلم (٥/ ١٢، ١٣) .
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٣٦) .
(٣) القبورية فى اليمن صـ٥٤ .
(٤) الفتاوى (٢٧/ ٢٤٥) .

والاعتزال، ثم قال: وبه ختم ترجمة عضد الدولة، قلت: فنحمد الله على العافية؛ فلقد جرى على الإسلام فى المائة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق، وبالأعراب القرامطة فالأمر لله تعالى[1]. وقال ابن كثير فى حوادث سنة ٣٤٧هـ: وقد امتلأت البلاد رفضًا وسبًا للصحابة من بنى بويه وبنى حمدان والفاطميين، وكل ملوك البلاد -مصرًا وشامًا وعراقًا وخراسان وغير ذلك من البلاد كانوا رفضًا- وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، وكثر السب والتكفير منهم للصحابة[2]. ويؤيده كذلك ما ذكره السمهودى ـ رحمه الله ـ فى كتابه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى»، وهو يتحدث عن قبر فاطمة رضى الله عنها قال: وإنما أوجب عدم العلم بعين قبر فاطمة رضى الله عنها وغيرها من السلف ما كانوا عليه من عدم البناء على القبور وتجصيصها[3]. وقال الشافعى ـ رحمه الله ـ: ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة، قال الراوى عن طاووس: إن رسول الله ﷺ نهى أن تبنى القبور أو تجصص، قال الشافعى: وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما يبنى فيها فلم أرَ الفقهاء يعيبون ذلك[4].

إن الحقيقة التاريخية تقول إن القرون الثلاثة المفضلة مضت وليس هناك قبور معظمة ولا مشاهد أو قباب ولا غيرها من مظاهر القبورية، ولا شيء من طقوس ومراسيم العبادات القبورية، وما حاول فعله الشيعة من ذلك فقد جُوبه بردع قوى من خلفاء المسلمين وأمرائهم، كأبى جعفر المنصور العباسى، وهارون الرشيد[5].

رابعًا: خروج الحسين رضى الله عنه فى الميزان الشرعى:

إن عدم التمعن فى معارضة الحسين ليزيد، وعدم التأمل فى دراسة الروايات التاريخية الخاصة بهذه الحادثة، قد جعل البعض يجنح إلى اعتبار الحسين خارجًا على الإمام، وأن ما أصابه كان جزاءً عادلاً وذلك وفق ما ثبت من نصوص نبوية تدين الخروج على الولاة، فقد قال ﷺ: **«من أراد أن يفرق بين المسلمين وهم جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»**[6]. قال السيوطى: أى فاضربوه شريفًا أو وضيعًا على إفادة معنى العموم[7]. وقال النووى معلقًا على هذا الحديث: الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٣٣)، نقلاً عن القبورية فى اليمن صـ١١٨.
(٣) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٣/ ٩٠٦).
(٤) الأم للشافعى، نقلاً عن القبورية فى اليمن صـ١١٩.
(٥) القبورية فى اليمن صـ١٣٢، ١٣٣.
(٦) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٤١).
(٧) عقد الزبرجد للسيوطى (١/ ٢٦٤).

ونحو ذلك وينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بالقتل قتل وكان دمه هدراً[1]، وفى هذا الحديث وغيره من الأحاديث المشابهة له جاء تأكيد النبى ﷺ على أن الخارج على سلطان المسلمين يكون جزاؤه القتل، وذلك لأنه جاء ليفرق كلمة المسلمين، والتعلق المبدئى بهذه النصوص جعل الكثير يظنون أن أبا بكر بن العربى يقول: إن الحسين قتل بسيف جده ﷺ[2]. وإن الجمود على هذه الأحاديث جعل الكرامية مثلاً يقولون: إن الحسين رضى الله عنه باغ على يزيد، فيصدق بحقه ما ناله من جزاء وقتل[3]. وأما البعض فقد ذهبوا إلى تجويز خروج الحسين رضى الله عنه واعتبر عمله هذا مشروعًا، وجعلوا المستند فى ذلك إلى أفضلية الحسين وإلى عدم التكافؤ مع يزيد[4]، وأما البعض فقد جعل خروج الحسين خروجًا شرعيًا بسبب ظهور المنكرات من يزيد[5]. ولكن إذا أتينا لتحليل مخرج الحسين رضى الله عنه ومقتله، نجد أن الأمر ليس كما ذهب إليه هؤلاء ولا هؤلاء، فالحسين لم يبايع يزيد أصلاً، واعترض على فكرة التوريث دفاعًا عن الشورى ومبادئ الإسلام الداعمة لحق الأمة فى اختيار من تريد، وخرج معه إلى مكة عبد الله بن الزبير وذهبا لأجل جمع الأتباع وحث المسلمين على الوقوف فى وجه الانحراف الذى أحدث فى نظام الحكم وقلبه من الشورى إلى الوراثة، واستنهاض الهمم لتصحيح هذا الخلل الذى استجد فى عالم الإسلام، وبدأت رحلة الحسين لجمع الأتباع والأنصار نحو التصحيح وإعادة نظام الشورى ومنهاج الخلافة الراشدة والمبادئ الكريمة، لا كما يزعم البعض من كونه خرج طمعًا فى الحكم والسلطة لأنه ينبغى أن تكون فيه وفى ذريته. فتلك النظرة فيها بخس للحسين ومنهجه ولأهل البيت ومنهج القرآن وهدى جده عليه الصلاة والسلام[6].

إن القول بنظرية النص فى على وذريته قول باطل ولا توجد أية آثار صحيحة لنظرية النص فى قصة كربلاء ـ ولا فى غيرها ـ وقد تحدث عن ذلك الأستاذ أحمد الكاتب فى كتابه «تطور الفكر السياسى الشيعى من الشورى إلى ولاية الفقيه»[7]، وقد ناقشت نظرية النص على ولاية على وذريته وأدله الشيعة فى ذلك فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه.

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٤١) . (٢) العواصم من القواصم صـ٢٤٤، ٢٤٥ .
(٣) نيل الأوطار (٧/ ٣٦٢) . (٤) المصدر نفسه (٧/ ٣٦٢) .
(٥) الدرة فيما يجب اعتقاده صـ٣٧٦، المقدمة (١/ ٢٧١). (٦) عمر والحسين، علاء الدين المدرس صـ٥٢ .
(٧) تطور الفكر السياسى الشيعى من الشورى إلى ولاية الفقيه صـ ١٨.

إن الحسين رضى الله عنه لم يبايع يزيد بن معاوية وشرع فى إعداد العدة ولم يخرج عن تعاليم الإسلام التى تشترط الإعداد الجيد لإزاحة الحاكم الجائر حتى يغلب الظن على القدرة على ذلك، فهو قد أعد القوة كما تصورها حتى ظنها كافية لتحقيق غرضه، ولكن حساباته ـ بلا شك ـ كانت خاطئة[1] فالحسين لم يقم بخطأ شرعى مخالف للنصوص، خاصة إذا عرفنا أن بعض الأحاديث جاءت مبينة لنوع الخروج، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «**الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التى بعدها كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة، والشهر إلى الشهر -يعنى رمضان- كفارة لما بينهما**» قال: ثم قال بعد ذلك: «**إلا من ثلاث**» قال: فعرفت أن ذلك الأمر حدث ـ «**إلا من الإشراك بالله، ونكث الصفقة، وترك السنة، قال: أما نكث الصفقة: أن تبايع رجلاً ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة**»[2].

والحسين رضى الله عنه ما خرج يريد القتال ولكن ظن أن الناس يطيعونه، فلما رأى انصرافهم عنه، طلب الرجوع إلى وطنه أو الذهاب إلى الثغر، أو إتيان يزيد[3]، ولقد تعنّت ابن زياد أمام مرونة الحسين وسهولته، وكان من الواجب عليه أن يجيبه لأحد مطالبه، ولكن ابن زياد طلب أمرًا عظيمًا من الحسين، وهو أن ينزل على حكمه، وكان من الطبيعى أن يرفض الحسين هذا الطلب، وحُقّ للحسين أن يرفض ذلك، لأن النزول على حكم ابن زياد لا يعلم نهايته إلا الله، ولربما كان حكمه فيه القتل، ثم إن هذا العرض إنما كان يعرضه رسول الله ﷺ على الكفار المحاربين أعداء الإسلام، والحسين رضى الله عنه ليس من هذا الصنف، بل هو من أفاضل المسلمين وسيدهم[4]، ولهذا قال ابن تيمية: وطلبه أن يستأسر لهم، وهذا لم يكن واجبًا عليه[5]. والحقيقة أن ابن زياد خالف الوجهة الشرعية والسياسية حين أقدم على قتل الحسين رضى الله عنه[6]. فالظالم هو ابن زياد وجيشه الذين قدموا على قتل الحسين رضى الله عنه بعد أن رفضوا ما عرض الحسين من الصلح. ثم إن نصح الصحابة للحسين يجب ألا يفهم على أنهم يرونه خارجًا على الإمام كما ذهب لذلك يوسف العش[7]. بل إن الصحابة رضوان الله عليهم أدركوا خطورة أهل الكوفة على الحسين وعرفوا أن أهل الكوفة كذَبة، وقد حملت تعابير نصائحهم هذه

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى صـ١٦٥ .
(٢) مسند أحمد (١٢/٩٨)، إسناد صحيح .
(٣) منهاج السنة (٤/٤٢) .
(٤) مواقف المعارضة صـ ٣٢٩ .
(٥) منهاج السنة (٤/ ٥٥٠) .
(٦) مواقف المعارضة صـ ٣٢٩ .
(٧) الدولة الأموية صـ ١٦٨ .

المفاهيم[1]. يقول ابن خلدون: فتبين بذلك غلط الحسين، إلا أنه فى أمر دنيوى لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعى فلم يغلط فيه، لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك[2]. وأما الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا بالحجاز ومصر والعراق والشام والذين لم يتابعوا الحسين رضوان الله عليه، فلم ينكروا عليه، ولا أثّموه، لأنه مجتهد، وهو أسوة للمجتهدين به[3]. قال ابن تيمية: وأحاديث النبى ﷺ التى يأمر فيها بقتل المفارق للجماعة لم تتناوله، فإنه -رضى الله عنه- لم يفارق الجماعة، ولم يقتل إلا وهو طالب للرجوع إلى بلد، أو إلى الثغر، أو إلى يزيد، داخلاً فى الجماعة، معرضًا عن تفريق الأمة، ولو كان طالب ذلك أقل الناس لوجبت إجابته إلى ذلك، فكيف لا تجب إجابة الحسين[4]، ولم يقاتل وهو طالب الولاية، بل قتل بعد أن عرض الانصراف بإحدى ثلاث... بل قتل وهو يدفع الأسر عن نفسه، فقتل مظلومًا[5].

خامسًا: بعض الرؤى فى قصة الحسين رضى الله عنه:

ومن هذه الرؤى المتعلقة بقصة مقتل الحسين رضى الله عنه، عن ابن عباس رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام بنصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه، قلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: دم الحسين وأصحابه لم أزل أتتبعه منذ اليوم. قال عمار راوى ذلك الحديث: فحفظنا ذلك فوجدناه قُتِل ذلك اليوم[6]، وهذا سنده صحيح عن ابن عباس[7]، وروى ابن سعد بأسانيده قالوا: وأخذ الحسين طريق العُذيب[8] حتى نزل قصر أبى مقاتل[9]، فخفق خفقة، ثم استرجع، وقال: رأيت كأن فارسًا يُسايرنا، ويقول: القوم يسيرون، والمنايا تسرى إليهم[10]، وقال بعض الناس إن الحسين رضى الله عنه بنى خروجه على يزيد على رؤيا رآها لرسول الله ﷺ، وبأن رسول الله أمره بأمر وهو ماضٍ له[11]، وقد اعتمد على الرؤى قوم فى أخذهم الأحكام، ويقول الشاطبى: وأضعف هؤلاء احتجاجًا قوم استندوا فى أخذ الأعمال إلى المقامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها؛ فيقولون: رأينا فلانًا الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا واعملوا كذا، ويتفق مثل هذا كثيرًا

(1) مواقف المعارضة صـ٣٣٠.
(2) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٧١).
(3) المصدر نفسه (١/ ٢٧١).
(4) منهاج السنة (٤/ ٥٥٦)، بتصرف.
(5) المصدر نفسه (٦/ ٣٤٠) بتصرف.
(6) فضائل الصحابة رقم ١٣٨٠، إسناده صحيح.
(7) حقبة من التاريخ صـ١٣٧.
(8) العُذيب: ماء بين القادسية والمغيثة.
(9) كان بين عين التمر والشام، معجم البلدان (٤/ ٣٦٤).
(10) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٨).
(11) المصدر نفسه (٣/ ٢٩٧).

للمترسمين برسم التصوف، وربما قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ فى النوم، فقال لى كذا وأمرنى بكذا، فيعمل بها ويترك بها، معرضًا عن الحدود الموضوعة فى الشريعة، وهو خطأ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعًا على حال إلا أن تعرض على ما فى أيدينا من الأحكام الشرعية، فإن سوغتها عمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا[1]. وعليه؛ فلا عصمة فيما يراه النائم، بل لا بد من عرضه على الشرع فإن وافقه فالحكم بما استقر، لأن الأحكام ليست موقوفة على ما يرى من المنامات، وإن خالف رُد مهما كان حال الرائى أو المرئى، ويحكم على تلك الرؤيا بأنها حلم من الشيطان وأنها كاذبة وأضغاث أحلام[2]. ولكن يبقى أن يقال: ما فائدة الرؤيا الموافقة للشريعة، إذا كان الحكم بما استقر عليه الشرع؟[3]. فائدتها التنبيه والبشرى كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[4]، فإن الرجل الصالح قد يرى فى النوم ما يؤنسه أو يزعجه فيكون ذلك دافعًا له إلى فعل مطلوب أن ترك محظور[5].

سادسًا : إخبار الرسول ﷺ بمقتل الحسين رضى الله عنه:

عن أم سلمة قالت: كان جبريل عند النبى ﷺ والحسين معى، فبكى الحسين فتركته فدخل على النبى ﷺ فدنا من النبى ﷺ فقال جبريل: أتحبه يا محمد؟ فقال: «نعم». قال: إن أمتك ستقتله وإن شئت أريتك من تربة الأرض التى يقتل بها. فأراه إياها فإذا الأرض يقال لها كربلاء[6]، وقد وقع الأمر كذلك بعد مضى سنين طويلة، وهذه معجزة من معجزاته ﷺ الدالة على نبوته وأنه رسول الله حقًا وصدقًا، فقد أخبر النبى ﷺ بذلك عن طريق الوحى[7].

سابعًا : انتقام الله من قتلة الحسين رضى الله عنه:

لقد انتقم الله للحسين الشهيد رضى الله عنه من قاتليه وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، ويزيد بن معاوية، وكل من شارك فى قتله لم يَسلم، أما عبيد الله بن زياد فقد قتله إبراهيم

(١) الاعتصام (١/ ٢٦٠)، دراسة فى الأهواء والفرق والبدع صـ٣٠١ .
(٢) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (٢/ ٦٨٧) .
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٨٧) .
(٤) البخارى رقم ٦٩٩٠ .
(٥) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (٢/ ٦٨٧) .
(٦) فضائل الصحابة، رقم ١٣٩١ بسند حسن .
(٧) سير الشهداء صـ٢٤٤ .

ابن الأشتر وحز رأسه وأرسل به إلى المختار بن أبى عبيد الله الثقفى. يقول ابن عبد البر: قتل الحسين - رضى الله عنه - يوم الأحد لعشر مضين من المحرم يوم عاشوراء سنة إحدى وستين . . . وقضى الله - عز وجل - أن قتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة سبع وستين، قتله إبراهيم بن الأشتر فى الحرب، وبعث برأسه إلى المختار، وبعث به المختار إلى ابن الزبير وبعث به ابن الزبير إلى على بن الحسين[(١)]، وقد صحَّ من حديث عمار بن عمير قال: جىء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه فأتيناهم وهم يقولون: قد جاءت قد جاءت، فإذا حية تخلل الرءوس حتى دخلت منخر عبيد الله فمكثت هُنيهة ثم خرجت وغابت. ثم قالوا: قد جاءت قد جاءت، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا[(٢)]. أما يزيد بن معاوية فقد مقته الناس وأبغضوه لمقتل الحسين وثار عليه غير واحد، وثار عليه أهل المدينة النبوية الشريفة، فارتكب جريمة أخرى هى موقعة الحرة بالمدينة، فلم يمهله الله تعالى، وكانت دولته أقل من أربع سنين[(٣)]، وجاء عن أبى رجاء العطاردى قال: لا تسبوا عليًا ولا أحدًا من أهل البيت، كان لنا جار من بلهجيم قال: ألم تروا إلى هذا الفاسق الحسين بن على قتله الله؟ فرماه الله بكوكبين فى عينيه فطمس بصره[(٤)]. قال ابن كثير: وأما ما روى من الأحاديث والفتن التى أصابت من قتله فأكثرها صحيح، فإنه قلّ من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة أو عاهة فى الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض وأكثرهم أصابه الجنون[(٥)].

ثامنًا : القوى المضادة للإسلام ومصيبة كربلاء:

نجحت القوى المضادة لدولة الإسلام فى إحداث واقعة كربلاء ثم وجدوا فيها الفرصة السانحة لتمزيق الجماعة الإسلامية، وتفريق الكلمة بتحويل النزاع بين المسلمين، فقد كانت الكوفة مجمع شذاذ الناس وأشرارهم مع خيارهم؛ فقد أتى إليها الصحابة، كما أتى النصارى واليهود، وأقبلت القبائل العربية، كما أقبل الموالى وانتشرت الزندقة والسحر، وانتشرت الحلقات المتعارضة والمجامع المتنافرة، وشرع اليهود بالكوفة فى نشر التلمود، والنصارى كانوا ينادون بتجسيد الألوهية، فأطلت رءوس مجامعهم السرية مع المراكز المتطفلة الخفية، واستغلوا دم الحسين واعتبروه ذا قيمة فى التضحية تشبه دم المسيح عند النصارى، وتسللوا إلى نفوس من أسلم من الفرس من هذا الطريق يستثيرونهم ضد الدولة

(١) الاستيعاب، حاشية الإصابة (١/ ٣٨٢) . (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٤٩) .
(٣) الدوحة النبوية صـ١٢٩ . (٤) المعجم الكبير للطبرانى (٣/ ١١٩)، ورجاله رجال الصحيح.
(٥) البداية والنهاية، نقلاً عن الدوحة النبوية صـ١٢٩ .

بحجة أن الحسين كان قد تزوج جيهان شاه ابنة يزدجرد أم على بن الحسين[(١)]، فارتفعوا بهذه الفاجعة عن مصائب البشر الاعتيادية فشبهوها بمصائب الأنبياء[(٢)]، وتسللت من خلالها أفكار أهل الكتاب بسهولة.. واعتبروا أن الحسين لم يتألم لما أصاب أهله ونفسه من القتل والإيذاء بل إنه تألم لأن أمة جدّه المسئول عن هدايتها بصفته الإمام والحجة ضلت بحربها إياه[(٣)]، وهذا يذكرنا بفكرة النصارى عن صلب المسيح وتعذيبه؛ فكان من السهل بذر هذه الفكرة من قبل أهل الكتاب فى نفس من أسلم حديثًا، فأقبل الموالى على التشيع ورأوا فى الحسين إنسانًا روحانيًا قدر له الله منذ الأزل أن يفتدى الإسلام بدمه ويحفظه بتضحية نفسه، فقرن بدور المسيح المخلص[(٤)]... وكان لمستشارى يزيد من النصارى -مثل سرجون- أثر فى تلك الأحداث الدامية وما ترتب عليها من نكبات ومصائب[(٥)].

تاسعًا : استشهاد الحسين رضى الله عنه نقطة تحول فى التاريخ الفكرى والعقدى للتشيع:

يعد استشهاد الحسين رضى الله عنه نقطة تحول فى التاريخ الفكرى والعقدى للتشيع، إذ لم يقتصر أثر هذه الحادثة الأليمة على إذكاء التشيع فى نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم، بل ترجع أهمية هذه الحادثة إلى أن التشيع كان قبل مقتل الحسين مجرد رأى سياسى لم يصل إلى عقائد الشيعة، فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل فى أعماق قلوبهم، وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم[(٦)]. لقد نظر الشيعة إلى استشهاد الحسين على أنه أهم من استشهاد على بن أبى طالب نفسه، لأن الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ[(٧)]، وقد اعتنق الفرس مبدأ التشيع وبذلك تمركزت العقيدة الشيعية حول الحسين وسلالته دون الحسن وذريته، وإلى اعتناق مبدأ حق الحسين بن على الإلهى وذريته فى الخلافة، وأن الإمامة بالنص لا بالاختيار[(٨)]، بل اعتبر الشيعة سفك دم الحسين فى سهل كربلاء ذا قيمة فى التضحية تشبه سفك دم المسيح المزعوم عند المسيحية[(٩)]، ولم يقتصر التمايز الفكرى

(١) فرق الشيعة صـ٥٣، الطبقات (٥/١٥٦) .

(٢) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية صـ٤٩١، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة صـ٥٤ .

(٣) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية صـ٤٩٢ .

(٤) المصدر نفسه صـ٤٩٤ .

(٥) المصدر نفسه صـ٤٩٤ .

(٦) نظرية الإمامة صـ٤٧، مواقف المعارضة صـ ٣٣٨ .

(٧) الخوارج والشيعة صـ١٨٨ ، فلهاوزن، مواقف المعارضة صـ٣٣٩ .

(٨) الوثائق السياسية للجزيرة العربية صـ١٩، ٢٠ .

(٩) مواقف المعارضة صـ٣٣٩، التاريخ السياسى، عبد المنعم ماجد (٢/٧٧) .

والعقدى بين أهل السنة والشيعة بعد مقتل الحسين، بل إن الشيعة أنفسهم قد أثر فيهم مصرع الحسين، وانقسموا على أنفسهم، وافترقوا بعد مقتله إلى فرق[1]، ولكى يكون لمقتل الحسين أهمية خاصة عند الشيعة فقد أكدوا على أهمية يوم عاشوراء، وتفننوا فى إظهار الحزن فى ذلك اليوم، كما ابتدعوا لفضائل ذلك اليوم من الأحاديث والآثار ما لا يقع عليه الحصر، وقد جعلوا البكاء على الحسين يوم عاشوراء يمسح الذنوب ويغفر ما تقدم منها، مما جعل الاحتفال بيوم عاشوراء واجبًا دينيًا يقوم به الحكام والمحكومون على السواء، ويبالغون فى إظهار عواطفهم المذهبية فى هذا اليوم الحزين[2]، لقد أراد واضعو التشيع وعقائده التأكيد على يوم عاشوراء[3] وأن يكون التشيع عقيدة ملتهبة فى نفوس أتباعهم وكانت دولهم تهتم بهذا الأمر، كالدولة البويهية بالعراق، والدولة العبيدية الفاطمية بمصر[4]، وقد تعرضت لعقائد الشيعة بنوع من التفصيل فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه.

عاشرًا: من دعاء الحسين رضى الله عنه:

دعا الحسين رضى الله عنه بهذا الدعاء قبل المعركة: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة[5]. إن الحسين رضى الله عنه يعلمنا حسن الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى والثقة به والتوكل عليه والرغبة إليه، فجدّه ﷺ قال: «**ليس شىء أكرم على الله من الدعاء**»[6]، وقد تعلم الحسين رضى الله عنه من تعاليم جدّه ﷺ، بأن الاستعانة لا تكون إلا بالله، والشكوى لا تكون إلا إليه سبحانه، فلا يستعين المرء ولا يشكو إلا إلى الله وحده دون غيره من نبى أو إمام أو صالح.. ويعلمنا الحسين رضى الله عنه أن الدعاء لا يصرف إلا لله وحده دون سواه، فهذا الحسين رضى الله عنه لم يدعُ رسول الله ﷺ أو أباه عليًا، وهو فى هذا الموقف العصيب الذى يودع فيه الحياة، بل دعا الله وحده وتوسل إليه فقط، وفى هذا يعلمنا الحسين رضى الله عنه منهجًا يجب ألا نحيد عنه، وهو أنه عند الدعاء لحاجة المرء أو طلب رزق أو شفاء مريض أو غيرها عليه أن يدعو الله وحده ولا يشرك فى

(١) فرق الشيعة صـ٢٣ للنوبختى، مواقف المعارضة صـ٣٣٩.

(٢) إيران فى ظل الإسلام، عبد المنعم حسنين صـ١٠٤، مواقف المعارضة صـ٣٣٩.

(٣)، (٤) مواقف المعارضة صـ٣٤٠. (٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٥٠).

(٦) سنن الترمذى رقم ٣٣٧٠، حسنه الألبانى فى صحيح الجامع.

دعائه أحدًا كائنًا من كان هذا المدعو[1]، فمن أحب الحسين رضى الله عنه فعليه أن يدعو الله كما دعا الحسين رضى الله عنه، ولا يقول يا حسين أو يا على، فإن دعاء المخلوقين انحراف عظيم عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهدى العلماء الربانيين وعلى رأسهم أئمة أهل البيت الأطهار.

قال الشاعر :

وأفنيــة الملــوك مــحــجــبــات ... وبــاب الله مــبــذول الفِـنَاء

فــمــا أرجــو ســواه لكــشف ضُــرِّى ... ولا أفــزعُ إلى غــيــر الدُّعــاء[2]

****

(1) الحسين بن على بين الحقائق والأوهام، عبد الرحمن بن عبد الله جميعان صـ٥٦ .

(2) الأخلاق صـ ٣٨ .

المبحث الرابع

وقعة الحرة (٦٣هـ)

إن ثورة أهل المدينة ومعارضتهم للحكم الأموى وخلافة يزيد بن معاوية ما هى إلا امتداد طبيعى لمعارضة ابن الزبير التى بدأها فى مكة، ثم إن قرب فترة يزيد بن معاوية (٦٠هـ) بالخلافة الراشدة جعل أبناء الصحابة أكثر شوقًا لإعادة الشورى وتمكينها بين الناس، وعندما قتل الحسين رضى الله عنه بتلك الصورة الشنيعة ومعه إخوته وأبناء عمه على يد عبيد الله بن زياد، أحس الكثير من أبناء الصحابة بحجم الاستبداد والتسلط الذى بدأت تمارسه الدولة، الأمر الذى جعل الناس فى الحجاز يتعاطفون مع ابن الزبير رضى الله عنه، ورفعه شعار الشورى، فى الوقت الذى لم يحاكم يزيد عبيد الله بن زياد كأحد المسئولين المباشرين عن الجريمة النكراء التى لحقت بالحسين وأهله فى كربلاء، واعتبر الناس هذا التصرف محاباة لابن زياد من قبل ابن عمه يزيد بن معاوية[١].

ومما لا شك فيه أن مقتل الحسين ومن معه بتلك الصورة قد أهاج الناس جميعًا، وولّد لديهم شعورًا بالحزن والأسى العميق على فقدانه بتلك الطريقة البشعة[٢].

أولاً : وفد المدينة يزور يزيد بدمشق:

أراد والى المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان أن يثبت ولاء أهل المدينة ليزيد، فاختار منها وفدًا وأرسلهم إلى دمشق، وهناك استقبلهم يزيد استقبالاً حسنًا، فأكرم وفادتهم، وأحسن جوائزهم، وأجزل عطاءهم، وكان فى وفد المدينة عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى، وعبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة الحضرمى، والمنذر بن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة، وبعد أن أخذوا جوائزهم انصرفوا إلى المدينة، وهناك عابوا يزيد وشتموه، وأظهروا العداء له، وخلعوه[٣]، وأخرج أهل المدينة عامل يزيد عثمان بن محمد من المدينة، كما أخرجوا مروان بن الحكم وسائر بنى أمية، وبلغ الأمر يزيد، وعلم بما كان من أهل المدينة، من خلعه، والميل إلى ابن الزبير، فأعد جيشًا لغزو المدينة أسند قيادته لمسلم بن عقبة المرى[٤].

(١) مواقف المعارضة صـ٣٦١ .
(٢) المصدر نفسه صـ٣٦٢ .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٢٤، ٦٢٥) .
(٤) تاريخ خليفة صـ٢٣٧، أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٠٤ .

ثانيا : موقف علماء أهل المدينة المعارضين للخروج :

١ ـ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. اعترض بعض علماء المدينة على خلع يزيد والخروج عليه، ولم يؤيدوا من قام بالخروج، وقاموا بنصح إخوانهم واعتزلوا الفتنة، وكان أغلب هذا الرأى من أهل العلم والفقه فى الدين، وفى مقدمة هؤلاء العالم الجليل الإمام القدوة عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما؛ فقد اشتهر عنه إنكاره على الذين رفضوا البيعة ليزيد وسعوا فى خلعه[1]، فعندما أراد عبد الله بن مطيع الفرار من المدينة تهربًا من البيعة ليزيد وسمع ذلك عبد الله بن عمر خرج إليه حتى جاءه فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ فقال: لا أعطيهم طاعة أبدًا. فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ لا تفعل فإنى أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من مات ولا بيعة عليه مات ميتة جاهلية»**[2]، وعندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إنى سمعت النبى ﷺ يقول: **«ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»**، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنى لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإنى لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا تابع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه[3]. فقد عارض ابن عمر من خرج من أهل المدينة لسببين:

الأول: نقضهم البيعة، وهو يرى أنهم أعطوا البيعة عن رضى واختيار، ولم يفعلوا مثل الحسين رضى الله عنه، حيث كان موقفه واضحًا منذ البداية، ولم يعط البيعة، وذلك عند ابن عمر خيانة وغدر، ويتضح ذلك فى قوله لعبد الله بن مطيع: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»**[4]. وأوجب على أهله الوفاء بالبيعة مذكراً لهم بقول رسول الله ﷺ: **«ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»**. وإنا قد بايعنا هذا الرجل، ولا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله، ثم ينصب له القتال[5].

الثانى: هو تعظيم حرمة دماء المسلمين وحرمة الاقتتال بينهم، وتزداد هذه الحرمة فى الأماكن المقدسة كمكة والمدينة، ولقد استدل ابن حجر بموقف ابن عمر السابق والأحاديث التى استشهد بها على وجوب طاعة الإمام الذى انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه،

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٥٠٦.

(٢) مسلم، ك الإمارة (٣/ ١٤٧٨)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢٣) .

(٣) مسلم (٣/ ١٤٧٨) ك الإمارة .

(٤) البخارى، ك الفتن، باب ٢١ .

(٥) الفقهاء والخلفاء صـ٦٠ .

ولو جار فى حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق[1]. والواقع أن موقف ابن عمر لا يدل على جواز بيعة رئيس الدولة الفاسق الظالم، ولا على تحريم خلعه بسبب فسقه وظلمه، وإنما يدل على تحريم الغدر بكل أشكاله، وفى جميع مواضعه، بما فيها غدر الأمة برئيس الدولة الذى اختارته وبايعته[2]، وكأن لسان حال ابن عمر يقول: إذا كنتم تعلمون من يزيد الفسق والظلم فلماذا بايعتموه فى أول الأمر وجعلتمونى أبايعه؟- لأن ابن عمر لم يبايع حتى بايع أهل المدينة جميعهم ـ أما وقد بايعتموه فيلزمكم الوفاء بالبيعة، وكان ابن عمر يشك فى أقوالهم عن فسق يزيد، ولم يكن وحده فى هذا الشك، بل كان محمد ابن الحنفية ينكر عليهم اتهام يزيد بترك الصلوات وشرب الخمر[3]، ولعل ذلك هو ورع ابن عمر فى أن يتهم أحدًا فى دينه ما لم يبلغ عنده ذلك الأمر مرحلة اليقين، ومع ذلك فإنه - مع بقائه على بيعة يزيد - اعتزل القتال ولم يشارك أيًا من الطرفين[4] فهذا موقف شيخ الصحابة فى عصره، وأورع الناس وأزهدهم وأفقههم فى دين الله، وقد شهد له النبى ﷺ بالصلاح والتقوى[5]. وقالت عنه عائشة: ما رأيت ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر[6]، وقال عنه سعيد بن المسيب: لو شهدت على أحد أنه من أهل الجنة لشهدت على ابن عمر[7]،وقال عنه على بن الحسين: إن ابن عمر أزهد القوم وأصوب القوم[8]، وقال عنه مالك: أقام ابن عمر بعد النبى ﷺ ستين سنة يفتى الناس فى الموسم، وكان من أئمة الدين[9].

٢ ـ **محمد بن على بن أبى طالب (ابن الحنفية):** فإنه لم ير خروج أهل المدينة على يزيد ولم يستجب لدعوتهم إياه بالخروج معهم، بل جادلهم فى نفى التهم التى أشاعوها عن يزيد، ولما رجع وفد أهل المدينة من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك. فقال: وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر لى الخشوع؟ فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم

(١) فتح البارى (١٣/ ٦٠).
(٢)، (٣) الفقهاء والخلفاء صـ٦٠.
(٤) المصدر نفسه صـ٦١.
(٥) مسلم (٤/ ١٩٢٧)، رقم ٢٤٧٨.
(٦) المستدرك للحاكم (٣/ ٥٥٩).
(٧) المصدر نفسه (٣/ ٥٥٩)، فضائل الصحابة (٢/ ٨٩٥)، رقم ١٧٠٣ .
(٨) المستدرك (٣/ ١٦٠) .
(٩) طبقات الفقهاء للشيرازى صـ٥٠، مواقف المعارضة صـ٤٥٧ .

لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه، فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦] ولست من أمركم فى شيء[١]. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا. قال: ما أستحل القتال على ما تريدون عليه تابعًا ولا متبوعًا. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئونى بمثل أبى أقاتل على ما قاتل عليه، فقالوا: فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقامًا تحض الناس فيه على القتال، قال: سبحان الله! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه؟! إذًا ما نصحت لله فى عباده. قالوا: إذًا نكرهك. قال: إذًا آمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق. ولما رأى محمد بن الحنفية الأمور تسير فى الاتجاه الذى لا يريده، وبدأ يظهر له سوء عاقبة تصرفات المخالفين له من أهل المدينة حينما ترامى إلى الأسماع قدوم جيش أهل الشام إلى المدينة، لذلك قرر ترك المدينة وتوجه إلى مكة[٢]، وسار أهل بيت النبوة على هذا المنوال ولزموا الطاعة، ولم يخرجوا مع أهل المدينة ضد يزيد، فعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب لم يخرج مع أهل المدينة ولزم الطاعة ليزيد[٣]، وهو الذى قال فيه الزهرى: كان أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة، وقال عنه: لم أدرك من آل البيت أفضل من على بن الحسين[٤]، وكذلك ابن عباس رضى الله عنهما -وهو فقيه الأمة وحبرها وعالمها- لم ينقل عنه تأييد لأهل المدينة، كما أنه لم يذكر عنه أنه نزع بيعة يزيد بن معاوية، فهؤلاء أفضل آل بيت النبوة فى زمانهم، ومع ذلك لم يخرجوا مع أهل المدينة، ومسوغات الخروج على يزيد عندهم أكثر من غيرهم[٥].

٣ ـ النعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنه: وممن عاب على أهل المدينة خروجهم وعارضه: الصحابى الجليل النعمان بن بشير الأنصارى، وقد كان إبان خروج أهل المدينة فى الشام، فاستغل يزيد فرصة وجوده فبعثه إلى أهل المدينة لعله يفلح فى صدهم عن الخروج ويعيدهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، فاستجاب النعمان لذلك وقدم المدينة فجمع عامة الناس، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة، وخوَّفهم الفتنة وقال لهم: إنه لا طاقة لكم

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٤)، وذكر الدكتور عبد العزيز دخان أن السند صحيح لأنه من طريق صخر بن جويرية وهو من الثقات عن نافع. أحداث وأحاديث صـ٢٠٣
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٤). (٣) مواقف المعارضة صـ٤٥٨ .
(٤) تاريخ ابن عساكر (١٢/ ٣٥)، مواقف المعارضة صـ٤٥٨ .
(٥) مواقف المعارضة صـ٤٥٨.

بأهل الشام، فقال له عبد الله بن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟ فقال النعمان: أما والله لكأني بك -لو قد نزلتْ تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين- قد هربتَ على بغلتك تضرب جبينها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين[1] يقتلون في سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم. فعصاه الناس، فانصرف، وكان -والله- كما قال[2].

٤ ـ **عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما:** فقد كان بالشام عندما عزم يزيد أن يبعث جيشًا إلى المدينة، فحاول عبد الله بن جعفر أن يتدخل في الأمر ليجنب أهل المدينة شر القتال، فكلم يزيد وطلب منه الرفق بأهل المدينة ورققه عليهم، وقال: إنما تقتل بهم نفسك. وقد تجاوب معه يزيد حين قال: فإني أبعث أول جيش وآمرهم أن يمروا بالمدينة إلى ابن الزبير -فإنه قد نصب لنا الحرب- ويجعلوها طريقًا ولا يقاتلهم، فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم، وقد وجد عبد الله بن جعفر مدخلاً لكف القتال والأذى عن أهل المدينة، فكتب على الفور إلى زعماء أهل المدينة يخبرهم بذلك ويقول: استقبلوا ما سلف واغنموا السلامة والأمن، ولا تعرضوا لجنده ودعوهم يمضون عنكم[3]. وكان ردهم عليه: لا يدخلها علينا أبدًا[4].

٥ ـ **سعيد بن المسيب رحمه الله:** فإنه قد اعتزل فتنة خروج أهل المدينة ولم يدخل فيما دخلوا فيه، ولم يكن يحضر لهم أمرًا من أمورهم إلا الجمعة والعيد، وقد لزم المسجد نهاره لا يبرحه إلى الليل والناس في قتالهم أيام الحرة[5].

ومن كل ما سبق ندرك أن أهل المدينة انقسموا تجاه البيعة ليزيد والدخول في طاعته إلى قسمين: القسم الأول منهم تزعمه عدد ممن دفعه الحماس والغيرة على الدين إلى خلع يزيد، ولقد اشترك بعض الفقهاء في موقعة الحرة، وانضم إلى أهل المدينة وخلع يزيد، وقاتل الجيش الأموي، ومن أبرزهم محمد بن عمرو بن حزم[6]، وهذا يعطي لحركة أهل المدينة خصوصية الارتكاز على المرجعية الشرعية للفقهاء في مقاومة حكم يزيد بن معاوية،

(١) المساكين: يعني الأنصار .

(٢) تاريخ الطبري، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية صـ٥١٣ .

(٣) الطبقات (٥/ ١٤٥). (٤) أثر العلماء في الحياة السياسية صـ٥١٤ .

(٥) الطبقات (٥/ ١٣٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٦) الطبقات الكبرى (٥/ ٦٩، ٧٠).

ولقد اعـتمدت ثورة أهل المدينة على فتـوى هؤلاء العلماء ومن قبلهم الحـسين بن على فى وجوب مقاومة المنكر، ويتضح ذلك فى خطاب عـبد الله بن حنظلة حين قال: يا قوم اتقوا الله وحـده لا شريك له، فـوالله مـا خرجنا على يزيد حـتى خـفنا أن نرمى بحجـارة من السماء[1]، وقد شارك فى ثورة أهل المدينة عدد من صغـار الصحابة هم: عبد الله بن زيد، وعبد الرحمن بن أزهر، وعبد الله بن حنظلة[2]، إلا أن معظم الصحابة ممن عاش إلى وقعة الحرة لم يشتركوا فيها، وحاولوا إقناع الثائرين بعدم خلع يزيد والخروج على حكمه[3].

ومع أن الأسس الشرعية التى قامت عليهـا حركة أهل المدينة وفتاويهم فى الخروج على يزيد هى نفس الأسس التى بنى عليـها الحـسين موقـفه، وهى الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، واجب على علمـاء الأمة وقـادتها، وأن بنى أمـية قـد تجاوزوا فى حكمـهم حدود الشريعة، سواء على الصـعيد السياسى وطريقة الحكم كالانفـراد بالسلطة وغياب الشورى، والاستبداد.. أو على الصعيد الشخـصى، كانعدام الكفاءة والعدالة فى شخص يزيد، فإن هناك اختلافًـا كبيرًا من الناحـية الشرعيـة فى الأصل الذى بنى عليه الحسين فـتواه ومن ثم اتخذ قراره فى مقاومة يزيد، فالحسين لم يعط البيعة ليزيد منذ البداية، وعلى ذلك فإنه كان يرى أنه يحق له ـ من هذا المنطق ـ حرية التصرف فى مقـاومة الحكم الأموى، بينما نجد أن أهل المدينة قد أعطوا البيـعة ليزيد، ومن بعد ذلك رأوا أنهم يجوز لهم نقض البـيعة وخلع يزيد نظرًا لعدم كفـاءته وصلاحه للحكم، فأضـافوا بذلك بعدًا جديدًا إلى فتـوى الحسين، وهى أنه يجوز خلع الحاكم المسلم الذى يعتـقد بفساده وفسوقه، وهو أمر خالفـهم فيه بقية الصحابة أى القسم الثانى من أهل المدينة –ولعل ذلك هو السبب الرئيسى الذى جعل فقهاء المدينة من الصحابة ينـددون بقوة بخروج أهل المدينة؛ فهم يرون أن نقض البيـعة لا يجوز، وأن فسوق الحاكم لا يوجب الخروج عليه[4]، يضاف إلى ذلك خوف كثير من فقهاء ومفتى الصحابة ممن حـضر موقعة الحـرة على أهل المدينة من القتل، والخوف على انتهاك قـدسية مدينة رسول الله ﷺ، وقد وقع ذلك بالفعل[5]، ومع ذلك فإن جـميع الصحابة وفـقهاء المسلمين لم يرضوا عن تصرف يزيد وقتله أهل الحـرة واستباحته المدينة[6] بل إن ابن تيمية يعتبر هذا التصرف من كبائر الذنوب التى اقترفها يزيد[7].

(١) الطبقات الكبرى (٦/ ٦٦) . (٢) قيم المجتمع للعمرى (٢/ ٤٧)، الفقهاء والخلفاء صـ٣١.

(٣) الفقهاء والخلفاء صـ٣١ سلطان حثلين. (٤) الفقهاء والخلفاء صـ٣٢.

(٥) تاريخ خليفة صـ٢٣٨، ٢٣٩، الفقهاء والخلفاء صـ٣٢.

(٦) حركة النفس الزكية صـ٣٠، الفقهاء والخلفاء صـ٣٠.

(٧) الفتاوى، نقلاً عن الفقهاء والخلفاء صـ٣٢.

ثالثًا : معركة الحرّة:

اشتد الأمر على يزيد حين علم بأن بنى أمية فى المدينة محاصرون فى دار مروان بن الحكم، فأرد أن يخلصهم من هذا الحصار قبل أن يقتلوا أو يحل بهم مكروه - وكانوا ألف رجل - فعز عليه أن يقتل هؤلاء، فى سلطانه، دون أن يقدم لهم عونًا، فأمر بتجهيز جيش ليذهب إلى المدينة، فيخلص بنى أمية، ويرد هؤلاء المتمردين إلى الطاعة، وطلب عمرو بن سعيد ليقود الجيش فأبى، وأرسل إلى عبيد الله بن زياد ليرد أهل المدينة إلى الطاعة ثم يغزو ابن الزبير، فقال: لا أجمعهما للفاسق أبدًا، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأغزو البيت؟![1] ثم استقر الرأى على إرسال مسلم بن عقبة المرِّى[2].

١ - **وصية يزيد لمسلم** : اجتمع الجيش، وهمّ مسلم بن عقبة أن ينطلق بهم إلى المدينة، فقال له يزيد: ادع القوم ثلاثًا، فإن رجعوا إلى الطاعة، فاقبل وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثًا، ثم اكفف عن الناس، وانظر إلى على بن الحسين فاكفف عنه، واستوص به خيرًا، وأدن مجلسه فإنه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه ،وأمر مسلمًا إذا فرغ من المدينة أن يذهب لحصار ابن الزبير، وقال له: إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكونى[3].

٢ - **مسلم يستعرض الجيش**: ركب مسلم بن عقبة فرسه واستعرض جيشه الذى سيحارب به أهل المدينة، فجعل على أهل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزارى، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكونى، وعلى أهل الأردن حبيس بن دلجة القينى، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذامى، وشريك الكنانى، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالى، وعليهم جميعًا مسلم بن الوليد بن عقبة المرِّىّ الغطفانى[4]، وسار مسلم إلى المدينة فوجد بنى أمية وقد أخرجوا منها، وساروا فى اتجاه الشام، فاستوقفهم وسألهم عن الوضع فى المدينة، فلم ينطقوا بجواب، وكان أهل المدينة قد أطلقوا حصارهم بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق ألا يدلوا على عورة ولا يعاونوا عدوًا، وطلب مسلم منهم أن يدلوه على ما وراءهم فلم يستجيبوا، فغضب مسلم منهم غضبًا شديدًا، فلم يبرد غضبه إلا عبد الملك بن مروان الذى دلَّه على الخطة التى يجب اتباعها فى حرب المدينة، فأشار إليه بأن يأتيها من جهتها الشرقية، ويلحق فى الجنوب منها، يواجه أهل المدينة، فى مكان

(١) تاريخ الطبرى (٦/٤١٧).
(٢) المصدر نفسه (٦/٤١٦).
(٣) البداية والنهاية (١١/٦١٧).
(٤) المصدر نفسه (١١/٦١٦).

يسمى الحرَّة، وتأتى الشمس أمام جيش الشام فتلمع خوذهم وسلاحهم فيرهبون عدوهم، ويكون لهم السيطرة من الوجهة الحربية(١).

٣ ـ بدء المعركة: وفى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذى الحجة ٦٣هـ وقعت المعركة المشئومة، فوجه مسلم خيله نحو أهل المدينة والتقى الجيشان، وحمل عبد الله بن حنظلة الغسيل على خيل الشام، فانكشفت الخيل، وانهزموا، حتى انتهوا إلى مسلم، فنهض بمن معه وقاتلوا قتالاً شديدًا، وانكشف أهل المدينة من كل جانب، وجاء الفضل بن عباس بن ربيعة إلى ابن الغسيل فقاتل معه، وطلب منه أن يجمع الفرسان ليقاتلوا معه، وكان قد عزم على الوصول إلى مسلم بن عقبة ليقتله، فأمر ابن الغسيل أن يجتمع الفرسان حول الفضل، وحمل الفضل بهم على أهل الشام فانفرجوا وجثث الرجال أمامه على الركب، ومضى نحو راية مسلم فقتل صاحبها وهو يظنه مسلمًا(٢)، وكان الذى قتله الفضل غلامًا لمسلم اسمه رومى، وأخذ مسلم الراية ونادى فى جيشه يحضهم على القتال وأمر أحد قادته أن ينضحوا ابن الغسيل بالنبل ونادى مسلم: يا أهل الشام، أهذا هو قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم؟! قبح الله قتالكم منذ اليوم، ما أوجعه لقلبى، وأغيظه لنفسى: أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء، وأن تجمروا(٣) فى أقاصى الثغور، شدوا مع هذه الراية. ومشى برايته، وشدت الرجال أمام الراية، وصرع الفضل بن عباس بن ربيعة وما بينه وبين أطناب مسلم إلا عشر أذرع، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن نعيم العدوى فى رجال من أهل المدينة كثير(٤)، ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ورجاله حتى دنوا منه، وركب مسلم بن عقبة فرسًا له، فأخذ يسير فى أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام إنكم لستم بأفضل العرب فى أحسابها وأنسابها، ولا أكثرها عددًا، ولا أوسعها بلدًا، ولم يخصكم الله بالذى خصكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والظفر(٥). وأمر مسلم أجدر رماته أن يصوب رميه نحو ابن الغسيل، فقال ابن الغسيل: علام تستهدنون لهم؟ من أراد التعجل فليلزم هذه الراية، فقام إليه كل مستميت، فقال: الغدوَّ إلى ربكم.

(١) الدولة الأموية د. العش صـ١٧٦، الخلافة الأموية للهاشمى صـ٨٥.

(٢) تاريخ الطبرى (٦/٤٢٢).

(٣) تجمروا: تحبسوا.

(٤)، (٥) تاريخ الطبرى (٦/٤٢٣).

فوالله إنى لأرجو أن تكونوا عن ساعه قريرى عين، فنهض القوم واقتتلوا أشد قتال رئى فى ذلك الزمان، وأخذ ابن الغسيل يقدم بنيه أمامه واحدًا بعد واحد حتى قتلوا بين يديه، وقتل هو وقتل معه أخوه(1).

٤ ـ **نهاية المعركة**: انتهت المعركـة لصالح جيش الشام، وهزم أهل المدينة هزيمة مـاحقة، قتل فـيهـا خلق كثـير من القـادة ووجوه الناس، ولم يخف مـروان أسفــه على ابن حنظلة ومحمــد بن عمرو بن حزم، وإبراهيم بن نعـيم بن النحام، وغيرهم، بل كـان يثنى عليهم ويذكرهم بأحسن صفاتهم التى اشتهروا بها(2)، وكان القتل ذريعًا فى المدنيين، وقد شبهتهم الرواية بنعام الشرد، وأهل الشـام يقتلونهم فى كل وجه(3)،وقد قتل فى هذه المعركة، عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، ويشهد لذلك ما ذكره سعيد بن المسيب حينما قال: وقعت الفتنة الأولى – يعنى مقتل عثمان ـ فلم تبق من أصحاب بدر أحدًا، ثم وقعت الفتنة الثانيـة ـ يعنى الحرَّة ـ فلم تـبق من أصحاب الحـديبية أحـدًا، ثم وقعت الثالثـة فلم ترتفع وللناس طبّاخ(4)، ولقد أورد خليفة فى تاريخه قوائم بأسمــاء قتلى الحرَّة ثم قال: فجميع من أصيب من قريش والأنصـار ثلاثمائة رجل وستــة رجال(5)، وقد تابعـه على ذلك أبو العرب(6)، والأتابكى(7)، وهناك رواية مسندة عن الإمام مالك قال فيهـا: إن قتلى الحرَّة سبعمائة رجل من حملة القرآن، وقال الراوى: وحسبت أنّه قـال: وكان معهم ثلاثة أو أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ(8). ورواية مالك أقرب إلى الصحة من الذى ذكر خليفة(9).

٥ ـ **المبـالغـات التى أوردها البعـض فى تقدير عـدد القـتلى من المدنيـين**: ومن الغريب تلك المبالغات التى أوردها البعض فى تقدير عدد القـتلى من المدنيين، فمثلاً هناك رواية الواقدى -والتى أخذ بها غالب المتقدمين والمتأخـرين- عن عبد الله بن جعفر قال: سألت الزهرى: كم بلغ القتلـى يوم الحرَّة؟ قال: أمـا من قريش والأنصار ومـهاجرة العـرب ووجوه الناس فسـبعمائة، وسـائر ذلك عشرة آلاف، وأصيب بهـا نساء وصبيـان بالقتل(10) والسند عن

(1) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٤).
(2) الطبقات (٥/ ٦٨، ٧١)، المحن صـ١٧٩.
(3) الطبقات (٥/ ٦٨).
(4) المراد: لم تبق فى الناس من الصحابة أحداً، فتح البارى (٧/ ٣٧٥).
(5) تاريخ خليفة صـ٢٥٠، مواقف المعارضة صـ٤٢٢.
(6) المحن صـ١٨٧ ـ ٢٠٠.
(7) النجوم الزاهرة (١/ ١٦٠).
(8) المحن صـ٢٠٠، بإسناد صحيح، مواقف المعارضة صـ٤٢٣.
(9) مواقف المعارضة صـ٤٢٣.
(10) المحن صـ١٨٤، وفاء الوفا (١/ ١٣٢)، مروج الذهب (٣/ ٧٩)، مواقف المعارضة صـ٤٢٤.

الواقدى وهــو متروك، ثم إنه عــورض بسند أصح منه، وهى رواية مــالك، فتــعتــبر رواية الواقدى رواية منكرة لا يعتمد عليــها فى تقدير عدد القتلى[١]، ولقد أنكر ابن تيمية صحة ما ذكر الواقدى، واستبعد أن يصل العدد إلى هذا الحد[٢].

٦ ـ نهب المدينة: لقد اشتهر أن مسلم بن عقبة المرى، أمر بانتهاب المدينة، فمكثوا ثلاثة أيام من شهر ذى الحــجة ينتهبــون المدينة حتى رأوا هلال المحرم، فأمــر الناس فكفوا، وذلك لأن معركة كانت لثــلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة، وتعــتبر رواية نافع مولى ابن عمر هى أصح رواية نصت على حدوث الانتهاب، فقــد قال: . . وظفر ـ مسلم بن عقبة ـ بأهل المدينة وقتلوا وانتهبت المدينة ثلاثا[٣]. وقد وردت لفظة الاستباحة عند السلف لتعنى النهب، كما ورد على لسان عبد الله بن يزيد بن الشخــير حين قال: ولما استبيحت المدينة – يعنى الحرة – دخل أبو سعــيد الخدرى غاراً[٤]، ومن هنا يعلم أن الاستبــاحة والنهب جاءت بمعنى واحد، حيث جاءت هاتان اللفظتان فى غالب المصادر المتقدمة[٥]، وقرار انتهاب المدينة الذى اتخذه هو يزيد بن معاوية، وقد حمله الإمام أحمد مسئولية انتهاب المدينة، فعندما سأله مهنا بن يــحيى الشامى السلــمى عن يزيد قال: هو الذى فــعل بالمدينة ما فعــل. قلت: وما فعل؟ قال: نهــبها[٦]. وقال ابن تيمــية: فبعث إليــهم ـ أى أهل المدينة ـ جيشًــا وأمره إذا لم يطيعــوه بعد ثلاث أن يدخلها بالســيف ويبيحــها ثلاثا[٧] وذهب إلى ذلك ابن حجر[٨] ولا يشك أن انعدام الأمن والخوف منهــا قد أدّى بالبعض إلى الهروب منها والالتــجاء إلى الجبال المجاورة، كما حــدث لأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، فــقد هرب من المدينة ودخل غاراً والسيف فى عنقه، ودخل عليــه شامى فأمره بالخروج، فقــال: لا أخرج وإن تدخل قتلتك، فدخل عليه فوضع أبو سعيد الســيف وقال: بؤ بإثمى وإثمك، قال: أنت أبو سعيد الخدرى؟ قال: نعم، قال: فاستغفر لى. فخرج[٩]. وقد ذكر الواقدى أنّ أهل الشام نتفوا لحيته انتقامًا منه، ولكن هذا لم يرد من طريق صحيحة[١٠]. ولكن الشىء الذى يجب التنبه إليه هو أن

(١) مواقف المعارضة صـ٤٢٤.
(٢) منهاج السنة (٤/ ٧٧٥).
(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨) بإسناد حسن .
(٤) الطبقات الكبرى، نقلا مواقف المعارضة صـ٤٢٧ .
(٥) الطبقات(٥/ ٢٢٥)، مجمع الزوائد(٧/ ٢٤٩). .
(٦) السنة للخلال صـ٥٢٠، طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٧) .
(٧) الوصية الكبرى صـ٤٥٢ .
(٨) تهذيب التهذيب (١١/ ٣١٦) .
(٩) تاريخ خليفة صـ٢٣٩، إسناد صحيح.
(١٠) مجمع الفوائد (٧/ ٢٥٠)، مواقف المعارضة صـ٤٣١.

النهب لم يمثل كل أهل المدينة، فلم نسمع أن ابن عمر قد انتهبت داره، أو على بن الحسين، أو غيره من الذين لم يقفوا بجانب المعارضين، وإنما كان الانتهاب فى الأماكن التى يدور فيها القتال وتعرف بالمعارضة للحكم الأموى[(١)].

لقد أخطأ يزيد خطأ فاحشًا فى قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير، فإنه وقع فى هذه الأيام الثلاثة من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه، فعاقبه الله بنقيض قصده، فقصمه الله قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر[(٢)]، قال رسول الله ﷺ: **«لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء»**[(٣)] ومن الأحاديث التى تدل على شناعة جريمة إخافة أهل المدينة وتبين سوء عاقبة فاعلها[(٤)] قوله ﷺ: **«من أخاف أهل المدينة أخافه الله عز وجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً»**[(٥)].

٧ ـ ما قيل حول انتهاك الأعراض: لم نجد فى كتب السنة أو فى تلك الكتب التى ألفت فى الفتن[(٦)]، وكذلك لم نجد فى المصدرين التاريخيين المهمين عن هذه الفترة وهما (الطبرى والبلاذرى) أى إشارة لوقوع شىء من ذلك، وهما قد اعتمدا على روايات الإخباريين المشهورين مثل عوانة بن الحكم وأبى مخنف الشيعى وغيرهما[(٧)]، وأول من أشار إلى انتهاك الأعراض، المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥هـ، حيث قال المدائنى عن أبى قرة عن هشام بن حسان قال: وَلَدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زوج. ويعتبر ابن الجوزى هو أول من أورد هذا الخبر فى تاريخه[(٨)]، وفى رسالته الخاصة التى ألفها فى الطعن على يزيد بن معاوية وإظهار مثاليه[(٩)]، وقد نقلها عن ابن الجوزى السمهودى مؤرخ المدينة المتوفى فى القرن العاشر الهجرى[(١٠)]، ويبدو أن الطبرى، والبلاذرى، وخليفة بن خياط وغيرهم، لم يقتنعوا بصحة هذا الخبر، فإنهم قد أعرضوا عنه ولم يدخلوه فى كتبهم، ولا يوجد خبر صحيح

---

(١) مواقف المعارضة صـ٤٣١ .
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٢٧) .
(٣) البخارى رقم ١٨٧٧ .
(٤) من تصلى عليهم الملائكة ومن تلعنهم؟ صـ٦٨ .
(٥) مسند أحمد (٢٧/ ٩٤)، إسناده صحيح. مؤسسة الرسالة .
(٦) انظر: الفتن لنعيم بن حماد، والفتن لأبى عمرو الدانى.
(٧) مواقف المعارضة صـ٤٢٢.
(٨) المنتظم (٦/ ١٥) .
(٩) رسالة فى جواز لعن يزيد، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٤٣٣ .
(١٠) وفاء الوفا (١/ ١٣٤).

الإسناد فى حادثة الاغتصاب المزعومة. وقد ورد فى دلائل النبوة للبيهقى من طريق يعقوب ابن سفيان قال: حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير بن المغيرة قال: أنهب مسرف بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، فزعم المغيرة أنه افتض فيها ألف عذراء[1]، ومن الجدير بالذكر أن كل من أورد خبر انتهاك أعراض أهل المدينة في معركـة الحرَّة قد اعتمد على رواية يعقوب أو رواية المدائنى فقط[2]، وكلتاهما لا تصح ولا تثبت، وقد ذكر العصامى فرية لم يسبق إليها حيث قال: وافتض فـيها ألف عذراء وإن مـفتضهـا فعل ذلك أمام الوجه الشريـف، والتمس ما يمسح به الدم فلم يجد ففـتح مصحفًا قريبًا منه ثم أخذ من أوراقه ورقـة فمسح بها، نعوذ بالله ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه[3]، وقد أطلق العنان بعض الكتّاب لرغباتهم وأهوائهم ولم يستندوا إلى أى دليل، والروايات المتعلقة بالاغتصـاب لا يمكن الاعتماد عليها[4]، ثم إن القرائن المصاحبة لمعركة الحرّة تنفى وجود أى نوع من الاغتصاب، وقد رأينا أن الروايات الحسـنة التى ذكرت انتـهاب المدينة -وأثبـتناها فى مـوضعهـا- لم يرد فـيهـا ذكر لانتـهاك الأعراض[5].

إن انتهاك أعراض نسـاء المدينة لا أساس له من الصحة، وإنها روايات جـاءت متأخرة، وبدافع حزبى بغيض، يتخذ من الكره والتعصب ضد التاريخ الأموى دافعًا له، وتهدف إلى إظهار جـيش الشام -الذى يمثل الجـيش الأموى- جيـشًا بربريًا لا يسـتند لأسس دينية أو عقائدية أو أخلاقـية، وهذا الاتهام لا يقصد به اتهام الجـيش الأموى فقط، بل إنَّ الخطورة التى يحملها هذا الاتهام تتعدى إلى ما هو أعظم من مجرد اتهام الجيش الأموى، إلى اتهام الجيش الإسلامى الذى فتح أصقاعـًا شاسعة فى تلك الفترة[6]، وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى إنكار ذلك مثل د. نبيه عاقل[7]، ود. العرينان[8]، ود. العقيلى[9]، وكذلك فلهاوزن[10]، وقام الشيبانى بدراسة عميقة حول الموضوع وأثبت بطلان هذه الأكاذيب[11].

٨ ـ أخذ البـيعة من أهل المدينة ليزيد بن مـعاوية: تعد الكيفـية التى تمّ بها أخذ البـيعة من المدنيين من أكبر الأمور التى انتقد فيها يزيد بن معاوية، فقد وردت الروايات لتبين أن مسلم

(١) دلائل النبوة (٦/ ٤٧٥)، مواقف المعارضة صـ٤٣٤ . (٢) مواقف المعارضة صـ٤٣٧ .

(٣) سمط النجوم العوالى (٣/ ٩٢)، مواقف المعارضة صـ٤٣٨ .

(٤)، (٥) مواقف المعارضة صـ٤٣٩. (٦) المصدر نفسه صـ٤٣٩ - ٤٤٦ .

(٧) تاريخ خلافة بنى أمية صـ١٢ . (٨) إباحة المدينة وحريق الكعبة .

(٩) خلافة يزيد بن معاوية للعقيلى صـ٦٩ . (١٠) تاريخ الدولة العربية فلها وزن صـ١٥٤، ١٥٥ .

(١١) مواقف المعارضة صـ٤٣٢ - ٤٤٤.

ابن عقبة أخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم عبيد ليزيد بن معاوية، يتصرف فى دمائهم وأموالهم كيفما يشاء، فهناك رواية مجملة تفيد بذلك، وذلك بعد انتهاء معركة الحرّة، وتضيف الرواية: على أن البيعة تضمنت الحرية الكاملة ليزيد بن معاوية للتصرف فى دمائهم وأموالهم وأهلهم(١)، وتضيف إحدى الروايات صيغة أخرى لأخذ البيعة من أهل المدينة، فتذكر الرواية: أنهم بايعوا كعبيد ليزيد فى طاعة الله ومعصيته. وهذه الروايات أسانيدها ضعيفة جدًا، ثم إن متونها يكتنفها الغموض، فليس هناك تفصيل وبيان عمن بايع على هذه الصفة، وهل كل المدنيين بايعوا هذه البيعة بمن فيهم ابن عمر وعلى بن الحسين وأبو سعيد الخدرى وسعيد بن المسيب، وغيرهم من الذين لم يشتركوا فى محاربة أهل الشام؟ والذى يبدو من خلال مجمل الروايات أنه فور انتهاء معركة الحرّة دعا مسلم بن عقبة الناس للبيعة، كما يبدو أن البيعة أخذت من جميع الناس(٢)، حتى إن على بن الحسين قد أتى به إلى مسلم بن عقبة فأكرمه مسلم، وذلك بسبب وصية يزيد لمسلم بوجوب حسن معاملة الحسين بن على، مما يدل على أن أهل المدينة ـ الخارج على طاعة يزيد والمقر بطاعته - كلهم قد دعوا إلى مسلم بن عقبة(٣)، ولقد وردت روايات أخرى تفصل وتبين هذه البيعة، وتجعلها لفئة مخصوصة، وكان الدافع لذلك هو غضب مسلم بن عقبة على هذه الفئة ومحاولته الخلاص إلى قتلهم بتلك البيعة(٤)، يقول الدكتور يوسف العش: وبعد انتهاء معركة الحرّة أحضر مسلم مدبرى الفتن واستعرضهم، وطلب إليهم أن يبايعوه على أنّهم خول ليزيد، ويحكم فى أهلهم ودمائهم وأموالهم ما يشاء، فلم يقبلوا بأن يبايعوا هذه البيعة فقتلهم، وكان يريد أن يقضى على فتنتهم بالصغار، والحط من منزلتهم والتحقير من شأنهم، بحيث يعتبرون عبيدًا، هم وما يملكون(٥). وهذا انحراف عظيم عن شرع الله تعالى، ودليل على عسف الدولة وظلمها وجبروتها وقسوتها وتجاوزها الحدود المعقولة والمنقولة بسبب غضبها وحنقها على أهل المدينة.

٩ ـ **وفاة مسلم بن عقبة - (٦٤)هـ**: نفذ مسلم وصية يزيد بحذافيرها، فلم يفاجئ أهل المدينة بالقتال، ولكنه أنذرهم وحذرهم، ولما مضت الثلاث، حاول إقناعهم وألحّ عليهم أن

---

(١) تاريخ خليفة صـ٢٣٩ بإسناد صحيح حتى جويرية بن أسماء، أنساب الأشراف (٤/ ٣٣٥) .

(٢) تاريخ ابن عساكر، ترجمة معقل بن سنان، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٤٤٥ .

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ١٢٥)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢٠، ٣٢١) .

(٤) مواقف المعارضة صـ٤٤٦.

(٥) الدولة الأموية صـ١٧٦.

يقبلوا السـلام، وأن يكفوا عن القتال، ولكنهم سبوه وشتموه وردوا عليه أمانه، ويا ليت مسلمًا تروى واستمر فى حصار المدينة المحرمة، ولكن غلبه حبه لسفك الدماء، فدخل المعركة وأنزل بأهل المدينة روعًا عظيمًا، وأعمل فيهم السيوف وقتل خيارهم، وشتت شملهم ولم ينج منهم إلا أسير أو هارب إلى مكة لينضم إلى ابن الزبير، وقد أسرف مسلم فى قتل المسلمين حتى بعد انتهاء المعركة فقتل رجالاً خرجوا من المعركة سالمين، ولم يكن له ليقتلهم وقد انتهت المعركة؛ واستسلمت المدينة، ولكن غلب عليه طبعه، وجرى فى عروقه دم الشر الذى فطر عليه، فكان يقتل الرجل لمجرد أن يقول إنه يبايع على كتاب الله وسنة رسوله، أو يبايع على سنة أبى بكر وعمر، وبالطبع لم يكن هذا -أبدًا- مبررًا لسفك دماء وإزهاق أرواح[1]، ولكنه الظلم والعسف والتجبر والطغيان.

وفى أوّل المحرم من عام ٦٤هـ بعد فراغ مسلم من حرب المدينة سار إلى مكة قاصدًا قتال ابن الزبير، ولما بلغ ثنيَّة هرْش[2]، بعث إلى رءوس الأجناد فجمعهم فقال: إنّ أمير المؤمنين عهد إلىَّ إن حدث بى حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السَّكونى، ووالله لو كان الأمر لى ما فعلت. ثم دعا به فقال: انظر يا ابن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به. ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث، ثم قال: اللهم إنى لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله أحب إلىّ من قتلى أهل المدينة ولا أرجى عندى فى الآخرة، وإن دخلت النار بعد ذلك إنى لشقىٌّ. ثم مات -قبحه الله- ودفن بالمُشلل[3]. انظر إلى شدة جهله وحماقته وكيف كان يعتقد أنه يتقرب بقتل هؤلاء إلى الله، وأنه يزداد بقتلهم قربى منه ـ سبحانه ـ والناظر فى دعائه يستشعر الأسباب التى جعلت مسلمًا يدير المعركة بشراسة، ويسرف فى دماء المسلمين من غير وازع ولا رادع، فقد كان مسلم يعتقد أن قتل أهل المدينة قربى إلى الله، فأسرف فى القتل، وكان يؤمن بأن قتلهم هو السبيل إلى الجنة، فأمعن فى سفك الدماء، ولو أن الأحمق الجاهل الذى كان حريصًا أشد الحرص على طاعة أمير المؤمنين ولم يحرص -قط- على طاعة الله، وكان يكره معصية أمير المؤمنين عند الموت، بقدر ما كان يكره طاعة الله فى عباده، لو أنه فقه أن زوال الدنيا عند الله أهون من سفك دم امرئ مسلم، ولو أنه علم أن ما فعله أهل المدينة لا يبيح دماءهم

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٣) .

(٢) هرْش: مكان مرتفع من طريق مكة، قريب من الجحفة .

(٣) بين مكة والمدينة، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٣).

ولا تستباح أموالهم، لو أنه علم ذلك لكان يكفيه من إدارة المعركة القدر الذى يخضع الناس ليزيد[1].

١٠ ـ كيف استقبل يزيد خبر موقعة الحرّة؟ ولما بلغ يزيد خبر أهل المدينة وما وقع بهم قال: واقوْماه! ثم دعا الضحّاك بن قيس الفهرى فقال له: ترى ما لقى أهل المدينة، فما الرأى الذى يجبرهم؟ قال: الطعام والأعطية، فأمر بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطيته. وهذا خلاف ما ذكره كذبة الشيعة عنه من أنه شمت بهم وتشفّى بقتلهم[2]، وأنه أنشد من شعر ابن الزِّبَعْرَى:

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأَسَلْ
حين حكّت بقُباء بَرْكها ... واستحرَّ القتل فى عبد الأَشَلْ
وقد قتلنا الضّعف من أشرافهم ... وعَدَلْنا ميل بدر فاعتدل

وقد زاد بعض كذبة الشيعة فيها:

لعبت هاشم بالملك فلا ... مَلَكٌ جاء ولا وحىٌ نزل[3]

قال ابن كثير: فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه عليه ليُشنِّع عليه به وعلى ملوك المسلمين[4]، وقال ابن تيمية على أبيات الشعر: ويعلم بطلانه كل عاقل[5]. لقد وقع يزيد فى خطأ مروّع، لا تهون منه الاعتذارات والمواساة، وهو الأمر باستباحة المدينة للمحاربين ثلاثة أيام ينهبون ويسرقون، مما أدى إلى فساد خطير وشر مستطير، وفتح على يزيد بابًا أدى إلى تشويه سمعته، وبغض المسلمين فى خلافته، وبخاصة أن المسلمين لم ينسوا -بعد- مقتل الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ حيث لم تجف دماؤه على ثرى كربلاء[6].

رابعًا: أهم الدروس والعبر والفوائد:

١ ـ دواعى فشل أهل المدينة: لقد كان محكومًا على حركة المدينة بالفشل، لأنهم لم يوحّدوا صفوفهم، ولم يكن لهم قائد واحد، لأن تعدد القوّاد فى المعركة من دواعى الهزيمة، وهذا ما تنبأ به عبد الله بن عباس عندما سأل عن حالهم فقيل: استعملوا عبد

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٥).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٥).
(٣) المصدر نفسه (١١/ ٦٣١).
(٤) المصدر نفسه (١١/ ٦٣١).
(٥) منهاج السنة (٤/ ٥٥٠).
(٦) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٣).

الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. فقال ابن عباس: أميران؟ هلك القوم[1]، ولو حصل الانتصار، فدواعى اشتعال الفتنة موجودة ممن يكون الخليفة؟ هل يتولاها رجل من قريش أم من الأنصار؟ فهم لم يعلنوا أنهم تبع لابن الزبير[2]، ومن دواعى الفشل: قلة ما تحت أيديهم من الأرزاق، ولو استمر الحصار مدة طويلة لهلك الناس من الجوع، لأن ما بها من الميرة لا يكفيها لسد حاجتها أيامًا وجل طعامها يأتيها من التجارة، أو من بساتين خارج حدود المدينة، فكيف يغادر هؤلاء فى حرب ليس عندهم مؤونة لها، يقفون أمام جند الشام المدعمين بالسلاح والمال؟ ومن دواعى فشلهم: عدم بروز هدف يريدون تحقيقه بعد خلع يزيد والنصر؛ وإذا كان هدفهم خلع يزيد؛ فهل كانوا يريدون أن تكون إمارة مستقلة؟ وهذا غير ممكن. وإذا كان هدفهم تولية ابن الزبير، لماذا لم يرفعوا راية واحدة باسم ابن الزبير، ولماذا لم يطلبوا المدد منه؟ ولو ضم ابن الزبير جنده إلى جند المدينة، لتكونت قوة تستطيع أن تقف أمام جيش مسلم بن عقبة، ولكنهم عندما وزعوا قواتهم وعددوا معاركهم استطاع الأمويون أن ينتصروا عليهم وهم متفرقون[3].

٢ ـ موقف زعامة المدينة المنورة: لم تكن زعامة المدينة المنورة راضية عن هذه الثورة، فهناك أسرتان كبيرتان من المهاجرين عارضتا أهل المدينة، وهما آل الخطاب، وآل هاشم، وعلى رأس آل الخطاب، شيخ الصحابة فى زمانه وفقيههم عبد الله بن عمر، ومن آل هاشم عبد الله بن العباس وعلى بن الحسين ومحمد ابن الحنفية[4].

٣ ـ رأى ابن تيمية:.. وقلّ من خرج على إمام ذى سلطان إلا وكان ما تولد على فعله من الشرّ أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة، فإنهم هزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا دنيا، ولا أبقوا دينا، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل فيه صلاح الدين ولا صلاح الدنيا.. وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال فى الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، وعلى بن الحسين، وغيرهم، ينهون عام الحرّة عن الخروج على يزيد[5].

٤ ـ عناية المؤرخين بمعركة الحرّة: لم تجد معركة الحرّة من المؤرخين كما لاقى غيرها من الحوادث التى حصلت أيام يزيد بن معاوية، ولم يفرد المؤرخون المحدثون عنها أبحاثًا كما

(١) العقد الفريد (٤/٣٨٨)، المدينة فى العصر الأموى صـ١٣٤ .

(٢) المدينة فى العصر الأموى صـ١٣٤ . (٣)، (٤) المصدر نفسه صـ١٣٥.

(٥) منهاج السنة (٢/٢٤١).

أفردوا عن الحركـات الأخرى، ولو قارنا بينهـا وبين حركة الحسـين لوجدنا فرقًا كـبيرًا فى النتائج، فمـجموع ما قتل فى مـعركة الحرّة أضعاف مـا قتل مع الحسين، وقتل فى مـعركة الحرّة رجال مـشاهير لهم منزلة صحبـة وجهاد، من هؤلاء عبـد الله بن زيد حاكى وضوء رسول الله ﷺ[1]، ومعقل بن سنان[2] وفيه يقول الشاعر:

وأصـبـحت الأنصـار تبكى سـراتهـا   وأشـــجع تبكـى مـعـــقل بـن سنان

وعبد الله بن حنظلة الغـسيل مع ثمانية من بنيه، وهؤلاء الرجـال مكانتهم فى الإسلام عالية، ومصيبة المسلمين فيهم عظيمة؛ وهى مـصيبة تضاف إلى مصيبة المسلمين فى الحسين رضى الله عنه -على مكانته وفـضله وسيادته عند المسلمـين -وهذا ما يجعل معـركة الحرّة فاجعة كبيرة كما هى معركة كربلاء.

****

---

(١) عبد الـله بن زيد بن عاصم بن كعب الأنصارى، صـحابى شهد بدرًا، وله ثمـانية وأربعون حديثـًا، الإصابة رقم٤٦٨٨.

(٢) معقل بن سنان، صحابى من القادة الشجعان، كانت معه راية قومه يوم حنين وفتح مكة.

المبحث الخامس

حركة عبد الله بن الزبير فى عهد يزيد

كان ابن الزبير رضى الله عنه قد عقد العزم على عدم البيعة ليزيد، واختار الذهاب والاستقرار بمكة.

أولاً: أسباب اختيار ابن الزبير لمكة:

اجتمعت عدة أسباب جعلت مكة أنسب مكان يمكن أن يتجه إليه ابن الزبير- فى نظره - ومن أهمها ما يلى:

١ ـ أنها المكان الوحيد الذى يمكن اللجوء إليه فى هذه الفترة؛ وذلك لأن الأقاليم الأخرى ليست مناسبة، فالعراق -بمصريه الكوفة والبصرة- لا يمكن ضمان ولاء أهله لأى زعيم معارضة ضد بنى أمية، وما فعلوه مع الحسين خير دليل على ذلك، وكان ابن الزبير يعى ذلك تمامًا حينما نصح الحسين بعدم الذهاب إلى العراق[1]، فقال له: أين تذهب؟! إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟ أما مصر واليمن فقد كانتا بعيدتين عن مسرح الأحداث، ولم يكن لابن الزبير فى هذين الإقليمين أنصار ومؤيدون يمكن أن يعتمد عليهم، وأما الشام فكما هو معروف كان معقل الأمويين.

٢ ـ إن مكة ـ لوجود بيت الله فيها ـ كانت بلدًا حرامًا ولا يجوز سفك الدماء بها، وهذا يكفل لمن يعتصم بها حماية من القتل إلا إذا ارتكب حدًا يوجب ذلك، وعلى أقل تقدير فوجود هذا الحكم الخاص بمكة يجعل التفكير باستخدام القوة آخر حل يُلجأ إليه.

٣ ـ وكما أن مكة بلد له مكانته وقدسيته فى نفوس المسلمين، فإن من يتعرض له بالإيذاء سيواجه معارضة من قبل العديد من المسلمين الذين سيهبون للدفاع عن بيت الله الحرام بغض النظر عمن يعتصم به، وقد أفاد ابن الزبير من هذه النقطة كثيرًا.

٤ ـ أنه يجتمع بمكة فى موسم الحج كل عام الألوف من المسلمين من مختلف الأقاليم، ويمكن من خلال هذا الموسم التأثير على الرأى العام وتوجيهه، وهو ما لا يمكن توافره فى أى إقليم.

(١) نسب قريش صـ٢٣٩، للزبيرى.

٥ ـ أن مكة بدأت منذ هجرة النبى ﷺ والصحابة إلى المدينة تفقد دورها السياسى؛ وبالتالى فإن قبضة الأمويين عليها لم تكن قوية بعكس وضع المدينة.

٦ ـ وأخيرًا فإن معارضة ابن الزبير مرتبطة بأهل المدينة الذين يقفون معه الموقف نفسه ضد بنى أمية، وبالتالى كان من المناسب أن يكون ابن الزبير قريبًا من المدينة ليضمن استمرار تأييد أهلها له، ولكى يتمكن من الاتصال المستمر بهم(١).

ثانيًا: أسباب خروج ابن الزبير ومن معه:

كان مقصد ابن الزبير رضى الله عنه ومن معه -ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين كالمسور بن مخرمة، وعبد الله بن صفوان، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من فضلاء عصرهم- هو تغيير الواقع بالسيف لما رأوا تحول الخلافة إلى وراثة وملك، ولما أشيع حول يزيد من شائعات أعطت صورة سيئة للخليفة الأموى فى دمشق، والذى ينبغى أن يفهم أن ابن الزبير قام لله، وليس كما يقول البعض، مثل محمد ماهر حمادة عندما قال: وعلى الرغم من أن حركة ابن الزبير لم تكن سوى مزيج عجيب، من عدد من العناصر، يحركها طموح شخصى، وصراع قبلى، التقتا فى نفس ابن الزبير، وشخصيته(٢). لقد كان رضى الله عنه يهدف من وراء المعارضة أن تعود الأمة إلى حياة الشورى ويتولى الأمة حينئذ أفضلها، وكان يخشى من تحول الخلافة إلى ملك، وكان يرى رضى الله عنه أنه باستعماله للسيف وتغييره للمنكر بالقوة يتقرب إلى الله ويضع حدًا لانتقال الخلافة إلى ملك ووراثة، ولهذا لم يدعُ لنفسه حتى توفى يزيد بن معاوية(٣). وكان ابن الزبير يخطب ويقول: والله لا أريد إلا الإصلاح وإقامة الحق، ولا ألتمس جمع مال ولا ادخاره(٤) وكان يقول: اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى، وجاهدت فيك عدوك فأثبنى ثواب المجاهدين(٥). وقال عبد الله بن صفوان بن أمية لابن الزبير: إنى -والله- ما قاتلت معك إلا عن دينى(٦)، والروايات فى هذا المجال كثيرة جدًا، وهى تدل على النظرة الحقيقية لمعارضة ابن الزبير -وكذلك أهل المدينة- حيث اعتبروها جهادًا فى سبيل الله(٧)، إن الحسين بن على وابن الزبير وأهل الحرَّة -رضى الله عنهم- كان خروجهم من أجل الشورى لأسباب مشروعة منها:

(١) عبد الله بن الزبير والأمويون صـ٧٠، ٧١، عبد الله بن عثمان.
(٢) الوثائق السياسية للجزيرة العربية صـ١٨
(٣) الطبقات (٥/ ١٤٧).
(٤) أنساب الأشراف (١/ ٣١٥).
(٥) تاريخ ابن عساكر، نقلا عن عبد الله بن الزبير والأمويون ص٦٧.
(٦) أخبار مكة للفاكهى (٢/ ٣٦٤).
(٧) عبد الله بن الزبير والأمويون صـ٦٧.

١ ـ دفاعًا عن حقهم الذى جعله الله لهم ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

٢ ـ أن هذا الاغتصاب منكر وظلم تجب إزالته.

٣ ـ تمسكًا بالسنة وهدى الخلفاء الراشدين فى باب الخلافة[١].

وساعد فى تحقيق أهداف ابن الزبير والتفاف الناس من حوله عدة أمور منها: رد الفعل الذى أحدثته معركة كربلاء، سوء سيرة يزيد، سرعة يزيد فى عزل ولاة الحجاز مركز الثقل السياسى كما كان زمن الرسول والخلفاء الراشدين[٢].

ثالثًا: الجهود السلمية التى بذلها يزيد لاحتواء ابن الزبير:

كان ابن الزبير يدرك الخطورة التى ستلحق بالحسين إذا خرج إلى الكوفة، ولذا ناشده عدم الذهاب إلى الكوفة قائلاً: أين تذهب؟! إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟![٣]. وكان ابن الزبير يدرك أن الحسين إذا أصيب فى العراق، فإن النتائج ستنعكس عليه وسيكون المنفرد فى الساحة، وبالتالى يسهل القضاء عليه، وقد حرص ابن الزبير على إشعار الحسين بمكانته وأن وجوده فى مكة يحظى بالتأييد من أهلها وبالأخص من ابن الزبير نفسه، ولذا فقد بادره بفكرة جريئة فقال للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك، وبايعناك[٤]، ويبدو أن ابن الزبير رغب أن تكون القيادة العامة بيد الحسين نظرًا لمكانته ووجاهته، واحترام المسلمين له. ويكون بيده التخطيط لمجابهة يزيد بن معاوية، وبالأخص أنه يملك رصيدًا كبيرًا من المشاركات الحربية الناجحة فى عمليات الجهاد الإسلامى، وكان يرغب فى جعل ركيزة الانطلاق فى المعارضة هى بلاد الحجاز، وذلك نظرًا لصدق أهلها، ووجود العبّاد والصالحين والعلماء من الصحابة وكبار التابعين بها، ثم وجود الحرمين ومكانتهما، فإذا تمت لهما السيطرة على بلاد الحجاز، فإن قضيتهما ستكسب بعدًا كبيرًا فى الأقاليم الإسلامية، فالناس تؤم الحرمين للعمرة والحج والزيارة، وبالتأكيد سينقلون أخبار المعارضين ومكانتهما، مما سيؤدى إلى تعاطف وتأييد وأنصار من تلك الأقاليم، ولما خرج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة وقتل يوم عاشوراء من سنة إحدى وستين بكربلاء كان لذلك وقع كبير على ابن الزبير، فالذى يخشاه ابن الزبير -وهو انفراد الأمويين به- قد حدث، ثم إن الرجل الذى كان يضفى مكانة ومنزلة على المعارضة قد

(١) انظر: الحرية والطوفان صـ١٢٤، ١٢٥.

(٢) عبد الله بن الزبير د. شحادة الناطور صـ٩٦ - ٩٨.

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/٩٥)، بسند حسن. (٤) أنساب الأشراف (٤/١٣)، مواقف المعارضة صـ ٥١٨.

قتل، ومع ذلك لم يحدث تحرك من الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين رضى الله عنه[1]، ولعل انفراده بالمعارضة ضد يزيد هو الذى جعل ابن خلدون يقول: ولم يبق فى المخالفة لهذا العهد - الذى اتفق عليه الجمهور - إلا ابن الزبير، ونُدور المخالف معروف[2]، وقد أحس ابن الزبير بخطورة موقفه، ولكنه حاول أن يستفيد من دوافع الكره والمقت التى تعتلج فى نفوس الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين[3].

١ - **أول هجوم مباشر وصريح من ابن الزبير على يزيد:** عندما سمع ابن الزبير بمقتل الحسين رضى الله عنه قام خطيبًا فى مكة وترحم على الحسين وذم قاتليه، وقال: أما والله لقد قتلوا طويلاً قيامه، وكثيراً فى النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى بما هم فيه منهم، وأولى به فى الدين والفضل، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء، ولا البكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شراب الحرام، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى طلب الصيد - يعرّض بيزيد - فسوف يلقون غيًا[4]. ونظرًا للمشاعر العاطفية التى أثرت على أهل الحجاز عمومًا بسبب قتل الحسين رضى الله عنه فقد أبدى البعض استعداده لبيعة ابن الزبير[5]، ولاحظ ابن الزبير مشاعر السخط التى عمّت أهل الحجاز بسبب قتل الحسين رضى الله عنه، فأخذ يدعو إلى الشورى وينال من يزيد ويشتمه[6]، ويذكر شربه للخمر، ويثبط الناس عنه، وأخذ الناس يجتمعون إليه فيقوم فيهم، فيذكر مساوئ بنى أمية ويطنب فى ذلك[7].

٢ - **مساعى يزيد السلمية:** لم يحاول يزيد فى بداية الأمر أن يعمل عملاً من شأنه أن يعقّد النزاع مع ابن الزبير، ولهذا فلقد أرسل إليه رسالة يذكّره فيها بفضائله ومآثره فى الإسلام، ويحذره من الفتنة والسعى فيها، وكان مما قال له: أذكرك الله فى نفسك فإنك ذو سن من قريش، وقد مضى لك سلف صالح، وقدم صدق من اجتهاد وعبادة، فاربب صالح ما مضى ولا تبطل ما قدمت من حسن، وادخل فيما دخل فيه الناس، ولا تردهم فى فتنة، ولا تحل ما حرم الله. فأبى أن يبايع[8].

٣ - **غضب يزيد على ابن الزبير:** لم يستجب ابن الزبير لدعوة يزيد السلمية، ورفض بيعته، وأقسم يزيد على أنه لا يقبل بيعة ابن الزبير حتى يأتى إليه مغلولاً[9]، ولقد حاول

(١) مواقف المعارضة صـ٥١٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٦٥) .
(٣)، (٤) مواقف المعارضة صـ٥٢٠ .
(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٤) .
(٦) المصدر السابق (٤/ ٣٠٤) .
(٧) أخبار مكة (١/ ٢٠١)، بسند كل رجاله ثقات .
(٨) أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٣، ٣٠٤) .
(٩) أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٤)، أخبار مكة (٢/ ٣٥١) إسناده حسن .

معاوية بن يزيد أن يثني والده عن هذا القسم، وذلك لمعرفته بابن الزبير، وأنه سيرفض القدوم على يزيد وهو في الغل، وكان معاوية بن يزيد صالحًا تقيًا ورعًا يجنح للسلم ويخشى من سفك دماء المسلمين، وساند معاوية في رأيه عبد الله بن جعفر، ولكن يزيد أصر على رأيه، وحتى يخفف يزيد من صعوبة الموقف على ابن الزبير، فقد بعث بعشرة من أشراف أهل الشام، وأعطاهم جامعة من فضة، وبرنس خز[1]، وفي رواية أخرى: أن يزيد بعث لابن الزبير بسلسلة من فضة وقيد من ذهب، وجامعة من فضة[2]. وعند وصول أعضاء الوفد إلى مكة تكلم ابن عضاة الأشعري، وقال: يا أبا بكر، قد كان من أثرك في أمر الخليفة المظلوم ـ يعني عثمان بن عفان ـ ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يجهل، وقد غضب أمير المؤمنين بما كان من إبائك مما قدم عليك فيه النعمان بن بشير، وحلف أن تأتيه في جامعة خفيفة لتحل يمينه، فالبس عليها برنسًا فلا ترى، ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذي لا يخالف في ولاية ولا مال[3].

٤ ـ ابن الزبير يفكر ويستشير في عرض يزيد: استأذن ابن الزبير الوفد بضعة أيام يفكر ويستشير، فعرض الأمر على والدته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، فقالت: يا بني، عش كريمًا ومت كريمًا، ولا تمكن بني أمية من نفسك، فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا[4].

وكان مروان بن الحكم قد بعث ابنه عبد العزيز وقال له: قل لابن الزبير: إن أبي أرسلني عناية بأمرك وحفظًا لحرمتك، فابرر يمين أمير المؤمنين، فإنما يجعل عليك جامعة من فضة أو ذهب وتكسى عليه برنسًا فلا تبدو إلا أن يسمع صوتها، فكتب ابن الزبير إلى مروان يشكره[5]، وجاء رد ابن الزبير على الوفد بالمنع[6].

٥ ـ تهديد الوفد لابن الزبير ورده عليهم: بعدما أجاب ابن الزبير على الوفد بالمنع قال لابن عضاة: إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة، أفكنت قاتلاً حمامًا من حمام مكة؟ قال: نعم، وما حرمة حمام مكة؟ يا غلام ائتني بقوسي وأسهمي فأتاه بقوسه وأسهمه، فأخذ سهمًا فوضعه في كبد القوس ثمّ سدده نحو حمامة من حمام المسجد وقال: يا حمامة، أيشرب يزيد الخمر؟ قولي: نعم. فوالله لئن فعلت لأرمينك. يا حمامة، أتخلعين يزيد بن معاوية

(١) تاريخ خليفة صـ٢٥١ إسناده حسن، مواقف المعارضة صـ٥٢١ .
(٢) الآحاد والمثاني (١/٤١٦)، بسند صحيح لابن أبي عاصم .
(٣) أنساب الأشراف (٤/٣٠٨)، مواقف المعارضة صـ٥٢٣ .
(٤) أخبار مكة (١/٢٠١) بسند كل رجاله ثقات .
(٥) نسب قريش صـ٤٤٩، مواقف المعارضة صـ٥٢٤ .
(٦) مواقف المعارضة صـ٥٢٤ .

وتفارقين أمة محمد ﷺ وتقيمين فى الحرم حتى يستحل بك؟ والله لئن فعلت لأرمينك. فقال ابن الزبير: ويحك! أو يتكلم الطائر؟ قال: لا، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم، أقسم بالله لتبايعن طائعًا أو مكرهًا أو لتعرفن راية الأشعريين فى هذه البطحاء، ولئن أمرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهدمنها أو لنحرقنها عليك، أو كما قال. فقال ابن الزبير: أو تحل الحرم البيت؟ قال: إنما يحله من ألحد فيه[1]. ثم قال ابن الزبير: إنه ليست فى عنقى بيعة ليزيد. فقال ابن عضاة: يا معشر قريش قد سمعتم ما قال، وقد بايعتم، وهو يأمركم بالرجوع عن البيعة[2]، وأخذ ابن الزبير يبسط لسانه فى تنقص يزيد وقال: لقد بلغنى أنه يصبح سكران ويمسى كذلك، ثم قال: يا ابن عضاة، والله ما أصبحت أرهب الناس ولا البأس، وإنى لعلى بينة من ربى، فإن أقتل فهو خير لى، وإن أمت حتف أنفى فالله يعلم إرادتى وكراهتى لأن يعمل فى أرضه بالمعاصى، وأجاب الباقين بنحو جوابه[3]. ثم قال ابن الزبير: اللهم إنى عائذ ببيتك[4]، ولقب نفسه عائذ الله[5]، وكان يسمى العائذ[6].

رابعًا: الجهود الحربية ضد ابن الزبير:

١ - حملة عمرو بن الزبير:

رأى يزيد أنه لابد من القيام بعمل عسكرى، يكون الهدف منه القبض أو القضاء على ابن الزبير أو حمله على الامتثال لقسم يزيد ووضع الأغلال فى عنقه، ولما حج عمرو بن سعيد بن العاص والى المدينة فى تلك السنة - والمرجح سنة إحدى وستين - حج ابن الزبير معه، فلم يصل بصلاة عمرو، ولا أفاض بإفاضته[7]، وهذا العمل من ابن الزبير يعنى المفارقة الواضحة لسلطة الدولة، وعدم الاعتراف بها، خصوصًا أن إقامة الحج تمثل الدليل الأقوى على شرعية الدولة وقوة سلطانها، مثله مثل إقامته الجهاد فى سبيل الله[8]، ثم منع ابن الزبير الحارث بن خالد المخزومى من أن يصلى بأهل مكة، وكان الحارث بن خالد المخزومى نائبًا لعمرو بن سعيد على أهل مكة[9]، وكان ابن الزبير يتصرف وكأنه مستقل عن الدولة، وكان لا يقطع أمرًا دون المسور بن مخرمة[10]، ومصعب بن عبد الرحمن بن

(١) أنساب الأشراف (٤/٣٠٩).
(٢) عيون الأخبار (١/١٩٦).
(٣) أنساب الأشراف (٤/٣٠٩).
(٤) مواقف المعارضة صـ٥٢٥، نقلا عن ابن عساكر.
(٥) الإصابة (٤/٤٩) سند صحيح.
(٦) تاريخ الطبرى، نقلا عن مواقف المعارضة صـ٥٢٥.
(٧) أنساب الأشراف (٤/٣٠٧).
(٨) مواقف المعارضة صـ٥٢٦.
(٩) تاريخ ابن عساكر، ترجمة ابن الزبير (٣٠/٢٠٠).
(١٠) التقريب ٥٣٣.

عوف، وجبير بن شيبة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، وكان يريهم أن الأمر شورى فيما بينهم، وكان يلي بهم الصلوات والجمع، ويحج بهم[(١)]، فكتب يزيد إلى عمرو بن سعيد ابن العاص واليه على المدينة أن يوجه له جُندًا، فعين عمرو بنُ سعيد بن العاص على قيادة هذه الحملة عمرو بن الزبير بن العوام أخا عبد الله بن الزبير، وكان عمرو بن الزبير قد ولي شرطة المدينة لعمرو بن سعيد، وكان شديد العداوة لأخيه عبد الله، وقام بضرب كل من كان يتعاطف مع عبد الله بن الزبير، وكان ممن ضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث[(٢)]، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام[(٣)]، وخبيب بن عبد الله بن الزبير[(٤)]، وفر منه عبد الرحمن بن عثمان، وعبد الرحمن بن عمرو بن سهيل وغيرهما إلى مكة فالتجأوا إلى ابن الزبير[(٥)]، وكان تعيين عمرو بن الزبير على قيادة الجيش المتجه لمحاربة عبد الله بن الزبير جاء بناءً على طلب من عمرو بن الزبير نفسه[(٦)]، واتجه جيش عمرو بن الزبير إلى مكة وكان قوامه ألف رجل، وجعل على مقدمته أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة من الجند[(٧)]، فسار أنيس بن عمرو الأسلمي حتى نزل بذي طوى، وسار عمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح[(٨)]، وأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه (عبد الله) يطلب منه الامتثال ليمين يزيد بن معاوية، وحذره من القتال في البلد الحرام[(٩)]، وكان عمرو بن الزبير يخرج من معسكره فيصلي بالناس خلال المفاوضات مع أخيه عبد الله. وكان عبد الله يسير معه ويلين له، ويقول: إني سامع مطيع وأنت عامل يزيد، وأنا أصلي خلفك، وما عندي خلاف، فأما أن تجعل في عنقي جامعة، ثم أقاد إلى الشام، فإني نظرت في ذلك، فرأيت أنه لا يحل لي أن أحله بنفسي، فراجع صاحبك واكتب إليه. ولكن عمرو بن الزبير اعتذر من عدم الكتابة ليزيد، وذلك لأنه جاء في مهمة محددة مطلوب منه تنفيذها. وكان عبد الله بن الزبير قد أرسل عبد الله بن صفوان الجمحي ومعه بعض الجند، وأخذوا أسفل مكة، وأحاطوا بأنيس بن عمرو الأسلمي، ولم يشعر بهم أنيس إلا وقد أحاطوا به، فقتل أنيس وانهزم أصحابه، وفي

(١) تاريخ ابن عساكر (٣٠/ ٢٠٠٠)، مواقف المعارضة صـ٥٢٧ .
(٢) نسب قريش صـ ٢١٤، ٢١٥ .
(٣) المصدر نفسه صـ٢٣٣.
(٤) المصدر نفسه صـ ٢٣٩، ٢٤٠ .
(٥) الطبقات (٥/ ١٨٥) .
(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٢)، مواقف المعارضة صـ٥٢٨ .
(٧) تاريخ الطبري، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٥٢٨ .
(٨) الأبطح: ما حاز السيل إلى الحناطين يميناً من البيت الحرام.
(٩) تاريخ الإسلام (حوادث ٦١ ـ ٨٠) صـ١٩٩ .

الوقت الذى قتل فيه وانهزم جيش أنيس بن عمرو الأسلمى، كان مصعب بن عبد الرحمن بن عـوف، يقود طائفـة أخرى من الجند نحـو عمـرو بن الزبير، الذى كـان معـسكرًا فى الأبطح، فانهزم عمـرو بن الزبير، ودخل دار رجل يقال له علقمة، فجاءه أخـوه عبيدة بن الزبير فأجاره، فأخذه إلى عبد الله، وذكـر له أنه أجاره، فقال عبد الله: أما حقى فنعم، وأما حق الناس فلأقتصن منه لمن آذاه فى المدينة[1]، وأقام عبدُ الله عمرو بنَ الزبير ليقتص الناس منه، فكل من ادعى على عـمرو بأنه فـعل به كذا وكذا وكـذا، قال له عـبد الله بن الزبير: افعل به مثلمـا فعل بك. وتذكر المصادر أن عمرو بن الزبير تعـرض لتعذيب شديد من جراء ذلك ومات تحت الضرب[2]، لقد أثبت ابن الزبير رضى الله عنه أنه يملك ذكاء ودهاء بارزين، الأمر الذى مكّنه من تحـويل القضيـة لصالحه، بعدمـا كانت فى يد يزيد بن معاوية، وكان ابن الزبير فى بداية معارضته يعـتمد على أن البيعة التى تمت ليزيد بن معاوية لم تكن بموافقـة الناس، ولا بد من مشاركـة الناس، وكان يدعو إلى الشـورى، ولم تحقق معارضة ابن الزبير أى نجاح يذكر، فخلال سنتـين أو أكثر من معارضته ليزيد لم يحدث أى تغير بشأن هيـمنة الدولة على الحجاز، فضلاً عن غيـره من الأقطار، ولكن ابن الزبير كان يهدف من التـحرش بالأمـويين إلى إيقاع يزيد فى مـأزق المواجهة، لقـد ارتكب يزيد خطأ فادحًا عندما أقسم أن يأتيه ابن الزبير إلى دمشق فى جامعة، فكيف يعقل من صحابى جليل تجاوز الستين من عمره أن يرضخ لطلب يزيد بن مـعاوية، ولقد استطاع ابن الزبير أن يظهر يزيد أمام أهل الحجاز بأنه شخص مـتسلط ليس أهلاً لولاية المسلمين، وجعلت هذه الحادثة من ابن الزبير -فـى نظر الكثير من المتـمردين- طالب حق يواجـه خليفة يحـمل الظلم فى أحكامه والتعسف فى قراراته، والذى مكّن ابن الزبير وأكسبه الكثير من التعاطف هو موقف أميـر المدينة ـ عمرو بن سعـيد ـ فكان هذا الأميـر ـ كما تذكـر الروايات ـ شديدًا على أهل المدينة معرضًا عن نصحهم متكبرًا عليهم[3]. ثم ذلك الخطأ الكبير الذى وقع فيه عمرو بن الزبير، الذى تصـفه الروايات أيضًا بأنه عظيم الكبر شـديد العجب، ظلوم قد أسـاء السيرة وعسف الناس، وأخـذ من عرفه بموالاة عـبد الله والميل إليه، فـضربهم بالسيـاط. ويقال: عمرو لا يُكلم، ومن يكلمه يندم[4]. ومن الأخطاء التى وقع فيها يزيد بن معاوية، وعمرو

(١) الطبقات (٥/ ١٨٥)، أنساب الأشراف (٤/ ٣١٢).

(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٦)، تاريخ الإسلام حوادث سنة ٦١ هـ.

(٣) الموفقيات للزبير بن بكار صـ١٥٢، نقلاً عن مواقف المعارضة صـ٥٣١ .

(٤) أنساب الأشراف (٤/ ٣١١)، مواقف المعارضة صـ٥٣١ .

ابن سعيد بن العاص والى المدينة -واستطاع ابن الزبير أن يوظفها لصالحه- غزو مكة بجيش، فمكة لها حرمتها وخصوصيتها فى الجاهلية ثم جاء الإسلام فزادها مكانة وقداسة على مكانتها تلك التى كانت فى الجاهلية، وقام عمرو بن سعيد يتحدى مشاعر المسلمين فى المدينة حين رقى المنبر فى أول يوم من ولايته على المدينة، فقال عن ابن الزبير: تعوَّذ بمكة، فوالله لنغزونه، ثم والله لئن دخل الكعبة لنحرقنها عليه، على رغم أنف من رغم[1]. ولما جهّز الحملة التى سيوجهها لابن الزبير فى مكة، نصحه بعض الصحابة وحذّروه وذكّروه بحرمة الكعبة وبحديث رسول الله ﷺ فى بيان حرمتها، ولكنه رفض السماع لنصحهم[2]، وكان مروان بن الحكم -وهو الأمير المحنك والسياسى الداهية- قد حذّر عمرو بن سعيد من غزو البيت وقال له: لا تغز مكة، واتق الله ولا تحل حرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر، هذا له بضع وستون سنة، وهو رجل لجوج، والله لئن لم تقتلوه ليموتن، فقال له عمرو: والله لنقاتلنّه، ولنغزونّه فى جوف الكعبة على رغم أنف من رغم، فقال مروان: والله إن ذلك يسوؤنى[3]. وكان عبد الله بن الزبير قد اختار لقبًا مؤثرًا حين أطلق على نفسه (العائذ بالله) فأصبح المساس بحرمة مكة أمرًا لا يوافق عليه الصحابة والتابعون، وكان لا بد من الدفاع عن مكة، فى وجه جيش يريد استحلال حرمتها، وحتى الذى لا يستطيع أن يدافع عن مكة فسوف يكون متعاطفًا مع ابن الزبير بصفته يدافع عن بيت الله[4]، وتدافع الناس نحو ابن الزبير من نواحى الطائف يعاونونه ويدافعون عن الحرم[5]، وهذه القضايا المعنوية والحسية كان لها الأثر البالغ فى تعاظم مكانة ابن الزبير لدى أهل الحجاز؛ الأمر الذى جعله يحقق نصرًا ساحقًا وسهلاً على جيش عمرو بن الزبير[6].

٢ ـ حملة الحصين بن نمير وحصار ابن الزبير وحريق الكعبة:

هلك مسلم بن عقبة النميرى فى طريقه لابن الزبير، وتولى القيادة من بعده الحصين بن نمير السكونى، ووصل إلى مكة قبل انقضاء شهر المحرم بأربع ليال. وعسكر الحصين بن نمير بالحجون[7] إلى بئر ميمون[8]، وبذلك فقد عمل الحصين بن نمير على نشر جيشه على مسافة واسعة؛ والذى دفعه إلى ذلك طبيعة الحرب التى ستدور فى مكة، وقام ابن الزبير

(١) تاريخ خليفة صـ٢٣٣ .

(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٢)، مواقف المعارضة صـ٥٣٢ .

(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٣) .

(٤) مواقف المعارضة صـ٥٣٢ .

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٣) .

(٦) مواقف المعارضة صـ٥٣٣ .

(٧) الحجون: الجبل المشرف، بينه وبين الحرم ميل ونصف .

(٨) بئر ميمون: حفرها ميمون بن الحضرمى .

يحث الناس على قتال جيش أهل الشام، وانضم المنهزمون من معركة الحرّة إلى ابن الزبير، وقدم على ابن الزبير أيضًا نجدة بن عامر الحنفى فى ناس من الخوارج، وذلك لمنع البيت من أهل الشام[1]، وكان عدد المقاتلين الذين اشتركوا مع ابن الزبير أقل بكثير من المقاتلين الذين اشتركوا فى معركة الحرّة، ولم تكن القوات متكافئة، وتحول الوضع لصالح الحصين ابن نمير، بعد أن منى ابن الزبير بفقد خيرة أصحابه، مثل أخويه المنذر وأبى بكر ابنى الزبير، ومصعب بن عبد الرحمن، وحذافة بن عبد الرحمن بن العوام، وعمرو بن عروة ابن الزبير[2]، وبعد ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤هـ قام الحصين بن نمير بنصب المنجنيق على جبل أبى قبيس[3]، وجبل قعيقعان[4] وفقد ابن الزبير أهم مستشاريه ومناصريه، وهو المسور بن مخرمة بعد أن أصابه بعض أحجار المنجنيق، وانكشفت مواقع ابن الزبير أمام الحصين بن نمير، ولم يبق مأمن لابن الزبير من أحجار المنجنيق سوى الحجر[5]، وحوصر ابن الزبير حصارًا شديدًا ولم يعد يملك إلا المسجد الحرام فقط، بعد أن فقد مواقعه المتقدمة فى الأبطح[6]، وفى أثناء احتدام المعارك بين ابن الزبير والحصين بن نمير احترقت الكعبة، وهذه مصيبة أضيفت إلى مصائب المسلمين التى نتجت عن استحلال القتال فى البلد الحرام الذى حرم الله ورسوله ﷺ القتال فيه[7]، وكان يزيد بن معاوية قد مات فى منتصف شهر ربيع الأول[8]، ولم يعلم أحد بموته نظرًا لبعد المسافة بين مكة ودمشق، وقد جاء الخبر بموت يزيد إلى مكة لهلال شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين[9].

ولم تكن الكعبة مقصودة فى ذاتها بالإحراق، والدليل على ذلك ما أحدثه حريق الكعبة من ذهول وخوف من الله فى كلتا الطائفتين[10]: جيش الحصين بن نمير، وجيش ابن الزبير، فقد نادى رجل من أهل الشام بعد أن احترقت الكعبة وقال: هلك الفريقان والذى نفس محمد بيده[11]، وأما أصحاب ابن الزبير، فقد خرجوا كلهم فى جنازة امرأة ماتت فى صبيحة ليلة الحريق خوفًا من أن ينزل العذاب بهم، وأصبح ابن الزبير ساجدًا ويقول: اللهم إنى لم أتعمد ما جرى فلا تهلك عبادك بذنبى، وهذه ناصيتى بين يديك[12]. وأهل

(١) أنساب الأشراف (٤/٣٣٨)، مواقف المعارضة صـ٥٤٥ .
(٢) جمهرة نسب قريش صـ٣٦٢ .
(٣) جبل أبى قبيس: هو أحد أخشبى مكة، وهو جبل مطل على الصفا .
(٤) قعيقعان: جبل بمكة .
(٥) المحن لأبى العرب صـ٢٠٣ .
(٦) تاريخ خليفة صـ٢٥١، بإسناد صحيح حتى ابن جريج .
(٧) مواقف المعارضة صـ٥٤٨ .
(٨) أنساب الأشراف (٤/٣٤٤)، تعجيل المنفعة صـ٤٥٣ .
(٩) مواقف المعارضة صـ٤٨، أخبار مكة (١/١٩٧) .
(١٠) أخبار مكة (١/٢٠٣) .
(١١) تاريخ خليفة صـ٢٥٢ بإسناد صحيح .
(١٢) مواقف المعارضة صـ٥٥٢، الأغانى (٣/٢٢٧) .

الشام بالرغم من جهل بعضهم بابن الزبير ومكانته[1]، إلا أنه من المستحيل أن يجهل أحد منهم مكانة الكعبة وأهميتها، كيف وهم يتجهون إليها فى صلاتهم عندما كانوا يحاصرون ابن الزبير، فمن المستحيل أن يعمد أحدهم إلى حرق الكعبة، أو كان ذلك يدور فى تفكير الحصين بن نمير، وقد وردت تصريحات لبعض أقارب ابن الزبير وبعض السلف والعلماء المحققين بأنهم لم ينسبوا إلى أحد من الطائفتين قصد حريق الكعبة، فهذا هشام بن عروة يقول: . . فقاتلوا ابن الزبير واحترقت الكعبة أيام ذلك الحصار[2]، وقال ابن عبد البر: وفى هذا الحصار احترقت الكعبة[3]، وقال ابن حجر: ثم سارت الجيوش إلى مكة لقتال ابن الزبير، فحاصروه بمكة وأحرقت الكعبة[4]. ولا شك أن أحدًا من أهل الشام لم يقصد إهانة الكعبة، بل كل المسلمين معظمون لها، وإنما كان مقصودهم حصار ابن الزبير، والضرب بالمنجنيق كان لابن الزبير لا للكعبة، ويزيد لم يهدم الكعبة، ولم يقصد إحراقها لا هو ولا نوابه باتفاق المسلمين[5]. وهكذا كانت إحدى نتائج تلك الحرب التى دارت بين ابن الزبير والحصين بن نمير إحراق البيت الحرام[6]. ولما وصل الحصين خبر موت الخليفة بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة الأبطح، وكان يريد أن يجتمع به ويفاوضه فى الخلافة، فالتقيا وتحادثا طويلاً واشتد بينهما الجدل، وكان فيما قال الحصين لابن الزبير وهو يدعوه للخلافة: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معى إلى الشام، فإن هذا الجند الذى معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك، والتى كانت بيننا وبين أهل هذه الحرة. فقال عبد الله: أنا أهدر تلك الدماء؟ أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم، وكان الحصين يكلمه سرًا، وهو يجهر جهرًا ويقول: لا والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبح الله من يعدك بعد هذه داهيًا قط أو أديبًا، قد كنت أظن لك رأيًا، ألا أرانى أكلمك سرًا وتكلمنى جهرًا، وأدعوك للخلافة وتعدنى للقتل والهلكة[7]، وبعد أن افترقا، أدرك عبد الله خطأه فى موقفه مع الحصين عندما عرض عليه الخلافة ومرافقته إلى بلاد الشام، وأراد أن يصحح هذا الموقف، وكان الحصين يستعد للعودة بجنده إلى دمشق، فأرسل إليه يقول: أما أن أسير إلى الشام فليس فاعلاً وأكره الخروج من مكة، ولكن بايعوا لى هناك فإنى مؤمنكم وعادل فيكم، فرد

(١) مواقف المعارضة صـ٥٥٢، حلية الأولياء (١/٣٣٦) .

(٢) الإصابة (٤/٩٤) عن الزبير بن بكار بسند صحيح .

(٣) الاستيعاب (٣/٢٤٣) . (٤) تعجيل المنفعة صـ٤٥٣، مواقف المعارضة صـ٥٥٣.

(٥) منهاج السنة (٤/٤٧٧)، مواقف المعارضة صـ٥٥٣ . (٦) مواقف المعارضة صـ٥٥٤ .

(٧) تاريخ الطبرى (٦/٤٣٦) .

الحصين بقـوله: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هناك أناسًا كثـيرًا من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس، فما أنا صانع؟(١) وذكر البلاذرى أن عبد الله بن الزبير طلب من الحصين مهلة لاستـشارة أصحابه عندما عرض عليه الحصين الأمـر، ولكن أصحابه رفضوا الخروج إلى الشام(٢). ويصعب على المرء أن يـنفذ إلى أعمـاق ابن الزبير ويعرف مـا كان يدور فى خلده والأسباب التى دفـعته لرفض عرض الحصين، ولكن هناك مـؤشرات عديدة تؤخذ بعين الاعتبار من الواقع السياسى فى بلاد الحجاز(٣)، منها:

أ ـ لم تكن للحصين صفة رسميـة عندما عرض الخلافة على ابن الزبير، ولم يكن يمثل الأمويين كلهم، رغم أنه قـال إن الجند الذين معه هم وجوه أهل الشام وفـرسانهم. فكيف يثق ابن الزبير بقائد حملة كان يقاتله قـبل أيام ويريد أن يفتك به، وقد ظهرت المناقضة عند الحصين بقوله بعد ذلك: أرأيت إن لم تقدم بنفسك ووجدت هناك أناسًا كثيرًا من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس(٤).

ب ـ إن الذى عرض عليه الخلافة هو أحد قادة معركة الحرّة، وكان حول ابن الزبير عدد من أهل المدينة الذين هربوا من وحشية تلك المعركة، لذلك كان ابن الزبير يرد على الحصين بصوت جهورى، يسـمعه من حوله من أنصاره ليدفع الشك عن نفـوسهم، ويطمئنهم على موقفه من الحـصين، فقال إنه لا يرضى قتل عشرة من جـيش الحصين بكل واحد من أهل المدينة(٥).

جـ ـ عدم وجود أنصار ـ حتى الآن ـ له فى بلاد الشام يمكن أن يعتمد عليهم وينصرونه كما هو الحال فى بلاد الحجاز، فأهل الشام كانوا يدينون بالولاء والمحبة والتقدير للأمويين.

د ـ عدم وجود جيش منظم حقيقى- كالجيش الأموى- عند ابن الزبير، وكل ما نستطيع أن نسمى به المدافـعين عن ابن الزبير وعن مكة، أنهم من المقـاتلين الذين يجتمـعون وقت الشدة ويتفرقون عند زوالها، وهل هناك شدة أكبر من غزو الكعبة؟ وأعتقد أنه لو كان لابن الزبير جيش مـنظم حقيقى ومدرب مـسلح -بحيث يستطيع هذا الجيش نـصرة ابن الز... لتوجه مع الحصين بن نمير، ولتم له النجاح(٦).

(١) المصدر نفسه (٦/ ٤٣٦).

(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٥٧، ٥٨)، عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور صـ١٠٧.

(٣) عبد الله بن الزبير، ماجد لحام صـ١١٥.

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٦).

(٥) عبد الله بن الزبير، ماجد لحام صـ١١٦.

(٦) عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور صـ ١٠٩، ١١٠.

المبحث السادس

وفاة يزيد بن معاوية وخلافة معاوية بن يزيد

أولاً: وفاة يزيد بن معاوية:

فى عام ٦٤هـ توفى يزيد بن معاوية وكانت وفاته بقرية من قرى حمص يقال لها حوّارين من أرض الشام، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ وهو ابن ٣٨سنة فى قول بعضهم، وعن هشام بن الوليد المخزومى، أن الزهرى كتب لجده أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك: ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر فى قول بعضهم، ويقال: ثمانية أشهر(١)، وعن أبى معشر أنه قال: توفى يزيد بن معاوية يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمان ليال، وصلى على يزيد ابنه معاوية بن يزيد(٢)، وقيل: وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أيامًا(٣)، وكان نقش خاتمه: ربنا الله(٤).

ثانيًا : خلافة معاوية بن يزيد:

معاوية بن يزيد هو ثالث الخلفاء الأمويين، وكنيته أبو يزيد أو عبد الرحمن، أبوه يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان، وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة(٥)، ويسمى معاوية الأصغر(٦). ولد سنة ٤٤هـ ونشأ فى بيت الخلافة، بويع له بالخلافة بعد موت أبيه، فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين هجرية، وكان -رحمه الله- أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه، دقيقه، حسن الجسم، وكان رجلاً صالحًا ناسكًا(٧).

١ ـ مدة حكمه: يختلف المؤرخون كثيراً فى المدة التى حكمها معاوية بن يزيد، ويتراوح الخلاف بين عشرين يومًا(٨) وثلاثة أشهر، ويبدو أن مدة الثلاثة الأشهر هى الأرجح، ويرجع بعض المؤرخين مدة الأربعين يومًا وكان مريضًا مدة ولايته، ولهذا لم يؤثر له عمل

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٣).
(٣) تاريخ القضاعى صـ٣٢٩.
(٤) المصدر نفسه صـ٣٣٢.
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٤).
(٦) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٦).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٦٦٣).
(٨) المصدر نفسه (١١/ ٦٦٢).

ما مدة خلافته، حتى الصلاة، فإن الضحاك بن قيس هو الذى كان يصلى بالناس، ويسيّر الأمور، وظل الضحاك يصلى بالناس حتى بعد وفاة معاوية، حتى استقر الأمر لمروان بالشام[1].

٢ ـ تنازله عن الخلافة وتركه الأمر شورى :ولما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادى فى الناس: الصلاة جامعة، وخطب فيهم، وكان مما قال: أيها الناس، إنى قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوى، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى فى ستة كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقد تركت أمركم، فولوا عليكم من يصلح لكم. ثم نزل ودخل منزله، فلم يخرج حتى مات رحمه الله تعالى[2]. لقد أراد معاوية بن يزيد أن يقول لهم أنه لم يجد مثل عمر، ولا مثل أهل الشورى، فترك لهم أمرهم يولون من يشاءون، وقد جاء ذلك صريحًا فى رواية أخرى للخطبة عند ابن الأثير قال فيها: أما بعد، فإنى ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم.. ثم دخل منزله وتغيب حتى مات[3]. واعتبر هذا الموقف منه دليلاً على عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة[4]، فقد رفض أن يعهد لأحد من أهل بيته حينما قالوا له: اعهد إلى أحد من أهل بيتك، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إنى برىء منها، مُتخلٍّ عنها[5]، وجاء فى رواية: قيل له: ألا توصى؟ فقال: لا أتزوّد مرارتها وأترك حلاوتها لبنى أمية[6]. وتعتبر حادثة تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة حادثة نادرة فى التاريخ الإنسانى؛ لقد عرفت استقالات، فيها إكراه مادى أو معنوى. أما أن ملكًا استقال، لأن فى أمته من هو خير منه، فهذا ما لم نقع عليه، وأية محاسبة للنفس أرفع من هذه؟![7]

وإذا كان معاوية بن أبى سفيان -أول الخلفاء الأمويين- قد حول الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية الثانى، ثالث خلفاء الأمويين أيضًا، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة، وإنه لمما يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط[8].

---

(١) البداية والنهاية (١١/٦٦٣) .
(٢) المصدر نفسه (١١/٦٦٣، ٦٦٤) .
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/٦٠٥) .
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٣٧ .
(٥) مروج الذهب (٣/٨٢) .
(٦) البداية والنهاية (١١/٦٦٣) .
(٧) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ (١/١١٦) .
(٨) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٩٣ .

٣ ـ كم كان عمره لما مات؟ ومن صلى عليه؟: مات معاوية بن يزيد عن إحدى وعشرين سنة وقيل: ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يومًا. وقيل: تسع عشرة سنة. وقيل: عشرين سنة. وقيل: ثلاث وعشرين سنة. وقيل: إنما عاش ثماني عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة. فالله أعلم. وصلى عليه أخوه خالد، وقيل: عثمان بن عنبسة. وقيل: الوليد بن عُتبة. وهذا هو الصحيح، فإنه أوصى إليه بذلك وشهد دفنه مروان بن الحكم(١)، فلما فُرِغ منه قال مروان: أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم، معاوية بن يزيد. فقال مروان: هو أبو ليلى الذى قال فيه أَزْنَمُ الفزارى:

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها ... والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا(٢)

٤ ـ أزمة خطيرة بعد وفاة معاوية بن يزيد: كان معاوية بن يزيد قد أحدث أزمة خطيرة، فقد كان أخوه خالد بن يزيد صبيًا صغيرًا. وكان أمر ابن الزبير قد استفحل وبايع له الناس من أنحاء الدولة، فرأى فريق من جند الشام -على رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق- أن يبايعوا لابن الزبير، وحتى مروان بن الحكم كبير بنى أمية فكر فى الذهاب إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان، ولكن سائر الجند والقادة بزعامة حسان بن مالك زعيم القبائل اليمنية -الذين كانوا أقوى المؤيدين لبنى أمية وهم أخوال يزيد- رفضوا أن يخرج الأمر عن بنى أمية وأن يبايعوا لابن الزبير، فحدث خلاف شديد ولبث الشام ستة أشهر بدون إمام، وأخيرًا اتفق القوم على أن يعقدوا مؤتمرًا للشورى، يبحثون فيه عمن يصلح للخلافة ويصلون فى ذلك إلى قرار(٣). ويعد معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان آخر خلفاء الفرع السفيانى، وانتقلت الخلافة بعده إلى الفرع الثانى من بنى أمية «بالمروانيين»، وأولهم مروان بن الحكم، ولا يُعد عند كثير من المحققين والمؤرخين خليفة، حيث يعتبرونه باغيًا خرج على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وكذلك ولده عبد الملك لا يعد خليفة إلا بعد موت ابن الزبير، واجتماع المسلمين عليه(٤)، وبوفاة معاوية بن يزيد انتهت الدولة السفيانية وظهرت الدولة الزبيرية، ولكنها لم تستمر، فقد استطاع بنو مروان القضاء عليها، وسيأتى التفصيل فى الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٦٣، ٦٦٢) .

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٦٦٤) .

(٣) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الدين الريس صـ٢٠٢ .

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب ص٢٩٠.

الفصل السادس

عهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وبيعته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب ابن مرة، أمير المؤمنين، أبو بكر، وأبو خبيب، القرشى الأسدى المكى، ثم المدنى، أحد الأعلام، ولد حوارى رسول الله وابن عمته[(١)].

ثانيًا: مولده ومبايعته لرسول الله ﷺ:

عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أنها حملت بعبد الله بن الزبير فى مكة، قالت: فخرجت وأنا مُتمٌّ فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته فى حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل فى فيه، فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له، فبرّك عليه، وكان أول مولود ولد فى الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم[(٢)]. وسماه عبد الله، ثم جاء بعد، وهو ابن سبع، أو ابن ثمان سنين، يبايع النبى ﷺ أمره الزبير رضى الله عنه بذلك، فتبسم النبى ﷺ حين رآه مقبلاً، وبايعه. وكان أول من ولد فى الإسلام فى المدينة بعد مقدم رسول الله ﷺ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم، فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكبّر أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد عبد الله[(٣)]، وقد طاف به الصديق رضى الله عنه بالمدينة بعد ولادته ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود[(٤)]، وهذا أسلوب إعلامى عملى للقضاء على شائعات اليهود التى روجوا لها بالمدينة، وكان ابن الزبير ملازمًا للدخول على رسول الله ﷺ لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة[(٥)] زوج الرسول ﷺ.

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣).
(٢) البخارى رقم ٥٤٦٩، اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٢٦٥).
(٣) الحاكم (٣/ ٥٤٨).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٨٨).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٤، ٣٦٥).

ثالثًا: الزبير بن العوام والد عبد الله رضى الله عنهما:

هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب القرشي الأسدى[1]، ويجتمع مع النبي ﷺ في قصى، وهو حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أصحاب الشورى[2]، أسلم وهو حدث وله ست عشرة سنة[3]، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ[4]، وقد تعرض بعد إسلامه للتعذيب، فقد روى أن عم الزبير، كان يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا[5]، وقال في حقه رسول الله ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير»[6]. أي خاصتي من أصحابي وناصري، ومنه الحواريون أصحاب عيسى عليه السلام أي خلصاؤه وأنصاره، فالحوارى هو الناصر المخلص، فالحديث اشتمل على هذه المنقبة العظيمة التى تميز بها الزبير رضى الله عنه، ولذلك سمع عبد الله بنَ عمر رضى الله عنهما رجلاً يقول: أنا ابن الحوارى، فقال: إن كنت من ولد الزبير، وإلا فلا[7]، وكان الزبير بن العوام فى عهد رسول الله ﷺ رجل المهمات الصعبة، وكان فى عهد الراشدين من أعمدة الدولة وشارك فى فتوحاتها الكبيرة[8]، وقد عرض عليه عمر بن الخطاب ولاية مصر فى عهده فقال الزبير: لا حاجة لى فيها، ولكنى أخرج مجاهدًا وللمسلمين معاونًا، فإن وجدت عمرو بن العاص فتحها (مصر) لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطتُ به، وإن وجدته فى جهاد كنت معه[9]، وقد تحدثت عن سيرته فى كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، فمن أراد المزيد فليرجع إليه مشكورًا[10].

رابعًا: أسماء بنت الصديق والدة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم جميعًا:

هى أسماء بنت عبد الله بن أبى قحافة بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تميم ابن مرة[11]، وكانت من أوائل المسلمات حيث أسلمت وأختها عائشة وهي يومئذ صغيرة[12]. ولها مواقف مشهودة، وآثار محمودة فى تاريخنا الإسلامى المجيد.

(1) الإصابة (1/526 - 528).
(2) الطبقات (3/100).
(3) سير أعلام النبلاء (1/41).
(4) سير السلف (1/226).
(5) الطبرانى فى الكبير (1/122).
(6) مسلم رقم 2414.
(7) مصنف ابن أبى شيبة رقم 12219، صحيح.
(8) سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب صـ541.
(9) فتوح البلدان صـ299، نظام الحكم للقاسمى (1/544).
(10) سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب صـ535 - 550.
(11) الطبقات الكبرى (3/119).
(12) السيرة النبوية (1/271)، عبد الله بن الزبير، للناطور صـ17.

ومن هذه المواقف:

١ ـ في الهجرة النبوية: قالت السيدة عائشة فى حديث طويل منه: فبينما نحن يومًا جلوس فى بيت أبى بكر، عند الظهيرة، قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله متقنعًا[١] فى ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر.. إلى أن قالت: ..فجهزناهما أحث الجهاز (من الحثّ وهو الإسراع) ووضعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت بذات النطاقين[٢]. فقد أسهمت السيدة أسماء رضى الله عنها فى تموين الرسول ﷺ وصاحبه فى الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى فى سبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضى الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ قالت: قلت: لا أدرى والله أين أبى قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشًا ـ فلطم خدّى لطمة، طرح منها قرطى، قالت: ثم انصرفوا[٣]، فهذا درس من أسماء والدة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم، تعلّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفى أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغى والظلم، وأما درسها الثانى البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله ونفسه. قالت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، قالت: فأخذت أحجارًا فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبى يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده فقلت: ضع يديك على هذا المال، قالت: ووضع يده عليه فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا، فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئًا ولكنى أردت أن أسكت الشيخ بذلك[٤].

وبهذه الفطنة، والحكمة، سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التى كومتها، لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة فى المال، وورثهم يقينًا، وثقة بلا حد لها، وغرس فيهم همة تتعلق

(١) متقنعاً: مغطياً رأسه .

(٢) البخارى رقم ٣٩٠٥، السيرة النبوية للصلّابىّ (١/ ٤٦٣) .

(٣) تاريخ الطبرى (٢/ ٣٧٩ ، ٣٨٠)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٣١، ١٣٢).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٢)، إسناده صحيح .

بمعالى الأمور ولا تلتفت إلى سفاسفها[1]، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر، وقلَّ أن يوجد نظيره، لقد ضربت أسماء رضى الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هن فى أمسّ الحاجة إلى الاقتداء به والنسج على منواله[2].

٢ ـ **صلة أسماء لأمها المشركة:** عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت: قدمت أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمى قدمت وهى راغبة، أفأصل أمى؟ قال: «**نعم، صلى أمك**»[3]، قال ابن حجر: وفى قولها: وهى راغبة أقوال، والذى عليه الجمهور من هذه الأقوال أنها قدمت طالبة من بر ابنتها لها، خائفة من ردها إياها خائبة. وفى هذا الحديث من الفوائد ما ذكره الخطابى: إن الرحم الكافرة توصل بالمال ونحوه كما توصل المسلمة[4]. وقد قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الممتحنة: ٨ ، ٩]. وهاتان الآيتان رخصة فى الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجواز برهم، وإن كانت الموالاة منقطعة[5].

٣ ـ **شجاعتها وجهادها فى اليرموك مع زوجها:** وأما شجاعتها وجراءتها وجهادها فى سبيل الله، فأمر يفوق الخيال؛ فمن ذلك خروجها مع الجيش يوم اليرموك، فلقد شهدت اليرموك مع زوجها الزبير وابنها عبد الله[6]، ومن شجاعتها استعدادها التام لمواجهة اللصوص الذين كثروا فى يوم من الأيام بالمدينة، عن فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبى بكر اتخذت خنجراً للصوص زمن سعيد بن العاص ـ أى فى زمن إمارته المدينة- وكانوا قد كثروا فى المدينة، فكانت تجعله تحت رأسها[7].

٤ ـ **علاقتها بالقرآن الكريم** : كانت رضى الله عنها قد تربت على كتاب الله وهدى النبى ﷺ، وإليك هذه الصورة المشرقة من حياتها مع القرآن الكريم؛ فذات يوم دخل عليها ابنها وهى تُصلى فسمعها تقرأ هذه الآية: ﴿**فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [الطور: ٢٧]. فبكت واستعاذت... فقام وهى تستعيذ. فلما طال عليه أتى السوق وقضى منه حاجته..

(١) السفساف: الردىء الحقير من كل شىء، والجمع: سفاسف .
(٢) الهجرة النبوية المباركة صـ١٢٨ . (٣) البخارى رقم ٢٦٢٠ .
(٤) فتح البارى (٥/ ٢٧٧) .
(٥) شرح منظومة الآداب (١/ ٢٩٧)، بر الوالدين، أم حفص عبير بنت محمد صـ٣٦ .
(٦)، (٧) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٣)، أسماء بنت أبى بكر، للصّباغ صـ٣٣ .

ثم رجع فوجدها ما تزال فى بكائها تستعيذ[1]. وكانت إذا أُصيبت بالصُّدَاع تضع يدها على رأسها وهى تقول: بذنبى وما يغفر الله أكثر[2]. وهذا فهم عميق لقول الله تعالى: ﴿ومَا أصابكُم مّن مُّصيبة فبما كسبتْ أيْديكُمْ ويعْفُو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٠]، وقد أفرد الدكتور محمد بن لطفى الصبّاغ رسالة قيمة فى حياة السيدة أسماء رضى الله عنها، وسيأتى الحديث عن بعض الدروس والعبر فى حصار الحجاج لابنها عبد الله بمكة، بإذن الله.

خامسًا: أولاد ابن الزبير وزوجاته:

كان له من الولد خُبيبٌ وحمزة وعباد وثابت وأمهم تماضر بنت منظور الفزارى، وهاشم وقيس وعروة - قتل مع أبيه - والزبير، وأمهم أم هاشم بنت حلة بن منظور ،وعامر وموسى وأمّ حكيم وفاطمة وفاختة، وأمهم جثيمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وبكر ورقية وأمهما عائشة بنت عثمان بن عفان، وعبد الله ومصعب من أم ولد[3].

سادسًا: ابن الزبير فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم:

١ - فى اليرموك: لا نجد فى كتب السيرة أى خبر عن اشتراك عبد الله بن الزبير فى الحروب والغزوات رغم حضوره مع والده غزوة الأحزاب وفتح مكة، فقد كان فى مقتبل العمر ولم يتجاوز عمره عند وفاة الرسول ﷺ إحدى عشرة سنة. وكان الرسول ﷺ لا يجيز أحدًا من الغلمان لم يبلغ الخامسة عشرة، وأول ما يرد من أخبار تتعلق بخروجه مع الجيوش، ومرافقته لوالده فى تحرير بلاد الشام وحضوره معركة اليرموك إذ يقول عبد الله: كنت مع أبى عام اليرموك، فلما تعبأ المسلمون للقتال، لبس الزبير لأمته ثم جلس على فرسه ثم قال لموليين له: احبسا عبد الله بن الزبير معكما فى الرحل، فإنه غلام صغير[4]. وبعد انتهاء القتال شارك عبد الله فى علاج الجرحى بعد انهزام المشركين[5] وإن لم يشارك فى القتال لصغر سنه، فإنه ألف القتال والعراك وصليل السيوف منذ نشأته مما زاد فى شجاعته وخبرته العسكرية[6].

٢ - ابن الزبير مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهم: مرّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن الزبير يلعب مع الصبيان، ففروا، ووقف ابن الزبير فقال له

(١) الحلية (٢/ ٥٥)، أسماء بنت أبى بكر صـ٩ .

(٢) الحلية (٢/ ٥٥)، أسماء بنت أبى بكر صـ٣٣ .

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٢١٣) .

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ماجد لحام صـ٤١ .

(٥) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن عبد الله بن الزبير صـ٤١ .

(٦) عبد الله بن الزبير صـ٤١ .

عمـر: مالك لم تفر مـعهم؟ فقـال: لم أجرم فأخـافك، ولـم تكن الطريق ضيقـة فأوسع لك[1]، وتروى المصادر حادثة أخـرى تبين شجاعتـه منذ صباه الباكر، فقـد ذكرت المصادر التاريخـية أنه كان ذات يومٍ يلعب مع الصـبيان وهو صبى، فـمر بهم رجل فصـاح عليهم ففروا، ومـشى ابن الزبير القهقـرى وقال: يا صبيـان، اجعلونى أميركم وشـدوا بنا عليه، ففعلوا[2].

٣ ـ كتابة المصاحف فى عهد عثمان: عن أنس أن عثمان أمر زيدًا، وابن الزبير، وسعيد بن العاص وعبـد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنـسخوا المصاحف، وقال: إذا اخـتلفتم أنتم وزيد فى شىء، فاكتبوه بلسـان قريش، فإنما نزل بلسانهم[3]، ومن أراد التفصيل فى جمع سيدنا عثمان رضى الله عنه للمصاحف فليراجع كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

٤ ـ جهاده فى شمال إفريقيـة فى عهد عثمان رضى الله عنه: انقطع خبر المسلمين فى إفريقية عن عثـمان بن عفان رضى الله عنـه، فسيّر إليـهم عبد الله بن الزبيـر فى جماعة ليـأتيهم بأخبارهم، فسار مجدًا ووصل إليهم، وأقام مـعهم، ولمّا وصل، كثر الصياح، والتكبير فى المسلمين، فسأل جرجير عن الخبـر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتَّ ذلك فى عضده، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمـين كلّ يوم من بكرة إلى الظُّهر فإذا أُذِّن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن سـعد معهم فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادى جرجـير يقـول: من قتـل عبد الـله بن سعـد، فله مائة ألف دينار، وأزوِّجـه ابنتى، وهو يخاف، فـحضر عنده، وقـال له: تأمر مناديًا ينادى: من أتانى برأس جـرجير، نفّلتـه مائة ألف، وزوجته ابنته واستـعملته على بلاده، ففعل ذلك فصار جرجيـر يخاف أشدَّ من عبد الله[4]. ثمّ إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم فى أمداد متـصلة وبلاد هى لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهـم، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعـة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متـأهِّبين، ونقاتل نحن الرُّوم فى باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملُّوا، فإذا رجعـوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان فى الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال، وهـم مستريحون، ونقصدهم على غرّة؛ فلعلَّ الله أن ينصرنا عليـهم، فأحضر جمـاعة من أعيان الصّحـابة، واستشارهم، فـوافقوه على ذلك، فلمَّا كان الـغد، فعل عبد الله مـا اتفقوا عليه، وأقـام جميع شُجعـان المسلمين فى خيامهم، وخيولهم عندهم مُسَرَّجة، ومضى الباقون، فقاتلوا الرّوم إلى الظهر قتالاً شديدًا،

(١)، (٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٧٥). (٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٠).
(٤) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٨٨).

فلما أذّن بالظهر همّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزّبير، وألح عليهم بالقتال، حتي أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه، ووقع تعبًا، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين، وقصد الرّوم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا، فلم يتمكن الرّوم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير؛ قتله ابن الزبير، وانهزم الرّوم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونزل عبد الله ابن سعد المدينة، وحاصرها حتى فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن فى غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الرّاجل ألف دينار، ولما فتح مدينة سبيطلة، بثّ جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة، فسبوا، وغنموا وسيّر عسكرًا إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد، فحصره، وفتحه بالأمان، فصالحه أهل إفريقية، ونفّل عبد الله ابن الزبير ابنة الملك، وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية[١]. قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير، رضى الله عنه وعن أبيه، وأصحابهما أجمعين[٢]، وكان الشاعر أبو ذؤيب الهذلى قد خرج مع ابن الزبير فى مغزّى نحو المغرب ـ فى عهد عثمان ـ فمات، فدلاه عبد الله بن الزبير فى حفرته، وقد قال الشاعر أبو ذؤيب فى تلك الغزاة فى عبد الله بن الزبير:

وصاحبِ صدق كسِيد[٣] الضَّرَاءِ[٤] ينهض فى الغزو نهضًا نجيحا[٥]

وشيكِ الفصول بطىءٍ القفول إلا مشاحًا به أو مُشيحا[٦]

٥ ـ **دفاعه عن عثمان يوم الدار:** كان ابن الزبير من الذين كانوا مع عثمان بن عفان يوم حصر من قبل الغوغاء، وكان يلح على عثمان أن يسمح له بقتال الغوغاء، ولكن عثمان كان يرفض ذلك[٧]، ولما أمر عثمان من فى الدار بالخروج أصر ابن الزبير ومروان بن الحكم على البقاء معه والدفاع عنه[٨]، وقد أصيب ابن الزبير أثناء الحصار بإصابات بالغة كادت تودى بحياته، فقد روى المدائنى أن كنانة ـ مولى صفية بنت حيى ـ أخرج أربعة محمولين وكان ابن الزبير منهم[٩]،وكان ابن الزبير يخطب بمكة ويقول فى خطبته: فجرحت بضعة

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٢٣٦، ٢٣٧).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٨).
(٣) السِّيد: الذئب.
(٤) الضراء: ما واراك من الشجر.
(٥) نجيحاً: سريعاً.
(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦٥٣)، وشيك الفصول: أى سريع الغزو.
(٧) الطبقات (٣/ ٧٠)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ٤١.
(٨) تاريخ خليفة صـ١٧٤.
(٩) أنساب الأشراف (١/ ٥٦٤)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ٤٢.

عشر جرحًا وإنى لأضع يدى اليوم على تلك الجراحات التى جرحت مع عثمان، فأرجو أن تكون خير أعمالى[١]، وفى هذا وضوح موقف ابن الزبير من عثمان وأنه يراه إمام حق ورشد، وأن المعتدين عليه مجرمون، وأن قتالهم من أفضل الأعمال عند الله، ومنها نستفيد أن الدفاع عن أولياء الله الصالحين بأى وسيلة شرعية من الذب عن أعراضهم وشدّ أزرهم من الأعمال الصالحة. ومما يدل على أهمية الدور الذى كان يقوم به ابن الزبير فى الذود عن عثمان ما ذكرته الروايات من أن عثمان أمّر ابن الزبير يوم الدار وقال: من كانت لى عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير[٢]. وفى رواية: أنه أمره أن يصلى بأهل داره فترة الحصار، وكان ابن الزبير يصلى بهم فى صحن الدار[٣].

٦ ـ **فى معركة الجمل**: كان ابن الزبير يوم الجمل على الرجّالة وجُرح يومئذ تسع عشرة جراحة، وقد تبارز يومئذ هو ومالك بن الحارث بن الأشتر، فاتّحدا فصرع الأشتر ابن الزبير، فلم يتمكن الأشتر من القيام عنه، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادى ويقول: اقتلونى ومالكًا واقتلوا مالكًا معى[٤]. فأرسلها مثلاً. ثم تفرّقا ولم يقدر عليه الأشتر، وقد قيل: إنه جرح يومئذ بضعًا وأربعين جراحة ولم يوجد إلا بين القتلى وبه رمق، وقد أعطت عائشة لمن بشّرها بأنه لم يقتل عشرة آلاف درهم وسجدت لله شكراً، وقد كانت تحبه حبًا شديداً، لأنَّه ابن أختها، وكان عزيزاً عليها، وقد رُوِىَ عن عُروة أنّه قال: لم تكن عائشة تحب أحداً بعد رسول الله ﷺ وأبى بكر مثل حبّها عبد الله بن الزبير، وقال عروة: وما رأيت أبى وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير[٥].

٧ ـ **جهاده أيام معاوية رضى الله عنهما**: تولى أمر إفريقية معاوية بن حديج، فكان عبد الله بن الزبير ساعده الأيمن بالفتح والجهاد ،وقد سار معاوية بن حديج فى جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وفتح بنزرت سنة إحدى وأربعين، كما دخل (القيروان) سنة خمس وأربعين، وبث السرايا فى البلاد، وبعث إلى (سوسة) عبد الله بن الزبير ففتحها[٦]. وكان عبد الله بن الزبير كذلك فى جيش يزيد بن معاوية الذى سار نحو القسطنطينية، وكان فى

(١) الطبقات، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للخراشى .
(٢) الطبقات (٣/ ٧٠) .
(٣) الطبقات، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ ٤٢ .
(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٩٦) .
(٥) المصدر نفسه (١١/ ١٩٧) .
(٦) البيان المغرب (١/ ١٦، ١٧)، عبد الله بن الزبير، محمود شاكر صـ٤٣ .

ذلك الجيش عدد من الصحابة أيضًا منهم: أبو أيوب الأنصارى، والحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وابن عباس[1].

سابعًا: وصف ابن الزبير وأهم صفاته:

كان آدم[2] نحيفًا ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر السجود، كثير العبادة، مجتهدًا شهمًا فصيحًا، صوّامًا قوّامًا، شديد البأس، ذا أنفة، له نفس شريفة وهمّة عالية، وكان خفيف اللحية ليس فى وجهه من الشعر إلا قليل، وكانت له جُمة، وكان له لحية صفراء[3]، وكان عالمًا عابدًا مهيبًا وقورًا، كثير الصيام والصّلاة شديد الخشوع قويّ السياسة[4]، وكان لأبيه الزبير وأمه أسماء وخالته عائشة وجده أبى بكر، وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ أكبر الأثر على شخصيته من جميع النواحى، وهذا ما نلمسه من صفات ابن الزبير التى أهمها:

١ ـ فقهه وعلمه: كان عبد الله بن الزبير رضى الله عنه أحد العبادلة الأربعة الذين تفقهوا فى أمور الدين فى المدينة المنورة وهم: عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم، ولابن الزبير فى الصحيحين أحاديث اتفقا له على حديث واحد وانفرد البخارى بستة أحاديث، ومسلم بحديثين[5]، حدث عن رسول الله وهو صغير، وكذلك حدث عن أبيه الزبير وعن جده أبى بكر، وعمر وعثمان وخالته أم المؤمنين عائشة وغيرهم رضى الله عنهم، وروى عنه مشاهير التابعين منهم: أخوه عروة، وطاووس بن كيسان وعمرو بن دينار، وابن أبى مليكة، وثابت البنانى، وغيرهم كثير[6]، وقد كان رضى الله عنه فقيهًا، وقد قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى[7]، وعرف ابن الزبير بأنه واسع المعرفة بالقرآن والسنة، وكان رضى الله عنه من العلماء المجتهدين، عالمًا عابدًا ولا غرو فى ذلك إذ كان كثير الدخول على خالته عائشة، أم المؤمنين، رضى الله عنها، وهى العالمة الفقيهة، وكانت تحدثه وهو من أحب الناس إليها بعد رسول الله ﷺ، وبعد أبيها أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، وعنها، وكانت مدة خلافة عبد الله بن الزبير تسع سنوات، وقد حج خلالها

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٤٨)، عبد الله بن الزبير لمحمود شاكر صـ٤٣ . (٢) آدم: أسمر .

(٣) البداية والنهاية (١١/١٩٣) . (٤) المصدر نفسه (١١/٢٠٤) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٣) .

(٦) المصدر نفسه (٣/٣٦٣)، عبد الله بن الزبير، لمحمد عبد الرضا هادى صـ٩ .

(٧) معجم البلدان، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للناطور صـ٣١ .

ثمان مرات، وفى السنة الأخيرة كان محاصراً فلم يستطع الحج. خطب ابن الزبير مرة الحُجّاج فقال: يا معشر الحجاج، سلونى؛ فعلينا كان التنزيل، ونحن حضرنا التأويل، فقال رجل من أهل العراق: انحلّ جرابى فدخلت فيه فأرة فقتلتها، وأنا محرم، فقال: اقتلوا الفويسقة، فقال: أخبرنا بالشفع والوتر والليالى العشر، فقال: العشر: الثمانى وعرفة والنحر، والشفع من تعجّل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، والوتر: هو هذا اليوم (يعنى عرفة)، ولم يكن أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير فى عهده[1]. وقال عنه ابن عباس رضى الله عنه: كان قارئًا لكتاب الله متبعًا لسنة رسول الله ﷺ، قانتًا لله صائمًا فى الهواجر من مخافة الله، ابن حوارى رسول الله، وأمه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله زوجة رسول الله ﷺ، فلا يجهل حقه إلا من أعمى الله بصيرته[2]. وكتب فى فقهه رسالة علمية للطالب محمد عبد الرضا هادى بالعراق.

٢ ـ عبادته وتقواه: تواترت الروايات التى تصور لنا حرص ابن الزبير على العبادة من صلاة وصيام وغيرها، حتى إنها أصبحت معالم شخصيته[3]، قال عنه مجاهد: لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة[4] (رضى الله عنه) وقال: جاء سيل مرة فطبق أبنية الكعبة، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة[5]، وكان ابن الزبير رضى الله عنه كثير العبادة، إذا قام إلى الصلاة انقطع عن الدنيا ونسى مشاغلها وما فيها من حلو ومر وخرج من كل شىء إليها، فقد روى أن ابن الزبير كان يومًا يصلى فسقطت حية من السقف فطوقت بطن ابنه هاشم فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية، فقتلوها وسلم الولد، فعلوا هذا كله وابن الزبير فى الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى حتى سلّم[6]. وقال عنه ثابت البنانى: كنت أمر بابن الزبير وهو خلف المقام يصلى كأنّه خشبة منصوبة لا تتحرك[7]، وقال يزيد بن إبراهيم عن عمرو بن دينار، قال: كان ابن الزبير يصلى فى الحجر والمنجنيق يصيب ثوبه، فما يلتفت، يعنى: لما حاصروه[8]، وعن ابن أبى مليكة: قال لى عمر بن عبد العزيز: إن فى قلبك من ابن الزبير، قلت: لو رأيته ما رأيت مناجيًا ولا مصليًا مثله[9]، وعن ابن أبى مليكة قال: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام، ويصبح فى اليوم السابع وهو أليثُنا[10]. وعلق الذهبى على ذلك فقال: لعله ما بلغه

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، محمود شاكر صـ٢٠٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٧)، البداية والنهاية (١١/ ١٩١) .

(٣) عبد الله بن الزبير للخراشى صـ٣٢ . (٤)، (٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/ ١٩٣) .

(٧)، (٨)، (٩)، (١٠) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٩) .

النهى عن الوصال ونبيك ﷺ بالمؤمنين رءوف رحيم، وكل من واصل، وبالغ فى تجويع نفسه، انحرف مزاجه وضاق خلقه، فاتباع السنة أولى، ولقد كان ابن الزبير مع مُلكه صِنفًا فى العبادة[1].

٣- جرأته وشجاعته: كان عبد الله بن الزبير فارس قريش فى زمانه، وكان يشتد بالسيف وقد ناهز السبعين كأنه فتى فى ربيع العمر، قال عنه عثمان بن طلحة: كان ابن الزبير لا ينازع فى ثلاثة: لا شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة[2]، وعن هشام بن عروة قال: كان أول ما أفصح به عمى عبد الله بن الزبير وهو صغير: السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام[3]، وكان مشهودًا له بالشجاعة منذ كان صغيرًا، وقد مرّت شجاعته فى اليرموك وفى حصار القسطنطينية وفى فتح إفريقية، وفى دفاعه عن عثمان يوم الدار، وفى قتاله فى الجمل، وسيأتى الحديث عن شجاعته أكثر بإذن الله فى حصار الحجاج له بمكة. وكان يقول: والله إنى لا أبالى إذا وجدت ثلاثمائة يصبرون صبرى لو أجلب علىَّ أهل الأرض[4]، وكان يضرب بشجاعته المثل[5]، وكان ابن الزبير متأثرًا بشجاعة أبيه وإقدامه وشجاعة جده الصديق، وأمه وأخواله وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق.

٤- فصاحته وخطابته: كان ابن الزبير رضى الله عنه لا ينازع، وكان من خطباء قريش المعدودين، وكان إذا خطب يشبه بجده أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) فى حركاته وإشاراته ونبرات صوته، وكان صيتًا إذا خطب، ويروى أن المسلمين عندما انتصروا على البربر فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وغنموا أموالاً وغنائم كثيرة جدًا، بعث ابن أبى سرح بالبشارة مع ابن الزبير إلى عثمان فقص على عثمان الخبر وكيف جرى، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدى هذا للناس فوق المنبر، قال: نعم، فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب وذكر لهم كيفية ما جرى، قال عبد الله: فالتفت فإذا أبى الزبير فى جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد يرتج علىّ فى الكلام من هيبته فى قلبى، فرمزنى بعينه وأشار إلىَّ ليحضنى، فمضيت فى الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: والله لكأنى أسمع خطبة أبى بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بنى[6]، وعن محمد بن عبد الله الثقفى قال: شهدت ابن الزبير بالموسم خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم، فلبى بأحسن تلبية سمعتها قط،

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٨).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٧٠).
(٣) عبد الله بن الزبير فقيهًا صـ١٤، البداية والنهاية (١١/ ٢٠٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٦).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٣٧٧).
(٦) البداية والنهاية (١١/ ١٩٤).

ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنكم جئتم من آفاق شتى وفودًا إلى الله عز وجل، فحق على الله أن يكرم وفده، فمن كان منكم يطلب ما عند الله فإن طالب ما عند الله لا يخيب، فاصدقوا قولكم بفعل، فإن ملاك القول الفعل، والنية النية، القلوب القلوب، الله الله فى أيامكم هذه، فإنها أيام تغفر فيها الذنوب، جئتم من آفاق شتى فى غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجون هاهنا، ثم لبى ولبى الناس، فما رأيت باكيا أكثر من يومئذ[(١)]، وقال سعيد بن المسيب: خطباء قريش فى الإسلام: معاوية وابنه، وسعيد وابنه، وعبد الله بن الزبير[(٢)]، ومن خطبه المشهورة، خطبته فى أهل مكة بعد مقتل الحسين رضى الله عنه، وخطبته فى الخوارج حين ناظرهم، وخطبته بعد مقتل أخيه مصعب فى العراق[(٣)]، ومن مواعظه المشهورة ما كتبه لوهب بن كيسان حيث قال: كتب إلىّ عبد الله ابن الزبير بموعظة: أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم، صدق الحديث، وأداء الأمانة، وكظم الغيظ، وصبر على البلاء، ورضى بالقضاء، وشكر للنعماء، وذلّ لحكم القرآن، وإنما الأيام كالسوق ما نفق فيها حمل إليها، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجاءه أهله، وإن نفق الباطل حمل إليه وجاءه أهله[(٤)]. ولا شك أن صفة الخطابة والقدرة على الإقناع من أهم الأمور التى يجب أن يتحلى بها أى زعيم، وقد أفاد ابن الزبير من ذلك كثيرًا وكانت فصاحته وقدرته الخطابية عاملاً من عوامل نشر أفكاره والقيم التى آمن بها فى حياته.

٥ ـ **عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وجوده:** كان عبد الله بن الزبير كريمًا يعطى حقوق الرعية كاملة، ويزيد إلى من يستحق، ولا يدفع إلا بطرق مشروعة، ولكن اتهمه بعضهم بالبخل إذ لم يكن مبذرًا يعطى عن يمين وعن شمال من لا يستحق، ولم يكن مسرفًا فلا يدفع إلا قدر الحاجة، ولا يُقدّم للمدّاحين والمتزلّفين، وهم عادة أصحاب ألسنة حادة ومنها تخرج الشائعات الهادفة، غير أن ابن الزبير لم يكن يُبالى بما يُقال، ما دام أنه على الجادة[(٥)]، وقد انساق كثير من الباحثين وراء روايات الخصوم واتهموا ابن الزبير بالبخل، وهذا الوصف فيه تجنٍّ على حقيقة ابن الزبير، وللأسف أن أصحاب الدراسات الحديثة لم يلتفتوا إلى الروايات الأخرى التى تنفى صفة البخل عن ابن الزبير[(٦)]، والذى يظهر أن صفة

(١) البداية والنهاية (١١/٢١٨).

(٢) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ٣٤ .

(٣) الكامل فى التاريخ (٣/٥٨).

(٤) البداية والنهاية (١١/٢١٩).

(٥) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر صـ٢.

(٦) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ٣٦.

البخل التى وصف بها ابن الزبير كانت بسبب سياسته المالية المتشددة، ذلك أن ابن الزبير كان يتأسى بالخلفاء الراشدين وينظر إلى ما بيده من مال أنه ليس ملكًا له وإنما هو للمسلمين، ومن ثمّ لا ينفقه إلا فى وجوهه الشرعية[1] فالذين عاشوا فى ذلك العصر ورأوا سياسة ابن الزبير المتشددة وقارنوها بسياسة الأمويين فى الإنفاق لكسب الأنصار والمؤيدين والشعراء، اتهم بعضهم ابن الزبير بالبخل، وهذه الآثار تدل على كرم وجود ابن الزبير رضى الله عنه وحرصه على أموال المسلمين:

أ- شهادة السيدة عائشة فى كرم ابن الزبير: قالت عائشة بنت طلحة: خرجت مع أم المؤمنين عائشة -وهى خالة عائشة بنت طلحة- فبينما نحن كذلك إذا براجز يقول:

أنشد من كان يعيد الهمّ
يدلنى اليوم على ابن أمّ
له أب فى باذخ أشَمّ
وأمه كالبدر ليل تمّ
مقابل الخال كريم العمّ
جرّعه أكؤسه بسمّ

قالت: فلما سمعت أم المؤمنين أبياته دعت به، فقالت له من وراء حجابها: يا عبد الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدّال على الخير كفاعله». فحاجتك رجل بين يديك، فاسأل عن عبد الله بن الزبير، فإنه شرطك، فخرج الرجل حتى أدرك عبد الله بن الزبير فحمله على راحلة وصنع إليه معروفًا[2].

ب ـ شهادة معاوية بن أبى سفيان فى ابن الزبير رضى الله عنهم: سمع معاوية رضى الله عنه رجلاً وهو يقول:

ابن رقاش ماجد سَمَيْدع
يأتى فيعطى عن يدٍ أو يمنع

فقال: ذاك عبد الله بن الزبير[3].

(1) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ37.

(2)، (3) تاريخ دمشق الكبير (30/147).

جـ ـ نابغة بنى جـعدة وابن الزبير: عن عبـد الله بن عروة قال: أقحـمت السنة نابغة بنى جعْدة فدخل على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام فأنشده:

حكيـت لنـا الـصـديّق لما ولـيـتنا ... وعـثـمان والـفاروق فـارتاح مُـعْـدِمُ

وسويّت بـين الناس فى الحق فاستووا ... فـعـاد صـبـاحًـا حَالـك اللون مظلم

أتاك أبــو ليلى يـجـوب بـه الدُّجى ... دُجى الليل جوّاب الـفـلاة عَـثـمـثمُ

لتـجـبـر منه جـانبًـا دعـدعتْ بـه ... صُـروف اللـيـالى والزمـان المُـصَـمّم

فقال ابن الزبير: هوّن عليك أبا ليلى، فإن الشعر أهون وسـائلك عندنا، أمّا صفوة مالنا فلآل الزبير، وأمّا عفوته فإن بنى أسد تشغلها عنك، وتيمًا، ولكن لك فى مال الله حقان: حق برؤيتك رسول الله ﷺ، وحق لشركتك أهل الإسلام فى فـيئهم، ثم أخذ بيده فدخل به دار النَّعَم، فأعطاه قلائص سبعًا وجملاً رحيلاً، وأوقر له الركاب برًا وتمرًا وثيابًا، فجعل النابغة يستعـجل ويأكل الحب صِرْفًا، فقال ابن الزبير: ويح أبى ليـلى، لقد بلغ الجهد[1]. فهذا الخبر ينفى ما روى عن بخل ابن الزبير، ففرق بين البخل والحفاظ على مال المسلمين، فقد بدا واضحًا من كـلام عبد الله بن الزبير تبريره حق النابغة الجعـدى فيما منحه إياه دون أى اعتبار لما مدحه به من شعر[2].

د – عبد الله بن عروة ابن أخ ابن الزبير: جاء فى رواية للزبير بن بكار أن عبد الله بن الزبير زوّج ابنتـه أم حكيم من ابن أخيـه عبـد الله بن عروة، فـأرسل عروة إلى أخـيه عبـد الله عشرين ألف درهم فردها عبد الله قائلاً: لو أردت المال لوجدته عند غيرك[3].

هـ– حمزة بن عبـد الله بن الزبير فى سجن أبيه: قدم حمزة بن عبد الله بن الزبير على أبيه بعد أن عزل من العراق، فلما سأله أبوه عن المال أخـبره بأنه وزعه على قومه فوصلهم به، فقال له ابن الزبير: مال ليس لك ولا لأبيك. ثم سجنه[4] وهكذا يتضح حرص ابن الزبير على المال العام، وإنفاقه وكرمه الذى لا تجاوز فيه لشرع الله فى الإنفاق.

ثامنًا: بيعة ابن الزبير بالخلافة:

بعـد موت يزيد بن مـعاوية لم يكن هنـاك من خليفـة، وإذا كان يزيد قـد أوصى لابنه معاوية فـإن هذا لا يكفى للبيعة، إذ لا بيـعة دون شورى، إضافة إلى أن الـذين قد بايعوا

(١) تاريخ دمشق (١٤٦/٣٠).
(٢) موقف الشعر من الحركة الزبيرية ص ٤٧.
(٣) جمهرة نسب قريش صـ٢٦٥.
(٤) المصدر نفسه ص٤٠.

معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولـها وأعيان بنى كلب. هذا مع أن معاوية بن يزيد لم يعش طويلاً، وترك الأمر شورى، ولم يستخلف أحدا، ولم يوص إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير، رضى اللـه عنهما، قد بويع له في الحجاز، وفي العراق ومـا يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتـبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضًا إلا بعض جهات منـها، ففى دمشق بايع الضحاك بن قيس الـفهرى لابن الزبير، وفى حمص بايع النعـمان بن بشيـر، وفى قنسرين زفر بن الحـارث الكلابى، وفى فلسطين بايع ناتل بن قيس، وأخـرج منها روح بن زنباع الجذامـى، ولم يكن رافضًا بيعـة ابن الزبير فى الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبى[١]، وهكذا تمّت البيعة لعبد الله بن الزبير فى ديار الإسـلام، وأصبح الخليفـة الشرعى[٢]، وعين نوّابه على الأقاليم، وتكاد تجـمع المصادر على أن جـميع الأمصـار قد أطبـقت على بيـعة ابن الزبيـر خليفـة للمسلمين، ولذلك صـرّح العديد من العلماء والمؤرخين بأن بيـعة ابن الزبير بيعة شـرعية، وأنه أولى بها مـن مروان بن الحكم[٣]، فيـروى ابن عبـد البر عن مالـك أنه قال: إن ابن الزبير كـان أفضل من مروان وكـان أولى بالأمر منه، ومن ابنه عـبد الملك[٤]. ويقول ابن كثير: ثم هو - أى ابن الزبير - الإمام بعد مـوت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن الحكم، حيث نازعـه بعد أن اجتمعت الكـلمة عليه وقامت البيـعة له فى الآفاق وانتظم له الأمر[٥]، ويؤكد كل من ابن حزم[٦] والسيوطى[٧] شرعية ابن الزبير ،ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عـبد الملك باغيين عـليه خارجين على خـلافته، كمـا يؤكد الذهبى شرعية ابن الزبير ويعتبره أمير المؤمنين[٨].

١- **بيعة ابن الزبير بالحجاز:** كان من الطبيعى أن يكون الحجاز أول المناطق خضوعًا وولاء لبيعة ابن الزبير؛ لكونه مركز المعارضة ضد بنى أمية، وقد سارع أهل الحجاز إلى مبايعة ابن الزبير، ويروى ابن سـعد أن من الأوائل الذين سـارعوا إلى مبـايعة ابن الزبير عـبد الله بن مطيع العدوى، وعبد الله بن رضوان بن أمية الجمحى، والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة،

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٣)، عبد الله بن الزبير، محمود شاكر صـ٦٦.

(٢) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر صـ ٦٨.

(٣) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١١٧.

(٤) الاستيعاب (٣/ ٩١٠).

(٥) البداية والنهاية، نقلا عن عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١١٧.

(٦) المحلى (١١/ ٩٨)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١١٧.

(٧) تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ٢١٢، ابن الزبير، للخراشى صـ ١١٨ .

(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣) .

وعبيد بن عـمير، وعبيد الله بن على بن أبى طالب، وعبـد الله بن جعفر[1]، وكان هناك بعض العناصر الذين امتنعوا عن بـيعة ابن الزبير وعلى رأسهم ثلاث شخصيـات لها مكانتها وتأثيرها لاسيمـا فى الحجاز وهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وابن عبـاس، ومحمد بن الحنفية، وتكاد تجمع المصادر أن أيًا من هؤلاء لم يبايع ابن الزبير طيلة حياته[2].

أ- موقف ابن عمر من بيعة ابن الزبير: بايع ابن عمر يزيد بالخلافة، والتزم ببيعته، وحاول إقناع ابن الزبيـر بذلك، ونهاه عن إثارة الفـتنة والخروج على خـلافة يزيد[3]، وبعد وفاة معاوية بن يزيد بويع ابن الزبير بالخلافة، وطلب من ابن عمر أن يبايع له، فرفض ابن عمر البيعـة معللاً ذلك بقوله: لا أعطى صفقـة يمينى فى فرقة ولا أمنعها فى جـماعة[4]. ولم يحاول ابن الزبيـر إجبار ابن عمـر على البيعـة، كما أن المصادر لم تشـر إلى أى صدام أو مواجهة وقعت بين الاثنين[5]، وكان لامتناع ابن عمر على بيعة ابن الزبير تأثير سلبى، فقد كان ابن عمر يتمتع بمكانة عالية وبالأخص فى الحجاز، وكان له تأثيره على الناس، فامتناعه عن البيعـة يجعل البعض يقتـدى به ويتخذ الموقف نفسـه، ومما يزيد من تأثيره السلبى على حركة ابن الزبيـر أن ابن عمر كان يجبـر من له طاعة عليهم أن يتخـذوا الموقف نفسه الذى يتخذه ومع كل ذلك فلم يكن ابن عمر يشكل خطرًا حقـيقيًا على ابن الزبير؛ فهو لم يكن ذا طموح للخلافة، كما أنه لا يملك أتباعًـا يستطيع أن يواجه بهم ابن الزبير كما هو الحال عند محمد ابن الحنفية[6].

ب ـ ابن عباس وبيعة ابن الزبير: كان ابن عباس يختلف عن ابن عمر فى مواقفه إزاء الفتن التى جرت فى عصره، حيث خاض فيها وشهـد مع على صراعه ضد خصومه فى موقعتى الجمل وصـفين، ولما جـاء الأمويون للحكم واسـتخلف مـعاوية يزيد بادر ابن عـباس إلى بيعته، والتـزم بها، ولم يعرف أنه أيّد ابن الزبير الذى رفض البيعـة، وفى الوقت نفسه لم يعلن عداءه لابن الزبيـر، وبدأت العلاقة بين الاثنين تدخل طوراً جديداً بعـد وفاة يزيد بن معاوية، حيث بويع ابن الزبير بالخلافـة سنة ٦٤هـ، وعندما طلب ابن الزبير من محمد بن الحنفية وابن عباس المبايعة قـالا: حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس[7]، ووعداه بعدم

---

(١) أنساب الأشراف (١/ ٣٥٢)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١١٩.

(٢) عبد الله بن الزبير، للخراشى ص ١١٩.

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٨٤).

(٤) أنساب الأشراف (١/ ٣٥٢)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٢٠.

(٥) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٢١.

(٦) المصدر نفسه صـ١٢٢.

(٧) الطبقات (٥/ ١٠٠).

إظهار الخلاف له[١]. لم يحاول ابن الزبير فى بداية الأمر إجبارهما على البيعة، وبدأت العلاقة بين ابن الزبير وابن عباس فى تحسن، نلمس ذلك فى العديد من الروايات التى تدلل على شعور ابن عباس تجاه ابن الزبير، والمتمثل فى تأييده لبعض مواقفه[٢]، أو فى الثناء المباشر عليه[٣]، ويروى عبد الرزاق فى مصنفه أن ابن عباس كان قاضيًا لابن الزبير بمكة، إلا أن العلاقة بينهما تعكرت، وقد وردت عدة روايات تدل على مظاهر تردى العلاقة بين الاثنين وإن كانت فى مجموعها لا تخرج عن نطاق المناقشات الحادة[٤]. ونظرًا لتوافق ابن عباس مع محمد بن الحنفية فى رفض بيعة ابن الزبير وتنامى خطر الأخير، فقد انتهى الأمر بخروج ابن عباس إلى الطائف، وبقى هناك إلى أن توفى[٥]. وكان ابن عباس يثنى على ابن الزبير، فعندما ذكر عنده قال ابن عباس: قارئ لكتاب الله، عفيف فى الإسلام، أبوه الزبير، وأمه أسماء، وجده أبو بكر، وعمّته خديجة، وخالته عائشة، وجدّته صفية[٦].

جـ- ابن الحنفية وبيعة ابن الزبير : كان المبدأ الذى صرح به ابن الحنفية بعد وفاة يزيد ألا يبايع أحدًا إلا فى حالة اجتماع الناس عليه[٧]، لم يحاول ابن الزبير فى بداية الأمر إكراه ابن الحنفية على البيعة، ولم يستمر ابن الزبير فى سياسته اللينة مع ابن الحنفية، فبعد أن علا شأن ابن الزبير وجاءته بيعة الأمصار، وكادت الأمة تجتمع عليه، أحس أن الوقت قد حان لأن يبايع ابن الحنفية بناء على وعده، فعاود الكرّة مرّة أخرى، ودعاه إلى البيعة سنة ٦٥هـ، ولكن ابن الحنفية أبى أن يبايع، فلجأ ابن الزبير إلى حبسه فى الشعب[٨]، ويبدو أن ابن الزبير تخوّف من دعوة المختار بن أبى عبيد الثقفى بالكوفة، فقد كان المختار من أشد المدافعين عن ابن الزبير أيام حوصر فى مكة سنة ٦٤هـ من قبل جيش الحصين بن نمير السكونى، وكان المختار- بالإضافة إلى شجاعته وجرأته- يتمتع بمكر ودهاء كبيرين، ويحمل بين جنبيه طموحات عالية للزعامة[٩]، لم يجد المختار عند ابن الزبير ما يحقق طموحاته، فأخذ يبحث عن مكان آخر يمكن أن يحقق فيه ما تصبو نفسه إليه، فترك مكة بعد ستة أشهر من نهاية الحصار الأول، ووصل العراق فى رمضان ٦٤هـ، واستطاع عن

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٢٥ .

(٢) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٢٥، الفتح الربانى، للساعاتى (٣/١٦٧) .

(٣) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى صـ١٢٥ .

(٤) الفتح الربانى، للساعاتى (١٢/٩٨)، أخبار مكة (٢/ ٧٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/٣٥٨).

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٣٦٧).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٧٣)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٢٧ .

(٨) تاريخ خليفة صـ٢٦٢ .

(٩) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٢٩ .

طريق إدعائه نصرة آل البيت ورفع شعار الأخذ بثأر الحسين أن يجمع حوله الأنصار والمؤيدين والناقمين على حكم بنى أمية، واستطاع أن يستولى على الكوفة[1]، وكان المختار على علم بما جرى بين ابن الزبير وابن الحنفية فى أمر البيعة، وأراد أن يستغل هذا الموقف لصالحه وادعى أنه موفد من محمد بن الحنفية للأخذ بثأر آل البيت، والواقع أن ابن الحنفية تبرأ من المختار وأنكر أن يكون قد أرسله إلى العراق[2]، ودعت الشيعة بالكوفة إلى ابن الحنفية، فخاف ابن الزبير أن تفتح بذلك جبهة جديدة عليه مما يزيد الأمر خطورة وتعقيداً[3]، وأرسل المختار جيشًا فى عام ٦٦هـ إلى مكة فى موسم الحج، واستطاع أن يخلص ابن الحنفية من سجنه، ومنع ابن الحنفية الجيش من قتال ابن الزبير لكونه لا يستحل القتال فى الحرم[4]، والواقع أن ابن الحنفية أصبح يشكل خطرًا على ابن الزبير بعد وصول نجدة العراق، وتروى المصادر أنه كان لابن الحنفية لواء فى الحج ينافس فيه لواء ابن الزبير[5]، أما بالنسبة لابن الزبير فقد أحس أن مصدر قوة ابن الحنفية يكمن فى مساندة المختار بن أبى عبيد له، ولذلك فكر فى القضاء عليه، فأرسل أخاه مصعبًا واليًا على البصرة، وأمره أن يقاتل المختار وفعلاً استطاع مصعب بن الزبير أن يقضى على المختار فى الرابع عشر من رمضان سنة ٦٧هـ[6]، وأدى مقتل المختار إلى تضعضع موقف ابن الحنفية بمكة، ويروى ابن سعد أن ابن الزبير أرسل إلى ابن الحنفية أخاه عروة يطلب منه أن يبايع، وهدده بالحرب إن هو أصر على رفض البيعة[7]. ولاحت لابن الحنفية فى هذه الأثناء فرصة رأى فيها مخرجًا من ضغوط ابن الزبير، تمثلت فى دعوة عبد الملك بن مروان له بأن يقدم إلى الشام، فاغتنم ابن الحنفية هذه الفرصة وتوجه إلى الشام هو وأتباعه، واختاروا المقام بأيلة[8]، وهذه البلدة وإن كانت من بلاد الشام منطقة نفوذ عبد الملك بن مروان إلا أنها فى أطرافها نحو الحجاز وأصبح تقريبًا فى منطقة بعيدة عن الاثنين معًا، ولكن اتضح أن نوايا عبد الملك لم تكن تختلف عن نوايا ابن الزبير، فعرض عليه البيعة مقابل أموال وأعطيات سخية أو الخروج من بلاد الشام، وآثر ابن الحنفية الخروج على البيعة؛ حيث اشترط ذلك على ابن الزبير من قبل. وأراد ابن الحنفية العودة إلى مكة، ولكن ابن الزبير منعه من دخولها فتوجه بمن معه إلى الطائف، وقيل: المدينة، وبقى بها إلى أن قتل ابن الزبير[9].

(١) تاريخ خليفة صـ٢٦٣.

(٢) الطبقات (٥/٩٨).

(٣) عبد الله بن الزبير للخراشى صـ١٣٠ .

(٤) أنساب الأشراف، نقلاً عن عبد الله بن الزبير صـ١٣١

(٥) الطبقات (٥/٣)، تاريخ خليفة صـ٢٦٣ .

(٦) تاريخ خليفة صـ٢٦٤، عبد الله بن الزبير للخراشى صـ١٣١ .

(٧) الطبقات (٥/١٠٦).

(٨) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام .

(٩) الطبقات (٥/١٠٧، ١٠٨).

٢ ـ **بيعة ابن الزبير فى العراق:** أدت وفاة يزيد بن معاوية إلى اضطراب الوضع فى العراق ونشوب النزاع بين قبائله المختلفة حول السلطة، وهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام، وخرج الخوارج قبل هروبه من السجن وبدأوا بإشاعة الفوضى والفساد، وبعد فتن وقتال اتفقت القبائل بالبصرة على أن يتولى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب الأمر(١)، ثم شرع ابن الزبير فى تعيين نوابه بعد بيعة أهل البصرة له إلى أن استقر على ولايتها أخوه مصعب، وعين أهل الكوفة عامر بن مسعود بن خلف القرشى(٢)، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره. وهذا التصرف يعد فى حقيقته إقرارًا من أهل الكوفة بخلافة ابن الزبير(٣)، وتعامل أهل البصرة وأهل الكوفة مع ابن الزبير، كخليفة للمسلمين(٤)، وقد ساعدت عوامل عديدة على نشر بيعة ابن الزبير بالعراق، من أهمها: الفراغ السياسى فى السلطة بعد وفاة يزيد بن معاوية، وهروب عبيد الله بن زياد إلى الشام، كما أن التنافس القبلى على السلطة، واشتداد شوكة الخوارج وتهديدهم للأمن، أسهم فى حث أهل العراق على توحيد كلمتهم والانضواء تحت لواء ابن الزبير(٥).

٣ ـ **بيعة ابن الزبير فى الشام:** بعد وفاة معاوية بن يزيد وفى مناخ الشام المشوب بالفوضى والاضطراب وجدت بيعة ابن الزبير منفذًا لها فى بلاد الشام، لاسيما أن أخبار صمود ابن الزبير أمام جيش الحصين بن نمير فى الحصار الأول، وبيعة أهل الحجاز له، قد تنامت إلى بلاد الشام، ويصور لنا البلاذرى موقف أهل الشام من بيعة ابن الزبير فى تلك الظروف فيقول: فلما مات معاوية بن يزيد مال أكثر الناس إلى ابن الزبير، وقالوا: هو رجل كامل السن، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وهو ابن حوارى رسول الله ﷺ، وأمه بنت أبى بكر بن أبى قحافة، وله فضل فى نفسه ليس لغيره، وتكاد تجمع المصادر على بيعة جميع أقاليم أهل الشام ما عدا الأردن، فقد بايع زفر بن الحارث الكلابى(٦) بقنسرين، وبايع النعمان بن بشير الأنصارى(٧)، بحمص، واستطاع نائل بن قيس الجذامى(٨) أن يسيطر على فلسطين ويدعو فيها لابن الزبير، ودعا الضحاك بن قيس الفهرى لابن الزبير

(١) تاريخ خليفة صـ٢٥٨، عبدالله بن الزبير، للخراشى ص١٣٥.
(٢) أنساب الأشراف (١/ ٤٠٠)، عبد الله بن الزبير صـ١٣٤.
(٣) عبد الله بن الزبير ص١٣٤.
(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير صـ١٣٦..
(٥) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٣٦.
(٦) الأعلام، للزركلى (٣/ ٤٥).
(٧) المصدر نفسه (٨/ ٣٦).
(٨) المصدر نفسه (٧/ ٣٤٣).

فى دمشق[1]، وعين ابن الزبير الضحاك بن قيس واليًا على الشام[2]، هذه أهم الأقاليم التى بايعت ابن الزبير.

٤ ـ موقف الخوارج من بيعة ابن الزبير: تحالف الخوارج مع ابن الزبير فى الدفاع عن مكة حتى وفاة يزيد، فلما زال الخطر، دخل عليه قادتهم فأرادوا معرفة رأيه فى عثمان بن عفان رضى الله عنه، فأجابهم فيه بما يسوءهم، وذكر لهم ما كان متصفًا به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسِّيرة الحسنة والرُّجوع إلى الحق إذا تبين له، فعند ذلك نفروا منه وفارقوه وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا فيها بأبدانهم وأديانهم ومذاهبهم ومسالكهم المختلفة المنتشرة التى لا تنضبط ولا تنحصر؛ لأنها مفرّعة على الجهل وقوة النُّفوس والاعتقاد الفاسد، ومع هذا استحوذوا على كثير من البُلدان[3]، وتصدّى لقتالهم الفارس الهمام، البطل الكبير، المهلب بن أبى صفرة، فقد كتب ابن الزبير له بأن يتولى حربهم فاستجاب لذلك، وكان على رأس الخوارج الأزارقة نافع بن الأزرق، واستطاع المهلب أن يهزمهم وقتل أميرهم نافع بن الأزرق، وانهزمت الخوارج نحو فارس[4]، وتسربت شائعات إلى أهل البصرة بأن المهلب قتل، فاضطرب المصر وهمّ أميرهم الحارث ابن أبى ربيعة أن يهرب، وأقبل البشير إلى أهل البصرة بسلامة المهلّب، فاستبشروا بذلك واطمأنّوا، وأقام أميرها، بعد أن همّ بالهرب وبلغ عبد الله بن الزبير ما كان من عزم عامله بالبصرة على الهرب، فعزله وولى أخاه مصعبًا، فسار مصعب حتى قدمها وتولَّى أمر جميع العراقين وفارس والأهواز، ومما قيل من الأشعار فى قتال المهلب للخوارج الأزارقة:

إنّ ربّا أنجى المهلَّب ذا الطول ... لأهلٌ أنما تحمدوه كثيرًا

لايزال المهلّب بن أبى صفرة ... ما عاش بالعراق أميرًا[5]

وقال رجل من الخوارج فى قتل نافع بن الأزرق:

إن مات غير مداهن فى دينه ... ومتى يمر بذكر نار يصعق

والموت أمر لا محالة واقع ... من لا يصبحه نهارًا يطرق

فلئن منينا بالمهلب إنّهُ ... لأخو الحروب وليث أهل المشرق[6]

(١) الطبقات (٥/ ٣٨)، الإعلام (٢/ ٢٤٤).

(٢) أنساب الأشراف (٥/ ١٣٢)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٤١.

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٦٧، ٦٦٨).

(٤) الأخبار الطوال صـ٢٤٩، ٢٥٠.

(٥)، (٦) المصدر نفسه صـ٢٥١.

المبحث الثاني

خروج مروان بن الحكم على ابن الزبير

أولاً: اسمه ونسبه وحياته قبل خروجه على ابن الزبير:

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي[1]، يكنى أبا القاسم وأبا الحكم، ولد بمكة، وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، روى عن عمر وعثمان وعلي وزيد وروى عنه سهل بن سعد، وسعيد ابن المسيب، وعلي بن الحسين، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عمر، ومجاهد بن جبر، وابنه عبد الملك. وكان كاتب ابن عمه عثمان ودافع عنه يوم الدار، وسأل عنه علي بن أبي طالب يوم الجمل وقال: يعطفني عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش[2]، وكان يتتبع قضاء عمر[3]، وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية، وكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان[4]، وكان إذا وقعت معضلة -أثناء ولايته على المدينة- جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها، فنسب إليه فقيل صاع مروان[5]، وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء[6]، وقد ذكرت شيئًا من سيرته في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان شديد الحب لبني أمية، وكان متحمسًا لبيعة يزيد بن معاوية، ولما توفي يزيد خرج مروان وبنو أمية من المدينة إلى الشام بصحبة الجيش الأموي الراجع من حصار مكة الأول، وكان خروج بني أمية برغبتهم[7]، ولم يبايع مروان ابن الزبير، والتف زعماء القبائل وبنو أمية الموجودون بالشام حوله وبايعوه، وكان يحمل بين جنبيه طموحات للزعامة، وكانت هذه الطموحات مع رغبته في بقاء الخلافة في البيت الأموي هي الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده -عبد الملك، وعبد العزيز- بولاية العهد[8]، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٧٦).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٣/٤٧٧).
(٤) المصدر نفسه (٣/٤٧٨).
(٥) البداية والنهاية، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي صـ١٤٠.
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/٤٧٧).
(٧) عبد الله بن الزبير للخراشي صـ١٤٦.
(٨) الطبقات (٥/٢٢٦)، عبد الله بن الزبير للخراشي صـ١٥١.

عبيد الله بن زياد وغيره فى آخر لحظة وأثنوه عن عزمه وأقنعوه أن يدعو لنفسه[1]، وإن كنا لا نستبعد أن يكون مروان قد فكر فى ذلك الأمر لاسيما بعد انتشار بيعة ابن الزبير فى معظم الأقاليم مع تفرق كلمة بنى أمية فى بلاد الشام، وضعف موقفهم فإننا لا نعتبر ذلك مناقضًا لما ذهبنا إليه، لأن العبرة ليست فيما عزم عليه مروان بن الحكم، وإنما فى الموقف الذى اتخذه، وهو رفض بيعته لابن الزبير ومحاربته[2] والخروج عليه، ولقد سار مروان فى محاربته لابن الزبير على الخطوات التالية:

١- القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام، وأهم الأحداث بالشام كان مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط.

٢- إعادة مصر إلى الأمويين.

٣- محاولة إعادة العراق والحجاز.

٤- تولية العهد لعبد الملك وعبد العزيز.

ثانيًا: القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام وأهمية مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط:

بدأ مروان بن الحكم -بعد أن تزعم المعارضة الأموية- بتوحيد صفوفه والدخول فى صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير فى الحجاز، وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة وذلك ليحسر نفوذه أولاً ومن ثم يتيسر له القضاء عليه[3]، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية لأهل الشام، ولأهمية مؤتمر الجابية إليك تفصيل ما جرى فيه:

١ ـ مؤتمر الجابية:

ظلت الأردن -موطن الكلبيين- على ولائها للأسرة الأموية، وكان بعض زعماء الشام حريصًا على الاحتفاظ بالخلافة فى الشام دون غيرها، ومثال ذلك الحصين بن نمير الذى عرض على ابن الزبير مبايعته بشرط الانتقال للشام، ويبدو أن تمسك بعض زعماء أهل الشام باستمرار دمشق مركزًا للخلافة لم يكن أمرًا عاطفيًا غير مبرر، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة، أثبتت الأيام صدقها، بمقدرة أهل الشام على تحقيق الحسم التاريخى، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلى اليمانى، والوجود الأموى بها، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية

(١) الطبقات (٥/ ٤٠)، عبد الله بن الزبير للخراشى صـ١٥٢ .

(٢)، (٣) عبد الله بن الزبير للخراشى صـ١٥٢.

لأبناء الشام من هزات عنيفة، وتشـقق مريع، حيث أفرزت الأحداث السياسـية السريعة - آنذاك- صراعًا عنيفًا بين القبائل القيسية واليمانية، ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية بعد ذلك، فـقد بايع القـيسيـون فى شمـال الشام ابن الزبيـر المرشح الوحيد الـظاهر القوة والقبول فى هذه المرحلة، وازدادت قوة القيسيين بانضـمام الضحاك بن قيس الفهرى إليهم، وهو الرجل الذى أمضى تاريخـه كله فى الشام وفى خدمة معـاوية وابنه يزيد، والذى كان يُشرف -آنذاك- على شـئون دمشق منذ وفـاة معاوية الثـانى، بينما تشبث الكلبـيون -رغم الضعف الـظاهرى لمواقفهم فـى ظل هذه البيعـة الجمـاعية لابـن الزبير حتى مـن إخوانهم الشماليين والمصاهرة بينهم وبين الأمويين منذ تزوج معاوية منهم[1] وتربى فيهم يزيد[2].. ولكن الكلبيـين فيما عـدا ذلك يختلفون، فبـينما يهوى بعـضهم البيعـة لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام صغير السن، يستنكف بعضهم من البيعة لغلام، فى الوقت الذى يدعو فيـه الآخرون إلى شيخ قـريش عبـد الله بن الزبير، ويفضل هذا الفـريق البيـعة لمروان بن الحكم، وبعد محـاولات لرأب الصدع بين القيسـية واليمنية اتفق الطرفـان على الالتقاء فى الجابية[3]، للتشاور والاتفاق، فسار الـكلبيون والأمويون إلى هناك، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك بن قيس على رأيه فأطاعهم ومال نحو مرج راهط[4].

أ ـ الممارسة الشورية فى مؤتمر الجابية: فى الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا فى أمر البيعة والخلافة، وكان مؤتمر الجابية مـؤتمرا تاريخيًا يمكن أن يوصف بلغة السياسية بأنه كان مؤتمرًا دستوريًا، وقد حضره أصـحاب الشوكة والقوة والرأى من أهل الشام، وتمت الدعوة إليه بالرضـا من عناصر أهل الشام المؤثرة فى القـرار المصيرى، ونسـتطيع أن نلاحظ صورة لهذه التجربة الشوريـة النادرة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين لـلخلافة -غير بنى أمية- قـد عرضت للبحث، ولكن رجحت كـفة مروان لعوامل، كـما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامى أحد زعماء الشام، حيث قال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله، وقدمـه فى الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف، وليس بصاحب أمر أمة محمـد الضعيف، وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير، ويدعـون إليه من أمره، فهـو -والله- كما يذكرون، إنه لابن الزبيـر، ، حوارى رسول الله وابن أسماء ابنة أبى بكر الصديق، ذات النطاقين، وهو -بعد- كما تذكرون فى

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/٤٦٢) .

(٣) الجابية: بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان.

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٦٦..

قدمه وفضله، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس بصاحب أمر أمة محمد منافق، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الإسلام صدع قط إلا كان مروان بن الحكم ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، وهو الذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبّوا الصغير -يعنى بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية- فاجتمع رأى الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد(١)، فكانت تلك المعادلة هى التى جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات(٢)، وقد دارت نقاشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بنى أمية قد حضروا. ومن هؤلاء الزعماء، حسان بن مالك ابن بحدل الكلبى والحصين بن نمير السكونى، وروح بن زنباع الجذامى(٣)، ومالك بن هبيرة السكونى، وعبد الله بن مسعدة الفزارى، وعبد الله بن عضاة الأشعرى، وغيرهم من الشخصيات المؤثرة(٤) والمعارضة لابن الزبير، وقد قلبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأى على مروان(٥)، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكى يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية وخاصة مع بعض الزعماء مما كان له الأثر الكبير فى كسب المؤيدين له، فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم فى بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك(٦).

ب ـ أهم قرارات مؤتمر الجابية: كانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، واستبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية، ومن الناحية الأخرى هم الآن فى أزمة، وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، ومبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، وأن يتولى الخلافة بعد مروان على هذا الشرط شفويًا، والاستعداد لمجابهة وقتال المخالفين أتباع ابن الزبير فى الشام بادئ الأمر(٧).

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧٢) .
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٩٦.
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧٢).
(٤) عبد الله بن الزبير للخراشى صـ١٤٧.
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧١، ٤٧٢)
(٦) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، إسماعيل الجبورى صـ٤٦، ٤٧.
(٧) عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٣٢.

جـ- زعامة مروان لمعارضى أهل الشام قامت على الشورى: قامت زعامة مروان لمعارضى ابن الزبير على أساس الشورى، إذ انتخب بالاختيار الحر من الذين شهدوا المؤتمر وهم أهل الحل والعقد والشوكة والقوة فى الشام، وبويع بإجماع الحاضرين، فكانت طريقة توليته، شورية دستورية اتخذتها المعارضة لتقوية صفها، وبذلك صار فى العالم الإسلامى -إذ ذاك- خليفتان: عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعى والمنتخب من قبل الأغلبية الساحقة للأمة، ومروان بن الحكم الزعيم المعارض لابن الزبير والمنتخب من أهل الشوكة والقوة فى عاصمة الخلافة، ولما كان لابد من توحيد الدولة الإسلامية فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر ويتم التوحيد ويجمع كلمة الأمة، فكانت الحروب والمعارك الطاحنة فيما بعد حتى استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل الخليفة الشرعى عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، ويبدو أن أهل الشام الذين عارضوا ابن الزبير واجتمعوا بالجابية قد ذهبوا إلى أن بيعة أهل الشوكة والقوة من عاصمة الخلافة ملزمة لبقية الأقطار والأمصار كلها، وعلى الآخرين أن يسلموا لمن بايعوه لئلا ينتشر الأمر باختلاف الآراء وتباين الأهواء(١)، وقد نسب ابن حزم هذا الرأى لأهل الشام قائلاً: كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعة مروان وابنه عبد الملك واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام(٢).

والصحيح بالنسبة لعهد ابن الزبير هو الأخذ بمبدأ الأكثرية أو الأغلبية، وإن كانت حجية إقرار بيعة أهل عاصمة الخلافة أخذ بها فى بيعة الصديق والفاروق وذى النورين والحسن بن على، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيرًا، فالأخذ بمبدأ الأكثرية للترجيح فى تنازع قد قرره الإمام الغزالى حيث قال: يتم الترجيح بينهم بتقديم من انعقدت له البيعة من الأكثر، والمخالف للأكثر باغٍ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق(٣). وذلك هو الرأى الذى نؤيده، لأن حسم النزاع بترجيح أكثرهم حوزًا لرضا المسلمين هو ما يقضى به مبدأ حق الأمة الإسلامية فى اختيار الخليفة(٤)، فضلاً عن الأدلة الشرعية المؤكدة لترجيح رأى الأكثرية أو الأغلبية، نذكر منها: أن الرسول ﷺ قد أخذ بما انعقد عليه رأى أغلبية المسلمين وإن بدا مخالفًا لرأيه، وذلك حيث علم بتحريك قوات المشركين فى اتجاه المدينة لحربهم، فاستشار المسلمين، فرأى فريق منهم -وكان أكثرهم- الخروج إليهم، وفريق آخر رأى ما رآه الرسول نفسه وهو أن يظلوا بالمدينة، فلما رأى الرسول أن رأى الأغلبية مع الخروج أخذ برأيهم

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص٦. (٢)، (٣) الفصل فى الملل والنحل (٤/١٦٨).

(٤) نظام الحكم فى الإسلام، د. أحمد عبد الله صـ١٣١.

ووافق على الخروج للمشركين فى أحد[1]، وغير ذلك من الأدلة.. وقد أخذ مشروع الدستور الإسلامى الذى أعده مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بفكرة الإلزام برأى الأغلبية، حيث نصت المادة (٤٦) منه على أن تكون البيعة بالأغلبية المطلوبة لأصوات المشتركين فى البيعة[2].

٢ ـ معركة مرج راهط:

تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفيانى إلى البيت المروانى، وانعقدت البيعة لمروا، وحل مؤتمر الجابية مشكلة الخلافة بين بنى أمية، وكانت هذه خطوة حاسمة، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً؛ فما زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصارى والى حمص، وزفر بن الحارث الكلابى، أمير قنسرين، وكان واضحًا أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين، فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها، وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك منها، وكان أول فتح على بنى أمية - على حد تعبير ابن الأثير-[3] ولم يضيع مروان وقتًا، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن فى الشام كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد،واتجه إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التى حسمت الموقف فى الشام لبنى أمية ومروان، حيث هزم القيسيون، أنصار ابن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس فى الشام، واستمرت المعركة حوالى عشرين يومًا، وكانت فى نهاية سنة ٦٤ هـ، وقيل: فى المحرم سنة ٦٥ هـ[4].

أ ـ نتائج مرج راهط:

- أعادت هذه المعركة الملك لبنى أمية بعد أن كان مهددًا بالزوال، وحوّلت السلطة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى.
- تخلص الأمويون من الضحاك بن قيس الذى كان يعد معارضًا قويًا للأمويين، وتابعًا مخلصًا لابن الزبير.

---

(١) نظام الحكم فى الإسلام، د. أحمد عبد الله صـ١٣١.

(٢) نحو دستور إسلامى، محمد سيد أحمد صـ١٧٣، نظام الحكم فى الإسلام، د.أحمد عبد الله صـ١٣٢.

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦١٨).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧٣)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص١٤٣.

- سقطت قنسرين فى يد الأمويين وهرب واليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا، وكان عليها عياض الحرثى -حسب قول ابن الأثير-.
- سقطت فلسطين وهرب ناتل بن قيس الجذامى إلى ابن الزبير.
- سقطت حمص وقتل واليها النعمان بن بشير[١].
- اندلع الصراع بين اليمنية والقيسية ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة. وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيون فقد كان نصراً مؤقتًا، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية[٢].

ب- أسباب هزيمة القيسيين:

لم يرم ابن الزبير بثقله فى تلك المعركة، وكان عليه أن يجيِّش الجيوش ويمد أتباعه بالرجال والأموال والسلاح ليقضى على المعارضين بالشام عندما كانت المعارضة لم توحد صفوفها بعد.

- اعتماد مروان على رجال دهاة خبراء فى الحرب من أمثال حصين بن نمير وعمرو بن سعيد.
- عدم اشتراك أتباع ابن الزبير فى الشام كلهم، فقد شارك ولاة الشام التابعون لابن الزبير بأعداد من الجنود فقط.
- ترك الضحاك مدينة دمشق دون قوة تستطيع المحافظة عليها رغم أهميتها، وهذا سهَّل للأمويين الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من أموال مكَّنتهم من الاستفادة من هذا الخطأ[٣].

جـ- بكاء مروان بن الحكم فى مرج راهط:

وروى أن مروان بن الحكم لما جيء برأس الضحاك إليه ساءه ذلك وقال: الآن حين كبرت سنى ودق عظمى، وصرت فى مثل ظمء الحمار[٤]، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض[٥]. وروى أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط[٦] وقال: أبعد ما كبرت وضعفت

(١) الكامل لابن الأثير (٢/٦١٨)، ابن الزبير للناطور صـ١٣٧.
(٢) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل صـ١٣٠.
(٣) عبد الله بن الزبير للناطور ص ـ١٣٨ .
(٤)، (٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧٤) .
(٦) البداية والنهاية (١١/٦٧٦).

صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك[1] وفى رواية عن مالك قال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة، ثم أصبحت فيما أنا فيه من إهراق الدماء، وهذا الشأن[2]. إن ندم مروان فى مثل هذا الموقف وبعد أن تحقق له النصر، وتأكدت له طرق الحكم، وتمهدت له سبل الوصول إلى غايته، لدليل قاطع على ما كان يجيش به قلب مروان من عامل الخير، لقد كان هذا النصر جديراً أن ينسيه كل منغصات الحياة، وكان فوزه بالخلافة حقيقًا بأن ينفى عنه كل ما يسبب له الندم، ويعكر له الصفو، فما بال مروان يندم وهو فى هذه الظروف التى تزيل الهم عن النفس وتبعد الندم[3] لطالبى الملك والزعامة والسلطان؟! وأغلب الظن أنه تورط فى طلبه للخلافة، ودفعه إلى هذا المستنقع الآسن أناس لهم مصالح دنيوية لا تخفى، فشعر بوخز الضمير، وخاف على نفسه من سوء الخاتمة بعد أن ولغت يده فى دماء المسلمين من أجل الحطام الزائل.

ثالثًا: ضم مصر إلى الدولة الأموية ومحاولة إعادة العراق والحجاز:

مكّن انتصار مروان فى معركة مرج راهط لدولته فى الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطوته التالية هى المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان، فلمصر أهميتها الكبيرة، واستيلاؤه عليها يدعم موقفه فى مواجهة ابن الزبير، ولم يكن استيلاؤه عليها صعبًا، فمعظم المصريين هواهم مع بنى أمية، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة[4]، ودعا مروان شيعة بنى أمية بمصر سرًا[5] وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر، فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو ابن سعيد، وخالد بن يزيد بن معاوية، وحسان بن مالك، ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز[6]، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مروان طالبًا العفو على أن يخرج إلى مكة، فعفا عنه، وكان نجاح مروان فى استرداد مصر فى جمادى الآخرة سنة ٦٥هـ[7]، وأقام فى مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها، ولما عزم على العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز واليًا عليها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه فى مصر فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٧٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٧٩) .
(٣) الأمويون، محمد الوكيل (١/ ٣٠٧) .
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٤٤ .
(٥) الولاة والقضاء للكندى صـ٤١ ، ٤٢ .
(٦) المصدر نفسه صـ٤٢ .
(٧) المصدر نفسه صـ٤١، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٤٤ .

من بنى أبى؟ فقال له: يـا بنى، عُمهم بإحسانك يكونوا كلهم بـنى أبيك، واجعل وجهك طلقًا تصفُ لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينًا على غيره، وينْقَـدْ قومه إليك، وقد جعلـت معك أخاك بشرًا مؤنسًـا، وجعلت موسى بن نصيـر وزيرًا ومشيرًا، ومـا عليك يا بنى أن تكون أميرًا بأقـصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك؟[1]. بعد رجوع مـروان بن الحكم قافلاً من مـصر أقدم على تجهيز حـملتين ضد ابن الزبير فى محاولة منه لإعادة العـراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عـبيد الله بن زياد، وكانت مهمتها الأولى هى مـحاصرة زفر بن الحارث الكلابى والتخلص منه ثم التقدم نحو العـراق، حيث مصعب بن الزبير، ولكن هذه الحملة لم تحقق شيـئًا من أهدافها فى عـهد مروان؛ إذ سارع إليه الأجل وتوفى وهـى فى طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث فى قرقيسـيا، وعند مجىء عبد الملك أقر هذه الحملة -التى سوف نعرض للحديث عنها فيـما بعد- أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهـز مروان جيشًا من فلسطين يقدر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حبيش بن دلجة القينى، وكان فى الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، اتجه هذا الجيش نحو الحـجاز، ولما وصل إلى وادى القرى هرب عامل ابن الزبير على المدينة[2]، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان[3].

رابعًا: تولية العهد لعبد الملك ووفاة مروان بن الحكم:

ختم مروان بن الحكم أعـماله بعقد البيـعة لولديه عبد الملك بن مروان وعـبد العزيز بن مروان مجسدًا لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين[4]، وبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأمـوى، بدأ مروان بالتخطيط لاستبـعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سـعيد الأشدق من ولاية الـعهد الذى قـرر فى مؤتمر الجـابية، فـتزوج أم خالد بن يـزيد، وعمل للحصول على موافقة حسان بن مالك بن بحدل الكلبى بتولية العهد لولديه وإبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق، فوافقه حسان على ذلك، وقد كان عمرو بن سعيد الأشدق هو الذى يطالب بولاية العهـد بعد مروان، وأعلن ذلك بعد رجـوعه من قتال مـصعب بن الزبير عندما حاول إعـادة ناتل بن قيس الجذامى إلى فلسطين[5]، مما دعا مروان بن الحكم إلى أن يعهد لابنيه عـبد الملك وعبد العزيز وذلك سنة ٦٥هـ مستعـينًا بحسان بن مالك بن

(١) الولاة والقضاة صـ٤٧.

(٢) أنساب الأشراف (٥/ ١٥٠، ١٥١)، الدور السياسى لأهل اليمن ص٥٧.

(٣) الدور السياسى لأهل اليمن صـ٥٧، عبد الملك بن مروان، لضياء الدين الريّس صـ٦٠.

(٤) تاريخ خليفة نقلاً عن عبد الملك بن مروان، للريّس صـ٦٠.

(٥) أنساب الأشراف (٥/ ١٤٩).

بحدل بعد أن أخبره بما يردده عمرو بن سعيـد بن الأشدق بأن الأخير هو ولى العهد، فقال حسان: أنا أكفيك عمرًا. لهذا جمع الناس وخطبهم فبايع الجميع لعبد الملك ثم لعبد العزيز ولم يتخلف أحد[1]، ويعتبر بعض المؤرخين أن من أهم أعمال مروان بن الحكم تولية ولديه ولاية العهد، وذلك لحـفظ الخلافة فى البيت المروانى من جهـة، ولوضع حد للتنافس على الخلافة بين بنى أمـية من جهة ثانية، ولتـفادى المشاكل التى ربما تحدث بشأن الخلافـة، كما حدثت بعـد موت معـاوية الثانى[2]، والملاحظ أن مروان بن الحكم نقض بعض مـقررات مؤتمر الجـابية المتعلقة بـولاية العهد ولم يلتزم بعـهوده، وكان راغـبًا فى حصر الخـلافة فى أبنائه، فآثر إسقـاط وعوده ونقضها على المحـافظة على طموحاته ورغباته، وأوجـد معادلة فيهـا مطامع ومصالح مشتـركة مع المعارضين له، مما جعلـهم يستجيبـون لدعوته إلى تولية أبنائه ولاية العهـد من بعده، فقـد عمل على التحرش بخـالد بن يزيد وتعمّد إهانتـه أمام الآخرين، بغـية تحجيـمه وإعطاء صورة للناس بعدم صـلاحيته للخـلافة، ثم خطا الخطوة التاليـة فأخذ البـيعة لولديه عـبد الملك وعبد العـزيز فى بداية سنة ٦٥هـ[3]، لقد استطاع مروان -بدهائه ومكره وجهوده المتوالية- الخـروج بأزمة الحكم الأموى من حالة الضياع إلى مركز الصـدارة والقيادة، وهذا لم يكن حدثًا عـاديًا محدود التأثيـر، وإنما هو عودة جديدة للحكم بعد تثبـيته فى الشام ومصر من جهـة، وتجريد السفيانيين من الخـلافة وتحويلها إلى المروانيين من جهـة ثانية، ولـم يكن ثمة ما يحـول دون استمرار التقـدم عند ابنه عبد الملك لنزع الخـلافة من الخليـفـة الشرعى عـبـد الله بن الزبيـر، ثم يتفـرغ للقـيام بالعـديد من الإصلاحات التى جعلته المؤسس والمجدد الحقيقى لمؤسسات الدولة الأموية، وتعميق الحكم العضوض بها، مع وجود بعض الحسنات التى لا تنكر للملك الأموى الجديد.

توفى مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شـهر رمضان سنة ٦٥هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك، وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا، ودفن بين باب الجابـية وباب الصغـير[4]، وكان آخـر ما تكلم به مـروان: وجبت الجنة لمن خاف النار. وكـان نقش خاتمه: العزة لله، وفى رواية: آمنت بالله العـزيز الرحيم[5]، وقد اختلف فى سبب وفاته؛ إذ وردت ثلاث روايات فـيها: الأولى ترى أنه توفى بالطاعون[6]،

(١) الأنساب للبلاذرى (٥/ ١٥٠)، الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام ص٥٨.

(٢) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام ص٥٨.

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٧١٥).

(٤) المصدر نفسه (١١/ ٧١٤).

(٥) المصدر نفسه (١١/ ٧١٣).

(٦) مروج الذهب (٣/ ٨٩)، الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام ص٥٩.

وتذهب الأخرى إلى أن زوجته أم خالد بن يزيد سقتـه سمًا فمات أو وضعت وسادته على رأسه حتى مات[1]، وثالثة ترى أنه توفى وفاة طبيعية[2]، إن تناقض الروايات يدل على أن الحقيـقة غير معـروفة، وأما الرواية التى تتهم زوجـته بالقتل فتـبدو كأنها أسطورة مـختلقة ردّدتها الألسن، إما حبًا فى الثرثرة، وإما طعنًا فى الأسرة الأموية، وهذه الرواية غير مقبولة للأسباب الآتية:

١- أنه لم يعرف عن نساء العرب مثل هذا الفعل، فضلاً عن كونها سيدة حرة شريفة تلتقى وإياه فى عبد شمس.

٢- مكانة مروان بن الحكم من قومه وتوليته الخـلافة يجعل من الصعوبة بمكان الإقدام على مثل هذا الفعل له؛ وذلك للنتائج المترتبة عليه فيما بعد.

٣- لم يظهر أى أثر لهذا الاغتيال فى الأسرة الأموية، خاصة بين خالد بن يزيد وعبد الملك ابن مروان، مما يدل على أن هذه الرواية غير صحيحة.

أما الرواية التى تشير إلى مـوته الطبيعى وإصابته بالطاعون فإنها مـحتملة؛ لأنه كان قد تجاوز الستين من العمر[3]، فضلاً عن الجهد الذى بذله فى أواخـر أيامه، مما يدعم التعويل على موته الطبيعى[4].

****

(١) مروج الذهب (٣/ ٨٩)، الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام صـ٦٠.

(٢) الطبقات (٥/ ٢٢٦).

(٣) الأخبار الطوال صـ٢٨٦ .

(٤) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام صـ٦٠.

المبحث الثالث

عبد الملك بن مروان وصراعه مع ابن الزبير

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وشيء من حياته:

١ ـ اسمه ونسبه وكنيته: هو عبد الملك بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، أبو الوليد الأموى، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية(١).

٢ ـ مولده ووصفه: كان مولده ومولد يزيد بن معاوية فى سنة ستٍّ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربَّما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له: أبو الذِّبان، وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، أشهل(٢) كبير العينين، دقيق الأنف، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية، حسن الوجه لم يخضب، ويقال: إنه خضب بعد ذلك(٣).

٣ ـ طلبه للعلم وعبادته قبل الإمارة وثناء الناس عليه: قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشدُّ تشميرًا، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان(٤). وقال الأعمش عن أبى الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيِّب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك قبل أن يدخل الإمارة(٥)، وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أبًا ـ يعنى عبد الملك(٦) ـ ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنه، ويعلو فوق أقرانه(٧)، وعن يحيى بن سعيد قال: أول من صلّى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه. فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر فى أمر الله، والورع عن محارم الله(٨). وقد صدق رحمه الله. وقال الشعبى: ما جالست أحدًا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنِّى ما ذاكرته حديثًا إلا زادنى فيه، ولا شعرًا إلا زادنى فيه(٩).

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٧).

(٢) أشهل: أى يشوب سواد عينه زرقة.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٩).

(٧) الخلافة الأموية للهاشمى صـ١١٦.

(٨)، (٩) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٠).

٤ ـ تعظيمه لاسم الله تعالى: روى البيهقي: أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر دينارًا حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل(١).

٥ ـ التسبيح والتكبير في الأسفار: روى ابن أبي الدينا، أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة: سبِّحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة، وكبِّروا بنا حتى نأتي ذاك الحجر، ونحو ذلك(٢).

٦ ـ هل يصح هجره للقرآن الكريم؟ قيل: إنه لمّا وضع المصحف من حجره قال: هذا آخر العهد منك(٣). وهذه رواية ضعفها ابن كثير ورواها بصيغة التمريض «قيل»(٤)، كما أن عبد الملك قال لمؤدِّب أولاده -وهو إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر-: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن(٥).

٧ ـ ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته: روى ابن سعد ما يدل على أن عبد الملك كان محبوبًا مرغوبًا من عمومته كبار بني أمية، فذكر أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسًا يومًا ومعه عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فمر بهما عبد الملك بن مروان فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته! فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثًا: أخذ بحسن الحديث إذا حدّث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبحسن البشر إذا لقي، وخفة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر عنه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته(٦).

٨ ـ وصيته لمؤدب أولاده: قال عبد الملك لمؤدِّب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ـ: علمهم الصِّدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السِّفلَةَ فإنهم أسوأ الناس رِعة(٧)، وأقلهم أدبًا، وجنِّبهم الحشم، فإنَّهم بهم مفسدة، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقوَوا، وعلمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا، ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضاً ويمصوا الماء مصًّا ولا يعبُّوا عَبّاً، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم(٨).

٩ ـ موقفه من ابن الزبير قبل الإمارة وبعدها: كان له من ابن الزبير موقفان متناقضان: أما الأول: فكان قبل أن يتولى الخلافة، يستعيذ بالله أن يبعث خليفة إلى مكة جيشًا ليقتل ابن

(١)، (٢) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٥).
(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (١١/ ٣٨١).
(٦) الطبقات لابن سعد (٥/ ٢٢٤).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٩)، الرعة: قلة الورع.
(٨) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٩).

الزبير ومن معه، وكان يـرى فى ذلك إثمًا كبيرًا[١]، قال يحيى الغسانى: لما نزل مسلم بن عقـبة المدينة، دخلت مسجـد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عـبد الملك فقال لى عـبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ فقلت: نعم، قال: ثكلتك أمك!! أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام (بعد الهجرة) وإلى ابن حوارى رسول الله ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنّكه رسول الله ﷺ، أما والله لو جـئته نهارًا لوجدته صـائمًا، ولئن جئـته ليلاً لوجدتـه قائمًا، فلو أن أهل الأرض أطبقـوا على قتله لأكبَّـهم الله جميـعًا فى النار[٢]. وأما موقفـه الثانى فكان بعد الخلافة، ويأتى عكس الأول تمامًا، عندما جـهز عبد الملك جيشًـا يقوده الحجاج بن يوسف الثـقفى، وبعث به إلى مكة حيث كان يـتحصن ابن الزبير بالكعبة، وظل محاصرًا مكة حتى قُتل عبد الله بن الزبير[٣].

ثانيًا: حياته السياسية قبل الإمارة:

كان أول حادث سياسى أثر فى حـياته عندما كان عمره عشر سنوات، فقـد شهد مقتل عثمان رضى الله عنه، وكان لهذا الحادث أثر فى سـياسته لما تولى الإمارة، فقد خطب فى إحدى خطبه: أيهـا الناس، إنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لـم يكن عقد راية أو وثوبًا على منبر[٤]. وأول منصب إدارى تولاه فى الدولة فى عهـد معاوية بن أبى سـفيان، فقـد كان عاملاً على هجر[٥] ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت[٦]، وشارك فى الجهاد، فقد خرج على رأس حملة إلى أرض الروم وشتى هناك فى سنة ٤٢هـ[٧]،كما يذكر أنه غزا إفريقية مع معاوية بن حديج وكلفـه بفتح جلولا فى بلاد الشمال الإفريقى، وفى عهد يزيد كان يقول على ابن الزبير: مـا على الأرض اليوم خير منه[٨]، كما أن علاقـته بمصعب بن الزبير كانت حسنة، وأما عن دوره السياسى فى عهد مروان بن الحكم، فقد تولى فلسطين، وكان يبعث نائبًـا عنه روح بن زنباع[٩]، ويمكن أن يكون ذلك ليبقى فى دمـشق قريبًا من إدارة الدولة لمساعدة والده هناك؛ لاسيما أن الفترة التى تولى فيها والده الحكم كانت الدولة مـحاطة فـيهـا بالأعداء من الداخل والخـارج، وتولى إمـرة دمشق عند ذهاب والده لفـتح مصر[١٠]، وهذه المهمة تدل على كفايته الإدارية وحزمه[١١].

(١) الخلافة الأموية للهاشمى ص١١٦. (٢)، (٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٢١٧.
(٤) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام صـ٦٤ .
(٥) المعارف لابن قتيبة صـ٣٥٥، الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام صـ٦٤ .
(٦) الطبقات (٥/ ٢٢٥). (٧) تاريخ خليفة (١/ ٦٩) .
(٨) الطبقات (٥/ ٢٢٦) . (٩) أنساب الأشراف (٥/ ١٢٧) .
(١٠) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الدور السياسى لأهل اليمن صـ٦٥ .
(١١) الدور السياسى لأهل اليمن صـ٦٥ .

ثالثًا: العلماء الذين كانوا مع عبد الملك:

بايع بعض العلماء لعبد الملك بن مروان بالشام، وكانوا قلة لا يعدون شيئًا أمام العلماء الذين بايعوا ابن الزبير أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة، وانحصر وجود هؤلاء فى إقليم الشام، وقد ذكر من هؤلاء العالم الجليل قبيصة بن ذؤيب ـ رحمه الله ـ فكان من المبايعين لعبد الملك وأحد المقربين إليه[(١)]، ومنهم يزيد بن الأسود الجرشى -رحمه الله ـ فورد أنه كان مع عبد الملك فى خروجه لقتال مصعب بن الزبير، وروى عنه أنه حين رأى الجيشين قد التقيا قال: اللهم احجز بين هذين الجبلين وول الأمر أحبهما إليك[(٢)].

رابعًا: حركة التوابين ومعركة عين الوردة ٦٥هـ:

عندما عمّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين[(٣)]، وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعى لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذى سيتبعونه، وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، ثم شرعوا فى تجييش الناس، وخرج التوابون من معسكرهم فى النخيلة فى شهر ربيع الأول ٦٥هـ، وهو الموعد الذى حددوه لخروجهم، وكانت المحطة الأولى فى مسيرتهم الانتقامية فى كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذى أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام[(٤)]، ومرّ جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات، ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيسياء[(٥)]. وكانت هذه المدينة هى أبعد المناطق فى هذا الاتجاه التى اعترفت -ولو اسميًا- ببيعة ابن الزبير[(٦)]، واستقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابى، جيش التوابين بحماسة، خاصة أنه قد

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٥٤٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٧).

(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٣٥) .

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن تاريخ الدولة، الأموية، طقوش صـ٧١ .

(٥) الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٣٨) .

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، طقوش صـ٧١.

جمعت الفريقين مصلحة مشتركة هى مقاتلة الأمويين، واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن عدم قبول اقتراحه كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحارى، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم[1]، والتقى التوابون بالجيش الأموى فى عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربى من صفين فى عام ٦٥هـ، وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموى، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذى تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة[2].

وقد علق الذهبى على سليمان بن صرد زعيم جيش التوابين بقوله: كان دينًا عابدًا، خرج فى جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسُمُّوا جيش التوابين[3]. وعلق ابن كثير على جيش التوابين بقوله: لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين[4]، وكان عمر سليمان بن صرد رضى الله عنه يوم قتل ثلاثًا وتسعين سنة[5].

والحق أن الإنسان يقف مبهورًا أمام شجاعة التوابين وجرأتهم، فقد كان عددهم لا يتجاوز أربعة آلاف رجل، وخاضوا هذه المعركة بإيمان صادق، وعقيدة راسخة، وشجاعة نادرة، وصبر فائق، مع عشرين ألف جندى -على أقل تقدير- من أهل الشام، وأنزلوا بهم خسائر فادحة فى الأرواح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى خاضوا فى الدماء، ولولا كثرة جيش الشام، حتى استطاعوا أن يلتفوا حولهم، ويضربوا عليهم طوقًا، وأحاطوا بهم من كل جانب، ثم رموهم بالنَّبل، لما استطاعوا الانتصار عليهم[6].

ولكنا إزاء هذا الإعجاب بشجاعتهم، وإخلاصهم وتفانيهم فى القتال، لا نملك إلا أن نتساءل: أين كانت هذه الشجاعة يوم تركوا الحسين -رضى الله عنه ـ يواجه الموت هو وأهل بيته، دون أن يتحرك منهم أحد؟![7].

وأما أهم أسباب فشل التوابين فهى:

١ ـ قلة عددهم إذا قورنوا بجيش الشام، فكان عدد التوابين أربعة آلاف مقاتل، بينما كان جيش خصومهم الذين اشتبكوا معهم عشرين ألفًا، عدا من كان ينتظر مع عبيد الله بن زياد على سبيل الاحتياط.

(١) تاريخ الدولة الأموية، طقوش صـ٧٢، الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٣٩).
(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية صـ٧٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٥) .
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٩٧) .
(٥) المصدر نفسه (١١/ ٧٠٣) .
(٦)، (٧) الأمويون، للوكيل (١/ ٣١٥).

٢ ـ ضعف التوابين من الناحية العسكرية، فلا نستطيع أن نقارن أى واحد من قادة التوابين بقدرة ابن زياد أو حصين بن نمير من حيث الخبرة والقدرة العسكرية، وهذا يتفق مع وصف المختار الثقفى لسلمان بن صرد: إن سليمان رجل لا علم له بالحرب وسياسة الرجال[١].

٣ ـ تخاذل التوابين عن الاشتراك، فعندما أحصى ابن صرد من بايعوا وجدهم ستة عشر ألفًا عدا أهل المدائن والبصرة الذين لم يتم تنسيقهم مع الآخرين، مع أن المشتركين فى القتال هم أربعة الآف.

٤ ـ عدم اشتراك المختار الثقفى فى القتال وليت الأمر كذلك، ولكنه كان يثبط الناس عن سليمان بن صُرد[٢].

خامسًا: حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى:

هو المختار بن أبى عبيد الثقفى الكذَّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو ابن عمير بن عوف بن عقدة الثقفى، أسلم فى حياة النبى ﷺ، ولم نعلم له صحبة، استعمله عمر بن الخطاب على جيشٍ، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبى عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوى الرأى، والفصاحة، والشجاعة والدّهاء وقلة الدين[٣]، وقد قال النبى ﷺ: «يكون فى ثقيف كذاب ومبير»[٤]، فكان الكذاب هذا، ادَّعى أنَّ الوحى يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبّحهما الله[٥]، ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وهو من الشخصيات التى حفل بها العصر الأموى، والتى كانت تسعى لها عن دور، وتسعى إلى السلطان بأى ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين[٦]. فقد مر بنا فى كتابى عن الحسن بن على بن أبى طالب أنه أشار على عمه سعد ابن مسعود الثقفى بالقبض على الحسن بن على وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الحظوة عنده[٧]، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطًا، منها

(١) أنساب الأشراف (٥/٢٠٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٤٠)، عبد الله بن الزبير، للناطور صـ ١٤٨.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).

(٤) مسلم رقم ٢٥٤٥.

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٦٦).

(٧) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٨٢.

أن يكون أول داخل عليه، وألا يقضى الأمور دونه، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله[1]، وباختصار أراد أن تكون له كلمة فى دولته، ولكنه لم يجد تجاوبًا من ابن الزبير، فانصرف عنه إلى الكوفة[2]، حيث كان الأمر فيها مضطربًا، فأراد أن يصطاد فى المياه العكرة، ولم يجد فيها ورقة رابحة سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت، وادعى أن لديه تفويضًا بذلك من محمد بن على بن أبى طالب، الملقب بابن الحنفية، ولكنه لم يكن صادقًا فى ذلك، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان. وقد عبر هو نفسه عن ذلك فى حواره مع رجال من رجاله الذين أخلصوا له، وكانوا يظنونه صادقًا فى دعوته للثأر لآل البيت، وهو السائب بن مالك الأشعرى. فقد قال له المختار عندما ضيق عليه وصعب الخناق واقتربت نهايته. ماذا ترى؟ فقال له السائب: الرأى لك؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى، قال: ويحك أحمق أنت! إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم إلا أنى قد طلبت وبالغت فى ذلك إلى يومى هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، فقال السائب: إنا لله وإنا إليه راجعون[3]. قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ما صنع من أجل السلطان وحده، ولذلك يصف الذهبى المختار بالكذب وقلة الدين[4]. ظهر المختار فى الكوفة فى الوقت الذى كان فيه سليمان بن صرد الخزاعى -زعيم التوابين- يستعد للذهاب إلى الشام، لقتال عبيد الله بن زياد، فحاول تثبيط الناس عنه، وقد نجحت دعايته وتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة، وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد، وكانت نتيجة معركة عين الوردة من مصلحة المختار، فقد جاءته مصدقة لتوقعاته، كما أنه انفرد بزعامة الشيعة، ولجأ إليه الفارون من المعركة، فقويت حركته وكثر أتباعه، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعى إليه، وهو من زعماء الكوفة، فثار على عبد الله بن مطيع العدوى، أمير الكوفة، من قبل عبد الله بن الزبير، فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها.

ـ قضاء المختار على قتلة الحسين:

ولكى يثبت دعواه فى صحة دعوته فى المطالبة بدم الحسين، فقد تتبع قتلته فقتل معظمهم فى الكوفة[5]، ثم أعد جيشًا جعل على قيادته إبراهيم بن الأشتر، وأرسله إلى

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٨٢ .

(٢) البداية والنهاية (١١/٦٦).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/٦٧٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٩) .

(٥) العراق فى العصر الأموى، ثابت الرواى صـ٢٥٠، ٢٥١.

قتال عبـيد الله، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصـل، وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذى خرّ صريعًا فى ميدان المعركة سنة ٦٧هـ(١).

وقد قال ابن مفرّغ حين قتل ابن زياد:

إن المنـــايا إذا مـــا زُرن طـاغـيـــة ... هتكـن أستـــار حُــجّـــاب وأبواب

أقول: بُـعدًا وسحـقًا عنـد مصـرعه ... لابن الخـبيثـة وابنِ الكوْدن الكابى(٢)

لا أنت زُوحِـمت عن مُلك فـتـمنعـهُ ... ولا مـتَـتـتَّ إلـى قـوم بأسـبـاب(٣)

وقد شرع المختـار فى تتبع قتلة الحسـين ومن شهد الوقعة بكـربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وظفر برءوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبى وقاص أمير الجيش الذى قتل الحسـين، وشمر بن ذى الجوشن أمير الألف الذين ولُّوا قـتل الحسين، وسنان بن أبى أنس، وخولىّ بن يزيد الأصبحىّ، وخلقٍ غير هؤلاء(٤).

وكان مقتل عـبيد الله بن زياد فى يوم عاشوراء سنة سـبع وستين، ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار(٥)، وتعاظم نفوذ المخـتار بعد انتصار جيـشه على جيش ابن زياد، وسـيطر على شـمـال العـراق والجزيرة، وجـعل يولى العـمـال من قـبله على الولايات(٦)، ويجبى الخـراج، وانضم إليه عـدد كبيـر من الموالى لبغـضهم لبنى أمـية من ناحية(٧)، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية(٨). وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به فى العراق بين دولتى ابن الزبير فى الحجاز، وعبد الملك بن مروان فى الشام(٩).

١ ـ أسباب نجاح حركة المختار فى مرحلتها الأولى:

نجحت حركة المختار فى بداية الأمر للأسباب الآتية:

أ- الأرضية الملائمة، حيث العواطف ثائرة، والنفـوس مشحونة، فى وقت كانت حركة التوابين تلقى مصيرها الذى اختارت، عبر عملية استشهادية فى نظر التوابين كان لها صداها

(١) الكامل فى التاريخ (٧/٢) .
(٢) الكودن: البرذون الهجين أو البغل. الكابى: المنكب على وجهه.
(٣) الكامل فى التاريخ (٩/٢) . (٤) البداية والنهاية (٦٦/١١) .
(٥)،(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٨٤ .
(٧) الدولة الأموية فى المشرق، للنجار صـ١٤٣ .
(٨)، (٩) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٨٤ .

المأساوى فى الكوفة، ومن ناحية أخرى، فإن ابن الزبير لم يدعم وجوده بالكوفة بالجيوش وإغداق الأموال والتلطف للأعيان والأشراف والزعماء، وكانت وجهة نظره معتمدة على ترك تطاحن الأمويين مع أتباع المختار وما يترتب على ذلك من استنزاف لهما، ليكون ابن الزبير هو المستفيد من نتائج ذلك التطاحن(١).

ب-تودد المختار لبنى هاشم، فكان يرسل الهدايا لهم، وعمل على كسبهم(٢).

جـ-الشخصية القيادية البارزة التى تمتع بها المختار، فى الوقت الذى غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة، ولا نهمل المكر والدهاء والمرونة، والقدرة على استثمار الأحداث من مقتل الحسين، وحجر بن عدى، والتوابين، وتوظيف ذلك، كما امتازت شخصية المختار بقدرتها على المناورة(٣).

د-البرنامج العملى الذى تقدم به، كان المدخل الاستقطابى لشريحة عريضة فى المجتمع كانت مضطهدة ومسحوقة؛ وهى شريحة الموالى التى وجدت فى حركته المتنفس لتحقيق أهدافها فى المساواة وتحسين أوضاعها الاجتماعية(٤).

هـ-سوء اختيار ابن الزبير لعماله فى الكوفة، ويبدو أنهم لم يكونوا على قدر المرحلة، ولذلك انفلتت الأمور من أيديهم فى الكوفة(٥).

٢ ـ نهاية المختار على يد مصعب بن الزبير:

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذى وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه، ولكن عبد الملك كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير، وإن كان قد أسعده ظهور المختار فى البداية وقهره لجيش عبد الملك(٦)، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته، وأنه لا بد أن يتحرك للقضاء عليه، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار، لأن نتيجة المواجهة ستكون فى صالحه، فسوف يقضى أحدهما على صاحبه، ومن يبقى، تكون قوته قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه، وقد حدث ما توقعه عبد الملك، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة، بل أخذ

(١) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك صـ٢٠٤، ٢٠٥ .
(٢) عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٥٨ .
(٣)، (٤) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك صـ٢٠٥ .
(٥) عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٨٥ .
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٨٤ .

يعد نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذى أصبح واليًا عليها من قبل أخيه عبد الله بعد أن بايعه أهلها، وهنا أصبح الصدام محتومًا بين المختار وآل الزبير[1]، فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار فى جيش هائل، فحاصره بالكوفة وضيق عليه ومازال حتى أمكن الله منه، فقتله واحتزَّ رأسه، وأمر بصلب كفِّه على باب المسجد، وبعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشُّرَط على البريد إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فوصل مكة بعدَ العشاء، فوجد عبد الله يتنفَّل، فما زال يصلِّى حتى أسحر ولم يلتفت إلى البريد الذى جاء بالرأس، فقال: ألقه على باب المسجد، فألقاه ثم جاء فقال: جائزتى يا أمير المؤمنين. فقال: جائزتك الرأس الذى جئت به تأخذه معك إلى العراق. ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها؛ وذلك لأنّ الرجل لم يكن فى نفسه صادقًا، بل كان كاذبًا، وكاهنًا، وكان يزعم أن الوحى ينزل عليه على يد جبريل يأتى إليه[2]، وعن رفاعة بن شدّاد قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلمّا عرفت كذبه هممت أن أسُلَّ سيفى فأضرب عنقه، فذكرت حديثًا حدّثناه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، أعطى لواء غدر يوم القيامة»**[3]، وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحى يأتيه. فقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ**﴾ [الأنعام: ١٢٠]. وعن عكرمة قال: قدمت على المختار، فأكرمنى وأنزلنى حتى كان يتعهد مبيتى بالليل، قال: فقال لى: اخرج فحدِّث الناس. قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول فى الوحى؟ فقلت: الوحى وحيان، قال الله تعالى: ﴿**بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ**﴾ [يوسف: ٣] وقال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [الأنعام: ١١٢] قال: فهمُّوا بى أن يأخذونى، فقلت: ما لكم وذاك، إنِّى مفتيكم وضيفكم، فتركونى، وإنما أراد عكرمة، أن يعرِّض بالمختار وكذبه فى ادّعائه أن الوحىّ ينزل عليه[4]، قال ابن كثير: وذكر العلماء أن الكذَّاب هو المختار بن أبى عبيد، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة ويُسِرُّ إلى أخصّائه أنّه يوحى إليه. ولكن ما أدرى هل كان يدّعى النبوة أم لا؟، وكان قد وضِع له كرسى يُعَظَّمُ ويُحَفُّ بالرجال ويُسترُ بالحرير، ويحمل على البغال، وكان يُضاهى به تابوت بنى إسرائيل المذكور فى القرآن، ولا شك أنَّه كان ضالاً مضلاً، أراح الله

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٨٥، البداية والنهاية (١١/ ٦٧). (٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٨).
(٣) سنن ابن ماجه رقم ٢٦٨٨، حديث صحيح. (٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٩).

المسلمين منه بعدما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين[1]، قال تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وتسليط الظالم على الظالم سنة من سنن الله فى حركة المجتمعات واضحة المعالم فى دراسة تاريخ الإنسانية.

٣ـ أسباب فشل حركة المختار:

أـ نفور أشراف العرب فى الكوفة -وما يمثلون من حول وقوة- وقتالهم له، ثم توجه من سلم إلى مصعب بن الزبير فى البصرة واشتراكهم معه فى القتال ضد المختار.

بـ إصابته بالغرور بحيث إنه طرد عمر بن على بن أبى طالب لأنه لم يحضر له كتابًا من ابن الحنفية حيث قال له: انطلق حيث شئت فلا خير لك عندى[2]، فتركه وذهب إلى مصعب ليعود معه ليقاتله.

جـ ـ تجهيز مصعب جيشًا كبيرًا وانضمام المهلب بن أبى صفرة واشتراكه معه فى القتال. بينما لم يشترك قائد المختار -إبراهيم بن الأشتر- ولذلك لم يكن القتال متعادلاً.

دـ اكتشاف كذب المختار، فقد قال الشعبى: إن ابن الحنفية لم يرسل مع المختار كتابًا لابن الأشتر[3]، ولم تخف الرسالة عليه، فقد شك فيها لولا من شهد مع المختار، وقد عرف أشراف العرب ذلك وقالوا: هذا كذاب[4].

هـ ـ تخلي ابن الحنفية عن المختار، فقد قام على باب الكعبة وقال: إنه كان كذابًا يكذب على الله ورسوله[5]، بل أكثر من ذلك، فقد روى الطبرى أن ابن الحنفية كتب إلى شيعته: فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسرًا، ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة، فإن خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين[6].

وـ ابتداع المختار لأمر غريب في الإسلام؛ ألا وهو الكرسى، فقد جاء بكرسى ثم قال لأصحابه: إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله، وإنه كان فى

(١) البداية والنهاية (١١/ ٧١).

(٢) تاريخ الدولة الإسلامية، ابن الطقطقى صـ١٢١، عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٥٩.

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٥٩.

(٤) إمبراطورية العرب صـ١٥٦، غلوب، نقلاً عن ابن الزبير، للناطور صـ١٥٩.

(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ١٥٨).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٥٩.

بنى إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية فرفعوا أيديهم فكبّروا ثلاثًا[1].

ز ـ حاجة ابن الزبير الماسة إلى العراق؛ فهو مصدر المال والرجال الوحيد بعد ضياع الشام ومصر، وبقاء المختار فى العراق يهدد مكانته ويقطع عليه الوصول إلى بلاد فارس التى لاتزال على طاعته[2].

٤ ـ الفرقة الكيسانية وعلاقتها بالمختار:

أما كيسان المنسوبة إليه فهو مختلف فيه[3]، لكن الذى لا خلاف عليه أن المختار بن أبى عبيد الثقفى تزعم الفرقة سنة ٦٦هـ بالكوفة، وكانت الفرقة الكيسانية من الشيعة الغلاة، وكان المختار الثقفى أول من أكد فكرة المهدية فى شخص محمد ابن الحنفية، حيث أطلق عليه لقب «المهدى»، كما استخدم فكرة (البداء) وقد اشتهرت هذه المقولة قبيل قتل المختار سنة ٦٧هـ، وكان المختار ـ أيضًا ـ يقول بالبداء الذى هو من أصول الرافضة الأولى، فإن المختار كان قد تكهن بنصر أصحابه، فلما انهزموا زعم أن الله بدا له[4]، وهذه الفكرة الشيطانية مكنته من تغيير آرائه من حين لآخر، هذا فضلاً عن إظهار نفسه بمظهر النبى، وإقراره لفكرة الكرسى الذى ادعى أنه يعود للإمام على رضى الله عنه، إلى غير ذلك من الآراء المبتدعة[5]، وقد تطورت معتقدات الكيسانية ودخلوا فى النفق الشيطانى المظلم، وكانوا يقولون بإمامة محمد بن على المعروف بابن الحنفية، لأنه دفع إليه الراية بالبصرة[6]. وقالوا بالتناسخ، ويزعمون أن الإمامة جرت فى على ثم فى الحسن ثم فى الحسين ثم فى محمد ابن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت فى النبى ﷺ، وروح النبى ﷺ صارت فى على، وروح الحسين صارت فى محمد بن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت فى ابنه أبى هاشم[7]. ويعتقدون فى ابن الحنفية اعتقادًا فوق حده ودرجته، من إحاطته بالعلوم

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٥٩ .

(٢) عبد الله بن الزبير، للناطور صـ١٥٩ .

(٣) أهو كيسان مولى على بن أبى طالب الذى قتل يوم صفين؟ أم كيسان تلميذ محمد ابن الحنفية؟ أم كيسان رئيس حرس المختار بن عبيد الثقفى؟ أم هو المختار نفسه لأنه كان يسمى كيسان ويكنى أبا عمرة وأبا إسحاق؟ (الملل والنحل ١/١٣٣) .

(٤) الفَرق بين الفِرق صـ٥٥، ٥٦، دراسات فى الأهواء والفرق صـ٢٤٨.

(٥) نشأة الحركات السياسية والدينية فى الإسلام، د. فاروق فوزى صـ١٠١ .

(٦) المقالات والفرق صـ٢٦، الشيعة العربية والزيدية صـ٢٥٨ .

(٧) الملل والنحل (١/١٣١).

كلها، واقتباسه من (السيدين) الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن، وعلم الآفاق والأنفس[1]. والحق أن ابن الحنفية لم يقر الغلو الذى قيل فيه، ولم يعترف بأنه المهدى المنتظر، وروى ابن سعد حديثًا رفعه إلى أبى العريان المجاشعى قال: فبلغ محمدًا أنهم يقولون إن عندهم شيئًا -أى من العلم- قال: فقام فينا وقال: إنا -والله- ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحين. ثم قال: اللهم خلا وهذه الصحيفة فى ذؤابة سيفى فسألت: وما كان فى الصحيفة؟ قال: من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا[2].

وقال محمد للرجل الذى قابله وسأله عن أشياء سرية نميت إلى الرجل عن محمد: أما بعد، فإياكم وهذه الأحاديث فإنها عيب عليكم، وعليكم بكتاب الله، فإنه به هُدى أولكم وبه يُهدى آخركم[3].. ويظهر أن المختار هو الذى روّج فكرة مهدية محمد لأسباب سياسية، أى أنه أراد يحكم باسمه دون إشراكه بالسلطة الفعلية. وعندما هم ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة، وبلغ ذلك المختار ثقل عليه قدومه، فقال: إن فى المهدى علامة، يقدم بلدكم هذه فيضربه رجل فى السوق بالسيف فلا تضره.. فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام[4].

وقال كثير عزّة فى ابن الحنفية:

ألا إن الأئمةَ من قريش ... ولاة الحقِّ أربعة سواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبرٍّ ... وسبط غيَّبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها لواء
تغيَّب لا يُرى عنهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء[5]

سادسًا: حركة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) ومقتله:

نصت مقررات مؤتمر الجابية -كما أشرنا- على أن تكون الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد مروان بن الحكم وخالد بن يزيد بن معاوية، وتجاوز مروان عمرًا وبايع لابنيه عبد الملك، وعبد العزيز، الأمر الذى أثار نقمة عمرو، بعكس خالد بن يزيد الذى انصرف إلى العلم، لاسيما الكيمياء[6]، وفى أول سنة ٦٩ هـ خرج عبد الملك بجنوده يريد

(١) الملل والنحل (١/١٣١).
(٢) الشيعة العربية والزيدية صـ٢٥٩.
(٣) الطبقات (٥/ ٧٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/١١٨).
(٥) المصدر نفسه (٤/١١٢).
(٦) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل صـ١٥٢.

قرقيسيا، ليحاصر فيها زفر بن الحارث، واستخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن أبى العاص، ولم يكد عبد الملك يخرج بجيشه من دمشق، حتى تحصن بها عمرو بن سعيد، وأخذ ما فى بيت المال من الأموال، وتذكر رواية أخرى أن عمرو بن سعيد كان مع عبد الملك حين خرج إلى قرقيسيا، ولكنه استغل فرصة الليل، وانخذل هو وجماعة معه من الجيش، ورجعوا إلى دمشق، ففر والى دمشق من قبل عبد الملك -عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى- ودخلها عمرو بن سعيد واستحوذ على ما فيها من الخزائن(١) وبعث عمرو إلى عبد الرحمن ابن أم الحكم فلم يجده، فأمر بهدم بيته، واجتمع الناس وصعد عمرو المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه لم يقم أحد من قريش قبلى على هذا المنبر إلا زعم أن له جنة ونارًا، يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه، وإنى أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إلىَّ من ذلك شىء، غير أن لكم علىّ حسن المواساة والعطية(٢)، وأصبح عبد الملك فسأل عن عمرو بن سعيد فلم يجده، فكرّ راجعًا إلى دمشق، فوجد عمرًا وقد تحصن بها، ودارت بينهما معركة استمرت ستة عشر يومًا(٣)، ويبدو أن عبد الملك قد رأى موقف عمرو قويًا حيث كان متحصنًا بقلعة رومية منيعة، فعرض الصلح فتصالحا على ترك القتال(٤).

١- شروط عمرو بن سعيد بن العاص: كانت شروطه كالآتى: على أن لعمرو بن سعيد الخلافة بعد عبد الملك(٥)، وأن يكون له عامل مع كل عامل لعبد الملك، وأن يستشيره فى كل صغيرة وكبيرة(٦) ويوليه الديوان وبيت المال(٧). وتبرز كتب التاريخ أسبابًا عديدة دعت عبد الملك للقبول بهذه الشروط منها:

أ- انقسام قبيلة كلب -ذات القوة والتأثير السياسى فى الأحداث آنذاك- بين عبد الملك وعمرو الأشدق مما جعل كسب المعركة بالقوة يؤدى إلى خسائر فادحة لكلا الطرفين، ولم يكن لصالح كلب التى فرضت الصلح(٨).

ب- سيطرة عمرو الأشدق على مدينة دمشق التى تعد العاصمة -آنذاك- وفيها بيت المال وديوان الجند اللذان يعدان عصب الحياة وكسب المؤيدين آنذاك.

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ١١٤) . (٢)، (٣) المصدر نفسه (١١/ ١١٥).

(٤) الأمويون، للوكيل (١/ ٣٦٩). (٥) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام صـ٨٥.

(٦) تاريخ خليفة، نقلا عن الدور السياسى لأهل اليمن صـ٨٥ .

(٧) أنساب الأشراف(٤/ ١٣٩) .

(٨) نهاية الأرب (٢١/ ١٠٢)، الدور السياسى لأهل اليمن صـ٨٦ .

جـ- وقوف أكثر القبائل اليمانية الأخرى على الحياد، وعدم تدخلها في الصراع، مما يجعل القرار الفعلى للصلح بيد قبيلة كلب ذاتها(١).

د- قوة عمرو الأشدق في الشام -خاصة في دمشق- فقد أيدته دمشق، فضلاً عن زعيم بجيلة عبد الله بن كريز القسرى الذى كان مع شرطته(٢).

هـ- ويمكن أن يكون قبول الاتفاقية من قبل عبد الملك لحل النزاع سلميًا، ثم القيام بقتل عمرو الأشدق بعد اتفاقه مع بعض زعماء الشام وبنى أمية(٣).

٢ ـ غدر عبد الملك بابن عمه عمرو بن سعيد: وبعد عقد الصلح ودخول عبد الملك دمشق بأربعة أيام، أرسل إلى عمرو أن ائتنى.. فلما كان بعد الظهر لبس عمرو درعًا بين ثيابه، وتقلد سيفه، فلما نهض عثر فى البساط، فقالت امرأته وبعض من كان حاضراً عنده: إنا لا نرى أن تذهب إليه، فلم يعبأ بكلامهم، ومضى فى مائة من عبيده، وكان عبد الملك قد أمر بنى مروان بالحضور عنده، وأمر حاجبه أن يدخل ابن سعيد ويغلق الباب دون من معه.. ثم غُلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك، فرحب به وأجلسه معه على السَّرير، ثم جعل يحدثه طويلاً. ثم إن عبد الملك قال: يا غلام، خذ السيف عنه، فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: أوتطمع أن تتحدَّث معى متقلِّدًا سيفك؟ فأخذ الغلام السيف عنه، ثم تحدَّثا ساعة، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية. قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: إنك حيث خلعتنى آليت بيمينى إن ملأتُ عينى منك وأنا مالك لك أن أجمعك فى جامعة. فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم أُطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبى أميّة؟ فقال بنو مروان: أبرَّ قسم أمير المؤمنين، فقال عمرو: فأبرَّ قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين أن تُخرجنى فيها على رءوس الناس، فقال عبد الملك: أمكرًا يا أبا أمية عند الموت؟ لاها اللهِ إذًا، ما كنّا لنخرجك فى جامعة على رءوس الناس ولمّا نخرجها منك إلا صعدا(٤). ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك كسر عظمى إلى ما هو أعظم من ذلك. فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنّك إذا

(١)، (٢) الدور السياسى لأهل اليمن صـ٨٧.

(٣) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الدور السياسى لأهل اليمن صـ٨٧.

(٤) الصعد: المشقة. وعذاب صعد: شديد.

بقيت تفى لى وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن مـا اجتمع رجلان قطّ فى بلد على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهمـا صاحبه(١)، وجاء فى رواية: أن عبد الملك كلّف أخـاه عبد العزيز بقتله، وخرج لصلاة العصر، ولما رجع من صلاته وجـد أخاه لم يقتله، فلامه وسبّه وسبّ أمه ـ ولم تكن أم عبد العزيز أم عبد الملك ـ فقال: إنه ناشدنى الله والرحم- وكان ابن عمة عبـد الملك بن مروان- ثم إن عبـد الملك قال: يا غلام، ائتنى بالحـربة، فأتاه بها، فـهزها وضربه بها فلم تغن شيئًا، ثم ثنى فلم تغن شيئًا، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك وقال: ودارعٌ أيضًا، إن كنت لُمعِدًّا، يا غلام، ائتنى بالصمصامة، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصُرِع، فجلس على صدره فذبحه وهو يقول:

يا عمرو إن لا تدع شتـمى ومنقصتى   أضربك حـيث تقول الهامة اسـقونى

وانتفض عبد الملك بعد ما ذبحه كما تنتـفض القصبة برعدة شديدة جدا، بحيث إنهم ما رفعـوه عن صدره إلا محمـولا، فوضعـوه على سريره وهو يقول: مـا رأيت مثل هذا قط قبله، صاحب دنيا ولا طالب آخرة. ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أمّ الحكم، فخرج به للناس فألقاه بين أظهرهم، وخرج عبـد العزيز بن مروان ومعه البدر(٢) من الأموال تحمل، فأُلقيت بين النـاس فجعلوا يختطفونهـا، ويقال: إنها استرجـعت بعد ذلك إلى بيت المال، ويقال: إن الذى ولى قتل عمرو بن سـعيد مولى عبد الملك أبو الزُّعيزعة بعـد ما خرج عبد الملك فى الصـلاة(٣). وهكذا تخلص عـبـد الملك من منافس قـوى له، ولم يبـال بنقض العهود، وسفك الدماء، فالطريق نحو الملك جعله يتـخلص من ابن عمته عمرو بن سعيد، ومن أحب الأصدقاء إليه مصـعب بن الزبير، ومن أفضل أهل الأرض فى زمانه -على حد تعبيره- عبد الله بن الزبير.

سابعًا: مصالحة عبد الملك للروم والتضييق على الجراجمة:

نظرًا للاضطرابات الداخلية فى دولـة عبد الملك اضطر إلى مصـالحة الروم على أن يدفع لهم ٣٦٥ ألف قطعة ذهبـية، و٣٦٠ عبدًا و٣٣٠ جـوادًا أصيلاً سنويًا، وأن تقـتسم الدولة البيـزنطية والدولة الأمـوية خراج قـبرص وأرمـينيا(٤)، وارتهن منهم رهائن وضـعهم فى

(١) البداية والنهاية (١١/١١٧).

(٢) البدر: جمع بدرة: وهى كيس فيه مقدار من المال يتعامل ويقدم فى العطايا .

(٣) البداية والنهاية (١١/١١٩).

(٤) الدولة البيزنطية صـ١٥٨، الدور السياسى لأهل اليمن ص ٩٠.

بعلبك[1] فى مقابل ذلك يسحب ملك الروم الجراجمة إلى وسط الإمبراطورية البيزنطية[2]، ولم يمتنع عبد الملك عن مصالحة الجراجمة فى جبل اللكام، ووافق على أن يدفع لهم ألف دينار كل جمعة[3]، ولكن سرعان ما سنحت الفرصة لعبد الملك للتخلص من الجراجمة، فبعد أن عقد الصلح معهم أرسل أحد قادته الثقات -سحيم بن المهاجر- إلى القائد البيزنطى الذى كان على رأس الجراجمة، ونجح فى كسب ثقته، ثم كاده بقوات دبرها لهذا الشأن، فقتل القائد البيزنطى وهرب أصحابه وأمّن الباقين، فرجع العبيد إلى أسيادهم، والأنباط إلى قراهم[4]، كما أن الاتفاقية مع الدولة البيزنطية لم تدم طويلاً، لأن الروم نقضوا العهد، كما أن عبد الملك استطاع القضاء على ابن الزبير وتوحيد الدولة تحت زعامته؛ مما جعله يفكر بالرد على تحديات البيزنطيين المتكررة، فعين أخاه محمد بن مروان سنة ٧٣ هـ[5]، فشرع فى غزوهم سنة ٧٤ هـ[6].

ثامنًا: زفر بن الحارث الكلابي:

ظل القيسيون الموتورون فى مرج راهط على ولائهم لابن الزبير، وكان أحد كبار زعمائهم ـ زفر بن الحارث الكلابى ـ قد فر إلى قرقيسيا، وتحصن بها، وثابت إليه قيس، وأصبح تجمعه هناك مركزًا لشن الغارات على كلب فى المناطق المجاورة له، مما كان يسبب إحراجًا بالغًا لعبد الملك الذى كان يطمح إلى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامى تحت سيادته وسلطانه، وكان فى هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب ابن الزبير، وكان لابد لعبد الملك إذا أراد أن يضم إليه العراق، وينهى سيطرة الزبيريين عليه، من أن ينهى اعتصام زفر بن الحارث فى قرقيسيا، فسار إليه فى جيشه الذى كان قد جهزه لحرب مصعب بن الزبير، وبدأ بزفر أولاً فحاصره، ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة، وانتزعوا إعجاب عبد الملك الذى قال: لا يبعد الله رجال مضر، والله إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة[7]، ولجأ عبد الملك إلى المسالمة، وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها، ويهدده إن لم يقبل ذلك، وبعد جهود ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، ويشترط عليه أن يبقى له الخيار فى أن يظل مخلصًا لابن الزبير أو ينضم إلى عبد الملك، ورغم ذلك

(١) فتوح البلدان (١/ ١٩٠) .

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٩٠)، الدور السياسى لأهل اليمن صـ٩٠ .

(٣) أنساب الأشراف (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠)، الدور السياسى صـ٩٠ .

(٤) أنساب الأشراف (٥/ ٣٠١) .

(٥) الكامل لابن الأثير، نقلاً عن الدور السياسى صـ٩٢.

(٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٤).

(٧) المصدر نفسه (٣/ ٦١).

فقد وافق على شرطه، وأعطاه الأمان هو وابنه وقائده الهذيل بن زفر، وجميع أتباعهما، ولم يأخذ بمال أو دم أهدره، بل أعطى عبد الملك الزعيم القيسى مبلغًا من المال يوزعه بين أتباعه، ثم اختتم ذلك العمل بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث، كما أمر زفر ابنه الهذيل أن ينضم إلى جيش عبد الملك المتجه إلى حرب مصعب ابن الزبير، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة ابن الزبير[(١)]، وحرص عبد الملك على تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية، وجعل فى أصحابه زفر بن الحارث الكلابى وابنيه الهذيل وكوثرًا وعبد الله بن مسعدة الفزارى وغيرهم من زعماء قيس، كما كان فى أصحابه حسان بن مالك الكلبى، وروح بن زنباع الجذامى، ورجاء بن حيوة الكندى وغيرهم من زعماء اليمانية، وكما عدل بين الفريقين فى مجلسه عدل بينهم فى وظائفه؛ فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالبًا بينما يختار موظفى بلاطه من اليمانية.. وهكذا[(٢)].

تاسعًا: ضم العراق والقضاء على مصعب بن الزبير:

بعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين عبد الملك، الذى قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته فى ذلك، فمنهم من أشار عليه أن يقيم فى الشام، ويرسل واحدًا من أهله ليقود الجيش، ومنهم من أشار عليه بأن يسير بنفسه، فمال هو إلى هذا الرأى. وقال: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له، وإنى بصير بالحرب، شجاع بالسيف. إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب.. ومعه من يخالفه، ومعى من ينصح لى[(٣)]. عزم عبد الملك -إذن- على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير، وكان ذلك فى سنة ٧١ هـ، أى بعد أربع سنين من القضاء على المختار، ولعله أخر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمدًا، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه فى الشام، فقضى هذه السنين فى تحقيق هذا الهدف، فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابى الذى كان معتصمًا فى قرقيسيا[(٤)]، مهددًا بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسيا التى استمرت حوالى سبع سنين كالشوكة فى جنب دولته، وأحكم سيطرته

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٦٢).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٣٨٦.

(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥١).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٥٩).

على إقليم الجزيرة[1]، ثم تخلص من منافسه الخطير، وهو عمرو بن سعيد الأشدق[2]، ولما أراد الخروج للعراق ودّع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فقال: قاتل الله كثير عزة لكأنه يشاهدنا حين قال:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همّهُ ... حَصانٌ عليها عِقدُ دُرٍ يزينها

نهته فلما لم تر النّهى عاقه ... بكت وبكى ممّا عناها قطينها[3]

وسارع عبد الملك إلى العراق بجيشه، وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان، ونزل بمسكن، وكان مصعب قد علم بمسيره، ونزل بمسكن مقدمته إبراهيم بن الأشتر، ونزل باجميرا[4]، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، وكان إبراهيم بن الأشتر قائد جيوش المختار الثقفى قد انضم إلى مصعب بعد مقتل المختار، وكتب إليه عبد الملك أيضًا، فأخذ الكتاب مختومًا ودفعه إلى مصعب، فقال له: ما فيه؟ فقال له: ما قرأته، فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب: إنه -والله- ما كان من أحد آيس منه منى، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلى، فأطعنى فيهم فاضرب أعناقهم، قال: إذًا لا تنصحنا عشائرهم، قال: فأوقرهم حديدًا، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك، ووكل بهم على عشائرهم، فقال: يا أبا النعمان، إنى لفى شغل عن ذلك، يرحم الله أبا بحر- الأحنف بن قيس - إنه كان ليحذرنى غدر أهل العراق، كأنه ينظر إلى ما نحن فيه[5]. وهذا ليس غريبًا على أهل العراق، فلهم فى الغدر وتغيير المواقف سجل حافل. بل لقد صرح عبد الملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم[6]. ولم يكن هذا خافيًا فى معسكر مصعب، فعندما استدعى المهلب بن أبى صفرة - وكان من رجاله فى ذلك الوقت - يستشيره، قال له: أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم، فلا تبعدنى عنك. فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إلىّ ألاّ أسير إليه، فاكفنى هذا الثغر[7]. فى الوقت الذى كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ١٠٥.

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١١٩).

(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥١)، قطينها: خدمها.

(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٣).

(٥) الكامل في التاريخ (٣/ ٥٢)

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٥٢).

(٧) المصدر نفسه (٣/ ٥١).

والذين قبلوا التخلى عنه والانضمام إليه[١]؛ كان حريصًا على ألا يقاتل مصعبًا، للمودة والصداقة القديمة التى كانت بينهما، فأرسل إليه رجلاً من كلب، وقال له: أقرئ ابن أختك السلام - وكانت أم مصعب كلبية - وقل له يدع دعاءه إلى أخيه، وأدع دعائى إلى نفسى، ويجعل الأمر شورى، فقال له مصعب: قل له: السيف بيننا[٢].

ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى؛ فأرسل إليه أخاه محمدًا ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان، فقال مصعب: إن مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا[٣]. ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر، فقد أمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتَّاب بن ورقاء، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبد الملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدنى بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس. فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل[٤]، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب، لأنه -فوق شجاعته- كان مخلصًا له غاية الإخلاص، ولذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح قائلاً: يا إبراهيم ولا إبراهيم لى اليوم[٥]، تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال[٦] ولكنه ظل يقاتل فى شجاعة وبسالة، حتى أثخنته الجراح، وأخيرًا قتله زياد بن ظبيان.

وكان مقتله فى المكان الذى دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق[٧] فى جمادى الآخرة سنة٧٢هـ. فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: واروه، فقد -والله- كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم[٨]، وبمقتل مصعب انتهت المعركة، فدخل عبد الملك الكوفة، وبايعه أهلها، وعاد العراق إلى حظيرة الدولة الأموية. وعين عبد الملك أخاه بشرًا واليًا عليها، وقبل أن يغادرها أعد جيشًا للقضاء على ابن الزبير بمكة.

١ - **أسباب هزيمة مصعب بن الزبير:** هناك أسباب كثيرة أسهمت فى هزيمة مصعب بن الزبير منها:

أ- عدم اشتراك المهلب بن أبى صفرة ومن معه من الجنود، وهو المقاتل العنيد والخبير فى شئون الحرب، وإصرار مصعب بن الزبير على بقائه فى قتال الخوارج بناء على رغبة

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٤).
(٢) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٢).
(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٥).
(٤) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٣).
(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٥).
(٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٤، ٥٣).
(٧) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٤).
(٨) المصدر نفسه (٧/ ٤٧).

أهل البصرة، علمًا بأن المهلب قال: لا تبعدن عنك[1]، ولو لم يبعد مصعب المهلب لتمَّتَ الاستفادة من جيشه ومن قدرة وخبرة هذا القائد.

ب- خيانة قادة الفصائل من الجيش الزبيرى من العراقيين بناء على الأمانى التى مناهم إياها عبد الملك، وعدم قدرة مصعب على ثنيهم بعد اكتشاف خيانتهم.

جـ- عدم إغراق أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير الأموال والأعطيات على أعيان وأشراف أهل العراق لما جاءوا إلى مكة مع مصعب.

د- غضب بعض الشيعة لمقتل المختار، فلقد رأوا فيه أنه هو الذى انتقم من قتلة الحسين، بحيث لم يترك أحدًا، ولهذا عبّر زائدة بن قدامة عن ذلك عندما طعن مصعب وقال: يالثارات المختار![2].

هـ- قلة الخبرة العسكرية لدى مصعب على الرغم من شجاعته وإقدامه وبطولته التى اعترف بها خصمه.

و- إنهاك جيش الزبيريين، فقد خاضوا معارك عدة فى العراق بينما كان جيش الأمويين مرتاحًا، فلما رأوا جنود خصمهم تواكلوا وشملهم الرعب[3].

ز- عدم مد الخليفة -عبد الله بن الزبير- أخاه بالقوات والجند، وكان الأجدر به أن يمده بكل ما يستطيع، لأن ضياع العراق من يديه يعنى فقدان الموارد المالية وبداية الانهيار السياسى[4].

٢ ـ أثر مقتل مصعب على ابن الزبير وخطبته: لما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب، قام فخطب فى الناس، فقال: الحمد لله الذى له الخلق والأمر، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ألا إنه لن يُذل الله من كان الحق معه، وإن كان فردًا، ولم يعز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طُرًّا، ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب ـ رحمه الله ـ فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة، وأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوى بعدها ذوو الرأى إلى جميل الصبر، وكريم العزاء، ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبد من

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥١) . (٢) المصدر نفسه (٣/ ٥٤) .
(٣)، (٤) تجديد الدولة الأموية، للناظور صـ٨٠ .

عبيد الله وعون من أعوانى، إلا أن أهل العراق -أهل الغدر والنفاق- أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا -والله- ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو العاص، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى الجاهلية ولا الإسلام، وما نموت إلا قعصًا[1] بالرماح وموتًا تحت ظلال السيوف. ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشر البَطر، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الحَرِق المَهين. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم[2].

٣ ـ رأى عبد الملك في مصعب بن الزبير: لما وضع رأس مصعب بين يدى عبد الملك، بكى وقال: ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبى له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم[3]. لقد نسى عبد الملك كل ما كان بينه وبين مصعب، ولم يذكر إلا الكرسى وسلطة الحكم، حتى إذا ما تم له الأمر، وخلص له الحكم، أخذ يتحدث عما كان بينهما من المودة والخُلة، وراح يذكر محاسنه فى مجالسه، وهو يعلم أن ذلك لن يضر ملكه شيئًا[4]. روى ابن كثير أن عبد الملك قال يومًا لجلسائه: من أشجع العرب؟ قالوا: شبيب، قطرىّ بن الفجاءة، وفلان، وفلان. فقال عبد الملك: إن أشجع العرب لرجل جمع بين سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كُريز، وأمّه رباب بنت أُنيف الكلبى، سيد ضاحية العرب، وولى العراقين خمس سنين، فأصاب ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف، وأعطى الأمان فأبى ومشى بسيفه حتى مات؛ ذلك مصعب بن الزبير، لا من قطع الجسور مرة هاهنا ومرّة هاهنا[5]. إن مدح مصعب الآن لا يضر عبد الملك شيئًا، فقد مضى إلى ربه، وترك له الدنيا بزخارفها، فهو الآن، وبعد أن لم يعد مصعب يشكل خطرًا على ملك عبد الملك، فلا بأس بأن يذكر محاسنه، ولا بأس بأن يؤبنه؛ ولهذا لما جيء برأس مصعب إلى عبد الملك قال: واروه، فقد -والله- كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم. وأمر به وابنه عيسى فدفنا[6].

٤ - ما قيل من رثاء فى مصعب بن الزبير: اشتهر عبيد الله بن قيس الرقيات بالدفاع عن الحركة الزبيرية، وكان شاعرها الأول، ومما قاله فى رثاء مصعب بن الزبير:

نَعَتِ السحائبُ والغمام بأسرها ... جسدًا بمسكِنَ عارى الأوصال

(١) القعص: الموت السريع.
(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٥٣).
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٤٧).
(٤) الأمويون (١/ ٣٨٠).
(٥) المصدر نفسه (١١/ ١٥٢).
(٦) تاريخ الطبرى، الأمويون، للوكيل (١/ ٣٨١).

تُمسى عوائده السِّباع وداره ... بمنازل أطلالهن بَوَالى
رحل الرِّفاق وغادروه ثاويًا ... للرِّيح بين صَباً، وبين شمال[1]

٥ ـ **سكينة بنت الحسين زوجة مصعب بن الزبير:** كتب مصعب إلى زوجته سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب بعد خروجه من الكوفة بليال:

وكان عزيزًا أن أبيت وبيننا ... حجاب فقد أصبحت منى على عشر
وأبكاهما للعين والله فاعلمى ... إذا ازددت مثليها فصرت على شهر
وأبكى لقلبى منهما أننى ... أخاف بألا نلتقى آخر الدهر

وقيل: دخل مصعب على سكينة يوم قتل، فنزع ثيابه ولبس غلالة، وتوشح بثوب، وأخذ سيفه، فعلمت سكينة أنه لا يريد أن يرجع، فصاحت: واحزناه عليك يا مصعب! فالتفت إليها -وقد كانت تخفى ما فى قلبها عنه- فقال: أوكل هذا لى فى قلبك؟ قالت: وما أخفى أكثر، فقال: لو كنت أعلم هذا كانت لى ولك حال، ثم خرج فلم يرجع، ولما قتل مصعب خرجت سكينة تطلبه فى القتلى فعرفته بشامة فى خده، فأكبت عليه وقالت: يرحمك والله، نعم -والله- خليل المسلمة، كنت أدرك والله ما قال عنترة:

وحليل غانية تركت مجندلاً ... بالقاع لم يعهد ولم يتكلم
فهتكت بالرمح الطويل إهابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[2]

وقالت سكينة فى رثاء مصعب:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذى ... يرى الموت إلا بالسيوف حرامًا
وقبلك ما خاض الحسين منية ... إلى القوم حتى أوردوه حماما[3]

****

(١) البداية والنهاية (١١/١٥٦) .
(٢) المنتظم لابن الجوزى (٦/ ١١٤، ١١٥).
(٣) موقف الشعر من الحركة الزبيرية ص٦٠.

المبحث الرابع

نهاية أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

أولاً: محاولات الأمويين إخضاع الحجاز قبل حصار ابن الزبير الأخير:

كانت المناوشات مستمرة بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان على الجبهة الحجازية، ومن أهم الحملات التى شنها الطرفان.

١ـ حملة حبيش بن دلجة القيني: تكاد تجمع الروايات على أن مروان بن الحكم هو الذى أرسل هذه الحملة إلى الحجاز، وذلك بعد مقدمه من مصر[(١)]. والذى يظهر أن هذه الحملة أرسلت فى أواخر عهد مروان بن الحكم حيث توفى مروان قبل أن تكمل مهمتها، الأمر الذى حدا ببعض المؤرخين أن يذكروا أن عبد الملك بن مروان هو الذى أرسل هذه الحملة[(٢)]، وكان عدد أفراد هذه الحملة يتراوح ما بين ٦٤٠٠ و٧٠٠٠ رجل[(٣)]، واستطاع ابن الزبير أن يتغلب على هذا الجيش، فقد أرسل الحارث بن أبى ربيعة - وكان واليًا على البصرة- جيشًا بقيادة الحنتف بن السجف التميمى لمواجهة جيش حبيش بن دلجة، ومن جهته أرسل ابن الزبير جيشًا آخر بقيادة عباس بن سهل بن سعد الأنصارى ليلتقى بجيش الحنتف ويتحدا للقضاء على جيش حبيش، وهذا ما تمّ فعلاً[(٤)]، بالربذة[(٥)].

٢ـ حملة نائل بن قيس الجذامى: أرسل ابن الزبير نائلاً بحملة بعد وفاة الحنتف بن السجف بوادى القرى، وأمره أن يعبر إلى نواحى الشام وأن يكوّن مسلحة بها[(٦)]، وفى رواية أخرى أن ابن الزبير بعث نائلاً بعد وفاة مروان، وأمره أن يأتى فلسطين[(٧)]، وعلى أية حال فكلا الروايتين تتفقان على أن عبد الملك بن مروان استطاع أن يقضى على نائل بن قيس (بأجنادين)[(٨)]، وقد قتل نائل وأصحابه بفلسطين سنة ٦٦هـ.

٣ـ حملة عروة بن أنيف: بعث عبد الملك عروة بن أنيف فى ستة آلاف إلى المدينة، وأمرهم ألا ينزلوا على أحد، ولا يدخلوا المدينة إلا لحاجة ضرورية أو يعسكروا

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٨١.
(٢)، (٣) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٨١.
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٥٣).
(٥) أنساب الأشراف (٥/ ١٥١ ـ ١٥٣).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ١٥٨).
(٧) المصدر نفسه (٥/ ١٥٩).
(٨) أجنادين: من نواحى فلسطين، ياقوت؛ معجم البلدان (١/ ١٠٣).

«بالعرصة»[(١)]، وسار عروة بن أنيف وعسكر بالعرصة، وتشير الرواية إلى أن الحارث بن حاطب ـ عامل ابن الزبير على المدينة ـ هرب منها، وكان عروة يدخلها ويصلي الجمعة بالناس ثم يعود إلى معسكره، ومكث عروة على هذا الوضع شهرًا، ولم يبعث إليه ابن الزبير أحدًا، ولم تحدث أي مواجهة بين جيشي عروة وابن الزبير، عندها أمر عبد الملك هذا الجيش بالعودة إلى الشام فرجع[(٢)].

٤ـ حملة عبد الملك بن الحارث بن الحكم: أرسل عبد الملك بن مروان هذه الحملة – وقوامها أربعة آلاف– إلى المدينة، وكانت مهمتها الحفاظ على المنطقة ما بين الشام والمدينة. عسكر عبد الملك بن الحارث بوادي القرى، ومن هناك أرسل فرقة قوامها خمسمائة رجل بقيادة أبي القمقام إلى سليمان بن خالد ـ عامل ابن الزبير على خيبر وفدك ـ للقضاء عليه، وقد حاول سليمان الهرب منهم لكنهم أدركوه وقتلوه[(٣)]، ولم يستطع ابن الزبير عمل شيء حيال ذلك سوى عزل الحارث بن حطاب وتولية جابر بن الأسود مكانه، وأرسل جابر بن الأسود من جهته حملة بقيادة أبي بكر بن أبي قيس إلى أبي القمقام بخيبر، واستطاع أبو بكر أن يلحق بخصمه الهزيمة[(٤)].

٥ـ حملة طارق بن عمرو: كانت هذه الحملة هي آخر حملة وجهها عبد الملك بن مروان تجاه الحجاز، وكان الهدف منها أن يسيطر فيما بين «أيلة» و«وادي القرى» ويكون مددًا لمن يحتاج إليه من عمال عبد الملك بن مروان، وفي الوقت نفسه تكون سدًا أمام تحركات ابن الزبير، وطلب ابن الزبير من واليه على البصرة إرسال قوات لحماية المدينة، فأرسل إليه ألفي رجل بقيادة ابن رواس، واستطاعت تلك القوات حماية المدينة، ولكن ما لبث ابن الزبير أن أمر ابن رواس بالمسير إلى طارق بن عمرو، وكانت نتيجة الصدام انتصار طارق بن عمرو، وعاد طارق إلى أم القرى ملتزمًا بالمهمة التي أوكلها له عبد الملك[(٥)].

ثانيًا: الحصار الثاني وسقوط خلافة ابن الزبير:

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق إيذانًا بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير؛ فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية،

---

(١) العرصة: وهما عرصتان بنواحي المدينة بالعقيق.

(٢)، (٣) الطبقات، نقلاً عن عبد الله ابن الزبير، للخراشي صـ١٨٥.

(٤) الطبقات، نقلاً عن عبد الله ابن الزبير، للخراشي صـ١٨٦.

(٥) عبد الله بن الزبير، للخراشي صـ١٨٧.

وانحصرت دولة ابن الزبير فى الحجاز، ولم يكن فى استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فت فى عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يلق رايته، وظل يقاوم حتى النهاية. . لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتًا بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضى نهائيًا على دولة ابن الزبير[1] ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج بن يوسف، وتوجه بجيشه إلى الحجاز، واستقر بالطائف، وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها[2]، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو -الذى كان مرابطًا بوادى القرى- أن ينضم إلى جيش الحجاج، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة آلاف رجل[3].

١ـ الحصار الاقتصادى: وفى محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادى على مكة، ويروى ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يسهم فى فرض هذا الحصار؛ فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة مهمة قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة[4]، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه[5]، وفى الوقت نفسه كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك، السويق، والكعك والدقيق[6]، وقد ترتب على تردى الأحوال داخل مكة، أن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا ينسحبون واحدًا تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير[7].

٢ـ نصب المنجنيق على جبال مكة: أراد الحجاج بن يوسف الثقفى أن ينهى أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزته، فأجابه عبد الملك بقوله: افعل ما ترى[8]. وهذه الإجابة تحمل فى مضمونها الموافقة على طلب الحجاج المتحفز لقتال ابن الزبير، وتوجه الحجاج بن يوسف بجميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبالها، وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضربًا متواصلاً، وفى الوقت نفسه كانت بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير[9]، وتوسط بعض أعيان مكة وعلى رأسهم ابن عمر

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥٠٣.

(٢) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٨٩.

(٣) الطبقات لابن سعد، نقلاً عن عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ ١٨٩.

(٤) جمهرة أنساب العرب صـ٢٤٤.

(٥) أنساب الأشراف (٥/ ٣٦١)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٩٠.

(٦) أنساب الأشراف (٥/ ٣٦٠).

(٧) المصدر نفسه (٥/٣٦٦)، عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٩٠.

(٨)، (٩) أنساب الأشراف (٥/٣٥٨).

لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم: والله إنى لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت؟ وكانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية، وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان فى ذلك تعطيل لركن من أركان الحج فقد تدخل فى الأمر ابن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له: اتق الله فإنك فى شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً[١]، فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعماله حتى ينتهى الناس من الحج، وقال لهم: والله إنى لكاره لما ترون، ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت[٢]، وأيًا ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف[٣]، وبعدما انتهى موسم الحج نادى الحجاج فى الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيستأنف ضد ابن الزبير[٤].

ويروى البلاذرى أن العديد ممن كانوا مع ابن الزبير حاولوا إقناعه بقبول أمان الحجاج بن يوسف، فلم يستجب ابن الزبير لمحاولاتهم وأصر على القتال، وقد سطرت الروايات مواقف بطولية رائعة لابن الزبير رضى الله عنه فى مواجهة كتائب الحجاج، ولم يمنعه كبر وخذلان من حوله، من الثبات على مبدئه الذى قاتل من أجله[٥].

٣ـ أسماء بنت الصديق ترسم لابنها طريق الأحرار: بعد انتهاء موسم الحج نادى الحجاج فى الناس أن يعودوا إلى بلادهم لأنه سيعود إلى ضرب البيت بالحجارة[٦]، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة، وشدد على ابن الزبير، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه، ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما[٧]. فلما رأى ذلك دخل على أمه فقال لها: يا أمه، خذلنى الناس حتى ولدىَّ وأهلى، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت -والله- يا بنى أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية، وإن

(١) أنساب الأشراف (٥/ ٣٧٦)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه صـ٥٣.
(٢) المنتقى فى أخبار أم القرى صـ٢٦، الحجاج المفترى عليه صـ٥٣.
(٣) الحجاج بن يوسف المفترى عليه صـ٥٤.
(٤) أنساب الأشراف (٥/ ٣٧٦)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه صـ٥٤.
(٥) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٩١.
(٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ٦٩).
(٧) المصدر نفسه (٣/ ٧٠).

كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الدنيا، القتل أحسن. فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا - والله- رأيى، والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك، فزدتنى بصيرة مع بصيرتى، فانظرى يا أمه فإنى مقتول من يومى هذا، فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكرًا، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر فى حكم الله، ولم يغدر فى أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى، اللهم إنى لا اقول هذا تزكية منى لنفسى، أنت أعلم بى، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى، فقالت أمه: إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنًا إن تقدمتنى، وإن تقدمتك ففى نفسى، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيرًا، فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبدًا، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبى، اللهمّ قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين(١)، فتناول يديها ليقبّلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعًا لأنّى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا، قالت: امض على بصيرتك وادن منى حتى أودّعك. فدنا منها فعانقها وقبّلها فوقعت يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد. فقال: ما لبسته إلاّ لأشدّ منك. قالت: فإنّه لا يشدّ منى، فنزعها ثمّ أدرج كميه، وشد أسفل قميصه، وجبة خز تحت القميص، فأدخل أسفلها فى المنطقة، وأمه تقول: البس ثيابك مشمّرة، ثم انصرف ابن الزبير وهو قول:

إنى إذا أعـرف يومى أصـبـر   وإنما يعـرف يومـه الحُـرّ

فسمعت والدته قوله فقالت: تصبر والله إن شاء الله، أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب(٢).

٤- استشهاد ابن الزبير رضى الله عنه: إن الثبات على المبدأ -وإن كان يعارض مصالح الشخص، ويعرضها للخطر - يعتبر من أنبل الصفات، وقد تأصلت هذه الصفة فى ابن

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٧٦).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٧٧)

الزبير، فما وهن وما ضعف وما استكان في سبيل المبادئ التى نادى من أجلها، ففى آخر يوم من حياته صلّى ركعتى الفجر ثم تقدم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه فقرأ: ﴿نٓ والقلم﴾ حرفًا حرفًا، ثم سلم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة بليغة جاء فيها: . . . فلا يرعكم وقع السيوف فإنى لم أحضر موطنًا قط إلا ارتثثت فيه من القتل، وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم أمرأ كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا يلهينكم السؤال عنى، ولا تقولن: أين عبد الله ابن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عنى فإنى فى الرعيل الأول.

أبى لابن سلمى أنه غير خالد ... ملاقى المنايا أى صرف تيمّما

فلست بُمبتاع الحياة بسُبَّة ... ولا مُرتَقٍ من خشية الموت سُلَّما

احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمى بآجُرَّة فأصابته فى وجهه فأرعش لها، ودمى وجهه، فلما وجد سخونه الدم يسيل على وجهه ولحيته قال:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[(١)]

وقاتلهم قتالاً شديدًا، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة[(٢)]، وتولى قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج، وسار الحجّاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا. فقال الحجّاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنّا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو فى غير جند ولا حصن ولا مَنَعة فينتصف منّا، بل يفضل علينا. فبلغ كلامهما عبد الملك فصوّب طارقًا[(٣)]، ولما صلب ابن الزبير ظهرت منه رائحة المسك[(٤)]، وقد ذكر أن ابن الزبير فى يوم استشهاده قال: ما أُرانى اليوم إلا مقتولاً، لقد رأيت في ليلتي كأنَّ السماء فرجت لى، فدخلتها، فقد -والله- مللت الحياة وما فيها[(٥)].

٥ـ أسماء رضى الله عنها تقيم الحجة على الحجّاج: لما قتل عبد الله خرجت إليه أمُّه حتى وقفت عليه، وهى على دابة، فأقبل الحجّاج فى أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها فقال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أُديل الباطل على الحق،

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٧٩).
(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه (٣/ ٧٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٨).

وإنك بين فرشها والجيّة. فقـال: إنّ ابنك ألحد فى هذا البيت، وقد قال الله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [الحج: ٢٥] وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم، قالت: كذبت، كان أوّل مـولود ولد فى الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله ﷺ وحنّكه بيده وكبّر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحًا به، وقد فرِحتَ أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومـئذ خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك براً بالوالدين صـوّامًا قوّامًا بكتاب الله معظمًا لحُـرم الله، يُبْغِضُ أن يُعصى الله عز وجل[1].. وقد دافعت عن ابنها دفاعًـا مجيـدًا، فانكسر الحجّـاج وانصرف، فبلغ ذلـك عبد الملك، فكتب إليـه يلومه فى مخاطبته أسماء وقال: مالك ولابنة الرجل الصالح[2].

٦ـ ابن عمر وثناؤه على ابن الزبير بعد استشهاده: مرّ عبد الله بن عمر على ابن الزبير بعد صلبه فقال: السـلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خُبيب، السـلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنـهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هـذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت -ما علمت- صوّامًا قوّامًا وصولاً للرحم، أما والله لأُمّة أنت شرُّها لأمة خير، ثم نفذ عبد الله بن عمـر فبلغ الحجّاج وقوف ابن عمر عليه وقوله، فأرسل إليه فأنزله عن جذِعة[3].

٧ـ بيعة ابن عمر لعبد الملك: لما أجمع الناس على البيعة لعـبد الملك بن مروان كتب إليه ابن عمر: أما بعد، فإنى قد بايعت لعـبد الملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بنيَّ قد أقرّوا بذلك[4]، وجاء فى رواية أن ابن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان فبدأ باسـمه، فكتب إليه: أما بعد، فـ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ...﴾ الخ [النساء: ٨٧]. وقد بلغنى أن المسلمين اجـتمعوا على البيعة لك، وقد دخلت فيـما دخل فيه المسلمون، والسلام[5]، وحاول بعض بطانة الخليفة أن يوغروا صدره على ابن عمر لأنه بدأ باسمه قـبل اسم الخليفة، فقال عبد الملك: إن هذا من أبى عبـد الرحمن كثـير[6]. وكان مما كـتب به عبد الملك إلى الحـجّاج بن يوسف ألا يخالف عبد الله بن عمر فى الحج[7] لما يعرفه من فضله وفقهه[8].

---

(١)، (٢) البداية والنهاية (١١/٢٠٩). (٣) المصدر نفسه (١١/ ٢١٠).

(٤)، (٥) الطبقات (٤/١٥٢).

(٦) عبد الله بن عمر، محيى الدين مستو صـ١٠٨، الطبقات (٤/ ١٥٢).

(٧) نسب قريش صـ١٠٨. (٨) عبد الله بن عمر، محيى الدين مستو صـ١٠٨.

٨ـ ابن عمر رضى الله عنه والحجاج: بقى الحجّاج بن يوسف الثقفى واليًا على مكة بعد مقتل ابن الزبير، وكان عبد الله بن عمر يترك المدينة ويأتى مكة حاجًا أومعتمرًا، ويرى أو يسمع من أفعال الحجاج وأقواله المخالفة للشرع، فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويرد عليه بكل جرأة وشجاعة[١] وبعدما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير وتمت له السيطرة على مكة خطب الناس، وكان مما قال: إن ابن الزبير حرَّف كتاب الله، وفى رواية: غيَّر كتاب الله، فقام ابن عمر وقال: كذبت كذبت كذبت، ما يستطيع ذلك، ولا أنت معه[٢]، وخطب الحجاج الناس يوم الجمعة، فأطال حتى كاد يذهب وقت الصلاة، فقام ابن عمر: فقال: أيها الناس، قوموا إلى صلاتكم، فقام الناس، فنزل الحجاج فصلى، فلما انصرف قال لابن عمر ما حملك على ذلك؟ فقال: إنما نجيء للصلاة فصلِّ الصلاة لوقتها، ثم بقبق[٣] بعد ذلك ما شئت من بقبقة[٤]، كما أنكر ابن عمر على الحجّاج تهاونه فى إشاعة حمل السلاح فى مكة وتركه لرجال جيشه يضايقون به المسلمين ويعرضون حياتهم بذلك للخطر، ففى الصحيح عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح فى أخمص قدمه، فلزقت قدمه بالركاب، فنزلت فنزعتها وذلك بمنى، فبلغ الحجّاج فجعل يعوده، فقال الحجّاج: لو نعلم من أصابك! فقال ابن عمر: أنت أصبتنى، قال: وكيف؟ قال: حملت السلاح فى يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم.

وفى رواية عن إسحاق بن سعيد عن أبيه قال: دخل الحجّاج على ابن عمر وأنا عنده فقال: كيف هو؟ فقال: صالح. فقال: من أصابك؟ قال: أصابنى من أمر بحمل السلاح فى يوم لا يحل فيه حمله؛ يعنى الحجّاج[٥] ولما خرج الحجّاج قال ابن عمر: ما آسى على شيء من هذه الدنيا إلا على ثلاث، وذكر منها: ألا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية التى حلت بنا[٦]، يقول الذهبى فى تعليقه: يعنى بالفئة الباغية الحجّاج[٧] وأنا أزيد: ومن أرسله.

٩ـ منهج ابن عمر فى الفتن: لم يكن ابن عمر بمنأى عن الأحداث السياسية من حوله، بل كانت له نظراته وتحليلاته لتلك الأحداث، وتميز ابن عمر بمواقفه فى الفتن تميزًا واضحًا، فقد عايش عددًا من الفتن التى ابتليت بها الأمة الإسلامية آنذاك، وقد كشفت تلك الفتن عن حكمة بالغة ونظرة ثاقبة للأحداث، مما جعله بحق مدرسة مليئة بالدروس المفيدة

(١) عبد الله بن عمر، محيى الدين مستو صـ١٠٨.
(٢) الطبقات الكبرى (٤/ ١٨٤)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٠).
(٣) بقبق الرجل: كثر كلامه.
(٤) الطبقات (٤/ ١٨٥، ١٨٦)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٠).
(٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٢).
(٧) الطبقات (٤/ ١٨٥).

والآداب الجمة التى اهتدى بها كثير من الناس فى عصره، وأصبحت بعده معلمًا يقتدى به من بعده[1]، كما قال سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ: يقتدى بعمر فى الجماعة وبابنه فى الفرقة[2]. **ومن أبرز ما يميز منهج ابن عمر فى التعامل مع الفتن ما يلى:**

أ ـ تجنب القتال والحرص على حقن دماء المسلمين: وقد وردت عدة روايات توضح موقف ابن عمر رضى الله عنهما من ذلك القتال الدائر فى الفتنة الأولى والثانية، فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: قالوا لابن عمر فى الفتنة الأولى: ألا تخرج فتقاتل؟ فقال: قد قاتلت والأنصاب بين الركن والباب حتى نفاها الله عز وجل من أرض العرب، فأنا أكره أن أقاتل من يقول: لا إله إلا الله. قالوا: والله ما رأيك ذلك، ولكنك أردت أن يفنى أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم بعضًا، حتى إذا لم يبق غيرك قيل: بايعوا لعبد الله بن عمر بإمارة المؤمنين. قال: والله ما ذلك فىَّ، ولكن إذا قلتم: حى على الفلاح أجبتكم، وإذا افترقتم لم أجامعكم، وإذا اجتمعتم لم أفارقكم[3]، وجاءه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر وصاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعنى أن الله حرم علىّ دم أخى المسلم، قال: ألم يقل الله: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ [البقرة: ١٩٣] فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يرد قال: فما قولك فى على وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولى فى على وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن تعفوا عنه، وأما على، فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيده، وهذا بيته حيث ترون[4].

ولم يكتف ابن عمر رضى الله عنه بالحرص على كف نفسه وتجنيبها إراقة دماء المسلمين، بل سلك بعض السبل التى تؤدى إلى تجنب المسلمين إراقة الدماء فيما بينهم، من ذلك محاولته الجادة ـ خلال الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان ـ لإنهاء القتال بينهما حقنًا لدماء المسلمين[5]. فروى المدائنى أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان يأمره بتقوى الله وأن يكف نفسه، فكتب إليه عبد الملك أنه سيخرج نفسه ويجعل الأمر شورى، فلما كتب ابن عمر إلى ابن الزبير بذلك لم يلتفت إليه[6].

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٣٢٥.

(٢) عبد الله بن عمر، محيى الدين مستو صـ٢١٢.

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٩٤).

(٤) هناك رواية: وهذه بنته -أو بنتيه- ولعل ذلك تصحيف.

(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٣٢٨.

(٦) أنساب الأشراف (٥/ ١٩٥).

ب ـ الحث على السمع والطاعة للإمام القائم ونهيه عن إثارة الفتنة وتفريق الكلمة: قال ابن عمر رضى الله عنهما: جاءنى رجل فى خلافة عثمان، فإذا هو يأمرنى أن أعتب على عثمان، فلما قضى كلامه قلت له: إنا كنا نقول ورسول الله ﷺ حى: أفضل أمة محمد بعده: أبو بكر وعمر ثم عثمان، وإنا -والله- ما نعلم عثمان قتل نفسًا بغير حق، وجاء من الكبائر شيئًا، ولكنه هذا المال، إن أعطاكموه رضيتم وإن أعطاه قرابته سخطتم. إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون أميرًا إلا قتلوه، ففاضت عيناه بأربع من الدمع ثم قال: اللهم لا تُردْ ذلك[1]، وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن أباه قال: لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه[2]. فانظر إلى أى مدى كان حرص عبد الله بن عمر رضى الله عنهما على الدفاع عن عثمان والذب عن عرضه والتصدى لما يثيره أهل الفتنة ضد عثمان بن عفان رضى الله عنه؛ لما كان يعلم من خطورة مثل هذا المنحى وما يؤدى إليه النيل من الخليفة من فساد، وفرقة، لذا فإن عثمان منحه ثقته فكان يستشيره إبان محنته مع الغوغاء، فحين دخل عليه ابن عمر قال له عثمان: انظر ما يقول هؤلاء؛ يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك. قال له ابن عمر: أمخلد أنت فى الدنيا؟ قال: لا. قال: هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا. قال: هل يملكون لك جنة أو نارًا ؟ قال: لا. قال: فلا تخلع قميص الله عليك فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه[3]. وهذا الرأى من ابن عمر ينم عن بعد نظره وتقديره لعواقب الأمور، وقد أبدى استعداده لحمل السلاح للدفاع عن أمير المؤمنين عثمان والتصدى للغوغاء المحاصرين لعثمان فى داره، فقد ذكر ابن سعد عن نافع أن ابن عمر لبس الدرع يوم الدار مرتين. ولما قتل عثمان رأى ابن عمر أن الأمة وقعت فى محنة، وأن قتل الخليفة بهذه الصورة معصية شؤمها على الأمة خطير، لذا لما عرض عليه الغوغاء الخلافة بعد مقتل عثمان قال: إن لهذا الأمر انتقامًا ،والله لا أعترض له، فالتمسوا غيرى[4]، وكان ابن عمر رضى الله عنه كثيرًا ما يركز فى نصائحه للعامة على لزوم الجماعة والإعراض عن دماء المسلمين وأموالهم. فكتب له رجل: اكتب إلى بالعلم كله، فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس خميص البطن من أموالهم، كافًا لسانك عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم، فافعل، والسلام[5].

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ٢٨٥)، ابن عمر، محيى الدين مستو صـ٨٢.

(٢) العواصم من القواصم صـ١٠٤، ١٠٥ ابن عمر، محيى الدين مستو صـ٨٣

(٣) العواصم من القواصم صـ١٣٠ .

(٤) تاريخ الطبرى،نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٣٣٢.

(٥) تاريخ دمشق، نقلا عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٣٣٤ .

جـ ـ استجابته لكل من دعاه إلى خير وتعاونه مع أطراف الخلاف فيما يخدم المصلحة: ورد أنه كان لا يأتي أميرًا ـ في زمان الفتنة ـ إلا صلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله[1]، وقيل له: أتصلي مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضا؟ فقال: من قال: حي على الصلاة أجبته، ومن قال: حي على الفلاح أجبته، ومن قال: حي على أخيك المسلم وأخذ ماله قلت لا[2]، وكان ابن عمر يتبوأ مكانة رفيعة في الأمة لصحبته لرسول الله وعلمه وعبادته وزهده، وكان عبد الله بن محيريز ـ رحمه الله ـ يراه أمانًا في الأرض حيث قال: والله إن كنت أعد بقاء ابن عمر أمانًا لأهل الأرض[3].

د ـ إن ابن عمر رضي الله عنه لم يدعُ إلى وجوب الخضوع المطلق للسلطان، أو جواز البيعة القهرية، أو أن في حياته ما يدل على عدم اهتمامه بأمور المسلمين السياسية أو عدم المشاركة فيها، بل على العكس، فهو كان دائمًا أحد الأطراف الرئيسية في المعادلة السياسية في العهد الأموي، وكان أسلوبه هو الحوار واللجوء إلى الشورى، والابتعاد عن الاقتتال، وعندما بدأت الانشقاقات تظهر بين المسلمين اختار أن يكون محايداً وأن يعتزل الاقتتال، لا أن يعتزل الحياة السياسية، وكان حياده واعتزاله نوعًا من التأمل والتفكر والاطلاع على مواقف الفئات المختلفة والبعد عن المشاركة في سفك دماء بسبب التصارع على السلطة، مع العمل على تهيئة الظروف، والمناخ السياسي الملائم الذي يجمع شمل الأمة. فموقف ابن عمر المحايد كان في البداية بسبب صعوبة تكوين رأي قاطع، فضلاً عن خشية الوقوع في الفتن[4]، وكان يقول: كففت يدي عن القتال فلم أندم، والمقاتل على الحق أفضل[5]، وهناك دلائل وحقائق تاريخية تثبت أن ابن عمر، عندما رأى ما يقوم به الحجّاج من مظالم عظيمة في الحرم المكي، وسفك الدماء به، والتعدي على حرمته غيّر رأيه في اعتزال الفتنة، بل وندم على أنه لم يقاتل في جيش علي بن أبي طالب ضد معاوية، الذي كان في نظره خارجًا عن شرعية علي وباغيًا عليه، فقد روى حبيب بن ثابت أن ابن عمر عندما حضرته الوفاة قال: ما أجد في نفسي شيئًا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي[6]، وقد مرّ معنا قول ابن عمر: ما آسى على شيء من هذه الدنيا إلا على ثلاث، ظمأ الهواجر، ومكابدة

(1) الطبقات الكبرى (4/149).
(2) المصدر نفسه (4/170).
(3) تهذيب التهذيب (5/331)، أثر العلماء في الحياة السياسية صـ337.
(4) مع المسلمين، مصطفى حلمي صـ54.
(5) الطبقات (4/164).
(6) سير أعلام النبلاء (3/232).

الليل، وأنى لم أقاتل الفئة الباغية التى نزلت بنا[1]، قال الذهبى: يعنى الحجّاج[2]، وقد جاء فى كتب التاريخ أن ابن عمر كان يرى عبد الله بن الزبير أيضًا يندرج تحت مسمى الفئة الباغيــة، وأنه ندم على عدم قتاله لخروجه على بنــى أمية وبغيه عليهم ونكثـه لعهدهم[3]، وهذه الرواية يؤخذ عليها عدة أمور:

- أن عبد الله بن عمر لو كان يعتقد بأحقية بنى أمية بالخلافة من ابن الزبير فى وقت الفتنة لبايعهم، ولكنه لم يفعل، فكيف يندم على عدم قتاله معهم، وهو لم يبايعهم - فى الأصل -؟!

- أن أقوال عبد الله بن عمر الأخرى، التى تؤكد أن الفئة الباغية هى بنو أمية ورجالاتهم، خاصة الحجّاج، كانت آخر أقواله، وهى ما يعتمد عليه، وأسانيدها صحيحة[4].

إن مواقف ابن عمر السابقة تدحض وتبين ضعف الرأى الذى يعتبره رائدًا لمدرسة الخضوع السياسى للسلطان، خاصة أن ابن عمر هو الذى روى عن رسول الله ﷺ الحديث: **«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر فى معصية فلا سمع ولا طاعة»**[5]، والحديث يدل على عدم طاعة الحاكم إذا أمر بمعصية أو خرج عن حكم الله، ولا يمكن لابن عمر أن يخالف حديثًا رواه، وعلى ذلك فإن نظرة ابن عمر تقوم على أن الطاعة للخليفة الشرعى، الذى بويع بالإجماع أو اتفاق الأغلبية، واجبة ما لم يؤمر بمعصية، فإن ظلم أو جار فلا طاعة له، بل يجب مناصحته، فإن لم تُجْدِ المناصحة يجب -عندئذ- اللجوء إلى المعارضة الصريحة، ولكنه كان يكره اللجوء إلى العنف والاقتتال، لما فى ذلك من سفك الدماء وإضعاف لوحدة الجماعة[6].

١٠ ـ **منهج أهل الحق فى ابن الزبير**: قال النووى فى شرح مسلم: مذهب أهل الحق أن ابن الزبير كان مظلومًا، وأن الحجّاج ورفقته خارجون عليه. ودخل الحجّاج على أمّه بعد قتله فقال: كيف رأيتنى صنعت بابنك؟ فقالت: أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ، أن فى ثقيف مُبيرًا وكذّابًا، فأمّا الكذّاب فرأيناه - تعنى المختار- وأما المبير[7]، فلا أخالك إلا إياه[8].

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٢).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٢٢٩).

(٤) الفقهاء والخلفاء، سلطان بن حثلين صـ٦٦.

(٥) مسلم، رقم ١٨٣٩ .

(٦) الفقهاء والخلفاء صـ٦٦.

(٧) المبير: المُهْلِكُ.

(٨) مسلم، رقم ٢٥٤٥.

١١ ـ هدم الكعبة وبناؤها فى عهد ابن الزبير: فى سنة ٦٤هـ هدم ابن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها[١]، وتهدمت، وتشعّثت من حجر المنجنيق الذى كان يرمى به الحصين ابن نمير وأصحابه[٢]، ولما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس فى هدمها، فأشار عليه جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير بذلك وقال ابن عباس: أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم حتى يتهاون الناس بحرمتها، ولكن أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه، وأحجارًا بُعث رسول الله ﷺ عليها. فقال ابن الزبير: لو احترق بيت أحدكم ما رَضى حتى يُجَدِّدَه، فكيف ببيت ربِّكم؟![٣]، ثم إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيام[٤]، ثم عزم فى اليوم الرابع على ذلك فرقت الناس وخرج بعضهم هاربًا إلى الطائف وإلى عرفات ومنى وطلع ابن الزبير بنفسه واتخذ معه عبدًا حبشيًا دقيق السّاقين رجاء أن يكون ذا السُّويقتين الحبشى الذى يهدم الكعبة[٥]، فبدأ ينقض الرُّكن إلى الأساس، فلمّا وصلوا إلى الأساس وجدوا أصلاً بالحجر مشبكًا كأصبع اليدين، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً وأشهدهم على ذلك، ثم بنى البيت وأدخل الحجر فيه[٦]، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض، باب يدخل منه، وباب يُخرج منه، ووضع الحجر الأسود بيده وشدَّه بفضة، لأنه كان قد تصدّع، وجعل طول الكعبة سبعة وعشرين ذراعًا، وكان طولها سبعة عشر ذراعًا فاستقصروه، وزاد فى وسع الكعبة عشرة أذرع ولطخ جدرانها بالمسك، وسترها بالدِّيباج، ثم اعتمر من مساجد عائشة[٧]، وطاف بالبيت، وصلّى وسعى، وأزال ما كان حول البيت وفى المسجد من الحجارة والزّبالة، وما كان حولها من الدماء، وكانت الكعبة قد وهت من أعلاها إلى أسفلها من حجارة المنجنيق واسودَّ الركن، وانصدع الحجر الأسود من النار التى كانت حول الكعبة، وكان سبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسُّنن من طرق، عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: **«لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر -فإن قومك قصَّرت بهم النَّفقةُ- ولجعلت لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض، فإن قومَك رفعوا بابها ليدخلوا من شاءُوا ويمنعوا من شاءُوا»**[٨]، فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين، عن رسول الله ﷺ، فجزاه الله خيرًا، ثم لما غلبه الحجّاج بن يوسف فى سنة ٧٣هـ وقتله

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٢٠).
(٢) شذرات الذهب (١/ ٣٠٨).
(٣)، (٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٩١).
(٥) شذرات الذهب (١/ ٣٠٩).
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٦٩٢).
(٧) مساجد عائشة: المقصود بها التنعيم.
(٨) البخارى رقم ١٥٨٣، ٤٤٨٤.

وصلبه، هدم الحائط الشمالى وأخرج الحجر كما كان أولاً، وأدخل الحجارة التى هدمها إلى جوف الكعبة فرضَّها فيها، فارتفع البابُ، وسدَّ الغربىَّ، وتلك آثاره إلى الآن، وذلك بأمر عبد الملك بن مروان له فى ذلك، ولم يكن بلغه الحديث، فلمّا بلغه الحديث بعد ذلك قال: وددنا أنّا تركناه، وما تولى من ذلك(١).

ثالثًا: أسباب سقوط خلافة ابن الزبير:

من خلال الدراسة تظهر للباحث أسباب عديدة لسقوط خلافة ابن الزبير وانتصار الأمويين، ومن أهم هذه الأسباب:

١ - **اتخاذ ابن الزبير الحجاز مقرًا لخلافته:** يجمع عدد من الباحثين على أن بقاء ابن الزبير فى مكة كان من أهم أسباب إخفاقه(٢)، ولئن كان توجه ابن الزبير إلى مكة فى بداية الأمر له مبرراته(٣)، فإن إصراره على البقاء فيها واتخاذها عاصمة لخلافته لم يكن فى مصلحته، وذلك لأن مكة بصفة خاصة والحجاز بصفة عامة لم تعد مكانًا صالحًا ليكون مركزًا لدولة كبيرة مترامية الأطراف، فمكة بعد هجرة النبى ﷺ وأصحابه منها، فقدت دورها السياسى الذى قامت به المدينة إلى عهد عثمان بن عفان، ولما نشبت الفتنة وانتقل على بن أبى طالب إلى الكوفة، واتخذها عاصمة له، ثم اتخذ معاوية بن أبى سفيان دمشق عاصمة له، بعد أن آلت إليه الخلافة ولم يعد للحجاز -خاصة المدينة ومكة- دوره السياسى السابق، ويمكن أن نجمل أثر بقاء ابن الزبير فى مكة على حركته فى النقاط التالية(٤):

أ- **الموقع:** فمكة ـ كما هو معروف ـ من حيث الموقع بعيدة عن الشام والعراق، وهما الإقليمان اللذان شهدا أهم مراحل الصراع بين ابن الزبير وبنى أمية، فهذا البعد لم يتح لابن الزبير الاطلاع ومتابعة ما يحدث من صراع بين الموالين له وخصومه، لاسيما مع ضعف إمكانات الاتصال، وبالتالى فإن ذلك لا يتيح لابن الزبير اتخاذ القرارات المناسبة إزاء ما يجرى على الساحة بعكس خصومه الأمويين الذين كانوا يعيشون الأحداث مباشرة، ومن جانب آخر فإن مكة تقع فى واد محصور بين عدة جبال شاهقة وهى أشبه ما تكون بالمصيدة لمن يعتصم بها حينما تحاصرها الجيوش من كل الجوانب، ويقطعون عنها الإمدادات، وكادت حركة ابن الزبير تخمد منذ وقت مبكر حينما حاصر الحصين بن نمير

(١) البداية والنهاية (١١/٦٩٣).

(٢) مثل: الناطور، والقبلان، والخراشى وغيرهم.

(٣)، (٤) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٩٣.

ابن الزبير داخل مكة سنة ٦٤هـ لولا أن الله أنقذه بوفاة يزيد بن معاوية وانسحاب جيش الحصين إلى الشام.

ب- **الناحية الاقتصادية:** تعتمد مكة ـ بشكل خاص ـ والحجاز -بشكل عام- فى مواردهما الاقتصادية على ما يأتيهما من خارجهما، خاصة من الشام ومصر، وانقطاع هذه الموارد يتسبب فى إحداث مجاعة ترهق المقيمين فيهما، وقد أفاد بنو أمية من هذا العامل إفادة كبيرة فى صراعهم مع ابن الزبير، فبعد سقوط مصر والشام فى أيدى الأمويين انقطعت الإمدادات التى تصل إلى المدينة(١)، وبطبيعة الحال فإن مكة سينالها ما نال المدينة، كما لجأ الأمويون إلى هذا السلاح أيام الحصارين الأول والثانى(٢).

جـ- **الموارد البشرية:** تبع قيام حركة الفتوح الإسلامية هجرة العديد من القبائل إلى الأقاليم المفتوحة، وتركزت معظم هذه القبائل فى العراق، والشام، ومصر(٣)، وقد ترتب على ذلك اختلال معادلة التوزيع السكانى لترجيح كفة هذين الإقليمين على الحجاز الذى عانى من نقص الكوادر البشرية، وهذا النقص فى الواقع لم يتح لابن الزبير تكوين جيش قوى يكون مستعداً فى أية لحظة لمهاجمة الخصم، أو على أقل تقدير لصد هجومه، ولذلك نجد أن ابن الزبير إزاء هذا الوضع يلجأ دائماً إلى طلب الإمدادات من العراق، وهو بذلك يربط تحركاته بما يكون عليه الوضع فى هذا الإقليم من حيث استقراره، واستعداد واليه لإرسال المدد، وهذا مما يفوت على ابن الزبير الكثير من الفرص(٤).

٢- **سياسة ابن الزبير الإدارية والمالية:** لئن وفق ابن الزبير فى تعيين بعض ولاته فإن هذا التوفيق لم يكن حليفه فى جميع الأحوال، ويبدو أن بقاء ابن الزبير فى الحجاز وعدم خروجه إلى الأقاليم الإسلامية لم يتح له التعرف على أهل هذه الأقاليم، وطبائعهم واتجاهاتهم، وتكوين تصور عام عنهم يعينه على اختيار الولاة المناسبين، ولعل أبرز مثال على اضطراب سياسة ابن الزبير فى هذا المجال هو العراق ـ بمصريه الكوفة والبصرة ـ ذلك الإقليم الذى كان يعج بالتيارات المختلفة ـ العقدية والقبلية ـ والذى يحتاج إلى نوعية خاصة من الولاة تحسن التعامل مع أهله، فلو نظرنا إلى ولاة ابن الزبير على إقليمى العراق وسيرتهم لوجدنا ما يدلل على ذلك، ومن ولاته على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوى

(١) فتوح البلدان للبلاذرى صـ٢١٨، عبد الله بن الزبير صـ١٩٤.
(٢) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٩٤.
(٣) هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة، للعلى صـ٢٣، ٥٧.
(٤) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٩٥.

الذى لم يستطع أن يواجــه المختار بن أبى عبــيد الثقفى، وهرب من أمــامه وخلّى بينه وبين الكوفة[1]، وبشكل عام لم يستطع ولاة ابن الزبير ضبط هذا الإقليم الحيوى والاستفادة من طاقات أهــله فى حرب الأمويــين، فقد كــان فيــه الرجال والأمــوال، بل على العكس من ذلك، فقد كان هذا الإقليم ســببًا مباشرًا فى سقوط خلافــة ابن الزبير، وذلك حينما تواطأ أهله مع الأمويين ضد مصعب بن الزبير، أما فــيما يتعلق بصلة ابن الزبير بولاته، فيلاحظ أن ابن الزبير كان يخلى بين والــيه والإقليم الذى حكمه، ويكل إليه إدارته والقيــام بشئونه حتى فى القتال ضد الخصــوم، ولم يكن ابن الزبير يتدخل فى ذلك، فالصلة بين ابن الزبير وبعض ولاته تكاد تكون مقطوعة مما ترتب عليه سقوط بعض الأقاليم فى يد الأمويين، فى الوقت الذى كان ابن الزبير يقــيم فى مكة، ولعل ما حدث لقرقيســيا يدل على ذلك، فقد كان زفــر بن الحارث الكلابى واليًا على هذا الإقليم وكــان يقاتل عبد الملك بن مــروان عدة سنوات، وعاق تقــدمه إلى العراق، ولما طال عليــه الأمد ولم يقدم له ابن الزبيــر أى عون اضطر فى النهاية إلى التسليم لعبد الملك بن مروان بعد أن أقنعه ابنه الهذيل بن زفر بأن عبد الملك بن مروان خير له من ابن الزبير[2].

وأما عن سياسة ابن الزبير الاقتصادية فــبالإضافة إلى قلة موارده الاقتصادية، يلاحظ أنه كان مــتأثرًا فى نظرته لما بين يديه من المال بأســلافه من الخلفاء الراشــدين خاصة عــمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأراد أن يسلك مسلكهم فى طريقة الإنفاق، فأصبح ينظر إلى هذا المال على أنه مال الله، وهو حق المسلمين، ولا يجوز أن يصــرف إلا فى أوجهه الشرعية، وتشدد فى ذلك، وهذه السياسة لم ترق للكثيــرين فى ذلك العصر، لأن الناس ـ كما يقول د. العش ـ لم يكونوا قادرين على فهم هذه السياسة وقبولها[3]، فلم يسخر ابن الزبير هذا المال فى توطيد حكمــه، وتقوية صفه، وكسب الأنصــار من الأعيان والمؤيدين واســتمالتهم لمشروعه الشورى، وبطبيــعة الحال لقد خسر ابن الزبير الكثيــر من المناصرين، خصوصًا إذا عرفنا أن الأمويين كانوا يغدقون الأموال على الشعراء والأعيان والزعماء لكسبهم.

٣ ـ عدم استيعــابه لزعماء العراق: كثير من زعماء القــبائل يمكن للحكام أن يستوعبوهم بالأموال والعطايا، فسلاح المال خطير يجذب القلوب ويؤثر فى النفوس، فقد روى أن أخاه مصعبًــا ذهب إليه -بعد مقتل المخــتار- بزعماء أهل العراق وقال له: يا أمــير المؤمنين، قد جئتك بزعماء أهل العراق وأشرافهم، كل مطاع فى قومه، وهــم الذين سارعوا إلى بيعتك،

(١) الطبقات (٥/١٤٨).

(٢) أنساب الأشراف (٥/٣٠٥).

(٣) الدولة الأموية صـ٢٠٧.

وقاموا بإحياء دعوتك، ونابذوا أهل معصيتك، وسعوا فى قطع عدوك، فأعطهم من هذا المال. فقال له: . . . جئتنى بعبيد أهل العراق وتأمرنى أن أعطيهم مال الله، لا أفعل، وأيم الله لوددت أن أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام[1]، وجاء فى رواية: فقال له أبو حاضر الأسيدى ـ وكان قاضى الجماعة بالبصرة ـ: إن لنا ولكم مثلاً مضى يا أمير المؤمنين وهو ما قال الأعشى:

عُلِّقناك عرضًا وعُلِّقَت رجلاً ... غيرى وعُلِّقَ أُخرى غيرها الرَّجل

عُلِّقناك يا أمير المؤمنين وعُلِّقت أهل الشام، وعُلِّق أهل الشام إلى مروان، فما عسانا أن نصنع؟ قال الشعبى: فما سمعت جوابًا أحسن منه[2]، ثم بعد ذلك خلعوا ابن الزبير وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا[3].

٤- **عدم بيعة زعماء بنى هاشم له ومعارضتهم لدولته:** فقد امتنع عن بيعته عبد الله بن عباس، ومحمد بن على بن أبى طالب ـ ابن الحنفية ـ وغيرهما. ولم يعاملهم بالرفق واللين، بل اشتد عليهم فى بعض الأحيان[4].

٥- **إسراف أخيه مصعب فى الدماء بعد القضاء على المختار:** فقد جاء مصعب إلى ابن عمر فسلم عليه فقال: من أنت؟ قال: أنا ابن أخيك، مصعب بن الزبير. قال: صاحب العراق؟ قال: نعم. ثم قال لابن عمر: أسألك عن قوم خالفوا وخلعوا الطاعة وقاتلوا حتى إذا غلبوا دخلوا قصرًا وتحصنوا فيه وسألوا الأمان على دمائهم فأعطوا، ثم قتلوا بعد ذلك، قال: . . يا مصعب، لو أن امرأ أتى ماشية الزبير فذبح منها خمسة آلاف شاة فى غداة أكنت تعده مسرفًا؟ فسكت مصعب. فقال: أجبنى، قال: نعم، إنى لأعد رجلاً يذبح خمسة آلاف شاة فى يوم مسرفًا. قال: أفتراه إسرافًا فى البهائم؟ لا تعبد الله وما تدرى ما الله، وقتلت من وحَّد الله؟ أما كان فيهم مستكره يراجع به التوبة أو جاهل ترجى رجعته؟[5]. فهذا القتل الكثير فى أهل العراق أوغر عليه صدور عشائرهم وليس ببعيد أن يكون موقفهم منه فى معركة دير الجاثليق له علاقة بهذه الأحداث، فالذى قتل مصعبًا هو زياد بن ظبيان، فلما ذهب إلى عبد الملك أمر له بألف دينار فرفض ابن ظبيان أن يأخذ شيئًا وقال لعبد الملك: لم أقتله على طاعتك وإنما قتلته على قتل أخى النابئ[6]، وقيل: اشترك فى قتله زائدة بن قدامة الثقفى وقال حين قتله: يا لثارات المختار![7].

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥٠٦.
(٢) البداية والنهاية (١١/١٤٦، ١٤٧).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥٠٦.
(٤) المصدر نفسه صـ٥٠٥، مروج الذهب (٣/٨٥، ٨٦).
(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/٨٥).
(٦)، (٧) الكامل فى التاريخ (٣/٥٤).

٦- **تهاون ابن الزبير في أمر الأمويين:** كان الأولى أن يعمل ابن الزبير على منع الأمويين من الخروج من المدينة إلى الشام، وبخاصة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، ولو فعل ابن الزبير ذلك لما وجد الأمويون من يلم شعثهم، ويعيد السلطة ثانية، فلم يفكر مروان بن عبد الملك في الخلافة إلا بعد أن خرج من المدينة ووصل الشام، ولم يبذل الجهد المطلوب في دعم مناصريه في الشام، كخروجه على جيش كبير لضبط الأمور بها والقضاء على فتنة الأمويين عند ظهورها.

٧- **إهماله الدعاية والإعلان:** وأقصد بذلك عدم اهتمامه بالشعراء وإغداق الهدايا عليهم، صحيح أن دعوة عبد الله بن الزبير أيدها مجموعة من الشعراء كعبيد الله بن قيس الرقيات[(١)]، الذي قال:

أنت ابن معتلج البطاح ... كديِّها فكَدَائِها
فالبيت ذي الأركان ... فالمستن من بطحائها

إلى أن قال:

ولدت أغرَّ مباركًا ... كالبدر وسط سمائها
في ليلة لا نحس فيه ... سحريها وعشائها
إن البلاد سوى بلادك ... ضاق عرض فضائها
فاجمع بني إلى بنيك ... فأنت خير رعائها
نشهدك منا مشهدًا ... ضنكًا على أعدائها
نحن الفوارس من قريش ... يوم جد لقائها[(٢)]

إلا أن المعركة الإعلامية انتصر فيها الأمويون انتصاراً كبيراً على ابن الزبير، فقد كانوا يعطون الشعراء ويشترون الناس بالأموال، فهذا أعشى ربيعة من الشعراء الأمويين يقول:

آل الزبير من الخلافة كالتي ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حُملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ ... كم للغواة أطلتمُ إمهالها

(١) ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق محمد يوسف صـ ١١٧.
(٢) موقف الشعر من الحركة الزبيرية صـ٢٦.

إن الخـلافـة فـيكـمُ لا فـيـهمُ ... مـا زلتمُ أركـانهـا وثمـالهـا

أمـسـوا على المعـروف قفـلا مـغلقًـا ... فـانهض بيمنك فـافـتتح أقـفالهـا[1]

وسيأتى الحديث عن اهتمام عبد الملك بالشعر والشعراء فى الصفحات القادمة، بإذن الله تعالى.

٨ ـ استخـدام الشدة والقوة مع أخيه عـمرو بن الزبير: إن الطريقة التى اتبعها ابن الزبير فى القضاء على أخيه عمرو بن الزبير بعد أن وقع فى الأسر جعلت الناس ينظرون إليه على أنه رجل تنقصه العـاطفة والشفقة، وكـان لذلك مرده السيئ على تعاطف الناس مع قضـيته، فعمـرو بن الزبير كان يضرب الناس في المدينة بناء على تهم مـوجهة إليهم بشـأن تعاطفهم وتعاملهم مع ابن الزبير، وكان معينًا من قبل الدولة، وكانت قراراته يتخذها بطبيعة عمله، وإن كان فيهـا شيء من التجنى والخطأ والظلم، وبالتأكيد كان الكثـير من الناس يتمنون أن يقوم ابن الزبير، نفسه بحبسه، أو أن يطلب من كل الذين يدّعون على عمرو بن الزبير بأنه ظلمهم أن يسامحوه ويصـفحوا عنه، ويغفروا له خطأه[2]، لقد اعتبر البعض أن ابن الزبير ما هو إلا طالـب سلطة ودولة، وإلا لما تعامل مع أخـيه بتلك القـسوة[3]، واستـغل تلك الحادثة شعراء الخصـوم، فقد قال الضحاك بن فيروز الديلمى سـاخرًا من ادّعاء عبد الله بن الزبير الزهد والصلاح:

تخـبـرنا أن سـوف تكفـيك قـبـضـة ... وبطنك شـبـرٌ أو أقـلُّ مـن الشـبـر

وأنت إذا مـا نلـت شـيئًـا قـضـمته ... كما قضـمت نار الغضا حطب السدر

فلو كنـت تجـزى أو تبـيت بنعــمـة ... قـريبًا لردتك العطوف علـى عمرو[4]

وقال عبد الله بن الزبير الأسدى مؤلّبًا على ابن الزبير داعيًا عليه:

تحـدث مـن لاقـيت أنـك عـائـذ ... وصـرّعت قـتلى بـين زمـزم والركن

قـتلتـم أخـاكم بالسـيـاط سـفـاهة ... فـيـالك للـرأى المُشَـلَّلِ والأَفْـن[5]

(١) موقف الشعر من الحركة الزبيرية صـ٨٧.

(٢)، (٣) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد صـ٥٣٥.

(٤) الحزب الزبيرى فى أدب العصر الأموى، ثريا ملحس صـ٢٢٥.

(٥) المصدر نفسه صـ٢٢٨. الأفن: ضعف الرأى.

إلى أن قال:

قطعت من الأرحـام مـا كـان واشجًـا   على الشَّيب وابتـعت المخافة بالأمن[1]

٩ ـ تفوق خصوم ابن الزبير: ليس بمستغرب أن يتفـوق بنو أمية على ابن الزبير، الذى لم تتح له الفرصة لأن يتولى إقليـمًا من الأقاليم ليكتسب الخبرة، فى حين أن بنى أمـية تهيأت لهم العديد من الفرص، خاصة بعد أن آلت الخلافة إليـهم فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وفى الجانب العـسكرى نلمس تفوق بنى أميـة على ابن الزبير من حيث التكتـيك الحربى، وقيادة الجيوش، ولعل من أبرز ما يلاحظ فى ذلك أن مروان بن الحكم قد خرج بنفسه على جيش كـبير لضم مـصر، ثم باشر ابنه عـبد الملك حرب العـراق بنفسه، وهذا أتاح لهـما التعـرف على ما يدور فى ساحـة القتال عن كـثب، كما أنه يعطـى المقاتلين دفعـة معنوية كبيرة، وفى المقـابل نجد ابن الزبير يعتمد على قـواده أو ولاة الأقاليم فى حروبه ولم يغادر مكة قط، وقد انتقد عبد الملك بن مروان هذه السيـاسة فقال: إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لأبدى صفحته، وآسى أنصاره بنفسه، ولم يغرز ذنبه فى الحرم[2].

ويلاحظ أيضًا أن بنى أميـة منذ صراعهم مع ابن الزبير كانوا دائمًـا فى موضع المهاجم، بعكس ابن الزبير الذى ظل فى موقف الدفاع[3].

١٠ - **الظروف التى نشـأت فيـها حـركة ابن الزبيـر:** إن من الإنصاف أن نـذكر أن الظروف السيئة التى وجدت فيـها حركة ابن الزبير أسهمت إلى حد كبيـر فى سقوط خلافته، تمثلت هذه الظروف بظهور التـيارات والاتجاهات المذهبية، والقـبلية، وانعدام الاستقـرار السياسى الذى هو من أهم الشروط لقيام حكم مستقر، لقـد اشغل الخوارج ابن الزبير كثيراً، كما أن حركة المخـتار أخذت من جهـده ووقته ورجاله، فـهذه الحركات ذات المنطلقات الـعقائدية شغلت ابن الزبير كثيراً عن التفكير فى تنظـيم دولته، كما استنزفت الكثير من طاقاته المادية والبشرية[4].

رابعًا: رثـاء عبد الله بن الـزبير: رثى ابن الزبير بقـصائد كثـيرة مبكـية حزينة حـفظها لنا التاريخ، ولـم تهملها الليالى، ولم تفصلها عنّا حواجز الزّمن، ولا أسوار القرون، ومما قيل فى رثائه ما قاله عبد الله بن أبى مسروح:

لقـد أدركـت كـتـائب أهـل حـمص   لعـبــد الله طرفًـا غـيــر وعـل

(١) الحزب الزبيرى فى العصر الأموى، ثريا ملحس صـ٢٢٨.   (٢) الطبقات (٥/ ٢٣٢).

(٣)، (٤) عبد الله بن الزبير، للخراشى صـ١٩٩.

شجاع الحرب إذ شدّت وقودًا ... وللحادين خيرُ محلّ رحل
ومن ذا يكره الأبطال منه ... إذا اعتنشوا طريقًا غير سهل
فما للشامتين بنا أصيبوا ... وقلُّوا من سراتهم لمثلِ(1)

وقال قيس بن الهيثم السلمي:

فقدنا مصعبًا وأخاه لمّا ... نَفَتْ سماؤهما المحُولا
وكنا لا يرام لنا حريم ... تُسحّبُ في مجالسنا الذيولا
إذا أمن الجناب وإن فزعنا ... ركبنا الخيل واجتنبنا الشَّليلا
ونرمي بالعداوة من رمانا ... ونوطئهم بها وطأ ثقيلاً
فيا لهفي ولهف أبي وأمي ... لقد أصبحت بعدهما ذليلا
ويا لهفًا على ما فات مني ... ألا أصبحت في القتلى قتيلا
ولم أصبح لأهل الشام نَصْبًا ... يذكرني ابن مروان الذُّحولا
فلا رفدًا يعدّ ولا غناء ... ولا إذنًا ولا حبسًا جميلا
ولكن بين ذلك بين بين ... لقد ضلّ ابن مروان السبيلا(2)

****

(1) تاريخ دمشق، لابن عساكر (30/193).
(2) المصدر نفسه (30/193، 194).

الفصل السابع

عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان دون الفتوحات

اجتمعت الأمة بعد مقتل عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان، وأصبح الخليفة الشرعى، وهو أول خليفة ينتزع الخلافة بقوة السيف والقتال، مما أثر على الفقه السياسى بعد ذلك أكبر الأثر، فإذا كان معاوية قد أصبح خليفة بعد الصلح مع الحسن بن على واجتماع الأمة عليه طواعية فى عام الجماعة، وإذا كان ابنه يزيد قد بويع من الأمصار فى حياة أبيه ثم بعد وفاته، وإذا كان ابن الزبير قد بويع بعد وفاة يزيد وهو بمكة من عامة الأمصار عن رضا واختيار، فإن عبد الملك أول خليفة انتزع الخلافة انتزاعًا وبايعه كثير من الناس، بعد أن قتل عبد الله بن الزبير ليبدأ عصر الخليفة المتغلب، وهو ما لم يكن للأمة به عهد من قبل، لقد أجمع الصحابة - رضى الله عليهم - على أن الإمامة إنما تكون بعقد البيعة بعد الشورى والرضا من الأمة، كما أجازوا الاستخلاف بشرط الشورى ورضا الأمة بمن اختاره الإمام، وعقد الأمة البيعة له بعد وفاة من اختاره دون إكراه، كما أجمعوا على أنه لا يسوغ فيها التوارث، ولا الأخذ لها بالقوة والقهر، وأن ذلك من الظلم المحرم شرعًا[(١)]. قال ابن حزم: لا خلاف بين أحد من أهل الإسلام أنه لا يجوز التوارث فيها[(٢)]، غير أن الأمر الواقع بدأ يفرض نفسه، وصار بعض الفقهاء - بحكم الضرورة - يتأولون النصوص لإضفاء الشرعية على توريثها وأخذها بالقوة؛ لتصبح هاتان الصورتان بعد مرور الزمن هما الأصل الذى يمارس على أرض الواقع، وما عداهما نظريات لا حظ لها من التطبيق العملى[(٣)]، إلا فى حالات نادرة.

وأصبحت سنة هرقل وقيصر بديلاً عن سنة أبى بكر وعمر![(٤)].

وقد أجاز كثير من الفقهاء طريق الاستيلاء بالقوة من باب الضرورة مع إجماعهم على حرمتها مراعاة لمصالح الأمة وحفاظًا على وحدتها، وأصبح الواقع يفرض مفاهيمه على الفقه والفقهاء، وصارت الضرورة والمصلحة العامة تقتضى تسويغ مثل هذه الطرق.

إن الاستبداد والاستيلاء على حق الأمة بالقوة، وإن كان يحقق مصلحة آنية، إلا أنه يفضى إلى ضعف الأمة مستقبلاً، وتدمير قوتها وتمزيق وحدتها، كما هو شأن الاستبداد فى

(١) الحرية أو الطوفان صـ ١١٩.   (٢) الفصل (٤/ ١٦٧)

(٣)، (٤) الحرية أو الطوفان صـ ١١٩.

جميع الأعصار والأمصار وأن ما يُخشى من افتراق المسلمين بالشورى خير من وحدتهم بالاستبداد على المدى البعيد[1]، وإن الاستمرارية فى ممارسة الشورى مع ما يعتريها من عوائق ومصاعب تثرى الأمة فى الفقه السياسى، وتقطع بها مسافات كبيرة فى هذا المجال، ولهذا تعثر الفقه السياسى فى مسيرته التاريخية ولم ينطلق الانطلاقة المطلوبة منه بسبب النظام الوراثى والاستبدادى.

إن عبد الملك بن مروان شق طريقه نحو الملك بسفك الدماء، وقتل الأبرياء، والخروج على الخليفة الشرعى عبد الله بن الزبير، فلم يراع حرمته كصحابى جليل، ولم يلتمس عذرًا لابن عمه عمرو بن الأشدق، ويحرص على الوفاء لعهده، ولم يحترم الزمالة والصداقة مع مصعب بن الزبير، ولا ننكر بأن عبد الملك بن مروان كان من عقلاء الرجال ودهاتهم، ومن أكثرهم حزمًا وشجاعة وإقدامًا[2].

وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية فى إدارة الدولة وسياستها، وكان غير هياب يمضى إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً، ولا يتردد عن قيادة المعارك بنفسه، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الإسلامية، وأن يصفى خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والجلد والمثابرة، وعمل على توطيد دعائم دولته ونجح فى ذلك نجاحًا فائقًا، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها.

وقد استحق عبد الملك عن جدارة لقب المؤسس الثانى للدولة الأموية، بعد معاوية مؤسسها الأول[3]، وقد عمل على توطين الأمن فى البلاد وتفرغ للخوارج وقمع الثورات.

ومن أشهر الحركات التى خرجت فى عهده، حركة الأزارقة والصفرية وابن الأشعث، واستطاع أن ينتصر عليها جميعًا، إن عبد الملك بن مروان أصبح أمير المؤمنين بعد مقتل ابن الزبير وبيعة المسلمين له، ومذهب عامة أهل السنة والجماعة، أن الإمامة يصح أن تنعقد لمن غلب الناس، وقعد بالقوة فى موضع الحكم[4]، إلا أنه يجب أن يفهم أن هذه حال ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات، فهذه حال إلجاء واضطرار كأكل الميتة ولحم الخنزير، وقبولها لأنها خير من الفوضى التى تعم الناس.

---

(١) الحرية أو الطوفان صـ١٢٣ . (٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢٤٩).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى .

(٤) الأحكام السلطانية لأبى يعلى صـ٧، ٨، رياسة الدولة صـ٣٠٤ .

وعلى هذا فإنه يجب ألا توطن الأمة نفسها على دوام هذا الوضع، بل يجب عليها أن تعمل على تغيير الإمامة الناقصة بإمامة كاملة مستوفاة الشروط المطلوبة فى الإمام الحق، بالوسائل التى لا يكون فيها فتنة بين الناس، ويجب السعى دائمًا لأن يكون الإمام آتيًا عن الطريق الصحيح وهو طريق أهل الحل والعقد، ومع إن إمامة المتغلب تنعقد نظرًا إلى حال الضرورة، كما قلنا، إلا أن الغالبية العظمى من علماء المسلمين لم يجيزوا أن يكون القهر طريقًا لانعقاد إمامة الكافر للمسلمين[1].

وإذا كانت حال القهر يمكن أن يتسامح فيها فى بعض شروط الإمامة كالعلم أو العدالة أو البلوغ، إلا أن شرط الإسلام لا يمكن أبدًا إسقاطه عن الإمام، وعلى هذا، فلو تغلب كافر على هذا المنصب فلا يجوز شرعًا ـ كما يرى ذلك الجمهور ـ السكوت على هذا الوضع، ويجب خلع هذا المتغلب بقوة السلاح[2]، لأن الله سبحانه يقول: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾ [النساء: ١٤١].

****

(١) حاشية نور الدين الشبراملسى على شرح الرملى (٧/ ٣٩٢).

(٢) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى ص٣٠٥.

المبحث الأول

القضاء على حركة الخوارج

ظل الخوارج فرقة واحدة يتبنون أفكارًا ومبادئ واحدة بصفة عامة إلى ما بعد وفاة يزيد، ثم بدأوا ينشقون على أنفسهم، وكلما اختلف أحدهم مع رفاقه فى الرأى، انشق عنهم مكونًا له فرقة خاصة، حتى وصل عدد فرقهم إلى أكثر من ثلاثين فرقة(١)، ومن أشهر فرق الخوارج التى قاتلها عبد الملك: الأزارقة والصفرية.

أولاً: الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق، الذين يعدون أشد فرق الخوارج تطرفًا فى الأفكار والمبادئ وجنوحًا إلى العنف، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه، فقد برئ من القاعدين، الذين لا يخرجون معه للقتال، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه(٢). فضلاً عن إباحته أموال ودماء مخالفيه، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده فى النار(٣)، **ومن أهم ما تميزت به هذه الفرقة:**

- الانفصال الكامل عن المجتمع المسلم، حيث زعم نافع وأتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر.
- إيمانهم بمبدأ الاستعراض، فكانوا يتعرضون للناس بالقتل والنهب، فقد أباحوا لأنفسهم قتل الرجال والنساء والصبيان «من المسلمين».
- أنهم كفروا القعدة، ونافع أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال، وإن كانوا موافقين له على دينه، وكفر من لم يهاجر إليه.

فهذه من أهم البدع التى فارق بها الأزارقة بقية الخوارج(٤).

وقد فارق الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق، عبد الله بن الزبير عند ما تبين لهم أنه لم يكن على رأيهم فيما يذهبون إليه، وقد انبث أفراد هذه الفرقة الخارجية فى مناطق البصرة والأهواز وما وراءها من بلاد فارس وكرمان فى أيام عبد الله بن الزبير، وصاروا يحاربون المسلمين جهارًا(٥)، وجاءت تولية المهلب على حرب الأزارقة بناء على اختيار أهل البصرة

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى (١٥٧/١)، رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى صـ٣٠٥.

(٢) مقالات الإسلاميين (١٥٧/١). (٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٥٦.

(٤) الخوارج. دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعوى صـ٧٦.

(٥) آل المهلب بن أبى صفرة ودورهم فى التاريخ صـ٣٧.

له، واقتران ذلك بموافقة عبد الله بن الزبير(١)، إلا أن المهلب لم يخرج لقتالهم إلا بعد أن اشترط على أهل البصرة جملة شروط أجابوه إليها، فخوّل الحق باختيار من يشاء من المقاتلة، وأن تكون له إمرة وخراج كل بلد يقع فى حوزته(٢).

وانتخب المهلب اثنى عشر ألف رجل من أخماس البصرة، ولم يكن ببيت المال سوى مائتى ألف درهم، عجزت عن عطاء الجند وعن تجهيزاتهم، فبعث المهلب إلى التجار وقال لهم: إن تجارتكم منذ حول قد كُسِرت بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم، فهلمّ فبايعونى واخرجوا معى أُوفيكم إن شاء الله حقوقكم، فأخذ منهم من المال ما يصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه ما يلزم من التجهيزات، فلما انتصر المهلب على الخوارج، قام بجباية الخراج من الكور حتى قضى للتجار ما أخذ منهم(٣).

استمر المهلب يقاوم الخوارج ما يقرب من عامين، ثم استدعاه مصعب بن الزبير الذى أصبح والى البصرة من قبل أخيه عبد الله، ليشترك معه فى حرب المختار الثقفى سنة ٦٧هـ، وبعد هزيمة المختار عين مصعب المهلب واليًا على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية(٤)، ولكن أحدًا لم يستطع أن يقوم مقام المهلب فى مقاومة الخوارج، مما اضطر مصعبًا أن يستدعيه من الموصل ليتولى قتالهم من جديد(٥)، وبينما المهلب يقاوم الخوارج فى الأهواز تمكن عبد الملك بن مروان من سيطرة الدولة الأموية على العراق، بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ(٦)، وولى أخاه بشر بن مروان على العراق، وأمره بإبقاء المهلب على حرب الخوارج ومساعدته، فعمل بشر بما أمره به أخوه، وبرهن المهلب على إخلاصه فى حرب الخوارج الأزارقة مهما كانت السلطة التى تصدر إليه الأوامر(٧)، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير، استمر يقاتلهم تحت لواء عبد الملك، ولما أسندت ولاية العراق إلى الحجّاج بن يوسف الثقفى سنة ٧٥هـ جدّ فى مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره، فاشتد فى مقاومتهم حتى تمكن من القضاء على خطرهم، وقد أتاح له الخوارج أنفسهم فرصة كسر شوكتهم عندما انقسموا على أنفسهم قسمين، قسم تزعمه رجل اسمه

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن آل المهلب بن أبى صفرة صـ٣٧ .
(٢) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن آل المهلب بن أبى صفرة صـ٣٧ .
(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٨٣ .
(٤) (٥) (٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٦٢ .
(٧) العراق فى العصر الأموى صـ٢٣٣، ٢٣٤ .

عبد ربه فقد قضى عليه المهلب نهائيًا[(١)]، وأما قطرى بن الفجاءة زعيم القسم الثانى ومجموعته فقد رحلوا إلى طبرستان، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم سنة ٧٧هـ بمساعدة جيش أرسله إليه الحجّاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى[(٢)].

وهكذا قضى المهلب على خطر من أكبر الأخطار التى هددت الدولة الأموية فى عهد عبدالملك بن مروان، وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز، واستمرت حركتهم ثلاثة عشر عامًا ٦٥ ـ ٧٨هـ[(٣)].

١ ـ وصف المهلب بن أبى صفرة الأزدى وشىء من أقواله: وُصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه، يفضل فعله على لسانه[(٤)]، متلطفًا فى إجاباته[(٥)]، كاتمًا للسر[(٦)]، حليمًا فى موضع الحلم، شديدًا فى موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه فقيل له: لم حلمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه[(٧)]، واتصف المهلب بصبره وأناته فى أعماله وحروبه، وكان يقول: أناة فى عواقبها فوت خير من عجلة فى عواقبها درك[(٨)]، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج، أجابه بقوله: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره[(٩)]، ومما اشتهر به المهلب فى حروبه هو إعداده للبيات وإحكامه الأمور[(١٠)]، أى أنه كان يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة، واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه فى هذا الباب: ما رأيت أحدًا بين يدى قط إلا أحببت أن أرى ثيابى عليه، واعلموا يا بنى أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم[(١١)]، وكان يحرص على شراء ود الناس، وله قول مأثور فى ذلك: عجبت لمن يشترى المماليك بماله، ولا يشترى الأحرار بمعروفه[(١٢)]، وقيل له: بما ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم، ومعصية الهوى[(١٣)].

٢ ـ من أساليب المهلب فى قتال الخوارج: كانت سياسة المهلب تقوم على النفس الطويل فى محاربة الخوارج، وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل، حتى يهون عليه أمرهم ويسهل القضاء

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٨٣ إلى ٨٩).
(٢) المصدر نفسه، نقلاً عن العالم الإسلامى صـ٢٦٤.
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٦٤.
(٤) الأخبار الطوال صـ٢٨١.
(٥) المصون فى الآداب صـ١٨٧.
(٦) المحاسن والأضداد صـ١٤، آل المهلب ص٢٢.
(٧) الكامل فى اللغة والأدب (٢/ ٣١٤)، آل المهلب صـ٢٢.
(٨) المحاسن والمساوئ (٢/ ٩١).
(٩) العقد الفريد (١/ ٨٧).
(١٠) البيان والتبيين (١/ ٢٥٣).
(١١) قلائد العقيان فى محاسن الأعيان صـ ١٩٨.
(١٢) آل المهلب بن أبى صفرة صـ٢٤.
(١٣) سرح العيون لابن نباتة صـ١١٣.

عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: إنى انتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطرى بن الفجاءة، أو فرقة وتشتيتًا، أو جوعًا قاتلاً[1]، ولم تخطىء تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق فى صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف فى صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه، بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطرى سرًا كتب فيه: أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح عن الصانع أنكر، فقام قطرى بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد[2].

وتعميقًا للخلاف فى صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانيًا وأمره أن يسجد لقطرى ابن الفجاءة، فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصرانى واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه[3]. وأخذ الخوارج يقتتلون فيما بينهم، بينما المهلب ينتظر النتائج النهائية، التى تسفر عنها هذه التصفيات؛ ليتفرغ لها مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم، بل كتب له: إنى لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضًا، فإن تمّوا على ذلك، فهو الذى تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضًا، فأناهضهم حينئذ، وهم أهون ما كانوا، وأضعفهم شوكة إن شاء الله تعالى[4]، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم[5]، ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير، ثم تلا ذلك قتل شديد تمكن المهلب فى نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه، ولم ينج منهم إلا عدد قليل[6]، ولعل نجاح المهلب يعود إلى أسلوبه الحربى، الذى يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره فى الحروب[7]. قال الشاعر:

قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت ... عنه الكمأة ولم يحمل على بطل

ونتيجة انتصاراته ضد الخوارج؛ فقد رأى فيه الخليفة عبد الملك بأنه قادر على إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة فولاّه على خراسان، فمكث فيها خمس سنوات إلى أن توفى عام ٨٢هـ[8].

(١) الفتوح (٧/ ١٤) .
(٢) الكامل فى الأدب (٣/ ١١٣٩، ١١٤٠) .
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٢٨) .
(٤) المصدر نفسه (٣/ ١٢٩) .
(٥) الأخبار الطوال صـ ٢٧٦ .
(٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٢٩)
(٧) تجديد الدولة الأموية صـ٩٥ .
(٨) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٥٢).

٣ ـ قطرى بن الفجاءة التميمى: خرج زمن مصعب بن الزبير، فبقى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة[(١)] ـ عند الخوارج الأزارقة ـ وهزم الجيوش، واستفحل بلاؤه، جهز إليه الحجّاج جيشًا بعد جيش فيكسرهم، وغلب على بلاد فارس، وله وقائع مشهودة، وشجاعة لم يسمع بمثلها وشعر فصيح سائر[(٢)]، فله:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرًا فى مجال الموت صبرًا ... فما نيل الخلود بمستطاعِ
ولا ثوب الحياة بثوب عزٍّ ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حيٍّ ... وداعية لأهل الأرض داعى
ومن لم يُعتبط يهرم ويسأم ... وتُسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ فى حياة ... إذا ما عُدَّ من سقط المتاع[(٣)]

وقد أرسل الحجّاج لحربه سفيان بن الأبرد الكلبى، فانتصر عليه وقتله، وقيل: عثر به الفرس، فانكسرت فخذه بطبرستان، فظفروا به وحُمل رأسه سنة تسع وسبعين إلى الحجّاج، وكان خطيبًا بليغًا كبير المحلّ من أفراد زمانه[(٤)].

ثانيًا: الخوارج الصفرية:

الخوارج الصفرية هم أحد فرق الخوارج الرئيسية، وفى تعيين نسبتهم أقوال عدة، فقيل: إنهم أتباع زياد بن الأصفر، وقيل: ابن عبد الله بن صفار، وقيل: عبد الله بن قبيصة، وأطلق عليهم ذلك اللقب لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم، فنسبوا إلى تلك الصفرة[(٥)]، وأيًا كان ذلك السبب فقد بدأت خطورة أمرهم من الصالحية أو أتباع صالح بن مسرح التميمى، ذلك الرجل الذى كان موطنه بين نصيبين ومساروين، وهو مؤسس فرقة الخوارج الصالحية، وسمت هذا الرجل الصمت والهدوء، وعدم التعجل، لذا ظل يعلم الناس فى هدوء وسكينة عشرين سنة[(٦)]، وكانّ من أهم أتباعه وأنصاره، ذلك الرجل المقدام الذى دوّخ جيوش الحجّاج فى مواقع عدة، وهو شبيب بن يزيد الشيبانى، والذى كان

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٢٥).
(٢)، (٣) (٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٢).
(٥) الخوارج، ناصر عبد الله صـ٨١، الحجاج بن يوسف، جمال محمود ص٨١.
(٦) تاريخ الطبرى (٧/ ١٠٤ ـ ١١٢).

يسكن فى الجانب الأيمن من الفرات فى صحراء الكوفة، وبدأ أمر الخوارج يعلو، ولاسيما بعد محاولة شبيب اغتيال عبد الملك بن مروان فى موسم الحج، لولا وصول الخبر إلى عبد الملك فأخذ حذره وانقضى الموسم بسلام، وبدأ الحجاج فى التضييق على صالح وأتباعه، فنزلوا جميعًا وبعثوا إلى إخوانهم واستعدوا للخروج على دولة الخلافة. وكان الرجل من الخوارج كأنه جيش بمفرده بعدته وعتاده، وكان وقعات الخوارج مع جيوش الحجّاج كثيرة العدد وقد بدأت هذه الفرقة بالخروج على دولة الخلافة وهم مائة وعشرون[1].

وكانت بداية هذه الثورة من الموصل فى شمال العراق وكانت ثورة خطيرة جدًا، فقد تمكن قائدها شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجّاج الجرارة، وهى فى عدد قليل، وتمكن من دخول الكوفة[2]، بعد أن قتل خمسة قوّاد أرسلهم الحجّاج لحربه واحدًا بعد واحد، وكانت زوجته غزالة عديمة النظير فى الشجاعة[3]، وكانت نذرت أن تصلى فى جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران[4]، ووفت بنذرها[5]، وعيّر عمران بن حطان شاعر الخوارج الحجّاج فقال:

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... فتخاء تنفُرُ من صفير الصافر

هلاَّ كررت على غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

قرعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مناظره كأمس الغابر[6]

وقد قتل شبيب عددًا من أشراف الكوفة، ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فخرج منها، ثم عاد إليها ثانية وضرب عليها الحصار بعد أن هزم جيشًا للحجاج عدته ألوف، وقتل قائده عتاب بن ورقاء، هو وستمائة رجل[7]، ولما يئس الحجّاج من أهل الكوفة لتقاعسهم عن القتال، وهالته هزائمهم المتكررة وهم فى أعداد كبيرة أمام شبيب وهو فى أعداد قليلة، أرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب مددًا من أهل الشام، واضطر الحجاج أن يقود الجيش بنفسه، واستطاع هزيمة شبيب لأول مرة، فلاذ بالأهواز، فأرسل الحجّاج خلفه جيشًا التقى به هناك، ولم تكن النتيجة حاسمة لأى من الفريقين، غير أن شبيب غرق بينما كان يعبر

(١) تاريخ الطبرى (٧/١٠٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/١٤٦).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ١٤٥، ١٤٦).
(٤) الكامل فى التاريخ (٣/١٢١).
(٥) شذرات الذهب (١/٣١٦).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/١٤٧)، تاريخ ابن عساكر (٤٦/٣٣٨).
(٧) العراق فى العصر الأموى، للراوى ص ـ٢٣٨.

أحد الأنهار، فلما سقط قال: ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ [الأنفال: ٤٢] وانغمس فى الماء، ثم ارتفع وقال: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [الأنعام: ٩٦] وغرق[(١)]، وبهذا تخلص منه الحجّاج بعد أن كبد الدولة كثيراً من الأموال والأرواح[(٢)]، ولولا الله ثم تدخل عبد الملك لكان من الممكن أن تتغير الأوضاع السياسية فى العراق والمناطق الشرقية، فقد استطاع أن يسوى المشكلة، ووضع لها الحل المناسب من تجهيز الجيوش وإرسالها، وتولية القادة المحنكين ليواجهوا شبيباً[(٣)]. ومن اللطائف التى تذكر: حضر عتبان الحرورى عند عبد الملك ابن مروان فقال: أنت القائل:

فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنّا حُصينُ والبطينُ وقعنبٌ ... ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

فقال: إنما قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ. على النداء فأعجبه وأطلقه[(٤)]. وهذا الجواب فى نهاية الحُسن، فإنه إذا كان «أمير» مرفوعًا كان مبتدأ فيكون شبيب أمير المؤمنين، وإذا كان منصوبًا فقد حذف منه حرف النداء ومعناه: يا أمير المؤمنين منا شبيب، فلا يكون شبيب أمير المؤمنين، بل يكون منهم[(٥)].

١ ـ **من شعراء الخوارج عمران بن حطان:** هو عمران بن حطّان بن ظبيان، السدوسى البصرى، من أعيان العُلماء، لكنّه من رؤوس الخوارج، حدّث عن عائشة وأبى موسى الأشعرىّ وابن عباس، قال أبو داود: ليس فى أهل الأهواء أصحُّ حديثًا من الخوارج ثم ذكر عمران بن حطان، وأبا حسّان الأعرج[(٦)]، وقد تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث على منهج أهل السنة ثم تزوج قريبة له ـ كانت على مذهب الخوارج ـ يريد أن يصرفها عن مذهبها، لكنها استمالته إلى مذهبها، كان ذلك وقد كبرت سنه وطال عمره، فضعف عن الحرب، وقنع بالدعاية إلى مذهبه بلسانه، ولم يستطع أن يشارك فى الحرب بسيفه ورضى القَعدة من الصفرية منه بهذا البيان، وطارده الحجّاج، ففر من العراق إلى الشام وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة فى استخفاء وتمويه وتغيير للأسماء، ونزل على روح بن زنباع الجذامى وأنس إلى كرمه وأخلاقه، وادّعى أنه أزدىّ، فاستضافه روح سنة

(١) الكامل فى التاريخ (٣/١٢٣). (٢) تاريخ الطبرى (١٠٤ - ١١٢).
(٣) تجديد الدولة الأموية فى عهد الخليفة عبد الملك ص١٠٦.
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/١٠٦). (٥) المصدر نفسه (٤/٤٥٦).
(٦) المصدر نفسه (٤/٢١٤).

كاملة كان فيها معجبًا بتقوى ضيفه الأزدى وعلمه وأدبه، وكان روح لا يسمع شعرًا نادرًا أو حديثًا غريبًا عند عبد الملك ثم يقصه على صاحبه، أو يسأله عنه، إلا وجده عليمًا به، وزائدًا عليه. وذات يوم حدّث روح عبد الملك بن مروان بمزايا ضيفه الأزدى فقال عبد الملك: إنه عمران بن حطان فأحضره[1]، وكان عبد الملك بن مروان قد أهدر دمه لما بلغ شعره عبد الملك فى على رضى الله عنه، وأدركته حمية لقرابته من على رضى الله عنه ووضع عليه العيون. وشعر عمران فى على قوله:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنِّى لأذكره حينًا فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم ... لم يخلطوا دينهم بغيًا وعدوانا[2]

وعندما علم عمران بطلب عبد الملك له هرب إلى الجزيرة، ثم لحق بعمان فأكرموه[3] وقال شعرًا فى روح بن زنباع لما فارقه حيث قال:

يا روح كم من كريم قد نزلت به ... قد ظنّ ظنّك من لخم وغسان
حتى إذا خفته زايلت منزله ... من بعد ما قيل: عمران بن حطان
قد كنت ضيفَكَ حولاً ما تُروّعُنى ... فيه طوارق من إنس ولا جان
حتى أردْتَ بى العظمى فأوحشنى ... ما يوحش الناس من خوف ابن مروان
لو كنت مستغفرًا يومًا لطاغية ... كنت المقدَّم فى سرٍّ وإعلان
لكن أبت لى آيات مُفصَّلةٌ ... عقد الولاية فى «طه» و«عمران»[4]

فهو فى ثنائه على ابن زنباع لم يبح لنفسه أن يستغفر له، لأنه ليس فى رأيه ممن يستحقون المغفرة، فهو طاغية وكافر، على طريقة أكثر الخوارج فى تكفير مخالفيهم[5]، وكان من فحول الشعراء، وقد شهد له بذلك الفرزدق، فقد وقف عمران بن حطان ذات يوم على الفرزدق وهو ينشد الناس فقال له:

أيها السائل لِيُعطى ... إن لله ما بأيدى العباد

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى ص٥٢٦، سير أعلام النبلاء (٤/٢١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢١٥).
(٣) المصدر نفسه (٤/٢١٦).
(٤) المصدر نفسه (٤/٢١٥).
(٥) أدب السياسة في العصر الأموى ص٥٣٠ .

فسل الله ما طلبت إليهم ... وارجُ فضل المقسّم العواد

لا تقل لئيم ما ليس فيه ... وتسمّى البخيل باسم الجواد[1]

وجاء فى رواية أن الفرزدق قال: الحمد لله الذى شغل عنا هذا ببدعته، ولولا ذلك للقينا منه[2] عنتًا، ومن شعر عمران فى الزهد فى الدنيا والتزود للآخرة، فعن قتادة قال: لقينى عمران بن حطان، فقال: يا أعمى، احفظ عنى هذه الأبيات:

حتى متى تُسقى النُّفوس بكأسها ... ريب المنون وأنت لاه ترتع

أفقد رضيت بأن تُعلل بالمُنى ... وإلى المنيَّة كلَّ يوم تُدْفَعُ

أحلامُ نوم أو كظل زائلٍ ... إن اللبيب بمثْلها لا يُخْدَعُ

فتزوّدنَّ ليوم فقرك دائمًا ... واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[3]

ومن شعره فى الموت ورثاء مرداس قوله:

إن كنت كارهة للموت فارتحلى ... ثم اطلبى أهل أرضٍ لا يموتون

فلست واجدة أرضًا بها بشر ... إلاَّ يروحون أفواجًا ويغدون

إلى القبور فما تنفك أربعة ... بذى سرير إلى لحد يمشونا

يا حمز قد مات مرداسَ وأخوته ... وقبل موتهم مات النبيونا[4]

وقد شهد له النقّاد فى الشعر بأن شعره كان يتسم بانتقاء مفرداته فى غير توعر وإغراب، وبجزالة عباراته فى نسق لا تعقيد فيه، ولا التواء، ولا اعتساف بتقديم وتأخير، وكان يبتعد عن الخيال وما يجره من تهويل وتضخيم[5]، ومما يذكر فى سيرة عمران بن حطان أن الحجّاج ظل يطارده ويطلبه طويلاً حتى ظفر به، فقال للحرس: اضرب عنقَ ابن الفاعلة، فقال عمران: بئس ما أدبك به أهلك يا حجّاج أبعد الموت منزلة أمانعك عليها على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتنى به؟ فقال الحجّاج، صدق، أطلقوا عنه، فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له: ارجع إلى قتال الحجاج فوالله ما هو أطلقك، الله الذى أطلقك، فقال: هيهات، غلَّ يدًا مطلقها واسترق رقبة معتقها ثم قال:

---

(١)، (٢) تاريخ دمشق (٤٦/ ٣٣٦). (٣) المصدر نفسه (٤٦/ ٣٣٩).

(٤) المصدر نفسه (٤٦/ ٣٤٠).

(٥) أدب السياسة فى العصر الأموى صـ ٥٢٨، ٥٢٩.

أأقـــاتل الحـــجّـــاج عن سلطـانه ... بيــد تقــر بـأنهــا مـــــــولاتــه

مـــاذا أقـــول إذا وقـــفت حـــيـــاله ... في الصف واحـــتـجت له فـــعـلاته

وتحـــدث الأقـــوام أن صنيـــعـــه ... غـــرست لدى فـــحنظـلت نخــلاته

تالـله لو جـــئت الأمـــيـــر بـآلة ... وجـــوارحـــي وســـلاحى آلاتـــه[1]

هذا وقد توفى عمران بن حطان سنة ٨٤هـ[2].

٢ ـ أسبـاب فشل الخوارج في عـهد عبد الملك: فشلت ثورات الخوارج فى تحـقيق الهدف الذى كانت تسعى إليه لأسباب منها:

أ- أن الخوارج كانوا يخرجون فى أعداد قليلة وفى أوقـات متباعدة، مما سهل على ولاة الدولة الأموية القضاء عليهم.

ب- طغيان مذهب التشيع على أهل الكوفـة ومناقضة ذلك المذهب لمبدأ الخوارج، وكره أهل الكوفة والـشيعـة عامة للـخوارج لخروجـهم على أميـر المؤمنين على رضى الله عنه، وتكفيرهم إياه فساعد هؤلاء ولاة الدولة فى غالب الأحيان على قتال الخوارج.

جـ- موقف أهل البصرة واندفاعهم إلى مقاومـة الخوارج والقضاء عليهم ليحافظوا على تجارتهم واستمرارها.

د- تفرق الخوارج إلى فرق متعددة مما أدى إلى إضعـافهم وتفتيت وحدتهم، فسهل على ولاة الدولة القضاء عليهم.

هـ- الأعمال التخريـبـية التى كانوا يحدثونها من قتل النساء والأطفال وقـتل مخالفيهم، وإحراق الـقرى وكـسر الخراج وقـطع طرق التجـارة مما أدى إلى كرههم من جـانب الناس عامة، فاندفعوا إلى مساعدة ولاة الدولة فى القضاء عليهم.

هذه هى أهم الأسباب التى جعلت الخـوارج يفشلون فى التخلص من الحكم الأموى، وتطبيق أفكارهم ومعتقداتهم التى يؤمنون بها[3].

(١) الحجّاج بن يوسف الثقفى المفترى عليه صـ٣٧٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢١٦).
(٣) العراق فى العصر الأموى، ثابت الراوى صـ٢٤٣، ٢٤٤.

المبحث الثانى

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث

هذه واحدة من الثورات العديدة التى قام بهـا أهل العراق ضد الدولة الأموية، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبى، كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة، بل دفعت إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والى العراق الحجّاج بن يوسف. وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى[1]، وقد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان، ذلك الإقليم الذى أتعب الأمويين، وكان كثير الانتقاض والتمرد عليهم[2]، فلما كـانت ولاية الحـجّاج بن يوسف عـلى العراق (٧٥هـ ـ ٩٥هـ) صبـر على مـضض على تجاوزات رتبيل ملك سجـستان ضد الدولة، واستغلاله الظروف الصعـبة التى كانت تمر بها، ومنعه الجزية، فلما انتـهت مشاكل العراق الخطيرة، وكسرت شـوكة الخوارج سنة ٧٨هـ قرر أن يؤدب رتبيل[3]، فأرسل الحجّـاج إليه جيشًـا بقيادة عبـيد الله بن أبى بكرة سنة ٧٩هـ، وأمره الحـجّاج أن يتوغل فى بلاد رتبـيل، وأن يدك حصونهم وقـلاعهم، ففعل مـا أمر به الحجّاج، وتمكن من هزيمة رتبيل واجتيـاح بلاده، وغنم غنائم كثيرة، ولكن رتبيل أخذ فى التقهقـر فأطمع المسلمين فى اللحاق به حتى وصلوا قريبًـا من مدينته العظمى، عند ذاك بدأ الترك يغلقون على المسلمين الطرق والشعاب وحصروهم وقتل عامة جيش المسلمين[4].

أولاً: إعداد وإرسال جيش الطواويس إلى سجستان بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث:

أراد الحجّاج تأديب رتبيل وعقابه، فاستأذن عبد الملك بن مروان فى أن يبعث جيشًا كبيرًا بلغ عـدده أربعـين ألف مـقـاتل من أهل الكوفـة وأهل البـصـرة، وأنفق عليـه ألفى ألف (مليونين)، سوى أعطيات المقاتلين، وبالغ فى تجـهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل[5]، وبلغ من فخامة الجيش أن سماه الناس جيش الطواويس[6]، وأسند قيادته إلى عبد الرحمن ابن الأشعث، والحجّاج بإسناده قيادة هذا الجيش الكبير عدة وعددًا لابن الأشعث وهو يعلم موقفه منه، يهيئ للثورة عليه وعلى الدولة الأموية، وقد نبه الحجّاج إلى هذا الخطأ الفادح،

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٣).

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥٠٧.

(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٢١٨).

(٤) المصدر نفسه (٧/ ٢١٩)، تاريخ خليفة صـ٢٧٧.

(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٢٤).

(٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٥٠٨.

عم ابن الأشعث -إسماعيل بن الأشعث- حيث قال له: لا تبعثه فإنى أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطان(1)، ولكن يبدو أن الحجّاج قد خانه ذكاؤه هذه المرة، أو كان مفرطًا فى ثقته بنفسه، فلم يسمع نصيحة إسماعيل ورد مستخفًا بعبد الرحمن، فقال: هو لى أهيب، وفىَّ أرغب من أن يخالف أمرى، أو يخرج عن طاعتى(2). ومضى عبد الرحمن بهذا الجيش العظيم إلى سجستان لتأديب رتبيل، وكان ذلك فى سنة ٨٠هـ، فلما بلغته الأخبار، كتب إلى عبد الرحمن يعتذر إليه مما حل بالمسلمين فى بلاده، ويطلب منه الصلح ولكن عبد الرحمن لم يقبل(3)، وأخذ يتوغل فى بلاده، وهنا حاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمن ما صنعه مع عبيد الله ابن أبى بكرة، فأخذ يخلى البلاد والحصون أمامه ليوقعه فى شرك، ولكن ابن الأشعث فطن إلى ذلك، وكان كما يقول الطبرى: كلما حوى بلدًا بعث إليه عاملاً وبعث معه أعوانًا، ووضع البريد فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب، ووضع المسالح بكل مكان مخوف، حتى إذا جاز من أرضه أرضًا عظيمة، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس الناس عن الدخول فى أرض رتبيل، وقال: نكتفى بما أصبناه العام فى بلادهم، حتى نجبيها ونعرفها، ويجترئ المسلمون على طرقها، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم فى كل طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم، وفى أقصى بلادهم وممتنع حصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله(4). وهذه خطة سديدة وعملية، وتدل على ذكاء وحنكة وتجربة، وقد كتب إلى الحجّاج بما حققه من فتوحات وبخطته التى اعتزم تنفيذها(5).

ولكن الحجّاج - ودون أن يستشير أحدًا من أهل الحرب - رفض هذا الرأى واستهجنه، وكتب إلى ابن الأشعث، ثلاثة كتب على التوالى سفه فيها رأى ابن الأشعث، وهدده فيها بالعزل إن لم يفعل ما يأمره به، ورماه فيها ببعض الأوصاف المقذعة(6).

ثانيًا: تمرد عبد الرحمن بن الأشعث بجيشه على الحجّاج:

وبرفض الحجّاج رأى ابن الأشعث، وبأسلوبه القاسى، وتعامله السيئ، أذكى نار الفتنة وعجل بأسباب الثورة عليه، وقد أعماه فرط ثقته بنفسه، واحتقاره لغيره عما ستؤدى إليه تلك التصرفات الهوجاء من عواقب خطيرة، وأثارت مكاتبات الحجّاج حفيظة عبد الرحمن بن الأشعث وحركت ما فى نفسه من كره للحجّاج، فجمع الناس وخطبهم مبينًا لهم

(1)، (2) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٢٤) . (3)، (4)، (5) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٥).

(6) المصدر نفسه (٧/ ٢٣١).

نصحه لهم ومعرضًا برأى الحجّاج، وطلب منهم الرأى، فثار إليه الناس فقالوا: بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له، ولا نطيع[1] وانفتح الباب لكل من أراد أن يتكلم، فتكلم عامر بن واثلة الكنانى -وكان شاعرًا خطيبًا- فكان مما قال: فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. وبعد كلامه دعا الناس إلى خلع الحجّاج ومبايعة عبد الرحمن بن الأشعث، فبايعهم ابن الأشعث على خلع الحجّاج والقتال معه حتى ينفى الله الحجّاج من العراق، ولم يذكر خلع عبد الملك[2].

ومن هنا بدأت ثورة ابن الأشعث، وهذه الثورة وإن لم تكن لها جذور بعيدة وإن لم تسبقها خطوات إعداد كبيرة إلا أنها كانت من أخطر الثورات التى قامت على الدولة الأموية أو أخطرها، حيث هددت كيان الخلافة بالزوال، واضطرت الخليفة إلى مساومة أصحابها بما لم يساوم به غيرهم من أصحاب الثورات السابقة[3]، وانحدر ابن الأشعث بجيشه وانضم إليه خلق كبير فى طريقه إلى العراق قاصدًا الحجّاج، فلما جاء الخبر الحجّاج أصيب بالهلع والذعر، فكتب إلى عبد الملك يخبره بالأمر، ويطلب منه المدد، فتوالت الكتب بينه وبين عبد الملك، وتوالى إرسال الجيوش من عبد الملك فى كل يوم إلى الحجّاج[4].

١ ـ موقف المهلب بن أبى صفرة من الأحداث:

كان المهلب بن أبى صفرة قد نهى ابن الأشعث عن فعلته قائلاً: إنك وضعت رجلك يا ابن محمد فى غرز طويل الغى على أمة محمد ﷺ، الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها. فإن قلت: أخاف الناس على نفسى فالله أحق أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرضها لله فى سفك دم، ولا استحلال محرم. وكتب المهلب كذلك إلى الحجّاج بما يجب عليه أن يفعله فى مواجهة ابن الأشعث حيث قال: فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علٍ، وليس شىء يرده حتى ينتهى إلى قراره، وإن لأهل العراق شرة فى أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شىء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشموا أولادهم، ثم وافقهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله[5]. ولكن لم يعر ابن الأشعث نصح المهلب أدنى اهتمام، فتقدم نحو العراق، وفى وسط الطريق أقدم ابن الأشعث ومن معه

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٢).

(٣)، (٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية ص٥٤٧.

(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٥).

على خطوة خطيرة وهى خلع الخليفة عبـد الملك بن مروان والسعى إلى تنحيته[١]، كما أن الحجّاج نظر إلى نصح المهلب من منظوره المتشكك فيمن حوله، فعده غشًا من المهلب، فقد قال عندما قرأ كتابه: فعل الله به وفعل، والله ما لى نظر، ولكن لابن عمه نصح[٢].

٢ ـ معركة الزاوية[٣]:

قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث، ومن مـعه قبل دخولهم العراق، فأرسل الكتائب تلو الكتائب، ولكن لم تستطع إيقاف زحف ابن الأشعث فهـزمها، وتقدم حتـى دخل البصرة بعد أن خرج منهـا الحجّاج فارًا بنفسه ومن مـعه من أهل الشام، ونزل بالزاوية، عند ذلك أيقن الحجّـاج بصدق المهلب فى نصحـه له فقال: لله أبوه، أى صاحب حـرب هو! أشار علينا بالرأى فلم نقبل[٤]، وانضم إلى ابن الأشعث جموع كثـيرة من أهل البصرة، والتقى ابن الأشعث بالحجّـاج فى الزاوية، وتوالت الهزائم بجيش الحجّـاج، إلا أنه سنحت فرصة لفرقة من فرق الحجّاج حيث تمكنت من إلحاق الهـزيمة بإحدى فرق ابن الأشعث، فاستغل الحجّاج الفرصة وكثف الهجوم على خـصمه، فاضطر ابن الأشعث إلى التراجع وسار نحو الكوفة تاركًا الـبصرة، فبايعـه أهل الكوفة ولحق به أهل البصرة، وانضم إليـه أهل المسالح والثغور[٥]، وبلغ عدد من معه مائة ألف ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم[٦]، وقد دفعت الموالىَ أسبابٌ كثيرة للاشتراك فى ثورة ابن الأشعث، منها:

أ- السياسة المالية التى اتبعها الحجّاج نحوهم وإجبارهم على دفع الجزية بعد إسلامهم.

ب- حرمانهم من الأعطيات والأرزاق عند اشتراكهم فى الفتوح.

جـ- حرمانهم من المساواة وشـعورهم بالظلم من ممارسة بعض ولاة الدولة الأموية[٧]، وغير ذلك من الأسباب.

اغتم عبد الملك لما حدث، ولما وصله الخـبر نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية، ودعاه فأقرأه الكتاب، ورأى مـا به من الجزع، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من قبل سجستان، فلا تخفه، وإن كان من قبل خراسان تخوفته.

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٤). (٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٣٥).

(٣) الزاوية: لفظ يطلق على عدة أماكن، والمراد به هنا موضع قرب البصرة، معجم البلدان (٣/ ١٢٨).

(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٧). (٥) تاريخ الإسلام للذهبى صـ ٩.

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية ص٥٤٩.

(٧) العراق فى العصر الأموى، ثابت الراوى صـ٢٤٥.

وخرج عبد الملك إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أهل العراق طال عليهم عمرى فاستعجلوا قدرى، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك[1]. ثم نزل.

٣ ـ استعداد عبد الملك أن يضحى بالحجّاج ومعركة دير الجماجم:

لما رأى أهل الشام وبنو أمية قوة ابن الأشعث أشاروا على عبد الملك بعزل الحجّاج، وقالوا: إن كان إنما يرضى أهل العراق أن تنزع عنهم الحجّاج فانزعه عنهم، تخلص لك طاعتهم، فإن عزلك له أيسر من حربهم، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان بالجيش إلى العراق وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجّاج عنهم، وأن يجرى عليهم العطاء، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد شاء من العراق ويكون واليًا، فإن قبلوا ذلك نزعنا عنهم الحجّاج ويكون محمد بن مروان مكانه على العراق، وإن أبوا فالحجّاج أمير الجميع وولى القتال[2]، ولم يكن أمر أشق على الحجّاج، ولا أغيظ له، ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر، وكان من الطبيعى أن يستاء الحجّاج من هذا، وعزّ عليه أن يضحى به عبد الملك بن مروان، بعد كل ما قدمه له من خدمات[3]، وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان رضى الله عنه، قال له: يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على عثمان بن عفان، فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، إن الحديد بالحديد يفل، خار الله لك فيما رأيت والسلام عليك[4].

غير أن عبد الملك كان مقتنعًا بالفكرة، وأن مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار ورأى فى ذلك منع الحرب[5]. ولكن من حسن حظ الحجّاج أنه لما عرضت الفكرة على أهل العراق رفضوها بقوة، مع أن ابن الأشعث قبلها، وحثهم على قبولها، لكنهم لم يوافقوه، بل جددوا خلع عبد الملك، وظنوا الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموى[6]، وكان الأولى بابن الأشعث أن لا ينساق لما تطلبه الجماهير، فقد ضاعت فرصة كبيرة فى التخلص من الحجّاج، وكان يمكنهم رفع سقف المطالب والضغط على عبد الملك حتى يستجيب لرفع المظالم، وإقامة العدل، والتقيد بالكتاب والسنة، وإن انحرف عن شروطهم أمكنهم

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٦).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٤٥).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥١٥.
(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٤٥).
(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥١٥.
(٦) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٤٦).

بعد ذلك عزله، ولكن يبدو أن الحس السياسى لدى زعماء ثورة ابن الأشعث كان غائبًا، كما أن مبايعة أهل العراق لابن الأشعث جاءت فى لحظات عاطفية ثورية ولم تكن نتيجة لمعرفة تامة به، وهل يستحق عن جدارة أن يكون أميرهم؟[١].

رفض ابن الأشعث تنازل عبد الملك فى خلع الحجّاج وغيرها، فعندها سلم محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش الأموية للحجّاج وقالا: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك، فإنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك[٢].

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، فاشتبكا فى أشهر وقائعهم ـ التى زادت عن ثمانين موقعة ـ فى دير الجماجم[٣]، والتى استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث فى الرابع من جمادى الآخرة سنة ٨٣هـ[٤]، ثم دارت معركة أخرى بعدها فى مسكن فى شعبان من نفس السنة، فهزم ابن الأشعث أيضًا، ثم ولى هاربًا إلى سجستان[٥]، حيث كان تصالح مع رتبيل على أن يسقط عنه الخراج إن ظفر، وإن هزم يأوى إليه ويحميه[٦]، ولكن الحجّاج هدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل[٧]، فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه، فلما أحسَّ ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذى كان فيه، فمات، فأخذ رأسه وأرسله إلى الحجّاج وكان ذلك سنة ٨٥هـ[٨].

وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذى قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين، وهى ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة فى نفس ابن الأشعث والحجّاج كل منهما للآخر من ناحية، وبغض أهل العراق للحكم الأموى من ناحية ثانية[٩]، ومظالم الحجّاج العظيمة التى دفعت بجمهور كبير من العلماء للانضمام للثورة والتخلص من الطاغية الحجّاج.

ثالثًا: موقف العلماء من ثورة ابن الأشعث:

يختلف موقف العلماء من حركة ابن الأشعث اختلافًا كثيرًا عن موقفهم تجاه الحركات الأخرى ضد الدولة الأموية، إذ شارك جمهور غفير من العلماء فى حركة ابن الأشعث هذه، سواء بتحريض الناس على المشاركة فيها، أو بمشاركتهم المباشرة فى القتال مع ابن

(١) حركة النفس الزكية صـ٣٨. (٢) تاريخ الطبرى (٧/٢٤٦).
(٣) تقع دير الجماجم على سبعة فراسخ من الكوفة من طريق البصرة.
(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٥٤). (٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٧).
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٥١، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٤).
(٧) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٨٧). (٨) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٩).
(٩) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٥١٦.

الأشعث ضد الحجّاج، وقد استفاضت المصادر المتـقدمة فى ذكر تأييد العلماء ومشاركتهم فى هذه الحركة، كما اجتمعت على كثـرة عدد العلماء المشاركين، ولكن على اختلاف بينهم فى تقدير هذا العدد، فيذكر خليفة بن خياط أن عـددهم بلغ خمسمائة عالم، وعد منهم خمسة وعشرين عالمًا[١]، ولعل من أسباب كثرة تلك الأعداد المذكورة إدخـال غير العلماء فيها من أهل العبادة والصلاح، وإن لم يشتهر عنهم العلم، حيث تردد إطلاق اسم القراء على هؤلاء المشاركين، ولعله يشمل العلماء وأهل الصلاح، والزهادة والمشهورين بكثرة التعبد[٢].

١- من أشهر العلماء المشاركين فى حركة ابن الأشعث:

وبتتبع كثير من المصادر أمكن حصر العـديد من أسماء العلماء المشاركين فى تلك الحركة منهم:

أ- أنس بن مالك رضى الله عنه: العالم الجليل والصـحابى الكريم، فقـد كان ممن يؤلب على الحجّاج، ويدعو إلـى الانضمام إلى ابن الأشعث، ولكنه لم يشارك مشـاركة فعالة فى القتال لكبر سنه[٣].

ب- أبو الشعثـاء سليم بن أسود المحاربى: فقد شارك مع ابن الأشـعث، وقيل: قتُل يوم الزاوية[٤].

جـ- عبـد الرحمن بن أبى ليلى: كان من كبـار المشاركين فى تلك الحركـة المحرضين على القتال فيها، وتوفى بوقعة الجماجم حيث اقتحم به فرسه الفرات فغرق ـ رحمه الله-[٥].

د- الإمام الشـعبى: ولكن فى مشاركتـه شىء من الإكراه إذ لم يكن فى بداية الأمر على قناعة بالمشاركة، حيث روى عنه أنه قـال: فلم أزل عنده ـ أى الحجّاج ـ بأحسن منزلة حتى كان شأن ابن الأشعـث، فأتانى أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمـرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم[٦].

هـ- سعيد بـن جبير، ممن شارك مع ابن الأشعث، وكان يحـضض على القتال، ونجا من القتل وتوارى عن الحـجّاج مدة، ولكن تمكن منه عـندما قبض عليـه والى مكة وأرسله إليه فقتله الحجّـاج سنة أربع وتسعين[٧]. وغير ذلك من العلمـاء وهذا يدل على أن حركة ابن

(١) تاريخ خليفة صـ٢٨٦، ٢٨٧.
(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية ص٥٥٢.
(٣) أنس بن مالك، طهماز صـ١٦٠ ـ ١٦١.
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٧٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٤، ٢٦٧)، الطبقات (٦/ ١١٣).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧، ٣٣٦)، الطبقات (٦/ ٢٦٥).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧، ٣٣٦).

الأشعث لقيت من الدعم والمشاركة من العلماء ما لم تلقه أى حركة قامت ضد الدولة الأموية. وقد كان لمشاركة العلماء فى هذه الحركة - بهذا الحجم - أثر كبير على الحركة، فقد كانت مشاركتهم وراء انضمام كثير من الناس لتلك الحركة، ولا سيما أن بعض الفقهاء والقراء كانوا يسعون لإقناع أكبر عدد للانضمام إلى القتال خاصة من فئة العلماء[1]، كما كان للعلماء المشاركين أثر كبير فى ميدان القتال، فكانت لهم كتيبة خاصة بهم تسمى كتيبة القراء[2]، وكان بعض العلماء يبعثون الحماس فى أتباع ابن الأشعث بما يلقونه من خطب وما يصدرونه من نداءات أثناء القتال، كان لها أثر فى غرس الثقة فى النفوس والثبات فى مواطن اللقاء[3].

وقد لقى الحجّاج وجيشه عنتًا ومشقة من كتيبة القراء، فقد كان أصحابها يحملون حملة صادقة على جيش الحجّاج فما يصمد لها، ويضربون الكتائب حتى يفرقوها[4]، لذا عبأ الحجّاج لهذه الكتيبة ثلاث كتائب توقف زحفها والتقليل من خطرها عليه[5].

٢ - أسباب مشاركة العلماء فى ثورة ابن الأشعث:

انضم إلى حركة ابن الأشعث فئات وطوائف شتى، كل فئة مدفوعة بدافع تسعى لتحقيقه من خلال المشاركة فى هذه الحركة، فهناك دوافع إقليمية، ودوافع عرقية، وأخرى اجتماعية، ولم يكن شىء من هذه حرّك العلماء للمشاركة فى هذه الفتنة، وإنما انطلقوا من دوافع دينية وشرعية بحسب ما وصل إليه اجتهادهم، وقد كان القاسم المشترك لكل هذه الدوافع شخصية الحجّاج[6] الظالمة، المتعسفة، الجائرة، والمتعطشة لسفك الدماء، ولذلك كان العلماء ينقمون على الحجّاج تعديه لبعض حدود الإسلام، وانتهاكه لبعض حرماته، وكانوا ينقمون عليه سوء معاملته وسوء نظرته للعلماء.

أ - تعدى الحجّاج لبعض حدود الدين وانتهاكه لحرماته:

كان الحجّاج يملك جرأة عجيبة تعدى بها إلى غير مواضعها، مما أدى إلى إحداث شرخ كبير فى جانب من حياته المتعددة الجوانب، فأسهم بذلك فى تشويه صورته وصورة

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٥٥٧.
(٢) تاريخ الطبرى نقلا عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٥٨.
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ١٥٤)، تاريخ الطبرى (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).
(٤) الكامل فى التاريخ (٤/ ١٥٠).
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٥٨، الكامل فى التاريخ (٣/ ١٥٤).
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٦٢.

الحكم الأموى، وقد حرص بعض المولعين بشخصية الحجّاج إخفاء هذا الجانب المشوه من حياته، والدراسة الواعية المنصفة تأبى هذا المنهج، وما من شك فى أنه ورد الكثير من المبالغات عن انتهاكات الحجاج لحرمات الدين، وكثير منها لا يصح، ودخل الدس من أعداء الحجّاج وبنى أمية فى صياغة كثير من هذه المبالغات، لذا فقد استبعدت[1] النقل والاعتماد فى هذا الأمر على الكتب التى اشتهر عن أصحابها التهاون فى إيراد الروايات دون تمحيص، ولاسيما كتب الأدب، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، والأغانى للأصفهانى، أو كتب الفرق المغالية فى عداوتها لبنى أمية كالشيعة، وحاولت[2] النقل والاعتماد على كتب السنة المشهورة بحفظ الأحاديث النبوية الشريفة، وما يخدمها من روايات، وكذلك على الكتب المعتبرة التى اشتهر عن أصحابها التحرى والدقة كالذهبى فى سيره وتاريخه[3].

ويأتى فى مقدمة تجاوزات الحجّاج الشرعية إسرافه فى القتل وأمره به بأدنى شبهة، حيث كان الحجّاج يرى وجوب الطاعة العمياء من الرعية له، وأن مخالفة أمره ـ فى أى شأن كان، صغر أم كبر ـ تبرر له القتل، فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عاصم قال: سمعت الحجّاج يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالاً[4]، وقال ابن كثير معلقًا على بعض تجاوزات الحجّاج مما يبين سبب استهانته بالقتل: . . فإن الحجّاج كان عثمانيًا أمويًا، يميل إليهم ميلاً عظيمًا، ويرى خلافهم كفرًا، ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه فى ذلك لومة لائم.

وقال فى موضع آخر: أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله[5] عز وجل، بسبب هذا المعتقد الذى استقر فى نفس الحجّاج استهان بالقتل واشتهر إسرافه فيه لمخالفة أوامره، صغرت أم كبرت، ومع ما ورد من مبالغات فى الإحصاءات التى ذكرت عدد قتلى الحجّاج، فما من شك فى تعديه الحدود المشروعة فى القتل، ويؤيد ذلك ما صح عن المصطفى ﷺ بروايات متعددة تصف الحجّاج بأنه مبير، فعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه قالت للحجّاج بعد قتله لابنها عبد الله بن الزبير رضى

(١)، (٢)، (٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٦٥ .

(٤) سنن أبى داود (٤/ ٢١٠) صحيح الإسناد . (٥) البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٧ - ٥٥٤) .

الله عنه: أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه[1]، وقد أنكر العلماء على الحجّاج هذا الإسراف في القتل، فروى عن الإمام عبد الرحمن بن أبي أنعم أنه قال للحجّاج: لا تسرف في القتل إنه كان منصورًا، فقال الحجّاج: والله لقد هممت أن أروي الأرض من دمك. فقال: إن من في بطنها أكثر ممن في ظهرها[2]، وكان جواب سعيد بن جبير للحجّاج عندما سأله عن رأيه فيه فقال: نعم ظهر منك جور في حد الله، وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء الله[3].

- **ومن التجاوزات التي كان العلماء ينكرونها على الحجّاج تأخيره للصلاة عن وقتها:** وتأخير الصلاة عن وقتها ليس خاصًا بالحجّاج بل كانت عادة عند بعض خلفاء بني أمية، وسار ولاتهم على نهجهم ولكن الذي يؤخذ على الحجّاج مع تأخيره الصلاة عدم قبوله تنبيه أحد من العلماء أو إبداء النصح منهم له في ذلك، وهذا مأخذ آخر أخذه العلماء على الحجّاج وهو عدم قبوله لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4]، ومن ذلك أن الحجّاج أنكر يومًا أن يكون الحسين بن علي رضي الله عنه من ذرية رسول الله ﷺ لأنه ابن ابنته، فقال له العالم الجليل يحيى بن يعمر: كذبت. فقال الحجّاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك، فقال: قال الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥]. فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال الحجاج: صدقت، فما حملك على تكذيبي في مجلسي، قال: ما أخذ الله على العلماء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فنفاه إلى خراسان[5].

- **ومن تجاوزات الحجّاج الشرعية تطاوله على أصحاب رسول الله ﷺ وسوء تعامله مع العلماء:** ومرّ معنا معاملته القبيحة لابن عمر، وابن الزبير والسيدة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهم جميعًا، ومن ذلك تطاوله على عبد الله بن مسعود وهو متوفى رضي الله عنه فقد قال: والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه[6]، وفي أخرى أنه قال: ابن

(١) مسلم، ك فضائل الصحابة (٤/١٩٧١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/٦٣)، المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٥٧٤).
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٤٥).
(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية صـ٥٦٩.
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٢).
(٦) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٤١)، تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٧٢).

مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه[1]، وقد علق الذهبى على أقوال الحجّاج فى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بقوله: قاتل الله الحجّاج، ما أجرأه على الله؟! كيف يقول هذا فى العبد الصالح عبد الله بن مسعود[2].

ومن تطاوله على أصحاب رسول الله ﷺ وسوء أدبه معهم ما حدث منه لكل من أنس ابن مالك ـ خادم رسول الله ﷺ - وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد الساعدى رضى الله عنهم، فقد ورد أنه ختم على كل واحد منهم بختمه المشهور «عتيق الحجّاج» أنس وسهل فى عنقيهما وجابر فى يده[3]، أما فعله ذلك بأنس فلأنه بايع ابن الزبير وتولى له البصرة، ولأنه كان يحرص على المشاركة مع ابن الأشعث، لذا ناله ما ناله من أذى الحجّاج، ولم ينقذه من إهانة الحجّاج إلا تدخل الخليفة عبد الملك حيث كتب كتابًا وبخ فيه الحجّاج على فعله بأنس، وأمره بعدم التعرض له[4]، وأما سهل فقد ورد أن الحجّاج أرسل إليه يقول: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان؟ قال: قد فعلت. قال: كذبت ثم أمر به فختم فى عنقه[5]. وهذه عقدة عند الحجّاج حيث كان متعصبًا للأمويين أكثر من تعصبهم لأنفسهم، ففى الحين الذى نجد معاوية وعبد الملك توددوا لكثير من الرجال الذين وقفوا ضدهم مع على أو مع ابن الزبير، وعفوا عما سلف منهم، واستلوا بذلك ضغائن نفوسهم، نجد الحجاج يخالف هذا المنهج السديد فيصر على محاسبة الرجال على ما سلف منهم أيام الفتن، فأوغر صدور الكثير عليه وعلى بنى أمية بهذا المسلك[6]، وأذكر مثالاً يوضح الفرق بين نظرة عبد الملك ونظرة الحجّاج للرجال وطريقة التعامل معهم، فقد كان محمد ابن الحنفية ممن امتنع عن مبايعة عبد الملك أو ابن الزبير حتى يجتمع المسلمون على واحد منهما، فلما تم قتل عبد الله ابن الزبير بعث الحجّاج على الفور لابن الحنفية يسأله البيعة ويقول: قد قتل عدو الله، فقال ابن الحنفية: إذا بايع الناس بايعت. قال: والله لأقتلنك. ومع أن ابن الحنفية بايع لعبد الملك لما رأى اجتماع كلمة المسلمين عليه، إلا أن الحجّاج استمر فى مضايقة ابن الحنفية، فلما قدم على عبد الملك أكرمه عبد الملك وقضى كل حوائجه، ثم اشتكى إليه سوء معاملة الحجّاج له وكان حاضرًا عند عبد الملك فقال: إن هذا

(١) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٧٢).

(٢)، (٣) تهذيب الكمال (١٢/ ١٨٨)، أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٧٥ .

(٤) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٦٤)، أثر العلماء صـ٥٧٦ .

(٥) تهذيب الكمال (١٢/ ١٨٨).

(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٥٧٧ .

- يعنى الحجّاج- قد آذانى واستخف بحقى ولو كانت خمسة دراهم أرسل إلى فيها. فقال عبد الملك: لا إمرة لك عليه، وطلب منه أن يستل سخيمة ابن الحنفية ويترضاه(1).

ب- سوء معاملة الحجّاج ونظرته للعلماء:

وقد كان لتجاوزات الحجّاج وسوء تعامله مع أهل العلم والفضل فى مكة والمدينة أثر فى عزله عن الحجاز، بعدما كثرت الشكوى منه عند عبد الملك، فلما تولى العراق استمر فى سوء تعامله. فوجد كثير من العلماء المضايقة والشدة منه، فضرب بعض العلماء فى ولايته، وسجن بعضهم، ونفى بعض آخر، وقد يظن بعض الكتاب أن هذا الضرب والسجن بل والقتل للعلماء إنما حدث بعد فتنة ابن الأشعث فحسب فيكون تعامل الحجّاج هذا جاء ردة فعل على مشاركة العلماء فى هذه الحركة، ولكن الأمر على غير هذا الظن فقد حدثت بعض تلك المضايقات والمعاملة السيئة قبل حركة ابن الأشعث، فمعاملته لابن عمر وجابر رضى الله عنهما كانت قبل ذلك حيث توفيا قبل حركة ابن الأشعث(2).

وقد تعدت مضايقة الحجّاج للعلماء للذين لم يشاركوا فى هذه الحركة، ومن عُرف عنهم النهى عن الخروج على الولاة ولا يرون استخدام السيف لتغيير المنكر، ومن هؤلاء الحسن البصرى فقد اشتهر عنه النهى عن حمل السيف ومقاومة ظلم الولاة به، وعندما أكره على المشاركة فى القتال تخلص وهرب من الصف، ومع ذلك فقد كان الحجّاج يطلبه وحاول قتله مرارًا، ولكن الله عصمه منه(3)، حتى اضطر الحسن أن يتخفى عن الحجّاج فى منزل بعض أصحابه وهو أبو خليفة الحجّاج بن عتاب(4)، فكان أصحابه وطلابه يغشونه لمدارسته العلم والتلقى عنه فى مكان تواريه(5). ومن الذين لم يشاركوا فى فتنة ابن الأشعث: إبراهيم النخعى، ومع ذلك فقد عاش مدة متخفيًا عن الحجّاج، والحجّاج يطلبه، حتى كان لا يصلى جماعة مدة اختفائه مخافة من الحجّاج(6)، وكذلك شأن الإمام مجاهد بن جبر، فإنه كان ممن يطارده الخوف من ظلم الحجّاج حتى اضطر إلى التوارى عنه(7).

ومن هذا العرض السابق يتضح مدى ما وصلت إليه تجاوزات الحجّاج الشرعية وطبيعة علاقته مع العلماء وعلاقة العلماء به، والجدير بالذكر أنه لم تصل علاقة العلماء بأى والٍ

(1) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (9/148).

(2) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ578، 579.

(3) تاريخ الإسلام للذهبى، نقلاً عن أثر العلماء صـ580.

(4) كتاب المتوارين للأزدى صـ45.

(5) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ581.

(6) سير أعلام النبلاء (4/521)، أثر العلماء صـ581.

(7) كتاب المتوارين للأزدى صـ53.

من ولاة الدولة الأموية فى سوئها كما وصلت إليه علاقتهم مع الحجّاج، بل كانت علاقتهم مع ولاة الدولة فى عمومها حسنة يعينونهم على الحق، ويجاهدون معهم، ويأمرونهم بالمعروف ويبدون لهم النصح فيسمع منهم فى كثير من الأحيان(١).

ومن كل ما سبق يتضح أنه كان للحجّاج الأثر الكبير فى مشاركة العلماء فى حركة ابن الأشعث، بل وفى قيام تلك الحركة من وجهين: الأول: أنه بأسلوب الشدة والقسوة أضرم نيران الحقد والكراهية فى قلوب مختلف الفئات من الناس فى العراق - بمن فيهم العلماء - عليه وعلى بنى أمية. والوجه الآخر: أنه كان سببًا مباشرًا لإعطاء ابن الأشعث الفرصة فى القيام بتلك الثورة، حيث جنده بكل ما يملك من جنود وسلاح ومال، وهو يعلم ما بينهما من كره متبادل، وقد حذر من ذلك بأسلوبه المتعنت فى التعامل مع ابن الأشعث وجنوده فى رسائله التى تفوح بالحمق حيث ملأها بالشتائم لابن الأشعث، ولم يراع مصلحة الجنود كما لم يشعرهم بأهميتهم لديه، بل العكس فى ذلك كأنما أراد بتصرفه معهم التخلص من حياتهم، وهذا يمثل ما وصل إليه غرور الحجّاج بنفسه(٢).

٣ - معارضة بعض العلماء لثورة ابن الأشعث:

كان هناك عدد من العلماء عارضوها أو اعتزلوها، ولم يروا المشاركة فيها، ومن أبرز هؤلاء أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدى(٣)، فهو من الذين لم يشاركوا فى هذه الثورة، وأبو قلابة الجرمى، فلم يشارك وكان يعتب على غيره ممن شارك(٤)، ومنهم إبراهيم النخعى، فلم يشارك وكان يعيب على سعيد بن جبير مشاركته فيها(٥)، وقد قيل له: أين كنت يوم الزاوية؟ قال: فى بيتى. قالوا: فأين كنت يوم الجماجم؟ قال: فى بيتى. قالوا: فإن علقمة شهد صفين مع على، فقال: بخ بخ من لنا مثل على بن أبى طالب ورجاله(٦).

وممن لم يشارك فى حركة ابن الأشعث أيوب السختيانى، فروى عنه أنه يقول فى العلماء الذين خرجوا مع ابن الأشعث: لا أعلم أحدًا منهم قُتل إلا رغب له عن مصرعه، أو نجا إلا ندم على ما كان منه(٧)، ومنهم طلق بن حبيب، فكان معتزلاً الفتنة وكان يقول: اتقوها بالتقوى(٨)، ومنهم مطرف بن عبد الله الشخير فقد امتنع عن المشاركة فى هذه الفتنة، وحين جاءه ناس يدعونه للمشاركة امتنع، فلما أكثروا عليه قال: أرأيتم هذا الذى

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٨٣.
(٢) المصدر نفسه صـ٥٨٦.
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٨٢).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٥١٣).
(٥) الطبقات(٦/ ٢٦٦)، أثر العلماء ص٥٥٩.
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٦).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٥١٣).
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٦٠١)، الحلية (٣/ ٦٤).

تدعـونى إليه، هل يزيد على أن يكون جـهاداً فى سـبيل الله؟ قـالوا: لا. قال: فـإنى لا أخاطر بين هلكة أقع فيها وبين فضل أصيبه[1].

ومنهم مجاهد بن جبر، فإنه لم يشارك، وحـين دعى للمشاركة قال لمن دعاه: عده باباً من أبواب الخير تخلفت عنه[2]، ومنهم خيثمة بن عبد الرحمن الجعفى ومحمد بن سيرين، فقد ورد ذكرهما مع الذين لم يشاركوا فى فتنة ابن الأشعث[3].

٤ ـ موقف الحسن البصرى من ثورة ابن الأشعث:

يعد الحسن البصرى واحداً من أولئك العـلماء الذين اعتزلوا القرب من الولاة والأمراء، وابتعدوا عن المناصب ورغبوا عن وجاهتهـا، فقد كان ينهى العلماء عن طرق أبواب الأمراء والتزلف لهم، لأن فى ذلك إهانة للعلم وحطًا من قدر العلماء ومكانتهم[4]، وبقى الحسن معتزلاً القـرب من الولاة بعيداً عن تولى مناصبهم حـتى توفى ـ رحمه الله ـ. إلا أن ذلك لم يكن سبـبًا فى انزوائه عما يجـرى فى عصره من أحداث سـياسية، بل كـان علمًا بارزًا يهتدى كثـير من الناس بتوجيهاته المـفيدة وآرائه السديدة، لاسيما فـى أوقات الفتن وفترات الخلاف، لذا قال فـيه الثقات: كان - والله - الحسـن من رءوس العلماء فى الفتن والدماء والفروج[5]، وكان ينحى فى نصحـه للعامة إلى جمع الكلمـة وتوحيد الصف، وينهى عن الإثارة والفرقـة، ويدعو إلى السمع والطـاعة للولاة، وكان يرى وجـوب الموازنة بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ووحـدة الجماعـة، ولقد عاصر الحـسن البصرى معظم فـترات الحكم الأموى، وتأثر بالواقع السـياسى فى هذه الفترة، فأصـبح يمثل مدرسة سيـاسية فى عصره، فهو يرى أن حكم بنى أمية فيه ظلم وجور، ولكنهم فى نفس الوقت يملكون القوة العسكرية، ومـوازين القوى فى صالحهم، كـما أن الفئـة الراغبة فى التغـيير والشاكـية من الظلم، ينقصها التنظيم والإعداد والقوة والصبر، ويرى أن الذين يحملون راية الخروج على حكم بنى أمية إمـا مخلص لدينه، ولكنه لا يصلح للحكم ولا يقدر على إحداث التـغيير، وإما رجال يستخدمون الدين والدعوة للتغيير لأغراض دنيوية، منها حبهم للسلطة والحكم، فليسوا بأحسن حالاً من الأمويين[6].

وعلى ذلك أصبح موقفه من الحكم الأموى يقوم على أمور منها:

(١) المعرفة والتاريخ للفسوى (١/ ٧١١) أثر العلماء صـ ٥٦٠.

(٢)، (٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٥٦١ . (٤) المصدر نفسه صـ ٣٣٨ .

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٥) وفيه زيادة لفظة الفروج، والمقصود بها الثغور .

(٦) موسوعة فقه الحسن البصرى، قلعجى (١/ ١١).

أ- عدم الخروج على حكم بنى أمية: لما فى ذلك من سفك الدماء، وتقويض لقوة المسلمين، وازدياد الجور والظلم[1]، فقد دخل عليه رجل فقال: يا أبا سعيد إنى أريد أن أسألك عن الولاة، فقال الحسن: سل عما بدا لك. فقال: ما تقول فى أئمتنا هؤلاء؟ فسكت الحسن مليًا ثم قال: وما عسى أن أقول فيهم وهم يلونا من أمورنا خمسًا: الجمعة والجماعة، والفىء والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وإن ظلموا، والله ما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغبطة، وإن فرقتهم لكفر، فقال الرجل: يا أبا سعيد والله إنى لذو مال كثير، وما يسرنى أن يكون لى أمثاله وإنى لم أسمع منك الذى سمعت، فجزاك الله عن الدين وأهله خيرًا، وحين سئل عن الحجّاج قال: يتلو كتاب الله، ويعظ وعظ الأبرار، ويطعم الطعام، ويؤثر الصدق، ويبطش بطش الجبارين. قالوا: فما ترى فى القيام عليه؟ فقال: اتقوا الله، وتوبوا إليه يكفكم جوره[2]. وكان إذا قيل له: ألا تخرج فتغير؟ قال: إن الله إنما يغير بالتوبة ولا يغير بالسيف[3]. وكان يرى أن جور الحكام بسبب ما يحدثه الناس من ذنوب ومعاص، وإن من أهم أسباب دفع الجور والظلم هو الرجوع إلى الله، وكان يحث الناس على تجنب الفتن والبعد عن أسباب إشعالها. وحين بلغ السخط على الحجّاج أوجه وثار عليه الناس مع ابن الأشعث وكان فى جملتهم عدد من العلماء لزم الحسن موقفه من الفتن، فلم يخرج مع من خرج بل كان يكره ذلك وينهى الناس عنه، وكان أخوه سعيد ممن يرى الخروج على الحجّاج ويدعو له، فعن حماد بن زيد بن أبى التياح قال: شهدت الحسن وسعيد بن أبى الحسن[4] حين أقبل ابن الأشعث، فكان الحسن ينهى عن الخروج على الحجّاج ويأمر بالكف، وكان سعيد بن أبى الحسن يحضض، فقال سعيد فيما يقول: ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غدًا فقلنا: والله ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه ولكنا نقمنا عليه استعمال الحجّاج فاعزله عنا؟، فلما فرغ سعيد من كلامه تكلم الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنه -والله- ما سلط الله عليكم الحجّاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم السكينة والتضرع، وأما ما ذكرت من ظنى بأهل الشام فإن ظنى بهم أن لو جاءوا فألقمهم الحجّاج دنياه لم يحملهم على أمر إلا ركبوه، هذا ظنى بهم[5]. وقدم عليه جماعة

(١) الفقهاء والخلفاء صـ ٧٨، ٧٩ .

(٢) آداب الشيخ الحسن البصرى لابن الجوزى صـ ١٢٠، ١٢١.

(٣) الطبقات الكبرى (٧/ ١٧٢).

(٤) هو أخو الحسن البصرى.

(٥) الطبقات الكبرى (٧/ ١٦٤).

من العلماء يناقشونه فى الخروج مع ابن الأشعث على الحجّاج، ويحاولون إقناعه بالخروج، ولكنه رفض الخروج وقال: أرى أن لا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادى عقوبة الله بأسيافكم. ولكنهم لم يسمعوا كلامه ولم يأخذوا برأيه، فخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا جميعًا[1]، وعندما أفتى رجلاً بعدم جواز الخروج على الحجّاج قال له الرجل: لقد كنت أعرفك سيئ القول فى الحجّاج غير راضٍ عن سيرته، فقال الحسن: وأيم الله إنى اليوم لأسوأ فيه رأيًا، وأكثر عتبًا، وأشد ذمًا، ولكن لتعلم -عفاك الله- أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالى، ونقم الله لا تلاقى بالسيوف، وإنما تتقى وتستدفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب[2].

ولما توفى الحجّاج وجاء خبر وفاته سجد الحسن وقال: اللهم عقيرك وأنت قتلته فاقطع عنا سنته وأرحنا من سنته وأعماله الخبيثة[3]، وكان يوضح للناس حقيقة ما يعيشه بعض الولاة من تقلبه فى عيش الفتنة بزخرف الحياة الفانية حتى لا يغتر بهم الناس، فكان يقول: هؤلاء ـ يعنى الملوك ـ وإن رقصت بهم الهماليج[4]، ووطىء الناس أعقابهم، فإن ذل المعصية فى قلوبهم، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم، ومنعنا الخروج عليهم، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم، فمن أراد به خيراً لزم ذلك وعمل به، ولم يخالفه[5]. وكان ينهى العامة عن القتال وحمل السلاح حين تقبل الفتن، فعن سلم بن أبى الذيال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد ما تقول فى الفتن مثل: يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين[6]، فكان يرى أنه يجب على المسلم الاعتزال وعدم المشاركة فى سفك دماء المسلمين، فلا يقاتل فى صفوف الخارجين على السلطة، ولا مع جيش الخليفة، إذا كان ظالمًا[7].

ب ـ وبالرغم من قوله بعدم الخروج على حكم بنى أمية، إلا أنه كان يرى وجوب الإنكار عليهم لظلمهم، واستئثارهم بالأموال، وتوليتهم الولاة الظلمة، كأمثال الحجّاج، وكان شديد الانتقاد للحكم الأموى، وخاصة سياسات الحجّاج فى العراق، وكان يواجه الحجّاج

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ١٦٤).

(٢) آداب الحسن البصرى لابن الجوزى صـ ١١٨.

(٣) حلية الأولياء (٢/ ١٥٩).

(٤) الهماليج: من البراذين . الكلمة فارسية معربة .

(٥) آداب الحسن البصرى صـ١٢١ .

(٦) الطبقات (٧/ ١٦٤).

(٧) الفقهاء والخلفاء ص٧٩.

بانتقاداته غير خائف من بطشه[١]، وعن ميمون بن مهران قال: بعث الحجّاج إلى الحسن وقد همّ به، فلما قام بين يديه قال: يا حجّاج، كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير، قال: فأين هم؟ قال: ماتوا. قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن.

وقال أيوب السختياني: إن الحجّاج أراد قتل الحسن مرارًا فعصمه الله منه[٢]، وكان يحذر العلماء من مخالطة السلاطين والحكام لكى لا يوهموا المسلمين برضاهم عن حكمهم، ولكى يشعروا الحكام بعدم رضاهم عن سياساتهم الجائرة. وكان يرى أن فى مخالطة العالم والمفتى للحاكم إذلالاً لمكانته العلمية، والاجتماعية، وكان يقول لبعض الفقهاء ممن كانوا يخالطون الأمراء: والله لو أنكم زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم وهابوكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم[٣]، ومع حرصه الشديد على عدم مخالطة الأمراء والحكام إلا أنه تولى القضاء فى البصرة فى عهد عمر بن عبد العزيز[٤]، نظرًا لعدل وحسن سيرة عمر بن عبد العزيز[٥]. إن منهج الحسن فى التعامل مع الحكام منهج وسط معتدل، فهو مع نهيه عن الخروج على الولاة وكرهه للمواجهة معهم لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة من سفك الدماء، وتفريق الأمة، وتعطيل الجهاد. .إلخ. إلا أن ذلك لا يفهم منه تبريره لأخطاء الولاة أو عدم إنكارها، بل كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٥ - أسباب فشل ثورة ابن الأشعث:

أ- عدم تمكن العلماء من السيطرة على مسار تلك الحركة: وذلك حين تطور الأمر وخلع الثائرون الخليفة عبد الملك بن مروان، فلم يتمكن العلماء من إقناع الناس بالحفاظ على الهدف الذى قامت الثورة لأجله، وهو خلع الحجّاج، بل ربما جر بعض العلماء إلى القناعة بهذا المسار الجديد، وتأكد فشل العلماء فى عدم محافظتهم على الهدف الرئيس للحركة، وذلك حينما عرض عبد الملك على الثائرين عزل الحجّاج، ولكن الزهو والعجب بما تحقق من انتصارات أدى إلى رفض ذلك العرض من الخليفة، ولم يتمكن العلماء من إقناع الثائرين بقبوله.

ب- تحكم أصحاب الدوافع الإقليمية والمذهبية فى مسارها: استطاع أصحاب الدوافع الإقليمية والميول المذهبية أن يسيروا بالحركة نحو التخلص من بنى أمية.

(١) موسوعة فقه الحسن البصرى (١/ ١٣). (٢) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٣، ٥٤٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٦).
(٤) الفقهاء والخلفاء صـ٨٠، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٢). (٥) الفقهاء والخلفاء صـ٨٠.

ج- عدم امتلاك الثورة لرؤية كاملة: فقد أصبح العلماء يسيرون فى طريق غير واضح المعالم، سوى تحقيق الانتصار على جيوش الأمويين، ولكن ماذا بعد؟ هل بالإمكان تغيير الخليفة بالانتصار على جيوش الأمويين فى العراق، وهل يستسلم الشام بهذه السهولة، أو تقر الأقطار الإسلامية ذلك؟ وهل يكون ابن الأشعث هو الخليفة للمسلمين فى حالة القضاء على عبد الملك، لقد دخلت الثورة فى طريق شائك معقد بمجرد رفضها عرض الخليفة بعزل الحجّاج، واضطربت أهدافها مما أدى إلى وأدها وفشلها، وانتصار جيوش الخليفة عليها(1).

د- ذكاء الخليفة عبد الملك ودعمه المستمر بالجيوش للحجّاج: فقد مال للصفح والمسالمة والمسامحة، ولبى طلب أهل العراق فى عزل الحجّاج من أجل حقن الدماء وتوفير الجهود والحفاظ على الجبهة الداخلية الواحدة المتراصة، وكان عرضه على ابن الأشعث فى عزل الحجّاج كسبًا سياسيًا له حيث تبلبل صف ثورة ابن الأشعث واختلفت الآراء، وكان عبد الملك فى نفس الوقت قد أعد جيشين من أهل الشام، وسلم القيادة لأقرب الناس إليه، إلى أخيه وولده وأمرهما بالتقيد بأوامر والى العراق(2).

إن إعداد العساكر المقاتلة والقادة وتزويدهم بكل ما يحتاجون ثم تكليفهم بالمفاوضة مع ابن الأشعث، منحت الثقة لابنه وأخيه، وهزت قرارة نفوس العراقيين، وهذا من رباطة جأش الخليفة، فكأنما قد قدّم جرعة كبيرة من الحرب النفسية، الأمر الذى أدخل الرهبة فى نفس المفاوض الأول حتى مالت نفس ابن الأشعث للرضوخ لولا أصحابه، كما أكسبت الثقة للجنود الشاميين فكانوا يقاتلون ببسالة، ومن هنا يظهر دور الخليفة فى كبح الحجّاج حينًا، وفى إعداد الجيش حينًا آخر، فلولاه لما كان بالإمكان القضاء على هذه الانتفاضة، وبهذا القدر من الجهد، ويعود ذلك إلى السياسة المتجددة، القائمة على أصول من الفهم الكامل لخطط الخليفة البعيدة المدى، فقد كان رجل دولة من الطراز الأول يملك خطة مستقبلية لدولة قادرة على وضع أهدافها التكتيكية والاستراتيجية من أجل بناء دولة القوة والمنعة(3) على أسس راسخة من الملك العضوض.

هـ- القيادة لم تكن بيد العلماء وإنما بيد الأشعث.

و- عدم وجود تنظيم قوى يتحكم فى توجيه الثوار وفق الأهداف المرسومة من القادة.

---

(1) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ587 .

(2) تجديد الدولة الأموية فى عهد الخليفة عبد الملك صـ132 .   (3) المصدر نفسه ص133 .

ز- شخصية ابن الأشعث وطبيعة جيشه: لم تكن شخصية ابن الأشعث تملك الصفات القيادية من بعد نظر، وثاقب فكر، وتقدير للأمور، وثبات فى المواقف، فقد وقع فى شباك رتبيل، وباعه للحجّاج مقابل مصالحه وتحالف مع الكفّار ضد المسلمين، ولم يستطع أن يقود جيشه كما يريد بل انقاد لعواطف ومشاعر الجنود، فأودت به إلى حتفه، كما أن جيشه لم يكن ينقصه عدد أو عدة، ولكن حماسهم خفّ بسبب طول انتظارهم، ولم تكن لهم طاعة قوية لرؤسائهم، بعكس أهل الشام الذين كانوا جندًا نظاميين بكل ما لهذه الكلمة من معانٍ[1]، وهذه أبيات من الشعر تصوّر حزنهم واعترافهم بأنهم لم يصبروا ويدافعوا حق المدافعة عن دنياهم التى أضاعوها بتفريطهم:

أيا لهفًا ويا حزنًا جميعًا ... ويا حر الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعًا ... وأسلمنا الحلائل والبنينا
فما كنا أناسًا أهل دين ... فنصبر فى البلاء إذا ابتلينا
وما كنا أناسًا أهل دنيا ... فنمنعها ولو لم نرجُ دينا
تركنا دورنا لطغام عَكٍ ... وأنباط القرى والأشعَرينا[2]

٦ ـ من نتائج فشل ثورة ابن الأشعث:

أ ـ ازدياد تسلط الحجّاج: ترتب على فشل نتائج ثورة ابن الأشعث نتائج خطيرة وسيئة، فقد زاد انتصار الحجّاج فى النهاية على الثوار من تسلطه وتجبره، واشتد أكثر فى تضييقه على العلماء، فقتل من قتل منهم، وسجن من سجن منهم، وهرب من وجهه من استطاع[3].

ب ـ ندم الكثير من العلماء: وندم الكثير من العلماء المشاركين فى ثورة ابن الأشعث، فهذا طلحة بن مصرف يقول: شهدت الجماجم، فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت، ولوددت أن هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها[4]، وعن محمد بن طلحة قال: رآنى زبيد اليامى مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك فقال: لو شهدت الجماجم ما ضحكت ولوددت أن يدى ـ أو قال: يمينى -قطعت من العضد وأنى لم أكن شهدت[5]، كما ندم عقبة بن عبد الغافر على مشاركته فى القتال كذلك، وغيرهم من العلماء.

(١) تاريخ خلافة بنى أمية صـ ١٧٧.
(٢) تاريخ الطبرى (٧/٢٦٦).
(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٥٨٨.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٢).
(٥) تاريخ خليفة صـ ٢٨٧.

جـ ـ انتصار رأى العلماء القائلين بعدم الخروج: علت منزلة العلماء الذين اعتزلوا تلك الفتنة ولم يشاركوا فيها، فعن ابن عون قال: كان مسلم بن يسار أرفع عند أهل البصرة من الحسن حتى خف مع ابن الأشعث وكف الحسن، فلم يزل أبو سعيد ـ يعنى الحسن ـ فى علو منها[1] – وقد أسهمت حركة ابن الأشعث ـ بنهايتها بتلك الصورة ـ فى إقناع كثير ممن كان يرى استخدام القوة وحمل السيف لتغيير الجور والظلم الواقع من الولاة بعدم جدواها، ولذلك قال ابن تيمية عقب الحديث عما حدث من فتن وقعت باجتهاد من بعض أهل العلم والصلاح، كخروج الحسين بن على رضى الله عنه، وفتنة خروج أهل المدينة، ووقعة الحرّة، وفتنة ابن الأشعث قال: ولهذا استقر مذهب أهل السنة على ترك القتال فى الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبىﷺ ، وصاروا يذكرون هذا فى عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم[2]، وقال ابن حجر فى ترجمة أحد هؤلاء الذين كانوا يرون السّيف: كان يرى الخروج بالسّيف على أئمة الجور، وهذا مذهب للسّلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك؛ لما رأوه أفضى إلى أشدّ منه، ففى وقعة الحرّة ووقعة ابن الأشعث ـ يعنى: دير الجماجم ـ وغيرهما عظة لمن تدبر[3].

د- ظهور بدعة الإرجاء: أو نوع منه وهو ما يسمى«إرجاء الفقهاء» نسبة إلى بعض الفقهاء الذين يقولون بأن الإيمان قول بلا عمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، فالإيمان عندهم واحد يستوى فيه كل من اعتقده بقلبه وقال بلسانه، حيث يخرجون الأعمال ـ التى يتفاضل فيها المؤمنون ـ عن الإيمان، فيستوى عندهم إيمان الصادقين الأولين كأبى بكر وعمر، وإيمان أفجر الناس كالحجّاج، وأبى مسلم الخراسانى وغيرهما[4]، والذى دعا إلى الربط بين ظهور ذلك النوع من الإرجاء وحركة ابن الأشعث ما يشير إليه كثير من الذين كتبوا عن تاريخ الفرق؛ حيث اشتهر عندهم قول قتادة: إنما أحدث الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث[5]، وذكروا أن الكوفة كانت موطن الإرجاء الأول ثم انتشر منها إلى سائر الأقطار[6].

ويقول الدكتور ناصر العقل: أول ما ظهرت بدعة الإرجاء بعد فتنة ابن الأشعث سنة (٨٣هـ)[7]، وهو إرجاء العمل عن الإيمان ويسمى «إرجاء الفقهاء»، وأول من قال به هو:

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ١٦٥) .

(٢) منهاج السنة (٤/ ٥٢٩، ٥٣٠)، الإمامة العظمى صـ٥١٢.

(٣) تهذيب التهذيب (٢/ ٢٥٠). (٤) الفتاوى (٧/ ١٩٥).

(٥) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٨٩) .

(٦) الفتاوى (٧/ ٣١١)، القدرية والمرجئة للعقل صـ ٨٦، ١١٦.

(٧) السنة لعبد الله بن حنبل (١/ ٣٠٩).

ذر بن عبد الله المرهبى الهمدانى، مات قبل المائة[1]، ثم ظهور القول بأن الإيمان قول، وأول من قال ذلك حماد بن أبى سليمان[2]، ت ١٢٠هـ، واستقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس كلها مخالفة لقول السلف وهى:

- زعمهم أن العمل لا يدخل فى مسمى الإيمان، وأن الإيمان هو التصديق.
- زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.
- زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء فى الإيمان[3].

ويقال أن ذرًا بن عبد الله المرهبى - وكان ممن شارك فى فتنة ابن الأشعث - بعد الهزيمة أصيب بردة فعل جعلته يتحول من تكفير الحجّاج وقتاله إلى اتجاه معاكس، وهو الإرجاء الذى يسوى فيه أصحابه بين إيمان الحجّاج وإيمان غيره، ولو كان من أعبد الناس وأتقاهم لله[4]. ويقول طاووس بن كسيان - منتقدًا ذرًا المرهبى ومن سلك مسلكه من الفقهاء: عجبت لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجّاج مؤمنًا. قال الذهبى معلقًا على قول الطاووس: قلت: يشير إلى المرجئة منهم، الذين يقولون: هو مؤمن كامل الإيمان مع عسفه وسفكه الدماء وسبه الصحابة[5]، وهكذا دأب الفتن فإنها غالبًا ما تفرز بعدها بعض التوجهات المنحرفة أو المواقف المتضاربة تجاه أمر معين، حيث لا يسلم من ذلك إلا من عصمه الله بنور الإيمان ورسوخ العلم، جعلنا الله منهم[6].

٧ - ممن عفا الحجاج عنهم الشعبى وأسيران:

أمر الحجّاج بعد انتهاء دير الجماجم مناديه أن يقول: من لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو آمن، فكان الشعبى من الذين توجهوا إلى الرى فذكره الحجّاج يومًا وسأل عنه فعلم بلحوقه بالرى، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبى إليه، فأرسله إليه فلما قدم على الحجّاج لقيه يزيد بن أبى مسلم - حاجب الحجّاج - وكان صديقًا للشعبى - فقال له الشعبى: أشر علىّ. فقال يزيد: اعتذر ما استطعت، وقال الشعبى: وأشار بمثل ذلك إخوانى ونصحائى، فلما دخلت على الحجّاج رأيت غير ما ذكروا لى، فسلمت عليه بالإمرة وقلت: أيها الأمير، إن الناس قد أمرونى أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلا الحق، قد والله مردنا عليك، وحرّضنا وجهدنا، فما كنّا بالأقوياء

(١) السنة، لعبد الله (١/ ٣٢٩).
(٢) الفتاوى (٧/ ٢٩٧، ٣١١).
(٣) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع صـ٢٤٨.
(٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٩٢.
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٤).
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٥٩٣.

الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد، فالحجة لك علينا[1]. فقال الحجاج: أنت والله أحبّ إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبى، كيف وجدت الناس بعدَنا؟ فقلت: أصلح اللهُ الأمير، اكتحلت بعدك السحر، واستوعرت الجباب، واستحلست الخوف، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفًا. قال: انصرف يا شعبى، فانصرفت[2].

ولم يقتصر العفو على الشعبى لأنه فقيه أهل العراق فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم، فيروى أنه أتى بأسيرين، فأمر بقتلهما فقال أحدهما: إن لى عندك يدًا، قال: ما هى؟ قال: ذكر ابن الأشعث يومًا أمك بسوء فنهيته، فقال الحجّاج: ومن يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر، فسأله الحجّاج فصدقه، فقال له الحجّاج: لِمَ لم تفعل كما فعل؟ قال: ينفعنى الصدق عندك؟ قال: نعم، قال: منعنى البغض لك ولقومك. فقال الحجّاج: خلوا عن هذا لفعله، وعن هذا لصدقه[3].

٨ ـ توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية:

استطاع عبد الملك أن يقضى على كل الحركات الداخلية، وقد ذكرت أهم هذه الثورات، كثورة الأزارقة، والصفرية، وابن الأشعث، وهناك حركات أخرى ذكرتها كتب التاريخ كحركة مطرف بن المغيرة بن شعبة، وعبد الله بن الجارود، وحركة الأزد فى عمان، وفى نهاية المطاف تغلب عبد الملك عليها واحدة تلو الأخرى ووضع الأساليب المناسبة لتحقيق الأهداف المخططة لذلك. وقد أثبتت الأحداث قدرة الخليفة عبد الملك بن مروان على معرفة الأحداث معرفة جيدة، ثم السيطرة على هذه الأحداث والقدرة على احتوائها، باستئصال خصومه حينًا، والتسامح معهم حينًا آخر، ضمن خطة سياسية ومنهج قائم على أهداف واضحة، أدت إلى النتائج المتوخاة، وهى إعادة الوحدة السياسية مرّة أخرى، مما أدى إلى إيجاد علاقات جديدة مع الدولة البيزنطية، والقيام بفتوحات جديدة فى الشرق والغرب، ثم القيام بالعديد من الإصلاحات الجديدة، منحت سياسته الداخلية والخارجية قدرة على التخطيط الشامل الذى يؤدى إلى تحقيق الأهداف المنشودة[4].

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٦٥).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٦٦).
(٣) عيون الأخبار (١/ ٩٨)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه صـ٢٩٢.
(٤) تجديد الدولة الأموية صـ ١٣٤.

المبحث الثالث

النظام الإدارى فى عهد عبد الملك

اهتم عبد الملك بن مروان اهتمامًا خاصًا بإدارة شئون الدولة، وسار على نهج معاوية فى تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، وقد قام بتطوير الجهاز الإدارى وتنشيطه، وقام بتعريب الإدارة والنقد، وهو ما يعرف بحركة التعريب، كما استعان بنخبة من أمهر رجال عصره فى الإدارة والسياسة، فقد كرّس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتها، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان[1]، وقد أعاد عبد الملك تنظيم الحكم الأموى على أسس جديدة، واستفاد من سياسة معاوية ومن الأنظمة التى وضعها، ولكنّ نزعته للتفرد بالسلطان والحكم جعلته يخالف معاوية رضى الله عنه فى كثير من الأمور، فمعاوية كان يُشعر جلساءه وقواده وولاته على الأقطار أن لهم الحرية فى النقد والقول، والرأى، أما عبد الملك فلا يشعرهم بشىء من ذلك، فهم بين يديه ليسيروا على هواه، وليقدم إليهم الأوامر فينفذوها، فما كان يسمح لجلسائه بأن يجتزئوا من سلطانه شيئًا، وقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد ونظم وسائل الحكم تنظيمًا جعله السيد المتفرد فى دولته، ويبدو أن نظرته للنظام شملت النواحى الآتية:

- دواوين الدولة: فهى الأسلاك التى تدير دفة الحكم والأمة.
- الولاة: فهم الذين ينفذون سياسة الدولة ويضبطون الملك.
- البريد: فهو الذى يوصل بين أطراف الدولة[2].

وتلك النظرة تشير إلى مبدأ فى السيطرة، فالأمور المذكورة إنما هى أسلاك وخيوط فى يده يحرك بها أجزاء خلافته ويستخدمها لسلطانه[3].

وإليك أهم معالم التطوير الإدارى فى عهد عبد الملك.

أولاً: الدواوين:

١ - **ديوان الرسائل**: وقد تطور هذا الديوان كثيرًا فى عهد عبد الملك، وازدادت أهميته بشكل واضح ولا سيما أثناء ولاية الحجاج للعراق، نظرًا للمستجدات السياسية والعسكرية

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٥٣.

(٢)، (٣) الدولة الأموية، يوسف العش صـ٢٢٩.

ووجود المتمردين والخارجين على الدولة، مما استوجب متابعة أخبارهم، فكان الخليفة عبد الملك يكتب للحجاج بشأنهم، مما كان باعثًا مهمًا لازدهار ديوان الرسائل والكتابة، فكانت هذه الرسائل تصدر من الديوان بشكل مستمر إلى من يهمه الأمر لمعالجة أوضاع تلك الاضطرابات(١)، حيث إن الخليفة عبد الملك كان غالبًا ما يلجأ إلى المكاتبات السياسية فى محاولة منه أن يفت فى عضد قادة الحركات، فقد راسل -وقبل اجتماع الأمة عليه- مصعب بن الزبير، وابن الأشتر(٢)، كما كان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية إلى ولاته وقادته، وكان من الطبيعى أن تزداد مراسلات الحجاج إلى ولاته وقادته ومراسلاتهم إليه كالمهلب بن أبى صفرة مثلاً(٣)، ويلاحظ كثرة التواقيع(٤) فى مراسلات الخليفة عبد الملك مع الحجاج بن يوسف الثقفى، والتى تؤكد أهمية ديوان الرسائل وتطوره، وتوضح فى جانب منها طبيعة سياسة الخليفة الإدارية، فوقع مثلاً فى كتاب أرسله إلى الحجاج: جنبنى دماء ابن عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب(٥)، وجاء فى كتاب للحجاج: ارفق بهم فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ومع الخرق ما تحب(٦)، ونظرا لأهمية الرسائل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك الحجاج لم يستخدما فى هذا الديوان إلا من هو موضع ثقة وأمانة وإخلاص، كما اختير الكتاب الحاذقون الذين يجمعون بين الخبرة الإدارية وكتابة الرسائل وإجادة أسلوب المخاطبة، ومن أشهر من استخدمهم الخليفة عبد الملك قبيصة بن ذؤيب، وبلغ من علو مكانته أنه كان يطلع على الكتب الواردة إلى الخليفة قبل أن يعرضها على الخليفة نفسه.(٧) ومن كتابه المشهورين روح بن زنباع الجذامى، وكان روح هذا على جانب كبير من العلم والأمانة إذ كان يقول فيه عبد الملك: ما أعطى أحد ما أعطى أبو زرعة، وكان يقال عنه: أعطى فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام(٨)، والحق أن عبد الملك سلسل الأمور فى أعمال الدولة تسلسلاً دقيقًا ووضع فى ديوان الرسائل موظفين عارفين، وعلى رأسهم مستشاره الخاص، يستشيره فى الرسائل التى يرسلها إلى الأقطار والتى ترد منها(٩).

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٣٧.

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية ص١٣٧.

(٣) الأخبار الطوال صـ٢٧٧ـ ٢٨٠، نهاية الأرب (٧/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ص١٣٧.

(٥) العقد الفريد (٤/ ٢٠٧).

(٦) خاص الخاص للثعالبى ص٨٧.

(٧) أنساب الأشراف للبلاذرى (٥/ ٣٥٦).

(٨) البيان والتبيين (٢/ ٧٧)، الإصلاحات المالية ص١٣٨.

(٩) الدولة الأموية، يوسف العشى صـ٢٣٠.

٢ ـ ديوان العطاء: أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان أهمية العطاء، وبدأ العطاء فى عهده يرتبط بشكل واضح بالنواحى العسكرية والسياسية. ففى سنة ٦٩ هـ، خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير، فتخلف بعض من أهل الشام عن الخروج معه، فأخذ خمس أموالهم من عطاء سنة ٧٠ هـ على الرغم من حبه العميق لهم[١]، كما كان عبد الملك يضطر أحيانًا وتحت ضغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس آخرين فى الديوان، كما فعل حين تمرد الجراجمة ، إذ أعلن قائده سحيم بن المهاجر على لسان الخليفة: من أتانا من العبيد فهو حر ويثبت فى الديوان، فانفض إليه خلق كثير[٢]، كما استخدم سلاح زيادة العطاء أيضًا ضد عبد الله بن الزبير، حينما نادى الحجاج جنده قائلاً: يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك[٣].

وقد حدث تطور مهم لديوان الجند فى عهد عبد الملك فى العراق خاصة، وذلك حينما بدأ الجند يتقاعسون عن الخروج، لقتال الخوارج، فعين عبد الملك الحجاج على العراق، وأمره أن يعيد تنظيم ديوان الجند، وتنظيم العطاء فيه على أساس المقدرة والكفاءة، فأعاد الحجاج تنظيم ذلك على أسس دقيقة[٤]، ثم أمر بإعطاء الناس عطاءهم، والتوجه لجبهات القتال، وتوعد المتخلفين منهم بالموت[٥]، كما لم يقبل إعفاء جندى من الخروج للقتال مقابل تركه عطاءه[٦]، وقد استخدم الخليفة عبد الملك العطاء وسيلة للقضاء على الفتنة، فقد كتب يومًا إلى الحجاج، أن يصف له الفتنة فوصفها له: فكتب إليه عبد الملك: فإن أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة وأعطهم عطاء الفرقة[٧]، وكان الحجاج يصرف العطاء بأكمله لجنده فى أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال، كما فعل حينما أعطى الناس أعطياتهم كاملة عند تجهيز جيش الطواويس لقتال رتبيل[٨]، ومن ناحية أخرى، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، كان يكرم من أسدى خدمة عسكرية للدولة أو أظهر بطولة وشجاعة فى جبهات القتال، فقد كرّم موسى بن نصير حينما حرر إفريقية سنة ٨٣هـ[٩]، كما كرّم الحجاج المهلب بن أبى صفرة وأصحابه

(١) سراج الملوك، للطرطوش ص١١٨.
(٢) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الإصلاحات المالية والإدارية ص١٣١.
(٣) الإصلاحات المالية والإدارية ص١٣١.
(٤) العراق فى عهد الحجاج، طه عبد الواحد صـ١٢٦، ١٢٧ .
(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ١٣٢ .
(٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٣٢.
(٧) مروج الذهب (٣/ ١٢٦).
(٨) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ١٣٢.
(٩) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٣٢.

لجهودهم فى القضاء على الخوارج الأزارقة، إذ أحسن عطاياهم وزاد فى أعطياتهم ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال، هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء[1]، وأما إدارة هذا الديوان، فكان من أشهر من تولاه للخليفة عبد الملك بن مروان هو سرجون بن منصور الذى تولى ديوانى الجند والخراج فى دمشق[2]، ثم عزله الخليفة وعين بدله سليمان بن سعد الخشنى[3].

٣ ـ **ديوان الخراج**: كما ذكرنا قبل قليل، أن سرجون بن منصور كان قد تولى إدارة ديوان الخراج والجند على عهد الخليفة عبد الملك[4]، ثم عزله وعين بدله سليمان بن سعد الخشنى[5]، وكان يساعد صاحب الخراج عدد غير قليل من الكتّاب والموظفين، إذ كان بديوان خراج مصر حوالى أربعة وأربعين موظفًا[6]، ويبدو أن متولى الخراج كان يحصل على أموال طائلة من عمله، مثل «أثيناس» متولى الخراج فى مصر على عهد عبد الملك، حيث كان واسع السلطات عظيم النفوذ[7]، وكان أشهر من تولى ديوان خراج العراق هو (زادان فروخ)[8] ثم صالح بن عبد الرحمن[9].

٤ ـ **ديوان الخاتم**: فى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان تطور ديوان الخاتم، فأصبح إدارة منظمة، كما نشأت فى هذه الفترة دار للمحفوظات الحكومية فى دمشق[10]، ومن المحتمل أن هذا الديوان لم يقتصر على العاصمة دمشق، بل ربما وجد فى باقى الولايات خصوصًا بعد التنظيم الإدارى الواسع الذى قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك لكثرة المراسلات مع الولايات المختلفة وأهميتها السياسية، ولا سيما مع العراق، وكان الخليفة عبد الملك لا يولى هذا الديوان إلا أوثق الناس عنده[11].

٥ ـ **ديوان الطراز**: يراد بالطراز فى الأصل التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، لا سيما إذا كان فيها شىء من التطريز، وعليه أشرطة من الكتابة،

---

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية ص١٣٣. (٢) الوزراء، للجهشيارى صـ٤٠.

(٣) الوزراء، للجهشيارى صـ٤٥ نقلاً عن الإصلاحات المالية ص١٣٣.

(٤) الوزراء، للجهشيارى صـ٤٥ نقلاً عن الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٣٤.

(٥) التنبيه للمسعود صـ٢٧٣، الإصلاحات المالية صـ١٣٤.

(٦)، (٧)، (٨) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٣٥.

(٩) المصدر نفسه صـ١٣٥ نقلاً عن الكامل فى التاريخ.

(١٠) الإدارة العربية، للحسينى صـ٦٩.

(١١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ص٤١.

ثم اتسع مدلول الطراز، فأصبح يطلق على المصنع والمكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات[1]، وفى العصر الأموى ارتفع المستوى المعيشى، فزادت عناية الناس بمظاهر الترف والأبهة، لذلك أنشأ الأمويون عددًا من المصانع عرفت بدور الطراز[2]، وقد اهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالطراز، فنظمت صناعته بشكل واسع وأصبح أساسًا لما حدث من نهضة فى صناعة النسيج، وبخاصة زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك[3].

٦ - **ديوان البريد:** عندما تولى الخلافة عبد الملك طوّر الأجهزة التى تساعده على جمع المعلومات، ولذلك اعتنى بشكل كبير بالبريد بوصفه وسيلة مهمة من وسائل ضبط دولته وانتظام أمورها، فطوّره ونظمه وأرسى قواعده[4]، فلم يعد وسيلة لنقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات بطريقة تبادل الخيل وحسب، بل أصبح وسيلة مهمة فى العمليات العسكرية، ونقل الأشخاص المهمين والمواد المختلفة، باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة، كما أصبح عينًا للخليفة فى نقل أخبار الإقليم والعمال وشكاوى الناس من عمالهم وموظفى الدولة هناك، ومن أجل تسهيل عمل البريد وانتظامه وسرعته، قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتنظيم طرق البريد، وتحديدها وتثبيتها، فقام ببناء الأميال فى الطرقات[5]، كعلامات دلالة للطرق وتحديد مسافاتها، ومما يؤكد ذلك، ما وصل إلينا من نقوش معاصرة للخليفة عبد الملك، كشفت بالقرب من بيت المقدس تشير إلى أوامره بعمل هذه الأميال[6]، فقد بذل الخليفة عبد الملك عناية فائقة فى تنظيم الطرق وصيانتها، فأصبحت تخترق الدولة طرق عديدة أقيمت على طولها محطات للبريد[7]، وقد أفاد الخليفة عبد الملك فائدة كبيرة من البريد خصوصًا فى الجوانب العسكرية، سواء كان ذلك بإرسال الجند، والإمدادات والأوامر إلى قادة جنده، أو فى نقل أخبار المعارك والتحركات العسكرية إليه[8]، وإدراكًا من الخليفة عبد الملك لأهمية البريد وكسبًا للوقت فقد جعل على هذا الديوان أخص خاصته وهو قبيصة بن ذؤيب، وأمر بألا يُحجب أى ساعة جاء من ليل أو نهار[9]، وتأكيدًا لذلك فقد منع عبد الملك حاجبه أن يحجب صاحب البريد، قائلاً له: وليتك ما خلف بابى إلا أربعة: . . والبريد متى جاء من ليل أو نهار فلا يحجب، وربما أفسد على القوم تدبير

(١) الإصلاحات المالية ص١٥٦.
(٢) المدخل، ناجى معروف صـ١١٥.
(٣) النسيج الإسلامى، سعاد ماهر، صـ٢٥ .
(٤) الأوائل للعسكرى صـ١٩١ .
(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٤٥ .
(٦) المصدر نفسه صـ١٤٥ .
(٧) تاريخ القدس للعارف صـ٥٢.
(٨) الإصلاحات المالية صـ١٤٦.
(٩) الطبقات (٥/١٧٦)، (٥/٢٣٤).

سُنتهم[١]، حبسهم البريد ساعة[٢]، ونتيجة ذلك أن انتظم البريد وأصبح الخليفة يطلع بشكل يومى على تفاصيل الأحداث[٣]، وقد استخدم البريد فى عصر عبد الملك أيضًا فى حمل الأشخاص، ومن مختلف المستويات كالولاة والكتاب والشعراء وغيرهم، كما حمل كتب التأييد والرضا عن الخليفة من الأشخاص المهمين[٤]، وكان الحجّاج هو أيضًا دائم الصلة بقواده فى جبهات القتال، ويتسمع أخبارهم بواسطة البريد، فكانت كتب الحجّاج ترد على محمد بن القاسم الثقفى، وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قِبَله واستطلاع رأيه فيما يعمل به فى كل ثلاثة أيام[٥]، ووصول الكتب بهذه السرعة يدل على التنظيم الرائع للبريد[٦].

ومن وسائل الاتصال والمخابرة الجديدة التى استخدمها الحجّاج فى الأحوال العسكرية خاصة لإيصال الأخبار بين واسط وقزوين بسرعة، هو بناء المناظر والمنائر التى توضع على المرتفعات العالية حيث تنقل الإشارات بواسطتها عن طريق إشعال النار أو الدخان، فيصل الخبر بسرعة عن طريق انتقاله من منظرة لأخرى، وقد وضح ياقوت الحموى ذلك بقوله: . . وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهارًا، وإن كان ليلاً أشعلوا نيرانًا وتجرد الخيل إليه، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط[٧]، ويبدو أن ما كان ينفقه عبد الملك على إدارة البريد لم يكن قليلاً لاسيما أنه قد بذل جهودًا كبيرة لتطويره وتنظيمه[٨]، ويمكن القول بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من عمل ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، وهذا لا يعنى عدم وجود البريد المنتظم فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان إلا أنه لم يكن ديوانًا متكاملاً مستقلاً، خصوصًا أن مصادرنا التاريخية، لا تذكر البريد بوصفه ديوانًا إلا فى عهد عبد الملك بن مروان[٩]، فالبريد فى نظر عبد الملك عصب الدولة الحساس، ولذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده[١٠].

ثانيًا: تعريب الدواوين وأسبابه والنتائج التى ترتبت عليه:

جاءت عملية تعريب الدواوين ضمن الخطة المرسومة لسياسة الدولة الإصلاحية التى بدأها الخليفة عبد الملك بن مروان، وأكملها الخلفاء الذين جاءوا من بعده، والتى تضمنت

(١) سنتهم: طريقتهم . (٢) الأوائل صـ١٩١، الإصلاحات المالية صـ١٤٧ .

(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٤٧ .

(٤) الأخبار الطوال صـ٣٢٤، الإصلاحات المالية صـ ١٤٨ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذرى صـ ٤٢٤ . (٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٤٨ .

(٧) معجم البلدان (٥/ ٣٥٠). (٨)، (٩) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٤٩ .

(١٠) الدولة الأموية، العشى صـ ٢٣٦.

نقل الدواوين من اللغات الأجنبية، الفارسية، واليونانية، والقبطية إلى اللغة العربية لإزالة النفوذ الأجنبى من مؤسسات الدولة الإدارية والمالية، وعملية التعريب التى ابتدأها عبد الملك تعتبر من الأحداث العظيمة والجليلة التى قام بها عبد الملك وفق خطة شاملة.

وكان لتعريب المؤسسات الإدارية (الدواوين) أسباب كثيرة منها:

١- إن دخول شعوب وأقوام مختلفة اللغات والديانات إلى الإسلام يعنى حاجة هؤلاء الماسة إلى التفقه بالدين وقراءة القرآن الكريم، مما شدد الصراع بين اللغة العربية واللغات الأخرى، ومن ثم إلى شيوع اللحن، لذلك اعتنى عبد الملك وواليه الحجّاج بن يوسف، بضبط قراءة القرآن، عن طريق تمييز الحروف المتشابهة بوضع النقط عليها[١]، لذلك كان التعريب ضرورة ملحة، وكان الحرص على سلامة اللغة العربية من العوامل المهمة التى أدت تعريب الدواوين فى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان[٢].

٢- كان الخليفة عبد الملك يهدف من وراء التعريب إلى تحقيق وحدة الدولة وتماسكها، إذ أن اختلاف لغات الدواوين يكرّس اختلاف النظم المالية والإدارية، ويعيق عملية تنظيم وتوحيد إدارة الدولة، كما أن تعريب الدواوين يعنى إنهاء التأثيرات الشعوبية والعنصرية، مما يؤكد سيادة الدولة سياسيًا على البلاد المفتوحة.

٣- إن استعمال اللغات الأجنبية فى الدواوين يعنى بقاء هذه اللغات حية وكأنها رسمية، فيتعلمها الناس لحاجة الدولة إليها لكونها طريقًا لتولى الوظائف الكبيرة، وينتج عن ذلك استمرار منافسة هذه اللغات اللغة العربية، مما يضعف من شأنها، ويضعف كيان الدولة الأموية، ولذلك كان التعريب جزءًا من سياسة عبد الملك بن مروان الهادفة إلى إعادة تنظيم جهاز الدولة الإدارى، وتحقيق شخصية الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبى[٣].

٤- كان للعوامل الاقتصادية أثر مهم فى تعريب الدواوين، فقد كان متولى هذه الدواوين يحصلون على أموال طائلة من عملهم هذا، لذلك كان تعريب دواوين الخراج خطوة أولى باتجاه إعادة تنظيم طريقة جباية الضرائب فى الأقاليم، وبذلك يمكن ضبط أعمال تلك الدواوين والإشراف بدقة عليها، فيمنع الغش والتزوير، أى أن تعريب الدواوين هو جزء من خطة الإصلاح المالى الذى كانت الدولة بحاجة شديدة إليه إذ ذاك[٤]، ولاسيما فى العراق أهم أقاليم الدولة الأموية اقتصاديًا، حيث حاول الحجّاج بن يوسف الثقفى

(١)، (٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ ١٦٩.

(٣)، (٤) المصدر نفسه صـ ١٦٨.

معالجة الأوضاع الاقتصادية وذلك بالسيطرة على الشئون الإدارية عن طريق السيطرة على سجلات الدواوين المالية[1]، هذه هى أهم الأسباب التى دعت عبد الملك ليعرّب الدواوين.

*** نتائج تعريب الدواوين:**

حققت حركة تعريب الدواوين على يد الخليفة عبد الملك بن مروان نتائج ذات آثار عظيمة فى جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية، ما زالت نتائجها شاخصة للعيان حتى اليوم، ويمكن تحديد نتائج حركة التعريب بما يأتى:

١ـ تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية فى الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، إذ أصبحت لغة الدين الإسلامى، لغة السياسة والدين والعلم، وأصبحت مادة التفاهم اليومى فى كل أنحاء الدولة، فانتشرت الثقافة العربية التى طغت على الثقافات الأخرى، وتفاعلت معها وأذابتها وحلت محلها، إذ اعتبر التعريب من الأحداث الكبيرة والإنجازات الضخمة فى المجال الثقافى والسياسى وقد تمّ وفق خطة مدروسة.

٢ـ ظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالى حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم فى إدارة الدواوين، إذ كان لصالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة فى ذلك، حيث يقول عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: لله در صالح، ما أعظم منّته على الكتّاب[2]، وبذلك كان عامّة كتاب العراق تلامذة صالح، ومن هؤلاء قحذم بن أبى سليم وشيبة بن أيمن، والمغيرة وسعيد ابنا عطية ومروان بن إياس[3].

٣ـ ظهور حركة الترجمة، من اللغات الأجنبية إلى العربية، حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتم بالترجمة، مثل خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان المتوفى ٨٥هـ، فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية[4].

٤ـ كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل فى انتشار اللغة العربية[5]، كما أن أجزاء كثيرة من العالم الإسلامى ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربية ثمرة لجهود عبد الملك[6]، فاللغة العربية هى الأداة التى

(١) الإصلاحات المالية صـ ١٦٨ . .
(٢) الفهرست، لابن النديم صـ٣٠٣.
(٣) الوزراء والكتاب، للجهشيارى صـ٣٩.
(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٧٩.
(٥) عبد الملك بن مروان، للريس صـ٢٨٦.
(٦) التاريخ السياسى، عبد المنعم ماجد (٢/١٦٢).

جعلت مجتمع العرب يتسع رويدًا رويدًا حتى صارت حدوده تمتد من الخليج العربى شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا(١).

٥- تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحى المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب، أى أسهم ذلك فى نجاح الدولة بخطه الإصلاحى.

٦- اتجه الموالى لتعليم اللغة العربية لكونها الطريق التى تؤدى إلى الوظائف والمناصب العالية، كما أدى من جهة أخرى إلى إشاعة اللحن فى اللغة، مما دعا الحجّاج إلى معالجة ذلك، ثم اندفع الموالى للتخلص من اللحن والخطأ وتعلم النحو ودراسته، فحدثت نهضة لغوية واسعة، وهذا يفسر لنا ظهور علماء كبار من الموالى فى العصر الأموى ثم العصر العباسى.

٧- إيجاد نظام إدارى موحد وشامل، وللدلالة على حسن هذا النظام أن اتخذه العباسيون، فقد كانت الإدارة عندهم تطوراً للإدارة عند الأمويين(٢)، هذه هى أهم نتائج حركة التعريب التى قام بها عبد الملك بن مروان.

ثالثًا: إدارة الأقاليم فى عهد الخليفة عبد الملك:

عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (٧٣ ـ ٨٦هـ) قام بتنظيم دواوين الدولة ومؤسساتها، كما قام بتنظيم إدارة الأقاليم، وأعاد النظر فى تقسيمها وترتيبها، آخذًا بنظرة تغير الحياة وتطورها بمختلف أوجهها، وكانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، ويرأس كل إقليم أمير، يكون تعيينه وعزله من الخليفة، ويملك هذا الأمير سلطات واسعة فى إدارة إقليمه، فهو الذى يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، كما يعين الموظفين أيضًا، وهو المسئول عن تنظيم الجند، وتجهيز الحملات العسكرية، وغالبًا ما يقودها بنفسه أو ينيب عنه قائدًا لذلك، وكان له الإشراف على سك النقود أيضًا، وكان بجانب الأمير(٣)، موظف له أهمية كبيرة هو صاحب الخراج، فالوالى يدير الشئون السياسية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشئون المالية، ويكون صاحب الخراج بمثابة الرقيب

(١) الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد صـ١٥.

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ص ١٨٠.

(٣) كان حكام الأقاليم يسمون فى أول الأمر: عمالاً ثم استعملت فيما بعد كلمة وال، ثم أطلقت عليهم كذلك كلمة أمير. وتطور هذا اللفظ على هذا النحو: عامل، فوال، فأمير، يدل على أن سلطة هؤلاء الحكام بدأت محدودة ثم أخذت تتسع حتى أصبحت سلطاتهم عظيمة، فالعامل لم يكن مطلق السلطة، والوالى كان نفوذه واسعًا، والأمير كان نفوذه أوسع.

على الوالى، ويعين صاحب الخراج هذا من الخليفة، وقد تحصل مواجهة تصادم بين الوالى وصاحب الخراج، وكذلك كان يساعد الأمير فى عمله عدد من الموظفين منهم القاضى، وصاحب الشرطة، ورئيس الحرس، والكاتب والحاجب[1]، وقد بلغت الدولة الإسلامية فى العهد الأموى أقصى اتساعها، وكانت مقسمة إداريًا فى عهد عبد الملك إلى أقاليم كبرى هى:

١ ـ بلاد الشام العاصمة للدولة:

وكانت بلاد الشام فى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان قد استقرت إداريًا إلى خمسة أجناد وهى جند دمشق، وحاضرتها دمشق، وجند حمص وحاضرتها حمص، ومن مدنها تدمر، وجند قنسرين، وحاضرتها قنسرين، ومن مدنها حلب ومرعش، وجند فلسطين، وحاضرتها اللد، ومن مدنها تبوك وجند الأردن، وحاضرتها طبرية، ومن مدنها عكا[2]، وكان لنظام الأجناد أهمية إدارية وعسكرية كبيرة، إذ كان من أهم أسباب قوة الدولة الأموية، فقد كان الجند مستعدين دومًا للقضاء على أعداء الدولة فى الداخل، والخارج[3]، ولم يعين عبد الملك واليًا خاصًا على بلاد الشام، لأنها كانت تحت إشرافه المباشر، إلا أنه عين على الأجناد ولاة خاصين بها، وكان جند دمشق يقع تحت إدارة عبد الملك مباشرة بوصفها حاضرة الدولة الأموية[4].

٢ ـ إدارة الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن:

أ- الحجاز : فى سنة ٧٣هـ، حدث تطور إدارى مهم، إذ جمع الخليفة عبد الملك أعمال الحجاز واليمن للحجّاج بن يوسف الثقفى[5]، فكان الحجّاج يستخلف على المدينة - إذا أتى مكة- عبد الله بن قيس بن مخرمة الذى ولاه قضاء المدينة، وقد أدرك عبد الملك أهمية الحجاز المعنوية والمؤثرة، فانتهج لذلك سياسة حكيمة، فقد أحسن إلى الناس واستجاب لطلبهم فى عزل الحجّاج عن الحجاز، أدت بالتالى هذه السياسة إلى نجاحه فى الحصول على بيعة كبار أهله. وفى سنة ٧٥هـ نقل عبد الملك بن مروان الحجّاج من الحجاز وولاه العراق[6]، ثم ولى الخليفة عبد الملك بعد ذلك على المدينة عمه يحيى بن الحكم بن أبى

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٨٤.
(٢) المسالك والممالك صـ٤٣، معجم البلدان (٢/ ١٧٠).
(٣) الوليد بن عبد الملك للكاشف صـ٥٠،٥١.
(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٨٦.
(٥) أخبار مكة (٢/ ١٧٤) الإصلاحات المالية صـ ١٩٩.
(٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ٢٠٢.

العاص، ثم عين أبان بن عثمان سنة ٧٦هـ. وفى عام ٨٢هـ عزل الخليفة أبان بن عثمان عن ولايته المدينة، وقبل سنة ٨٣هـ ولى مكانه هاشم بن إسماعيل المخزومى(١)، فبقى فى منصبه حتى وفاة الخليفة عبد الملك(٢)، ومن الجدير بالملاحظة أن الولاة الذين عينهم الخليفة عبد الملك بن مروان على المدينة إما من أفراد الأسرة الأموية، أو ممن لهم صلة عائلية بالأسرة مثل هشام بن إسماعيل المخزومى، ويبدو أن هذا الاختيار كان الهدف منه ضمان الولاء والإخلاص التامين للخليفة، لاسيما أن المدينة كانت من مراكز المعارضة القوية للأمويين(٣).

ب- مكة: بعد مقتل ابن الزبير ولى الخليفة ابنه مسلمة بن عبد الملك واليًا عليها، وفى السنة نفسها جمع عبد الملك الحجاز وأعماله واليمن للحجّاج حتى سنة ٧٥هـ، ثم ولى مكانه الحارث بن خالد المخزومى(٤)، ولا بد من القول أنه تعاقب على مكة ولاة تختلف المصادر فى تسميتهم وسنى حكمهم، وربما يرجع ذلك إلى كثرة عددهم من جهة، وإلى قصر فترة ولاية بعضهم من جهة أخرى(٥)، وكان عبد الملك يعتنى بتعمير الكعبة والمحافظة على سلامتها، وكان يبعث إليها بالهدايا والديباج كل سنة(٦).

ج - **أواسط الجزيرة العربية:** كانت أهم مناطقها اليمامة، وكانت اليمامة منذ سنة ٦٥هـ مقرًا لنجدة الحنفى زعيم فرقة النجدات الخارجية(٧)، والذى بدأ تحركاته العسكرية منطلقًا من اليمامة حتى تمكن من تأسيس دولة النجدات فى اليمامة والبحرين. وقد حاول عبد الملك استخدام الأساليب الدبلوماسية مع نجدة إذ وعده أن يوليه على اليمامة مقابل الدخول فى طاعته(٨)، فكان هذا أحد أسباب انشقاق النجدات بعد ذلك، إلا أن اليمامة ظلت خارج سيطرة الدولة الأموية حتى تمكن الخليفة عبد الملك من القضاء على دولة النجدات فى اليمامة والبحرين سنة ٧٣هـ(٩)، فولى عبد الملك يزيد بن هبيرة المحاربى، ثم عزله وولى مكانه إبراهيم بن عربى، وبقى الأخير إلى أن مات عبد الملك(١٠).

---

(١) الطبقات (٥/ ١٥٢).
(٢)، (٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢٠٤.
(٤) أخبار مكة (٢/ ١٧١).
(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ص٢٠٧.
(٦) الأوائل صـ٢٠٤.
(٧) الملل والنحل للشهرستانى (١/ ١٩٣)، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ ٢٠٨.
(٨) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ ٢٠٨.
(٩) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ ٢٠٨.
(١٠) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ ٢٠٨.

د ـ اليمن: وفى عهد عبد الملك بن مروان أصبح لليمن والٍ واحد بعد أن كانت مقسمة إلى عدة عمال، فى الحقب السابقة[1]، ومن أشهر ولاة عبد الملك على اليمن محمد بن يوسف الثقفى، وهو أخو الحجّاج بن يوسف، وظل محمد على ولاية اليمن إلى ما بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان[2]، ومحمد بن يوسف لم يحسن السيرة مع أهل اليمن، كما أنه زاد ضريبة الخراج على الأراضى الزراعية[3].

٣ ـ إدارة العراق والمشرق الإسلامي:

أ- **العراق**: وجه الخليفة كل اهتمامه نحو العراق، واستطاع أن ينزع الحكم من مصعب بن الزبير، سنة ٧٢هـ، وبايعه أهل الكوفة، وأحسن إلى زعمائها وولى عليها أخاه بشر بن مروان وأمره باللين لأهل الطاعة والشدة على أهل المعصية[4]، وفرق العمال على المدن، أما البصرة فقد ولى عليها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد[5] الذى فشل فى قتال الخوارج فى البحرين والعراق، فعزله عبد الملك، وجمع العراق لبشر بن مروان، فقدم البصرة سنة ٧٤هـ، واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث المخزومى، فأقام بشر بالبصرة شهراً ثم مات[6]، ثم أسند عبد الملك ولاية العراق إلى الحجّاج إلى أن مات الخليفة عبد الملك[7].

ب ـ **الولايات التابعة للعراق فى شرق الجزيرة العربية**:كانت الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية، والمطلة على بحر الخليج، تابعة إداريًا فى العصر الأموى إلى أمير العراق، وهو الذى يعين عليها ولاة، يتولون إدارتها، وأهم هذه الأقاليم هى البحرين، وعمان، وتشمل البحرين الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربى، بين البصرة وعمان، فهو يشمل ما نعده اليوم: الكويت والإحساء وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديمًا باسم «أوال»[8]، ودولة الإمارات العربية المتحدة[9].

جـ ـ **خراسان والمشرق الإسلامي**: بعد أن تمكن عبد الملك من قتل مصعب وضم العراق عام ٧٢هـ، بدأ يخطط لاسترجاع خراسان ونجح فى ذلك،وفى عام ٧٨هـ ضم عبد الملك

(١) الإصلاحات المالية ص٢٠٩.
(٢) تاريخ اليمن صـ١٧ ابن عبد المجيد اليمانى.
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى صـ٨٤ .
(٤) أنساب الأشراف (٥/ ٣٥٤) الإصلاحات المالية صـ٢١١.
(٥) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ٢١١.
(٦) الفتوح لابن أعثم نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ٢١٢ .
(٧) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢١٣.
(٨) البحرين فى صدر الإسلام صـ٢٢١.
(٩) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢٢١ .

ولاية خراسان، وسجستان وكل المشرق الإسلامى إلى ولاية العراق للحجّاج بن يوسف، فولى الحجّاج على خراسان «المهلب بن أبى صفرة» سنة ٧٩هـ[١]، ويبدو أن نجاح الدولة فى القضاء على كل منافسيها فى الداخل، وجه الاهتمام بجهاد العدو فى الثغور، فكانت خراسان بحاجة إلى رجل عسكرى قوى كالمهلب يمكن أن يحقق أهداف حركة الجهاد هناك، ومما يؤكد ذلك بقاء المهلب فى ولايته حتى وفاته، كما يمكن اعتبار هذا التعيين بمثابة تكريم لجهوده فى القضاء على الخوارج الأزارقة. وفى ولاية المهلب هذه نشطت حركة الفتوحات، وسيأتى الحديث عنها عند كلامنا عن الفتوحات فى عهد عبد الملك.

وعين الحجّاج على سجستان عبيد الله بن أبى بكرة، وذلك سنة ٧٨هـ[٢]، وكتب عبد الملك إلى الحجّاج: لا تستعمل عبيد الله بن أبى بكرة على الخراج والجباية فإنه أريحى[٣]، وهذا يعنى أن الحجّاج أصبح هو الذى يعين الولاة على الأقاليم التابعة لولايته كخراسان وسجستان فى الغالب، وهى جزء من سياسة عبد الملك فى الاتجاه نحو اللامركزية الإدارية[٤].

٤ ـ إدارة الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان:

تقع الجزيرة الفراتية بين نهرى دجلة والفرات، وتشمل ديار ربيعة وديار مضر، وديار بكر، وتمتد على نهر الفرات من شمال ملقية بمسيرة يومين شمالاً إلى الأنبار جنوبًا، وعلى دجلة من تكريت جنوبًا إلى شمال جزيرة ابن عمر شمالاً[٥]، وتقع أرمينيا وأذربيجان إلى الشرق والشمال الشرقى، للجزيرة الفراتية[٦] وكانت الموصل -فى عهد عبد الملك-، جزءًا من ولاية الجزيرة الفراتية[٧]، وقد أدرك عبد الملك أهمية الجزيرة هذه فعمل جاهدًا على تنظيمها لتقف بمواجهة الخزر والبيزنطيين أعداء الدولة، فشجع على استيطان العرب هناك وأقطعهم الأراضى[٨]، وأمر بنقل بعض القبائل القيسية إلى هناك[٩]، كما نقل بعضًا من قبائل الأزد وربيعة من البصرة إلى الموصل وحديثة[١٠]، كما نظم الإدارة فيها، حيث فصلها عن قنسرين وجعلها، فضلاً عن أرمينيا وأذربيجان، إقليمًا إداريًا مستقلاً[١١]،

(١) تاريخ اليعقوبى (٣/ ١٧)، الإصلاحات المالية صـ٢٢٧ .
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ٢٣٠ .
(٣) أنساب الأشراف (١/ ٤٩٩، ٥٠٥) .
(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢٣٠ .
(٥) المسالك والممالك صـ٥٢، صورة الأرض لابن حوقل (١/ ٢٠٨).
(٦) بلدان الخلافة الشرقية صـ١١٤.
(٧) فتوح البلدان للبلاذرى صـ٣٢٧.
(٨)، (٩) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢٣٣.
(١٠) الروض المعطار صـ١٩٠، تاريخ اليعقوبى (٣/ ١٧).
(١١) معجم البلدان (١/ ١٠٣) .

ولأهميتها فقد عين على إدارتها أخاه محمد بن مروان سنة ٧٣هـ، والذى يعتبر من أقدر الولاة الأمويين، وأوكل عليها مهمة مقاتلة الأعداء من البيزنطيين والخزر، والقيام بفتح المناطق المحاذية للجزيرة[(١)]، وكانت هذه الولايات: الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، فضلاً عن الموصل، غالبًا ما تجمع تحت إمرة أمير واحد، ولاسيما فى عهد عبد الملك بن مروان، ويبدو أن محمد بن مروان هو الذى كان يعين ولاة على أرمينيا[(٢)]، أما الموصل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، هو الذى كان يعين ولاتها فى الغالب[(٣)].

٥ ـ إدارة مصر:

كان والى عبد الملك على مصر أخاه عبد العزيز، وقد أوصى عبد الملك أخاه حين ولاه مصر بوصية تنم عن عقلية كبيرة، حيث بين له الأسس الناجحة لإدارة ولايته، وكيفية اختيار موظفيه، قائلاً له: أبسط بشرك، وألف كنفك، وآثر الرفق فى الأمور فأنه أبلغ بك، وانظر حاجبك، فليكن من خير أهلك.. وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام.. وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة، فإنها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته[(٤)].

ولم تقتصر مسئولية عبد العزيز الإدارية على مصر فقط بل امتدت إلى إفريقية أيضًا، فهو المسئول عن إدارة إفريقية، فقد كان يعين عليها الولاة ويعزلهم فى بعض الأحيان، كما فعل حين عزل حسان بن النعمان سنة ٧٨هـ وولى مكانه موسى بن نصير[(٥)]، فأقرّ عبد الملك هذا التعيين، وقد توفى عبد العزيز عام ٨٦هـ، ودامت ولايته على مصر أكثر من عشرين عامًا[(٦)].

٦ ـ إدارة إفريقية:

كانت أوضاع إفريقية الإدارية والسياسية قبل تولى عبد الملك الخلافة مضطربة، نتيجة عدم استقرار الأحوال السياسية فى الحجاز والعراق خاصة، فارتد عن الإسلام قسم من البربر فى إفريقية[(٧)]، كما تمكن كسيلة ومن معه من البربر والروم من دخول القيروان،

(١) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ٣٣٤.

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٣٣٤.

(٣) فتوح البلدان صـ٣٢٨، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢٣٤.

(٤) الفخرى فى الآداب صـ١٢٦.

(٥) ولاة مصر صـ٧٤، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢٣٩.

(٦) الخطط للمقريزى (١/٣٠٢).

(٧) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/٧٥).

فسيطر كسيلة على شمال إفريقية[1]، واستطاع عبد الملك أن يبسط نفوذ الدولة الأموية على شمال إفريقية بعد أن تخلص من الصراعات الداخلية، ومن أشهر ولاة إفريقية فى عهد عبد الملك: حسان بن النعمان الغسانى، وموسى بن نصير، وسيأتى الحديث عنهما بإذن الله تعالى فى الفتوحات فى عهد عبد الملك.

رابعًا: الخطوط العامة لسياسة الخليفة عبد الملك فى إدارة شئون الدولة:

١ ـ **المشاورة**: كان يعتمد على المشاورة فى إنجاز مهمات الدولة، وبخاصة فى الأمور المهمة، فهو القائل: المشاورة تفتح مغاليق الأمور[2]، فقد استشار أصحابه فى المسير إلى مصعب بن الزبير فى العراق[3]، كما قبل مشورة روح بن زنباع بتولية الشعبى قضاء البصرة، حينما استشار الخليفة أصحابه بذلك[4]، وكان من أكبر مستشاريه ربيعة الجرشى، وروح بن زنباع[5]، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يأخذ بكل استشارة، فكان يشاور يحيى ابن الحكم، ثم يخالفه، ويقول: من أراد صواب الرأى فليخالف يحيى بن الحكم فيما يشير به عليه[6].

٢ ـ **اعتماده على أهل الشام**: كان الخليفة عبد الملك يعتمد على أهل الشام، لأنهم أخلصوا له، فكان يخاطبهم: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح[7] على فراخه يتقى عنهم القذر، ويباعد عنهم الحجر، ويكفهم من المطر، ويحميهم من الضباب، ويحرسهم من الذئاب، يا أهل الشام أنتم الجبة والرداء، وأنتم العدة والجداء[8]، ولا غرابة فى ذلك فملك بنى أمية قام على أكتاف قبائل الشام وجنودها.

٣ ـ **الشخص المناسب فى المكان المناسب**: وقد حرص على تحقيق هذا المبدأ، وكان يوكل المهمات لأصحابها، ففى رسالة جوابية أرسلها الخليفة عبد الملك إلى خالد بن عبد الله أمير البصرة، سنة ٧٢هـ قال له فيها: .. فقبح الله رأيك حين تبعث أخا أعرابيًا من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يجبى الخراج، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بالحرب، المقاسى لها، ابنها وابن أبنائها... فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل برأى

(١) تاريخ إفريقية والمغرب صـ٤٦، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ٢٤٢ .
(٢) الفخرى فى الآداب صـ١٢٦.
(٣) أنساب الأشراف (٥/ ٣٣٥) .
(٤) العقد الفريد (١/ ٢٠) .
(٥) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ٩٤.
(٦) أنساب الأشراف (٥/ ٣٣٥)
(٧) ومعنى الظليم الرامح: كذكر النعام الذى يدافع عن فراخه .
(٨) سراج الملوك صـ١١٨، الإصلاحات المالية صـ١٩٥، .

حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه[1]، كما كان يحسن معاملة قادته وحاشيته، ويكرمهم ويمن عليهم، ويواسيهم، ويزورهم إذا مرضوا[2].

٤ ـ متابعة أخبار العمال والولاة: فقد كان يقظًا وحريصًا على نزاهة عماله، واستقامة أخلاقهم وبعدهم عن الشبهات، فعندما بلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية فاستدعاه إليه، ثم سأله: أقبلت هدية منذ وليت؟ قال: يا أمير المؤمنين بلادك عامرة، وخراجك موفور، ورعيتك على أفضل حال، قال: أجب فيما سألتك عنه، أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: نعم، قال: إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم، ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك، أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه، إنك لخائن جائر، وما أتيت أمر، لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة، أو جهل مصطنع، وأمر بصرفه عن عمله[3].

٥ ـ تقديم الأقرباء فى المناصب وحفظ التوازن القبلى: كان الخليفة عبد الملك فى اختياره لعماله قد قرَّب أقرباءه من أفراد البيت الأموى بالدرجة الأولى، واستعملهم فى المناصب المختلفة، إلا أنه كان يراقبهم مراقبة دقيقة، ويعزل من أظهر عجزًا أو أخفق فى عمله، كما أنه استخدم ولاته على الأقاليم فى الأغلب من قبائل عرب الشمال «مضر»، بينما اختار موظفى إدارته إلى حد كبير من قبائل عرب الجنوب «اليمن».

ويبدو أن هذه كانت إحدى الوسائل التى اتبعها الخليفة لحفظ التوازن القبلى[4].

٦ ـ تسامحه مع أهل الكتاب: كان عهد عبد الملك عصر تسامح مع أهل الذمة، فلم يحاول الخليفة عبد الملك الاستيلاء على كنيسة يوحنا عندما رفض أهل الذمة تسليمها إليه[5]، كما أنه سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية، وبناء الكنائس والأديرة، فقد شيّد أثيناس ـ كاتب ديوان خراج مصر على عهد عبد العزيز ـ كنيسة «أم الإله» فى الرها، كما شيّد فى مصر أيضًا كنيستين وديرًا، فضلاً عن شغلهم مناصب عالية فى إدارة الدولة[6]، إذ كان الخليفة يثق بهم[7].

٧ ـ التحقيق مع العمال المشتبه فيهم ومقاسمة أموالهم: وقد قام عبد الملك بمقاسمة بعض عماله، وقد أراد التشبه بالخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الشأن، فقد جعل

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية صـ١٩٥.
(٢) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية صـ١٩٥.
(٣) مروج الذهب (٣/ ١٢٥).
(٤) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية صـ١٩٦.
(٥) فتوح البلدان صـ١٣١.
(٦) الدعوة إلى الإسلام، أرنولد صـ٨٥.
(٧) تاريخ القدس، عارف ص٥٢.

الضحاك بن عبد الرحمن الأشعرى بمثابة المسئول عن مراقبة ومتابعة القضايا المالية فى الأقاليم، فقد أرسله إلى الجزيرة الفراتية لدراسة وإصلاح الضرائب هناك(1)، كما قاسم «أثيناس» كاتب خراج مصر أمواله(2)، وبذلك اتبع نظامًا دقيقًا للاستخراج أو التكثيف، حيث كان يحقق مع الجباة وعمال الخراج - المشكوك فى أمرهم - عند اعتزالهم عملهم، ويستنطقون حتى يعترفوا بما ارتكبوا من مخالفات، وكان التحقيق مع هؤلاء يتم فى أماكن خاصة تسمى «دار الاستخراج»(3).

٨ ـ **الإحسان لمن ندم وبايع من أصحاب ابن الأشعث:** وبعد انتهاء تمرد ابن الأشعث كتب الخليفة إلى الحجّاج، فى أخذ البيعة له من الناس قائلاً: أن ادع الناس إلى البيعة، فمن أقرّ بذنبه وندم على فعله فخل سبيله(4)، وعند ذلك أمر عبد الملك الحجّاج بإعطاء الناس عطاءهم، فكتب إليه الحجّاج: أنهم نكثوا العهد ونقضوا البيعة، وفارقوا الجماعة، وطعنوا على الأئمة، فكتب إليه عبد الملك: إنما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم(5). وحين حاول الحجّاج أن يأخذ فضول «فروق العملة» أموال السواد، كتب الخليفة إليه يمنعه من ذلك قائلاً له: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وابق لحم لحومًا يعقدون بها شحومًا(6).

٩ ـ **احترام وتقدير الشخصيات البارزة فى المجتمع:** أدرك الخليفة عبد الملك أهمية توثيق العلاقة واحترامها مع الشخصيات البارزة فى المجتمع، فقد حرص على كسبها وتأييدها، فحين بايع محمد ابن الحنفية لعبد الملك أعطاه الخليفة ميثاقًا، وكتب إليه: إنك عندنا محمود.. فلك العهد والميثاق وذمة الله ورسوله، أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشىء تكرهه، كما قضى حوائجه(7)، وكتب عبد الملك للحجّاج: لا تعرض لمحمد، ولا لأحد من أصحابه(8). فلم يتعرض الحجّاج لأحد من آل أبى طالب خلال ولايته، كما عزز عبد الملك الصلات مع آل العباس، فكان يكرم على بن عبد الله بن العباس، ويعرف له حقه ويستوصى به خيرًا، وكانت كتبه ترد إلى الحجّاج يأمره فيها أن لا يسىء إلى عروة بن الزبير(9). وبذلك نجح عبد الملك فى الاحتفاظ بصلات حسنة بين الأمويين وبنى هاشم

(1) عبد الملك القائد للعسلى صـ١٢٢، الإصلاحات المالية صـ ١٩٨.

(2) الوزراء للجهشيارى صـ٣٤، ٣٥.

(3)، (4) النظم الإسلامية، حسن إبراهيم صـ١٩٦.

(5) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ص٢١٩.

(6) واسط فى العصر الأموى ص٧٩.

(7) الطبقات (٥/١١١، ١١٢).

(8) العقد الفريد (٤/ ٤٠٠)، الإصلاحات المالية ص ٢٠٠.

(9) أخبار العباس وولده صـ١٣١، ١٥٤ .

- علويين وعباسيين - فلم يُقتل أحد من العلويين في عهده، فكانت هذه ثمرة حسن سياسته وبعد نظره[1].

١٠ - **تحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء:** كان عبد الملك لا يسمح لولاته مجاوزة الخطوط الحمراء، فعندما أساء الحجّاج لأنس بن مالك كان رد عبد الملك على الحجّاج قاسيًا، وقصة ذلك: دخل أنس بن مالك على الحجّاج بن يوسف، فلمّا وقف بين يديه، سلمّ عليه فقال له: إيه إيه يا أُنيس، يوم لك مع عليٍّ، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنَّك كما تستأصل الشأفة[2]، ولأدمغنك كما تُدمغ الصمغة. فقال أنس: إيَّاى يعنى الأمير، أصلحه الله؟ قال: إياك، سك الله سمعك. قال أنس: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أىَّ قتلة قُتلتُ، ولا أىَّ ميتة متُّ. ثم خرج من عند الحجّاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال الحجّاج، فلمّا قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبًا وصَفَّقَ عجبًا، وتعاظم ذلك من الحجّاج، وكان كتاب أنس: إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما بعد، فإن الحجّاج قال لى هُجرًا[3]، وأسمعنى نُكرًا، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لى على يديه، فإنى أمُتُّ بخدمتى رسول الله، وصحبتى إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[4]. فقرأ عبد الملك الكتاب وهو يبكى وبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجّاج بكتاب غليظ[5]، فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر - وكان مصادقًا للحجّاج - فقال له: دونك كتابىَّ هذين فخذهما، واركب البريد إلى العراق وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ، فادفع كتابى إليه وأبْلغه منى السلام، وقال له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجّاج الملعون كتابًا، إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك، **وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك:** بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان إلى أنس ابن مالك: خادم رسول الله ﷺ، أما بعد، فقد قرأت كتابَك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلىَّ بذلك أُنزل به عقوبتى، وتَحْسُن لك معونتى، والسلام. فلما قرأ أنس كتابه وأُخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عنِّى خيرًا، وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة، فهذا كان ظنى به والرجاء منه[6]،

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٠٢.

(٢) الشأفة: قرحة تخرج من أسفل القدم فتقطع أو تكوى.

(٣) هجرًا: يعنى فحشًا .

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٠).

(٥) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٦) .

(٦) المصدر نفسه (١٢/ ٥٤٠).

أما كتاب عبد الملك إلى الحجّاج فكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجّاج بن يوسف، أما بعد، فإنَّك عبد طمَت[(1)] بك الأمور فسموت فيها، وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إدًّا وأردت أن تَبُورنى[(2)]، فإن سوَّغتكها مضيت قُدمًا، وإن لم أُسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبدًا أخفش العينين، منقوص الجاعرتين[(3)]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار، ونقلهم الصخور على ظهورهم فى المناهل؟ يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تجاوز له إساءته، جُرأة منك على الربِّ عز وجل، واستخفافًا منك بالعهد، والله لو أنَّ اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عُزير بن عزرا، وعيسى ابن مريم لعظمته وشرَّفته وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثمانى سنين، يطلعه على سرِّه ويشاوره فى أمره، ثم هو مع هذا بقية بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابى هذا فكن أطوع له من خُفِه ونعله، وإلا أتاك منى سهم مثكل[(4)]، بحتف قاضٍ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون[(5)]. ولما علم الحجّاج بأن عبد الملك غاضب عليه استوى جالسًا مرعوبًا، ولما قرأ الكتاب اعتذر لأنس ولم يزل مكرمًا له حتى مات[(6)]، وكتب الحجّاج خطابًا يعتذر فيه عما حدث منه فى حق أنس[(7)].

١١ ـ محاربته للمداهنة والنفاق بين الناس: لم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه، أو ينافقه، أو يضيع وقته فيما لا يفيد، فقد طلب رجلاً من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف، فلما أراد الرجل أن يتكلم بادره عبد الملك قائلاً: احذر فى كلامك ثلاثًا، إياك أن تخدعنى، فأنا أعلم بنفسى منك، أو تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب، أو تسعى إلىَّ بأحد من الرعية، فإنهم إلى عدلى وعفوى أقرب منهم إلى جورى وظلمى[(8)].

١٢ ـ مفهوم السياسة عند عبد الملك: أدرك الخليفة عبد الملك معنى السياسة بشكل دقيق واستوعب دروسها، كما أدرك السبل العملية لسياسة الناس ومن مختلف منازلهم، فحين

(1) طمَت: ارتفعت وسمت .
(2) تبورنى: تختبرنى .
(3) الجاعرتين: هما حرفا الوركين المشرفين على الفخذين .
(4)، (5) البداية والنهاية (١١/ ٥٤٢) .
(6) العقد الفريد (٣/ ١٣)، الحجاج المفترى عليه ص١٦٨ .
(7) العقد الفريد (٣/ ١٣/ ١٤).
(8) البداية والنهاية (١٢/ ٣٨٧) .

سأله الوليد وقال: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف واحتمال هفوات الصنائع[1].

١٣- سيرة أبي بكر وعمر ورعيتهما: قال عبد الملك: أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر، نسأل الله أن يعين كلاً على كل، إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه. وهذا الكلام لا يسلم له به على إطلاقه، لأن السلطان المطلوب منه أن يسير مع القرآن الكريم وهدى النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين ويعمل على نشر سير الصالحين ويقتدي بهم لا أن ينهى عن ذكر عمر ويقول،.. فإنه مرارة للأمراء، مفسدة للرعية[2]. والحقيقة تقول إن الكثير من الأمراء في العهد الأموي لا يستطيع أن يقتفي أثر عمر ولا أن يسير بسيرته، فيحز ذلك في نفوسهم، ويترك الحسرة والمرارة في قلوبهم، وأما الرعية فإنهم يسرعون إلى المقارنة بين ما هم فيه، وبين ما كان عليه الناس في عهد عمر، وما كانوا يتمتعون به من العدل والمساواة، والحرية والتمتع بكل حقوق الإنسان، فيدفعهم ذلك إلى التمرد على أمرائهم، والسخط على أوضاعهم، وعدم الرضا بما هم فيه[3]. وأمثال عبد الملك يريد الأمور أن تستقر على منهاج الملك العضوض، وأما منهاج الخلافة الراشدة فيضيق عليه الخناق، وفي الحقيقة، إن سوء حال الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية معًا[4]، كما أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين ليس أمر مستحيلاً، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق بين الراعي والرعية، حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق، ويحتاج ربما إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على معاني الإيمان، ويعطون في ذلك القدوة والمثل، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[5].

هذه هي أهم الخطوط العامة لسياسة عبد الملك في إدارة شئون الدولة.

خامسًا: من أهم ولاة عبد الملك الحجّاج بن يوسف الثقفي:

هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، سمع من ابن عباس وروى عن أنس وسمُرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان، وأبي بردة بن أبي موسى وروى عنه مالك ابن أنس وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وقتيبة بن مسلم[6].

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٩)، الإصلاحات المالية صـ١٩٦.
(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٣).
(٣) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٣٢٩).
(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٠).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٧٧.
(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٧).

١ ـ **بداية ظهوره:** كان الحجّاج وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف، ثم قدم دمشق، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك، فشكا عبد الملك إلى روح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزله، ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندى رجلٌ توليه ذلك، فولى عبد الملك الحجّاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد فى النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فضربهم وطوّف بهم، وأحرق الفسطاط، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك، فقال للحجّاج: لم صنعت هذا؟ فقال: لم أفعله إنما فعلته أنت، فإنَّ يدى يدُك وسوطى سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحًا فسطاطين بدل فسطاطه، وبدل الغلام غلامين، ولا تكسُرنى فى الذى وليّتنى؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده[١].

٢ ـ **رأى الذهبى فيه:** كان ظلومًا، جبارًا خبيثًا سفّاكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن إلى أن قال: فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه فى الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد فى الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء[٢].

٣ ـ **رأى ابن كثير فيه:** وكانت فيه شهامة عظيمة وفى سيفه رهق[٣]، وكان يغضب غضب الملوك، وكان ـ فيما يزعم ـ يتشبه بزياد بن أبيه، وكان زياد يتشبّه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضًا، ولا سواء ولا قريب[٤]، وقال: وبالجملة فقد كان الحجّاج نقمة على أهل العراق بما سلف من الذنوب، والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم[٥]، وقال: . . وكان جبارًا عنيدًا مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوِى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ فى عهدتها، ولكن يخشى أنَّها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كان يبغضونه جدًا لوجوه، وربَّما حرّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات، وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شىء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعًا فى سفك الدماء، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها، وخفيَّات الصدور وضمائرها[٦].

فلا نكفر الحجّاج، ولا نمدحه، ولا نسبه، ونبغضه فى الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه وأمره إلى الله.

---

(١) والبداية والنهاية (١٢/ ٥٠٩). (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣).

(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٥١٠) الرهق: الهلاك والظلم.

(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٥١٠). (٥)، (٦) المصدر نفسه (١٢/ ٥٣٦).

٤- من خطب ومواعظ الحجّاج: قال الشعبي: سمعت الحجّاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد، فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يَغُرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة(١)، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل. وعن أبي عبد الله الثقفي عن عمّه، قال: سمعت الحسن البصريَّ يقول: وقذتني كلمة سمعتها من الحجّاج، سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لحريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة(٢).

٥- صدق الله وكذب الشاعر: جاء رجل إلى الحجّاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب على اسمي في الديوان، ومُنعتُ العطاء، وقد هُدِمت داري.

فقال الحجّاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يَجْني عليك وقد تُعدي الصِّحاح مبارك الجُرْب

ولربَّ مأخوذٍ بذنب قريبه ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا. قال: وما قال؟ قال: ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ**﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩]. قال: يا غلام أَعِد اسمه في الديوان، وابْن داره، وأعطه عطاءه، ومُرْ مناديًا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر(٣). فهذه القصة تدل بوضوح على أن الشريعة الإسلامية، سلطانها وهيبتها، حتى على طغاة الحكام، وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية، كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدى نصوصها، ولو كان هو الحجّاج بن يوسف، المشهور بالقسوة والجبروت(٤).

٦- الحجّاج مع أعرابي: حجّ الحجّاج مرّة، فمر بين مكة والمدينة، فأُتي بغدائه فقال لحاجبه: انظر من يأكل معي، فذهب، فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال: أجب الأمير. فقام، فلمّا دخل الحجّاج قال له: اغسل يديك ثم تغدَّ معي. فقال: إنَّه دعاني من خير منك، فأجبته. قال: ومن هو؟ قال: الله دعاني إلى الصوم، فأجبته. قال: في هذا الحرِّ

(١)، (٢) البداية والنهاية (١٢/ ٥٢٢). (٣) المصدر نفسه (١٢/ ٥٢٣).

(٤) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي صـ٢٢.

الشديد؟ قال: نعم، صمت ليوم هو أشدُّ حـرًا منه، قال: فأفطر وصُم ليوم غد، قال: إن ضمنت لى البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إلىَّ. قال: فكيف تسألنى عاجلاً بآجل لا تقدر عليـه؟ قال: إن طعـامنا طعـام طيب. . قال: لم تُـطَيِّبـه أنت ولا الطبـاخ، إنّما طيَّـبتـه العافية[1].

٧- زواج الحجّاج من بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب: قال الشافعى: لما تزوج الحجّاج بنت عبـد الله بن جعفـر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتُمكنه من ذلك؟ فقـال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ البـأس والله، قال: وكيف؟ قال: والله يـا أمير المؤمنين لقد ذهب ما فى صدرى على آل الزبيـر منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال: فكأنه كان نائمًا فأيقظه، فكتب إلى الحجّاج يعزم عليه فى طلاقها فطلقَّها[2]، وجاء فى رواية: يا أمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجّـاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه، فإنه لم يكن بين أهل بيـتين من شـحناء ما كـان بيننا وبين آل الزبير، فلـما تزوج برملة بنت الزبيـر انقلب ذلك البغض محبة حتى إنى ما أحب أكثر منهم[3]، حتى قلت:

تجـول خـلاخـيل النسـاء ولا أرى ... خلـخـالاً يجـول ولا قُلْـبـا
فـلا تـكثـروا فـيـهـا الملام فـإننى ... تخـيـرتهـا منهـم زبيـرية قلبـا
أحب بنى الـعـوام من أجل حُـبِّـهـا ... ومن أجلهـا أحببـت أخوالها كـلبا[4]

وكان الحجّاج يحترم أهل البيت ويكرمهـم، وما زواجه ببنت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم، وعلى الرغم من أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد الله حتى مات، فـكان يرسل له فى كل شهر عيـرًا تحمل كسوة وتحـفًا وميرة، وكل مـا يحتاج إليه[5]، وقد تجلى ذلـك فى أنه قال مرة: ليـقم كل رجل منك يذكـر بلاءه لنعطيه، فـقام رجل فقـال: أنا قاتل الحـسين. فـقال: كيف قـتلته؟ قـال: دسرته بالرمح دسـرًا، وهبرته بالسـيف هبرًا. فـقـال: أما -والله- لا يجـتـمع الحـسـين وقاتـله فى الجنة، وحرمـه من العطاء[6]، وما يذكـر فى كتب التـاريخ من كون الحـجّاج نصب العـداء لأهل البيت غـير صحيح، وخصوصًا إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسى الخلافة ويعملوا على الوصول إليه.

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥١٨).
(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٥١٧).
(٣) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه صـ١٣٧.
(٤) وفيات الأعيان (٢/ ٢٢٤، ٢٢٥).
(٥) المستطرف من كل فن مستظرف (٢/ ٣٢١).
(٦) تاريخ الإسلام للذهبى، سرح العيون لابن نباتة صـ ١٠٨، الحجّاج بن يوسف المفترى عليه صـ ٣٩٩.

٨ ـ **الحجّاج والشعراء**: وكان الحجّاج يقرب الشعراء ويستمع لشعرهم، وكثيرًا ما كان ينقد الشعر بملكة الأديب، كما يحفظ الكثير من جيد الشعر ويقتبس منه فى خطبه بما يناسب المقام، ومن الشعراء الذين أحسن لهم الحجّاج جرير بن عطية، فقد أطنب فى مدح الحجّاج وأنشده قصيدة من عيون الشعر منها:

مــن سَــدَّ مُــطَّلَع النفــاق عــليــهم ... أم من يصــول كـصــولة الحـجّـاج؟

أم من يغــار على النســاء حـفــيظة ... إذ لا يثـــقــن بغـــيــرة الأزواج

إن ابن يوسـف فـاعـلمـوا وتيــقنوا ... مـاضى البـصـيـرة واضح المنهـاج[١]

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر جاء فيها:

ترى نصــر الإمــام عـليك حــقــا ... إذا لبــســوا بـدينـهم ارتيــابًا

عــفــاريت العــراق شـفـيـت منهم ... فـأمــســوا خـاضـعـين لـك الرقـابا

وقــالوا لــن يجــامــعنا أمــيــر ... أقــام الحد واتـبـع الـكتــابا[٢]

وصار جرير يقول فى الحجّاج قصائد من عيون الشعر، وطال بقاؤه فى بلاطه، فخشى الحجّاج أن يكون فى ذلك سبيل لدسيسة يتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين، فرأى أن يرسله لدمشق ليمدح عبد الملك وأجزل له العطاء[٣]، ومن الشعراء الذين مدحوا الحجّاج ليلى الأخيلية، والفرزدق والأخطل وغيرهم.

٩ ـ **رؤية رآها الحجّاج**: رأى أن عينيه قُلعتا: وكان تحته هند بنت المُهلَّب، وهند بنت أسماء بن خارجة، فطلّقهما ليتأوّل رؤياه بهما، فمات ابنه محمد وجاءه نعىُ أخيه محمد من اليمن، فقال: هذا -والله- تأويل رؤياى محمد ومحمد فى يوم واحد، إنا لله وإنا إليه راجعون ثم قال: من يقول شعرًا فيُسلينى به فقال الفرزدق:

إن الــرَّزيَّــة لارزيَّــة بــعــــدهــا ... فـقـدان مـثـل مـحـمد ومـحـمـد

مَلِكـان قــد خلت المنابـر منهــمــا ... أخـذ الحمـام عليـهـما بالمرصـد[٤]

١٠ ـ **مقتل سعيد بن جبير**: فى عام ٩٥هـ قتل الحجّاج سعيد بن جبير المقرئَ المفسِّر المحدث الفقيه، أحد الأعلام، وله نحو من خمسين سنة أكثر روايته عن ابن عبّاس،

(١) ديوان جرير صـ٩٠، ٩١.

(٢) الكامل فى الأدب نقلاً عن الحجّاج بن يوسف المفترى عليه صـ٣٦٥.

(٣) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه صـ٣٦٨.

(٤) شذرات الذهب (١/ ٣٨٢).

وحدّث فى حياته بإذنه، وكـان لا يكتب الفتاوى مع ابن عبَّاس، فلمّا عَـمِىَ ابن عباس كتب وروى أنه قرأ القرآن فى ركعة فى البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس فى شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخـرى بقراءة غيرهما، وهكذا أبدًا، وقيل: كان أعـلم التابعـين بالطَّلاق سعـيد بن جـبيـر، وبالحج عطاء، وبالحلال والحـرام طاووس، وبالتفسيـر مجاهد، وأجمعهم لذلك سـعيد بن جبير، وقتله الحـجّاج وما على وجه الأرض أحد إلاَّ وهو مفتقر إلى علمه(١)، وقال الحسن يوم قتله: اللهمّ أَعِنْ على فاسق ثقيف، والله لو أنّ أهل الأرض اشـتركوا فى قـتله لأكبـهم الله فى النار(٢)، وعندما أمـر الحجّـاج بقتل سعيـد، قال سعيد: اللهم لا تحل له دمـى ولا تُمهله من بعدى(٣)، وأصيب الحجـاج بفزع عظيم وجعل يقول: مالى ولك يا سعيد بن جبـير، وكان فى جملة مرضه كلما نام رآه آخذًا بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتنى، فيستيقظ مذعورًا ويقول: مالى ولابن جبير(٤).

١١ ـ مرض الحجاج وموته:

أ ـ خطبته قـبل موته: لما مرض الحجّاج أرجف الناس بموته، فـقال فى خطبته: إنَّ طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا: مـات الحجّاج، ومات الحجّاج، فمه، وهل يرجو الحـجّاج الخير إلا بعـد الموت؟ والله ما يُسرُّنى أن لا أموت وأنَّ لى الدنـيا وما فيهـا، وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه علـيه إبليس، قال الله له: ﴿**إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ**﴾ [الأعـراف: ١٥]، فـأنظره إلى يوم الدين، ولقـد دعـا الله العـبـد الصـالح فقال: ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾ [ص: ٣٥]، فأعطاه الله ذلك إلا البـقاء، فما عسى أن يكون أيُّها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل كأنِّى والله بكل حىٍّ منكم ميتًا، وبكل رطبٍ يابسًا، ثم نُقِلَ فى ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً فى ذراع عرضًا، فأكلت الأرض لحمـه، ومصَّـت صديده، وانصـرف الحبـيب من ولده يُقسِمُ الحـبيب من مـاله، إن الذين يعقلون. . يعقلون ما أقول(٥).

ب ـ الآلام الشديدة التى تعرض لها الحجّاج فى مرضه: كان موت الحـجّاج بالأكلة(٦) فى بطنه، سوَّغه الطبيب لحمًا فى خيط، فخرج مملوءًا دودًا، وسُلط عليه أيضًا البرد فكان يوقد النَّار تحته وتتأجَّجُ حتى تحرق ثيابه وهو لا يُحِسَّ بهـا، فشكا ما يجده إلى الحسن البصرى ـ

(١)، (٢) شذرات الذهب(١/ ٣٨٣).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (١/ ٣٨٦).

(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٥٩٤).

(٦) الأكلة: داء يقع فى العضو فيتآكل منه .

كما جاء فى بعض الروايات ـ فقال له: ألم أكن نهتيتُك أن تتعرّض للصالحين، فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عنى، ولكنى أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحى ولا يطيل عذابى، فبكى الحسن بكاءً شديدًا، وأقام الحجّاج على هذه العلة خمسة عشر يومًا، فلما أُخبر الحَسَنُ بموته سجد شكرًا، وقال: اللهمَّ كما أمته أمت سنته[1]، وعن الأصمعى، قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربِّ قد حلف الأعداء واجتهدوا ... بأننى رجل من ساكنى النار

أيحلفون على عمياء ويحهم ... ما علمهم بعظيم العفو غفار[2]

وقال عند موته: اللهم اغفر لى، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل[3].

وعن عمر بن عبد العزيز أنَّه قال: ما حسدتُ الحجّاج عدو الله على شىء حسدى إياه على حبِّه للقرآن وإعطائه أهله، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لى فإنَّ الناس يزعمون أنك لا تفعل[4]، ولما قيل للحسن البصرى: إن الحجّاج قال عند الموت كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[5]، وقد فرح أهل العراق بموت الحجّاج، وسمى يوم موته: عرس العراق[6].

ج ـ عمره لما مات وما تركه من مال: قال العماد فى سنة ٩٥هـ: فيها أراح الله العباد والبلاد بموت الحجاج بن يوسف الثقفى فى ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين من رمضان، وله ثلاث وقيل: أربع أو خمس وخمسون سنة أو دونها[7]، وزعموا أنَّ الحجّاج مات ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفًا وسيفًا وسرْجًا ورحلاً ومائة درع موقوفة[8].

د ـ ما رُئى له بعد موته: وقال الأصمعى عن أبيه قال: رأيت الحجّاج فى المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلنى بكل قتلة قتلت بها إنسانًا.

وكان الحسن لا يجلس مجلسًا إلا ذكر فيه الحجّاج فدعا عليه، قال: فرآه فى منامه فقال له: أنت الحجّاج؟ قال: نعم، قال: ما فعل الله بك؟ قال: قُتلت بكل قتيل قتلته ثم عُزلت مع الموحِّدين. قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه[9].

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٨١).
(٢)، (٣)، (٤)، (٥) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٠).
(٦) المنتظم (٧/ ٤).
(٧) شذرات الذهب (١/ ٣٧٧).
(٨) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٢).
(٩) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥٤).

هـ ـ حزن الوليد بن عبد الملك عليه: لما مات الحجّاج تفجع عليه الوليد، وجلس للعزاء فيه محزونًا عليه، ومازال مهمومًا حتى دخل عليه الفرزدق ـ الشاعر ـ فرثى الحجّاج رثاءً أرضى الوليد وأقر عينه فقد قال:

ليبك على الإسلام من كان باكيا ... على الدين من مستوحش الليل خائف

وأرملة لما أتاها نعيه ... فجادت له بالواكفات الزوارف

إلى أن قال:

فما ذرفت عيناى بعد محمد ... على مثله إلا نفوس الخلايف[(1)]

وتتابع الناس فى دخولهم على الوليد يعزونه فى الحجّاج ويثنون عليه خيرًا، وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل فى الحجّاج شيئًا، وألجأه إلى الكلام فقال: وهل كان الحجّاج إلا رجلاً من أهل البيت فنحن نُعزى فيه ولا نُعَزِّى[(2)]، وقال الوليد: لأشفعن فى الحجّاج عند الله[(3)]، ووفاء لذكرى الحجّاج أقرّ الوليد العمال الذين استخلفهم[(4)].

و ـ **أقوال العلماء فى موت الحجّاج**: عن معمر عن ابن طاووس، عن أبيه أنه أخبر بموت الحجّاج مرارًا، فلما تحقّق وفاته قال: ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولما أخبر إبراهيم النخعى بموت الحجّاج بكى من الفرح[(5)].

ولما بشر الحسن بموت الحجّاج سجد شكرًا لله وقال: اللهم أَمِتَّه، وأذهب عنا سنته[(6)].

وخرّ عمر بن عبد العزيز ساجدًا حينما بلغه النبأ[(7)].

****

(١) العقد الفريد (٣/ ١٩)، ديوان الفرزدق صـ٢١٢ .

(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز صـ٢٤ .

(٣) المحاسن والأضداد صـ١٢٦، النجوم الزاهرة (١/ ٢١٨) .

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الحجّاج المفترى عليه صـ١٥٠ .

(٥)، (٦) تاريخ الطبرى (١٢/ ٥٥١) .

(٧) العقد الفريد (٣/ ١٨).

المبحث الرابع

النظام المالى فى عهد عبد الملك

أولاً: مصادر دخل الدولة:

كانت من أهم مصادر دخل الدولة: الزكاة، والخراج، والجزية، وخمس الغنائم والعشور والصوائف، وقد عرضت بعض هذه المصادر للانحراف عن الشريعة من قبل القائمين عليها وعلى سبيل المثال:

١- **الجزية**: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ما يعادل ٨٠٠٠٠ درهم سنويًا، ولما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم وتفرقهم فى البلاد فخفضها عنهم إلى ٧٢٠٠٠ درهم[(١)]، فلما تولى معاوية بن أبى سفيان، شكوا إليه نفس الشكوى فخفضها عنهم إلى ٦٤٠٠٠ درهمًا، فلما تولى الحجّاج بن يوسف على العراق اتهمهم بمعاونة خصوم الدولة السياسيين فرفعها إلى ٧٢٠٠٠ درهم، ويمكن القول بأن رفع نظام الجزية فى العصر الأموى شهد بصفة عامة انحرافات فى طريقة الجباية والتى منها ما قيل إن المهلب ابن أبى صفرة، حينما صالح أهل خوارزم على ما يزيد على عشرين مليون درهم كان يأخذ بدل النقد سلعًا عينية لعدم توافر السيولة النقدية لدى أهلها، لكنه أجحف فى ذلك حيث كان يأخذ الشىء بنصف قيمته، فبلغ ما أخذه منهم خمسين مليون درهم[(٢)]، كما شهد انحرافات أخرى متمثلة فى استمرار فرض الجزية على من أسلم، وقد برز هذا الأمر بصفة خاصة فى ولاية الحجّاج[(٣)]. ومع ذلك يمكن القول بأن التأثير الاقتصادى لهذا الانحراف كان محدودًا، وذلك لأن قرار الحجّاج فى العراق قوبل بثورة أوقفت تطبيقه[(٤)]، وأيضًا كان الانحراف الذى وقع فى خراسان محدودًا، وعولج سريعًا بمجىء عمر بن عبد العزيز، ولكن للأسف لم يكتب لهذا الإصلاح الاستمرار حيث انتهى مفعوله بانتهاء عهد عمر بن عبد العزيز[(٥)].

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٦٩.

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن التطور الاقتصادى صـ٧٠.

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن التطور الاقتصادى صـ٧٠.

(٤) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس صـ٢١٩ .

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧١.

٢- الخراج: تدنى الخراج كثيراً فى عهد الحجّاج حتى وصل طبقًا لبعض الروايات إلى ١٨ مليون درهم وقيل إنه وصل إلى ٢٥ مليون درهم عند موت الحجّاج[١]، بعد ما كان فى عهد معاوية قد بلغ ١٣٥ مليون درهم[٢]. وقام عبد الملك بمسح أرض الشام والجزيرة ويبدو أنه استقل ما كان يجبى من خراجهما، وكان معياره فى التقدير هو مدى القرب والبعد من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين فأكثر هى غاية البعد عنها، وما نقص عن اليوم فهو من القرب، وبناء على ذلك كان الخراج المفروض على الأرض القريبة يزيد عن المفروض على الأرض البعيدة[٣]، وقد أحدث هذا المسح زيادة فى حصيلة الخراج[٤]، ويبدو أن عبد الملك أراد أن يعوض ما حدث من نقص فى خراج العراق بسبب الثورات.

٣- الصوافى: وبمجىء عبد الملك أقطع جميع الصوافى للأشراف حتى لم يُبق منها شيئًا، إلا أن هؤلاء الملاكين الكبار لم يتوقفوا عن المطالبة بمزيد من القطائع، وأمام إلحاحهم المستمر، قام الخليفة بالتصرف ببعض الأراضى الخراجية التى توفى أصحابها ولم يكن لهم ورثة، فأقطعهم جميع هذه الأراضى، وجعل لأصحابها حق ملكيتها التامة، بما فى ذلك توريثها على أن يدفعوا عن هذه الأراضى ضريبة العشر، ورفع ضريبة الخراج عن هذه الأراضى. وقد اعتبر الخليفة تصرفه هذا عملاً مشروعًا شبيهًا بإخراجه من بيت المال الجوائز الخاصة[٥]. أى أن الخليفة قد برر موقفه معتبراً أن ما قام به وكأنه نوع من المكافأة التى يحق للخليفة أن يأمر بها، بحيث أن ذلك يقع ضمن صلاحياته التى تتيح له أن يقدم المساعدات والمكافآت التى يراها مناسبة من بيت المال. ولكن هذا الموقف، الذى لم تكن تدعمه أية سوابق إسلامية فى العهد الراشدى بل هو يخالف صراحة ما قرّره المسلمون بشأن أرضى الصوافى والأراضى الخراجية، حيث اعتبر فيئًا للمسلمين ووقفًا لهم، فلا يحق لأحد التصرف فيها بأى شكل من الأشكال، إن كان بالبيع أو بالشراء أو بمنحها قطائع، حتى وإن كان أصحابها- أى العاملين على هذه الأرض - قد توفوا وليس لهم وارث، ولهذا فلا يصحّ ولا يجوز أن تعتبر هذه الأراضى متساوية مع الجوائز الخاصة[٦]. هذه بعض الانحرافات التى حدثت فى مصادر الدولة وكان لها الأثر البالغ على النظام المالى.

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧٤ . (٢) الأحكام السلطانية للماوردى صـ١٧٥ .

(٣)، (٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٧٦ . .

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١١٧ .

(٦) المصدر نفسه صـ ١١٨ .

ثانيًا: النفقات العامة:

١ - **النفقات العسكرية:** فى عهد عبد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغ حدها الأدنى ١٢٠٠ درهم. وحدها الأوسط ١٦٠٠ درهم وحدها الأعلى ١٨٠٠ درهم[(١)]، فى ولاية العراق، والغريب أن هذا لا يتلاءم مع الحالة الاقتصادية فى عهد الحجّاج والتى انخفضت فيها إيرادات المال بشكل كبير، لكن يفسر ذلك كثرة من خرج على الحجّاج من جنده، وكان يلغى عطاء من خرج عليه ويزيد فى عطاء الباقين[(٢)].

٢- **نفقات الصناعات الحربية:** كان اهتمام الدولة الأموية منصبًا على تطوير سلاح البحرية، وسيأتى الحديث عن ذلك فى الصناعات بإذن الله.

٣- **النفقات الإدارية:** كان الحد الأقصى لرواتب الكتّاب طوال العصر الأموى وطرفًا من العباسى حتى عهد المأمون هو ٣٦٠٠ درهم سنويًا، وكان حدها الأدنى ٧٢٠ درهمًا سنويًا[(٣)]، وكان مرتب كاتب ديوان رسائل الحجّاج ثلاثمائة درهم شهريًا، وقد كان يوزعها فيجعل لامرأته خمسين درهمًا، وينفق على شراء اللحم خمسة وأربعين درهمًا، وما تبقى ينفقه على الدقيق، وإن فضل شيء تصدق به، وقد عاده الحجّاج من علة، فوجد بين يديه كانون من طين ومنارة من خشب فقال له: ما أرى رزقك يكفيك. قال: إن كانت ثلاثمائة لا تكفينى فثلاثون ألفًا لا تكفينى[(٤)]. ويمكن اعتبار متوسط الدخل الفردى المناسب فى العصر الأموى هو ما بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة درهم شهريًا[(٥)]، ويدخل من ضمن النفقات الإدارية، مرتبات الولاة والقضاة وموظفى الدولة عمومًا فقد كانت الدولة تتكفل بمرتباتهم.

ثالثًا: تطور القطاع الزراعى:

كان تطور القطاع الزراعى للدولة الأموية فى الجانب الغربى، وذلك بسبب عوامل عديدة منها:

١- الاستقرار السياسى لتلك المنطقة خلال معظم العصر الأموى.

٢- الاستقرار النقدى الذى كانت تتمتع به المنطقة حتى قبل سك النقود الإسلامية، ذلك أنها ورثت الدنانير البيزنطية، والتى ظلت عملة مستقرة لم تتعرض لما تعرضت له الدراهم الفارسية من غش.

---

(١)، (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه ص١٠٧. (٤)، (٥) المصدر نفسه ص١٠٨.

٣- أن المنطقة الغربية من الدولة الأموية لم تعان مما كانت منه المنطقة الشرقية من تركز فى الثروة، ووجود عدد كبير نسبيًا من أفراد المجتمع دخولهم منخفضة نسبيًا، ويعود ذلك إلى أن مادة الجيش الأموى السياسية كانت من جند الشام، وقد تميز أهل هذه المنطقة فى العطاء[١]، مما جعل الدورة الاقتصادية فى المنطقة الغربية تدور بسرعة أكبر، وبالتالى ينشط القطاع الزراعى فيها بشكل أكبر وينمو بشكل أسرع، بينما كان معظم سكان المنطقة الشرقية هم من أصحاب الدخول المنخفضة «الموالى».

٤- استبدال الضرائب العينية فى كل من الجزيرة والشام بضرائب نقدية خلال المسح الذى تمّ فى عهد عبد الملك[٢]، وهذا أثر فى العطاء، فزاد الطلب النقدى لساكنى المدن على السلع الزراعية، ومنتجات الريف، وأحدث نوعًا من الاستقرار، وأحدث زيادة فى دخول المزارعين مكنتهم من تحقيق تنمية زراعية[٣].

وقد ظهرت دلائل التطور الزراعى بالمنطقة الغربية كثمرة لتلك العوامل وغيرها، وكان من أبرز تلك العوامل:

١- زيادة حصيلة خراج منطقتى الجزيرة والشام نتيجة المسح الذى تم لهما فى عهد عبد الملك بن مروان.

٢- تطور نظام الرى من خلال توزيع المياه بين الأنهار الفرعية[٤]، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الأراضى الزراعية، فهذه بعض الدلائل التى تشير إلى التطور الزراعى بالمنطقة الغربية من الدولة الأموية.

*** التدهور الزراعى فى القسم الشرقى من الدولة الأموية:**

كان الطابع العام لقطاع الزراعة فى هذا القسم السير نحو التدهور، ولعل من أبرز الأسباب التى أدت إلى تدهور القطاع الزراعى فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ما يلى:

١- الاضطراب السياسى، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية.

٢- تركز الثروة فى يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالى، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أى حدوث كساد اقتصادى بالمنطقة[٥].

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص١٩٢. (٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه ص١٩٣.
(٥) المصدر نفسه صـ١٩٦..

٣- قرار بيع الأراضى الخراجية وجعل ثمنها فى بيت المال، جاء ذلك لمواجهة النقص فى إيرادات الدولة[١]. فأدى إلى توفير السيولة النقدية اللازمة للدولة على المدى القصير، لكنه على المدى الطويل كانت له آثار عكسية على إيرادات بيت المال، فقد تحولت هذه الأراضى الخراجية إلى أراض عشرية، وبينما لا تقل ضريبة الخراج عن (٢٥٪) وقد تصل إلى (٥٠٪) من حصيلة الإنتاج الزراعى سنويًا، أصبح الحد الأقصى بما تدره لبيت المال هو (١٠٪) سنويًا، وقد أدى انخفاض إيرادات الدولة على هذا النحو إلى إضعاف مقدرة الدولة فى المدى الطويل على تمويل المشاريع العامة، والتى كان غالبها يدعم قطاع الزراعة، إلى جانب ذلك كان لهذا القرار أثر مباشر على الإنتاجية الزراعية، فقد كان البائعون هم أصحاب الأرض الأصليين الذين عرفوا كيف يتعاملون معها، وأسلوب زراعتها، واكتسبوا الخبرة الزراعية من طول مكثهم فيها، بينما كان المشترون من العرب وهم ذوو خبرة قليلة بالزراعة، خاصة إذا ما قورنت بالنسبة لخبرة المزارعين الأصليين.

٤- إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث فى عهد الحجّاج من أن بثوقًا انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح، فلم يعمل الحجّاج ـ بوصفه والى المنطقة ـ على سد تلك البثوق مضارة لأهلها ـ لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث فى الخروج عليه ـ فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[٢].

٥- حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالى والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والى العراق إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[٣].

ونتيجة لتلك الأسباب وغيرها فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعى العام فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، وكان أبرز تلك العلامات ما يلى:

١- تدهور غلة الخراج، حيث أخذت فى التناقص المستمر[٤].

٢- هجرة الفلاحين للأراضى الزراعية والاتجاه نحو المدن، وذلك لزيادة حجم ضريبة الخراج ـ بالضرائب الإضافية ـ وعنف الجباية، فتركوا أراضيهم وهاجروا إلى المدن[٥].

(١) الخراج والنظم المالية صـ٢٠٣، ٢٠٤. (٢)، (٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص١٩٨.
(٤) المصدر نفسه ص١٩٩.
(٥) تطور ملكية الأراضى فى منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموى صـ١٩٥.

٣- حالة القلق التى انتابت المزارعين الذين بقوا فى أراضيهم مما دفعهم لتسجيل أراضيهم بأسماء الأمراء والأشراف؛ وهو ما يعرف بالإلجاء طلبًا للحماية، ومن أمثلة ذلك إلجاء كثير من المزارعين أراضيهم بمسلمة بن عبد الملك للتعزز به[١].

٤- حدوث نقص كبير فى الإنتاج الحيوانى، وبالذات حيوانات الحرث، مما دفع والى العراق إلى إصدار أمر يقضى بمنع ذبح الأبقار[٢]، فى إحدى خطوات علاج الأزمة، كما قام بتوريد كمية من الجواميس من إقليم السند لسد العجز الحاصل فى دواب التنمية الزراعية[٣].

ومع ذلك فقد كانت خلال هذه الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التى خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال عهد عبد الملك، وكان من أبرزها ما يلى:

١- عملية نقل الأيدى العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية فى الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة:

أ- نقل الحجّاج بن يوسف عددًا من مزارعى بلاد السند بأهليهم وجواميسهم وإسكانهم فى أرض موات، فأحيوها[٤].

ب- نقل رؤوس الأموال إلى مناطق فقيرة لتنميتها، ومثال ذلك إسكان قتيبة بن مسلم لمجموعة من العرب فى سمرقند[٥]، ومعلوم أن العرب كانوا من أعلى الناس ثروة فى العصر الأموى[٦].

رابعًا: تطور التجارة:

مر تطور التجارة الداخلية فى عهد عبد الملك بمرحلة ضعف بسبب عوامل أثرت على حجم التجارة الداخلية، كان من أبرزها ما يلى:

١ ـ كثرة الفتن والقلاقل الداخلية التى عصفت بمعظم أركان الدولة الأموية، ومن المعلوم بداهة أن الاستقرار السياسى والأمن الداخلى هى من أولويات ازدهار التجارة الداخلية ونموها، ومع افتقادهما فى الدولة الأموية بشكل كبير تعثرت التجارة الداخلية.

٢ ـ نقص السيولة النقدية.

(١) الخراج والنظم المالية للريس صـ٢٦٠.
(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص١٩٩.
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى صـ ٣٦٨.
(٤) الخراج والنظم المالية للدولة الأموية صـ٢١٥.
(٥)، (٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص٢٠٠.

٣- صعوبة دفع الأثمان للصفقات التجارية، وعلى جهة الخصوص الكبيرة منها.

٤- ارتفاع نسبة الضرائب على التجارة حيث روى أنها وصلت[١] إلى ٣٣٪.

ومع بداية ٧٧ هـ نمت التجارة الداخلية وازدهرت، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب، من أبرزها:

١- زيادة السيولة النقدية الداخلية، وذلك بإصدار العملة الإسلامية الجديدة الموحدة، والتى تطورت من حيث الدقة والانضباط والعيار، حتى أصبحت محل ثقة المتعاملين فى الأسواق، وأصبحت تلقى قبولاً عامًا مما سهل عملية المبادلات بشكل كبير، وحل عدد النقود محل وزنها، وبذلك كانت عملية الإصدار النقدى نقطة تحول فى تطور التجارة الداخلية بشكل خاص، سواءً من حيث الزيادة فى حجمها أو الاتساع فى أرجائها.

٢- حدوث هدوء واستقرار نسبى داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية.

٣- تمت فى هذه المرحلة بعض الإصلاحات التى كان من شأنها تيسير الصفقات التجارية، ومن الأمثلة على ذلك ما يلى:

أ- توحيد وحدة الكيل والميزان من قبل الحجّاج بإقليم العراق[٢].

ب- تنظيم الأسواق مما يسهل ويخدم الحركة التجارية[٣].

ج- وجود خدمات لراحة التجار، كالفنادق والحمامات داخل الأسواق[٤].

وأما التجارة الخارجية فى عهد عبد الملك، فقد كانت متعلقة بالدولة البيزنطية ودول المشرق الأقصى.

١ - العلاقة مع الدولة البيزنطية: وقد مرّت العلاقة التجارية معها بمرحلتين:

*** مرحلة نمو وقوة وازدهار:**

وقد نشأ هذا النمو والقوة والازدهار نتيجة عدة عوامل لعل من أهمها:

أ- كثرة الاضطرابات والحروب فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق، ولو بشكل جزئى، وبالتالى زيادة حجم المبادلات التجارية مع الدولة البيزنطية بالغرب.

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢١٦ . (٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه صـ٢١٧ .

ب- الاستقرار الأمنى فى المناطق الغربية مع الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر فى الشرق إلى إقليم الشام، بحثًا عن فرص استثمارية آمنة.

ج- الاعتماد الكلى لكل من الدولتين على الأخرى فى مجال هام وحيوى بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كليًا على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كليًا فى حجم النقد الذهبى داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية[١].

*** مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدان:**

وقد شهدت هذه المرحلة انخفاضًا كبيرًا فى المبادلات التجارية بين الدولتين، ويعود ذلك إلى عدة عوامل من أبرزها ما يلى:

١- تدهور العلاقات السياسية بين الدولتين بشكل كبير.

٢- حدوث هدوء نسبى فى الأقاليم الشرقية ـ بعد القضاء على الثورات الداخلية ـ مما أدى إلى رفع معدلات التبادل التجارى مع دول الشرق الأقصى.

٣- دخول معظم دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية، فتهيأ لها نوع من الاكتفاء الذاتى لتلك الدولة، لا سيما بعد دخول بلاد الهند والسند.

٤- تزايد اعتماد الدولة الأموية فى تجارتها مع دول الشرق الأقصى على التجارة البحرية عن طريق الخليج العربى، لا سيما بعد تطور صناعة السفن بها[٢]، بشكل أصبحت معه قادرة على الخوض فى المحيطات، مما جعل معظم تجارة الدولة الأموية مع دول الشرق الأقصى تتم بواسطة الطرق البحرية[٣]، فنتيجة لتلك العوامل وغيرها تدهورت التجارة بين البلدين.

٢- العلاقات التجارية مع دول المشرق الأقصى:

كانت تعتمد التجارة بين الدولة الأموية ودول المشرق على نوعين من الخطوط، وهما خطوط التجارة البرية، وخطوط التجارة البحرية.

أ- التجارة عن طريق الخطوط البرية: دخلت كثير من دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية، لا سيما بلاد الهند، والسند، والتى كانت تحتل صادراتها نسبة كبيرة من واردات

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٠٨.

(٢)، (٣) المصدر نفسه ص٢٠٩.

الدولة الأموية، ومعنى ذلك تحول جزء من التجارة الخارجية مع الشرق إلى تجارة داخلية بين أرجاء الدولة الإسلامية(١).

ب ـ **التجارة عن طريق الخطوط البحرية:** اهتمت الدولة بالتجارة البحرية، وأكدت على عنصر الأمن للطرق التجارية، ومن صور ذلك إرسالها جيش للقضاء على قراصنة كانوا يقطعون الطريق على تلك الخطوط البحرية فقضى عليهم(٢)، واهتم الحجاج بتحصين المدن التجارية(٣)، كما طور صناعة السفن التجارية وأصبحت وسائل النقل البحرى والرحلات التجارية أكثر أمنًا، وسرعة، وأعلى كفاءة مما شجع على رواج التجارة(٤).

خامسًا: الحرف والصناعات:

من أشهر الصناعات فى عهد عبد الملك:

١ - **صناعة المنسوجات:** وقد تطورت صناعة النسيج فى الدولة الأموية كثيرًا، وأصبحت لها مصانع خاصة بها سميت دور الطراز، وكان دورها إنتاج الملابس الخاصة بموظفى الدولة الكبار، كالأمراء والولاة، وقد تحدثت عن ذلك فى كلامنا عن ديوان الطراز.

٢ - **التشييد وصناعة مستلزمات البناء:** شهدت الدولة الأموية اهتمامًا بالعمران، وتشييد المساكن، وزخرفتها، ومن أبرز هذه المظاهر المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وقد أدى الإقبال على تزيين البيوت والتأنق فيها إلى ظهور صناعات تلبى تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام وزخرفته، وكذا استخدام الزخارف الجبسية لتزيين المبانى(٥).

٣ ـ **الصناعات الحربية:** توسعت هذه الصناعة فى عهد عبد الملك بن مروان وفتح دارًا بتونس لصناعة السفن الحربية، وكانت نواة تلك الدار ألف عامل متخصص فى صناعة السفن ثم نقلهم من دار الصناعة ـ المنطقة الصناعية ـ بمصر، وقد تم وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة(٦)، وفى إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصر، وكبر حجمها. وفى تطور لاحق

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢١١ . (٢) المصدر نفسه صـ٢١٢ .

(٣) الحجاج بن يوسف وجه حضارى فى تاريخ الإسلام صـ ٥٩ .

(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢١٣ . (٥) تاريخ الموصل (١/ ٢٢٣).

(٦) تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى صـ١١٥، ١١٦ .

لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والى تونس بتوسيع دار الصناعة بها فشق قناة بين الميناء وبين المدينة بطول اثنى عشر ميلاً[١]، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة[٢]، وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكانى[٣]، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيرًا عن السفن التجارية، وقد تطورت صناعة السفن التجارية فى ولاية الحجّاج بصفة عامة[٤]، وكان من أشهر أماكن صناعتها البحرين ومدينة واسط بالعراق[٥].

٤- **صناعة البردي في مصر:** كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة، ذلك لأن البردى كان يستخدم قبل ظهور صناعة الورق آنذاك فى المكاتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافًا مباشرًا لأهمية تلك الصناعة، وكانت صادرات البردى تدر أرباحًا طيبة، وما ذكر عنها من تطور أنها استبدلت العبارات البيزنطية التى كانت تطبع على البردى المخصص للتصدير بعبارات دينية إسلامية، وكان ذلك فى عهد عبد الملك[٦].

٥- **صناعات وحرف أخرى:** ومن أهمها: حرفة الحدادة والصناعات الخشبية، وصناعة الحلى والمجوهرات[٧].

سادسًا: إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد:

كانت عوامل عديدة تتجمع فى الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير فى نظام العملة المتعارف عليه فى العالم الإسلامى، وبعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير، واستقرت أحواله الداخلية بعد مضى فترة من خلافة عبد الملك بن مروان، فقد كان العالم الإسلامى يتعامل حتى ذلك الوقت بالعملة المالية لفارس والروم من دراهم، ودنانير. وهذه العملات المالية قد تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية، واضطراب الأحوال فى إمبراطورية الروم، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافر يكفى لتغطية النشاط التجارى والاقتصادى، والحاجة المالية للدولة الإسلامية الواسعة والنشيطة[٨]، وقد قام عبد الملك بتعريب النقد تعريبًا نهائيًا، وأحدث دور الضرب التى تضرب فيها الدنانير، وجعلها بإشراف الخلافة، ويود المؤرخون أن يشعرونا بأنه فعل ذلك

(١) الإدارة فى العصر الأموى صـ٢٢٢ .
(٢)، (٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢٤٠.
(٤)، (٥) المصدر نفسه صـ٢٤٢ .
(٦) المصدر نفسه صـ٢٤٣ .
(٧) المصدر نفسه صـ٢٤٤.
(٨) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٢٨.

لأنه تخاصم مع ملك الروم فيقولون: إن الروم كانوا يأخذون من البلاد العربية صحائف البَرْدى، وأمر عبد الملك أن يكتب على رأس صحائف البردى «شهد الله أنه لا إله إلا هو»، فغضب لذلك ملك الروم(1)، وكان محتاجًا إلى البردى، فهدد بأن يطبع على الدنانير عبارات القذف بحق الرسول ﷺ، إن استمرت تلك العبارة على صحف البردى، فاعتمد عبد الملك أن يضرب السكة فى بلاده ويستغنى عن الدنانير التى تأتيه من بلاد الروم. على أن الأمر يبدو أوسع من هذا، فقد كان فى بلاد المسلمين نقود فارسية ونقود حميرية قديمة، وغيرها، وقد حاول الخلفاء من قبله ضرب النقود، بل يرجع إلى عمر بن الخطاب أنه ضرب الدراهم لكنه استبقى عليها العبارات الفارسية، وأضاف بعض العبارات العربية فيها كقول «جائز»، واستمر ضرب النقود فى عهد عثمان ومعاوية وابن الزبير، فكان من الطبيعى أن يستأنف عبد الملك عمله، وهو ما فعله. على أن عبد الملك يمتاز بأنه وضع لذلك مخططًا واضحًا، فليست القضية قضية إنشاء مصنع للنقود، ونقل السكة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية فحسب، بل يدخل فى هذا الأمر وزن النقود وشكلها(2).

وقد تحدث المؤرخون عن أسباب دينية وسياسية واقتصادية قد لعبت دورًا أساسيًا فى بناء موقف الخليفة، تتلخص هذه الأسباب على الشكل التالى:

١- كان الخليفة حريصًا على صبغ الدولة الأموية بصبغة إسلامية، ولذا فإن الإصلاح النقدى يندرج ضمن خطة شاملة لتعريب مؤسسات الدولة(3).

٢- حرص الخليفة على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية التى كانت تسيطر دنانيرها الذهبية على الجانب النقدى من اقتصاديات الدولة(4).

٣- توقف حجم السيولة النقدية للدولة الأموية على ما يرد عليها من الدولة البيزنطية، مما يعرضها لأزمات اقتصادية حادة، خاصة فى حالات انقطاع هذه السيولة بسبب ممارسة ضغوط اقتصادية، أو نشوب معارك حربية أو نحوها.

٤- سيطرة الدولة على مصادر عرض النقود، وضمان تخليصها من الغش وكسب ثقة الناس فى النقود المتداولة.

(١) حياة الحيوان للدميرى (١/ ٩١ ـ ٩٤). (٢) الدولة الأموية: يوسف العشى صـ٢٣٤.
(٣) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٣٢٠.
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٤٥.

٥- حاجة الدولة الفعلية إلى عملة داخلية موحدة ومنضبطة حتى تستوفى بها حقوقها لدى الأفراد، وتسهل لها القيام بوظائفها الاقتصادية[١].

٦- إن إصدار النقود يعبر عن السيادة الكاملة للدولة الإسلامية، ويحررها من النفوذ الأجنبى[٢]، فقد أراد عبد الملك بن مروان أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادى مستقل عن بيزنطة وعدم الارتباط بنقدها، كما أن إصدار أول دينار إسلامى يرتبط بحالة الصراع مع البيزنطيين حيث استطاع الخليفة أن يوجه ضربة اقتصادية موجعة للدولة البيزنطية.

٧- يعتبر سك النقود الإسلامية وتوحيدها فى الدولة اتجاهًا نحو الدولة المركزية وضبط جهازها المالى[٣].

٨- ومن المعلوم الأكثر أهمية التى جعلت الخليفة يقدم على إصدار النقود الإسلامية، توافر كميات كبيرة من الذهب والفضة لدى المسلمين فى البلاد المفتوحة، فاستند على قاعدة هذا المخزون الكبير من المعادن فى إصدار النقد الإسلامى الجديد[٤].

أهم خصائص النقود الإسلامية فى عهد عبد الملك:

١- أنه ألغى العبارات والإشارات التى تشير إلى العقيدة المسيحية المحرفة، واستبدلها بعبارات تدل على عقيدة التوحيد الإسلامية.

٢- أنها موافقة فى أوزانها النسبية لنصاب زكاة النقدين ومقدارها.

٣- أنه حدد وزن الدينار باثنين وعشرين قيراطًا إلا حبة[٥]، وجعل الدرهم خمسة عشر قيراطًا أو ستة دوانق[٦].

٤- أنه حدد بناء على الوزن السابق سعر الصرف بين الدرهم والدينار، فكانت كل عشرة دراهم تساوى سبعة دنانير[٧].

٥- تحددت تواريخ إصدار النقود الأموية بالتاريخ الهجرى المتسلسل، أى وفق المتعارف عليه، بينما افتقرت النقود الساسانية والبيزنطية إلى التواريخ التقويمية، إذ اعتمدت تواريخها على بداية حكم كل ملك[٨].

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ١٤٥.

(٢) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى صـ٣٢١. (٣)، (٤) المصدر نفسه صـ٣٢٢.

(٥)، (٦)، (٧)، (٨) التطور الاقتصادى فى العهد الأموى صـ١٤٦

محاربة تزييف العملة: تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده وولاتهم فى تعقب أية محاولة لغش النقود وتزييفها، ومعاقبة من يثبت عليه ذلك، فقد روى أنه أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده، ثم ترك ذلك وعاقبه، فاستحسن ذلك شيوخ المدينة(١).

سابعًا: العمارة والبناء في عهد عبد الملك:

اقتضت أهداف دولة عبد الملك إنشاء مدينة واسط، وتونس.

١- **بناء واسط:** اختطها الحجّاج بن يوسف الثقفى فى أرض كسكر(٢)، وهى تتوسط عدة مدن، فهى تبعد عن الكوفة أربعين فرسخًا، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة، وهى إحدى مدن العراق الكبرى قبل بناء بغداد(٣)، وقد بدأ الحجّاج فى بنائها عام ٨٣هـ وانتهى منها سنة ٨٦هـ(٤)، وكان شروعه فى البناء بعد موافقة عبد الملك، وقد أنفق على بنائها خراج العراق كله لخمس سنوات(٥)، كانت رؤية تخطيطها تتضح فيها الملامح الأساسية للتخطيط للمدينة الإسلامية، فاشتملت المدينة على المسجد ـ الجامع ـ، ودار الإمارة في الوسط، وتضمينها الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها كذلك من الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموى الجديد. ولعبت واسط دورًا سياسيًا مهمًا، فكانت هناك المناظر المتصلة بينها وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهارًا وإن كان ليلاً أشعلوا نيرانًا، فتجرد الخيل إليهم، فكانت قزوين ثغرًا(٦)، فمنها كانت تتحرك الجيوش، وفيها ضربت النقود(٧)، وازدهرت واسط من الناحية الاقتصادية فكثرت فيها المحلات التجارية، وتقدمت فيها الزراعة، وكانت عاصمة العراق فى عهد الحجّاج.

٢ ـ **بناء تونس:** اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغسانى عام ٨٢هـ، لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام ٧٨هـ(٨)، بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة(٩)، وإنما سميت تونس فى أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس،

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٤٤١ .   (٢) تجديد الدولة الأموية صـ١٩٥ .

(٣)، (٤) فتوح البلدان صـ٤٠٧، تجديد الدولة الأموية صـ١٩٥ .

(٥) تاريخ واسط، بحشل صـ ٣٨، ٣٩، تجديد الدولة الأموية صـ ١٩٧.

(٦)، (٧) معجم البلدان (٥/ ٣٥٠).

(٨) رياض النفوس للمالكى نقلاً عن تجديد الدولة الأموية ص ٢٠٠.

(٩) معجم البلدان (٢/ ٦٠١) .

فلزمها هذا الإسم فسميت باسم تونس[١]، واختط حسان تونس غربى البحر المتوسط بنحو عشرة أميال[٢]، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحريًا، ومركزًا للأسطول الإسلامى بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب[٣]، بخبراء فى هذه الصناعة زوده بها والى مصر عبد العزيز بن مروان بناء على توجيه الخليفة عبد الملك[٤]. وقد بنيت مدينة تونس طبقًا لأهداف سياسية استراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية، تبناها الخليفة عبد الملك، أما **الأهداف السياسية** البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقى، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومي بادئ الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدى إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة عبد الملك فقام بالإيعاز لشقيقه والى مصر: عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفى قبطى من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام، **وأما الهدف الثانى**: فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بايجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام فى المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين[٥]، تنظيم الخراج، والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامى[٦]، وسارت المدينة لتكون معسكرًا حربيًا فى البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات، وأخيراً مركزًا حضاريًا ومركز إشعاع فكرى وعلمى وثقافى[٧].

وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان أقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة[٨].

٣ ـ بناء مسجد قبة الصخرة: بنى هذا المسجد الخليفة عبد الملك بن مروان وسماه الأوربيون خطأ مسجد عمر، وقد رصد الخليفة لإعماره أموالاً طائلة[٩]، قال ابن كثير: ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغًا، ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة فجاءت فى أحسن البناء، وفرشاها

(١) الروض المعطار صـ١٤٤ نقلاً عن تجديد الدولة الأموية صـ٢٠٠.

(٢) تقويم البلدان نقلاً عن تجديد الدولة صـ٢٠٠.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (٦/ ٣٢).

(٤) تجديد الدولة الأموية صـ ٢٠٠

(٥)، (٦) البيان المغرب (١/ ٣٨).

(٧)، (٨) تجديد الدولة الأموية صـ٢٠٣ .

(٩) المصدر نفسه صـ٢٠٦ .

بالرخام الملون وحفّاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخدامًا بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران، يعملون منه غاليه، ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئًا كثيرًا، وفرشاها بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور شمّ من مسافة بعيدة، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئًا كثيرًا مما فى الآخرة، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله ﷺ ووادى جهنم، وكذلك فى أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا. . . وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظرًا، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة، ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه، فضل من المال الذى أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك، فكتب إليهما قد وهبته لكما، فكتبا إليه إنا لو استطعنا لزدنا فى عمارة هذا المسجد من حلى نسائنا، فكتب إليهما: إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث[1].

وهناك عدة أسئلة تطرح نفسها: ما سبب بناء هذا المسجد وبهذا الإتقان والإبداع؟ ولماذا تزامن مع حركة ابن الزبير فى الحجاز؟، إن أول المؤرخين الذين حاولوا إيجاد التسويغ لبناء مسجد قبة الصخرة المشرفة هو اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) وقد ربط ذلك بالحكم والخلافة حينئذ، وأوجد صيغة مشتركة فى التعامل بين السلطة الأموية والمجتمع، لأن معظم العالم الإسلامى كان قد بايع عبد الله بن الزبير بالخلافة (٦٤ ـ ٧٣هـ) ما عدا إقليم الأردن[2]، فقد قال فى كتابه: ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك لأن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض علينا، فقال: هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى، ومسجد بيت المقدس». وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه لما صعد إلى السماء[3]. واليعقوبى راوى الأثر السابق مؤرخ شيعى إمامى كان يعمل فى كتابة الدواوين فى الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب العباسى، وقد عرض اليعقوبى تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٤٠، ٤١).
(٢) تجديد الدولة الأموية صـ٢١٢ .
(٣) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٣٦١).

لا يعترف بالخلافة إلا لعلى بن أبى طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة، ويسمى على بالوصى، وعندما أرخ لخلافة أبى بكر وعمر وعثمان لم يضف إليهم لقب الخلافة إنما تولى الأمر فلان، ثم لم يترك واحدًا منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة، وقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أخبارًا سيئة، وكذلك عن خالد بن الوليد[1]، وعمرو بن العاص[2]، ومعاوية بن أبى سفيان[3]، وعرض خبر السقيفة خبرًا مشينًا[4]، ادعى فيه إنه قد حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من على بن أبى طالب الذى هو الوصى فى نظره، وطريقته فى سياق الاتهامات - الباطلة - هى طريقة قومه من أهل التشيع، وهى إما اختلاق الخبر بالكلية[5]، أو التزيد فى الخبر[6]، والإضافة عليه أو عرضه فى غير سياقه ومحله حتى يتحرف معناه، ومن الملاحظ أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك وعندما ذكر خلفاء بنى العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم فى كتابه البلدان باسم الدولة المباركة[7]، مما يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية، وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل فى كتابة التاريخ الإسلامى، وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا فى التاريخ الإسلامى وسيرة رجاله، مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات، والقسم الثانى كتب من زاوية نظر حزبية، كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمى[8]. هذا هو اليعقوبى الذى اعتمده المؤرخون المتأخرون فى روايته قصة بناء مسجد قبة الصخرة أو مسجد بيت المقدس على حد تعبيره، وعلينا أن نتحفظ من رواية اليعقوبى الآنفة الذكر، ونعتبرها خارجة عن الإطار المقبول لأنه لا يعقل أن رجلاً بمستوى عبد الملك في دهائه ومكره وعقله وفقهه يضع نفسه موضع شبهة الكفر، فيصد الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام[9]، هذا من ناحية العقل والمنطق، وأما من ناحية السند فقد بينا أننا لم نسمع أن أحدًا من خصوم الأمويين أوردوا ذلك فى مطاعنهم على عبد الملك - سوى الشيعة -. كما أن الإمام الزهرى لم يلتق بعبد الملك إلا بعد مقتل ابن الزبير، فقد نقل الذهبى عن الليث بن سعد أنه قال: قدم ابن شهاب على عبد الملك سنة اثنين وثمانين[10].

(١) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٣١) .
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٢) .
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٣٢، ٢٣٨) .
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٢٣، ١٢٦) .
(٥)، (٦) منهج كتابة التاريخ الإسلامى صـ٤٣١ .
(٧) كتاب البلدان لليعقوبى صـ٤٣٢ .
(٨) منهج كتابة التاريخ الإسلامى صـ٤٣٢ .
(٩) تجديد الدولة الأموية صـ٢١٤ .
(١٠) موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية صـ ١٣٦.

وقد نص على أن ابن الزبير قُتل سنة ٧٢هـ[١]، وبعد مقتله استوثقت الممالك لعبد الملك[٢]، فليس هو فى حاجة لمن يضع له أحاديث لصرف الناس عن الحج، والزهرى لم يكن عند مقتل ابن الزبير ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتقبل منه حديثًا موضوعًا يلغى به فريضة الحج الثابتة بالقرآن والأحاديث الصحيحة، وذلك لصغر سنه، فإنه قد ولد بعد الخمسين من الهجرة[٣]، وصداقته بعبد الملك وتردده عليه لا يقدح فى أمانته ودينه، وأما حديث شد الرحال فهو صحيح رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من العلماء، قال عنه ابن تيمية: وهو حديث مستفيض، متلقى بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق[٤]، ولم ينفرد الزهرى رحمه الله برواية هذا الحديث حتى يتهم بوضعه، والحديث ليس فيه فضل قبة الصخرة وليس فيه الدعوة إلى الحج إليها والطواف حولها بدلاً عن الكعبة، كما يدعى بعض المزورين، وغاية ما فيه فضل الصلاة فى بيت المقدس وزيارته[٥]، وأما الصخرة فقد ذكر ابن القيم أن كل حديث فيها فهو كذب مفترى[٦]، وقد قام الدكتور حارث بن سليمان الضارى بنسف هذه الشبهة فى كتابه القيم «الإمام الزهرى وأثره فى السنة»[٧] فى ثلاث عشرة صفحة، وأتى بحجج دامغة قوية لمن يبحث عن الحقيقة العلمية، وسيأتى الحديث عن الإمام الزهرى فى عهد هشام بن عبد الملك بإذن الله تعالى.

****

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٧).

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع صـ٢١٨.

(٤) الفتاوى (٢٧/ ٥ ـ ٦).

(٥) السنة ومكانتها فى التشريع صـ٢١٩.

(٦) المنار المنيف صـ٨٧.

(٧) الإمام الزهرى وأثره فى السنة صـ٤٥٧ ـ ٤٧٠.

المبحث الخامس

النظام القضائى والشرطة

أولاً: القضاء:

كان القضاء على عهد عبد الملك استمراراً لما كان عليه زمن من سبقه من الخلفاء، فضلاً عن إسهاماته الرائدة بتنظيم جوانب متعددة منه، فهو أول من أفرد للمظالم[1] يومًا، كما أوجب أن تقرأ عهود القضاة، أى أوامر تعيينهم، فى المسجد الجامع أولاً، ثم يتوجهون إلى دار الأمير حيث يُتلى أمامه عهد تولية القاضى[2]، وكان الخليفة عبد الملك يختار من القضاة من يتصف بالتقوى والنزاهة، فقد ولى على القضاء بلال بن أبى الدرداء[3].

١- أشهر قضاة عبد الملك: وكان من أشهر قضاة عبد الملك أبا أدريس الخولانى وذلك سنة ٧٤هـ، وكانت له المظالم أيضًا حتى أعفاه عبد الملك بطلب منه[4]، ثم ولى عامر الأشعرى[5]، ثم عبد الله بن عامر اليحصبى[6]، وعبد الله بن قيس، ثم سليمان المحاربى، ومعظم هؤلاء القضاة من الفقهاء ومن رواة الحديث[7].

٢- رزق القاضى: ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢ هـ قال: ما فعل شريح العراقى؟ قيل: حى، قال: علىَّ به. فجاءه فقال: ما منعك من القضاء؟ فقال: ما كنت أقضى بين اثنين فى فتنة[8]. قال: وفقك الله عُد إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذها بالفلوجة وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[9].

٣ ـ مراقبة القضاة: كان عبد الملك يراقب قضاته ويتابع أخبارهم، فقد أخبر أن زوجة قاضية الحارث الأشعرى، كلمت زوجها فى رجل يقضى له بقضية، وأن الرجل أهدى إلى زوجة القاضى هدية، فقال عبد الملك:

إذا رشوة من باب بيت تقحمت ... لتسكن فيه والأمانة فيه

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ ١٨٨ .

(٢) الإسلام والحضارة الإسلامية، كرد على صـ ١٦١ .

(٣) أخبار القضاة (٣/ ٢٠٢).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٢٠٢)، الإصلاحات صـ ١٨٩ .

(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ ١٨٩ .

(٦) أخبار القضاة (٣/ ٢٠٣).

(٧) إدارة بلاد الشام صـ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٨) ، (٩) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/ ٢١١) .

ســعــت هربًا منــه وولت كــأنــهــا   حليم تــولى عن جــوار ســفــيــه[1]

٤- عدم التدخل فى أحكامهم وأعمالهم: فقد كان موقف عبـد الملك من القضاء والقضاة مبنيًا على الاحترام وعدم التدخل فى عملهم وأحكامهم[٢].

٥- احترامه لقضاء عبد الله بن الزبير رضى الله عنه: أرسل أبان بن عثمان عامل عبد الملك على المدينة رسالة يسأله عن موقفه من أقضية وأحكام عبد الله بن الزبير، قائلاً له: إن عبد الله بن الزبير قضـى بين الناس بأقضية، فمـا يرى أمير المؤمنين. أمضـيها أم أردها؟ فكتب عبد الملك إلى أبان بن عثمان: إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ما تناول من الأمر، فإذا أتاك كتابى هذا، فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندنا يتعسر[٣].

وهذه الرسالة تبـين لنا جانبًا مـهمًا من سيـاسة عبـد الملك الحازمة، وحكمتـه فى عدم التدخل فى المؤســسة القضائية، إذ سـد بابًا على الحكام والولاة كان فتحـه يمكن أن يعرض أحكام القضاة إلى النقض المستمر[٤].

٦- تحديد مهـور النساء: قام عبـد الملك بتحديد المهور وجعلهـا (٤٠٠) أربعمائة دينار، حدًا أعلى، وهو أول من فعل ذلك اقـتداء بما فعله رسول الله ﷺ عندما خطب أم حبـيبة بنت أبى سفيان[٥]، وربما قام عبد الملك بذلك منعًا للمغـالاة فى المهور، وتشجيعًا للزواج والإنجاب[٦].

٧ـ ديوان المظالم: كان الخلـيفة عـبد الملك أول من أفـرد يومًا للنظر فى المظالـم، حيث جلس فى يوم محدد يتـصفح فيه قصص المتظلمـين من غير مباشرة للنظر فـيها، فكان إذا وقف منهـا على مشكل، أو احـتاج فيـها إلى حكم منفـذ رده إلى قاضـيه[٧] أبى إدريس الخولانى، فنفذ فيه أحكامه، وقـد قام للجلوس بنفسه حتى يرتدع الناس. فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك الآمر[٨]، وكان عبد الملك حين يجلس للـمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء[٩]، كما يقام على رأسه بالسيوف[١٠]، ويأمر شخصًا من هؤلاء القائمين على رأسه بإنشاد شعر لسعية بن عُريض وهو:

(١) أخبار وكيع (١/ ٥٦)، الإصلاحات المالية صـ١٩٠.
(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٩٠
(٣) أخبار القضاة (١/ ١٣٠).
(٤) الإصلاحات المالية ص١٩١.
(٥) الطبقات (٨/ ٩٩) الإصلاحات المالية صـ١٩٠.
(٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية صـ١٩٠.
(٧) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية صـ١٥١.
(٨) نهاية الأرب (٦/ ٢٦٩).
(٩) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية صـ١٥٢.
(١٠) الإسلام والحضارة العربية، كرد على صـ١٦٧.

إنا إذا مــــا دعــــا الهــــوى وأنصـت السـامـع للقـائل

واصطـرع القـوم بألبـابهم نقـضى بحكم عـادل فـاصل

لا نجـعل البـاطل حـقًا ولا نـلفـظ دون الحـق بـالبـاطـل

نخـاف أن تسـفـه أحـلامـنا فنخـمل الـدهر مع الخـامل[1]

ثم يجتهد عبد الملك فى الحق بين الخصمين[2]. وهذا يعنى أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوسًا منظمًا ومتكاملاً، ولا بد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يومًا معينًا من كل أسبوع للنظر فى المظالم، وتعيين قاضٍ لذلك، وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينة، وانعقاد هذه الجلسات فى مكان محدد، كل هذا يعنى وجود الأسس لديوان مستقل. لكل ذلك يمكننا أن نقول بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر فى المظالم فى الدولة[3].

ثانيًا: الشرطة:

ومن الأجهزة المهمة التى كان لها أثر فاعل فى إدارة بلاد الشام، جهاز الشرطة، وعلى رأسه صاحب الشرطة، ولابد أن الخليفة عبد الملك كان لا يختار لهذا المنصب إلا من توافرت فيه شروط صعبة التوافر[4]، وعين الخليفة عبد الملك بن مروان على شرطته: عبد الله بن هانى الأزدى[5]، ثم استبدل به يزيد بن كبشة السكسكى ثم عزل الكثير من هذا المنصب وآخرهم فى عهد عبد الملك، كعب بن حامد العبسى[6]، ولم تكن مهمة الشرطة فى عهد عبد الملك هى الجناة واللصوص فحسب، بل مارست الشرطة عملاً مهمًا، إلا وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية، فقد قلد الخليفة الحجّاج بن يوسف الثقفى هذه المهمة، فنجح فيها فى عدة مناسبات، وتمكن من ضبط جيش الخليفة وتأدية مهمته على أحسن وجه[7]، وكانت الشرطة موجودة فى جميع أقاليم الدولة وتابعة لولاتها. واتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان حرسًا خاصًا به[8]، ويرأس هؤلاء الحرس رئيس، يعين ويعزل من الخليفة، وهو المسئول عن أفراد حرسه أمام

(1) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية صـ١٥٢.
(2) البداية والنهاية (١٢/ ٣٨٥).
(3) الإصلاحات المالية صـ١٥٣.
(4) عيون الأخبار (١/ ١٦).
(5) الإصلاحات المالية صـ١٩١.
(6)، (7)، (8) المصدر نفسه صـ١٩٢.

الخليفة. ويبدو أن أعدادهم لم تكن قليلة، وكانت مهمة الحرس الأساسية، هى حماية الخليفة، والمحافظة على سلامته، فى حله وترحاله، وتنفيذ أوامره.

ومن الجدير بالذكر أن جميع رؤساء حرس عبد الملك كانوا من الموالى وبخاصة من موالى الخليفة نفسه، ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة أعمال هؤلاء المرتبطة دومًا بالخليفة، والتى تستوجب أن يكونوا موضع ثقة الخليفة للاطمئنان على سلامته، وكان الخليفة ينتقل فى مدن بلاد الشام، ونظم إقامته على هذا الأساس، فلم يكن يقيم بدمشق طوال العام، بل كان يشتو بالصَّنبرة من الأردن، وإذا انتهى الشتاء نزل الجابية، وفرّق الأرزاق على أصحابه، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق، حتى إذا اشتد الحر أتى بعلبك فقام بها حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة، وهذه التنقلات كانت تخضع لنظام حراسة مشدد، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب الشرطة فى العصر الأموى، للدكتور أرسن موسى رشيد.

****

المبحث السادس

العلماء والشعراء في عهد عبد الملك

أولاً: العلماء:

اختلف موقف العلماء من عبد الملك، فهناك من خرج عليه، كعبد الرحمن بن أبى ليلى، وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصرى وغيره، وهناك من كان قريبًا منه ناصحًا له كقبيصة بن أبى ذؤيب. وقد اخترت مجموعة من العلماء ممن كانت لهم قربة ومنزلة من عبدالملك، أو نصحوه أو ذكّروه، ولم يكن عبد الملك بعيداً عن أجواء العلماء وطلاب العلم، فقد كان فى المدينة فى مقبل شبابه مشمراً فى طلب العلم وعرف عنه أنه كان يلزم المسجد ولا يكاد يبرحه حتى سمى حمامة المسجد لعبادته، وطول انقطاعه للدراسة؛ مقبلاً على طلب العلم مجلاً لشيوخه، ولما كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة، قوى الذاكرة، فقد وعى كل ما سمع منهم، وأتقنه لمجالسته لهم[1]، وهذا أكسبه قدرة بحيث صار حجة فى المعارف الدينية كقراءة القرآن التى كان يطيل فى تلاوتها بالمدينة[2]، كما كان يحضر دراسته بدمشق[3]، وعرف بروايته للحديث، وإن كان مقلاً[4]، على الرغم أنه كان ثقة فيما رواه[5]، وروايته مثبتة فى الصحيحين البخارى ومسلم[6]، وكان فقيهًا من الفقهاء، ومن أهل العلم بالمغازى والسير[7]، وإخباريًا له علم واسع بأحاديث العرب وآثارهم فى الجاهلية والإسلام، كثير المحاورة لرواة وسادة القبائل، ونسابة له معرفة دقيقة بأنساب العرب وبخاصة أنساب قريش[8]، ولذلك كان عارفًا بنفسية العلماء قادراً على التعامل معهم، ومن أشهر العلماء الذين احتك بهم أو كانت له مواقف وعظ أو تذكيراً له هم:

١ ـ قبيصة بن ذؤيب: نشأ قبيصة فى المدينة وكان فى عداد علمائها ولكنه انتقل إلى الشام بجانب عبد الملك، وأصبح من خاصته، واختاره عبد الملك لعلاقته القديمة به فى المدينة، ولما يتمتع به قبيصة من روح مرنة تراعى الأحوال، وتقدر المواقف، وتوازن بين المصالح،

(١) أنساب الأشراف نقلاً عن تجديد الدولة الأموية صـ٢٩٠.

(٢) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢)، شذرات الذهب (١/ ٩٧).

(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن تجديد الدولة الأموية صـ٢٩٠.

(٤) الطبقات (٥/ ٢٢٦)، تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢).

(٥)، (٦) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٣). (٧)، (٨) تجديد الدولة الأموية صـ٢٩١.

وصاحب هذه الروح هو القادر على الصبر والقرب من الخلفاء والسلاطين، وهو من يرغب الخلفاء فى تقريبه عادة، ومن المواقف التى ظهرت فيها هذه الروح عند قبيصة ما ذكره ابن سعد فى طبقاته، حيث ذكر أن الصحابى الجليل جابر بن عبد الله رضى الله عنه دخل على عبد الملك وقربه، فقال جابر: يا أمير المؤمنين إن المدينة حيث ترى، وهى طيبة سماها النبى عليه الصلاة والسلام، فأهلها محصورون، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقهم فعل، قال: فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه، وجعل جابر يلح عليه حتى أومأ قبيصة إلى ابنه ـ وهو قائده وكان جابر قد ذهب بصره ـ أن أسكته، قال: فجعل ابنه يسكته، قال جابر: ويحك؟ ما تصنع بى؟ قال: اسكت، فسكت جابر، فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال: يا أبا عبد الله إن هؤلاء القوم صاروا ملوكًا. فقال جابر: أبلى الله بلاءً حسنًا، فإنه لا عذر لك وصاحبك يسمع منك. قال: يُسمع ولا يسمع وما وافقه سمع، وقد أمر لك أمير المؤمنين بخمسة آلاف درهم، فاستعن بها على زمانك فقبضها جابر(١).

فمن هذا الموقف يتضح كيف أدرك قبيصة عدم رضا الخليفة عن فتح هذا الموضوع معه من قبل جابر، وكيف أنهى الموضوع حتى لا يتطور إلى ما لا تحمد عقباه للطرفين، فأشار على ابن جابر بإيقاف والده عن الكلام، ثم يطيب خاطر جابر بأخذه بيده، والاعتذار إليه بألا يستغرب هذا التصرف من عبد الملك، فلا يتعامل معه على أنه عبد الملك العالم، وإنما على أنه عبد الملك الذى صار ملكًا ينظر إلى الأمور من نافذة الملك ومصالحه، ثم هو يعتذر لنفسه عندما وجه جابر اللوم له بأنه ليس له عذر فى عدم المطالبة بحقوق أهل المدينة ما دام له هذه المكانة عند عبد الملك، لكن الأمر ليس كما يتصور جابر وغيره بأنه قادر على تحقيق كل ما يريده من عبد الملك بل الواقع أنه يُسمع ولا يسمع، وفى هذا دليل على مراعاة قبيصة للأحوال والأشخاص(٢).

أ ـ مكانته من عبد الملك: جمع قبيصة عددًا من المهام فى عهد عبد الملك، وتعددت مسميات مهامه عند عبد الملك، فيذكر ابن سعد(٣)، وابن عساكر، وابن عبد الهادى: إن قبيصة كان على الخاتم والبريد، وأما الذهبى، فقد ذكر هذه المهام السابقة وأضاف أخرى حيث ذكر أنه كان كاتبًا لعبد الملك، ووصفه بأنه الوزير(٤). وكان يدخل على عبد الملك طروقًا(٥)، وأن عبد الملك تقدم إلى حاجبه فقال: لا يحجب قبيصة أى ساعة جاء من ليل

(١) الطبقات (٥/ ٢٣١).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ١٢٤.

(٣)، (٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٤). (٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٢٥.

أو نهار، إذا كنت خاليًا أو كان عندى رجل واحد، أو كنت عند النساء، أُدخل المجلس ثم أُعلمت مكانه. وكانت تأتيه الأخبار قبل عبد الملك فيقرأ الكتب قبله ثم يأتى بها منشورة إلى عبد الملك فيقرأها إعظامًا لقبيصة[1]، فقبيصة بهذا كان وزيرًا لعبد الملك ومستشارًا له وساعده الأيمن فى إدارة الدولة وتصريف شئونها، وكان ملازمًا له فى سفره وإقامته[2].

ب- موقف قبيصة من محاولة عبد الملك خلع أخيه عبد العزيز: كان مروان بن الحكم قد عقد ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز[3]، وبعد وفاة مروان تمت البيعة بالخلافة لعبد الملك وبولاية العهد لأخيه عبد العزيز بن مروان من قبل المؤيدين لبنى أمية، ثم تأكدت تلك البيعة من الأمة بعد مقتل ابن الزبير ونهاية سلطانه، ولكن عبد الملك بعدما استقرت له الأمور، وتذوق حلاوة الملك فى دنياه ورغب فى استمرار الذكر له بعد الوفاة، لاسيما وقد رأى أن كلاً من ابنيه الوليد وسليمان قد بلغ من الرشد مبلغه، وتحركت فيه عاطفة الأبوة تجاههما، وأحب أن يصرف ولاية العهد من بعده لهما دون أخيه عبد العزيز، وكان قد عزم على ذلك إلا أن قبيصة بن ذؤيب نهاه عن ذلك.

فقد أورد ابن سعد هذا الخبر: قالوا: كان عبد الملك بن مروان قد همّ أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان ويعقد لابنيه الوليد وسليمان بعده بالخلافة، فنهاه قبيصة بن ذؤيب وقال: لا تفعل هذا، فإنك تبعث عليك صوتًا نعارًا[4]، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه أن يخلعه، فدخل عليه ليلة روح بن زنباع الجذامى وكان يبيت عند عبد الملك، وكان أحلى الناس كلامًا عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطحت فيه عنزان، قال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: أى والله وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصبح إن شاء الله، فبينما هو على ذلك، وقد نام عبد الملك بن مروان وروح بن زنباع إلى جنبه إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب.. فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين فى أخيك. فقال: فهل توفى؟ قال: نعم. فاسترجع عبد الملك بن مروان ثم أقبل على روح فقال: أبا زرعة كفانا الله ما كنا نريد وما أجمعنا عليه[5].

ومن خلال هذا الموقف لقبيصة يمكن أن نستشف منهجه فى التعامل مع عبد الملك كمشير ووزير، ويتمثل ذلك المنهج فى صدقه فى النصيحة، ومراعاة المصلحة العامة للأمة والدولة، فهو لم يجامل عبد الملك بموافقته له فيما يوده ويهواه، بل دفعه إخلاصه لله

(1) الطبقات الكبرى (5/234).
(2) المصدر نفسه (5/230).
(3) تاريخ خليفة صـ261.
(4) النعار: العاصى والخرّاج السعّاء فى الفتن.
(5) الطبقات الكبرى (5/233، 234).

وتقديره لمصلحة الأمة بعامة، والبيت الأموى بخاصة أن يقول رأيه بصراحة، وإن كان يعلم أنه يخالف ما فى نفس عبد الملك ويضاد رغباته وعواطفه تجاه بنيه[1].

ج ـ موقفه من محنة الإمام الجليل سعيد بن المسيب: بعد وفاة عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك البيعة من بعده لابنيه الوليد وسليمان، وبعث إلى البلدان لأخذ البيعة لهما، ففى المدينة دعا واليها هشام بن إسماعيل المخزومى الناس إلى البيعة فبايعوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: أنظر، فضربه هشام وطاف به ثم سجنه، وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل[2]. وكانت الرسائل تصل إلى قبيصة بن ذؤيب ويقرؤها قبل عبد الملك، فلما وصل كتاب هشام واطلع على ما فيه كان له موقف من تصرف هشام مع سعيد بن المسيب يصور لنا ابن سعد هذا الموقف: . . . دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيدًا وطاف به، قال قبيصة: يا أمير المؤمنين يفتات عليك هشام بمثل هذا؟ يضرب ابن المسيب ويطوف به؟ والله لا يكون سعيد أبدًا أمحل وألج[3] منه حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه؟ ما سعيد مما يخاف فتقه ولا غوائله على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة. وقال قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين فى ذلك. فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عنى تخبره برأيى فيه ومخالفتى من ضرب هشام إياه. فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك. فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بينى وبين من ظلمنى[4]، وكتب إلى والى المدينة كتابًا باسم عبد الملك: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف[5]. ويتضح من هذا أثر قبيصة الكبير فى صياغة موقف عبد الملك وقراره فى مثل هذه القضايا المهمة والخطيرة، كما يظهر أثره الفعال فى إطفاء الفتن وحسن معالجته لها معالجة تنم عن بعد نظره، ومعرفته بعواقب الأمور من منطلق إرضاء الله أولاً، ثم الحرص على مصلحة الأمة والدولة ثانية[6].

د ـ محاولته إصلاح بطانة عبد الملك: كانت له محاولات تستهدف إصلاح بطانة عبد الملك، وذلك بتقريب العلماء له وجعلهم ضمن جلسائه، ليكثر بذلك سوادهم عنده ويكون

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٣٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٠)، الطبقات (٥/ ١٢٦) .
(٣) المحل: المكر والكيد، وماحله مماحلة ومحالاً: قاومه حتى تبين أيهما أشد. واللجاجة: الخصومة.
(٤) الطبقات (٥/ ١٢٦، ١٢٧) . (٥) المصدر نفسه (٥/ ١٢٦)، أثر العلماء صـ١٤٠ .
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٤١.

تأثيرهم أقوى وأنفع، ومن ذلك محاولته تقريب الإمام الزهرى إلى عبد الملك، فتشير بعض الروايات التى ذكرت صلة الزهرى بعبد الملك أن الزهرى خـرج من المدينة لما اشتد به ضيق ذات اليد، وساءت أحوال أهله، وليس له مـورد فرحل إلى الشام، وذكرت بعض الروايات أنه اتصل بقبيـصة وجالسه مدة قبل اتصـاله بعبد الملك(١)، وقد أكرم قبـيصة الزهرى وقال له: ائتنى فى المنـزل، فلحق به الزهرى، فلمـا بلغ منزله كـسـاه ومنحـه بغلة ومـائة دينار وغلامًا(٢)، وعمل على تعريف عبد الملك بمكانة الزهرى العلمـية حتى أصبح من أصحابه وفرض له العطاء، وتوطدت الـعلاقة بين الزهرى وعـبد الملك، وتكرر الدخول على عـبد الملك بانتظام شـأنه شأن أصحـابه وجلسائه، ولكن حرص الزهرى علـى العودة إلى المدينة لمواصلة طلب العلم وتولى مؤونة أهله وذويه جعـله يرحل وينقطع عن عبد الملك، فكانت صلته هذه على يد قبيصة بداية اتصال الزهرى بخلفاء بنى أمية بعد عبد الملك(٣)، وقد قال ابن سعد فى أثر قبيصة لتقريب الزهرى لبنى أمية بقوله: وهو الذى أدخل الزهرى على عبد الملك بن مروان ففرض له ووصله وصار من أصحابه(٤). وكان هذا من قبيصة حرصًا على مصلحة الزهرى، كما كان همه إصـلاح بطانة عبد الملك وتكثير سواد أهل العلم والصلاح فى بلاطه مما سيكون له أثر فى توجيـه سياسة الدولة نحو الأصلح بالتأثيـر على عبد الملك من قبل جلسائه وبطانته(٥).

وقال الذهبى عن قبيصة: الإمام الكبير، الفقيه، أبو سـعيد الخزاعى، وعن الشعبى قال: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة. وعن مكحول قال: ما رأيت أحـدًا أعلم من قبيصة. وقد توفى سنة ٨٦ هـ، وقيل: ٨٧ هـ، وقيل: ٨٨ هـ(٦).

٢ـ عطاء بن أبى رباح ونصيحته لعبـد الملك: دخل عطاء بن أبى رباح على عـبد الملك، وهو جالس على السرير وحوله الأشراف وذلك بمكة فى وقت حجه فى خلافته، فلما بَصُر به عبـد الملك قام إليه فـسلم عليه وأجلسـه معه على السـرير وقعد بيـن يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمـير المؤمنين اتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الـله فى أهل الثـغور فـإنهم حـصن المسلمـين، وتفـقد أمـور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٩).
(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٤٣.
(٤) الطبقات (٧/٤٤٧).
(٥) أثر العلماء صـ١٤٣.
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/٢٣٨، ٢٨٢).

بابك. فقال له: أفعل، ثم نهض، وقام فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال: ما لى إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد(1) . وكان بنو أمية فى عهدهم يأمرون مناديًا يصيح فى الحج: لا يُفتى الناس إلا عطاء بن رباح، فإن لم يكن عطاء، فعبد الله بن أبى نجيح(2)، وقد فاق عطاء أهل مكة فى الفتوى(3)، وكان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة(4)، وكان معاشه صلة الإخوان ونيل السلطان(5).

ومن أقوال عطاء: إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو أن تنطق فى معيشتك التى لابد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين، كرامًا كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحى أحدكم لو نشرت صحيفته التى أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته(6)، وعن عطاء: إن الرجل ليحدثنى بالحديث، فأُنصتُ له كأنى لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد(7). وعطاء هذا الذى كان مرجع الأمة فى موسم الحج كان أسود أعرج، أفطس، أعور، ثم أعمى، من الموالى. فهذا الذى تجمعت فيه كل العاهات الجسدية جعلته الحضارة الإسلامية رأس الفتوى فى أقدس بقعة عند المسلمين فى مكة، فضلاً عن كونه من أشهر علماء الحجاز الذين يستقطبون طلبة العلم من مختلف أرجاء المعمورة(8).

٣ ـ يزيد بن الأصم وإجابته لعبد الملك: سأل عبد الملك يزيد بن الأصم عن معنى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] فأجاب بكل صراحة بقوله: التجبر فى الأرض، والأخذ بغير الحق ـ أى من العلو والفساد فى الأرض ـ فنكس عبد الملك برأسه، وجعل ينكت فى الأرض، وكان إطراق عبد الملك وتنكيسه لرأسه حياء من يزيد لإدراكه أنه المعنى لذلك بالتوجيه(9).

ثانيًا: عبد الملك والشعر والشعراء:

كان عبد الملك بن مروان راويًا للشعر ناقدًا له، كثير الاستشهاد به فى كثير من المناسبات، يكثر من الأسئلة والمحاورة منه فى مجلسه، فضلاً عن اهتمامه بمعانيه، كما كان يعلم خطورته فى التأثير الإعلامى فى كسب الأنصار والهجوم على خصومه، ولذلك اهتم

(1) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٤، ٨٥).
(2)، (3) المصدر نفسه (٥/ ٨٢).
(4)، (5) المصدر نفسه (٥/ ٨٤) .
(6)، (7) المصدر نفسه (٥/ ٨٦) .
(8) رعاية الفئات الخاصة ص ٩ .
(9) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٢٧٥.

بالشعراء اهتمامًا كبيرًا ووظفهم لمدحه ودولته وبنى أمية، ولم يبخل عليهم بالعطاء، ولذلك كان كبار شعراء عصره من الأمويين مثل الأخطل، والفرزدق، وجرير، وغيرهم، كما أنه عمل على كسب خصومه حتى إنهم مدحوه بعد أن هجموا عليه بقصائد قوية فى سبه وذمه مثل عبيد الله الرقيات، وإليك شيئًا من شعر شعراء الدولة الأموية:

١- الأخطل: هو غياث بن غوث التغلبى النصرانى، شاعر زمانه، وقد قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بى إذا افتخرت، وبجرير إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح[(١)]، وكان عبد الملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل، ويفضله فى الشعر على غيره[(٢)]، فقد كان شاعر الدولة الرسمى الذى أكثر من مدح خلفائها، والدعاية لها، والترويج لسادتها نحو ربع قرن[(٣)]، ومن مدحه فى بنى أمية:

تمت جدودهم والله فضلهم ... وجد قوم سواهم خامل نكد
وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عدت الأحساب والعدد[(٤)]

ومن شعره المتميز فى بنى أمية قوله:

حشدٌ على الحق عيَّافو الخنا أُنُفٌ ... إذا ألَمَّت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلامًا إذا قدروا[(٥)]

وكان كثير المديح لعبد الملك والتنويه بصلاح السياسة فى عهده كقوله:

إلى إمام تغدينا فواضله ... أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يستقى به الله المطر
والمستمر به أمر الجميع فما ... يغتره بعد توكيد له غرر
نفسى فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجز يومًا عارم ذكر[(٦)]

وعرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل، حتى لقد قالوا إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتًا، ثم يضرب عن ستين ويبقى ثلاثين، وهذا هو السبب فى جودة تعبيره، وندرة

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/٥٨٩).
(٣) أدب السياسة فى العصر الأموى صـ٤٩٢.
(٤) ديوان الأخطل صـ١٧٤.
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٩٥).
(٦) عارم ذكر: نكبة شديدة وأذى مهلك، أدب السياسة صـ٥٠٠.

سقطه، وهو بهذا يشبه المنقحين القدماء، مثل زهير والحطيئة وأضرابهما، مما سماهم الأصمعى عبيد الشعر[1]. ومن أحسن ما قال من الشعر قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خبال

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال[2]

٢ ـ الفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن مجاشع[3]، وكان ممن مدح بنى أمية، وقال فى عبد الملك بن مروان:

فالأرض لله ولاّها خليفته ... وصاحب الله فيها غير مغلوب

بعد الفساد الذى قد كان قام به ... كذاب مكة من مكر وتخريب

راموا الخلافة فى غدر فأخطأهم ... منها صدور وفازوا بالعراقيب

والناس فى فتنة عمياء قد تركت ... أشرافهم بين مقتول ومحروب

دعوا ليستخلف الرحمن خيرهم ... والله يسمع دعوى كل مكروب

فأصبح الله ولّى الأمر خيرهم ... بعد اختلاف وصدع غير مشعوب

تراث عثمان كانوا الأولياء به ... سربال ملك عليهم غير مسلوب[4]

وكان للفرزدق أخٌ شاعر وهو هميم وهو القائل:

لعمر أبيك فلا تكذبن ... لقد ذهب الخير إلا قليلا

وقد فتن الناس فى دينهم ... وخلّى ابن عفان شراً طويلا[5]

٣ ـ جرير: هو جرير بن عطية بن الخطفى التميمى البصرى مدح خلفاء بنى أمية، وشعره مدون[6]، وقد مدح عبد الملك ووصفه بأنه ركن الدين، والحفيظ على أحكام الشرع، ولولاه ما اجتمع المسلمون فى صلواتهم فى المساجد فى الجمع، ثم يصفه بأنه أمين الله، والمبارك الذى يهدى به الله عباده، ويقول: إن أوامره ميمونة مطاعة، وإن الله فضل بنى أمية على غيرهم من أهل البدع، يريد الأحزاب المعادية لبنى أمية[7]، حيث قال:

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى صـ١٥٠.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٠).

(٣) الشعر والشعراء (١/ ٤٧١).

(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى صـ ١٤٩، الديوان (١/ ٣٥).

(٥) الشعر والشعراء (١/ ٤٧٢).

(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩١).

(٧) أدب السياسة فى العصر الأموى صـ١٤٧، ١٤٨.

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ... ما قام للناس أحكام ولا جُمَع

أنت الأمين أمين الله لا سرف ... فيما وليت ولا هيابة ورع[1]

أنت المبارك يهدى الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

فكل امرئ على يمن أمرت به ... فينا مطاع ومهما قلت يستمع

يا آل مروان إن الله فضلكم ... فضلاً عظيمًا على من دينه البدع[2]

ومدح عبد الملك بقصيدة جاء فيها:

سأشكر إن رددت على ريشى ... وأنبت القوادم من جناحى

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فقال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت، ووهبه مائة ناقة، فسأله الرعاء، فوهبه ثمانية أعبد، ورأى صحاف ذهب بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين والمحلب[3]، وأشار إليها، فنحاها إليه بالقضيب وقال: خذها لانفعتك[4]. وكان فى جرير على هجائه للناس عفة ودين، وحسن خلق، ورقة طبع، اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر، على أنه لم يوجد فى الشعراء الذين نشأوا فى ملك بنى أمية أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل، وإنما اختلفوا فى أيهم أشعر[5].

وإن لجرير فى كل باب من الشعر أبياتًا سائرة، هى الغاية التى يضرب بها المثل:

أ ـ فيقال إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله: .

إن العيون التى فى طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

ب ـ أفخر بيت قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... رأيت الناس كلهم غضابا

جـ ـ أهجى بيت مع التصون عن الفحش قوله:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

(1) سرف: متجاوز الحد. ورع: جبان.

(2) ديوان جرير صـ355.

(3) المحلب: الإناء.

(4) شذرات الذهب (2/57).

(5) جواهر الأدب (2/151).

د ـ أصدق بيت قوله:

إنى لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل

هـ ـ أشد بيت تهكمًا قوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا أبشر بطول سلامة يا مربع[1]

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثى به امرأته:

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتُّع نظرة فى اللحد حيث تمكن الإحفار
ولّهْتِ قلبى إذ علتنى كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكرُّ عليهم ونهار[2]
صلى الملائكة الذين تخيَّروا والطيّبون عليكِ والأبرار
فلقد أراكِ كسيت أحسن منظر ومع الجمال سكينة ووقار
كانت إذا هجر الحبيبُ فراشَها خُزِنَ الحديث وعَفَّتِ الأسرار[3]

وكان قد افتخر على الأخطل فى قصيدة، وبيَّن أن عبد الملك ابن عمه، ولو شاء ساق إليه قبيلة الأخطل حيث قال:

إن الذى حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
هل تملكون من المشاعر مشعرا أو تشهدون مع الأذان أذينا؟
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم يا خُزرَ تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلىَّ قطينا[4]

قال الذهبى عن جرير: كان عفيفًا منيبًا توفى ١١٠هـ بعد الفرزدق بشهر[5].

٤ ـ الراعى: من كبار الشعراء هو أبو جندل، عبيد بن حصين النُّميرى، وإنما لقب بالراعى لكثرة ما يصف الإبل فى شعره، وقد امتدح عبد الملك[6]، وانضم إلى الفرزدق على جرير، فقال فيه جرير قصيدته المشهورة التى صارت وبالاً على بنى نمير:

(١)، (٢)، جواهر الأدب (٢/ ١٥١).
(٣) الشعر والشعراء (١/ ٤٩١).
(٤) القطين: العبيد والإماء فى هذا الموضع.
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩١).
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٥٩٨).

أقلى اللوم عاذل والعتابا ... وقولى إن أصبت لقد أصابا

وفيها يقول له:

فغض الطرف إنك من نُمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وأهم ما بقى للراعى لاميته التى مدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو له العريف أو الجابى، ويرجو التخفيف عن قومه، ويتبرأ من الخوارج النجدية والزبيريين، ويعد نفسه بذلك مخلصًا للأمويين[1]، ويبدو أن الراعى كان أمويًا لأجل قومه، ورغبة فى عبد الملك أن يرفع عن قومه ظلم الجباة، ومن شعر الراعى لعبد الملك:

إنّى حلفت على يمين برَّة ... لا أكذب اليوم الخليفة قيلا

ما إن أتيت نُجيدة بن عويمر ... أبغى الهدى فيزيدنى تضليلا[2]

إلى أن قال فى رواية أخرى:

أخليفة الرحمن إنا معشر ... حُنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عُربٌ نرى لله فى أموالنا ... حق الزكاة منزلاً تنزيلا

إن السُّعاة عصوك يوم أمرتهم ... وأتوا دواهى لو علمت وغُولا[3]

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه ... بالأصبحية قائمًا مغلولا[4]

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا

فادفع مظالم عيَّلَت أبناءنا ... عنا وأنقِذْ شِلْونا المأكولا[5]

هؤلاء من أشهر شعراء عهد عبد الملك وكان يهتم بهم ويسمع لهم ويجزل لهم فى العطاء، وكسبهم فى صفه، وأصبحوا من أبرز المدافعين عن الخليفة ودولته، وكان لا يتورع عن دفع الأموال للشعراء ما داموا يمدحون ويبجلون خلفاء بنى أمية.

(١) تاريخ الشعر السياسى صـ٣٧١ .

(٢) طبقات فحول الشعراء (٢/٥٠٨) .

(٣) الغول: الهلكة والداهية .

(٤) العريف: شيخ القبيلة. حيزومه: وسطه. الأصبحية: جمع أصبحى وهو السوط نسبة إلى ذى أصبح، وهو ملك يمنى .

(٥) عيلت: أجاعت . شلو: عضو. أدب السياسة فى العصر الأموى صـ١٧٢ .

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه

الفصل الخامس

عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان

الفصل السادس

عهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

الفصل السابع

عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان دون الفتوحات

المؤلف فى سطور

على محمد محمد الصَّلاَّبى

ـ ولد فى مدينة بنغازى بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م.

ـ حصل على درجة الإجازة العالية «الليسانس» من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز وكان الأول على دفعته عام ١٤١٣/١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٢/١٩٩٣م.

ـ نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

ـ نال درجة الدكتوراه فى الدراسات الإسلامية بمؤلفه فقه التمكين فى القرآن الكريم. جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

ـ صدرت له عدة كتب:

١ ـ عقيدة المسلمين فى صفات رب العالمين.

٢ ـ الوسطية فى القرآن الكريم.

سلسلة«صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى».

٣ ـ صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى.

٤ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٥ ـ الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية.

٦ ـ فقه التمكين عند دولة المرابطين.

٧ ـ دولة الموحدين.

٨ ـ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط.

٩ ـ فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

١٠ـفكر الخوارج والشيعة فى ميزان أهل السنة والجماعة.

١١ـ الحركة السنوسية فى ليبيا.

(أ) الإمام محمد بن على السنوسى ومنهجه فى التأسيس.

(ب) محمد المهدى السنوسى، وأحمد الشريف.

(جـ) إدريس السنوسى، وعمر مختار.

١٢ـفقه التمكين فى القرآن الكريم.

١٣ـ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

١٤ـ الانشراح ورفع الضيق فى سيرة أبى بكر الصديق، وشخصيته وعصره.

١٥ـ فصل الخطاب فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. .

١٦ـ تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان بن عفان شخصيته وعصره.

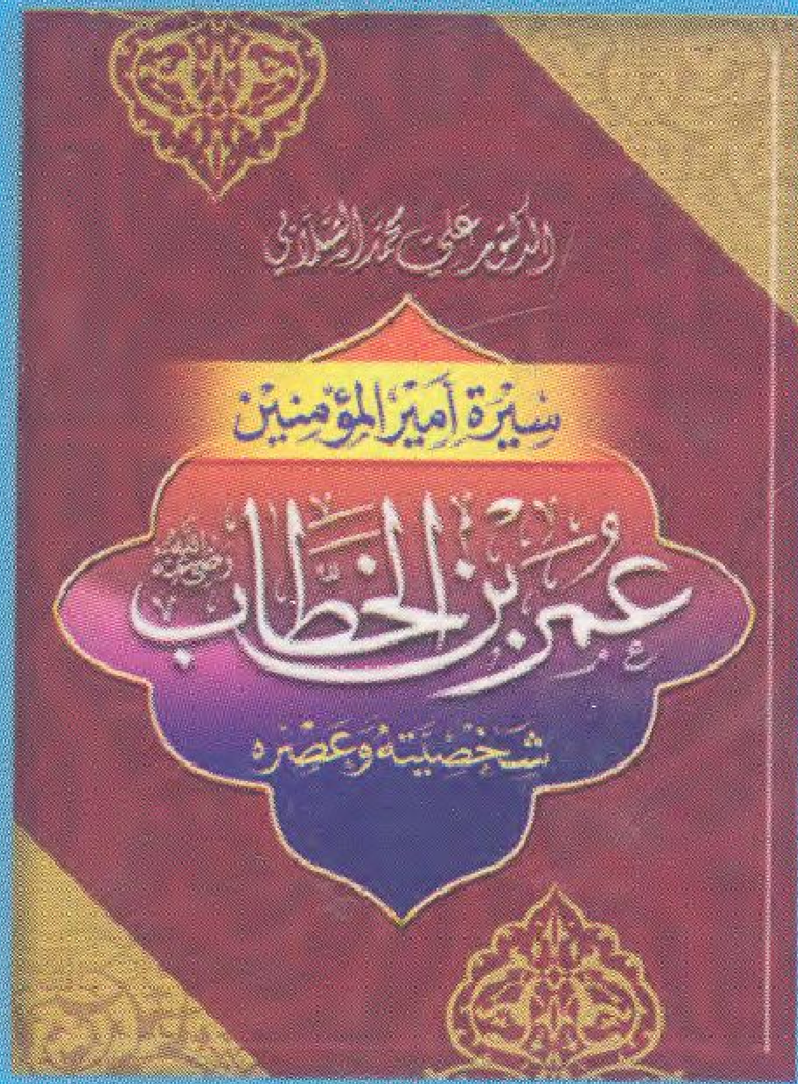
١٧ـأسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب شخصيته وعصره.

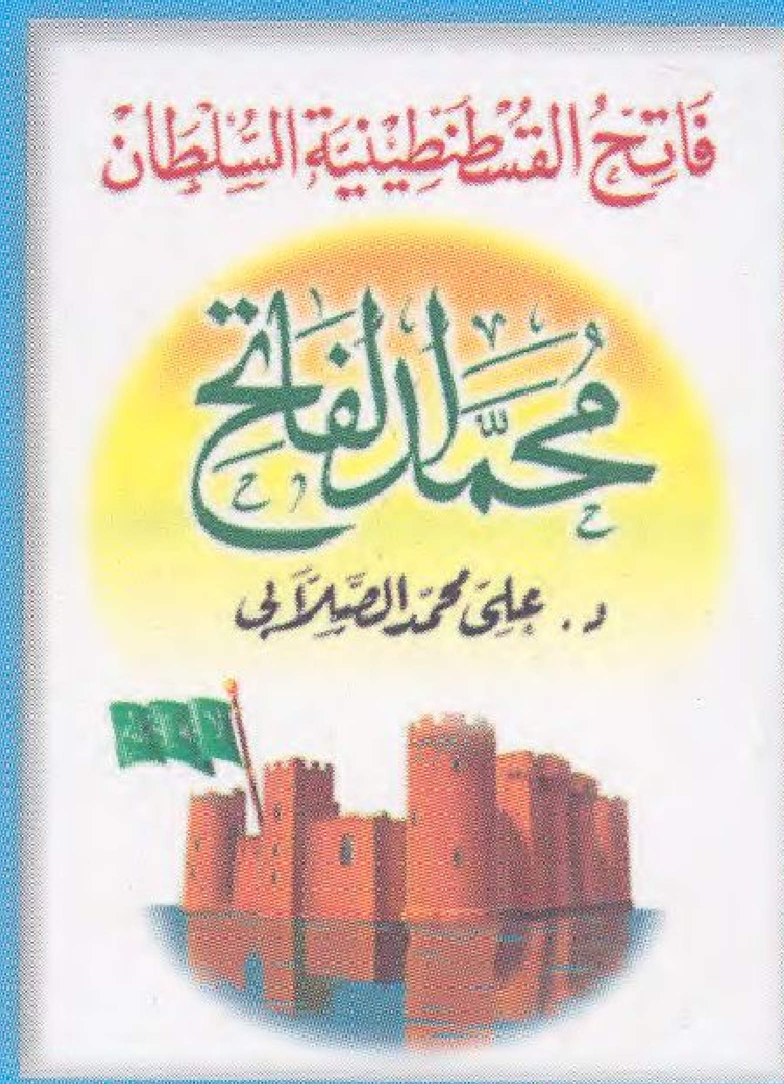
١٨ـ سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب: شخصيته وعصره.

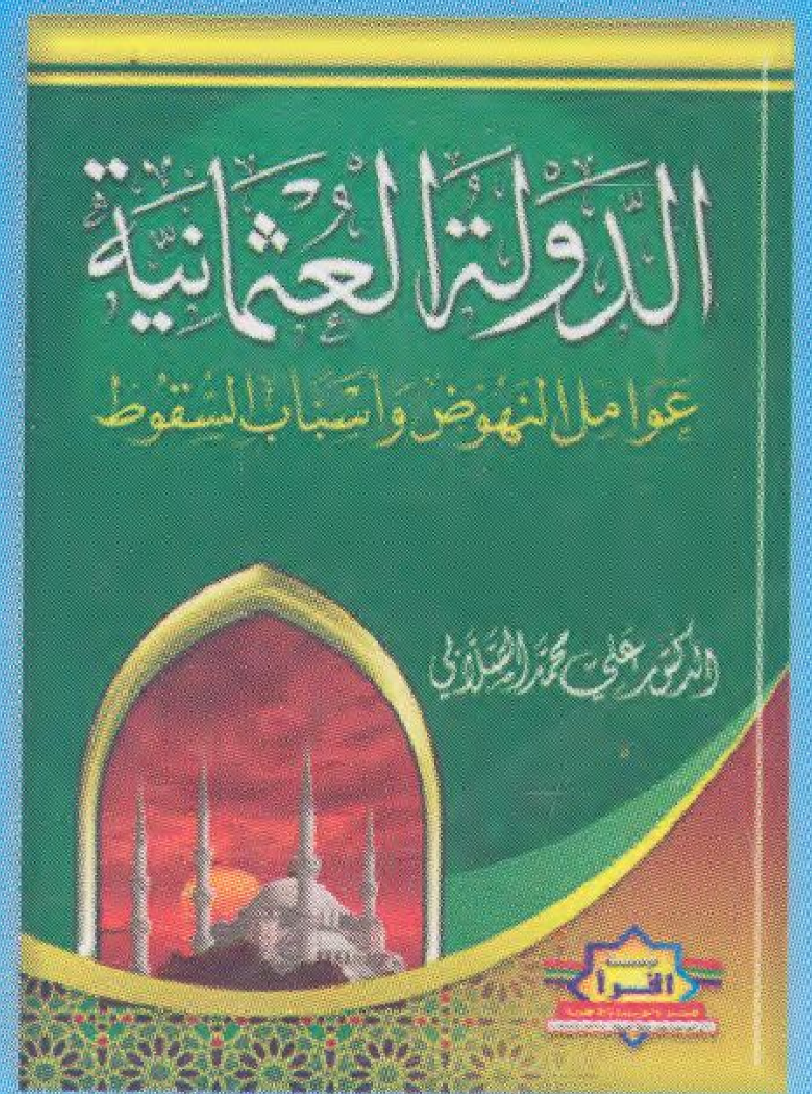
١٩ـ الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

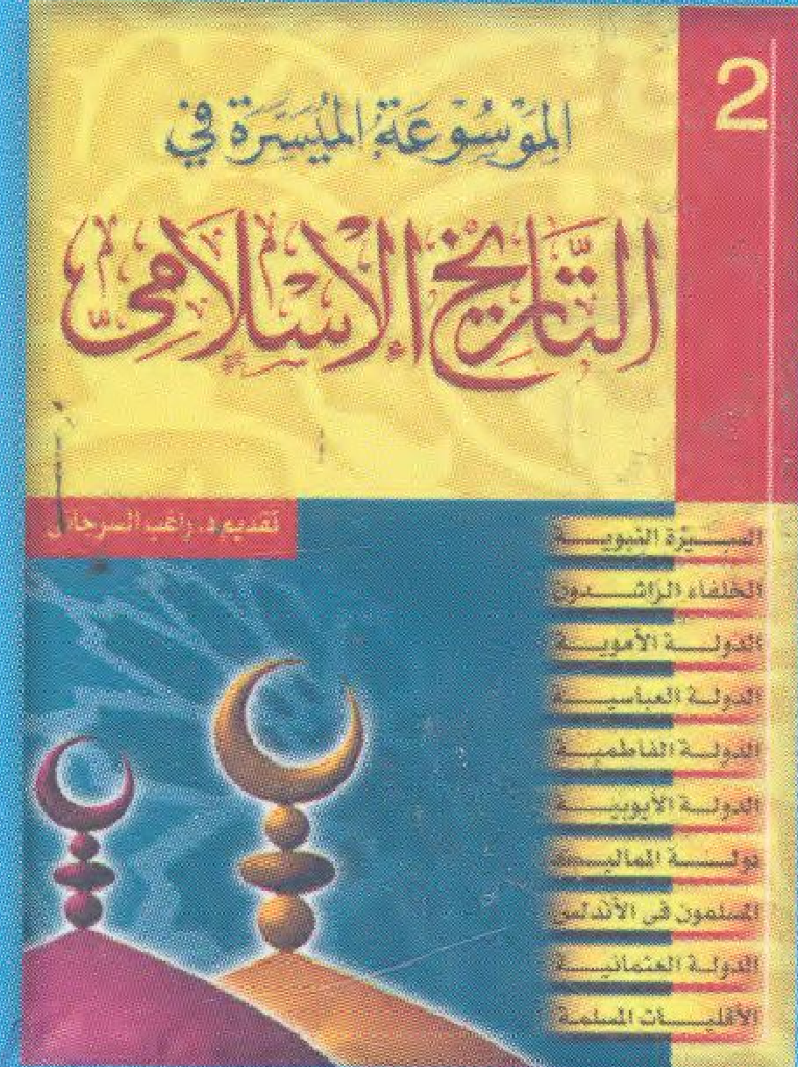
٢٠ـمعاوية بن أبى سفيان، شخصيته وعصره.

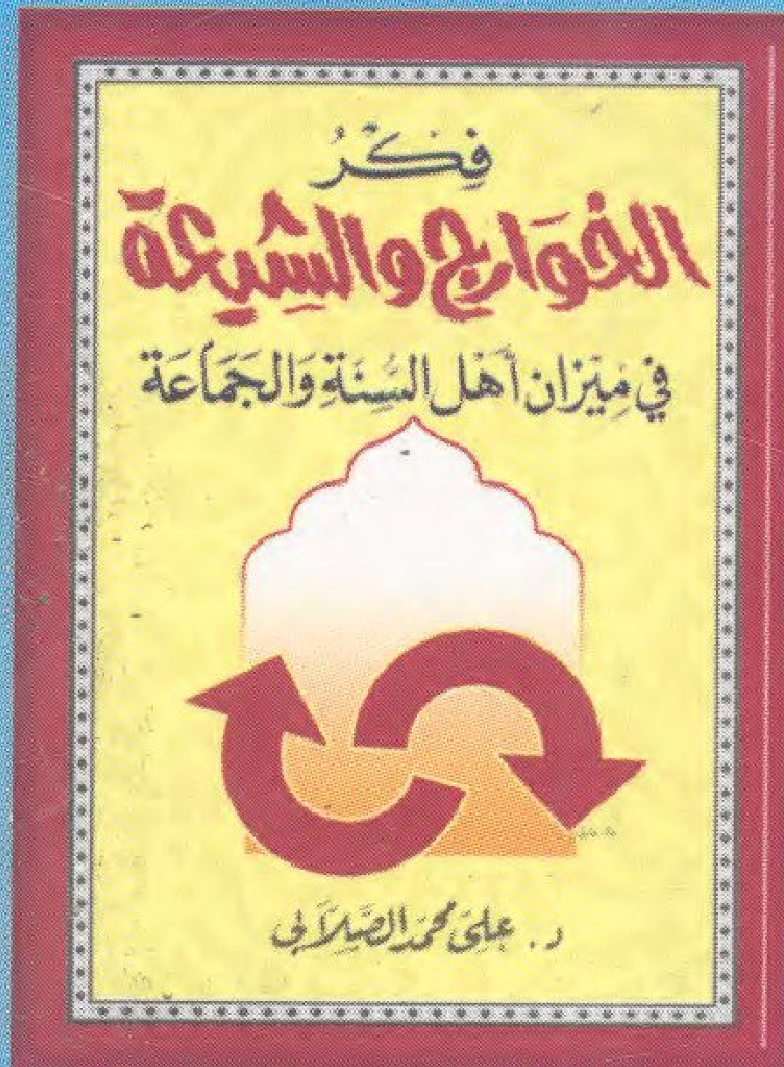
٢١ـ عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدى على منهاج النبوة.

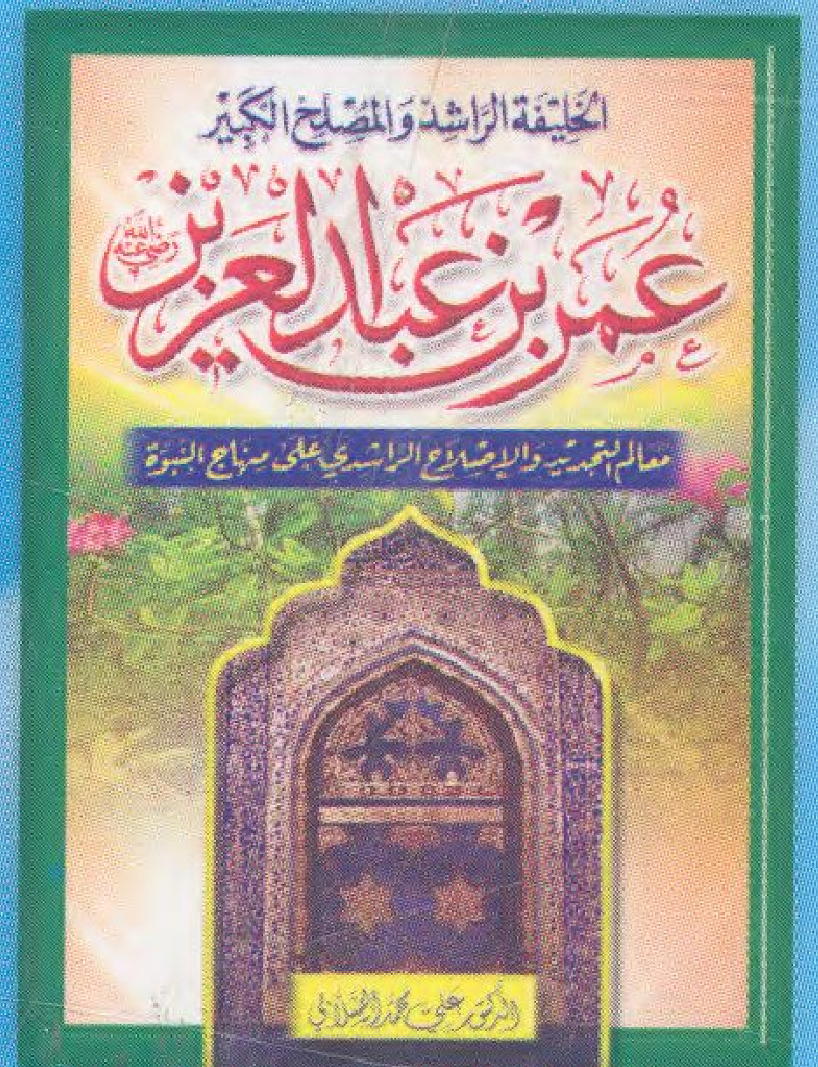












من إصداراتنا

